المختار من

تاريخ الجبرتي

محمد قنديل البقلي

دار الشعب

وأخذ ذلك المكتوب طاهر باشا (١) ، وأودعه فى جيبه ثم قال الحاضرون : « فما يكون الجواب؟ ». قال : « حتى نتروى فى ذلك » . ثم كتب لهم جوابا يخبرهم فيه بما وقع ، ويأمرهم بأنهم يحضرون بالقرب من مصر لربما اقتضى الحال الى المعاونة .

الاثنين ١٧ منه (٩ مايو ١٨٠٣ م) :

كتبوا العرض المحضر بصورة ما وقع ، وختم عليه المشايخ والوجاقلية ، وأرسلوه الى

---

(١) انتهز طاهر باشا هذه الفرصة ليجتذب اليه المماليك ، وكتب لهم يدعوهم الى الحضور والاقتراب من القاهرة .. وظهرت للمشايخ فى هذا التعيين سلطة رسمية ، وان كانت فى الواقع اسمية ، لان طاهر باشا انما وصل الى قائمقاميته بحد السيف... لكن مجرد استشعاره بضرورة اتفاق العلماء على اختياره ، هو تسليم منه بان لهم شأنا فى حل الازمات . كما ان تدخلهم فى الوساطة بين البكوات المماليك والوالى اكسبهم نفوذا على الفريقين ، ومساعيهم فى رفع المظالم اعلت مكانتهم ، وزادت فى التفاف الناس حولهم .

وقد كان للعلماء مقام محمود فى مقاومة المظالم التى ارتكبها طاهر باشا . فان اول عمل له ان القى القبض على جماعة من كبار الموظفين والاعيان بحجة انهم من انصار خسرو باشا ، منهم : السيد احمد المحروقى كبير التجار ، ورئيس الانكشارية ، وكاتب خزانة خسرو باشا ، ومصطفى الوكيل وغيرهم ، وسجنهم فى القلعة . فتدخل المشايخ ووصلوا الى اطلاق سراح السيد احمد المحروقى . فنزل من القلعة فى اليوم التالى لاعتقاله . وتدخل السادات للافراج عن مصطفى الوكيل واخذه معه الى بيته ، وكان ذلك يوم الجمعة ٢١ محرم ١٢١٨ (١٣ مايو ١٨٠٣) .

فلما كان يوم الاحد ارسل طاهر باشا يطلب مصطفى الوكيل من عند الشيخ السادات ، فذهب به السادات الى طاهر باشا ليحميه من بطشه . فلما رآه الجنود اعادوا القبض عليه ثانية ، وأخذوه الى القلعة . فحنق السيد السادات من هذا الظلم ، ودخل على طاهر باشا ، واعترضه اعتراضا شديدا ، فاطلعه طاهر باشا على خطاب مرسل الى مصطفى الوكيل من خسرو باشا ليبرهن له على أنه موال لخسرو ، وأن اعتقاله واجب . فقال السادات : ان هذا لا يؤاخذ به وانما يؤاخذ اذا كان المكتوب منه الى خسرو باشا . وكان طاهر باشا مصمما على قتله ، فانتهى الامر على الا يقتله ، وأن يبقى ببيت السادات مشمولا بحمايته . وخشى طاهر باشا من تغير خاطر السادات بسبب هذه الحادثة فذهب اليه فى بيته يسترضيه .

ومن مظالم طاهر باشا انه امر بقتل المعلم سلطى من كبار الكتبة الاقباط - وهو الذى كان متوليا القضاء فى زمن الفرنسيس - وامر كذلك بقتل المعلم حنا الصبحانى احد التجار السوريين ، (وبلا نزاع أن سبب قتلهما الطمع فى أموالهما)

على أن طاهر باشا لم يدم له الأمر . فقد اشتهر بالظلم والجبروت ، وأطلق لجنوده الالبانيين عنان السلب والنهب ، وضرب الغرامات الفادحة على التجار .

(عبد الرحمن الرافعى - تاريخ الحركة القومية جـ ٢ ص ٢٣٧)

اسلامبول . وأما محمد باشا (١) المهزوم ، فانه لم يزل فى سيره حتى وصل الى المنصورة ، وفرد على أهلها تسعين ألف ريال ، وكذلك فرد على ما أمكنه من بلاد الدقهلية والغربية فردا ومظالم وكلفا وصادف فى طريقه بعض المعينين حاضرين بمبالغ الفردة السابقة فأخذها منهم .

الثلاثاء ١٨ منه (١٠ مايو ١٨٠٣ م) :

أرسل طاهر باشا عدة من العسكر ، فقبضوا على جماعة من بيوتهم وهم : أغات الانكشارية ، ومصطفى كتخدا الرزاز ، ومصطفى آغا الوكيل ، وأيوب كتخدا الفلاح ، وأحمد كتخدا على ، والسيد أحمد المحروقى ، وخليل افندى كاتب خزنة محمد باشا . وأطلعوهم الى القلعة ، وأصبح الناس يتحدثون بذلك .

ثم ان جماعة من الفقهاء سعوا الى السيد أحمد المحروقى ، فأنزلوه الى بيته فى ثانى يوم ، وعملوا عليه ستمائة كيس ، ولزم العسكر بيته ، وكذلك بقية الجماعة ، منهم من عمل عليه مائتا كيس وأقل وأكثر . وأقاموا فى الترسيم .

الجمعة ٢١ منه (١٣ مايو ١٨٠٣ م) :

ركب طاهر باشا بالموكب والملازمين ، وصلى الجمعة بجامع الحسين .

وفيه : وردت الأخبار بأن الأمراء المصرية رجعوا الى قبلى ، ووصلوا الى قرب بنى سويف .

وفيه : تشفع الشيخ السادات فى مصطفى أغا

---

(١) لم يسع خسرو باشا الا أن يلوذ بالهرب . وفر هو وعائلته وحاشيته وبقية من جنوده ، وخرج من المدينة ، وقصد الى قليوب فالمنصورة فدمياط ، واستقر بها ، واخذ يستعد لاسترجاع ولايته . ومن غريب أمره أنه - وهو فى محنته وفى فراره - ضرب الضرائب على البلاد التى مر بها ، واخذ من الاموال ما استطاع نهبه .

وبفرار خسرو باشا انتهت ولايته الفعلية ، فكانت [illegible] لها سنة وثلاثة [illegible] وواحدا وعشرين يوما .

(عبد الرحمن الرافعى - تاريخ الحركة القومية [illegible] ص ٢٣٧)

رقم التصنيف ....
رقم التسجيل ٢٧٢٨٥/٢

وكلما طلب الانكشارية شيئا من جماكيهم ، قال لهم : « ليس لكم عندى شيء ، ولا أعطيكم الا من وقت ولاتى .. فان كان لكم شيء ، فاذهبوا وخذوه من محمد باشا » . فضاق خناقهم وأوغر صدورهم ، وبيتوا أمرهم مع أحمد باشا والى المدينة .

فلما كان فى هذا اليوم : ركب الجماعة المذكورون من جامع الظاهر ، وهم نحو المائتين وخمسين نفرا ، بعددهم وأسلحتهم — كما هى عادتهم — وخلفهم كبراؤهم وهم : اسماعيل أغا ومعه آخر يقال له موسى أغا وآخر . فذهبوا على طاهر باشا ، وسألوه فى جماكيهم فقال لهم : « ليس لكم عندى الا من وقت ولايتى ، وان كان لكم شيء مكسور فهو مطلوب لكم من باشتكم محمد باشا » . فألحوا عليه .. فنتر فيهم .. فعاجلوه بالحسام ، وضربه أحدهم ، فطير رأسه ، ورماها من الشباك الى الحوش !

وسحبت طوائفهم الأسلحة ، وهاجوا فى أتباعه . فقتل منهم جماعة ، واشتعلت النار فى الأسلحة والبارود الذى فى أماكن أتباعه . فوقع الحريق والنهب فى الدار ، ووقع فى الناس كرشات . وخرجت العساكر الانكشارية وبأيديهم السيوف المسلولة ، ومعهم ما خطفوه من النهب !

فانزعجت الناس ، وأغلقوا الأسواق والدكاكين ، وهربوا الى الدور ، وأغلقوا الأبواب ، وهم لا يعلمون ما الخبر !

وبعد ساعة ، شاع الخبر ، وشق الوالى والأغا ينادون بالأمن والأمان حسب ما رسم أحمد باشا ، وكرروا المناداة بذلك .

ثم نادوا باجتماع الانكشارية البلدية وخلافهم عند أحمد باشا على طائفة الأرنؤود ، وقتلهم واخراجهم من المدينة . فتحزبوا أحزابا ، ومشوا طوائف طوائف . وتجمع الأرنؤود جهة الأزبكية وفى بيوتهم الساكنين فيها . وصار الانكشارية اذا ظفروا بأحد من الأرنؤود ، أخذوا سلاحه ، وربما قتلوه . وكذلك الأرنؤود يفعلون معهم مثل ذلك .

هـذا .. والنهب والحريق عمال فى بيت طاهر باشا ، وفرج الله عن المعتقلين والمحبوسين ، على المغارم والمصادرات .

وبقيت جثة طاهر باشا مرمية لم يلتفت اليها أحد ، ولم يجسر أحد من أتباعه على الدخول الى البيت واخراجها ودفنها . وزالت دولته ، وانقضت سلطنته فى لحظة !

فكانت مدة غلبته ستة وعشرين يوما . ولو طال عمره زيادة على ذلك ، لأهلك الحرث والنسل !

وكان صفته : أسمر اللون ، نحيف البدن ، أسود اللحية ، قليل الكلام بالتركى ... فضلا عن العربى ، ويغلب عليه لغة الأرنؤودية ، وفيه هوس وانسلاب ، وميل للمسلوبين والمجاذيب والدراويش وعمل له خلوة بالشيخونية ، وكان يبيت فيها كثيرا ، ويصعد مع الشيخ عبد الله الكردى الى السطح فى الليل ، ويذكر معه . ثم سكن هناك بحريمه . وقد كان تزوج بامرأة من نساء الأمراء ، وكان يجتمع عنده أشكال مختلفة الصور ... فيذكر معهم ، ويجالسهم ، ويظهر الاعتقاد فيهم . ولما رأوا منه ذلك ، خرج الكثير من الأوباش ، وتزيا بما سولت له نفسه وشيطانه ، ولبس له طرطورا طويلا ، ومرقعة ودلقا ، وعلق له جلاجل وبهرجان وعصا مصبوغة وفيها شخاشيخ وشراريب ، وطبلة يدق عليها ، ويصرخ ويزعق ، ويتكلم بكلمات مستهجنة ، وألفاظ موهمة ، بأنه من أرباب الأحوال .. ونحو ذلك !

ولما قتل ، أقام مرميا الى ثانى يوم لم يدفن . ثم دفنوه من غير رأس بقبة عند بركة الفيل .

وأخذ بعض الينكجرية رأسه وذهبوا بها ليوصلوها الى محمد باشا ، ويأخذوا منه البقشيش . فلحقهم جماعة من الأرنؤود ، فقتلوهم ، وأخذوا الرأس منهم ورجعوا بها ودفنوها مع جثته .

وكتب أحمد باشا مكتوبا الى محمد باشا يعلمه بصورة الواقعة ، ويستعجله للحضور .

وكذلك المحروقى وسعيد آغا ، أرسل كل واحد مكتوبا بمعنى ذلك ، وظنوا تمام المنصف !

ولما نهبوا بيته ، نهبوا ما جاوره من دور الناس من الحبانية الى ضلع السمكة الى درب الجماميز . ثم ان أحمد باشا أحضر المشايخ ، وأعلمهم بما وقع ، وأمرهم بالذهاب الى محمد على ، ويخاطبوه بأن يذعن الى الطاعة .

فلما ذهبوا اليه وخاطبوه فى ذلك ، أجاب بأن أحمد باشا لم يكن واليا على مصر .. بل انما هو والى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، وليس له علاقة بمصر . وأنا كنت الذى وليت طاهر باشا لكونه محافظ الديار المصرية من طرف الدولة ، وله شبهة فى الجملة . وأما أحمد باشا فليس له جرة ولا شبهة .. فهو يخرج خارج البلد ، ويأخذ معه الانكشارية ، ونجهزه ويسافر الى ولايته . فقاموا من عنده على ذلك ، واستمر الانكشارية على ما هم عليه من النهب ، وتتبع الأرنؤود ، وتحزبوا وتسلحوا ، وعملوا متاريس على جهاتهم ونواحيهم الى آخر النهار .

فنادوا على الناس بالسهر والتحفظ ، والدكاكين تفتح ، والقناديل تعلق . وبات الناس على تخوف .

٥ منه (٢٧ مايو ١٨٠٣ م)

مر الوالى والأغا ينادون بالأمان برسم حكم أحمد باشا . ثم ان أحمد باشا أرسل أوراقا الى المشايخ بالحضور . فذهبوا اليه ، فقال لهم : « أريد منكم أن تجمعوا الناس والرعية ، وتأمروهم بالخروج على الأرنؤود وقتلهم ! » . فقالوا : « سمعا وطاعة » . وأخذوا فى القيام . فقال لهم : « لا تذهبوا ، وكونوا عندى ، وأرسلوا للناس كما أمرتكم » . فقالوا له : « ان عادتنا أن يكون جلوسنا فى المهمات بالجامع الأزهر ، ونجتمع به ، ونرسل الى الرعية . فانهم عند ذلك لايخالفون » . وكان مصطفى أغا الوكيل حاضرا ، فرادهم فى ذلك ، وعرف منهم الانفكاك ... فلم يزالوا حتى تخلصوا وخرجوا .

وكان أحمد باشا أرسل أحضر الدفتردار ويوسف كتخدا الباشا ، وعبد الله أفندى رامز الروزنامجى ، وغالب أكابر العثمانية .

ومصطفى أغا الوكيل كان مرهونا عند شيخ السادات — كما تقدم — فعندما سمع بقتل طاهر باشا ، ركب بجماعته وأبهته ، وأخذ معه عدة من الانكشارية وذهب الى عند أحمد باشا ، ووقف بين يديه يعاضده ويقويه .

وأما محمد على والأرنؤود ، فانهم مالكون القلعة الكبيرة ، ويجمعون أمرهم ، ويراسلون الأمراء .

فلما أصبح ذلك اليوم ، عدى الكثير من المماليك والكشاف الى بر مصر ، ومروا فى الأسواق . وعدى أيضا محمد على وقابلهم فى بر الجيزة ورجع ، وعدى الكثير منهم من ناحية أبابة ، ومعهم عربان كثيرة ، وساروا الى جهة خارج باب النصر وباب الفتوح ، وأقاموا هناك .

وأرسل ابراهيم بيك ورقة الى أحمد باشا يقول فيها : « انه بلغنا موت المرحوم طاهر باشا ، عليه الرحمة والرضوان . فأنتم تكونون مع أتباعكم الأرنؤود حالا واحدا ، ولا تتداخلوا مع الانكشارية » .

فلما كانت ضحوة النهار ، ذهب جماعة من الانكشارية الى جهة الرميلة . فضربوا عليهم من القلعة مدافع ... فولوا ، وذهبوا . ثم بعد حصة ضربوا أيضا عدة مدافع متراسلة على جهة بيت أحمد باشا — وكان ساكنا فى بيت على بيك الكبير بالداودية — فعند ذلك أخذ أمره فى الانحلال ، وتفرق عنه غالب الانكشارية البلدية .

ووافق أن المشايخ لما خرجوا من عنده وركبوا ، لم يزالوا سائرين الى أن وصلوا جامع الغورية ، فنزلوا به وجلسوا ، وهم فى حيرة متفكرين فيما يصنعون . فعند ما سمعوا صوت المدافع ، قاموا وتفرقوا وذهبوا الى بيوتهم .

ثم ان ابراهيم بيك أرسل ورقة الى أحمد باشا — قبيل العصر — يأمره فيها بتسليم الذين قتلوا طاهر باشا ، ويخرج الى خارج البلد ، ومعه مهلة الى حادى عشر ساعة من النهار ، ولا يقيم الى الليل .. وان خالف فلا يلومن الا نفسه !

فلما رأى حال نفسه مضمحلا ، لم يجد بدا من الامتثال .. الا أنه لم يجد جمالا يحمل عليها أثقاله ، فقال للرسول : « سلم عليه ، وقل له يرسل لى جمالا ، وأنا أخرج . وأما تسليم القاتلين . فلا يمكن » فقال له : « أما حضور الجمال .. فغير متيسر فى هذا الوقت لبعد المسافة » فقال له : « وكيف يكون العمل ؟ » . فقال : « يركب حضرتكم .. ويخرج . ووقت ما حضرت الجمال الليلة أو غدا ... حملت الأثقال ولحقتكم خارج البلد » .

فعند ذلك قام ، وركب وقت العصر ، وتفرق من كان معه من أعيان العثمانية مثل : الدفتردار ، وكتخدا بيك ، والروزنامجى ، وذهبوا الى محمد على والتجأوا اليه . فأظهر لهم البشر والقبول .

وخرج أحمد باشا فى حالة شنيعة ، وأتباعه مشاة بين يديه ... وهم يعدون فى مشيهم ، وعلى أكتافهم وسائد وأمتعة خفيفة . فعند ما خرج من البيت ، دخل الأرنؤود ونهبوا جميع مافيه ولم يزل سائرا حتى خرج من المدينة من باب الفتوح ، فوجد العسكر والعربان وبعض كشاف ومماليك مصرية محدقة بالطرق ، فدخل مع الانكشارية الى قلعة الظاهر ، وأغلقوها عليهم . وخرج خلفهم عدة وافرة من الأرنؤود والكشاف المصرلية والعرب والغز ، وأحاطوا بهم ، وأقاموا على ذلك تلك الليلة .

وبعد العشاء ، مر الوالى وأمامه المناداة بالأمان حسب ما رسم ابراهيم بيك حاكم الولاية وأفندينا محمد على .

فكانت مدة الولاية لأحمد باشا يوما وليلة لا غير !

وفى ذلك اليوم : نهبوا بيت يوسف كتخدا بيك ، وأخرجوا منه أشياء كثيرة ... أخذ ذلك جميعه الأرنؤود .

٦ منه (٢٨ مايو ١٨٠٣ م) :

ركب المشايخ والأعيان ، وعدوا الى بر الجيزة ، وسلموا على ابراهيم بيك والأمراء .

وفيه : استأذن الدفتردار وكتخدا بيك ، محمد على فى الاقامة عنده أو الذهاب . فأذن لهما بالتوجه الى بيوتهما . فركبا قبيل الظهر ، وسارا الى بيت الدفتردار — وهو بيت البارودى — فدخل كتخدا بيك مع الدفتردار لعلمه بنهب بيته . فنزلا وجلسا مقدار ساعة ... واذا بجماعة من كبار الأرنؤود ، ومعهم عدة من العسكر ، وصلوا اليهما. وعند دخولهم طلبوا المشاعلى من بيت على أغا الشعراوى — وهو تجاه بيت البارودى — فلم يجدوه فذهب معهم رفيق له ، وليس معه سلاح ، فدخلوا الدار وأغلقوا الباب . وعلم أهل الخطة

مرادهم ، فاجتمع الكثير من الأوباش والجعيدية والعسكر خارج الدار يريدون النهب !

ولما دخلوا عليهما ، قبضوا أولا على الدفتردار وشلحوه من ثيابه وهو يقول : « عيبتر ! » . وأصابه بعضهم بضربة على يده اليمنى ، وأخرجوه الى فسحة المكان ، وقطعوا رأسه بعد ضربات ، وهو يصيح مع كل ضربة ، لكون المشاعلى لا يحسن الضرب ولم يكن معه سلاح ! بل ضربه بسلاح بعض العسكر الحاضرين . ثم فعلوا ذلك بيوسف كتخدا بيك — وهو ساكت لم يتكلم ! — وأخذوا الرأسين وتركوهما مرميين ، وخرجوا بعد ما نهبوا ما وجدوه من الثياب والأمتعة بالمكان ، وكذلك ثياب أتباعهم . وخرج أتباعهم فى أسوأ حال يطلبون النجاة بأرواحهم ، ومنهم من هرب وطلع الى حريم البارودى الساكنات فى البيت . وصرخ النساء وانزعجن . وكانت الست نفيسة المرادية فى ذلك المنزل أيضا فى تلك الأيام ... فعندما رأت وصول الجماعة ، أرسلت الى سليم كاشف المحرمجى ، فحضر فى ذلك الوقت . فكلمته فى أن يتلافى الأمر ، فوجده قد تم . فخرج بعد خروجهم بالرأسين ، فظن الناس أنها فعلته .

ثم حضر محمد على فى أثر ذلك ، وطرد الناس المجتمعين للنهب ، وختم على المكان ، وركب الى داره .

ثم ان على أغا الشعراوى استأذن محمد على فى دفنهما .. فأذن له ، فأعطى شخصا ستمائة نصف فضة لتجهيزهما وتكفينهما ، فأخذها وأعطى منها لآخر مائتين نصف لا غير . فأخذها وذهب فوضعهما فى تابوت واحد من غير رؤوس — وكانوا ذهبوا برؤوسهما الى الأمراء بالجيزة ، ولم يردوهما ، ولم يدفنا معهما — ثم رفعهما بالتابوت الى ميضأة جامع السلطان شاه المجاور للمكان — وهو مكان قذر — فغسلهما وكفنهما فى كفن حقير ، ودفنهما فى حفرة تحت حائط بتربة الأزبكية من غير رؤوس .. فهذا ما كان من أمرهما .

وأما الذين فى قلعة الظاهر . فانهم انحصروا ، وأحاط بهم الأرنؤود والغز والعربان، وليس عندهم ما يأكلون ، ولا ما يشربون . فصاروا يرمون عليهم من السور ، القرابين والبارود ، وهم كذلك يرمون عليهم من أسفل ؛ وجمعوا أتربة وعملوها كيمانا عالية ، وصاروا يرمون عليهم منها كذلك بقية نهار الجمعة . وليلة السبت اشتد الحرب بينهم بطول الليل .

وفى الصباح ، أنزلوا من القلعة مدافع كبارا وبنبة وجبخانة وأصعدوها على التلول ؛ وضربوا عليهم الى قبيل العصر . فعند ذلك طلبوا الأمان ، وفتحوا باب القلعة . وخرج أحمد باشا وصحبته شخصان ، وهما اللذان قتلا طاهر باشا ، فأخذوهم وعدوا بهم الى الجيزة .. وبطل الحرب والرمى ، وبقى طائفة الانكشارية داخل القلعة وحولهم العساكر .

فلما ذهبوا بهم الى الجيزة ، أرسلوا أحمد باشا الى قصر العينى ، وأبقوا الاثنين — وهما : اسماعيل آغا ، وموسى آغا — بالقصر الذى بالجيزة .

ونودى بالأمان للرعية حسب ما رسم ابراهيم بيك وعثمان بيك البرديسى ومحمد على .

٧ منه (٢٩ مايو ١٨٠٣ م) :

حضر أحمد بيك آخو محمد على الى جهة خان الخليلى لاجراء التفتيش على منهوبات الأرنؤود التى نهبها الانكشارية ، وأودعوها عند أصحابهم الأتراك . وفتحوا عدة حوانيت وقهاوى وأماكن ، وأخذوا ما فيها ، وأجلسوا طوائف من عسكر الأرنؤود على الخانات والوكائل والأماكن ، وشلحوا ناسا كثيرة من ثيابهم ، وربما قتلوا من عصى عليهم .

فتخوف أهل خان الخليلى ومن جاورهم . واستمر الأرنؤود كلما مرت بهم طائفة ، ووجدوا شخصا فى أى جهة فيه شبه ما بالأتراك ... قبضوا عليه وأخذوا ثيابه ، وخصوصا ان وجدوا شيئا معه من السلاح أو سكينا . فتوقى أكثر الناس ، وانكفوا عن المرور فى أسواق المدينة .: فضلا عن الجهات البرانيـــة .

وفيــه : كثر مرور الغز والكشاف المصرلية ، وترددوا الى المدينة وعلى أكتافهم البنادق والقرابين ، وخلفهم المماليك والعربان . فيذهبون الى بيوتهم ويبيتون بهـا . ويدخلون الحمامات ، ويغـيرون ثيابهم ، وبعودون الى بر الجيزة . وبعضهم أمامه المناداة بالأمان عند مروره بوسط المدينة .

وفيــه : كتبت أوراق بطلب دراهم فردة على البلاد المنوفية والغربية ، كل بلد ألف ريال ، وذلك خلاف مضايف العرب وكلفهم .

٩ منه (٣١ مايو ١٨٠٣ م) :

قتلوا شخصا بباب الخرق ، يقال انه كان من أكبر المتحـزبين على الأرنؤود ، وجمع منهوبات كثـيرة .

وفيه أيضا : قتلوا اسماعيل أغا وموسى أغا ، وهما اللذان كانا قتلا طاهر باشا . وتقدم أنهـم كانوا أخذوهما بالأمان صحبة أحمد باشا فارسلوا أحمد باشا الى قصر العينى ، وبقى الاثنان بقصر الجيزة فأخذوهما وعدوا بهما الى البر الآخر ، وقطـعوا رأسيهما عند الناصرية ، وأخذوا الرأسين وذهبوا بهما الى زوجة طاهر باشا بالشيخونية . ثم طلعوهما الى أخى طاهر باشا بالقلعة .

وفيه : تقلد سليم أغا — أغات مسـتحفظان سابقا — الأغاوية كما كان . وركب وشق المدينة بأعوانه ، وأمامه جماعة من العسكر الأرنؤود . ولبسوا أيضـا حسين أغا أمين خزنة مراد بيك ، وقلدوه والى الشرطة . ولبسـوا محمد المعروف بالبرديسى كتخدا قائد أغا ، وجعلوه محتسبا . وشق كل منهم بالمدينة وأمامه المنـاداة بالأمن والأمان ، والبيع والشراء .

وفيه : أخرجوا الانكشارية الذين بقلعة الظاهر ، وسفروهم الى جهة الصالحية ، وصحبتهم كاشفان وطائفة من العرب ، بعدما أخذوا سلاحهم ومتاعهم ، بل وشلحوهم ثيابهم ، والذى بقى لهم بعد ذلك ، أخذته العرب . وذهبوا فى أسوأ حال ، وأنحس بال ، وهم نحو الخمسمائة انسان . ومنهم من التجأ الى بعض المماليك والغز . فستر عليه ، وغـير هيئته ، وجعله من أتباعه . وكذلك الانكشـارية الذين كانوا مختفين ، التجأوا الى المماليـك ، وانتموا اليهم وخدموهم ... فسبحان مقلب الأحوال !

وحضر سليم كاشف المحرمجى ، وسكن بقلعة الظاهر ، وكتب الى اقليم القليوبية أوراقا ، وقرر على كل بـلد ألف ريال ، ومن كل صـنف من الأصناف سبعين ، مثل : سبعين خاروف ، وسبعين رطل سمن ، وسبعين رطل بن ، وسـبعين فرخة .. وهكذا ! وحق طريق المعين لقبض ذلك ، خمسـة وعشرين ألف فضة من كل بلد .

١١ منه (٢ يونية ١٨٠٣ م) :

حضر محمـد على ، وعبـد الله افنـدى رامز الروزنامجى ، ورضوان كتخدا ابراهيم بيك ، الى بيت الدفتردار المقتول ، وضبطوا تركته . فوجد عنده نقود ثلثمائة كيس ، وقيمة عروض وجواهر وغيرها نحو ألف كيس .

وفية : أرسـل ابراهيم بيك فجمع الأعيـان والوجاقلية ، وأبرز لهـم فرمانات وجدوها عنـد الدفتردار المقتـول ... مضمونها تقريرات مظالم ، منها : أن المماليك المصرليـة كانوا أحدثوا على الغـلال التى تبـاع الى بحر برا عن كل أردب

محبوب . فيقرر ذلك ، بحيث يتحصل من ذلك للخزينة العامرة عشرة آلاف كيس فى السنة . فان نقصت عن ذلك القدر ، أضر ذلك بالخزينة

ومنها : تقرير المليون الذى كان قرره الفرنسيس على أهالى مصر فى آخر مدتهم ، ويوزع ذلك على الرؤوس والدور والعقار والأملاك .

ومنها : أن الحلوان عن المحلول ثلاث سنوات.

ومنها : أنه يحسب المضاف والبرانى الى ميرى البلاد .. وغير ذلك .

١٢ منه (٣ بونية ١٨٠٣ م) :

عمل عثمان بيك البرديسى عزومة بقصر العينى ، وحضر ابراهيم بيك والأمراء ومحمد على ورفقاؤه . وبعد انقضاء العزومة ، ألبسوا محمد على ورفقاءه خلعا ، وقدموا لهم تقادم .

١٣ منه (٤ يونية ١٨٠٣ م) :

عملوا عزومة لابن أخى طاهر باشا المقيم بالقلعة ، وصحبته عابدى بيك ورفقاؤهم بقصر العينى ، وخلعوا عليهم وقدموا لهم تقادم أيضا .

١٥ منه (٦ يونية ١٨٠٣ م) :

نزل ابن أخى طاهر باشا من القلعة ومن معه من أكابر الأرنؤود وأعيانهم وعساكرهم بعزالهم ومتاعهم وما جمعوه من المنهوبات ، وهو شىء كثير جدا ، وسلموا القلعة الى الأمراء المصرلية . وطلع أحمد بيك الكلارجى الى باب الانكشارية ، وأقام به ، وعبد الرحمن بيك ابراهيم الى باب العزب ، وسليم أغا مستحفظان الى القصر .

فعند ذلك اطمأن الناس بنزولهم من القلعة . فانهم كانوا على تخوف من اقامتهم بها ، وكثر فيهم اللغط بسبب ذلك .

فلم يزل الأمراء يدبرون أمرهم حتى أنزلوهم منها ، وبقى بها طائفة من الأرنؤود ، وعليهم كبير يقال له : حسين قبطان .

وفيه : ورد الخبر أن محمد باشا لما قربت منه العساكر التى كان أرسلها له طاهر باشا ، ارتحل الى دمياط كما تقدم .

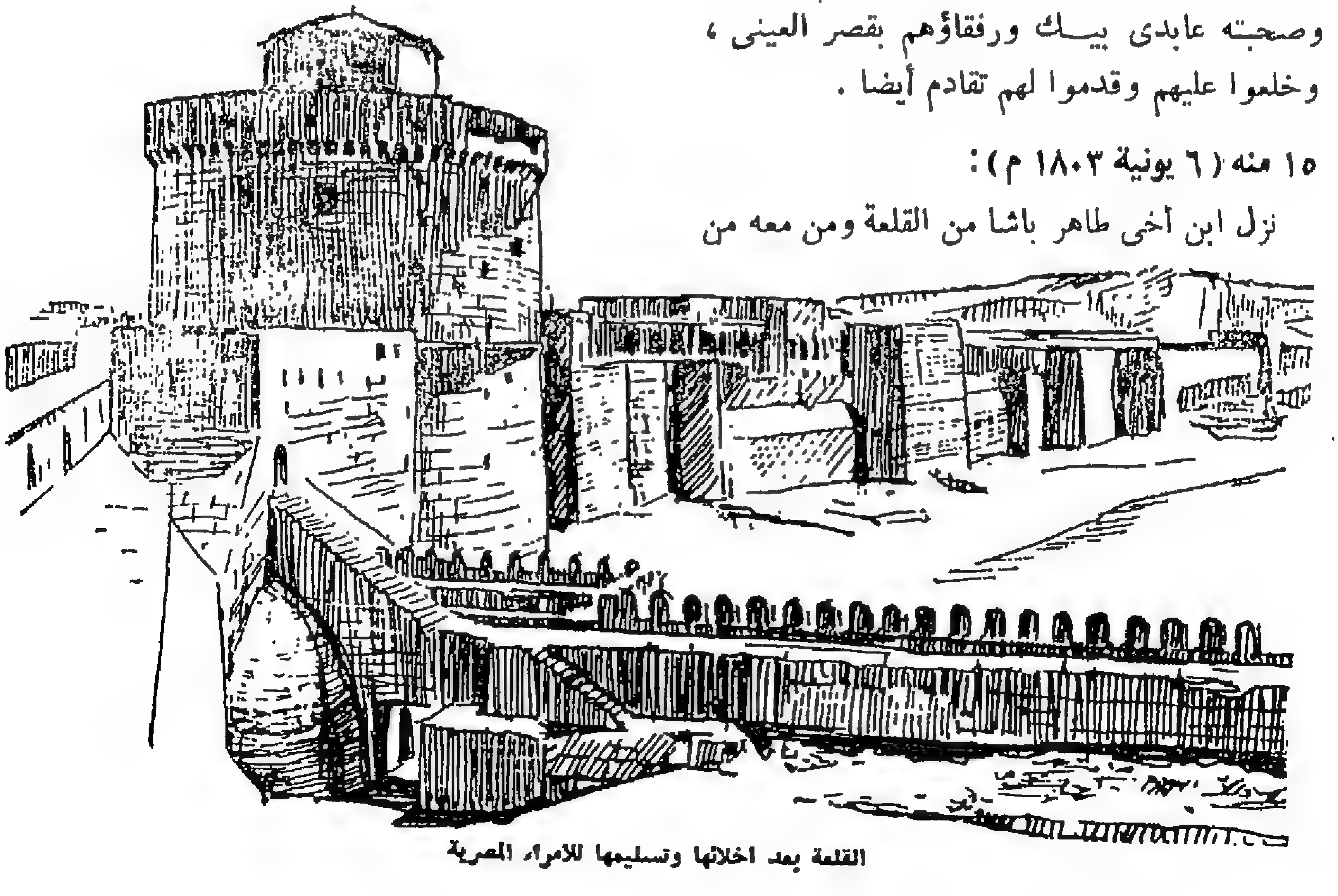

القلعة بعد اخلائها وتسليمها للأمراء المصرية

١٦ منه (٧ يونية ١٨٠٣ م):

وردت مكاتبات من الديار الحجازية مؤرخة فى منتصف محرم ، وفيها الأخبار باستيلاء الوهابيين على مكة فى يوم عاشوراء ، وأن الشريف غالب أحرق داره وارتحل الى جدة ، وأن الحجاج أقاموا بمكة ثمانية أيام زيادة عن المعتاد بسبب الارتباك قبل حصول الوهابيين بمكة ، ومراعاة للشريف ، حتى نقل متاعه الى جدة . ثم ارتحل الحجاج ، وخرجوا من مكة طالبين زيارة المدينة . فدخل الوهابيون بعد ارتحال الحج بيومين .

١٨ منه (٩ يونية ١٨٠٣ م):

أخرجوا باقى الانكشارية والدلاة والسجمان ، وكانوا مجتمعين بمصر القديمة ، فتضرر منهم المارة وأهل تلك الجهة بسبب قبائحهم وخطفهم أمتعة الناس بل وقتلهم. وكان تجمعهم على أن يذهبوا الى جهة الصعيد ، ويلتفون على حسن باشا بجرجا ، وينضمون اليه والى من بناحية الصعيد من أجناسهم . فذهب منهم من أخبر الأمراء المصرلية بذلك ، فضبطوا عليهم الطرق .

واتفق أن جماعة منهم وقفوا لبعض الفلاحين المارين بالبطيخ والخضار ، فحجزوهم ، وطلبوا منهم دراهم . فمر بهم بعض مماليك من أتباع البرديسى ، فاستجار بهم الفلاحون ، فكلموهم .. فتشاحنوا معهم ، وسحبوا على بعضهم السلاح ، فقتل مملوك منهم . فذهبوا الى سيدهم وأعلموه . فأرسل الى ابراهيم بيك . فركب الى العرضى ناحية بولاق التكرور ، وترك مكانه بقصر الجيرة محمد بيك بشتك وكيل الألفى . وشركوا عليهم الطرق ، وأمروهم بالركوب والخروج من مصر الى جهة الشام واللحوق بجماعتهم فركبوا من هناك ، ومروا على ناحية الجبل من خلف القلعة الى جهة العادلية ، وأمامهم وخلفهم بعض الأمراء المصرلية ، ومعهم مدفعان وهم نحو ألف وخمسمائة وأزيد .

فلما خرجوا وتوسطوا البرية عروا الكثير منهم ومن المتخلفين والمتأخرين عنهم ، وأخذوا أسلحتهم ، وقتلوا كثيرا منهم . ورجع المماليك ومعهم الكثير من بنادقهم وسلاحهم ، يحملونه معهم ومع خدامهم .

فلما رجع المماليك بهذه الصورة ، ووقف العسكر الأرنؤودية على أبواب المدينة ... انزعج الناس كعادتهم فى كرشاتهم ، وأغلقوا الدكاكين .

وعين للسفر معهم حسين كاشف الألفى ، يذهب معهم الى القنطرة . ونودى فى عصريته بالأمان ، وخروج من تخلف من الانكشارية ، وكل من وجد منهم بعد ثلاثة أيام ... فدمه وماله هدر .

٢١ منه (١٢ يونية ١٨٠٣ م):

مر الوالى والمناداة أمامه على الأتراك الانكشارية والبشناق والسجمان بالخروج من مصر ، والتحذير لمن آواهم أو ثاواهم . وكلما صادف فى طريقه شخصا من الأتراك قبض عليه ، وسأله عن تخلفه ، فيقول : « أنا من المتسببين والمتأهلين من زمان بمصر » . فيطلب منه بينة على ذلك ، ويستلمه عسكر الأرنؤود ، فيودعونه فى مكان مع أمثاله ، حتى تتحققوا أمره .

وفيه : مر بعض المماليك بجهة الميدان ناحية باب الشعرية ، فصادفوا جماعة من العسكر المذكورين يحملون متاعا لهم . فاشتبكوا بهم ، وأرادوا أخذ سلاحهم ومتاعهم ... فمانعوهم ، وتضاربوا معهم ، فقتل بينهم شخصان من الانكشارية ، وشخصان من المماليك : أحدهما فرنساوى .

وفيه : حضر أيضا ثلاثة من المماليك الى وكالة الصاغة الى رجل رومى ططرى وسألوه عن جوارى سود عنده لمحمد باشا ، وأنهم يطلبونهن لعثمان بيك البرديسى . فأنكر ذلك ، وشهد جيرانه أنهن

٢١ منه (١٢ يونية ١٨٠٣ م) :

حضر الشريف عبدالله بن سرور ، وصحبته بعض أقاربه من شرفاء مكة وأتباعهم نحو ستين نفرا ، وأخبروا أنهم خرجوا من مكة مع الحجاج ، وأن عبد العزيز بن سعود الوهابى دخل الى مكة من غير حرب ، وولى الشريف عبد المعين أميرا على مكة والشيخ عقيل قاضيا ، وأنه هدم قبة زمزم والقباب التى حول الكعبة والأبنية التى أعلى من الكعبة .. وذلك بعد أن عقد مجلسا بالحرم ، وباحثهم على ما الناس عليه من البدع والمحرمات المخالفة للكتاب والسنة . وأخبروا أن الشريف غالب وشريف باشا ذهبا الى جدة وتحصنا بها ، وأنهم فارقوا الحجاج فى الجديدة .

وفيه : كتبوا عرضحالين : أحدهما بصورة ما وقع لمحمد باشا مع العساكر ، ثم قيام الانكشارية وقتلهم لطاهر باشا ، ثم كرة الأرنؤود على الانكشارية لما أثاروا الفتنة مع أحمد باشا ، حتى اختلت أحوال المدينة ، وكاد يعمها الخراب ... لولا قرب الأمراء المصرلية وحضورهم . فسكنوا الفتنة، وكفوا أيدى المعتدين . والثانى يتضمن رفع الاحداثات التى فى ضمن الأوامر التى كانت مع الدفتردار ، التى تقدمت الاشارة اليها .

وفيه : عزم الأمراء على التوجه الى جهة بحرى . فقصد البرديسى ، وصحبته محمد بيك — تابع محمد بيك المنفوخ — جهة دمياط ومعهم محمد على وعلى بيك أيوب وغيرهم ، وصحبتهم الجم الكثير من العساكر والعربان ، ولم يتخلف الا ابراهيم بيك وأتباعه والحكام . وسافر سليمان كاشف البواب الى جهة رشيد وصحبته عساكر أيضا .

٢٣ منه (١٤ يونية ١٨٠٣ م) :

فيه عدى الكثير الى البر الشرقى .

... فزعوا عليه وطردوه ، وذهبوا بالجوارى

ملكه ، واشتراهن ليتجر فيهن . فلم يزالوا حتى أخذوا منه ثلاثا على سوم الشراء ، وذهب معهن . فلما بعدوا عن الجهة .. فزعوا عليه وطردوه . وذهبوا بالجوارى !

فذهب ذلك الططرى الى محمد على ، فأرسل الى البردسى ورقة بطلب الجوارى أو ثمنهن . ففحص عنهن حتى ردهن الى صاحبهن .

وفيه : حضر أيضا جماعة من المماليك الى بيت عثمان أفندى بجوار ضريح الشيخ الشعرانى — وهو من كتبة ديوان محمد باشا — فأخذوا خيله وسلاحه ومتاعه التى بأسفل الدار .

١٩ منه (١٠ يونية ١٨٠٣ م) :

نهبوا أيضا دار أحمد افندى الذى كان شهر حواله وكاشف الشرقية فى العام الماضى . فأخذوا جميع ما عندم حتى ثيابه التى على بدنه ، وقتلوا خادمه على باب داره ... قتله الوالى ، زاعما أنه هو الذى دل عليه !

٢٠ منه (١١ يونية ١٨٠٣ م) :

مر سليم أغا وأمامه المناداة على الأغراب الشوام والحلبية والرومية يجتمعون بالجمالية يوم تاريخه . فلم يجتمع منهم أحد .

٢٥ منه (١٦ يونية ١٨٠٣ م) :

قدم جاويش الحجاج بمكاتيب العقبة ، وأخبروا بموت الكثيرمن الناس بالحمى والاسهال ، وحصل لهم تعب شديد من الغلاء أيضا ، ذهابا وايابا . ومات الشيخ أحمد العريشى الحنفى ودفن بنبط ، ومات أيضـا محمد افنـدى باش جاجرت ودفن بالينبع . والشيخ على الخياط الشافعى .

وفيه : عـدى ابراهيم بيك الى قصر العينى ، وركب مع البرديسى الى جهة الحـلى ، وودعه ، ورجع الي قصر العينى فأقام به ، وجلس ابنـه مرزوق بيك فى مضرب النشاب . واستمر وكيل الألفى مقيما بقصر الجيزة .

وفيه : وردت الأخبار بأن محمد باشا لما ارتحل من المنصورة الى دمياط ، أبقى بفارسكور ابراهيم باشا ومملوكه سليم ، كاشف المنوفية ، بعدة من العسكر ، فتحصنوا بها . فلما حضر اليهم حسن بيك أخو طاهر باشا بالعسـاكر ، تحاربوا معهم وملكوا منهم فارسـكور ، فنهبوها وأحرقوها ، وفسقوا بنسائها ، وفعلوا ما لا خير فيه . وقتـل سليم كاشف المنوفية المذكور أيضا .

ثم ان بعض أكابر العسكر المنهزمين أرسل الى حسن بيك يطلب منـه أمانا ــ وكان ذلك خديعة منهم ــ فأرسل لهم أمانا . فحضروا اليه وانضموا لعسكره ، وسهلوا له أمر محمد باشا ، وأنه فى قلة وضعف ... وهم مع ذلك يراسلون أصحابهم ، ويشيرون عليهم بالعودة والتثبت ... الى أن عادوا وتأهبوا للحرب ثانيا . وخرج اليهم حسن بيـك بعساكره ، وخلفه المنضافون اليه من أولئك ، فلما أن نشبت الحرب بينهم ، أخذوهم مواسطة ... فأثخنوهم . ووقعت فيهم مقتلة عظيمة ، وانهزموا الى فارسكور ، فتلقاهم أهل البـلدة ، وكملوا قتلهم ، ونزلوا عليهم بالنبـابيت والمسـاوق والحجارة .. جزاء لما فعلوه معهم ، حتى اشتفوا منهم . ولم ينج منهم الا من كان فى عزوة أو هرب الى جهـة أخـرى . وحضر الكثير منهم الى مصر فى أسوأ حال .

وفى يوم الجمعة والسبت حضر الكثير من حجاج المغاربة ، وصحبتهم مصاروة وفلاحون كثيرة .

٢٨ منه (١٩ يونية ١٨٠٣ م) :

فيه : حضرت مكاتبة من الديار الرومية على يد شخص يسمى صالح أفندى الى سكندرية . فأرسل خورشـيد أفندى حاكم الاسكندرية يستأذن فى حضوره بمكاتبة على يد راشته (١) قنصل النيمسا . فذهب راشته الى ابراهيم بيك ، وأخبره وأطلعه على المكتوب الذى حضر له . فبعد ساعة وصـل الخبر بوصول صالح افندى المذكور الى بولاق فأرسل ابراهيم بيك رضوان كتخدا وأحمد بيك الأرنؤودى ، وأمرهما بأن يأخذا ما معه من الأوراق ويأمراه بالرجوع بغير مهلة ، ولا يدعاه يطلع الى البر .. ففعلا ذلك .

ومضمون مافى تلك الأوراق خطاب لطاهر باشا « وأنه بلغنا ما حصل من محمد باشا من الجور والظلم وقطع علوفات العسكر ، وأنهم قاموا عليه وأخرجوه ... وهذه عادة العسـاكر اذا انقطعت علوفاتهم . وأننا وجهنا له ولاية سنانيك (٢) ، وأن طاهر باشا يستمر على المحافظة ، وأحمد باشـا قائمقام الى أن يأتى المتولى » . وخطاب لمحمد باشا بمعنى ذلك .

والسر فى تقليد أحمد باشـا قائمقام ــ دون طاهر باشا ــ أن طاهر باشا أرنؤودى وليس له الا طوخان . ومن قواعدهم القديمة أنهم لايقلدون الأرنؤود ثلاثة أطواخ أبدا .

---

(١) Rossetti كان هـو والمحروقى من أصـحاب النفـوذ فى القاهرة بعد خسرو باشا ، وكانا يكرهان فرنسـا ، والعداء ــ مع ذلك ــ مستحكم بينهما

(دكتور فؤاد عسكر ــ مصر فى القرن التاسع عشر جـ ١ ص ٤١)

(٢) سلونيك .

وفيـه : دخل الكثير من الحجاج آخر النهـار وفى الليـل .

٢٩ منه (٢٠ يونية ١٨٠٣ م) :

دخل الجم الغفير من الحجـاج ، ومات الكثير من الداخلين فى ذلك اليوم ، وكثير مرضى . وحصل لهم مشقة عظيمة ، وشوب وغلاء.. وخصوصا بعد مجاوزتهم العقبـة . وبلغت الشربة الماء دينـارا ، والبطيخة دينارين !

وكان حجاج كثير ، وأكثرهم أوباش الناس من الفلاحين والنساء وغير ذلك !

وخرج سليم أغا مستحفظان ، وصحبته جماعة من الانكشارية والكشاف والأجنـاد والعسكر ، فاسـتلموا المحمـل من أمير الحج ، وأمروه بأن لايدخل المدينة ، بل يقيم بالبركة حتى يحاسبوه . ويسافر بمن معه من العسكر الى جهة الشام .

ثم رجعوا بالمحمل ودخلوا به المدينة وقت الظهر على خلاف العادة .

وحضر صـحبة الحجاج كثير من أهل مكة ، هروبا من الوهابى . ولغط الناس فى خبر الوهابى ، واختلفوا فيه . فمنهم من يجعله خارجيـا وكافرا — وهم المكيون ومن تابعهم وصدق أقوالهم — ومنهم من يقول بخلاف ذلك ، لخلو غرضه .

وأرسل الى شيخ الركب المغربى كتابا ، ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيـدته ، وصـورتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين . الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ... من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشـهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعص الله ورسوله فقـد غوى ، ولا يضر الا نفسه ، ولن يضر الله شيئا . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسـلم تسليما كثيرا .

« أما بعد . فقد قال الله تعالى : « قل هـذه سبيلى : أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » . وقال تعالى : « قل ان كنتم تحبون الله ، فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » . وقال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » . وقال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسـلام دينـا » . فأخبر سبحانه أنه أكمل الدين ، وأتمه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأمرنا بلزوم ما أنزل الينا من ربنا ، وترك البدع والتفرق والاختـلاف . وقال تعالى : « اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء .. قليلا ما تذكرون » . وقال تعالى : « وان هذا صراطى مستقيما ، فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ... ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . والرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا أن أمته تأخـذ ما أخـذ القرون قبلها : شبرا بشبر ، وذراعا بذراع .

« وثبت فى الصحيحين وغيرهما عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم ، حذو القذة بالقـذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ، قالوا : « يا رسول الله ... اليهود والنصارى ؟ » . قال : « فمن ؟ » .

« وأخبر فى الحديث الآخر ، أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار الا واحدة . قالوا : « من هى يا رسـول الله ؟ » قال : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » .

« اذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التى أعظمها : الاشراك بالله ، والتوجه الى الموتى ، وسؤالهم النصر على الأعداء وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات التى لايقـدر عليها الا رب الأرض والسـموات ... وكذلك التقرب

اليهم بالنذور وذبح القربان ، والاستغاثة بهم فى كشف الشدائد ، وجلب الفوائد .. الى غير ذلك من أنواع العبادة التى لا تصلح الا لله . وصرف شىء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها . لأنه سبحانه وتعالى أغنى الأغنياء عن الشرك ، ولا يقبل من العمل الا ما كان خالصا . كما قال تعالى : « فاعبد الله مخلصا له الدين ، ألا لله الدين الخالص . والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار » . فأخبر سبحانه أنه لا يرضى من الدين الا ما كان خالصا لوجهه ، وأخبر أن المشركين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين ليقربوهم الى الله زلفى ، ويشفعوا لهم عنده . وأخبر أنه لا يهدى من هو كاذب كفار .

وقال تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون » . فأخبر أنه من جعل بينه وبين الله وسايط يسألهم الشفاعة ، فقد عبدهم واشرك به . وذلك أن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » . وقال تعالى : « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم » . وقال تعالى : « يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » . وهو سبحانه وتعالى لا يرضى الا التوحيد ، كما قال تعالى : « ولا يشفعون الا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون » .

« فالشفاعة حق ، ولا تطلب فى دار الدنيا الا من الله . كما قال تعالى : « وأن المساجد لله ، فلا تدعوا مع الله أحدا » . وقال تعالى : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ... فان فعلت ، فانك اذا من الظالمين » .

« فاذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم — وهو سيد الشفعاء ، وصاحب المقام المحمود ، وآدم فمن دونه تحت لوائه — لا يشفع الا باذن الله ... لا يشفع ابتداء ، بل يأتى فيخر لله ساجدا ، فيحمده بمحامد يعلمه اياها ، ثم يقال : « ارفع رأسك ، وسل ... تعط ، واشفع ... تشفع . ثم يحد له حدا فيدخلهم الجنة ... فكيف بغيره من الأنبياء والأولياء ؟ !

« وهذا الذى ذكرناه ... لا يخالف فيه أحد من علماء المسلمين . بل قد أجمع عليه السلف الصالح من الأصحاب والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم ... ممن سلك سبيلهم ، ودرج على منهاجهم .

« وأما ما حدث من سؤال الأنبياء والأولياء من الشفاعة بعد موتهم ، وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها ، واسراجها ، والصلاة عندها ، واتخاذها أعيادا ، وجعل السدنة والنذور لها ... فكل ذلك من حوادث الأمور التى أخبر بها النبى صلى الله عليه وسلم أمته ، وحذر منها ... كما فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين ، وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان » .

« وهو — صلى الله عليه وسلم — حمى جناب التوحيد أعظم حماية ، وسد كل طريق يؤدى الى الشرك . فنهى أن يجصص القبر ، وأن يبنى عليه ، كما ثبت فى صحيح مسلم من حديث جابر . وثبت فيه أيضا : أنه بعث على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وأمره لا يدع قبرا مشرفا الا سواه ، ولا تمثالا الا طمسه . ولهذا قال غير واحد من العلماء : « يجب هدم القباب المبنية على القبور ، لأنها أسست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم » .

« فهذا هو الذى أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس ، حتى آل بهم الأمر الى أن

كفرونا وقاتلونا ، واستحلوا دماءنا وأموالنا ... حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم . وهو الذى ندعو الناس اليه ، ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واجماع السلف الصالح من الأمة ... ممتثلين لقوله سبحانه وتعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله » .

« فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان ، قاتلناه بالسيف والسنان ، كما قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » .

« وندعو الناس الى اقامة الصلوات فى الجماعات على الوجه المشروع ، وايتاء الزكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج بيت الله الحرام ، ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر . كما قال تعالى : « الذين ان مكناهم فى الأرض ، أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور » .. فهذا هو الذى نعتقده وندين الله به . فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم ... له ما لنا وعليه ما علينا .

«ونعتقد أيضا أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، المتبعين للسنة ، لا تجتمع على ضلالة ، وأنه لاتزال طائفة من أمته على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » .

أقول : ان كان كذلك .. فهذا ماندين الله به نحن أيضا ، وهو خلاصة لباب التوحيد ، وما علينا من المارقين والمتعصبين . فقد بسط الكلام فى ذلك ابن القيم فى كتابه « اغاثة اللهفان » ، والحافظ المقريزى فى « تجريد التوحيد » ، والامام البوسى فى « شرح الكبرى » ، و « شرح الحكم » لابن عباد ، وكتاب « جمع الفضائل وقمع الرذائل » ، وكتاب « مصايد الشيطان » .. وغير ذلك .

وفى ذلك اليوم : نودى على المتخلفين من الانكشارية بالسفر صحبة أمير الحج ، وقبضوا على أنفار منهم وأخرجوهم . ومنعوا أيضا حجاج المغاربة من الدخول الى المدينة ، ومن دخل منهم لأجل حاجة ، فليدخل من غير سلاح . فذهبوا الى بولاق ، وأقاموا هناك .

٣٠ منه (٢١ يونية ١٨٠٣ م) :

مر الوالى بناحية الجمالية ، فوجد انسانا من أكابر غزة ، يسمى على أغا شعبان ، حضر الى مصر من جملة من حضر مع العرضى ، وكان مهندسا فى عمارة الباشا ، ثم عين لسد ترعة الفرعونية لمعرفته بأمور الهندسة . فوجده جالسا على دكان يتنزه حصة ، وفرسه وخدمه وقوف أمامه . فطلبه وأمره بالركوب معه . فركب وذهب صحبته .. فكان آخر العهد به !

وكان فى جيبه ألف دينار ذهبا ... باخبار أخيه ، خلاف الورق ، فأخذ ثيابه وفرسه وما معه ، وخنقه وأخفى أمره وأنكره . وكان رجلا لا بأس به .

ربيع الأول

السبت ٥ منه (٢٥ يونية ١٨٠٣ م) :

سافر أحمد باشا والعساكر الانكشارية الذين جمعوهم من المدينة ، وسافر صحبتهم من العساكر الذين كانوا صحبة أمير الحج ، والجميع كانوا نحو ألفين وخمسمائة . وأما أمير الحج فانهم عفوا عنه من السفر ، ودخل المدينة بخاصته .

وفى هذا اليوم : حضر على كتخدا من جهة قبلى — وهو كتخدا حسن باشا والى جرجا — ومعه مكاتبة الى الأمراء المصرلية ، وأنه وصل الى أسيوط . فكتبوا له أمانا بالحضور الى مصر بمن

معه من العسكر ، ورجع على كتخدا بذلك فى ثانى يومه فقط .

وفيه : ورد الخبر بوصول أنجد بيك الى ثغر دمياط بالريالة الى محمد باشا .

الأربعاء ٩ منه (٢٩ يونية ١٨٠٣ م) :

سافر الشريف عبد الله بن سرور الى سكندرية متوجها الى اسلامبول . وأنعم عليه ابراهيم بيك بخمسين ألف فضة .

الجمعة ١١ منه (اول يولية ١٨٠٣ م)

كان المولد النبوى ، ونادوا بفتح الدكاكين ووقود القناديل . فأوقدت الأسواق تلك الليلة ، والليلة التى قبلها .. ولكن دون ذلك . وأما الأزبكية فلم يعمل بها وقدة الا قبالة بيت البكرى ، لاستيلاء الخراب عليها .

السبت ١٢ منه (٢ يولية ١٨٠٣ م)

سفروا جبخانة وجللا وبارودا الى جهة بحرى . وأشيع بأن كثيرا من العسكر المصحوبين بالتجريدة ذهبوا الى محمد باشا ، وكذلك طائفة من الانكشارية المطرودين الذين خلصوا الى طريق دمياط .

الاثنين ١٤ منه (٤ يولية ١٨٠٣ م) :

وقع بين عثمان بيك البرديسى ومحمد باشا وعساكره مقتلة عظيمة ، وكانوا ملكوا منه متاريس

من المعركة

القنطرة البيضاء قبل ذلك ، ثم هجم المصريون فى ذلك اليوم عليهم هجمة عظيمة ، وكبسوا على دمياط بمخامرة بعض رؤساء عساكر الباشا ، وفتكوا فى عسكر الباشا بالقتل ، وقتلت خواصه وأتباعه ، وقتل حسين كتخدا شنن ومصطفى أغات التبديل ، ونهبوا دمياط ، وأسروا النساء ، وافتضوا الأبكار ، وأخذوهن أسرى ، وصاروا يبيعونهن على بعضهم ، وفعلوا أفعالا شنيعة من الفسق والفجور ، وأخذوا حتى ما على أجساد الناس من الثياب ، ونهبوا الخانات والبيوت والوكائل وجميع أسباب التجار التى بها من أصناف البضائع الشامية والرومية والمصرية — وكان شيئا كثيرا يفوق الحصر — وما بالمراكب . حتى بيع الفرد الأرز الذى هو نصف أردب بثلاثة عشر نصفا ، وقيمته ألف نصف ، والكيس الحرير الذى قيمته خمسمائة ريال ، بريالين .. الى غير ذلك ، والأمر لله وحده .

والتجأ الباشا الى القرية ، وترس بها . فأحاطوا به من كل جهة ، فطلب الأمان ، فأمنوه . فنزل من القرية وحضر الى البرديسى وخطف عمامته بعض العسكر . ولما رآه البرديسى ترجل عن مركوبه اليه ، وتمنى بالسلام عليه ، وألبسه عمامة ، وأنزله فى خيمة بجانب خيمته متحفظا به . ولما وصل الخبر بذلك الى مصر ، ضربوا مدافع كثيرة من قصر العينى والقلعة والجيزة ومصر العتيقة . واستمر ذلك ثلاثة أيام بلياليها فى كل وقت .

وفى عصريتها حضر «جوخدار» البرديسى — وهو الذى قتل حسين أغا شنن — وحكى بصورة الحال . فألبسه ابراهيم بيك فروة ، وأنعم عليه ببلاد المقتول وبيته وزوجته وأملاكه ، وجعله كاشف الغربية . وذهب الى وكيل الألفى أيضا فخلع عليه فروة سمور ، وصار يبدر الذهب فى حال ركوبه .

الاربعاء ١٦ منه (٦ يولية ١٨٠٣ م) :

وردت مكاتبات من عثمان بيك البرديسي بالخبر بوقوع الحرب بينهم وبين محمد باشا وعساكره .

الجمعة ١٨ منه (٨ يولية ١٨٠٣ م) :

ذهب الجوخـدار الي مقـام الامام الشافعي ، وأرخى لحيته على عادتهم الي سنها البدنة ليعفيها بعد ذلك من الحلق .

وفى ذلك اليوم : عمل ابراهيم بيك ديوانا ببيت ابنته بدرب الجماميز ، وحضر القاضى والمشايخ ، ولبس خلعة وتولى قائمقام مصر ، وضربت فى بيته النوبة التركية .

الاحد ٢٠ منه (١٠ يولية ١٨٠٣ م) :

ورد الخبـر بوصول على باشا الطرابلسي الي سكندرية واليا على مصر ، عوضا عن محمد باشا . وحضر منه فرمان خطابا للامراء يعلمهم بوصوله ، ويذكر لهم « أنه متولي على الأقطار المصرية عوضا عن محمد باشا ، من اسكندرية الى أسوان . ولم يبلغ الدولة موت طاهر باشا ولا دخولكم الي مصر ، ومعنا أوامر لطاهر باشا وأحمد باشا : أنهم يتوجهون بالعساكر الي الحجاز بسبب الوهابيين . فلما وصلنا الى سكندرية ، بلغنا موت طاهر باشا وحضوركم الى المدينة بمعاونة الأرنؤودية ، وقتل رجال الدولة والانكشارية وقتل من معهم ، واخراج من بقي على غير صورة ، الى غير ذلك .

« وهذا غير مناسب ، ولا نرضى لكم بهذا على هذا الوجه ... فاننا نحب لكم الخير ، ولنا معكم عشرة سابقة ومحبة أكيدة ، ونطلب راحتكم فى أوطانكم ، ونسعى لكم فيها على وجه جميل . وكان المناسب أن لا تدخلوا المدينة الا باذن من الدولة . فان تظاهركم بالخلاف والعصيان مما يوجب لكم عدم الراحة ، فان سيف السلطنة طويل .. فربما استعان السـلطان عليكم ببعض المخالفين الذين لا طاقة لكم بهم » .

ثم قال لهم فى ضمن ذلك : « ان لنا معكم بعض كلام لايحتمله الكتاب .. وعن قريب يأتيكم اثنان من طرفنا عاقلان ، تعملون معهما مشاورة » .

فكتبوا له جوابا حاصله : آن محمد باشا لما كان متوليـا .. لم نزل نترجى مراحمه ، وهو لا يزداد الا قسـوة معنا ، ولا يسمح لنا بالاقامة بالقطـر المصري جملة . وجرد علينا التجاريد والعساكر من كل جهة ، وينصرنا الله عليه فى كل مرة ... الى أن حصل بينه وبين عساكره وحشة بسبب جماكيهم وعلوفاتهم . فقاموا عليه وحاربوه ، وأخرجوه من مصر بمعونة طاهر باشا . ثم قامت الانكشارية على طاهر باشـا وقتلوه ظلما ، وقامت العساكر بعضهم على بعض .

وكنا حضرنا الى جهـة الجيزة باستدعاء طاهـر باشـا . فلما

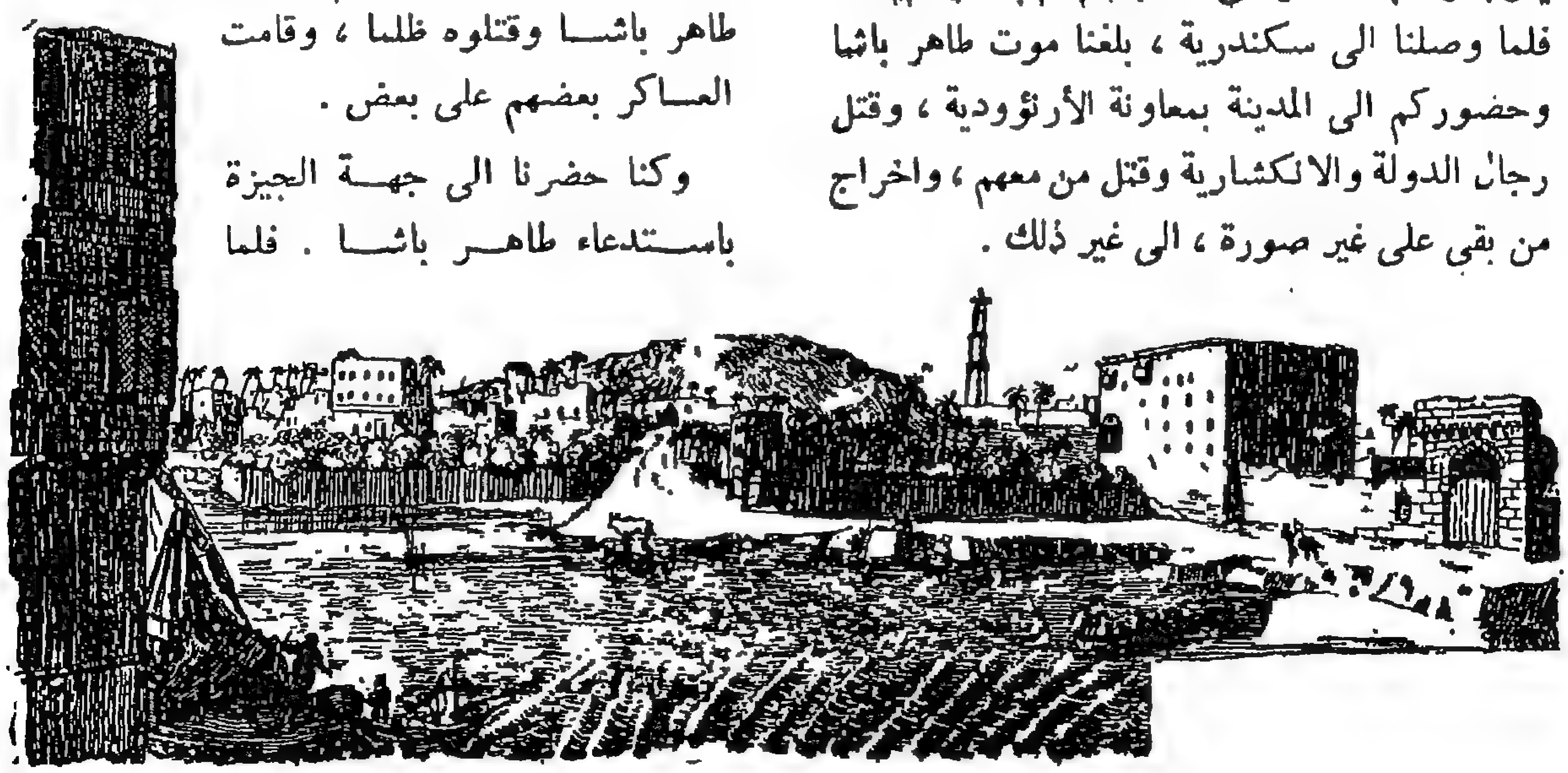

منظر لشواطئ دمياط

قتل طاهر باشا ، بقيت المدينة رعية من غير راع ، وخافت الرعية من جور العساكر وتعديهم . فحضر الينا المشايخ والعلماء واختيارية الوجاقلية واستغاثوا بنا،فأرسلنا من عندنا من ضبط العساكر وأمن المدينة والرعية . وأما محمد باشا ، فانه نزل الى دمياط ، وظلم البلاد والعباد ، وفرد عليها الفرد الشاقة ، وحرقها . فتوجه عثمان بيك البرديسى لتأمين أهالى القرى ، الى أن وصل الى ظاهر دمياط فأقام بمن معه خارج المدينة .. فما يشعر الا ومحمد باشا صدمهم ليلا وحاربهم فحاربوه ، فنصرهم الله عليه ، وانهزمت عساكره وقبض عليه . وهو الآن عندنا فى الاعزاز والاكرام ، ونحن الآن على ذلك حتى يأتينا العفو !

وأما قولكم أننا نخرج من مصر .. فهذا لايمكن ، ولا تطاوعنا جماعتنا وعساكرنا على الخروج من أوطانهم بعد استقرارهم فيها . واما قولكم ان حضرة السلطان يستعين علينا ببعض المخالفين . فاننا لا نستعين الا بالله ، وأننا أرسلنا عرضحال نطلب العفو ، ونترجى الرضا .. ومنتظرون الجواب .

الثلاثاء ٢٢ منه (١٢ يولية ١٨٠٣ م) :

حضر واحد أغا ومعه آخر . فضربوا له مدافع ، وعملوا ديوانا ، وتكلم معهم ، وتكلم المشايخ الحاضرون فى ظلم العثمانيين وما أحدثوه من المظالم والمكوس ، واتفقوا على كتابة عرضحال الى الباشا. فكتبوا ذلك ، وأمضوا عليه ، ونادوا فى الأسواق برفع ما أحدثه الفرنساوية والعثمانية من المظالم وزيادة المكوس ودفعوا الى الأغا الواصل ألف ريال ... حق طريقه ، وسافر .

وفيه : وصل الخبر بأن سليمان كاشف لما وصل الى رشيد ، وبها جماعة من العثمانية . وحاكمها ابراهيم أفندى ، فلما بلغه وصول سليمان كاشف، أخلى له البلد ، وتحصن فى برج مغيزل . فعبر سليمان كاشف الى البلد ، وخرج يحاصر ابراهيم أفندى . فهم على ذلك .. واذا بالسيد على باشا القبطان وصل الى رشيد وأرسل الى سليمان كاشف يعلمه بحضوره وحضور على باشا والى مصر ، ويقول : « ماهذا الحصار ؟ » فقال له : « نحن نقاتل كل من كان من طرف حسين قبطان باشا .. وأما ماكان من طرف الوزير يوسف باشا فلا نقاتله » . وارتحل من رشيد الى الرحمانية ، ودخل السيد على القبطان الى رشيد .

الأربعاء ٢٣ منه (١٣ يولية ١٨٠٣ م) :

سافر جوخدار البرديسى الى ولاية الغربية ، وكان شاهين كاشف المرادى هناك يجمع الفردة ، وتوجه الى طنتدا ، وعمل على أولاد الخادم ثمانين ألف ريال . فحضروا الى مصر — ومعهم مفاتيح مقام سيدى أحمد البدوى — هاربين،وتشكوا وتظلموا ، وقالوا لابراهيم بيك : « لم يبق عندنا شىء ، فان الفرنساوية نهبونا وأخذوا أموالنا ، ثم ان محمد باشا أرسل المحروقى فحفر دارنا ، وأخذ منا نحو ثلثمائة ألف ريال ، ولم يبق عندنا شىء ... جملة كافية » .

الثلاثاء ٢٩ منه (١٩ يولية ١٨٠٣ م) :

وصل محمد باشا الى ساحل بولاق وصحبته المحافظون عليه — وهم جماعة من عسكر الأرنؤود الذين كانوا سابقا فى خدمته ، وجماعة من الأجناد المصرلية — ولم يكن معه من أتباعه الا ستة مماليك فقط ... فان مماليكه المختصين به اختار منهم البرديسى من اختاره ، واقتسم باقيهم الأرنؤود . ومنهم من يخدم الأرنؤود المحافظين عليه .

ووافق أن ذلك اليوم كان جمع سيدى أحمد البدوى ببولاق على العادة ، فنصبوا له خيمة لطيفة بساحل البحر ، وطلع اليها فرأى جمع الناس فظن

هناك وسلم عليه . وحضر الألفى وباقي الأمراء بجموعهم وخيولهم فترامحوا تحت القصر وتسابقوا ولعبوا بالجريد . ثم طلع أكابرهم الى أعلى القصر فصاروا يقبلون يد ابراهيم بيك فقط ، والباشا جالس ، حتى تحلقوا حواليهما . ثم ان ابراهيم بيك قدم له حصانا وقام وركب مع المحرمجى الى بيت حسن كاشف بالناصرية . فسبحان المعز المذل القهار !

الأربعاء غايته (٢٠ يولية ١٨٠٣ م) :

ركب ابراهيم بيك والألفى وذهبا الى الباشا وسلما عليه فى بيت البرديسى ، وهادياه بثياب وأمتعة . وبعد أن كانوا يترجون عفوه ، ويتمنون الرضا منه ، ويكونوا تحت حكمه .. صار هو يترجى عفوهم ، ويؤمل رفدهم واحسانهم ، وبقى تحت حكمهم ..

فالعياذ بالله من زوال النعم وقهر الرجال .

ربيع الآخر

٢ منه (٢٢ يولية ١٨٠٣ م) :

ضربت مدافع كثيرة بسبب اقامة بندبرة الانجليز بمصر .

وفيه : عدى البرديسى من المنصورة الى البر الغربى متوجها الى جهة رشيد .

٤ منه (٢٤ يولية ١٨٠٣ م) :

وردت هجانة من ناحية الينبع ، وأخبروا أن الوهابيين جلوا عن جدة ومكة بسبب أنهم جاءتهم أخبار بأن العجم زحفوا على بلادهم الدرعية ، وملكوا بعضها والأوراق فيها خطاب من شريف باشا وشريف مكة ... لطاهر باشا ، على ظن حياته .

٦ منه (٢٦ يولية ١٨٠٣ م) :

نادى الأغا والوالى بالأسواق على العثمانية

الخيمة اللطيفة ..

أنهم اجتمعوا للفرجة عليه فقال : « ماهذا ؟ » فأخبروه بصورة الحال .

وكان ابراهيم بيك فى ذلك اليوم حضر الى بولاق ، ودخل الى بيت السيد عمر نقيب الأشراف باستدعاء ، فجلس عنده ساعة ، ثم ركب الى ديوان بولاق ، فنزل هناك ساعة أيضا ، ثم ركب الى بيته بحارة عابدين .

فلما وصل الباشا ، كما ذكر ، حضر اليه سليم كاشف المحرمجى وأركبه حصانا ، وركب مماليكه حميرا ، وذهبوا به الى بيت ابراهيم بيك بحارة عابدين ، فوجدوا ابراهيم بيك طلع الى الحريم ، فلم ينزل اليه ولم يقابله فرجع به سليم كاشف الى بيت حسن كاشف جركس — وهو بيت البرديسى — فبات به .

فلما كان فى الصباح ، ركب ابراهيم بيك الى قصر العينى ، فركب المحرمجى وأخذ معه الباشا ، وذهب به الى قصر العينى ، فقابل ابراهيم بيك

والأتراك والأغراب من الشوام والحلبية بالسفر والخروج من مصر ، فكل من وجد بعد ثلاثة أيام فدمه هدر . وأمروا عثمان بيك أمير الحاج بالسفر على جهة الشام من البر ، ويسافر المنادى عليهم صحبته ، وكذلك ابراهيم باشا .

٨ منه (٢٨ يولية ١٨٠٣ م) :

خرج عثمان بيك الى جهة العادلية ، وخرج الكثير من أعيان العثمانية معه ، وتتابع خروجهم فى كل يوم ، وصاروا يبيعون متاعهم وثيابهم .. وهم خزايا حيارى .. فى أسوأ حال ، وأكثرهم متأهل ومتزوج . ومنهم من نهب وسلب ، وصار لا يملك شيئا !

فلما تكامل خروجهم وسافروا فى عاشره ، وهم زيادة عن ألفين ، وبقى منهم أناس التجأوا الى بعض المصرلية والانجليز . واتتموا اليهم .

وفيه : وصلت الأخبار بأن البرديسى وصل الى رشيد ، وأن السيد على باشا ريس القبطانية تحصن ببرج مغيزل ، وغالب أهلها جلا عنها خوفا من مثل حادثة دمياط . ولما دخل عثمان بيك البرديسى الى رشيد ، فرد على أهلها مبلغ دراهم ، يقال ثمانين ألف ريال .

١٣ منه (٢ اغسطس ١٨٠٣ م) :

حضر قنصل الفرنسيس ، فعملوا له شنكا ومدافع ، وأركبوه من بولاق بموكب جليل ، وقدامه أغات الانكشارية والوالى وأكابر الكشاف وحسين كاشف المعروف بالأفرنجى وعساكره الذين مثل عسكر الفرنسيس ، وهيئته لم يتقدم مثلها بين المسلمين . ونصب بنديرته فى بركة الأزبكية من ناحية قنطرة الدكة ، على صارى طويل مرتفع فى الهواء .

واجتمع اليه كثير من النصارى الشوام والأقباط وعملوا جمعيات وولائم ، وازدحموا على بابه . وحضر صحبته كثير من الذين هربوا عند دخول المسلمين مع الوزير ، وكان المحتفل بذلك حسين كاشف الأفرنجى .

١٨ منه (٧ اغسطس ١٨٠٣ م) :

وصلت مكاتبة من البرديسى الى ابراهيم بيك يخبرفيها : « أنه لما وصل الى رشيد وتحصن السيد على باشا بالبرج..أرسل اليه ، فبعث له حسن بيك — قرابة على باشا الطرابلسى الوالى — فتكلم معه وقال له : « ما المراد ؟ ان كان حضرة الباشا واليا على مصر فليأت على الشرط والقانون القديم،ويقيم معنا على الرحب والسعة ، وان كان خلاف ذلك فأخبرونا به »..الى أن انتهى الكلام بيننا وبينه على مهلة ثلاثة أيام ... ورجع . وانتظرنا بعد مضى الميعاد بساعتين ، فلم يأتنا منهم جواب . فضربنا عليهم فى يوم واحد مائة وخمسين قنطارا من البارود . وأنكم ترسلون لنا أعظم ما يكون عندكم فى البنب والمدافع والبارود » .

فشهلوا المطلوب ، وأرسلوه فى ثانى يوم صحبة حسين الأفرنجى ، وتراسل الطلب خلفه ، ولحقوا به عدة أيام .

٢٠ منه (٩ اغسطس ١٨٠٣ م) :

وصل حسن باشا — الذى كان والى جرجا — الى مصر العتيقة . فركب ابراهيم بيك للسلام عليه ، وحضر الطبجية الى جبخانته ، فأخذوها وطلعوا بها الى القلعة ، وكذلك الجمال أخذها الجمالة ، والعسكر ذهبوا الى رفقائهم الذين بمصر . وطولب بالمال ، واستمر بمصر العتيقة مستحفظا به من كل ناحية .

٢٥ منه (١٤ اغسطس ١٨٠٣ م) :

وقعت نادرة ، وهى أن محمد باشا طلب من

سليم كاشف المحرمجى أن يأذن له فى أن يركب الى خارج الناصرية لقصد التفسح . فأرسل سليم كاشف يستأذن ابراهيم بيك فى ذلك ، فأذن له بأن يركب ويعمل رماحة ، ثم يأتى اليـه بقصر العينى فيتغدى عنده ثم يعود . وأوصى على ذبح أغنام ، ويعملون له كبابا وشواء .

فأركبه سليم كاشف بمماليكه وعدة من مماليك المحرمجى ، وصحبته ابراهيم باشا . فلما ركب وخرج الى خارج الناصرية ، أرسل جواده ورمحه ، وتبعه مماليكه من خلفه . فظن المماليك المصرلية أنهم يعملون رماحة ومسـابقة . فلمـا غابوا عن أعينهم ، سـاقوا خلفهم .. ولم يزالوا سائقين الى الأزبكية وهو شاهر سيفه ، وكذلك بقية الطاردين والمطرودين . فدخل الى أحمد بيك الأرنؤودى وضرب بعض المماليك فرسه ببارودة فسقط ، وذلك عند وصوله الى بيت أحمد بيك المذكور..

ووصل الخبر الى سليم كاشف ، فركب على مثل ذلك بباقى أتباعه ، وهم شـاهرون السيوف ورامحون الخيول . واتصل الخبر بابراهيم بيك ، فأمر الكشاف بالركوب ، وأرسـل الى البواقى بالطلوع الى القلعة وحفظ أطارف البلد .

فركب الجميـع ، وتفرقوا رامحين وبأيديهـم السيوف والبنادق . فانزعجت الناس ، وترامحوا ، وأغلقوا الحوانيت ، واختلفت رواياتهم ، وظنـوا وقوع الشقاق بين الأرنؤود والمصرلية . وكذلك المماليك المصرلية أيقنوا ذلك ، وطلع الكثير منهم الى القلعة .

ولما دخل محمد باشا عند أحمد بيك ومن معه من أكابر الأرنؤود ... قاموا فى وجهـه ، ووبخوه بالكلام ، وقبضوا عليه وعلى مماليكه ، وأخذوا ما وجـدوه معهم من الدراهم . وكان فى جيب الباشا خاصـة ألف وخمسمائة دينـار . وحضر سليم كاشف المحرمجى عند ذلك ، فسلموه له ، فأركبه الباشا أكديشا لأن فرسه أصيب ببـارودة من بعض المماليك اللاحقين به وذلك عند وصوله الى بيت أحمـد بيك . وركب معه أحمـد بيـك أيضا ، وأخـذوه الى عند ابراهيم بيـك بقصر العينى . فخلع ابراهيم بيك على أحمد بيك فروة سمور وقدم له حصانا بسرجه ، وسكنت الفتنة .. ونعوذ بالله من الخذلان ومعاداة الزمان .

٢٦ منه (١٥ اغسطس ١٨٠٣ م) :

وردت الأخبار ومكاتبة من البرديسى بنصرتهم على العثمانية ، واستيلائهم على برج رشيد بعد أن حاربوا عليـه نيفا وعشرين يوما ، وأسروا السيد على القبطان وآخرين معه وعدة كثيرة من العسـكر ، وأرسلوهم الى جهة الشرقية ليذهبوا على ناحيـة الشام ، بعد أن قتل منهم من قتل . فعنـد ذلك عملوا شنكا وضربوا مدافع كثيرة ، وكذلك فى ثانى يوم وثالث يوم .

بعض اعوان ابراهيم بيك يرمحون شاهرى السيوف

٢٩ منه (١٨ اغسطس ١٨٠٣ م) :

كسفت الشمس وقت الضحوة ، وكان المنكسف تسعة أصابع — وهو نحو الثلثين — وأظلم الجو . وابتداؤه الساعة واحدة وثماني دقائق ونصف ، وتمام الانجلاء فى ثالث ساعة وست عشرة دقيقة. وكان ذلك فى أيام زيادة النيل . نسأل الله العفو والعافية ، فى الدين والدنيا والآخرة .

جمـــادى الأولى

السبت ٢ منه (٢٠ اغسطس ١٨٠٣ م الموافق ١٥ مسرى ١٥١٩ ق) :

وفى النيل سبعة عشر ذراعا ، وكسر سد الخليج صبحها بحضرة ابراهيم بيـك قائمقام والقاضى . وجرى الماء فى الخليج على العادة

وفيه : وردت الأخبار بأن على باشا كسر السد الذى ناحية أبى قير الحاجز على البحر المالح . وهذا السد من قديم الزمان من السدود العظام المتينـة السلطانية وتتفقده الدول على ممر الأيام بالمرمة والعمارة اذا حصل به أدنى خلل فلمـا اختلت الأحوال ، وأهمل غالب الأمور وأسباب العمارات ، انشرم منه شرم فسالت المياه المالحة على الأراضى والقرى التى بين رشيد وسكندرية ، وذلك فى نحو ستة عشرعاما . فلم يتدارك أمره واستمرحاله بزيد، وخرقه يتسع ، حتى انقطعت الطرق . واستمر ذلك الى واقعة الفرنسيس .

فلما حضرت الانكليز والعثمانية شرموه أيضا من النـاحية البحرية لأجـل قطع الطـرق على الفرنسيس فسالت المياه المالحة على الأراضى الى قريب دمنهـور ، واختلطت بخليج الأشرفيـة . وشرقت الأراضى ، وخربت القرى والبلاد ، وتلفت المزارع ، وانقطعت الطرق حول الاسكندرية من البر،وامتنع وصول ماء النيل الى أهل الاسكندرية. فلم يصـل اليهم الا ما يصلهم من جهة البحر فى النقاير ، أو ما خزنوه من مياه الأمطار بالصهاريج وبعض العيون المستعذبة .

فلما استقر العثمانيون بمصر ، حضر شخص من طرف الدولة يسمى صـالح أفنـدى معين لخصوص السد ، وأحضر معه عدة مراكب بهـا أخشـاب وآلات ، وبذل الهمة والاجتهاد فى سد الجسر . فأقام العمل فى ذلك نحو سنة ونصف حتى قارب الاتمـام ، وفرح النـاس بذلك غاية الفرح ، واستبشر أهل القرى والنواحى .

فما هو الا وقد حصلت هذه الحوادث ، وحضر على باشـا الى الثغر ، وخرج الأجناد المصريـة وحاربوا السيد على باشا القبطان على برج رشيد . فخاف حضورهم الى الاسكندرية ، ففتحه ثانيـا ورجع التلف كما كان ، وذهب ما صنعه صالح أفندى المذكور فى الفارغ ... بعدما صرف عليـه أموالا عظيمة !

وأما أهل سكندرية ، فانهم جلوا عنها ، ونزل البعض فى المراكب وسافر الى أزمير ، وبعضهم الى قبرص ورودس والأضات . وبعضهم اكترى بالأيام وأقاموا بها على الثغر ، ولم يبق بالبلدة الا الفقراء والمواجز ، والذين لا يجـدون ما ينفقوله على الرحلة ، وهم أيضا مستوفزون . وعم بها الغلاء لعدم الوارد ، وانقطاع الطرق .

وقيل ان على باشا المذكور فرد عليهم مالا ، وقبض على ستة أنفار من أغنياء المغاربة ، واتهمهم أنهم كتبوا كتابا للبرديسى يعدونه انه اذا حضر يدلونه على جهة يملك منها البـلد بمعونة عسكر المغاربة . فأخذ منهم مائة وخمسين كيسا بشفاعة القبطان الذى فى البيليك بالثغر .

واجتهد فى حفر خندق حول البلد واستعملهم فى ذلك الحفر .. وفى عزمه أن يطلق فيه ماء البحر المالح . فان فعل ذلك ، حصل به ضرر عظيم . فقد

أخبر من له معرفة ودراية بالأمور ، أنه ربما خرب اقليم البحيرة بسبب ذلك !

واجتهدوا أيضا فى تحصين المدينة زيادة عن فعل الفرنسيس والانكليز .

السبت ٩ منه (٢٧ اغسطس ١٨٠٣ م) :

وصل السيد على القبطان الى مصر ، وطلع الى قصر العينى، وقابل ابراهيم بيك.. فخلع عليه فروة سمور ، وقدم له حصانا معددا وأكرمه وعظمه . وأنزلوه عند على بيك أيوب ، وأعطوه سرية بيضاء وجارية حبشية وجاريتين سوداوين للخدمة ! ورتبوا له ما يليق به . وهو رجل جليل من عظماء الناس وعقلائهم .

وأخبر القادمون أن البرديسى والأجناد المصريين ارتحلوا من رشيد الى دمنهور قاصدين الذهاب الى سكندرية . وأرسلوا بطلب ذخيرة وجبخانة ومماليك وعساكر .

وفيه : أرادوا عمل فردة . وأشيع بين الناس ذلك ، فانزعجوا منه . واستمر الرجاء والخوف أياما . ثم انحط الرأى على قبض مال الجهات، ورفع المظالم والتحرير من البلاد والميرى عن سنة تاريخه من الملتزمين . ويؤخذ من القبط ألف وأربعمائة كيس ، هذا مع توالى وتتابع الفرد والكلف على البلاد ... حتى خرب الكثير من القرى والبلاد ، وجلا أهلها عنها ، خصوصا اقليم البحيرة فانه خرب عن آخره . ثم ان البرديسى استقر بدمنهور بعد ما أبقى برشيد مملوكه يحيى بيك ومعه جملة من العساكر ، وكذلك بناحية البغاز . وهم كانوا من وقت محاصرة البرج حتى منعوا عنه الامداد الذى أتاه من البحر ، وكان ما كان .

وشحن البرديسى برج مغيزل بالذخيرة والجبخانة . وأنزلوا برشيد عدة فرد ومغارم ، وفتحوا بيوت الراحلين عنها ونهبوها ، وأخذوا أموالهم من الشوادر والحواصل والأخشاب والأحطاب والبن والأرز . وقلت الأقوات فيهم والعليق ، فعلفوا الدواب بشعير الأرز ... بل والأرز المبيض .. وغير ذلك مما لا تضبطه الأقلام ، ولا تحيط به الأوهام !

الجمعة منتصفه (٢ سبتمبر ١٨٠٣ م) :

فى أيام النسىء : نقص النيل نقصا فاحشا ، وانحدر من على الأراضى . فانزعج الناس وازدحموا على مشترى الغلال ، وزاد سعرها . ثم استمر يزيد قيراطا وينقص قيراطين الى أيام الصليب .

وانكبت الخلائق على شراء الغلال ، ومنع الغنى من شراء ما زاد على الاردب ونصف أردب ، والفقير لا يأخذ الا ويبة فأقل ، ويمنعون الكيل بعد ساعتين . فتذهب الناس الى ساحل بولاق ومصر القديمة ويرجعون من غير شىء .

واستمر سليم أغا مستحفظان ينزل الى بولاق فى كل يوم ، وصار الأمراء يأخذون الغلال القادمة بمراكبها قهرا عن أصحابها ويخزنونها لأنفسهم... حتى قلت الغلة ، وعز وجودها فى العرصات والسواحل ، وقل الخبز من الأسواق والطوابين ، وداخل الناس وهم عظيم .. وخصوصا مع خراب البلاد بتوالى الفرد والمغارم .

وعز وجود الشعير والتبن ، وبيعت الدواب والبهائم بالسعر الرخيص بسبب قلة العلف .

واجتمع بعض المشايخ ، وتشاوروا فى الخروج الى الاستسقاء ... فلم يمكنهم ذلك لفقد شروطها . وذهبوا الى ابراهيم بيك وتكلموا معه فى ذلك . فقال لهم : « وأنا أحب ذلك .. ! » فقالوا له : « وأين الشروط التى من جملتها رفع المظالم وردها ، والتوبة والاقلاع عن الذنوب ، وغير ذلك » . فقال لهم : « هذا أمر لا يمكن .. ولا

يتصور .. ولا أقدر عليه .. ولا أحكم الا على نفسي ! » . فقالوا : « اذن . نهاجر من مصر » ، فقال : « وأنا معكم ! » . ثم قاموا وذهبوا .

فى اواخره (حوالى منتصف سبتمبر ١٨٠٣ م) :

وردت الأخبار برجوع البرديسى ومن معه من العساكر . وقد كان أشيع أنهم متوجهـون الى الاسـكندرية ، ثم ثنى عزمه عن ذلك لأمور ... الأول وجود القحط فيهم وعدم الذخيرة والعلف . والثانى : الحاح العسكر بطلب جماكيهم المنكسرة وما يأخذونه من المنهوبات لا يدخل فى حساب جماكيهم . والثالث : العجز عن أخذ الاسكندرية لوعر الطريق ، وانقطاع الطرق بالمياه المالحة . فلو وصلوها ، وطال عليهم الحصار .. لايجدون ما يأكلون ولا ما يشربون .

جمادى الآخرة

الاحد غرته (١٨ سبتمبر ١٨٠٣ م) :

نقص ماء النيل ، ووقف ماء الخليج ، وازدحم السقاءون على نقل الماء الى الصهاريج والأسبلة ليلا ونهارا من الخليج ، وقد تغير ماؤه بما ينصب فيه من الخرارات والمراحيض !

ولم ينزل بالأراضى التى بين بولاق والقاهرة قطرة ماء . وزاد ضجيج الناس ، وارتفعت الغلات من السواحل والعرصات بالكلية . فكانت الفقراء من الرجال والنساء يذهبون بغلقانهم الى السواحل ويرجعون بلا شىء ، وهم يبكون ويولولون !

الجمعة ٦ منه (٢٣ سبتمبر ١٨٠٣ م) :

وصل البرديسى ومن معه من العساكر الى بر الجيزة ، وخرج الأمراء وغيرهم وعدوا لملاقاتهم .

فلما أصبح يوم السبت ، عدى محمد على والعسـاكر الأرنؤودية الى بـر مصر . وكذلك البرديسى .. فخرجت اليهم الفقـراء بمقـاطفهم وغلقانهم ، وعيطوا فى وجوههم ... فوعدهم بخير وأصبح البرديسى مجتهدا فى ذلك ، وأرسل محمد عـلى وخـازنداره ، ففتحـوا الحواصـل التى ببولاق ومصر العتيقـة ، وأخرجـوا منها الغلال الى السواحل . واجتمع العالم الكثير من الرجال والنساء ، فأذنوا لكل شخص من الفقراء بويبة غلة لا غـير . فكان الـذى يريد الشراء يذهب الى خازندار البرديسى ويأخذ منه ورقة بعـد المشقة والمزاحمة ، ويذهب بها . فيكيلون له ويدفع ثمنها لصاحب الغلة ، وما رتبوه عليها . فحصل للنـاس اطمئنـان . واشترى الخبازون أيضا ، وفتحـوا الطوابين والمخـابز ، وخبزوا وباعوا ، فكثر الخبز والكعك بالأسـواق . وجعلوا سعر القمح سـتة ريال الأردب ، والفـول خمسـة ريال ، وكذلك الشعير ان وجد . وكان السعر لا ضابط له : منهم من كان يشتريه بثمانية وتسعة وسبعة خفيـة ، ممن توجد عنده الغلة فى مصر أو الأرياف . فعند ذلك سكن روع النـاس ، واطمأنت نفوسهم ، وشبعت عيونهم ، ودعوا لعثمان بيك البرديسى !

وفى هذا الشهر تحقق الخبر بجلاء الوهابى عن جدة ومكة ورجوعه الى بلاده . وذلك بعد أن حاصر جدة وحاربها تسعة أيام ، وقطع عنها الماء . ثم رحل عنهـا وعن مكة ، ورجع الشريف غالب الى مكة وصحبته شريف باشا ، ورجع كل شىء الى حاله الأول .. ورد المكوس والمظالم !

الأحد ٨ منه (٢٥ سبتمبر ١٨٠٣ م) :

وصل البرديسى الى بيتـه بالناصرية — وهو بيت حسن كاشف جركس وبيت قاسـم بيك — وقد فرشا له ، ونقلوا محمد باشا من بيت جركس الى دار صغيرة بجواره وعليه الحرس .

الاثنين ٩ منه (٢٦ سبتمبر ١٨٠٣) :

عملوا ديوانا عند ابراهيم بيك . فاجتمع فيه هو والبرديسى والألفى وتشاوروا فى أمر جامكية العسكر ، فوزعوا على أنفسهم قدرا ، وكذلك على باقى الأمراء والكشاف والأجناد ... كل منهم على قدر حاله فى الايراد والمراعاة : فمنهم من وزع عليه عشرون كيسا ، ومنهم عشرة ، وخمسة ، واثنان ، وواحد ، ونصف واحد .

وطلبوا من جمرك البهار قدرا كبيرا ، فعملوا على كل فرقتين مائة ريال ، وفتحوا الحواصل وأخرجوا منها متاع الناس ، وباعوه بالبخس على ذلك الحساب ... وأصحابه ينظرون !

وأخذوا بن الحضارمة والينبعاوية ، بحيث وقف الفرق البن بستة ريال على صاحبه ، وأخذوا من ذلك الأصل ألف فرق بن ، وأخرجت من الحواصل وحملت .

السبت ١٤ منه (أول اكتوبر ١٨٠٣ م) :

أنزلوا فردة أيضا على أهل البلد ، ووزعوها على التجار وأرباب الحرف ... كل طائفة قدرا من الأكياس : خمسين فما دونها ، الى عشرة وخمسة وبث الأعوان للمطالبة . فضج الناس ، وأغلقوا حوانيتهم ، وطلبوا التخفيف بالشفاعات والرشوات للوسايط والنصارى ، فخفف عن البعض . وبعد منتصف الشهر انقلب الوضع المشروع فى الغلة ، وانعكس الحال الى أمر شنيع . وهو أنهم سعروها كل أردب بستة ريال بظاهر الحال ، ولا يبيع صاحب الغلة غلته الا باذن من القيم بعد ما يأخذ منه نصف الغلة أو الثلث أو الربع — على حسب ضعفه وقوته — من غير ثمن . واذا أراد ذو الجاه الشراء ذهب أولا سرا وقدم المصلحة والهدية الى بيت القيم ، فعند ذلك يؤذن له فى مطلوبه ، فيكيلون له الغلة ليلا . وصار يتأخر فى حضوره الى الساحل الى قريب الظهر ، فيذهب الناس والفقراء فينتظرونه واذا حضر ازدحموا عليه ، وتقدم أرباب المصانعات والوسايط فيؤذن لهم ، ويؤخذ منهم عن كل أردب ريال ... يأخذها القيم لنفسه زيادة عن الثمن وعن الكلفة — وهى نحو الخمسين فضة — خلاف الأجرة ! ويرجع الفقراء من غير شىء .

وأطلقوا للمحتسب أن يأخذ فى كل يوم أربعمائة أردب : منها مائتان للخبازين ، ومائتان توضع بالعرصات داخل البلد . فكان يأخذ ذلك الى داره ، ولا يضعون بالعرصات شيئا ، ويعطى للخبازين من المائتين ، خمسين أردبا أو ستين ! ويبيع الباقى بأغراضه بما أحب من الثمن ليلا . فضج الناس ، وشح الخبز من الأسواق ، وخاطب بعض الناس الأمراء الكبار فى شأن ذلك . واستمر الحال على ذلك الى آخر الشهر .. والأمر فى شدة . وتسلط العسكر والمماليك على خطف ما يصادفونه من الغلة أو التبن أو السمن فلا يقدر من يشترى شيئا من ذلك أن يمر به ، ولو قل ، حتى يكترى واحدا عسكريا ، أو مملوكا يحرسه حتى يوصله الى داره .

وان حضرت مركب بها غلال وسمن وغنم من قبلى أو بحرى ، أخذوها ونهبوا ما فيها جملة ، فكان ذلك من أعظم أسباب القحط والبلاء !

الجمعة ٢٠ منه (٧ اكتوبر ١٨٠٣ م) :

مات محمد بيك الشرقاوى ، وهو الذى كان عوض سيده عثمان بيك الشرقاوى .

رجب

فى غرته (١٧ اكتوبر ١٨٠٣ م) :

رفعوا خازندار البرديسى من الساحل ، وقلدوا محمد كاشف — تابع سليمان بيك الأغا — أمين

البحرين والساحل . ورفق بالأمر ، واستقر سعر الغلة بألف ومائتين نصف فضة..الأردب ، فتواجدت بالرقع والساحل ، وقل الخطف . وأما السمن فقل وجوده جدا ، حتى بيع الرطل بستة وثلاثين نصفا، فيكون القنطار بأربعين ريالا . وأما التبن فصار يباع بالقدح ان وجد ، وسرب الناس بهائمهم من عدم العلف .

وفيه : حضر واحد انكليزى وصحبته مملوك الألفى وبعض من الفرنسيس ، فعلموا لهم شنكا ومدافع . وأشيع حضور الألفى الى اسكندرية ، ثم تبين أن هذا الانكليزى أتى بمكاتبات . فلما مر على مالطة وجد ذلك المملوك ، وكان قد تخلف عن سيده لمرض اعتراه ، فحضر صحبته الى مصر . فأشيع فى الناس أن الألفى حضر الى الاسكندرية ، وأن هذا خازنداره سبقه بالحضور .. الى غير ذلك .

وفيه : حضر أيضا بعض الفرنسيس بمكاتبة الى القنصل بمصر ، وفيها الطلب ببواقى الفردة التى بذمة الوجاقلية . فخاطب القنصل الأمراء فى ذلك ، فعملوا جمعية ، وحضر المشايخ وتكلموا فى شأن ذلك ، ثم قالوا : « ان الوجاقلية الذين كانت طرفهم تلك الفردة ... مات بعضهم ، وهو يوسف باشجاويش ، ومصطفى كتخدا الرزاز — وهم عظماؤهم — ومن بقى منهم لا يملك شيئا » . فلم يقبلوا هذا القول ، ثم اتفق الأمر على تأخير هذه القضية الى حضور الباشا ويرى رأيه فى ذلك .

وحضر أيضا صحبة أولئك الفرنسيس الخبر بموت يعقوب القبطى ، فطلب أخوه الاستيلاء على مخلفاته ، فدافعته زوجته ، وأرادت أخذ ذلك على مقتضى شريعة الفرنسيس . فقال أخوه : « انها ليست زوجته حقيقة،بل هى معشوقته ، ولم يتزوج بها على ملة القبط ، ولم يعمل لها الاكليل الذى

قبط مصر

هو عبارة عن عقد النكاح ... فأنكرت ذلك . فأرسل الفرنسيس يستخبرون من قبط مصر عن حقيقة ذلك . فكتبوا لهم جوابا بأنها لم تكن زوجته على مقتضى شرعهم وملتهم ، ولم يعمل بينهم الاكليل ، فيكون الحق فى تركته لأخيه .. لا لها .

وفيه : ورد الخبر بوقوع حادثة بالاسكندرية بين عساكر العثمانية وأجناس الأفرنج المقيمين بها . واختلفت الرواة فى ذلك . وبعد أيام وصل من أخبر بحقيقة الواقعة ، وهى : أن على باشا رتب عنده طائفة من عسكره على طريقة الأفرنج . فكان يخرج بهم فى كل يوم الى جهة المنشية ويصطفون ويعملون مرش واردبوش ! ثم يعودون ، وذلك مع انحراف طبيعتهم عن الوضع فى كل شىء . فخرجوا فى بعض الأيام ثم عادوا فمروا بمساكن الأفرنج ووكالة القنصل ، فأخرج الافرنج رءوسهم من الطيقان ، نساء ورجال ، ينظرون ركبهم ، ويتفرجون عليهم كما جرت به العادة فضربوا عليهم من أسفل بالبنادق ، فضرب الافرنج عليهم أيضا ... فلم يكن الا أن هجموا عليهم ، ودخلوا يحاربونهم فى أماكنهم ، والافرنج فى قلة . فخرج القناصل الستة ومن تبعهم ، ونزلوا الى البحر ، وطلعوا غليون الريالة ، وكتبوا كتابا بصورة الواقعة ، وأرسلوه الى اسلامبول والى بلادهم .

وأما العسكر أتباع الباشا فانه لما خرج الأفرنج وتركوا أماكنهم ، دخلوا اليها ، ونهبوا متاعهم وما أمكنهم . وأرسل الى القناصل خورشيد باشا فصالحهم وأخذ بخواطرهم ، واعتذر اليهم وضمن لهم ما أخذ منهم ، فرجعوا بعد علاج كبير.

وجمع الباشا علماء البلدة وأعيانها وطلب منهم كتابة عرض محضر على ما يمليه ، على غير صورة الحال . فامتنعوا عن الكتابة الا بصورة الواقع . وكان المتصدر للرد الشيخ محمد المسيرى المالكى ، فمقته ووبخه . ومن ذلك الوقت صار يتكلم فى حقه ويزدريه اذا حضر مجلسه . وسكنت على ذلك .

٤ منه (٢٠ أكتوبر ١٨٠٣ م) :

اجتمع المشايخ وذهبوا الى ابراهيم بيك ، وكلموه بسبب ما أخذوه من حصة الالتزام بالحلوان أيام العثمانيين . ثم استولى على ذلك جماعتهم وأمراؤهم . فطمنهم بالكلام اللين على عادته ، وكلموه أيضا على خبز الجراية المرتبة لفقراء الأزهر ؛ فأطلق لهم دراهم تعطى للخباز يعمل بها خبزا .

٨ منه (٢٤ أكتوبر ١٨٠٣ م) :

كتبوا مراسلة على لسان المشايخ ، وأرسلوها الى على باشا باسكندرية ، مضمونها : طلبه لمنصبه ، والحضور الى مصر ليحصل الاطمئنان، والسكون وتأمين الطرقات ، ويبطل أمر الاهتمام بالعساكر والتجاريد ، ولأجل الأخذ فى تشهيل أمور الحج . وان تأخر عن الحضور ربما تعطل الحج فى هذه السنة ، ويكون هو السبب فى ذلك .. الى غير ذلك من الكلام .

١٠ منه (٢٦ أكتوبر ١٨٠٣ م) :

سافر جعفر كاشف الابراهيمى رسولا الى أحمد باشا الجزار بعكا ، لغرض باطنى لم يظهر .

وفى هذه الأيام : كثرت الغلال بالساحل والعرصات ، ووصلت مراكب كثيرة ، وكثر الخبز بالأسواق ، وشبعت عيون الناس ، ونزل السعر الى ثمانية ريال وسبعة . وانكفوا عن الخطف الا فى التبن .

١٥ منه (٣١ أكتوبر ١٨٠٣ م) :

فتحوا طلب مال الميرى ومال الجهات ، ورفع المظالم عن سنة تاريخه . وعين لطلبها من البلاد أمراء كبار ، ووجهت الغربية والمنوفية لعسكر الأرنؤود ، فزاد على ذلك حق الطرق للمعينين للطلب والاستعجالات ، وتكثير المغارم والمعينن وكلفهم على من يتوانى فى الدفع . هذا وطلب الفردة مستمر حتى على أعيان الملتزمين ، ومن تأخر عن الدفع ضبطوا حصته وأخذوها وأعطوها لمن يدفع ما عليها من مياسير المماليك . فربماصالح صاحبها بعد ذلك عليها ، واستخلصها من واضع اليد ... ان أمكنه ذلك .

فى اواخره (حوالى منتصف نوفمبر ١٨٠٣ م) :

نبهوا على تعمير الدور التى آخربها الفرنسيس . فشرع الناس فى ذلك ، وفردوا كلفها على الدور والحوانيت والرباع والوكائل . وأحدثوا على الشوارع السالكة دروبا كثيرة لم تكن قبل ذلك . وزاد الحال ، وقلد أهل الأخطاط بعضهم كما هو طبيعة أهل مصر فى التقليد فى كل شىء ! حتى عملوا فى الخطة الواحدة دربين وثلاثة . واهتموا لذلك اهتماما عظيما ، وظنوا ظنونا بعيدة ، وأنشأوا بدنات وأكتافا من أحجار منحوتة ، وبوابات عظيمة . ولزم لبعضها هدم حوانيت اشتروها من أصحابها . وفردوا أثمانها على أهل الخطة .

وفى أواخره أيضا : تجزت عمارة عثمان بيك البرديسى فى الأبراج والبوابات التى أنشأها بالناصرية . فأنه أنشأ بوابتين عظيمتين بالرحبة

المستطيلة خارج بيته .. الذى هو بيت حسن كاشف جركس : احداهما عند قناطر السباع ، والأخرى عند المزار المعروف بكعب الأحبار . وبنى حولهما أبراجا عظيمة ، وبها طيقان بداخلها مدافع أفواهها بارزة تضرب الى الخارج ، ونقل اليها مدافع الباشا التى كانت بالأزبكية .. فسبحان مقلب الأحوال .

وفيه : نزل ابراهيم بيك والبرديسى وحسين بيك اليهودى الى بولاق ، وأخذوا ما وجدوه بساحل الغلة ، وأرسلوه الى بحرى . فارتج الناس من ذلك ، وعزت الغلال ، وزاد سعرها بعد الانحلال .

شعبان

الاربعاء غرته (١٦ نوفمبر ١٨٠٣ م) :

وصل كاتب ديوان على باشا — الذى يقال له ديوان أفندى — وعلى يديه مكاتبة وهى صورة خط شريف وصل من الدولة مضمونه : الرضا عن الأمراء المصرلية بشفاعة صاحب الدولة الصدر الأعظم يوسف باشا ، وشفاعة على باشا والى مصر ، وأن يقيموا بأرض مصر . ولكل أمير فائظ خمسة عشر كيسا لاغير ، وحلوان المحلول ثمانى سنوات ، وأن الأوسية والمضاف والبرانى ينضم الى الميرى ، وأن الكلام فى الميرى والأحكام والثغور ... الى الباشا ، والروزنامجى الذى يأتى صحبة الباشا . والجمارك والمقاطعات ، على النظام الجديد ، للدفتردار الذى يحضر أيضا .

فلما قرىء ذلك بحضرة الجمع من الأمراء والمشايخ ، أظهروا البشر ، وضربوا مدافع . ثم اتفق الرأى على ارسال جواب ذلك الفرمان . فكتبوا جوابا مضمونه مختصرا « أنه وصل الينا صورة الخط الشريف ، وحصل لنا بوروده السرور بالعفو والرضا . وتمام السرور حضوركم لتنتظم الأحوال ، وأعظمها تشهيل الحج الشريف » .

وأرسلوه ليلة الاثنين ثانيه ، صحبة رضوان كتخدا ابراهيم بيك ، ومحمود باشجاويش الانكشارية ، وصحبتهما من الفقهاء السيد محمد ابن الدواخلى من طرف الشيخ الشرقاوى .

وفى هذه الأيام : كثر عبث العسكر وعربدتهم فى الناس ، فخطفوا عمائم وثيابا ، وقبضوا على بعض أفراد ، وأخذوا ثيابهم وما فى جيوبهم من الدراهم .

وفيه : وصل قاضى عسكر مصر ، وكان معوقا بالاسكندرية من جملة المحجوز عليهم .

الأربعاء ٨ منه (٢٣ نوفمبر ١٨٠٣ م) :

حضر الوالى الى قصر الشوك ، ونزل عند رجل من تجار خان الخليلى يسمى عثمان كجك . فتعشى عنده ، ثم قبض عليه وختم على بيته ، وأخذه صحبته ، وخنقه تلك الليلة ورماه فى بئر . فاستمر بها أياما حتى انتفخ . فأخرجوه وأخذته زوجته فدفنته !

وسببه : أنه كان يجتمع بالعثمانيين ، ويغريهم بنساء الأمراء ، وأن بعضهم اشترى منه أوانى نحاسا ولم يدفع له الثمن . فطالب حريمه فى أيام محمد باشا . فلم تدفع له ، فعين عليها جماعة من عسكر محمد باشا ، ودخل بهم الى دارها وطالبها ، فقالت : ليس عندى شىء . فطلع الى داخل الحريم وصحبته العسكر ، ودخل الى المطبخ ، وأخذ قدور الطعام من فوق الكوانين ، وقلب ما فيها من الطعام ، وأخذها وخرج .

الجمعة ١٠ منه (٢٥ نوفمبر ١٨٠٣ م) :

وقف جماعة من العسكر فى خط الجامع الأزهر ، فى طلوع النهار ، وشلحوا عدة أناس وأخذوا ثيابهم وعمائمهم . فانزعج الناس ، ووقعت فيهم كرشة ، وصلت الى بولاق ومصر العتيقة ،

وأغلقوا الدكاكين . واجتمع أناس وذهبوا الى الشيخ الشرقاوى والسيد عمر النقيب والشيخ الأمير . فركبوا الى الأمراء ، وعملوا جمعية ، وأحضروا كبار العساكر وتكلموا معهم .

ثم ركب الأغا والوالى وأمامه عدة كبيرة من عسكر الأرنؤود وخلافهم . والمنادى ينادى بالأمن والأمان للرعية . وان وقع من العسكر أو المماليك خطف شىء ... يضربوه ، وان لم يقدروا عليه فليأخذوه الى حاكمه .. ومثل هذا الكلام الفارغ !

وبعد مرور الحكام بالمناداة ... خطفوا عمائم ونساء !

الأحد ١٢ منه (٢٧ نوفمبر ١٨٠٣م) :

نبه القاضى الجديد على أن نصف شعبان ليلة الثلاثاء ، وأخبر أن أتباعه شاهدوا الهلال ليلة الثلاثاء وهم عند البغاز . على أن الهلال كان ليلة الأربعاء عسر الرؤية جدا . فكان هذا أول أحكامه الفاسدة !

الأربعاء ١٥ منه (٣٠ نوفمبر ١٨٠٣ م) :

أشيع أن الأمراء فى صبحها ، قاصدون عمل ديوان ببيت ابراهيم بيك ليلبسوا ستة من الكشاف ، ويقلدوهم صناجق عوضا عمن هلك منهم . وهم : سليمان كاشف مملوك ابراهيم بيك الوالى ، الذى تزوج عديلة بنت ابراهيم بيك الكبير عوضا عن سيده ، وعبد الرحمن كاشف مملوك عثمان بيك المرادى الذى قتل بأبى قير ، الذى تزوج امرأة سيده أيضا ، وعمر كاشف مملوك عثمان بيك الأشقر الذى تزوج امرأة سيده أيضا ، ومحمد كاشف مملوك المنفوخ ، ورستم كاشف مملوك عثمان بيك الشرقاوى ، ومحمد كاشف مملوك سليمان بيك الأغا ، وتزوج ابنته أيضا .

فلما وقع الاتفاق على ذلك . تجمع الكشاف

لفيف من الأمراء والصناجق

الكبار ، ومماليك مراد بيك ، وآخرون من طبقتهم ، وخرجوا غضابا نواحى الآثار ، ثم اصطلحوا على تلبيس خمسة عشر صنجقا .

الاحد ١٩ منه (٤ ديسمبر ١٨٠٣ م) :

عملوا ديوانا بالقلعة ، وألبسوا فيه خمسة عشر صنجقا ، وهم أربعة من طرف ابراهيم بيك الكبير ، وهم صهراه : سليمان زوج عديلة هانم ابنة الأمير ابراهيم بيك الكبير عوضا عن سيده ، واسماعيل كاشف مملوك رشوان بيك الذى تزوج بزوجة سيده زينب هانم ابنة الأمير ابراهيم بيك أيضا ، ومحمد كاشف الغربية ، وعمر تابع عثمان كاشف الأشقر الذى تزوج بامرأته ، وخليل أغا كتخدا ابراهيم .

ومن طرف البرديسى : حسين أغا الوالى ، وسليمان خازندار مراد بيك ، وشاهين كاشف مراد ، ومحمد تابع محمد بيك المنفوخ المرادى ، ورستم تابع عثمان بيك الشرقاوى ، وعبد الرحمن كاشف تابع عثمان بيك الطنبرجى ... الذى تزوج بامرأته .

ومن طرف الألفي : عثمان آغا الخازندار ، وحسين كاشف المعروف بالوشاش ، وصالح كاشف ، وعباس كاشف تابع سليمان بيك الآغا .

ولبسوا حسن آغا مراد والى عوضا عن حسين المذكور .

وفيه : ورد الخبر بوصول طائفة من الانكليز الى القصير ، وهم يريدون على الألفين .

الاثنين ٢٠ منه (٥ ديسمبر ١٨٠٣ م) :

حضر مكتوب من رضوان كتخدا ابراهيم بيك من اسكندرية ، يخبر فيه : أنه وصل الى اسكندرية ، وقابل الباشا ، ووعد بالحضور الى مصر ، وأنه يأمر بتشهيل أدوات الحج ولوازمه . واطلق أربعة وأربعين نقيرة حضرت الى رشيد ببضائع للتجار .

وفيه : حضر جعفر كاشف الابراهيمى من الديار الشامية ، وقد قابل أحمد باشا الجزار وأكرمه ، ورجع بجواب الرسالة . وسافر ثانيا بعد أيام .

وفيه : قلدوا سليمان بيك الخازندار ولاية جرجا ، وخرج بعسكره الى مصر القديمة ، وجلس هناك بقصر المحرمجى . فاتفق أن جماعة من عسكره الأتراك الذين انضموا اليهم من العثمانية ، تشاجروا مع العساكر البحرية جماعة حسين بيك اليهودى بسبب امرأة رقاصة فى قهوة . فقتل من الأتراك ثلاثة ، ومن البحرية أربعة ، وانجرح منهم كذلك جماعة . فحنق حسين بيك وتترس بالمقياس وبالمراكب ، ووجه المدافع الى القصر وضرب بها عليه .

وكان سليمان بيك غائبا عن القصر . فدخلت جلة داخل القصر من الشباك بين جماعة من الأمراء كانوا جالسين هناك ينتظرون رب المكان ، ففزعوا وخرجوا من المجلس . وبلغ سليمان بيك الخبر ، فذهب الى البرديسى وأعلمه . فأرسل البرديسى يطلب حسين بيك . فامتنع من الحضور ، والتجأ الى الألفى .

فأرسل البرديسى خبرا الى الألفى بعزل حسن بيك عن قبطانية البحر ، وتولية خلافه . فلم يرض الألفى بعزله ، وقال : « لايذهب .. ولا يعزل » ، وترددت بينهم الرسل ، وكادت تكون فتنة . ثم انحط الأمر على أن حسين بيك يطلع الى القلعة يقيم بها يومين أو ثلاثة تطيبا لخاطر سليمان بيك واخمادا للفتنة . فكان كذلك ، واستمر على ما هو عليه .

الأحد ٢٦ منه (١١ ديسمبر ١٨٠٣ م) :

ألبس ابراهيم بيك عثمان كاشف تابع على آغا كتخدا جاويشان ، واستقروا به كتخدا جاويشان عوضا عن سيده . وكان شاغرا من مدة حلول الفرنساوية .

الثلاثاء ٢٨ منه (١٣ ديسمبر ١٨٠٣ م) :

ركب حسن بيك أخو طاهر باشا فى عدة وافرة ، وحضر الى بيت عثمان بيك البرديسى بعد العصر على حين غفلة . وكان عند الحريم ، فانزعج من ذلك ، ولم يكن عنده فى تلك الساعة الا أناس قليلة . فأرسل الى مماليكه . فلبسوا أسلحتهم وأرسلوا الى الأمراء والكشاف والأجناد بالحضور . وتوانى فى النزول حتى اجتمع الكثير منهم ، وصعد بعض الأمراء الى القلعة ، وحصل بعض قلقة . ثم نزل الى التنهة وأذن لأخى طاهر باشا بالدخول اليه فى قلة من أتباعه ، وسأله عن سبب حضوره على هـ ـذه الصورة . فقال : « نطلب العلوفة » . ووقع بينهما بعض كلام . وقام وركب ولم يتمكن من غرضه .

وأرسل البرديسي الى محمد على ، فحضر اليه وفاوضه فى ذلك . ثم ركب من عنده بعد المغرب .

وفى تلك الليلة : نادوا بعمل الرؤية . فاجتمع المشايخ عند القاضي وكلموه فى ذلك ، فرجع عما كان عزم عليه . ونادوا بها ليلة الخميس . فعملت الرؤية تلك الليلة ، وركب المحتسب بموكبه على العادة الى بيت القاضي . فلم يثبت الهلال تلك الليلة .

ونودى بأنه من شعبان ، وأصبح الناس مفطرين . فلما كان فى صبحها حضر بعض المغاربة وشهدوا برؤيته . فنودى بالامساك وقت الضحى !

وترقب الناس الهلال ليلة الجمعة . فلم يره الا القليل من الناس بغاية العسر ، وهو فى غاية الدقة والخفاء .

رمضان

٢ منه (١٦ ديسمبر ١٨٠٣ م) :

فرروا فردة على البلاد برسم نفقة العسكر ، أعلى وأوسط وأدنى : ستين ألفا ، وعشرين ألفا ، وعشرة ... مع ما الناس فيه من الشراقى والغلاء والكلف والتعابين وعبث العسكر ، وخصوصا بالأرياف .

وفيه : نزلت الكشاف الى الأقاليم . وسافر سليمان بيك الخازندار الى جرجا واليا على الصعيد . وصالح بيك الألفى الى الشرقية .

٨ منه (٢٢ ديسمبر ١٨٠٣ م) :

وصل الى ساحل بولاق عدة مراكب بها بضائع رومية ويميش ، وهى التى كان أطلقها الباشا . وفيها حجاج وفرمان .

وفيه : حضر ساع من سكندرية وعلى يده مكتوب من رضوان كتخدا ومن بصحبته ، يخبرون بأن الباشا كان وعدهم بالسفر يوم الاثنين ، وبرز خيامه وخازنداره الى خارج البلد . فورد عليه مكاتبة من أمراء مصر يأمرونه بأن يحضر من طريق البر على دمنهور ، ولا يذهب الى رشيد .

فانحرف مزاجه من ذلك ، وأحضر الرسل الذين هم : رضوان كتخدا ومن معه ، وأطلعهم على المكاتبة ، وقال لهم : « كيف تقولون انى حاكمكم وواليكم ، ثم يرسلون تتحكمون على أنى لا أذهب الى مصر على هذا الوجه ؟ » ، فأرسلوا بخبر ذلك .

١٢ منه (٢٧ ديسمبر ١٨٠٣ م) :

غيمت السماء غيما مطبقا ، وأمطرت مطرا عظيما متتابعا ... من آخر ليلة الأربعاء الى سادس ساعة من ليلة الخميس .

وسقط بسببها عدة أماكن قديمة فى عدة جهات ، وبعضها على سكانها ، وماتوا تحت الردم . وزاد منها بحر النيل وتغير لونه حتى صار لونه أصفر ، مما سال فيه من جبل الطفل ، وبقى على ذلك التغير أياما ، الا أنه حصل بها النفع فى الأراضى والمزارع .

١٥ منه (٢٩ ديسمبر ١٨٠٣ م) :

ورد الخبر بخروج الباشا من الاسكندرية ، وتوجهه الى الحضور الى مصر على طريق البر . وشرعوا فى عمل المركب التى تسمى بالعقبة لخصوص ركوب الباشا ، وهى عبارة عن مركب كبير قشاشى ... يأخذونها من أربابها قهرا ، وينقشونها بأنواع الأصباغ والزينة والألوان ، ويركبون عليها مقعدا مصنوعا من الخشب المصنع ، وله شبابيك وطيقان من الخرط ، وعليه بيارق ملونة وشراريب مزينة ، وهو مصفح بالنحاس الأصفر ،

ومزين بأنواع الزينة والستائر ... والمتكفل بذلك أغات الرسالة .

فلمـا خرج الباشا من الاسكندرية ، أرسل محمود جاويش والسـيد محمـد الدواخلى الى يحيى بيك ، يقولان له : « ان حضرة الباشا يريد الحضور الى رشيد فى قلة .. وأما العساكر فلا يدخل أحد منهم الى البلد ، بل يتركهم خارجها » .

فلما وصلوا الى يحيى بيك ، وأرادوا يقولون له ذلك ، وجدوه جالسا مع عمر بيك كبير الأرنؤود الذى عنده ، وهم يقرأون جوابا أرسله الباشا الى عمر بيك المذكور ، يطلبه لمساعدته والخروج معه ، مسكه بعض أتباع يحيى بيك مع الساعى .

فلمـا سمعوا ذلك قالوا لبعضهم : « أى شيء هذا ؟ » ، وتركوا ما معهم من الكلام ، وحضروا الى مصر صحبة رضوان كتخدا .

١٦ منه (٣٠ ديسمبر ١٨٠٣ م) :

ضربوا مدافع كثيرة من القلعة وغيرها ، لورود الخبر بموت حسين قبطان باشا ، وتولية خلافه .

٢٠ منه (٣ يناير ١٨٠٤ م) :

أشيع سفر الألفى لملاقاة الباشا وصحبته أربعة من الصناجق وأبرز الخيام من الجيزة الى جهة انبـابة ، وأخـذوا فى تشهيل ذخيرة وبقسماط وجبخانة وغير ذلك .

٢٤ منه (٧ يناير ١٨٠٤ م) :

عدى الألفى ومن معه الى البر الشرقى . وأشيع تعدية الباشا الى بر المنوفية . فلما عدوا الى البر الشرقى ، انتقلوا بعرضيهم وخيامهم الى جهة شبرا ، وشرعوا فى عمل مخابز العيش فى شلقان .

وفيه : حضر واحد بيان آغا ، يسمى صالح أفندى ، وعلى يده فرمان . فأنزلوه ببيت رضوان كتخدا ابراهيم بيك ، ولا يجتمع به أحد .

فى غايته (١٣ يناير ١٨٠٤ م) :

وصل الباشا الى ناحية منوف ، وفرذوا له فردا على البلاد ، وأكلوا الزروعات وما أنبتته الأرض !

وانقضى هذا الشهر وما حصـل به من عربدة الأرنؤود ، وخطفهم عمائم النـاس ، وخصوصا بالليل . حتى كان الانسان اذا مشى يربط عمامته خوفا عليها ! واذا تمكنوا من أحد ، شلحوا ثيابه وأخذوا ما معه من الدراهم !

ويترصدون لمن يذهب الى الأسواق — مثـل سوق انبابة فى يوم السبت — لشراء الجبن والزبد والأغنام والأبقار . فيأخذون مامعهم من الدراهم ، ثم يذهبون الى السوق وينهبون ما يجلبه الفلاحون من ذلك للبيع

فامتنع الفلاحون عن ذلك ، الا فى النـادر .. خفية . وقل وجوده ، وغلا السمن حتى وصل الى ثلثمائة وخمسين نصف فضة العشرة أرطال قبانى .

وأما التبن فصار أعز من التبر ، وبيع قنطاره بألف نصـف فضة .. ان وجـد ، وعز وجود الحطب الرومى ، حتى بلغ سـعر الحملة ثلثمائة فضـة ؛ وكذا غلا سعر باقى الأحطاب ، وباقى الأمور المعدة للوقود ، مثل البقمة وجلة البهائم وحطب الذرة . ووقفت الأرنـؤود لخطف ذلك من الفـلاحين ! فكانوا يأتون بذلك فى آخر الليل ، وقت الغفلة ، ويبيعونه بأغلى الأثمان . وعلم الأرنؤود ذلك .. فرصدوهم ، وخطفوهم ، ووقع منهـم القتـل فى كثير من الناس .. حتى فى بعضهم البعض . وغالبهم لم يصم رمضان .. ولم يعرف لهـم دين يتدينـون به ، ولا مذهب ، ولا طريقة يمشـون عليهـا ... اباحية .. أسهل ما عليهم قتل النفس ، وأخذ مال

الغير ، وعدم الطاعة لكبيرهم وأميرهم ... وهم أخبث منهم . فقطع الله دابر الجميع !

وأما ما فعله كشاف الأقاليم فى القرى القبلية والبحرية من المظالم والمغارم وأنواع الفرد والتساويف .. فشىء لاتدركه الأفهام ، ولا تحيط به الأقلام . وخصوصا سليمان كاشف البواب بالمنوفية .. فنسأل الله العفو والعافية ، وحسن العاقبة فى الدين والدنيا والآخرة !

شوال

الأحد ٢ منه (١٥ يناير ١٨٠٤ م) :

تبع رجلا تاجرا من وكالة التفاح ثلاثة من العسكر ، فهرب منهم الى حمام الطنبدى . فدخلوا خلفه وقتلوه داخل الحمام ، وأخذوا ما فى جيبه من الدراهم وغيرها ، وذهبوا .

وحضر أهله وأخذوه فى تابوت ، ودفنوه ولم ينتطح فيه شاتان .

وقتل فى ذلك اليوم أيضا ، رجل عند حمام القيسرلى ، وغير ذلك .

وفيه : وصل الباشا الى ناحية شلقان ، وصحبته عساكر كثيرة انكشارية وغيرها . وأكثرهم من الذين خرجوا مطرودين من مصر ، وصحبته نحو ستين مركبا فى البحر ، بها أثقاله ومتاعه وعساكر أيضا .

وفيه : ركب الألفى والأمراء ، ما عدا ابراهيم بيك والبرديسى ، فانهما لم يخرجا من بيوتهما . وذهبوا الى مخيمهم بشبرا .

وخرج أيضا محمد على وأحمد بيك وأتباعهم ، وأبقوا عند بيوتهم طوائف منهم .

وفيه : وقعت مشاجرة بين الأرنؤودية جهة بيوت سوارى العساكر بسبب امرأة ... قتل فيها نحو خمسة أنفار بالأزبكية .

الاثنين ٣ منه (١٦ يناير ١٨٠٤ م) :

أوقفوا على أبواب المدينة جماعة من العسكر بأسلحتهم . فانزعج الناس ، وارتاعوا من ذلك ، وأغلقوا الدروب والبوابات ، ونقلوا أمتعتهم وبضائعهم من الدكاكين ، وأكثروا من اللغط . وصار العسكر الواقفون بالأبواب يأخذون من الداخل والخارج دراهم ، ويفتشون جيوبهم ويقولون لهم : « معكم أوراق » . فيأخذون بحجة ذلك ما فى جيوبهم .

الثلاثاء ٤ منه (١٧ يناير ١٨٠٤ م) :

غيروا العسكر بأجناد من الغز المصرلية ، فجلس على كل باب كاشف ومعه جماعة من العسكر . فكان الكاشف الذى على باب الفتوح يأخذ ممن يمر به دراهم . فان كان بزى الفلاحين بأن كان لابس جبة صوف أو زعبوط ، أخذ منه ما فى جيبه ، أو عشرة أنصاف ان كان فقيرا . وان

جنديان من الغز المصرلية

كان من أولاد البلد ومجمل الصورة ، أو لابس جوخة ، ولو قديمة ، طالبه بألف نصف فضة أو حبسه حتى يسعى عليه أهله ، ويدفعوها عنه ، ويطلقه .

وسدوا باب الوزير وباب المحروق ، وقفلوا باب البرقية المعروف بالغريب ... بعد أن كانوا عزموا على سده بالبناء ، ثم تركوه بسبب خروج الأموات .

وفيه : نودى بوقود القناديل ليلا على البيوت والوكائل ، وكل ثلاثة دكاكين قنديل .

الأربعاء ٥ منه (١٨ يناير ١٨٠٤ م) :

فى صبحها شق الوالى وسمر عدة حوانيت بسبب القناديل ، وشدد فى ذلك .

وفيه : انتقل الألفى ومن معه من الأمراء الى ناحية شلقان ، ونصبوا خيامهم قبال عرضى الباشا . فحضر اليه بعض أتباع الباشا وكلموه عن نزوله فى ذلك المكان ، ونصب الخيام فى داخل الخيام ، ودوسهم لهم .

فقال لهم : « هذه منزلتنا ومحطتنا » ، فلم يسع الباشا وأتباعه الا قلعهم الخيام والتأخر . فهذه كانت أول حقارة فعلها المصرلية فى العثمانية .

ونصب محمد على وأحمد بيك وعساكرهم جهة البحر . ثم ان خدم الألفى أخذوا جمالا

معسكر الألفى ناحية شلقان

ليحملوا عليها البرسيم ، فنزلوا بها الى بعض الغيطان . فحضر أمير آخور الباشا بالجمال لأخذ البرسيم أيضا ، فوجدوا جمال الألفى وأتباعه ، فنهزوهم وطردوهم ، فرجعوا الى سيدهم وأخبروه فأمر بعض كشافه بالركوب اليهم . فركب رامحا الى الغيط ، وأحضر أمير آخور الباشا ، وقطع رأسه قبالة صيوان الباشا ، ورجع الى سيده بالجمال ورأس أمير آخور !

فذهب أتباع الباشا وأخبروه بقتل أمير آخور وأخذ الجمال . فحنق وأحضر رضوان ، كتخدا ابراهيم بيك ، وتكلم معه . ومن جملة كلامه : « أنا فعلت معكم ما فعلت ، وصالحت عليكم الدولة . ولم تزل تضحك على دقنى .. وأنا أطاوعك ، وأصدق تمويهاتك الى أن سرت الى ها هنا .. فأخذتم تفعلون معى هذه الفعال ، وتقتلون أتباعى ، وترذلونى ، وتأخذون حملتى وجمالى » . فلاطفه رضوان كتخدا فى الجواب ، واعتذر اليه وقال له : « هؤلاء صغار العقول .. ولا يتدبرون فى الأمور .. وحضرة أفندى شأنه العفو والمسامحة ! » . ثم خرج من بين يديه ، وأرسل الى أتباع الألفى ، فأحضر منهم الجمال وردها الى وطاق الباشا .

وحضر اليه عثمان بيك يوسف ، المعروف بالخازندار ، وأحمد أغا شويكار ، فقابلاه وأخذا بخاطره . ولم يخرج اليه أحد من الأمراء سواهما .

وفيه : نادوا بخروج العساكر الأرنؤودية الى العرضى . وكل من بقى منهم ، ولم يكن معه ورقة من كبيره ... فدمه هدر . وصار الوالى بعد ذلك كلما صادف شخصا عسكريا من غير ورقة قبض عليه وغيبه .

واستمر يفتش عليهم ، ويتجسس على أماكنهم ليلا ونهارا ، ويقبض على من يجده متخلفا .

والقصد من ذلك ، تمييز الأرنؤودية من غيرهم المتداخلين فيهم ، وكذلك كل من مر على المتقيدين بأبواب المدينة ، وذلك باتفاق بين المصرلية والأرنؤودية لأجل تميزهم من بعضهم ، وخروج غيرهم .

وفيه : أطلقوا السيد على القبطان أغا على باشا الى القلعة .

الخميس ٦ منه (١٩ يناير ١٨٠٤ م) :

خرج البرديسي الى جهة شلقان ، ولم يخرج ابراهيم بيك ، ولم ينتقل من بيته . فنصب خيامه على موازاة خيام الألفى ، وباقى الأمراء كذلك الى الجبل ، والأرنؤودية جهة البحر .

وقد كان الباشا أرسل الى محمد على وكبار الأرنؤودية وغيرهم من قبائل العربان ومشايخ البلاد المشهورين ، مكاتبات قبل خروجه من الاسكندرية يستميلهم اليه ، ويعدهم ويمنيهم ان قاموا بنصرته ، ويحذرهم ويخوفهم ان استمروا على الخلاف وموافقة العصاة المتغلبين .

فنقل الأرنؤودية ذلك الى المصرلية ، وأطلعوهم على المكاتبات سرا فيما بينهم . واتفقوا على رد جواب المراسلة من الأرنؤودية بالموافقة على القيام معه اذا حضر الى مصر وخرج الأمراء لملاقاته والسلام عليه ، فيكون هو وعساكره من أمامهم ، والأرنؤودية المصرية من خلفهم . فيأخذونهم مواسطة ، فيستأصلونهم .. والموعد بشلقان !

وسهلوا له أمر الأمراء المصرلية ، وأنهم فى قلة لا يبلغون الفا .. ولو بلغوا ذلك ، فمن المنضمين اليهم من خلاف قبيلتهم ، وهم أيضا معنا فى الباطن !

ودبروا له تدابير ومنحات تروج على الأبالسة .. منها : أن يختار من عسكره قدر كذا من الموصوفين بالشجاعة والمعرفة بالسباحة والقتال فى البحر ، ويجعلهم فى السفن قبالته فى البحر ، وأن يعدوا بالعساكر البرية الى البر الشرقى من مكان كذا ، ويجعل الخيالة والرجالة معه .. على صفة ذكروها له .

ولما وصل الى الرحمانية ، أرسل له الأرنؤود مكاتبة سرا بأن يعدى الى البر الشرقى ، وبينوا له صواب ذلك ... وهو يعتقد نصحهم . فعدى الى البر الشرقى . فلما حضر الى شلقان ، رتب عساكره ، وجعلهم طوابير ، وجعل كل بينباشا فى طابور ، وعملوا متاريس ، ونصبوا المدافع ، وأوقفوا المراكب بما فيها من العساكر والمدافع بالبحر على موازاة العرضى .

فخرج الألفى ، كما ذكر ، بمن معه من الأمراء المصرلية والعساكر الأرنؤودية ، وأرسل الى الباشا بالانتقال والتأخر . فلم يجد بدا من ذلك . فتأخر الى زفيتة ، ونزل ونصب هناك وطاقه ومتاريسه .

وفى وقت تلك الحركة ، تسلل حسين بيك الافرنجى ومن معه من العساكر بالغلايين والمراكب ، واستعلوا على مراكب الباشا ، واحتاطوا بها ، وضربوا عليهم بالبنادق والمدافع ، وساقوهم الى جهة مصر ، وأخذوهم أسرى ، وذهبوا بهم الى الجيزة ... بعدما قتلوا من كان فيهم من العساكر المحاربين ، وكبيرهم يسمى مصطفى باشا ، أخذوه أسيرا أيضا .

وكان بالمراكب أناس كثيرة من التجار وصحبتهم بضائع وأسباب رومية — كان الباشا عوقهم بسكندرية — فنزلوا فى المراكب ليصلوا ببضائعهم ، وطمعا فى عدم دفعهم الجمرك ... فوقعوا أيضا فى الشرك ، وارتبكوا فيمن ارتبك .

ولما تأخر الباشا عن منزلته ، واستقر بأراضى زفيتة ... أحاطت به المصريون والعربان ، وتحلقوا حوله ، ووقفوا لعرضيه بالرصد . فكل من خرج من الدائرة خطفوه ، ومن الخياة أعدموه !

وأرسل اليه الألفى على كاشف الكبير ، فقال له : « حضرة ولدكم الألفى يسلم عليكم ، ويسأل عن هذه العساكر المصحوبين بركابكم ... وما الموجب لكثرتها ؟ وهذه هيئة المنابذين ... لا المسالمين . والعادة القديمة أن الولاة لا يأتون الا بأتباعهم وخدمهم المختصين بخدمتهم ، وقد ذكروا لكم ذلك وأنتم بسكندرية ! » فقال : « نعم . وانما هذه العساكر متوجهة الى الحجاز تقوية لشريف باشا على الخارجى . وعندما نستقر بالقلعة نعطيهم جماكيهم ، ونشهلهم ونرسلهم » . فقال : « انهم أعدوا لكم قصر العينى تقيمون به .. فان القلعة خربها الفرنسيس ، وغيروا أوضاعها ، فلا تصلح لسكناكم ... كما لا يخفاكم ذلك . وأما العسكر فلا يدخلون معكم بل ينفصلون عنكم ، ويذهبون الى بركة الحج ، فيمكثون هناك حتى نشهل لهم احتياجاتهم ونرسلهم . ولسنا نقول ذلك خوفا منهم ، وانما البلدة فى قحط وغلاء ، والعساكر العثمانية منحرفو الطباع ، ولا يستقيم حالهم مع الأرنؤودية ، ويقع بينهم ما يوجب الفشل والتعب لنا ولكم » .

فقال : « اذن أرحل وأرجع الى سكندرية حيثما كنت » . فقال له : « هذا لايكون .. وان فعلتم ذلك حصل لكم الضرر » ، فقال : « ان العسكر لهم عندى أربعمائة وثمانون كيسا ، أحضروها من حسابى معكم .. ندفعها لهم . وينتقلون الى البركة كما قلتم » .

ورجع على كاشف الى الأمراء بذلك الجواب . وأحضر عابدى بيك من طرف الباشا الى الأمراء — وهو كبير العساكر الانكشارية — فكلموه وكلمهم ، وميلوه وخدعوه . وذهب الى الباشا ، وعاد اليهم . فكان آخر كلامهم له : « ان بيننا وبينه فى غد : اما أن الباشا يحضر عندنا فى جماعته المختصين به ، وينزل بمخيمنا ، واما الحرب بيننا وبينه » .

وانتظروا عابدى بيك . فلم يرجع لهم بجواب ، وهى العلامة بينهم وبينه !

واشتغل هو تلك الليلة مع أصحابه وثبطهم وحل عزائمهم .

فلما أصبح الصباح ، ركب الأمراء المصرلية بعساكرهم ، وجعلوها طوابير ، وزحفوا الى عرضى الباشا من كل جهة . فأمر عساكره بالركوب والمحاربة ... فلم يتحركوا ، وقالوا : « لم تأمر بالمحاربة ؟ وليس معك فرمان بذلك ، واخواننا البحريون أخذوا عن آخرهم ، ولم تعطنا جامكية ولا نفقة ، ولا طاقة لنا بحرب المصريين على هذا الوجه » .

فلما تحقق خذلانهم له فى ذلك الوقت الضيق ، ركب فى خاصته ، وذهب الى الأمراء ، وترك خيامه وأثقاله . فاستقبلوه وأرسلوه — صحبة عثمان بيك الخازندار ورضوان كتخدا البرديسى وأحمد آغا شويكار — الى خيام أعدوها له عند خيام البرديسى .

وحضر اليه كتخدا الجاويشية وكاتب حوالة والوالى وباقى أرباب خدم الديوان . وذهب بعض خدمه وفراشينه الى قصر العينى ليفرشوه ويرتبوه وينظموه .

وأحضروا مصطفى باشا الذى كان فى المراكب ، وما كان بصحبته من لوازم الباشا الى القصر المذكور . وأشيع صلح الأمراء مع الباشا . ثم ان الألفى أرسل الى كبار عسكر الباشا ،فطلبهم ليعطيهم جماكيهم . فلما حضروا عنده — وعدتهم سبعة — عرف منهم ستة من المطرودين فى الفتن السابقة ، داروا ورجعوا الى اسكندرية لما سمعوا بعلى باشا..

فوبخهم ولعنهم ، وقال لهم : « أطلقناكم ، وعتقناكم وعفونا عنكم ، وسفرناكم ، وكأنكم عدتم لتأخذوا بثأركم » . ثم أمر بضرب أعناقهم... ففعل بهم ذلك ، ورموا فى البحر ، ماعدا سابعهم ، فانه لم يكن من الذين حضروا الى مصر ، وتعارف محمد على معه فشفع فيه ، وتركوه مع الأرنؤود !

وأحضروا متاع الباشا وحملته وطبلخاناته من عرضيه الى عرضى الأمراء ، وأمروا أولئك العساكر بالرحيل . فرحلوا مع حسين بيك الوشاش الألفى وصالح بيك الألفى . وقد كان نزل الى الشرقية ، وحضر عند وصول الباشا وصحبته جملة من العربان . ثم رجع مع خشداشينه ، مع العسكر الى شرقية بلبيس ، ليوصلوهم الى الصالحية .. والله أعلم ماذا فعل بهم . وعدتهم ألفان وخمسمائة .

السبت ٨ منه (٢١ يناير ١٨٠٤ م) :

انتقل الأمراء والباشا الى منية السيرج .

الاثنين ١٠ منه (٢٣ يناير ١٨٠٤ م) :

اشيع ركوب الباشا بالموكب الى قصر العينى على طريق بولاق . وجمع المحتسب خيول الطواحين. وخرج كثير من الناس فى ذلك اليوم الى جهة بولاق لأجل الفرجة ، وانتظروا ذلك ... فلم يحصل . وقيل انهم أخروه الى يوم الأربعاء ثانى عشرة .

الأربعاء ١٢ منه (٢٥ يناير ١٨٠٤ م) :

وصل فى صبحها التنابيه لاختيارية الوجاقات بالحضور والركوب مع الباشا . فلما كان وقت الضحوة الكبرى ، تواترت الأخبار أنهم أركبوا الباشا وسفروه الى جهة بلبيس والصالحية .

وكان من خبره أنه لما حضر الى مخيم الأمراء ، أرسل اليه عثمان بيك البرديسى كتخداه رضوان كاشف — المعروف بالعرباوى — بهدية وألف نصفية ذهب ، وبلغه السلام ولاطفه ، وقال الباشا له ولمن حضر من الأمراء : « أنا عندما قلدونى ولاية مصر ، قلت للدولة ان أول حوائجى العفو والرضا عن الأمراء المصرلية ، لأن لهم فى عنقى جميلا عندما حضرت اليهم هاربا من طرابلس ، فآوونى وأكرمونى ، وأقمت معهم مدة طويلة فى غاية الحظ والاكرام .. ولا أنسى معروفهم » .

فأجابوه بأنهم أيضا يراعون له ذلك ، ولا ينسون عشرتهم معه ، وخصوصا صداقته لسيدهم مراد بيك ، فانه كان معه كالأخوين، ولا يأتنس الا بمجالسته وركوبه معه الى الصيد وغيره ... ولو وقع منه ما وقع بمكاتبة الأرنؤود والعربان وغيرهم . فقال : « هذا شيء قد كان ، ونحن أولاد اليوم ! » .

وأقام ثلاثة أيام بالخيام التى أجلسوه بها فى عرضى البرديسى ، ورتب له طعاما فى الغداء والعشاء من طعامه . ولم يجتمع به أحد من الأمراء الكبار سوى عثمان بيك يوسف المعروف بالخازندار ، وأحمد أغا شويكار ، وأرباب الخدم .

وأما الذنب الذى نقموه عليه ، فهو أنهم ذكروا أن فى الليلة التى بات بها فى عرضى البرديسى ، كان خرج من خيامه فارس على فرس يعدو بسرعة ، فصهلت الخيل ، وانزعج العرضى ، وجروا خلفه فلم يلحقوه . فسألوا الباشا عن ذلك ، فقال : « لعله حرامى أراد أن يسرق شيئا وخرج هاربا ! » . فلما حصل ذلك ، أجلسوا حوله عدة من المماليك المسلحين . فسأل عنهم ، فقيل له : « انهم جلوس بقصد المحافظة من السراق ! » . ثم انهم قبضوا على هجان بناحية البساتين مسافر الى قبلى ، زعموا أنهم وجدوا معه مكاتبات من الباشا خطابا الى عثمان بيك حسن بقنا ، يطلبه للحضور الى مصر ليكون معينا له ، ويعده بامارة مصر .. ونحو ذلك .

فلما كان يوم الأربعاء المذكور ، حضر اليه الجماعة فسلموا عليه ، وأذن لهم بالجلوس فجلسوا وهم سكوت ينظرون الى بعضهم . فنظر لهم الباشا وقال : « خيرا » . فتكلم رضوان كتخدا البرديسى وقال : « ألسنا اصطلحنا مع حضرة أفندينا ، وصفا خاطره معنا ؟ » . قال : « نعم .. ». قال له : « هل وقع من حضرتكم لأحد مكاتبة قبل ذلك ؟ » . قال : « لا » . قال : « لعلكم أرسلتم مكاتبة الى قبلى ؟ » ، قال : « لم يكن ذلك أبدا » ، فأخرج له مكتوبا وناوله اياه .. فلما رآه قال : « نعم .. هذا مما كنا كتبناه بسكندرية » . فقالوا له : « انا وجدناه أمس مع الهجان المسافر به الى جهة البساتين ، قبض عليه المحافظون بتلك الجهة فى ساعته ، وتاريخه قريب » . فسكت متفكرا . فقاموا على أقدامهم وقالوا : « بيرون » .. يعنى تفضلوا . فقال : « الى أين ؟ » فقالوا : « الى غزة .. فانه لا أمان لنا معك بعد ذلك » .

ولم يمهلوه لكلام يقوله ، ولا عذر يبديه . حتى انهم لم يمهلوه لمجىء مركوبه المختص به ، بل قدموا له فرسا لبعض المماليك ، وأركبوه له . وفى حال ركوبه ، رأى الأمراء المستعدين للذهاب معه وقوفا فى انتظاره . فقال لهم : « ان صحبنى أحد منكم فقولوا لهم يكونون متباعدين عنى فى الحط والترحال » . فأجابوه الى ذلك .

وسار معه محمد بيك المنفوخ ، وسليمان بيك صهر ابراهيم بيك ... على الشرط وركب أتباعه خيول الطواحين ، التى كانوا أعدوها للركوب . وكان الطحانون ينتظرون متى ينقضى الركوب ، ويأخذون خيولهم.فلما تحقق سفرهم ، طارت عقول الطحانين ، وذهبوا الى صيوان البرديسى يشكون اليه عطل مطاحن البلد . فقال لهم : « دونكم .. ها هى أمامكم اذهبوا فخذوها » . فجروا خلفهم ، ومسك كل طحان فى فرسه أو أفراسه ، وأنزل عنها راكبها ، وأخذوها ورجعوا مسرورين بخيولهم . ولم يقدروا على منعهم ، لأنهم صاروا أذلاء مقهورين !

وركبوا بدلها جمالا ، وحجز البرديسى طبلخانة الباشا ومهاترته وطقمه وغالب متاعه . وأشيع ركوبه وذهابه .

الخميس ١٣ منه (٢٦ يناير ١٨٠٤ م) :

دخل الأمراء والعساكر الأرنؤودية وأكابرهم ، وهم فرحون مسرورون ، وخلفهم الطبول والزمور. وركب حسين بيك الأفرنجى المعروف باليهودى ، وأمامه العسكر المختصون به ، بطبلهم مثل طبل الفرنسيس ، وعلى رءوسهم برانيط من نحاس أصفر ، وهم نصارى وأروام وتكرور . وخلف البرديسى نوبة الباشا ومهاترته بعينهم يطبلون ويزمرون . ولم يدخل الألفى معهم ، بل ركب من عرضيه بأمرائه وكشافه ، فذهب الى عرب بلى بالجزيرة ... فطرقهم على حين غفلة ، وقتل منهم أناسا ، ونهب مواشيهم ونجعهم . وضرب أيضا زفيتة وأجهور ونحو عشرين بلدا،وحرقوا أكثرهم، وأخذوا زرعهم ومتاعهم . بسبب أنه لما كان الباشا كاتب مشايخ البلاد والعربان ، اغتروا به ، وعندما حل بالقرب منهم قبحوا فى حق المصرلية وأتباعهم ، وطردوهم وأسمعوهم أفحش الكلام . وقامت عربان الشرقية ، وتعصبوا على صالح بيك الألفى ، فأوجب تحامل المصرلية عليهم ، حتى جازوهم به عندما فرغوا من أمر الباشا

وفى تلك الليلة — أعنى ليلة الجمعة رابع عشره — حصل خسوف للقمر جزئى بعد رابع ساعة من الليل ، ومقدار المنخسف أربع أصابع وثلث ، وانجلى فى سابع ساعة ... الا شيئا يسيرا .

وفى ذلك اليوم : أرسل البرديسى الى شيخ السادات تذكرة صحبة واحد كاشف من أتباعه ، يطلب عشرين ألف ريال سلفة ، فلاطفه ورده بلطف. فرجع الى مخدومه وأبقى ببيت الشيخ جماعة من العسكر . فوبخه على الرجوع من غير قضاء حاجة ، وأمره بالعود ثانيا . فعاد اليه فى خامس ساعة من الليل وصحبته جماعة أخرى من العسكر ، فأزعجوا أهل البيت . وأرسلت عديلة هانم ابنة ابراهيم بيك الى المعينين تأمرهم أن لايعملوا قلة أدب ، وأرسلت الى أبيها لأن منزلها بجواره ، فاهتم لذلك وأرسل خليل بيك الى البرديسى فكفه عن ذلك بعد علاج وسعى ، ورفع المعينين .

الخميس ٢٠ منه (٢ فبراير ١٨٠٤ م) :

وصلت أخبار ومكاتبات من الأمراء الذين ذهبوا بصحبة الباشا يخبرون فيها بموت الباشا بالقرين ، فضربوا مدافع كثيرة بعد العشاء ونصف الليل . ومضمون ما ذكروه فى المراسلة « أن الباشا أراد أن يكبسهم بمن معه ليلا ، وكان معهم سائس يعرف بالتركى ، فحضر اليهم وأخبرهم ، فتحذروا منه . فلما كبسوهم وقعت محاربة بينهم وقتل منهم عدة من المماليك وخازندار محمد بيك المنفوخ ، وانجرح المنفوخ أيضا جرحا بليغا ، وأصيب الباشا وصاحبه من غير قصد — والليل ليس له صاحب — فقضى عليه ، وكان ذلك مقدورا ، وفى الكتاب مسطورا ! وانكم ترسلون لنا أمانا بالحضور الى مصر ، والا ذهبنا الى الصعيد » . هذا ماقالوه .

والواقع أنهم لما سافروا معه ، كان بصحبته خمسة وأربعون نفسا لا غير . والعساكر التى كانت سافرت قبله نجعت الى الصالحية ، أو ذهبت حيث شاء الله . وكان أمامه عسكر المغاربة وخلفه الأمراء المصرلية .

فلما وصلوا الى أراضى القرين ، ونزلوا هناك ، عمل المغاربة مع الخدم مشاجرة ، وجسموها الى أن تقاربوا بالسلاح . فقامت الأجناد المصرلية من خلفهم ، فصار الباشا ومن معه فى الوسط ، والتحموا عليهم بالقتال . ففر من أتباعه أربعة عشر نفسا الى الوادى ، وثلاثة عشر رموا بأنفسهم فى ساقية قريبة منهم ... من حلاوة الروح .

وضرب الباشا بعض المماليك منهم بقرابينة ، فأصابته ، وقتل معه ابن أخته حسن بيك ، وكتخداه ، وباقى الثمانية عشر .

فلما سقط الباشا — وبه رمق — رأى أحد الأميرين فقال له : « فى عرضك يا فلان .. ان معى كفنا بداخل الخرج . فكفنى فيه ، وادفنى ، ولا تتركنى مرميا » ! فلما انقضى ذلك ، أعطى ذلك الأمير لبعض العرب دنانير ، وأعطاه الكفن الذى أوصاه عليه ، وقال له : « اذهب الى مقتلهم ، وخذ الباشا .. فكفنه وادفنه فى تربة » . فقال : « أنا لا أعرفه » . فقال : « هو الذى لحيته عظيمة من دونهم » ، ففعل كما أمره .

وحفروا لباقيهم حفرا وواروهم فيها ، وانقضى أمرهم .

هذا اخبار بعض أهل تلك البلاد المشاهدين للواقعة . وكل ذلك وبال فعله ، وسوء سريرته ، وخبث ضميره . فلقد بلغنا أنه قال لعسكره : « ان بلغت مرادى من الأمراء المصريين ، وظفرت بهم وبالأرنؤود ، أبحت لكم المدينة والرعية ثلاثة أيام ... تفعلون بها ما شئتم » . والدليل على ذلك ما فعله بالاسكندرية مدة اقامته بها ، من الجور والظلم ، ومصادرات الناس فى أموالهم وبضائعهم ، وتسلط عساكره عليهم بالجور والخطف والفسق ، وترذيله لأهل العلم واهانته لهم ... حتى أنه كان يسمى الشيخ محمد المسيرى — الذى هو أجل مذكور فى الثغر — « بالمزور » . واذا دخل عليه

مع أمثاله — وكان جالسا — اتكأ ، ومد رجليه قصدا لاهانتهم .

وخبر على باشا المترجم المذكور مختصرا : أنه كان أصله من الجزائر مملوك محمد باشا حاكم الجزائر . فلما مات محمد باشا ، وتولى مكانه صهره ... أرسله بمراسلة الى حسين قبطان باشا . وكان أخوه ، المعروف بالسيد على ، مملوكا للدولة ومذكورا عند قبطان باشا ، ومتولى الريالة ... فنوه بذكره . فقلده قبطان باشا ولاية طرابلس وأعطاه فرمانات ويرق . فذهب اليها ، وجيش له جيوشا ومراكب ، وأغار على متوليها — وهو أخو حمودة باشا صاحب تونس — وحاربه عدة شهور حتى ملكها بمخامرة أهلها ... لعلمهم أنه متوليها من طرف الدولة .

وهرب أخو حمودة باشا عند أخيه بتونس . فلما استولى على باشا المذكور على طرابلس ... أباحها لعسكره ففعلوا بها أشنع وأقبح من التمرلنكية : من النهب ، وهتك النساء ، والفسق والفجور ، وسبى حريم متوليها ، وأخذهن أسرى ، وفضحهن بين عسكره .

ثم طالبهم بالأموال ، وأخذ أموال التجار ، وفرد على أهل البلد ، وأخذ أموالهم . ثم ان المنفصل حشد وجمع جموعا ، ورجع الى طرابلس وحاصره أشد المحاصرة .

وقام معه المغرضون له من أهل البلدة ، والمقروصون من على باشا . فلما رأى الغلبة على نفسه ، نزل الى المراكب بما جمعه من الأموال والذخائر ، وأخذ معه غلامين جميلين من أولاد الأعيان شبه الرهائن ، وهرب الى اسكندرية ، وحضر الى مصر ، والتجأ الى مراد بيك ... فأكرمه ، وأنزله منزلا حسنا عنده بالجيزة . وصار خصيصا به .

وسبب مجيئه الى مصر ، ولم يرجع الى القبطان... علمه أنه صار ممقوتا فى الدولة . لأن من قواعد دولة العثمانيين ، أنهم اذا أمروا أميرا فى ولاية ، ولم يفلح .. مقتوه وسلبوه ، وربما قتلوه . وخصوصا اذا كان ذا مال !

ثم حج المترجم فى سنة سبع ومائتين وألف من القلزم ، وأودع ذخائره عند رشوان كاشف ، المعروف بكاشف الفيوم ، لقرابة بينهما من بلادهما.

ولما كان بالحجاز ، ووصل الحجاج الطرابلسية ، ورأوه وصحبته الغلامان ... ذهبوا الى أمير الحج الشامى ، وعرفوه عنه وعن الغلامين ، وأنه يفعل بهما الفاحشة . فأرسل معهم جماعة من أتباعه فى حصة مهملة ، وكبسوا عليه — على حين غفلة — فوجدوه كما قالوا . فلعنوه وقطعوا لحيته ،وضربوه بالسلاح ، وجرحوه جرحا بالغا ، وأهانوه ، وأخذوا منه الغلامين . وكادوا يقتلونه .. لولا جماعة من جماعة أمير الحج . ثم رجع الى مصر من البحر أيضا . وأقام فى منزلته — عند مراد بيك — زيادة عن ست سنوات ... الى أن حضر الفرنسيس الى الديار المصرية . فقاتل مع الأمراء ، وتغرب معهم فى قبلى وغيره . ثم انفصل عنهم ، وذهب من خلف الجبل ، وسار الى الشام . فأرسله الوزير يوسف باشا — بعد الكسرة — بمكاتبات الى الدولة . فلم يزل حتى وقعت هذه الحوادث . وقامت العسكر على محمد باشا وأخرجوه .

ووصل الخبر الى اسلامبول ، فطلب ولاية مصر على ظن بقاء حبل الدولة العثمانية وأوامرها بمصر .. وليس بها الا طاهر باشا والأرنؤود . وجعل على نفسه قدرا عظيما من المال ، ووصل الى اسكندرية وبلغه انعكاس الأمر ، وموت طاهر باشا وطرد الينكجرية . وانضمام طائفة الأرنؤود للمصرلية ، وتمكنهم من البلدة .

فأراد أن يدبر أمرا ، ويصطاد العقاب بالغراب ، فيحوز بذلك سلطنة مجددة ، ومنقبة مؤبدة ... فلم تنفعه التدابير ، ولم تسعفه المقادير . فكان كالباحث على حتفه بظلفه ، والجادع بيده مارن أنفه . ولم يعلم أنها القاهرة ، كم قهرت جبابرة ، وكادت فراعنة

اذا لم يكن عـــون من الله للفتى
فأول ما يجنى عليـــه اجتهـــاده

وكان صفته : أبيض اللـــون ، عظيم اللحيـــة والشوارب ، أشقرهما ، قليل الكلام بالعربى ، يحب اللهو والخلاعة !

ولما انقضى أمره ، وأرسل سليمان بيك ومحمد بيك مكاتبات الى شـــاهين بيك ونظرائه بمـــا ذكروا ، وأن يأخذوا لهم أمانا من ابراهيم بيك والبرديسى . فكتبوا لهـــم أمانا ... بعـــد امتناع منهما ، واظهار التغـــير والغضب والتأسف عـــلى التفريط منهما فى قتله .

وفيه : عملوا ديوانا ، وأحضروا صالح أغا قابجى باشا ، الذى حضر أولا ونزل ببيت رضوان كتخدا ابراهيم بيك ، وقرأوا الفرمان الذى معه وهو يتضمن ولاية على باشا والأوامر المعتـــادة لا غير . وليس فيها ما كان ذكره عـــلى باشا من الجمارك والالتزام وغيره . وتكلم الشيخ الأمير فى ذلك المجلس ، وذكر بعض كلمات ونصائح فى اتباع العدل ، وترك الظلم ، وما يترتب عليه من الدمـــار والخراب . وشـــكا الأمراء المتأمرون من أفعال بعضهم البعض ، وتعدى الكشاف النازلين فى الأقاليم وجورهم على البلاد ، وأنه لا يتحصـــل لهم من التزامهم وحصصهم ما يقوم بنفقاتهم .

فاتفق الحال على ارسال مكاتبـــات للكشـــاف بالحضور والكف عن البلاد . وأما مصطفى باشا ، فانهم أنزلوه فى مركب مع أتبـــاع البـــاشا الذين كانوا بقصر العينى ، وسفروهم الى حيث شاء الله !

وفيـــه : وصـــل الألفى من سرحتـــه الى مصر القديمة . فأقام فى قصره الذى عمره هناك — وهو قصر البارودى — يومين . ثم عدى الى الجيزة ، ودخل أتباعه بالمنهوبات من الجمـــال والأبقـــار والأغنام ، ومعهم الجمـــال محملة بالقمح الأخضر والفول والشـــعير لعدم البرسيم ، فانهـــم رعوا ما وجدوه فى حال ذهابهم ، وفى رجوعهم لم يجدوا خلاف الغلة ، فرعوها وحملوا باقيها على الجمال ! ولو شاء ربك ما فعلوه .

السبت ٢٢ منه (٤ فبراير ١٨٠٤ م) :

وقعت معركة بين الأرنؤودية وعسكر التكرور بالقرب من الناصرية بسبب حمل برسيم ، وضربوا على بعضهم بنادق رصاص ، وقتل بينهـــم أنفار ، واستمروا على مضاربة بعضهم البعض نحو سبعة أيام ، وهم يترصدون لبعضهم فى الطرقات .

الثلاثاء ٢٥ منه (٧ فبراير ١٨٠٤ م) :

عملوا ديوانا وقرأوا فرمانا وصـــل من الدولة مع الططر ... خطابا لعلى باشا والأمراء بتشـــهيل أربعة آلاف عسكرى وسفرهم الى الحجاز لمحاربة الوهابيين ، وارسال ثلاثين ألف أردب غـــلال الى الحرمين ، وأنهم وجهـــوا أربع باشات من جهـــة بغداد بعســـاكر ... وكذلك أحمد باشا الجزار ، أرسلوا له فرمانا بالاســـتعداد والتوجه لذلك . فان ذلك من أعظم ماتتوجه اليه الهمم الاسلامية .. وأمثال ذلك من الكلام ، والترفق . وفيـــه بعض القـــول بالحسب والمروءة بتنجيز المطـــلوب من الغـــلال ، وان لم تكن متيسرة عنـــدكم ، تبذلوا الهمّة فى تحصلها من النواحى والجهـــات بأثمانها على طرف الميرى بالسعر الواقع .

وفيه : تقيد لضبط مخلفات على باشا : صالح أفنـــدى ، ورضوان كتخـــدا ، ونائب القاضى ، وباشكـــاتب .

وفيـه : حضر الأمراء الذين توجهوا بصحبـة الباشا الى الشرقية .

وفى هذا اليوم : حضر عثمان كاشف البواب الذى كان بالمنوفية ، وترك خيامه وأثقاله وأعوانه على ما هم عليه ، وحضر فى قلة من أتباعه .

وفيه : نقلوا عسكر التكرور من ناحية قناطر السباع الى جهة أخرى . وأخرجوا سـكانا كثيرة من دورهم جهة الناصرية ، وأزعجوهم من مواطنهم، وأسكنوا بها عساكر وطبجية .

وفيه : أنزلوا السيد على القبطان من القلعـة الى بيت على بيك أيوب كما كان . وهـذا السيد على هو أخو على باشا المقتول كما ذكر . وأصله مملوك ، وليس بشريف كما يتبادر الى الفهم من لفظة سـيد أنها وصف خاص للشريف ، بل هى منقولة من لغة المغاربة ، فانهم يعبرون عن الأمير بالسيد ... بمعنى المالك وصاحب السيادة .

الاربعاء ٢٦ منه (٨ فبراير ١٨٠٤ م) :

أنزلوا محمـل الحاج من القلعة مطويا من غير هيئة . وأشيع فى الناس دورانه الى بيت ابراهيم بيك صحبة أحد الكشـاف وطائفة من المماليك . واتفق الرأى على سـفره من طريق بحـر القلزم صحبة محمود جاويش مستحفظان ، ومعه الكسوة والصرة . وكان حضر الـكثير من الحجاج بالجهة القبلية بجمالهم ودوابهم ومتاعهم .. فلما تحققوا عدم السفر — حكم المعتـاد — باعوا جمـالهم ودوابهم بالرميلة بأبخس الأثمان ، لعدم العلف بعدما كلفوها بطول السنة ، وما قاسوه أيضا فى الأيام التى أقاموها بمصر فى الانتظار والتوهم .

ذو القعـدة

غرته (١٢ فبراير ١٨٠٤ م) :

أنزلوا حسـين قبطان ومن معـه من عسـكر الأرنؤود من القلعـة ، وكانوا نحـو الأربعمائة ، فذهبوا الى بولاق وسكنوا بها ، بعـدما أخرجوا السكان من دورهم بالقهر عنهم . ولم يبق بالقلعة من أجناسهم سوى الطوبجية .. المتقيدين بخدمة المصرلـية .

وفيه : ألبس ابراهيم بك كتخـداه رضـوان خلعة . وأشيع أنه قلده دفترداریة مصر . وذهب الى البرديسى فخلع عليه أيضا ، وكذلك الألفى . وذلك اكراما له وتنويها بذكره ، جزاء فعله ومجيئه بالباشا ، وتحيله عليه .

ه منه (١٦ فبراير ١٨٠٤ م) :

وصلت مكاتبات من يحيى بيك البرديسى حاكم رشيد ، يخبر فيها بوصول محمد بيك الألفى الكبير الى ثغر رشيد يوم الأربعاء ثالثه . وقد طلع على أبى قير ، وحضر الى ادكو ثم الى رشيد فى يوم الأربعاء المذكور ... وقصده الاقامة برشيد ستة أيام .

فلما وصلت تلك الأخبار، عملوا شنكا، وضربوا مدافع كثيرة بعد الغروب ، وكذلك بعد العشاء ، وفى طلوع النهار ، من جميع الجهات : من الجيزة ومصر القديمة وبيت البرديسى والقلعة ، وأظهروا البشر والفرح . وشرعوا فى تشهيل الهدايا والتقادم، وأضمروا فى نفوسهم السوء له ولجماعته المتأمرين. حسـدا لرياسته عليهم ، وخمولهم بحضـوره . فهاجت حفائظهم ، وكتموا حقدهم ، وتناجوا فيما بينهم ، وبيتوا أمرهم مع كبار العسكر . وأرسل البرديسى كتابا الى مملوكه يحيى بيك تابعه حاكم رشيد ، يأمره فيه بقتل الألفى هناك . وركب هو الى المنيل ، وعدى شـاهين بيك ، ومحمد بيك المنفوخ ، واسماعيل بيك صـهر ابراهيم بيك ، وعمر بيك الابراهيمى الى بر الجيزة ليلة الأحد .

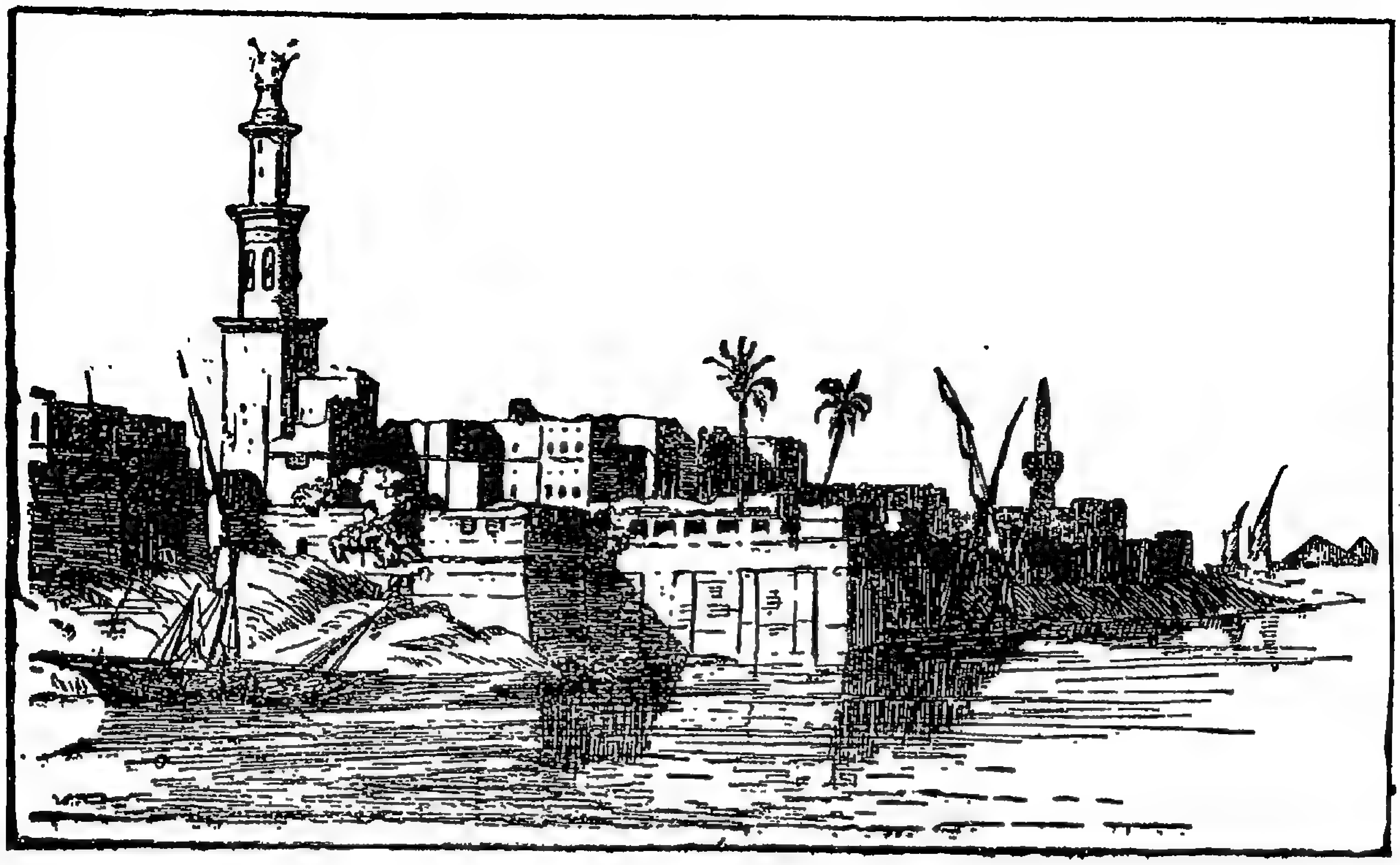

الجيزة

ونصبوا خيامهم ليستعدوا الى السفر من آخر الليل ، صحبة الألفى الصغير .

وعدى أيضا قبلهم حسين بيك الوشاش الألفى ، ونصب خيامه بحرى منهم .

فلما كان فى خامس ساعة من الليل ، أرسلوا الى حسين بيك يطلبونه اليهم . فحضر مع مماليكه ، وقد رتبوا جماعة منهم تأتى بخيول ومشاعل من جهة القصر . فقالوا له : « أين الخيول .. فاتنا زاكبون فى هذا الوقت للملاقاة ، وها هو أخوك الألفى قد ركب .. وهو مقبل ! » ، فنظر فرأى المشاعل والخيول ، فلم يشك فى صحة ذلك ، ولم يخطر بباله خيانتهم له . فأمر مماليكه أن يذهبوا الى خيولهم ويركبوا ، ويأتوه بفرسه . فأسرعوا الى ذلك ، وبقى هو وحده ينتظر فرسه . فعاجلوه ، وغدروه وقتلوه بينهم ، وأرسلوا الى البرديسى بالخبر .

وكان محمد على وأحمد بيك والأرنؤودية عدوا قبلى الجيزة ليلا ، وكمنوا بمكان ينتظرون الاشارة ، ويتحققون وقوع الدم بينهم . فلما علموا ذلك ، حضروا الى القصر ، وأحاطوا به .

وكان طبجى الألفى مخامرا أيضا ، فعطل « فوانى » المدافع . واستمروا فى ترتيب الأمراء على القصر الى آخر الليل . فحضر الى الألفى من أيقظه وأعلمه بقتل حسين بيك ، واحاطتهم بالقصر . فأراد الاستعداد للحرب ، وطلب الطبجى فلم يجده ، وأعلموه بما فعل بالمدافع . فأمر بالتحميل ، وركب فى جماعته الحاضرين ، وخرج من الباب الغربى ، وصار مقبلا . فركب خلفه الأمراء المذكورون ، وساروا مقدار ملقتين حتى تعبت خيولهم ... ولم يكن معهم خيول كثيرة ، لأنهم لم يكونوا يظنون خروجهم من القصر .

واشتغل أكثر أتباعهم بالنهب ، لأنه عند ماركب

الألفى وخرج من القصر .. دخله العسكر والأجناد ونهبوا مافيه من الأثقال والأمتعة والفرش وغيرها .

وكان كاتبه المعلم غالى ساكنا بالجيزة ، وكذلك كثير من أتباعه ومقدميه . فذهبوا الى دورهم .. فنهبوها ، واخـذوا ماعنـد كاتبـه المذكور من الأموال . ثم نهبوا دور الجيزة عن آخرها ، ولم يتركوا بها جليلا ولا حقيرا حتى عروا ثياب النساء ، وفعلوا بها مثل مافعلوا بدمياط .

وأصبح الناس بالمدينة يوم الأحـد لايعلمون شيئا من ذلك ... الا أنهم سمعوا الصراخ ببيت حسين بيك جهة التبانة . وقيل انه قتل ببر الجيزة . فصار الناس فى تعجب وحيرة ، واختلفت رواياتهم ولم يفتحوا دكاكينهم ، وتقلوا أسـبابهم منها ... وظلوا غالب اليوم لم يعلموا سر قتل حسين بيك الا من صراخ أهل بيته . وكل ذلك وقع وابراهيم بيك جالس فى بيته ويسأل ممن يدخل اليه عن الخبر . وأحضر محمود جاويش المعين للسفر بالمحمل وصيرفى الصرة والكتبة ، واشتغل معهم ذلك اليوم فى عدد مال الصرة وحسابها ولوازم ذلك .

وبعد العصر ، أشيع المرور بالمحمل . فاجتمع الناس للفرجة ، فمروا به من الجمالية الى قراميدان قبل الغروب .

٨٠م - (١٩ فبراير ١٨٠٤ م) :

ركب ابراهيـم بيك وأمراؤه الى قرميـدان ، وسلم المحمل . واجتمع الناس للفرجة على العادة ، فمروا به من الشارع الأعظم الى العادلية ، وأمامه الكسوة فى أناس قليلة وطبل وأشـاير . وعينوا للذهاب معه أربعمائة مغربى من الحجاج ، رتبوا لهم جامكية ثلاثين نفرا من عسكر الأرنؤود .

هـذا ما كان من هؤلاء . وأما ما كان من أمر الألفى الكبير ... فانه لما حضر الى رشـيد يوم الأربعاء ثالثه ، كما تقدم ، قابله يحيى بيك ، وعمل له شنكا وطعاما ، وما يليق به ، وسأله عن مـدة اقامته فى رشيد ، فقـال له : « أريد الاقامة ستة أيام حتى نستريح » . ونزل ببيت مصطفى عبد الله التاجر، ولم يكن معه الا خاصة مماليكه وجوخداره تتمة ستة عشر ... فاستأذنه يحيى بيك فى ارسال الخبر الى مصر ، ليأتى الأمراء الى ملاقاته .. فلم يرض بذلك . ثم انه لم يقم برشيد الا ليلة واحدة . وأنزل أمتعته فى أربع مراكب من الرواحل ، وانتقل آخر الليل الى بيت البطروشى (١) القنصل . وأمر بتنقيـل المتاع الى مراكب النيـل ، وأهـدى له البطروشى غرابا من صناعة الانجليز مليح الشكل.. نزل هو به ، وصار الى مصر . وكان قصده الحضور بغتة فعندما يصلهم الخبر ، يصـبحون يجدونه فى الجيزة .. ويأبى الله الا ما يريد . فلم يسعفه الريح ، وكان تأخيره سببا لنجاته .

ولما وصل الخبر بحضوره ، وعملوا الشنك ... جهز له الألفى الصغير بعض الاحتياجات ، وأرسلها فى الذهبية والقنجة صحبة الخواجا محمود حسن وخلافه . فنزلوا من بولاق ، وانحدروا بعد الظهر من يوم السبت . فاجتمعوا به عند « نادر » نصف الليل .

فلما أصبح الصباح ، حضر اليه سليمان كاشف البواب وقابله ورجع معه الى منوف العلى . فأقام هناك يوم الأحد وبات هناك ، ودخل الحمام ، وسار منها بعد طلوع النهار ، وهم يسحبون المراكب باللبان لمخالفة الريح . فلم يزل سائرا الى الظهيرة ، فلاقاه عدة من عسـكر الأرنؤود الموجهـة اليه فى أربع مراكب ، فى مضيق الترعة . فسـلم عليهم ، فردوا عليه السلام . فسألهم بعض أتباعه بالتركى ، فقال لهم : « أين تريدون..؟ » . قالوا : «نريد الألفى» ، فقال لهم : « هاهو الألفى » . فسـكتوا ، ثم

(١) Petrucci نائب قنصل الانجليز فى رشيد .

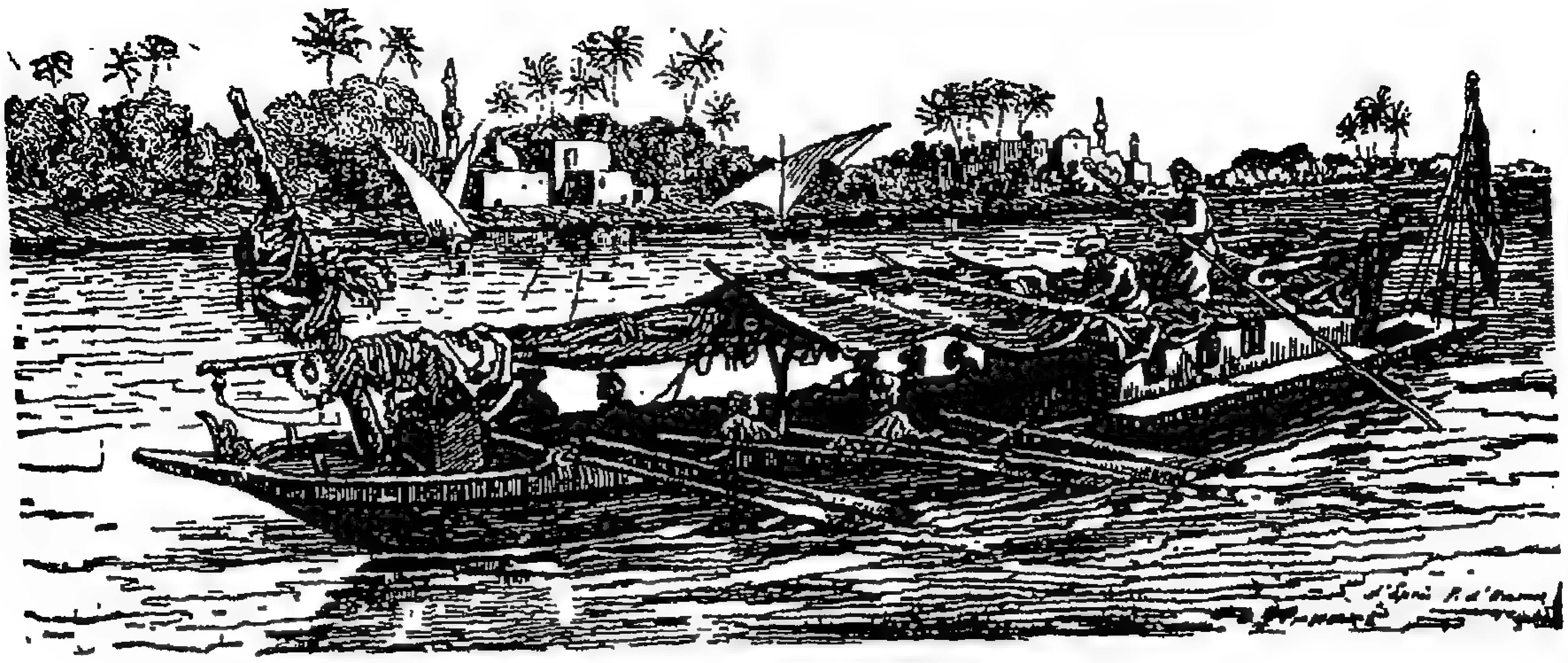

القنجة

تلاغى الملاحون مع بعضهم ، فأعلموهم الخبر ، فنقلوه الى الألفى .. فكذب ذلك ، وقال : « هذا شىء لايكون .. ولا يصح أن اخواننا يفعلون ذلك معى ، وأنا سافرت وتغربت سنة لأجل راحتنا ، ولعلها حادثة بينهم وبين العسكر » .

ثم ان طائفة منهم أدركت الغراب الذى قدمه له البطروشى ، وكان متأخرا عن المراكب ، فصعدوا اليه ، وأخذوا مافيه من المتاع . فأخبروه بذلك .. ونظر ، فرآهم يفعلون ذلك . فأرسل اليهم بعض من معه من الأتراك ليستخبر عن شأنهم وأمرهم . ولم ينتظر رجوعه بالجواب ، ولكنه أخذ بالحزم ، ونزل فى الحال الى القنجة مع المماليك ... وصحبته الخواجا محمود حسن ، وأمرهم أن يمسكوا المقاذيف ... ففعلوا ذلك ، وهو يستحثهم ، حتى خرجوا من الترعة الى البحر . فلاقاهم طائفة أخرى فى سفينتين ، وفيهم سراج باشا تابع البرديسى — وكان بعيدا عنهم — فأعماهم الله عنه ، وكأنهم لم يظنوه اياه . ولم يزل يجد فى السير حتى وصل الى شبرا الشهابية . فنظر الى رجل ساع ، وأعلمه أنه مرسل من بيت سليمان كاشف البواب بخبر الواقع .

فعند ذلك تحقق الخبر ، وطلع الى البر ، وأمر بتغريق القنجة ، ومشى مع المماليك على أقدامهم ، وتخلف عنه الخواجا محمود حسن بشبرا . فلم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا الى ناحية قرنفيل ، ودخل الى نجع عرب الحويطات ، والتجأ الى امرأة منهم ، فأجارته ولبت دعوته ، وأركبته فرسا وأصحبت معه شخصين هجانين . وركب معهما وسار الى قرب الخانكة ليلا والمماليك معه مشاة . فقابلهم جماعة من عرب بلى — وكبيرهم يقال له سعد ابراهيم — فاحتاطوا به ، فاشتغل المماليك بحربهم ، فتركهم وسار مع الهجانة الى ناحية الجبل ، ومضى . فسمع الأجناد القريبون منهم — وفيهم البرديسى — صوت البنادق بين العرب والمماليك ، فأسرعوا اليهم وسألوهم عن سيدهم . فقالوا : « انه كان معنا .. وفارقنا الساعة » .

فأمر البرديسى من معه من المماليك والأجناد أن يسرعوا خلفه ويتفرقوا فى الطرق ، وكل من أدركه فليقتله فى الحال . فذهبوا خلفه ، فلم يعثر به أحد منهم ، وخرج عليه سعد ابراهيم بجماعة قليلة من طريق يعرفها ، فرمى لهم مامعه من الذهب

والجوهر والكرك الذى على ظهره ... فاشتغلوا به ، وتركهم وسار وغاب أمره .

وفى حال جلوسه عند العرب ، مر عليهم طائفة من الأجناد سائرين ... لأنهم لما فعلوا فعلتهم فى الجيزة ، لم يبق لهم شغل ... الا هو .

وأخذوا فى الاحتياط عليه ما أمكن . فأرسلوا عسكرا فى المراكب ، وانبثت طوائفهم فى الجهات البحرية شرقا وغربا . فذهبت طائفة منهم الى الشرقية ، وطائفة الى القليوبية ، وكذلك المنوفية والغربية والبحيرة ، وسلكوا طريق الجبل الموصلة الى قبلى .

وذهب حسين بيك ، ورستم بيك ، الى صالح بيك الألفى الذى بالشرقية ، وذهب شاهين بيك الى سليمان كاشف البواب من البر الغربى ، ليقطع عليه الطريق . وذهب على بيك أيوب ومحمد على ... على جهة القليوبية ليلحقه بمنوف

فلما وصل الى دجوة ، تعوق بسبب قلة المعادى . فلما وصل الى منوف ، فوجدوه عدى الى الجهة الأخرى ، فأخذوا متروكاته التى تركها — وهى بعض خيول وجمال ، وخمسين زلعة سمن مسلى — وعملوا على أهل البلد أربعة آلاف ريال قبضوها منهم ورجعوا . وكان عندما بلغه الخبر الاجمالى ... لم يكذب المخبر — وذلك بعد مفارقة الألفى له بنحو ثلاث ساعات — فعدى فى الحال الى الجهة الغربية بأثقاله وعساكره ، فوجد أمامه شاهين بيك فأرسل يطلب منه أمانا ، فأجابه الى ذلك . وأرسل الى مصر من يأتى بالأمان ، واطمأن شاهين بيك . فارتحل سليمان كاشف ليلا .

فلما أصبح شاهين بيك وجده قد ارتحل ، فرجع بخفى حنين ، وعدى الى القليوبية ، فبلغه خبر الألفى وما وقع له مع العرب فطلبهم ، فأخبروه أنه غاب عنهم فى الجبل من الطريق الفلانى ، فقبض عليهم ، وأحضرهم صحبته مشنوقين فى عمائمهم . ووجد المماليك ، فقبض عليهم وأرسلهم الى البرديسى . وأما مراكبه ، فانه عندما نزل الى القنجة وفارقها ، أدركها العسكر الذين قابلوه فى المراكب ونهبوا مافيها ، وكان بها شىء كثير من الأموال وظرائف الانكليز ، والأمتعة والجوخ ، والأسلحة والجواهر . فانه لما وصل الى القرالى أكرمه اكراما كثيرا ، وأهدى اليه تحفا غريبة ، وكذلك آكابرهم ، وأعطاه جملة كافية من المال على سبيل الأمانة ، يرسل له بها غلالا وأشياء من مصر . واشترى هو لنفسه أشياء بأربعة آلاف كيس ، يدفعها الى القنصل بمصر ، وأرسل له بها القرالى بولصة ، وأهدى له صورة نفسه من جوهر ، ونظارات وآلات وغير ذلك .

وأما الألفى الصغير ، فانه ذهب الى جهة قبلى ، وفرد الفرد والكلف على البلاد ، ومن عصى عليه أو توانى فى دفع المطلوب ، نهبهم وحرقهم .

وأما صالح بيك الألفى ، فانه لما وصل اليه الخبر ، وقدوم الموجهين اليه ... ركب فى الحال من زنكلون ، وترك حملته وأثقاله ، فلم يدركوه أيضا .

٩ منه (٢٠ فبراير ١٨٠٤ م) :

أحضروا مماليك الألفى الكبير وجوخداره الى بيت البرديسى وأرسل ابراهيم بيك والبرديسى مكاتبات الى الأمراء بقبلى ، وهم : سليمان بيك الخازندار ، حاكم جرجا ، وعثمان بيك حسن بقنا ، ومحمد بيك ، المعروف بالغربية الابراهيمى ... يوصونهم ويحذرونهم من التفريط فى الألفى الصغير والكبير ان وردا عليهم .

وأما شاهين بيك ، فانه عدى الى الشرقية ، واجتهد فى التفتيش . ثم رجع فى يوم الثلاثاء المذكور وأمامه العرب المتهمون بأنهم يعرفون

طريقه ، وأنهم أدركوه ... فأعطاهم جوهرا كثيرا وتركوه . وأحضروا صحبتهم حقا من خشب وجدوه مرميا فى بعض الطرق . فأحضر البرديسى مماليك الألفى وأراهم ذلك الحق ، فقالوا : « نعم .. كان مع أستاذنا ، وفى داخله جوهر ثمين » .

وأرسلوا عدة من المماليك والهجانة الى الطريق التى ذكرها العرب . وأحضر البرديسى ابن شديد وسأله ، فأخبره أنه لم يكن حاضرا فى نجعه وأن أمه أو خالته هى التى أعطته الفرس والهجانة ، فوبخه ولامه . فقال له : « هذه عادة العرب من قديم الزمان .. يجيرون طنيبهم ، ولا يخفرون ذمتهم » . فحبسه أياما ثم أطلقه . وقيل انه مر عليه على بيك أيوب ومحمد على ومن معهم من العسكر ، وهو فى خيش العرب ، وهو يراهم . وأعماهم الله عن تفتيش النجع ، وعن السؤال أيضا !

وفى ذلك اليوم : خرج عثمان بيك يوسف وحسين بيك الوالى وأحمد أغا شويكار الى جهة الشرقية ، ومرزوق بيك الى القليوبية ... يفتشون على الألفى .

وفيه : شرعوا فى تشهيل تجريدة الى الألفى الصغير . وأميرها شاهين بيك ؛ وصحبته محمد بيك المنفوخ ، وعمر بيك ، وابراهيم كاشف .

١٢ منه (٢٣ فبراير ١٨٠٤ م) :

سافرت قافلة الحج بالمحمل الى السويس .

١٣ منه (٢٤ فبراير ١٨٠٤ م) :

حضر على بيك أيوب ومحمد على من سرحتهما على غير طائل .

وفيه : سافر قنصل الانكليز من مصر بسبب هذه الحادثة . فانه لما وقع ذلك .. اجتمع بابراهيم بيك والبرديسى ، وتكلم معهما ، ولامهما على هذه الفعلة ، وكلمهما كلاما كثيرا ... منه أنه قال لهما : «هذا الذى فعلتماه لأجل نهب مال القرالى . ومطلوب منى أربعة آلاف كيس .. وهى البوليصة الموجهة على الألفى » وغير ذلك . فلاطفاه وأرادا منعه من السفر ، فقال : « لا يمكن أنى أقيم ببلدة هذا شأنها ، وطريقتنا .. لا نقيم الا فى البلدة المستقيمة الحال ! » . ثم نزل مغضبا وسافر ، وأراد أيضا قنصل الفرنسيس السفر فمنعاه .

وفيه : طلب العسكر جماكيهم من الأمراء ، وشددوا فى الطلب ، واستقلوا الأمراء فى أعينهم ، وتكلموا مع محمد على واحمد بيك وصادق أغا كلاما كثيرا . فسعوا فى الكلام مع الأمراء المصرلية ، فوعدوهم الى يوم الثلاثاء .

ومات بقطر المحاسب كاتب البرديسى يوم الأحد .

١٦ منه (٢٧ فبراير ١٨٠٤ م) :

اجتمع العسكر ببيت محمد على ، وحصل بعض قلقة ، فحولهم على القبط بمائتى ألف ريال منها : خمسون على غالى كاتب الألفى ، وثلاثون على تركة بقطر المحاسب ، والمائة والعشرون موزعة عليهم . فسكن الاضطراب قليلا .

وفيه : رجع مرزوق بيك من القليوبية .

١٧ منه (٢٨ فبراير ١٨٠٤ م) :

توفى ابراهيم أفندى الروزنامجى .

وفيه : حصلت رجات وقلقات بسبب العسكر وجماكيهم ، وأرادوا أخذ القلعة فلم تتمكنوا من ذلك . وقفل الناس دكاكينهم . وقتلوا رجلا نصرانيا عند حارة الروم ، وخطفوا بعض النساء وأمتعة وغير ذلك .

وركب محمد على ونادى بالأمان .

٢٠ منه (٢ مارس ١٨٠٤ م) :

حضر سليمان كاشف البواب بالأمان ، ودخل الى مصر .

٢١ منه (٣ مارس ١٨٠٤ م) :

أفرجوا عن كشاف الألفى المحبوسين .

وفيه : حضر عثمان بيك يوسف من ناحية الشرقية واستمر هناك حسين بيك الوالى ورستم بيك وذهب المنفوخ واسماعيل بيك الى ناحية شرق اطفيح ، لأنه أشيع أن الألفى ذهب عند عرب المعازة . فقبضوا على جماعة منهم وحبسوهم ، وأرسلوا مائة هجان الى جميع النواحى ، وأعطوهم دراهم يفتشون على الألفى .

وفيه : شرعوا فى عمل فردة على أهل البلد ، وتصدى لذلك المحروقى . وشرعوا فى كتب قوائم لذلك ، ووزعوها على العقار والأملاك . أجرة سنة · تقوم بدفع نصفها المستأجر ، والنصف الثانى يدفعه صاحب الملك .

٢٤ منه (٦ مارس ١٨٠٤ م) :

سرح كتاب الفردة والمهندسون ، ومع كل جماعة شخص من الأجناد، وطافوا بالأخطاط يكتبون قوائم الأملاك ، ويصقعون الأجر . فنزل بالناس ما لا يوصف من الكدر مع ماهم فيه من الغلاء ووقف الحال . وذلك خلاف ماقرروه على قرى الأرياف .

فلما كان فى عصر ذلك اليوم ، تطقت أفواه الناس بقولهم : « الفردة بطالة .. » وباتوا على ذلك ، وهم مابين مصدق ومكذب !

٢٥ منه (٧ مارس ١٨٠٤ م) :

أشيع ابطال الفردة مع سعى الكتبة والمهندسين فى التصقيع والكتابة ، وذهبوا الى نواحى باب الشعرية ، ودخلوا درب مصطفى . فضج الفقراء والعامة والنساء ، وخرجوا طوائف يصرخون ... وبأيديهم دفوف يضربون عليها ويندبن وينعين ، ويقلن كلاما على الأمراء ، مثل قولهم : « ايش تاخد من تفليسى .. يا برديسى ! » ، وصبغن أيديهن بالنيلة .. وغير ذلك . فاقتدى بهن خلافهن ، وخرجوا أيضا ومعهم طبول وبيارق ، وأغلقوا الدكاكين . وحضر الجمع الكثير الى الجامع الأزهر ، وذهبوا الى المشايخ ، فركبوا معهم الى الأمراء ، ورجعوا ينادون بابطالها . وسر الناس بذلك ، وسكن اضطرابهم .

وفى وقت قيام العامة ، كان كثير من العسكر منتشرين فى الأسواق . فداخلهم الخوف ، وصاروا يقولون لهم : « نحن معكم .. سوا .. سوا . أنتم رعية .. ونحن عسكر . ولم نرض بهذه الفردة . وعلوفاتنا على الميرى ، ليست عليكم .. أنتم أناس فقراء ! » فلم يتعرض لهم أحد .

وحضر كتخدا محمد على مرسولا من جهته الى الجامع الأزهر ، وقال مثل ذلك ، ونادى به فى الأسواق ففرح الناس ، وانحرفت طباعهم عن الأمراء ، ومالوا الى العسكر . وكانت هذه الفعلة من جملة الدسائس الشيطانية !

فان محمد على لما حرش العساكر على محمد باشا خسرو وأزال دولته ، وأوقع به ما تقدم ذكره ، بمعونة طاهر باشا والأرنؤود ، ثم بالأتراك عليه ... حتى أوقع به أيضا . وظهر أمر أحمد باشا ، وعرف أنه ان تم له الأمر ، ونما أمر الأتراك .. لايبقون عليه . فعاجله وأزاله بمعونة الأمراء المصرلية . واستقر معهم حتى أوقع باشتراكهم قتل الدفتردار والكتخدا . ثم محاربة محمد باشا بدمياط ، حتى أخذوه أسيرا . ثم التحيل على على باشا الطرابلسى حتى أوقعوه فى فخهم وقتلوه ونهبوه .. كل ذلك وهو يظهر المصافاة والمصادقة للمصريين ، وخصوصا البرديسى ... فانه تآخى معه ، وجرح كل منهما نفسه ، ولحس من دم الآخر ! واغتر به البرديسى ، وراج سوقه عليه ، وصدقه وتعضد به ، واصطفاه دون خشداشينه ، وتحصن بعساكره ، وأقامهم حوله فى الأبراج ، وفعل بمعونتهم مافعله بالألفى وأتباعه ،

وشردهم ، وقص جناحه بيده ، وشتت البواقى ، وفرقهم بالنواحى فى طلبهم . فعند ذلك استقلوهم فى أعينهم ، وزالت هيبتهم من قلوبهم ، وعلموا خيانتهم ، وسفهوا رأيهم ، واستضعفوا جانبهم ، وشمخوا عليهم ، وفتحوا باب الشر بطلب العلوفة...مع الاحجام — خوفا من قيام أهل البلد معهم ، ولعلمهم بميلهم الباطنى اليهم . فاضطروهم الى عمل هذه الفردة ، ونسب فعلها للبرديسى ... فثارت العامة ، وحصل ما حصل وعند ذلك تبرأ محمد على والعسكر من ذلك ، وساعدوهم فى رفعها عنهم . فمالت قلوبهم اليهم ، ونسوا قبائحهم ، وابتهلوا الى الله فى ازالة الأمراء ، وكرهوهم ، وجهروا بالدعاء عليهم . وتحقق العسكر منهم ذلك .

وانحرف الأمراء على الرعية باطنا ... بل أظهر البرديسى الغيظ والانحراف من أهل مصر . وخرج من بيته مغضبا الى جهة مصر القديمة ، وهو يلعن أهل مصر ويقول : « لابد من تقريرها عليهم ثلاث سنوات . وأفعل بهم وأفعل ... حيث لم يمتثلوا لأوامرنا ! » . ثم أخذوا يديرون على العسكر ، وأرسلوا الى جماعتهم المتفرقين فى الجهات القبلية والبحرية يطلبونهم للحضور .

فأرسلوا الى حسين بيك الوالى ورستم بيك من الشرقية ، واسماعيل بيك صهر ابراهيم بيك ومحمد بيك المنفوخ ... ليأتيا من شرق أطفيح . والفريقان كانوا لرصد الألفى وانتظاره .

وأرسلوا الى سليمان بيك حاكم الصعيد بالحضور من أسيوط بمن حوله من الكشاف والأمراء . والى يحيى بيك حاكم رشيد ، وأحمد بيك حاكم دمياط . وأصعدوا محمد باشا المحبوس الى القلعة .

٢٨ منه (١٠ مارس ١٨٠٤ م) :

علم الأرنؤودية منهم ذلك ... فبادروا واجتمعوا بالأزبكية ، فارتاع الناس وأغلقوا الحوانيت والدروب . وذهب جمع من العسكر الى ابراهيم بيك ، واحتاطوا بمهمات بيته بالدوادية ، وكذلك بيت البرديسى بالناصرية . وتفرقوا على بيوت باقى الأمراء والكشاف والأجناد .

وكان ذلك وقت العصر ، والبرديسى عنده عدة كبيرة من العسكر المختصين به ، ينفق عليهم ويدر عليهم الأرزاق والجماكى والعلوفات ، ومنهم الطبجية وغيرهم . وعمر قلعة الفرنسيس التى فوق تل العقارب بالناصرية ، وجددها بعد تخريبها ، ووسعها ، وأنشأ بها أماكن ، وشحنها بآلات الحرب والذخيرة والجبخانة . وقيد بها طبجية وعساكر من الأرنؤودية .. وذلك خلاف المتقيدين بالأبراج والبوابات التى أنشأها قبالة بيته بالناصرية جهة قناطر السباع والجهة الأخرى كما سبق ذكر ذلك .

فلما علم بوصول العساكر حول دائرته — وكان جالسا صحبة عثمان بيك يوسف — فقام وقال له : « كن أنت فى مكانى هنا ، حتى أخرج وأرتب الأمر وأرجع اليك » . وتركه وركب الى خارج فضربوا عليه بالرصاص ، فخرج على وجهه بخاصته وهجنه ولوازمه الخفيفة ، وذهب الى ناحية مصر القديمة .. وذلك فى وقت الغروب .

وكان العسكر نقبوا نقبا من الجنينة التى خلف داره ودخلوا منه ، وحصلوا بالدار ، فوجدوه قد خرج بمن معه من المماليك والأجناد . فقاتلوا من وجدوه ، وأوقعوا النهب فى الدار ، وانضم اليهم أجناسهم المتقيدون بالدار ، وقبضوا على عثمان بيك يوسف ومماليكه ، وشلحوهم ثيابهم ، وسحبوهم بينهم عرايا مكشوفى الرءوس . وتسلمهم طائفة منهم على تلك الصورة ، وذهبوا

بهم الى جهة الصليبية ، فأودعوهم بدار هناك .

وفى سابع ساعة من الليل ، أرسل محمد على جماعة من العسكر ومعهم فرمان وصل من أحمد باشا خورشيد حاكم الاسكندرية بولايته على مصر . فذهبوا به الى القاضى ، وأطلعوه عليه ، وأمروه أن بجمع المشايخ فى الصباح ويقرأه عليهم ليحيط علم الناس بذلك .

فلما أصبح ، أرسل اليهم فقالوا : « لاتصح الجمعية فى مثل هذا اليوم ... مع قيام الفتنة » . فأرسله اليهم واطلعوا عليه . وأشيع ذلك بين الناس .

وأما ابراهيم بيك ، فانه استمر مقيما ببيته بالداودية ، وأمر مماليكه وأتباعه أن يجلسوا برءوس الطرق الموصلة اليه . فجلس منهم جماعة — وفيهم عمر بيك تابعه — بسبيل الدهيشة المقابل لباب زويلة ، وكذلك ناحية تحت الربع والقربية وجهة سويقة لاجين والداودية وصار العسكر يضربون عليهم وهم كذلك ، ودخل عليهم الليل . فلم يزالوا على ذلك الى الصباح ، واضمحل حالهم ، وقتل الكثير من المماليك والأجناد ، ووصل اليهم خبر خروج البرديسى . فعند ذلك طلبوا الفرار والنجاة بأرواحهم .

وعلم ابراهيم بيك بخروج البرديسى ، وأنه ان استمر على حاله أخذ . فركب فى جماعته فى ثانى ساعة من النهار ، وخرجوا على وجوههم ... والرصاص يأخذهم من كل ناحية . فلم يزل سائرا حتى خرج الى الرميلة ، وهدم فى طريقه أربعة متاريس ، وأصيب بعض مماليك وخيول وخدامين ، وأصيب رضوان كتخداه وطلعت روحه عند الرميلة ، فأنزلوه عند باب العزب ، وأخذوا ما معه من جيوبه ، ثم شالوه الى داره ودفنوه .

وقبضوا على عمر بيك تابع الأشقر الابراهيمى من سبيل الدهيشة هو ومماليكه . وأما الذين بالقلعة من الأمراء فانهم أصبحوا يضربون بالمدافع والقنابر على بيوت الأرنؤود بالأزبكية الى الضحوة الكبرى .

فلما تحققوا خروج ابراهيم بيك والبرديسى ومن أمكنه الهروب ... لم يسعهم الا أنهم أبطلوا الرمى ، وتهيأوا للفرار ، ونزلوا من باب الجبل ، ولحقوا بابراهيم بيك . وعند نزولهم أرادوا أخذ محمد باشا وعلى باشا القبطان وابراهيم بيك ، فقام عليهم عسكر المغاربة ومنعوهم من أخذهم . ونهب المغاربة الضربخانة وما فيها من الذهب والفضة والسبائك .. حتى العدد والمطارق .

وتسلم العسكر القلعة من غير مانع ، ولم تثبت المصرلية للحرب نصف يوم فى القلعة ، ولم ينفع اهتمامهم بها طول السنة من التعمير والاستعداد ، وما شحنوه بها من الذخيرة والجبخانة وآلات الحرب ، وملأوا ما بها من الصهاريج بالماء الحلو .

وقام أحمد بيك الكلارجى وعبد الرحمن بيك الابراهيمى وسليم أغا مستحفظان من وقت مجيئهم الى مصر متقيدين ومرتبطين بها ليلا ونهارا ... لا ينزلون الى بيوتهم الا ليلة فى الجمعة بالنوبة ، اذا نزل أحدهم أقام الآخران .

وطلع محمد على اليها ، ونزل وبجانبه محمد باشا خسرو ورفقاؤه ، وأمامهم المنادى ينادى بالأمان ... حكم مارسم محمد باشا ومحمد على . وأشيع فى الناس رجوع محمد باشا الى ولاية مصر ، فبادر المحروقى الى المشايخ ، فركبوا الى بيت محمد على يهنئون الباشا بالسلامة والولاية . وقدم له المحروقى هدية . وأقام على ذلك بقية يوم الاثنين ويوم الثلاثاء .

فكان مدة حبسه ثمانية أشهر كاملة . فانه حضر الى مصر بعد كسرته بدمياط فى آخر ربيع

محمد علي

الأول ، وهو آخر يوم منه ، وأطلق فى آخر يوم من ذى القعدة .

وخرج الأمراء على أسوأ حال من مصر ، ولم يأخذوا شيئا مما جمعوه وكنزوه من المال وغيره ... الا ما كان فى جيوبهم ، أو كان منهم خارج البلد ، مثل سليم كاشف أبى دياب ، فانه كان مقيما بقصر العينى ، أو الغائبين منهم جهة قبلى وبحرى ، وأما من كان داخل البلد فانه لم يخلص له سوى ماكان فى جيبه فقط .

ونهب العسكر أموالهم وبيوتهم وذخائرهم وأمتعتهم وفرشهم ، وسبوا حريمهم وسراريهم وجواريهم ، وسحبوهن بينهم من شعورهن ، وتسلطوا على بعض بيوت الأعيان من الناس المجاورين لهم ، ومن لهم بهم أدنى نسبة أو شبهة ، بل وبعض الرعية ... الا من تداركه الله برحمته ، أو التجأ الى بعض منهم ، أو صالح على بيته بدراهم يدفعها لمن التجأ اليه منهم !

ووقع فى تلك الليلة واليومين بعدها ما لا يوصف من تلك الأمور ، وخربوا أكثر البيوت ، وأخذوا أخشابها ، ونهبوا ما كان بحواصلهم من الغلال والسمن والأدهان ، وكان شيئا كثيرا ، وصاروا يبيعونه على من يشتريه من الناس . ولولا اشتغالهم بذلك لما نجا من الأمراء المصريين الذين كانوا بالبلدة أحد . ولو رجع الأمراء عليهم ، وهم مشتغلون بالنهب ، لتمكنوا منهم ، ولكن غلب عليهم الخوف والحرص على الحياة والجبن ، وخابت فيهم الظنون ، وذهبت نفختهم فى الفارغ ، وجازاهم الله ببغيهم وظلمهم وغرورهم . وخصوصا مافعلوه مع على باشا من الحيل حتى وقع فى أيديهم ، ثم رذلوه وأهانوه وقتلوا عسكره ونهبوا أمواله ، ثم طردوه وقتلوه . فانه ، وان كان خبيثا ، لم يعمل معهم مايستحق ذلك كله . وأعظم منه مافعلوه مع أخيهم الألفى الكبير بعدما سافر لحاجتهم وراحتهم وصالح عليهم ، ورتب لهم مافيه راحتهم وراحة الدولة معهم بواسطة الانكليز ، وغاب فى البحر المحيط سنة ، وقاسى هول الأسفار ، والفراتين فى البحار ... فجازوه بالتشريد والتشتيت والنهب ، وقتل أتباعه وحبسهم وبلصهم ، واتخذوهم أعداء وأخصاما من غير جرم ولا سابقة عداوة معهم ... الا الحسد والحقد ، وحذرا من رياسته عليهم . وكانت هذه الفعلة سببا لنفور قلوب العسكر منهم ، واعتقادهم خيانتهم وقلتهم فى أعينهم .

فان الألفى وأتباعه كانوا مقدار النصف منهم ، ونصف النصف متفرق فى الأقاليم ، مغمورون فى غفلتهم ، ومشتغلون بما هم فيه من مغارم الفلاحين وطلب الكلف . فلما أرسلوا لهم بالحضور ، لم يسهل بهم ترك ذلك ، ولم يستعجلوا الحركة حتى يستوفوا مطلوباتهم من القرى ... الى أن حصل ما حصل ، ونزل بهم ما نزل . ولم يقع لهم منذ ظهورهم أشنع من هذه الحادثة ، وخصوصا كونها على يد هؤلاء ، وكانوا يرون فى أنفسهم أن الشخص منهم يدوس برجله الجماعة من العسكر ! وأحسنوا ظنهم فيهم ، واعتقدوا انهم صاروا أتباعهم وجندهم ... مع أنهم كانوا قادرين على ازالتهم من الاقليم ، وخصوصا عندما خرجوا من المدينة لملاقاة على باشا ، وأخرجوا جميع العسكر وحازوهم الى جهة البحر ، وحصنوا أبواب البلد بمن يثقون به من أجنادهم ، ورسموا لهم رسوما امتثلوها . فلو أرسلوا لهم بعد ايقاعهم بعلى باشا أقل أتباعهم وأمروهم بالرحلة لما وسعتهم المخالفة ، حتى ظن كثير ممن له أدنى فطنة حصول ذلك ... فكان الأمر بخلاف ذلك ، ودخلوا بعد ذلك ، وهم بصحبتهم ، ضاحكين من غفلة القوم ، ومستبشرين برجوعهم ودخولهم الى المدينة ثانيا .

وعند ذلك تحقق لذوى الفطن سوء رأيهم وعدم فلاحهم .

وزادوا فى الطنبور نغمه بما صنعوه مع الألفى ... وكان العسكر يهابون جانبه ، ويخافون أتباعه ويخشونهم . وخصوصا لما سمعوا بوصوله على الهيئة المجهولة لهم ... داخلهم من ذلك أمر عظيم استمر فى أخلاطهم يوما وليلة الى أن جلاه البرديسى ومن معه بشؤم رأيهم وفساد تدبيرهم ، وفرقوا جمعهم فى النواحى حرصا على قتل الألفى وأتباعه .

فعند ذلك ، زالت هيبتهم من قلوب العسكر وأوقعوا بهم ما أوقعوه ... ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله !

ذو الحجة

الثلاثاء غرته (١٣ مارس ١٨٠٤ م) :

قلدوا على أغا الشعراوى واليا على مصر .

وفيه : نهبوا بيت محمد أغا المحتسب ، وقبضوا عليه وحبسوه .

الاربعاء ٢ منه (١٤ مارس ١٨٠٤ م) :

أنزلوا محمد باشا خسرو وابراهيم باشا الى بولاق ، وسفروهما الى بحرى ومعهما جماعة من العسكر .

وكانت ولايته — هذه الولاية الكذابة — شبيهة بولاية أحمد باشا الذى تولى بعد قتل طاهر باشا يوما ونصفا وكان قد اعتقد فى نفسه رجوعه لولاية مصر ، حتى أنه لما نزل من القلعة الى بيت محمد على ، نظر الى بيته من الشباك مهدوما متخربا ، فطلب فى ذلك الوقت المهندسين وأمرهم بالبناء ، وذلك من وساوسه . ويقال ان السبب فى سفره اخوة طاهر باشا ، فانهم داخلهم غيظ شديد . ورأى محمد على نفرتهم وانقباضهم من ذلك ، وعلم أنه لايستقيم حاله معهم ، وربما تولد بذلك شر ... فعجل بسفره وذهابه .

ومن الاتفاقات العجيبة أيضا ، أن طاهر باشا لما غدر بمحمد باشا ، أقام بعده اثنين وعشرين يوما ، وكذلك لما غدر المصرلية بالألفى ، لم يقوموا بعد ذلك الا مثل ذلك .

وفيه : صعد عابدى بيك أخو طاهر باشا بالقلعة ، وأقام بها .

الخميس ٣ منه (١٥ مارس ١٨٠٤ م) :

أطلقوا عثمان بيك يوسف ، وسافر الى جماعته

جانب من بيوت بعض الأعيان ... فى القاهرة

جهة تبلى . ويقال انه افتدى نفسه منهم بمال ، وأطلقوه ومعه خمسة مماليك ، وأعطوه خمسة جمال وأربعة هجن وخيلا .

وفيه : افرجوا عن محمد أغا المحتسب وأبقوه في الحسبة على مصلحة عملوها عليه . وقام بدفعها ، وركب وشق في المدينة ، وعمل تسعيرة ، ونادى بها في الشوارع والأسواق .

وأما الأمراء ، فانهم باتوا أول ليلة جهة البساتين . وفي ثاني يوم ، ذهبوا الى حلوان . وحضر اليهم حسين بيك الوالي ورستم بيك من الشرقية . ومروا من تحت القلعة ، وانفصلوا من العسكر الذين كانوا معهم في المطرية ، وتركوا لهم الحملة . ووصل اليهم أيضا يحيى بيك من ناحية رشيد ، وأحمد بيك من دمياط ، وذهبوا اليهم . ووصل يحيى بيك من ناحية الجيزة ، وأحضر معه عربانا كثيرة من الهنادي وبني على وغيرهم ، ونزلوا باقليم الجيزة ، ونهبوا البلاد ، وأكلوا المزروعات ، واستمروا على ذلك ، وانتشروا الى أن صارت أوائلهم بزاوية المصلوب وأواخرهم بالجيزة .

وفيه : كتبوا مكاتبات من نساء الأمراء المصرلية بأنهم لايتعرضون لأحد من العساكر الكائنة بقبلى ، وان قتل منهم أحد ... اقتصوا من حريمهم وأولادهم بمصر .

الجمعة ٤ منه (١٦ مارس ١٨٠٤ م) :

حضر محمد بيك المبدول بأمان ودخل الى مصر .

الأحد ٦ منه (١٨ مارس ١٨٠٤ م) :

أصعدوا عمر بيك ، وبقية الكشاف ، وبعض الأجناد المصرية ... الى القلعة .

وفيه : عدى كثير من العسكر الى بر الجيزة ، ووقع بينهم وبين العرب بعض مناوشات ، وقتل أناس كثيرة من الفريقين .

الاثنين ٧ منه (١٩ مارس ١٨٠٤ م) :

ظهر محمد بيك الألفى الكبير من اختفائه ... وكان متواريا بشرقية بلبيس برأس الوادى عند شخص من العربان يسمى عشيبة . فأقام عنده مدة هذه الأيام ، وخلص اليه صالح تابعه بما معه من المال . وكان البرديسي استدل على مكانه ، وأحضر أناسا من العرب ، وجعل لهم مالا كثيرا عليه ، وأخذوا في التحيل عليه ... فحصلت هذه الحوادث وجوزي البرديسي بنيته ، وخرج من مصر كما ذكر . وكانوا في تلك المدة يشيعون عليه اشاعات : مرة بموته ، ومرة بالقبض عليه ، وغير ذلك .

فلما حصل ما حصل ، وانجلت الطرق من المراصدين ... اطمأن حينئذ ، وركب في عدة من الهجانة ، وصحبته صالح بيك تابعه ، ومروا من خلف الجبل ، وذهب الى شرق أطفيح ، ونزل عند عرب المعازة ، وتواتر الخبر بذلك .

الاربعاء ٩ منه (٢١ مارس ١٨٠٤ م) :

وصل أحمد باشا خورشيد الى منوف ، فتقيد السيد أحمد المحروقي وجرجس الجوهري بتصليح بيت ابراهيم بيك بالدوادية وفرشه .

الاثنين ١٤ منه (٢٦ مارس ١٨٠٤ م) :

وصل الباشا الى ثغر بولاق ، فضربوا شنكا ومدافع . وخرج العساكر في صبحها والوجاقلية ، وركب ودخل من باب النصر ، وأمامه كبار العساكر بزينتهم ، ولم يلبس الشعار القديم .. بل ركب بالتخفيفة ، وعليه قبوط مجرور ، وخلفه النوبة التركية ، ودخل الى الدار التي أعدت له بالداودية . وقدموا له التقادم ، وعملوا بها تلك الليلة شنكا وسواريخ .

الثلاثاء ١٥ منه (٢٧ مارس ١٨٠٤ م) :

مر الوالي وأمامه المنادى ، وبيده فرمان من

الباشا ، ينادى به على الرعية بالأمن والأمان والبيع والشراء .

وفيه : حضر عبد الرحمن بيك الابراهيمى ، وكان فى بشبيش بناحية بحرى ، فطلب أمانا وحضر الى مصر .

الجمعة ١٨ منه (٣٠ مارس ١٨٠٤ م) :

تحول الباشا من الداودية الى الأزبكية ، وسكن ببيت البكرى ، حيث كان حريم محمد باشا ، فركب قبل الظهر فى موكب وذهب الى المشهد الحسينى ، وصلى الجمعة هناك ، ورجع الى الأزبكية .

وفيه : فتحوا طلب مال الميرى من السنة القابلة لضرورة النفقة . فاغتم الملتزمون لذلك ... لضيق الحال ، وتعطل الأسباب ، وعدم الأمن ، وتوالى طلب الفرد من البلاد ، فلو فضل للملتزم شىء .. لا يصل اليه الا بغاية المشقة وركوب الضرر ، لوثوب الخلائق من العربان والفلاحين والأجناد والعساكر على بعضهم البعض ، من جميع النواحى القبلية والبحرية . ثم ان الوجاقلية وبعض المشايخ راجعوا فى ذلك . فانحط الأمر بعد ذلك على طلب نصف مال الميرى من سنة تسعة عشر ، وبواقى سنة سبعة عشر وثمانية عشر ، وكذلك باقى الحلوان الذى تأخر على المفلسين . وكتبوا التنابيه بذلك ، وقالوا : « من لم يقدر على الدفع .. فليعرض تقسيطه على المزاد » . هذا والأجناد والعرب محيطة ببر الجيزة ، والعسكر من داخل الأسوار لايجسرون على الخروج اليهم .

وحجزوا المراكب الواردة بالغلال وغيرها ، حتى لم يبق بالسواحل شىء من تلك الغلة أبدا . ووصل سعر الأردب القمح — ان وجد — خمسة عشر ريالا .

الاحد ٢٠ منه (اول ابريل ١٨٠٤ م) :

وصل العسكر الذين كانوا صحبة سليمان بيك حاكم الصعيد ، فدخلوا الى البلدة ، وأزعجوا كثيرا من الناس ، وسكنوا البيوت بمصر القديمة بعدما أخرجوهم منها ، وأخذوا فرشهم ومتاعهم.. وكذلك فعلوا ببولاق ومصر عندما حضر الذين كانوا ببحرى .

وفيه : قلدوا الحسبة لشخص عثمانلى من طرفه الباشا ، وعزلوا محمد أغا المحتسب . وكذلك عزلوا على أغا الشعراوى ، وقلدوا الزعامة لشخص آخر من أتباع الباشا ، وقلدوا آخر أغات مستحفظان .

الثلاثاء ٢٢ منه (٣ ابريل ١٨٠٤ م) :

خرجت عساكر كثيرة وعدت الى البحر الغربى . ووقعت فى صبحها حروب بينهم وبين المصرلية والعربان . وكذلك فى ثانى يوم ، ودخلت عساكر جرجى كثيرة ، وعملوا لهم متاريس عند ترسة والمعتمدية وتترسوا بها . والمصرلية والعربان يرمحون من خارج ، وهم لا يخرجون اليهم من المتاريس . واستمروا على ذلك الى يوم الأحد ٢٧ منه (٨ أبريل) .

وفى ذلك اليوم : ضربوا مدافع ورجع محمد على والكثير من العساكر . وأشيع ترفع المصرلية الى فوق ، ووقع بين العربان اختلاف ، وأشاعوا نصرتهم على المصرلية ، وأنهم قتلوا منهم أمراء وكشافا ومماليك وغير ذلك .

وفى ذلك اليوم : شنقوا شخصا بباب زويلة وآخر بالحبانية ، وهما من الفلاحين ، ولم يكن لهما ذنب . قيل انه وجد معهما بارود اشترياه لمنع الصائلين عليهم من العرب . فقالوا : انكم تأخذونه الى المحاربين لنا . وكان شيئا قليلا .

وفيه : نزل جماعة من العسكر جهة قبة الغورى ، ومعهم نحو ثلاثين نفرا بجمالهم ، فقرطوا القمح المزروع — وكان قد بدا صلاحه — فطارت عقول

الفلاحين ، واجتمعوا وتكاثروا عليهم ، وقبضـوا على ثلاثة أشخاص منهم ، وهرب الباقون . فدخلوا بهم المدينة ، ومعهم الأحمال وصحبتهم طبل وأطفال ونساء ، وذهبوا تحت بيت الباشـا . فأمر بقتل شخص منهم ... لأنه شـامى وليس بأرنؤودى ولا انكشارى ! فقتلوه بالأزبكية ، فوجـدوا عـلى وسطه ستمائة بندقى ذهب وثلثمائة محبوب ذهب.. والله أعلم .

وانقضت السنة وما حصل بها من الحوادث .

* * *

وأما من مات فيها ممن له ذكر ...

فمات الفقيـه العـلامة ، والنحرير الفهامة ، الشيخ أحمد اللحام اليونسى ، المعروف بالعريشى الحنفى . حضر من بلدته خان يونس فى سنة ثمان وسبعين ومائة وألف ، وحضر أشياخ الوقت ، وأكب على حضور الدروس ، وأخذ المعقول على مثـل الشيخ أحمد البيلى ، والشـيخ محمد الجناجى والصبان والفرماوى وغيرهم .

وتفقه على الشيخ عبد الرحمن العريشى ولازمه وبه تخرج ، وحضر على الشـيخ الوالد فى الدر المختار ، من أول كتاب البيوع الى كتاب الاجارة بقراءته ... وذلك سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف .

ولم يزل ملازما للشيخ عبد الرحمن ملازمة كلية ، وسافر صحبته الى اسلامبول فى سنة تسعين لبعض المقتضيات . وقرأ هناك الشفاء والحـكم بقراءة المترجم ، وعاد صحبته الى مصر . ولم يزل ملازما له حتى حصل للعريشى ما حصـل ، ودنت وفاته . فأوصى اليـه بجميع كتبـه ، واستقر عوضه فى مشيخة رواق الشوام ، وقرأ الدروس فى محله .

وكان فصيحا مستحضرا ، متضلعا من المعقولات والمنقولات ، وقصدته الناس فى الافتاء ، واعتمدوا أجـوبته .

وتداخل فى القضايا والدعاوى ، واشتهر ذكره .

واشترى دارا واسعة فى سوق الزلط بحارة المقس خارج باب الشـعرية ، وتجمل بالملابس ، وركب البغال ، وصار له أتباع وخدم .

ومرعت الناس والعامة والخاصـة فى دعاويهم وقضاياهم وشكاويهم .. اليه .

وتقلد نيابة القضاء لبعض قضـاة العسـاكر أشهرا . ولمـا حضرت الفرنسـاوية الى مصر ، وهرب القاضى الرومى بصحبة كتخـدا الباشـا — كما تقدم — تعين المترجم للقضاء بالمحكمـة الكبيرة ، وألبسه كلهبر سارى عسكر الفرنساوية خلعة مثمنة ، وركب بصحبة قائمقام فى موكب الى المحكمة ، وفوضوا اليه أمر النواب بالأقاليم .

ولما قتل كلهبر ، انحرف عليه الفرنسـاوية ، لكون القاتل ظهر من رواق الشوام ... وعزلوه . ثم تبينت براءته من ذلك ... الى أن رتبوا الديوان فى آخر مدتهم . ورسم عبد الله جاك منو باختيار قاض بالقرعة ، فلم تقم الا على المترجم ، فتولاه أيضـا . وخلعوا عليه ، وركب مثـل الأول الى المحكمة ، واستمر بها الى أن حضرت العثمانيـون وقاضيهم ، فانفصل عن ذلك ولازم بيته ، مع مخالطة فصل الخصومات والحكومات والافتاء .

ثم قصد الحج فى هذه السنة ، فخـرج مـع الركب ، وتمرض فى حال رجوعه ، وتوفى ودفن بنبط .. رحمه الله .

* * *

ومات الشيخ الامام ، العمدة الفقيه ، الصالح المحقق ، الشيخ على المعروف بالحياط الشافعى حضر أشياخ الوقت ، وتفقه على الشـيخ عيسى البراوى ولازم دروسه وبه تخرج ، واشتهر بالعلم والصلاح ، وأقرأ الدروس الفقهيـة والمعقولية ، وانتفع به الطلبة ، وانقطع للعلم والافادة .

ولمـا وردت ولاية جدة لمحمد باشا توسون ، طلب انسانا معروفا بالعلم والصـلاح ، فذكر له

الشيخ المترجم ، فدعاه اليه وأكرمه وواساه وأحبه ، وأخذه صحبته الى الحجاز ، وتوفى هناك .. رحمه الله .

* * *

ومات الرئيس المبجل المهذب ، صاحبنا محمد أفندى باش جاجرت الروزنامة . وأصله تربية محمد أفندى كاتب كبير الينكجرية ، وتمهر فى صناعة الكتابة وقوانين الروزنامة .

وكان لطيف الطبع ، سليم الصدر ، محبوبا للناس ، مشهورا بالذوق وحسن الأخلاق ، مهذبا فى نفسه متواضعا ... يسعى فى حوائج اخوانه ، وقضاء مصالحهم المتعلقة بدفاترهم ، قانعا بحاله ، مترفها فى مأكله وملبسه .

واقتنى كتبا نفيسة ومصاحف . وتجتمع ببيته الأحباب ، ويدير عليهم سلاف أنسه المستطاب ... مع الحشمة والوقار ، وعدم الملل والنفار .

ولما اختلفت الأحوال ، وترادفت الفتن ... ضاق صدره من ذلك ، واستوحش من مصر وأحوالها . فقصد الهجرة بأهله وعياله الى الحرمين ، وعزم على الاقامة هناك .

فلما حصل هناك ، رأى فيها الاختلاف والخلل كذلك ، بسبب ظلم الشريف غالب وأتباعه ، واغارة الوهابيين على الحرمين ، وفتن العربان . فلم يستحسن الاقامة هناك ، واشتاق لوطنه ، فعزم على العود الى مصر ، فمرض بالطريق ، وتوفى ودفن بالينبع .. رحمه الله .

* * *

ومات الأمير حسين بك ، الذى عرف بالوشاش ، وهو من مماليك محمد بيك الألفى ، وكان يعرف أولا بكاشف الشرقية ، لأنه كان تولى كشوفيتها .

وكان صعب المراس ، شديد البأس ، قوى الجنان ... قلبه ، مع نحافة جسمه ، أعظم من جبل لبنان : لا يهاب كثرة الجنود ، وتخشى سطوته الأسود .

ولما أجمعوا على خيانة الألفى وأتباعه ، قال لهم ابراهيم بيك الكبير — على ما بلغنا — لايتيم مرامكم بدون البداءة بالمترجم . فان امكنكم ذلك .. والا فلا تفعلوا شيئا . فلم يزالوا يدبرون عليه ، ويتملقون له ، ويظهرون له خلاف ما يبطنون حتى تمكنوا من غدره على الصورة المتقدمة .

وسبب تلقبه بالوشاش ، أنه كان طلع لملاقاة الحجاج بمنزلة « الوش » فى سنة ورود الفرنساوية. فلما لاقى الحجاج ، وأمير الحج صالح بيك ، رجع صحبتهم الى الشام ، وحصل منه بعد ذلك المواقف الهائلة مع الفرنساوية ، مع أستاذه ومنفردا ، فى الجهات القبلية والشامية .

ولما انجلت الحوادث ، وارتحلت الفرنساوية من الديار المصرية ، واستقرت المصريون — بعد حوادث العثمانية — تأمر المترجم فى ستة عشر صنجقا المتأمرين ، وظهر شأنه ، واشتهر ذكره فيما بينهم ، ونفذت أوامره فيهم ، ونغص عليهم ، وناكدهم وعاندهم ، وغار على ما بأيديهم ... حتى ثقلت وطأته عليهم .

فلم يزالوا يحتالون عليه ، حتى أوقعوه فى حبال صيدهم ، وهو لا يخطر بباله خيانتهم ، وغدروه بينهم كما ذكر .

* * *

ومات الأمير رضوان ، كتخدا ابراهيم بيك ، وهو أغنى مماليكه ... رباه وأعتقه ، وجعله جوخداره .

وكان يعرف أولا برضوان الجوخدار ، واستمر فى الجوخدارية مدة طويلة .

ولما رجع مع أستاذه — فى أواخر سنة خمس

ومائتين وألف ، بعد موت اسماعيل بيك وأتباعه — الى مصر ، أرخى لحيته ، وتقلد كتخدائية أستاذه ، وتزوج ببعض سراريه ، وسكن دار عابدى بيك بناحية سويقة العزى ، ثم انتقل منها الى دار ملكه على بركة الفيل تجاه بيت شكرفره ... وعمرها .

وصارت له وجاهة بين الأمراء والأعيان ، وباشر فصل الخصومات والدعاوى . وازدحم الناس ببيته ، واشتهر ذكره ، وعظم شأنه ، وقصدته أرباب الحاجات ... وأخذ الرشوات والجعالات !

وكان يقرأ ويكتب ، ويناقش ويحاجج ، ويعاشر الفقهاء ، ويباحثهم ، ويميل بطبعه اليهم ، ويحب مجالستهم ولا يمل منهم .

وعنده حلم وسعة صدر وتؤدة وتأن فى الأمور . واذا ظهر له الحق لا يعدل عنه ، وعنده مداهنة وقوة حزم .

ولما حضر على باشا الطرابلسى — على الصورة المتقدمة — كان المترجم هو المتعين فى الارسال اليه . فلم يزل يتحيل عليه حتى انخدع له ، وأدخل رأسه الجراب ، وصدق تمويهاته ، وحضر به الى مصر ، وأوردوه بعد الموارد . وحاز بذلك منقبة بين أقرانه . ونوه بعد بشأنه ، وخلعوا عليه الخلع ، وعرضوا عليه الامارة ... فأباها ، واستمر على حالته معدودا فى أرباب الرياسة ، وتأتى الأمراء الى داره .

ولم يزل حتى ثارت العسكر على من بالبلدة من الأمراء ، وحصروا ابراهيم بيك ببيته ، وخرج فى ثانى يوم هاربا والمترجم خلفه ، والرصاص يأخذهم من كل ناحية . فأصيب فى دماغه ، فمال عن جواده واستند على الخدم ، وذلك جهة الدرب الأحمر . فلم يزل فى غشوته حتى خرجت روحه بالرميلة . فأنزلوه عند باب العزب ، واحتاط به المتقيدون بالباب ، وأخذوا ما فى جيوبه . ثم أحضروا له تابوتا وحملوه فيه الى داره ، فغسلوه وكفنوه ودفنوه بالقرافة .. سامحه الله ، فانه كان من خيار جنسه ... لولا طمع فيه !

ولقد بلوته سفرا وحضرا ، يافعا وكهلا ... فلم أر ما يشينه فى دينه : عفوفا ، طاهر الذيل ، وقورا محتشما ، فصيح اللسان ، حسن الرأى ، قليل الفضول ، جيد النظر .

* * *

ومات الأجل العمدة ، الشريف السيد ابراهيم افندى الروزنامجى . وهو ابن أخى السيد محمد الكماخى الروزنامجى ، المتوفى سنة سبع ومائتين وألف . وأصلهم روميون الجنس .

وكان فى الأصل جربجيا ، ثم عمل كاتب كشيدة وكان يسكن دارا صغيرة بجوار دار عمه ، واستمر على ذلك خامل الذكر .

فلما توفى عمه السيد محمد ، انتبذ عثمان أفندى العباسى المنفصل عن الروزنامة سابقا ، يريد العود اليها عن شوق وتطلع لها ، وظنه شعور المنصب عن المتأهل اليه سواه . فلم تساعده الأقدار لشدة مراسه .

وسأل ابراهيم بيك عن شخص من أهل بيت المتوفى ، فذكر له السيد ابراهيم المرقوم وخموله ، وعدم تحمله لأعباء ذلك المنصب ، فقال : « لابد من ذلك : قطعا لطمع المتطلعين » . والتزم بمراعاته ومساعدته ، وطلبه ونقله من حضيض الخمول الى أوج السعادة والقبول .

فتقلد ذلك ، وساس الأمور بالرفق والسير الحسن ، واشترى دارا عظيمة بدرب الأغوات وسكنها . واستمر على ذلك الى أن ورد الفرنساوية الى مصر ، فخرج مع من خرج هاربا الى الشام . ثم رجع مع من رجع ، ولم يزل حتى تمرض وتوفى فى يوم الأربعاء سادس عشرة القعدة من السنة . رحمه الله تعالى .

سنة ١٢١٩ هجرية

المحرم

الخميس غرته (١٣ ابريل ١٨٠٤ م) :

ركب الوالى العثملى ، وشق من وسط المدينة ، فمر على سوق الغورية ، فأنزل شخصا من أبناء التجار المحتشمين — وكان يتلو فى القرآن — فأمر الأعوان فسحبوه من حانوته وبطحوه على الأرض ، وضربوه عدة عصى من غير جرم ولا ذنب وقع منه . ثم تركه وسار الى الأشرفية ، فأنزل شخصا من حانوته وفعل به مثل ذلك . فانزعج أهل الأسواق وأغلقوا حوانيتهم ، واجتمع الكثيرمنهم ، وذهبوا الى بيت الباشا يشكون فعل الوالى . وسمع المشايخ بذلك فركبوا أيضا الى بيت الباشا وكلموه ، فأظهر الحنق والغيظ على الوالى .

ثم قاموا وخرجوا من عنده ، فتبعهم بعض المتكلمين فى بيت الباشا ، وقال لهم : « ان الباشا يريد قتل الوالى ، والمناسب منكم الشفاعة .. ! » ، فرجعوا الى الباشا ، وشفعوا فى الوالى .

وأرسل سعيد أغا الوكيل، وأحضروا له المضروب وأخذ بخاطره ، وطيب نفسه بكلمات . ورجع الجميع كما ذهبوا ، وظنوا عزل الوالى ... فلم يعزل .

وفيه : رجع المصرلية والعربان ، وانتشروا باقليم الجيزة حتى وصلوا الى انبابة ، وضربوها ونهبوها ، وخرج أهلها على وجوههم ، وعدوا الى البر الشرقى . وأخذ العسكر فى أهبة التشهيل والخروج لمحاربتهم .

الجمعة ٢ منه (١٤ ابريل ١٨٠٤ م) :

سافر السيد على القبطان الى جهة رشيد ، وخرج بصحبته جماعة كثيرة من العساكر الذين غنموا الأموال من المنهوبات ، فاشتروا بضائع وأسبابا ومتاجر ونزلوا بها صحبته ، وتبعهم غيرهم من الذين يريدون الخلاص والخروج من مصر .

فركب محمد على الى وداع السيد على المذكور، وردّ كثيرا من العساكر المذكورة ، ومنعهم عن السفر .

الثلاثاء ٦ منه (١٨ ابريل ١٨٠٤ م) :

خرج محمد على وأكابر العسكر بعساكرهم ، وعدوا الى بر انبابة ، ووصلوا ونصبوا وطاقهم ، وعملوا لهم عدة متاريس ، وركبوا عليها المدافع واستعدوا للحرب .

الأحد ١١ منه (٢٣ ابريل ١٨٠٤ م) :

كبس المماليك والعربان — وقت الغلس — على متاريس العسكر ، وحملوا على متراس حملة واحدة ، فقتلوا منهم وهرب من بقى ، وألقوا بأنفسهم فى البحر . فاستعد من كان بالمتاريس الأخر ، وتابعوا رمى المدافع ، وخرجوا للحرب . ووقع بينهم مقتلة عظيمة أبلى فيها الفريقان نحو أربع ساعات ، ثم انجلت الحرب بينهم ، وترفع المصرلية والعربان ، وانكفوا عن بعضهم .

وفى وقت الظهر ، أرسلوا سبعة رءوس من الذين قتلوا من المصرلية فى المعركة ، وشقوا بهم المدينة ثم علقوهم بباب زويلة . وفيهم رأس حسين

بيك الوالى وكاشفين ، ومنهم حسن كاشف الساكن بحارة عابدين ، ومملوكان .

وعلقوا عند رأس حسين بيك الوالى المذكور صليبا من جلد ، زعموا أنهم وجدوه معه .

وأصيب اسماعيل بيك صهر ابراهيم بيك ، ومات بعد ذلك ودفن بأبى صير .

الاثنين ١٢ منه (٢٤ ابريل ١٨٠٤ م) :

حصلت أعجوبة ببيت بالقربية به بغلة تدور بالطاحون ، فزنقوها بالادارة ، فأسقطت حملا ليس فيه روح ، فوضعوه فى مقطفه ، ومروا به من وسط المدينة ، وذهبوا به الى بيت القاضى . وأشيع ذلك بين الناس وعاينوه !

السبت ١٧ منه (٢٩ ابريل ١٨٠٤ م) :

حضر على كاشف المعروف بالشعب (بثلاث معجمات وتشديد الشين وفتح الغين وسكون الباء) رسولا من جهة الألفى ، ووصل الى جهة البساتين ، وأرسل الى المشايخ يعلمهم بحضوره لبعض أشغال . فركب المشايخ الى الباشا وأخبروه بذلك . فأذن بحضوره ، فحضر ليلا ، ودخل الى بيت الشيخ الشرقاوى .

فلما أصبح النهار ، أشيع ذلك ، وركب معه المشايخ والسيد عمر النقيب ، وذهبوا به الى بيت الباشا ، فوجدوه راكبا فى بولاق ، فانتظروه حصة الى أن حضر ، فتركوا عنده على كاشف المذكور ، ورجعوا الى بيوتهم . واختلى به الباشا حصة ، وقابله بالبشر ، ثم خلع عليه فروة سمور ، وقدم له مركوبا بعدة كاملة ، وركب الى بيته وأمامه جملة من العسكر مشاة . وقدم له محمد على أيضا حصانا .

وفيه : شرعوا فى عمل شركفلك للحرب بالأزبكية .

الاثنين ١٩ منه (أول مايو ١٨٠٤ م) :

ورد ططرى وعلى يده بشارة للباشا ... بتقليده ولاية مصر ، ووصول القابجى الذى معه التقليد والطوخ الثالث الى رشيد ، وطوخان لمحمد على وحسن بيك أخى طاهر باشا وأحمد بيك فضربوا عدة مدافع ، وذهب المشايخ والأعيان للتهنئة .

الثلاثاء ٢٠ منه (٢ مايو ١٨٠٤ م) :

قتل الباشا ثلاثة أشخاص ، أحدهم رجل سروجى . وسبب ذلك أن الرجل السروجى له أخ أجير عند بعض الأجناد المصرلية ، فأرسل لأخيه فاشترى له بعض ثياب ونعالات وأرسلها مع ذلك الرجل ، فقبضوا عليه وسألوه ... فأخبرهم . فأحضروا ذلك الرجل السروجى ، وأحضروا أيضا رجلا بيطارا متوجها الى بولاق معه مسامير ونعالات ، فقبضوا عليه واتهموه أنه يعدى الى البر الآخر ليعمل لأخصامهم نعالات للخيل فأمر الباشا بقتله وقتل السروجى والرجل الذى معه الثياب ، فقتلوهم ظلما !

الاربعاء ٢١ منه (٣ مايو ١٨٠٤ م) :

حضر القابجى الذى على يده البشرى ، وهو خازندار الباشا ، وكان أرسله حين كان بسكندرية ويسمونها « المجدة » . ولم يحضر معه أطواخ ولا غير ذلك . فضربوا له شنكا ومدافع .

وفيه : خلع الباشا على السيد أحمد المحروقى فروة سمور ، وأقره على ما هو عليه ... أمين الضربخانة وشاه بندر . وكذلك خلع على جرجس الجوهرى ، وأقره باش مباشر الأقباط على ماهو عليه .

وفيه : رجع على كاشف الشعب بجواب الرسالة الى الألفى .

وفيه : تحقق الخبر بموت يحيى بيك . وكان مجروحا من المعركة السابقة .

الخميس ٢٢ منه (٤ مايو ١٨٠٤ م) :

عمل الباشا الديوان ، وحضر المشايخ والوجاقلية ، وقرأوا المرسوم بحضرة الجمع ومضمونه : « أننا كنا صفحنا ورضينا عن الأمراء المصرلية على موجب الشروط التى شرطناها عليهم بشفاعة علي باشا والصدر الأعظم ، فخانوا العهود، ونقضوا الشروط ، وطغوا وبغوا ، وظلموا وقتلوا الحجاج ، وغدروا على باشا المولى عليهم ، وقتلوه ونهبوا أمواله ومتاعه ... فوجهنا عليهم العساكر فى ثمانين مركبا بحرية . وكذلك أحمد باشا الجزار بعساكر برية للانتقام منهم ومن العسكر الموالين لهم فورد الخبر بقيام العساكر عليهم ومحاربتهم لهم ، وقتلهم واخراجهم . فعند ذلك رضينا عن العسكر لجبرهم ما وقع منهم من الخلل الأول ، وصفحنا عنهم صفحا كليا ، وأطلقنا لهم السفر والاقامة متى شاءوا وأينما أرادوا من غير حرج عليهم ...

« وولينا حضرة أحمد باشا خورشيد ، كامل الديار المصرية ، لما علمنا فيه من حسن التدبير والسياسة ، ووفور العقل والرياسة » .. الى غير ذلك .

وعملوا شنكا وحراقة وسواريخ بالأزبكية ثلاث ليال ، ومدافع تضرب فى كل وقت من الأوقات الخمسة من القلعة وغيرها .

وفيه : تواترت الأخبار بأن الأمراء القبالى عملوا وحسات ، وقصدهم التعدية الى البر الشرقى .

الاحد ٢٥ منه (٧ مايو ١٨٠٤ م) :

عدى الكثير منهم على جهة حلوان ، وانتقل الكثير من العسكر من بر الجيزة الى بر مصر . فخاف أهل المطرية وغيرها ، وجلوا عنها ، وهربوا الى البلاد ، وحضر كثير منهم الى مصر خوفا من وصول القبالى .

الاثنين ٢٦ منه (٨ مايو ١٨٠٤ م) :

سافر الشيخ الشرقاوى الى مولد سيدى أحمد البدوى ، واقتدى به كثير من العامة وسخاف العقول . وكان المحروقي وجرجس الجوهرى مسافرين أيضا ، وشهلوا احتياجاتهم ، واستأذنوا الباشا ... فأذن لهم .

فلما تبين لهم تعدية المصرلية الى الجهة الشرقية ، امتنعوا من السفر ، ولم يمتنع الشيخ الشرقاوى ومن تابعه .

الثلاثاء ٢٧ منه (٩ مايو ١٨٠٤ م) :

وصل فريق منهم الى جهة قبة باب النصر والعادلية — من خلف الجبل — ورمحوا خلف باب النصر من خارج ، وباب الفتوح ، ونواحى الشيخ قمر والدمرداش، ونهبوا الوايلى وماجاوره ، وعبروا الدور ، وغروا النساء ، وأخذوا دسوتهم وغلالهم وزروعهم . وخرج أهل تلك القرى على وجوههم ومعهم بعض شوالى وقصاع ، ودخل الكثير منهم الى مصر .

الاربعاء ٢٨ منه (١٠ مايو ١٨٠٤ م) :

جمع الباشا ومحمد على العسكر ، واتفقوا على الخروج والمحاربة وأخرجوا المدافع والشركفلكات الى خارج باب النصر ، وشرعوا فى عمل متاريس .

وفى آخر النهار ، ترفع المصرلية والعرب وتفرقوا فى اقليم الشرقية والقليوبية ... وهم يسعون فى الفساد ، ويهلكون الحصاد . فما وجدوه مدروسا من البيادر أخذوه ، أو قائما على ساقه رعوه ، أو غير مدروس أحرقوه ، أو كان من المتاع نهبوه ، أو من المواشى ذبحوه وأكلوه !

وذهب منهم طائفة الى بلبيس ، فحاصروا بها

احد الأعراب

كاشف الشرقية يومين ، ونقبوا عليه الحيطان حتى غلبوه ، وقتلوا من معه من العسكر . وأخذوه أسيرا ومعه اثنان من كبار العسكر ، ثم نهبوا البلد وقتلوا من أهلها نحو المائتين .

وحضر أبو طويلة شيخ العائد عند الأمراء ولامهم ، وكلمهم على هذا النهب ، وقال لهم : « هذه الزروعات غالبها للعرب ، والذى زرعه الفلاح فى بلاد الشرق شركة مع العرب ، وأن هبود العرب المصاحبين لكم .. ليس لهم رأس مال فى ذلك ، فكفوهم وامنعوهم ، ويأتيكم كفايتكم . وأما النهب فانه يذهب هدرا » . فلما سمع كبار العرب المصاحبين لهم من الهناذى وغيرهم قوله : « هبود العرب » اغتاظوا منه ، وكادوا يقتلونه .

ووقع بين العربان منافسة واختلاف . وكذلك حصروا كاشف القليوبيه ، فدخل بمن معه جامع قلوب وتترس به ، وحارب ثلاث ليال ، وأصيب كثير من المخاربين له . ثم تركوه ففر بمن بقي معه الى البحر ، ونزل فى قارب وحضر الى مصر . وأخذوا حملته ومتاعه وجبخانته ، وطلبوا مشايخ النواحى مثل : شيخ الزوامل والعائد وقليوب ، وألزموهم بالكلف ، وفردوا على القرى الفرد والكلف الشاقة مثل ألف ريال وألفين وثلاثة ، وعينوا بطلبها العرب ، وعينوا لهم خدما وحق طرق ، خلاف المقرر ، عشرين ألف فضة وأزيد . ومن استعظم شيئا من ذلك أو عصى عليهم ، حاربوا القرية ونهبوها ، وسبوا نساءها ، وقتلوا أهلها ، وحرقوا جرونهم .

وقل الواردون الى المدينة بالغلال وغيرها ، فقلت من الرقع ، وازدحم الناس على مايوجد من القليل فيها . واحتاج العسكر الى الغلال لأخبازهم ، لأنهم لم يكن عندهم شىء مدخر ، فأخذوا ماوجدوه فى العرصات ... فزاد الكرب ، ومنعوا من يشترى زيادة على ربع ... من الكيل ، ولا يدركه الا بعد مشقة بستين نصفا . واذا حضر للبعض من الناس غلة من مزرعته القريبة ، لا يمكنه ايصالها الى داره الا بالتجوه والمصانعة والمغرم لقلقات الأبواب وأتباعهم .

فيحجزون ما يرونه داخل البلد من الغلة متعللين بأنهم يريدون وضعها فى العرصات القريبة منهم ، فيعطونها للفقراء بالبيع ، فيعطونهم دراهم ويطلقونهم .

وفيه : طلبوا جملة أكياس لنفقة العسكر ، فوزعوا جملة أكياس على الأقباط ، والسيد أحمد المحروقى ، وتجار البهار ، ومياسير التجار والملتزمين ... وطلبوا أيضا مال الجهات والتحرير ، وباقى مسميات المظالم عن سنة تاريخه معجلة !

الخميس ٢٩ منه (١١ مايو ١٨٠٤ م) :

خرج الكثير من العسكر ، ورتبوا أنفسهم ثلاث فرق فى ثلاث جهات ، وردوا الخيول .. الا القليل . ووقع بينهم مناوشات قتل فيها أنفار من الفريقين .

صفر

فى غرته (١٢ مايو ١٨٠٤ م) :

نادوا على الفلاحين والخدامين البطالين بالخروج من مصر . وكل من وجد بعد ثلاثة أيام ، وليس بيده ورقة من سيده ، يستأهل الذى يجرى عليه .

٢ منه (١٣ مايو ١٨٠٤ م) :

طاف الأعوان ، وجمعوا عدة من الناس العتالين وغيرهم ، ليسخروهم فى عمل المتاريس وجر المدافع .

٥ منه (١٦ مايو ١٨٠٤ م) :

قبض الوالى على شخص يشترى طربوشا عتيقا من سوق العصر بسويقة لاجين ، واتهمه أنه يشترى الطرابيش للاخصام ... من غير حجة ولا بيان ، ورمى رقبته عند باب الخرق ظلما !

٧ منه (١٨ مايو ١٨٠٤ م) :

نزل الأرنؤود من القلعة ، وتسلمها الباشا وطلع اليها . وضربوا لطلوعه عدة مدافع ، ورجع الى داره آخر النهار .

وفيه : أشيع قدوم سليمان بيك حاكم جرجا ، ووصوله الى بنى سويف ، وفى عقبه الألفى الصغير أيضا .

وفيه : هجم طائفة من الخيالة — فى طلوع الفجر — على المذبح السلطانى ، وأخذوا ثورين : أحدهما من المذبح ، والآخر من بعض الغيطان ، وهرب الجزارون .

٩ منه (٢٠ مايو ١٨٠٤ م) :

طلع الباشا الى القلعة وسكن بها ، وضربوا له عدة مدافع .

وفيه : حضر كاشف الشرقية المقبوض عليه ببلبيس ، ومعه اثنان . وقد أفرج عنهم الأمراء المصرلية وأطلقوهم . فلما وصلوا الى الباشا ، خلع عليهم ، وألبسهم فراوى جبرا لخاطرهم .

وفيه : وصل الخبر بوقوع حرب بين العسكر والمصرلية والعربان ، وحضر عدة جرحى . وكانت الواقعة عند الخصوص وبهتيم . وجلا أهل تلك القرى وخرجوا منها ، وحضروا الى مصر بأولادهم وقصاعهم ... فلم يجدوا لهم مأوى ، ونزل الكثير منهم بالرميلة .

وفيه : حضر أناس من الذين ذهبوا الى مولد السيد البدوى ، وفيهم عرايا ومجاريح وقتلى . وقد وقفت لهم العرب ، وقطعت عليهم الطرق ، فتفرقوا فرقا فى البر والبحر ، وحصر العرب طائفة كبيرة منهم بالقرطيين ، وحصل لهم ما لا خير فيه .

وأما الشيخ الشرقاوى ، فانه ذهب الى المحلة الكبيرة وأقام بها أياما ، ثم ذهب مشرقا الى بلده القرين .

وفيه : حضر مصطفى أغا الأرنؤودى هجانا برسالة من عند الألفى ، وفيها طلب أتباعه الذين بمصر ، فلم يأذنوا لهم فى الذهاب اليه ، واحتجوا بعدم تحقق صداقته للعثمانية .

وفيه : ورد الخبر بتوجه سليمان بيك الخازندار حاكم جرجا الى جهة بحرى ، وأنه وصل الى بنى سويف ، وأن الألفى الصغير فى أثره بجرى منية ابن خصيب ، والألفى الكبير مستقر بأسيوط يقبض فى الأموال الديوانية والغلال . وأشيع صلحه مع عشيرته سرا ، ومظهر خلاف ذلك مع العثمانية .

١٠ منه (٢١ مايو ١٨٠٤ م) :

أحضروا جماعة من الوجاقلية عند كتخدا الباشا . فلما استقروا فى الجلوس ، كلموهم ، وطلبوا منهم سلفة ، وحبسوا رضوان كاشف الذى بباب الشعرية وطلبوا منه عشرين كيسا ، وكذلك طلبوا من باقى الأعيان مثل : مصطفى أغا الوكيل وحسن أغا محرم

ومحمد أفندى سليم ، وابراهيم كتخدا الرزاز وخلافهم ... مبالغ مختلفة المقادير . وعملوا على الأقباط ألف كيس ، وحلف الباشا أنها لاتنقص عن ذلك . وفردوا على البنادر مثل دمياط ورشيد وفوة ودمنهور والمنصورة وخلافها ... مبالغ أكياس : مابين ثمانين كيسا ، ومائة كيس ، وخمسين كيسا . وغير ذلك ، لنفقة العسكر . وأحضر الباشا الروزنامجى واتهمه فى التقصير .

١١ منه (٢٢ مايو ١٨٠٤ م) :

أرسل الباشا الوالى والمحتسب الى بيت الست نفيسة زوجة مراد بيك وطلبها ، فركبت معهما وصحبتها امرأتان ، فطلعا بهن الى القلعة . وكذلك ارسلوا بالتفتيش على باقى نساء الأمراء فاختفى غالبهن ، وقبضوا على بعضهن ، وذلك كله بعد عصر ذلك اليوم .

فلما حصلت الست نفيسة بين يديه ، قام اليها وأجلها ، ثم أمرها بالجلوس ، وقال لها على طريق اللوم : « يصح أن جاريتك منور تتكلم مع صادق أغا ، وتقول له يسعى فى أمر المماليك العصاة ، وتلتزم له بالمكسور من جامكية العسكر » .فأجابته: « ان ثبت أن جاريتى قالت ذلك ، فأنا المأخوذة به دونها » . فأخرج من جيبه ورقة وقال لها : « وهذه ؟ » وأشار الى الورقة ، فقالت : « وما هذه الورقة ؟ أرنيها ، فانى أعرف أن أقرأ ، لأنظر ماهى ؟ » فأدخلها ثانيا فى جيبه ، ثم قالت له : « أنا بطول ماعشت بمصر ... وقدرى معلوم عند الأكابر وخلافهم . والسلطان ورجال الدولة وحريمهم يعرفونى أكثر من معرفتى بك . ولقد مرت بنا دولة الفرنسيس الذين هم أعداء الدين فما رأيت منهم الا التكريم ، وكذلك سيدى محمد باشا كان يعرفنى ويعرف قدرى ، ولم نر منه الا المعروف . وأما أنت .. فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم ! » فقال : «ونحن أيضا لانفعل غير المناسب». فقالت له : « وأى مناسبة فى أخذك لى من بيتى بالوالى مثل أرباب الجرائم ؟» . فقال : «أنا أرسلته لكونه أكبر أتباعى . فارساله من باب التعظيم » . ثم اعتذر اليها ، وأمرها بالتوجه الى بيت الشيخ السحيمى بالقلعة ، وأجلسوها عنده بجماعة من العسكر .

وأصبح الخبر شائعا بذلك ، فتكدرت خواطر الناس لذلك ، وركب القاضى ونقيب الأشراف والشيخ السادات والشيخ الأمير ،وطلعوا الى الباشا وكلموه فى أمرها . فقال : « لا بأس عليها . وانى أنزلتها ببيت الشيخ السحيمى مكرمة حسما للفتنة ، لأنها حصل منها مايوجب الحجر عليها » . فقالوا : « نريد بيان الذنب . وبعد ذلك : اما العفو أو الانتقام » . فقال : « انها سعت مع بعض كبار العسكر تستميلهم الى المماليك العصاة ، ووعدتهم بدفع علوفاتهم . وحيث أنها تقدر على دفع العلوفة ، فينبغى أنها تدفع العلوفة ! » .

فقالوا له : « ان ثبت عليها ذلك ، فانها تستحق ما تأمرون به ، فيحتاج أن تتفحص على ذلك » . فقام اليها الفيومى والمهدى ، وخاطباها فى ذلك . فقالت : « هذا كلام لا أصل له . وليس لى فى المصرلية زوج حتى انى أخاطر بسببه ، فان كان قصده مصادرتى ، فلم يبق عندى شىء ، وعلى ديون كثيرة » .

فعادوا اليه ، وتكلموا معه .. وراددهم . فقال الشيخ الأمير للترجمان : « قل لأفندينا .. هذا أمر غير مناسب ، ويترتب عليه مفاسد . وبعد ذلك يتوجه علينا اللوم . فان كان كذلك ، فلا علاقة لنا بشىء من هذا الوقت ، أو نخرج من هذه البلدة » . وقام قائما على حيله يريد الذهاب . فمسكه مصطفى أغا الوكيل وخلافه ، وكلموا الباشا فى اطلاقها ،

وأنها تقيم ببيت الشيخ السادات .. فرضى بذلك ، وأنزلوها ببيت الشيخ السادات .

وكانت عديلة هانم ابنة ابراهيم بيك ، عندما وصلها الخبر ، ذهبت الى بيته أيضا .

وفيه . شنقوا شخصا على السبيل بباب الشعرية ، شكا منه أهل حارته ، وأنه يتعاطى القيادة ويجمع بين الرجال والنساء وغير ذلك .

١٤ منه (٢٥ مايو ١٨٠٤ م) :

كتبوا أوراقا وألصقوها بالأسواق بطلب ميرى سنة تاريخه المعجلة بالكامل — وكانوا قبل ذلك طلبوا نصفها ثم اضطرهم الحال بطلب الباقى — وعملوا قوائم بتوزيع خمسة آلاف كيس . ايستقر منها على طائفة القبطة خمسمائة كيس بعد الألف ، وجملة على الملتزمين ، خلاف ما أخذ منهم قبل ذلك ، وعلى الست نفيسة وبقية نساء الأمراء ثمانمائة كيس .

وفيه : خطف العرب جرابة العسكر من عند الزاوية الحمراء .

وفيه : وصل سليمان بيك الخازندار ، وعدى الى جهة طرا . فخرج عدة من العسكر — خلاف المرابطين هناك قبل ذلك من العسكر والمغاربة — فقصد المرور من خلف الجبل واللحوق بجماعته جهة الشرق فى آخر الليل . فوقف له العسكر وضربوا عليه بالمدافع الكثيرة ، واستمر الضرب من الفجر الى عصر يوم الجمعة ، ونفذ بمن معه على حماية ، وقتلوا منه مملوكا واحدا ، وحضروا برأسه الى تحت القلعة .

وفيه : رجع الكثير من عسكر الأرنؤود وغيرهم ، ودخلوا الى المدينة يطلبون العلوفة ، واستمر من بقى منهم ببهتيم وبلقس ومسطرد .. وقد أخرجوا أهاليها منها ونهبوها ، واستولوا على ما فيها من غلال وأتبان وغير ذلك . وكرنكوا فيها ونقبوا الحيطان لرمى بنادق الرصاص من الثقوب ، وهم مستترون من داخلها ، ونصبوا خيامهم فى أسطحة الدور ، وجعلوا المتاريس من خارج البلدة ، وعليها المدافع . فلا يخرجون الى خارج ، ولا يبرزون الى ميدان الحرب . وكل من قرب منهم من الخيالة المقاتلين ، رموا عليه بالمدافع والرصاص ، ومنعوا عن أنفسهم واستمروا على ذلك .

وفيه : وردت مكاتبات الى التجار من الحجاز ، وأخبروا بأن الحجاج أدركوا الحج والوقوف بعرفة ، ودخلوا قبل الوقوف بيومين .

وأخبروا أيضا بوفاة شريف باشا الى رحمة الله تعالى ، وكان من خيار دولة العثمانيين .

ووردت أخبار أيضا من البلاد الشامية بوفاة أحمد باشا الجزار فى سادس عشرين المحرم .

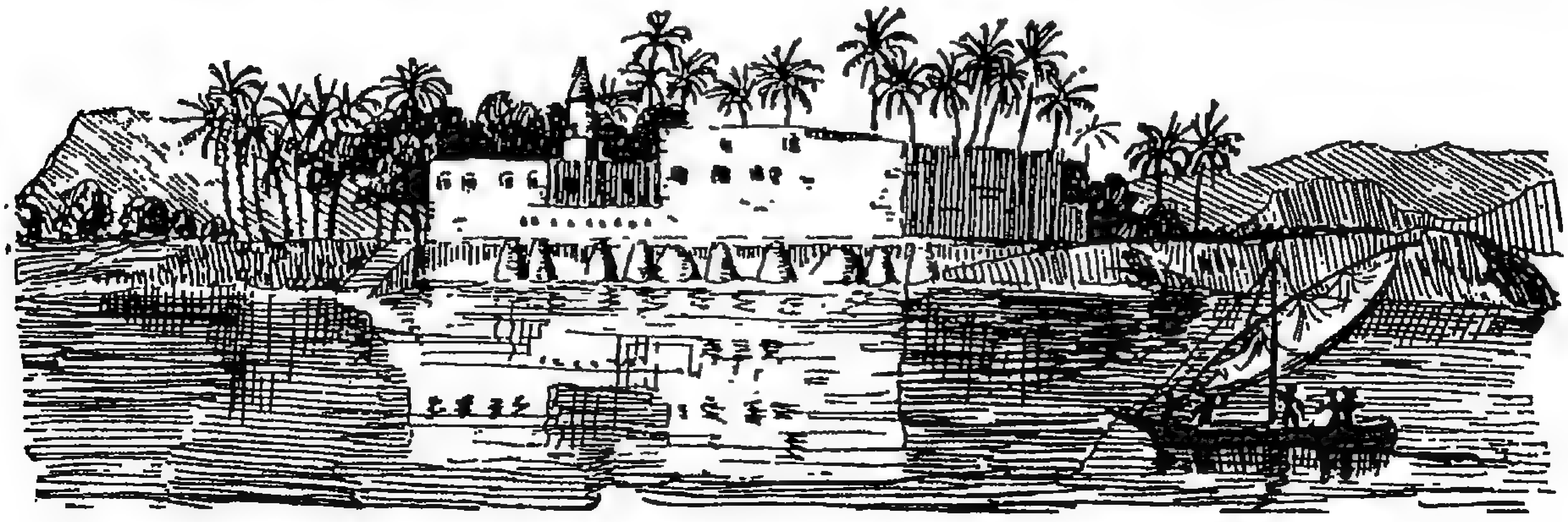

طرا

١٦ منه (٢٧ مايو ١٨٠٤ م) :

أرسلوا تنابيه الى أرباب الحرف والصنائع بطلب دراهم وزعت عليهم ... مجموعها خمسمائة كيس . فضج الناس وتكدروا ، مع ماهم فيه من وقف الحال ، وغلاء الاسعار فى كل شيء .

وأصبحوا على ذلك يوم الأحد ، فلم يفتحوا الحوانيت ، وانتظروا مايفعل بهم .

وحضر منهم طائفة الى الجامع الازهر ، ومر الأغا والوالى ينادون بالأمان وفتح الدكاكين . فلم يفتح منهم الا القليل .

وفيه : سرح سليم كاشف المحرمجى الى جهة بحرى ، وأشيع وصول الألفى الصغير الى المنية .

١٨ منه (٢٩ مايو ١٨٠٤ م) :

اجتمع الكثير من غوغاء العامة والأطفال بالجامع الأزهر ، ومعهم طبول ، وصعدوا الى المنارات يصرخون ويطبلون ، وتحلقوا بمقصورة الجامع يدعون ويتضرعون ويقولون : « يا لطيف .. » وأغلقوا الأسواق والدكاكين .

ووصل الخبر الى الباشا ، بل سمعهم من القلعة ، فأرسل قاصدا الى السيد عمر النقيب يقول : « اننا رفعنا عن الفقراء » . فقال له : « ان هؤلاء الناس وأرباب الحرف والصنائع كلهم فقراء ، وما كفاهم ماهم فيه من القحط والكساد ووقف الحال حتى تطلبوا منهم مغارم لجوامك العسكر ! وما علاقتهم بذلك ؟ » . فرجع الرسول بذلك .

وحضر الأغا ومعه عدة من العسكر ، وجلس بالغورية وهو يأمر الناس بفتح الحوانيت ، ويتوعد من يتخلف . فلم يحضر أحد ، ولم يسمعوا لقوله !

وفى وقت العصر ، رجع القاصد ومعه فرمان برفع الغرامة عن المذكورين ، ونادى المنادى بذلك .

فاطمأن الناس وتفرقوا ،وذهبوا الى بيوتهم ، وخرج الأطفال يرمحون ويصرخون ويفرحون .

وفى ذلك اليوم ، عدى محمد على وجمع كثير من العسكر والمغاربة الى بر الجيزة ، وبرزوا الى خارج . فنزل عليهم جملة من العرب فحاربوهم ، فقتل بينهم أنفار وانجرح منهم كذلك ، ثم ترفعوا عنهم فرجعوا ومعهم رأس من العرب ، ومع المغاربة قتيل منهم فى تابوت ، وهم يقولون : «طردناهم» . وخطفوا بعض مواش وأغنام فى طريقهم من الرعيان، فقتلوهم وأخذوها منهم .

١٩ منه (٣٠ مايو ١٨٠٤ م) :

أحضر كتخدا الباشا كاتب البهار وأمره باحضار ستمائة فرق بن ، فاعتذر اليه بعدم وجود ذلك ، فقال : « انما نأخذها بأثمانها » . فقال له : « ليس على الا التعريف . وقد عرفتك أن هذا القدر لايوجد ، وانأردت فأرسل معى من تريد ونكشف على حواصل التجار والخانات » . فطافوا على الخانات ، وفتحوا الحواصل فلم يجدوا الا سبعين فرقا ، وأكثرها عليه نشانات كبار العسكر من مشترواتهم ، فرجعوا من غير شيء . ثم نودى فى أثر ذلك بالأمان .

وفيه : وقعت معركة بسوق الصاغة بين بعض العسكر الذين يتحشرون فى أيام الأسواق فى الدلالين والباعة ،ويعطلون عليهم دلالتهم وصناعتهم ومعايشهم ، وضربوا على بعضهم بالرصاص . ففزع الناس ، وحصلت كرشة ، وظن من لايعلم الحقيقة من العسكر أنها قومة ، فهربوا يمينا وشمالا وطلبوا النجاة والتوارى . ووافق مرور أغاة الانكشارية فى ذلك الوقت .. فانزعج هو ومن معه وطلب الهرب ! ثم انكشف الغبار ، وظهرشخص عسكرى مطروح وبه رمق وآخر مجروح ، فرجع الأغا وأمر بحمله فى تابوت ، ونادى بالأمان .

٢٢ منه (٢ يونية ١٨٠٤ م) :

قبل المغرب ... ضربوا مدافع كثيرة من القلعة ، وكذلك فى صبحها يوم السبت . ولم يظهر لذلك سبب سوى مايقولونه من التمويهات من وصول الأطواخ وعساكر ودلاة برية تارة وبحرية أخرى .

وفيه : أشيع وقوع معركة بين المصرلية والعثمانية وأخذوا منهم متاريس بلقس ومدافع ، ووصل منهم جرحى دخلوا ليلا . وحضر من المصرلية طائفة ناحية شلقان وقطعوا الطريق على السفار فى البحر ، وأخذوا مركبين ، وأحرقوا مراكب . وامتنع الواصلون والذاهبون ، وارتفعت الغلال من الرقع والعرصات ، وغلا سعرها . فخرج البهم مراكب يقال لها « الشلنبات » ، وضربوا عليهم بالمدافع ، وأجلوهم عن ذلك الموضع . ووصل بعض مراكب من المعوقين .

٢٦ منه (٦ يونية ١٨٠٤ م) :

أرسل الباشا الى المشايخ . فذهبوا اليه ، فاستشارهم فى خروجه الى الحرب وخروجهم صحبته مع الرعية ... فلم يصوبوا رأيه فى ذلك . وقالوا له : « اذا انهزم العسكر ، تأمر غيرهم بالخروج واذا كانت الهزيمة علينا ، وأنت معنا ، من يخرج بعد ذلك ؟ » وانفض المجلس على غير طائل .

فى أواخره (٨ ، ٩ يونية ١٨٠٤ م) :

وقع بينهم مساجلات ومحاربات ومغالبات ، واحترقت جبخانة العثمانيين ... وقيل آخذ باقيها . ورجع منهم قتلى ومجاريح ، وانجرح عابدى بيك أخو طاهر باشا ، واحترق أشخاص من الطبجية ، ودخل سلحدار الباشا والوالى وأمامهما رأس واحدة بشوارب كأنه من المماليك .

وفى عصرية ذلك اليوم : آخرجوا عساكر ومعهم مدافع وجبخانة أيضا ... محملة على نيف وثلاثين جملا .

وفيه : ضيقوا على نساء الأمراء فى طلب الغرامة ، وألزموا بقبضها وتحصيلها الست نفيسة وعديلة هانم ابنة ابراهيم بيك . فوزعتاها بمعرفتهما على باقى النساء . وأرسلوا عساكر يلازمون بيوتهن حتى يدفعن ما التزمن به ، فاضطر أكثرهن لبيع متاعهن ، فلم يجدن من يشترى لعموم المضايقة والكساد !

* * *

وانقضى هذا الشهر ... والحال على ما هو عليه من استمرار الحروب ، والمحاصرات بين الفريقين ، وانقطاع الطرق برا وبحرا ، وتسلط العربان واستغنامهم تفاشل الحكام ، وانفكاك الأحكام .

وكذلك تسلط الفلاحين المقاومين من بعد وحرام على بعضهم البعض بحسب المقدرة والقوة والضعف ، وجهل القائمين المتأمرين بطرائق سياسة الاقليم ، ولا يعرفون من الأحكام الا أخذ الدراهم بأى وجه كان .

وتمادى قبائح العسكر بما لاتحيط به الأوراق والدفاتر ... بحيث أنه لا يخلو يوم من زعجات ورجفات وكرشات فى غالب الجهات : اما لأجل امرأة أو أمرد ، أو خطف شىء ، أو تنازع وطلب شر بأدنى سبب مع العامة والباعة ، أو مشاحنة مع السوقة والمتسببين بسبب ابدال دنانير ذهب ناقص بدراهم فضة كاملة المصارفة من صيارف أو باعة أو غير ذلك !

وتعطل أسباب المعايش ، وغلو الأسعار فى كل شىء ، وقلة المجلوب ، ومنع السبل . ووصل سعر الأردب القمح ستة عشر ريالا ، والفول والشعير أكثر من ذلك ... لقلته وعزته . واذا حضر منه شىء ، أخذوه لاحتياج العليق .. قهرا بأبخس الثمن عند وصوله المأمن . وأجرة طحين الويبة من القمح

ستة وأربعون نصفا ... مع ما يسرقه الطحانون منها ويخلطونه فيها . وأجرة خبيزها عشرون نصفا ... بحيث حسب ثمن الأردب بعد غربلته وأجرته ومكسه وكلفته وطحينه وخبيزه الى أن يصير خبزا : أربعة وعشرين ريالا ! فسبحان اللطيف الخبير المدبر . ومن خفى لطفه ، كثرة الخبز وأصناف الكعك والفطير فى الأسواق .

وسعر الرطل من اللحم الجفيط،بما فيه من العظم والكبد : تسعة أنصاف ، والجاموس : سبعة أنصاف الرطل ، والراوية الماء : ثلاثون نصفا ، والسمن القنطار بألفين وأربعمائة نصف . وشح الأرز ، وقل وجوده ، وغلا ثمنه . ووصل سعر الأردب الى خمسة وعشرين ريالا . والجبن القريش بثمانية عشر نصفا الرطل .

وأما الخضارات فعز وجودها وغلا ثمنها ... بحيث أن الرطل من البامية — بما فيها من الخشب الذى يرمى من وقت طلوعها الى أن بلغت حد الكثرة ... بثمانية أنصاف كل رطل . والرطل قبانى اثنتا عشرة أوقية . وعز وجود البن وغلا سعره ، حتى بلغ فى هذا الشهر الرطل سبعين نصفا ، والسكر العادة الصعيدى خمسة وأربعون نصفا الرطل الواحد ، والعسل الأبيض الغير الجيد ثلاثون نصفا ، والعسل الأسود خمسة عشر نصفا ، والعسل القطر عشرون نصفا الرطل ، والصابون أربعة وعشرون نصفا .

كل ذلك بالرطل القبانى الذى عمله محمد باشا ... فلا جزاه الله خيرا ! والشيرج بألفين فضة القنطار . وورد الكثير من الحطب الرومى ورخص سعره الى مائة وعشرين نصفا الحملة بعد ثلثمائة نصف .

وأما أنواع البطيخ والعبدلاوى فلم يشتره أكثر الناس لقلته وغلو ثمنه ، فانه بيعت الواحدة بعشرين نصفا فأقل فأكثر ، والخيار بخمسة أنصاف الرطل — من وقت طلوعه الى أن بلغ حد الكثرة — وبقى بحال لاتقبله الطبيعة البشرية ، فعند ذلك بيع بنصفين !

وأما الفاكهة ، فلا يشتريها الا أفراد الأغنياء ، أو مريض يشتهيها ، أو امرأة وحمى ... لغلوها . فان رطل الخوخ بخمسة عشر نصفا ، والتفاح الأخضر كذلك . وقس على ذلك .

وذلك لقلة المجلوب وخراب البساتين ، وغلو علف البهائم ، وخوز المتسببين ، وأخذ الرشوات منهم وتركهم وما يدينون . وأما الأتبان فانها كثرت وانحل سعرها عما كانت .

ربيع الأول

فى غرته (١٠ يونية ١٨٠٤ م) :

وقع هرج ومرج واشاعات ، ثم تبين أن طائفة من العربان والمماليك وصلوا الى خارج باب النصر وظاهر الحسينية وناحية الزاوية الحمراء وجزيرة بدران جهة الحلى ، ورمحوا على من صادفوه بتلك النواحى ، وحالوا بين العسكر الخارجين وبين عرضيهم ، وأخذوا مامعهم من الجراية والعليق والجبخانة .

فنزل الباشا ومعه عساكر ، وذهب الى جهة بولاق ، ثم الى ناحية الزاوية الحمراء ، وأغلقوا أبواب المدينة . ثم رجع الباشا بعدالعصر ، ودخل من باب العدوى ، وطلع الى القلعة وهو لابس برنسا . ثم تكرر بينهم وقائع وخروج عساكر ودخول خلافهم ، ونزول الباشا وطلوعه .

٤ منه (١٣ يونية ١٨٠٤ م) :

حضر الشيخ عبد الله الشرقاوى من غيبته بالقرين بعد ذهابه الى المحلة من طندتا .

٦ منه (١٥ يونية ١٨٠٤ م) :

حضر هجانة بمكاتبة من عند الألفى الكبير

خطابا للباشا ، وفيها الاخبار بعزمه على الحضور الى مصر هو وعثمان بيـك حسن ، ويلتمس أن يخلو له الجيزة وقصر العينى لينظر فى هذا الأمر والفساد الواقع بمصر .

فكتب له الباشـا جوابا ملخصه — على ماتقل الينا — « أنك فى السابق عرفتنا أنك مذعن للطاعة ، وأرسلنا لك بالاذن والاقامة بجرجا ... وما عرفنا موجب هـذا الحضور ؟ فان كنت طائعا وممتثـلا فارجـع الى جرجا موضـع ماكنت ، ولك الولاية والحكم بالاقليم القبلى ، وأرسل المـال والغلال » ونحو ذلك من الـكلام . وسـافروا بالجواب يوم السبت ثامنه .

٨ منه (١٧ يونية ١٨٠٤ م) :

ترفع الأمراء المصرلية الى ناحية مشتهر وبنها ، وانتقلوا من منزلتهـم . وأشاع العسـكر ذهابهم وهروبهم .

وفيه : وردت مكاتبات من الحجاز ، وأخبروا فيها بموت محمود جاويش الذى سافر بالمحمل ، وكذلك الحاج يوسف صيرفى الصرة . وأن طائفـة من الوهابيين حاصروا جـدة ولم يملكوها ، وأن ببلاد الحجاز غلاء شديدا ... لمنع الوارد عنهم ، والأردب القمح بثلاثين ريالا فرانسا ، عنهـا من الفضة العددية خمسة آلاف وأربعمائة .

وفيه : أرسلوا فعلة وعمالا لعمل متاريس وأبنية بناحية طرا ، وكذلك بالجيزة . وأرسـلوا هناك مراكب حربية يسمونها « الشلنبات » .

١١ منه (٢٠ يونية ١٨٠٤ م) :

خرج محمد على وحسن بيك أخو طاهر باشـا الى جهـة القليوبيـة ، وصحبتهم عسـاكر كثيرة وأدوات ، وعدى طائفة من الأمراء الى بر المنوفية ، وهرب حاكم المنوفية من منوف .

١٣ منه (٢٢ يونية ١٨٠٤ م) :

ورد الخبر بوصول مراكب وأدوات من القلزم الى السويس ، وفيها حجاج والمحمل ، وأخبروا بمحاصرة الوهابيين لمكة والمدينة وجدة ، وأن أكثر أهل المدينة ماتوا جوعا لعزة الأقوات .. والأردب القمح بخمسين فرانسا ان وجد ، والأردب الأرز بمائة فرانسا . وقس على ذلك .

١٥ منه (٢٤ يونية ١٨٠٤ م) :

وصلت مراكب وفيها طائفة من العسكر ، وهم الذين يسمونهم النظام الجديد الذين يقلدون محاربة الافرنج . وأشـاعوا أنهم خمسـة آلاف وعشرة آلاف . ووصـل صحبتهم الأغا الذى كان حضر بالمجدة والبشارة للباشا بالتقليد والأطواخ ورجع الى اسكندرية . فحضر أيضا وضربوا لوصـوله مدافع وشـنكا جهة بولاق ، وأرسلوا له خيولا ويرقا وطبلخانات ، وأركبوه من بولاق . وشـق

موكب الأغا

من وسط المدينة ، وأمامه وخلفه أتباع الباشا والوالى والجنيبات وعسكر النظام الجديد — وهم دون المائة شخص — والأغا المذكور ، ومعه أوراق فى أكياس حرير ملون ، وخلفه آخر راكب ومعه بقجة بقال ان بداخلها خلعة برسم الباشا ، وآخر معه صندوق صغير وعليه دواة كتابة منقوشة بالفضة ، وخلفهم الطبلخانات .

فلما وصلوا الى القلعة ، ضربوا لوصولهم مدافع كثيرة من القلعة ، وعمل الباشا ديوانا فى ذلك الوقت بعد العصر ، وقرأوا التقليد المذكور .

وفيه : وصلت طائفة من العربان الى جهة بولاق وجزيرة بدران وناحية المذبح ،وخطفوا ماخطفوه ، وذهبوا بما أخذوه !

وفيه : ورد الخبر بوصول الألفى الكبير الى ناحية بنى سويف ، وعثمان بيك حسن فى مقابلته بالبر الشرقى .

١٧ منه (٢٦ يونية ١٨٠٤ م) :

وصل قاصد من الألفى بمكتوب ، خطابا للمشايخ العلماء ، مضمونه : أنه لايخفاكم أننا كنا سافرنا سابقا لقصد راحتنا وراحة البلاد ، ورجعنا بأوامر ، وحصل لنا ماحصل . ثم توجهنا الى جهة قبلى واستقرينا بأسيوط بعد حصول الحادث بين اخواننا الأمراء والعسكر ولخروجهم من مصر .

وأرسلنا الى أفندينا الباشا بذلك ، فأنعم علينا بولاية جرجا ونكون تحت الطاعة ، فامتثلنا ذلك وعزمنا على التوجه حسب الأمر . فبلغنا مصادرة الحريم ، والتعرض لهم بما لايليق من الفرائض ، وتسلط العساكر عليهم ولزومهم لهم . فثنينا العزم واستخرنا الله تعالى فى الحضور الى مصر لننظر فى هذه الأحوال . فان التعرض للحريم والعرض لاتهضمه النفوس .. وكلام كثير من هذا المعنى .

فلما وصلتهم المكاتبة ، أخذوها الى الباشا وأطلعوه عليها ، فقال فى الجواب : « انه تقدم أنهم تركوا نساءهم للفرنسيس ، وأخذوا منهم أموالا . وانى كنت أعطيت له جرجا ، ولعثمان بيك قنا وما فوق ذلك من البلاد ، وكان فى عزمى أن أكاتب الدولة وأطلب لهم أوامر ومراسيم بما فعلته لهم وبراحتهم .. فحيث أنهم لم يرضوا بفعلى ، وغرتهم أمانيهم ، فليأخذوا على نواصيهم ! »

وفيه : شرعوا فى حفر خندق قبلى الأمام الليث ابن سعد ومتاريس .

وفيه : أرسل محمد على الى مصطفى أغا الوكيل وعلى كاشف الصابونجى . فلما حضرا اليه ... عوقهما الى الليل ، ثم أرسلهما الى القلعة بعد العشاء ماشيين ، ومعهما عدة من العسكر ... فحبسا بها

٢٠ منه (٢٩ يونية ١٨٠٤ م) :

عمل الباشا ديوانا وحضر المشايخ والوجاقلية ، وأظهر زينته وتفاخره فى ذلك الديوان ، وأوقف خيوله المسومة بالحوش ، وخيول شجر الدر واصطفت العساكر بالأبواب والحوش والديوان ووقفت أصناف الديوان باختلاف أشكالهم ، والسعاة بالطاسات المذهبة على رءوسهم . وخرج الباشا بالشعار والهيبة ، وعلى رأسه الطلخان بالطراز ، الى الديوان الكبير المعروف بديوان الغورى . وقد أعدوا له كرسيا بغاشية جوخ احمر ، وبساط مفروش ، خلاف الموضع القديم . فجلس عليه ، وزعقت الجاويشية ، وأحضر التقليد .. فقرأه ديوان أفندى بحضور الجمع الكبير ، ثم قرأ فرمانين آخرين مضمون احدهما أكثر كلاما من الثانى .. ملخصه : الولاية وحكاية الحال الماضية من ولاية على باشا وشفاعته فى الأمراء المصرية

بشرط توبتهم ورجوعهم ، ثم عودهم الى البغى والفجور ، وغدر على باشا المذكور ، وظلمهم الرعية بمعونة العسكر ، ثم قيام الرعية والعسكر عليهم حتى قتلوهم وأخرجوهم من مصر . فعند ذلك صفحنا عن العسكر ، وعفونا عما تقدم منهم ، وأمرناهم بأن يلازموا الطاعة ويكونوا مع أحمد باشا خورشيد بالحفظ والصيانة ، والرعاية لكافة الرعية والعلماء ، وابعاد أهل الفساد والمعتدين وطردهم ، وتسهيل لوازم الحج والحرمين من الصرة والغلال ، ونحو ذلك من الكلام المحفوظ المعتاد المنمق !

ولما انقضى أمر قراءة الأوراق ، قام الباشا الى مجلسه الداخل ، ودخل اليه المشايخ ، فخلع عليهم فراوى سمور ، وكذلك الوجاقلية والكتبة والسيد أحمد المحروقى . ثم عملوا شنكا ومدافع كثيرة وطبولا

وأحضر فى ذلك الوقت المعلم جرجس وكبار الكتبة — وعدتهم اثنان وعشرون قبطيا ، ولم تجر عادة باحضارهم — فخلع عليهم أيضا ، ثم نزلوا الى بيت المحروقى فتغدوا عنده ، ثم عوقهم الى العصر ، ثم طلبهم الباشا الى القلعة فحبسهم تلك الليلة ، واستمروا فى الترسيم ، وطلب منهم ألف كيس !.

٢٢ منه (اول يولية ١٨٠٤ م) :

أفرجوا عن مصطفى أغا الوكيل وعلى كاشف الصابونجى على ثلثمائة كيس .

وفيه : حضر محمد على وحسن بيك أخو طاهر باشا ، وطلعا الى القلعة . فخلع عليهما الباشا ، وهنأه بالولاية . واستقر بمحمد على والى جرجا ، وحسن بيك والى الغربية . وضربوا لذلك مدافع كثيرة وشنكا ، وعملوا تلك الليلة حراقة وسواريخ

أحد شوارع جرجا

من الأزبكية وجهة الموسكى . والحال أنهم لايقدرون أن يتعدوا بر الجيزة ولا شلقان . فان طوائف عسكر الألفى وصلوا الى بر الجيزة ، وأخذوا منها الكلفة ، والأمراء البحرية منتشرون ببر الغربية والمنوفية .

وفيه : هرب شخص من كبار الأرنؤود يقال له ادريس أغا ، كان بجماعته جهة برشوم التين ، فركب الى المصرلية ولحق بهم ، وتبعه جماعته وهم نحو المائة وخمسين شخصا .

وفيه : أرسل الباشا آغاة الانكشارية ليقبض على على كاشف من أتباع الألفى من بيته بسوق المناطيين . فأرسل الى الأرنؤود ، فأرسلوا له جماعة منعوا الأغا من أخذه ، وجلسوا عنده . فأرسل الباشا من طرفه جماعة أقاموا محافظين عليه فى بيته .

ثم ان سليمان أغا كبير الأرنؤود ، الذى التجأ اليه المذكور ، حضر اليه وأخذه الى داره

بالأزبكية ، وصحبته الأمير مصطفى البردقجي الألفي أيضا .

٢٤ منه (٣ يولية ١٨٠٤ م) :

وصل شخص رومي بمراسلة من عند الألفي الى الباشا . فعندما قرأ الباشا المراسلة ، أمر بقتله حالا . فرموا عنقه برحبة القلعة !

وحضر أيضا مملوك بمراسلة من عند عثمان بيك حسن ، يذكر فيها حضوره مع الألفي ، وأنه اغتر بكلامه وتمويهاته عليه ، وأن بيده أوامر شريفة من الدولة ومن حضرة الباشا بالحضور . ثم ظهر أنه لم يكن بيده شيء ، وأن عثمان بيك ممتثل لما يأمره به الباشا ، وأمثال ذلك .

فكتب له جوابا ، وخلع على ذلك المملوك ورجع سالما !

٢٦ منه (٥ يولية ١٨٠٤ م) :

أفرجوا عن النصارى الأقباط ، بعدما قرروا عليهم ألف كيس ... خلاف البراني وقدره مائتان وخمسون كيسا . ونزلوا الى بيوتهم بعد العشاء الأخيرة في الفوانيس .

وفيه : وصل الألفي الصغير ، وانتشرت خيوله الى بر انبابة . فرموا عليهم مدافع من المراكب وبولاق ، ورفعوا الغلة من الرقع . وأشيع أن الألفي الكبير وصل الى الشوبك ، وعثمان بيك حسن وصل الى حلوان ، ورجع ابراهيم بيك والبرديسي وباقي الأمراء الى ناحية بنها ، بعدما طافوا المنوفية والغربية ، وقبضوا الكلف والفرد .

وخرج كثير من العسكر الى معسكرهم ناحية شلقان وما وازاها الى الشرق ، وخرج أيضا عدة من العسكر الى ناحية طرا والجيزة .

وفيه : أرسل الألفي الصغير ورقة لشخص من كبار العسكر مقطوع الأنف ، كان من أتباعه حين كان بمصر ، يطلبه للحضور اليه ويعده بالاكرام ، وأن يكون كما كان في منزلته عنده .

فأخذ الورقة والرسول الى الباشا ، فأمر بقتل المرسال — وهو رجل فلاح — فقطعوا رأسه بالرميلة ، وأنعم على مقطوع الأنف بعشرين ألف نصف فضة ، وشكره .

وقبل ذلك بأيام ، وصلت هجانة من العريش ، وأخبروا بورود عساكر من الدلاة وغيرهم معونة لمن بمصر . واختلفت الروايات في عدتهم .. فالمكثر من كذابي العثمانية يقولون : عشرة آلاف ، والمقل من غيرهم يقولون : ألفان أو ثلاثة .

وفيه : تواترت الأخبار بقربهم من الصالحية ، وانتقل الأمراء البحرية الى بلبيس ، وركب منهم عدة وافرة لملاقاة العسكر الواردين . وخرج محمد علي وحسن بيك في جمع كثير من العسكر الخيالة والرجالة الى جهة الشرقية ببلبيس ، ونقلوا عرضيهم من ناحية البحر ، وردوا الكثير من أثقالهم الى المدينة .

٢٧ منه (٦ يولية ١٨٠٤ م) :

أحضر الباشا طائفة اليهود وحبسهم وطلب منهم ألف كيس ، واستمروا في الحبس .

وفيه : رجع الألفي الصغير من ناحية انبابة الى جهة الشيمي باستدعاء من سيده . وأشاع العثمانية أنهم ذهبوا ورجعوا من حيث أتوا ، لعجزهم وعدم قدرتهم عليهم . وكان في ظنهم أمور لاتتم لهم كما ظنوا . ولحقتهم جميع العساكر من الجهة الشامية .

وفيه : أرسلوا ملاقاة للعساكر الواردين وفيها قومانية وجبخانة ولوازم على ستين جملا ومعهم هجانة . فعندما توسطوا البرية ، أحاط بهم العربان وأخذوهم .

وفيه : تسحب أشخاص من كبار العسكر بأتباعهم ، وذهبوا الى المصريين وانضموا اليهم : فمنهم من ذهب الى قبلى ، ومنهم من ذهب الى بحرى .

وفيه : عدى الألفى الكبير والصغير الى البر الشرقى عند عثمان بيك ، وترفعت مراكبهم الى قبلى .

وفيه : حضر عابدى بيك وحسن بيك من البحر الى بولاق ، وانتقل محمد على الى طنط جهة براشيم التبن ، بعد مقتلة وقعت بينهم وبين المصرلية ، وانهزموا وذهبوا الى تلك الجهة .

غايته (٩ يولية ١٨٠٤ م) :

أفرجوا عن طائفة اليهود بعد أن قرروا عليهم مائتى كيس خلاف البرانى .

وفيه : حضر خازندار الباشا من الديار الرومية الى ساحل بولاق ، وصحبته أمتعة ولوازم للباشا ، وأشياء فى صناديق .

ربيع الآخر

غرته (١٠ يولية ١٨٠٤ م) :

ركب الخازندار المذكور ، وطلع الى القلعة من وسط المدينة ، ونزل لملاقاته أغوات الباشا والجاويشية والشفاسية . وحضر صحبته نحو خمسين عسكريا ، ومشوا أمامه وخلفه ، والصناديق التى حضرت معه خلفه محملة على الجمال ، والجاويشية أمامه يضربون على طبلات حكم العادة فى ركوباتهم ، ومعه علة كبيرة من أتباع الباشا ، وأمامه الجنيبات والخيول .

وفيه : وصلت مراكب من الديار الحجازية الى السويس ، وفيها حجاج ومغاربة . ولم يصل منهم الا القليل ، وأكثرهم قتله العسكر الذى بمكة بعد موت شريف باشا ومن انضم اليهم من أجناسهم . وقد حصل منهم غاية الضرر والفساد والقتل ، حتى فى داخل الحرم ، لأن الشريف غالبا ضمهم اليه ، ورتب لهم جامكية . واستمروا معه على هذا الحال الفظيع !

وفيه : انبهم أمر العسكر الدلاة القادمين من الجهة الشامية ، واضطربت الروايات عن أخبارهم : فمنهم من قال : ان المصرلية وقفوا لهم بالطرق وقاتلوهم ، ورجع من نجا منهم بنفسه . ومنهم من قال : انهم لما بلغهم قطع الطريق عليهم .. رجعوا من حيث أتوا ، وبعضهم طلب الأمان ، وانضم اليهم . ومنهم من قال ان فرقة منهم ذهبت من فم الرمانة من طريق دمياط ، وقيل انهم حضروا بثمانين رأسا منهم الى بلبيس .

٣ منه (١٢ يولية ١٨٠٤ م) :

خرج الوالى بعلة من العسكر وصحبته مدافع وجبخانة ، واستقر بزاوية الدمرداش .

٤ منه (١٣ يولية ١٨٠٤ م) :

هجم الأمراء القبالى — وهم : الألفى وأتباعه وعثمان بيك حسن ومن انضم اليهم — على طرا وملكوا منها البرج الذى من ناحية الجبل ، بعد ما ضربوا عليه من أعلى الجبل ، وتمدوا الى ناحية البساتين ، وتركوا طرا ومن فيها خلف ظهورهم ، وتحاربوا مع طوابير العسكر — وكانوا أنفارا قليلة — ونظرهم الباشا من قلعته ، فزعق على السلحدار ، فركب فى عدة من الشفاسية وخرج اليهم . فعندما واجههم .. لم يثبتوا ، وولوا بعدما سقط منهم أنفار .

وفيه : وصل جواب من الأمراء القبالى الى المشايخ يذكرون فيه : أنهم يخاطبون الباشا فى اخماد الحرب ، وصلحه معهم ... فان ذلك أصلح له ،

ويكونون معه على مايحب وما يأمر به ، ويرتاح من علوفة العسكر التى أوجبت له المصادرات وسلب الأموال وخراب الاقليم ، وأن يختار من العسكر طائفة معلومة معدودة يقيمون بمصر ، ويأمر الباقى بالسفر الى بلادهم .

فلما خاطبوه بذلك ، وأطلعوه على المكاتبة ، أبى وقال : « ليس لهم عندى الا الحرب » .

٥ منه (١٤ يولية ١٨٠٤ م) :

حصلت أيضا بينهم محاربة ، وأصيب من المراكب الحربية ، التى يسمونها الشلنبات ، اثنتان : غرقت احداهما ، وأحرقت الثانية . واتهم الباشا الطبجية فقتل منهم خمسة : اثنان بالقلعة ، وثلاثة بالرميلة .

٦ منه (١٥ يولية ١٨٠٤ م) :

حضر محمد على من بحرى وذهب الى جهة القرافة فأقام بمقام عقبة بن عامر الجهنى . ووقع فى ذلك اليوم محاربات أيضا .

٧ منه (١٦ يولية ١٨٠٤ م) :

أشيع حضور الأمراء القبالى الى ناحية بهتيم ، وأنهم أرسلوا الى المطرية بالجلاء عنها ، ورمحت العرب نواحى بولاق والجهات البرانية ، وضربوا عليهم مدافع .

وفى ذلك اليوم : نظر الباشا وكبار العسكر الى جهة البساتين ، فلم يروا أحدا من المصرلية . فركب محمد على وأخذ معه عدة وافرة ودخلوا تلك الجهة فلم يروا أمامهم أحدا . فلم يزالوا سائرين ، واذا بكمين خرج عليهم من جانب الجبل ، فأوقع معهم وقعة قوية حتى أثخنوهم ، وقتل منهم من قتل ، حتى لحقوا بالمشاة الرجالة ، فضربوا عليهم طلقا وولوا مدبرين . فصار محمد على يستحثهم ويردهم ويحرضهم ، فلم يسمعوا له ، ورجعوا وفيهم جرحى كثيرة طلعوا بطائفة منهم الى القلعة ، ودخل الباقون الى المدينة ، وطلبوا طائفة المزينين لمداواة الجرحى بالقلعة . وأخذوا فى ذلك اليوم برج الدير الذى كان بأيدى العسكر جهة البحر بطرا ، وقتلوا من به من العسكر ، وأعطوا لمن بقى الأمان ... وهم نحو الثلاثين شخصا .

٨ منه (١٧ يولية ١٨٠٤ م) :

وصل المصرلية الذين كانوا جهة الشرق ، ووصلت مقدماتهم الى جهة العادلية وناحية الشيخ قمر... بل وعند الكيمان خارج باب النصر . فأغلقوا باب النصر وباب الفتوح والعدوى ، وهربت سكان الحسينية ، وحصلت كرشة بالجمالية . ولم يخرج اليهم أحد من العسكر ، بل أخذوا يضربون المدافع من أعلى السور . ودخل محمد بيك المنفوخ الى الحسينية ، وجلس بمسجد البيومى ، وانتشر المماليك والأتباع على الدكاكين والقهاوى ، واستمر ضرب المدافع الى بعد الظهر . ثم ان المصرلية ترفعوا عن الحسينية الى اليشبكية .. فبطل الرمى ، ودخل الوالى وأمامه ثلاثة رؤوس تبين أنها رؤوس مغاربة من مقاطيع الحجاج المرضى كانوا مطروحين خارج القاهرة .

وفيه : طلب جماعة من المماليك السيد بدر المقدسى ، فخرج اليهم من داره خارج باب الفتوح ، فأخذوه عند البرديسى وابراهيم بيك ، فأسر اليه ابراهيم بيك بأن يكون سفيرا بينهم وبين الباشا فى الصلح معهم ، وأنه لايستقيم حاله مع العسكر ، ولا يرتاح معهم ، وليعتبر بما فعلوه مع محمد باشا . وأما نحن فنكون معه على ماينبغى من الطاعة والخدمة ، وحضر فى أواخر النهار .

٩ منه (١٨ يولية ١٨٠٤ م) :

ركب وطلع الى الباشا وبلغه ذلك ، فقال له الباشا على سبيل الاختبار والمسايرة : « قولك

صحيح .. ومن يرجع اليهم بالجواب ؟ » . فقال : « أنا » فحقدها عليه ، ثم قام من عنده ،فأرسل خلفه وعوقه عند الخازندار .

فذهب اليه فى ثانى يوم شيخ السادات والسيد عمر النقيب ، وترجوا فى اطلاقه ، فامتنع وقال : « أخاف عليه أن يقتله العسكر ، ولا بأس عليه . ولا يصلح اطلاقه فى هذا الوقت ، وبعد خمسة أيام يكون خيرا ، فانه مقيم عند الخازندار فى اكرام وفى مكان أحسن من داره .. وهذا رجل اختيار يفعل هذه الفعال : يخرج الى المخالفين متنكرا ، ويرجع من عندهم بكلام ، ثم يطلب العود اليهم ثانيا ! » .

وفيه : حضر محمد على عند الباشا بعد الغروب وقبض منه خمسين كيسا ، وقيل ثمانين ورجع الى معسكره ، فجمع العسكر وتكلم معهم وفرق عليهم الدراهم ، واتفق معهم على الركوب والهجوم على من بطرا فى تلك الليلة على حين غفلة . وكان كاتبهم قبل ذلك يلاطفهم ويظهر العجز ويطلب معهم الصلح وأمثال ذلك . وفى ظن أولئك صدقه ، وعدم قدرتهم على مقاومتهم وملاقاتهم. فلما مضى نحو خمس ساعات من الليل ، ركب محمد على فى نحو أربعة آلاف .. فرسانا ورجالا . فلما قربوا من الحرس فى آخر السادسة ، ترجلوا وقسموا أنفسهم ثلاثة طوابير : ذهب قسم منهم جهة الدير ، والثانى جهة المتاريس ، والثالث جهة الخيل ... والجماعة وهم : صالح بيك الألفى ومن معه فى غفلتهم ونومهم مطمئنون ، وكذلك حرسهم ، فلم يشعروا الا وقد صدموهم ، فاستيقظ القوم وبادروا الى الهرب والنجاة ، فملكوا منهم الدير وأبراج طرا — وكان بها عسكر العثمانيين الى هذا الوقت محصورين ، وقد أشرفوا على طلب الأمان — وأخذوا مدفعين كانوا بالمتراس وبعض أمتعة ، وثمانى هجن ، وثلاثة عشر فرسا . وقتل بينهم بعض أشخاص وانجرح كذلك ، ورجع محمد على والعسكر على الفور من آخر الليل ، ومعه خمسة رؤوس : فيها رأس واحدة لم يعلم رأس من هى ، والباقى رؤوس عربان أو سياس أو غير ذلك . وزعموا أن تلك الرأس هى رأس صالح بيك ، وأرسلوا المبشرين آخر الليل الى الأعيان ليأخذوا البقاشيش . وأشاعوا أنهم قبضوا على الألفى الصغير ، وأحضروه معهم حيا ، والباقى رموا بأنفسهم الى البحر .

ولما طلع محمد على الى الباشا ، خلع عليه الفروة التى حضرت له من الدولة ، وعلقوا تلك الرؤوس على السبيل بالرميلة ، وضربوا شنكا من القلعة

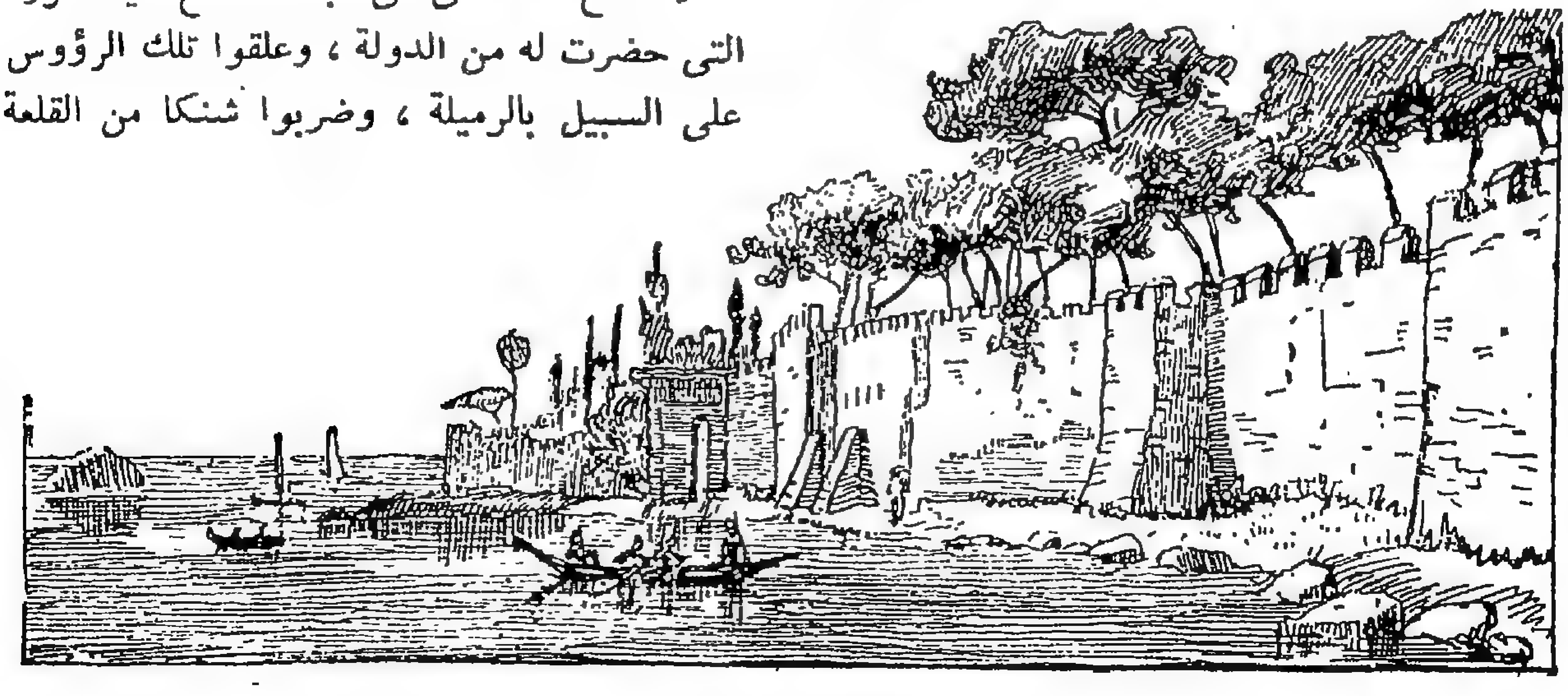

برج الدير .. فى طرا

ومـدافع ، وأظهروا السرور ، وداروا بالأسواق يضربون بالطنابير ، وشمخ المغرضون بآنافهم على المغرضين للمصرلية . ثم تبين عدم صحة تلك الاشاعة وأن تلك الرأس رأس بعض الأجناد ، ولم يمسك الألفى كما قالوا .

١٠ منه (١٩ يولية ١٨٠٤ م) :

وصل من بحرى ثلاث شلنبات ، كان الباشـا أرسل يطلبها عوضا عما تلف . فعند ما وصلوا الى جهة باسوس — وهناك مركز للمصرلية على جرف عال ، أقعدوا به طبجية ، ليمنعوا من يمر بالمراكب — فضربوا عليهم ، وضرب من فى المراكب الحربية أيضا على من فى البر ، فكان ضرب من فى البر يصيب من فى البحر ، وضربهم لايصيبهم لعلو الجرف عليهم . فاحترقت جبخانة احدى الشلنبات ، واحترق ما فيها بها ، وغرقت الثانية ، ويقال ان الثالثة لم تكن من المراكب الحربية ، بل هى مركب معاش .

وكان حضر فى خفـارتهم عـدة من المراكب المسافرين ، فخافوا ورجعوا ، وقبضوا على بعض قواويس بها غلال ، فأخذوا ما فيها . فلما شاع ذلك بالمدينة ، رفعوا ما كان موجودا من الغلة بالعرصات وشحت الغلال ، وعدم الفول والشعير ، وبيع ربع الويبة من الفول بتسعين نصفا ، وقل وجود الخبز من الأسواق ، وخطف بعض العسكر ما وجدوه من الخبز ببعض الأفران ، وأخـذوا الدقيق من الطواحين !

وصار بعض العسـكر يدخل بعض البيوت ، ويطلبون منهم الأكل والعليق لدوابهم .

وفى يوم الخميس والجمعة : اشـتد الحال ، وبيع ربع الويبة من القمح بسبعين نصفا وثمانين نصفا ، وعدم الفول ، واشترى بعض من وجـده ربما بمائة نصف فضة . فيكون الأردب على ذلك الحساب بألفين وأربعمائة نصف !

وخرج عسـاكر كثيرة ، ووقعت حروب بين الفريقين ، ورجع القبليون الى طرا وحاربوا عليها ، وكانوا شرعوا فى عمارة ماتهدم من أبراجها ، ونقلوا اليها الذخيرة والقومانية والجبخانة والعسـكر ، وأخذوا جمال السقائين لنقل الماء الى الصهريج الذى ببرج طرا .

ودار الأغا والوالى على المخازن ببولاق ومصر ، وأخذوا منها ما وجدوه من الغلة ، وأمروا ببيعه على النـاس بخمسين نصفا .. الربع . وأخـذوا لأنفسهم ما وجدوه من الشعير والفول .

١٣ منه (٢٢ يولية ١٨٠٤ م) :

قلدوا حسن أغا نجـاتى الحسـبة ، فخافتـه السوقة ، واجتهـدوا فى تكثير العيش والـكعك والمأكولات بقدر امكانهم . واجتهد هو أيضا فى الفحص على الغلال المخزونة وبيعها للخبازين . وأما اللحم الضانى ، فانه انعـدم بالكلية لعـدم ورود الأغنام .

وفيه : شح ورود الغلة فى العرصات ، وذهب أناس الى بر انبابة ، فاشتروا الربع بثمانين نصفا وأزيد من ذلك ، والفول بمـائة وعشرين . وعلق أكثر الناس على بهائمهم ما وجـدوه من أصناف الحبوب مثل : الحمص والعدس — وهم المياسير من الناس — وأما غيرهم فاقتصروا على التبن .

وأما العنب والتين — فى وقت وفرتهما — فلم يظهر منهمـا الا القليـل . وبيع الرطل من العنب بأربعة عشر نصفا ، والتين بسبعة أنصاف ، وذلك بعد سلوك الطريق ومشى السفن .

١٤ منه (٢٣ يولية ١٨٠٤ م) :

اجتمعت العساكر الكثيرة للحرب عند شبرا ،

ورموا على بعضهم بالمدافع والقرابين والبنادق من ضحوة النهار . ثم التحم الحرب بين الفريقين ، واشتد الجلاد بينهما الى بعد منتصف النهار . وصبر الفريقان ، وقتل بينهما عدة كبيرة من العسكر الأرنؤود ، وطائفة المماليك والعربان : فقتل من أكابر العسكر أربعة أو خمسة ، ودخلوا بهم المدينة ، وانكف الفتنان ، وانحازا الى معسكرهما.

وبعد هجعة من الليل ، اجتمع العسكر من الانكشارية والأرنؤودية وغيرهم ، وكبسوا على متاريس شبرا — وبها حسين بيك المعروف بالأفرنجى ، وعلى بيك أيوب ، ومعهما عسكر من الأرنؤود الذين انضموا اليهما ... ومنهم الرماة والطبجية — فأجلوهم عن المتاريس ، وملكوها منهم ، ووقع بينهم قتلى كثيرة.. وقتل من عسكر حسين بيك المذكور نحو مائة وستين نفرا ، وعدة من مماليك على بيك أيوب خلاف الجرحى : وزحفوا على باقى المتاريس ، فملكوا منهم متاريس شلقان وباسوس ، وانهزم المصرلية الى جهة الشرق بالخانكة وأبى زعبل .

وقيل ان العسكر المنضمين اليهم المتقيدين بالمتاريس ، هم الذين خامروا عليهم ، وانهزموا عن المتاريس ، حتى كانوا هم السبب فى هزيمتهم .

فلما أصبح النهار ، حضروا بسبعة رؤوس فيها ثلاثة من الأجناد الملتحين ، وثلاثة بشوارب ، ورأس أسود ، فعلقوها بباب زويلة . ومن الثلاثة أجناد رأس له لحية طويلة شائبة شبيهة بلحية ابراهيم بيك الكبير . فقال بعض الناس : « هذه رأس ابراهيم بيك بلا شك » . وأشيع ذلك بينهم . فاجتمع الناس من كل ناحية للنظر اليه ، ووصل الخبر الى الباشا ، فأحضر عبد الرحمن بيك والمزين الذى كان يحلق له ، لمعرفتهما به وآخرين ، وطلب الرأس فأحضروها وتأملوها . فمنهم من اشتبهت عليه ، ومنهم من أنكرها لعلامات يعرفها به ،وهى : الصلع ، وسقوط بعض الأسنان . ثم أعيدت الى مكانها على ذلك الاشتباه . ثم انهم عملوا شنكا ومدافع لذلك .

ثم طلبها محمد على أيضا ، وفعل مثل ذلك ، وردها أيضا ، ثم رفعوها فى الليل . واستمر الفرح والشنك يومين .. والناس بين ناف ومثبت، ومسلم ومنكر ، ومعاند ومكابر .. حتى وردت خدم من معسكرهم ، وأخبروا بحياة ابراهيم بيك ، وأنه بوطاقه جهة الشرق . فزال الشك وأرسل المصريون الى بيوتهم أوراقا .

١٥ منه (٢٤ يولية ١٨٠٤ م) :

وقع خسوف قمرى . وطلع من الشرق منخسفا آخذا فى الانجلاء ، ومقدار المنخسف منه عشرة أصابع ، وتم انجلاؤه فى ثانى ساعة من الليل ، وكان بأول برج الدلو .

١٧ منه (٢٦ يولية ١٨٠٤ م) :

ركب الأمراء المصرلية وانتقلوا من الخانكة ، ومروا من خلف الجبل بحملاتهم وأثقالهم ، وذهبوا الى جهة قبلى ، وخاب سعيهم ، ولم ينالوا غرضهم . وكان فى ظنهم أنهم اذا حصلوا بالقرب من المدينة خرج اليهم الكثير من العسكر ، وانضم اليهم ... لمقدمات سبقت منهم ، ومراسلات وكلام وقع بينهم وبين أتباعهم ومماليكهم المجتمعين عند آكابرهم ، وذبهم عنهم وعن بيوتهم وحريمهم، بل واخراج بعض

الأتباع والمماليك بمطلوبات الى أسيادهم خفية وليلا ، حتى استقر فى أذهان كثير من العقلاء ممالآت كثير من الينباشيات ورؤساء العسكر مع المصرلية .

وعندما تحقق العسكر ذهابهم ، دخلوا الى المدنية بأثقالهم وحمولهم ، وانتشروا بها حتى ملأوا الأزقة والطرق والبيوت .

وقدمت السفن المعوقة ، وتواجدت الغلال بالرقع . وتخلف عنهم أناس كانوا منضمين اليهم ... طلبوا أمانا بعد ذلك ، وحضروا بعد ذلك الى مصر.

وقدمت عساكر ودلاة فى المراكب ، ودخلوا البيوت بمصر وبولاق ، وأخرجوا منها أهلها وسكنوها . واذا سكنوا دارا أخربوها ، وكسروا أخشابها وأحرقوها لوقودهم . فاذا صارت خرابا تركوها ، وطلبوا غيرها... ففعلوا بها كذلك. وهذا دأبهم من حين قدومهم الى مصر ! حتى عم الخراب سائر النواحى ، وخصوصا بيوت الأمراء والأعيان، وبواقى دور بركة الفيل وما حولها من بيوت الأكابر والقصور التى كانت بضرب بأدناها المثل . وفى ذلك يقول صاحبنا العلامة ، الشيخ حسن العطار :

« وأما بركة الفيل ، فقد رميت بكل خطب جليل، وأورثت العين بوحشتها بكاء وعويلا ، والقلب بذكر ماسلف من مباهجها حزنا طويلا . تبدلت مغردات أطيارها بنواعب الغربان ، ومحاسن غزلانها بكل علج تقذى به العينان ، ومشيد قصورها بخرائب وتلال ، وأكابر أمرائها بصعاليك وأرذال . ولقد تذكرت ماضى عيش بها سلف ، ومعهد أنس كان الكآبة بعده خلف . فقلت متذكرا أولئك الأيام ، التى مرت كأضغاث أحلام :

علّلاني بذكر خشف رخيم
واسقياني فى الروض بنت الكروم

وصفا لى زمان أنس صفا لى
بحبيب غض وراح قديم

حيثما الدهر طوعنا والأمانى
فى قياد ، والوهم فى تهويم

والربا فى نضارة وزهو
حل فيه من الغمام السجيم

خافضات به الغصون رؤوسا
مثقلات من در طل نظيم

ولصفو الغدير فيها ولوع
يرقب الوصل من مرور النسيم

وترى الورد كالمليك لديه
كل غصن يهوى بقد قويم

بسط الروض نحوه وشى بسط
حاكاها الطل فى ابتداع وسيم

للجين النهور فيها طراز
ولدر الزهور رقش الرسوم

وبكاء الحمام هيج عندى
فرط شوق الى الزمان القديم

زمن بالسرور لم يك الا
حلما مر أو تغاضى حليم

فيه كانت تجلى بدور جمال
أشرقت عن نجوم ليل بهيم

من بنى الترك ذى الجمال المفدّى
أيضا هى فى الحسن ريم الروم

كل ظبي تــراه يزهــو ويــرنو
بقــوام القنـــا وطـرف الريـم

برهة باجتـلا المــدام يحييـك
ويحييـــك بعـــد بالتكليـم

أسرونى وأطلقـــوا دمع جـفنى
وأثاروا فى القلـب نار الجحيـم

يا زمـانا بـبـركة الفيـل ولى
فيــه قــد كنت ثـاويا فى نعيم

لا عدمنـــاك من زمـان تقضى
بـين سـاق وشـادن ونديـم »

قلت وهكذا الدنيـا طبعت على هذا الشأن ، من سره زمان ، ساءته أزمان . وللعـاقل فى تقلبات الأيام عبر : ماشوهد منها وما غبر !

١٨ منه (٢٧ يولية ١٨٠٤ م) :

وصل أمير أخور الصغير من الديار الرومية ، وطلع الى بولاق فى صبحها ، وركب الى القلعة . فأنزله الباشا ببيت رضوان كتخدا ابراهيم بيك بدرب الجماميز . ولم يعلم مابيده من الأوامر ، ثم تبين أن من الأوامر التى معــه ، اخراج خمسمائة من العسكر الى بنـدر ينبع البحر ، يقيمون بها محافظين لها من الوهابيين ، ويدفع لهم جامكيـة سنة كاملة وذخيرتها وما يحتـاجون اليه من مؤنة وغلال وجبخانة .

٢٣ منه (اول اغسطس ١٨٠٤ م) :

قرأوا تلك الأوامر . وفيها أنه تعين محمد باشا أبو مرق بعسـاكر الشـام الى الحجـاز . فأحضر الباشا كبار العسكر ، وعرض عليهم ذلك الأمر ، وقال لهم : « انه ورد لى اذن عام فى تقليـد من أقلده .. فمن أحب منـكم قلدته امرية طوخ أو طوخين » . فامتنعوا من ذلك ، وقالوا : « نحن لانخرج من مصر ، ولا نتقلد منصبا خارجا عنها » .

ووصلت الأخبار فى هذه الأيام ، أن الوهابيين ملكوا الينبع .

وفيه : وردت الأخبار بأن الألفى عـدى الى البر الشرقى . وكان قبــل ذلك عـدى الى البر الغربى ، وانتشرت عسـاكره الى الجسر الأسود ، ثم رجعوا وعدوا الى البر الشرقى .

وفيه : طلع المشايخ عنـد الباشا ، وشفعوا فى السيد بدر المقدسى ، فأطلقه ونزل الى داره .

٢٥ منه (٢ اغسطس ١٨٠٤ م) :

قلدوا على أغا الوالى على العسكر المعين الى الينبـع أميرا ، وضربوا له مدافع . وفرح النـاس بعزله من الولاية . فانه كان أخبث من تقلد الولاية من العثمانية ، وكان الباشـا يراعى خاطره ، ولا يقبل فيه شكوى .

وتعين للسفر معه عدة من العسكر من أخلاط مصر البطالين : أروام وخلافهم .

وفيه : قلدوا مناصب كشوفية الأقاليم لأشخاص من العثمانية .

٢٨ منه (٦ اغسطس ١٨٠٤ م) :

تشاجر شخص من العسكر مع شخص حكيم فرنسـاوى عند حارة الافرنج بالموسكى ، فأراد العسكرى قتـل الفرنساوى ، فعاجله الفرنساوى فضربه فقتله وفر هاربا . فاجتمع العسكر وأرادوا نهب الحارة ؛ فوصل الخبر الى محمد على فركب فى الوقت ، ومنع العسكر من النهب ، وأغلق باب

السقاءون يجلبون الماء من البحر الى القلعة

الحارة ، وقبض علي وكيل قنصل الفرنساوية ، واخذه معه ، وحبسه عنده ... حتى سكن العسكر .

وفى تلك الليلة أيضا ، مر جماعة من العسكر بخط الدرب الأحمر ، فأرادوا أخذ قنديل من قناديل السوق .. فقام عليهم الخفير يريد منعهم ... فذبحوه ، وأخذوا القنديل . فأصبح الناس ... فرأوا الخفير مذبوحا ، وسمعوا القصة من سكان الدور بالحطة . ووجدوا أيضا عسكريا مفتولا جهة الموسكي . وغير ذلك حوادث كثيرة فى كل يوم ... من أخذ النساء والمردان والأمتعة والمبيعات من غير ثمن !

* * *

وانقضى الشهر ، وفيه استقر الأمراء المصرلية جهة صول والبرنبل وما قابلهما من البر الغربى .

واستمر عثمان بيك حسن والبردسى وأتباعهما بالبر الشرقى ، وشرعوا فى بناء متاريس وقلاع بساحل البحر من الجهتين .

وأرسل الباشا الى جهة دمياط ورشيد يطلب عدة مراكب وشلنبات ، لاستعداد الحروب . واجتهد فى ملء صهاريج القلعة ، وطلبوا السقائين وألزموهم بذلك فشح الماء بالمدينة ، وغلا سعره لذلك ، ولغلو العليق ، حتى بلغ ثمن الراوية أربعين نصفا بعد المشقة فى تحصيله . لأنه لم يبق الا الروايا اللاكى لأكابر الناس ، فيمنعها العطاش عند مرورها قهرا ، ويدفعون ثمنها بالزيادة . واتفق شدة الحر ، وتوالى هبوب الرياح الحارة ، وجفاف الجو ، وتأخير زيادة النيل .

جمادى الأولى

فى غرته (٨ اغسطس ١٨٠٤ م) :

كان مولد المشهد الحسينى ، ونزل الباشا وزار المشهد ، ودخل عند شيخ السادات باستدعاء ، وتغدى عنده ، ثم ركب راجعا قبل الظهر الى القلعة. ولم يقع فى ليالى المولد حظ للناس ، ولا انشراح صدور كالعادة ، بسبب أذية العسكر واختلاطهم بهم ، وتكديرهم عليهم فى الحوانيت والأسواق . حتى انهم فى آخر الليلة — التى كان من عادتهم يسهرونها مع ليال قبلها الى الصباح — أغلقوا الحوانيت ، وأطفأوا القناديل من بعد أذان العشاء ، وذهبوا الى دورهم .

وفيه : قرروا فردة غلال على البلاد : قمح وشعير وتبن ... أعلى وأوسط وأدنى : الأعلى خمسة عشر أردبا .. وخمسة عشر حمل تبن ، والأوسط عشرة ، والأدنى خمسة . على أن اقليم القليوبية لم يبق به الا خمسة وعشرون قرية فيها بعض سكان . والباقى خراب ليس فيها ديار ، ولا نافخ نار !

ومجموع المطلوب ثمانية آلاف أردب ، خلاف التبن ، وذلك برسم ترحيلة على باشا الى الينبع . ثم قرروا فردة أخرى كذلك أيضا وقدرها ألف وخمسمائة كيس رومية .

٤ منه (١١ اغسطس ١٨٠٤ م) :

جمع الباشا المشايخ فى ديوان خاص ، بسبب مكتوب حضر من الأمراء المصريين ، خطابا للمشايخ مضمونه : « أنهم يسعون بينهم وبين الباشا فيما يكون فيه الراحة للبلاد والعباد ، وأنه يخرج هذه العساكر ... فانهم ان داموا بالاقليم كملوا خرابه وهتكوه بأفاعيلهم وظلمهم وفسقهم ، وطلب العلوفات التى لا يفى ببعضها خراب الأقليم .

« وأما نحن .. فاننا مطيعون السلطنة وخدامون بلا جامكية ولا علوفة ، وان لم يفعل ذلك يعطينا جهة قبلى نتعيش فيها . وان أرادوا الحرب .. فليخرجوا لنا بعيدا عن الأبنية ، ويحاربونا فى الميدان . والله يعطى النصر لمن يشاء » .. الى آخر ما قالوه

فقال الباشا للمشايخ : « اكتبوا لهم .. يأخذوا جهة اسنا ومقبلا» ، فقالوا : « نحن لانكتب شيئا اكتبوا لهم مثل ما تعرفون » . وانفض المجلس .

وفيه : عزم جماعة من آكابر العسكر على السفر الى بلادهم ، وهم : أحمد بيك رفيق محمد على ، وصادق أغا وخلافهما . وأخذوا فى تشهيل أنفسهم وبيع متاعهم ، ونزلوا الى بولاق عند عمر أغا ونزل محمد على لوداعهم ببيت عمر أغا .

فاجتمع العسكر وأحاطوا بهم ، ومنعوهم من السفر قائلين لهم : « أعطونا علوفاتنا المنكسرة .. والا عطلناكم ، ولا ندعكم تسافرون بأموال مصر ومنهوباتها » . فأخذوا خواطرهم ووعدوهم على أيام ، وامتنعوا من السفر .

٨ منه (١٥ اغسطس ١٨٠٤ م) :

تقلد شخص من العثمانيين الزعامة عوضا عن على أغا الذى تولى باشة السفر للينبع

١٠ منه (١٧ اغسطس ١٨٠٤ م) :

اجتمع العسكر وطلبوا علوفاتهم من الباشا ، فدفعوا للأرنؤود جامكية شهر .

١١ منه (١٨ اغسطس ١٨٠٤ م – ١٢ مسرى ١٥٢٠ ق) :

أوفى النيل المبارك سبعة عشر ذراعا ، وكسر سد الخليج فى صبح يوم السبت ... بحضرة الباشا والقاضى ومحمد على وباقى كبار العسكر وجميع العسكر ... وكان جمعا مهولا . وضرب الجميع بنادقهم ، وجرى الماء بالخليج ، وركبوا القوارب والمراكب ، ودخلوا فيه وهم يضربون بالبنادق . وكذلك من كان منهم بالقواطين والبيوت .

وكان الموسم خاصا بهم دون أولاد البلد وخلافهم . وكذلك سكنوا بيوت الخليج مع قحابهم من النساء .

ومات فى ذلك اليوم عدة أشخاص — نساء ورجالا — أصيبوا من بنادقهم . ومما وقع : أنه أصيب شخص من أولادالبلد برصاصة منهم ومات ، وحضر أهله يصرخون ، وأرادوا أخذه ليواروه ، فمنعهم الوالى ، وطلب منهم ثلاثة آلاف درهم فضة . ولم يمكنهم من شيله حتى صالحوه على ألف وخمسمائة !

وكذلك من كان منهم بالقواطين والبيوت ، أذن لهم فى أخذه ومواراته . ونظر بعضهم الى أعلى بيوت الخليج فرأى امرأة جالسة فى الطاقة ، فضربها برصاصة فأصابتها فى دماغها وماتت من ساعتها ، وغير ذلك مما لم تتحقق أخباره .

١٣ منه (٢٠ اغسطس ١٨٠٤ م) :

خرج على باشا الوالى المسافر الى الينبع خارج البلد ، وأقام جهة العادلية ، وارتحل يوم السبت تاسع عشره ، ومعه مائة عسكرى لا غير ، وذهب الى جهة السويس .

وفيه : أرسل الباشا الى المشايخ والوجاقلية وتكلم معهم فى توزيع فردة على أهل مصر ، لغلاق جامكية العسكر . فدافعوا بما أمكنهم من المدافعة ، فقال : « هذا الذى نطلبه ، انما نأخذه على سبيل القرض ، ثم نرده اليهم ! » . فقالوا له : « لم يبق بأيدى الناس ما يقرضونه ، ويكفى الناس ما هم فيه من الغلاء ووقف الحال . وغير ذلك » . فالتفت الى الوجاقلية ، وقال : « كيف يكون العمل ؟ » . فقال أيوب كتخدا : « نعمل جمعية مع السيد أحمد المحروقى ، ويحصل خير » . فركن الباشا على ذلك . ثم اجتمعوا مع المذكور ، واتفقوا أنهم يطلبونها بكيفية ليس فيها شناعة ولا بشاعة . وهى : أنهم قرروا على الوجاقلية قدرا من الأكياس ، وكتبوا بها تنابيه بأسماء أشخاص . منها ما جعلوا عليه عشرين كيسا ، وعشرة ، وخمسة وأقل وأكثر . وكذلك وزعوا على أشخاص من تجار البن وخان الخليلى ، ومغاربة أغراب ، وأهل الغورية وخلافهم . ومن تراخى فى الدفع ، قبضوا عليه وأودعوه فى أضيق الحبوس ، ووضعوا الحديد فى يديه ورجليه ورقبته .

ومنهم من يوقفونه على قدميه والجنزير مربوط بالسقف !

وأرسلوا العسكر الى بيوتهم ، فجلسوا بها يأكلون ويسكرون ، ويطلبون من النساء المصروف .. خلاف الأكل الذى يطلبونه ويشتهونه — وهو ثمن الشراب والدخان والفاكهة — بل ويأتون بالقحاب معهم ، ويضربون بالبندق والرصاص بطول الليل والنهار .. وأمثال ذلك .

٢٤ منه (٣١ اغسطس ١٨٠٤ م) :

أرسل الباشا عسكرا ، فقبض على الأمير على المدنى صهر ابن الشيخ الجوهرى ، وحبسه . فركب اليه المشايخ ، وكلموه فى شأنه ، وقالوا :

« انه رجل وجاقلى من خيار الناس .. وما السبب فى القبض عليه ، وما ذنبه الموجب لذلك ؟ » ، فقال : « انه رجل قبيح . ولى عليه دعوى شرعية . واذا كان من خيار الناس ومن الوجاقلية .. لأى شىء يعمل كتخدا عند صالح بيك الألفى ، وأنه عند هروب مخدومه من الشرقية .. أخذ ما كان معه من المال على أربعة جمال ، ودخل بها الى داره . وعندى بينة تشهد عليه بذلك ، فأنا أطالبه بالمال الذى عنده » . وقاموا ونزلوا من غيرطائل .

٢٦ منه (٢ سبتمبر ١٨٠٤ م) :

توفى الشيخ موسى الشرقاوى الشافعى ، وكان من أعيان العلماء الشافعية .

٢٨ منه (٤ سبتمبر ١٨٠٤ م) :

احضروا المحمل من السويس ، فنزل كتخدا الباشا والأغا والوالى وأكابر العسكر ، وعدة كبيرة من العسكر ، وعملوا له الموكب ، وشقوا به البلد .. وخلفه الطبل والزمر .

فى اواخره (اوائل سبتمبر ١٨٠٤ م) :

وصلت قوافل البن من السويس ، فحجزها الباشا وأخذها ، وأعطى أصحاب البن وثائق بثمن البن لأجل ، ووكل فى بيعه ، وحول به العسكر ، يأخذونه من أصل علوفاتهم . فبلغ ثمن المحجوز تسعمائة كيس . وانهمك المشترون على الشراء ، ومنعوا القبانية من الوزن .. الا بحضور المقيدين لذلك .

وانقضى هذا الشهر وحوادثه ، وما وقع فيه من عكوسات العسكر : من الخطف ، والقتل ، والدعاوى الكذب ، وشهاداتهم الزور لبعضهم فيما يدعونه ، وتواطؤهم على ذلك .. فيذهب الخبيث منهم ، فيكتب له عرضحال ، ويشكو من بعض مساتير الناس أنه غصبه فى مدة سابقة قبل ذلك ، وطلق منه زوجته قهرا ، بعد أن كان صرف عليها مبلغ دراهم كثيرة فى المهر والنفقة والكسوة ، ويكتبون له عليه علامة الباشا ، ويأخذ صحبته أشخاصا معينين من أقرانه ، فيسحبون المدعى عليه الى المحكمة ، فلا يثبت عليه ذلك ، فيكتب له القاضى اعلاما بعدم صحة الدعوى بدراهم يدفعها على ذلك الاعلام . فيذهبون الى ديوان الباشا ، ويخبرون الكتخدا ببطلان الدعوى ، ويطلعون على الاعلام بحضرة الخصم — وهو يظن البراح والخلاص من تلك الدعوى الباطلة — فيقول الكتخدا للخصم : « أعط المباشرين خدمتهم خمسة أكياس .. واذهب » . وأمثال ذلك !

فان وجد شافعا أو مغيثا توسط له ، أو تشفع فى تخفيف ذلك قليلا ، أو ضمنه ، أو دفع عنه وأنقذه..والا حبس كغيره ، وذاق فى الحبس أنواع العذاب حتى يدفع ماقرره عليه الكتخدا .

واتفق أن جماعة من سكان المحجر شكوا نظار جامع وسبيل ومدرسة متخربة من أيام الفرنسيس، ومعطلة الشعائر والايراد . فأمر الكتخدا باحضار النظار — وهم ناس فقراء وعواجز — وسألهم ، فأخبروا بتعطيل الايراد ، فأحضروا مباشرين الأوقاف فحاسبوهم ، فلم يطلع عليهم شىء . فقال الكتخدا : « أعطوا المباشرين خدمتهم » . فلما فرغوا من ذلك بعد مشقة عظيمة ، قالوا : « هاتوا محصول الخزينة » . فقالوا : « وما يكون محصول الخزينة ؟ » . قالوا : « ثلاثون كيسا : على كل ناظر عشرة أكياس » . فبهت الجماعة وتحيروا فى أمرهم ، ولم يعلموا مايقولون .

وفى الحال ، جذبوهم الى الحبس ، وفيهم رجل من جماعة المشهدية ، عاجز لايقدر على القيام .. فسعى عليه حريمه وخشداشينه ، وصالحوا عليه بكيسين ، وخلصوه .

وأما الاثنــان الآخــران ، فاستمرا فى الحبس والحديد مدة طويلة . وأمثال ذلك !

وفى أواخره : أفرجوا عن الســيد على المدنى بعدما قرروا عليــه أربعة آلاف ريال .. خــلاف البرانى . وأمثال ذلك كثير .

جمادى الآخرة

غرته (٧ سبتمبر ١٨٠٤ م) :

حضر القاضى الجديد الى جهة بولاق

٢ منه (٨ سبتمبر ١٨٠٤ م) :

ركب القاضى الجديد ، وطلع الى القلعة ، وسلم على الباشا ، ورجع الى المحكمة . وكان عنــدما وصل الى رشيد ، أرسل الى الباشا ليأمر له بعمارة المحكمة . فألزم الباشا أصحابها بالعمارة ، وأمرهم بالاجتهاد فى ذلك .

وفيه : فقد اللحم وشح وجوده ، وكذلك السكر والعســل . وأما العســل الأبيض ، فبلغ الرطل خمسين نصفا — ان وجد — لعــدم الوارد من ناحية قبلى ، وقلة المرعى بالجهة البحرية .

واستقر الألفى الكبير جهة اللاهون ، وبقيــة الجماعة جهة المنية وأسيوط ، وعثمان بيك حسن بجبل الطير بالبر الشرقى .

٥ منه (١١ سبتمبر ١٨٠٤ م) :

أشيع سفر محمد على الى بلاده ، وكذلك أحمد بيك وغيرهم من أكابرهم . وشرعوا فى بيع جمالهم وبلادهم ومتاعهم . وكثر لغط الناس بسبب ذلك ، وكثر افســاد العســاكر وخطفهم . وأغلق أهل الأسواق الدكاكين ، وخاف الناس المرور ، وتطيروا منهم .. خصوصا الانكشارية .

٦ منه (١٢ سبتمبر ١٨٠٤ م) :

مر محمد على وخلفه عدة كبيرة من العسكر ، وهو ماش على أقدامه ، وكذلك حسن بيك اخو طاهر باشا ، وعابدى بيك ، وأغاة الانكشــارية والوالى . وجلس منهم جماعة جهة الغورية وخان الخليلى ساعة ، ثم ذهبوا وكأنهم يطمنون الناس . وأمام بعضهم المناداة بالتركى : بالأمن والأمان ، وفتح الدكاكين ، وكل من تعرض لكم اقتلوه . وفى أثر مرورهم ، وقع الخطف والتعرية !

وفى ذلك اليــوم — أواخــر النهار — مرت مركبان فيهما عســكر أرنؤود بالخليج المرخم ، ومعهم امرأة — وبتلك الجهة عسكر انكشارية ساكنون ببيت المجنون — فضربوا عليهم رصاصا من الشبابيك ، فقتل منهم جماعة ، وهرب من نجا أو عرف العوم .

فتحزب الأرنؤود ، وجاء منهم طائفــة لذلك البيت ، فلم يجدوا به أحدا . فأرسل محمــد على الى حسن بيك ، وتكلم معه فى شأن ذلك .

٧ منه (١٣ سبتمبر ١٨٠٤ م) :

قتلوا ثلاثة ، وقيل خمسة ، ناحية الموسكى . يقال انه بسبب تلك الحادثة . وقيل بسبب آخر .

وفيه : سافر جماعة من العســكر ، وأخــذوا المراكب ، وأرسلوا الى سكندرية ودمياط ورشيد وغيرها بطلب المراكب . فشحت المراكب ، ووقف حال المسافرين وتعطلوا عن الرواح والمجىء ، وغلا سعر القمح والسمن ، وعدم اللحم . وكذلك باقى الأسباب والمأكولات .. زيادة عن الواقع .

واذا وصلت مراكب ، نزل فى المركب الكبيرة الخمسة أنفار أو العشرة ، والحال أنها تسع المائة ، وصــاروا ينهبون فى طريقهم ما يصــادفونه من المسافرين ، ويقتلونهم ، ويطلبون من البلاد الكلف والمآكل . وغير ذلك .

١٧ منه (٢٣ سبتمبر ١٨٠٤ م) :

سافر أحمد بيك وعلى بيك أخو طاهر باشا .

جهة الموسكى ..

وفيه : قلد الباشا سلحداره ولاية جرجا ، وبرز خيامه جهة دير العدوية .

٢٢ منه (٢٨ سبتمبر ١٨٠٤ م) :

وصلت مراكب من الشلنبات الحربية ، فضربوا لها مدافع من القلعة .

٢٥ منه (اول اكتوبر ١٨٠٤ م) :

تعدى جماعة من العسكر ، وخطفوا عمائم الناس . واتفق أن الشيخ ابراهيم السجينى مر من جهة الداودية ، وهوراكب بهيئته ، فأخذواطيلسانه من على كتفه وعمامة تابعه . وقتلوا من بعضهم أنفارا .

٢٦ منه (٢ اكتوبر ١٨٠٤ م) :

نزل الأغا ونادى على العسكر بالخروج والسفر الى التجريدة ، وكل من كان مسافرا الى بلاده .. فليسافر .

وفيه : هربت زوجة عثمان بيك البرديسى مع العرب الى زوجها بقبلى . فلما بلغ الخبر الباشا أحضر أخاها والمحروقى وسألهما عنها ، فقالا : « لم نعلم بهروبها » . فعوق أخاها عنده ، ثم أطلقه بشفاعة المحروقى .

رجب

السبت غرته (٦ اكتوبر ١٨٠٤ م) :

انتقل العسكر المسافرون من دير العدوية الى ناحية طرا ، وسافر منهم عدة مراكب . وسافر قبل ذلك بأيام كاشف بنى سويف ، ويقال له محمد افندى ..

الاثنين والثلاثاء ٣ ، ٤ منه (٨ ، ٩ اكتوبر ١٨٠٤ م) :

نادى الأغا وأغات التبديل بخروج العسكر المسافرين . وكثر أذى العسكر للناس ، وخطفوا الحمير ، وتعطلت أشغال الناس فى السعى الى مصالحهم ونقل بضائعهم .

الأربعاء ٥ منه (١٠ اكتوبر ١٨٠٤ م) :

سافرت التجريدة برا وبحرا ، وتأخر محمد على عن السفر الى بلاده — كما كان أشيع ذلك — واشتهر أنه مسافر الى جهة قبلى . وورد الخبر باستقرار كاشف بنى سويف بها . ولم يكن بها أحد من المصرلية .

الأحد ٩ منه (١٤ اكتوبر ١٨٠٤ م) :

نزل الباشا الى وليمة عرس مدعوا ببيت السيد محمد بن الدواخلى — بحارة الجعيدية وكفر الطماعين — ونزل فى حال مروره ببيت السيد عمر افندى نقيب الأشراف ، فجلس عنده ساعة ، وقدم له حصانين .

الثلاثاء ١١ منه (١٦ اكتوبر ١٨٠٤ م) :

نزل الباشا فى التبديل ، ومر من سوق السمكرية ، فرأى عسكريا يشترى كوز صفيح ، فأعطاه خمسة أنصاف .. فأبى السمكرى الا بعشرة .. فأبى ولم يدفع له الا خمسة ، فرآه الباشا فقال له : « أعطه ثمنه » فقال له : «وايش علاقتك؟» — وهو لم يعرفه — فقال له : « أما تخاف من الباشا ؟ » . فقال : « الباشا على ... » . فضربه الباشا وقتله ومضى .

الاثنين ١٧ منه (٢٢ اكتوبر ١٨٠٤ م) :

أحضروا أربعة رؤوس ، ووضعوها تجاه باب زويلة ، وأشاعوا أنهم من مقتلة وقعت بينهم وبين القبالى ، وأشاعوا أنه بعد يومين تصل رؤوس كثيرة . ووصل أيضا جملة أسرى طلعوا بهم الى القلعة .

الأربعاء ١٩ منه (٢٤ اكتوبر ١٨٠٤ م) :

طلع محمد على الى القلعة ، فخلع عليه الباشا فروة سمور على سفره الى قبلى ، وبرز بوطاقه الى خارج .

الأربعاء ٢٦ منه (٣١ اكتوبر ١٨٠٤ م) :

اتهموا قادرى أغا بأنه يكاتب الأمراء المصرلية القبالى ، ومنعوه من السفر الى قبلى ، وأمروه بأن يسافر الى بلاده . فركب فى عسكره وذهب الى بولاق ، وفتح وكالة على بيك الجديدة ، ودخل فيها بعسكره ، وامتنع بها ، وانضم اليه كثير من العسكر . فحضر اليه محمد على وكلمهم ، وكذلك حضر اليهم الباشا ببولاق . فلم يمتثلوا وقالوا : « لا نسافر ولا نذهب الا بمرادنا .. وأعطونا المنكسر من علوفاتنا» . فتركوهم ونادوا على خبازين بولاق لا يبيعون عليهم الخبز ولا المأكولات . فأرسل قادرى أغا الى المحتسب وقال له : « نحن نأخذ العيش بثمنه .. فان منعتموه من الأسواق طلعنا الى البيوت وأخذنا ما فيها من الخبز ، ويترتب على ذلك مايترتب من الافساد » . فأخبروا الباشا بذلك ، فأطلقوا لهم بيع الخبز وغيره . واستمر على ذلك أياما .

وفيه : شرعوا فى تحرير فردة على البلاد ، وكتبوا دفاترها .. الأعلى ثمانون ألف فضة ودون ذلك . ويتبعها على كل بلد جملان وسمن وأغنام وقمح وتبن وشعير .

فى أواخره (اوائل نوفمبر ١٨٠٤ م) :

حصلت نوة ، وتتابع مرور الغيوم ، وحصل رعد هائل ، ودخل الليل فكثر الرعد والبرق وتبعه المطر . ثم حضر أناس بعد أيام من جهة شرقية بلبيس ، وأخبروا أنه نزل بناحية مشتول صواعق أهلكت نحو العشرين من بنى آدم وأبقارا وأغناما ، وعميت أعين أشخاص من الناس !

وفى هذا الشهر : شرعوا فى عمل كسوة الكعبة بيد السيد أحمد المحروقى ، فقيد بها وكيله بذلك . وشرعوا فى عملها فى بيت الملا بحارة المقاصيص .

شعبان

٤ منه (٨ نوفمبر ١٨٠٤ م) :

حضر لحسن بيك طوخان ، وطلع الى القلعة ، ونزل الى الباشا . ولبس خلعة من خلع الباشا وقاووقا ، وركب ونزل من القلعة وأمامه الجاويشية والسعاة والملازمون ، وضربت له النوبة .. بمعنى أنه صار عوضا عن أخيه .

٨ منه (١٢ نوفمبر ١٨٠٤ م) :

نزل قادرى أغا ومن معه من العسكر فى المراكب وسافر جهة بحرى ، وسافر خلفهم عدة من الدلاة .

وفيه : أشيع ابطال الفردة فى هذا الوقت ، ثم قرروا مطلوبات دون ذلك .

١٢ منه (١٦ نوفمبر ١٨٠٤ م) :

نودى بخروج العسكر الى السفر لجهة قبلى ، ولا يتأخر منهم من كان مسافرا فشرعوا فى الخروج وقضاء حوائجهم ، وصاروا يخطفون حمير الناس والجمال .

١٣ منه (١٧ نوفمبر ١٨٠٤ م) :

وصل قاصد من الديار الرومية وعلى يده فرمان جواب عن مراسلة للباشا .. بارسال باشة الينبع لمحافظتها من الوهابيين ، وأنه أعطاه ذخيرة شهرين ... بأن يرسل اليه ما يحتاجه من الذخيرة . وكذلك محمد باشا والى جدة يعطى له ما يحتاجه من الذخيرة لأجل حفظ الحرمين ، والوصية برعية مصر ودفع المخالفين .. وأمثال ذلك فعمل الباشا الديوان فى ذلك اليوم ، وقرأوا الفرمان ، وضربوا عدة مدافع .

وفيه : مات الشيخ حجاب .

١٤ منه (١٨ نوفمبر ١٨٠٤ م) :

سافر محمد على .

وفيه : هرب على كاشف السلحدار الألفى ، ومن بمصر من جماعته . فلما وصل الخبر الى الباشا ، أرسل الى بيوتهم ، فلم يجد فيها أحدا . فسمروها ، وقبضوا على الجيران ، ونهبوا بعض البيوت !

١٧ منه (٢١ نوفمبر ١٨٠٤ م) :

سافر حسن باشا أيضا ، ونادوا على العسكر بالخروج

وفيه : عمل السيد أحمد المحروقى وليمة ، ودعا الباشا الى داره . فنزل اليه وتغدى عنده ، وجلس نحو ساعتين ، ثم ركب وطلع الى القلعة . فأرسل المحروقى خلفه هدية عظيمة — وهى : بقج قماش هندى ، وتفاصيل ، ومصوغات مجوهرة ، وشمعدانات فضة ، وذهب ، وتحائف ، وخيول له ولكبار أتباعه — صحبة ولده وترجمانه وكتخداه . وخلع عليهم الباشا فراوى سمور .

١٩ منه (٢٣ نوفمبر ١٨٠٤ م) :

حضر طائفة من الدلاة — نحو المائتين وخمسين نفرا — فأنزلهم الباشا بقصر العينى

٢٢ منه (٢٥ نوفمبر ١٨٠٤ م) :

توفى السيد أحمد المحروقى فجأة . وكان جالسا مع أصحابه حصة من الليل ، فأخذته رعدة ، فدثروه ، ومات فى الحال فى سادس ساعة من الليل .. فسبحان الحى الذى لا يموت !

وركب ابنه وطلع الى الباشا ، فوعده الباشا بخير ، وأرسل القاضى وديوان أفندى وختم على بيته وحواصله . ثم حضروا فى ثانى يوم ، فضبطوا موجوداته وكتبوها فى دفاتر ، وأودعوها فى مكان، وختموا عليها . وأرسلوا علم ذلك الى الدولة ... صحبة صالح أفندى . وكان على أهبة السفر ، فعوقوه حتى حرروا ذلك ، وسافر فى سابع عشرينه .

٢٥ منه (٢٨ نوفمبر ١٨٠٤ م) :

أحضروا احدى وعشرين رأسا لا يعلم ما هى ، وهى متغيرة محشوة بالتبن ، وأشاعوا أنهم من ناحية المنية ، وأنهم حاربوا عليها وملكوها . ولم يظهر لذلك أثر بين .

٢٨ منه (اول ديسمبر ١٨٠٤ م) :

ألبس الباشا ابن السيد أحمد المحروقى فروة سمور وقفطانا على دار الضرب ، وعلى ما كان أبوه عليه من خدمة الدولة والالتزام . ونزل من القلعة صحبة القاضى الى المحكمة ، ثم رجع الى بيته .

وفى ذلك اليوم — بعد العصر — وقع ربع بجوار حمام المصبغة جهة الكعكيين على الحمام ، فهدم ليوان المسلخ ، فمات من به من النساء

والأطفال والبنات : ثلاثة عشر ، وخرج الاحياء من داخله وهن عرايا ، ينفضن غبارات الأتربة والموت .

وحضر الاغا والوالى ، ومنعوا من رفع القتلى الا بدراهم ! ونهبوا متاع النساء وقبضوا على الشيخ محمد العجمى مباشر وقف الغورى ليلا وأزعجوه، لأن ثلث الحمام جار فى الوقف ... والحال أن الحمام لم يسقط ، وانما هدمه ما سقط عليه !

وكذلك طلبوا ملاك الربع — وهم الشيخ عمر الغريانى وشركاؤه — فذهبوا الى بيت الشيخ الشرقاوى والتجأوا اليه . ثم ان القاضى كلم الباشا فى أمر المردومين ، وذكر له طلب الحاكم دراهم على رفعهم ، واجتماع مصيبتين على أهليهم . والتمس منه ابطال ذلك الأمر . فكتب فرمانا بمنع ذلك ، ونودى به فى البلدة ، وسجل .

غايته (٣ ديسمبر ١٨٠٤ م) :

عمل موسم الرؤية لثبوت هلال رمضان ، وركب المحتسب ومشايخ الحرف ، على العادة ، من بيت القاضى . ولم يثبت الهلال تلك الليلة ، ونودى أنه من شعبان .

وانقضى شهر شعبان ... وقادرى أغا عاص جهة شابور فى قرية ، وصالح أغا ومن معه من العساكر مستمرون على حصاره ، وصحبتهم أخلاط من العربان . وجلا أهل شابور عنها ، وخرجوا على وجوههم مما نزل بهم من النهب وطلب الكلف وغير ذلك من العاصى منهم والطائع .

فان كلا من الفريقين تسلطوا على نهب البلاد وسلب الكلف وغيرها . واذا مرت بها مركب نهبوها وأخذوا ما فيها . فامتنع ورود المراكب، وزاد الغلاء وامتنع وجود السمن . واذا وجد بيع العشرة أرطال بخمسمائة نصف فضة وستمائة ، ولا يوجد . وبيع الرطل من البصل — فى بعض الأيام — بثمانية أنصاف ، والاردب الفول بثمانية عشر ريالا ، والقمح بستة عشر ريالا ، والرطل الشمع الدهن بأربعين نصفا ، والشيرج بخمسة وثلاثين نصفا . وأما زيت الزيتون فنادر الوجود . وقس على ذلك .

رمضان

الاربعاء ٢ منه (٥ ديسمبر ١٨٠٤ م) :

حضر صالح أغا الذى كان يحاصر قادرى أغا ، وضربوا له مدافع . وتحقق أن قادرى طلب أمانا ، فأرسلوه مع من معه الى دمياط ... وذلك بعد أن ضيقوا عليه ، وحضر اليه كاشف البحيرة وضايقه من الجهة الأخرى ، وفرغت ذخيرته . فعند ذلك أرسل الى كاشف البحيرة ... فأمنه .

الاثنين ٧ منه (١٠ ديسمبر ١٨٠٤ م) :

وصل جماعة من الانكليز الى مصر ، وهم نحو سبعة عشر شخصا ، وفيهم فسيال كبير وآخر كان بصحبة على باشا الطرابلسى .

الخميس ١٠ منه (١٣ ديسمبر ١٨٠٤ م) :

سافر صالح أغا الى جهة بحرى . قيل ليأتى بجانم أفندى الدفتردار ، فانه لم يزل عاصيا عن الحضور الى مصر .

وفيه : ركب الباشا فى التبديل ونزل من جهة التبانة ، فوجد فى طريقه عسكريا يأخذ حمل تبن من صاحبه قهرا ... فكلمه — وهو لم يعرفه — فأغلظ فى الجواب ، فقتله . ثم نزل الى جهة باب الشعرية ، وخرج على ناحية قناطر الأوز ، فوجد جماعة من العسكر غاصبين قصعة زبدة من رجل فلاح ... وهو يصيح . فأدركهم ، وهم سبعة ، وفيهم شخص ابن بلد أمرد لابس ملابس العسكر . فأمر بقتلهم ، فقبضوا على ثلاثة منهم — وفيهم ابن البلد — وقتلوهم ، وهرب الباقون .

ثم نزل الى ناحية قنطرة الدكة ، وقتل شخصين

أيضا ، وبناحية بولاق كذلك ، وبالجملة ... فقتل فى ذلك اليوم نيفا وعشرين شخصا ، وأراد بذلك الاخافة . فانكف العسكر عن الايذاء قليلا ، وتواجد السمن وبعض الأشياء .. مع غلو الثمن .

وفيه : تواترت الأخبار بوقوع حرب بين العسكر والأمراء المصريين فى المنية ، وقتل من الأمراء صالح بيك الألفى ، ومراد بيك من الصناجق الجدد المقلدين الامارة خارج مصر ، وهو زوج امرأة قاسم بيك وخازندار البرديسى .. سابقا موسقو . ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين .

وأرسلوا بطلب ذخيرة وعلوفة ، فأرسلوا لهم بقسماطا وغيره .

الأحد ٢٠ منه (٢٣ ديسمبر ١٨٠٤ م) :

حضر الى الباشا بعض الرواد ، وأخبره أن طائفة من عرب أولاد على نزلوا ناحية الأهرام بالجيزة ، وهم مارون يريدون الذهاب الى ناحية قبلى . فركب فى عسكره اليهم ، فوجدهم قد ارتحلوا ، ووجد هناك قبيلة يقال لهم « الجوابيص » نازلين بنجعهم هناك — وهم جماعة مرابطون من خيار العرب ، لم يعهد منهم ضرر ولا أذية لأحد — فقتل منهم جماعة ، ونهب نجعهم وجمالهم وأغنامهم ، وأحضر صحبته عدة أشخاص منهم ، وعدى الى مصر بمنهوباتهم . وقد باع الأغنام والمعز للجزارين قهرا ، وكذلك الجمال باعوا منها جملة بالرميلة .

السبت ٢٦ منه (٢٩ ديسمبر ١٨٠٤ م) :

نهب العربان قافلة التجار الواصلة من السويس ، وهى نيف وأربعة آلاف جمل من البن والبهار

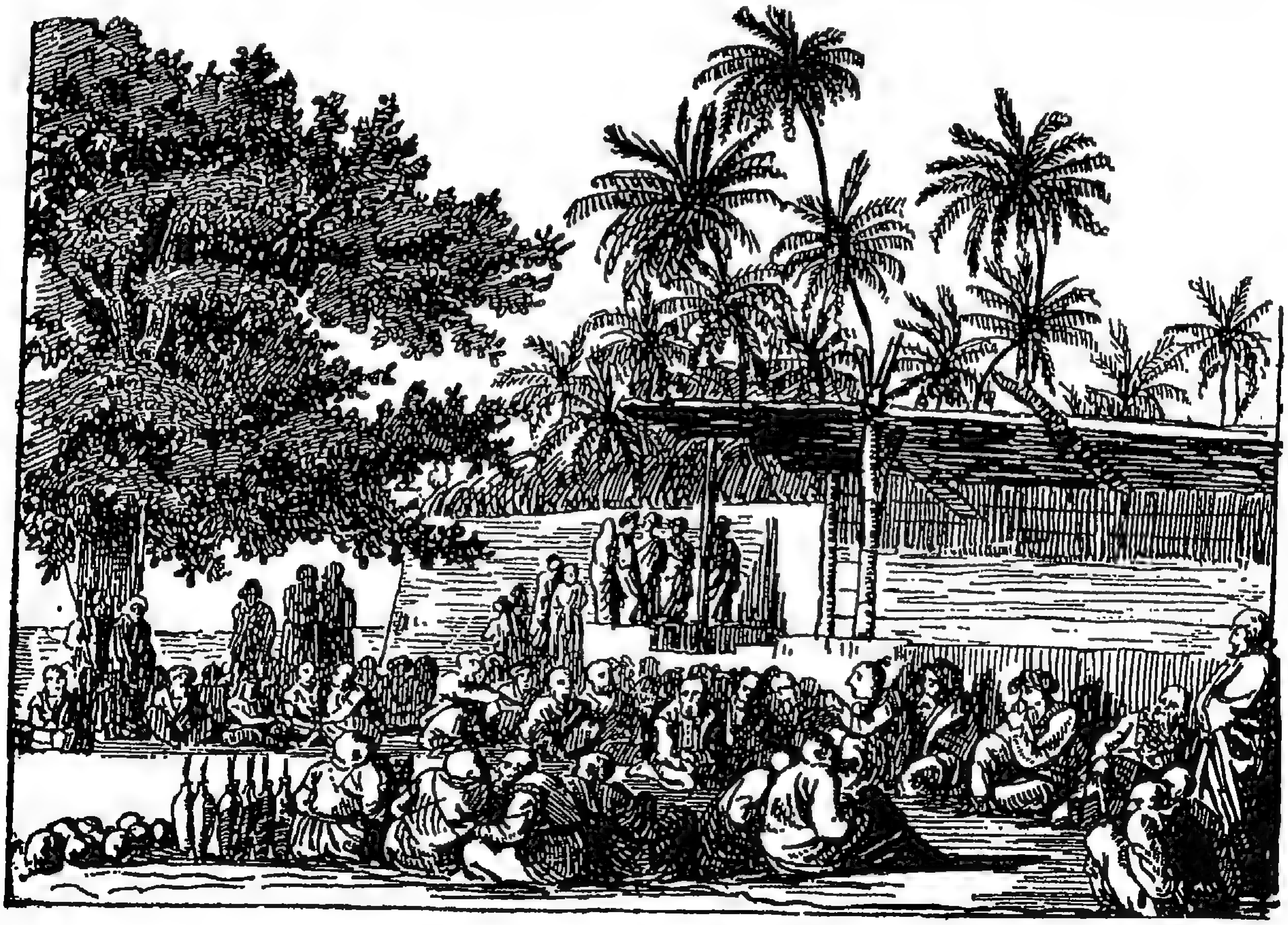

نجع احدى قبائل الأعراب

والقماش ، وأصيب فيها كثير من فقراء التجار ، وسلبت أموالهم ، وأصبحوا لا يملكون شيئا .

وفيه : حضر صالح آغا ، وصحبته جانم أفندى الدفتردار ، فأسكنه الباشا بالقلعة ، وذكر جانم أفندى المذكور ومن معه للباشا أنهم رأوا هلال رمضان ليلة الاثنين .. صاموه بالاسكندرية ذلك اليوم ، وكذلك صاموه فى رشيد وفوة وغالب بلاد بحرى .

وحضر أيضا الشيخ سليمان الفيومى قبل ذلك بأيام ، وحكى ذلك ... فلم يعمل به القاضى وقال : « ان رؤى الهلال ليلة الأربعاء .. أفطرنا ، وان لم ير .. فهو من رمضان » .

فلما كان بعد عصر ذلك اليوم ، ضربت مدافع من القلعة ، فاشتبه على الناس الأمر ، وذهب جماعة الى القاضى وسألوه ، فقال : « لاعلم لى بذلك » . وأرسل فى المساء جماعة من أتباعه وباش كاتب ، الى منارة المارستان . فصعدوا اليها ، وطلع معهم آخرون ، وترقبوا رؤية الهلال ، فلم يروه . وأخبروا القاضى بذلك ، فأمر بالصوم ، ونادوا به ، وأوقدوا المنارات والقناديل ، وصلوا التراويح بالمساجد ، وتحقق الناس الصيام من الغد .

فلما كان بعد العشاء الأخيرة ، ضربت مدافع كثيرة من القلعة وسواريخ وشنك . فوقع الارتباك ، فأرسل القاضى ينادى بالصوم وذكروا أن هذا المسموع شنك لأخبار وردت بملك المنية وحضر المبشر بذلك لابن السيد أحمد المحروقى ، وخلع عليه خلعة ، وكذلك بقية الأعيان .

وبعد حصة ، مر الوالى ينادى بالفطر والعيد فزاد الارتباك ، وركب بعض المشايخ الى القاضى وسأله ، فأخبر أنه لم يأمر بذلك ، ولم يثبت لديه رؤية الهلال ، وأن غدا من رمضان . فخرجوا من عندهم يقولون ذلك للناس ، ويأمرونهم بالصوم والحط الأمر على ذلك ، وطافت المسحرون على العادة !

فلما كان فى سادس ساعة من الليل ، أرسل الباشا الى القاضى فطلبه ، فطلع اليه ، فعرفه بشهادة الجماعة الواصلين من بحرى وأحضرهم بين يديه ، فشهدوا برؤية هلال أول الشهر ليلة الاثنين — وهم نحو العشرين شخصا — فما وسع القاضى الا قبول شهادتهم ... وخصوصا لكونهم أتراكا !

ونزل القاضى ينادى بالفطر ، ويأمر بطفى القناديل من المنارات ... وأصبح كثير من الناس لا علم له بما حصل آخرا فى جوف الليل . وبالجملة .. فكانت هذه الحادثة من النوادر . وتبين أن خبر المنية لا أصل له ، بل هو من جملة اختلاقاتهم !

وانقضى شهر رمضان ، وكان لا بأس به فى قصر النهار ، لأنه كان فى غاية الانقلاب الشتوى ، والراحة بسبب غياب العسكر وقلتهم بالبلدة وبعدهم ، ولم يحصل فيه من الكدورات العامة — خصوصا على الفقراء — سوى غلاء الأسعار فى كل شىء ، كما تقدم ذكر ذلك فى شعبان .

شوال

٣ منه (٥ يناير ١٨٠٥ م) :

سافر السيد محمد بن المحروقى وجرجس الجوهرى ، ومعهما جملة من العسكر ، الى جهة القليوبية بسبب القافلة المنهوبة .

٦ منه (٨ يناير ١٨٠٥ م) :

طلبوا مال الميرى عن سنة عشرين معجلة ، بسبب تشهيل الحج ، وكتبوا التنابيه بطلب النصف حالا ، وعينوا بها عساكر عثمانية وجاويشية وشفاسية فدهى الملتزمون بذلك — مع أن أكثرهم أفلس ، وباق عليهم بواق من سنة تاريخه وما قبلها — لخراب البلاد ، وتتابع الطلب والفرد

والتعابين والشكاوى والتساويف ، ووقوف العربان بسائر النواحى ، وتعطيل المراكب عن السفر لعدم الأمن ، وغصبهم ما يرد من السفائن والمعاشات ، ليرسلوا فيها الذخيرة والعسكر والجبخانة معونة للمحاربين على المنية .

١٠ منه (١٢ يناير ١٨٠٥ م) :

طلبوا طائفة من المزينين ، وأرسلوهم الى قبلى لمداواة الجرحى .

وفيه : تواترت الأخبار بحصول مقتلة عظيمة بين المتحاربين ، وأن العسكر حملوا على المنية حملة قوية من البر والبحر ، وملكوا جهة منها . وحضر المبشرون بذلك ليلة الأربعاء أواخر رمضان — كما تقدم — وعملوا الشنك لذلك . فورد الخبر ، بعد ذلك بنحو ساعتين ، برجوع الأخصام ثانيا ومقاتلتهم حتى هزموهم ، وأجلوهم عن ذلك . وذلك هو الحامل على المغالطة والمناداة فى سابع ساعة بثبوت العيد وافطار الناس ذلك اليوم !

١٨ منه (٢٠ يناير ١٨٠٥ م) :

نزل الباشا الى قراميدان ، وحضر القاضى والدفتردار وأمير الحج . فسلمه الباشا المحمل ، ونزلوا بقطع الكسوة أمام أمير الحج ، وركب أمامه الأغا والوالى والمحتسب وناظر الكسوة ، بهيئة محتقرة من غير نظام ولا ترتيب ، ومن خلفهم المحمل على جمل صغير أعرج !

وفيه : أرسل العسكر يطلبون العلوفة والمعونة . فعمل الباشا فردة على الأعيان وعلى أتباعه ، وجمع لهم خمسمائة كيس ، وعين للسفر بذلك صالح أغا وعدة عساكر وجبخانة وذخيرة .

٢٠ منه (٢٢ يناير ١٨٠٥ م) :

رجع ابن المحروقى وجرجس الجوهرى ، وأحضرا معهما بعض أحمال قليلة ، بعد ماصرفا أضعافها فى مصالح وكساوى للعرب ، وغير ذلك .

وفيه : ورد الخبر بوصول دفتردار جديد الى ثغر سكندرية — وهو أحمد أفندى الذى كان بمصر سابقا ، وعمل قبطانا بالسويس فى أيام محمد باشا وشريف أفندى — فكتب الباشا عرضا للدولة بأنهم راضون على جانم أفندى الدفتردار ، وأن أهل البلد ارتاحوا عليه ، وطلبوا ابقاءه دون غيره . وختم عليه القاضى والمشايخ والاختيارية ، وبعثوه الى الدولة .

وأرسلوا الى الدفتردار الواصل ، بعدم المجىء ، ويذهب الى قبرص حتى يرجع الجواب . فاستمر باسكندرية .

وفى أواخره : تواترت الأخبار ، بأن جماعة من الأمراء القبالى ، ومن معهم من العربان ، حضروا الى ناحية الفشن . وحضر أيضا كاشف الفيوم مجروحا ، ومعه بعض عسكر ودلاة فى هيئة مشوهة . وتتابع ورود كثير من أفراد العسكر الى مصر . وأشيع انتقالهم من أمام المنية الى البر الشرقى ، بعد وقائع كثيرة ومحاربات .

غايته (غاية يناير ١٨٠٥ م) :

برز أمير الحج المسافر بالمحمل ، وخرج الى خارج ... ومعه الصرة ، أو ماتيسر منها !

وعين للسفر معه عثمان أغا — الذى كان كتخدا محمد باشا — بجماعة من العسكر لأجل المحافظة ليوصلوه الى السويس ، ويسافر من القلزم مثل عام أول .

وفيه : ورد الخبر بضياع ثلاث داوات بالقلزم ، وأنها تلفت بالقرب من الحسانى ، وتلف بها كثير من أموال التجار وصرر النقود . وكان بها قاضى المدينة أحمد افندى — المنفصل عن قضاء مصر —

فغرق ، وطلعت أولاده ، ورجعوا الى مصر بعد أيام ، وسافروا الى بلادهم .

وورد الخبر بأن القبليين قتلوا حسين بيك ، المعروف باليهودى ، بعد أن تحققوا خيانته ومخامرته . وانقضى هذا الشهر .

ذو القعدة

الجمعة غرته (اول فبراير ١٨٠٥ م) :

قرر الباشا فردة على البلاد ، فجعل على كل بلد من البلاد ... العال : مائة ألف فضة ، والدون : ستين ألفا . وعين لذلك ذا الفقار كتخدا الألفي على الغربية ، وعلى كاشف الصابونجي على المنوفية ، وحسن أغا نجاتى المحتسب على الدقهلية .. وذلك خلاف ماتقرر على البنادرمن عشرين كيسا وثلاثين وخمسين ومائة وأقل وأكثر .

الجمعة ٨ منه (٨ فبراير ١٨٠٥) :

حضروا بعلى أغا يحيى — المعروف بالسبع قاعات — ميتا من سملوط . وقد كانوا أرسلوه ليكون كتخدا لحسن بيك أخى طاهر باشا ، وكان المحروقى أرسله الى بشبيش فتوعك هناك ، فطلب الباشا رجلا من الرؤساء يجعله كتخدا لحسن بيك فأشاروا عليه بعلى أغا هذا ، فطلبه من المحروقى ، فأرسل بإحضاره ، فحضر فى اليوم الذى مات فيه المحروقى ، وسافر بعد أيام الى قبلى ، فزاد به المرض هناك ، ومات بسملوط . فأحضروه الى مصر بعد موته بخمسة أيام .

وخرجوا بجنازته فى يوم الجمعة من بيته المجاور لبيت المحروقى ، وصلوا عليه بالأزهر ، ودفن الى رحمة الله تعالى .

الثلاثاء ١٢ منه (١٢ فبراير ١٨٠٥ م) :

علقوا ثلاثة رؤوس بباب زويلة ، لا يدرى أحد من هم .

١٤ منه (١٤ فبراير ١٨٠٥ م) :

وقعت حادثة . وهو أن كاشفا من أكابر الأرنؤود سكن ببيت ابن السكرى ، الذى بالقرب من الحلوجى ، ويتردد عليه رجل من المنتسبين الى الفقهاء — يسمى الشيخ أحمد البرانى ، خبيث الأفعال ، يصلى اماما بالمذكور — فرأى ما رابه منه مع فراشه ، فضربه بالخنجر والتبابيت ، حتى ظن هلاكه . وأخرجه أتباعه وحملوه الى منزله فى خامس ساعة من الليل ، وبه بعض رمق ، ومات بعد ذلك .

وأخبر المشايخ بذلك ، ورفع القتيل الى المحكمة ، وتغيب القاتل . فامتنع المشايخ من حضور الجامع والتدريس بسبب ذلك ، وبسبب أولاد سعد الخادم سدنة ضريح سيدى أحمد البدوى ... وقد كانوا شكوا بعضهم بعضا ، وثمين بسبب ذلك كاشف على أحمد بن الخادم ، وهجم داره وقبض على بناته ونسائه ، ونبشوا داره ، وفحروا أرضها للتفتيش على المال . وطالت قصتهم من أواخر الشهر الماضى لوقت تاريخه .

وتكلم المشايخ مرارا مع الباشا فى أمرهم ... وهو يغالط طمعا فى المال . وقد كان سمع تهمتهم بكثرة المال، وأن عند باشا خسرو أخذمنهم سابقا — فى أيام ولايته — مائة وخمسة وثمانين ألف ريال خلاف حق الطريق ، وذلك من مصطفى الخادم — وهو الذى شكو الآن قسيمه ، ويقول انه هو الذى شكانى وتسبب فى مصادرتى ، وهو مثلى فى الايراد ، وعنده مثل ما عندى — فلما حضروا الى الدار وفتشوا وقرروا نساءه وأتباعه ، فلم يظهر له شىء ... فأدرجوا هذه القضية فى دعوة المقتول ، وامتنعوا من حضورهم الأزهر ، وأشيع امتناعهم من التدريس والافتاء . فحضر اليهم سعيد أغا الوكيل ، وتلطف بهم ، وطلب منهم تسكين هذه الفتنة ، وأنه يتكفل بتمام المطلوب .

واستمر الحال على ذلك الى يوم الثلاثاء تاسع عشرة فحضر كتخدا الباشا وسعيد آغا وصالح آغا الى بيت الشيخ الشرقاوى ، واجتمع هناك الكثير من المتعممين ، وتكلموا كثيرا ، ورمحوا المرتب وقالوا : « لابد من حضور الخصم القاتل والمرافعة معه الى الشرع ، ورفع الظلم عن أولاد الخادم وعن الفلاحين » . وأمثال ذلك . وهم يقولون فى الجواب : « سمعا وطاعة فى كل ما تأمرون به » . وانقضى المجلس على ذلك ، وذهبوا حيث أتوا .

فلما كان العصر من ذلك اليوم ، حضر سعيد أغا — وصحبته القاتل — الى المحكمة ، وأرسلوا الى المشايخ ،فحضروا بالمجلس ، وأقيمت الدعوى. وحضر ابن المقتول ، وادعى بقتل أبيه ، وذكر أنه أخبر قبل خروج روحه أن القاتل له الكاشف صاحب المنزل ، فسئل ، فأنكر ذلك وقال : « انه كان اماما عنده ، يصلى به الأوقات ، وأنه لم يأت الينا تلك الليلة التى حصل له فيها هذا الحادث » . فطلب القاضى من ابن المقتول بينة تشهد بقول أبيه ، فلم يجدوا الا شخصا سمع من المقتول ذلك القول . وأفتى المالكى أنه يعتبر قول المقتول فى مثل ذلك ، لأنه فى حالة يستحيل عليه فيها الكذب .. وذلك نص مذهبهم ، ولا بد من بينة تشهد على قوله .

فطلب القاضى الشطر الثانى، فلم يوجد على أن هناك من كان حاضرا بالمجلس وقت الضرب ، ومشاهدا للحادثة ، وكتم الشهادة خوفا على نفسه وانفض المجلس ، وأهمل الأمر حتى يأتوا بالبينة .

الجمعة ١٥ منه (١٥ فبراير ١٨٠٥ م):

تواترت الأخبار بوقوع حرب بين العسكر والأمراء القبالى ، وملك العسكر جهة من المنية بعدما اصطدموا عليها من البر والبحر . فوصل الأخصام وحالوا بينهم وبين عسكرهم والمتاريس ، وأجلوهم ، وقتل من قتل بين الفريقين ، واحترق عدة مراكب من مراكب العسكر وما فيها من المتاع والجبخانة ، وأرسلوا بطلب ذخيرة وجبخانة وثياب وغير ذلك .

وانتشر عسكر القبليين الى جهة بحرى حتى وصلوا الى زاوية المصلوب ، وحاصروا من فى بوش والفشن وبنى سويف ، وكذلك من بالفيوم .

وشرع الباشا ، واجتهد فى تجهيز المطلوبات ، وتشهيل الاحتياجات .

وفيه : حضر سعاة من ثغر سكندرية ، وأخبروا بورود عدة مراكب انجليزية الى المينا ، وسألوا أهل الثغر عن مراكب فرنسيس وردت المينا أم لا . ثم قضوا بعض أشغالهم وذهبوا .

الاحد ١٧ منه (١٧ فبراير ١٨٠٥ م):

عزم على السفر محمد افندى — حاكم اسنا سابقا — بمراكب الذخيرة والجبخانة واللوازم ، وصحبته عدة من العساكر لخفارتها .

ذو الحجة

السبت ٧ منه (٩ مارس ١٨٠٥ م):

وردت أخبار بوقوع حرب بين العسكر والمصريين القبليين ، وهو أن العسكر حملوا على المنية حملة عظيمة — فى غفلة — وملكوها ، فاجتمعت عليهم الغز والعربان ، وكبسوا عليهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأخرجوهم منها ، وأجلوهم عنها ثانيا ، وذلك فى سابع عشرين القعدة .

الاحد ٨ منه (١٠ مارس ١٨٠٥ م):

طلع يوسف أفندى ، الذى كان تولى نقابة الأشراف فى أيام محمد باشا ثم عزل عنها ، الى القلعة . فقبض عليه صالح أغاقوش ، وضربه ضربا مبرحا ، وأهانه اهانة زائدة .. وأنزلوه أواخر النهار ، وحبسوه ببيت عمر أفندى النقيب . ثم

تشفع فيه الشيخ السادات ، فأفرجوا عنه تلك الليلة ، وذهب الى داره ليلا . وذلك بسبب دعوى تصدر فيها المذكور ، وتكلم كلاما فى حق الباشا . فحقدوا عليه ذلك ، وفعلوا معه ما فعلوا ... ولم ينتطح فيها عنزان !

الجمعة ١٣ منه (١٥ مارس ١٨٠٥ م) :

طلع المشايخ الى الباشا يهنئونه بالعيد ، فأخرج لهم ورقة ، حضرت اليه من محمد أفندى حاكم اسنا سابقا — الذى سافر بالذخيرة آنفا ، واستمر ببنى سويف ، ولم يقدر على الذهاب الى قبلى — ومضمون تلك الورقة : أن البرديسى قتل الألفى غيلة ... ولم يكن لهذا الكلام صحة .

وفيه : وردت أخبار بقدوم طائفة من الدلاة على طريق الشام ، وبالغوا فى عددهم — فيقولون اثنا عشر الفا وأكثر — وأنهم وصلوا الى الصالحية، وأنهم طالبون علوفة وذخيرة . فشرعوا فى تشهيل ملاقاة للمذكورين ، وطلبوا من تجار البهار خمسمائة كيس ، وزعوها وشرعوا فى جمعها !

وفيه : وصلت طائفة من القبالى والعرب الى بلاد الجيزة ، وطلبوا من البلاد دراهم وكلفا . ومن عصى عليهم من البلاد .. ضربوه .

وعدى كتخدا الباشا وجملة من العساكر الى بر الجيزة ، وشرعوا فى تحصينها وعملوا بها متاريس ، وتردد الكتخدا فى النزول والتعدية الى هناك والرجوع .

ثم انه عدى فى رابع عشره وأقام هناك ، وأحضروا ثلاثة رؤوس من العرب فى ذلك اليوم .

وفيه : رجع الكتخدا وأشيع رجوع المذكورين.

—وفيه : قرروا فردة أخرى على البلاد لأجل عسكر الدلاة القادمين،وجعلوا على كل بلد عشرين أردب فول ، وعشرين خروفا ، وعشرين رطل سمن ، وعشرين رطل بن ، وعشرة قناطير عيش ، وربع أردب وسدس أرز أبيض ومثله برغل ، وكلفة المطبخ ألف فضة . وذلك خلاف حق الطريق والاستعجالات المتتابعة ... وكلها بمقررات وحق طرقات !

الاربعاء ١٨ منه (٢٠ مارس ١٨٠٥ م) :

حضر ططرى من ناحية قبلى ، وأخبر أن العسكر دخلوا الى المنية وملكوها . فضربوا مدافع كثيرة من القلعة ، وعملوا شنكا ، وأظهر العثمانية وأغراضهم الفرح والسرور ، وكأنهم ملكوا مالطة !

وبالغوا فى الأخبار والروايات الكذب فى القتلى وغير ذلك . والحال أن الأخصام خرجوا منها وزحموها ، ولم يبقوا بها ما ينقره الطير . ولم يقع بينهم كبير قتال .. بل أن العسكر لما دهموها من الناحية القبلية — ولم يكن بها الا القليل من المصريين ،وباقيهم خارجها من الناحية الأخرى فتحاربوا مع من بها وهزموهم ، فولى أصحابهم وتركوهم بالبلدة ، فدخلوها فلم يجدوا بها شيئا .

الخميس ١٩ منه (٢١ مارس ١٨٠٥ م) :

وصل أغاة المقرر -- وهو عبد أسود — وطلع الى القلعة بموكب . وعملوا له شنكا ومدافع ، وقرءوا المقرر فى ذلك اليوم بحضرة الجمع .

الاحد ٢٢ منه (٢٤ مارس ١٨٠٥ م) :

وصلت طائفة من العرب بناحية الجيزة ، فوصل الخبر الى الكاشف الذى بها — وهو دملى عثمان كاشف ، الذى قتل الشيخ أحمد البرالى المتقدم ذكره — فانه بعد تلك الحادثة قلدوه كشوفية الجيزة ، وذهب اليها وأقام بها . فلما بلغه ذلك ، ركب على الفور فى نحو خمسة وعشرين خيالا ، ورمحوا عليهم ، فانهزموا أمامهم ، فطمع فيهم وذهب خلفهم الى ناحية برلشت .

فخرج عليه كمين آخر ، احتاطوا به ، وقتلوه وقطعوا رأسه وستة أنفار معه ، وذهبوا برؤوسهم على مزاريق . واقتص الله منه ... فكان بينه وبين قتله للمذكور دون الشهر . وكان مشهورا فيهم بالشجاعة والاقدام .

وفيه : اجتهدوا فى تشهيل علوفة وذخيرة وجبخانة ، وسفروها مع جملة من العسكر — نحو الخمسمائة — فى يوم الاثنين ثالث عشرينه .

الاربعاء ٢٥ منه (٢٧ مارس ١٨٠٥ م) :

وصل الدلاة الى الخانكة ، فحضر منهم طائفة ودخلوا الى مصر ، فردوهم الى أصحابهم حتى يكونوا بصحبتهم فى الدخول .

الخميس ٢٦ منه (٢٨ مارس ١٨٠٥ م) :

نزل كتخدا الباشا وصالح أغاقوش ، وخرجوا الى جهة العادلية لملاقاة الدلاة المذكورين ، وكبيرهم يقال له ابن كور عبد الله .

الجمعه ٢٧ منه (٢٩ مارس ١٨٠٥ م) :

دخل الدلاة المذكورون ، وصحبتهم الكتخدا ، وصالح أغاقوش ، وكاشف الشرقية ، وكاشف القليوبية ، وطوائف العسكر..ومعهم نقاقير وطبول — وهم نحو الألفين وخمسمائة ... أجناس مختلفة ، وأشكال مجتمعة — فذهبوا بهم الى ناحية مصر القديمة ونواحى الآثار .

* * *

وانقضت السنة ، وما حصل بها من الغلاء ، وتتابع المظالم ، والفرد على البلاد ، واحداث الباشا له مرتبات وشهريات على جميع البلاد ، والقبض على أفراد الناس بأدنى شبهة ، وطلب الأموال منهم وحبسهم . واشتد الضنك فى آخر السنة ، وعدم القمح والفول والشعير ، وغلا ثمن كل شيء ... لولا اللطف على الخلائق بوجود الذرة ، التى لم يبق بالرقع والعرصات سواها .

واستمرت سواحل الغلال خالية من الغلة هذا العام .. من العام الماضى ، وبطول هذه السنة . وامتنع الوارد من الجهة القبلية ، وبطلت ... (١) وقل وجودها وغلا ثمنها . ومع ذلك اللطف حاصل من المولى جل شأنه ، ولم يقع قحط ولا موت من الجوع — كما رأينا فى الغلوات السابقة — من عدم الخبز فى الأسواق ، وخطف أطباق العيش والكعك ، وأكل القشور وما يتساقط فى الطرقات من قشور الخضروات وغير ذلك .

وكان ... النيل من المعتاد ... وكثرة مجيء الغلال من جميع النواحى ، حتى من الشام والروم بخلاف هذه السنة......الشراقى فى السنة الماضية .

ولم نر فيما رأيناه ...... الفتن والنهب ...... والظلم ...... والعرى وانقطاع الطريق وتعطيل المتاجر ، و ...... من قبلى وبحرى ...... وجهات الأرزاق ، وغلو الأثمان . ومع ذلك......المأكولات ، مع شبع الأنفس ، وعدم القحط وتيسير الأمور . فسبحان المدبر الفعال .

وبلغ سعر الأردب القمح الى ثمانية عشر ريالا ، والفول مثل ذلك ، والذرة باثنى عشر ريالا ، والسمن أربعمائة وأكثر ...... أرطال ، والعسل النحل خمسة وثلاثين نصفا الرطل ، والأسود عشرين نصفا ، والأرز بستة وثلاثين ريالا الأردب . وقس على ذلك !

* * *

وأما من مات فى هذه السنة من الأعيان :

فقد مات العمدة العلامة ، والنحرير الفهامة ؛ الفقيه النبيه ، الأصولى النحوى المنطقى : الشيخ موسى السرسي الشافعى . أصله من سرس الليانة

(١) بياض بالأصل (ص ٣٢٠ ج ٣ طبعة المطبعة الخديوية سنة ١٢٩٧ هـ — ١٨٨٠ م) ؛ وكذلك فى سائر المواطن التى وضعت بها نقط .

بالمنوفية ، وحضر الى الأزهر ، ولازم الاستفادة وحضور الأشياخ من الطبقة الثانية ... كالشيخ عطية الأجهورى ، والشيخ عيسى البراوى ، والشيخ محمد الفرماوى ، وغيرهم .

وتمهر وأنجب فى المعقولات والمنقولات ، واقراء الدروس . وأفاد الطلبة ، وانطوى الى الشيخ حسن الكفراوى مدة ، ورافقه فى الافتاء والقضايا ، ثم الى شيخنا الشيخ احمد العروسى ، وصار من خاصة ملازميه ، وتخلق بأخلاقه ، وألزم أولاده بحضور دروسه المعقولية وغيرها — دون غيره — لحسن القائه وجودة تفهيمه وتقريره .

واشتهر ذكره ، وراش جناحه ، وراج أمره بانتسابه للشيخ المذكور .

واشترى أملاكا ، واقتنى عقارا بمصر وببلده سرس ومنوف ، ومزارع وطواحين ومعاصر .

واشترى دارا نفيسة بدرب عبد الحق بالأزبكية ، وعدد الأزواج ، واشترى الجوارى والعبيد والحبشيات الحسان .

وكان حلو المفاكهة ، حسن المعاشرة ، عذب الكلام ، مهذب النفس ، جميل الأخلاق ، ودودا قلبل الادعاء ، محبا لاخوانه ، مستحضرا للفروع الفقهية .

وكان يكتب على غالب الفتاوى عن لسان الشيخ العروسى ، ويعتمده فى النقول والأجوبة عن المسائل الغامضة ، والفروع المشكلة .

وله كتابات وتحقيقات . ولم يزل مشتغلا بشأنه ، حتى تعلل أياما بدار عيدان القطن ، مطلة على الخليج . وتوفى يوم السبت سادس عشرين جمادى الأولى من السنة .

* * *

ومات الجناب المكرم ، والشهير المفخم ، الوزير الكبير ، والدستور الشهير : أحمد باشا الشهير بالجزار . وأصله من بلاد البشناق ، وخدم عند المرحوم على باشا حكيم أوغلى ، وعمل عنده شفاسيا ، وحضر صحبته الى مصر — فى ولايته الثانية سنة احدى وسبعين ومائة وألف — فتشوقت نفسه الى الحج ، واستأذن مخدومه ، فأذن له فى ذلك ، وأوصى عليه أمير الحج اذ ذاك صالح بيك القاسمى ، فأخذه صحبته وأكرمه ، وواساه رعاية لخاطر على باشا ، ورجع معه الى مصر .

فوجد مخدومه قد انفصل من ولاية مصر ، وسافر الى الديار الرومية . ووصل نعيه بعد أربعة أشهر من ذهابه . فاستمر المترجم بمصر ، وتزيا بزى المصريين ، وخدم عند عبد الله بيك تابع على بيك بلوط قبان ، وتعلم الفروسية على طريق الأجناد المصرية . فأرسل على بيك عبد الله بيك بتجريدة الى عرب البحيرة ، فقتلوه .

فرجع المترجم مع باقى أصحابه الى مصر ، فقلده على بيك كشوفية البحيرة ، وقال له : « ارجع الى الذين قتلوا أستاذك وخلص ثأره » . فذهب اليهم وخادعهم ، واحتال عليهم ، وجمعهم فى مكان وقتلهم — وهم نيف وسبعون كبيرا — وبذلك سمى الجزار ، ورجع منصورا . وأحبه على بيك لنجابته وشجاعته ، وتنقل عنده فى الخدم والمناصب والأمريات ، ثم قلده الصنجقية ، وصار من جملة أمرائه .

ولما خرج على بيك منفيا ، خرج صحبته ، ورافقه فى الغربة والتنقلات والوقائع . ولم يزل حتى رجع على بيك وصحبته صالح بيك من الجهة القبلية ، وقتل خشداشينه وغيرهم ، ثم عزم على غدر صالح بيك ، وأسر بذلك الى خاصته — ومنهم المترجم — فلم يسهل به ذلك ، وتذكر ماينه وبين صالح بيك من المعروف السابق ، فأسر به اليه وحذره .

فلما اختلى صالح بيك بعلى بيك ، عرض له بذلك . فحلف له على بيك أنه باق على مصافاته ،

وكذب المخبر .. الى أن كان ماكان من قتلهم وغدرهم لصالح بيك ، كما تقدم ، واحجام المترجم وتأخره عن مشاركته لهم فى دمه ، ومناقشتهم له بعد الانفصال . فتجسم له الأمر ، فتنكر وخرج هاربا من مصر فى صورة شخص جزائرلى . وتفقده على بيك ، وأحاط بداره — وكان يسكن ببيت شكر فره بالقرب من جامع أزبك اليوسفى — فلم يجدوه .

وسار المذكور الى سكندرية ، وسافر الى الروم ، ثم رجع الى البحيرة ، وأقام بعرب الهنادى ، وتزوج هناك .

ولما أرسل على بيك التجاريد الى ابن حبيب والهنادى ، حارب المترجم معهم . ثم سار الى بلاد الشام فاستمر هناك فى هجاج وتنقلات ومحاربات .

واشترى مماليك ، واجتمع لديه عصبة ، واشتهر أمره فى تلك النواحى . ولم يزل على ذلك الى أن مات الظاهر عمر فى سنة تسع وثمانين ومائة وألف ، ووصل حسن باشا الجزائرلى الى عكا ، فطلب من يكون كفؤا للاقامة بحصنها ، فذكروا له المترجم ، فاستدعاه وقلده الوزارة ، وأعطاه الأطواخ والبيرق .

وأقام بحصن عكا ، وعمر أسوارها وقلاعها ، وأنشأ بها البستان والمسجد ، واتخذ له جندا كثيفا ، واستكثر من شراء المماليك ، وأغار على تلك النواحى ، وحارب جبل الدروز مرارا ، وغنم منهم أموالا عظيمة ، ودخلوا فى طاعته ، وضرب عليهم وعلى غيرهم الضرائب ، وجبيت اليه الأموال من كل ناحية حتى ملأ الخزائن ، وكنز الكنوز ، وصار يصانع أهل الدولة ورجال السلطنة ، ويتابع ارسال الهدايا والأموال اليهم .

وتقلد ولاية بلاد الشام ، وولى على البلاد نوابا وحكاما من طرفه ، وطلع بالحج الشامى مرارا ، وأخاف النواحى وعاقب على الذنب الصغير بالقتل والحبس والتمثيل ، وقطع الآناف والآذان والأطراف . ولم يغفر زلة عالم لعلمه ، أو ذى جاه لوجاهته .

وسلب النعم عن كثير جدا من ذوى النعم ، واستأصل أموالهم ، ومات فى محبسه ما لا يحصى من الأعيان والعلماء وغيرهم ، ومنهم من أطال حبسه سنين حتى مات .

واتفق أنه استراب من بعض سراريه ومماليكه، فقتل من قويت فيه الشبهة وحرقهم ، ونفى الباقى .. الجميع ذكورا واناثا بعد أن مثل بهم ، وقطع آنافهم وأخرجهم من عكا وطردهم وشردهم، وسخط على من آواهم أو ئاواهم...ولو فى أقصى البلاد . وحضر الكثير منهم الى مصر ، وخدموا عند الأمراء ، والضوى نحو العشرين شخصا منهم وخدموا عند على بيك كتخدا الجاوشية .

فلما بلغ المترجم ذلك ، تغير خاطره من طرفه ، وقطع حبل وداده بعد أن كان يراسله ويواصله دون غيره من أمراء مصر . وكان ذلك سبب استيحاشه منه الى أن مات .

ولما فعل بهم ذلك ، تعصب عليه مملوكاه سليم باشا الكبير وسليمان باشا الصغير — وهو الموجود الآن — وانضم اليهما المتأمرون من خشداشينهما وغيرهم...غيظا على مافعله بخشداشينهم ، وعلمهم بوحدته وانفراده . وحاصروه بعكا . ولم يكن معه الا القليل من العساكر البرانيين والفعلة والصناع الذين يستعملهم فى البناء ، فألبسهم طراطير مثل الدلاة ، وأصعدهم الى الأسوار مع الرماة والطبجية ، ورآهم المخالفون عليه فتعجبوا وقالوا : « انه يستخدم الجن » !

وكبس عليهم فى غفلة من الليل ، وحاربهم وظهر عليهم ، وأذعنوا لطاعته ، وتفرق عنهم المساعدون لهم ، ثم تتبعهم واقتص منهم ... وكاد

البلاد ، وقهر العباد . ونصبت الدولة فخاخا لصيده مرارا فلم يتمكنوا من ذلك . فلم يسعهم بعد ذلك الا مسالمته ومسايرته .

وثبت قدمه ، وطار صيته فى جميع الممالك الاسلامية ، والقرانات الافرنجية ، والثغور

واشتهر ذكره ، وراسله ملوك النواحى وراسلهم ، وهادوه وهابوه .

وبنى عدة صهاريج وملأها بالزيت والسمن والعسل والشيرج والأرز وأنواع الغلة .

وزرع ببستانه سائر أصناف الفواكه والنخيل والأعناب الكثيرة ، وجدد دولته ثانيا ، واشترى مماليك وجوارى بدلا عن الذين أبادهم .

وبالجملة ... فكان من غرائب الدهر ، وأخباره لايفى القلم بتسطيرها،ولا يسعف الفكرة بتذكارها. ولو جمع بعضها جاءت مجلدات . ولو لم يكن له من المناقب الا استظهاره على الفرنساوية ، وثباته فى محاربتهم له أكثر من شهرتين — لم يغفل فيها لحظة — لكفاه !

وكان يقول : « ان الفرنساوية لو اجتهدوا فى ازالة جبل عظيم لأزالوه فى أسرع وقت » وقد تقدم بعض خبر ذلك فى محله .

وكان يقول : « أنا المنتظر .. وأنا أحد المذكور فى الجفور ... الذى يظهر بين القصرين ! » .

واستخرج له كثير من الذين يدعون معرفة الاستخراج عبارات وتأويلات ، ورموزا واشارات، ويقولون : « المراد بالقصرين .. مكانان جهة الشام ... أو المحملان » .. أو نحو ذلك من الوساوس .

ولم يزل حتى توفى فى آخر هذا العام على فراشه . وكان سليمان باشا تابعه غائبا بالحجاز فى امارة الحج الشامى . فلما علم أنه مفارق الدنيا ، أحضر اسماعيل باشا والى مرعش — وكان فى محبسه يتوقع منه المكروه فى كل وقت — فأقامه وكيلا عنه الى حضور سليمان باشا من الحج ، وأعطاه الدفاتر، وعرفه بعلوفة العسكر ، وأوصاه .

فلما انقضى نحبه ودفنوه ، صرف النفقة ، واتفق مع طه الكردى وصالح الدولة ، وتحصن بعكا، وحضر سليمان باشا فامتنعا عليه ، ولم يمكنه الدخول اليها . فاستمر اسماعيل باشا الى أن أخرجه أتباع المترجم بحيلة ، وملكوا سليمان باشا — بعد أمور لم نتحقق كيفيتها — وذلك فى السنة التالية .

* * *

ومات عين الأعيان ، ونادرة الزمان ، شاه بندر التجار ... والمرتقى بهمته الى سنام الفخار ، النبيه النجيب ، والحسيب النسيب : السيد أحمد بن أحمد الشهير بالمحروقى الحريرى .

كان والده حرايريا بسوق العنبريين بمصر ، وكان رجلا صالحا ، منور الشيبة ، معروفا بصدق اللهجة والديانة والأمانة بين أقرانه . وولد له المترجم ، فكان يدعو له كثيرا فى صلاته وسائر تحركاته . فلما ترعرع ، خالط الناس وكتب وحسب ، وكان على غاية من الحذق والنباهة ، وأخذ وأعطى ، وباع واشترى ، وشارك وتداخل مع التجار ، وحاسب على الألوف ، واتحد بالسيد أحمد بن عبد السلام ، وسافر معه الى الحجاز ، وأحبه وامتزج به امتزاجا كليا ، بحيث صارا كالتوأمين ... أو روح حلت بدنين .

* * *

ومات عمدة التجار العرايشى ، وهو بالحجاز ، وهو أخو السيد أحمد بن عبد السلام — فى تلك السنة — فأحرز مخلفاته وأمواله ، ودفاتر شركاته . فتقيد المترجم بمحاسبة التجار والشركاء

والوكلاء ومحاققتهم ، فوفر عليه لكوكا من الأموال !

واستأنف الشركات والمعاوضات ، وعند ذلك من سعادة مقدم المترجم ، ومرافقته له ، ورجع صحبته الى مصر ، وزادت محبته له ، ورغبته فيه .

وكان لابن عبد السلام شهرة ووصلة بأكابر الأمراء كأبيه ، وخصوصا مراد بيك ، فيقضى له ولأمرائه لوازمهم اللازمة لهم ولأتباعهم ، واحتياجاتهم من التفاصيل والأقمشة الهندية وغيرها. وينوب عنه المترجم فى غالب أوقاته وحركاته . ولشدة امتزاج الطبيعة بينهما ، صار يحاكيه فى ألفاظه ولغته ، وجميع اصطلاحاته فى الحركات والسكنات والخطرات . واشتهر ذكره به عند التجار والأعيان والأمراء . واتحدا بمحمد أغا البارودى — كتخدا مراد بيك — اتحادا زائدا ، وأتحفاه بالجراية ، وخصصاه بالمزايا ، فراج به عند مخدومه شأنهما ، وارتفع به بالزيادة قدرهما .

ولما تأمر اسماعيل بيك ، واستوزر أيضا البارودى ، استمر حالهما كذلك ، بل وأكثر . الى أن حصل الطاعون ومات به السيد أحمد بن عبد السلام فى شعبان ، فاستقر المترجم فى مظهره ومنصبه — شاه بندر التجار — بواسطة البارودى أيضا ، وسعايته وسعادة طالعه .

وسكن داره العظيمة التى عمرها بجوار الفحامين — محل دكة الحسبة القديم — وتزوج بزوجاته ، واستولى على حواصله ومخازنه ، واستقل بها من غير شريك ولا وارث . وعند ذلك زادت شهرته ، وعظم شأنه ووجاهته ، ونفذت كلمته على أقرانه .

ولم يزل طالعه يسمو ، وسعده يزيد وينمو . وعاد مراد بيك والأمراء المصريون — بعد موت اسماعيل بيك ، وانقلاب دولته — الى امارة مصر فاختص بخدمته وقضاء سائر أشغاله ، وكذلك ابراهيم بيك وباقى الأمراء . وقدم لهم الهدايا والطرائف ، وواسى الجميع أعلاهم وأدونهم بحسن الصنع ، حتى جذب اليه قلوب الجميع ، ونافس الرجال ، وانعطفت اليه الآمال ، وعامل تجار النواحى والأمصار ، من سائر الجهات والأقطار .

واشتهر ذكره بالأراضى الحجازية ، وكذا بالبلاد الشامية والرومية ، واعتمدوه وكاتبوه وراسلوه وأودعوه الودائع ، وأصناف التجارات والبضائع .

وزوج ولده السيد محمد ، وعمل له مهما عظيما افتخر فيه الى الغاية ، ودعا الأمراء والأكابر والأعيان . وأرسل اليه ابراهيم بيك ومراد بيك الهدايا العظيمة ، المحملة على الجمال الكثيرة ، وكذلك باقى الأمراء ، ومعها الأجراس التى لها رنة تسمع من البعد ، ويقدمها جمل عليه طبل نقارية ، وذلك خلاف هدايا التجار وعظماء الناس ، والنصارى الأروام والأقباط الكتبة ، وتجار الافرنج ، والأتراك والشوام والمغاربة ، وغيرهم .

وخلع الخلع الكثيرة ، وأعطى البقاشيش والانعامات والكساوى ، ولا يشغله أمر عن أمر آخر يمضيه ، أو غرض ينفذه ويقضيه ، كما قيل :

أخو عزمات لا يريد على الذى
يهم به من مقطع الأمر صاحبا
اذا هم ألقى بين عينيه عزمه
ونكب عن ذكر العواقب جانبا

وحج فى سنة اثنتى عشرة ومائتين وألف ، وخرج فى تجمل زائد ، وجمال كثيرة ، وتختروانات ، ومواهى ومسطحات ، وفراشين وخدم ، وهجن وبغال وخيول .

وكان يوم خروجه يوماً مشهودا . اجتمع الكثير من العامة والنساء ، وجلسوا بالطريق للفرجة عليه ، ومن خرج معه لتشييعه ووداعه من الأعيان والتجار ، الراكبين والراجلين معه منهم ، وبأيديهم البنادق والأسلحة وغير ذلك .

وبعث بالبضائع والذخائر والقومانية ، والأحمال الثقيلة على طريق البحر ، لمرساة الينبع وجدة .

وعند رجوع الركب ، وصل الفرنساوية الى بر مصر ، ووصلهم الخبر بذلك .

وأرسل ابراهيم بيك الى صالح بيك أمير الحج ، يطلبه مع الحجاج الى بلبيس — كما تقدم — وذهب بصحبته المترجم وجرى عليه ماذكر ... من نهب العرب متاعه وحموله — وكان شيئا كثيرا — حتى ماعليه من الثياب ، والحصر بطريق القرين . فلم يجد عند ذلك بدا من مواجهة الفرنساوية ، فذهب الى سارى عسكر بونابرته وقابله ، فرحب به ، وأكرمه ولامه على فراره وركونه للمماليك . فاعتذر اليه بجهل الحال ، فقبل عذره ، واجتهد له فى تحصيل المنهوبات ، وأرسل فى طلب المتعدين ، واستخلص ما أمكن استخلاصه له ولغيره ، وأرسلهم الى مصر ، وأصحب معهم عدة من العساكر لخفارتهم ، ويقدمهم طبلهم ، وهم مشاة بالأسلحة بين أيديهم ، حتى أدخلوهم الى بيوتهم .

ولما رجع سارى عسكر الى مصر ، تردد عليه ، وأحله محل القبول ، وارتاح اليه فى لوازمه . وتصدى للامور وقضايا التجار ، وصار مرعى الجانب عنده ، ويقبل شفاعاته ، ويفصل القوانين بين يديه ويدى أكابرهم .

ولما رتبوا الديوان ، تعين من الرؤساء فيه ، وكاتبوا التجار ، وأهل الحجاز ، وشريف مكة بواسطته . واستمر على ذلك حتى سافر بونابرته . ووصل بعد ذلك عرضى العثمانية والأمراء المصرية ، فخرج فيمن خرج لملاقاتهم ، وحصل بعد ذلك ما حصل من نقض الصلح والحروب .

واجتهد المترجم فى أيام الحرب ، وساعد ، وتصدى بكل همته ، وصرف أموالا جمة فى المهمات والمؤن .. الى أن كان ما كان من ظهور الفرنساوية ، وخروج المحاربين من مصر ورجوعهم . فلم يسعه الا الخروج معهم ، والجلاء عن مصر . فنهب الفرنساوية داره ، وما يتعلق به .

ولما استقر يوسف باشا الوزير جهة الشام آنسه المترجم وعاضده ، واجتهد فى حوائجه ، واقترض الأموال ، وكاتب التجار ، وبذل همته وساعده بما لا يدخل تحت طوق البشر . ويراسل خواصه بمصر سرا ، فيطالعونه بالأخبار والأسرار . الى أن حصل العثمانيون بمصر ، فصار المترجم هو المشار اليه فى الدولة ، والتزم بالاقطاعات والبلاد .

وحضر الوزير الى داره ، وقدم اليه التقادم والهدايا . وباشر الأمور العظيمة ، والقضايا الجسيمة ، وما يتعلق بالدول والدواوين ، والمهمات السلطانية .

وازدحم الناس ببابه ، وكثرت عليه الأتباع والأعوان ، والقواسة والفراشون ، وعساكر رومية ، ومترجمون وكلارجية ووكلاء .

وحضرت مشايخ البلاد والفلاحون الكثيرة بالهدايا والتقادم ، والأغنام والجمال والخيول .

وضاقت داره بهم ، فاتخذ دورا بجواره ، وأنزل بها الوافدين ، وجعل بها مضايف وحبوساً وغير ذلك .

ولما قصد يوسف باشا الوزير السفر من مصر ، وكله على تعلقاته وخصوصياته . وحضر محمد باشا خسرو ، فاختص به أيضا اختصاصا كليا ، وسلم اليه المقاليد الكلية والجزئية ، وجعله أمين الضربخانة . وزادت صولته وشهرته ، وطار صيته ،

واتسعت دائرته ، وصار بمنزلة شيخ البلد .. بل أعظم .

ونفذت أوامره فى الاقليم المصرى والرومى والحجازى والشامى ، وأدرك من العز والجاه والعظمة ما لم يتفق لأمثاله من أولاد البلد

وكان ديوان بيته أعظم الدواوين بمصر ، وتغرب وجهاء الناس لخدمته ، والوصول لسدته .

ووهب وأعطى ، وراعى جانب كل من انتمى اليه وأغدق عليه .

وكان يرسل الكساوى فى رمضان للأعيان والفقهاء والتجار ، وفيها الشالات الكشميرى ، ويهب المواهب ، وينعم الانعامات ، ويهادى أحبابه ، ويسعفهم وبواسيهم فى المهمات .

وعمل عدة أعراس وولائم . وزاره محمد باشا المذكور فى داره مرتين أو ثلاثا باستدعاء ، وقدم له التقادم والهدايا والتحايف ، والرخوت المثمنة ، والخيول ، والتعابى من الأقمشة الهندية والمقصبات .

ولما ثارت العسكر على محمد باشا ، وخرج فارا .. كان بصحبته فى ذلك الوقت ، فركب أيضا يريد الفرار معه ، واختلفت بينهما الطرق ، فصادفه طائفة من العسكر ، فقبضوا عليه ، وعروا ثيابه وثياب ولده ومن معه ، وأخذوا منه جوهرا كثيرا ونقودا ومتاعا . فلحقه عمر بيك الأرنؤودى الساكن ببولاق ، وأدركه وخلصه من أيديهم ، وأخذه الى داره وحماه ، وقابل به محمد على وغيره . وذهب الى داره واستقر بها .. الى أن انقضت الفتنة ، وظهر طاهر باشا ، فساس أمره معه ، حتى قتل . وحضر الأمراء المصريون ، فتداخل معهم ، وقدم لهم ، وهاداهم واتحد بهم ، وبعثمان بيك البرديسى ، فأبقوه على حالته ، ونجز مطلوبات الجميع .

ولم يتضعضع للمزعجات ، ولم يتقهقر من المفزعات ... حتى أنهم لما أرادوا تقليد الستة عشر صنجقا فى يوم ، أحضره البرديسى تلك الليلة ، وأخبره بما اتفقوا عليه . ووجده مشغول البال ، متحيرا فى ملزوماتهم ، فهون عليه الأمر وسهله ، وقضى له جميع المطلوبات واللوازم للستة عشر أميرا فى تلك الليلة .

وما أصبح النهار الا وجميع المطلوبات ، من خيول ورخوت ، وفراوى وكساوى ومزركشات وذهب وفضة — برسم الانعامات والبقاشيش ومصروف الجيب — حاضر لديه بين يديه ، حتى تعجب هو والحاضرون من ذلك ، وقال له : « مثلك من يخدم الملوك ! » وأعطاه فى ذلك اليوم فارسكوز زيادة عما بيده .

ولما ثارت العسكر على الأمراء المصريين ، وأخرجوهم من مصر ، وأحضروا أحمد باشا خورشيد من سكندرية ، وقلدوه ولاية مصر — وكان كبعض الأغوات ، مختصر الحال — هيأ له رقم الوزارة والرخوت والخلع واللوازم فى أسرع وقت ، وأقرب مدة .

ولم يزل شأنه فى الترفع والصعود ، وطالعه مقارنا للسعود ، وحاله مشهور ، وذكره منشور ، حتى فاجأته المنية ، وحالت بينه وبين الأمنية .

وذلك أنه لما دعا الباشا فى يوم الثلاثاء سابع عشر شهر شعبان ، نزل الى داره ، وتغدى عنده ، وأقام نحو ساعتين ، ثم ركب وطلع الى القلعة ، فأرسل فى أثره هدية جليلة صحبة ولده والسيد أحمد الملا ترجمانه ، وهى : بقج قماش هندى ، وتفاصيل ، ومصوغات مجوهرة ، وشمعدانات فضة ، وتحايف وخيول مرختة ، ويدونها برسمه ورسم كبار أتباعه .

ومضى على ذلك خمسة أيام . فلما كان ليلة الأحد ثانى عشرين شعبان المذكور ، جلس حصة من الليل مع أصحابه يحادثهم ، ويملى الكتبة

المراسلات والحسابات ، فأخذته رعدة . وقال : « انى أجد بردا » . فدثروه ساعة ، ثم أرادوا ايقاظه ليدخل الى حريمه ، فحركوه ، فوجدوه خالصا قد فارق الدنيا .. من تلك الساعة التى دثروه فيها . فكتموا أمره ، حتى ركب ولده السيد محمد الى الباشا فى طلوع النهار ، وأخبره . ثم رجع الى داره ، وحضر ديوان افندى والقاضى ، وختموا على خزائنه وحواصله ، واشهروا موته ، وجهزوه وكفنوه ، وصلوا عليه بالأزهر فى مشهد حافل ، ثم رجعوا به الى زاوية العربى — تجاه داره — ودفنوه مع السيد أحمد بن عبد السلام . وانقضى أمره .

ثم ان الباشا ألبس ولده السيد محمد فروة وقفطانا على الضربخانة ، وما كان عليه والده من خدمة الدولة والالتزام ، ونزل من القلعة صحبة القاضى ، ثم ذهب الى داره ... بارك الله فيه وأعانه على وقته !

* * *

ومات الأمير المبجل : على أغا يحيى . وأصله مملوك يحيى كاشف تابع احمد بيك السكرى الذى كان كتخدا عند عثمان بيك الفقارى الكبير المتقدم ذكرهما .

ولما ظهر على بيك ، وأرسل محمد بيك ومن معه الى جهة قبلى — بعد قتل صالح بيك — كان الأمير يحيى فى جملة الأمراء الذين كانوا بأسيوط ووقع لهم ما تقدم ذكره من الهزيمة ، وتشتتوا فى البلاد ، فذهب الأمير يحيى الى اسلامبول وصحبته مملوكه المترجم . وأقام هناك الى أن مات .

فحضر الأمير على تابعه الى مصر — فى أيام محمد بيك — وتزوج ببنت أستاذه ، وسكن بحارة السبع قاعات ، واشتهر بها ، وعمل كتخدا عند سليمان أغا الوالى ... الى أن تقلد سليمان أغا المذكور أغاوية مستحفظان . فصار المترجم مقبولا عنده ، ويتوسط للناس عنده فى القضايا والدعاوى ، واشتهر ذكره من حينئذ ، وارتاح الناس عليه فى غالب المقتضيات . وباشر فصل الحكومات بنفسه

وكان قليل الطمع ، لين الجانب . ولما تقلد مخدومه الصنجقية ، بقى معه على حالته فى القبول والكتخدائية ، وزادت شهرته ، وتداخل فى الأمور الجسيمة عند الأمراء .

ولما حضر حسن باشا ، وخرج مخدومه من مصر — مع من خرج — وظهر شأن اسماعيل بيك والعلويين ، استوزره حسن بيك الجداوى ، وعظم أمره أيضا فى أيامه ، مع مباشرته لوازم مخدومه الأول وقضاء أشغاله سرا .

واشترى دار مصطفى أغا الجراكسة — التى بجوار العربى بالقرب من الفحامين — وانتقل من السبع قاعات وسكن بها .

وسافر مرارا الى الجهة القبلية سفيرا بين الأمراء البحرية والقبلية فى المراسلات والمصالحات ، وكذلك فى بعض المقتضيات بالبلاد البحرية .

ولم يزل وافر الحرمة ، حتى كانت دولة العثمانيين ، ونما أمر السيد أحمد المحروقى ، فانضوى اليه — لقرب داره منه — فقيده ببعض الخدم ، وجبى الأموال من البلاد الجسيمة ، فأرسله قبل موته الى جهة بشبيش ، فتمرض بها .

فلما تأمر حسن بيك — أخو طاهر باشا — على التجريدة الموجهة الى ناحية قبلى ، طلبوا رجلا من المصريين يكون رئيسا عاقلا ... يكون كتخدا ، فأشاروا على المترجم . فطلبه الباشا من السيد أحمد المحروقى ، فأرسل اليه بالحضور . فوصل فى اليوم الذى توفى فيه المحروقى . فأقام أياما حتى قضى أشغاله ، وسافر وهو متوعك . وتوفى بسمالوط فى ثالث القعدة ، وحضروا برمته فى ليلة الجمعة ثامنه ، وخرجوا بجنازته من بيته ، وصلوا عليه بالأزهر ، ودفنوه بالقرافة ... رحمه الله تعالى وغفر له .

المحرم

الاثنين غرته (أول ابريل ١٨٠٥ م) :

... ولما نزل الدلاة جهة البساتين وتلك النواحى، فأكلوا زروعات الناس ، ونهبوا دورا بدير الطين ، وطلبوا علوفات زائدة .. رتب لهم الباشا الجرايات والعليق والجامكية وقدرها ستمائة كيس فى كل شهر .

الاثنين ٨ منه (٨ ابريل ١٨٠٥ م) :

سافر أناس كثيرة لزيارة مولد سيدى احمد البدوى المعتاد ، وسافر أيضا الشيخ الشرقاوى وحضر هناك كاشف الغربية ، وحصل منه قبائح كثيرة ، وقبض على خلائق كثيرة وبلصهم وحبسهم، وخوزق أناسا كثيرة من غير ذنب ، ولا يقبل شفاعة أحد فى شىء !

وفيه : أشيع قدوم محمد على وحسن باشا الى مصر . وذلك أنهما لما سمعا بوصول طائفة الدلاة ، وأن أحمد باشا أرسل اليهم وطلبهم ليتعاضد بهم ، ويقوى بهم ساعده على الأرنؤودية ، عزموا على الرجوع الى مصر ليتلافوا أمرهم قبل استفحال الأمر .

الخميس ١١ منه (١١ ابريل ١٨٠٥ م) :

طلب الباشا المشايخ ، وعمر أفندى النقيب ، والوجاقلية وأرباب الديوان . فلما اجتمعوا ، قال لهم : « ان محمد على وحسن باشا راجعان من قبلى من غير اذن ، وطالبان شرا ... فاما أن يرجعا من حيث أتيا ، ويقاتلا المماليك ... واما أن يذهبا الى بلادهما ، أو أعطيهما ولايات ومناصب فى غير أراضى مصر . ومعى أمر من السلطان ، ووكيل مفوض ، ودستور مكرم : أعزل من أشاء ، وأولى من أشاء ، وأعطى من أشاء ، وأمنع من أشاء ! » .
ثم أخرج من جيبه ورقة صغيرة فى كيس حرير أخضر ، وأخبرهم أنها بخط السلطان بما ذكر .. « فأنتم تكونون معى ، وتقيمون عندى صحبة كبار الوجاقلية » . فقالوا له : « ان الشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ المهدى غائبون عن مصر » ، فقال : « نرسل لهم بالحضور » . فكتبوا لهم أوراقا من الباشا ، وأرسلوها اليهم مع السعاة يستعجلونهم للحضور . ثم اتفقوا على أن يبيت عنده بالقلعة فى كل ليلة اثنان من المتعممين ، واثنان من الوجاقلية ، وأعدوا لهم مكانا بالضربخانة

وأمر بأن يذهب الدلاة والعسكر الباقية الى ناحية طرا والجيزة . وأخذوا مدافع وجبخانة .

ووصل محمد على وحسن باشا الى ناحية طرا ومعهم عساكرهم . فلم يجسر الدلاتية على ممانعتهم .

وكاد لهم محمد على كيدا منها : أنه أرسل اليهم يقول : « انما جئنا فى طلب العلائف ، ولسنا مخالفين ولا معاندين » . فقال الدلاتية لبعضهم : « اذا كان الأمر كذلك .. فلا وجه للتعرض لهم ، واخلوا من طريقهم » .

ودخل الكثير من طوائف عساكرهم ، ورجع

الدلاتية الى أماكنهم بدير الطين وقصر العينى والآثار .

ونزل كتخدا الباشا وعمر بيك الأرنؤودى ، فتكلما مع الدلاتية ، فقالوا : « ان القوم لم يكن عندهم خلاف ولا تعدى .. واذا كنتم تمنعون وتحاربون من يطلب حقه ، فكذلك تفعلون معنا اذا خدمناكم زمنا ثم طلبنا علائفنا » .

فرجع الكتخدا وعمر بيك الأرنؤودى ، وتتابع دخول أولئك ، فى كل يوم طائفة بعد أخرى ، وسكنوا الدور والبيوت .

الاربعاء ١٧ منه (١٧ ابريل ١٨٠٥ م) :

ذهب اليهم سعيد أغا وقابجى باشا الأسودان ، وسلما على محمد على وحسن باشا ثم رجعا .

الجمعة ١٩ منه (١٩ ابريل ١٨٠٥ م) :

دخل محمد على بعد العصر ، وذهب الى بيته بالأزبكية ، ودخل حسن باشا فى صبحها ، ودخلت طوائفهم ، وأخذوا الحمير والبغال وجمال السقائين لينقلوا عليها متاعهم . ودخلوا البيوت ، وأزعجوا السكان ، وأخرجوهم من مساكنهم ، وفتحوا البيوت المسدودة ، وكثرت أخلاطهم بالأسواق . ومنع الباشا المشايخ والوجاقلية من الذهاب الى محمد على والسلام عليه .

واستمر الأمر على القلقلة واللقلقة والتوحش . وأخذ محمد على فى التدبير على أحمد باشا وخلعه .

صفر

الأربعاء غرته (اول مايو ١٨٠٥ م) :

استهل والأمر على ماهو عليه ، وسعيد أغا ساع ومجتهد فى اجراء الصلح ، ويركب تارة الى الباشا ، وتارة الى محمد على والى حسن باشا . ويطلع من المشايخ فى كل ليلة اثنان ، وكذلك اثنان من الوجاقلية يبيتون بمكان فى دار الضرب ، وينزلون فى الصباح .. ولم يعقل لذلك معنى .

وفى كل وقت يقع التشاحن بين أفراد العسكر فى الطرقات ، ويقتلون بعضهم بعضا . وحضر سليمان كاشف البواب ، ومر من خلف الجيزة ، وذهب الى جهة وردان ، وطلب الأموال من البلاد والكلف ، وعدى خازنداره الى بر المنوفية — ومعه عدة كثيرة من العربان — يطلب الأموال من البلاد . ومن عصى عليهم من البلاد ضربوهم ، ونهبوهم وحرقوا أجرانهم ، وكاشف المنوفية داخل منوف لايقدر على الخروج الى خارج .

وحضر أيضا محمد بيك الألفى الى ناحية أبو صير الملق ، وانتشرت طوائفه وعربانه بأقليم الجيزة . ومصر مشحونة بأخلاط العسكر ، وأجناسهم المختلفة ، داخل المدينة وخارجها ، والدالاتية جهة مصر القديمة وقصر العينى والآثار ودير الطين ... يأكلون الزروعات ، ويخطفون ما يجدونه مع الفلاحين والمارين ، ويأخذون ما معهم ، ويخطفون النساء والأولاد .. بل و ... فى الرجال الاختيارية !

وفيه : حضر سكان مصر القديمة ، نساء ورجالا ، الى جهة الجامع الأزهر يشكون ويستغيثون من أفعال الدالاتية ، ويخبرون أن الدالاتية قد أخرجوهم من مساكنهم وأوطانهم قهرا عنهم ، ولم يتركوهم يأخذوا ثيابهم ومتاعهم ... بل ومنعوا النساء أيضا عندهم ، وما خلص منهم الا من تسلق ونط من الحيطان .. وحضروا على هذه الصورة . فركب المشايخ الى الباشا ، وخاطبوه فى أمرهم . فكتب فرمانا خطابا للدالاتية بالخروج من الدور ، وتركها الى أصحابها ، فلم يمتثلوا ولم يسمعوا ذلك . وخوطب الباشا ثانيا ، وأخبروه بعصيانهم ، فقال : « انهم مقيمون ثلاثة أيام ، ثم يسافرون » .

وزاد الضجيج والجمع ، فاجتمع المشايخ فى

صبحها ، يوم الخميس بالأزهر ، وتركوا قراءة الدروس ، وخرجت سرية من الأولاد الصغار يصرخون بالأسواق ، ويأمرون الناس بغلق الحوانيت وحصل بالبلدة ضجة ، ووصل الخبر الى الباشا بذلك ، فأرسل كتخداه الى الأزهر فلم يجد به أحدا .

وكان المشايخ انتقلوا بعد الظهر الى بيوتهم لأغراض نفسانية ، وفشل مستتمر فيهم . فلما لم ير أحدا ذهب الى بيت الشيخ الشرقاوى ، وحضر هناك السيد عمر أفندى وخلافه ، فكلموه وأوهموه ، ثم قام وانصرف . وفى حال خروجه رجمه الأولاد بالحجارة ، وسبوه ، وشتموه . وبقى الأمر على السكوت الى يوم الجمعة عاشره .. والمشايخ تاركون الحضور الى الأزهر . وغالب الأسواق والدكاكين مغلوقة ، واللغط والوسوسة دائران . وبطل طلوع المشايخ والوجاقلية ومبيتهم بالقلعة .

وفى ذلك اليوم : نزل أحمد باشا من القلعة ، ودخل بيت سعيد أغا . وذلك أنه ورد قاصد من اسلامبول وعلى يده تقليد لمحمد على بولاية جدة . فامتنع من طلوع القلعة . فوقع الاتفاق على أن الباشا ينزل الى بيت سعيد آغا ، ويخلع على محمد على هناك . فلما حضر الباشا هناك ، وحضر محمد على وحسن باشا وأخوه عابدى بيك ، وتقلد محمد على باشا ولاية جدة ، ولبس فروة وقاووقا ، وخرج يريد الركوب ... ثارت عليه العسكر ، وطلبوا منه العلوفة . فقال لهم : « هاهو الباشا عندكم » وركب هو وذهب الى داره بالأزبكية ، وصار يفرق وينثر الذهب بطول الطريق . ثم ان العسكر ساروا الى أحمد باشا ومنعوه من الركوب . فلم يزل الى بعد الغروب . فلاطفهم حسن باشا ووعدهم . ثم ذهب مع حسن باشا الى داره وأشيع فى المدينة حبسه ، وفرح الناس وباتوا مسرورين .

السبت ١١ منه (١١ مايو ١٨٠٥ م)

فلما طلع النهار — يوم السبت — تبين أنه طلع ثانيا الى القلعة فى آخر الليل ، وطلع صحبته عابدى بيك ... فاغتم الناس ثانيا .

وفى ذلك اليوم : طلب الباشا من ابن المحروقى وجرجس الجوهرى ألفى كيس . وأشيع أنه عازم على عمل فردة على أهل البلد ، وطلب أجرة الأملاك بموجب قوائم الفرنساوية .

وفيه : ركب الدلاة ، وذهبوا الى قليوب ، ودخلوها واستولوا عليها وعلى دورها ، وربطوا

قليوب

خيولهم على أجرانها ، وطلبوا من أهلها النفقــا والكلف ، وعملوا على الدور دراهم يطلبونها منهم فى كل يوم ، وقرروا على دار شيخ البلد الشواربى كل يوم مائة قرش ، وحبسوا حريمهم عن الخروج — وكان الشواربى بمصر — فوصل اليه الخبر بذلك .

واستمروا على ذلك حتى أخذوا النساء والبنات والأولاد ، وصاروا يبيعونهم فيما بينهم .

وبعد أيام ، أرســل اليهم محمــد على ، وقرر لهم الكلف على البلاد ، فصاروا يقبضونها ، ومن عصى عليهم ضربوه ونهبوه . وأرســلوا الى بلدة يقال لها أبو الغيط ، فامتنعت عليهم ، وخرج أهلها ودفنوا متاعهم بالجزيرة المقابلة للقرية . فركبــوا عليهم وحاربوهم ، فقتل من الفلاحين زيادة عن مائة شخص . ودلهم بعض النــاس من الفلاحين عــلى خباياهم بالجزيرة ، فذهبوا اليها واستخرجوها ... وكانت أشياء كثيرة ، والأمر لله وحده لاشريك له !

والمشايخ تاركون الحضور الى الأزهر . وغالب الأسواق والدكاكين مغلوقة . وبطل طلوع المشايخ والوجاقلية ومبيتهم بالقلعة . فحضر الأغا الى نواحى الأزهر ، ونادى بالأمان وفتح الدكاكين فى العصر . فقال الناس : « وأى شيء حصل من الأمان .. وهو يريد سلب الفقراء ، ويأخذ أجر مساكنهم ، ويعمل عليهم غرامات ! » وباتوا فى هرج ومرج .

الأحد ١٢ منه (١٢ مايو ١٨٠٥ م) :

ركب المشايخ الى بيت القاضي ، واجتمــع به الكثير من المتعممين والعامة والأطفال ، حتى امتلأ الحوش والمقعد بالناس ، وصرخوا بقولهم : « شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم » . ومن الأولاد من يقول : « يالطيف .. » . ومنهــم من يقول : « يارب يامتجلى .. أهلك العثملى ! » . ومنهم من يقول : « حسبنا الله ونعم الوكيل » . وغير ذلك .

وطلبوا من القاضى أن يرسل بحضار المتكلمين فى الدولة لمجلس الشرع . فأرسل الى سعيد أغا الوكيل ، وبشير أغا — الذى حضر قبل تاريخه — وعثمان أغا قبى كتخدا ، والدفتردار والشمعدانجى. فحضر الجميــع ، واتفقــوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات .. ففعلوا ذلك ، وذكروا فيــه تعــدى طوائف العسكر ، والايذاء منهم للناس ، واخراجهم من مساكنهم ، والمظالم والفرد وقبض مال الميرى المعجل ، وحق طرق المباشرين ، ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك . وأخــذوه معهم ، ووعدوه برد الجواب فى ثانى يوم .

وفى تلك الليلة : أرسل الباشا مراسلة الى القاضى يرقق فيهــا الجواب ، ويظهــر الامتثال ، ويطلب حضوره اليه من الغد مع العلمــاء ليعمل معهــم مشورة . فلما وصلته التذكرة ، حضر بها الى السيد عمر أفندى ، واستشاروا فى الذهاب ، ثم اتفقوا على عدم التوجه اليه . وغلب على ظنهم أنها منه خديعة ، وفى عزمه شيء آخر ، لأنه حضر بعد ذلك من أخبرهم أنه كان أعد أشــخاصا لاغتيالهم فى الطريق ، وينسب ذلك الفعل لأوباش العسكر ... أن لو عوتب بعد ذلك !

الاثنين ١٣ منه (١٢ مايو ١٨٠٥ م) :

اجتمعوا ببيت القاضى ، وكذلك اجتمع الكثير من العامة فمنعوهم من الدخول الى بيت القاضى ، وقفلوا بابيه . وحضر اليهــم أيضا سـعيد أغا والجماعة ، وركب الجميع وذهبوا الى محمد على وقالوا له : « انا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ، ولا بد من عزله من الولاية». فقال : « ومن تريدونه يكون واليا ؟ » فقالوا له : « لا نرضى الا بك ، وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير » . فامتنع أولا ! ثم رضى . وأحضروا له

كركا وعليه قفطان ، وقام اليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى ، فألبساه له ... وذلك وقت العصر . ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة ، وأرسلوا الى أحمد باشا الخبر بذلك ، فقال : « انى مولى من طرف السلطان ، فلا أعزل بأمر الفلاحين ، ولا أنزل من القلعة الا بأمر من السلطنة ! » .

وأصبح الناس ، وتجمعوا أيضا .. فركب المشايخ — ومعهم الجم الغفير من العامة ، وبأيديهم الأسلحة والعصى — وذهبوا الى بركة الأزبكية حتى ملأوها . وأرسل الباشا الى مصر العتيقة ، فحمل جمالا من البقسماط والذخيرة والجبخانة ، وأخذ غلالا من عرصة الرميلة . وطلع عمر بيك الأرنؤودى — الساكن ببولاق — عند الباشا بالقلعة . ثم ان محمد على باشا والمشايخ كتبوا مراسلة الى عمر بيك وصالح أغا قوش — المعضدين لأحمد باشا المخلوع — يذكرون لهما ما اجتمع عليه رأى الجمهور من عزل الباشا ، ولا ينبغى مخالفتهم وعنادهم ، لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم ، وخراب الاقليم .

فأرسلا يقولان فى الجواب : « أرونا سندا شرعيا فى ذلك » .

الخميس ١٦ منه (١٦ مايو ١٨٠٥ م) :

اجتمع المشايخ ببيت القاضى ، ونظموا سؤالا ، وكتب عليه المفتون ، وأرسلوه اليهم . فلم يتعقلوا ذلك ، واستمروا على خلافهم وعنادهم . ونزل كثير من أتباع الباشا بثيابهم الى المدينة ، وانحل عنه طائفة الينكجرية ، ولم يبق معه الا طوائف الأرنؤود المغرضون لصالح أغا قوش وعمر أغا .

وفى هذه الأيام : حضر محمد بيك الألفى ومن معه من أمرائه وعربانه ، وانتشروا جهة الجيزة ، واستقر الألفى بالمنصورية — قرب الأهرام — وانتشرت أتباعه الى الجسر الأسود ، وأرسل مكاتبة الى السيد عمر أفندى والشيخ الشرقاوى ومحمد على باشا ، يطلب له جهة يستقر فيها هو وأتباعه . فكتبوا له بأن يختار له جهة يرتاح فيها ، ويتأنى حتى تسكن الفتنة القائمة بمصر .

واستمر أحمد باشا المخلوع ومن معه ، على الخلاف والعناد وعدم النزول من القلعة ، ويقول : « لا أنزل حتى يأتينى أمر من السلطان الذى ولانى » . وأرسل تذكرة الى القاضى بذكر فيها « أن العسكر الذين عنده بالقلعة ، لهم جامكية منكسرة فى المدة الماضية ، وأنهم كانوا محولين على مال الجهات ورفع المظالم سنة تاريخه معجلا ، فتقبضونها وترسلونها ، وتعينوا لنا ولهم خرجا ومصاريف الى حين حضور جواب من الدولة . وليس فى اقامتنا بالقلعة ضرر أو خراب على الرعية ، فاننا لا نريد اضرارهم » . فأجابه القاضى بقوله : « أما ما كان من الجامكية المحولة .. فانها لازمة عليكم من ايراد المدة التى قبضتموها فى المدة السابقة ، ومن قبيل ماذكرتموه من عدم ضرر الرعية ، فان اقامتكم بالقلعة ... هى عين الضرر ، فانه حضر يوم تاريخه نحو الأربعين ألف (١) نفس بالمحكمة ، وطالبون نزولكم ، أو محاربتكم ، فلا يمكننا دفع قيام هذا الجمهور .. وهذا آخر المراسلات بيننا وبينكم ... والسلام » .

فأجابوه بمعنى الجواب الأول . واجتهد السيد عمر أفندى النقيب ، وحرض الناس على الاجتماع والاستعداد ، وركب هو والمشايخ الى بيت محمد على باشا ، ومعهم الكثير من المشايخ والعامة والوجاقلية ، والكل بالأسلحة والعصى والنبابيت ، ولازموا السهر بالليل فى الشوارع والحارات ، ويسرحون أحزابا وطوائف ومعهم المشاعل ،

(١) من المرجح انهم « الف » ، اذ ان من البديهى استحالة اجتماع مثل هذا العدد بالمحكمة .

ويطوفون بالجهات والنواحى وجهات السور ، ثم اتفقوا على محاصرة القلعة . فأرسل محمد على باشا عساكره فى جهات الرميلة والحطابة ، وبطرق النافذة مثل : باب القرافة ، والحصرية ، وطريق الصليبة ، وناحية بيت آقبردى ، وجلسوا بالمحمودية والسلطان حسن ، وعملوا متاريس فى تلك الجهات . وذلك فى تاسع عشره .

ومنعوا من يطلع ومن ينزل من القلعة ، وأغلق أهل القلعة الأبواب ، ووقفوا على الأسوار يبكت بعضهم بعضا بالكلام ، ويترامون بالبنادق ، وصعدوا على منارة السلطان حسن يرمون منها الي القلعة .

الأربعاء ٢٢ منه (٢٢ مايو ١٨٠٥ م)

ركب السيد عمر أفندى والمشايخ ، ومعهم جمع كثير من الناس الى الأزبكية . وبعد ركوبهم ، حضر الجمع الكثير من العامة والعصب وطوائف الأجناد والرجاقلية ، وعصب النواحى ، وأهل الحسينية ، والعطوف ، والقرافة ، والرميلة ، والحطابة ، والصليبة ، وجميع الجهات — ومعهم الطبول والبيارق — حتى غصت بهم الأزقة ، فحضروا الى جهات الجامع الأزهر ، ثم رجعوا الى الأزبكية ولحقوا بالمشا

وخرج المشايخ من عند محمد على باشا ، وذهبوا إلى حسن بيك أخى طاهر باشا ثم رجعوا . واستمر الحال على ذلك الى ليلة الجمعة . فنزل بين المغرب والعشاء عدة من العسكر كبيرة ، وفتحوا باب القلعة بالرميلة ، وأرادوا الهجوم على المتاريس . فتابعوا عليهم بالرمى . فلم يزالوا يترامون الى بعد العشاء الأخيرة ثم رجعوا .

وعند ما سمع الناس صوت الرمى ، ذهبوا أرسالا الى جهات المتاريس ، ثم عادوا بعد رجوع المذكورين الى القلعة . كل ذلك ، وحسن باشا طاهر ومن معه من الأرنؤود يراعون من بالقلعة من جناسهم ، لأن غالبهم منهم .

الجمعة ٢٤ منه (٢٤ مايو ١٨٠٥ م) :

طلع عابدى بيك — أخو حسن باشا — الى القلعة . ونزل عمر بيك ، وأمروا برفع المتاريس ، وتفرق من بها . وأشيع نزول الباشا من الغد ، وبات الناس على ذلك ليلة السبت ، وهم على ماهم عليه من التجمع والسروح والحيرة .

السبت ٢٥ منه (٢٥ مايو ١٨٠٥ م) :

مر ثلاثة من العسكر السجمان بناحية مرجوش ، فصادفوا غلاما حماميا من اللاونجية ، خرج ليشترى قهوة . فأرادوا أخذه ، ففر منهم . فضربوه برصاصة وقتلوه . وذلك فى صلاة الحنفى . فتبعهم الناس ، فوصلوا الى النحاسين ، وعطفوا على خان الخليلى ، وأرادوا الخلوص الى جهة المشهد الحسينى . فأغلقوا فى وجوههم البوابة . فضربوا على المتبعين لهم ، فقتلوا شخصا وجرحوا آخر ، وخرجوا من القبو الى ناحية الصنادقية . وفرغ ما معهم من البارود ، فطلعوا الى ربع وكالة الشبراوى (١) ، فاجتمع الناس وكسروا باب الربع ، فنزلوا يريدون الهرب فقتلهم الناس .. وذهبت أرواحهم الى النار !

وفى ذلك اليوم : ركب السيد عمر أفندى فى قلة من الناس ، وذهب الى بيت حسن بيك أخى طاهر باشا . وكان هناك عمر بيك الذى نزل من القلعة ، فوقع بينه وبين السيد عمر مناقشة فى الكلام طويلة . ومن جملة ما قال : « كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم .. وقد قال تعالى : (أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم) ؟ » . فقال له : « أولو الأمر العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل ... وهذا رجل ظالم . وجرت

(١) فى بعض النسخ (وكالة جوهر اللالا) .

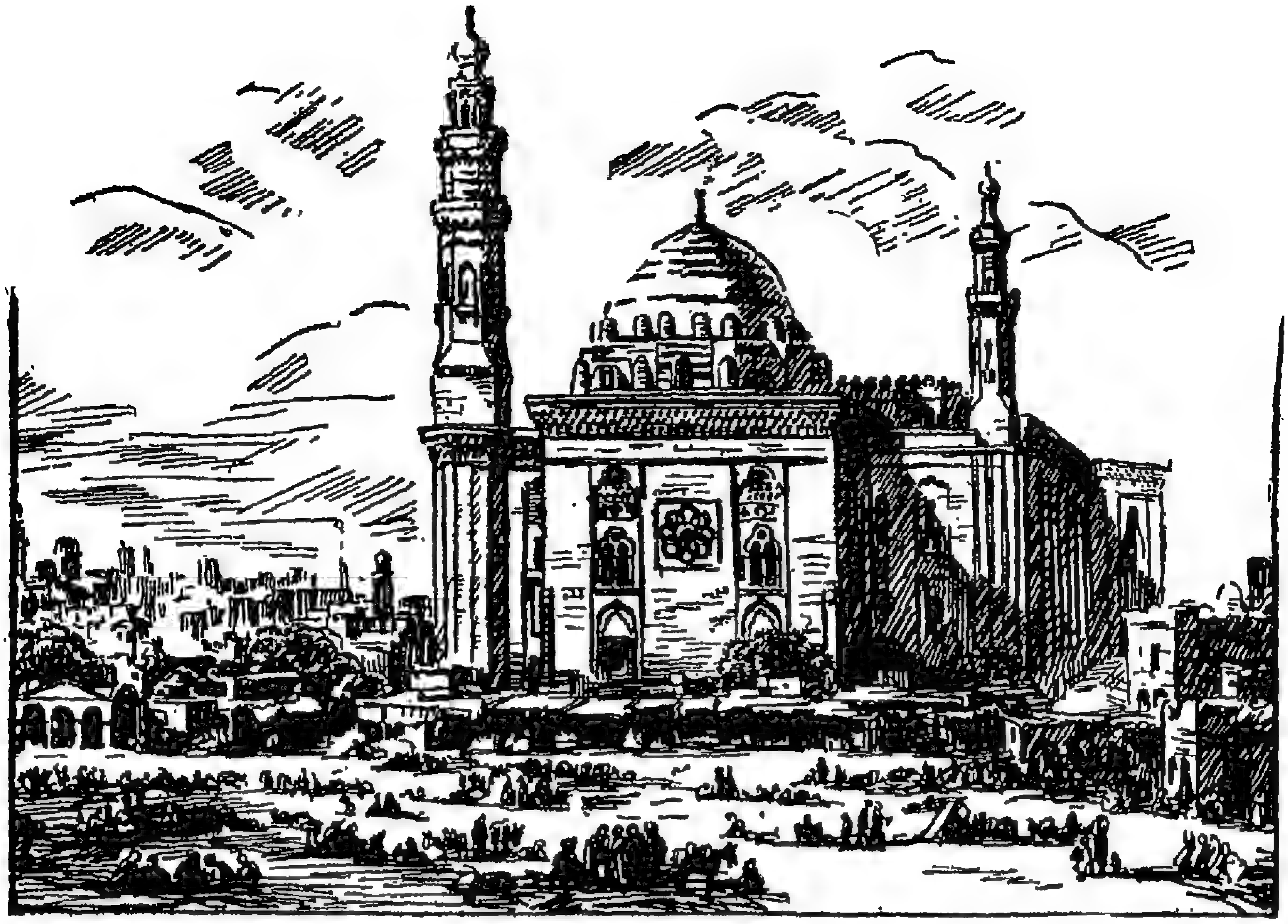

جامع السلطان حسن

العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة .. وهذا شيء من زمان ، حتى الخليفة والسلطان اذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه ويخلعونه » . ثم قال : « وكيف تحصروننا ، وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا ... نحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك ؟ » قال : « نعم .. قد أفتى العلماء والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم ، لأنكم عصاة » .

فقال : « ان القاضي هذا .. كافر ! » . قال : « اذا كان قاضيكم كافرا ، فكيف بكم ؟ ! وحاشاه الله من ذلك . انه رجل شرعي لايميل عن الحق » . وانفصل المجلس على ذلك .

وخاطبه الشيخ السادات في مثل ذلك . فلم يتحول عن الخلاف والعناد ... هذا والأمر مستمر ، من اجتماع الناس وسهرهم وطوافهم بالليل ، واتخاذهم الأسلحة والنبابيت ... حتى ان الفقير من العامة كان يبيع ملبوسه أو يستدين ويشترى به سلاحا ! وحضرت عربان كثيرة من نواحي الشرق وغيره .

الاثنين ٢٧ منه (٢٧ مايو ١٨٠٥ م) :

ركب السيد عمر وصحبته الوجاقلية ، وأمامه الناس بالأسلحة والعدد والأجناد وأهل خان الخليلي والمغاربة .. شيء كثير جدا ، ومعهم بيارق ولهم جلبة وازدحام ، بحيث كان أولهم بالموسكي وآخرهم جهة الأزهر . وانفصل الأمر على رجوع عمر بيك الى القلعة ، ونزول عابدى بيك ، بعد أن قضوا أشغالهم وعبوا ذخيرتهم واحتياجهم من الماء

والزاد والغنم ليلا ونهارا ، فى مدة الثلاثة أيام المذكورة . وقد كانوا أشرفوا على طلب الأمان . وتبين أنهم انما فعلوا ذلك من باب المكر والخديعة .

واتفق الحال على اعادة المحاصرة ، وصعد المغرضون الى القلعة ، ونزل أشخاص من المغرضين لأهل البلد اليهم . ورجع السيد عمر الى منزله . وأخذ فى أسباب الاحاطة بالقلعة كالأول . وذلك بعد العشاء ليلة الثلاثاء . ووقع الاهتمام فى صبحها بذلك ، وجمعوا الفعلة والعربجية،وشرعوا فى طلوع طائفة من العسكر والعرب وغيرهم الى الجبل ، وأصعدوا مدافع ، ورتبوا عدة جمال لنقل الاحتياجات والخبز ، وروايا الماء تطلع وتنزل فى كل يوم مرتين . وطلع اليهم الكثير من باعة الخبز والكعك والقهاوى .. وغير ذلك .

ربيع الأول

الخميس غرته (٣٠ مايو ١٨٠٥ م) :

استهل بيوم الخمس .. والأمر على ذلك مستمر من تجمع الناس وسهرهم بالليل فى سائر الأخطاط .

الثلاثاء ٦ منه (٤ يونية ١٨٠٥ م) :

تحرك العسكر وطلبوا العلوفة من محمد على . فقال لهم : « ليس لكم عندى علوفة حتى ينزل أحمد باشا من القلعة ونحاسبه ، وتأخذوا علائفكم منه » . فلم يمتثلوا ، وتركوا المتاريس التى حوالى القلعة ، فتفرقوا وذهبوا . فذهب جماعة من الرعية وتترسوا فى مواضعهم !

الخميس ٨ منه (٦ يونية ١٨٠٥ م) :

حضرت طائفة من العسكر الساكنين بناحية المظفر ، وقت الغروب ، وضربوا على من بالمتاريس من الأجناد والرعية على حين غفلة ، وخطفوا عمائم وأسلحة ، وأجلوهم عن المتراس وجلسوا به فتسامع أهل الرميلة ، فاجتمعوا وحضروا اليهم — وكبيرهم حجاج الخضرى واسماعيل حودة — وهجموا عليهم ، وقتلوا منهم أنفارا . وانحاز باقيهم الى الوكالة فأغلقوها عليهم فحضر ذو الفقار كتخدا ، ودافع عنهم وأخرجهم ، ثم أرسل الى محمد على ، وأمرهم بالهروب من تلك الجهة .

الجمعة ٩ منه (٧ يونية ١٨٠٥ م)

قتل العسكر شخصا بناحية المظفر ، وآخر بناحية قنطرة الأمير حسن .

السبت ١٠ منه (٨ يونية ١٨٠٥ م) :

حصل من بعض أفراد العسكر قبائح ، وقتلوا بعض أنفار وحمارين وبعلين . وقبض العامة أيضا على أشخاص منهم ، وقتلوا منهم أيضا . وحضرت طائفة من الأرنؤود ، وملكوا سبيل اسكندر بباب الخرق . وحضر أيضا طائفة ببيت السيد عمر أفندى النقيب ، فقام فهم الحرس الواقفون عند باب البيت فهرب منهم طائفة خالة ودخل منهم البعض، فحجزوهم . ووقع فى الناس هوزعات وكرشات ، ثم أحضر حسن أغا نجاتى المحتسب ، وأمر الأفندى بالمناداة ، فمر وأمامه المنادى يقول : « حسبما رسم السيد عمر الأفندى والعلماء لجميع الرعايا ، بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ويحترسوا فى أماكنهم وأخطاطهم ، واذا تعرض لهم عسكرى بأذية قابلوه بمثلها ، والا فلا تتعرضوا له » .

وأخذ الناس يعملون متاريس فى رؤوس الأخطاط ثم تركوا ذلك .

وحضر أيضا شخص من طرف محمد على ونادى بمثل ذلك ومعه أيضا شخص ينادى بالتركى بمعنى ذلك .

وفى الليلة الماضية حضر كتخدا محمد على ليلا ومعه فرمان أرسله أحمد باشا المخلوع الى الدلاة

يطلبهم للحضور ، ويذكر لهم أنه يجب عليهم معاونته صيانة لعرض السلطنة ، واقامة لناموسها وناموس الدين ، وأن الفلاحين محاصرونه ومانعون عنه الأكل والشرب .

فلما وصل ذلك الفرمان اليهم بقليوب ، أرسلوه الى محمد على ، وأرسله محمد على الى السيد عمر أفندى النقيب .

الأحد ١١ منه (٩ يونية ١٨٠٥ م) :

وقعت أيضا مناوشات ، وتعدى بعض العسكر ودخلوا باب زويلة ووصلوا الى العقادين . فخرجت عليهم طائفة المغاربة وغيرهم ، فتترس منهم جماعة بجامع الفاكهانى ، فحصروهم به ، وقبضوا على نحو العشرة أنفار ، فأخذهم السيد محمد المحروقى ، ودافع عنهم العامة ، وقتل من الفريقين بعض أنفار . وحضر عابدى بيك وطلبهم ، فسلموهم اليه ، ورجع .

وفى تلك الليلة أيضا : ذهب جماعة من العسكر الى جهة الرميلة يطلبون أنفارا منهم ساكنين بتلك الناحية ، فأخذ أهل الرميلة سلاحهم وحبسوهم عندهم . فذهبت امرأة من المتزوجات بهم فأخبرتهم ، فحضر منهم طائفة أواخر النهار وطلبوهم فلم يسلموا فيهم ، وحاربوهم وهزموهم الى جهة الصليبة . وقتل بينهم أنفار ، ورجع العسكر ... واختلطت القضية ، واشتبه أمرها على أهل البلد ... فلا يعرف كلا الفريقين الصاحب من العدو : فتارة يتشابك العسكر مع أهل البلد ، وكذلك أهل البلد معهم ، وتارة تتشابك فرقة منهم مع الكائنين بالقلعة وتارة الفريقان ليساعد بعضهم بعضا . واذا وقع بين الكائنين بنواحى حى الرميلة مع العسكر ، فرح من بالقلعة وأغروا أولاد البلد بهم . ومنهم من يغرى العسكر على أولاد البلد ويقولون لهم بلسانهم وبالعربى : « اضربوا الفلاحين » : ونحو ذلك . وبالجملة فهى قضية مشكلة بين أوباش مختلفة ، وطباع معوجة منحرفة . ومضت ليالى المولد الشريف ولم يشعر بها أحد !

وفيه : حضر كبار الدلاة . فخلع عليهم محمد على باشا خلعا وكساوى ، وسافروا . ثم ارتحلوا من قليوب يريدون الذهاب الى محاربة الألفى وأتباعه ومن معهم من العرب... فانهم أفحشوا فى نهب البلاد ونهب الأموال ما لم يسمع بمثله ولم يتقدم نظيره . فساروا على البلاد والقرى : يأخذون الكلف وينهبون ويقتلون ويفسقون فى النساء والأولاد ، ولم يذهبوا الى ما وجهوا اليه !

الأربعاء ١٤ منه (١٢ يونية ١٨٠٥ م) :

حضر كتخدا محمد على وجرجس الجوهرى الى بيت السيد عمر ، وحضر أيضا الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير والقاضى ، وتشاوروا على أمر ورأى رآه محمد على باشا .

وأما على باشا السلحدار — الذى جهة مصر القديمة — فأنه أخذ فى استمالة العسكر وفتنتهم ، وانضم اليه كثير منهم ، ووعدهم بعلائفهم ، وصار يراسل أحمد باشا سرا ، ويرسل اليه الخبز واللحم والسكر والذخيرة على الجمال من باب صغير فتحوه من عرب اليسار من داخل .

السبت ١٧ منه (١٥ يونية ١٨٠٥ م)

أجمع رأى على باشا السلحدار على مكيدة يصنعها وهو أنه يركب فيمن معه ، ويهجم على المتاريس من جهة الصليبة . وأرسل الى مخدومه يعلمه بذلك ، وأنه اذا هجم من تلك الناحية يساعده هو من القلعة برمى المدافع والقنابر على البلد والمتاريس فتنزعج الناس ، ويتم لهم مأمكروه .

وكتب رجب أغا وسليمان أغا — وهما كبيرا عسكر على باشا المذكور — تذكرة من عندهما

خطابا للسيد عمر أفندى النقيب وباقى المشايخ ، مضمونها : أنهما يريدان الحضور الى جهة القلعة ، ويسعيان فى أمر يكون فيه الراحة للفريقين وتسكين الفتنة ، ويلتمسان من المخاطبين أنهم يرسلون الى من بالمتاريس من العامة بأن يخلوا لهما طريقا ولا يتعرضوا لهما — فحضر الى السيد عمر أفندى النقيب من أخبره بذلك الاتفاق بعد الفجر ، قبل حضور التذكرة ، فأرسل الى من بالنواحى والجهات وأيقظهم وحذرهم . فاستعدوا وانتظروا وراقبوا النواحى ، فنظروا الى ناحية القرافة فرأوا الجمال التى تحمل الذخيرة الواصلة من على باشا الى القلعة ومعها أنفار من الخدم والعسكر ، وعدتهم ستون جملا ، فخرج عليهم حجاج الخضرى ومن معه من أهالى الرميلة ، فضربوهم وحاربوهم ، وأخذوا منهم تلك الجمال ، وقتلوا شخصين من العسكر ، وقبضوا على ثلاثة وحضروا بهم وبرؤوس المقتولين الى بيت السيد عمر فأرسلهم الى محمد على باشا ، فأمر بقتل الآخرين .

فلما رأى من بالقلعة ذلك ... رموا بالمدافع والقنابر على البلد وبيت محمد على وحسن باشا وجهة الأزهر ، ولم يزالوا يراسلون الرمى من أول النهار الى بعد الظهر فلم ينزعج أهل البلد من ذلك لما ألفوه من أيام الفرنسيس وحروبهم السابقة . ثم رموا كذلك من العشاء الى سادس ساعة من الليل ، فلم يجبهم أحد ، ولم يرموا عليهم شيئا من الجبل مع استعدادهم لذلك .

وأصبحوا يوم الأحد ، فراسلوا الرمى بطول النهار ، وكذلك ليلة الاثنين ويوم الاثنين . هذا وفى كل ليلة يطلع الى الجبل أربعة عشر جملا تحمل قرب الماء : على كل بعير أربع قرب ؛ وستة أقفاص خبز على ثلاثة جمال ، نقلتين فى كل يوم ، وأصعدوا جبخانة وجللا وقنابر ، وضربوا عليهم فى ذلك اليوم ضربا قليلا ... واستمر ذلك ليلة الثلاثاء ويوم الثلاثاء . فأكثروا الرمى ، وسقطت قنابر وجلل فى عدة أماكن مع الضرر القليل . وباتوا على ذلك ليلة الأربعاء ويومه ، وليلة الخميس ويومه الى آخر النهار . وبطل الرمى تلك الليلة . فقال الناس : « انهم تركوا ذلك احتراما لليلة الجمعة » .

الجمعة ٢٣ منه (٢١ يونية ١٨٠٥ م) :

وفى تلك الليلة حضر جماعة من أهل الأطارف ليلا وحرقوا باب الجبل ، وأوقدوا فيه النار . فظن أهل الجبل أن أهل القلعة يريدون الخروج ، فضربوا عليهم مدافع ، فتنبه من بالقلعة وأسرعوا الى جهة باب الجبل ، وضربوا الرصاص . فلما تحقق من بالجبل القضية رموا عليهم أيضا . وتسامع الناس كثرة ضرب الرصاص فلم يعلموا الحقيقة ، ورجع من أتى الى الباب من غير طائل . فلما طلع النهار ظهر الأمر .

وفى اليوم الثانى بعد الظهر ، تسلق جماعة من العسكر القلعاوية على سلالم صنعوها من حبال ، ونزلوا الى جهة المحجر لأخذ شىء من الأكل والشرب ، وهم نحو العشرين ، فتنبه الناس لهم ، واجتمعوا بالخطة وأخذوا ما أخذوه من أهل الدور من الخبز والدقيق وقرب ماء ، وصعدوا من حيث أتوا . وأعادوا الرمى بالمدافع والقنابر من عصر يوم الجمعة وليلة السبت ، واستمروا على ذلك . وسقط بسبب ذلك حيطان وبعض من أبنية الدور . وخرج كثير من الناس وبعدوا عن جهات الضرب — وخصوصا جهة الأزهر — وذهبوا الى ناحية الحسينية والأطارف ، وخرجت النساء هاربات الى تلك النواحى وبولاق ، وانزعجوا من أوطانهم .

الأحد ٢٥ منه (٢٣ يونية ١٨٠٥ م) :

أرسل كتخدا محمد على باشا الى السيد عمر ،

وأشار عليه بارسال العتالين والشيالين الى ناحية قلعة الفرنساوية التى بقنطرة الليمون ، لرفع المدفع الكبير الذى هناك . وأرسلوا أشخاصا من الانكليز يتقيدون بذلك . فجمعوا الرجال والأبقار وذهبوا الى هناك ، وأحضروه وأخرجوه من باب البرقية يريدون وضعه عند باب الوزير حيث مجرى السيل ليرموا به على برج القلعة .. واستمروا فى جره يومين .

وفى ذلك اليوم : نزل أيضا ستة أشخاص يريدون أخذ الماء من صهريج جهة الحطابة ، فضرب عليهم من هناك من المتترسين ، فهربوا وطلعوا من حيث نزلوا .

الثلاثاء ٢٧ منه (٢٥ يونية ١٨٠٥ م) :

نصبوا المدفع المذكور وضربوا به ، وضربوا أيضا من أعلى الجبل . ومن بالقلعة يضربون على البلد ، يواصلون الضرب بالمدافع والقنابر والبنبات الكبار ، والآلات المحرقة . واستمروا على ذلك الى ليلة الجمعة الأخرى فسكن الرمى تلك الليلة . وأصيب كثير من الدور والحيطان والأبنية . وأصابت أشخاصا قتلتهم ... ووزن بعض البنبات فبلغ وزنها — بما فيها — قنطارين !

ربيع الآخر

غرته (٢٩ يونية ١٨٠٥ م) :

وردت أخبار من ثغر سكندرية بورود قابجى — وهو صالح أغا الذى كان سابقا بمصر ببيت رضوان كتخدا ابراهيم بيك — وعلى يده جوابات بالراحة . فحصلت ضجة فى الناس ، وفرحوا ورمحوا بطول ذلك اليوم ، وعملوا شنكا تلك الليلة — التى هى ليلة السبت — ورموا صواريخ فى سائر النواحى ، وضربوا بنادق وقرابين بالأزبكية وخارج باب الفتوح وباب النصر والمدافع التى على أبراج الأبواب .

ولما سمع من بالقلعة ومن بمصر القديمة ظنوا أن العساكر ، الذين فى قلوبهم مرض ، تحاربوا مع أهل البلد ، فرموا من القلعة بالمدافع والبنب . وحضر على باشا ومن معه من جهة مصر القديمة . ونزل من القلعة طائفة من العسكر جهة عرب اليسار وتترسوا هناك . فاجتمع عليهم حجاج وأهل الرميلة ومن معهم من عسكر محمد على ، وتحاربوا مع المتترسين والواصلين ، وضربوا من القلعة على محاربيهم وعلى أهل البلد ، وكذلك من بالجبل ، ومن بالذنجزية يضربون على القلعة المدافع والسواريخ .

ونزل أيضا طائفة وهجموا على الذنجزية ، وأرادوا سد فلوة المدفع الكبير . فضربوا عليهم وقتل كبيرهم ومعه آخر ، وأخذوا سلاحهما ورؤوسهما وأحضروهما الى السيد عمر . وحصل بالبلدة تلك الليلة من ضرب النار من كل ناحية ما هو عجيب من المستغربات . واختلط الشنك بالحرب ، وصار الضرب من الجبل على القلعة بالبنب والمدافع والسواريخ ، وكذلك من القلعة على البلد وعلى الذنجزية ، ومنها على القلعة والمحاربين مع بعضهم البعض ، والشنك من كل جهة ، واجتماع الناس والعامة بالأخطاط والنواحى ، وضربوا طبولا ومزامير ونقرزانات .. وكانت ليلة من الغرائب . وأصبحوا على الحال الذى هم عليه من الرمى بالمدافع والبنب !

٣ منه (اول يولية ١٨٠٥ م) :

سافرت أنفار من الوجاقلية وغيرهم لملاقاة صالح أغا ، وصحبتهم طائفة من العسكر ، أرسلها محمد على باشا فى مركب لخفارته . وقد كانوا اتفقوا على سفر بعض المتعممين ، ثم بطل ذلك .

وأرسل السيد عمر أفندى باشجاويش والسيد عثمان البكرى وسلحدار محمد على والخواجة عمر الملطيلى وبكتاش وأحمد أودة باشا .

٥ منه (٣ يولية ١٨٠٥ م) :

اشيع وصول القابجى الى بولاق ليلا ، فخرج كثير من العامة لملاقاته أفواجا واصطفوا فى الأسواق للفرجة عليه ... واستمروا على ذلك الرج بطول النهار ولم يصل أحد . ثم تبين عدم وصوله ، وأنه وصل الى ثغر رشيد .

وفى ذلك اليوم ، وقت الشروق ، حصلت زلزلة عظيمة ، وارتجت الأرض نحو أربع رجات .

٦ منه (٤ يولية ١٨٠٥ م)

سافر جماعة من المتعممين وهم : السيد محمد الدواخلى ، وابن الشيخ الأمير ، والشيخ بدوى الهيثمى ، وابن الشيخ العروسى . واستمر الحال على ذلك اليوم ويوم الخميس والجمعة ، ولم يبطل رمى المدافع والبنب ليلا و نهارا فى غالب الأوقات ، ماعدا ليلة الجمعة ويومها الى العصر .

١١ منه (٩ يولية ١٨٠٥ م) :

وصل الخبر بوصول القابجى الى قليوب ، وأنه طلع الى بر فوة وسار من هناك . وحضر فى ذلك اليوم المشايخ الذين كانوا ذهبوا لملاقاته . فلما أشيع ذلك ، اجتمع الناس وطوائف العامة وخرجوا من آخر الليل ، وهم بالأسلحة والعدد والطبول ، الى خارج باب النصر . ووقفوا بالشوارع والسقائف للفرجة .. وكذلك النساء والصبيان ، وازدحموا ازدحاما زائدا . ووصل الأغا المذكور ، وصحبته سلحدار الوزير ، الى زاوية دمرداش ... ونزلا هناك . وعمل لهما اسماعيل الطوبجى الفطور ، فأكلاه وشربا القهوة وركبا ، وانجرت الطوائف والغوغاء من العامة وهم يضربون بالبنادق والقرابين والمدافع من أعلى سور باب النصر والفتوح . واستمر مرورهم نحو ثلاث ساعات .

وخرج كتخدا محمد على وأكابر الأرنؤود ، وطائفة من العسكر كبيرة والوجاقلية ، وكثير من الفقهاء العاملين رؤوس العصب ، وأهالى بولاق ومصر القديمة والنواحى ، والجهات مثل : أهل باب الشعرية ، والحسينية ، والعطوف ، وخط الخليفة ، والقرافتين ، والرميلة ، والحطابة ، والحبالة ، وكبيرهم حجاج الحضرى وبيده سيف مسلول ، وكذلك ابن شمعة شيخ الجزارين وخلافه ، ومعهم طبول وزمور ... والمدافع والقنابر والبنبات نازلة من القلعة . فلم يزالوا سائرين الى أن وصلوا الى الأزبكية ، فنزلوا ببيت محمد على باشا .

وحضر المشايخ والأعيان وقرأوا المرسوم الذى معه . ومضمونه الخطاب لمحمد على باشا والى جدة سابقا ، ووالى مصر حالا من ابتداء عشرين ربيع الأول (١٨ يونية ١٨٠٥) حيث رضى بذلك العلماء والرعية . وأن احمد باشا معزول عن مصر ، وأن يتوجه الى سكندرية بالاعزاز والاكرام حتى يأتيه الأمر بالتوجه الى بعض الولايات . وسكن صالح أغا القابجى المذكور ببيت الخواجا محمود حسن بالأزبكية ، وسكن السلحدار عند السيد محمد ابن المحروقى .

١٢ منه (١٠ يولية ١٨٠٥ م) :

ركب السيد عمر فى جمع كثير من العسكر من أولاد البلد والمغاربة والصعائدة والأتراك ، والكل بالأسلحة ، وذهب الى عند محمد على باشا وجلس عنده حصة ، وذهب الى القابجى وسلم عليه ، وذهب الى السلحدار أيضا وسلم عليه ورجع

وفيه : بطل الرمى من القلعة وكذلك أبطلوا الرمى عليها من الجبل والذنجزية ، مع بقاء المحاصرة

والمتاريس حول القلعة من الجهات ، ومنع الواصل اليهم ، واستمرار من بالجبل .

ويطلع اليهم فى كل يوم الجمال الحاملة للخبز وقرب الماء واللوازم . وأما الدلاة فاستقروا بمحلة أبى على ، وطلبوا الفرد والكلف من البلاد . ووصل محمد بيك الألفى الى دمنهور والبحيرة ، فتمنعوا عليه ، فحاصر البلد وضرب عليها ، وضربوا عليه أياما كثيرة .

وفيه : وقع بباب الشعرية مناوشة بين العسكر وأولاد البلد بسبب سكن البيوت ، وكذلك جهة باب اللوق وبولاق ومصر القديمة ، وقتل بينهم أنفار ، وقتل أيضا المتكلم بمصر القديمة . وحصلت زعجات فى الناس .

١٣ منه (١١ يولية ١٨٠٥ م) :

مر بعض أولاد البلد بجهة الخرنفش ، فضربه بعض عسكر «حجو» الساكن ببيت شاهين كاشف فقتله ، فثار أهل الناحية وتضاربوا بالرصاص . واجتمع العسكر بتلك الناحية ودخلوا من حارة النصارى النافذة من بين السورين ، وصعدوا الى البيوت وقبوا نقوبا ، وصاروا يضربون على الناس من الطبقان .

واجتمع الناس وانزعجوا ، وبنوا متاريس عند رأس الخرنفش ومرجوش وناحية الباسطية برأس الدرب ، وتحاربوا وقتل بينهم أشخاص من الفريقين ونهب العسكر عدة دور ، وتسلقوا على بيت حسن بيك مملوك عثمان الحمامى الحكيم وذبحوه ، ونهبوا بيته الذى برأس الخرنفش ، وكذلك رجل زيات ، وعبد صالح أغا الجلفى ، وحسن ابن كاتب الحردة .. وكانت واقعة شنيعة استمرت الى العصر .

وحضر الأغا وكتخدا محمد على ، فلم تسكن الفتنة . وحضر أيضا اسماعيل الطبجى . ثم سكن الحال بعد اضطراب شديد ، وبات الناس على ذلك.

وسبب هذه الحادثة : أن رجلا عسكريا اشترى من رجل خردجى ملاعق ثم ردها من الغد ... فلم يرض وتسابا ، فضربه العسكرى ، فصاح الخردجى وقال : « مايحل من الله ... يضرب النصرانى الشريف ! » . فاجتمع عليه الناس ، وقبضوا عليه وسحبوه الى بيت النقيب . فلما قربوا من البيت ضربوه وقتلوه وأخرجوه الى تل البرقية ورموه هناك . فحصل بسبب ذلك ما ذكر .

وفيه : أرسلوا صورة المكاتبة الواردة مع صالح أغا الى الباشا فلم يمتثل وامتنع عن النزول وقال : « أنا متول بخطوط شريفة ، وأوامر منيفة ، ولا أنعزل بورقة مثل هذه » . وطلب الاجتماع بصالح أغا والسلحدار يخاطبهم مشافهة ، وينظر فى كلامهم وكيفية مجيئهم . فلم يرضوا بطلوع المذكورين اليه .

١٤ منه (١٢ يولية ١٨٠٥ م) :

وقع بين حجاج الخضرى والعسكر مقاتلة جهة طيلون ، وقتل بينهم أشخاص .

وفيه : تواترت الأخبار بقدوم الأمراء المصريين القبليين الى جهة مصر .

وفيه : اجتمع الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وغالب المتعممين وقالوا : « ايش هذا الحال ؟ وما

المشايخ

تداخلنا فى هذا الأمر والفتن ؟ » . واتفقوا أنهم يتباعدون عن الفتنة ، وينادون بالأمان ! وأن الناس يفتحون حوانيتهم ويجلسون بها ، وكذلك يفتحون أبواب الجامع الأزهر ، ويتقيدون بقراءة الدروس ، وحضور الطلبة . وركبوا الى محمد على وقالوا له : « أنت صرت حاكم البلدة ، والرعية ليس لهم مقارشة فى عزل الباشا ونزوله من القلعة ، وقد أتاك الأمر فنفذه كيف شئت » . وأخبروه بأمرهم. فأجابهم الى ذلك .

وركب الأغا ، وصحبته بعض المتعممين ، ونادوا فى المدينة : بالأمن والأمان ، والبيع والشراء ، وأن الناس يتركون حمل الأسلحة بالنهار . واذا وقع من بعض العسكر قباحة رفعوا أمره الى محمد على ، وان كان من الرعية رفعوه الى بيت السيد عمر النقيب . واذا دخل الليل حملوا الأسلحة وسهروا فى أخطاطهم على العادة ، وتحفظوا على أماكنهم فلما سمع الناس ذلك أنكروه وقالوا : « ايش هذا الكلام ؟ حينئذ نصير طعمة للعسكر بالنهار وغفراء بالليل ! والله لانترك حمل أسلحتنا ولا نمتثل لهذا الكلام ، ولا هذه المناداة » .

ومر الأغا ببعض العامة المتسلحين فقبض عليهم ، وأخذ سلاحهم ، فازدادوا قهرا ، وباتوا على ذلك . واجتمعوا عند السيد عمر النقيب ، وراجعوه فى ذلك ، فاعتذر وأخبر بأن هذا الأمر على خلاف عن مراده !

١٥ منه (١٣ يولية ١٨٠٥ م)

حصل خسوف قمر كلى . وكان ابتداؤه من بعد العشاء الأخيرة بنصف ساعة ، وانجلى فى سابع ساعة ..

وأصبح يوم الجمعة : فحضر عند السيد عمر كتخدا بيك وعابدى بيك فى جمع من العسكر ، وجلسوا عنده ساعة ، وذكروا له أن فى عصرها يرسلون الى الباشا الكائن بالقلعة ، ويجتمعون عليه بالنزول . فان أبى ... جدوا فى قتاله ومحاربته . وذكروا أنه ممالىء الأمراء القبالى ، وهو الذى أرسل بحضورهم ، ومطمعهم فى المملكة فلزم الاجتهاد فى انزاله من القلعة ، ثم يتفرغون لمحاربة القادمين ويخرجون اليهم بالعساكر . ثم قاموا من عنده وذهبوا الى بيت القاضى .

وحضر « حجو أغا » ، الذى كان يحارب بالخرنفش . فرجع صحبته كتخدا بيك عند السيد عمر ليأخذ بخاطره ، وصحبته طائفة من العسكر فوقفوا متفرقين ، ودخل منهم طائفة الى بيت الشيخ الشرقاوى وباقيهم بالشارع ، وتجمع حولهم أهالى البلد بالأسلحة . فاتفق بينهم انطلاق بندقية — اما خطأ أو قصدا — فهاجت الناس وماجت ، واجتمعوا من كل ناحية ، وخرج جاويشية النقابة الى نواحى الدائرة ينادون فى الناس ويقولون : « عليكم ببيت السيد عمر النقيب .. يامسلمين انجدوا اخوانكم ! » .

وحصلت من تلك البندقية التى انطلقت فزعة عظيمة وصاح السيد عمر على الناس من الشباك يأمرهم بالسكون والهجوع ... فلم يسمعوا له ، ونزل الى أسفل ووقف بباب داره يصيح بالناس ، فلا يزدادون الا خباطا ، وأقبلوا طوائف من كل جهة ، فصار يأمرهم بالمرور والخروج الى جهة باب البرقية . ولم يزالوا على ذلك الى بعد صلاة الجمعة حتى سكن الحال .

وأقام « حجو » والكتخدا حتى تغديا مع السيد عمر ، وركبا وذهبا .

ونودى فى عصر ذلك اليوم بالأمان ، وفتح الحوانيت ، والبيع والشراء ، ولا يرفعون معهم السلاح ، بل يجعلونه معهم فى حوانيتهم تحذرا من غدر العسكر . وفتحوا أبواب الأزهر .

١٦ منه (١٤ يولية ١٨٠٥ م) :

فتح الناس بعض الحوانيت . ونزل المشايخ الى الجامع الأزهر وقرأوا بعض الدروس ، ففترت همم الناس ورموا الأسلحة ، وأخذوا يسبون المشايخ ويشتمونهم لتخذيلهم اياهم . وشمخ عليهم العسكر وشرعوا فى أذيتهم ، وتعرضوا لقتلهم واضرارهم .

١٧ منه (١٥ يولية ١٨٠٥ م) :

قتلوا أشخاصا فى جهات متفرقة . وضج الناس وأغلقوا الدكاكين ، وكثرت شكاويهم . وأقلقوا السيد عمر النقيب وهو يعتذر اليهم ويقول لهم : « اذهبوا الى الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير فهما اللذان أمرا الناس برمى السلاح » . فلما زادت الشكوى نادوا فى الناس بالعود الى حمل السلاح والتحذر .

وفيه : وصل الأمراء القبليون الى قرب الجيزة ، وعدى منهم طائفة الى البر الشرقى جهة دير الطين والبساتين وهم : عباس بيك ، ومحمد بيك المنفوخ ، ورشوان كاشف ، وهدموا قلاع طرا وساووها بالأرض .

١٨ منه (١٦ يولية ١٨٠٥ م) :

ركب محمد على وخرج الى جهة مصر القديمة ، وصحبته حسن باشا وأخوه عابدى بيك ، فنزل بقصر بلفيه ، وأقاموا الى العصر وخرج كثير من العسكر الى ناحية مصر القديمة ثم ركب محمد على وحسن باشا وأخوه فى آخر النهار ، وساقوا الى جهة البساتين ومعهم العساكر أفواجا . فلما قربوا من الأمراء المصريين تقهقروا الى خلف ، ورجعوا الى جهة قبلى . وقيل عدوا الى بر الجيزة ، وانضم اليهم على باشا الذى بالجيزة . واستمر محمد على ومن معه بمصر القديمة ، وتراموا بالمدافع .

١٩ منه (١٧ يولية ١٨٠٥ م) :

حضر أيضا جماعة من القبليين الى الجيزة ، وتراموا بالمدافع والبنب من البرين ، ذلك اليوم وليلة الأربعاء .

وفيه : عدى طائفة الدلاة الكائنين بالبر الغربى ، وانضم اليهم المقيمون بجزيرة بدران ، وحضروا الى بولاق وهجموا على البيوت ، وأخرجوا سكانها قهرا عنهم ، وأزعجوهم من أوطانهم ومسكنوها ، وربطوا خيولهم بخانات التجار ووكالة الزيت . فحضر الكثير من أهالى بولاق الى بيت السيد عمر ، وتظلموا وتشكوا . فأرسل الى كتخدا بيك يمنعهم من ذلك ، فلم يمتنعوا واستمروا على فعلهم وقبائحهم !

وفيه : طلب محمد على باشا دراهم سلفة من النصارى والتجار ، وقرروا فردة على البلاد والبنادر ، وهى أول طلبة طلبها بعد رآسته

وفيه : أرسلوا بنائين وخمسمائة فاعل لبناء ما تهدم من حصون طرا .

٢١ منه (١٩ يولية ١٨٠٥ م) :

وردت أخبار بوصول قبطان باشا الى ثغر سكندرية وأبى قير ، وصحبته مراكب كثيرة لايعلم المرسلون أخبار من بها . فاجتمع المشايخ واتفقوا على كتابة عرضحال يرسلونه اليه مع بعض المتعممين ، ثم اختلفت آراؤهم فى ذلك !

٢٥ منه (٢٣ يولية ١٨٠٥ م) :

ورد الخبر بورود سلحدار قبطان المذكور الى شلقان . فأعرضوا عن ذلك .

وفيه : وقع بين طائفة من العسكر الكائنين ببولاق وأهل البلد مناوشة ، بسبب نقب البيوت . وقتل بينهم أنفار ، واستظهر عليهم أهل بولاق .

٢٦ منه (٢٤ يولية ١٨٠٥ م)

وصل السلحدار الى بولاق ، وركب من هناك الى المكان الذى أعد له ، وصحبته مكاتبة الى أحمد باشا المخلوع . ومضمونها : الأمر بالنزول من القلعة ساعة وصول الجواب اليه من غير تأخير، وحضوره الى الاسكندرية . وجواب آخر الى محمد على بابقائه فى القائمقامية حيث ارتضاه الكافة والعلماء ، والوصية بالسلوك والرفق بالرعية .. والكلام المحفوظ المعتاد الذى لا أصل له ! وأن يقلد من قبله باشا على عسكر يعين ارساله الى البلاد الحجازية ، ويشهل له جميع احتياجاته من الجبخانة وسائر الاحتياجات واللوازم فأرسلوا الى أحمد باشا المخلوع بجوابه فقال : « حتى نطلع الى السلحدار الواصل ويخاطبنى مشافهة » .

٢٧ منه (٢٥ يولية ١٨٠٥ م) :

قبض المحافظون على خيال مقبل من جهة مصر القديمة يريد الطلوع الى القلعة من آخر النهار ، ووجدوا معه أوراقا . فأخذوه الى محمد على باشا فوجدوا فى ضمنها خطابا الى الباشا المخلوع مر على باشا وياسين بيك الكائنين بالجيزة ، مضمونها : « أنه فى صبح يوم الجمعة نطلق من الجيزة سبعة سواريخ تكون اشارة بيننا وبينكم ، فعندما ترونها .. تضربون بالمدافع والبنب على بيت محمد على ، ونحن نعدى الى مصر القديمة ، ويصل البرديسى من خلف الجبل الى جهة العادلية . ويأتى باقى المصريين من ناحية طرا ، ويقوم من بالبلدة على من فيها فيشغلون الجهات ويتم المرام بذلك » .

فلما اطلع محمد على على ذلك — وكان القاضى حاضرا عنده — اشتد غيظه على ذلك الرجل ، ووجده من الأكراد .. فاستجار بالقاضى . فلم يجره ، وأمر به ، فأخذوه وقتلوه ، ورموه ببركة الأزبكية .

٢٨ منه (٢٦ يولية ١٨٠٥ م) :

أحضروا سبعة رؤوس وعلقوها على السبيل المواجه لباب زويلة . ذكروا أنها من ناحية دمنهور، وعلى أحدها ورقة مكتوبة أنها رأس شاهين بيك الألفى ، وأخرى سلحداره ، وهى متغيرة جدا ومحشوة تبنا ، ولا يظهر لها خلق ، ولم يكن لذلك صحة .

وفيه : أخبر الاخباريون بأن الألفى ارتحل من دمنهور ، ولم ينل منها غرضه ، وأنه كبس على سليمان كاشف البواب ونهب مامعه ، وقيل انه قتل وفى رواية وقع الى البحر ، وهرب باقى أتباعه الى جهة المنوات فى أسوأ حال ، وأخذ منه شيئا كثيرا .. وهو ما جمعه فى هذه السرحة ، وذلك خلاف ما جمعه فى العام الماضى عندما كان كاشفا بمنوف .. ومن ذلك أنه لما قتل موسى خالد ، أخذ منه مالا كثيرا ، وذلك خلاف ما دل عليه من خباياه

وفيه : طلع السلحدار المذكور وصحبته صالح أغا القابجى ، الذى وصل قبله الى القلعة ، واجتمع بأحمد باشا المخلوع وتكلما معه . فقال : « أنا لست بعاص ولا مخالف للأوامر ، وانما لصالح أغا وعمر أغا علائف نحو خمسمائة كيس باقية ، ولم يبق عندى شىء سوى ما على جسدى من الثياب . وقد أخذ العسكر المحاربون موجوداتى جميعا . فاذا طيبتم خواطرهما نزلت فى الحال » . فنزلا بذلك الجواب ، ثم ترددوا فى الكلام والعقد والابرام . ولم يحسن السكوت على شىء .

وفيه : وصل الأمراء القبالى الى حلوان . وعلى بيك أيوب دخل الى الجيزة صحبة من بها ، وسليمان بيك خارجها .

٢٩ منه (٢٧ يولية ١٨٠٥ م) :

عدى ياسين بيك من الجيـــزة الى متاريس الروضة — ولم يكن بها سوى الطبجية — فطلعوا اليهم وقبضوا على بعضهم ، وأخـذوا منهم ثلاثة مدافع ، وسدوا فالية المدفع الكبير ، وآخر رموه الى البحر . فثارت رجة بمصر القديمة والروضة ، وضربوا بالمدافع والزصاص .

ورجع الواصلون من الجيـزة الى أماكنهم . وحضر الألفى الى جهة الطرانة .

وفيه : حضر صالح أغا القابجى الى السيد عمر النقيب ، وأخبره أنهم تواعدوا مع أحمد باشا فى عصر غد من يوم السبت : اما أن ينزل ، أو يستمر على عصيانه .

فلما كان يوم السبت — فى الميعاد — أفرجوا عن ضعفاء الرعية الكائنين بالقلعة ، وكذلك النساء. بعدما أخذوا ما معهم من الأمتعة والثياب ، وأبقوا عندهم الشبان والأقوياء للمعاونة فى الأشـغال . وأظهروا المخالفة وامتنعوا من النزول ، وباتوا على ذلك . وكثر اللغط فى الناس .. وانقضى شهر ربيع الثانى على ذلك .

جمـــادى الأولى

الأحد غرته (٢٨ يولية ١٨٠٥ م)

ضربوا ثلاثة مدافع من القلعة وقت الشروق . وكأنها اشارة وعلامة لأصحابهم .

الاثنين ٢ منه (٢٩ يولية ١٨٠٥ م) :

سبح جماعة من الجيزة الى جهة انبابة . وكان ببولاق طائفة من العسكر يترامحون بجهة ديوان العشور ، فضربوا عليهم مدافع ، فحصل ببـولاق ضجة . وركب محمد على باشـــا أواخر النهار وذهب الى بولاق ، ونزل ببيت عمربيك الأرنؤودى ووصب جملة من العسكر ، وعدوا ليـلا وطلعوا ناحية بشـتيل ، وحضروا الى جهـة البـابة يوم الثلاثاء ، وتحاربوا مع من بها حتى أجلوهم عنها . وعملوا هناك متاريس فى مقابلتهم . واستمروا على ذلك يتضاربون بالمدافع .

السبت ٧ منه (٣ اغسطس ١٨٠٥ م) :

طلع بشير أغا القابجى وصالح أغا السلحدار الى القلعة ، وتكلموا مع أحمد باشا ومن معه . وقد كانت وردت مكاتبات من قبطان باشا فى أمر أحمد باشا .. ثم نزلوا ، وصحبتهم كتخدا أحمد باشا ، الى بيت سعيد أغا الوكيل ، وركبوا معه الى بيت محمد على باشا ، واختلوا مع بعضهم . ثم طلع صالح أغا وأربعة من عظمائهم .. ثم نزلوا .. ثم طلعوا ، وترددوا فى الذهاب والاياب ومراودة الخطـاب . وبات الكتخدا أسفل ، وطلب القلعاويون شروطا وعلائفهم الماضية وغير ذلك . وانتهى الكلام بينهم على نزول أحمد باشـا المخلوع فى يوم الاثنين وتسليم القلعة والجبخانة .

الاثنين ٩ منه (٥ اغسطس ١٨٠٥ م) :

طلبوا جمالا لحمل أثقالهم . فأرسلوا الى السيد عمر ، فجمع لهم من جمال الشواغرية مائتى جمل ، فنقلوا عليها متاعهم وفرشهم . وأنزل الباشا حريمه الى بيت مصـطفى أغا الوكيل ، ونزل كثير من عساكرهم وخدمهم ، وهم متغيرو الصور ، وذهب أكثرهم بعزالهم الى بولاق . ونهبوا بيوت الرعايا التى بالقلعة ، وأخذوا ما وجدوه فيها من المتاع . وطلع حسن أغا سرششمه بجملة من العسكر الى القلعة . وانقضى ذلك اليـوم ولم ينقض نزولهم . وحضر الوالى أيضا وقت العشاء الى بيت السيد عمر وطلب خمسين جملا .. فلم يتيسر الا بعضها !

الثلاثاء ١٠ منه (٦ اغسطس ١٨٠٥ م) :

أنزلوا باقى متاعهـم . ونزل الباشـا المخلوع

من باب الجبل فى رابع ساعة من النهار عـلى جهة باب النصر ، ومر من خارجه الى جهة الخروبى . وذهب الى بولاق ، وصحبته كتخـدا محمـد على باشا ، وعمر بيك ، وصالح أغا قوش . وأنزل صحبته مدافع تعوق بعضها عند الذنجزية لضعف الاكاديش . وسكن ببيت السـيد عمر النقيب . وسكن صالح أغا ببيت شيخ السادات وذلك عاشر جمادى الأولى .

واطمأن النـاس بعض الاطمئنـان مـع بقاء التحـرز وأرسـل السـيد عمر فنادى تلك الليلة باستمرار الناس على التحرز والسهر وضبط الجهات ... فان القوم لا أمان لهم ، وانحشروا فى داخل المدينـة والوكائل والبيـوت ، ولا يتركون قبائحهم .

وأما الأمراء المصرلية ، فانهم وصـلوا الى التبين ، واجتمعوا هناك ، ماعدا على بيـك أيوب وسليمان بيك وعباس بيك ، فانهم بالجيزة مع على باشا وياسين بيك . وأما الدالاتية الأنجاس فانهم مستمرون على نهب البلاد وسلب الأموال وأذية العبـاد . ونهبـوا كاشف الغربية وهجموا على سمنود — وهى مدينة عظيمة — فنهبوا بيوتها وأسواقها ، وأخذوا ما فيها من الودائع والأموال وسبوا النساء ! وفعلوا فعـالا شنيعة تقشعر منها الأبدان ، ثم انتقلوا الى المحـلة الكبرى .. وهم الآن بها .

وأما محمد بيك الألفى فانه حاصر دمنهور مدة مديدة ، فلم يتمكن منها ، ثم ارتحل عنهـا ورجع مقبلا ووصل الى ناحية الطرانة . وأما قبطان باشا فانه لم يزل مقيما على ساحة أبى قير .

الخميس ١٢ منه (٨ اغسطس ١٨٠٥ م) :

وصـلت الأخبـار بذهاب قبطان باشـا الى سكندرية .

الأحد ١٥ منه (١١ اغسطس ١٨٠٥ م) :

نزل أحمـد باشـا المخلوع الى المراكب من بولاق ، وسافر الى جهة بحرى بعيـاله وأتبـاعه المختصين به ، وتخلف عنـه كتخـداه وعمر بيك وصالح قوش والدفتردار وكثير من آتباعه ، ولم يسهل بهم مفارقة أرض مصر وغنائمها .. مع أنهم مجتهدون فى خرابها !

وفيـه : وصل الألفى الكبير والصـغير الى بر الجيزة .

الاثنين ١٦ منه (١٢ اغسطس ١٨٠٥ م)

اتفق جماعة من الأرنؤود وقصدوا الذهاب الى بر الجيزة ، فوصل خبرهم الى محمد على باشا ، فأرسل اليهم عسكرا ، ومعهم حجو ، فلحقهم عند المعادى بحرى بولاق ، فقتلوا منهم نحو العشرين وهرب باقيهم وتفرقوا .

وفيه : بنى حجاج الخضرى حائطا وبوابة على الرميلة عند عرصات الغلة .

الأربعاء ١٨ منه (١٤ اغسطس ١٨٠٥ م) :

قبض محمد على باشا على جرجس الجوهرى ومعه جماعة من الأقباط ، فحبسهم ببيت كتخداه ، وطلب حسابه من ابتداء سنة خمس عشرة ، وأحضر المعلم غالى الذى كان كاتب الألفى بالصعيد وألبسه منصبه فى رآسة الأقباط ، وكذلك خلع على السيد محمد بن المحروقى خلع الاستمرار على ما كان عليه أبوه من أمانة الضربخانة وغيرها .

وفى تلك الليلة : قتـل شخص كبير بيكباشى تحت بيت الباشـا بالأزبكيـة ، وضربوا لمـوته مدفعا ... وذلك لأمر نقموه عليه .

وفيه : سافر كتخـدا بيك الى جهة المنوفية ، وقبض على كاشفها ، وأخذ مامعه من الأموال التى

جمعها من منهوبات البلاد ، ودل على ودائعه وأخذها أيضا .. ووجد له غلالا كثيرة ومواشى وغير ذلك .

الجمعة ٢٠ منه (١٦ اغسطس ١٨٠٥ م – ١١ مسرى ١٥٢١ ق) :

أوفى النيل المبارك أذرعه ، ونودى بذلك . وأشيع فى ذلك اليوم وصول فرقة من الأمراء المصريين من خلف الجبل . وبات الناس مستعدين للفرجة على موسم الخليج على العادة . فأمر الباشا باخراج الخيام والنظام الى ناحية الجسر وعمل الحراقة ، ثم أمر بكسر السد ليلا . فما طلع النهار الا والماء يجرى فى الخليج ، ولم يذهب الباشا ولا القاضى ولا أحد من الناس ، ولم يشعروا بذلك .

وكان قد بلغه ورود الأمراء ، فتأخر عن الخروج ... وهم ظنوا خروجه مع العسكر الى خارج المدينة .

وفى وقت الشروق من ذلك اليوم : وصل طائفة من الأمراء الى ناحية المذبح ، وكسروا بوابة الحسينية ، ودخلوا من باب الفتوح فى كبكبة عظيمة وخلفهم تقاقير كثيرة وجمال وأحمال ، فشقوا من بين القصرين حتى وصلوا الى الأشرفية . وشخص لهم الناس ، وضجوا بالسلام عليهم ويقولهم : « نهار مبارك وسعيد .. والحمد لله على السلامة » . وشخص الناس وبهتوا وخمنوا التخامين . فلما وصلوا عطفة الخراطين افترقوا فرقتين ... فدخل عثمان بيك حسن وشاهين بيك المرادى وأحمد كاشف سليم وعباس بك وغيرهم : كشاف وأجناد ومماليك وعبيد كثيرة نحو الألف ، وخلفه كل طائفة تقاقير وهجن ، وبأيديهم البنادق والسيوف والأسلحة . ومروا بالجامع الأزهر ، وذهبوا الى بيت السيد عمر والشيخ الشرقاوى . فامتنع السيد عمر من مقابلتهم ... فدخلوا الى بيت الشيخ الشرقاوى ، وحضر عندهم السيد عمر . فطلبوا منهم النجدة وقيام الرعية . فقالوا لهم : « هذا لا يصح ، ولم يكن بيننا وبينكم موعد ولا استعداد ، والأولى ذهابكم والا أحاطت بنا وبكم العساكر وقتلونا معكم » .

فعند ذلك ركبوا وخرجوا من باب البرقية ، وبعد خروجهم حضر فى أثرهم حسن بيك الأرنؤودى فى عدة وافرة من العسكر ، وهم مشاة ، وخرج خلفهم فوجدهم خرجوا الى الخلاء ، فرجع على أثره .

وأما الفرقة الأخرى ، فانهم وصلوا الى باب زويلة ، وتقدموا قليلا الى جهة الدرب الأحمر . فضرب عليهم العسكر الساكنون هناك بالرصاص ، فرجعوا القهقرى الى داخل باب زويلة ، وأرادوا الدخول الى جامع المؤيد والكرنكة بتلك الناحية . فضرب عليهم المغاربة والمرابطون هناك ، فأصيب منهم أشخاص ... وقوى جأش العسكر الذين جهة الدرب الأحمر لما سمعوا ضرب الرصاص ،

عطفة الخرنفش

وتتبه غيرهم أيضا ؛ واجتمعوا لمعاونتهم ، وانصرع منهم ثلاثة أشخاص وقعوا الى الأرض .

فلما عاينوا ذلك ، ولوا الأدبار . وتبعهم العسكر يضربون فى أقفيتهم ، فلم يزالوا فى سيرهم الى النحاسين .. وقد أغلق الناس بوابة الكعكيين ، وكذلك بوابة الحراطين ، وبوابة البندقانيين .

وكان « حجو » الساكن بالخرنفش عندما سمع بدخولهم لحقه الفزع والخوف ، فخرج من بيته بعسكره يريد الفرار ! وخرج من عطفة الخرنفش وذهب الى جهة باب النصر لظنه أنه لايمكنه الخروج من باب الفتوح الذى دخلوا منه ... فلما وصل الى باب النصر وجده مغلقا ، وامتنع المرابطون عليه من فتحه . فعاد على أثره وذهب الى باب الفتوح ، فلم يجد به أحدا ، فاطمأن حينئذ وعلم سوء رأيهم فأغلقه وأجلس عنده جماعة من أتباعه .

ورجع على أثره الى جهة بين القصرين ، فصادف ادبار الجماعة والعسكر فى أقفيتهم بالرصاص ، فعندذلك قوى جأشه وضرب فى وجوههم هو ومن معه من العسكر . فاختبل القوم وسقط فى أيديهم ، وعلموا أنه قد أحيط بهم ، فنزلوا عن خيولهم ، ودخل منهم جماعة كثيرة جامع البرقوقية ، وذهب منهم طائفة كبيرة بخيولهم نحو المائة الى جهة باب النصر فوجدوه مغلقا ، فنزلوا أيضا عن خيولهم ودخلوا المطوف ، ونطوا من السور الى الخلاء ، وتفرق منهم جماعة اختفوا فى الجهات وبعض الوكائل والبيوت .

ولما انحصر الذين دخلوا جامع البرقوقية وأغلقوا على أنفسهم الباب... احتاطت بهم العسكر وأحرقوا الباب ، وتسور أيضا عليهم جماعة من العطفة التى بظاهر البرقوقية ، وقبضوا عليهم ، وعروهم ثيابهم وأخذوا مامعهم من الذهب والنقود والأسلحة المثمنة ، وذبحوا منهم نحو الخمسين مثل الأغنام ، وسحبوا نحو ذلك العدد بالحياة عرايا مكشوفو الرأس ، حفاة الأقدام ،
الأيدى .. يضربونهم ويصفعونهم على أق
وجوههم، ويسبونهم ويشتمونهم ويسحبو
وجوههم حتى ذهبوا بهم وبرؤوس القتلى
الباشا بالأزبكية ... وكان قداستعد للفرار
فى أمره ، ونزل الى أسفل يريد الركوب
بالعسكر داخلون عليه ومعهم الرءوس و
فى أيديهم . فعند ذلك سكن جأشه ، وامتلأ

ولما مثل بين يديه أحمد بيك — تابع ال
الذى كان أميرا بدمياط — وحسن شب
معهما ، قال لأحمد بيك : « ياأحمد بيك
فى الشرك » . فطلب ماء ، فحلّوا كتافه ، و
بماء يشرب ، فنظر لمن حوله وخطف يطق
وسط بعض الواقفين ، وهاج فيهم وأراد قتل
على باشا ، وقتل أنفارا . فقام الباشا وهر
فوق ! وتكاثروا عليه وقتلوه ، ووضعوا باقى
فى جنازير ، وفى أرجلهم القيود ، ور
بالحوش ، وهم على الحالة التى حضروا ف
العرى والحقارة والذلة .

السبت ٢١ منه (١٧ اغسطس ١٨٠٥ م) :

أحضروا الجزارين وأمروهم بسلخ الرؤ
يدى المعتقلين .. وهم ينظرون الى ذلك ، وأ
جماعة من الاسكافية فحشوها تبنا وخيطوه

الاثنين ٢٣ منه (١٩ اغسطس ١٨٠٥ م)

خرج عابدى بيك بعساكر الأرنؤود برا
الى جهة طرا ، فالتقى مع من بها من المصر
وكان بها ابراهيم بيك الكبير وابنه مرزو
وأمراؤهم — فقتل من عسكر الأرنؤود
كبيرة ، وولوا منهزمين ، وحضروا الى مصر
من مراكبهم مركبان فى ليلة الثلاثاء .

الثلاثاء ٢٤ منه (٢٠ اغسطس ١٨٠٥ م) :

قتلوا المنتقلين ماعدا حسن شبكة ومعه اثنان . قيل انهم عملوا على أنفسهم ثلثمائة كيس فأبقوهما . وقتلوا الباقى قتلا شنيعا ، وعذبوهم فى القتل من أول الليل الى آخره ، ثم قطعوا رءوسهم ، وحشوها تبنا ، ووسقوها فى مركب وأرسلوها الى سكندرية — وعدتهم ثلاثة وثمانون رأسا — وفيهم من غير جنسهم ، وأناس جربجية ملتزمون ، واختيارية التجأوا اليهم ورافقوهم فى الحضور وبعثوا من يوصلهم الى اسلامبول ، وكتبوا فى المراسلة أنهم حاربوهم وقاتلوهم ، وحاصروهم حتى أفنوهم واستأصلوهم ولم يبقوا منهم باقية ... وهذه الرؤوس رؤوس أعيانهم وأكابرهم . فكان عدة من قتل فى هذه الحادثة من المعروفين المنصبين : مراد بيك تابع عثمان بيك حسن ، وقبطان بيك تابع البردسى ، وسليم بيك الغربية ، وأحمد بيك الدمياطى ، وعلى بيك تابع خليل بيك ، ونحو الخمسة والعشرين من مماليكهم وأتباعهم .

ونجا حسن بيك شبكة واثنان معه دون أتباعه ، وباقيهم أشخاص مجهولة . وفيهم فرنساوية وأرنؤودية .. ولم يتفق للأمراء المصرية أقبح ولا أشنع من هذه الحادثة ، وربط الله على قلوبهم ، وأعمى أبصارهم ، وغل أيديهم !

الاربعاء ٢٥ منه (٢١ اغسطس ١٨٠٥ م) :

حضرت طائفة الدلاة الي ناحية الخانكة ، بعدما طافوا اقليم الغربية والمنوفية والشرقية والدقهلية ، وفعلوا أفعالا شنيعة من النهب والسلب والقتل والأسر والفسق .. ومالا يسطر ولا يذكر . ولا يمكن الاحاطة ببعضه !

وفيه : أفرجوا عن جرجس الجوهرى ومن معه على أربعة آلاف وثمانمائة كيس ، وأن يبقى على حاله . فشرع فى توزيعها على باقى الأقباط وعلى نفسه ، وعلى كبرائهم وصيارفهم ، ماعدا فلتيوس وغالى ، وحولت عليه التحاويل ، وحصل لهم كرب شديد ، وضج فقراؤهم واستغاثوا .

الجمعة ٢٧ منه (٢٣ اغسطس ١٨٠٥ م) :

خرج عدة كبيرة من العسكر الى ناحية الشرق لمحاربة الدلاة ... وأميرهم عمر بيك — تابع عثمان بيك الأشقر — ومحمد بيك المبدول ، وكثير من الأجناد المصرية ، وحسن باشا الأرنؤودى .

السبت ٢٨ منه (٢٤ اغسطس ١٨٠٥ م) :

رجع القرابة المشاة ، وذهب الخيالة خلفهم متباعدين عنهم بمرحلة . فكان شأنهم : أن الدلاة المذكورين اذا وردوا قرية نهبوها وأخذوا ماوجدوه فيها ، وأخذوا الأولاد والبنات وارتحلوا .. فيأتى خلفهم العرب التابعون خلفهم ، فيطلبون الكلف والعليق ، وينهبون أيضا ما أمكنهم ، ثم يرتحلون أيضا خلفهم ... فتنزل بعدهم التجريدة ، فيفعلون أقبح من الفريقين من النهب والسلب .. حتى ثياب النساء . وأخذ الدلاة من عرب العائد خمسمائة جمل ، وذهبوا على طريق رأس الوادى !

وفيه : ورد الخبر بوصول كتخدا بيك الى منوف ، وقبض على كاشفها وأخذ منه ماجمعه ، ثم انه فرد على البلاد التى وجد بها بعض العمار أموالا من ألف ريال فأزيد ، وحصر ذلك فى قائمة — وهى نحو الستين بلدا — وأرسل يستأذن فى ذلك ويطلب عدم الرفع عن شيء منها ليحصل قدرا يستعان به على علائف العسكر وجماكيهم .. وليكمل خراب الاقليم . وانقضى شهر جمادى الأولى .

٢ منه (٢٨ اغسطس ١٨٠٥ م) :

وصل ولدا محمد على باشا الى ساحل بولاق ، فركب أغوات الباشا واستقبلوهما وأحضروهما الى الأزبكية ، وعملوا لهما شنكا تلك الليلة .

٣ منه (٢٩ اغسطس ١٨٠٥ م) :

طلع محمد على باشا الى القلعة ، وأجلس ابنه الكبير بها . وضربوا له فى ذلك الوقت مدافع .

٤ منه (٣٠ اغسطس ١٨٠٥ م) :

رجع عابدى بيك ومن بصحبته من المصرلية من جهة الشرق ، وقد وصلوا خلف الدلاة الى حد العائد ثم رجعوا . وذهب الدلاة الى جهة الشام وا معهم من المال والغنائم والجمال والأحمال — وعدتها أكثر من أربعة آلاف جمل — وما نهبوه من البلاد ، وأسروه من النساء والصبيان وغير ذلك .

وكانوا من نقمة الله على خلقه . ولم يحصل من مجيئهم وذهابهم الا زيادة الضرر .. ولم يحصل للباشا المخلوع الذى استدعاهم لنصرته الا الخذلان . وكان فى عزمه وظنه أنهم يصيرون أعوانه وأنصاره ويستعين بهم وبطائفة الينكجرية ، على ازالة الطائفة الأخرى .... فانتحس بقدومهم ، وأورثه الله ذلهم . وتخلوا عنه وخذلوه ، وضاع عليه ماصرفه عليهم .. فى استدعائهم ، وملاقاتهم ، وخلعهم ، وتقدماتهم ومصارفهم وعلائفهم ، وخرجهم . ولم ينفعوه بنافعة .. بل كانوا من الضرر الصرف عليه وعلى الاقليم

وكان كلما خوطب أو عوتب فى أمر أو فعل يقول : « اصبروا حتى تأتى الدالاتية ، ويحصل بعد ذلك النظام » . فلم يحصل بوصولهم الا الفساد العام . وانتقضت دولته ، وانعكست قضيته !

وفيه : شرعوا فى عمل دفتر فردة على البلاد التى بقى فيها بعض الرمق !

٥ منه (٣١ اغسطس ١٨٠٥ م) :

حضر كتخدا بيك ليلا ، وأشار بابطال ذلك الدفتر لما فيه من الاشاعة والشناعة ، واتفق مع الباشا والمتكلمين أنه يفعل ذلك باجتهاده ورأيه ، ورجع فى تلك الليلة وشرع فى التحصيل مع الجور والعسف الزائد كما هو شأنهم .

وفيه : سافر أيضا جانم أفندى الدفتردار ، وسافر صحبته قابجى باشا الأسود ، المسمى بشير أغا .

وفيه : سافر بعض كبرائهم الى جهة السويس ليأتى بالمحمل .

١٢ منه (٧ سبتمبر ١٨٠٥ م)

ورد أحمد أفندى من سكندرية — وهوالذى كان أتى بالدفترداربة فى العام السابق ، ومنعه أحمد باشا خورشيد من الورود ، وكتبوا فى شأنه عرضحال من المشايخ والوجاقلية لمنعه وابقاء جانم أفندى ، واستمر بالاسكندرية الى هذا الوقت — وحضر الآن بمراسلة من قبطان باشا ، وأحضر صحبته تقريرا لسعيد أغا على الوكالة ، وابقائه على ماهو عليه ، ونظر الخاصكية لسليمان أغا حافظ .

١٤ منه (٩ سبتمبر ١٨٠٥ م) :

تغيب جرجس الجوهرى . فيقال انه هرب .. ولم يظهر خبره . وطلب محمد على فلتيوس وغالي وجرجس الطويل ،

١٥ منه (١٠ سبتمبر ١٨٠٥ م) :

حضر محمد كتخدا الألفى بجواب من مخدومه .

وقابل محمد على باشا ، وذهب الى بيته لقضاء أشغاله .

وفيه : وصلت القافلة والمحمل . وأراد الباشا نهب قافلة التجار . فصالحوا على أحمالهم بألف كيس . ودخل المحمل فى ذلك اليوم صحبة المسفر .

وفيه : طلب الباشا حسن أغا نجاتى المحتسب والأمير ابراهيم الرزاز ، وطلب أن يقلد حسن أغا كتخدا الحج ، والأمير ابراهيم دويدار ... بشرط أن يكلفا أنفسهما من مالهما . فاعتذرا بعدم قدرتهما على ذلك . فحبسهما وطلب من كل واحد منهما خمسمائة كيس ، وعزل حسن أغا ، وقلد عوضه آخر يسمى قاضى أوغلى على الحسبة .

١٦ منه (١١ سبتمبر ١٨٠٥ م) :

ظهر الخبر عن جرجس الجوهرى بأنه ركب من دير مصر العتيقة ، وذهب الى الأمراء المصرلية بناحية التبين .

١٧ منه (١٢ سبتمبر ١٨٠٥ م) :

توفى الشيخ محمد الحريرى مفتى الحنفية .

١٩ منه (١٤ سبتمبر ١٨٠٥ م) :

توفى حسن أفندى ابن عثمان الأماحى الخطاط .

وفيه : قلدوا على جلبى ابن أحمد كتخدا ، على كشوفية القليوبية . ولبس القفطان ، وركب باللازمين .

وفيه : سافر محمد كتخدا الألفى عائدا الى مخدومه ، وذهب صحبته السلحدار وموسى البارودى .

٢٠ منه (١٥ سبتمبر ١٨٠٥ م) :

تقلد الحسبة شخص يقال له عبد الله قاضى أوغلى ، وكذلك تقلد قبله بأيام ابراهيم الحسينى الزعامة ، وهو حليق اللحية ، وتقلد محمد من مماليك اسمعيل بيك — ويعرف بالألفى ، وهو زوج هانم ابنة بنت اسمعيل بيك — أغاوية مستحفظان .

وفيه : أفرجوا عن حسن أغا المحتسب وابراهيم الرزاز . وقرروا على الأول خمسة وستين كيسا ، وعلى الثانى خمسة عشر كيسا ... يقومان بدفعها .

وفيه : أنزلوا قوائم على البلاد والحصص التى كانت تحت التزام جرجس الجوهرى ... الى المزاد ، فاشتراها القادرون والراغبون .

٢١ منه (١٦ سبتمبر ١٨٠٥ م)

قلدوا ياسين بيك كشوفية بنى سويف والفيوم ، وكذلك لبسوا كاشفا على منفلوط وغيرها .

اواخره (اواخر سبتمبر ١٨٠٥ م) :

حضر محمد ، كتخدا الألفى ، والسلحدار ، وذكرا مطلوبات الألفى . وهو أنه يطلب كشوفية الفيوم وبنى سويف والجيزة والبحيرة ، ومائتى بلد التزام ، وأنه يأتى الى الجيزة ويقيم بها ، ويكون تحت طاعة محمد على باشا .. وتشاوروا فى ذلك أياما .

وأما باقى الأمراء المصرليين ، فانهم انتقلوا من مكانهم ، وترفعوا الى جهة قبلى بناحية بياضة ثم اتفق الرأى على أن يعطوهم من فوق جرجا ، وينزل بها الحاكم المولى عليها من العثمانية . وأن المصريين القبالى اقتسموا بينهم البلاد ، ويقومون بدفع المال والغلال الميرية ... وكل ذلك لا أصل له ولا حقيقة من الطرفين . وكتبوا للألفى مكاتبات بذلك ، وأن يكون فى ضمنهم .

وفى اواخره ايضا :

احتاج أيضا محمد على باشا الى باقى علوفة العسكر . فتكلم مع المشايخ فى ذلك ، وأخبرهم

بأن العسكر باق لهم ثلاثة آلاف كيس لا نعرف لتحصيلها طريقة ، فانظروا رأيكم فى ذلك وكيف يكون العمل ، ولم تبق الا هذه النوبة . ومن هذا الوقت اذا قبض العسكر باقى علائفهم سافروا الى بلادهم ، ولم يبق منهم الا المحتاج اليهم ، وأرباب المناصب ، ولا يأخذون بعد ذلك علائف .

فكثر التروى فى ذلك . ولغط الناس بالفردة وتقرير أموال على أهل البلد ، وانحط الأمر بعد ذلك على قبض ثلث الفائظ من الحصص والالتزام . فضج الناس وقالوا : « هذه تصير عادة .. ولم يبق للناس معايش » . فقال : « نكتب فرمانا ونلتزم بعدم عود ذلك ثانيا ونرقم فيه : لعن الله من يفعلها مرة أخرى ! » ، ونحو ذلك من التمويهات الكاذبة . الى أن رضى الناس ، واستقر أمرها ، وشرعوا فى تحريرها وطلبها .

رجب

السبت ١١ منه (٥ اكتوبر ١٨٠٥ م) :

سافر محمد كتخدا الألفى بالجواب المتقدم الى مخدومه ، بعد أن قضى أشغاله واحتياجاته من أمتعة وخيام وسروج وغير ذلك . وخرج ياسين بيك وباقى الكشاف المسافرون الى الجيزة ، وطلبوا المراكب حتى عز وجودها وامتنع ورودها من الجهة البحرية .

الاثنين ١٣ منه (٧ اكتوبر ١٨٠٥ م) :

سافر المذكورون بعساكرهم . وسافر أيضا على باشا ، سلحدار أحمد باشا خورشيد المنفصل ، الى سكندرية وأما قبطان باشا فانه لم يزل بثغر سكندرية .

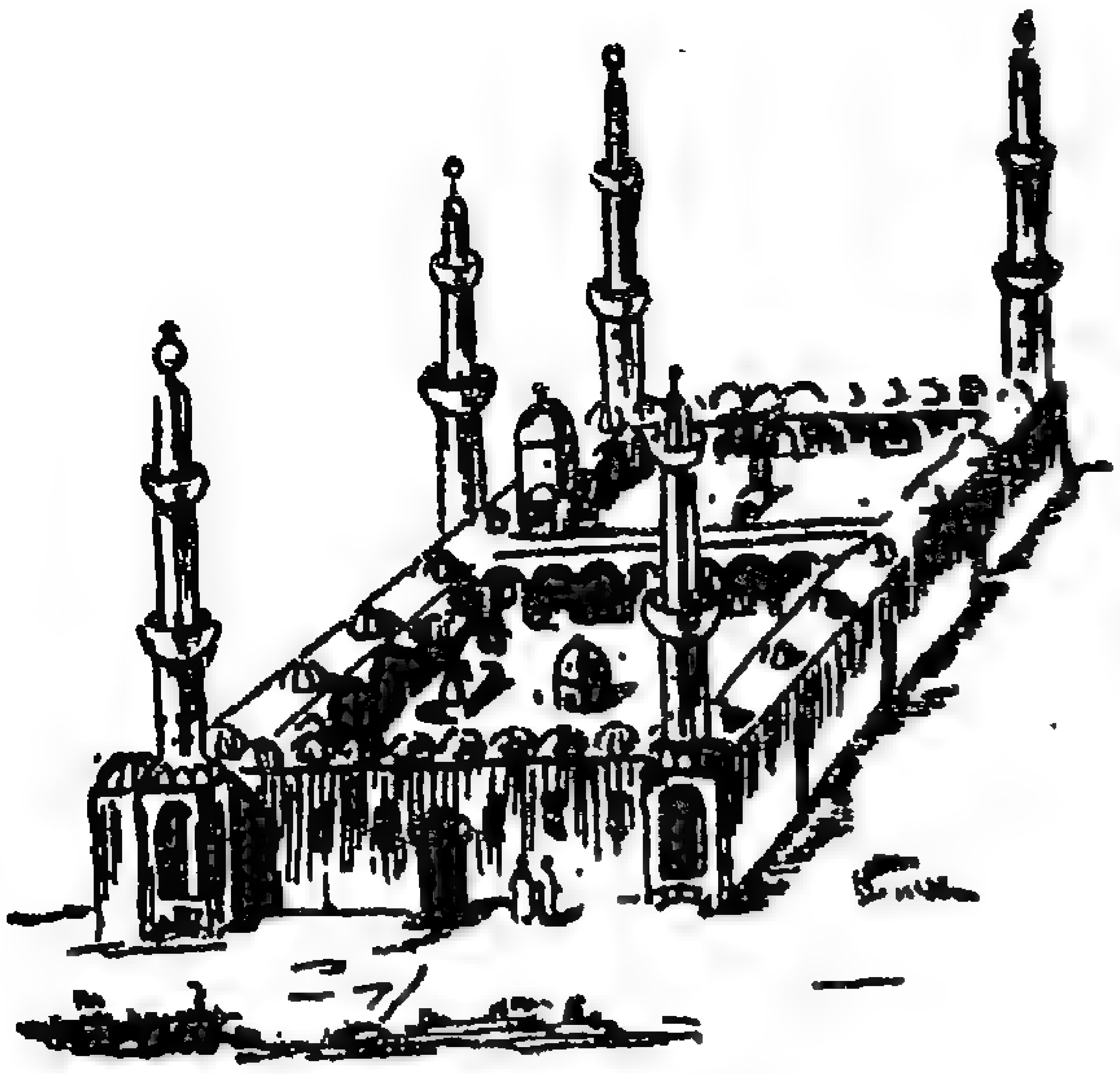

قبر الرسول عليه السلام

الاربعاء ١٥ منه (٩ اكتوبر ١٨٠٥ م)

برز طاهر باشا الذاهب الى البلاد الحجازية بعساكره الى خارج باب النصر .

وفيه : وردت الأخبار بأن الوهابيين استولوا على المدينة المنورة — على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم — بعد حصارها نحو سنة ونصف من غير حرب ، بل تحلقوا حولها ، وقطعوا عنها الوارد . وبلغ الأردب الحنطة بها مائة ريال فرانسة .

فلما اشتد بهم الضيق سلموها . ودخلها الوهابيون ، ولم يحدثوا بها حدثا .. غير منع المنكرات وشرب التنباك فى الأسواق ، وهدم القباب .. ماعدا قبة الرسول صلى الله عليه وسلم .

الأحد ١٩ منه (١٣ اكتوبر ١٨٠٥ م) :

وقع بالأزبكية معركة بين العسكر ، قتل بها واحد من أعيانهم واثنان آخران ، ورجل سائس وبغل وفرس وحمار !

السبت ٢٥ منه (١٩ اكتوبر ١٨٠٥ م) :

ورد الخبر بسفر القبطان وأحمد باشا خورشيد من ثغر سكندرية .

وفيه : حضر أهل رشيد يتشكون الى السيد عمر النقيب والمشايخ ، ويذكرون أن محمد على باشا أرسل يطلب منهم أربعين ألف ريال فرانسة على ثلاثة عشر نفرا من التجار بقائمة .

وفيه : حضر محو بيك — الذى كان بالمنيا — وتواترت الأخبار بوصول الغز المصريين الى أسيوط وملكوها . وأما الألفى فانه جهة الفيوم . ووقع بينه وبين جماعة ياسين بيك محاربة ، وظهر عليهم . وأرسل ياسين بيك يطلب عسكرا وذخيرة .

وفيه : ركب المشايخ والسيد عمر النقيب الى محمد على ، وترجوا عنده فى أهل رشيد . فاستقرت غرامتهم على عشرين ألف فرانسة . وسافروا على ذلك ، واخذوا فى تحصيلها .

وفيه : طلب بترك الديـر ، واحتجوا عليـه بهروب جرجس الجوهرى . وانحط الأمر عـلى المصالحة بمائة وأربعين كيسا ... وزعها النصارى على بعضهم ودفعوها .

شعبـــان

الجمعة غرته (٢٥ اكتوبر ١٨٠٥ م) :

أمر محمـــد على باشا برفع حصص الالتزام التى على النساء . وكتبوا قوائم مزادها . وانحط الأمر على المصـــالحات بقدر حالهن ، وغير ذلك أمور كثيرة ، وجزئيات وتحيلات على استنضاح الأموال .. لايمكن ضبطها !

اواخره (٢٢ نوفمبر ١٨٠٥ م) :

زوج محمد على حسن الشماشيرجى تابعه بنت سليم كاشف الأسيوطى — وهى بنت بنت عبد الرحمن بيك تابع عثمان بيك الجرجاوى ، وهى ربيبة أحمد كاشف تابع سليم كاشف المذكور — فعقدوا عقدها ، وعملوا لها مهما ببيت أمها هانم بحارة عابدين . واحتفل بذلك محمد على ، وأمر بأن يعمل لها زفة مثـل زفف الأمـراء المتقدمين . ونبهوا على أرباب الحـرف فعملوا لهـم عربات وملاعيب وسخريات قاموا بكلفها من مالهم الموزع على أفرادهم . وداروا بالزفة يـوم الخميس غاية شعبان .

وحضر محمد على الى مدرسة الغورية مـع أولاده ليرى ذلك . وعمل له السيد محمد المحروقى ضيافة فى ذلك اليوم وأحضر اليه الغداء بالمدرسة

ولمـا انقضى أمر الزفة ، شرعوا فى عمـل موكب المحتسب ومشايخ الحرف لرؤية رمضان ، وحضروا الى بيت القاضى . ولم يثبت الهلال تلك الليلة . وانقضى شهر شعبان .

رمضـــان

السبت غرته (٢٣ نوفمبر ١٨٠٥ م) :

شح وجود اللحم ، وغلا سعره لعدم المواشى . وتوالى الظلم والعسف والفرد والكلف على القرى والبـلاد ، حتى بلغ الرطل اللحم الجفيط الهزيل خمسة وعشرين نصفا .. ان وجد ، والجـاموسى اثنى عشر نصفا ، وامتنع وجود الضانى بالأسواق بالكلية رأسا !

ولمـا استهل رمضـان انكب الناس على من يوجد من جزارين اللحم الخشن ، وكذلك شـح وجود السـمن وعدم بالكلية . واذا وجد منه شىء خطفه العسكر وذهبوا به الى سوق النبابة وهبوا ماوجدوه مع الفلاحين من الزبد والجبن وغير ذلك وزاد فحشهم وقبحهم وتسلطهم على ايذاء الناس ، وكثروا بالبلد ، وانحشروا من كل جهة ، وتسلطوا على تزوج النساء اللاتى مات أزواجهن من الأمراء المصرلية قهرا . ومن أبت عليهم أخذوا ما بيدها من الالتزام والايراد ، وأخرجوها من دارها ، ونهبوا متاعها . فما يسعها الا الاجابة والرضا بالقضاء .

وتزوج بعضهم بزوجة حسن بيك الجداوى — وهى بنت أحمد بيك شنن — وأمثالها ، ولم ينفعهن الهروب ولا الاختفاء ولا الالتجاء . وتزيوا بزى المصريين فى ملابسهم ، وركبوا الخيول المسومة بالسروج المذهبة ، والقلاعيات والرخوت المكلفة وأحدق بهم الخدم والأتباع والقواسة والسواس والمقدمون . ووصل كل صعلوك منهم لما لايخطر على باله أو يتوهمه أو يتخيله ... ولا فى عالم الرؤيا..مع انحراف الطبع ، والجهل المركب ، وعمى البصيرة ، والفظاظة والقساوة والتجارى ، وعدم الدين والحياء والخشية والمروءة . ومنهم من تزوج الأثنتين والثلاث وسار له عدة دور !

وفيه : تواترت الأخبار بما حصل لياسين بيك . وأنه بعد انهزامه هرب بجماعة قليلة وذهب عند سليمان بيك المرادى وانضم اليه .

الخميس ١٣ منه (٥ ديسمبر ١٨٠٥ م) :

نهبوا بيت ياسين بيك المذكور ، وأخذوا مافيه . ونفوا محمد أفندى أباظ وأنزلوه فى مركب وذهبوا به الى بحرى .. وقيل انهم قتلوه .

وفيه وردت الأخبار بأنه غرق بمينا الاسكندرية أحد عشر غليونا من الكبار . وذلك أنه فى أواخر شعبان هبت ريح غربية عاصفة ليلا ، فقطعت مراسى المراكب .. ودفعتها الرياح الى البر فانكسرت وتلف مافيها من الأموال والأنفس ، ولم ينج منها الا القليل .. وكذلك تلف ثمان وأربعون مركبا واصلة من بلاد الشام الى دمياط ببضائع التجار .

وفيه : حضر جماعة من الألفية الى بر الجيزة ، وطلبوا كلفا من اقليم الجيزة وقبضوها ورجعوا الى الفيوم . ومضى فى أثرهم عربان أولاد على من ناحية البحيرة . وعاثوا بأراضى الجيزة . فعينوا لهم طاهر باشا الذى كان مسافرا الى بلاد الحجاز ، وخرج بعساكره وخيامه وموكبه الى خارج باب النصر . ونصب وطاقه ، وصار يضرب فى كل ليلة مدافعه وطبله ونوبته . واستمر مقيما على ذلك نحو ثلاثة شهور . وهم يجمعون له الأموال ويفردون الفرد على الأقاليم ، ويقولون برسم تشهيل العسكر المسافر للخوارج ، واستخلاص البلاد الحجازية من أيديهم . ولم يزالوا يحتجون بعدم أخذ النفقة . وفى كل يوم يتسللون شيئا بعد شىء ويدخلون الى المدينة ويتفرقون الى الجهات ، حتى لم يبق منهم الا القليل .

ثم انهم ارتحلوا من مخيمهم بحجة العرب ، وطردهم من الجيزة . فلما عدوا الى الجيزة دخلوا الى دورها وسكنوها غصبا عن أهلها ، واستولوا على فراشهم ومتاعهم ، ولم يخرج منهم أحد للعرب ، ولم يتعدوا خارج السور . وبطل أمر السفرة المذكورة .

الاربعاء ١٩ منه (١١ ديسمبر ١٨٠٥ م) :

أرسل محمد على من قبض على الأغا الشمعدانجى ، وعثمان أغا كتخدا بيك سابقا — وقت المغرب — وأنزلوهما الى بولاق فى مركب وذهبوا بهما . يقال انهم قتلوهما ومعهما اثنان أيضا من كبار العسكر . ولم يعلم سبب ذلك ، وأنزلوا حصصهم فى المزاد .

وفيه : فتحوا طلب الميرى من الملتزمين عن سنة احدى وعشرين — مع أن سنة تاريخه لم يستحق منها الثلث ، وكانوا فتحوها معجلة لقدر الاحتياج وقبضوا نصفها ، وطلبوا النصف الآخر بعد أربعة أشهر — وأما هذه ... فطلبوها بالكامل قبل أوانها بسنة ، وخصوصا فى شهر رمضان ، مع ما الناس فيه من ضيق المعاش وغلو الأسعار فى كل شىء ، بل وعدم وجود الأقوات ، ووقوف العسكر خارج المدينة يخطفون ما يأتى به الفلاحون من

السمن والجبن والتبن والبيض وغير ذلك ، ومن دونهم العرب .. ومثل ذلك في البحر والمراكب ، حتى امتنع وجود المجلوبات برا وبحرا .

وطلبوا المراكب لسفر العساكر بالتجاريد ، فتسامع القادمون فوقفوا عن القدوم خوفا من النهب والتسخير ، ولم يبق بسواحل البحر مركب ولا قارب ، وبطل ديوان العشور .

ووصل سعر العشرة أرطال السمن ستمائة نصف فضة .. ان وجد ، والعشرة من البيض بخمسة عشر نصف فضة .. ان وجد ، والدجاجة بأربعين نصفا ، والرطل الصابون بستين نصفا ، ولم يزل يتزايد حتى وصل الرطل الى مائة وعشرين ، والراوية الماء بأربعين نصفا ، ورطل القشطة بستين نصفا ، والرطل من السمك الطرى بستة عشر نصفا ، والقديد المملوح بعشرة أنصاف — وقد كان يباع بنصفين ، وبالعدد من غير وزن — والحوت الفسيخ بأربعين نصفا . وقس على ذلك .

الخميس ٢٠ منه (١٢ ديسمبر ١٨٠٥ م) :

رجع خازندار طاهر باشا الى جهة العادلية ثانيا ، ومعه جملة من العسكر ، وصاروا يضربون في كل ليلة مدفعين . واستمر طاهر باشا بالجيزة .

وفيه : كتب محمد على باشا مكاتبة الى الأمراء القبالى ، وأرسل بها مصطفى أغا الوكيل وعلى كاشف الصابونجى ... ليصطلحوا على أمر .

وفيه : وصل أيضا جماعة من الألفية الى جهة سقارة وبلاد الجيزة ، وطلبوا منها كلفة ودراهم . فأمرمحمد على بخروج العساكر ، فتلكأوا واحتجوا بطلب العلوفة . فعزم على الخروج بنفسه .

الأربعاء ٢٦ منه (١٨ ديسمبر ١٨٠٥ م) :

طلب كبار العساكر ، وركب معهم الى مصر القديمة ، وشرعوا في التعدية بطول الليل . وهم محمد على وعسكره وخواصه ، وعابدى بيك وعمر بيك وصالح قوش ، والدلاة وكبيرهم ، وعلى كاشف الذى تزوج بنت شنن وأتباعه في تجمل ، وكبير الدلاة وطائفته . وركب الجميع — وقت الشروق — وبرزوا الى الفضاء ، وانفرد كل كبير بعسكره خمسة طوابير وستة ، ونظروا على البعد منهم فرأوا خيالة من العربان وغيرهم متفرقين كل جماعة في ناحية ، فحمل كل طابور على جماعة منهم ، فانهزموا أمامهم ، فساقوا خلفهم . فخرج عليه كمائن من خلفهم ، ووقع بينهم الضراب ، وحمل على كاشف وآخر يقال له أوزى في جماعته ، فرأوه مجملا فظنوه محمد على ، فاحتاطوا به ، وتكاثروا عليه وأخذوه أسيرا هو ومن معه ، وفر من نجا منهم ، ووقعت فيهم الهزيمة ، ورجع الجميع القهقرى وعادوا الى بر مصر من غير تأخير . وذهب من الأرنؤود طائفة الى الأخصام وانضموا اليهم .

وفيه : وقع بين أهل الأزهر منافسات بسبب أمور وأغراض نفسانية ، يطول شرحها . وتحزبوا حزبين : حزب مع الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وحزب مع الشيخ محمد الأمير .. وهم الأكثر ، وجعلوا الشيخ الأمير ناظرا على الجامع ، وكتبوا له تقريرا بذلك من القاضى وختم عليه المشايخ ، والشيخ السادات والسيد عمر أفندى النقيب .

وكانت النظارة شاغرة من أيام الفرنسيس ، وكان يتقلدها أحد الأمراء . فلما خرج الأمراء من مصر ، سارت تابعة للمشيخة لوقت تاريخه . فانفعل لذلك الشيخ الشرقاوى . ولما فعلوا ذلك ، اجتهد الشيخ الأمير في النظر لخدمة الجامع بنفسه وبابنه ، وأحضر الخدمة ، وكنسوا الجامع ، وغسلوا صحنه ومسحوه وفرشوه ، وفرشوا المقصورة بالحصر الجدد ، وعلقوا قناديل البوائك . وصار كل يوم يقف على الخدمة ، ويأمرهم بالتنظيف وغسل

الميضأة والمراحيض ، وأمر بغلق الأبواب من بعد صلاة العشاء ماعدا الباب الكبير ، ورتبوا له بوابا ، وطردوا من يبيت به من الأغراب الذين يلتفون بالخصر ويلوثونها ببولهم وغائطهم ونحو ذلك !

فاتيه (٢٢ ديسمبر ١٨٠٥ م) :

عدى طائفة من العسكر الى بر الجيزة وانضموا الى الأخصام . وحصل فى العسكر ارتجاج واختلافات ، وعملوا شنكا فى تلك الليلة فى الأزبكية بعدما أثبتوا هلال شوال بعد العشاء الأخيرة . وقد كانوا أسرجوا المساجد وصلوا التراويح ، ثم أطفأوا المنارات فى ثالث ساعة من الليل .

شوال

غرته (٢٣ ديسمبر ١٨٠٥ م) :

استهل وجميع الأمور مرتبكة ، والحال على ماهو عليه من الاضطراب ، ولم يحصل فى شهر رمضان للناس جمع خواس ولا حظوظ ، ولا أمن . وانكف الناس عن المرور فى الشوارع ليلا خوفا من أذية العسكر ، وفى كل وقت يسمع الانسان أخبارا ونكاتا وقبائح من أفاعيلهم .. من الخطف والقتل وأذية الناس .

٤ منه (٢٦ ديسمبر ١٨٠٥ م)

قلدوا مناصب كشوفات الأقاليم ، وتهيأوا للذهاب، وعملوا قوائم فرد ومظالم على البلاد خلاف ماتقدم ، وخلاف ما يأخذه الكشاف لأنفسهم وما يأخذونه قبل نزولهم . وذلك أنه عندما يترشح الشخص منهم لتقليد المنصب يرسل من طرفه معينين الى الاقليم الذى سيتولى عليه بأوراق البشارات وحق طرق باسم المعينين .. اما عشرين ألفا أو أكثر أو قل . فاذا قبضوا ذلك ، أتبعوها بأوراق أخرى ويسمونها أوراق « تقبيل اليد » وفيها مثل ذلك ، أو أكثر أو أقل . ثم كذلك أوراق « لبس القفطان » ونحو ذلك ! وقد يتفق بعد ذلك جميعه أنه يتولى خلافه ويستأنف العمل..الى غير ذلك . هذا وكتخدا بيك مستمر فى سرحاته بالأقاليم ، وجمع الأموال والعسف والجور : مرة بالمنوفية ، ومرة بالغربية ، ومرة بالشرقية ، ولا يقرر الا الأكياس من الشهريات والمغارم وحق الطرق ، والاستعجالات المترادفة .. مما لا يحيط به دفتر ولا كتاب !

٨ منه (٣٠ ديسمبر ١٨٠٥ م) :

توفى ابراهيم أفندى كاتب البهار ، وترك ولدا صغيرا . فقلدوا مملوكه حسنا فى منصبه وكيلا عن ولده .

وفيه : كثر تحرك العسكر والمناداة عليهم بالخروج الى نواحى طرا والجيزة . وذلك بسبب أن بعض الألفية عدى الى ناحية الشرق ، وأخذوا كلفا من البلاد ، وبعضهم وصل الى وردان بالبر الغربى .

١٠ منه (اول يناير ١٨٠٦ م) :

حضر جملة من الدالاتية وغيرهم من ناحية الشام : فمنهم من حضر فى البحر على دمياط ، ومنهم من حضر فى البر . وعدى طاهر باشا الذى كان مسافرا على جدة .

وفيه : سافرت القافلة المتوجهة الى السويس ، وصحبتها نحو المائتين من العسكر ، وعليهم كبير من طرف طاهر باشا بدلا عنه . وسافر صحبتهم حسن أفندى القاضى المنفصل ليكون قاضيا بمكة حسب القانون .

١٥ منه (٦ يناير ١٨٠٦ م) :

وصلت قوافل التجار من السويس . فأرسل محمد على وفتح الحواصل وأراد أخذ بضائع التجار

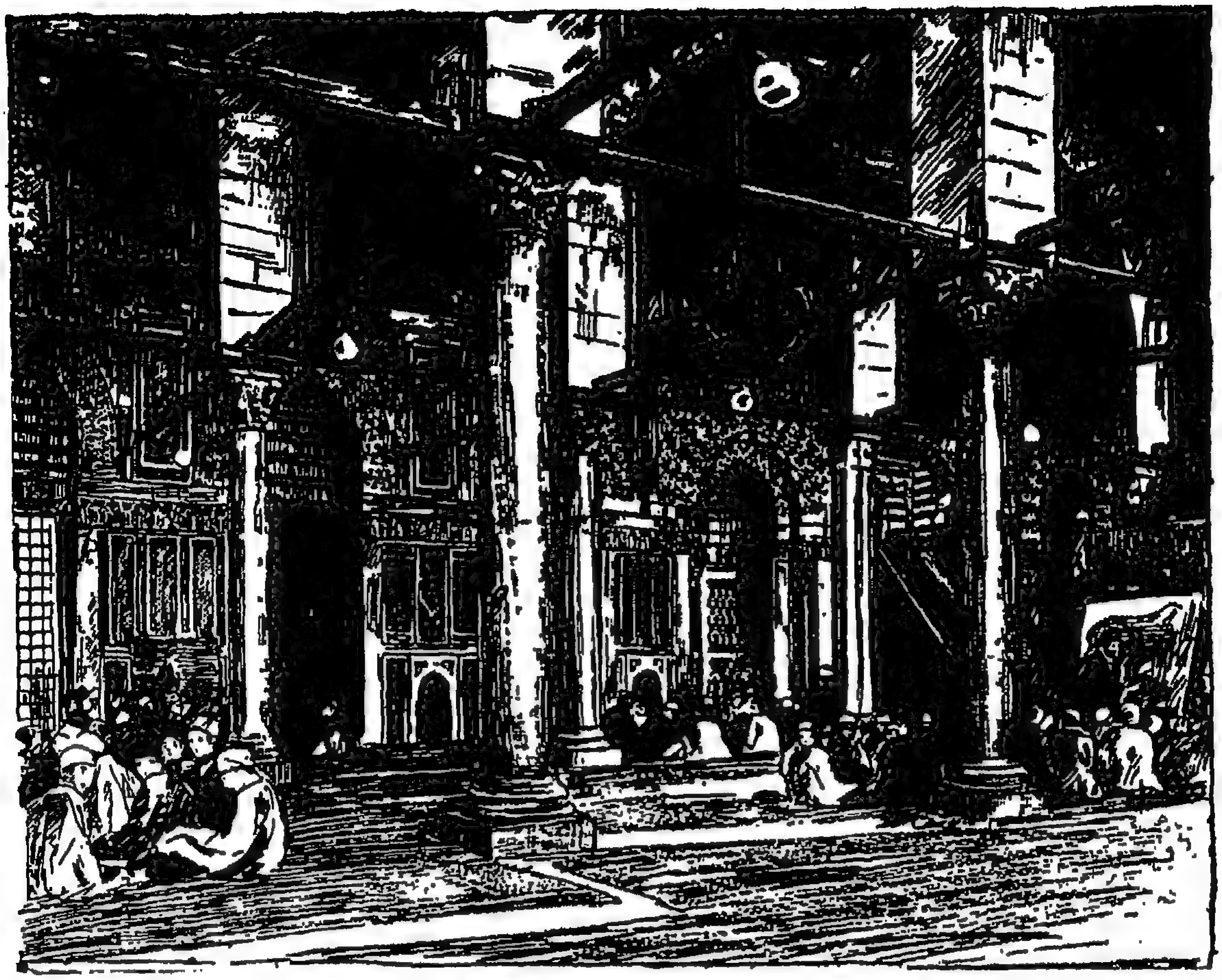

داخل الأزهر ..

وفروق البن . فانزعج التجار بوكائل الجمالية وغيرها ، وذلك بعد أن دفعوا عشورها ونولونها وأجرها وما جعلوه عليها من المغارم السابقة . وانحط الأمر على المصالحة عن كل فرق خمسون ريالا .. ولم ينتطح فى ذلك شاتان !

٢١ منه (١٢ يناير ١٨٠٦ م) :

حضر كتخدا بيك الى مصر بعدما جمع الأموال من الأقاليم ، وفعل ما فعله من الفرد والمظالم الخارجة عن الحد .

٢٥ منه (١٦ يناير ١٨٠٦ م) :

توفى عثمان أفندى العباسى .

ذو القعدة

الثلاثاء غرته (٢١ يناير ١٨٠٦ م) :

الاجتهاد حاصل بخروج العسكر للتجريدة فى كل يوم ، ونصبوا عرضيهم ببر الجيزة وناحية طرا — من ابتداء شعبان كما تقدم — وفى كل يوم يخرجون طوائف ويعودون كذلك .

الأربعاء ٩ منه (٢٩ يناير ١٨٠٦ م) :

حضر مصطفى أغا الوكيل وعلى كاشف الصابونجى وعلى جاويش الفلاح ، الذين كانوا توجهوا الى قبلى لأجل الصلح . وحضر صحبتهم نيف وثلاثون مركبا من السفار والمتسببين ، فيها

غلال وادهان وجلود وتمر وغير ذلك . ولم يعلم حقيقة ماحصل .

الجمعة ١١ منه (٣١ يناير ١٨٠٦ م) :

نودى على العسكر بالخروج من الغد بالتركى والعربى ، والتحذير من التأخير .

الأحد ١٣ منه (٢ فبراير ١٨٠٦ م) :

رجع مصطفى اغا بجواب ثانيا هجانا من طريق البر .

الاثنين ١٤ منه (٣ فبراير ١٨٠٦ م) :

أخرجوا المحمل والكسوة وعين للسفر بهما ، من القلزم ، مصطفى جاويش العنتبلى ، ومعه صراف السرة ... دفعوا له ربعها وثمنها ، وهذا لم يتفق نظيره ! .

الثلاثاء ١٥ منه (٤ فبراير ١٨٠٦ م) :

ورد نحو السبعين ططريا ومعهم البشارة لمحمد على باشا بوصول الأطواخ الى رودس ، ووصل معهم أيضا مراسيم بمنصب الدفتردارية لأحمد افندى الملقب بجديد . وهو الذى كان وصل فى العام الأول بالدفتردارية الى سكندرية فى أيام أحمد باشا خورشيد ، وجانم أفندى الدفتردار ... ومنعوه عنها ، وكتبوا فى شأنه عرضا للدولة بعدم قبوله ، وأن أهل البلد راضون على جانم أفندى .

فلما حصل ماحصل لخورشيد باشا ، وعزل عن مصر ، وعزل أيضا جانم أفندى .. حضر أيضا أحمد افندى المذكور بمراسيم اخر وفيها الوكالة لسعيد أغا مجددة له ، ونظر الخاصكية لحافظ سليمان . واستمر من ذلك الوقت بمصر ، فوصل اليه الأمر بتقليد الدفتردارية . وكان حسن أفندى الروزنامجى هو المتقلد لذلك .

الخميس ١٧ منه (٦ فبراير ١٨٠٦ م) :

اجتمع بديوان محمد على : صالح أغا قابجى باشا ، وسعيد أغا ، ونقيب الأشراف ، وبعض المشايخ ، ولبس أحمد أفندى خلعة الدفتردارية ، وشرطوا عليه أنه لا يحدث حوادث كغيره . فان حصل منه شيء .. عزلوه ، وعرضوا فى شأنه . وقبل ذلك على نفسه .

الجمعة ١٨ منه (٧ فبراير ١٨٠٦ م) :

ارتحلت القافلة ، وصحبتها الكسوة والمحمل ، أواخر النهار ، من ناحية قايت باى بالصحراء ، وذهبوا الى جهة السويس ، ليسافروا من القلزم .

وفيه : وصلت الأخبار بأن بونابرته كبير الفرنسيس ركب فى جمع كبير ، وأغار على بلاد النساوية ، وحاربهم حربا عظيما ، وظهر عليهم ، وملك تختهم وقلاعهم ، وطلب ملكهم بعد خروجه من حصونه ، فأعاده لملكته بعدما شرط عليه شروطه . وملك غير ذلك من القرانات والحصون ، ثم سار الى بلاد الموسقو ، ووقع بينه وبينهم هدنة على ثلاثة أشهر .

الاربعاء ٢٣ منه (١٢ فبراير ١٨٠٦ م) :

خرج حسن باشا طاهر الى ناحية مصر القديمة .

السبت ٢٦ منه (١٥ فبراير ١٨٠٦ م) :

حضر مبشرون بحصول مقتلة عظيمة ، وأنهم أخذوا من الأخصام جملة عسكر أسرى ورؤوس . فضربوا مدافع لذلك ، وأظهروا السرور .

الأحد ٢٧ منه (١٦ فبراير ١٨٠٦ م) :

وصلت الرؤوس والأسرى : وهى أحد وعشرون رأسا ، وذراع مقطع ، وسبعة عشر أسيرا .. ليس فيهم من يعرف ، ولا من جنس الأجناد ، وغالبهم فلاحون . فأعطى محمد على لكل أسير نصف دينار

وأطلقهم ، ووضعوا الرؤوس والذراع عنــد باب زويلة .

وفيه وصلت القافلة من السويس ، ووصل أيضا صحبتهم جنــرال من الانكليــز راكب فى تخت ، وحملتــه ومتاعه على نحو سبعين جملا ، فذهب عند قنصلهم .

الاربعاء غايته (١٩ فبراير ١٨٠٦ م) :

بعد ذلك ركب فى التخت وذهب عند محمد على بالأزبكية فتلقاه وعمل له شنكا ومدافع ، وقدم له هدية وتقادم . ثم رجع الى مكانه

ذو الحجــة

الخميس غرته (٢٠ فبراير ١٨٠٦ م)

حضر مصطفى أغا الوكيــل ، وعلى كاشــف الصابونجى من الجهة القبلية ، وقد تقدم أنهمــا ذهبا وعادا ، ثم رجعــا ثانيا على الهجن لتقــرير الصلح ، ثم رجعا ... ولم يظهر أثر لذلك الصلح .

وحكى الناس عنهما : أن المذكورين لمــا ذهبا الى أسيوط وجدا ابراهيم بيك قد انتقل الى ناحية طحطا ، واجتمعا بعثمان بيك حســن والبرديسى .. فلم يرضيا بالتوجه الذى وجها به اليهم ، وهو من حدود جرجا ، وقالا : « لا يكيفنا الا من حــدود المنية . فان الفرنســاوية كانوا أعطوا حكم البــلاد القبلية من حدود المنية لمراد بيك بمفرده ، فكيف أنه يكفينــا نحن الجميع من جرجا ! » . وشرطوا أيضا : أنه ان استقر الصلح على مطلوبهم ، لا بد من اخلاء الاقليم من هذه العساكر الذين لا يتحصل منهم الا الضرر والخراب والدمار والفســاد ، ولا يبقى الباشا منهم الا مقدار ألفى عسكرى . وقالوا : « انه أيضــا اذا لم يعطنا مطلوبنا ، فهــو لا يستغنى عن أناس من العسكر يقيمون بالبــلاد التى يبخل علينا بها . فنحن أولى له وأحسن منهم ، وتقوم بما على البلاد من المال والغلال . وعند ذلك يحصل الأمن ويسير المسافرون فى المراكب ، وترد المتاجر والغلال ، ويحصل لنا وله الراحــة . وأمــا اذا استمر الحال على هــذا المنوال ، فانه لم يزل متعبا من كثرة العسكر ونفقاتهم ، وكذلك سائر البلاد . على أنه ان لم يرض بذلك .. فها هى البلاد بأيدينــا والأمر مستمر معنا ومعهــم على التعب والنصب » .

الأحد ٤ منه (٢٣ فبراير ١٨٠٦ م)

ورد الخبر بأن جماعة من كبــار العسكر — وفيهم سليمان أغا الأرنؤدى الذى تولى كشوفية منفلوط ، ومعهم عدة وافرة من العســكر — عدوا من المنيــة الى البــر الشرقى بالمطــاهرة ، بسبب ما عنــدهم من القحط وعــدم الأقوات ... لاحاطة المصريين بهم .

فلما دخلوا الى بلدة المطاهرة وملكوها ، وصل اليهم بعض الأمراء والأجنــاد المصرية ، وأحاطوا بهم وحاربوهم أياما حتى ظهــروا عليهم ، وقتلوا منهم ، وهرب من هرب — وهو القليل — وأسروا الباقى — وفيهم ســليمان أغا المذكور — فالتجأ الى بعض الأجنــــاد ، فحماه من القتــل ، وقابل به كبار الأمراء . فأنعموا عليــه بكسوة ودراهم وسلاح ، وأقام معهم أياما ... ثم استأذنهم للعود وحضر الى مصر ، وجلس بداره .

وفيه : ورد الخبر أيضا بموت الأمير بشتك بيك المعروف بالألفى الصغير .. مبطونا .

وفيه : حضر أيضا حجاج الخضرى الرميــلاتى الى مصر .. وقد كان خــرج من مصر بعــد حادثة خورشيد باشا خوفا من العسكر . وذهب الى بلده بالمنوات ، ثم ذهب عند الألفى ، وأقام فى معسكره الى هذا الوقت . ثم أن الألفى طرده لنكتة حصلت منه ، فرجع الى بلده .

وأرسل الى السيد عمر فكتب له أمانا من الباشا ، فحضر بذلك الأمان ، وقابل الباشا ، وخلع عليه ، ونادوا له فى خطته بأنه على ماهو علبه فى حرفته وصناعته ووجاهته بين أقرانه ، فصار يمشى فى المدينة وصحبته عسكرى ملازم له .

الجمعة ٩ منه (٢٨ فبراير ١٨٠٦ م) :

كان يوم الوقوف بعرفة . وفى ذلك اليوم : ركب محمد على بالأبهة الكاملة ، وصلى الجمعة

الابهة الكاملة !

بالمشهد الحسينى . ولم يركب من وقت ولايته بالهيئة الا فى هذا اليوم .

وفى عصر تلك الليلة ضربوا عدة مدافع من القلعة اعلاما بالعيد ، وكذلك فى صبحها ، وفى كل وقت من الأوقات الخمسة ... مدة أيام التشريق .

الأربعاء ١٤ منه (٥ مارس ١٨٠٦ م) :

حضر جاهين بيك الألفى ، ومعه طوائف من العربان ، الى اقليم الجيزة ، وأخذوا الكلف وأغناما من البلاد ودراهم واشيع بذلك ، وأمروا بخروج العساكر اليهم . وركب محمد على باشا فى يوم الخميس ، وخرج الى ناحية بولاق . وأنزلوا من القلعة جبخانة ومدافع ، وطفقوا يخطفون الحمير من الأسواق ... ان وجدوها !

الخميس ١٥ منه (٦ مارس ١٨٠٦ م) :

عدى طائفة من العساكر الخيالة الى بر الجيزة . وعدى طاهر باشا الى بر امبابة وصحبته عساكر كثيرة ، وأزعجوا أهل القرية ، وأخرجوهم من دورهم وسكنوا بها ، وأطلقوا دوابهم وخيولهم على المزارع ، فأكلوها بأجمعها ، ولم يبقوا منها ولا عودا أخضر فى أيام قليلة .

وفيه : اختفى حجاج الخضرى أيضا بسبب ما داخله من الوهم والخوف من العسكر .

الثلاثاء ٢٠ منه (١١ مارس ١٨٠٦ م) :

شرع عساكر حسن باشا فى التعدية من ناحية معادى الخبيرى الى البر الآخر .

الأحد ٢٥ منه (١٦ مارس ١٨٠٦ م) :

عدى حسن باشا أيضا .

الاثنين ٢٦ منه (١٧ مارس ١٨٠٦ م) :

نودى فى الأسواق على العساكر الذين لم يكونوا فى قوائم العسكر الذين يقال لهم السير (١) بالسفر والخروج الى بلادهم ، ومن وجد منهم بعد ثلاثة أيام قتل .

وكذلك كتبوا فرمانات وأرسلوها الى البلاد بمعنى ذلك ، ومن كان من أهل البلد أو المغاربة أو الأتراك بصورة العسكر ومتزييا بزيهم ، فلينزع ذلك وليرجع الى زيه الأول .

وفيه أيضا : نودى على المعاملة الناقصة : لا تقبض الا بنقص ميزانها . لأن المعاملة فحش نقصها جدا ... وخصوصا الذهب

(١) قوله (السير) هكذا فى نسخ .. وفى بعض النسخ القبسيز .

البندقي الذي كان أحسن أصناف العملة في الوزن والعيار والجودة ، فان العسكر تسلطوا عليه بالقص . فيقصون من المشخص الواحد مقدار الربع ، أو أكثر أو أقل ، ويدفعونه في المشتروات ولا يقدر المتسبب على رده أو طلب أرش نقصه . وكذلك الصيرفي لا يقدر على رده أو وزنه . وقتل بذلك قتلى كثيرة ، وأغلق الصيارف حوانيتهم ، وامتنعوا من الوزن خوفا من شرهم .

وكذلك نودي على التعامل في بيع البن بالريال المعاملة — وهو تسعون نصفا — وقد كان الاصطلاح في بيع البن بالفرانسة فقط . وبلغ صرف الفرانسة مائة وثمانين نصفا — ضعف الأول — وعز وجوده لرغبة الناس فيه لسلامته من الغش والنقص ، لأن جميع معاملة الكفار سالمة من الغش والنقص ... بخلاف معاملات المسلمين ! فان الغالب على جميعها الزيف والخلط والغش والنقص . فلما انطبعوا على ذلك ، ونظروا الى معاملات الكفار وسلامتها ، تسلطوا عليها بالقطع والتنقيص والتقصيص .. تتميما للغش والخسران والانحراف عن جميع الأديان . وقال صلى الله عليه وسلم : « الدين المعاملة ، ومن غشنا فليس منا » . فيأخذون الريالات الفرانسة الى دار الضرب ويسبكونها ، ويزيدون عليها ثلاثة أرباعها نحاسا ، ويضربونها قروشا يتعاملون بها . ثم ينكشف حالها في مدة يسيرة ، وتصير نحاسا أحمر من أقبح المعاملات شكلا ووضعا ، لا فرق بينها وبين الفلوس النحاس التي كانت تصرف بالأرطال في الدول المصرية السابقة ... في الكم والكيف ، بل تلك أجمل من هذه في الشكل . وقد شاهدنا كثيرا منها وعليها أسماء الملوك المتقدمين ، ووزن الواحد منها نصف أوقية .

وكان الدرهم المتعامل به إذ ذاك ، من الفضة الخالصة ، على وزن الدرهم الشرعي ستة عشر قيراطا ، ويصرف بثلاثة أرطال من الفلوس النحاس . فيكون صرف الدرهم الواحد اثنين وسبعين فلسا ... تستعمل في جميع المشتروات والمرتبات والمعاليم واللوازم للبيوت والجزئيات والمحقرات . فلما زالت الدولة القلوونية ، وظهرت دولة الجراكسة ، واستقر الملك المؤيد شيخ في سلطنة مصر ، وبدأ الاختلال ... اختصر الدرهم المتعامل به وجعله نصف درهم — وهو ثمانية قراريط — وسمي نصف مؤيدي . ولم تزل تتناقص ، حتى صارت في آخر دولة الجراكسية أقل من ربع الدرهم .

واختل أمر الفلوس النحاس ، والمرتبات والوظائف بالأوقاف المشروط فيها صرف المعاليم بالفلوس . ولم يزل الحال يختل ويضعف بسبب الجور والطمع والغش وغباوة أولي الأمر ، وعمى بصائرهم عن المصالح العامة التي بها قوام النظام ، حتى تلاشى أمر الدراهم جدا في الوزن والعيار ، وصار الدرهم المعبر عنه بالنصف أقل من العشر للدرهم ، وفيه من الفضة الخالصة نحو الربع .. فيكون في النصف الذي هو الآن بدل الدرهم الأصلي من الفضة الخالصة أقل من ربع العشر .

فيكون في النصف الواحد من معاملتنا الآن — الذي وزنه خمس قمحات — قيراط وربع ثلث قيراط من الفضة ، وذلك بدل عن ستة عشر قيراطا — وهو الدرهم الأصلي الخالص — فانظر الى هذا الخسران الخفي الذي انمحقت به البركة في كل شيء . فان الدرهم الفضة الآن صار بمنزلة الفلس النحاس القديم .... فتأمل واحسب ، تجد الأمر كذلك !

فاذا فرضنا أن انسانا اكتسب ألف درهم من دراهمنا هذه ، فكأنه اكتسب خمسة وعشرين لاغير

— وهو ربع عشرها — على أنه اذا حسبنا قيمة الخمسة وعشرين فى وقتنا هـذا — عن كل درهم ثلاثون نصفا — فانها تبلغ سبعمائة وخمسين ، ويذهب الباقى — وهو مائتان وخمسون — هدرا .

وأما الذهب : فان الدينار كان وزنه فى الزمن الأول مثقالا من الذهب الخالص . ثم صار فى الدولة الفاطمية وما بعدها عشرين قيراطا ، وكان يصرف بثلاثين درهما من الفضة . فلما نقص الدرهم زاد صرف الدينار ، الى أن استقر وزن الدينار فى أوائل القرن الماضى ثلاثة عشر قيراطا ونصفا ، ويصرف بتسعين نصفا .. وهو المعبر عنـه « بالأشرفى » ، والطرلى ، المعروف « بالفندقلى » ، يصرف بمائة . وكانا جيدين فى العيار ، وكذلك الأنصاف العددية كانت اذ ذاك جيدة العيار والوزن .

وكان الريال يصرف بخمسين نصفا . والريال « الكلب » باثنين وأربعين نصفا . ثم صار الدينار — وهـو « المحبـوب الجنزرلى » — بمـائة وخمسين ، والفندقلى بمائة وعشرين ، والفرانسة بستين .

ثم حدث « المحبوب الزر » فى أيام السلطان أحمـد بـدلا عن « الجنزرلى » . وغـلا صرف الجنزرلى ، وكان فى وزن « المشخص » وعياره ، ووزن « الـزر » ثلاثة عشر قيراطـا ونصـف .. الى أن زاد الاختـلال فى أيام على بيـك والمعلم رزق واسـتيلائه على دار الضرب والقـروش . واستعمل ضرب القروش واستكثر منها ، وزاد فى غشها لكثرة المصاريف على العساكر والتجـاريد والنفقات . واستقر « الأشرفى » المعروف « بالزر » بمائة وعشرة ، و « الطرلى » بمائة وستة وأربعين ، و « المشخص » بمائتين . والريال « الفرانسة » بخمسة وثمانين ، مدة من أيام على بيك .

وفحش وجـود القـروش المفـردة وضعفها وأجزاؤها ... حتى لم يبـق بأيدى النـاس من التعامل الا هى . وعز باقى الأصناف المذكورة ، وطلبت للسبك والادخار وصياغة الحلى ، فترقت فى المصارفة والابدال .

فلما زالت دولة على بيك ، وتملك محمد بيك أبو الذهب ، نادى بابطال تلك القـروش بأنواعها رأسـا . فخسر النـاس خسـارة عظيمـة من أموالهم ، وباعوها بالأرطال للسـبك واقتصروا على ضرب الأنصـاف العـددية والمحبـوب الزر والنصفيات لاغير ، ونقصوا من وزنها وعيارها ، ونقصت قيمتها ، وغلت فى المصارفة . وزاد الحال بتوالى الحوادث والمحن والغـلاء والغـرامات ، وضيق المعاش وكساد البضائع . وتساهلوا فى زيادة المصارفة .. وخصوصا فى ثمن السلع والمبايعات ، وخـلاص الحقوق من المـماطلين . واقترن بذلك تغافل الحكام وجورهم ، وعدم التفاتهم لمصـالح الرعية ، وطمعهم وتركهم النظر فى العواقب .. الى أن تجاوزت فى وقتنا هذا ... الحدود ، وبلغت فى المصارفة أكثر من الضعف . وصار صرف المحبوب مائتين وخمسة ... بل وعشرة .

والريال « الفرانسة » بمائة وخمسة وسبعين ، بل وثمانين . و «المشخص البندقى» بأربعمائة وأكثر . و « المجر » بثلثمائة وسـتين . و « الفنـدقلى » بثلثمائة وعشرين ، وهو الجديد . ويزيد القـديم لجودة عياره عن الجديد ، وتتفاوت « المثلية » فى المحبوب بجودة العيـار . فاذا أبدل « السليمى » الموجود الآن « بالمحمودى » .. زيد فى مصارفته أربعون نصفا وأكثر ، بحسب الرغبة والاحتياج . ويتفـاوت أيضـا « المحمودى » بمثله .. فيزيد « أبو وردة » عن « الراغب » ، ويزيد « الراغب » عن الذى فيـه حـرف « العـين » ويـكون

المحبوبان فى تحويل المعاملة بدلا عن «المشخص» الواحد ... مع أن وزنهما سبعة وعشرون قيراطا ، ووزن « المشخص » ثمانية عشر قيراطا . فالتفاوت بينهما تسعة قراريط ، وهى مافيه من الخلط ... وغير ذلك مما يطول شرحه ، ويعسر تحقيقه وضبطه !

ولم يزل أمر المعاملة ، وزيادة صرفها ، واتلاف نقودها ، واضطرابها ... مستمرا. وكل قليل ينادون عليها مناداة بحسب أغراضهم ، لا تسمع ولا تقبل ولا يلتفت اليها . لأن أصل الكدر منبعث عنهم ، ومنحدر عن مجراة خبائثهم وفسادهم .

آخره (٢٠ مارس ١٨٠٦ م) :

أذن الباشا لولده الكبير بالذهاب لزيارة سيدى أحمد البدوى — رضى الله عنه — بطندتا ، وعين صحبته أتباعا وعسكرا وهجنا ، وقرر له دراهم على البلاد ألف ريال .. فما دونها ، خلاف الكلف . وكذلك سافر حريمات — ورئيستهن حريم مصطفى أغا الوكيل — فى هيئة لم يسبق مثلها .. فى تختروانات وعربات ومواهى وأحمال وجمال وعسكر وخدم وفراشين ، وفرضوا لهن أيضا مقررات على البلاد وكلفا ونحو ذلك ... وأظن أن هذه المحدثات من أهوال القيامة !

وانقضت السنة وما حصل فيها من الحوادث والانذارات .

* * *

ومات فيها : الامام العلامة ، والبحر الفهامة ، صدر المدرسين ، وعمدة المحققين ، مفتى الحنفية بالديار المصرية : الشيخ محمد عبد المعطى بن الشيخ أحمد الحريرى الحنفى .

ولد سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف ، ونشأ فى عفة وصلاح ، وحفظ القرآن وجوده ، وحفظ المتون .. وحضر أشياخ العصر ، وجود الخط .

وكان ينسخ بالأجرة ، وكتب كتبا كثيرة ، وخطه فى غاية الصحة والجودة ، وغالبها فى الأدبيات « كالريحانة » و « خبايا الزوايا » و « خزانة الأدب » والتى بخطه من ذلك فى غاية الحسن والقبول .

وكان شافعى المذهب ثم تحنف ، وحضر على أشياخ المذهب مثل : الشيخ محمد الدلجى ، والشيخ محمد العدوى . ولازم الشيخ حسن المقدسى ملازمة كلية ، وانتسب اليه ، وعرف به ، وحضر عليه ، وتلقى عنه غالب الكتب المشهورة فى المذهب . وحضر باقى العلوم على الشيخ الملوى والحفنى والشيخ على العدوى وغيرهم . وكان يكتب الأجوبة على الفتاوى عن لسانه .

ولما توفى شيخه المذكور ، تقرر مكانه فى وظيفة الخطابة والامامة بجامع عثمان كتخدا بالازبكية . وسكن بالدار المشروطة له بها السكنى برحاب الجامع المذكور .

وكانت خطبه فى غاية الخفة والاختصار ، ولوعظه وقع فى النفوس .. لخلوه عن التصنع .

ولما مات الشيخ أحمد الدمنهورى فى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف ، وحصل ماحصل للشيخ عبد الرحمن العريشى — كما تقدم — تعين المترجم لمشيخة الحنفية والفتوى عوضا عن المذكور — قبل وفاته بأيام قليلة — وكان أهلا لذلك ، وكفؤا له ، وسار فيها سيرا حسنا بحشمة . واشتهر ذكره ، وقصدته الناس للفتوى والافادة ، وأقبلت عليه الدنيا ، وسكن دارا مشرفة على الأزبكية جارية فى وقف عثمان كتخدا . واشترى أيضا دارا نفيسة بالجودرية ، وأسكنها لغيره بالأجرة .

وانحصرت فيه وظائف مشيخة الحنفية كالتدريس فى مدرسة المحمودية والصرغتمشية

والمحمدية وغيرها — فكان يباشر الاقراء بنفسه فى بعضها ، والبعض ولده العلامة الشيخ ابراهيم . ولم يزل يقرىء ويملى ويفيد — حتى فى حال انقطاعه — وذلك أنه لما مات أحمد أغا غانم ، وحصل بين عتقائه منازعة ، ثم اتفقوا على تحكيم المترجم بينهم ، والتمسوا منه أن يذهب صحبتهم الى فوة ليصلح بينهم ... فلما ذهب الى بولاق وأراد النزول فى السفينة ، اعتمد على بعض الواقفين ، فعثرت رجله ، فقبض ذلك الرجل على معصمه فانكسر عظمه لنحافة جسمه ، فعادوا به الى داره ، وأحضروا له من عالجه حتى برىء بعد شهور ، وفرحوا بعافيته .

ودعاه بعض أحبابه بناحية قناطر السباع . فركب وذهب اليه — وكانت أول ركباته بعد برئه — فلما طلع الى المجلس وأراد الصعود الى مرتبة الجلوس ، زلقت رجله فانكسر عظم ساقه . وتكدر الحاضرون وحملوه وذهبوا به الى داره ، وأحضروا له المعالج ، فلم يحسن المعالجة . وتألم تألما كثيرا ، واستمر ملازما الفراش نحو سبع سنوات . ثم توفى يوم الأربعاء ، سابع عشر رجب من السنة ، عن سبع وسبعين سنة ، ودفن بتربة الأزبكية

وتعين بعده فى المشيخة والافتاء ولده المحقق العلامة المستعد الشيخ ابراهيم ، أدام الله النفع بحياته ، وحفظ عليه أولاده .

وللمترجم مآثر ، وتقييدات ومنظومات ، وضوابط وتخميسات . فمن ذلك قوله :

مشبه به مع المشبه
أداة تشبيه ووجه شبه
والخامس المشبه النبيه
فقد حوى أركانه التشبيه

وله تخميس على البيتين المشهورين :

قد قلت لما وهى جسمى وأقلقنى
ما حل بى من سقام أنحلت بدنى
وما رمانى به دهرى من المحن
يا رب ان كان تمريضى يقربنى
زلفى اليك .. فباب العفو أوسع لى

أو كان من أجل عصيانى الذى عظما
ومسوء ما قلته جهرا ومكتتما
فالعفو عمن عصا من شيمة الكرما
أو كان من أجل تمحيص الذنوب فما
يحتاج عفوك للأسقام والعلل

وله تخميس أيضا على « المنبهجة » وتخميس على قصيدة الشيخ عبد الله الشبراوى المشهورة وأوله :

ان نفسى وغيها والتمنّى
صيرت دأبى المعاصى وفنّى
ثم انى ناديت من حسن ظنى
رب انى تعاظم الذنب منى
غير أنى وجدت عفوك أعظم

الى آخرها ... وله غير ذلك .. سامحه الله !

* * *

ومات الأجل الأمثل ، المفوه المنشىء ، النبيه الفصيح المتكلم : عثمان أفندى ابن سعد العباسى الأنصارى . من ولد آخر الخلفاء العباسية بمصر المتوكل على الله . ووالده يعرف بالأنصارى من جهة النساء .. من بيت السيادة والخلافة .

ولد بمصر ، وبها نشأ ، واشتغل بالعلم على فضلاء الوقت ، ومهر فى الفنون بذكائه ، وعانى الحساب والنجوم وأخذ منها حظا ، ونزل كاتب سر فى ديوان بعض الأمراء ، ولامه بعض محبيه

فى ذلك ، فاعتذر أنه انما قدم عليه صيانة لبعض بلاده وضياعه التى استولت عليها أيدى الظلمة ، فلا محيد له عن عشرتهم !

واجتمع بشيخنا الشيخ محمود الكردى ، وأراد السلوك فى طريق الخلوتية ، وترك شرب الدخان ، ولازمه كثيرا ، وتلقن الاسم الأول والأوراد وأقلع عما كان عليه ... حتى لاحت عليه أنوار ملازمته ، واعتقده جدا . وبعد وفاة الأستاذ .. رجع الى حالته ، وشرب الدخان .

ثم ولى خليفة على غلال الحرمين فباشرها بشهامة ، ثم ولى روزنامة مصر بصرامة وقوة مراس وشدة ومخادعة . وراج أمره واتسع حاله وزادت حشمته ... وذلك بعد عزل أحمد أفندى أبى كلبه ، وقبل وفاة السيد محمد أفندى الكماخى الروزنامجى. وثقل أمره على باقى الكتبة والناس ، فأوغروا عليه وعزلوه . فضاق صدره وزاد قلقه ، وحدث فيه بعض رعونة ، وتردد لمشاهد الأولياء فى الليل والنهار ... يبتهل ويدعو ، ويفرق خبزا ودراهم ، ويأوى اليه المجاذيب ، والذين يدعون الصلاح والولاية ، فيكرمهم برهة ويرون له مرائى ومنامات واخباريات ، فيزداد هوسه . ثم لما يطول الحال ينقطع عنهم ، ويبدلهم بآخرين ... وهكذا .

وكان ينام مع بعضهم فى الحريم ، ويترجم بعضهم بمكاشفات وشطحيات ويقول : « فلان يطلع على خطرات القلوب .. وفلان يصعد الى السماء .. ومن كرامات فلان كذا .. » ثم يرجع عن ذلك .

ولما مات السيد محمد ، أعيد فى كتابة الروزنامة أيضا ، واستمر بها ثمانية عشر شهرا . وكانت اعادته فى سنة ثمان بعد المائتين ، ثم انحرف عليه ابراهيم بيك الكبير وعزله . وكان يظن أن الأمر يؤول اليه .. فلم يتم له ذلك . وأحضر ابراهيم بيك السيد ابراهيم ابن أخى المتوفى وقلده ذلك . فعندها أيس المترجم منها . واختلفت الأمور بحدوث الفتن ، وتقلب الدول والأحوال .

ولازم شأنه وبيته بعد رجوعه من هجرته الى الشام فى حادثة الفرنسيس ، واعترته الأمراض ... واجتمعت لديه كتب كثيرة فى سائر العلوم ، وبيعت بأسرها فى تركته . توفى يوم الأربعاء خامس عشرين شوال من السنة ..

* * *

ومات العمدة الامام ، الصالح الناسك العلامة ، والبحر الفهامة : الشيخ محمد بن سيرين بن محمد ابن محمود بن جيش الشافعى المقدسى . ولد فى حدود الستين ، وقدم به والده الى مصر . فقرأ القرآن. واشتغل بالعلم ، وحضر دروس الشيخ عيسى البراوى فتفقه عليه ، وحلت عليه أنظاره ، وحصل طرفا جيدا من العلوم على الشيخ عطية الأجهورى ، ولازمه ملازمة كلية .

وبعد وفاة شيخه ، اشتغل بالحديث . فسمع صحيح مسلم على الشيخ أحمد الراشدى ، واتصل بشيخنا الشيخ محمود الكردى . فلقنه الذكر ولازمه ، وحصلت له منه الأنوار . وانجمع عن الناس ، ولاحت عليه لوائح النجابة ، وألبسه التاج ، وجعله من جملة خلفاء الخلوتية . وأمره بالتوجه الى بيت المقدس . فقدمه وسكن بالحرم وصار يذاكر الطلبة بالعلوم ، ويعقد حلقة الذكر ، وله فهم جيد ، مع حدة الذهن .

وأقبلت عليه الناس بالمحبة ، ونشر له القبول عند الأمراء والوزراء ، وقبلت شفاعته ... مع الانجماع عنهم ، وعدم قبول هداياهم !

وأخبرنى بعض من صحبه : أنه يفهم من كلام الشيخ ابن العربى ، ويقرره تقريرا جيدا ، ويميل الى سماعه . وحج من بيت المقدس ، وأصيب فى العقبة بجراحة فى عضده ، وسلب ماعليه ، وتحمل تلك المشقات . ورجع الى مصر فزار شيخه الشيخ محمودا ، وجلس مدة ثم أذن له بالرجوع الى بلده . وسمع أشياء كثيرة فى مبادى عمره ، واقتبس من الأشياخ فوائد جمة ... حتى قبل اشتغاله بالعلم .

وفى سنة ١١٨٢ كتب الى شيخنا السيد مرتضى يستجيزه . فكتب له أسانيده العالية فى كراسة وسماها « قلنسوة التاج » . ولم يزل يملى ويفيد ، ويدرس ويعيد ، واشتهر ذكره فى الآفاق ، وانعقد على اعتقاده وانفراده الاتفاق ، وسطعت أنواره ، وعمت أسراره ، وانتشرت فى الكون أخباره ، وازدحمت على سدته زواره ... الى أن أجاب الداعى ، ونعته النواعى . وذلك سابع عشرين شهر شعبان من السنة . ولم يخلف بعده مثله ، وبه ختمت دائرة المسلكين من الخلوتية ورجال السادة الصوفية . وحسن به ختم هذا الجزء الثالث من كتاب « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » لغاية سنة عشرين ومائتين وألف من الهجرة النبوية — على صاحبها أفضل الصلاة والسلام — وسنقيد ان شاء الله تعالى ما يتجدد بعدها من الحوادث ، من ابتداء سنة أحدى وعشرين — التى نحن بها الآن — ان امتد الأجل ، وأسعف الأمل . ونرجو من الكريم المتعال صلاح الأحوال ، وانقشاع الهموم ، وصلاح العموم ... انه على كل شىء قدير ، وبالاجابة جدير . والله أعلم .

المحرم

استهل شهر المحرم بيوم الخميس حساباً ، ويوم السبت هلالا . ووافق ذلك انتقال الشمس لبرج الحمل ، فاتحدت السنة القمرية والشمسية . وهو يوم « النوروز » السلطانى ، وأول سنة الفرس . وهو التاريخ الجلالى اليزدجردى . وتاريخهم فى هذه السنة ١١٧٦ .

وكان طالع التحويل الواقع فى يوم الجمعة — فى خامس ساعة ونصف من النهار — سبع درجات ونصفا من برج السرطان ، وصاحبه فى حيز العاشر منصرف عن تربيع المشترى ، ومقارنة عطارد والمشترى فى السابع ، والمريخ مع الزهرة فى العاشر هى راجعة ، وكيوان فى الرابع — وهو دليل على ثبات دولة القائم ... وتعب الرعية !

والحكم لله العلى الكبير .

٣ منه (٢٣ مارس ١٨٠٦ م) :

وصل الى بولاق قابجى وعلى يده تقرير لمحمد على باشا بولايته بمصر ، وصحبة التقرير خلعة ، وهى فروة سمور . فلما أصبح النهار عمل محمد على باشا ديوانا بمنزله بالأزبكية . وحضر السيد عمر النقيب والمشايخ والاعيان . وحضر ذلك الأغا من بولاق فى موكب ، ودخل من باب النصر ، وشق من وسط المدينه .. وأمامه الأغا والوالى والمحتسب والأغوات والجاويشية ، وخلفه النوبة التركية . فلما وصلوا الى باب الخرق ، عطفوا على جهة الأزبكية .

فلما قرىء التقليد ، ضربوا مدافع كثيرة من الأزبكية والقلعة ، وعملوا تلك الليلة شنكا وحراقات ونفوطا وسواريخ كثيرة وطبولا وزمورا بالأزبكية .

٧ منه (٢٧ مارس ١٨٠٦ م) :

وصلت الأخبار بوقوع حروب بين العساكر والعربان والأمراء المصرية بناحية جزيرة الهواء ، وقتل شخص من كبار العسكر يسمى « كور يوسف » وغيره . ووصل الى مصر عدة جرحى ، وهرب من العسكر طائفة وانضموا الى الأمراء المصريين . وأرسل حسن باشا يستنجد الباشا بارسال عساكر اليه .

وفى ذلك اليوم : نادوا فى الأسواق بعدم المشى فى الأسواق من آذان العشاء ، وخرج كتخدا بيك الى بولاق فى آخر النهار ، ونصب وطاقه ببر البابه . وخرج سليمان أغا بجملة من العسكر ودهب الى ناحية طرا .

٨ منه (٢٨ مارس ١٨٠٦ م)

عدى كتخدا بيك الى البر الغربى ، وانتقل طاهر باشا الى الجيزة وأقام بها محافظا .

وفيه : أمر الباشا بجمع الأجناد المصرية والوجاقلية ، وآمرهم بالتعدية الى البر العربى ، وكأنه تخوف من اقامتهم بالمدينة ، وقال لهم : « من أراد منكم الذهاب الى الأخصام فليذهب والا يستمر معنا » .

وفى هذه الأيام : كان مولد سيدى أحمد

البدوى ، والجمع بطندتا ، المعروف بمولد الشرنبابلية . وهرع غالب أهل البلد بالذهاب اليه ، وأكتروا الجمال والحمير بأغلى الأجرة . لأن ذلك صار عند أهل الاقليم موسما وعيدا لا يتخلفون عنه ، اما للزيارة أو التجارة أو للنزاهة أو للفسوق !

ويجتمع به العالم الأكبر ، وأهالى الاقليم البحرى والقبلى . وخرج أكثر أهالى البلد بحمولهم . فكان الواقفون على الأبواب يفتشون الأحمال ، فوجدوا مع بعضهم أشياء من أسباب الأجناد المصرية وملابسهم ونحو ذلك . فوقع بسبب ذلك ايذاء لمن وجدوا معه شيئا من ذلك ، ولباقى الناس ضرر بنبش متاعهم ، فكان من الناس من يأخذ معه أشخاصا من العسكر من طرف الأغا يسلكونه للخروج من غير تفتيش ، ويمنعون المتقيدين بالأبواب عن التعرض لهم ونبش متاعهم وأحمالهم .

٩ منه (٢٩ مارس ١٨٠٦ م) :

وصل الخبر بأن عابدين بيك لما بلغه خروج الألفى من الفيوم ذهب اليها صحبة الدلاة ، فلم يجد بها أحدا فدخلها ، وأرسل مبشرين الى مصر بأنه ملك الفيوم . فضربوا مدافع لذلك ، وانبث المبشرون يطوفون على بيوت الأعيان يبشرونهم بذلك ، ويأخذون على ذلك الدراهم والبقاشيش . ثم لما بلغ عابدين بيك ما حصل لأخيه حسن باشا من الهزيمه ، رجع اليه وأقام معه ناحية الرقق .

١٠ منه (٣٠ مارس ١٨٠٦ م) :

وصل الألفى الى ناحية كرداسة ، وانتشرت عساكره وعربانه باقليم الجيزة ، فلم يخرج لهم أحد من الجيزة ، مع كونهم بمرأى منهم ، ويسمعون نقاقيرهم وطبولهم ووطء حوافر خيولهم .

وفيه : أرسل الألفى مكتوبا خطابا الى السيد عمر أفندى مكرم النقيب والمشايخ مضمونه : « نخبركم أن سبب حضورنا الى هذه الجهة انما هو لطلب القوت والمعاش ، فان الجهة التى كنا بها لم يبق فيها شىء يكفينا ويكفى من معنا من الجيش والأجناد ، ونرجو من مراحم أفندينا بشفاعتكم أن ينعم علينا . بما نتعيش به ، كما رجونا منه فى السابق » .

١١ منه (٣١ مارس ١٨٠٦ م) :

فى الصباح ركب السيد عمر الى الباشا ، وأخبره بذلك ، وأطلعه على المراسلة . فقال : « ومن أتى به ؟ » . قال له : « تابع مصطفى كاشف المورلى ، وقد ترك متبوعه بالبر الآخر » . فقال له : « اكتب له بالحضور ، حتى نتروى معه مشافهة » .

وفى ذلك الوقت حضر الى الباشا من أخبره بأن طائفة من المصريين وجيوشهم وصلوا الى بر انبابه ، فخرج اليهم طائفة من العسكر المرابطين هناك ، وتحاربوا معهم بسوق الغنم ، ووقع بينهم بعض قتلى وجرحى . فركب من فوره وذهب الى بولاق ، فنزل بالساحل وجلس هناك ساعة . ثم ركب عائدا الى داره بعد أن منع من تعدية المراكب الى بر انبابة ، ثم أمرهم بالتعدية لربما احتاجوهم ، وكان كذلك ، فانهم رجعوا مهزومين ... فلو لم يجدوا المعادى لحصل لهم هول كبير .

١٢ منه (اول ابريل ١٨٠٦ م)

حضر مصطفى كاشف المورلى — المرسل من طرف الألفى ، وصحبته على جربجى ابن موسى الجيزاوى — الى بيت السيد عمر . فركب صحبته الى الباشا ، وكتبوا له جوابا . ورجع من ليلته .

١٤ منه (٣ ابريل ١٨٠٦ م) :

حضر ثانيا مصطفى كاشف المورلى بجواب آخر ومضمونه : « اننا أرسلنا لكم ، نرجو منكم أن تسمعوا بيننا بما فيه الراحة لنا ولكم ، وللفقراء والمساكين وأهالى القرى .. فأجبتمونا بأننا نتعدى على القرى ، ونطلب منهم المغارم ، ونرعى زرعهم ، وننهب مواشيهم ... والحال أنه — والله العظيم ، ونبيه الكريم — أن هذا الأمر لم يكن على قصدنا ومرادنا مطلقا . وانما الموجب لحضورنا الى هذا الطرف ضيق الحال والمقتضى ، للجمعية التى نصحبها من العربان وغيرهم ، ارسال التجاريد والعساكر علينا . فلازم لنا أن نجمع الينا من يساعدنا فى المدافعة عن أنفسنا .. فهم يجمعون أصناف العساكر من الأقطار الرومية والمصرية لمحاربتنا وقتالنا ، وهم كذلك ينهبون البلاد والعباد للاتفاق عليهم . ونحن كذلك : نجمع الينا من يساعدنا فى المنع ، ونفعل كفعلهم لننفق على من حولنا من المساعدين لنا . وكل ذلك يؤدى الى الخراب والدمار وظلم الفقراء . والقصد منكم ، بل الواجب عليكم ، السعى فى راحة الفريقين ، وهو أن يكفوا الحرب ، ويفرزوا لنا جهة نرتاح فيها .. فان أرض الله واسعة ، تسعنا وتسعهم . ويعطونا عهدا بكفالة بعض من نعتمد عليهم ، من عندنا وعندهم . ويكتب بذلك محضر لصاحب الدولة ، وننتظر رجوع الجواب . وعند وصوله يكون العمل بمقتضاه » .

فعنـد ذلك اقتضى الرأى أن يقطعـوه اقليم الجيزة ، وكتبوا له جوابا بذلك ، من غير عقد ولا عهد ولا كفالة كما أشـار . وسلموا الجواب لمصطفى كاشف ورجع به .

وفى أثناء ذلك : طلب أجناد الألفى كلفا من بلد برطس وأم دينار ومنية عقبة . فامتنعوا عليهم ، فضربوهم وحاربوهم ونهبوهم . وسبب ذلك أن العساكر الأتراك أغروهم ، وأرسلوا يقولون لهم : « اذا طلبوا منكم كلفة أو دراهم ، لاتدفعوا لهم واطردوهم وحاربوهم وانهبوهم . واذا سمعنا حربكم معهم أتيناكم وساعدناكم » . فاغتروا بذلك وصدقوه . فلما حصل لهم ما حصل ، لم يسعفوهم ولم يخرجوا من أوكارهم ، حتى جرى عليهم المقدور !

٢٣ منه (١٢ ابريل ١٨٠٦ م) :

كتب الباشا مراسيم وأرسلها الى كشاف الأقاليم والكائنين بالبلاد من الأجناد المصرية ، بأن يجتمعوا بأسرهم ويذهبوا الى ساحل السبكيـة للمحافظة عليها من وصول الأخصام اليهـا ، ولمنعهـم من تعديةالبحر اليها ، لأنهماذا حصلوا بها تعدى شرهم الى بلاد المنوفية بأسرها . وأشيع عزم الباشا على الركوب بنفسه وذهابه الى تلك الجهة ، ويكون سيره على طريق القليوبية ويلحق بهم . وكتخـدا بيك وطاهر باشـا يسيران علـى الساحل الغربى تجاههم . ثم بطل ذلك وأرسل الى حسن باشـا سر ششمه بأن يحضر بمن معه من العسكر من عند حسن باشا طاهر من ناحية بنى سويف ، وكذلك عساكر « كور يوسف » الذى قتل فى المعركة كما ذكر .

وفى ذلك اليوم : وصل رسول أيضا من عنـد الألفى بمكاتبات ، واجتمع بالسيد عمر النقيب . والمكاتبات خطاب له ولبقيـة المشـايخ وللباشا ولسعيد أغا دار السعادة وصـالح بيك القابجى بمعنى ماتقدم ، صحبة احمد أبى ذهب العطار . فكتبوا له جوابا بالمعنى الأول ، وأعادوا الرسول ، وأصحبوه ببعض المتعممين ، وهو السيد أحمـد الشتيوى — ناظر جامع الباسطية — وكل ذلك أمور صورية وملاعبات من الطرفين لاحقيقة لها .

٢٥ منه (١٤ ابريل ١٨٠٦ م) :

وصل الجماعة المذكورون الذين استدعاهم الباشا بعساكرهم ، وخلع الباشا على أحد كبارهم عوضا عن « كور يوسف » المقتول .

وفيه : وصل الخبر بأن طائفة من الأجناد المصرية ، ومن يصحبهم من العربان ، عدوا الى بر السبكية ، ولم يمنعهم المحافظون ، بل هربوا من وجوههم . فأمر الباشا بسفر العساكر وطلب دراهم سلفة من الأعيان لأجل نفقة العساكر ، وفرضوا على البلاد ثلاثة آلاف كيس . ويكون على العال منها مائة ألف فضة ، وفيها الأوسط والدون .

٢٧ منه (١٦ ابريل ١٨٠٦ م) :

نودى فى الأسواق بخروج العساكر .

٢٩ منه (١٨ ابريل ١٨٠٦ م) :

سافر طاهر باشا الى منوف على جرائد الخيل ، وسافر بعده كتخداه بالحملة ، واحتاجوا الى جمال ، فأخذوا جمال السقايين والشواغرية .

وفيه : حضر عمر بيك الأرنؤودى من ناحية بنى سويف ، وأخبر الواردون من الناحية أن رجب أغا وطائفة من العسكر خامروا عليه ، وانضموا الى الأمراء القبليين — وهم نحو الستمائة — فعند ذلك حضر عمر بيك المذكور فى تطريده ليبرىء نفسه من ذلك .

وحضر أيضا محو كبير العسكر المحاصرين بالمنية يطلب علوفة للعسكر .

وفيه : أراد كتخدا بيك — وهو المعروف بدبوس أوغلي — أن يركب من انبابة ، وحمل أحماله ليسير الى جهة بحرى . فثارت عليه العسكر ، وطالبوه بعلائفهم ، وسفهوا عليه ، ومنعوه من الركوب . فأراد التعدية الى بر بولاق ، فمنعوه أيضا ، وجذبوا لحيته . فأقام يومه وليلته ، ثم قال لهم : « وما الفائدة فى مكثى معكم ؟ دعونى أذهب الى الباشا ، وأسعى فى مطلوبكم » . ولم يزل حتى تخلص منهم ، وعدى الى مصر ، ولم يرجع اليهم .

غايته (١٩ ابريل ١٨٠٦ م) :

وصلت عساكر الدلاة الذين كانوا بناحية بنى سويف والفيوم الى بر انبابة ، وضربوا لهم مدافع لوصولهم .

وفيه : أرسل كبار العسكر الذين بناحية منوف مكاتبة الى الباشا ، يذكرون أن العساكر يطلبون مرتبات لحم وأرز وسمن . فانهم لايحاربون ولا يقاتلون بالجوع .

وفى هذه الأيام : وصل الكثير من العساكر القبلية ، ودخلوا البلدة وكثروا بها .

وفيها أيضا : وصلت الأخبار من الديار الحجازية بمسالمة الشريف غالب للوهابيين ، وذلك لشدة ماحصل لهم من المضايقة الشديدة ، وقطع الجالب عنهم من كل ناحية .. حتى وصل ثمن الأردب المصرى من الأرز خمسمائة ريال ، والأردب البر ثلثمائة وعشرة . وقس على ذلك السمن والعسل ، وغير ذلك . فلم يسع الشريف الا مسالمتهم ، والدخول فى طاعتهم ، وسلوك طريقتهم ، وأخذ العهد على دعاتهم وكبيرهم بداخل الكعبة . وأمر بمنع المنكرات والتجاهر بها ، وشرب الأراجيل بالتنباك فى المسعى وبين الصفا والمروى ، وبالملازمة على الصلوات فى الجماعة ودفع الزكاة ، وترك لبس الحرير والمقصبات ، وابطال المكوس والمظالم

وكانوا خرجوا عن الحدود فى ذلك . حتى أن الميت يأخذون عليه خمسة فرانسة وعشرة بحسب حاله . وان لم يدفع أهله القدر الذى يتقرر عليه ، فلا يقدرون على رفعه ودفنه ، ولا يتقرب اليه الغاسل ليغسله حتى يأتيه الاذن .. وغير ذلك من

أصناف الخلائق ، واختلاط النساء بالرجال ... وباقى الأشياء التى فيها شركة المخلوقين مع الخالق فى توحيد الألوهية التى بعثت الرسل الى مقاتلة من خالفها ، ليكون الدين كله لله . فعاهده على منع ذلك ، وعلى هدم القباب المبنية على القبور والأضرحة ، لأنها من الأمور المحدثة التى لم تكن فى عهده .. بعد المناظرة مع علماء تلك الناحية ، واقامة الحجة عليهم بالأدلة القطعية التى لا تقبل التأويل من الكتاب والسنة ، واذعانهم لذلك .

فعند ذلك أمنت السبل ، وسلكت الطرق بين مكة والمدينة ، وبين مكة وجدة والطائف ، وانحلت الأسعار ، وكثر وجود المطعومات وما يجلبه عربان الشرق الى الحرمين من الغلال والأغنام والأسمان والأعسال ... حتى بيع الأردب من الحنطة بأربعة ريال .

واستمر الشريف غالب يأخذ العشور من التجار ، واذا نوقش فى ذلك يقول : « هؤلاء مشركون ، وأنا آخذ من المشركين لا من الموحدين » !

صفر

الأحد غرته (٢٠ ابريل ١٨٠٦ م)

سافر محو بيك الى جهة المنية .

وفيه : ورد من اسلامبول شخص قابجى ، وعلى يديه مرسومات بالجمارك وغيرها . ومنها : ضبط ترك الموتى المقتولين والمقبورين ، وكذلك تركة السيد أحمد المحروقى وآخر يسمى الشريف محمد البرلى ... والقصد تحصيل الدراهم بأى حجة كانت . ووصل أيضا آخر متعين لجمرك الاسكندرية وآخر لدمياط ولرشيد أيضا .

وفيه : عزم الباشا على السفر لمحاربة الألفى ، وأشيع عنه ذلك ، وأنزلوا مدافع من القلعة وجبخانة وآلات حربية .

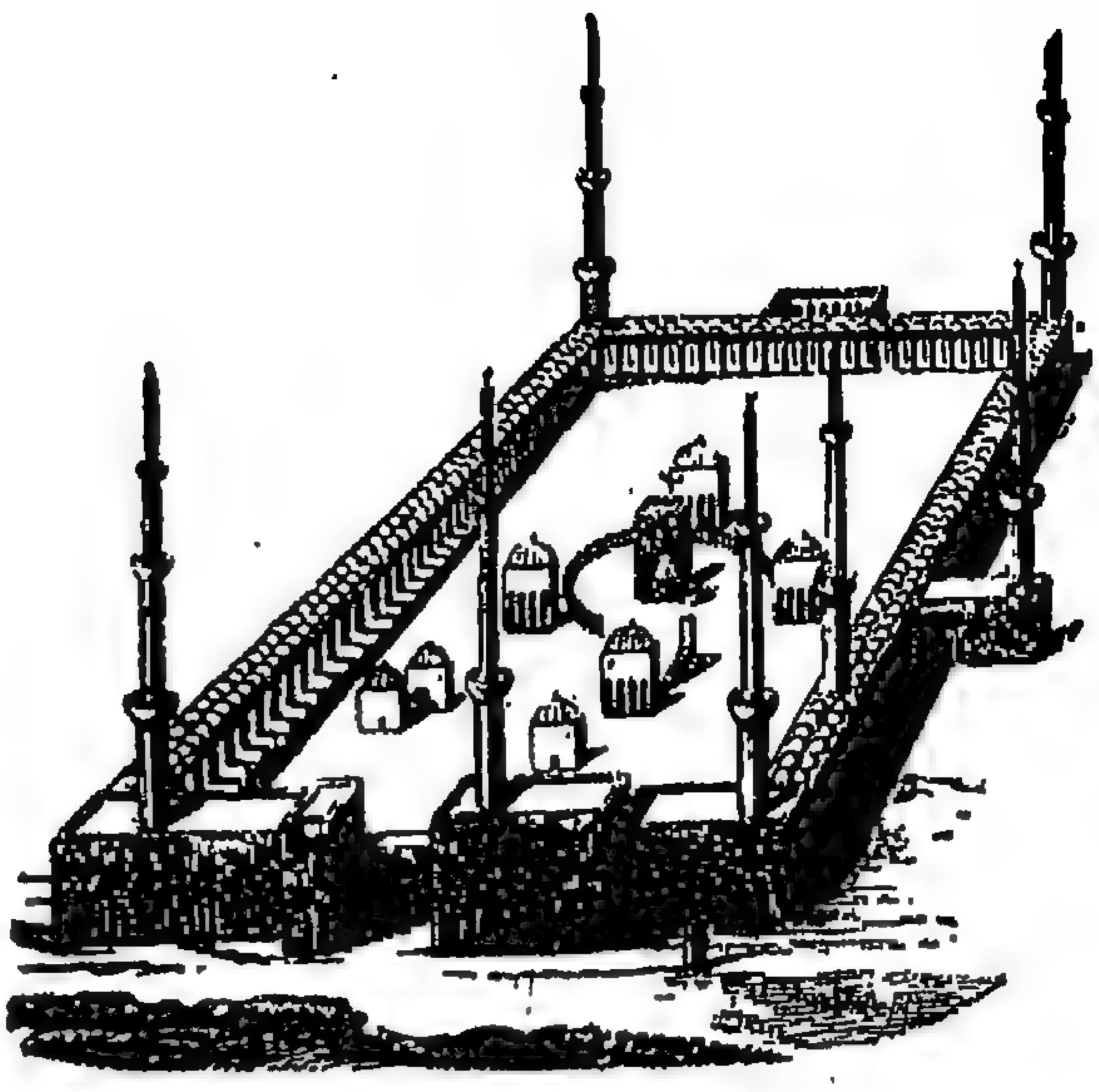

الكعبة الشريفة

البدع والمكوس والمظالم التى أحدثوها على المبيعات والمشتروات ، على البائع والمشترى ، ومصادرات الناس فى أموالهم ودورهم . فيكون الشخص من سائر الناس جالسا بداره ، فما يشعر على حين غفلة منه الا والأعوان يأمرونه باخلاء الدار وخروجه منها ، ويقولون : « ان سيد الجميع محتاج اليها » . فاما أن يخرج منها جملة وتصير من أملاك الشريف ، واما أن يصالح عليها بمقدار ثمنها أو أقل أو أكثر !

فعاهده على ترك ذلك كله ، واتباع ما أمر الله تعالى به ، فى كتابه العزيز ، من اخلاص التوحيد لله وحده ، واتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون ، والأئمة المجتهدون .. الى آخر القرن الثالث . وترك ما حدث فى الناس من الالتجاء لغير الله من المخلوقين ، الأحياء والأموات ، فى الشدائد والمهمات ، وما أحدثوه من بناء القباب على القبور والتصاوير والزخارف ، وتقبيل الأعتاب والخضوع والتذلل ، والمناداة والطواف ، والنذور والذبح والقربان ، وعمل الأعياد والمواسم لها . واجتماع

الأربعاء ٤ منه (٢٣ ابريل ١٨٠٦ م) :

قوى عزمه على ذلك . وأشيع أنه مسافر يوم السبت ، وأشار على السيد عمر أفندى النقيب بأن ينوب عنه ، ويكون قائما مقامه فى الأحكام مدة غيابه : فلم يقبل السيد عمر ذلك وامتنع ، ثم فترت همته عن ذلك ، وتبين أنها ايهامات لا أصل لها .

الخميس ٥ منه (٢٤ ابريل ١٨٠٦ م) :

أرسل الباشا الى الخانات والوكائل أعوانا ، فختموا على حواصل التجار بما فى داخلها من البن والبهار ، وذلك بعد أن أمنهم وقبض منهم عشورها ومكوسها بالسويس . فلما وصلت القافلة ، واستقرت البضائع بالحواصل ، فعل بهم ذلك . ثم صالحوا وأفرج عنهم !

وفيه : ورد الخبر بأن الألفى ارتحل من ناحية الجسر الأسود والطرانة ، وقصد جهة البحيرة .

السبت ٧ منه (٢٦ ابريل ١٨٠٦ م) :

ركب صالح أغا قابجى باشا ، ونزل الى بولاق ليسافر الى الديار الرومية . فركب لوداعه الباشا وسعيد أغا والسيد عمر النقيب ، فشيعوه الى بولاق حتى نزل الى المراكب ، وخلع عليه الباشا فروة سمور مثمنة بعد أن وفاه خدمته وهاداه بهدايا ، وأصحب معه هدايا للدولة وأربابها ، وعرفه بقضايا وأغراض يتممها له هناك ، وودعوه ورجعوا الى بيوتهم بعد الغروب .

الثلاثاء ١٠ منه (٢٩ ابريل ١٨٠٦ م) :

سافر صالح أغا السلحدار الى جهة بحرى على طريق المنوفية ، وصحبته عساكر ، وقرروا له مقادير من الأكياس : على كل بلد من البلاد الرائجة عشرون كيسا فما فوقها وما دونها ، ومن كل صنف، مقادير أيضا .

وفيه : فرضوا أيضا على البلاد غلال قمح وفول وشعير : كل بلد عشرون أردبا فما فوقها وما دونها . وهذه ثالث فرضة ابتدعت من الغلال على البلاد فى هذه الدولة !

وفيه ورد الخبر بأن الألفى توجه الى ناحية دمنهور البحيرة يوم الأربع رابعه وانهم امتنعوا عليه . فحاصرهم لأنهم استعدوا لذلك .. والبلد منضافة الى السيد عمر النقيب . فكان يرسل اليهم ويحذرهم منه ، ويرسل اليهم ويمدهم بآلات الحرب والبارود ، ويحرضهم على الاستعداد للحرب . فحصنوا البلدة وبنوا سورها ، وجعلوا فيها أبراجا وبدنات ، وركبوا عليها المدافع الكثيرة ، وأحضروا لهم ما يحتاجون اليه من الذخيرة والجبخانة وما يكفيهم سنة . وحفروا حولها خنادق . وهى فى موقعها مرتفعة .

وفيه : عزل الباشا محمد أغا كتخدا بيك من كتخدائيته ، بسبب أمور نقمها عليه ، وحبسه وطلب منه ألف كيس ، وقلد فى الكتخدائية خازنداره ، وهو المعروف بدبوس أوغلى .

الأحد ١٥ منه (٤ مايو ١٨٠٦ م) :

عدى صارى عسكر الى بر انبابة بوطاقه ، وهو دبوس أوغلى الكتخدا المذكور ، وذلك فى أواخر النهار . وضربوا مدافع كثيرة لتعديته . وأخذ العسكر فى تشهيل أمورهم ولوازمهم ، وأنفق عليهم الباشا نفقة . هذا والطلب والتوزيع بالأكياس مستمر لاينقطع عن أعيان الناس والتجار ، والأفندية الكتبة ، وجماعة الضربخانة والملتزمين بالجمارك ، وكل من كان له أدنى علاقة ، أو خدمة أو تجارة أو صنعة ظاهرة ، أو فائظ أو له شهرة قديمة ، أو من مساتير الناس ... وغالب الأحيان المحصل لذلك والقاضى فيه السيد عمر أفندى النقيب . وقد حكمت عليه الصورة

التى ظهر فيها ، وانعكس الحال والوضع ، وساءت الظنون . والأمر لله وحده !

الخميس ١٩ منه (٨ مايو ١٨٠٦ م)

ارتحل عرضى التجريدة من انبابة ، وذهبوا الى جهة الوراريق .

وفى هذه الأيام : كان بين مشايخ العلم منافسات ومنافرات ومحاسدات — وذلك من أوائل شهر رمضان — وتعصبات بسبب مشيخة الجامع ونظر أوقافه وأوقاف عبد الرحمن كتخدا . فاتفق ان الشيخ عبد الرحمن السجينى ابن الشيخ عبد الرءوف عمل وليمة ودعاهم اليها ، فاجتمعوا فى ذلك اليوم وتصالحوا فى الظاهر .

الاثنين ٢٣ منه (١٢ مايو ١٨٠٦ م) :

هبت رياح جنوبية حارة ، وأثارت غبارا وزوابع ولواقح . ثم غيمت السماء غيما متقطعا ، وأرعدت وأمطرت . فكان الغبار والزوابع...والشمس طالعة والمطر نازل ، وذلك بعد العصر . وحصل مثل ذلك أيضا فى يوم الثلاثاء .. ولكن بعد الظهر .

الثلاثاء ٢٤ منه (١٣ مايو ١٨٠٦ م) :

وفى تلك الليلة ، بعد الغروب ، أخرج الباشا محمد أفندى المنفصل عن الكتخدائية منفيا الى جهة دمياط ، وأصحب معه عدة من العسكر ذهبوا به من طريق البر .

وفى أواخره : رجعت عساكر من الأرنؤود ، وكانوا كثيرين ، ونزلوا ببولاق ومصر القديمة . وغالبهم الذين كانوا بصحبة حسن باشا طاهر ، وأخيه عابدين بيك . وسبب رجوعهم أنهم طلبوا علائفهم من حسن باشا — وكان قد ظهر له فيهم المحامرة عليه وميلهم الى الأخصام — فامتنع من دفع علائفهم وقال لهم : « اذهبوا الى مصر ، واطلبوا علائفكم من الباشا » . وأرسل اليه يعرفه بحالهم وتفاقهم . فلما تراسلوا فى الحضور ، منعهم الباشا من الدخول الى البلد ، ووعدهم بايصال علائفهم اليهم وهم خارج المدينة ، وبعد أن يقبضوا مالهم يعودون الى مرابطهم كما كانوا . فأقاموا بناحية بولاق .

وأرسل الباشا فجمع عربان الحويطات والعائد وغيرهم ، فأقاموا بناحية شبرا ومنية السيرج ؛ وهم جملة كبيرة ... استمروا فى تجمعهم أربعة أيام . وأرسل الى الأجناد والجربجية وأمثالهم المقيمين بمصر ، وأمر بأن يتهيأوا ويقضوا أشغالهم ويحرجوا صحبة حسن أغا الشماشيرجى . فمن كان منهم ذا مقدرة ، وعنده حصان يركبه ، أو جمل يحمل عليه متاعه ، خرج بنفسه ، والا أخرج بدلا عنه وأعطاه مصروفه واحتياجاته ولوازمه . وبرزوا الى خارج .

ثم أرسل الى العساكر المذكورين يأمر كبارهم بالسفر الى بلادهم . فامتنعوا وقالوا : « لانسافر حتى نقبض المنكسر لنا من علائفنا » فعند ذلك دس الى أصاغرهم من خدعهم واستمالهم حتى تفرقوا فى خدمة المستوطنين ، ولم يبق مع كبارهم المعاندين الا القليل . فلم يسعهم بعد ذلك الا الامتثال .

فى غايته (١٨ مايو ١٨٠٦ م) :

ارتحلوا من بولاق ، وسافر معهم الشماشيرجى المذكور ومن بصحبته من المصريين ، وحولهم العربان ، وساروا على طريق دمياط — وهم اثنان وخمسون شخصا من كبار طائفة الأرنؤود — وحصل من العرب فى مدة تجمعهم ما لا خير فيه ، وكذلك فى مدة اقامتهم .. من الخطف والتعرية وقطع الطريق على المسافرين .

٦ منه (٢٤ مايو ١٨٠٦ م) :

حصل رعد كثير وبرق بين المغرب والعشاء بدون مطر ، والغيم قليل متقطع . وذلك سابع عشر بشنس ، وثانى عشر أيار ، والشمس فى ثالث درجة من برج الجوزاء ، وذلك من النوادر فى مثل هذا الوقت .

وفيه : ضربوا مدافع من القلعة لبشارة وردت من الجهة القبلية ... وذلك أن رجب أغا وياسين بيك اللذين انضما الى الأمراء المصرية القبليين عملا متاريس بحرى المنية ليمنعا من يصل اليهما من مراكب الذخيرة . فلما سافر محو بيك بمراكب الذخيرة ووصل الى حسن باشا طاهر ببنى سويف ، أصحب معه عابدين بيك وعدة من العسكر فى عدة مراكب . فلما وصلوا الى محل المتاريس تراموا بالمدافع والرصاص ، واقتحموا المرور ، وساعدهم الريح فخلصوا الى المنية ، وطلعوا اليها ، ودخلها عابدين بيك . وقتل فيما بينهم أشخاص ، وأرسلوا بذلك المبشرين ، فأخبروا بذلك وبالغوا فى الأخبار ، وأن ياسين بيك قتل هو وخلافه ، ورأسه واصلة مع رؤوس كثيرة . فعملوا لذلك شنكا ، وضربت مدافع كثيرة . ولم يكن لقتل ياسين بيك صحة . ثم وصل محو بيك وابن وافى وقد نزلا فى شكترية لها عدة مقاديف ودفعوا فى قوة التيار حتى وصلوا الى مصر ، ولم يصل معهم رؤوس كما أخبر المبشرون .

وفيه : قرر فرضة على البلاد ، وهى دراهم وغلال . وعينوا لذلك كاشفا ، فسافر ومعه عدة من العسكر وصحبتهم تقاقير . وسافر أيضا خازندار الباشا وصحبته على جلبى — وهو ابن أحمد كتخدا على ... قلده الباشا كشوفية شرقية بلبيس — وأخذ صحبته أكثر رفقائه وأصحابه من أولاد البلد ، فسافروا على حين غفلة الى ناحية الدقهلية .

١٠ منه (٢٨ مايو ١٨٠٦ م) :

وصلت الأخبار بأن الألفى ارتحل من البحيرة ورجع الى ناحية وردان ، وعدى من جيشه وعربانه طائفة الى جزيرة السبكية ، وهرب من كان مرابطا فيها من الأجناد المصرية وغيرهم ، وطلبوا من أهالى السبكية دراهم وغلالا ، وفر غالب أهلها منها وجلوا عنها ، وتفرقوا فى بلاد المنوفية .

١٢ منه (٣٠ مايو ١٨٠٦ م) :

عمل المولد النبوى ، ونصبوا بالأزبكية صوارى تجاه بيت الباشا والشيخ محمد سعيد البكرى ... وقد سكن بدار مطلة على البركة داخل درب عبد الحق ، وأقام هناك ليالى المولد اظهارا لبعض الرسوم .

وفيه : علقوا تسعة رؤوس على السبيل المواجه لباب زويلة ... ذكروا انها من قتلى دمنهور ، وهى رؤوس مجهولة . ووضعوا بجانبهم بيرقين ملطخين بالدماء .

وفيه : طلب الباشا دراهم سلفة من الملتزمين والتجار وغيرهم ، بموجب دفتر أحمد باشا خورشيد ، الذى كان قبضها فى عام أول — قبل القومة والحرابة — فعينوا مقاديرها ، وعينوا بطلبها المعينين بالطلب الحثيث من غير مهلة . ومن لم يجدوه ، بأن كان غائبا أو متغيبا ، دخلوا داره ، وطالبوا أهله أو جاره أو شريكه . فضاق ذرع الناس ، وذهبوا أفواجا الى السيد عمر أفندى النقيب . فيتضجر ويتأسف ويتقلق ، ويهون عليهم الأمر ، وربما سعى فى التخفيف عن البعض بقدر الامكان ... وقد تورط فى الدعوى !

مراكب المعاشات

وفيه : سافر السيد محمد المحروقى الى سد ترعة الفرعونية . وذلك أن الترعة المذكورة لما اجتهد فى سدها المصريون فى سنة اثنتى عشرة ومائتين وألف ، كما تقدم ، انفتحت من محل آخر ينفذ الى ناحية الترعة المسماة بالفيض ، وكان ذلك باشارة أيوب بيك الصغير لعدم انقطاع الماء عن رى بلاده ، فتهورت أيضا هذه الناحية واتسعت وقوى اندفاع الماء اليها فى مدة هذه السنين ... حتى جف البحر الغربى والشرقى ، وتغير ماء النيل فى الناحية الشرقية ، وظهرت فيه الملوحة من حدود المنصورة ، وتعطلت مزارع الأرز ، وشرقت بلاد البحر الشرقى ، وشربوا الأجاج ومياه الآبار والسواقى ... وكثر تشكى أهالى البلاد ، فحصل العزم على سدها فى هذا العام ، وتقيد بذلك السيد محمد المحروقى وذو الفقار كتخدا . وطلبوا المراكب لنقل الأحجار من الجبل ، وذهب ذو الفقار الى جهة السد وجمع العمال والفلاحين ، وسيقت اليه المراكب المملوءة بالأحجار من أول شهر صفر الى وقت تاريخه . وجبوا الأموال من البلاد لأجل النفقة على ذلك . ثم سافر السيد المحروقى أيضا وبذل جهده . ورموا بها من الأحجار ما يضيق به الفضاء من الكثرة . وتعطل بسبب ذلك المسافرون لقلة المراكب ، وجفاف البحر الغربى ، والخوف من السلوك فيه من قطاع الطريق والعربان .

فكانت المراكب المعاشات التى تأتى بالسفار وبضائع التجار ، يأتون بشحناتهم الى حد السد ومحل العمل والشغل ... فيرسون هناك ثم ينقلون ما بها من الشحنة والبضائع الى البر ، وينقلونها الى السفن والقوارب التى تنقل الأحجار ، ويأتون بها الى ساحل بولاق ، فيخرجون مافيها الى البر ، وتذهب تلك السفن والقوارب الى أشغالها فى نقل الحجر . ولا يخفى ما يحصل فى البضائع من الاتلاف والضياع والسرقة وزيادة الكلف والأجر ، وغير ذلك ... وطال أمد هذا الأمر .

أواخره (حوالى منتصف يونية ١٨٠٦ م) :

نزل الباشا للكشف على الترعة ، فغاب يومين وليلتين ، ثم عاد الى مصر .

ربيع الآخر

فيه : وردت سعاة من الاسكندرية ، وأخبروا بورود أربع مراكب وفيها عساكر من النظام الجديد وصحبتهم طظريات وبعض أشخاص من الانكليز . ومعهم مكاتبة خطابا الى الألفى ، وبشارة بالرضا والعفو للأمراء المصرية من الدولة بشفاعة الانكليز .

فلما وصلوا اليه بناحية حوش ابن عيسى بالبحيرة ، سر بقدومهم ، وعمل لهم شنكا ، وضرب لهم مدافع كثيرة ، ثم شهلهم وأرسلهم الى الأمراء القبليين ، وصحبتهم أحد صناجقه — وهو أمين بيـك — ومحمد كاشف تابع ابراهيم بيك الكبير . ثم أنه أرسل عدة مكاتبات بذلك الخبر الى المشـايخ وغيرهم بمصر ، وكذلك الى مشايخ العربان ، مثل : الحويطات والعائد وشيخ الجزيرة وباقى المشاهير فأحضر بن شديد وابن شعير الأوراق التى أتتهم من الألفى الى الباشا وفيها : « ونعلمكم أن محمد على باشا ربما ارتحل الى ناحية السويس ، فلا تحملوا أثقاله . وان فعلتم ذلك فلا تقبل لكم عذرا » . ولما سمع الباشا ذلك قال : « انه مجنون وكذاب » .

وفيه : فتح الباشا الطلب بمائلة البلاد والحصص من الملتزمين والفلاحين ، وأمر الروزنامجى وطائفته بتحرير ذلك عن السـنة القابلة . فضج الملتزمون وترددوا الى السـيد عمر النقيب ، والمشايخ ... فخاطبوا الباشا . فاعتـذر اليهم باحتيـاج الحال والمصاريف . ثم استقر الحـال على قبض ثلاثة أرباعـه : النصف على الملتزمين ، والربـع على الفـلاحين . وأن يحسب الريال فى القبـض منهم بثلاثة وثمانين نصفا ، ويقبضه باثنين وتسـعين . وعلى كل مائة ريال خمسة أنصاف حق طريق ، سواء كان القبض من الملتزم عن حصته فى المصر ، أو بيد المعينين من طرف الكاشف فى الناحية . واذا كان التوجيه بالطلب من كاشف الناحية كانت أشنع فى التغريم والكلف ... لترادف الارسال ، وتكرار حق الطريق !

الاثنين ٦ منه (٢٣ يونية ١٨٠٦ م)

حضر أحمد كاشف سليم من الجهة القبلية . وسبب حضوره : أن الباشا لما بلغته هذه الأخبار ، أرسل الى الأمراء القبليين يسـتدعى منهم بعض عقلائهم ، مثل : أحمد آغا شويكار ، وسليم أغا مستحفظان ، ليتشاور معهم فى الأمـر . فلم يجب واحد منهم الى الحضور . ثم اتفقوا على ارسـال أحمد كاشف لكونه ليس معـدودا من أفرادهم ، وبينه وبين الباشا نسب — لأن ربيبته تحت حسن الشماشيرجى — فحضر واختلى به الباشا مرارا ، ثم أمره بالعود . فسافر فى يوم الثلاثاء رابع عشره وأصحب معه هدية الى ابراهيم بيـك والبرديسى وعثمان بيك حسن ، وغيرهم من الأمراء ، وهى عدد خيول وقلاعيات وثياب وأمتعة وغير ذلك .

وفيه : قبض الباشا على ابراهيم أغا الوالى وحبسه مع أرباب الجرائم . وسبب ذلك : أن البضاصين شاهدوا حمولا فيها ثياب من ملابس الأجناد أعدها بعض تجار النصارى ليرسلها الى جهة قبلى ، لتباع على أجنـاد الأمـراء المصريين ومماليكهم ويربح فيها . وسـئل الحاملون لها ، فأخبروا أن أربابها فعلوا ذلك باطلاع الوالى المذكور على مصـلحة أخـذها منهم . ووصـل خبر ذلك الى الباشا ، فأحضره ، وقبض عليه وحبسه ، ثم أطلقه بعد أيام على مصلحة تقررت عليه بشفاعة امرأة من القهارمة المتقربين ! وعاد الى منصبه ، وأخذت البضاعة ، وضاعت على أصحابها ، وغرموهم زيادة على ذلك غرامة ، وكذلك اتهـم الذى حجزها بأنه اختلس منها أشياء وحبس وأخذت منه مصلحة ! فتحصل من هذه القضية جملة من المال ، مع أنها فى خلال المراسلة والمهاداة . ونودى بعد ذلك بأن من أراد أن يرسل شيئا أو متجـرا ، ولو الى السويس ، فليستأذن على ذلك ويأخذ به ورقة من باب الباشا ، فان لم يفعل وضاع عليه ... فاللوم عليه .

الثلاثاء ١٤ منه (أول يولية ١٨٠٦ م) :

ورد سـاعى ، وصحبتـه مكتـوب من حاكم

الاسكندرية خطابا الى الدفتردار ، يخبره بوصول قبطان باشـا الى الثغر ، وفى أثره واصل باشـا متولى على مصر ، واسمه موسى باشا ، وصحبتهم مراكب بها عساكر من الصنف الذى يسمى النظام الجديد .

وكان ورود القبطان الى الثغـر ليلة الجمعـة عاشره . وطلعوا الى البر بالاسكندرية يوم السبت حادى عشره .

فلما قرأ الدفتردار الورقة ، أرسل الى السيد عمر النقيب ، فحضر اليه ، وركب صحبته للباشا ، واختليا معه ساعة .. ثم فارقاه .

ولما بلغ الألفى ورود هذه الدونانمة ، وحضرت اليه المبشرون — وهو بالبحيرة — امتـلأ فرحا ، وأرسل عدة مكاتبـات الى مصر صحبة السعاة . فقبضوا على السعاة ، وحضروا بهم الى الباشا ... فأخفاها ، ووصل غيرهاالى أربابهاعلى غيريدالسعاة ، وصورتها : الاخباربحضور الدونانمة صحبةقبطان باشا والنظام الجديد وولاية موسى باشا على مصر ، وانفصال محمد على باشا عن الولاية . وأن مولانا السلطان عفا عن الأمـراء المصريين ، وأن يكونوا كعادتهم فى امارة مصر وأحكامها ، والباشا المتولى يستقر بالقلعة كعادته ، وأن محمد على باشا يخرج من مصر ويتوجه الى ولايته التى تقلدها — وهى ولاية سلانيك — وأن حضرة قبطان باشا أرسـل يستدعى اخوانـا الأمراء من ناحيـة قبلى . فالله يسهل بحضورهم ... فتكونوا مطمئنين الخاطر ، وأعلموا اخوانكم من الأولداشات والرعيـة بأن يضبطوا أنفسهم ويكونوا مع العلماء فى الطاعة . وما بعد ذلك الا الراحة والخير والسلام .

الجمعة ١٧ منه (٤ يولية ١٨٠٦ م) :

ورد قاصد من طرف قبودان باشا الى بولاق ، فأرسل اليه الباشا من قابله وأركبه وحضر به الى بيت الباشا . وأراد أن ينزله بمنـزل الدفتردار ، فاستعفى الدفتردار من نزوله عنده ، فانزلوه ببيت الروزنامجى ، وأقام يوم السـبت والأحد . ولم يظهر ما دار بينهمـا . ثم سافر فى يوم الاثنـين ، وذهب صحبته سليم ، المعروف « بقبىلركخسى » .

وشرع الباشـا فى عمل آلات حـرب وجلل ومدافع ، وجمعوا الحـدادين بالقلعة ، وأصعدوا بنبات كثيرة واحتياجات ومهمات الى القلعة . وظهر منه علامات العصيان وعدم الامتثال ، وجمع اليـه كبار العسكر وشاورهم وتناجى معهم فوافقوه على ذلك ، لأن ما من أحد منهم الأوصار له عدة بيوت وزوجات والتزام بلاد وسيادة ... لم يتخيلها ، ولم تخطر بذهنه ولا بفكره ، ولا يسهل به الانسلاخ عنها والخروج منها .. ولو خرجت روحه !

وأخبر المخبرون : أن الألفى أرسل هدية الى قبودان باشا ، وفيها ثلاثون حصانا : منهـا عشرة برخوتها ، ومن الغنم أربعـة آلاف رأس ، وجملة أبقار وجواميس ، ومائة جمل محمـلة بالذخيرة ، وغير ذلك من النقود والثياب والأقمشـة برسمه ورسم كبار أتباعه .

ثم ان الباشا أحضر السيد عمر والخاصة وعرفهم بصورة الأمر الوارد بعزله وولاية موسى باشـا ، وأن الأمراء المصريين أعرضـوا للسلطنة فى طلب العفو وعودهم الى امرياتهم ، وخروج العساكر التى أفسـدت الاقليم عن أرض مصر . وشرطوا عـلى أنفسهم القيام بخدمة الدولة والحرمين الشريفين وارسال غلالها ، ودفع الخزينة وتأمين البـلاد . فحصل عنهم الرضا ، وأجيبوا الى سؤالهم على هذه الشروط . وأن المشـايخ والعلماء يتكفلون بهم ، ويضمنون عهـدهم بذلك ... فأعلموا فـكركم ورأيكم فى ذلك . ثم انفصلوا من مجلسه .

وفيـه : أرسل الباشـا فجمع الأخشاب التى

وجدها ببولاق فى الشوادر والحواصل والوكائل ، وطلعوا جميع ذلك الى القلعة لعمل العربات والعجل برسم المدافع والقنابر .

الثلاثاء ٢١ منه (٨ يولية ١٨٠٦ م) :

كان مولد المشهد الحسينى المعتاد ، وحضر الباشا لزيارة المشهد . ودعاه شيخ السادات — وهو الناظر على المشهد والمتقيد لعمل ذلك — فدخل اليه وتغدى عنده ، ثم ركب وعاد الى داره . وأكثر من الركوب والطواف بشوارع المدينة والطلوع الى القلعة ، والنزول منها ، والذهاب الى بولاق وهو لابس برنسا .

الخميس ٢٣ منه (١٠ يولية ١٨٠٦ م)

حضرديوان أفندىوعبدالله أغا بكتاش الترجمان عند السيد عمر ، ومعهما صورة عرض يكتب عن لسان المشايخ الى الدولة ... فى شأن هذه الحادثة . فتناجوا مع بعضهم حصة من النهار ، ثم ركبا وحضرا فى ثانى يوم عند الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وأمروا المشايخ بتنظيم العرضحال وترصيعه ، ووضع أسمائهم وختومهم عليه ، ليرسله الباشا الى الدولة ... فلم تسعهم المخالفة ، ونظموا صورته ، ثم بيضوه فى كاغد كبير ، وصورته بالحرف :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الرءوف الحليم ، الحمد لله ذى الجلال على جميع الشئون والأحوال . نرفع اليك أكفا من بحر جودك مغترفة ، ونتوجه الى كعبة فضلك بقلوب بخالص الوحدانية معترفة ، أن تديم بهجة الزمان ، ورونق عنوان اليمن والأمان ... بدوام وزير تخضع لمهابتـه الرقاب ، وتدنو لهمة سطوته المهمات الصعاب ... منتهى آمال المقاصد والوسائل ، ومحط رحال المطالب من كل سائل : حضرة صدر الصدور ، ومدبر مهمات الأمور ... الصدر الأعظم محمد على باشا . أدام الله دعائم العز بقبامه ، وفسح للأنام فى أيامه ، محفوفا بعناية الرب الكريم ، محفوظا بآيات القرآن العظيم .. آمين

« أما بعد رفع القصد والرجاء ، ومد سواعد الخضوع والالتجاء ، فاننا ننهى لمسامعكم العلية ، وشيم أخلاقكم المرضية : بأنه قد قدم حضرة الدستور المكرم ، والمشير المفخم ، مدبر مهمات الاسكلات البحرية ، خادم الدولة العلية ، الوزير قبودان باشا الى ثغر سكندرية . فأرسل كتخدا البوابين سعيد أغا .. وصحبته الأمر الشريف، الواجب القبول والتشريف ، المعنون بالرسم الهمايونى العالى ... دامت مسراته على ممر الدهور والأعوام والأيام والليالى . فأوضح مكنونه ، وأفصح مضمونه : بأنه قد تطاولت العداوة بين الوزير محمد على باشا وبين الأمراء المصريين . فتعطلت مهمات الحرمين الشريفين من غلال ومرتبات ، وتنظيم أمير الحج على حكم سوابق العادات ..

« والحال .. أنه ينبغى تقديم ذلك على سائر المطلوبات ، وأن هذا التأخير سببه كثرة العساكر والعلوفات ، وترتب على ذلك لكامل الرعية بالأقاليم المصرية الدمار والاضمحلال ، وأنهت الأمراء المصرية هذه الكيفية لحضرة السدة السنية ، وأنهم يتعهدون بالتزام جميع مرتبات الحرمين الشريفين من غلال وعوائد ومهمات ، واخراج أمير الحج على حكم أسلوب المتقدمين ... مع الامتثال لكامل ما يرد من الأوامر الشريفة الى ولاة الأمور بالديار المصرية ، وأنهم يقومون فى كل سنة بدفع الأموال الميرية الى خزينة الدولة العلية .. ان حصل لهم العفو عن جرائمهم الماضية ، والرضا بدخولهم مصر المحمية .

« والتمسوا من حضرة الدولة العلية قبول ذلك منهم ، وبلوغهم مأمولهم . فأصدرتم لهم الأمر

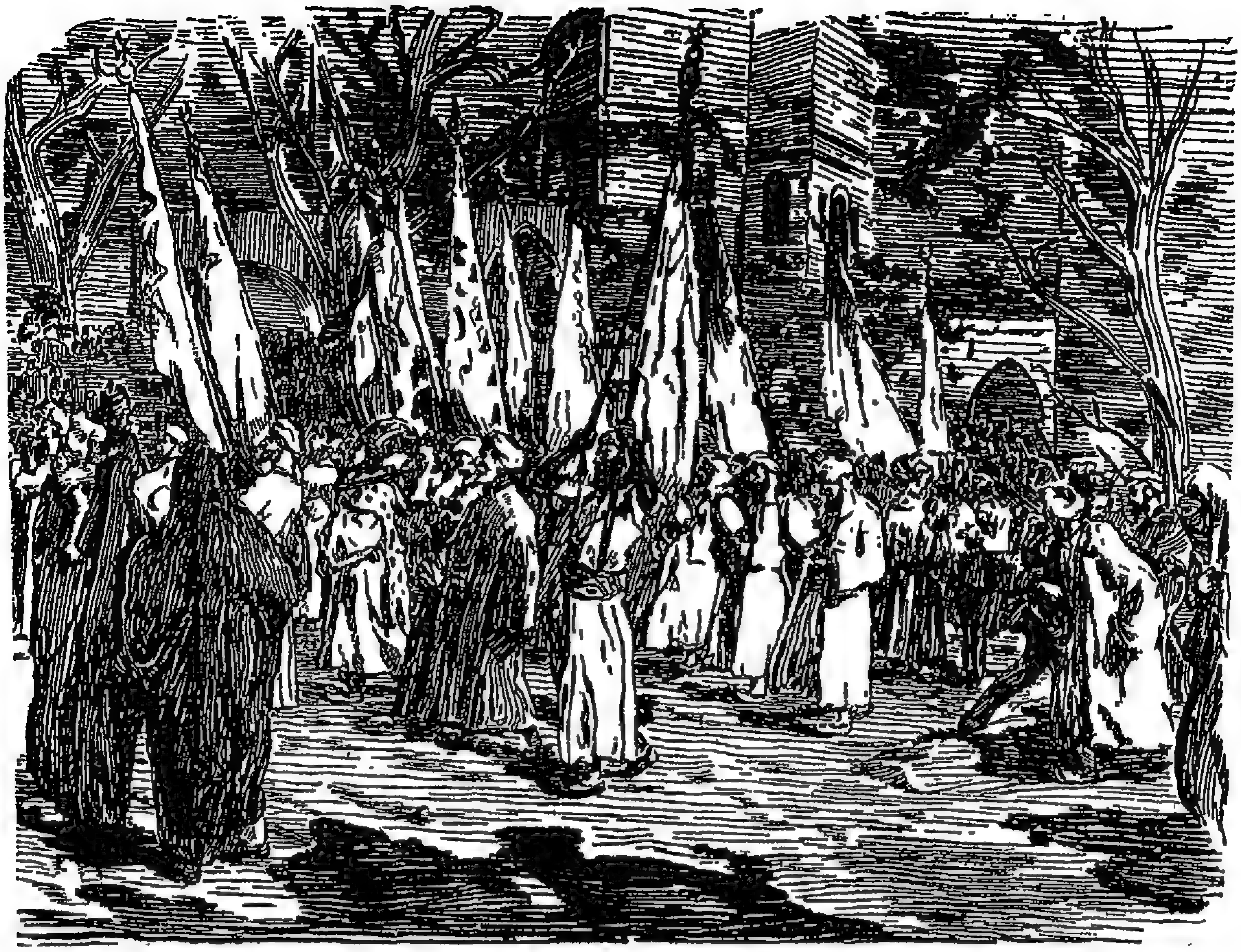

.. فى مولد الحسين

الهمايونى الشريف ، المطاع المنيف ، بعزل الوزير المشار اليه ، لتقرير العداوة معه . ووجهتم له ولاية سلانيك ، ووجهتم ولاية مصر الى الوزير موسى باشا ، وقبلتم توبتهم .

« وأن العلماء والوجاقلية ، والرؤساء والوجهاء بالديار المصرية ، الداعين لحضرة مولانا الخنكار ببلوغ المأمولات المرضيـة .. ان تعهـدوا بهـم وكفلوهم يحصل لهـم المساعدة الكلية ، حـكم بالتماسهم من أعتاب حضرة الدولة العلية . فأمركم مطاع ، وواجب القبول والاتباع .

« غير أننا نلتمس من شيم الأخلاق المرضية ، والمراحم العلية ، العفو عن تعهدنا وكفالتنا لهم . فان شرط الكفيل قدرته على المكفول ، ونحن لاقدرة لنـا على ذلك .. لما تقـدم من الأفعال الشهيرة ، والأحوال والتطورات الكثيرة ، التى منها خيانة المرحوم السيد على باشا — والى مصر سابقا — بعد واقعة ميرميران طاهر باشا ، وقتل الحجـاج القادمين من البلاد الرومية ، وسلب الأموال بغير أوجه شرعية !

« والصـغير لايسمع كلام الـكبير ، والكبير لا يستطيع تنفيذ الأمر على الصغير . وغير ذلك مما هو معلومنا وبمشاهدتنا . خصوصا ما وقع فى العام الماضى من اقدامهم على مصر المحمية ، وهجومهم عليها فى وقت الفجرية . فجلاهم عنها حضرة المشار اليه ، وقتـل منهم جملة كثيرة ، فكانت واقعـة شهيرة ... فهذا شىء لاينكر . فحينئـذ لا يمكننا

التكفل والتعهد ، لأننا لا نطلع على ما فى السرائر ، وما هو مستكن فى الضمائر .

« فنرجو عدم المؤاخذة فى الأمور التى لا قدرة لنا عليها ، لأننا لا نقدر على دفع المفسدين والطغاة والمتمردين الذين اهلكوا الرعايا ودمروهم ، فأنتم خلفاء الله على خليقته ، وأمناؤه على بريته .

« ونحن ممتثلون لولاة أموركم فى جميع ماهو موافق للشريعة المحمدية ، على حكم الأمر من رب البرية ، فى قوله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فلا تسعنا المخالفة فيما يرضى الله ورسوله . فان حصل منهم خلاف ذلك ، نكل الأمر فيهم الى مالك الممالك لأن أهل مصر قوم ضعاف . وقال عليه الصلاة والسلام : « أهل مصر الجند الضعيف فما كادهم أحد الا كفاهم الله مؤنته » . وقال أيضا : « وكل راع مسئول عن رعيته يوم القيامة » .

« ونفيد أيضا حضرة المسامع العلية ، من خصوص القرض والسلف ، التى حصل منها الثقلة للأهالى ، من حضرة محسوبكم الوزير محمد على باشا . فانه اضطر اليها لأجل اغراء العساكر وتقويتهم على دفع الأشقياء والمفسدين ، والطغاة المتمردين ... أمتثالا لأوامر الدولة العلية فى دفعهم ، والخروج من حقهم . واجتهد فى ذلك غاية الاجتهاد ، رغبة فى حلول أنظار الدولة العلية فالأمر مفوض اليكم ، والملك أمانة الله تحت أيديكم . بسأل الله الكريم المنان ، أن يديم العز والامتنان ، لسدة السلطان ، مع رفعة ترشح بها فى النفوس عظمته ، وسطوة تسرى بها فى القلوب مهابته . وأن يبقى دولته على الأنام ، وأن يحسن البدء والختام بجاه سيدنا محمد خير البرية ، وآله وصحبه ذوى المناقب الوفية » .

وكتبوا من ذلك نسختين : احداهما الى القبطان ، وأخرى الى السلطان . وكتبوا عليهما الامضاء والختوم وأرسلوهما .

الاثنين ٢٧ منه (١٤ يولية ١٨٠٦ م) :

وصل شاكر أغا سلحدار الوزير الى بولاق فتلقوه ، وأركبوه الى بيت الباشا . فلما أصبح النهار ، أرسلوا أوراقا وصلت صحبة السلحدار المذكور : احداها خطابا للمشايخ ، وأخرى الى شيخ السادات ، وثالثة الى السيد عمر النقيب ، وكلها على نسق واحد ، وهى من قبودان باشا ، وعليها الختم الكبير ، وهى بالعربى . وفرمان رابع — باللغة التركية — خطابا للجميع . ومضمون الكل : الاخبار بعزل محمد على باشا عن ولاية مصر وولايته سلانيك ، وولاية السيد موسى باشا المنفصل عنها — مصر ، وأن يكون الجميع تحت الطاعة والامتثال للأوامر ، والاجتهاد فى المعاونة ، وتشهيل محمد على باشا فيما يحتاج اليه من السفن ولوازم السفر ، ليتوجه هو وحسن باشا والى جرجا ، من طريق دمياط بالاعزاز والاكرام وصحبتهما جميع العساكر من غير تأخير .. حسب الأوامر السلطانية .

ثم انهم اجتمعوا فى عصر ذلك اليوم بمنزل السيد عمر ، وركبوا الى الباشا . فلما استقروا بالمجلس . قال لهم : « وصلت اليكم المراسلات الواردة صحبة السلحدار ؟ » ، قالوا : « نعم » . قال : « وما رأيكم فى ذلك ؟ » . قال الشيخ الشرقاوى : « ليس لنا رأى .. والرأى ما تراه ، ونحن الجميع على رأيك ! » . فقال لهم : « فى غد أبعث اليكم صورة تكتبونها فى رد الجواب »

وأرسل اليهم من الغد صورة مضمونها : أن الأوامر الشريفة وصلت الينا ، وتلقيناها بالطاعة والامتثال .. الا أن أهل مصر ورعيتها قوم ضعاف وربما عصت العساكر عن الخروج ، فيحصل لأهل

البلدة الضرر وخراب الدور وهتك الحرمات . وأنتم أهل للشفقة والرحمة والتلطف ... ونحو ذلك من التزويقات والتمويهات ، وأصدروها اليه .

وفى أثناء ذلك ... محمد على باشا آخذ فى الاهتمام والتشهيل ، واظهار الحركة ، والخروج لمحاربة الألفى وبرزت العساكر الى ناحية بولاق وخارج البلدة ، وعدوا بالخيام الى البر الغربى . وتقدم الى مشايخ الحارات بالتعريف على كل من كان متصفا بالجندية . ويكتبوا أسماءهم ومحل سكنهم . ففعلوا ذلك .

ثم كتبت لهم أوراق بالأمر بالخروج ، وعليها ختم الباشا ، ومسطور فى ورقة الأمر بأن المأمور يصحب معه شخصين أو ثلاثة ، على أن أكثرهم لا يملك حمارا يركبه ، ولا ما يحمل عليه متاعه ، ولا ما يصرفه على نفسه فضلا عن غيره ! وكذلك أمر الوجاقلية جليلهم وحقيرهم بالخروج للمحاربة .

وفيه : شرع الباشا فى تقرير فرضة على البلاد البحرية ، وهى : القليوبية والمنوفية والغربية والدقهلية ، والمزاحمتين الى آخر مجرى النيل . ورتبوها أعلى وأدنى وأوسط ، وهى غلال : الأعلى ثلاثون أردبا ، وثلاثون رأسا من الغنم ، وأردب أرز ، وثلاثون رطلا من الجبن ومن السمن كذلك . وغير هذه الأصناف كالتبن والجلة وغير ذلك . والأوسط : عشرون أردبا وما يتبعها مما ذكر والأدنى : اثنا عشر . ومع ذلك القبض والطلب مستمر فى فائظ الملتزمين : بعضه من ذواتهم ، وبعضه من فلاحيهم ... مع ما يتبع ذلك من حق الطرق والخدم وتوالى الاستعجالات .

الثلاثاء ٢٨ منه (١٥ يولية ١٨٠٦ م) :

فى ليلته سافر شاكر أغا السلحدار بالأجوبة .

جمادى الأولى

الجمعة ٢ منه (١٨ يولية ١٨٠٦ م) :

احترق معمل البارود بناحية المدابغ ، فحصل منه رجة عظيمة وصوت هائل ، مثل المدفع العظيم ، سمعه القريب والبعيد . ومات به عدة أشخاص . ويقال أنهم رموا بنبة من القلعة ، بقصد التجربة على جهة بولاق . فسقطت فى المعمل المذكور ، وحصل ماذكر .

السبت ٣ منه (١٩ يولية ١٨٠٦ م) :

فى وقت الزوال ، ركب الباشا من داره يريد السفر لمحاربة الألفى ، ونزل الى بولاق ، وعدى الى بر انبابة لتجهيز العرضى ، وأرسل أوراقا لتجمع العربان ، وعين لذلك حسن أغا محرم وعلى كاشف الشرقية .

الاثنين ٥ منه (٢١ يولية ١٨٠٦ م) :

حضر سليم أغا قابجى كتخدا — الذى تقدم سفره صحبة سعيد أغا كتخدا البوابين — مرسلا الى قبودان باشا من طرف محمد على باشا ، فرجع بجواب الرسالة ومحصلها : أن القبودان لم يقبل هذه الأعذار ، ولا مانمقوه من التمويهات التى لا أصل لها ، ولابد من تنفيذ الأوامر وسفر الباشا . ونزوله هو وحسن باشا وعساكرهما ، وخروجهم من مصر ، وذهابهم الى ناحية دمياط ، وسفرهم الى الجهة المأمورين بالذهاب اليها ، ولا شىء غير ذلك أبدا .

الخميس ٨ منه (٢٤ يولية ١٨٠٦ م) :

حضر على كاشف الشرقية ، وذلك أنه تقنطر من فوق جواده وكسرت رجله ، وأحضروه محمولا .

وفيه : وصل الكثير من طوائف عرب الحويطات ،

ونصف حرام من ناحية شبرا الى بولاق . وضربوا لحضورهم مدافع .

وفيه : ركب طوائف الدالاتية ، وتقدموا الى جهة بحرى . وأشيع ركوب محمد على باشا ذلك اليوم . فلم يركب .

الاثنين ١٢ منه (٢٨ يولية ١٨٠٦ م) :

ورد الخبر بوصول موسى باشا الى ثغر سكندرية يوم الأحد حادى عشره . والمذكور أرسل من طرفه قاصدا وعلى يده مرسوم خطابا لأحمد أفندى الدفتردار بأن يكون قائما مقامه ، ويأمره بضبط الايراد والمصرف . فلم يقبل الدفتردار ذلك ، وقال : « لم يكن بيدى قبض ولا صرف ، ولا علاقة لى بذلك » .

وفيه : وردت الأخبار بأن العساكر الكائنين بالرحمانية ومرقص ، رجعوا الى النجيلة ، ونصبوا عرضيهم هناك . وحضر الألفى تجاههم . فركبوا لمحاربته — وكانوا جمعا عظيما — فركب الألفى بجيوشه وحاربهم . ووقع بينه وبينهم وقعة عظيمة انجلت عن نصرته عليهم ، وانهزام العسكر . وقتل من الدلاة وغيرهم مقتلة عظيمة .

ولم يزالوا فى هزيمتهم الى البحر ، وألقوا بأنفسهم فيه . وامتلأ البحر من طراطير الدالاتية . وهرب كتخدا بيك وطاهر باشا الى بر المنوفية ، وعدوا فى المراكب . واستولى الألفى وجيوشه على خيولهم وخيامهم وحملاتهم وجبخاناتهم ، وأرسل برءوس القتلى والأسرى الى القبودان . وأشيع خبر هذه الواقعة فى الناس وتحدثوا بها ، وانزعج الباشا والعسكر انزعاجا عظيما ، وعدى الى بر بولاق .

وطاف الوالى وأصحاب الدرك ينادون على العساكر بالخروج الى العرضى ، ويكتبوا أسماءهم.

وحضر الباشا الى داره ، وأكثر من الركوب والذهاب والمجىء والطواف حول المدينة والشوارع ، ويذهب الى بولاق ومصر القديمة ، ويرجع ليلا ونهارا وهو راكب رهوانا تارة أو فرسا أو بغلة ، ومرتد ببرنس ابيض — مثل المغاربة — والعسكر أمامه وخلفه .

ووصل مجاريح كثيرة ، وأخبروا بالواقعة المذكورة .

ومات من جماعة الألفى : أحمد بيك الهنداوى فقط ، وانجرح أمين بيك وغيره جرح سلامة .

الاحد ١٨ منه (٣ اغسطس ١٨٠٦ م) :

طافت جماعة قواسة على بيوت الأعيان ، يبشرونهم بأن العساكر الكائنين بناحية الرحمانية ركبوا على عرضى الألفى ، ووقعت بينهم مقتلة كبيرة ، وقتلوا منه جملة فيهم أربع صناجق ، ونهبوا منه زيادة عن ثمانمائة جمل بأحمالها وعدة هجن محملة بالأموال ورجعت العساكر ومعهم نحو الثمانين رأسا ومائة أسير ، وغير ذلك . وأن الألفى هرب بمفرده الى ناحية الجبل ، وقيل الى الأسكندرية فكانوا يطوفون على الأعيان بهذا الكلام ويأخذون منهم البقاشيش . ثم ظهر أن هذا الكلام لا أصل له ، وتبين أن طائفة من العرب يقال لهم (الجوابيص) وهم طائفة مرابطون ليس يقع منهم أذية ولا ضرر لأحد مطلقا ، نزلوا بالجبل بتلك الناحية ، فدهمهم العسكر ، وخطفوا منهم ابلا وأغناما . وقتل فيما بينهم أنفار من الفريقين لمدافعتهم عن أنفسهم .

وفى ذلك اليوم أيضا ، ركب حسن أغا الشماشيرجى الى المنصورية — قرية بالجيزة — ومعه طائفة من العسكر وهى بالقرب من الأهرام . فضربوا القرية ، ونهبوا منها أغناما ومواشى وأحضروها الى العرضى بانبابة . وحضر خلفهم أصحاب الأغنام ، وفيهم نساء يصرخن ويصحن . وصادف ذلك أن السيد عمر النقيب عدى الى

العرضى ، فشاهدهم على هذه الحالة ، فكلم الباشا فى شأنهم . فأمر برد الأغنام التى للنساء والفقراء الصارخين ، وذهبوا بالباقى للمطابخ !

الاربعاء ٢١ منه (٦ اغسطس ١٨٠٦ م) :

وصلت العساكر المهزومة وكبراؤهم الى بولاق ، وفيهم مجاريح كثيرة ، وهم فى أسوأ حال فمنعهم الباشا من طلوع البر ، وردهم بمراكبهم الى بر انبابة ، واستمر هناك الى آخر النهار . وهم عدد كثير ، وقد انضاف اليهم من كان ببر المنوفية . ولم يحضر المعركة لما داخلهم من الخوف . ثم انهم طلعوا الى بولاق وانتشروا فى النواحى ، وذهب منهم الكثير الى مصر القديمة ، وحضر كثير منهم ودخلوا المدينة ، ودخلوا البيوت ، وأزعجوا كثيرا من الناس الساكنين بناحية قناطر السباع وسويقة اللالا والناصرية وغير ذلك من النواحى ، وأخرجوهم من دورهم .

وقد كانت الناس استراحت منهم مدة غيابهم .

الاربعاء ٢٨ منه (١٣ اغسطس ١٨٠٦ م - ٨ مسرى ١٥٢٢ ق) :

أوفى النيل أذرعه . وركب الباشا فى صبيحة يوم الخميس الى قنطرة السد . وحضر القاضى والسيد عمر النقيب ، وكسر الجسر بحضرتهم ، وجرى الماء فى الخليج جريانا ضعيفا ، بسبب علو أرضه ، وعدم تنظيفه من الأتربة المتراكمة فيه ويقال انهم فتحوه قبل الوفاء لاشتغال بال الباشا ، وتطيره وخوفه من حادثة تحدث فى مثل يوم هذا الجمع ، وخصوصا وقد وصل الى بر الجيزة الكثير من أجناد الألفى .

جمادى الآخرة

الخميس ٦ منه (٢١ اغسطس ١٨٠٦ م):

حضر طاهر باشا الى بر انبابة ، ونصب خيامه هناك ، وعدى هو فى قلة الى بر بولاق وذهب الى داره بالأزبكية .

وكان من أمره : انه لما حصلت له الهزيمة ، ذهب الى المنوفية . وقد اغتاظ عليه الباشا ، وأرسل يقول له : « لا ترينى وجهك بعد الذى حصل » . وترددت بينهما الرسل . ثم أرسل اليه يأمره بالذهاب الى رشيد ، فذهب الى فوة .

ثم حضر شاهين بيك الألفى الى الرحمانية . فأرسل الباشا الى طاهر باشا يأمره بالذهاب الى شاهين بك ويطرده من الرحمانية . فذهب اليه فى المراكب ، فضرب عليه شاهين بيك بالمدافع فكسر بعض مراكبه فرجع على أثره ، وركب من البر حتى تعدى بحر الرحمانية ، ثم حضر الى مصر . ووصل بعده الكثير من العسكر ، فأمرهم الباشا بالعود ، فعاد الكثير منهم فى المراكب .

وحضر أيضا اسماعيل أغا الطوبجى كاشف المنوفية ، وقد داخل الجميع الخوف من الألفى . وأما الألفى فانه بعد انفصال الحرب من النجيلة، رجع الى حصار دمنهور . وذلك بعد أن ذهب أعيانها الى قبودان باشا وقابلوه وامنهم ورجعوا على أمانه . فافترقوا فرقتين : فرقة منهم اطمأنت ورضيت بالأمان ، والأخرى لم تطمئن بذلك . وأرسلوا الى السيد عمر والباشا . فرجع اليهم الجواب يأمرونهم باستمرارهم على الممانعة ومحاربة من يأتى لحربهم . فامتثلوا ذلك ، وتبعتهم الفرقة الأخرى وأرسل اليهم القبودان يدعوهم الى الطاعة ، ويضمن لهم عدم تعدى الألفى عليهم .. فلم يرضوا بذلك . فعند ذلك استفتى العلماء فى جواز حربهم حتى يذعنوا للطاعة ، فأفتوه بذلك فعند ذلك أرسل الى الألفى يأمره بحصربهم . فحاصرهم وحاربهم واستمر ذلك .

الجمعة ٧ منه (٢٢ اغسطس ١٨٠٦ م) :

ورد الخبر بموت الكاشف الذى بدمنهور .

الخميس ١٣ منه (٢٨ اغسطس ١٨٠٦ م) :

وصلت قافلة من السويس وصحبتها المحمل ، فأدخلوه وشقوا به من المدينة . وخلفه طبل وزمر ، وأمامه أكابر العسكر وأولاد الباشا ومصطفى جاويش المتسفر عليه .

ولقد أخبرنى مصطفى جاويش المذكور : أنه لما ذهب الى مكة — وكان الوهابى حضر الحج واجتمع به — فقال له الوهابى : « ما هذه العويدات التى تأتون بها وتعظمونها بينكم ؟ » . (يشير بذلك القول الى المحمل) . فقال له : « جرت العادة من قديم الزمان بها . يجعلونها علامة واشارة لاجتماع الحجاج » . فقال : « لا تفعلوا ذلك ، ولا تأتوا به بعد هذه المرة . وان أتيتم به مرة أخرى فانى أكسره » .

الاربعاء ١٩ منه (٣ سبتمبر ١٨٠٦ م) :

حضر الأفندى المكتوبجى من طرف القبودان الى بولاق . فأرسل اليه الباشا حصانا فركبه . وحضر الى بيت الباشا بالأزبكية فى صبح يوم الاربعاء المذكور . فأحضر الباشا الدفتردار وسعيد آغا ، واختلوا مع بعضهم ، ولم يعلم مادار بينهم .

الخميس ٢٠ منه (٤ سبتمبر ١٨٠٦ م) :

ارتحل من بالجيزة من الأمراء المصريين — وعدتهم ستة من المتأمرين الجدد الذين أمرهم الألفى — فذهبوا عند أستاذهم بناحية دمنهور ، ونزلوا بالقرب منه .

الثلاثاء ٢٥ منه (٩ سبتمبر ١٨٠٦ م) :

مر سليمان أغا صالح من ناحية الجيزة ، راجعا من عند الأمراء القبالى ، وصحبته هدايا من طرفهم الى القبودان ، وفيها خيول وعبيد وطواشية وسكر . ولم يجيبوا الى الحضور لممانعة عثمان بيك البرديسى وحقده الكامن للألفى ... ولكون هذه الحركة — وهى مجىء القبودان وموسى باشا — باجتهاده وسفارته وتدبيره كما سيتلى عليك فيما بعد .

وفيه : ظهرت فحوى النتيجة القياسية ، وانعكاس القضية . وهو أن القبودان لما لم يجد فى المصرلية الاسعاف ، وتحقق ما هم عليه من التنافر والخلاف ، وتكررت ما بينه وبين الفريقين المراسلات والمكاتبات .. فعند ذلك استأنف مع محمد على باشا المصادقة ، وعلم أن الأروج له معه الموافقة . فأرسل اليه المكتوبجى ، واستوثق منه ، والتزم له بأضعاف ما وعد به من الكذابين معجلا ومؤجلا على ممر السنين .. والالتزام بجميع المأمورات ، والعدول عن المخالفات .

فوقع الاتفاق على قدر معلوم . وأرسل الى محمد على باشا يأمره بكتابة عرضحال خلاف الأولين ، ويرسله صحبة ولده على يد القبودان . فعند ذلك لخصوا عرضحال ، وختم عليه الأشياخ والاختيارية والوجاقلية . وأرسله صحبة ابنه ابراهيم بيك ، وأصحب معه هدية حافلة وخيولا وأقمشة هندية وغير ذلك . وتلفت طبخة الألفى والتدابير ، ولم تسعفه المقادير !

ومضمون العرضحال وملخصه : « أن محمد على باشا كافل الاقليم ، وحافظ ثغوره ، ومؤمن سبله ، وقامع المعتدين . وأن الكافة من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله . والشريعة مقامة فى أيامه ! ولا يرتضون خلافه .. لما رأوا فيه من عدم الظلم ! والرفق بالضعفاء وأهل القرى والأرياف ، وعمارها بأهلها ، ورجوع الشاردين منها فى أيام المماليك المصرية المعتدين

الذين كانوا يتعدون عليهم ، ويسلبون أموالهم ومزارعهم ، ويكلفونهم بأخذ القرض والكلف الخارجة عن الحد .

« واما الآن فجميع أهل القطر المصرى آمنون مطمئنون بولاية هذا الوزير ! ويرجون من مراحم الدولة العلية أن يبقيه واليا عليهم ، ولا يعزله عنهم .. لما تحققوه فيه من العدل والانصاف المظلومين ، وايصال الحقوق لأربابها ، وقمع المفسدين من العربان الذين كانوا يقطعون الطرقات على المسافرين ، ويتعدون على أهل القرى ، ويأخذون مواشيهم وزرعهم ، ويقتلون من يعصى عليهم منهم .

« واما الآن فلم يكن شيء من ذلك . وجميع أهل البلاد فى غاية من الراحة والأمن برا وبحرا .. بحسن سياسته وعدله ، وامتثاله للأحكام الشرعية ، ومحبته للعلماء وأهل الفضائل ، والاذعان لقولهم ونصحهم ! » . ونحو ذلك من الكلمات التى عنها يسألون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون !

ولما كتبوا ذلك ... لم يطلع عليه الا بعض الأفراد المتصدرين . ويكتب كاتبه جميع الأسماء تحته بخطه ، ولا يمكنون البواقى — الذين يضعون امضاءهم وأسماءهم — من قراءته ، بل يطلب منهم الخاتم فيختمون به تحت اسمه ، اذ لا يمكنه الشذوذ والمخالفة لحرصه على دوام ناموسه وقبوله عند سلطانه ، ودائرة أهل دولته !

وان كان متورعا ، وليس له كبير صورة فيهم ، ولا صدارة مثلهم ، وابى أن يسلم خاتمه ليفعل به كغيره .. ختموه بخاتم موافق لاسمه تحت امضائه .. وهذا هو السبب فى عدم تقلى هذه الصورة ، بل فهمت المضمون فقط . والله ولى التوفيق .

وفى هذه الأيام : تخاصم عرب الحويطات والعيايدة ، وتجمع الفريقان حول المدينة ، وتحاربوا مع بعضهم مرارا . وانقطعت السبل بسبب ذلك . وانتصر الباشا للحويطات ، وخرج بسببهم الى العادلية .. ثم رجع . ثم انهم اجتمعوا عند السيد عمر النقيب وأصلح بينهم .

رجب

الأحد غرته (١٤ سبتمبر ١٨٠٦ م) :

وصل القاضى الجديد ، ويسمى عارف أفندى ، وهو ابن الوزير خليل باشا المقتول . وانفصل محمد أفندى سعيد ، حفيد على باشا المعروف بحكيم آوغلى . وكان انسانا لا بأس به ، مهذبا فى نفسه . وسافر الى قضاء المدينة المنورة من القلزم بصحبة القافلة .

الجمعة ٦ منه (١٩ سبتمبر ١٨٠٦ م) :

سافر ابراهيم بيك ابن الباشا بالهدية . وسافر صحبته محمد أغا لاظ ، الذى كان سلحدار محمد باشا خسرو .

ترجمان الباشا

السبت ٧ منه (٢٠ سبتمبر ١٨٠٦ م) :

أرسل الباشا الى الشيخ عبد الله الشرقاوى ترجمانه يأمره بلزوم داره ، وأنه لا يخرج منها .. ولا الى صلاة الجمعة ! وسبب ذلك أمور وضغائن ومنافسات بينه وبين اخوانه : كالسيد محمد الدواخلى ، والسيد سعيد الشامى ، وكذلك السيد عمر النقيب . فأغروا به الباشا ، ففعل به ماذكر ، فامتثل الأمر ، ولم يجد ناصرا . وأهمل أمره .

وفيه : تواترت الأخبار بوقوع معركة عظيمة بين العسكر والألفى . وذلك أن الألفى لم يزل محاصرا دمنهور .. وهم ممتنعون عليه الى الآن . وسد خليج الأشرفية ، ومنع الماء عن البحيرة والاسكندرية لضرورة مرور الماء من ناحية دمنهور ليعطل عليهم المراد من الحصار . فأرسل الباشا بربر باشا الخازندار ومعه عثمان أغا ، ومعهما عدة كثيرة من العساكر فى المراكب . فوصلوا الى خليج الأشرفية من ناحية الرحمانية ... وعليه جماعة من الألفية ، فحاربوهم حتى أجلوهم عنها ، وفتحوا فم الخليج . فجرى فيه الماء ، ودخلوا فيه بمراكبهم . فسد الألفية الخليج من أعلى عليهم . وحضر شاهين بيك فسد مع الألفية فم الخليج بأعدال القطن والمشاق . ثم فتحوه من أسفل ، فسال الماء فى السبخ ، ونضب الماء من الخليج ، ووقفت السفن على الأرض . ووصلتهم الألفية فأوقعوا معهم وقعة عظيمة .. وذلك عند قرية يقال لها « منية القران » . فانهزموا الى سنهور ، وتحصنوا بها فأحاطوا بهم ، واستمروا على محاربتهم حتى افترق الفريقان فيما بعد .

وفيه أيضا : وصلت الأخبار بأن يس بيك لم يزل يحارب من بمدينة الفيوم حتى ملكها وقتل من بها ، ولم ينج منهم الا القليل ! وكانوا أرسلوا يستنجدون بارسال العسكر ، فلم يلحقوهم .

وفيه : وردت الأخبار من الجهة القبلية بأن الأمراء المصريين أخلوا منفلوط وملوى ، وترفعوا الى أسيوط وجزيرة منقباط ، وتحصنوا بهما . وذلك لما أخذ النيل فى الزيادة ، وخشوا من ورود العساكر عليهم بتلك النواحى ، فلا يمكنهم التحصن فيها .. فترفعوا الى أسيوط .

فلما فعلوا ذلك ، أشاعوا هروبهم ، وذكروا أن عابدين بيك وحسن بيك ، حارباهم وطرداهم الى أن هربوا الى أسيوط . ولما خلت تلك النواحى منهم .. رجع كاشف منفلوط وملوى وخلافهما ، الذين كانوا طردوهم فى العام الماضى ، وفروا من مقاتلتهم .

وفيه : شرع الباشا فى تجهيز عساكر وتسفيرهم الى جهة بحرى وقبلى . وحجزوا المراكب للعسكر ، فانقطعت سبل المسافرين .. وذلك عندما اطمأن خاطره من قضية القبودان والعزل .

وفيه : شرع أيضا فى تقرير فردة عظيمة على البلاد والقرى والتجار ونصارى الأروام والأقباط والشوام ومساتير الناس ونساء الأعيان والملتزمين وغيرهم — وقدرها ستة آلاف كيس — وذلك برسم مصلحة القبودان . وذكروا أنها سلفة لمدة ستة أيام ، ثم ترد الى أربابها .. ولا صحة لذلك .

الاثنين ٩ منه (٢٢ سبتمبر ١٨٠٦ م) :

وصل كتخدا القبودان الى ساحل بولاق . فضربوا لقدومه مدافع ، وعملوا له شنكا وأرسل له فى صبحها خيولا صحبة ابنه طوسون ، ومعهم أكابر الدولة والأغا والوالى والأغوات . فركب فى موكب عظيم ، ودخلوا به من باب النصر . وشق من وسط المدينة .

وعمل الباشا الديوان ، واجتمع عنده السيد عمر والمشايخ المتصدرون ، ما عدا الشيخ عبد الله الشرقاوى ومن يلوذ به ، فسأل عليه القاضى وعلى من تأخر . فقيل له : الآن يحضر . ولعل الذى

آخره ضعفه ومرضه . ثم انهم انتظروا باقى الوجهاء وأرسلوا لهم جملة مراسيل . فلما حضروا قرأوا المرسوم الوارد صحبة الكتخدا المذكور .

ومضمونه : ابقاء محمد على باشا ، واستمراره على ولاية مصر .. حيث أن الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله ، بشهادة العلماء وأشراف الناس . وقبلنا رجاءهم وشهادتهم ، وانه يقوم بالشروط التى منها : طلوع الحج ، ولوازم الحرمين ، وايصال العلائف والغلال لأربابها على النسق القديم . وليس له تعلق بثغر رشيد ولا دمياط ولا سكندرية . فانه يكون ايرادها من الجمارك يضبط الى الترسخانة السلطانية باسلامبول . ومن الشروط أيضا : أن يرضى خواطر الأمراء المصريين ، ويمتنع من محاربتهم ، ويعطيهم جهات يتعيشون بها ، وهذا ن قبيل تحلية البضاعة !

وانفض المجلس . وضربوا مدافع كثيرة من القلعة والأزبكية وبولاق . وأشيع عمل زينة بالبلدة . وشرع الناس فى أسبابها ، وبعضهم علق على داره تعاليق ثم بطل ذلك . وطاف المبشرون من أتباعهم على بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش . وأذن الباشا بدخول المراكب الى الخليج والأزبكية . ثم عملوا شنكا وحراقات وصواريخ ، ثلاثة أيام بلياليها ... بالأزبكية .

شعبان

فيه تكلم القاضى مع الباشا فى شأن الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والافراج عنه ، ويأذن له فى الركوب والخروج من داره حيث يريد . فقال : « أنا لا ذنب لى فى التحجير عليه . وانما ذلك من تفاقمهم مع بعضهم » . فاستأذنه فى مصالحتهم ، فأذن له فى ذلك . فعمل القاضى لهم وليمة ، ودعاهم ، وتغدوا عنده ، وصالحهم . وقرأوا بينهم الفاتحة ، وذهبوا الى دورهم .. والذى فى القلب مستقر فيه !

وفيه : وردت الأخبار من الديار الرومية بقيام الرومنلى ، وتعصبهم على منع النظام الجديد والحوادث . فوجهوا عليهم عسكر النظام ، فتلاقوا معهم ، وتحاربوا ... فكانت الهزيمة على النظام ، وهلك بينهم خلائق كثيرة . ولم يزالوا فى أثرهم حتى قربوا من دار السلطنة ، فترددت بينهم الرسل ، وصانعوهم وصالحوهم على شروط ، منها : عزل أشخاص من مناصبهم ، ونفى آخرين — ومنهم الوزير ، وشيخ الاسلام ، والكتخدا ، والدفتردار — ومنع النظام والحوادث ، ورجوع الوجاقات على عادتهم ، وتقلد أغات الينكجرية الصدارة .. وأشياء لم تثبت حقيقتها .

وفيه : حضر عابدين بك أخو حسن باشا من الجهة القبلية .

الخميس ١٠ منه (٢٣ اكتوبر ١٨٠٦ م) :

تواترت الأخبار بوقوع وقائع بالناحية القبلية ، واختلاف العساكر ، ورجوع من كان بناحية منفلوط ، وعصيان المقيمين بالمنية بسبب تأخر علائفهم . ورجع حسن باشا الى ناحية المنية . فضرب عليه من بها ، فانحدر الى بنى سويف .

وفيه : حضر اسماعيل الطوبجى كاشف المنوفية باستدعاء . فأرسله الباشا بمال الى الجهة القبلية ليصالح العساكر .

وفيه : وردت الأخبار ، من ثغر الاسكندرية ، بسفر قبودان باشا وموسى باشا الى اسلامبول . وأخذ القبودان صحبته ابن محمد على باشا . وكان نزولهم وسفرهم فى يوم السبت خامسه . واستمر كتخدا القبودان بمصر .. متخلفا حتى يستغلق مال المصالحة .

وفيه : شرعوا فى تقرير فرضة على البلاد أيضاً

وفيه : حضر مجو بيك من ناحية قبلى .

الاربعاء ١٦ منه (٢٩ اكتوبر ١٨٠٦ م) :

سافر كتخدا القبودان بعد ما استغلق المطلوب .

وفيه : وصل الى ثغر بولاق قابجى . وعلى يده تقرير لمحمد على باشا بالاستمرار على ولاية مصر وخلعة وسيف . فأركبوه من بولاق الى الأزبكية فى موكب حفل ، وشقوا به من وسط المدينة .

وحضر المشايخ والأعيان والاختيارية . ونصب الباشا سحابة بحوش البيت للخلع والحضور . وقرئت المرسومات وهما فرمانان : أحدهما يتضمن تقرير الباشا على ولاية مصر ، بقبول شفاعة أهل البلدة والمشايخ والأشراف . والثانى يتضمن الأوامر السابقة وباجراء لوازم الحرمين ، وطلوع الحج ، وارسال غلال الحرمين ، والوصية بالرعية ، وتشهيل غلال — وقدرها ستة آلاف أردب — وتسفيرها على طريق الشام .. معونة للعساكر المتوجهين الى الحجاز . وفيه : الأمر أيضا بعدم التعرض للأمراء المصريين وراحتهم ، وعدم محاربتهم ... لأنه تقدم العفو عنهم ، ونحو ذلك . وانقضى المجلس ، وضربوا مدافع كثيرة من القلعة والأزبكية .

رمضان

(١٢ نوفمبر — ١١ ديسمبر ١٨٠٦ م)

انقضى بخير ... ولم يقع فيه من الحوادث سوى توالى الطلب ، والفرض ، والسلف التى لا تردّ ، وتجريد العسكر الى محاربة الألفى ، واستمرار الألفى بالجيزة ، ومحاصرة دمنهور ، واستمرار أهل دمنهور على الممانعة ، وصبرهم على المحاصرة ، وعدم الطاعة مع متاركة المحاربة .

وفيه : ورد الخبر بموت عثمان بيك البرديسى فى أوائل رمضان بمنفلوط . وكذلك سليم بيك أبو دياب ببنى عدى .

وفى أواخره : تقدم محمد على باشا الى السيد عمر النقيب بتوزيع جملة أكياس على أناس من مياسير الناس على سبيل السلفة .

ولم يقع فى شهر رمضان هذا ارتباك فى هلاله أولا وآخرا كما حصل فيما تقدم . وكذلك حصل به سكون وطمأنينة من عربدة العساكر ... لولا توالى الطلب ، والسلف ، والدعاوى الباطلة فى المدينة والأرياف ، وعسف أرباب المناصب فى القرى .

شوال

الجمعة غرته (١٢ ديسمبر ١٨٠٦ م) :

عملوا شنكا للعيد بمدافع كثيرة فى الأوقات الخمسة ثلاثة أيام العيد .

وفيه : فتحوا طلب الميرى على السنة القابلة ، وجدوا فى التحصيل ، ووجهوا بالطلب العساكر والقواصة والأتراك بالعصى المفضضة ، وضيقوا على الملتزمين .

الأحد ١٠ منه (٢١ ديسمبر ١٨٠٦ م)

أخرج الباشا خياما ، ونصب عرضى بناحية شبرا ومنية السيرج ، والتمس من السيد عمر توزيع أربعمائة كيس برأيه ومعرفته .. فضاق صدره ، وشرع فى توزيعها على التجار ومساتير الناس ، حيث لم يمكنه التخلف ولا التباعد عن ذلك .

الجمعة ٢٢ منه (٢ يناير ١٨٠٧ م) :

وصل حسن باشا طاهر من الجهة القبلية ، ودخل داره . وخرج محمد على باشا الى جهة الخلاء يريد السفر الى الألفى . ووصلت عربان الألفى وعساكره الى بر الجيزة ، وطلبوا الكلف من البلاد .

الأحد ٢٤ منه (٤ يناير ١٨٠٧ م) :

عدى محمد على باشا الى بر انبابة .

كفر حكيم

الاثنين ٢٥ منه (٥ يناير ١٨٠٧ م) :

عدى محمد على باشا وغالب العسكر الى بر بولاق . وأشاعوا أن الأخصام هربوا من وجوههم .. فلم يذهبوا خلفهم ، بل رجعوا على أثرهم ، ونهبوا كفر حكيم وما جاوره من القرى .. حتى أخذوا النساء والبنات والصبيان والمواشى ، ودخلوا بهم الى بولاق والقاهرة ، ويبيعونهم فيما بينهم من غير تحاش كأنهم سبايا الكفار !

ذو القعدة

السبت غرته (١٠ يناير ١٨٠٧ م) :

وصل الحجاج الطرابلسية ، وعدوا الى بر مصر .

الاحد ٢ منه (١١ يناير ١٨٠٧ م) :

وصلت قوافل الصعيد من ناحية الجبل ، وبها أحمال كثيرة وبضائع مع عرب المعازة وغيرهم . فركب الباشا ليلا وكبسهم على حين غفلة ، ونهبهم ، وأخذ جمالهم وأحمالهم ومتاعهم — حتى أولاد العربان ، والنساء والبنات — ودخلوا بهم الى المدينة يقودونهم أسرى فى أيديهم ، ويبيعونهم فيما بينهم ... كما فعلوا بأهل كفر حكيم وما حوله !

وفى ذلك اليوم : ضربوا مدافع كثيرة من القلعة بورود أشخاص من الططر ببشارة الى الباشا ، وتقريره على السنة الجديدة .

السبت ٨ منه (١٧ يناير ١٨٠٧ م) :

أداروا كسوة الكعبة والمحمل . وركب معها المتسفر عليها من القلزم — وهو شخص يقال له محمود أغا الجزيرى — وركب أمامه الأغا والوالى والمحتسب وطائفة الدلاة وكثير من العسكر .

الاثنين ١٠ منه (١٩ يناير ١٨٠٧ م) :

وصلت الأخبار بوصول الألفى الى ناحية الأخصاص ، وانتشار جيوشه باقليم الجيزة . وكان الباشا معزوما ذلك اليوم عند سعودى الحناوى ، بسوق الزلط ، وخارة المقس . وركب قبيل العصر ، وذهب الى بولاق ، وأمر العساكر بالخروج ، ولا يتخلف أحد لخامس ساعة من الليل . وعدى بمن معه الى بر انبابة .

الاربعاء ١٢ منه (٢١ يناير ١٨٠٧ م) :

فى ليلته وقع بين الألفى والعسكر معركة . وانحاز العسكر وتترسوا بداخل الكفور والبلاد ، ووصل منهم جرحى الى البلد . واستمر الأمر على ذلك .. وهم يهابون البروز الى الميدان ، وأخصامهم لا يحاربون المتاريس والحيطان !

الثلاثاء ١٨ منه (٢٧ يناير ١٨٠٧ م) :

ركب الألفى بجيوشه ، وتوجه الى ناحية قناطر شبرامنت . فلما عاينهم الباشا ومن معه مارين ركب بعسكره من ناحية كفر حكيم وماحوله ، وساروا الى جهة الجيزة ، ونصب وطاقه بحريها . وباتوا تلك الليلة ، وعملوا شنكا فى صبحها .. وهم يشيعون هروب الألفى !

والحال : أنه مر فى جيش كثيف وصورة هائلة ، وقد رتب جنوده وعساكره طوابير ، وبين يديه النظام الذى رتبه — على هيئة عسكر الفرنسيس — ومعهم طبول بكيفية خرعت عقولهم .. والباشا واقف بجيوشه ينظر اليه تارة بعينه ،

وتارة بالنظارة ، ويقول : « هذا طهماز الزمان ! » ويتعجب . وقال لطائفة الدلاة : « تقدموا لمحاربته ، وأنا أعطيكم كذا ، وكذا من المال » . فلم يجسروا على التقدم .. لما سبق لهم معه .

الخميس ٢٠ منه (٢٩ يناير ١٨٠٧ م) :

حضر أشخاص من العرب الى الباشا ، وأخبروه بأن الألفى قد مات يوم وصوله الى تلك المحطة — وذلك ليلة الأربع تاسع عشره — وقد نزل به خلط دموى فتقايأ ثم مات .. وذلك بناحية المحرقة بالقرب من دهشور . وأن مماليكه اجتمعوا ، وأمروا عليهم شاهين بيك ، وذلك باشارة أستاذهم ، وأن طائفة أولاد على انفصلوا عنهم ، ورجعوا الى بلادهم ، وآخرين يطلبون الأمان .

فاشتبه الحال ، وشاع الخبر . وصارت الناس ما بين مصدق ومكذب . واستمر الاشتباه والاضطراب أياما ، حتى أن الباشا خلع على ذلك المخبر — بعد أن تحقق خبره — فروة سمور ، وركب بها ، وشق من وسط المدينة .. والناس ما بين مصدق ومكذب ، ويظنون أن ذلك من مكايده وتحيلاته لأمور يدبرها .. الى أن حضر بعض الخدم الى دوره ، وأخبروا بحقيقة الحال كما ذكر .

فعند ذلك زال الاشتباه . وعد ذلك من تمام سعد محمد على باشا الدنيوى .. حتى انه قال فى مجلس خاصته : « الآن ملكت مصر »

ولما مات الألفى ارتحلت أجناده ومماليكه وأمراؤه ، وارتفعوا الى ناحية قبلى . فسبحان الحى الذى لا يموت .

قال الشاعر :

فقل للشامتين بنا : أفيقوا
سيلقى الشامتون كما لقينا

ثم ان الباشا أرسل الى أمرائه مكاتبة ، يستميلهم ويطلبهم للصلح ، ويدعوهم للانضمام اليه ، ويعدهم أن يعطيهم فوق مأمولهم ... ونحو ذلك . وأرسل تلك المكاتبة صحبة قادرى أغا ، الذى كان طرده الألفى ونفاه .

وأخذ محمد على باشا فى الاهتمام والركوب واللحوق بهم . وفى كل يوم ينادى على العسكر بالمدينة بالخروج . وقوى نشاطهم ، ورفعوا رؤوسهم ، وسعوا فى قضاء أشغالهم ، وخطفوا الجمال والحمير ! وحضر الباشا الى بيته بالأزبكية ، وبات به ليلة الأحد ، وصرح بسفره يوم الخميس . وخرج الى العرضى ثانيا ، وطلب السلف والمال . ومضى الخميس والجمعة ولم يسافر .

السبت ٢٩ منه (٧ فبراير ١٨٠٧ م) :

نزل به حادر ، وتحرك عنده خلط ، وحصل له اسهال وقىء . وأشاع الناس موته يوم السبت وتناقلوه ، وكاد العسكر ينهبون العرضى .. ثم حصلت له افاقة . وخرج السيد عمر والمشايخ للسلام عليه يوم الأحد ، وليهنئوه بالعافية ، وكذلك خرجوا لوداعه قبل ذلك مرارا .

وفيه : حضر قادرى بجوابات الرسالة من أمراء الألفى : أحدها للباشا ، وعليه ختم شاهين بيك وباقى خشداشينه الكبار . وآخر خطابا لمصطفى كاشف أغا الوكيل ، وعلى كاشف الصابونجى ، ومن كان كاتبهم بالمعنى السابق .. يذكرون فى جوابهم : ان كان سيدهم قد مات — وهو شخص واحد — فقد خلف رجالا وأمراء .. وهم على طريقة أستاذهم فى الشجاعة والرأى والتدبير ، ونحو ذلك . وليس كل مدع تسلم له دعواه . ومن أمثال المغاربة « ما كل حمراء لحمة ، ولا كل بيضاء شحمة » . وذكروا فى الجواب أيضا : أنه ان اصطلح مع كبرائهم الكائنين بقبلى — وهم : ابراهيم بيك الكبير ، وعثمان بيك حسن ، وباقى أمرائهما —

كنا بمثلهم . وان كان يريد صلحنا دونهم .. فيعطينا ما كان يطلبه أستاذنا من الأقاليم ، ونحو ذلك .

ذو الحجة

الاثنين غرته (٩ فبراير ١٨٠٧ م) :

ارتحل الباشا بالعرضى ، الى ساقية مكى بالجيزة ، متوجها لقبلى .

وفيه : طلبوا المراكب من كل ناحية . وعز وجودها ، وامتنعت الواردون ومراكب المعاشات والتجارات .. مع استمرار الطلب للمغارم والسلف ونحو ذلك .

وفى منتصفه : وردت مكاتبات من وزير الدولة العثمانية ، وفيها الخبر بوقوع الغزو بين العثمانى والموسكوب ، والأمر بالتيقظ والتحفظ ، وتحصين الثغور .. فربما أغاروا على بعضها على حين غفلة .

وكذلك وردت أخبار بمعنى ذلك ، من حاكم أزمير وحاكم رودس . وأن الانجليز معاونون لطائفة الموسكوب .. لاستمرار عداوتهم مع الفرانساوية ، لكون الفرانساوية متصادقين مع العثمانى .

والخبر عن مجمل القضية : أن « بونابارته » — أمير جيش الفرانساوية — وعساكرهم ، خرجوا فى العام الماضى ، وأغاروا على القرانات والممالك الأفرنجية ، واستولوا على النيمسة

بونابرت يغزو اوربا

— التى هى أعظم القرانات وبينهم وبين الموسكوب مصادقة ونسب — فأرسل الموسكوب جندا كثيفا ، مساعدة للنيمساوية ، مع كبير من قرابة قرابتهم ، فتلاقوا مع بونابرته ، بعد استيلائه على تخت النيمسة ، فهزمهم أيضا ، وأسر عظماءهم وسار بجيوشه الى الروسية ، واستولى على عدة أساكل . وكلما استولى على جهة ، قرر بها حكامها ، وشرط عليهم شروطه التى منها : معاداة الانكليز ، ومنابذتهم .

وراسله العثمانى ، وراسله هو أيضا . ورأى العثمانى قوة بأسه .. فصادقه ، وأرسل اليه من طرفه « الچى » الى اسلامبول . فدخلها فى أهبة عظيمة ، وأنزلوه منزلا حسنا ، وأرسل صحبته هدايا ، وقوبل بأعظم منها . وكذلك أرسل الى خصوص (١) « بونابارته » تحفا وهدايا وتاجا من الجوهر .

فعند ذلك انتبذ الموسكوب ، ونقض الهدنة بينه وبين العثمانى ، وطلب المحاربة . فخافه العثمانى ... لما يعلمه منه من القوة والكثرة . وسعى الانجليز بينهما بالصلح ، واجتهد فى ذلك حتى أمضاه بشروط قبيحة ، ووصلت الينا صورتها ، وظهر لنا منها اثنا عشر شرطا . ونصها :

الأول : أن أمراء القلاع والبغازات يحتاج أن يتغيروا باذن الانكليز والموسكوب .

الثانى : مشيخة السبع جزائر من الآن فصاعدا لا تكون تابعة غير الموسكوب .

الثالث : تعريفة الديوان فى بلاد العثمانى ، هى التى كانوا يأخذونها قبل النظام الجديد .

الرابع : الدولة العلية تسمح للموسكوب فى طريق ثلثمائة ألف مقاتل يدخلون الى أى محل أرادوه من بلاد العثمانى ! وذلك مدة اتفاق الانكليز والموسكوب ، وهو تسع سنين .

(١) كناية عن « زوجته » .

الخامس : يكون مسموحاً لعمارة الموسكوب أنها تدخل لمينة الترسخانة باسلامبول ، لأجل أنهم يأخذون من هناك كامل الذى يلزمهم .

السادس : جميع الرعايا والحمايات التى للموسكوب ، من جديد وقديم ، لهم الاقامة والتجارة وشراء الأملاك فى كامل بلاد العثمانى .

السابع : كامل مراكب الموسكوب التجارى ، التى كانوا عن بعض الأسباب نزلوا بيارقها ، يقدرون أن تتوجهوا بها الى قنصولية الموسكوب باسلامبول ... وحالا تعطى لهم بطانات جديدة .

الثامن : كامل الأروام الموجودين فى بلاد العثمانى ، ويريدون أن يدخلوا فى حماية الموسكوب ، يمكنهم بكل حرية .

التاسع : البراتلية والفرمانلية يحصلون على قوتهم التى كانوا بها سابقا .

العاشر : « الجى » الفرنساوية ملزوم يسافر من اسلامبول بعد واحد وثلاثين يوما .

الحادى عشر : مراكب الأروام والعثمانلى لا يسافرون بها لبلاد فرانسا ما دام الحرب بين الموسكوب والفرنساوية (١) .

فلما تقررت هذه الشروط ، واطلع عليها الفرنساوى .. فكأنه لم يرض بها ، وقال للعثمانى : « لم يبق بيدك مملكة » ، وأشار عليه بنقضها ، وتكفل بمساعدته ومقاومتهم . فركن اليه ، ونقض تلك الشروط .

فعند ذلك نبذوا صداقة العثمانلى ، وأظهروا مخاصمته ، ووافقهم على ذلك الانكليز ... لكونه صادق الفرنساوية . وأغاروا على بعض النواحى ، وأخذوا الختن وغيرها .

وشرع أهل الاسكندرية فى تحصين قلاعها وأبراجها ، وكذلك أبو قير . وأرسل كتخدا بيك من بتقيد ببناء قلعة بالبرلس . وحصل لمصر قلق ولغط . وغلت الأسعار فى البضائع المجلوبة . وعملوا جمعيات ببيت كتخدا بيك ، وببيت السيد عمر النقيب ، واتفقوا على ارسال تلك المراسلات الى محمد على باشا بالجهة القبلية ، صحبة ديوان أفندى .

السبت ٢٠ منه (٢٨ فبراير ١٨٠٧ م) :

اجتمعوا بالأزهر لقراءة صحيح البخارى فى أجزاء صغار !

وفيه : حضر ديوان أفندى بمكاتبات ، وفيها : طلب جماعة من الفقهاء ليسعوا فى اجراء الصلح بين الأمراء المصريين وبين الباشا . فوقع الاتفاق على تعيين ثلاثة أشخاص ، وهم : ابن الشيخ الأمير ، وابن الشيخ العروسى ، والسيد محمد الدواخلى . فسافروا فى يوم الأحد سادس عشرينه .

ووصلت الأخبار بأن الانجليز حضروا فى اثنى عشر مركبا ، وعبروا بوغاز اسلامبول — وكانوا محترسين — فضربوا عليهم بالمدافع من الجهتين . فلم يكترثوا ، ولم يفزعوا ، ولم يتأخروا ، ولم يصب الضرب الا مركبا واحدا من الاثنى عشر ، وعمرو ثلثها فى الحال . ولم يزالوا سائرين حتى رسوا بين اسلامبول ... فهاج كل أهلها ، وصرخوا وانزعجوا انزعاجا عظيما ، وأيقنوا بأخذ الانجليز البلدة . ولو أرادوا حرقها لأحرقوها عن آخرها .

فعند ذلك نزل اليهم السيد على باشا القبطان — وهو أخو على باشا الذى كان أخذ أسيرا مع البرديسى من برج مغيزل برشيد — فتكلم معهم وصالحهم . وخرجوا من البوغاز سالمين مغبوطين بعفوهم مع المقدرة . وانقضت السنة بحوادثها .

* * *

وأما من مات بها من العلماء والأمراء ، ممن له ذكر :

(١) لم يرد فى الأصل الشرط الثانى عشر .

مات العمدة الفاضل ، صدر المدرسين وعمدة المحققين ، الفقيه الورع . الشيخ محمد الخشنى الشافعى .

تخرج على الشيخ عطية الأجهورى وغيره من أشياخ العصر المتقدمين ، كالحفنى والعدوى . ومسكنه بخطة السيدة نفيسة . ويأتى الى الأزهر فى كل يوم ، فيقرأ دروسه ثم يعود الى داره . متقللا فى معيشته ، منعزلا عن مخالطة غالب الناس — وهو آخر الطبقة .

وتمرض شهورا بمنزله الذى بالمشهد النفيسى . وكان دائما يسأل عن الشيخ سليمان البجيرمى ، وكان يقول : « لا أموت حتى يموت البجيرمى » لأنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وقال له : « أنت آخر أقرانك موتا » . ولم يكن من أقرانه سوى البجيرمى .. فلذلك كان يسأل عنه !

ثم مات البجيرمى بقرية تسمى « مصطية » . ومات هو بعده بنحو ثلاثة أشهر . وكانت وفاته فى يوم الاثنين خامس عشرين ذى الحجة . ولم يحضروا بجنازته الى الأزهر بل صلى عليه بالمشهد النفيسى ودفن هناك .. رحمة الله تعالى عليه .

* * *

ومات الشيخ الفقيه المحدث ، خاتمة المحققين وعمدة المدققين ، بقية السلف ، وعمدة الخلف : الشيخ سليمان بن محمد بن عمر البجيرمى الشافعى الأزهرى .. المنتهى نسبه الى الشيخ جمعة الزيدى المدفون ببجيرم ، نسبة الى « زيدة » بالقرب من منية ابن خصيم .. وينتهى نسب الشيخ جمعة المذكور الى سيدى محمد بن الحنفية .

ولد ببجيرم — قرية من الغربية — سنة احدى وثلاثين ومائة ألف . وحضر الى مصر صغيرا دون البلوغ . ورباه قريبه الشيخ موسى البجيرمى ، وحفظ القرآن ، ولازم الشيخ المذكور حتى تأهل لطلب العلوم . وحضر على الشيخ العشماوى فى الصحيحين وأبى داود والترمذى ، والشفاء والمواهب وشرح المنهج لشيخ الاسلام ، وشرحى المنهاج لكل من الرملى وابن حجر .

وحضر دروس الشيخ الحفنى ، وأجازه الملوى والجوهرى والمدابغى ، وأخذ عن الديربى وغيره . وحضر أيضا دروس الشيخ على الصعيدى والسيد البليدى ، وشارك كثيرا من الأشياخ ، كالشيخ عطية الأجهورى وغيره .

وكان انسانا حسنا حميد الأخلاق ، منجمعا عن مخالطة الناس ، مقبلا على شأنه . وقد انتفع به أناس كثيرون .

وكف بصره سنين ، وعمر وتجاوز المائة سنة[1]. ومن تآليفه بأيدى الطلبة ، حاشية على المنهج ، وأخرى على الخطيب . وغير ذلك .

وقبل وفاته ، سافر الى « مصطية » بالقرب من بجيرم ، فتوفى بها ليلة الاثنين وقت السحر ثالث عشر رمضان من السنة المذكورة ، ودفن هناك . رحمة الله تعالى عليه .

* * *

ومات الأجل العلامة ، والفاضل الفهامة ، فريد عصره علما وعملا ، ووحيد دهره تفصيلا وجملا : الشيخ مصطفى العقباوى المالكى ... نسبة لمنية عقبة بالجيزة .

حضر الى الأزهر صغيرا ، ولازم السيد حسن البقلى ، ثم الشيخ محمد العقاد المالكى ، ثم الشيخ محمد عبادة العدوى ، ملازمة كلية حتى تمهر فى مذهبه فى المنقولات وفى المعقولات .

وحضر دروس أشياخ العصر ، كالشيخ الدردير والشيخ محمد البيلى ، والشيخ الأمير ، وغيرهم . وتصدر لالقاء الدروس ، وانتفع به الطلبة ، واشتهر فضله .

(1) لعله يعنى تسعين سنة .

وكان انسانا حسن الأخلاق ، مقبلا على الافادة والاستفادة ... لا يتداخل فيما لا يعنيه ، ويأتيه من بلدته ما يكفيه ، قانعا متورعا متواضعا .

ومن مناقبه : أنه كان يحب افادة العوام حتى انه كان اذا ركب مع المكارى يعلمه عقائد التوحيد وفرائض الصلاة .. الى أن توفى يوم الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة . ولم يخلف بعده مثله .. رحمه الله تعالى ، وعفا عنا وعنه .

* * *

ومات الأجل المعظم المبجل ، المحقق المدقق المفضل ، العالم العامل ، الفاضل الكامل : الشيخ على النجارى المعروف بالقبانى ، الشافعى مذهبا ، المكى مولدا ، المدنى أصلا ... ابن العالم الفاضل الشيخ أحمد تقى الدين ، ابن السيد تقى الدين المنتهى نسبه الى أبى سعيد الخدرى ، وهو سعد بن مالك بن دينار بن تيم الله بن ثعلبة النجارى ، أحد بطون الخزرج . وينتهى نسب أخواله الى السيد أحمد الناسك بن عبد الله بن ادريس بن عبد الله بن الحسن الأنور بن سيدنا الحسن السبط رضى الله تعالى عنه .

ولد المترجم بمكة سنة أربع وثلاثين ومائة ، وقدم الى مصر مع أبيه وأخيه السيد حسن سنة احدى وسبعين ومائة : فليلة وصولهم ، مرض أخوه المذكور ، وتوفى صبح ثالث يوم . فجزع والده لذلك جزعا شديدا ، وتشاءم به ، وعزم على السفر الى مكة ثانيا ، ولم يتيسر له ذلك الا أواخر شوال من السنة المذكورة .

وبقى المترجم ، واشتغل بتحصيل العلوم وشراء الكتب النافعة واستكتابها ومشاركة أشياخ العصر فى الافادة والاستفادة ، مع مباشرة شغل تجارتهم من بيع الارساليات التى ترد اليه من أولاد أخيه من جدة ومكة ، وشراء ما يشترى وارساله لهم ... الى أن تمرض ، وانقطع ببيته الذى بخطة عابدين قريبا من الأستاذ الحنفى ، سنة تسع ومائتين

وكان عالما ماهرا ، وأديبا شاعرا .. تخرج على والده وعلى غيره بمكة ، وعلى كثير من أشياخ العصر المتقدمين كالشيخ العشماوى ، والشيخ الحفنى ، والشيخ العدوى وغيرهم .

وتخرج فى الأدب على والده ، وعلى الشيخ على بن تاج الدين المكى ، وعلى الشيخ عبد الله الاتكاوى وغيرهم . وله مؤلفات منها : نفح الأكمام على منظومته فى علم الكلام ، ومنها : تقريره على الرملى — وهو مجلد ضخم — ومنها : شرح بديعيته التى سماها : « مراقى الفرج فى مدح عالى الدرج » . وله ديوان شعر صغير غالبه جيد .

وكان فى مدة انقطاعه لا يشتغل بغير المطالعة وتحصيل الكتب الغريبة . وقيد ولده السيد سلامة بأشغال تجارتهم ، وولده السيد أحمد بملازمته واسماعه فيما يريد مطالعته .

وكانت داره ، فى غالب الأوقات ، لا تخلو من المترددين ... الى أن توفى ليلة السابع والعشرين من رجب من السنة المذكورة ، وعمره سبع وثمانون سنة ، وصلى عليه بالأزهر ودفن بمقبرة أخيه بباب الوزير . وخلف ولديه المذكورين .

وكان وجيها لطيفا ، محبوبا للنفوس ورعا . رحمة الله تعالى عليه .

* * *

ومات صاحبنا الأجل المعظم ، والوجيه المكرم : الأمير ذو الفقار البكرى — نسبة ونسابة — وهو مملوك السيد محمد بن على أفندى البكرى الصديقى . اشتراه سيده المذكور سنة احدى وسبعين ومائة وألف . ورباه ، وأدبه ، وأعتقه ، وزوجه ابنته . ونشأ فى عز ورفاهية ، وسيادة وعفة ، وطيب خيم ، وعلو همة .

ولما توفى سيده ، اتحد بولده السيد محمد أفندى — وهو أخو زوجته — اتحادا كليا بحيث صارا كالأخوين ... لا يصبر أحدهما عن الآخر ساعة واحدة ، وسكنهما واحد فى بيتهم الكبير بالأزبكية .

ولما توفى السيد محمد أفندى ، استقل المترجم بالسكنى فى الدار الى أن حضر الفرنساوية. فخرج مع من خرج من مصر الى ناحية الشام . ونهبت كتبه وداره . ثم رجع بأمان فى أيام الفرنساوية ، فوجد الدار قد سكنها الفرنساوية ، فاشترى دارا غيرها بخطة عابدين ، وجدد بها نظامه.

ولما حصلت حادثة عسكر الأروام العثمانية مع الأمراء المصريين — التى خرج فيها ابراهيم بيك والبرديسى وأمراؤهم — نهبت داره المذكورة أيضا فيما نهب . فانتقل الى ناحية الأزهر ، ثم سكن بحارة السبع قاعات بالأجرة .

واقتنى كتبا ، شراء واستكتابا ، وجمع عدة أجزاء متفرقة من تاريخ « مرآة الزمان » لابن الجوزى ، و « خطط المقريزى » وغيرها .. الى أن اخترمته المنية ، ومات فجأة يوم الثلاثاء فى ثانى عشرين رجب من السنة قبيل الغروب ، وصلى عليه فى صبحها بالأزهر فى مشهد حافل ، ودفن بتربة البكرية ظاهر قبة الامام الشافعى .

وكان انسانا حسنا محبوبا لجميع الناس ، وجيه الذات ، مليح الصفات ، حسن المفاكهة والمعاشرة ، متوقد الفطنة ، صادق الفراسة ، ساكن الجأش ، وقورا أدوبا محتشما . وخلف من بعده السيد محمد المعروف بالغزاوى ، المرزوق له من ابنة سيده المذكور لكونه ولد بغزة حين كانوا بالشام ... أنشأه الله انشاء صالحا وبارك فيه .

* * *

ومات الأمير الكبير ، والضرغام الشهير : محمد بيك الألفى المرادى . جلبه بعض التجار الى مصر فى سنة تسع وثمانين ومائة ألف . فاشتراه أحمد جاويش المعروف بالمجنون . فأقام ببيته أياما فلم تعجبه أوضاعه لكونه كان مماجنا سفيها ممازحا . فطلب منه بيع نفسه ، فباعه لسليم أغا الغزاوى المعروف بتمرلنك ، فأقام عنده شهورا ثم أهداه الى مراد بيك . فأعطاه فى نظيره ألف أردب من الغلال ... فلذلك سمى بالألفى .

وكان جميل الصورة ، فأحبه مراد بيك ، وجعله جوخداره ، ثم أعتقه وجعله كاشفا بالشرقية . وعمر دارا بناحية الخطة المعروفة بالشيخ ضلام ، وأنشأ هناك حماما بتلك الخطة عرفت به .

وكان صعب المراس ، قوى الشكيمة . وكان بجواره على أغا المعروف بالتوكلى . فدخل عليه وتشفع عنده فى أمر ، فقبل رجاءه ثم نكث ، فحنق منه واحتد ، ودخل عليه فى داره يغادره ويعاتبه . فرد عليه بغلظة . فأمر الخدم بضربه . فبطحوه وضربوه بالعصى المعروفة بالنبابيت . فتألم لذلك ومات بعد يومين . فشكوه الى أستاذه مراد بيك فنفاه الى بحرى فعسف بالبلاد مثل : فوةومطوبس وبارنبال ورشيد ، وأخذ منهم أرزا وأموالا . فتشكوا منه الى أستاذه ... وكان يعجبه ذلك ؟

وفى أثناء ذلك ... وقع خلاف بمصر بين الأمراء ، ونفوا سليمان بيك الأغا ، وأخاه ابراهيم بيك ومصطفى بيك — كما ذكر ذلك فى محله — وأرسل اليه مراد بيك وأمره أن يتعين على مصطفى بيك ويذهب به الى سكندرية منفيا ، ثم يعود هو الى مصر . ففعل ورجع المترجم الى مصر . فعند ذلك قلدوه الصنجقية ، وذلك فى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف .

واشتهر بالفجور ... فخافته الناس ، وتحاموا شدته . وسكن أيضا بدار بناحية قيصون — وذلك

عندما اتسعت دائرته — وهدم داره القديمة أيضا ووسعها ، وأنشأها انشاء جديدا .

واشترى المماليك الكثيرة ، وأمر منهم أمراء وكشافا . فنشأوا على طبيعة أستاذهم فى التعدى والعسف والفجور ، ويخافون من تجبره عليهم !

والتزم باقطاع فرشوط وغيرها من البلاد القبلية ، ومن البلاد البحرية محلة دمنة ومليج وزوبر وغيرها . وتقلد كشوفية شرقية بلبيس ونزل اليها . وكان يغير على ما بتلك الناحية من اقطاعات وغيرها ، وأخاف جميع عربان تلك الجهة ، وجميع قبائل الناحية . ومنعهم من التعدى والجور على الفلاحين بتلك النواحى — حتى خافته الكثير من العربان والقبائل وكانوا يخشونه . وصادهم بأشراك منهم . وقبض على الكثير من كبرائهم وسحبهم فى الجنازير وصادرهم فى أموالهم ومواشيهم . وفرض عليهم المغارم والجمال !

ولم يزل على حالته وسطوته الى أن حضر حسن باشا الجزايرلى الى مصر . فخرج المترجم مع عشيرته الى ناحية قبلى ، ثم رجع معهم فى أواخر سنة خمس ومائتين بعد الألف ، بعد الطاعون الذى مات فيه اسماعيل بيك . وذلك بعد اقامتهم فى الصعيد زيادة عن أربع سنوات .

ففى تلك المدة ترزن عقله ، وانهضمت نفسه ، وتعلق قلبه بمطالعة الكتب ، والنظر فى جزئيات العلوم والفلكيات والهندسيات ، وأشكال الرمل ، والزايرجات والأحكام النجومية والتقاويم ، ومنازل القمر وأنوائها .

ويسأل عمن له المام بذلك ، فيطلبه ليستفيد منه واقتنى كتبا فى أنواع العلوم والتواريخ ، واعتكف بداره القديمة ، ورغب فى الانفراد وترك الحالة التى كان عليها قبل ذلك ، واقتصر على مماليكه والاقطاعات التى بيده . واستمر على ذلك مدة من الزمان . فثقل هذا الأمر على أهل دائرته . وبدأ يصغر فى أعين خشداشينه ويضعف جانبه ، وطفقوا يباكتونه ، وتجاسروا عليه ، وطمعوا فيما لديه . وتطلع أدونهم للترفع عليه . فلم يسهل به ذلك ، واستعمل الأمر الأوسط .

وسكن بدار أحمد جاويش المجنون بدرب سعادة ، وعمر القصر الكبير بمصر القديمة بشاطىء النيل تجاه المقياس ، وأنشأ أيضا قصرا فيما بين باب النصر والدمرداش ، وجعل غالب اقامته فيهما .

وأكثر من شراء المماليك ، وصار يدفع فيهم الأموال الكثيرة للجلابين ، ويدفع لهم أموالا مقدما يشترونهم بها ، وكذلك الجوارى .. حتى اجتمع عنده نحو الألف مملوك خلاف الذى عند كشافه، — وهم نحو الأربعين كاشفا : الواحد منهم دائرته قدر دائرة صنجق من الأمراء السابقين — وكل مدة قليلة يزوج من يختاره من مماليكه لمن تصلح له من الجوارى ، ويجهزهم بالجهاز الفاخر ، ويسكنهم الدور الواسعة ، ويعطيهم الفائظ والمناصب .

وقلد كشوفية الشرقية لبعض مماليكه ترفعا لنفسه عن ذلك ، وينزل هو اليهم أيضا على سبيل التروح .

وبنى له قصرا خارج بلبيس وآخر بالدمامين . وأخمد شوكة عربان الشرق ، وجبى منهم الأموال والجمال . وأخمد ناموسهم الذى كان يغشى أبدان الفلاحين وأرواحهم . وأضعف شوكتهم ، وأخفى صولتهم .

وكان يقيم بناحية الشرق شهورا ثلاثة أو أربعة ثم يعود الى مصر . واصطنع قصرا من خشب مفصلا قطعا ويركب بشناكل وأغربة متينة قوية يحمل على عدة جمال . فاذا أراد النزول فى محطة تقدم الفراشون وركبوه خارج الصيوان فيصير مجلسا لطيفا يصعد اليه بثلاث درج ، مفروش بالطنافس والوسائد يسع

ثمانية أشخاص ، وهو مسقوف وله شبابيك من الأربع جهات ، تفتح وتغلق بحسب الاختيار ، وحوله الأسرة من كل جانب ، وكل ذلك من داخل دهليز الصيوان !

وكان له داران بالأزبكية احداهما كانت لرضوان بيك بلفيا ، والأخرى للسيد أحمد بن عبد السلام . فبدا له فى سنة اثنتى عشرة ومائتين وألف ، أن ينشىء دارا عظيمة خلاف ذلك بالأزبكية : فاشترى قصر ابن السيد سعودى الذى بخطة الساكن فيما بينه وبين قنطرة الدكة من أحمد أغا شويكار ، وهدمه ، وأوقف فى شيادته على العمارة كتخداه ذا الفقار ... أرسله قبل مجيئه من ناحية الشرقية ، ورسم له صورة وضعه فى كاغد كبير . فأقام جدرانه وحيطانه ، وحضر هو — فى أثناء ذلك — فوجده قد أخطأ الرسم . فاغتاظ ، وهدم غالب ذلك ، وهندسه على مقتضى عقله . واجتهد فى بنائه ، وأوقف أربعة من كبار أمرائه على تلك العمارة : كل أمير فى جهة من جهاته الأربع يحثون الصناع ، ومعهم أكثر أتباعهم ومماليكهم .

وعملوا عدة قمن لحرق الأحجار وعمل النورة ، وكذلك ركب طواحين الجبس لطحنه ... وكل ذلك بجانب العمارة . وقطعوا الأحجار الكبار ونقلوها فى المراكب من طرا الى جنب العمارة بالأزبكية ، ثم نشروها بالمناشير ألواحا كبارا لتبليط الأرض وعمل الدرج والفسحات ، وأحضروا لها الأخشاب المتنوعة من بولاق واسكندرية ورشيد ودمياط .

واشترى بيت حسن كتخدا الشعراوى المطل على بركة الرطلى من عتقائه ، وهدمه ونقل أخشابه وأنقاضه الى العمارة ، وكذا نقلوا اليه أنواع الرخام والأعمدة .

ولم يزل الاجتهاد فى العمل حتى تم على المنوال الذى أراده . ولم يجعل له خرجات ولا حرمدانات بارزة عن أصل البناء ، ولا رواشن .. بل جعله ساذجا حرصا على المتانة وطول البقاء ثم ركبوا على فرجاته المطلة على البركة والبستان والرحبة الشبابيك الخرط المصنعة ، وركبوا عليها شرائح الزجاج ، ووضع به النجف والأشياء والتحف العظيمة التى أهداها اليه الأفرنج .

وعملوا بقاعة الجلوس السفلى فسقية عظيمة بسلسبيل من الرخام قطعة واحدة ، ونوفرة كبيرة حولها نوفرات من الصفر يخرج الماء من أفواهها . وجعل بها حمامين علويا وسفليا . وبنوا بدائر حوشه عدة كبيرة من الطباق لسكنى المماليك ، وجعله دورا واحدا . ولما تم البناء والبياض والدهان .. فرشه بأنواع الفرش والوسائد والمساند والستائر المقصبات ، وجعل خلفه بستانا عظيما ، وأنشأ به جملونا مستطيلا متسعا به دكك وأعمدة — وهو من الجهة البحرية — ينتهى آخره الى الدور المتصلة بقنطرة الدكة .

وأهدى اليه أيضا الافرنج فسقية رخام فى غاية العظم ... فيها صورة أسماك مصورة ، يخرج من أفواهها الماء ، جعلها بالبستان ونجز البناء والعمل . وسكن بها هو وعياله وحريمه فى آخر شهر شعبان من سنة اثنتىعشرة .واستهل شهر رمضان فأوقدوا فيها الوقدات والأحمال الممتلئة بالقناديل بدائر الحوش والرحبة الخارجة ، وكذلك بقاعة الجلوس أحمال النجف والشموع والصحب والفنيارات الزجاج

وهنته الشعراء . ونظم مولانا الأستاذ الفاضل الشيخ حسن العطار تاريخا لقاعة الجلوس فى بيتين نقشوهما بالأزمير على أسكفة باب القاعة ، وموهوهما بالذهب ، وهما :

شموس التهانى قد أضاءت بقاعة
محاسنها للعين تزداد بالألف

علـى بابهـا قال السرور مؤرخا :

سـماء سـعاداتى تجـدد بالألفى

١٠١ ٥٤٦ ٤١١ ١٥٤

= ١٢١٢

وازدحمت خيول الأمراء ببابه . فأقام على ذلك الى منتصف شهر رمضـان ، وبدا له السفر الى الشرقيـة ... فأبطلوا الوقدة ، وأطفـأوا السرج والشموع : فكان ذلك فألا ! فكانت مدة سكناه به ستة عشر يوما بلياليهـا . وانما أطنبنا فى ذكر ذلك ، ليعتبر أولو الألباب ، ولا يجتهد العاقل فى تعمير الخراب !

وفى أثناء غيبته بالشرقية ، وصلت الفرنساوية الى الاسكندرية ، ثم الى مصر . وجرى ما جرى مما سبق ذكره . وذهب مع عشيرته الى قبلى . وعنـد وصـول الفرنساوية الى بر انبـابة بالبر الغربى ، وتحاربهم مع المصريين ... أبلى المترجم وجنده — فى تلك الواقعة — بلاء حسنا ، وقتل من كشافه ومماليكه عدة وافرة . ولم يزل — مدة اقامة الفرنساوية بمصر — ينتقل فى الجهات القبلية والبحرية والشرقية والغربية ، ويعمل معهم مكايد ، ويصطاد منهم بالمصايد .

ولما وصل عرضى الوزير الى ناحيـة الشام . ذهب اليه وقابله وأنعم عليه ... وكان معه رؤساء من الفرنساوية وعدة أسرى وأسد عظيم اصطاده فى سروحه . فشكره الوزير ، وخلع عليـه الخلع السنية ، وأقام بعرضيه أياما . ثم رجع الى ناحبه مصر ، وذهب الى الصعيد ، ثم رجع الى الشام . والفرنسـاوية يأخـذون خبره ، ويرصـدونه فى الطرق ... فيزوغ منهم ، ويكبسهم فى غفلاتهم ، وينال منهم .

ولما وصل الوزير ، وحصل انتقاض الصلح ، وانحصر المصريون والعثمانيون بداخـل المدينة وقع له مع الفرنساوية الوقائع الهائلة : فكان يكر ويفر هو وحسن بيك الجداوى ، ويعمـل الحيل والمكايد . وقتل من كشافه فى تلك الحروب رجال معدودة ، منهم : اسماعيل كاشف المعـروف بأبى قطية ، احترق هو وجنده ببيت أحمد أغا شويكار الذى كان أنشأه برصيف الخشاب .

وكانت الفرنساوية قد عملوا تحته لغم بارود فى أسفل جدرانه — ولم يعلم به أحد — فلما تترس فيه اسماعيل كاشف ومن معه ، أرسلوا من ألهمه النار ... فالتهب على من فيه ، واحترقوا بأجمعهم ، وتطايروا فى الهواء .

ولما اصطلح مـراد بيـك مع الفرنساوية ، لم يوافقه على ذلك واعتزله . ولمـا اشـتد الأمر بين الفريقين ، وشاطت طبخة العثمانيين ومن تبعهم ... طفق يسعى بين الفريقين فى الصلح ، ويمشى مـع رسـل الفرنسـاوية فى دخـولهم بين العسـكر وخروجهم ، ليمنع من يـ[تعـ]ـدى عليهم من أوباش العسـكر ، خـوفا من ازدياد الشر .. الى أن تم الصلح .

وخرج المترجم مع العثمانية الى نواحى الشام ، ثم رجع الى جهة الشرقية ، فيحـارب من يصادفه من الفرنسيس ، ويقتـل منهـم . فاذا جمعـوا جيشـه ، وأتوا لحـربه ... لم يجدوه . ويمر من خلف الجبل ، ويمر بالحاجز الى الصعيد ، فلا يعلم أين ذهب ! ثم يظهر بالبر الغربى ، ثم يسير مشرقا ويعود الى الشام . وهكذا كان دأبه بطول السنة التى تخللت بين الصلحين ... الى أن نظم العثمانية أمرهم ، وتعاونوا بالانكليز ، ورجـع الوزير على طريق البر ، وقبطان باشـا بصحبة الانكليز من البحـر .

فحضر المترجم وباقى الأمراء ، واستقر الجميع بداخل مصر ... والانكليز ببر الجيزة . وارتحلت الفرنساوية ، وخلت منهم مصر . فعند ذلك ، قلق

المترجم وداخله وسواس ، وفكر ... لأنه كان صحيح النظر في عواقب الأمور ، فكان لا يستقر له قرار . ولم يدخل الى الحريم ، ولم يبت بداره الا ليلتين على سجادة ومخدة في القاعة السفلى ، ولم يكن بها حريم !

يقول الفقير (١) : ذهبت اليه مرة في ظرف اليومين ، فوجدته جالسا على السجادة ، فجلست معه ساعة . فدخل عليه بعض أمرائه يستأذنه في زواج احدى زوجات من مات من خشداشينه . فنتر فيه وشتمه وطرده . وقال لي : « انظر الى عقول هؤلاء المغفلين : يظنون أنهم استقروا بمصر ، ويتزوجوا ويتأهلوا ... مع أن جميع ما تقدم من حوادث الفرنسيس وغيرها ، أهون من الورطة التي نحن فيها الآن ! » .

ولما أطلق الوزير لابراهيم بيك الكبير التصرف ، وألبسه خلعة ، وجعله شيخ البلد كعادته ، وأن أوراق التصرفات في الاقطاعات والأطيان وغيرها تكون بختمه وعلامته ... اغتر هو وباقي الأمراء بذلك . وازدحم الديوان ببيت ابراهيم بيك المرادي وعثمان بيك حسن والبرديسي ، وتناقلوا في الحديث ... فذكروا ملاطفة الوزير ، ومحبته لهم ، واقامته لناموسهم . فقال المترجم : « لاتغتروا بذلك ، فانما هي حيل ومكايد ، وكأنها تروج عليكم . فانظروا في أمركم ، وتفطنوا لما عساه يحصل ، فان سوء الظن من الحزم ! » .

فقالوا له : « وما الذي يكون ؟ » . قال : « ان هؤلاء العثمانيين لهم السنين العديدة والأزمان المديدة يتمنون نفوذ أحكامهم وتملكهم لهذا الاقليم . ومضت الأحقاب وأمراء مصر قاهرون لهم وغالبون عليهم ، ليس لهم معهم الا مجرد الطاعة الظاهرة ... وخصوصا دولتنا الأخيرة ، وما كنا نفعله معهم من

(١) الجبرتي م.

الاهانة ، ومنع الخزينة ، وعدم الامتثال لأوامرهم . وكل ذلك مكنون في نفوسهم ... زيادة على ما جبلوا عليه من الطمع والخيانة والشره . وقد ولجوا البلاد الآن ، وملكوها على هذه الصورة ، وتأمروا علينا ، فلا يهون بهم أن يتركوها لنا كما كانت بأيدينا ، ويرجعوا الى بلادهم بعد ما ذاقوا حلاوتها ... فدبروا رأيكم ، وتيقظوا من غفلتكم » .

فلما سمعوا منه ذلك ، صادق عليه بعضهم ، وقال بعضهم : هذا من وساوسك . وقال آخر : « هذا لايكون بعد ما كنا نقاتل معهم ثلاث سنوات وأشهرا بأموالنا وأنفسنا ... وهم لا يعرفون طرائق البلاد ولا سياستها ، فلا غنى لهم عنا » . وقال آخر غير ذلك .

ثم قالوا له : « وما رأيك الذي تراه ؟ » . فقال : « الرأي عندي ، ان قبلتموه ، أن نعدي بأجمعنا الى بر الجيزة ، وننصب خيامنا هناك ، ونجعل الانكليز واسطة بيننا وبين الوزير والقبطان ، وتتم الشروط التي نرتاح نحن وهم عليها بكفالة الانكليز ، ولا نرجع الى البر الشرقي ، ولا ندخل مصر حتى يخرجوا منها ، ويرجعوا الى بلادهم ، ويبقى منهم من يبقى : مثل من يقلدوه الولاية والدفتردارية .. ونحو ذلك » .

وكان ذلك هو الرأي ، ووافق عليه البعض ولم يوافق البعض الآخر . وقال : « كيف ننابذهم ، ولم يظهر لنا منهم خيانة ، ونذهب الى الانكليز — وهم أعداء الدين — فيحكم العلماء بردتنا وخيانتنا لدولة الاسلام ... على أنهم ان قصدوا بنا شيئا ، قمنا بأجمعنا عليهم ، وفينا — ولله الحمد — الكفاية . وعند ذلك تتوسط بيننا وبينهم الانكليز . فتكون لنا المندوحة والعذر » .

فقال المترجم : « أما الاستنكاف من الالتجاء للانكليز ، فان القوم لم يستنكفوا من ذلك ، واستعانوا بهم . ولولا مساعدتهم .. لما أدركوا هذا

المحصول ، ولا قدروا على اخراج الفرنساوية من البلاد . وقد شاهدنا ما حصل فى العام الماضى ، لما حضروا بدون الانكليز . على أنه قياس مع الفارق : فان تلك مساعدة حرب ، وأما هذه .. فهى وساطة مصلحة لا غير !

« وأما انتظار حصول المنابذة ، فقد لا يمكن التدارك بعد الوقوع ... لأمور . والرأى لكم » .

فسكتوا وتفرقوا على كتمان ما دار بينهم . ولما لم يوافقوا المترجم على ما أشار به عليهم ... أخذ يدبر فى خلاص نفسه ، فانضم الى محمود أفندى رئيس الكتاب .. لقربه من الوزير ، وقبوله عنده ، وأوهمه النصيحة للوزير بتحصيل مقادير عظيمة من الأموال من جهة الصعيد ان قلده الوزير امارة الصعيد .. فانه يجمع له أموالا جمة من تركات الاغنياء الذين ماتوا بالطاعون فى العام الماضى وخلافه ولم يكن لهم ورثة ، وغير ذلك من الجهات التى لا يحيط بها خلافه ، والمال والغلال الميرية .

فلما عرف الرئيس الوزير بذلك ، لم يكن بأسرع من اجابته لوجهين ، الأول : طمعا فى تحصيل المال . والثانى : لتفريق جمعهم . فانهم كانوا يحسبون حسابه دون باقى الجماعة ، لكثرة جيشه وشدة احترازه . فانه كان اذا ذهب عند الوزير لا يذهب فى الغالب الا وحوله جميع جنوده ومماليكه . وعندما أجاب الوزير الى سفره ، كتب له فرمانا بامارة الجهة القبلية ، وأطلق له الاذن ، ورخص له فى جميع ما يؤدى اليه اجتهاده من غير معارض . وتمم الرئيس القصد .

وفى الوقت : حضر المترجم ، فأخذ المرسوم ، ولبس الخلعة بنفسه ، وودع الوزير والرئيس ، وركب فى الوقت والساعة ، وخرج مسافرا ، وجعل رئيس أفندى وكيلا عنه وسفيرا بينه وبين الوزير ، بعد ما أسكنه فى داره ... ولم يشعر بذلك أحد ، ولم ير للوزير وجها بعد ذلك .

وعندما أشيع ذلك ، حضر الى الوزير من اعترض عليه فى هذه الغفلة ، وأشار عليه بنقض ذلك ، فأرسل يستدعيه لأمر تذكره على ظن تأخره . فلم يدركوه الا وقد قطع مسافة بعيدة ، ورجعوا على غير طائل . وذهب هو الى أسيوط ، وشرع فى جبى الأموال ، وأرسل للوزير دفعة من المال وأغناما ، وعبيدا طواشية ، وغلالا .

ثم لم يمض على ذلك الا نحو ثلاثة شهور ، وسافر طائفة من الانكليز الى سكندرية ، وكذلك حسين باشا القبطان . ونصبوا للمصريين الفخاخ . وأرسل القبطان بطلب طائفة منهم ، فأوقع بهم ما أوقع ، وقبض الوزير على من بمصر من الأمراء وحبسهم ... وجرى ما هو مسطور فى محله . وعينوا على المترجم طاهر باشا بعساكر . وحصلت المفاقمة .. وقتل من قتل ، والتجأ من بقى الى الانكليز . ولم يندمل الجرح بعد تقريحه ! وذهب الجميع الى الناحية القبلية . وأرسلوا لهم التجاريد .

وتصدى المترجم لحروبهم ، ثم حضر الى ناحية بحرى ، ونزل بظاهر الجيزة ، وسار الى ناحية البحيرة — بعد حروب ووقائع — فاجتهد محمد باشا خسرو فى اخراج تجريدة عظيمة ... وصارى عسكرها كتخداه — وهو يوسف كتخدا بيك — وهى التجريدة التى سماها العوام « تجريدة الحمير » لأنهم جمعوا من جملة ذلك حمير الحمارة والتراسين ، وحمير اللكاف والسقائين . وعملوا على أهل بولاق ألف حمار ، وكذلك مصر ومصر القديمة ، وطفقوا يخطفون حمير الناس ، ويكبسون البيوت ، ويأخذون ما يجدونه .

وكان يأتى بعض معاكيس العسكر عند الدور ، ويضع أحدهم فمه عند الباب ويقول « زر .. ! » فينهق الحمار ... فيأخذوه !

فلما تم مرادهم من جمع الحمير اللازمة لهم ، سافروا الى ناحية البحيرة . فكانت بينهم واقعة عظيمة برأى من الانكليز ، وكانت الغلبة له على العسكر ، وأخذ منهم جملة أسرى ، وانهزم الباقون شر هزيمة ، وحضروا الى مصر فى أسوأ حال .. وهذه الكسرة كانت سببا لحصول الوحشة بين الباشا والعسكر . فانه غضب عليهم ، وأمرهم بالخروج من مصر . فطلبوا علائفهم . فقال : « بأى شىء تستحقون العلائف .. ولم يخرج من أيديكم شىء ؟ » ... فامتنعوا من الخروج وكان المشار إليه فيهم محمد على سر ششمه ، فأراد الباشا اصطياده ، فلم يتمكن منه لشدة احترامه . فحاربه ، فوقع له ما ذكر فى محله . وخرج الباشا هاربا الى دمياط .

ومن ذلك الوقت ، ظهر اسم « محمد على » ، ولم يزل ينمو ذكره بعد ذلك .

وأما المترجم ، فانه — بعد كسرته للعسكر — ذهب ناحية دمنهور ، وذهبت كشافه وأمراؤه الى المنوفية والغربية والدقهلية . وطلبوا منهم المال والكلف ، ثم رجعوا الى البحيرة . ثم بعد هذه الوقائع ، سافر المترجم مع الانكليز الى بلادهم ، واختار من مماليكه خمسة عشر شخصا — أخذهم صحبته — وأقام عوضه احد مماليكه المسمى « بشتك بيك » وسمى « الألفى الصغير » ، وأمره على مماليكه وأمرائه ، وأمرهم بطاعته ، وأوصاه وصايا . وسافر وغاب سنة وشهرا وبعض أيام ... لأنه سافر فى منتصف شهر شوال سنة سبعة عشر ، وحضر فى أول شهر ذى القعدة سنة ثمانية عشر .

وجرى فى مدة غيابه من الحوادث التى تقدم ذكرها ما يغنى عن اعادتها : من خروج محمد باشا خسرو ، وتولية طاهر باشا ثم قتله ، ودخول الأمراء المصريين وتحكمهم بمصر سنة ثمانية عشر ، وتأمير صناجق من أتباع المترجم ، وماجرى بها من الوقائع بتقدير الله تعالى البارز ... بتدبير محمد على وتفاقه وحيله . فانه سعى أولا فى نقض دولة مخدومه محمد باشا خسرو ، بتواطؤه مع طاهر باشا ، وخازنداره محمد باشا المحافظ للقلعة ، ثم الاغراء على طاهر باشا حتى قتل ، ثم معاونته للأمراء المصريين ودخولهم وتملكهم واظهار المساعدة الكلية لهم ، ومصادقتهم وخدمتهم ، ومعاونتهم ، والرمح فى غفلتهم — وخصوصا عثمان بيك البرديسى ، فانه كان مخرقا غشوما يحب التراؤس — فاظهر له الصداقة والمؤاخاة والمصافاة .. حتى قضى منهم أغراضه : من قتل الدفتردار ، والكتخدا ، وعلى باشا الطرابلسى ، ومحاربة محمد باشا ، وأخذه أسيرا من دمياط ، وأخيه السيد على القبطان برشيد ... ونسبة جميع هذه الأفعال والقبائح اليهم !

فلما انقضى ذلك كله لم يبق الا الألفى وجماعته .. والبرديسى ، الذى هو خشداشه ، يحقد عليه ويغار منه ، ويعلم أنه اذا حضر ، لا يبقى له معه ذكرا ، وتخمد أنفاسه . فيتناجيا ، ويتسارا فى أمر المترجم ، ويتذاكرا تعاظم وكيله وخشداشينه ، وتقضهم عليه ما يبرمونه — مع غياب أستاذهم — فكيف بهم اذا حضر ! ويوهمه المساعدة والمعاضدة ، ويكون خادما له ، وعساكره جنده ... الى أن حضر المترجم ، فأوقع به ما تقدم ذكره ، ونجا بنفسه ، واختفى عند عشيبة البدوى بالوادى .

فلما خلا الجو من الألفى وجماعته ، أوقع محمد على — عند ذلك — بالبرديسى وعشيرته ما أوقع .

وظهر — بعد ذلك — المترجم من اختفائه ، وذهب الى ناحية قبلى هو ومملوكه صالح بيك . واجتمعت عليه أمراؤه وأجناده ، واستفحل أمره ، واصطلح مع عشيرته والبرديسى ... على ما فى نفوسهما .

وما زال منجمعا عن مخالطتهم . وجرى ما جرى : من مجيئهم جوالى مصر ، وحروبهم مع العساكر — في أيام خورشيد أحمد باشا — وانفصالهم عنهـا بدون طائل ، لتفاشلهم واختلاف ارائهم ، وفساد تدبيرهم . ورجعوا الى ناحية قبلى ، ثم عادوا الى ناحية بحرى ... بعد حروب ووقائع مع حسن باشا ومحمد على وعساكرهم .

ثم لما حصلت المفاقمة بينهما وبين خورشيد أحمد باشا . وانتصر محمد على بالسـيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضى ، وأهل البلدة والرعايا ، وهاجت الحروب بين الباشا وأهل البلدة — كما هو مذكور — كانت الأمراء المصريون بناحية التبين ، والمترجم منعزل عنهم بناحية الطرانة . والسيد عمر يراسله ويعـده ، ويذكر له بأن هذا القيـام من أجلك ، واخراج هذه الأوباش ، ويعود الأمر اليكم كما كان ... وأنت المعنى بذلك لظننا فيك الخير والصلاح والعدل . فيصدق هذا القول ، ويساعده بارسال المال ليصرفه فى مصالح المقاتلين والمحاربين .

ومحمد على يداهن السيد عمر سرا ، ويتملق اليه ، ويأتيه ويراسله ، ويأتى اليه فى أواخر الليل ، وفى أوساطه ، مترددا عليه فى غالب أوقاته ، حتى تم له الأمر ... بعد المعاهدة والمعاقدة ، والأيمـان الكاذبة عـلى سيره بالعـدل ، واقامة الأحكام والشرائع ، والاقلاع عن المظالم ، ولا يفعل أمرا الا بمشورته ومشورة العلمـاء ، وأنه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه — وهـم قادرون على ذلك ، كما يفعلون الآن — فيتورط المخاطب بذلك القول ويظن صحته ، وأن كل الوقائع « زلابية » ! وكل ذلك سرا لم يشعر به خلافهم ... الى أن عقد السـيد عمر مجلسـا عند محمد على ، وأحضر المشايخ والأعيان ، وذكر لهم أن هذا الأمر وهذه الحروب ما دامت على هـذه الحالة ، لا تزداد الا فشلا ، ولا بد من تعيين شخص من جنس القوم للولاية . فانظروا من تجدونه وتختارونه لهذا الأمر ، ليكون قائمقام حتى يتعـين من طرف الدولة من يتعين . فقال الجميع : « الرأى ماتراه » . فأشـار الى محمد على . فأظهر التمنع ! وقال : « أنا لا أصلح لذلك . ولست من الوزراء ، ولا من الأمراء ، ولا من أكابر الدولة » . فقالوا جميعا : « قد اخترناك لذلك برأى الجميع والكافة ، والعبرة رضا أهل البلاد » . وفى الحال أحضروا فروة وألبسوها له ، وباركوا له وهنأوه ، وجهروا بخلع خورشيد أحمد باشا من الولاية ، واقامة المذكور فى النيابة حتى يأتى المتولى ... أو يأتى له تقرير بالولاية .

ونودي فى المدينة بعزل الباشا واقامة محمد على فى النيابة ... الى أن كان ما هو مسطور قبل ذلك فى محله .

فلمـا بلغ المترجم ذلك — وكان ببر الجيزة ، ويراسل السيد عمر مكرم والمشـايخ — انقبض خاطره ، ورجع الى البحيرة ، وأراد دمنهـور . فامتنع عليه أهلها ، وحاربوه وحاربهم . ولم ينل منهم غرضه .

والسيد عمر يقويهم ، ويمدهم ويرسل اليهم البارود وغيره من الاحتياجات . وظهـر للمترجم تلاعب السيد عمر مكرم معه ، وكأنه كان يقويه على نفسه ، فقبض على السفير الذى كان بينهما ، وحبسـه وضربه ، وأراد قتـله ، ثم أطلقه ... ثم عاد الى بر الجيزة . وسكنت الفتنة .

واستقر الأمر لمحمد على باشا . وحضر قبطان باشا الى ساحل أبى قير ، ووصل سلحداره الى مصر ، وأنزل أحمد باشا المخلوع عن الولاية من القلعة الى بولاق ليسافر . ومنع محمد على من الذهاب والمجىء الى المصريين ، وأوقف أشخاصا برا وبحرا يرصدون من يأتى من قبلهم ، أو يذهب اليهم بشىء من متاع وملبوس وسلاح وغير ذلك ، ومن عثروا عليه بشىء قبضوا عليه ، وأخذوا ما

له ولأتباعه وأمرائه ، ووسق مراكب وذهب بها معه وعاقبوه . فامتنع الباعة والمتسببون وغيرهم من الذهاب اليهم بشيء مطلقا .

فضاق خناق المترجم ، فاحتال بأن أرسل محمد كتخداه يطلب الصلح مع الباشا . فاسر لذلك وفرح ، واعتقد صحة ذلك ، وأنعم على الكتخدا ، وعبى هدية جليلة لمخدومه من ملابس وفراوى وأسلحة وخيام ونقود وغير ذلك . وعندها قضى الكتخدا أشغاله من مطلوبات مخدومه واحتياجاته له ولأتباعه وأمرائه ، ووسق مراكب وذهب بها جهارا من غير أن يتعرض له أحد . وذهب صحبته السلحدار ، وموسى البارودى .

ثم عاد الكتخدا ثانيا وصحبته السلحدار وموسى البارودى ، وذكروا أنه يطلب كشوفية الفيوم وبنى سويف والجيزة والبحيرة ومائتى بلد من الغربية والمنوفية والدقهلية ... يستغل فائظها ، ويجعل اقامته بالجيزة ، ويكون تحت الطاعة . فلم يرض الباشا بذلك ، وقال : « اننا صالحنا باقى الأمراء ، وأعطيناهم من حدود جرجا بالشروط التى شرطناها عليهم ... وهو داخل فى ضمنهم » . فرجع محمد كتخدا له بالجواب — بعد أن قضى أشغاله واحتياجاته ولوازمه من أمتعة وخيام وسروج وغير ذلك — وتمت حيلته ، وقضى أغراضه ، وذهب الى الفيوم ، وتحارب جنده مع جند ياسين بيك . وانخذل فيها ياسين بيك . ثم عاد شاهين بيك الألفى بجند كثير بعد شهور الى بر الجيزة .

وخرج محمد على باشا لمحاربته بنفسه ، فكانت له الغلبة . وقتل فى هذه الواقعة على كاشف الذى كان تزوج بزوجة حسن بيك الجداوى ، وهى بنت حسن بيك شنن ... رآه الأخصام متجملا ، فظنوه الباشا ، فأحاطوا به وأخذوه أسيرا ، ثم قتلوه . ورجع الباشا الى بر مصر ، واجتهد فى تشهيل تجريدة أخرى . وكل ذلك مع طول المدى .

وفى أثناء ذلك : مات بشتك بيك ، المعروف بالألفى الصغير ، مبطونا بناحية قبلى . ثم ان المترجم خرج من الفيوم فى أوائل المحرم من السنة المذكورة .

وكان حسن باشا طاهر بناحية جزيرة الهواء بمن معه من العساكر . فكانت بينهما واقعة عظيمة ، انهزم فيها حسن باشا الى الرقق ، وأدركه أخوه عابدين بيك فأقام معه بالرقق ، كما تقدم .

وحضر الألفى الى بر الجيزة وانبابة ، وخرجت اليهم العساكر . فكانت بينهم واقعة بسوق الغنم ، ظهر عليهم فيها أيضا ، ثم سار مبحرا ، وعدى من عسكره وجنده جملة الى السبكية ، فأخذوا منها ما أخذوه ، وعادوا الى أستاذهم بالطرانة . ثم انه انتقل راحلا الى البحيرة ، وحرب دمنهور ومحاصرتها وكانوا قد حصنوها غاية التحصين ، فلم يقدر عليها ، فعاد الى ناحية وردان ، ثم رجع الى حوش ابن عيسى ، لأنه بلغه وصول مراكب ، وبها أمين بيك تابعه وعدة عساكر من النظام الجديد وأشخاص من الانكليز ... لأنه كان — مع ما هو فيه من التنقلات والحروب — يراسل الدولة والانكليز . وأرسل بالخصوص أمين بيك الى الانكليز ، فسعوا مع الدولة بمساعدته ، وحضروا اليه بمطلوبه . فعمل لهم بحوش ابن عيسى شنكا ، وأرسلهم مع أمين بيك الى الأمراء القبليين .

فلما بلغ محمد على باشا ذلك ، راسل الأمراء القبليين وداهنهم ، وأرسل لهم الهدايا . فراجت أموره عليهم ... مع ما فى صدورهم من الغل للمترجم .

وفى أثر ذلك : حضر قبطان باشا الى الاسكندرية ، ووردت السعاة بخبر وروده ، وأن

بعده واصل موسى باشا واليا على مصر ... وبالعفو عن المصريين .

وكان من خبر هذه القضية والسبب فى حركة القبطان : ارساليات الألفى للانكليز ، ومخاطبة الانكليز الدولة ووزيرها ، المسمى محمد باشا السلحدار — وأصله مملوك السلطان مصطفى ، ولا يخفى الميل الى الجنسية — فاتفق أنه اختلى بسليمان أغا تابع صالح بيك الوكيل — الذى كان يوسف باشا الوزير قلده سلحدارا ، وأرسله الى اسلامبول — وسأله عن المصريين هل بقى منهم غير الألفى . فقال له : « جميع الرؤساء موجودون » . وعددهم له — وهم ومماليكهم يبلغون ألفين وزيادة — فقال : « انى أرى تمليكهم ورجوعهم على شروط نشترطها عليهم ، أولى من تمادى العداوة بينهم وبين هذا الذى ظهر من العسكر ... وهو رجل جاهل متحيل ، وهم لايسهل بهم اجلاؤهم عن أوطانهم وأولادهم وسيادتهم التى ورثوها عن أسلافهم . فيتمادى الحال ، والحروب بينهم وبينه ، واحتياج الفريقين الى جمع العساكر ، وكثرة النفقات ، والعلائف والمصاريف ، فيجمعونها من أى وجه كان ، ويؤدى ذلك الى خراب الإقليم . فالأولى والمناسب صرف هذا المتغلب واخراجه وتولية خلافه ... فما رأيك فى ذلك ؟ » .

فقال سليمان : « لا رأى عندى فى ذلك » . وخاف أن يكون كلامه له باطن خلاف الظاهر ... وأدرك منه ذلك ، فحلف له عند ذلك الوزير أن كلامه وخطابه له على ظاهره وحقيقته .. لكن لابد من مصلحة للخزينة العامرة .

فقال له سليمان أغا : « اذا كان كذلك ، ابعثوا الى الألفى باحضار كتخداه محمد أغا لأنه رجل يصلح للمخاطبة لمثل ذلك » . ففعل وحضر المذكور فى أقرب وقت ، وتمموا الأمر على مصلحة ألف وخمسمائة كيس ... كفلها محمد كتخدا المذكور يدفعها لقبطان باشا عند وصوله بيد سليمان أغا المذكور ، وكفالته أيضا لمحمد كتخدا ، بعد اتمام الشروط التى قررها له مخدومه . ومن جملتها : اطلاق بيع المماليك وشرائهم ، وجلب الجلابين لهم الى مصر كعادتهم . فإنهم كانوا منعوا ذلك من نحو ثلاث سنوات وغير ذلك .

وسافر كل من سليمان أغا الوكيل ومحمد كتخدا ، بصحبة قبودان باشا ، حتى طلعوا على ثغر سكندرية فركبا ، صحبة سلحدار القبودان ، فتلاقوا مع المترجم بالبحيرة ، وأعلموه بما حصل . فامتلأ فرحا وسرورا وقال لسليمان أغا : « اذهب الى اخواننا بقبلى ، واعرض عليهم الأمر ، ولا يخفى أننا الآن ثلاث فرق : كبيرنا ابراهيم بيك وجماعته ، والمرادية وكبيرهم هناك عثمان بيك البرديسى ، وأنا وأتباعى ... فيكون ما يخص كل طائفة خمسمائة كيس . فاذا استلمت منهم الألف كيس ورجعت الى ... سلمتك الخمسمائة كيس » .

فركب المذكور ، وذهب اليهم ، واجتمع بهم ، وأخبرهم بصورة الواقع ، وطلب منهم ذلك القدر . فقال البرديسى : « حيث ان الألفى بلغ من قدره أنه يخاطب الدول والقرانات ويراسلهم ، ويتمم أغراضه منهم ، ويولى الوزراء ويعزلهم بمراده ، ويتعين قبودان باشا فى حاجته ... فهو يقوم بدفع المبلغ بتمامه ، لأنه صار الآن هو الكبير ، ونحن الجميع أتباع له وطوائف خلفه ، بما فيه والدنا وكبيرنا ابراهيم بيك وعثمان بيك حسن وخلافه » .

فقال سليمان أغا : « هو على كل حال واحد منكم وأخوكم » . ثم انه اختلى مع ابراهيم بيك الكبير وتكلم معه . فقال ابراهيم بيك : « أنا أرضى بدخولى أى بيت كان ، وأعيش ما بقى من

عمرى مع عيالى وأولادى تحت امارة أى من كان من عشيرتنا .:. أولى من هذا الشتات الذى نحن فيه . ولكن كيف أفعل فى الرفيق المخالف ؟ وهذا الذى حصل لنا كله بسوء تدبيره ونحسه ، وعشت أنا ومراد بيك المدة الطويلة بعد موت أستاذنا — وأنا أتغاضى عن أفعاله وأفعال أتباعه ، وأسامحهم فى زلاتهم . كل ذلك حذرا وخوفا من وقوع الشر والقتل والعداوة ... الى أن مات وخلف هؤلاء الجماعة المجانين ، وترأس البرديسى عليهم مع غياب أخيه الألفى ، وداخله الغرور ، وركن الى أبناء جنسه ، وصادقهم ، واغتر بهم ، وقطع رحمه ، وفعل بالألفى ، الذى هو خشداشه وأخوه ، ما فعل ، ولا يستمع لنصح ناصح أولا وآخرا » .

ومازال سليمان أغا يتفاوض معهم فى ذلك أياما ، الى أن اتفق مع ابراهيم بيك على دفع لصف المصلحة ، ويقوم المترجم بالنصف الثانى . فقال : « سلمونى القدر أذهب به ، وأخبره بما حصل » . فقالوا : « حتى ترجع اليه وتعلمه وتطيب خاطره على ذلك ، لئلا يقبضه ثم يطالبنا بغيره » .

فلما رجع اليه وأخبره بما دار بينهم ، قال : « أما قولهم انى أكون أميرا عليهم ، فهذا لايتصور ولا يصح أنى أتعاظم على مثل والدى ابراهيم بيك وعثمان بيك حسن ، ولا على من هو فى طبقتى من خشداشينى ... على أن هذا لايعيبهم ولاينقص مقدارهم بأن يكون المتأمر عليهم واحدا منهم ومن جنسهم ، وذلك أمر لم يخطر لى ببال ، وأرضى بأدنى من ذلك ، ويأخذوا على عهدا بما أشترطه على نفسى : أننا اذا عدنا الى أوطاننا ، أن لا أداخلهم فى شىء ، ولا أقارشهم فى أمر ، وأن يكون كبيرنا والدنا ابراهيم بيك على عادته ، ويسمحوا لى باقامتى بالجيزة ، ولا أعارضهم فى شىء ، وأقنع بايرادى الذى كان بيدى سابقا ، فانه يكفينى .

وان اعتقدوا غدرى لهم فى المستقبل ، بسبب ما فعلوه معى من قتلهم حسين بيك تابعى ، وتعصبهم وحرصهم على قتلى واعدامى أنا وأتباعى ، فبعض ما نحن فيه الآن أنسانى ذلك كله ، فان حسين بيك المذكور مملوكى ، وليس هو أبى ولا ابنى من صلبى ، وانما هو مملوكى اشتريته بالدراهم ، وأشترى غيره ، ومملوكى مملوكهم ، وقد قتل لى عدة أمراء ومماليك فى الحروب فأفرضه من جملتهم، ولا يصيبنى ويصيبهم الا ما قدره الله علينا ... وعلى أن الذى فعلوه بى لم نكن لسابق ذنب ولا جرم حصل منى فى حقهم ، بل كنا جميعا اخوانا . وتذكروا اشارتى عليهم السابقة فى الالتجاء الى الانكليز ، وندموا على مخالفتى بعد الذى وقع لهم ، ورجعوا الى ، ثم أجمع رأيهم على سفرى الى بلاد الانكليز ، فامتثلت ذلك ، وتجشمت المشاق ، وخاطرت بنفسى وسافرت الى بلاد الانكلترة ، وقاسيت أهوال البحار سنة وأشهرا ، كل ذلك لأجل راحتى وراحتهم .

وحصل ما حصل فى غيابى ، ودخلوا مصر من غير قياس ، وبنوا قصورهم على غير أساس ، واطمأنوا الى عدوهم ، وتعاونوا به على هلاك صدتقهم . وبعد أن قضى غرضه منهم غدرهم وأحاط بهم وأخرجهم من البلدة وأهانهم وشردهم، واحتال عليهم ثانيا — يوم قطع الخليج — فراجت حيلته عليهم أيضا ، وأرسلت اليهم فنصحتهم ، فاستغشونى وخالفونى ، ودخل الكثير منهم البلد، وانحصروا فى أزقتها ، وجرى عليهم ما جرى من القتل الشنيع ، والأمر الفظيع ، ولم ينج الا من تخلف منهم ، أو ذهب من غير الطريق .

ثم انه الآن أيضا يراسلهم ويداهنهم ، ويهاديهم ويصالحهم ، ويثبطهم عما فيه النجاح لهم ، وما أظن أن الغفلة استحكمت فيهم الى هذا الحد ؟

فارجع اليهم وذكرهم بما سبق لهم من الوقائع فلعلهم يتنبهوا من سكرتهم ، ويرسلوا معك الثلثين أو النصف الذى سمح به والدنا ابراهيم بيك ∴ وهـذا القدر ليس فيـه كبـير مشقة ، فانهم اذا وزعوا على كل أمـير عشرة أكيـاس ، وعلى كل كاشف خمسـة أكياس ، وكل جنـدى أو مملوك كيسا واحدا ، اجتمع المبلغ وزيادة ... وأنا أفعل ذلك مع قومى ، والحمد لله ليسـوا هم ولا نحن مفاليس . وثمرة المال قضاء مصالح الدنيا ، وما نحن فيه الآن من أهم المصالح .

وقل لهم : « البدار قبل فوات الفرصة ، والخصم ليس بغافل ولا مهمل ، والعثمانيون عبيد الدرهم والدينـار ! » .

فلما فرغ من كلامه ، ودعه سليمان أغا ، ورجع الى قبلى . فوجد الجماعة أصروا على عدم دفع شيء .

ورجع ابراهيم بيك أيضا الى قولهم ورأيهم . ولما ألقى لهم سليمان أغا العبارات التى قالها صاحبه ، وأنه يكون تحت أمرهم ونهيهم ، ويرضى بأدنى المعاش معهم ، ويسكن الجيزة الى آخر ما قال ... قالوا : « هذا والله كله كلام لا أصل له ، ولا ينسى ثأره ، وما فعلناه فى حقه وحق أتباعه . ولو اعتزل عنا ، وسكن قلعة الجبل ، فهو الألفى الذى شاع ذكره فى الآفاق ، ولا تخاطب الدولة غيره . وقد كنا فى غيبته لا نطيق عفريتا من عفاريته ، فكيف نكون هو وعفاريته الجميع ومن ينشئه خلافهم ! » . وداخلهم الحقد ، وزاد فى وساوسهم الشيطان . فقال لهم سليمان أغا : « اقضوا شغلكم فى هذا الحين ، حتى تنجلى عنكم الأعـداء الأغراب ، ثم اقتلوه بعد ذلك وتسـتريحوا منه » . فقـالوا : « هيهات بعد أن يظهر علينا ، فانه يقتلنا واحدا بعد واحد ، ويخرجنا الى البلاد ثم يرسل يقتلنا . وهو بعيد المكر ، فلا نأمن اليه مطلقا » .

وغرهم الخصم بتمويهاته ، وأرسل اليهم هدايا وخيولا وسروجا وأقمشة . هذا ورسل القبودان تذهب وتأتى بالمخـاطبات والعرضـحالات ، حتى تمموا الأمر كما تقدم .

وفى أثناء ذلك : ينتظر القبودان جوابا كافيا ، وسلحداره مقيم أيضـا عنـد المترجم . والمترجم يشاغل القبودان بالهدايا والأغنـام والذخيرة من الأرز والغلال والسمن والعسل وغير ذلك ... الى أن رجع اليـه سليمان أغا بخفى حنـين ، محزونا مهموما متحيرا فيما وقع فيه من الورطة ، مكسوف البال مع القبودان ووزير الدولة ، وكيف يكون جوابه للمذكور ... والقبـودان جعل فى الابـرة خيطين ليتبع الأروج .

فلما وصل اليه سليمان أغا وأخبره أن الجماعة القبليين لا راحة عندهم ، وامتنعوا من الدفع ومن الحضور ، وأن المترجم يقوم بدفع القـدر الذى يقدر عليه ، والذى يبقى ويتجمع عليه يقوم بدفعه . فاغتاظ القبودان وقال : « أنت تضحك على ذقنى وذقن وزير الدولة ! وقد تحركنا هذه الحركة على ظن أن الجماعة على قلب رجل واحد . واذا حصل من المالك للبلدة عصيان ومخالفة ، ولم يكن فيهم مكافأة لمقاومته ... ساعدناهم بجيش من النظام الجديد وغيره . وحيث أنهم متنافرون ومتحاسدون ومتباغضون فلا خير فيهم ، وصاحبك هذا لا يكفى فى المقاومة وحده ، ويحتاج الى كثير المعاونة ، وهى لا تكون الا بكثرة المصاريف » .

ولـمـا ظهر لسليمان أغا الغيظ والتغـير من القبودان ، خاف على نفسه أن يبطش به ، وعرف

منه أن المانع له من ذلك غياب السلحدار عند المترجم، لأنه قال له: «وأين سلحدارى؟». قال: «هو عند الألفى بالبحيرة». فقال: «اذهب فأتنى به، واحضر صحبته».

وكان موسى باشا المتولى قد حضر أيضا. فما صدق سليمان أغا بقوله ذلك وخلاصه من بين يديه، فركب فى الوقت وخرج من الاسكندرية، فما هو الا أن بعد عنها مقدار غلوة ... الا والسلحدار قادم الى سكندرية. فسأله: الى أين يذهب؟ فقال: «ان مخدومك أرسلنى فى شغل، وهاأنا راجع اليكم». وذهب عند المترجم ولم يرجع.

وفى أثناء هذه الأيام كان المترجم يحاوب دمنهور، وبعث اليه محمد على باشا التجريدة العظيمة التى بذل فيها جهده، وفيها جميع عساكر الدلاة، وطاهر باشا ومن معه من عساكر الأرنؤود والأتراك وعسكر المغاربة. فحاربهم وكسرهم وهزمهم شر هزيمة، حتى ألقوا بأنفسهم فى البحر، ورجعوا فى أسوأ حال.

فلو تجاسر المترجم وتبعهم .. لهرب الباقون من البلدة، وخرجوا جميعا على وجوههم من شدة ما داخلهم من الرعب، ولكن لم يرد الله ذلك. ولم يجسروا للخروج عليه بعد ذلك.

ولما تنحت عنه عشيرته، ولم يلبوا دعوته، وأتلفوا الطبخة، وسافر القبودان وموسى باشا من ثغر سكندرية على الصورة المذكورة ... استأنف المترجم أمرا آخر، وراسل الانكليز يلتمس منهم المساعدة، وأن يرسلوا له طائفة من جنودهم ليقوى بهم على محاربة الخصم ... كما التمس منهم فى العام الماضى، فاعتذروا له بأنهم صلح مع العثمانى، وليس فى قانون الممالك — اذا كانوا صلحا — أن يتعدوا على المتصادقين معهم، ولا يوجهون نحوها عساكر الا باذن منهم، أو بالتماس المساعدة فى أمر مهم، فغاية ما يكون المكالمة والترجى .. ففعلوا، وحصل ما تقدم ذكره، ولم يتم الأمر.

فلما خاطبهم بعد الذى جرى ... صادف ذلك وقوع الغرة بينهم وبين العثمانى. فأرسلوا الى المترجم يعدونه بانفاذ ستة آلاف لمساعدته. فأقام بالبحيرة ينتظر حضورهم نحو ثلاثة شهور. وكان ذلك أوان القيظ، وليس ثم زرع ولا نبات. فضاقت على جيوشهم الناحية — وقد طال انتظاره للانكليز — فتشكى العربان المجتمعون عليه وغيرهم لشدة ماهم فيه من الجهد ... وفى كل حين يوعدهم بالفرج، ويقول لهم: «اصبروا لم يبق الا القليل». فلما اشتد بهم الجهد، اجتمعوا اليه وقالوا له: «اما ان تنتقل معنا الى ناحية قبلى ... فان أرض الله واسعة، واما أن تأذن لنا فى الرحيل فى طلب القوت». فما وسعه الا الرحيل مكظوما مقهورا من معاندة الدهر فى بلوغ المآرب.

الأول: مجىء القبودان وموسى باشا على هذه الهيئة والصورة، ورجوعهما على غير طائل.

الثانى: عدم ملكه دمنهور. وكان قصده أن يجعلها معقلا ويقيم بها حتى تأتيه النجدة.

الثالث: تأخر مجىء النجدة حتى قحطوا واضطروا الى الرحيل.

الرابع: وهو أعظمها، مجانبة اخوانه وعشيرته، وخذلانهم له، وامتناعهم عن الانضمام اليه. فارتحل من البحيرة بجيوشه ومن يصحبه من العربان، حتى وصل الى الأخصاص.

فنادى محمد على باشا على العساكر بالخروج، ولا يتأخر منهم واحد. فخرجوا أفواجا ليلا ونهارا حتى وصلوا الى ساحل بولاق، وعدوا الى بر انبابة، وجيشوا بظاهرها.

وقد وصل المترجم الى كفر حكيم، يوم الثلاثاء ثامن عشر القعدة، وانتشرت جيوشه بالبر الغربى ناحية انبابة والجيزة. وركب الباشا وأصناف العساكر، ووقفوا على ظهر خيولهم، واصطفت

بالرجالة ببنادقهم وأسلحتهم ... ومر المترجم فى هيئة عظيمة هائلة وجيوش تسد الفضاء ، وهم مرتبون طوابير ومعهم طبول ، وصحبته قبائل العرب من أولاد علي والهنادى وعربان الشرق فى كبكبة زائدة ... والباشا والعسكر وقوف ينظرون اليهم من بعد ، وهو يتعجب ويقول : « هذا طهماز الزمان ! والا ايش يكون ؟ » . ثم يقول للدلاة والخيالة : « تقدموا ، وحاربوا . وأنا أعطيكم كذا وكذا من المال » . ويذكر لهم مقادير عظيمة ، ويرغبهم . فلم يتجاسروا على الاقدام ، وصاروا باهتين ومتعجبين ، ويتناجون فيما بينهم ويتشاورون فى تقدمهم وتأخرهم ... وقد [illegible] بأعينهم !

ولم يزل سائرا حتى وصل الى قريب قناطر شبرامنت ، فنزل على علوة هناك ، وجلس عليها . وزاد به الهاجس والقهر ، ونظر الى جهة مصر وقال : « يا مصر .. انظرى الى أولادك ، وهم حولك مشتتين ، متباعدين مشردين ، واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرنؤود ، وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ، ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك ! » . ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله ، وقد تحرك به خلط دموى ، وفى الحال تقايأ دما ، وقال : « قضى الأمر ، وخلصت مصر لمحمد على ، وما ثم من ينازعه ويغالبه ، وجرى حكمه على المماليك المصرية ، فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم » .

ثم انه أحضر أمراءه ، وأمر عليهم شاهين بيك ، وأوصاه بخشداشينه ، وأوصاهم به ، وأن يحرصوا على دوام الألفة بينهم وترك التنازع الموجب للتفرق والتفاشل ، وأن يحذروا من مخادعة عدوهم .

وأوصاهم أنه اذا مات يحملوه الى وادى البهنـ ويدفنوه بجوار قبور الشهداء . فمات فى الليلة ، وهى ليلة الأربعاء تاسع عشر ذى القعد

فلما مات ، غسلوه وكفنوه ، وصلوا علي وحملوه على بعير ، وأرسلوه الى البهنسا ، ودفـ هناك بجوار الشهداء . وانقضى نحبه ، فسبحان له سرمدية البقاء .

وفى الحال : حضر المبشر الى محمد على باشـ ويبشره بموت المترجم . فلم يصدقه ، واستغـ ذلك ، وحبس البدوى الذى أتاه بالبشارة أربـ أيام ... وذلك لأن أتباعه كانوا كتموا أمر موته و يذيعوه فى عرضيه . والذى أشاع الخبر و بالبشارة رفيق البدوى الذى حمله على بعيره

ولما ثبت موته عند الباشا ، امتلأ فرحا وسرور وكذلك خاصته ، ورفعوا رؤوسهم .

وأحضر ذلك المبشر ، فألبسه فروة سمور وأعطاه مالا ، وأمره أن يركب بتلك الخلعة ويشـ بها من وسط المدينة ليراه أهل البلدة .

وشاع ذلك الخبر فى الناس من وقت حضـ المبشر ، وهم يكذبون ذلك الخبر ، ويقولون : هـ من جملة تحيلاته ، فانه لما سافر الى بلاد الانكليز لم يعلم بسفره أحد ، ولم يظهر سفره الا بعد مـ أشهر ... فلذلك أمر الباشا ذلك المبشر أن يركـ بالخلعة ويمر بها من وسط المدينة ، ومع ذلـ استمروا فى شكهم نحو شهرين حتى قويت عندهـ القرائن بما حصل بعد ذلك .

فانه لما مات تفرقت قبائل العربان التى كانـ متجمعة حوله ، وبعضهم أرسل يطلب أمانا مـ الباشا ، وغير ذلك مما تقدم ذكره وخبره فى ضمـ ماتقدم ... وكان محمد على باشا يقول : « مادا هذا الألفى موجودا ... لايهنأ لى عيش ، ومثالو

أنا وهو : مثال بهلوانين يلعبان على الحبل ، لكن هو فى رجليه قبقاب ! » .

فلما أتاه المبشر بموته قال — بعد أن تحقق ذلك — : « الآن .. طابت لى مصر ، وما عدت أحسب لغيره حسابا ! » .

وكان المترجم أميرا جليلا مهيبا ، محتشما ، مدبرا بعيد الفكر فى عواقب الأمور ، صحيح الفراسة . اذا نظر فى سحنة انسان عرف حاله وأخلاقه بمجرد النظر اليه ، قوى الشكيمة ، صعب المراس ، عظيم البأس ، ذا غيرة حتى على من ينتمى اليه ، أو ينسب الى طرفه . يحب علو الهمة فى كل شيء ، حتى أن التجار الذين تعاملهم فى المشتروات ، لايساومهم ولا يفاصلهم فى أثمانها ، بل يكتبون الأثمان بأنفسهم كما يحبون ويريدون فى قوائم ، ويأخذها الكاتب ليعرضها عليه ، فيمضى عليها ولا ينظر فيها . ويرى أن النظر فى مثل ذلك ، أو المحاققة فيه عيب ونقص يخل بالأمرية .

ولا تمضى السنة الا والجميع قد استوفوا حقوقهم ، ويستأنفوا احتياجات العام الجديد . ولذلك راج حال المعاملين له رواجا عظيما لكثرة ربحهم عليه ومكاسبهم . ومع ذلك يواسيهم فى جملة أحبابه والمنتسبين اليه ، بارسال الغلال لمئونة بيوتهم وعيالهم ، وكساوى العيد !

وينتصر لأتباعه ولمن انتمى اليه ، ويحب لهم رفعة القدر عن غيرهم ... مع أنه اذا حصل من أحد منهم هفوة تخل بالمروءة ، عنفه وزجره ، فترى كشافه ومماليكه — مع شدة مراسهم وقوة نفوسهم وصعوبتهم — يخافونه خوفا شديدا ، ويهابون خطابه .

ومن عجيب أمره ومناقبه التى انفرد بها عن غيره ، امتثال جميع قبائل العربان الكائنين بالقطر المصرى لأمره ، وتسخيرهم وطاعتهم له .. لايخالفونه فى شيء . وكان له معهم سياسة غريبة ، ومعرفة بأحوالهم وطبائعهم ... فكأنما هو مربى فيهم ، أو ابن خليفتهم ، أو صاحب رسالتهم ... يقومون ويقعدون لأمره مع أنه يصادرهم فى أموالهم وجمالهم ومواشيهم ، ويحبسهم ويطلقهم ، ويقتل منهم . ومع ذلك لاينفرون منه !

وقد تزوج كثيرا من بناتهم : فالتى تعجبه يبقيها حتى يقضى وطره منها ، والتى لاتوافق مزاجه يسرحها الى أهلها . ولم يبق فى عصمته غير واحدة — وهى التى أعجبته — فمات عنها .

فلما بلغ العرب موته ... اجتمعت بنات العرب ، وصرن يندبنه بكلام عجيب ، تناقلته أرباب المغانى يغنون به على آلات اللهو المطربة ، وركبوا عليه أدوارا وقوافى وغير ذلك !

والعجب منه — رحمه الله — أنه لما كان فى دولتهم السابقة ، وينزل فى كل سنة الى شرقية بلبيس ويتحكم فى عربانها ، ويسومهم سوء العذاب بالقبض عليهم ووضعهم فى الزناجير ، ويتعاون على البعض منهم بالبعض الآخر ، ويأخذ منهم الأموال والخيول والأباعر والأغنام ، ويفرض عليهم الفرض الزائدة ، ويمنعهم من التسلط على فلاحى البلاد !

ثم انه لما رجع من بلاد الانكليز ، وتعصب عليه البرديسى والعسكر ، وأحاطوا به من كل جانب ... فاختفى منهم ، وهرب الى الوادى عند عشيية البدوى ، فآواه وأخفاه ، وكتم أمره . والبرديسى ومن معه يبالغون فى الفحص والتفتيش ، وبذل الأموال والرغائب لمن يدل عليه أو يأتى به.. فلم يطمعوا فى شيء من ذلك ، ولم يفشوا سره ، وقيدوا بالطرق الموصلة له أنفارا منهم تحرس الطريق من طارق يأتى على حين غفلة ... وهذا من العجائب ، حتى كان كثير من الناس يقولون : « انه يسحرهم ، أو معه سر يسخرهم به ! » .

فلما مات ، تفرق الجميع ، ولم يجتمعوا على أحد بعده ، وذهبوا الى أماكنهم ، وبعضهم طلب من الباشا الأمان . وأما مماليكه وأتباعه ، فلم يفلحوا بعده ، وذهبوا الى الأمراء القبليين،فوجدوا طباعهم متنافرة عنهم ، ولم يحصل بينهم التئام ولا صفا كدر الفريقين من الآخر ، فانعزلوا عنهم الى أن جرى ماجرى من صلحهم مع الباشا ، وأوقع بهم ماسيتلى عليك بعد ... ان شاء الله تعالى .

وبعد موت المترجم بنحو الأربعين يوما ، وصلت نجدة الانكليز الى ثغر الاسكندرية ، وطلعوا اليه . فبلغهم عند ذلك موت المذكور ، فلم يسهل بهم الرجوع ، فأرسلوا رسلهم الى الجماعة المصريين — ظانين أن فيهم أثر الهمة والنخوة — يطلبونهم للحضور ، ويساعدهم الانكليز على ردهم لمملكتهم وأوطانهم .

وكان محمد على باشا — حين ذاك — بناحية قبلى يحاربهم ، فطلبهم للصلح معه ، وأرسل اليهم بعض فقهاء الأزهر وخادعهم وثبطهم ، فقعدوا عن الحركة ، وجرى ماجرى على طائفة الانكليز ، كما سيتلى عليك خبره ، ثم عليهم بعد ذلك .. وكان أمر الله مفعولا .

وكان للمترجم ولوع ورغبة فى مطالعة الكتب ... خصوصا العلوم الغريبة ، مثل : الجفريات ، والجغرافيا ، والاسطرنوميا ، والأحكام النجومية ، والمناظرات الفلكية وما تدل عليه من الحوادث الكونية . ويعرف أيضا مواضع المنازل وأسماءها وطبائعها ، والخمسة المتحيرة ، وحركات الثوابت ومواقعها ... كل ذلك بالنظر والمشاهدة والتلقى على طريقة العرب من غير مطالعة فى كتاب ، ولا حضور درس . واذا طالع أحد بحضرته فى كتاب ، أو أسمعه ، ناضله مناضلة متضلع ، وناقشه مناقشة متطلع .

وله أيضا معرفة بالأشكال الرملية ، واستخراجات الضمائر بالقواعد الحرفية . وكان له فى ذلك اصابات ، ومنها ما أخبرنى به بعض أتباعه : أنه لما وصل الى ثغر سكندرية — راجعا من بلاد الانكليز — رسم شكلا وتأمل فيه ، وقطب وجهه ، ثم قال : « انى أرى حادثا فى طريقنا ، وربما أنى أفترق منكم ، وأغيب عنكم نحو أربعين يوما » . فلذلك .. أحب أن يخفى أمره ويأتى على حين غفلة .

وكان البرديسى قد أقام بالثغر رقيبا ، يوصل خبر وروده . فلما وصل ، أرسل ذلك الرقيب ساعيا فى الحال — وكان ماذكرناه فى سياق التاريخ ، من غدرهم وقتلهم حسنين بيك الوشاش بالبر الغربى ، وهروب بشتك بيك من القصر ، وارسال العسكر للاقاة المترجم على حين غفلة ليقتلوه ، وهروبه واختفاؤه ، ثم ظهوره واجتماعهم عليه بعد انقضاء تلك المدة ، أو قريب منها .

وكان — رحمه الله — اذا سمع بانسان فيه معرفة بمثل هذه الأشياء ، أحضره ومارسه فيها ، فان رأى فيه فائدة أو مزية أكرمه وواساه وصاحبه وقربه اليه وأدناه .

وكان له مع جلسائه مباسطة — مع الحشمة والترفع عن الهذيان والمجون . وكان غالب اقامته بقصوره التى عمرها خارج مصر — وهو القصر الكبير بمصر القديمة ، تجاه المقياس بشاطىء النيل ، والقصر الآخر الكائن بالقرب من زاوية الدمرداش، والقصر الذى بجانب قنطرة المغربى على الخليج الناصرى .

وكان اذا خرج من داره — لبعض تلك القصور — لا يمر من وسط المدينة ، واذا رجع كذلك . فسئل عن سبب ذلك ، فقال :

« أستحى أن أمر من وسط الأسواق وأهل

الحوانيت والمارة ينظرون الى ، وأفرجهم على نفسى » .

وللمترجم أخبار وسير ووقائع .. لو سطرت ، لكانت سيرة مستقلة ، خصوصا وقائعه وسياحته ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ، أيام أقام الفرنساوية بالقطر المصرى ، ورحلته بعد ذلك الى بلاد الانكليز ، وغيابه بها سنة وشهورا . وقد تهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عمارة بلادهم ، وحسن سياسة أحكامهم ، وكثرة أموالهم ورفاهيتهم وصنائعهم ، وعدلهم فى رعيتهم ، مع كفرهم ، بحيث لايوجد فيهم فقير ولا مستجدى ، ولا ذو فاقة ولا محتاج . وقد أهدوا له هدايا وجواهر ، وآلات فلكية ، وأشكالا هندسية ، واسطرلابات وكرات ولظارات . وفيها ما اذا نظر الانسان فيها فى الظلمة يرى أعيان الأشكال كما يراها فى النور . ومنها لخصوص النظر فى الكواكب ، فيرى بها الانسان الكوكب الصغير عظيم الجرم ، وحوله عدة كواكب لا تدرك بالبصر الحديد ! ومن أنواع الأسلحة الحربية أشياء كثيرة . وأهدوا له آلة موسيقى تشبه الصندوق ، بداخله أشكال تدور بحركات ، فيظهر منها أصوات مطربة ، على ايقاع الأنغام وضروب الألحان ، وبها لشانات وعلامات لتبديل الانغام بحسب مايشتهى السامع.. الى غير ذلك ... نهب ذلك جميعه العسكر الذين أرسلهم اليه البرديسى ليقتلوه ، وطفقوا يبيعونه فى أسواق البلدة ، وأغلبه تكسر وتلف وتبدد .

وأخبرنى بعض من خرج لملاقاته عند منوف العليا ، انه لما طلع اليها ، وقابله سليمان بيك البواب ، أخلى له الحمام — فى تلك الليلة — وكان قد بلغه كافة أفعاله بالمنوفية من العسف والتكاليف ، وكذا باقى اخوانه وأفعالهم بالأقاليم . فكان مسامرتهم معه تلك الليلة فى ذكر العدالة الموجبة لعمارة البلاد .

ويقول لسليمان بيك فى التمثيل : « الانسان الذى يكون له ماشية — يقتات هو وعياله من لبنها وسمنها وجبنها — يلزمه أن يرفق بها فى العلف ، حتى تدر وتسمن وتنتج له النتاج ؛ بخلاف ما اذا أجاعها وأجحفها وأتعبها وأشقاها وأضعفها ، حتى اذا ذبحها لا يجد بها لحما ولا دهنا » .

فقال : « هذا ما اعتدناه ، وربينا عليه » . فقال : « ان أعطانى الله سيادة مصر والامارة فى هذا القطر ، لأمنمن هذه الوقائع ، وأجرى فيه العدل ليكثر خيره ، وتعمر بلاده ، وترتاح أهله ، ويكون أحسن بلاد الله » . ولكن الاقليم المصرى ليس له بخت ولا سعد ، وأهله تراهم مختلفين فى الأجناس ، متنافرى القلوب ، منحرفى الطباع. فلم يمض على هذا الكلام الا بقية الليل وساعات من النهار ، حتى أحاطوا به ، وفر هاربا ونجا بنفسه . وجرى ماتقدم ذكره من اختفائه وظهوره ، وانتقاله الى الجهة القبلية ، واجتماع الجيوش عليه ، وحكمت عليه الصورة التى ظهر فيها ، وحصل له ما حصل .

واخبرنى من اجتمع عليه فى البحيرة ، وسامره ، فقال : « يافلان .. والله يخيل لى أن أقتل نفسى .. ولكن لاتهون على ، وقد صرت الآن واحدا بين ألوف من الأعداء ، وهؤلاء قومى وعشيرتى فعلوا بى ما فعلوا ، وتجنبونى وعادونى من غير جرم ولا ذنب سبق منى فى حقهم ، وأشقونى وأشقوا أنفسهم ، وملكوا البلاد لأعدائى وأعدائهم ، وسعيت واجتهدت فى مرضاتهم ومصالحتهم والنصح لهم ، فلم يزدهم ذلك الا نفورا ، وتباعدا عنى .

« ثم هذه الجنود ورئيسهم ، الذين ولجوا البلاد وذاقوا حلاوتها ، وشبعوا بعد جوعهم ، وترفهوا بعد ذلهم ، يجيشون على ويحاربونى ، ويكيدونى

ويقاتلوني . ثم ان هؤلاء العربان المجتمعين على ، أصانعهم وأسوسهم ، وأغاضبهم وأراضيهم ، وكذلك جندي ومماليكي ، وكل منهم يطلب مني رياسة وامارة ، ويظنون — بغفلتهم — أن البلاد تحت حكمي ، ويظنون أني مقصر في حقهم : فتارة أعاملهم باللطف ، وتارة أزجرهم بالعنف . فأنا بين الكل مثل الفريسة ، والجميع حولي مثل الكلاب الجياع ، يريدون نهشي وأكلي ، وليس بيدي كنوز قارون فأنفق على هؤلاء الجموع منها ، فيضطرني الحالي الى التعدي على عباد الله ، وأخذ أموالهم ، وأكل مزارعهم ومواشيهم . فان قدر الله لي بالظفر ، عوضت عليهم ذلك ، ورفقت بحالهم ، وان كانت الأخرى ، فالله يلطف بنا وبهم ، ولا بد أن يترحموا علينا ، ويسترضوا عن ظلمنا وجورنا بالنسبة لما يحل بهم بعدنا » .

وبالجملة . فكان آخر من أدركنا من الأمراء المصريين شهامة وصرامة ، ونظرا في عواقب الأمور.

وكان وحيدا في نفسه ، فريدا في أبناء جنسه . وبموته اضمحلت دولتهم ، وتفرقت جمعيتهم ، وانكسرت شوكتهم ، وزادت نفرتهم . وما زالوا في نقص وادبار ، وذلة وهوان وصغار ، ولم تقم لهم بعده راية ، وانقرضوا وطردوا الى أقصى البلاد في النهاية .

وأما مماليكه وصناجقه ، فانهم تركوا نصيحته ، ونسوا وصيته ، وانضموا الى عدوهم وصادقوه . ولم يزل بهم حتى قتلهم وأبادهم عن آخرهم ، كما سيتلى عليك خبر ذلك فيما بعد .

وكانت صفة المترجم معتدل القامة ، أبيض اللون مشربا بحمرة ، جميل الصورة ، مدور اللحية ، أشقر الشعر قد وخطه الشيب ، مليح العينين ، مقرون الحاجبين ، معجبا بنفسه ، مترفها في زيه وملبسه ، كثير الفكر ، كتوما لا يبيح بسر ولا لأعز أحبابه . الا انه لم يسعفه الدهر ، وجنى عليه بالقهر ، وخاب أمله ، وانقضى أجله ، وخانه الزمان ، وذهب في خبر كان . ومات وله من العمر نحو الخمسة والخمسين سنة .. غفر الله له .

* * *

ومات الأمير عثمان بيك البرديسي المرادي ، وسمي البرديسي لأنه تولى كشوفية برديس بقبلي وعرف بذلك واشتهر به .

تقلد الأمرية والصنجقية في سنة ١٢١٠ ، وتزوج ببنت احمد كتخدا على ، وهي أخت على كاشف الشرقية ، وعمل لها مهما ، وذلك قبل أن يتقلد الصنجقية . وسكن بدار على كتخدا الطويل بالأزبكية . واشتهر ذكره ، وصار معدودا من جملة الأمراء .

ولما قتل عثمان بيك البرديسي المرادي بساحل أبو قير . ورجع من رجع الى قبلي . كان الألفي هو المتعين بالرياسة على المرادية . فلما سافر الألفي الى بلاد الانكليز . تعين المترجم بالرياسة على خشداشينه مع مشاركة بشتك بيك الذي عرف بالألفي الصغير .

فلما حضروا الى مصر في سنة ثمان عشرة بعد خروج محمد باشا خسرو وقتل طاهر باشا ، انضم اليه محمد علي باشا — وكان اذ ذاك سرششمه العساكر ، وتواخى معه وصادقه ، ورمح في ميدان غفلته ، وتحالفا ، وتعاهدا ، وتعاقدا على المحبة والمصافاة ، وعدم خيانة أحدهما للآخر ، وأن يكون محمد علي باشا وعساكره الأروام اتباعا له ، وهو الأمير المتبوع . فانتفخ جأشه — لأنه كان طائش العقل ، مقتبل الشبيبة — فاغتر بظاهر محمد علي باشا ، لأنه حين عمل شغله في مخدومه محمد باشا ، وبعده طاهر باشا ، دعا الأمراء المصريين ، وأدخلهم الى مصر ، وانتسب الى ابراهيم بيك الكبير ، لكونه رئيس القوم وكبيرهم ، وعين لابراهيم بيك خرجا وعلوفة مثل

أتباعه وسبره واختبره ، فلم ترج سلعته عليه ، ووجده محرصا على دوام التراحم والألفة والمحبة ، وعدم التفاشل فى عشيرته وأبناء جنسه ، متحرزا من وقوع ما يوجب التقاطع والتنافر فى قبيلته .

فلما أيس منه ، مال عنه وانضم الى المترجم ، واستخفه واحتوى على عقله ، وصاحبه وصادقه ، وصار يختلى معه ، ويتعاقر معه الشراب ، ويسامره ويسايره ، حتى باح له بما فى ضميره من الحقد لاخوانه ، وتطلب الانفراد بالرياسة . فصار يقوى عزمه ، ويزيد فى اغرائه ، ويوعده بالمعاونة والمساعدة على اتمام قصده .

ولم يزل به ، حتى رسخ فى ذهن المترجم نصحه وصدقه .. كل ذلك توصلا لما هو كامن فى نفسه من اهلاك الجميع ، ثم أشار عليه ببناء أبراج حول داره التي سكن بها بالناصرية . فلما أتمها ، أسكن بها طائفة من عساكره كأنهم محافظون لما عساه أن يكون .

ثم سار معه الى حرب محمد باشا خسرو بدمياط فحاربوه ، وأتوا به أسيرا ، وحبسوه . ثم فعلوا بالسيد على القبطان مثل ذلك ، ثم كائنة على باشا الطرابلسي وقتله — وقد تقدم خبر ذلك كله ، وجميعه نسب فعله للمصريين — ولم يبق الا الايقاع بينهم. فكان وصول الألفى عقب ذلك ، فأوقعوا به وبجنده ما تقدم ذكره ، وتفاشلوا وتفرقوا بعد جمعهم ، وقلوا بعد الكثرة .

ثم أشار على المترجم ، المصادق الناصح ، بتفريق أكثر الجمع الباقى فى النواحى والجهات : البعض منهم لرصد الألفى والقبض عليه وعلى جنده ، والبعض الآخر لظلم الفلاحين فى البلاد . ولم يبق بالمدينة غير المترجم وابراهيم بيك الكبير وبعض الأمراء . فعند ذلك سلط محمد على العساكر بطلب علائفهم المنكسرة ، فعجزوا عنها . فأراد المترجم أن يفرض على فقراء البلدة فرضة — بعد أن استشار الأخ النصوح — وطافت الكتاب فى الحارات والأزقة ، يكتبون أسماء الناس ودورهم . ففزعوا وصرخوا فى وجوه العسكر . فقالوا : « نحن ليس لنا عندكم شيء ، ولا نرضى بذلك ، وعلائفنا عند أمرائكم ونحن مساعدون لكم » . فعند ذلك قاموا على ساق ، وخرجت نساء الحارات وبأيديهم الدفوف ، يغنون ويقولون : « ايش تأخذ من تفليسى يابرديسى ! » . وصاروا يسخطون على المصريين ، ويترضون عن العسكر . وفى الحال ، أحاطت العسكر ببيوت الأمراء ، ولم يشعر البرديسى الا والعسكر — الذين أقامهم بالأبراج ، التى بناها حوله ليكونوا له عزا ومنعة — يضربون عليه ويحاربونه ، ويريدون قتله . وتسلقوا عليه . فلم يسع الجميع الا الهروب والفرار . وخرجوا خروج الضب من الوجار .

وذهب المترجم الى الصعيد مذءوما مدحورا ، مذموما مطرودا ، وجوزى مجازاة من ينتصر بعدوه ويعول عليه ، ويقص أجنحته برجليه ، وكالباحث على حتفه بظلفه ، والجادع بظفره مارن أنفه .

ولم يزل فى هجاج وحروب — كما سطر فى السياق — ولم ينتصر فى معركة . ولم يزل مصرا على معاداة أخيه الألفى ، وحاقدا عليه وعلى أتباعه ، محرصا على زلاته وأعظمها قضية القبودان وموسى باشا .. الى غير ذلك .

وكان ظالما غشوما طائشا ، سيىء التدبير . وقد أوجده الله جل جلاله ، وجعله سببا لزوال عزهم ودولتهم ، واختلال أمرهم ، وخراب دورهم ، وهتك أعراضهم ومذلتهم وتشتيت جمعهم . ولم يزل على خبثه ، حتى مرض ومات بمنفلوط ، ودفن هناك .

❋ ❋ ❋

ومات الأمير بشتك بيك — وهو الملقب بالألفى الصغير — وهو مملوك محمد بيك الألفى الكبير . أمره وجعله وكيلا عنه مدة غيابه فى بلاد الانكليز . وكان قبل ذلك سلحداره ، وأمر كشافه ومماليكه وجنده بطاعته ، وامتثال أمره .

فلما حضر الأمراء المصريون فى سنة ثمان عشرة أقام هو بقصر مراد بيك بالجيزة . فلم يحسن السياسة ، وداخله الغرور وأعجب بنفسه ، وشمخ على نظرائه ، وعلى أعمامه الذين هم خشداشون لأستاذه ... بل وعلى ابراهيم بيك الكبير الذى هو بمنزلة جده . وكان مراد بيك — الذى هو أستاذ أستاذه — يراعى حقه ، ويتأدب معه ، ويقبل يده فى مثل الأعياد ، ويقول : « هو أميرنا وكبيرنا » . وكذلك أستاذ المترجم . كان اذا دخل على ابراهيم بيك قبل يده ، ولا يجلس بحضرته الا بعد أن يأذن له .

فلم يقتف المترجم فى ذلك أسلافه ، بل سلك مسلك التعاظم والتكبر على الجميع ، واستعمل العسف فى أموره ، مع الترفع على الجميع . واذا عقدوا أمرا بدونه حله ، أو حلوا شيئا بدونه عقده . فضاق لذلك خناق الجميع منه ، وكرهوه وكرهوا أستاذه .

وكان هو من جملة أسباب نفورهم من أستاذه ، وانحراف قلوبهم عنه .

فلما رجع أستاذه ، وظهر من اختفائه ، وبعه أفعاله ، مقته وأبعده . ولم يزل ممقوتا عنده . حتى مات مبطونا فى حياة أستاذه بناحية قبلى فى تلك السنة .

❋ ❋ ❋

ومات غير هؤلاء ، ممن له ذكر مثل : سليمان بيك المعروف بأبو دياب ، بناحية قبلى أيضا .

❋ ❋ ❋

ومات أيضا ، أحمد بيك المعروف بالهنداوى الألفى فى واقعة النجيلة .

❋ ❋ ❋

ومات أيضا ، صالح بيك الألفي ، وهو أيضا ممن تأمر فى غياب أستاذه . وعند حضور أستاذه من بلاد الانكليز ، كان هو متوليا كشوفية الشرقية ، وغائبا هناك . فأرسلوا له تجريدة ليقتلوه — وكان بناحية شلشمون — فوصله الخبر ، فترك خيامه وأحماله وأثقاله ، وهرب واختفى .

فلما وقعت حادثة الأمراء مع العسكر وخرجوا من مصر هاربين ، وظهر الألفى من الوادى ، ذهب اليه وأمده بما معه من الأموال ، وذهب مع أستاذه الى قبلى . ولم يزل حتى مات أيضا فى هذه السنة . وغير أولئك كثير ، لم تحضرنى أسماؤهم ، ولا وفاتهم .

المحـرم

الأربعاء غرته (١١ مارس ١٨٠٧ م) :

وصل القابجى الذى على يده التقرير لمحمد على باشا على ولاية مصر . وطلع الى بولاق .

وفيه : وردت مكاتبات من الجهة القبلية ، فيها : أنهـم كبسوا على عرضى الألفيـة — وصحبتهم سليمان بيك البواب — وحاربوهم ، وهزموهم ، ونهبوا حملاتهم ، وقطعوا منهم عدة رؤوس ، وهى واصلة فى طريق البحر .

وصادفت هذه البشارة مع بشارة ورود القابجى ووصوله ، فعمل لذلك شنك ، وضربت لذلك مدافع كثيرة من القلعـة فى كل وقت من الأوقات الخمسة ... ثلاثة أيام آخرها الجمعة .

ثم انه مضى عـدة أيام ، ولم تحضر الرؤوس التى أخبروا عنها . واختلفت الروايات فى ذلك .

الثلاثاء ٧ منه (١٧ مارس ١٨٠٧ م) :

عملوا جمعية ببيت القاضى ، حضرها المشـايخ والأعيان . وذكروا أنه لما وردت الأوامر بتحصين الثغور ، أرسل الباشا سليمان أغا ، ومعـه طائفة من العسكر ، وأرسل الى أهالى الثغور والمحافظين عليهـا مكاتبـات بأنهم ان كانوا يحتـاجون الى عساكر فيرسل لهم الباشا عساكر زيادة على الذين أرسلهم . فأجابوا بأن فيهم الكفاية ، ولا يحتاجون الى عساكر زيادة تأتيهم من مصر... فانهم اذا كثروا فى البلد تأتى منهم الفساد والافسـاد ... فعملوا هذه الجمعية لاثبات هذا القول ، ولخلاص عهدة الباشا ، لئلا يتوجه عليـه اللوم من السـلطنة ، وينسب اليه التفريط .

الخميس ٩ منه (١٩ مارس ١٨٠٧ م) :

وردت مكاتبات مع السعادة من ثغر سكندرية ، وذلك يوم الخميس وقت العصر ، وفيها : الاخبار بورود مراكب الانكليز — وعدتهم اثنان وأربعون مركبا ... فيهم عشرون قطعة كبار ، والباقى صغار

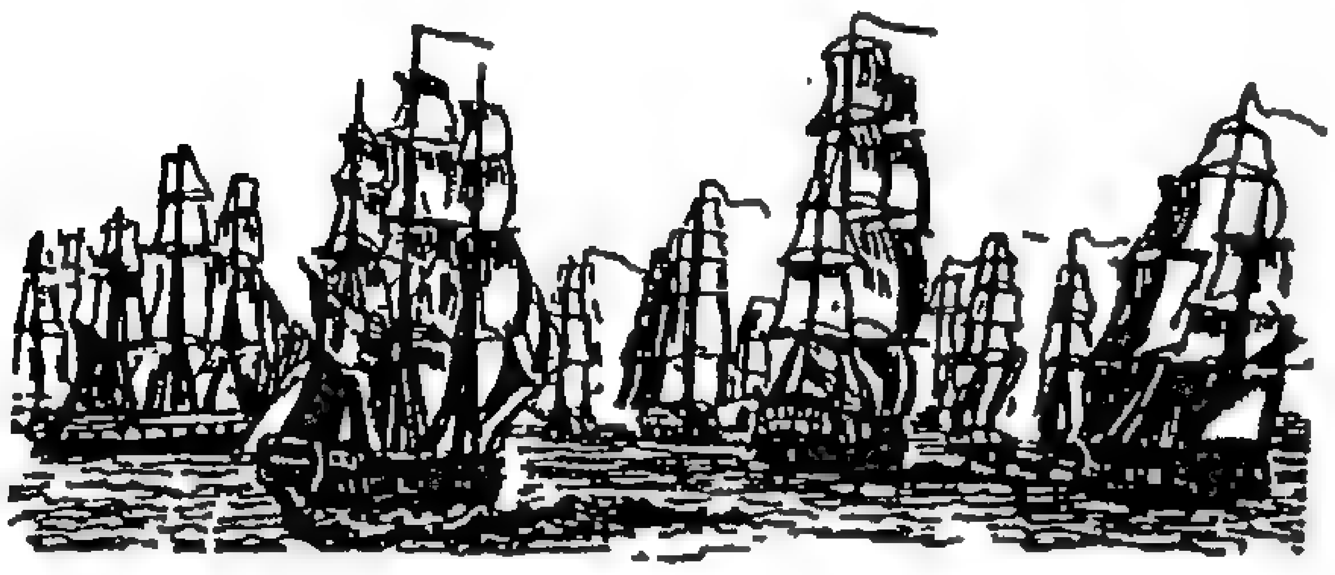

مراكب الانجليز

— فطلبوا الحاكم والقنصـل ، وتكلموا معهم ، وطلبـوا الطلوع الى الثغـر . فقـالوا لهم : « لا لمكنكم من الطلوع الا بمرسوم سلطانى » . فقالوا : « لم يكن معنـا مراسيم ، وانمـا مجيئنا لمحافظة الثغر من الفرنسيس ، فانهم ربما طرقوا البلاد على حين غفلة . وقد أحضرنا صحبتنا خمسة آلاف من العسـكر تقيمهم بالأبراج ، لحفظ البلدة والقلعة والثغر » . فقالوا لهم : « لم يكن معنـا اذن . وقد أتتنا مراسيم بمنع كل من وصـل عن الطلوع من أى جنس كان » . فقالوا : « لا بد من ذلك : فاما أن تسـمحوا لنـا فى الطلوع بالرضا والتسليم ، واما بالقهـر والحرب . والمهلة فى رد الجواب بأحد الأمرين ، أربع وعشرون سـاعة ،

ثم تندموا على الممانعة » . فكتبوا بذلك الى مصر.

فلما وصلت تلك المكاتبات ... اجتمع كتخدا بيك ، وحسن باشا ، وبونابارته الخازندار ، وطاهر باشا ، والدفتردار ، والروزنامجى ، وباقى أعيانهم — وذلك بعد الغروب — وتشاوروا فى ذلك . ثم أجمع رأيهم على ارسال الخبر بذلك الى محمد على باشا ، ويطلبونه للحضور هو ومن بصحبته من العساكر ، ليستعدوا لما هو أولى وأحق بالاهتمام .

ففعلوا ذلك وانصرفوا الى منازلهم ، بعد حصة من الليل ، وأرسلوا تلك المكاتبة اليه فى صبح يوم الجمعة صحبة هجانين ، وشاع الخبر ، وكثر لغط الناس فى ذلك .

ولما انقضت الأربع والعشرون ساعة التى جعلها الانكليز أجلا بينهم وبين أهل الاسكندرية — وهم فى الممانعة — ضربوا عليهم بالقنابر والمدافع الهائلة من البحر .. فهدموا جانبا من البرج الكبير ، وكذلك الأبراج الصغار والسور . فعند ذلك طلبوا الأمان . فرفعوا عنهم الضرب ، ودخلوا البلدة .. وذلك يوم الجمعة التالى .

الاثنين ١٣ منه (٢٣ مارس ١٨٠٧ م) :

وردت مكاتبة من رشيد بذلك الخبر على سبيل الاجمال من غير معرفة حقيقة الحال ... بل بالعلم بأنهم طلعوا الى الثغر ودخلوا البلدة ، وعدم علمهم بالكيفية وتغيب الحال ، واشتبه الأمر .

وفيه : حضر قنصل الفرنساوية الى مصر — وكان بالاسكندرية — فلما وردت مراكب الانكليز ، انتقل الى رشيد . فلما بلغه طلوعهم الى البر ، حضر الى مصر ، وذكر أنه يريد السفر الى الشام هو وباقى الفرنساوية القاطنين بمصر .

الخميس ١٦ منه (٢٦ مارس ١٨٠٧ م) :

وردت مكاتبة من الباشا يذكر فيها : أنه تحارب مع المصريين ، وظهر عليهم ، وأخذ منهم أسيوط ، وقبض على أنفار منهم ، وقتل فى المعركة كثير من كشافهم ومماليكهم . فعملوا فى ذلك اليوم شنكا وضربوا مدافع كثيرة ... من القلعة والأزبكية ، ثلاثة أيام — فى الأوقات الخمسة — آخرها السبت .

وأشاعوا أيضا أن الاسكندرية ممتنعة على الانكليز ، وأنهم طلعوا الى رأس التين والعجمى . فخرج عليهم أهل البلاد والعساكر ، وحاربوهم ، وأجلوهم عن البر ، ونزلوا الى المراكب مهزومين . وحرقوا منهم مركبين وأنه وصل اليهم عمارة العثمانيين والفرنساوية ، وحاربوهم فى البحر ، وأحرقوا مراكبهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، ولم يبق منهم الا القليل .

واستمر الأمر فى هذا الخلط القبلى والبحرى عدة أيام . ولم يأت من الاسكندرية سعاة ولا خبر صحيح .

وفيه : وصل الكثير من أهالى الفيوم ، ودخلوا الى مصر ... وهم فى أسوأ حال من الشتات والعرى ، مما فعل بهم ياسين بيك . فخرجوا على وجوههم ، وجلوا عن أوطانهم ولم يمكنهم الخروج من بلادهم ... حتى ارتحل عنهم المذكور يريد الحضور الى ناحية مصر ، عندما بلغه خبر حضور الانكليز الى ثغر سكندرية .

الجمعة ١٧ منه (٢٧ مارس ١٨٠٧ م) :

وصل ياسين بيك المذكور الى ناحية دهشور ، وأرسل مكاتبة خطابا للسيد عمر والقاضى وسعيد أغا ... يذكر فيها : أنه لما بلغه وصول الانكليز ، أخذته الحمية الاسلامية ، وحضر — وصحبته ستة آلاف من العسكر — ليرابط بهم بالجيزة أو بقليوب ، ويجاهد فى سبيل الله . فكتبوا له أجوبة ... مضمونها : ان كان حضوره بقصد

الجهاد ، فينبغي أن يتقدم بمن معه الى الاسكندرية. واذا حصل له النصر ، تكون له اليد البيضاء ، والمنقبة والذكر والشهرة الباقية . فانه لا فائدة باقامته بالجيزة أو قليوب ... وخصوصا قليوب بالبر الشرقى .

وكان حسن باشا خرج بعرضيه فى موكب الى ناحية الخلاء ، قبل ذلك بأيام ، ويرجع الى داره ، آخر النهار ، فيبيت بها . ثم يخرج فى الصباح .. وعساكره وأوباشه ينتشرون بتلك النواحى ، يعبثون ويخطفون متاع الناس ، ومبيعات الفلاحين وأهل بولاق . وفى كل يوم يشيعون بأنه مسافر الى جهة البحيرة لمحاربة الانكليز .

فلما ورد خبر مجىء ياسين بيك ، تأخر عن السفر . وعملوا مشورة فاقتضى رأيهم أن حسن باشا يعدى الى البر الغربى ، ويقيم بالجيزة .. لئلا يأتى ياسين بيك ويملكها . فعدى حسن باشا فى يوم الاثنين عشرينه ، وأقام بها ، وأعرض عن السفر الى جهة البحيرة .

وفيه : وردت الأخبار الصحيحة بأخذ الاسكندرية ، واستيلاء الانكليز عليها يوم الخميس المتقدم ، تاسع الشهر . ودخلوها ، وملكوا الأبراج يوم الأحد صبيحة النهار ، وسكن صارى عسكرهم بوكالة القنصل .

وشرطوا مع أهالى البلد شروطا . منها : أنهم لا يسكنون البيوت قهرا عن أصحابها ، بل بالمؤاجرة والتراضى ، ولا يمتهنون المساجد ، ولا يبطلون منها الشعائر الاسلامية . وأعطوا أمين أغا الحاكم أمانا على نفسه وعلى من معه من العسكر ، وأذنوا لهم بالذهاب الى أى محل أرادوه . ومن كان له دين على الديوان .. يأخذ نصفه حالا ، والنصف الثانى مؤجلا . ومن أراد السفر فى البحر من التجار وغيرهم .. فليسافر فى خفارتهم الى أى جهة أراد ، ماعدا اسلامبول . وأما الغرب والشام وتونس وطرابلس ونحوها ، فمطلق السراح لا حرج ... ذهابا وايابا .

ومن شروطهم التى شرطوها مع أهل البلد : أنهم ان احتاجوا الى قومانية أو مال .. لا يكلفون أهل الاسكندرية بشىء من ذلك ، وأن محكمة الاسلام تكون مفتوحة تحكم بشرائعها ، ولا يكلفون أهل الاسلام بقيام دعوى عند الانكليز بغير رضاهم . والحمايات ، من أى بنديرة ، تكون مقبولة عند الانكليز الموجودين فى الاسكندرية ، ويقيمون مأمونين رعاية لخاطر أهل الاسكندرية ، ولم يحصل لهم شىء من المكروه من كامل الوجوه .. حتى الفرنساوية . والجمارك من كل الجهات ، على كل مائة اثنان ونصف . وعلى ذلك انتهت الشروط .

وليعلم أن هذه الطائفة من الانكليز ، ومن انضم اليهم — وعدتهم على ما قيل ستة آلاف — لم تأت الى الثغر طمعا فى أخذ مصر ، بل كان ورودهم ومجيئهم مساعدة ومعاونة للألفى على أخصامه .. باستدعائه لهم ، واستنجاده بهم قبل تاريخه .

وسبب تأخرهم فى المجىء .. لما بينهم وبين العثمانى من الصلح . فلا يتعدون على ممالكه من غير اذنه ، لمحافظتهم على القوانين . فلما وقعت الغرة بينهم وبينه بما تقدم .. فعند ذلك انتهزوا الفرصة ، وأرسلوا هذه الطائفة .

وكان الألفى ينتظر حضورهم بالبحيرة ، فلما طال عليه الانتظار ، وضاقت عليه البحيرة ، ارتحل بجيوشه مقبلا .. وقضى الله موته باقليم الجيزة .

وحضر الانكليز بعد ذلك الى الاسكندرية ، فوجدوه قد مات ، فلم يسعهم الرجوع . فأرسلوا الى الأمراء القبليين يستدعونهم ليكونوا مساعدين لهم على عدوهم . ويقولون لهم : « انما جئنا الى

بلادكم باستدعاء الألفى لمساعدته ومساعدتكم ، فوجدنا الألفى قد مات . وهو شخص واحد منكم وأنتم جمع .. فلا يكون عندكم تأخير فى الحضور لقضاء شغلكم . فانكم لا تجدون فرصة بعد هذه ، وتندمون بعد ذلك ان تلكأتم » .

فلما وصلتهم مراسلة الانجليز ، تفرق رأيهم .. وكان عثمان بك حسن منعزلا عنهم — وهو يدعى الورع ، وعنده جيش كبير — فأرسلوا اليه يستدعونه . فقال : « أنا مسلم هاجرت وجاهدت وقاتلت فى الفرنساوية ، والآن أختم عملى والتجىء الى الافرنج ، وأنتصر بهم على المسلمين ؟ . أنا لا أفعل ذلك ! » . وعثمان بك يوسف كان بناحية الهو .

وكان الباشا يحارب الذين بناحية أسيوط ، وهم : المرادية ، والابراهيمية ، والألفى . والتقى معهم ، وانكسروا منه ، وقتل منهم أشخاصا . فلما ورد عليه خبر الانكليز ، انفعل لذلك ، وداخله وهم كبير ، وأرسل اليهم المشايخ وخلافهم يطلبهم للصلح . وكان ما سيتلى عليك قريبا .. وما كان الا ما أراده المولى جل جلاله .. من تعسة الانكليز والقطر وأهله ... الى أن يشاء الله !

وفيه : وصل مكتوب من محمد على باشا بطلب مصطفى أغا الوكيل وعلى كاشف الصابوبجى ، ليرسلهم الى الأمراء القبالى . فتراخوا فى الذهاب لكونهم وجدوا تاريخ المكتوب حادى عشر الشهر ، فعلموا أن ذلك قبل تحقق خبر الانكليز .

ثم ورد منه مكتوب آخر يذكر فيه عزمه على الرجوع الى مصر قريبا .. فان العساكر يطالبونه بالعلائف ، ويأمرهم فيه بتحصيل ذلك وتنظيمه ، ليستلموها عند حصولهم بمصر ، ويتجهزوا لمحاربة الانكليز .

الخميس ٢٣ منه (٢ ابريل ١٨٠٧ م) :

ورد مكتوب من أهالى دمنهور — خطابا الى السيد عمر النقيب — مضمونه : « أنه لما دخلت المراكب الانكليزية الى سكندرية ، هرب من كان بها من العساكر ، وحضروا الى دمنهور . فعندما شاهدهم الكاشف الكائن بدمنهور ، ومن معه من العسكر ، انزعجوا انزعاجا شديدا ، وعزموا على الخروج من دمنهور . فخاطبهم أكابر الناحية قائلين لهم : «كيف تتركونا وتذهبوا .. ولم تروا منا خلافا ، وقد كنا ، فيما تقدم من حروب الألفى ، من أعظم المساعدين لكم .. فكيف لا نساعد الآن بعضنا بعضا فى حروب الانكليز ؟!» . فلم يستمعوا لقولهم لشدة ماداخلهم من الخوف . وعبوا متاعهم ، وأخرج الكاشف أثقاله وجبخانته ومدافعه ، وتركها وعدى وذهب الى فوه من ليلته ، ثم أرسل فى ثانى يوم من أخذ الأثقال ! فهذا ما حصل أخبرناكم به » .

وأما « بونابارته » الخازندار ، الذى سافر لحرب الانكليز ، فانه نزل على القليوبية ، وفعل ما أمكنه وقدر عليه بالبلاد ، من السلب والنهب والجور والكلف والتساويف ، حتى وصل الى المنوفية .

وكذلك طاهر باشا الذى سافر فى أثره ، واسماعيل كاشف — المعروف بالطوبجى — فرض على البلاد جمالا وخيولا وأبقارا وغير ذلك .

ومن جملة أفاعيلهم : أنهم يوزعون الأغنام المنهوبة علي البلاد ، ويلزمونهم بعلفها وكلفها ، ثم يطلبون أثمانها مضاعفة بما يضاف الى ذلك من حق طرق المعينين ... وأمثال ذلك !

الجمعة ٢٤ منه (٣ ابريل ١٨٠٧ م) :

وردت أخبار من ثغر رشيد يذكرون بأن طائفة من الانكليز وصلت الى رشيد ، فى صبح يوم الثلاثاء حادى عشرينه ، ودخلوا الى البلد .. وكان

أهل البلدة ، ومن معهم من العساكر ، متنبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت . فلما حصلوا بداخل البلدة ، ضربوا عليهم من كل ناحية فالقوا ما بأيديهم من الأسلحة ، وطلبوا الأمان . فلم يلتفتوا لذلك ، وقبضوا عليهم ، وذبحوا منهم جملة كثيرة ، وأسروا الباقين . وفر طائفة الى ناحية دمنهور .. وكان كاشفها — عندما بلغه ما حصل برشيد — اطمأن خاطره ، ورجع الى ناحية دبي ومحلة الأمير ، وطلع بمن معه الى البر ، فصادف تلك الشرذمة ، فقتل بعضهم ، وأخذ ما بقى منهم أسرى . وأرسلوا السعاة الى مصر بالبشارة .

فضربوا مدافع ، وعملوا شنكا ، وخلع كتخدا بيك على السعاة الواصلين . وأسرعت المبشرون من أتباع العثمانيين — وهم القواسة الأتراك — بالسعى الى بيوت الأعيان يبشرونهم ، ويأخذون منهم البقاشيش والخلع ، وصار الناس ما بين مصدق ومكذب .

الأحد ٢٦ منه (٥ ابريل ١٨٠٧ م) :

أشيع وصول رؤوس القتلى ومن معهم من الأسرى الى بولاق . فهرع الناس بالذهاب للفرجة . ووصل الكثير منهم الى ساحل بولاق . وركب أيضا كبار العسكر ، ومعهم طوائفهم ، لملاقاتهم فطلعوا بهم الى البر ، وصحبتهم جماعة العسكر المتسفرين معهم ، فأتوا بهم من خارج مصر ، ودخلوا بهم من باب النصر ، وشقوا بهم من وسط المدينة .. وفيهم فسيال كبير ،وآخر كبير فى السن، وهما راكبان على حمارين ، والبقية مشاة فى وسط العسكر . ورؤوس القتلى معهم على نبابيت .. وقد تغيرت وأنتنت رائحتها — وعدتهم أربعة عشر رأسا — والأحياء خمسة وعشرون . ولم يزالوا سائرين بهم الى بركة الأزبكية . وضربوا عند وصولهم شنكا ومدافع ، وطلعوا بالأحياء مع فسيالهم الى القلعة .

وفيه : نبه السيد عمر النقيب على الناس ، وأمرهم بحمل السلاح والتأهب للجهاد فى الانكليز ... حتى مجاورى الأزهر ، وأمرهم بترك حضور الدروس وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك القاء الدروس !

وفيه : وصل عابدين بيك وعمر بيك وأحمد أغا لاظ اوغلى ، من ناحية قبلى . وأشيع وصول الباشا بعد يومين .

الاثنين ٢٧ منه (٦ ابريل ١٨٠٧ م) :

وصل أيضا جملة من الرؤوس والأسرى الى بولاق . فطلعوا بهم على الرسم المذكور .. وعدتهم مائة رأس واحدى وعشرون رأسا ، وثلاثة عشر أسيرا ، وفيهم جرحى ، ومات أحدهم على بولاق . فقطعوا رأسه ، ورشقوها مع الرؤوس . وشقوا بهم من وسط المدينة آخر النهار .

الثلاثاء ٢٨ منه (٧ ابريل ١٨٠٧ م) :

حصلت جمعية ببيت القاضى . وحضر حسن باشا وعمر بيك والدفتردار وكتخدا بيك والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وباقى المشايخ ... فتكلموا فى شأن حادثة الانكليز ، والاستعداد لحربهم وقتالهم وطردهم .. فانهم أعداء الدين والملة . وقد صاروا أيضا أخصاما للسلطان ، فيجب على المسلمين دفعهم . ويجب أيضا أن يكون الناس والعسكر على حال الألفة والشفقة والاتحاد ، وأن تمتنع العساكر عن التعرض للناس بالايذاء كما هو شأنهم ، وأن يساعدوا بعضهم بعضا على دفع العدو . ثم تشاوروا فى تحصين المدينة وحفر خنادق . فقال بعضهم : « ان الانكليز لا يأتون الا من البر الغربى .. والنيل حاجز بين الفريقين ، وأن

الفرنساوية كانوا أعلم بأمر الحروب . وأنهم لم يحفروا الا الخندق المتصل من الباب الحديد الى البر فينبغى الاعتناء باصلاحه .. ولو لم نكن كوضعهم واتقانهم ، اذ لا يمكن فعل ذلك » . واتفقوا على ذلك .

وفيه : حضر مكتوب من ثغر رشيد .. عليه امضاء على بيك حاكم رشيد ، وأحمد بيك المعروف « بنو نابارته » — مؤرخ بيوم الجمعة رابع عشرينه — يذكرون فيه : « أن الانكليز لما حضروا الى رشيد ، وحصل لهم ما حصل من القتل والأسر ، ورجعوا خائبين .. حصل لباقيهم غيظ عظيم . وهم شارعون فى الاستعداد للعود والمحاربة . والقصد أن تسعفونا وتمدونا بارسال الرجال والمحاربين والأسلحة والجبخانة .. بسرعة وعجلة ، والا فلا لوم علينا بعد ذلك . وقد أخبرناكم وعرفناكم بذلك » .

فأرسلوا فى ذلك اليوم عدة من المقاتلين ، وكتبوا مكاتبات الى البلاد والعربان الكائنين ببلاد البحيرة ، يدعونهم للمحاربة والمجاهدة . وكذلك أرسلوا فى ثانى يوم عدة من العسكر .

الاربعاء ٢٩ منه (٨ ابريل ١٨٠٧ م) :

ركب السيد عمر النقيب والقاضى والأعيان المتقدم ذكرهم ، ونزلوا الى ناحية بولاق لترتيب أمر الخندق المذكور ، وصحبتهم قنصل الفرنساوية — وهو الذى أشار عليهم بذلك — وصحبتهم الجمع الكثير من الناس والأتباع .. والكل بالأسلحة .

وفيه : وصل المشايخ الثلاثة الذين كانوا ذهبوا لاجراء الصلح بين الباشا والأمراء القبالى ، وذهبوا الى دورهم .

وكان من خبرهم : أنهم لما وصلوا الى الباشا بناحية ملوى .. استأذنوه فى الذهاب فيما أتوا بسببه من السعى فى الصلح ، فاستمهلهم ، وتركهم بناحية ملوى ، واستعد وذهب الى أسيوط . وأودع الجماعة بمنفلوط . وتلاقى مع الأمراء ، وحاربهم ، وظهر عليهم . وقتل من الأمراء فى تلك المعركة سليمان بيك المرادى ، المعروف بريحة (بتشديد الياء) ، وسليمان بيك الأغا . ورجع الأمراء القبالى الى ناحية بحرى .

فعند ذلك حضر المشايخ ، وكتب مكاتبات الى الأمراء ، وأرسلها صحبة المشايخ المذكورين ، الى الأمراء — وكانوا بالجانب الغربى بناحية ملوى — فتفاوضوا معهم فيما أتوا بسببه : من أمر الصلح مع الباشا ، وكف الحروب ، فقالوا : « كم من مرة يراسلنا فى الصلح ، ثم يغدر بنا ويحاربنا » فاحتجوا عليهم بما لقنه لهم من مخالفتهم لأكثر الشروط التى كان اشترطها عليهم : من ارسال الأموال الميرية والغلال ، وتعديهم على الحدود التى يحددها معهم فى الشروط .

ثم انهم اختلوا مع بعضهم ، وتشاوروا فيما بينهم . وكان عثمان بيك حسن منعزلا عنهم بالبر الشرقى ، ولم يكن معهم فى الحرب ولا فى غيره ، وبعد انقضاء الحرب استعلى الى جهة قبلى . وعثمان بيك يوسف كان أيضا بناحية الهو والكوم الأحمر .

وفى أثناء ذلك : ورد على الباشا خبر الانكليز ، وأخذهم الاسكندرية ، وأرسلوا رسلهم الى الأمراء القبالى . فارتبك فى أمره ، وأرسل الى المشايخ يستعجلهم فى اجراء الصلح ، وقبولهم كل ما اشترطوه على الباشا ، ولا يخالفهم فى شىء يطلبونه أبدا !

ولما وصلتهم رسل الانكليز ، اختلفت آراؤهم ، وأرسلوا الى عثمان بيك حسن يخبرونه ويستدعونه للحضور .. فامتنع ، وتورع وقال : « أنا لا أنتصر بالكفار » ووافقه على رأيه ذلك عثمان بيك

يوسف . واختلفت آراء باقى الجماعة ، وهم : ابراهيم بيك الكبير ، وشاهين بيك المرادى ، وشاهين بيك الألفى ، وباقى أمرائهم .

فاجتمعوا ثانيا بالمشايخ وقالوا لهم : « ما المراد بهذا الصلح ؟ » .

فقالوا : « المراد منه راحة الطرفين ، ورفع الحروب ، واجتماع الكلمة . ولا يخفاكم أن الانكليز تخاصمت مع سلطان الاسلام ، وأغارت على ممالكه ، وطرقت ثغر سكندرية ودخلتها . وتصدهم أخذ الاقليم المصرى كما فعل الفرنساوية » .

فقالوا : « انهم أتوا باستدعاء الألفى لنصرتنا ومساعدتنا » .

فقالوا : « لا تصدقوا أقوالهم فى ذلك واذا تملكوا البلاد لا يبقوا على أحد من المسلمين .. وحالهم ليس كحال الفرنساوية .. فان الفرنساوية لا يتدينون بدين ، ويقولون بالحرية والتسوية ! وأما هؤلاء الانكليز فانهم نصارى على دينهم ... ولا تخفى عداوة الأديان . ولا يصح ولا ينبغى منكم الانتصار بالكفار على المسلمين ولا الالتجاء اليهم » .

ووعظوهم ، وذكروا لهم الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية . وأن الله هداهم فى طفوليتهم ، وأخرجهم من الظلمات الى النور . وقد نشأوا فى كفالة أسيادهم ، وتربوا فى حجور الفقهاء وبين أظهر العلماء ، وقرأوا القرآن ، وتعلموا الشرائع ، وقطعوا ما مضى من أعمارهم فى دين الاسلام ، واقامة الصلوات ، والحج والجهاد .. ثم يفسدون أعمالهم آخر الأمر ، ويوادون من حادّ الله ورسوله ، ويستعينون بهم على اخوانهم المسلمين ، ويملكونهم بلاد الاسلام يتحكمون فى أهلها .. فالعياذ بالله من ذلك !

وكان بصحبة المشايخ مصطفى أفندى كتخدا قاضى العسكر يكلمهم باللغة التركية ، ويترجم لهم ذلك — وهو فصيح الكلام — فقالوا : « كل ما قلتموه وأبديتموه .. نعلمه ، ولو تحققنا الأمن والصدق من مرسلكم ما حصل منا خلاف ، ولحاربنا وقاتلنا بين يديه . ولكنه غدار لا يفى بعهد ولا بوعد ، ولا يبر فى يمين ، ولا يصدق فى قول ! وقد تقدم أنه يصطلح معنا ... وفى أثر ذلك يأتى لحربنا ويقتلنا ، ويمنع عنا من يأتى الينا باحتياجاتنا من مصر ، ويعاقب على ذلك حتى من يأتى من الباعة والمتسببين الى الناحية التى نحن فيها . ولا يخفاكم أنه لما أتى القبودان ، ومعه الأوامر بالرضا والعفو الكامل عنا والأمر له بالخروج .. فلم يمتثل، وأرسل الينا وخدعنا ، وتحيل علينا بارسال الهدايا، وصدقناه واصطلحنا معه . فلما تم له الأمر غدر بنا . وما مراده بصلحنا الا تأخرنا عن ذهابنا الى الانكليز .. فلا نذهب اليهم ، ولا نستعين بهم . وان كان مراده يعطينا بلادا يصالحنا عليها ... فها هى البلاد بأيدينا ، وقد عمها الخراب باستمرار الحروب من الفريقين ، وقد تفرق شملنا ، وانهدمت دورنا ، ولم يبق لنا ما نأسف عليه ، أو نتحمل المذلة من أجله . وقد ماتت اخواتنا ومماليكنا .. فحن نستمر على مانحن معه عليه حتى نموت عن آخرنا ، ويرتاح قلبه من جهتنا » .

فقال لهم الجماعة : « هذه المرة ، هى الأخرى ... وليس بعدها شر ولا حرب ، بل بعدها الصداقة والمصافاة ، ويعطيكم كل ما طلبتموه من بلاد وغيرها .. فلو طلبتم من الاسكندرية الى أسوان ، لا يمنع ذلك بشرط أن تكونوا معنا بالمساعدة فى حرب الانكليز ودفعهم عن البلاد . وأيضا تسيرون بأجمعكم من البر الغربى .. والباشا وعساكره من البر الشرقى . وعند انقضاء أمر الانكليز ، ورجوعكم الى بر الجيزة .. ينعقد مجلس الصلح

بخضرة المشايخ الكبار والنقيب والوجاقلية وأكابر العسكر . وان شئتم عقدنا مجلس الصلح بالجيزة قبل التوجه لمحاربة الانكليز . ولا شئ بعد ذلك أبدا » .

فانخدعوا لذلك . وكتبوا أجوبة ، ورجع بها مصطفى أفندى كتخدا القاضى — وصحبته يحيى كاشف — ثم رجع اليهم ثانيا ، وسار الفريقان الى جهة مصر . وحضر المشايخ وأخبروا بما حصل .

وفيه : شرعوا فى حفر الخندق المذكور . ووزعوا حفره على مياسير الناس وأهل الوكائل والخانات والتجار وأرباب الحرف والروزنامجى . وجعلوا على البعض أجرة مائة رجل من الفعلة . وعلى البعض أجرة خمسين ، وعشرين .. وكذلك أهل بولاق ، ونصارى ديوان المكس ، والنصارى الأروام ، والشوام والأقباط . واشتروا المقاطف والغلقان والفئوس والقزم وآلات الحفر . وشرعوا فى بناء حائط مستدير أسفل تل قلعة السبتية .

الخميس غايته (٩ ابريل ١٨٠٧ م) :

ورد مكتوب من السيد حسن كريت — نقيب الأشراف برشيد ، والمشار اليه بها — يذكر فيه « أن الانكليز لما وقع لهم ما وقع برشيد ، ورجعوا فى هزيمتهم الى الاسكندرية .. استعدوا ، وحضروا الى ناحية الحماد قبلى رشيد — ومعهم المدافع الهائلة والعدد — ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر الى الجبل عرضا .. وذلك ليلة الثلاثاء ثامن عشرينه ، فهذا ما حصل أخبرناكم به ، ونرجو الاسعاف والامداد بالرجال والجبخانة والعدة والعدد ، وعدم التأنى والاهمال » .

فلما وصل ذلك الجواب ... قرأه السيد عمر النقيب على الناس ، وحثهم على التأهب والخروج للجهاد . فامتثلوا ولبسوا الأسلحة ، وجمع اليه طائفة المغاربة ، وأتراك خان الخليلى ، وكثير من العدوية والأسيوطية وأولاد البلد . وركب فى صبحها الى كتخدا بيك ، واستأذنه فى الذهاب .. فلم يرض ، وقال : « حتى يأتى أفندينا الباشا ، ويرى رأيه فى ذلك » . فسافر من سافر ، وبقى من بقى . وانقضى الشهر وحوادثه .

وفيه : ورد الخبر ، بأن ركب الحاج الشامى رجع من منزلة هدية ، ولم يحج فى هذا العام .

وذلك أنه لما وصل الى المنزلة المذكورة ، أرسل الوهابى الى عبد الله باشا أمير الحاج يقول له : « لاتأت الا على الشرط الذى شرطناه عليك فى العام الماضى » . وهو أن يأتى بدون المحمل وما يصحبهم من الطبل والزمر والأسلحة ، وكل ما كان مخالفا للشرع . فلما سمعوا ذلك .. رجعوا من غير حج ، ولم يتركوا مناكيرهم !

صفر

الجمعة غرته (١٠ ابريل ١٨٠٧ م) :

كتبوا مراسلة الى الأمراء القبالى . وختم عليها كثير من مشايخ الأزهر وغيرهم . وأرسلوها اليهم .

السبت ٢ منه (١١ ابريل ١٨٠٧ م) :

وردت مكاتبة أيضا من ثغر رشيد — وعليها امضاء على بك السنانكلى حاكم الثغر ، وطاهر باشا ، وأحمد أغا المعروف ببونابارته — بمعنى مكتوب السيد حسن السابق . ويذكرون فيه : أن الانكليز ملكوا أيضا كوم الأفراح وأبو منضور .. ويستعجلون النجدة .

وفى تلك الليلة — أعنى ليلة الاحد — وصل محمد على باشا ، ودخل الى داره بالأزبكية فى سادس ساعة من الليل .. وكان أشيع وصوله قبل ذلك اليوم . وخرج السيد عمر النقيب والمشايخ

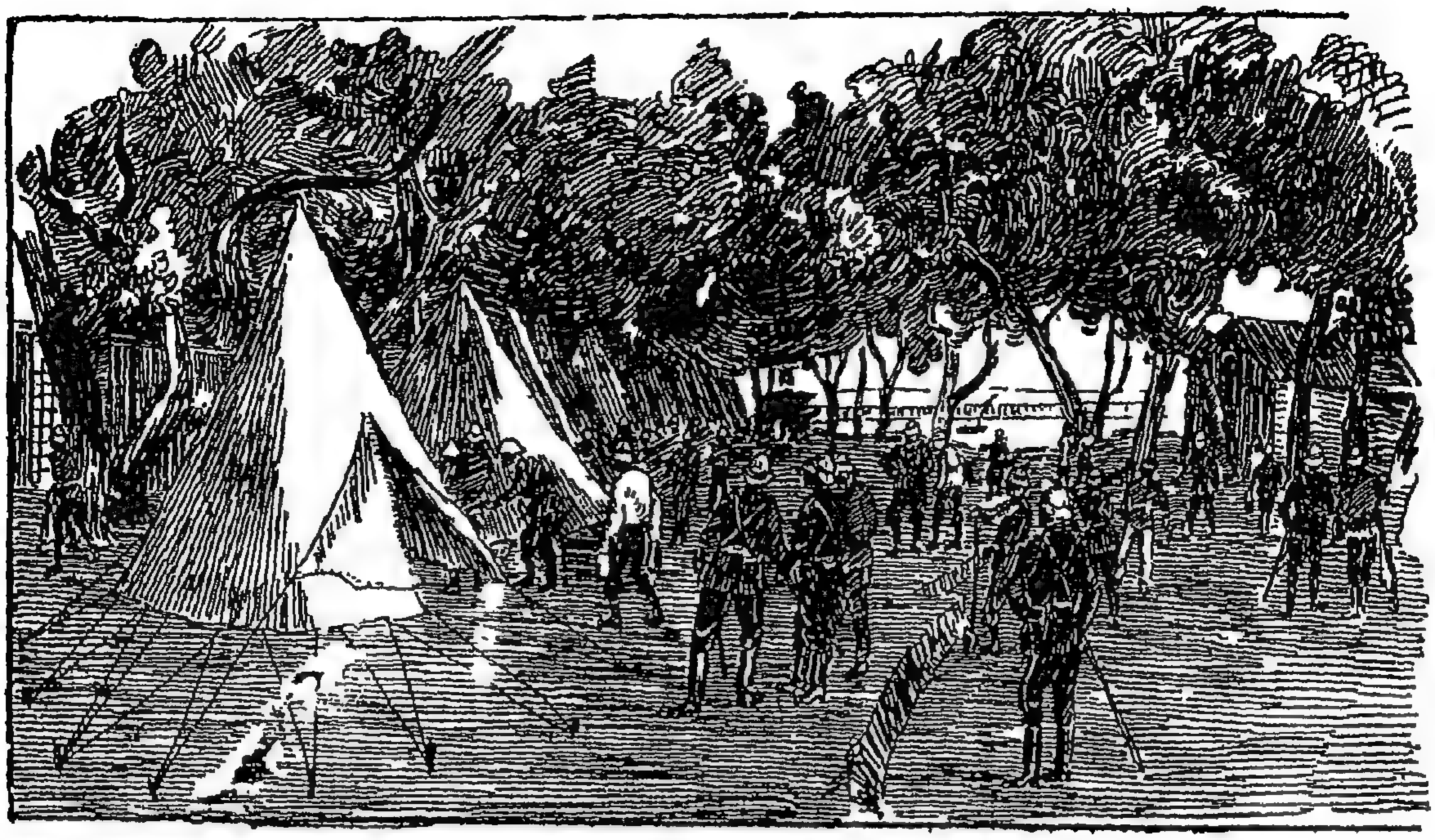

معسكر الانجليز

والمحروقى لملاقاته يوم الجمعة : فبعضهم ذهب الى الآثار وبات هناك ، وبعضهم بات بالقرافة بضريح الامام الشافعي . ورجعوا فى ثانى يوم ، ولم يحصل لهم ملاقاة .

فلما طلع نهار ذلك اليوم ، وأشيع حضوره الى داره ، ركب الجميع وذهبوا للسلام عليه . ودار بينهم الكلام فى أمر الانكليز .. فأظهر الاهتمام ، وأمر كتخدا بيك وحسن باشا بالخروج فى ذلك اليوم . فأخرجوا مطلوباتهم وعازتهم الى بولاق . وسخط على أهل الاسكندرية والشيخ المسيرى وأمين أغا ... حيث مكنوا الانكليز من الثغر ، وملكوهم البلدة . ولم يقبل لهم عذرا فى ذلك .

ثم قالوا له : « انا نخرج جميعا للجهاد مع الرعية والعسكر » . فقال : « ليس على رعية البلد خروج . وانما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر » .

وانقضى المجلس ، وركبوا الى دورهم .

وفيه : وصل حجاج المغاربة الى مصر من طريق البر ، وأخبروا أنهم حجوا وقضوا مناسكهم، وأن مسعودا الوهابى وصل الى مكة بجيش كثيف ، وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار . وأحضر مصطفى جاويش أمير الركب المصرى وقال له : « ما هذه العويدات والطبول التى معكم ؟ » . (يعنى بالعويدات : المحمل) . فقال : « هو اشارة وعلامة على اجتماع الناس بحسب عادتهم » . فقال : « لا تأت بذلك بعد هذا العام ... وان أتيت به أحرقته » . وأنه هدم القباب ، وقبة آدم ، وقباب ينبع والمدينة . وأبطل شرب التنباك والنارجيلة من الأسواق ، وبين الصفا والمروة ، وكذلك البدع .

وفى تلك الليلة : أرسل الباشا وطلب السيد عمر ، فى وقت العشاء الأخيرة ، وألزمه بتحصيل ألف كيس لنفقة العسكر ، وأن يوزعها بمعرفته .

الاثنين ٤ منه (١٣ ابريل ١٨٠٧ م) :

دخلت طوائف العسكر الواصلين من الجهة

القبلية الى المدينة وطلبوا سكنى البيوت كعادتهم ولم يرجعوا الى الدور التى كانوا ساكنين بها وأخربوها .

الثلاثاء ٥ منه (١٤ ابريل ١٨٠٧ م) :

وردت مكاتبة من رشيد ، وعليها امضاء السيد حسن كريت ، يخبر فيها : « بأن الانكليز محتاطون بالثغر ، ومتحلقون حوله ، ويضربون على البلد بالمدافع والقنابر . وقد تهدم الكثير من الدور والأبنية ، ومات كثير من الناس. وقد أرسلنا لكم، قبل تاريخه ، نطلب الاغاثة والنجدة .. فلم تسعفونا بارسال شىء . وما عرفنا لأى شىء هذا الحال ، وما هذا الاهمال ؟! فالله ، الله فى الاسعاف ... فقد ضاق الخناق ، وبلغت القلوب الحناجر .. من توقع المكروه ، وملازمة المرابطة ، والسهر على المتاريس » . ونحو ذلك من الكلام .. وهى خطاب للسيد عمر النقيب والمشايخ ، ومؤرخة فى ثانى شهر صفر .

وفى ذلك اليوم : اهتم الباشا ، وعزم على السفر بنفسه . وركب الى بولاق ، وصحبته حسن باشا وعابدين بيك وعمر بيك ، فسافروا فى تلك الليلة

الاربعاء ٦ منه (١٥ ابريل ١٨٠٧ م) :

سافر أيضا حجو بيك . وخرج معه بعض المتطوعة من الأتراك وغيرهم..تهيئوا واتفقوا مع المسافرين معهم ، وأمدهم الكثير من اخوانهم بالاحتياجات والذخيرة والمؤن ، ونصبوا لهم بيرقا . وخرجوا ومعهم طبل وزمر .

الجمعة ٨ منه (١٧ ابريل ١٨٠٧ م) :

ركب أيضا أحمد آغا لاظ ، وشق بعساكره الذين كان بهم بالمنية . وتداخل فيهم الكثير من أجناسهم ، وغيرهم من مغاربة وأتراك بلدية . ومر الجميع من وسط المدينة فى عدة وافرة .

ويذهب الجميع الى بولاق ، يوهمون أنهم مسافرون على قدم الاستعجال .. بهمة ونشاط واجتهاد . فاذا وصلوا الى بولاق .. تفرقوا ، ويرجع الكثير منهم ، ويراهم الناس فى اليوم الثانى والثالث بالمدينة ! ومن تقدم منهم ، وسافر بالفعل .. ذهب فريق منهم الى المنوفية ، وفريق الى الغربية ، ليجمعوا فى طريقهم من أهل البلاد والقرى ما تصل اليه قدرة عسفهم : من المال والمغارم والكلف، وخطف البهائم، ورعى المزارع، وخطف النساء والبنات والصبيان ، وغير ذلك !

وفيه : سافر أيضا حسن باشا طاهر .

وفيه : نزل الدالاتية الى بولاق ، وكذلك الكثير من العسكر . وحصل منهم الازعاج فى أخذ الحمير والجمال قهرا من أصحابها . ونزلوا بخيولهم على ربب البرسيم والغلال الطائبة التى بناحية بولاق وجزيرة بدران وخلافها .. فرعتها وأكلتها بهائمهم فى يوم واحد ! ثم انتقلوا الى ناحية منية السيرج وشبرا والزاوية الحمراء والمطرية والأميرية ... فأكلوا زروعات الجميع ، وخطفوا مواشيهم ، وفجروا بالنساء ، وافتضوا الأبكار ، ولاطوا بالغلمان ، وأخذوهم وباعوهم فيما بينهم .. حتى باعوا البعض بسوق مسكة وغيره ... وهكذا يفعل المجاهدون !

ولشدة قهر الخلائق منهم ، وقبح أفعالهم .. تمنوا مجىء الافرنج من أى جنس كان ، وزوال هؤلاء الطوائف الخاسرة ... الذين ليس لهم ملة ولا شريعة ولا طريقة يمشون عليها . فكانوا يصرخون بذلك بمسمع منهم ، فيزداد حقدهم وعداوتهم ، ويقولون : « أهل هذه البلاد ليسوا مسلمين لأنهم يكرهونا ويحبون النصارى ! » . ويتوعدونهم اذا خلصت لهم البلاد ، ولا ينظرون لقبح أفعالهم .

صفر

الاثنين ١١ منه (٢٠ ابريل ١٨٠٧ م) :

حضر جماعة من الططر .. الذين من عادتهم يأتون بالأخبار والبشارات بالمناصب — وقد وصلوا من طريق الشام — يبشرون بولاية السيد على باشا قبودان باشا ، وعزل صالح قبودان عن رياسة الدونانمة . ويذكرون أنه خرج بالدونانمة التى تسمى بالعمارة — وصحبته عدة مراكب فرنساوية — قاصدين جهة مالطة ليقطعوا على الانكليز الطرق . وأن هؤلاء الططر الواصلين لم يعلموا بورود الانكليز الى الاسكندرية الا عند وصولهم صيدا .

وذكروا أن سبب عزل صالح القبودان : أن الانكليز وردوا بغاز اسلامبول باثنى عشر مركبا — وقيل أربعة عشر — وظلوا داخلين ... والمدافع تضرب عليهم من القلاع المتقابلة . فلم يبالوا بذلك حتى حصلوا بداخل المينة تجاه البلد . فانزعج أهالى البلد انزعاجا شديدا ، وصرخت النساء وهاجت المدينة وماجت بأناسها . ولو ضرب عليها الانكليز لاحترقت عن آخرها ... لكنهم لم يفعلوا ، بل استمروا يومهم ، ورموا مراسيهم . ثم أخذوها وولوا راجعين .. ولسان حالهم يقول : ها نحن ولجنا بغازكم الذى تزعمون أنه لا أحد يقدر على عبوره ، وقدرنا عليكم وعفونا عنكم . ولو شئنا أخذ دار سلطنتكم لأخذناها أو أحرقناها !

وعند ما فعلوا ذلك ، طلب السلطان قبودان باشا ، فوجدوه يتعاطى الشراب فى بعض الأماكن . فعند ذلك أحضروا السيد على ، وقلدوه رياسة الدونانمة . ونزل الى الانكليز ، وتكلم معهم الى أن خرجوا من البغاز . وأخرجوا صالح قبودان منفيا الى بعض الجهات .

وفى ذلك اليوم : طلع الباشا الى القلعة ، وصحبته قنصل الفرنساوية يهندس معه الأماكن ومواطن الحصار .. والقنصل المذكور يظهر الاهتمام والاجتهاد ، ويسهل الأمر ، ويبذل النصح ، ويكثر من الركوب والذهاب والاياب .. وأمامه الخدم وبأيديهم الحراب المفضضة ، وخلفه ترجمانه وأتباعه .

وفيه : أرسل الأمراء القبليون جوابا عن جواب أرسل اليهم قبل ذلك ، وعليه ختوم كثيرة ، باستدعائهم ، واستعجالهم للحضور فأرسلوا هذا الجواب يعتذرون فيه بأن السبب فى تأخرهم أنهم لم يتكاملوا ، وأن أكثرهم متفرقون بالنواحى : مثل عثمان بيك حسن وغيره ، وأنهم الى الآن لم يثبت عندهم حقيقة الأمر ، لأن من الثابت عندهم صداقة الانكليز مع العثمانى من قديم الزمان ، وأن المراسيم التى وردت : بالتحذير والتحفظ من الموسكوب ... ولم يذكر الانكليز .

فاتفق الحال بأن يرسلوا لهم جوابا بالحقيقة ، صحبة مصطفى أفندى كتخدا القاضى ، ويصحب معه المراسيم التى وردت فى شأن ذلك ، وفيها ذكر الانكليز ومنابذتهم للدولة . فسافر الكتخدا المذكور فى صبحها اليهم .. وكانوا حضروا الى ناحية المنية .

وأما ياسين بيك ، فانه أذعن للصلح ... على أن يعطيه الباشا أربعمائة كيس بعد ترداد المراسلات بينه وبين الباشا . ثم أنه عدى الى ناحية شرق أطفيح ، وفرض عليهم الأموال الجسيمة .. وكان أهل تلك البلاد اجتمعوا بصول والبرنبل بمتاعهم وأموالهم ومواشيهم ، فنزل عليهم ، وطلب منهم الأموال ... فعصوا عليه . فأوقد فيهم النيران ، وحرق جرونهم ونهبهم !

الثلاثاء ١٢ منه (٢١ ابريل ١٨٠٧ م) :

حضر جماعة من العرب ، وصحبتهم ثلاثة أنفار من الانكليز ... قبضوا عليهم من البرية ، وأحضروهم الى مصر . فمثلوا بين يدى الباشا ، وكلمهم ، ثم أمر بطلوعهم الى القلعة .. وفيهم شخص كبير يقال انه من قباطينهم .

الخميس ١٤ منه (٢٣ ابريل ١٨٠٧ م) :

عملوا ديوانا ببيت القاضى ... اجتمع فيه الدفتردار والمشايخ والوجاقلية ، وقرأوا مرسوما تقدم حضوره قبل وصول الانكليز الى الاسكندرية مضمونه : ضبط تعلقات الانكليز وما لهم من المال والودائع والشركات مع التجار بمصر والثغور .

وفى ذلك اليوم : حضر شخصان من السعاة وأخبرا بالنصر على الانكليز وهزيمتهم .

وذلك أنه اجتمع الجم الكثير من أهالى بلاد البحيرة وغيرها ، وأهالى رشيد ، ومن معهم من المتطوعة والعساكر وأهل دمنهور ... وصادف وصول كتخدا بيك واسماعيل كاشف الطوبجى الى تلك الناحية فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة ، وأسروا من الانكليز طائفة ، وقطعوا منهم عدة رؤوس . فخلع الباشا على الساعيين جوختين .

وفى أثر ذلك وصل أيضا شخصان من الأتراك بمكاتبات بتحقيق ذلك الخبر . وبالغا فى الأخبار ، وأن الانكليز انجلوا عن متاريس رشيد وأبى منضور والحماد ، ولم يزل المقاتلون من أهل القرى خلفهم ، الى أن توسطوا البرية وغنموا جبخاناتهم وأسلحتهم ومدافعهم ومهراسين عظيمين .

وذكرا أنه واصل خلفهم أسرى ورؤوس قتلى كثيرة فى عدة مراكب ، وأنه وصل معهما من جملة المتطوعين رجلان من أهل مكة التجار المقيمين بمصر ... كانا فى الواقعة بنحو مائة من البدو المغاربة وغيرهم : ينفقان عليهم ، ويحرضانهم على القتال ، ويعينان المقاتلين من الأهالى بما فى أيديهما ، ويقاتلان بأنفسهما . وبذلا جهدهما فى ذلك ، وأنهما — بعد هزم الانكليز وسلبهم — فرقا ما غنماه ومابقى معهما من الأشياء على من خرج خلف الانكليز ، وحضرا معهما وهما السيد أحمد النجارى ، وأخوه السيد سلامة فطلبهما الباشا وسألهما عن الخبر ، فأخبراه بحجر التركيين . فانسر الباشا لذلك سرورا عظيما ، وشكر فعلهما ، وأنعم عليهما ، وخلع علهما ، ورتب لهما مرتبا ، وأوعدهما بالاستخدام فى مصالحه وخلع على ذينك التركيين فروتى سمور

وحضرا — بصحبه الساعيين — الى منزل السيد عمر النقيب بعد الغروب وتعشوا عنده ، وطلبوا البقشيش وبعد أن أجدوه توسل التركيان به بأن يسعى لهما عند الباشا فى أنه ينعم عليهما بمناصب فأوعدهما بذلك ، وترجى الباشا لهما . فضاعف مرتبهما وضربوا فى صبح ذلك اليوم مدافع كثيرة من القلعة والأزبكية وبولاق والجيزة ، وذلك بين الظهر والعصر .

الجمعة ١٥ منه (٢٤ ابريل ١٨٠٧ م) :

حضروا بأسرى — وعدتهم تسعة عشر شخصا —

وعدة رووس ، فمروا بهم من وسط الشارع الأعظم . وأما الرؤوس فمروا بها عن طريق باب الشعرية — وعدتها نيف وثلاثون رأسا — موضوعة على نبابيت ، رشقوها بوسط بركة الأزبكية مع الرؤوس الأولى ... صفين على يمين السالك من باب الهواء الى وسط البركة وشماله .

وفيه : وصل ثلاث داوات من جدة الى ساحل السويس ، فيها أتراك وشوام وأجناس آخرون . وذكروا أن الوهابى نادى بعد انقضاء الحج : « ألا يأتى الى الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن » . وتلا فى المناداة قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس . فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » . وأخرجوا هؤلاء الواصلين الى مصر .

السبت ١٦ منه (٢٥ ابريل ١٨٠٧ م) :

وصل أيضا تسعة أشخاص أسرى من الانجليز ، وفيهم فسيال

الاحد ١٧ منه (٢٦ ابريل ١٨٠٧ م) :

وصل أيضا نيف وستون ، وفيهم رأس واحدة مقطوعة ، فمروا بهم على طريق باب النصر من وسط المدينة . وهرع الناس للتفرج عليهم . وبعد الظهر أيضا مروا بثلاثة وعشرين أسيرا وثمانية رؤوس ، وبعد العصر بثلاثة وعشرين رأسا وأربعة وأربعين أسيرا من ناحية باب الشعرية ، وطلعوا بالجميع الى القلعة .

وفيه : وصل ياسين بيك الى ناحية طرا ، وحضر ابوه الى مصر ، ودخل كثير من أتباعه الى المدينة وهم لابسون زى المماليك المصرية .

وفيه : دفنوا رؤوس القتلى من الانكليز ... وكانوا قطعوا آذانهم ، ودبغوها وملحوها ، ليرسلوها الى اسلامبول !

وفيه : أرسل الباشا فسيالا كبيرا من الانكليز الى الاسكندرية ، بدلا عن ابن أخى عمر بيك . وقد كان المذكور سافر الى الاسكندرية قبل الحادثة ليذهب الى بلاده بما معه من الأموال . فعوقه الانكليز . فأرسلوا هذا الفسيال ليرسلوا بدله ابن أخى عمر بيك .

الاثنين ١٨ منه (٢٧ ابريل ١٨٠٧ م) :

وصلت خيام ياسين بيك وحملاته . ونصبوا وطاقه جهة شبرا ومنية السيرج .

الاربعاء ٢٠ منه (٢٩ ابريل ١٨٠٧ م) :

وصل الى ساحل بولاق مراكب ، وفيها أسرى وقتلى وجرحى . فطلعوا بهم الى البر ، وساروا بهم على طريق باب النصر ، وشقوا بهم من وسط المدينة الى الأزبكية . فرشقوا الرؤوس بالأزبكية مع الرؤوس الأول — وهم نحو المائة واثنين وأربعين — والأحياء والمجاريح نحو المائتين وعشرين . فطلعوا بهم الى القلعة عند اخوانهم .. فكان مجموع الأسرى : أربعمائة أسير وستة وستين أسيرا ، والرؤوس ثلثمائة ونيف وأربعون . وفى الأسرى نحو العشرين من فسيالاتهم .

وهذه الواقعة حصلت على غير قياس ، وصادف بناؤها على غير أساس !

وقد أفسد الله رأى كل من طائفة الانكليز ، والأمراء المصرية ، وأهل الاقليم المصرى ... لبروز ما كتبه وقدره فى مكنون غيبه على أهل الاقليم من الدمار الحاصل وما سيكون بعد .. كما ستسمع به ، ويتلى عليك بعضه .

أما فساد رأى الانكليز ... فلتعديهم الاسكندرية مع قلتهم ، وسماعهم بموت الألفى ، وتغريرهم بأنفسهم . وأما الأمراء المصريون فلا يخفى فساد رأيهم بحال . وأما أهالى الاقليم ،

فلانتصارهم لمن يضرهم ويسلب نعمهم . « وما أصاب من مصيبة فبما كسبت أيدى الناس . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .

ولم يخطر فى الظن حصول هذا الواقع ، ولا أن الرعايا والعسكر لهم قدرة على حروب الانكليز .. وخصوصا شهرتهم باتقان الحروب . وقد تقدم لك أنهم هم الذين حاربوا الفرنساوية وأخرجوهم من مصر .

ولما شاع أخذهم الاسكندرية ، داخل العسكر والناس وهم عظيم . وعزم أكثر العسكر على الفرار الى جهة الشام ، وشرعوا فى قضاء أشغالهم واستخلاص أموالهم التى أعطوها للمتضايقين والمستقرضين بالربا ، وابدال ما بأيديهم من الدراهم والقروش والفرانسة التى يثقل حملها ... بالذهب البندقى والمحبوب الزر ، لخفة حملها . حتى أنها زادت فى المصارفة بسبب كثرة الطلب لها . وبلغ صرف البندقى المشخص الناقص فى الوزن ، أربعمائة وعشرين نصفا . والزر ، مائتين وعشرين . والفرانسة ، مائتين . واستمرت تلك الزيادة بعد ذلك ... وسيزيد الأمر فحشا !

وسعوا فى مشترى أدوات الارتحال ، والأمور اللازمة لسفر البر . وفارق الكثير منهم النساء ، وباعوا ما عندهم من الفرش والأمتعة .

حتى ان محمد على باشا لما بلغه حصولهم بالاسكندرية — وكان يحارب المصريين ويشدد عليهم — فعند ذلك انحلت عزائمه ، وأرسل يصالحهم على ما يريدونه ويطلبونه . وثبت فى يقينه استيلاء الانكليز على الديار المصرية ، وعزم على العود متلكئا فى السير ... يظن سرعة ورودهم الى المدينة ، فيسير مشرقا على طريق الشام ، ويكون له عذر بغيبته فى الجملة !

فلما وصلت الشرذمة الأولى من الانكليز الى رشيد ، ودخلوها من غير مانع ، وحبسوا أنفسهم فيها ، فقتلوا وأسروا ، وهرب من هرب ، ووصلت الرؤوس والأسرى ، وأسرعت المبشرون الى الباشا بالخبر ... فعند ذلك تراجعت اليه نفسه ، وأسرع فى الحضور . وتراجعت نفوس العساكر ، وطمعوا عند ذلك فى الانكليز ، وتجاسروا عليهم . وكذلك أهل البلاد قويت هممهم ، وتأهبوا للبروز والمحاربة ، واشتروا الأسلحة ، ونادوا على بعضهم بالجهاد .

وكثر المتطوعون ، ونصبوا لهم بيارق وأعلاما ، وجمعوا من بعضهم دراهم ، وصرفوا على من انضم اليهم من الفقراء . وخرجوا فى مواكب وطبول وزمور . فلما وصلوا الى متاريس الانكليز ، دهموهم من كل ناحية على غير قوانين حروبهم وترتيبهم ، وصدقوا فى الحملة عليهم ، وألقوا أنفسهم فى النيران ، ولم يبالوا برميهم ، وهجموا عليهم ، واختلطوا بهم ، وأدهشوهم بالتكبير والصياح ... حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم ، فألقوا سلاحهم ، وطلبوا الأمان ... فلم يلتفتوا لذلك ، وقبضوا عليهم ، وذبحوا الكثير منهم . وحضروا بالأسرى والرؤوس على الصور المذكورة . وفر الباقون الى من بقى بالاسكندرية .

وليت العامة شكروا على ذلك ، أو نسب اليهم فعل ... بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره ، وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك !

ولما أصعدوا الأسرى الى القلعة ، طلع اليهم قنصل الفرنساوية ومعه الأطباء ، لمعالجة الجرحى . ومهد لهم أماكن ، وميز الكبار منهم والفسيالات فى مكان يليق بهم ، وفرش لهم فرشات ، ورتب لهم تراتيب ، وصرف عليهم نفقات ولوازم . واستمر يتعاهدهم فى غالب الأيام ... والجرائحية يترددون اليهم فى كل يوم لمداواتهم ، كما هى عادة الافرنج

مع بعضهم : اذا وقع فى أيديهم جرحى من المحاربين لهم ... فعلوا بهم ذلك ، وأكرموا الأسرى .

وأما من وقع منهم فى أيدى العسكر من المردان ، فانهم اختصوا بهم ، وألبسوهم من ملابسهم ، وباعوهم فيما بينهم . ومنهم من احتال على الخلاص من يد الفاسق بحيلة لطيفة . فمن ذلك : أن غلاما منهم قال للذى هو عنده : « ان لى بولصة عند قنصل الفرنساوية ، وهى مبلغ عشرون كيسا » . ففرح ، وقال له : « أرنيها » . فأخرج له ورقة بخطهم — وهو لايعرف ما فيها — فأخذها منه ، طمعا فى احرازها لنفسه ، وذهب مسرعا الى القنصل وأعطاها له . فلما قرأها قال له : « لا أعطيك هذا المبلغ الا بيد الباشا ، ويعطينى بذلك رجعة بختمه لتخلص ذمتى » .

فلما صاروا بين يدى الباشا ، أخبره القنصل . فأمر باحضار الغلام . فلما حضر سأله الباشا . فقال: « أريد الخلاص منه ، واحتلت عليه بهذه الحيلة لأتوصل اليك » . فطيب الباشا خاطر العسكرى

احد المتطوعين

بدراهم ، وأرسل الغلام الى أصحابه بالقلعة .

ولما انقضى أمر الحرب من ناحية رشيد ، وانجلت الانكليز عنها،ورجعوا الى الاسكندرية... نزل الأتراك على الحماد وما جاورها ، واستباحوا أهلها ونساءها وأموالها ومواشيها ... زاعمين أنها صارت دار حرب بنزول الانكليز عليها وتملكها !

حتى أن بعض الظاهرين كلمهم فى ذلك ، فرد عليه بذلك الجواب . فأرسلوا الى مصر بذلك . وكتبوا فى خصوص ذلك سؤالا . وكتب عليه المفتون بالمنع وعدم الجواز . وحتى يأتى الترياق من العراق يموت الملسوع . ومن يقرأ ومن يسمع ! وعلى أنه لم يرجع طالب الفتوى ، بل أهملت عند المفتى وتركها المستفتى .

ثم أحاطت العساكر ورؤساؤهم برشيد ، وضربوا على أهلها الضرائب ، وطلبوا منها الأموال والكلف الشاقة ، وأخذوا ما وجدوه بها من الأرز للعلىق فخرج كبيرها السيد حسن كريت الى حسن باشا وكتخدا بيك ، وتكلم معهما وشنع عليهما وقال . « أما كفانا ما وقع لنا من الحروب ، وهدم الدور ، وكلف العسكر ، ومساعدتهم ، ومحاربتنا معهم ومعكم ، وما قاسيناه من التعب والسهر وانفاق المال ... ونجازى منكم بعدها بهذه الأفاعيل ! فدعونا نخرج بأولادنا وعيالنا ، ولا نأخذ معنا شيئا ، ونترك لكم البلدة افعلوا بها ما شئتم » .

فلاطفوه فى الجواب ، وأظهروا له الإهتمام بالمناداه والمنع . وكتب المذكور أيضا مكاتبات بمعنى ذلك ، وأرسلها الى الباشا والسيد عمر بمصر . فكتبوا فرمانا وأرسلوه اليهم بالكف والمنع ... وهيهات !

ولما وصل من وصل بالقتلى والأسرى ، أنعم الباشا على الواصلين منهم بالخلع والبقاشيش ،

وألبسهم شلنجات فضــة على رؤوسهم ... فازداد جبروتهم وتعديهم . ولما رجع الانكليز الى ناحيــة الاســكندرية ، قطعوا السد . فسالت الميــاه ، وغرقت الأراضي حول الاسكندرية .

الثلاثاء ٢٦ منه (٥ مايو ١٨٠٧ م) :

وصل ياسين بيك المذكور ، وصحبته سليمان أغا صالح وكيل دار السعادة سابقا — وهو الذى كان باسلامبول ، وحضر بصحبته القبودان فى الحادثة السابقة ، وتأخر عنه ، واستمر مع الألفى ، ثم مع أمرائه بعــد موته — وكان الباشا قد أرســل له يستدعيه بأمان . فأجاب الى الحضور بشرط أن يجرى عليــه الباشا مرتبه بالضربخانة . وقدر ذلك ألف درهم فى كل يوم . فأجابه الى ذلك .

وحضر صــحبته ياسين بيــك ، وقابلا الباشا ، وخلع عليهما خلعتى سمور ، ونزلا وركبا ولعبا مع أجنادهما بوسط البركة بالرماح . وظهر من حسن رماحة سليمان أغا ما أعجب البــاشا ومن حــوله من الأتراك ، بل أصــابوه بأعينهم .. لأنه بعــد انقضاء ذلك سار مع ياسين بيك الى ناحية بولاق يترامحون ويتلاعبون . فأخــرج طبنجتــه بيده اليمنى والرمح فى يــده اليسرى — وكان زنادها مرفوعا — فانطلقت رصــاصتها ، وخرقت كفــه اليسار القابض به على سرع الجواد ، ونفذت من الجهة الأخرى . فرجع الى داره بجراحته ، وأذن له يرد حملته . وذهب ياسين بيك الى بولاق فبات بها فى دار حسن الطويل بساحل النيل .

وفيه : سافر المتسفر بآذان قتلى الانجليز — وقــد وضعوها فى صــندوق — وسافر بهــا على طريق الشام ، وصحبته أيضا شخصان من أسرى قسيالات الانكليز . وكتبوا عرضا بصورة الحال من انشاء السيد اسماعيل الخشاب ، وبالغوا فيه .

وفيه : حضر اســماعيل كاشف الطوبجى من ناحية بحرى ليقضى بعض الأغراض ثم يعود .

الخميس ٢٨ منه (٧ مايو ١٨٠٧ م) :

ســافر عمر بيك ، تابــع عثمان بيك الأشقر ، وعلى كاشف بن أحمد كتخدا الى ناحية القليوبية .. لأجل القبض على أيوب فودة بسبب رجل يسمى زغلول ينسب اليه بأنه يقطع الطريق على المسافرين فى البحر . وكلمــا مــرت بناحية مركب ، حاربها ونهب ما فيها من بضائع التجار وأموالهم ، أو أنهم يفتدون أنفسهم منه بما يرضيه من المــال . فكثر تشكى الناس منه . فيرســـلون الى أيوب فوده ، كبير الناحية ، فيتبرأ منه .

فلما زاد الحال عينوا من ذكر للقبض عليه وقتله ، فبلغه الخبر ، فهرب من بلده أبناس . فلما وصلوا الى محــله ، فلم يجــدوه ، أحــاطوا بموجوداته وغلاله وبهائمه وما له من المواشى والودائع بالبلاد .

فلما جرى ذلك ، حضر الى السيد عمر ، وصالح على نفســه بثلثمــائة كيس ، ورجع الحال الى حاله ... وذلك خلاف ما أخذه المعينون من الكلف والمغارم من البلاد التى مروا عليها ، وأقاموا فيها ، واحتجوا عليها .

وفيه : حضر الكثير من أهــل رشيد بحريمهم وأولادهم ، ورحلوا عنها الى مصر .

وفيه : حضر كتخدا القاضى من عنــد الأمراء القبالى . وأخبر أنهم محتاجون الى مراكب لحمل الغلال الميرية والذخيرة . فهيأ الباشا عدة مراكب ، وأرسلها اليهم . ومع هــذه الصورة ، واظهــار المصالحة والمسالمة ، يمنعون ويحجزون من يذهب اليهم من دورهم بثياب ومتــاع . وكذلك يمنعون المتسببين والباعة الذين يذهبون بالمتاجر والأمتعــة التى يبيعونها عليهم . واذا وقعوا بشــخص ، أو غمزوا عليه عند الحاكم ، أو صادفه بعض العيون المترقبة عليه ... قبضوا عليه ، ونهبوا ما معــه ،

وعاقبوه وحبسوه .. بل ونهبوا داره وغرموه ، ولا يغفر ذنبه ، ولا تقال عثرته ، ويتبرأ منه كل من يعرفه .

وكذلك نبهوا على القلقات الذين يسمونهم الضوابط ، المتقيدين بأبواب المدينة ، مثل : باب النصر ، وباب الفتوح ، والبرقية ، والباب الحديد ، بمنع النساء عن الخروج خوفا من خروج نساء القبالى وذهابهن الى أزواجهن .

واتفق أنهم قبضوا على شخص فى هذه الأيام يريد السفر الى ناحية قبلى ، ومعه تليس ، ففتحوه فوجدوا بداخله مراكيب ونعالات مصرية ومغربية التى تسمى بالبلغ . فقبضوا عليه ، واتهموه أنه يريد الذهاب بذلك الى الأمراء وأتباعهم فنهبوا منه ذلك وغيره ، وقبضوا عليه ، وحبسوه . واستمر محبوسا .

وكذلك اتفق أن الوالى ذهب الى جهة القرافة ، وقبض على أشخاص من التربية الذين يدفنون الموتى ، واتهمهم بأن بعض أتباع الأمراء القبالى يخرجون اليهم بالأمتعة لأسيادهم ، ويخفونها عندهم بداخل القبور حتى يرسلوها الى أسيادهم فى الغفلات ... وضربهم ، وهجم على دورهم فلم يجد بها شيئا واجتمع عليه خدام الأضرحة وأهل القرافة ، وشنعوا عليه وكادوا يقتلونه ... فهرب منهم وحضروا فى صبحها عند السيد عمر والمشايخ يشكون من الوالى وما فعله مع الحفارين ونحو ذلك ... فاعجب لهذا التناقض !

وفيه : وصل مكتوب من كبير الانكليز الذى بالاسكندرية مضمونه : طلب أسماء الأسرى من الانكليز ، والوصية بهم ، واكرامهم . كما هم يفعلون بالأسرى من العسكر . فانهم لما دخلوا الى الاسكندرية ، أكرموا من كان بها منهم ، وأذنوا لهم بالسفر بمتاعهم وأموالهم الى حيث شاءوا ، وكذلك من أخذوه أسيرا فى حرابة رشيد .

ربيع الأول

السبت غرته (٩ مايو ١٨٠٧ م) :

كتبوا لكبير الانكليز جوابا عن رسالته .

السبت ١٥ منه (٢٣ مايو ١٨٠٧ م) :

حضر على كاشف الكبير الألفى بكلام من طرف شاهين بيك الألفى ، يعتذر عن التأخير الى هذا الوقت ، وأنهم على صلحهم واتفاقهم الأول ، وحضورهم الى ناحية الجيزة ... وبات تلك الليلة فى بيته بمصر . ثم أقام ثلاثة أيام ، ورجع الى مرسله .. وصحبته سليمان أغا الوكيل .

وفيه : حضر عابدين بيك أخو حسن باشا من ناحية بحرى .. وحضر أيضا فى أثره أحمد أغا لاظ وغيره من ناحية بحرى . وذلك أنهم ذهبوا خلف الانكليز الى قرب معدية البحيرة فخرج عليهم طائفة الانكليز من البر والبحر وضربوا عليهم مدافع ونيرانا كثيرة ، فولوا راجعين ، وحضروا الى مصر .

وفيه : حضر أيضا الفسيال الكبير الانكليزى الذى كان أرسل بدلا عن ابن أخى عمر بيك — وقيل انه ابن أخى صالح قوش — فلما وصل اليهم، أجابوا بأن المذكور سافر مع من سافر الى الروم بمتاعهم وأموالهم قبل الواقعة وحيث لم يكن المطلوب موجودا فلا وجه لابقاء الانكليزى المذكور فردوه بعد أن رفعوا منزلته ورتبته عندهم فلما رجع الى مصر ، خلى سبيله الباشا ، ولم يحبسه مع الأسرى بل أطلق له الاذن أيضا فى الرجوع الى الاسكندرية ، أو الى بلاده متى أحب واختار .

وفيه : استوحش الباشا من ياسين بيك ، وضاق خناقه منه وذلك أنه لما حضر الى مصر ، وخلع عليه الباشا ، ودفع اليه ماكان وعده به من الأكياس ،

وقدم له تقادم وأنعامات ... على أنه يسافر الى الاسكندرية لمحاربة الانكليز ، طلب مطالب كثيرة له ولأتباعه ، وأخذ لهم الكساوى والسراويلات ، وأخذ جميع ما كان عند جبجى باشا من الأقمشة والخيام والجبخانة والاحتياجات من القرب وروايا الماء ، ولوازم العسكر فى سفر البر والافازة والمحاصرة .. الى غير ذلك . وقلد أباه كشوفية الشرقية ، وخرج هو بعرضيه وخيامه الى ناحية الخلاء ببولاق . فانضم اليه الكثير من العسكر والدلاتية وغيرهم ، وصار كل من ذهب اليه يكتبه فى جملة عسكره . فاجتمع عليه كل عاص وأزعر ومخالف وعاق ، وصرح بالخلاف ، وتطلعت نفسه للرياسة . وكلما أرسل اليه الباشا يرده وينهاه عن فعله ، يعرض عن ذلك . وداخله الغرور ، وانتشرت أوباشه يعبثون فى النواحى ، وبث أكابر جنده فى القرى والبلدان ، وعينهم لجمع الأموال والمغارم الخارجة عن المعقول ... ومن خالفهم نهبوا قريته وأحرقوها ، وأخذوا أهلها أسرى . فعند ذلك أخذ الباشا فى التدبير عليه ، واستمال العسكر المنضمين اليه . وحلل عرى رباطاته .

الاربعاء ١٩ منه (٢٧ مايو ١٨٠٧ م) :

أمر عساكر الأرنؤود بالاجتماع والخروج الى ناحية بولاق . فخرجوا بأجمعهم الى نواحى السبتية والخندق ، وحالوا بينه وبين بولاق ومصر .

السبت ٢٢ منه (٣١ مايو ١٨٠٧) :

ركب الباشا بجنوده ، وخرج الى تلك الناحية ، وحصن أبواب المدينة بالعساكر ، وأيقن الناس بوقوع الحرب بين الفريقين . وأرسل الباشا الى ياسين بيك يقول له : « أن تستمر على الطاعة ، وتطرد عنك هذه اللموم ، وتكون من جملة كبار العسكر ... والا تذهب الى بلادك . والا فأنا واصل اليك ومحاربك » .

فعند ذلك داخله الخوف ، وانحلت عزائم جيوشه ، وتفرق الكثير منهم . فلما كان بعد الغروب ، طلب الركوب ، ولم يعلم عسكره أين يريد . فركب الجبيع — وهم ثلاثة طوابير — واشتبهت عليهم الطرق فى ظلام الليل . فسار هو بفريق منهم الى ناحية الجبل .. على طريق حلق الجرة . وفرقة سارت الى ناحية بركة الحاج ، والثالثة ذهبت على طريق القليوبية ، وفيهم أبوه .

فلما علم الباشا بركوبهم ، ركب خلفهم ، وذهب خلف الطائفة التى توجهت الى ناحية البركة..حصة. فلما علموا انفرادهم عن أميرهم ، رجعوا متفرقين فى النواحى . ورجع الباشا الى داره ، ولم يزل ياسين بيك فى سيره حتى نزل بمن معه فى التبين ، واستقر بها . وأما أبوه فانه التجأ الى شيخ قليوب.. الشواربى ، فأخذ له أمانا ، وأحضر فى ثانى يوم الى الباشا . فألبسه فروة ، وأمره أن يلحق بابنه . فنزل الى بولاق ، ونزل فى مركب مسافرا .

الاثنين ٢٤ منه (٢ يونية ١٨٠٧ م) :

عين الباشا عسكرا ورؤساء عساكر وخيالة . وأصحب معهم شديدا وجملة من عرب الحويطات للحوق بياسين بيك ومحاربته . ولما نزل ياسين بيك بناحية التبين ، نهب قرى الناحية بأسرها ، مثل : التبين ، وحلوان ، وطرا ، والمعصرة ، والبساتين . وفعلوا بها أفاعيلهم الشنيعة .. من السلب والنهب ، وأخذ النساء ، ونهب الأجران والغلال والأتبان والمواشى ، وأخذ الكلف الشاقة . ومن عجز عن شىء من مطلوباتهم ، أحرقوه بالنار .

الخميس ٢٧ منه (٥ يونية ١٨٠٧ م) :

رجع العسكر والعربان الذين كانوا ذهبوا لمحاربة ياسين بيك . وذلك أنهم لما قربوا من وطاقهم

ارتحل الى صول والبرنبل . فولوا راجعين ، وتمموا فى ذهابهم وايابهم تدمير القرى !

وفيه : ورد قاصد قابجى من اسلامبول ، وعلى يده مرسوم بالبشارة .. بولاية السيد على باشا قبودان الدونانمة ، وتاريخه نحو ثلاثة أشهر ، فضربوا لقدومه المدافع من القلعة .

السبت ٢٩ منه (٧ يونية ١٨٠٧ م) :

رجع سليمان أغا من قبلى الى مصر وأخبر بقرب قدوم الأمراء المصريين ، وأن شاهين بيك وصل الى زاوية المصلوب ، وابراهيم بيك جهة قمن العروس ، وأنهم يستدعون اليهم مصطفى أغا الوكيل ، وعلى كاشف الصابونجى .

ربيع الآخر

الاثنين غرته (٨ يونية ١٨٠٧ م) :

فيه : سافر مصطفى أغا والصابونجى الى جهة قبلى ، وصحبتهما كتخدا القاضى .

السبت ٦ منه (١٣ يونية ١٨٠٧ م) :

وصل شخص ططرى ، وعلى يده مرسوم ، فعمل الباشا ديوانا ، وقرأ المرسوم بحضرة الجمع مضمونه : أن العرضى الهمايونى ، الموجه لحرب الموسكوب ، خرج من اسلامبول ، وذهب الى ناحية أدرنه ، وأن العساكر سارت لمحاربة الأعداء ، ويذكرون فيه أن بشائر النصر حاصلة وقد وصل رؤوس قتلى وأسرى كثيرة ، وأنه بلغ الدولة ورود نحو الأربع عشرة قطعة من المراكب الى ثغر الاسكندرية ، وأن الكائنين بالثغر تراخوا فى حربهم .. حتى طلعوا الى الثغر فمن اللازم الاهتمام ، وخروج العساكر لحروبهم ، ودفعهم وطردهم عن الثغر .

وقد أرسلنا البيورلديات الى سليمان باشا والى صيدا ، والى يوسف باشا والى الشام ، بتوجيه العساكر الى مصر للمساعدة وان لزم الحال لحضور المذكورين لتمام المساعدة على دفع العدو ... الى آخر ما نمقوه وسطروه

ومحل القصد من ورود هذه البيورلديات والفرامانات والأغوات والقبجيات ، انما هو جر المنفعة لهم بما يأخذونه من خدمهم وحق طريقهم ، من الدراهم والتقادم والهدايا .

فان القادم منهم ، اذا ورد ، استعدوا لقدومه .. فان كان ذا قدر ومنزلة ، أعدوا له منزلا يليق به ، ونظموه بالفرش والأدوات اللازمة . وخصوصا اذا كان حضر فى أمر مهم ، أو لتقرير المتولى على السنة الجديدة ، أو بصحبته خلع رصا وهدايا ، فانه يقابل بالاعزاز الكبير ، ويشاع خبره قبل وروده الى الاسكندرية ، وتأتى المبشرون بوروده من الططر قبل خروجه من دار السلطنة بنحو شهر أو شهرين ، ويأخذون خدمتهم وبشارتهم بالأكياس واذا وصل هو أدخلوه فى موكب جليل ، وعملوا له ديوانا ومدافع وشنكا ، وأنزل فى المنزل المعد له وأقبلت عليه التقادم والهدايا من المتولى وأعيان دولته ، ورتب له الرواتب والمصاريف لمأكله هو وأتباعه لمطبخه وشراب حانته ، أيام مكثه ، شهرا أو شهورا ثم يعطى من الأكياس قدرا عظيما وذلك خلاف هدايا الترحيلة من قدور الشربات المتنوعة ، والسكر المكرر، وأنواع الطيب . كالعود والعنبر ، والأقمشة الهندية ، والمقصبات لنفسه ورجال دولته .

وان كان دون ذلك ، أنزلوه بمنزل بعض الأعيان بأتباعه وخدمه ومتاعه فى أعز مجلس ويقوم رب المنزل بمصرفهم ولوازمهم وكلفهم وما تستدعيه شهوات أنفسهم ، ويرون أن لهم المنة عليه بنزولهم عنده ، ولا يرون له فضلا ، بل ذلك واجب عليه ،

وفرض يلزمه القيام به ، مع التآمر عليه وعلى اتباعه ! ويمكث على ذلك شهورا ، حتى يأخذ خدمته ، ويقبض أكياسه . وبعد ذلك كله يلزم صاحب المنزل أن يقدم له هدية ليخرج من عنده شاكرا ومثنيا عليه عند مخدومه وأهل دولته .. أقضية يحار العقل والنقل فى تصورها !

الاحد ٧ منه (١٤ يونيه ١٨٠٧ م) :

وصلت القافلة والحجاج من ناحية القلزم على مرسى السويس . وحضر فيها أغوات الحرم ، والقاضى الذى توجه لقضاء المدينة — وهو المعروف بسعد بيك — وكذلك خدام الحرم المكى ، وقد طردهم الوهابى جميعا . وأما القاضى المنفصل ، فنزل فى مركب ولم يظهر خبره . وقاضى مكة توجه بصحبة الشاميين .

وأخبر الواصلون أنهم منعوا من زيارة المدينة ، وأن الوهابى أخذ كل ما كان فى الحجرة النبوية من الذخائر والجواهر .

وحضر أيضا الذى كان أميرا على ركب الحجاج ، وصحبته مكاتبة من مسعود الوهابى ومكتوب من شريف مكة . وأخبروا أنه أمر بحرق المحمل . واضطربت أخبار الاخباريين عن الوهابى بحسب الأغراض . ومكاتبة الوهابى بمعنى الكلام السابق فى نحو الكراسة ، وذكر فيها ما ينسبه الناس اليه من الأقوال المخالفة لقواعد الشرع ويتبرأ عنها .

وفيه : ورد الخبر بأن ابراهيم بيك وصل الى بنى سويف ، وأن شاهين بيك ذهب الى الفيوم لاختلاف وقع بينهم ، وأن أمين بيك وأحمد بيك الألفيين ذهبا الى ناحية الاسكندرية للانكليز .

وفيه : كمل تحرير دفاتر الفرضة والمظالم التى ابتدعوها فى العام الماضى على القراريط واقطاعات الأراضى . وكذلك أخذ نصف فائظ الملتزمين . وعينوا المعينين لتحصيله من المزارعين ... وذلك خلاف ما فرضوه على البنادر من الأكياس الكثيرة المقادير .

وفى ذلك اليوم : أرسل الأغا ووالى الشرطة أتباعهما لأرباب الصنائع ، والحرف ، والبوابين بالوكائل والخانات ... يأمرونهم بالحضور من الغد الى بيت القاضى . فانزعجوا من ذلك ، ولم يعلموا لأى شىء هذا الطلب وهذه الجمعية ، وباتوا متفكرين ومتوهمين .

فلما أصبح يوم الاثنين ، واجتمع الناس ، أبرزوا لهم مرسوما قرىء عليهم بسبب زيادة صرف المعاملة . وذلك أن الريال الفرانسة وصلت مصارفته الى مائتين وعشرة من الأنصاف العددية . والمحبوب الى مائتين وعشرين وأكثر . والمشخص البندقى وصل الى أربعمائة وأربعين فضة ونحو ذلك .

فلما قرأوا عليهم المرسوم ، وأمروهم بعدم الزيادة ، وأن يكون صرف الفرانسة بمائتين فقط ، والمحبوب بمائتين وعشرين فضة ، والبندقى بأربعمائة وعشرين .. فلما سمعوا ذلك ، قالوا : « نحن ليس لنا علاقة بذلك .. هذا أمر منوط بالصيارف » . وانفض المجلس .

وفيه : وصلت مكاتبة من ابراهيم بيك ومن الرسل مضمونها : الاخبار بقدومهم . وأرسل ابراهيم بيك يستدعى اليه ابنه الصغير ، وولد ابنته المسمى نور الدين ، ويطلب بعض لوازم وأمتعة .

السبت ١٣ منه (٢٠ يونية ١٨٠٧ م) :

سافر أولاد ابراهيم بيك والمطلوبات التى أرسل يطلبها ، وصحبتهم فراشون وباعة ومتسببون وغير ذلك .

الاثنين ١٥ منه (٢٢ يونية ١٨٠٧ م) :

ورد سلحدار موسى باشا .. وعلى يده مرسوم

بالعربى ، وآخر بالتركى ، مضمونهما جواب رسالة أرسلت الى سليمان باشا بعكا بخبر حادثة الانكليز، وملخصها : « أنه ورد علينا جواب من سليمان باشا يخبر فيه وصول طائفة الانكليز الى ثغر سكندرية ، ودخولهم اليها بمخامرة أهلها ، ثم زحفهم الى رشيد .. وقد حاربتهم أهل البلاد والعساكر ، وقتلوا الكثير منهم ، وأسروا منهم كذلك . وتؤكد على محمد باشا ، والعلماء ، وأكابر مصر : بالاستعداد والمحافظة ، وتحصين الثغور — مثل السويس والقصير — ومحاربة الكفار ، واخراجهم وابعادهم عن الثغر . وقد وجهنا لكل من سليمان باشا ، وجنج يوسف باشا بتوجيه ماتريدون من العساكر للمساعدة » . ونحو ذلك .

وفيه : أحضروا أربعة رؤوس من الانكليز ، وخمسة أشخاص أحياء ، فمروا بهم من وسط المدينة .. ذكروا أن كاشف دمنهور حارب ناحية الاسكندرية فقتل منهم وأسر هؤلاء . وقيل انهم كانوا يسيرون لبعض أشغالهم نواحى الريف ، فبلغ الكاشف خبرهم ، فأحاط بهم ، وفعل بهم ما فعل ، وأرسلهم الى مصر .. وهم ليسوا من المعتبرين ، وكأنهم مالطية . وقيل انهم سألوهم ، فقالوا : « نحن متسببون ... طلعنا ناحية أبو قير وتهنا عن الطريق ، فصادفونا — ونحن تسبعة لاغير — فأخذونا ، وقتلوا منا من قتلوه وأبقونا » .

وفيه : وصلت مكاتبة من ابراهيم بيك . وأرسل الباشا اليهم جوابا صحبة انسان يسمى شريف أغا .

الثلاثاء ٢٣ منه (٣٠ يونية ١٨٠٧ م) :

وردت أخبار من ناحية الشام ، بأنه وقع باسلامبول فتنة بين الينكجرية والنظام الجديد ، وكانت الغلبة للينكجرية ... وعزلوا السلطان سليم ، وولوا السلطان مصطفى ابن عمه — وهو ابن السلطان عبد الحميد بن أحمد — وخطب له ببلاد الشام .

الخميس ٢٥ منه (٢ يولية ١٨٠٧ م) :

وصل ططرى من طريق البر بتحقق ذلك الخبر . وخطب الحطباء للسلطان مصطفى ، على منابر مصر وبلاد مصر وبولاق ... وذلك يوم الجمعة سادس عشرينه

وفى اواخره (اوائل يولية ١٨٠٧ م) :

أحدثوا طلب مال الأطيان المسموح الذى لمشايخ البلاد ، وحرروا به دفترا ، وشرعوا فى تحصيله ، وهى حادثة لم يسبق مثلها : أضرت بمشايخ البلاد ، وضيقت عليهم معايشهم ومضايفهم .

وفيه : كتبوا أوراقا للبلاد والأقاليم بالبشارة بتولية السلطان الجديد ، وعينوا بها المعينين ، وعليها حق الطرق .. مبالغ لها صورة ، وكل ذلك من التحيل على سلب أموال الناس !

وفيه : كتبوا مراسلة الى الأمراء القبليين بالصلح . وأرسلوا بها ثلاثة من الفقهاء ، وهم : الشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ ابراهيم السحينى ، والسيد محمد الدواخلى . وذلك أنه لما رجع شريف أغا ، الذى كان توجه اليهم بمراسلتهم ، أرسلوا يطلبون الشيخ الشرقاوى ، والشيخ الأمير ، والسيد عمر النقيب ، لاجراء الصلح على أيديهم . فأرسلوا الثلاثة المذكورين بدلا عنهم .

وفى هذه الأيام : كثر خروج العساكر والدلاة ، وهم يعدون الى البر الغربى . وعدى الباشا بحر النيل الى بر امبابة ، وأقام هناك أياما .

جمادى الأولى

الثلاثاء غرته (٧ يولية ١٨٠٧ م) :

فيه : شرع الباشا فى تعمير القلاع التى كانت

أنشأتها الفرنساوية خارج بولاق ، وعمل متاريس بناحية منية عقبة وغيرها ، ووزع على الجيارة جيرا كثيرا ، ووسق عدة مراكب ، وأرسلها الى ناحية رشيد ليعمروا هناك سورا على البلد وأبراجا . وجمعوا البنائين والفعلة والنجارين وأنزلوهم فى المراكب قهرا .

الثلاثاء ١٥ منه (٢١ يولية ١٨٠٧ م) :

وصل الى مصر نحو الخمسمائة من الدلاتية ، أتوا من ناحية الشام ، ودخلوا الى المدينة

وفيه : طلب الباشا من التجار نحو الألفى كيس على سبيل السلفة ، فوزعت على الأعيان وتجار البن ، وأهل وكالة الصابون ، ووكالة التفاح ، ووكالة القرب وخلافها . وحجزوا البضائع ، وأجلسوا العساكر على الحواصل والوكائل يمنعون من يخرج من حاصله أو مخزنه شيئا الا بقصد الدفع من اصل المطلوب منهم ثم أردفوا ذلك بمطلوبات من أفراد الناس المساتير فيكون الانسان جالسا فى بيته فما يشعر الا والمعينون واصلون اليه وبيدهم بصلة الطلب ، اما خمسة أكياس أو عشرة أو أقل أو أكثر فاما أن يدفعها ، والا قبضوا عليه وسحبوه الى السجن ، فيحبس ويعاقب حتى يتمم المطلوب منه فنزل بالناس أمر عظيم ، وكرب جسيم

وفى الناس من كان تاجرا ، ووقف حاله بتوالى الفتن والمغارم ، وانقطاع الأسباب والأسفار ، وأفلس وصار نتعيش بالكد والقرض ، وبيع متاعه وأساس داره وعقاره — واسمه باقى فى دفاتر التجار — فما يشعر الا والطلب لاحقه بنحو ماتقدم لكونه كان معروفا فى التجار فيؤخذ ويحبس ، ويستغيث فلا يغاث ، ولا يجد شافعا ولا راحما !

وهذا الشيء خلاف الفرض المتوالية على البلاد والقرى فى خصوص هذه الحادثة . وكذلك على البنادر مقادير لها صورة ، وما يتبعها من حق طرق المعينين والمباشرين ، وتوالى مرور العساكر آناء الليل وأطراف النهار بطلب الكلف واللوازم وأشياء يكل القلم عن تسطيرها ، ويستحى الانسان من ذكرها ، ولا يمكن الوقوف على بعض جزئياتها .. حتى خربت القرى ، وافتقر أهلها وجلوا عنها فكان يجتمع أهل عدة من القرى فى قرية واحدة بعيدة عنهم ، ثم يلحقها وبالهم فتخرب كذلك !

وأما غالب بلاد السواحل ، فانها خربت ، وهرب أهلها ، وهدموا دورها ومساجدها ، وأخذوا أخشابها

ومن جملة أفاعيلهم الشنيعة التى لم يطرق الأسماع نظيرها : أنهم قرروا فرضة من فرض المغارم على البلاد فكتبوا أوراقا ، وسموها بشارة الفرضة ! يتولاها بعض من يكون متطلعا لمنصب أو منفعة ثم يرتب له خدما وأعوانا ، ثم يسافر الى الاقليم المعين له — وذلك قبل منصب الأصل — وفى مقدمته يبعث أعوانه الى البلاد يبشرونهم بذلك ، ثم يقبضون مارسم لهم فى الورقة من حق الطريق بحسب ما أدى اليه اجتهاده ، قليلا أو كثيرا .. وهذه لم يسمع بما يقاربها فى ملة ولا ظلم ولا جور !

وسمعت من بعض من له خبرة بذلك أن المغارم التى قررت على القرى بلغت سبعين ألف كيس ، وذلك خلاف المصادرات الخارجة .

وفى اواخره (أوائل اغسطس ١٨٠٧ م) :

قوى عزم الباشا على السفر لناحية الاسكندرية ، وأمر باحضار اللوازم والخيام ، وما يحتاج اليه الحال من روايا الماء والقرب وباقى الأدوات .

جمادى الآخرة

الجمعة ٢ منه (٧ اغسطس ١٨٠٧ م) :

ركب الباشا الى بولاق ، وعدى الى ناحية

بر انبابة . ونصبوا وطاقه هناك . وخرجت طوائف العسكر الى ناحية بولاق وساحل البحر ، وطفقوا يأخذون مايجدونه من البغال والحمير والجمال ! واستمروا على الدخول والخروج والذهاب والمجيء والرجوع والتعدية أياما .. وهم على ذلك النسق من خطف البهائم . وامتنعت السقاءون عن نقل الماء من البحر حتى شح الماء ، وغلا سعره ، وعطشت الناس ، وامتنع حمل البضائع .

السبت ٣ منه (٨ اغسطس ١٨٠٧ م) :

طلبوا أيضا خيول الطواحين لجر المدافع والعربات ، حتى تعطلت الطواحين عن طحن الدقيق . ولما ذهبوا بها الى العرضى ، اختاروا منها جيادها ، وأعطوا أربابها عن كل فرس خمسين قرشا ، وردوا البواقي لأصحابها .

وفيه : طلبوا أيضا دراهم من طائفة القبانية والحطابة ، وباعة السمك القديد ، المعروف بالفسيخ ... فكان القدر المطلوب من طائفة القبانية مائة وخمسين كيسا .. فأغلقوا حوانيتهم ، وهربوا ، والتجأوا الى الجامع الأزهر . وكذلك الحطابة وغيرهم : منهم من هرب ، ومنهم من التجأ الى السيد عمر .. واستمر كذلك ثلاثة أيام .

وركب السيد عمر ، وعدى الى الباشا ، وتشفع فى الطوائف المذكورة . فرفعوا عنهم غرامتهم ، وكتبوا لهم أمانا بذلك .

الاثنين ٥ منه (١٠ اغسطس ١٨٠٧ م) :

حضر قابجى من طرف الانكليز ، وصحبته أشخاص ، فأنزلهم الباشا فى خيمة بمخيمه بانبابة . فرقدوا بها ليأخذوا لهم راحة ، وناموا . فلما استيقظوا لم يجدوا ثيابهم ، وسطا عليهم السراق فشلحوهم . فأرسلوا الى حارة الفرنساوية فأتوا لهم بثياب وقفوات لبسوها .

السبت والاحد ١٠ ، ١١ منه (١٥ ، ١٦ اغسطس ١٨٠٧ م) :

عمل الفرنساوية عيدا ومولدا بحارتهم . وأولموا بينهم ولائم ، وأوقدوا قناديل كثيرة تلك الليلة ، وحراقات نفوط ، وسواريخ وشنكا ... حصة من الليل . وهو عبارة عن مولد « بونابارته » السنوى .

الثلاثاء ١٣ منه (١٨ اغسطس ١٨٠٧ م) :

طلب الباشا حسين أفندى الروزنامجى . فعدى اليه ببر انبابة . فخلع عليه خلعة الدفتردارية . وحضر الى داره الجديدة — وهو بيت الهياتم ، بالقرب من قنطرة درب الجماميز — وذهب اليه الناس يهنئونه . وانفصل أحمد أفندى عاصم عن الدفتردارية .

الخميس ١٥ منه (٢٠ اغسطس ١٨٠٧ م) :

عمل الباشا شنكا بالبر الغربى بين المغرب والعشاء . ولما أصبح أمر بالارتحال ، وتمهل حتى تكامل ارتحال العساكر . فركب قريب الزوال الى المنصورة .

الجمعة ١٦ منه (٢١ اغسطس ١٨٠٧ م — ١٦ مسرى ١٥٢٣ ق) :

أوفى النيل أذرعه . وذلك بعد أن حصل فى الناس ضجر وقلق ، بسبب تأخر الوفاء ، ووقفات حصلت فى الزيادة قبل الوفاء عدة أيام .. حتى رفعوا الغلال من العرصات ، وزادت أثمانها . فلما حصل الوفاء اطمأن الناس ، وتراجعت اليهم أنفسهم ، وأظهروا الغلال فى العرصات والرقع . وركب كتخدا بيك فى صبح يوم السبت ، وكذلك القاضى ، وطوسون ابن الباشا ، والسيد عمر النقيب . وكسر السد بحضرتهم ، وجرى الماء فى الخليج .

وفيه : وصل قابجى الى ثغر سكندرية .

وحضر بعد ذلك الى ثغر بولاق من طريق البر الى قبرص ، وتحرى الوصول الى دمياط . ثم حضر الى بولاق وقابل الباشا فى طريقه ، ووصل على يده سكة ضرب المعاملة الجديدة بالضربخانة باسم السلطان الجديد وكذلك الأمر بالخطبة والدعاء ، والاخبار برفع النظام الجديد وابطاله من اسلامبول ، ورجوع الوجاقات على قانونها الأول القديم ... ووصل فى نيف وخمسين يوما .

فاجتمعوا فى صبحها ، يوم الأحد ، بباب الباشا وأحضروا الأغا بموكب ، ودخل من باب النصر . وقرىء الفرمان بحضره الجمع ، وضربوا شنكا ومدافع من أبراج القلعة ، ثلاثة أيام ، فى الأوقات الخمسة

ومن الحوادث أنه ظهر فى هذه الأيام رجل بناحيه بنها العسل يدعى بالشيخ سليمان فأقام مدة فى عشة بالغيط واعتقد فيه الناس بالولاية والسلوك والجذب فاجتمع اليه الكثير من أهل القرى — وأكثرهم الأحداث — ونصبوا له خيمة وكثر جمعه ، وأقبلت عليه أهالى القرى بالندور والهدايا وصار يكتب الى النواحى أوراقا يستدعى منهم القمح والدقيق ، ويرسلها مع المريدين يقول فيها : « الذى نعلم به أهل القرية الفلانية ، حال وصول الورقة اليكم ، تدفعوا لحاملها خمسة أرادب قمح (أو أقل أو أكثر) برسم طعام الفقراء . وكراء طريق المعين ثلاثون رغيفا » أو نحو ذلك . فلا يتأخرون عن ارسال المطلوب فى الحال

وصار الذين حوله ينادون فى تلك النواحى بقولهم « لاظلم اليوم ، ولا تعطوا الظلمة شيئا من المظالم التى يطلبونها منكم ومن أتاكم فاقتلوه ! » .

فكان كل من ورد من العسكر المعينين الى تلك النواحى يطلب الكلف أو الفرض التى يفرضونها ، فزعوا عليه ، وطردوه وان عاند . قتلوه

فثقل أمره على الكشاف والعسكر . وصار له عدة خيام وأخصاص ، واجتمع لديه من المردان نحو

.. المردان

المائة وستين أمرد .. وغالبهم أولاد مشايخ البلاد وكان اذا بلغه أن بالبلد الفلانية غلاما وسيم الصورة ، أرسل يطلبه . فيحضروه اليه فى الحال .. ولو كان ابن عظيم البلدة ! حتى صاروا يأتون اليه من غير طلب — ولا يخفى حال الاقليم المصرى فى التقليد فى كل شىء — وهذا من جنس المردان .. وكذلك ذوو اللحى هم كثيرون أيضا .

وعمل للمردان عقودا من الخرز الملون فى أعناقهم ولبعضهم أقراطا فى آذانهم .

ثم ان شيخا من فقهاء الأزهر من أهالى بنها — يقال له الشيخ عبد الله البنهاوى ادعى دعوى بطين مستأجره من أراضى بنها كان لاسلافه ، وأن الملتزمين بالقرية استولوا على ذلك الطين من غير حق لهم فيه .. بل باغراء بعض مشايخ القرية . والمذكور به رعونة ، ولم يحسن سبك دعواه — وخصوصا كونه مفلسا ، وخليا من الدراهم التى لابد منها الآن فى الجعالات والبراطيل للوسايط ، وأرباب الأحكام وأتباعهم — ويظن فى نفسه أنه يقضى قضيته بقال المصنف : اكراما لعلمه ودرسه ! فتخاصم مع الملتزمين ومشايخ بلده . وانعقدت

بسببه مجالس ، ولم يحصل منها شيء سوى التشنيع عليه من المشايخ الأزهرية والسيد عمر النقيب .

ثم كتب له عرضحال ، ورفع أمره الى كتخدا بيك والباشا . فأمر الباشا بعقد مجلس بسببه بحضرة السيد عمر والمشايخ . وقالوا للباشا : « انه غير محق » وطردوه . فسافر الى بلده . وسافر الباشا أيضا الى جهة البحيرة والاسكندرية .

فذهب الشيخ عبد الله المذكور الى الشيخ سليمان المذكور ، وأغراه على الحضور الى مصر ، وأنه متى وصل اجتمع عليه المشايخ وأهل البلدة وقابلوه ، ويكون على يده الفتح والفتوح . وحركته خساف العقول المحيطون به والمجتمعون حوله على المجيء الى مصر ، ويكون له شأن ... لأن ولايته اشتهرت بالمدينة ، ولهم فيه اعتقاد عظيم وحب جسيم !

ومن أوصاف ذلك الشيخ : أنه لا يتكلم الا بالذكر أو الكلام النزر الذى لا بد منه ، ويتكلم فى أكثر أوقاته بالاشارة .

ثم انه أطاع شياطينه ، وحضر برجاله وغلمانه ، ومعه طبول وكاسات على طريق مشايخ أهل العصر والأوان ... الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعا ! ودخلوا الى المدينة على حين غفلة ، وبأيديهم فراقل يفرقعون بها فرقعة متتابعة ، وصياح وجلبة ، ومن خلفهم الغلمان والبدايات .. وشيخهم فى وسطهم . فما زالوا فى سيرهم حتى دخلوا المشهد الحسينى ، وجلسوا بالمسجد يذكرون . ودخل منهم طائفة الى بيت السيد عمر مكرم النقيب ، وهم يفرقعون بما فى أيديهم من الفرقلات . فأقاموا بالمسجد الى العصر . ثم دعاهم انسان من الأجناد — يقال له اسماعيل كاشف أبو مناخير — له فى الشيخ المذكور اعتقاد . فذهبوا معه الى داره بعطفة عبد الله بيك . فعشاهم ، وباتوا عنده الى الصباح .

ولما طلع النهار : ركب الشيخ بغلة ذلك الجندى وذهب بطائفته الى ضريح الامام الشافعى ، فجلس بالمسجد أيضا مع أتباعه يذكرون . وبلغ خبره كتخدا بيك وأمثاله . فكتب تذكرة ، وأرسلها الى السيد عمر النقيب بطلب الشيخ المذكور .. ليتبركوا به ، وأكد فى الطلب . وقصده أن يفتك به لقهرهم منه .

وعلم السيد عمر ما يراد به . فأرسل يقول له : « ان كنت من أهل الكرامة ، فاظهر سرك وكرامتك . والا فاذهب وتغيب » .

وكان صالح أغا قوج — لما بلغه خبره — ركب فى عسكره ، وذهب الى مقام الشافعى ، وأراد القبض عليه . فخوفه الحاضرون ، وقالوا له : « لا ينبغى لك التعرض له فى ذلك المكان . فاذا خرج فدونك واياه » . فانتظره بقصر شويكار ، فتباطأ الشيخ الى قريب العصر ، وأشاروا عليه بالخروج من الباب القبلى . وتفرق عنه الكثير من المجتمعين عليه . فذهب الى مقام الليث بن سعد ، ثم سار من ناحية الجبل ، وذهبت بداياته وغلمانه الى دار اسماعيل كاشف التى باتوا بها .

ولما سار الى ناحية الصحراء ، لحقه الحاج سعودى الحناوى ، واقتفى أثره ، وبلغه رسالة السيد عمر ، ورجع الى السيد عمر فوجد كتخدا بيك ورجب أغا حضرا الى السيد عمر يسألانه عنه ، ولم يكتفوا بالطلب الأول . فأخبرهما أنه ذهب ولم تلحقه المراسيل .

فاغتاظوا وقالوا : « نرسل الى كاشف القليوبية بالقبض عليه أينما كان » . وانصرفوا ذاهبين .

وقصدت العساكر بيت اسماعيل كاشف أبو مناخير ، فقبضوا على الغلمان ، وأخذوهم الى دورهم . ولم ينج منهم الا من كان بعيدا وهرب . وتغيب وتفرق أتباعه ذوو اللحى .

وأما الشيخ فسار من طريق الصحراء حتى وصل الى بهتيم ، وذهب الى نوب . فعرف بمكانه الشيخ عبد الله زقزوق البنهاوى الذى كان أغراه على الحضور الى مصر ، ولما سقط فى يده .. تبرأ منه ، وذهب الى كتخدا بيك ، وطلب له أمانا ، وأخبره أنه مختف بضريح الامام الشافعى . فأعطاه أمانا ، وذهب اليه وأحضره من نوب .

فلما حضر عند الكتخدا قال له : « أرخ لحيتك ، واترك ما أنت عليه ، وأقم فى بلدك .. وأعطيك طينا تزرعه ، ولا تتعرض لأحد ، ولا أحد يتعرض لك » .. والشيخ ساكت لا يتكلم ، وصحبته أربعة أنفار من تلاميذه ، هم الذين يخاطبون الكتخدا ويكلمونه .

ثم أمر أشخاصا من العسكر ، فأخذوه وذهبوا به الى بولاق ، وأنزلوه فى مركب ، وانحدروا به ، ثم غابوا حصة واقبلوا راجعين . ثم بعد ذلك تبين أنهم قتلوه ، وألقوه فى البحر .. الا واحدا من الأربعة ألقى بنفسه فى البحر ، وسبح فى الماء ، وطلع الى البر وهرب ... وانفض أمره .

وفيه : أرسل الباشا ، وهو بالرحمانية ، يطلب شيخ دسوق . فحضر اليه طائفة من العسكر . فلما أتوا اليه .. امتنع ، وقال : « مايريد الباشا منى ؟ أخبرونى بطلبه وأنا أدفعه .. ان كان غرامة أو كلفة » . فقالوا : « لا ندرى . وانما أمرنا باحضارك » فشاغلهم بالطعام والقهوة ، ووزع بهائمه وحريمه والذى يخاف عليه .

وفى الوقت وصلت مراكب وبها عساكر ، وطلعوا الى البر . فركب شيخ البلد خيوله وخيالته ، ، واستعد لحربهم ، وحاربهم وأبلى معهم ، وقتل منهم عدة كبيرة ، ثم ولى هاربا . فدخل العسكر الى البلد ونهبوها ، وأخذوا ما وجدوه فى دور أهلها ، وعبروا مقام السيد الدسوقى ، وذبحوا من وجدوه من المجاورين .. وفيهم من طلبة العلم العواجز !

وفيه : ركب كتخدا بيك ومر على بيت الداودية — وبه طائفة من الدلاة — فرأى شخصا منهم يرجم دجاجة بحجر ليرميها من سطح دار أخرى .. فانتهره وأراد ضربه . فقامت عليه رفقاؤه الدلاتية ، وفزعوا عليه ، فولى هاربا منهم ، فعدوا خلفه .. ولم يزل رامحا هو وأتباعه حتى وصل الى ناحية الأزبكية .

رجب

الاثنين ٤ منه (٧ سبتمبر ١٨٠٧ م) :

وردت مكاتبات من الباشا بوقوع الصلح بينه وبين الانكليز . واتفقوا على خروجهم من الاسكندرية وخلوها ونزولهم منها . وأرسل يطلب الأسرى من الانكليز .

الاحد ١٠ منه (١٣ سبتمبر ١٨٠٧ م) :

ورد قابجى — ويسمى نجيب أفندى — فوصل الى بولاق يوم الاثنين حادى عشره . وكان وروده من ناحية دمياط . فلما علم أن الباشا بناحية البحيرة ، ذهب اليه وقابله بدمنهور .. وبصحبته — لخصوص الباشا — قفطان وسيف وشلنج ، وخلع لكبار العسكر مثل : حسن باشا ، وطاهر باشا ، وعابدين بيك ، وعمر بيك ، وصالح قوج . فنزل ببيت محمد الطويل التتنجى ببولاق .

وفيه : نزلوا بالأسرى من الانكليز الى المراكب ليسافروا الى الاسكندرية .

الاربعاء ١٣ منه (١٦ سبتمبر ١٨٠٧ م) :

وصل المبشر بنزول الانكليز من ثغر الاسكندرية الى المراكب . ودخل اليها كتخدا بيك ونزل بدار الشيخ المسيرى . واستمر الباشا مقيما عند السد .

السبت ١٦ منه (١٩ سبتمبر ١٨٠٧ م) :

ركب القابجى من بولاق بالموكب ، وشق من وسط المدينة ، وذهب الى بيت الباشا . وضربوا لقدومه مدافع من القلعة .

الاربعاء ٢٧ منه (٣٠ سبتمبر ١٨٠٧ م) :

ولد لمحمد على باشا مولود من حظيته . وحضر المبشرون بنزول الانكليز من الاسكندرية ، ودخول الباشا بهـا . فعملوا شنكا ، وضربوا مدافع من القلعـة ثلاثة أيام ، فى الأوقات الخمسة ، آخرها السبت .

الخميس والجمعة والسبت ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ منه (١ ، ٢ ، ٣ اكتوبر ١٨٠٧ م) :

وصلت عساكر كثيرة ، ودخلوا المدينة ، وطلبوا سكنى البيوت ، وأزعجوا الناس ، وأخرجوهم من أوطانهم وضجت الخلائق ، وحضر الكثير الى السيد عمر والمشايخ .. فكتبوا عرضا فى شأن ذلك وأرسلوه الى كتخدا بيك . فأظهر الاهتمام ، وأحضر طائفة من كبار العسكر وكلمهم فى ذلك ، وقال لهم : « كل من كان ساكنا قبل الخروج الى العرضى فى دار فليرجع اليها ويسكنها . ولا تعارضوا الناس فى مساكنهم » . فلم يفد كلامه فى ذلك شيئا . لأن البيوت التى كانوا بها أخربوها وحرقوا أخشابها ، وتركوها كيمانا .. وذلك دأبهم !

شعبان

٣ منه (٦ اكتوبر ١٨٠٧ م) :

وصل الباشا الى سـاحل بولاق . فضربوا لقدومه مدافع من القلعة ، وعملوا له شنكا ثلاثة أيام .

واتفق أن الباشـا — فى حال رجـوعه من الاسكندرية — نزل فى سفينة صغيرة ، وصحبته : حسن باشا طاهر ، وسليمان أغا ، الوكيل سابقا ، فانقلبت بهم ، وأشرف ثلاثتهم على الغرق ، وتعلق بعضهم بحرف السفينة . فلحقتهم مركب أخـرى أنقذتهم من الغرق ، وطلعوا سـالمين .. وكان ذلك عند زفيتة .

وفيه : كتبوا أوراق البشارة بذهاب الانكليز وسفرهم من الاسكندرية ، وأرسلوها الى البلاد والقرى .. وعليها حق الطريق : أربعة آلاف وألفين فضـة .

وصورة ما حصل : أنه لما وصل الباشـا الى ناحية الاسكندرية ، راسل الانكليز ، وحضر اليه أنفار منهم ، واختلى معهم . ولم يعلم أحد ما دار بينهم من الكلام . وذهبوا من عنـده ، وأشـيع الصلح . وفرحت العسكر ، لأنهم لما رأوا صورة المتاريس والطوابى والخنادق ، وجرى الميـاه بين ذلك بالأوضاع المتقنة .. هالهم ذلك .

ثم حضر من عظمائهم أشـخاص . ولمـا علم الباشا بوصولهم ، رتب العسـاكر ، ونظم ديوانا وهيأه ، وأوقف العسـاكر صفوفا يمنـة ويسرة . وعندما وصلوا ضربوا لهم مدافع كثيرة وشنكا ، وقدم لهم خيولا وهدايا وأقمشة هنـدية ، وخلع عليهم خلعا وشيلانا كشميرية وغير ذلك . ثم ركب معهم فى قلة الى حيث منزلة صـارى عسـكرهم وكبيرهم .. فتلاقى معهم ، وقدم له الآخر هـدايا وظرائف . ثم ركب معه الى الاسكندرية ، وتسلم القلعة . وذلك بعد دخول كتخدا بيك بخمسة أيام . وكان فى أسرى الانكليز أنفـار من عظمائهم . فأحضرهم الباشا مع باقى الأسرى ، وتم الصلح على رد المذكورين .. على أنهم لم يأتوا طمعا فى البلاد كما تقدم .

ولمـا نزلوا بالمراكب لم يبعدوا عن الثغـر الا مسـافة قليلة ، واستمروا يقطعـون على المراكب

الواردين على الثغور .. وذلك لما بينهم وبين العثمانى من المفاقمة

هذا ما كان من أمر الانكليز .

وأما العساكر ، فانهم أفحشوا فى التعدى على النـاس ، وغصب البيوت من أصحابها ، فتـأتى الطائفة منهم الى الدار المسكونة ، ويدخلونها من غير احتشام ولا اذن ، ويهجمون على سكن الحرم بحجة أنهم يتفرجون على أعالى الدار .. فتصرخ النسـاء . ويجتمع أهل الخطة ويكلمونهم ، فلا يلتفتون اليهم . فيعالجونهم مرة بالملاطفة ، وأخرى بكثرة الجمع .. ان كان بهم قوة ، أو بمعونة ذى مقدرة .

واذا انفصـلوا .. فلا يخرجون من الدار الا بمصلحة أو هدية لهـا قدر ، ويشترطون فى ذلك الشيلان الكشميرى . فاذا أحضروا لهم مطلوبهم ، فلا يعجب كبيرهم ، ويطلب خلافه أحمر أو أصفر .

واتفق أن بعضهم دخل عليه بمباشا بجماعته ، فلم يزل به حتى صالحه على شال يأخذه ويترك له داره . فأتاه بشال أصفر . فأظهر أنه لا يريد الا الأحمر الدودة .. فلم يسعه الا الرضى ، وأراد أن يرد الأصفر ويأتيه بالأحمر . فحجزه وقال : « دعه حتى تأتى بالأحمر ، فأختار منهما الذى يعجبنى » . فلما أتاه بالأحمر ضمه الى الأصفر ، وأخذ الاثنين ثم انصرف عنـه ! وذلك خلاف ما يأخذونه من الدراهم .

فاذا انصرفوا ، وظن صاحب الدار أنهم انجلوا عنه .. فيأتيه بعد يومين أو ثلاثة خلافهم . ويقع فى ورطة أخرى مثل الأولى أو أخف أو أعظم منها .

وبعضهم يدخل الدار ويسكنها بالتحيل والملاطفة مع صاحب الدار فيقول له : « ياأخى .. ياحبيبى.. أنا معى ثلاثة أنفـار أو أربعـة لا غير ، ونحـن مسافرون بعد عشرة أيام . والقصد أن تفسح لنـا تقيم فى محل الرجال . وأنت بحريمك فى مكانهم أعلى الدار » . فيظن صدقهم ، ويرضى بذلك على تخوف وكره . فيعبرون ويجلسون ، كما قالوا ، فى محـل الرجال ، ويربطون خيولهم فى الحوش ، ويعلقون أسلحتهم ، ويقولون : « نحن صرنا ضـيوفك » . فاذا أراد أن يرفع فرش المكان .. يقولون : « نحن نجلس على الحصير والبلاط ! وأى شىء يصيب الفرش ؟ » . فيتركه حياء وقهرا . ثم يطلبون الطعام والشراب .. فما يسعه الا أن يتكلف لهم ذلك فى أوقاته . ويستعملون الأوانى ويطلبون ما يحتاجون اليه .. مثل الطشت والأبريق وغير ذلك . ثم تأتيهم رفقاؤهم شيئـا فشيئـا ، ويدخلون ويخرجون وبأيديهم الأسلحة ، ويضيق عليهم المكان فيقولون لصاحب المكان : « اخل لنا محلا آخر فى الدار فوق لرفقائنا » . فان قال : ليس عندنا محل آخر ، أو قصر فى مطلوب ، ابتدأوه بالقسوة ، فعند ذلك يعلم صاحب الدار أنهم لا انفكاك لهم عن المكان .

وربما مضت العشرة أيام أو أقل أو أكثر ، وظهرت قبائحهم ، وقذروا المكان ، وحرقوا البسط والحصر — بما يتساقط عليها من الجمـر — من شربهم النارجيلات والتنبـاك والدخان ، وشربوا الشراب ، وعربدوا وصرخوا وصفقوا ، وغنـوا بلغاتهم المختلفة ، وفقعت رائحة العرقى فى المنزل . فيضيق صدر الرجل وصدر أهل بيته ، ويطيب خاطرهم على الخروج والنقلة .. فيطلبون لأنفسهم مسكنا ، ولو مشتركا ، عند أقاربهم أو معارفهم . وتخرج النساء فى غفلة بثيابهن وما يمكنهن حمله . ثم يشرعون فى اخراج المتاع والأوانى والنحاس والفرش . فيحجزونه منهم ويقولون : « اذا أخذتم ذلك ... فعلى أى شىء نجلس ؟ وفى أى شىء نطبخ .. وليس معنا فرش ولا نحاس ، والذى كان معنا استهلك منا فى السفر والجهاد ، ودفع الكفار

عنكم .. وأنتم مستريحون فى بيوتكم وعند حريمكم ؟ » فيقع النزاع ، وينفصل الأمر بينهم وبين صاحب الدار .. اما بترك الدار بما فيها ، أو بالمقاسمة والمصالحة بالترجى والوسائط ونحو ذلك !

وهذا الأمر يقع لأعيان الناس ، والمقيمين بالبلدة من الأمراء والأجناد المصريين وأتباعهم ، ونحوهم .

ثم انهم تعدوا الى الحارات والنواحى التى لم يتقدم لهم السكنى بها قبل ذلك ، مثل : نواحى المشهد الحسينى ، وخلف الجامع المؤيدى ، والخرنفش ، والجمالية ... حتى ضاقت المساكن بالناس لقلتها ، وصار بعض المحتشمين ، اذا سكن بجواره عسكر ، يرتحل من داره — ولو كانت ملكه — بعدا من جوارهم ، وخوفا من شرهم وتسلقهم على الدار ، لأنهم يصعدون على الأسطح والحيطان ، ويتطلعون على من بجوارهم ، ويرمون بالبندقيات والطبنجات .

ومما اتفق أن كبيرا منهم دخل بطائفته الى منزل بعض الفقهاء المعتبرين ، وأمره بالخروج منها ليسكن هو بها ، فأخبره أنه من مشايخ العلم .. فلم يلتفت لقوله فتركه ولبس عمامته ، وركب بغلته ، وحضر الى اخوانه المشايخ واستغاث بهم . فركب معه جماعة منهم ، وذهبوا الى الدار ، ودخلوا اليها راكبين بغالهم .

فعندما شاهدهم العسكر ، وهم واصلون فى كبكبة ، أخذوا أسلحتهم ، وسحبوا عليهم السيوف فرجع البعض هاربا ، وثبت الباقون ، ونزلوا عن بغالهم ، وخاطبوا كبيرهم ، وعرفوه أنها دار العالم الكبير ، وهذا لا يناسب ، وأن النصارى واليهود يكرمون قسسهم ورهبانهم وأنتم أولى بذلك لأنكم مسلمون .

فقالوا لهم فى الجواب : « أنتم لستم بمسلمين ، لأنكم كنتم تتمنون تملك النصارى لبلادكم ، وتقولون أنهم خير منا . ونحن مسلمون ومجاهدون ... طردنا النصارى ، وأخرجناهم من البلاد فنحن أحق بالدور منكم » ! ونحو ذلك من القول الشنيع .

ثم لم يزالوا فى معالجتهم الى ثانى يوم . ولم ينصرفوا عن الدار حتى دفعوا لهم مائتى قرش ، وشال كشمير لكبيرهم .

وفعل مثل ذلك بعدة بيوت ... دخلها على هذه الصورة ، وأخذ منها أكثر من ذلك ومنها دار اسماعيل أفندى صاحب العيار بالضربخانة ، وهو رجل معتبر ، أخذ منه خمسمائة قرش وشال كشمير .

وفعل مثل ذلك بغيرهم . هو وأمثاله

ولما أكثر الناس من التشكى للباشا وللكتخدا .. قال الكتخدا : « أناس قاتلوا وجاهدوا أشهرا وأياما ، وقاسوا ما قاسوه فى الحر والبرد والطل حتى طردوا عنكم الكفار ، وأجلوهم عن بلادكم .. أفلا تسعونهم فى السكنى ؟ » ونحو ذلك من القول !

ولما انقضى هذا الأمر ، واستقر الباشا ، واطمأن خاطره ، وخلص له الاقليم المصرى ، وثغر الاسكندرية — الذى كان خارجا عن حكمه حتى قبل مجىء الانكليز ... فان الاسكندرية كانت خارجة عن حكمه فلما حصل مجىء الانكليز وخروجهم ، صار الثغر فى حكمه أيضا — فأول ما بدأ به : أنه أبطل مسموح المشايخ والفقهاء ومعافى البلاد التى التزموا بها .. لأنه لما ابتدع المغارم والشهريات والفرض التى فرضها على القرى ومظالم الكشوفية ، جعل ذلك عاما على جميع الالتزامات والحصص التى بأيدى جميع الناس — حتى أكابر العسكر وأصاغرهم — ما عدا البلاد والحصص التى للمشايخ .. خارجة عن ذلك ،

ولا يؤخذ منها نصف الفائظ ولا ثلثه ولا ربعه ، وكذلك من ينتسب لهم أو يحتمي فيهم ، ويأخذون الجعالات والهدايا من أصحابها ، ومن فلاحيهم تحت حمايتها ونظير صيانتها .

واغتروا بذلك ، واعتقدوا دوامه ، وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين بدون القيمة ، وافتتنوا بالدنيا ، وهجروا مذاكرة المسائل ، ومدارسة العلم .. الا بمقدار حفظ الناموس ، مع ترك العمل بالكلية !

وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الألوف الأقدمين ، واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان ، وأجروا الحبس والتعزير ، والضرب بالفلقة والكرابيج المعروفة « بـ ... الفيل ! » واستخدموا كتبة الأقباط ، وقطاع الجرائم في الارساليات للبلاد ، وقدروا حق طرق لأتباعهم ، وصارت لهم استعجالات ، وتحذيرات والنذارات عن تأخر المطلوب .. مع عدم سماع شكاوى الفلاحين ، ومخاصمتهم القديمة مع بعضهم .. بموجبات التحاسد والكراهية ، المجبولة والمركوزة في طباعهم الخبيثة .

وانقلب الوضع فيهم بضده ، وصار ديدنهم واجتماعهم : ذكر الأمور الدنيوية ، والحصص والالتزام ، وحساب الميرى ، والفائظ والمضاف ، والرماية والمرافعات ، والمراسلات والتشكى ، والتناجى مع الأقباط ، واستدعاء عظمائهم فى جمعياتهم وولائمهم ، والاعتناء بشأنهم ، والتفاخر بترددهم والترداد عليهم ، والمهاداة فيما بينهم .. الى غير ذلك مما يطول شرحه .

وأوقع مع ذلك زيادة عما هو بينهم من التنافر ، والتحاسد ، والتحاقد على الرياسة ، والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور ، وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية .. مع ما جبلوا عليه من الشح والشكوى ، والاستجداء ، وفراغ الأعين ، والتطلع للأكل فى ولائم الأغنياء والفقراء ، والمعاتبة عليها .. ان لم يدعوا اليها ، والتعريض بالطلب ، واظهار الاحتياج لكثرة العيال والأتباع واتساع الدائرة ، وارتكابهم الأمور المخلة بالمروءة ، المسقطة للعدالة : كالاجتماع فى سماع الملاهى والأغانى والقيان والآلات المطربة ، واعطاء الجوائز والنقوط بمناداة الخلبوص وقوله : « واعلاماه ! » فى السامر ، وهو يقول فى سامر الجمع بمسمع من النساء والرجال من عوام الناس وخواصهم ، برفع الصوت الذى يسمعه القاصى والدانى ، وهو يخاطب رئيسة المغانى : « يا ستى ! حضرة شيخ الاسلام والمسلمين .. مفيد الطالبين : الشيخ العلامة فلان .. منه كذا .. وكذا » من النصفيات الذهب : قدر مسماه كثير ، وجرمه قليل .. نتيجته التفاخر الكذب ، والازدراء بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس الذين اقتدوا بهم فى فعل المحرمات الواجب عليهم النهى عنها كل ذلك من غير احتشام ولا مبالاة ، مع التضاحك والقهقهة المسموعة من البعد فى كل مجمع ، ومواظبتهم على الهزليات والمضحكات وألفاظ الكناية المعبر عنها عند أولاد البلد بالأنقاط والتنافس فى الأحداث ... الى غير ذلك .

وفيه : فتحوا الطلب من الملتزمين ببواقى الميرى على أربع سنوات ماضية .

١٠ منه (١٣ اكتوبر ١٨٠٧ م) :

فتحوا أيضا دفاتر الطلب بميرى السنة المقابلة. ووجهوا الطلب بها الى العسكر فدهى الناس بدواه متوالية . منها : خراب القرى بتوالى المظالم والمغارم والكلف ، وحق الطرق والاستعجالات ، والتساويف والبشارات . فكان أهل القرية النازل بها ذلك ، ينتقلون الى القرية المحمية لشيخ من الأشياخ ... وقد بطلت الحماية أيضا حينئذ ثم

أنزلوا بالبنادر مغارم عظيمة لها قدر من الأكياس الكثيرة ، وذلك عقب فرضة البشارة ، مثل دمياط ورشيد والمحلة والمنصورة : مائة كيس ، وخمسون كيسا ، ومائة وخمسون ... وأكثر وأقل.

وفى أثناء ذلك : قرروا أيضا فرضة غلال وسمن وشعير وفول على البلاد والقرى . وان لم يجد المعينون للطلب شيئا من الدراهم عند الفلاحين ، أخذوا مواشيهم وأبقارهم لتأتى أربابها ويدفعوا ما تقرر عليهم ويأخذوها ، وبتركونها بالجوع والعطش ، فعند ذلك يبيعونها على الجزارين ، ويرمونها عليهم قهرا بأقصى القيمة ، ويلزمونهم باحضار الثمن ... فان تراخوا وعجزوا ، شددوا عليهم بالحبس والضرب .

١٣ منه (١٦ اكتوبر ١٨٠٧ م) :

مر الباشا فى ناحية سويقة العزى سائرا الى ناحية بيت بلغيا ، وهناك المكتب فوق السبيل الذى بين الطريقين تجاه من ياتى من تلك الناحية ، فطلع الى ذلك المكتب شخصان من العسكر يرصدان الباشا فى مروره . فحينما آتى مقابلا لذلك المكتب ، أطلقا فى وجهه برودتين فأخطأتاه ، وأصابت احدى الرصاصتين فرس فارس من الملازمين حوله فسقط . ونزل الباشا عن جواده على مصطبة حانوت مغلوقة ، وأمر الخدم باحضار الكامنين بذلك المكتب . فطلعوا اليهما وقبضوا عليهما . ثم حضر كبيرهم من دار قريبة من ذلك المكان ، واعتذر الى الباشا بأنهما مجنونان وسكرانان ، فأمره باخراجهما ونفيهما من مصر . وركب وذهب الى داره .

٢٣ منه (٢٦ اكتوبر ١٨٠٧ م) :

اجتمع عسكر الأرنؤود والترك على بيت محمدعلى باشا وطلبوا علائفهم ، فوعدهم بالدفع ، فقالوا : « لا نصبر » ، وضربوا بنادق كثيرة ، ولم يزالوا واقفين ، ثم انصرفوا وتفرقوا .

وارتجت البلد ، وأرسل السيد عمر الى أهل الغورية والعقادين والأسواق يأمرهم برفع بضائعهم من الحوانيت . ففعلوا وأغلقوها .

فلما كان قبيل الغروب ، وصل الى بيت الباشا طائفة الدلاتية ، وضربوا أيضا بنادق . فضرب عليهم عسكر الباشا كذلك . فقتل من الدلاة أربعة أنفار ، وانجرح بعضهم ، فانكفوا ورجعوا .

وبات الناس متخوفين ، وخصوصا نواحى الأزهر ، وأغلقوا البوابات من بعد الغروب ، وسهروا خلفها بالأسلحة ... ولم تفتح الا بعد طلوع الشمس .

٢٤ منه (٢٧ اكتوبر ١٨٠٧ م) :

أصبح .. والحال على ما هو عليه من الاضطراب. ونقل الباشا أمتعته الثمينة تلك الليلة الى القلعة ، وكذلك فى ثانى يوم .

ثم انه طلع الى القلعة فى ليلتها ، وشيعه حسن باشا الى القلعة ورجع الى داره . ويقال ان طائفة من العسكر الذين معه بالدار ، أرادوا غدره تلك الليلة ، وعلم ذلك منهم باشارة بعضهم لبعض رمزا . فغالطهم وخرج مستخفيا من البيت ، ولم يعلم بخروجه الا بعض خواصه الملازمين له ، وأكثرهم أقاربه وبلدياته .

ولما تحققوا خروجه من الدار ، وطلوعه الى القلعة ... صرف بونابارته الخازندار الحاضرين فى الحال ، ونقل الأمتعة والخزينة فى الحال ، وكذلك الخيول والسروج . وخرجت عساكره يحملون ما بقى من المتاع والفرش والأوانى الى القلعة .

وأشيع فى البلدة أن العساكر نهبوا بيت الباشا ، وزاد اللغط والاضطراب . ولم يعلم أحد من الناس

حقيقة الحال حتى ولا كبار العسكر . وزاد تخوف الناس من العسكر . وحصل منهم عربدات وخطف عمائم وثياب وقتل أشخاص .

٢٦ منه (٢٩ أكتوبر ١٨٠٧ م) :

أصبح وباب القلعة مفتوح ، والعساكر مرابطون به ، وواقفون بأسلحتهم .

وطلع أفراد من كبار العسكر بدون طوائفهم ونزلوا . واستمر الحال على ذلك يوم الجمعة .. والعسكر والناس فى اضطراب ، وكل طائفة متخوفة من الأخرى ، والأرنؤود فرقتان : فرقة تميل الى الأتراك ، وفرقة تميل الى جنسها . والدلاة تميل الى الأتراك وتكره الأرنؤود .. وهم كذلك . والناس متخوفة من الجميع . ومنهم من يخشى من قيام الرعية ، ويظهر التودد لهم . وقد صاروا مختلطين بهم فى المساكن والحارات وتأهلوا وتزوجوا منهم .

٢٨ منه (٣١ أكتوبر ١٨٠٧ م) :

طلع طائفة من المشايخ الى القلعة ، وتكلموا وتشاوروا فى تسكين هذا الحال بأى وجه كان . ثم نزلوا .

٢٩ منه (أول نوفمبر ١٨٠٧ م) :

كانت رؤية هلال رمضان . فلم يعمل الموسم المعتاد وهو الاجتماع ببيت القاضى ، وما يعمل به من الحراقة والنفوط والشنك ، وركوب المحتسب ومشايخ الحرف ، والزمور والطبول ، واجتماع الناس للفرجة بالأسواق والشوارع وبيت القاضى . فبطل ذلك كله . ولم تثبت الرؤية تلك الليلة .

وأصبح يوم الأحد .. والناس مفطرون . فلما كان وقت الضحوة نودى بالامساك ، ولم تعلم الكيفية !

رمضـــان

الاثنين غرته (٢ نوفمبر ١٨٠٧ م) :

فى ليلته ، بين العصر والمغرب ، ضربوا مدافع كثيرة من القلعة . وأردفوا ذلك بالبنادق الكثيرة المتتابعة . وكذلك العسكر الكائنون بالبلدة فعلوا كفعلهم من كل ناحية ومن أسطحة الدور والمساكن — وكان شيئا هائلا — واستمر ذلك الى بعد الغروب . وذلك شنك لقدوم رمضان ، فى دخوله وانقضائه .

الخميس ٤ منه (٥ نوفمبر ١٨٠٧ م) :

انكشفت القضية عن طلب مبلغ ألفى كيس بعد جمعيات ومشاورات : تارة ببيت السيد عمر النقيب ، وتارة فى أمكنة أخرى ، كبيت السيد المحروقى وخلافه ، حتى رتبوا ذلك ونظموه ... فوزع منه جانب على رجال دائرة الباشا ، وجانب على المشايخ الملتزمين نظير مسموحهم فى فرض حصصهم التى أكلوها — وهى مبلغ مائتى كيس — وزعت على القراريط : على كل قيراط ثلاثة آلاف نصف فضة على سبيل القرض ، لأجل أن ترد أو تحسب لهم فى الكشوفات من رفع المظالم ومال الجهاد .. يأخذونها من فلاحيهم . وفرض من ذلك مبالغ على أرباب الحرف ، وأهل الغورية ، ووكالة الصابون ، ووكالة القرب ، والتجار الآفاقية .

واستقر ديوان الطلب ببيت ابن الصاوى بما يتعلق بالفقهاء ، واسماعيل الطوبجى بالمطلوب من طائفة الأتراك وأهل خان الخليلى .. والمرجع فى الطلب والدفع والرفع الى السيد عمر النقيب .

واجتمع الكثير من أهل الحرف ، كالصرماتية وأمثالهم ، والتجأوا الى الجامع الأزهر ، وأقاموا به ليالى وأياما فلم ينفعهم ذلك .

وانبث المعينون بالطلب ، وبأيديهم الأوراق بمقدار المبلغ المطلوب من الشخص ، وعليها حق الطريق ، وهم : قواسة أتراك ، وعسكر ، ودلاة ، وقواسة بلدى .

ودهى الناس بهذه الداهية فى الشهر المبارك . فيكون الانسان نائما فى بيته ، ومتفكرا فى قوت عياله .. فيدهمه الطلب ، ويأتيه المعين قبل الشروق ، فيزعجه ويصرخ عليه ، بل ويطلع الى جهة حريمه فينتبه كالمفلوج من غير اصطباح ، ويلاطف المعين ، ويوعده ويأخذ بخاطره ، ويدفع له كراء طريقه المرسوم له فى الورقة المعين بها المبلغ المطلوب قبل كل شىء . فما يفارقه .. الا ومعين آخر واصل اليه على النسق المتقدم ، وهكذا !

وفيه : حضر محمد كتخدا شاهين بيك الألفى بجواب عن مراسلة أرسلها الباشا الى مخدومه . فأقام أياما يتشاور مع الباشا فى مصالحته مع شاهين بيك . وحصل الاتفاق على حضور شاهين بيك الى الجيزة ، وتراضى مع الباشا على أمر ، وسافر فى ثانى عشره ، وصحبته صالح أغا السلحدار .

الخميس ١٨ منه (١٩ نوفمبر ١٨٠٧ م) :

قصد الباشا نفى رجب أغا الأرنؤودى . وأرسل اليه يأمره بالخروج والسفر بعد أن قطع خرجه وأعطاه علوفته . فامتنع من الخروج ، وقال : « أنا لى عنده خمسون كيسا ولا أسافر حتى أقبضها » .

وذلك أنه فى حياة الألفى الكبير اتفق مع الباشا بأن يذهب عند الألفى ، وينضم اليه ، ويتحيل فى اغتياله وقتله . فان فعل ذلك وقتله ، وتمت حيلته عليه ... أعطاه خمسين كيسا . فذهب عند الألفى ، والتجأ اليه ، وأظهر أنه راغب فى خدمته ، وكره الباشا وظلمه . فرحب به وقبله ، وأكرمه مع التحذر منه . فلما طال به الأمد ، ولم يتمكن من قصده .. رجع الى الباشا . فلما أمره بالذهاب ، أخذ يطالبه بالخمسين كيسا . فامتنع الباشا ، وقال : « جعلت له ذلك فى نظير شىء يفعله ، ولم يخرج من يده فعله ، فلا وجه لمطالبته به » . واستمر رجب أغا فى عناده .. وذلك أنه لا يهون بهم مفارقة مصر التى صاروا فيها أمراء وآكابر ، بعد أن كانوا يحتطبون فى بلادهم ، ويتكسبون بالصنائع الدنيئة .

ثم انه جمع جيشه اليه من الأرنؤود بناحية سكنه — وهو بيت حسن كتخدا الجربان بباب اللوق — فأرسل اليه الباشا من يحاربه ، فحضر حسن أغا سرششمة من ناحية قنطرة باب الخرق ، وحضر أيضا الجم الكثير من الأتراك وكبرائهم من جهة المدابغ . وعمل كل منهم متاريس من الجهتين ، وتقدموا قليلا حتى قربوا من مساكن الأرنؤود تجاه بيت البارودى . فلم يتجاسروا على الاقدام عليهم من الطريق ، بل دخلوا من البيوت التى فى صفهم ، ونقبوا من بيت الى آخر حتى انتهوا الى أول منزل من مساكنهم ، فنقبوا البيت الذى يسكن به الشيخ محمد سعد البكرى ، ونفذوا منه الى المنزل الذى بجواره ، ثم منه الى منزل على أغا الشعراوى ، ثم الى بيت سيدى محمد وأخيه سيدى محمود ، المعروف بأبى دفية ، الملاصق لمسكن طائفة من الأرنؤود .

وعبثوا فى الدور ، وأزعجوا أهلها بقبيح أفعالهم .. فانهم عندما يدخلون فى أول بيت يصعدون الى الحريم بصورة منكرة ، من غير دستور ولا استئذان ، وينقبون من مساكن الحريم العليا ، فيهدمون الحائط ، ويدخلون منها الى محل حريم الدار الأخرى . وتصعد طائفة منهم الى السطح .. وهم يرمون بالبنادق فى الهواء فى حال مشيهم وسيرهم وهكذا !

ولا يخفى ما يحصل للنساء من الانزعاج ، ويصرن يصرخن ويصحن بأطفالهن ، ويهربن الى الحارات الأخرى ، مثل : حارة قواديس ، وناحية حارة عابدين — بظاهر الدور المذكورة — بغاية الخوف والرعب والمشقة .

وطفقت العساكر تنهب الأمتعة والثياب والفرش ، ويكسرون الصناديق ، ويأخذون مافيها ، ويأكلون ما فى القدور من الأطعمة فى نهار رمضان ... من غير احتشام !

ولقد شاهدت أثر قبيح فعلهم ببيت أبى دفية المذكور : من الصناديق المكسرة ، وانتشار حشو الوسائد والمراتب التى فتقوها وأخذوا ظروفها ، ولم يسلم لأصحاب المساكن سوى ما كان لهم خارج دورهم وبعيدا عنها ، أو وزعوه قبل الحادثة . وأصيب محمد أفندى أبو دفية برصاصة أطلقها بعضهم من النقب الذى نقب عليهم نفذت من كتفه . وكذلك فعل العساكر التى أتت من ناحية المدابغ بالبيوت الأخرى . واستمروا على هذه الأفعال ثلاثة أيام بلياليها .

الاثنين ٢٢ منه (٢٣ نوفمبر ١٨٠٧ م) :

حضر فى ليلته عمر بيك كبير الأرنؤود ، الساكن ببولاق ، وصالح قوج ، الى رجب أغا المذكور ، وأركباه وأخذاه الي بولاق . وبطل الحرب بينهم ، ورفعوا المتاريس فى صبحها وانكشفت الواقعة عن نهب البيوت ونقبها وازعاج أهلها . ومات فيما بينهم أنفار قليلة . وكذلك مات أناس وانجرح أناس من أهل البلد .

الخميس ٢٥ منه (٢٦ نوفمبر ١٨٠٧ م) :

سافر رجب أغا ، وتخلف عنه كثير من عساكره وأتباعه ، وذهب من ناحية دمياط .

وفيه : حضر ديوان أفندى من دهشور وابن الباشا أيضا . وخلع شاهين بيك على ابن الباشا فروة ، وقدم له تقدمة وسلاحا نفيسا انكليزيا .

السبت ٢٧ منه (٢٨ نوفمبر ١٨٠٧ م) :

وصل شاهين بيك الألفى الى دهشور ، ووصل صحبته مراكب بها سفار وهدية من ابراهيم بيك ومحمد بيك المرادى ، المعروف بالمنفوخ ، برسم الباشا .. وهى نحو الثلاثين حصانا ، ومائة قنطار بن قهوة ، ومائة قنطار سكر ، وأربعة خصيان ، وعشرون جارية سوداء . فلما وصل شاهين بيك الى دهشور ، حضر محمد كتخداه وعلى كاشف الكبير . فأرسل الباشا اليه صحبتهما هدية ومعهما ولده وديوان أفندى .

الاحد ٢٨ منه (٢٩ نوفمبر ١٨٠٧ م) :

وصل شاهين بيك الى شبرامنت ... وقد أمر الباشا بأن يخلوا له الجيزة ، وينتقل منها الكاشف والعسكر . فعدى الجميع الى البر الشرقى ، وتسلم على كاشف الكبير الألفي القصر وما حوله وما به من الجبخانة والمدافع وآلات الحرب وغيرها .

شـوال

غرته (٢ ديسمبر ١٨٠٧ م) :

لم يعمل العسكر شنكهم تلك الليلة ، من رميهم بالرصاص والبارود الكثير المزعج من سائر النواحى والبيوت والأسلحة ، لانقباض نفوسهم ، وانما ضربوا مدافع من القلعة مدة ثلاثة أيام العيد فى الأوقات الخمسة .

٥ منه (٦ ديسمبر ١٨٠٧ م) :

اعتنى الباشا بتعمير القصر لسكن شاهين بيك بالجيزة .. وكان العسكر أخربوه . وكذلك بيوت الجيزة ، ولم يتركوا بها دارا عامرة الا القليل . فرسم الباشا للمعمارجية بعمارة القصر . فجمعوا

البنائين والنجارين والخراطين ، وحملوا الأخشاب من بولاق وغيرها ، وهدموا بيت أبي الشوارب ، وأحضروا الجمال والحمير لنقل أخشابه وأنقاضه ، وأخرجوا منه أخشابا عظيمة فى غاية العظم والثخن ليس لها نظير فى هذا الوقت والأوان .

٧ منه (٨ ديسمبر ١٨٠٧ م) :

حضر شاهين بيك الى بر الجيزة وبات بالقصر . وضربوا لقدومه مدافع كثيرة من الجيزة وعمل له على جربجي موسى الجيزاوى وليمة ، وفرض مصروفها وكلفتها على أهل البلدة ! وأعطاه الباشا اقليم الفيوم بتمامه التزاما وكشوفية ، وأطلق له فيها التصرف ، وأنعم عليه أيضا بثلاثين بلدة من اقليم البهنسا مع كشوفيتها ، وعشرة بلاد من بلاد الجيزة من البلاد التى ينتقيها ويختارها وتعجبه مع كشوفية الجيزة وكتب له بذلك تقاسيط ديوانية ، وضم له كشوفية البحيرة بتمامها الى حد الاسكندرية ، وأطلق له التصرف فى جميع ذلك .. ومرسوماته نافذة فى سائر البر الغربى .

٩ منه (١٠ ديسمبر ١٨٠٧ م) :

ركب السيد عمر أفندى النقيب والمشايخ . وطلعوا الى القلعة باستدعاء ارسالية أرسلت اليهم فى تلك الليلة . فلما طلعوا الى القلعة ، ركب معهم ابن الباشا طوسون بيك . ونزل الجميع ، وساروا الى ناحية مصر القديمة .

وكان شاهين بيك عدى الى البر الشرقى ، بطائفة من الكشاف والمماليك والهوارة ، فسلموا عليه . وكان بصحبتهم طائفة من الدلاة ، ساروا أمام القوم بطبلاتهم وسفافيرهم ، ومن خلفهم طائفة من الهوارة ، ومن خلفهم الكشاف والمماليك ، والسيد عمر النقيب والمشايخ .. ثم شاهين بيك ، وبجانبه ابن الباشا ، وخلفهم الطوائف والأتباع والخدم ، وخلفهم النقاقير . فساروا الى ناحية جهة القرافة ، وزاروا ضريح الامام الشافعى . ثم ركبوا وساروا الى القلعة ، وطلعوا من باب العزب الى سراية الديوان . وانفصل عنهم المشايخ ، ونزلوا الى دورهم وقابلوا الباشا ، وسلم شاهين بيك عليه . فخلع عليه الباشا فروة سمور مثمنة وسيفاً وخنجرا مجوهرا وتعابى ، وقدم له خيولا بسروجها وعزم عليه ابن الباشا ، فأذن له أن يتوجه صحبته الى سرايته ، فركب معه وتغدى عنده . ثم ركب بصحبته ، ونزلا من القلعة ، وذهب عند حسن باشا ، فقابله أيضا ، وسلم عليه ، وخلع عليه أيضا ، وقدم له خيولا وركب صحبتهما وذهبوا عند طاهر باشا ابن اخت الباشا . فسلم عليه أيضا وقدم له تقادم . ثم ركب عائدا الى الجيزة ، وذهب الى مخيمه بشبرامنت ، واستمر مقيما بالمخيم حتى تم عمارة القصر وتردد كشافهم وأجنادهم الى بيوتهم بالمدينة ، فيبيتون الليلة والليلتين ويرجعون الى مخيمهم

وفيه : قطع الباشا رواتب طوائف من الدلاة وأمروا بالسفر الى بلادهم .

١١ منه (١٢ ديسمبر ١٨٠٧ م) :

انتقل الألفية بعرضيهم وخيامهم الى بحرى الجيزة

١٢ منه (١٣ ديسمبر ١٨٠٧ م) :

وصل أربعة من صناجق الألفية ، وهم : أحمد بيك ، ونعمان بيك ، وحسين بيك ، ومراد بيك فطلعوا الى القلعة ، وخلع عليهم الباشا فراوى ، وقلدهم سيوفا ، وقدم لهم تقادم . ثم نزلوا الى حسن باشا فسلموا عليه ، وخلع عليهم أيضا خلعا . ثم ذهبوا الى بيت صالح آغا السلحدار ، فأقاموا عنده الى أواخر النهار ثم ذهبوا الى البيوت التى

بها حريمهم ، فباتوا بها ، وذهبوا فى الصباح الى الجيزة .

١٥ منه (١٦ ديسمبر ١٨٠٧ م) :

عملت وليمة . وعقدوا لأحمد بيك الالفى على عديلة هانم بنت ابراهيم بيك الكبير ، والوكيل فى العقد شيخ السادات ، وقبل عنه محمد كتخدا بوكالته عن أحمد بيك . ودفع الصداق الباشا من عنده ، وقدره ثمانية آلاف ريال .

وفيه : اتفقوا على ارسال نعمان بيك ، ومحمد كتخدا ، وعلى كاشف الصابونجى الى ابراهيم بيك الكبير لاجراء الصلح .

وفيه أيضا : أرادوا اجراء عقد زينب هانم ابنة ابراهيم بيك على نعمان بيك . فامتنعت . وقالت : « لا يكون ذلك الا عن اذن أبى . وها هو مسافر اليه فليستأذنه ، ولا أخالف أمره » . فأجيبت الى ذلك .

وأراد شاهين بيك أن يعقد لنفسه على زوجة حسين بيك المقتول ، المعروف بالوشاش — وهو خشداشه ... وهى ابنة السفطى — فاستأذن الباشا . فقال : « انى أريد أن أزوجك ابنتى وتكون صهرى ، وهى واصلة عن قريب ... أرسلت بحضورها من بلدى « قولة » . فان تأخرحضورها جهزت لك سرية وزوجتك اياها » .

١٦ منه (١٧ ديسمبر ١٨٠٧ م) :

نزل الباشا من القلعة ، وذهب الى مضرب النشاب ، واستدعى شاهين بيك من الجيزة ، وعمل معه ميدانا ، وترامحوا وتسابقوا ولعبوا بالرماح والسيوف . ثم طلع الجميع الى القلعة .

واستمر شاهين بيك عند الباشا الى بعد الظهر . ثم نزل مع نعمان بيك الى بيت عديلة هانم ، فمكثا الى قبيل المغرب . ثم أرسل اليهما الباشا ، فطلعا الى القلعة ، فباتا عنده ، ونزلا فى الصباح ، وعديا الى الجيزة . قال الشاعر :

أمور تضحك السفهاء منها
ويبكى من عواقبها اللبيب

وفيه : تقلد حسن أغا سرششمة امارة دمياط عوضا عن أحمد بيك . وتقلد عبد الله كاشف الدرندلى امارة المنصورة عوضا عن عزيز أغا .

٢٣ منه (٢٤ ديسمبر ١٨٠٧ م) :

وصل قابجى ومعه مرسومات : يتضمن أحدها التقرير لمحمد على باشا على ولاية مصر . وآخر بالدفتردارية باسم ولده ابراهيم . وآخر بالعفو عن جميع العسكر جزاء عن اخراجهم الانكليز من ثغر الاسكندرية . وآخر بالتأكيد فى التشهيل والسفر لمحاربة الخوارج بالحجاز ، واستخلاص الحرمين ، والوصية بالرعية والتجار ... وصحبته أيضا خلع وشلنجات . فأركبوه فى موكب فى صبح يوم الخميس ، وطلع الى القلعة . وقرئت المراسيم المذكورة بحضرة الباشا والمشايخ وكبار العسكر وشاهين بيك وخشداشينه الألفية . وضربوا مدافع وشنكا .

وفيه : سافر ابراهيم بيك ابن الباشا على طريق القليوبية ، وصحبته طائفة من مباشرى الأقباط ، وفيهم جرجس الطويل — وهو كبيرهم — وأفندية من أفندية الروزنامة ، وكتبة مسلمين للكشف على الأطيان التى رويت من ماء النيل ، والشراقى . فأنزلوا بالقرى النوازل : من الكلف ، وحق الطرقات . وقرروا على كل فدان رواه النيل أربعمائة وخمسين نصف فضة ... تقبض للديوان ، وذلك خلاف ما للملتزم والمضاف والبرانى ، وما يضاف الى ذلك من حق الطرق والكلف المتكررة !

ذو القعـــدة

فى غرته (٣١ ديسمبر ١٨٠٧ م) :

فرضـــوا على مساتير النـــاس سلف آكياس . ويحسب لهم ما يؤخذ منهم من أصل ما يتقرر على حصصهم من المغارم فى المستقبل ، وعينوا العساكر بطلبها . فتغيب غالبهم وتوارى لعدم ما بأيديهم ، وخلو أكياسهم من المال . والتجأ الكثير منهم الى ذوى الجاه ، ولازموا أعتابهم حتى شفعوا فيهم ، وكشفوا غمتهم .

١٠ منه (٩ يناير ١٨٠٨ م) :

ورد الخبر من الجهة القبلية بأن الأمراء المصريين تحاربوا مع ياسين بيك بناحية المنية — وذلك عن أمر الباشا — وهزموه فدخل الى المنية ونهبوا حملته ومتاعه وفى أثر ذلك : حضر أبو ياسين بيك الى مصر وعينت عســـاكر الى جهـــة قبلى — وأميرها بونابارته الخازندار — وتقدمهم سليمان بيك الألفى فى آخرين

٢٠ منه (١٩ يناير ١٨٠٨ م) :

تعين أيضا عدة عساكر الى ناحية بحرى — وفيهم عمر بيك تابع الأشقر المصرلى — لمحافظة رشيد ، وآخرين الى الاسكندرية . ثم تعوق عمر بيك عن السفر وسبب ذلك أنه ورد قائف الانكليز الى ثغر ســـكندرية ، وأخبر بخروج عمارة الفرنسيس الى البحر بسيسلية ، وربما اســـتولوا عليها . وكـــذلك مالطة فلما ورد هـــذا الخبر ، حضر « البطروش » ، قنصل الانجليز المقيم برشيد ، الى مصر بأهله وعياله .

اواخره (اواخر يناير ١٨٠٨ م) :

جمعوا عدة كبيرة من البنائين ، والنجارين ، وأرباب الأشـــغال .. لعمارة أســـوار وقـــلاع الاسكندرية وأبى قير والسواحل .

ذو الحجـــة

١٢ منه (١٠ فبراير ١٨٠٨ م) :

ورد الخبر بأن سليمان بيك الألفى لما وصـــل الى المنيـــة ونزل بفنائها ، خرج اليـــه ياسين بيك بجموعه وعساكره وعربانه فوقع بينهما وقعـــة عظيمة ، وانهزم ياسين بيك ، وولى هاربا الى المنية فتبعه سليمان بيك فى قلة ، وعدى الخندق خلفه ، فأصيب من كمين بداخل الخندق ، ووقع ميتا ... بعد أن نهب جميع متاع ياسين بيك وجماله وأثقاله ، وشتت جموعه ، وانحصر هو وعساكره وعربانه ، وما بقى منهم ، بداخل المنيّة . وكانت الواقعة يوم الأربعاء سادس الشهر .

فلما ورد الخبر بذلك على الباشا ، أظهر أنه اغتم على سليمان بيك ، وتأسف على موته وأقام العزاء عليه خشداشينه بالجيزة وفى بيوتهم وطفق الباشا يلوم على جراءة المصريين واقدامهم وكيف أن سليمان بيك يخاطر بنفسه ، ويلقى بنفسه من داخل الخندق ويقول : « أنا أرسلت إليه أحذره وأقول له انه ينتظر بونابارته الخازندار ، ويراسل ياسين بيك ويطلعه على ما بيده من المراسيم ، فإن أبى وخالف ما فى ضمنها فعند ذلك يجتمعون على حـــربه ، وتتقدم عســـكر الأتراك لمعرفتهم وصبرهم على محاصرة الأبنية فلم يستمع لما قلب له وأغرى بنفسه وايضا ينبغى لـــكبير الجيش التأخر عن عسكره ، فان الكبير عبارة عن المدبـــر الرئيس ، وبمصـــابه تنـــكسر قلوب قومـــه وهؤلاء القوم بخلاف ذلك ... يلقون بأنفسهم فى المهالك » .

ولما أرسل جماعة سليمان بيك يخبرون بموت كبيرهم ، وأنهم مجتمعون على حالتهم ، ومقيمون

بعرضيهم ومحطتهم على المنية ، وأنهم منتظرون من يقيمه الباشا رئيسا مكانه ... فعند ذلك أرسل الباشا الى شاهين بيك يعزيه ، ويلتمس منه أن يختار من خشداشينه من يقلده الباشا امارة سليمان بيك . فتشاور شاهين بيك مع خشداشينه ، فلم يرض أحد من الكبار أن يتقلد ذلك . ثم وقع اختيارهم على شخص من المماليك يسمى يحيى ، وأرسلوه الى الباشا . فخلع عليه ، وأمره بالسفر الى المنية . فأخذ فى قضاء أشغاله ، وعدى الى بر الجيزة .

١٥ منه (١٢ فبراير ١٨٠٨ م) :

ورد الخبر بأن بونابارته الخازندار وصل الى المنية بعد الواقعة ، وياسين بيك محصور بها ، فأرسل اليه يستدعيه الى الطاعة ، وأطلعه على المكاتبات والمراسيم التى بيده من الباشا خطابا له وللأمراء الحاضرين والغائبين المصرية . وفى ضمنها : « ان أبى ياسين بيك عن الدخول فى الطاعة ، واستمر على عناده وعصيانه .. فان بونابارته والأمراء المصرية يحاربونه » . فعند ذلك نزل ياسين بيك على حكم بونابارته . وحضر عنده ، بعد أن استوثق منه بالأمان ، ووصلت الأخبار بذلك الى مصر . وخرجت العربان المحصورون بالمنية بعد أن صالحوا على أنفسهم ، وفتحوا لهم طريقا ، وذهبوا الى أماكنهم . واستلم بونابارته المنية ، فأقام بها يومين ، وارتحل عنها وحضر الى مصر .

١٩ منه (١٧ فبراير ١٨٠٨ م) :

حضر ياسين بيك الى ثغر بولاق ، وركب فى صبحها وطلع الى القلعة . فعوقه الباشا وأراد قتله . فتعصب له عمر بيك الأرنؤودى وصالح قوج وغيرهما ، وطلعوا فى يوم الجمعة ... وقد رتب الباشا عساكره وجنده ، وأوقفهم بالأبواب الداخلة والخارجة وبين يديه . وتكلم عمر بيك وصالح آغا مع الباشا فى أمره ، وأن يقيم بمصر . فقال الباشا : « لا يمكن أن يقيم بمصر ... والساعة أقتله وأنظر أى شىء يكون » . فلم يسع المتعصبين له الا الامتثال . ثم أحضره ، وخلع عليه فروة ، وأنعم عليه بأربعين كيسا . ونزلوا بصحبته بعد الظهر الى بولاق . وسافر الى دمياط ليذهب الى قبرص ومعه محافظون .

٢٠ منه (١٨ فبراير ١٨٠٨ م) :

حضر بونابارته الخازندار من المنية الى مصر . وانقضت السنة .

* * *

وأما من مات فيها ممن له ذكر . فمات الشيخ العلامة ، بقية العلماء والفضلاء والصالحين ، الورع القانع : الشيخ أحمد بن على بن محمد بن عبد الرحمن بن علاء الدين البرماوى الذهبى الشافعى الضرير .

ولد ببلدة « برما » بالمنوفية سنة ١١٣٨ ، ونشأ بها وحفظ القرآن والمتون على الشيخ المعاصرى ، ثم انتقل الى مصر ، فجاور بالمدرسة الشيخونية بالصليبة ، وتخرج فى الحديث على الشيخ أحمد البرماوى ، وحضر دروس مشايخ الأزهر : كالشيخ محمد فارس والشيخ على قايتباى والشيخ الدفرى والشيخ سليمان الزيات والشيخ الملوى والشيخ المدابغى والشيخ الغنيمى والشيخ محمد الحفنى وأخيه الشيخ يوسف وعبد الكريم الزيات والشيخ عمر الطحلاوى والشيخ سالم النفراوى والشيخ عمر الشنوانى والشيخ أحمد رزه والشيخ سليمان البسوسى والشيخ على الصعيدى .

وأقرأ الدروس ، وأفاد الطلبة ، ولازم الاقراء . وكان منجمعا عن الناس ، قانعا راضيا بما قسم له ، لا يزاحم على الدنيا ، ولا يتداخل فى أمورها .

وأخبرنى ولده العلامة الفاضل الشيخ مصطفى : أنه ولد بصيرا ، فأصابه الجدرى ، فطمس بصره فى صغره ، فأخذه عم أبيه الشيخ صالح الذهبى ، ودعا له ، فقال فى دعائه : « اللهم كما أعميت بصره ، نور بصيرته » . فاستجاب الله دعاءه. وكان قوى الادراك ويمشى وحده من غير قائد ، ويركب من غير خادم ، ويذهب فى حوائجه المسافة البعيدة ، ويأتى الى الأزهر ولا يخطىء الطريق ، ويتنحى عما عساه يصيبه من راكب أو جمل أو حمار مقبل عليه ، أو شىء معترض فى طريقه. أقوى من ذى بصر ! فكان يضرب به المثل فى ذلك من شدة التعجب . كما قال القائل :

ما عماء العيون مثل عمى القلب فهذا هو العمى والبلاء

فعماء العيون تغميض عين وعماء القلوب فهو الشقاء

ولم يزل ملازما على حالته من الانجماع ، والاشتغال بالعلم والعمل به ، وتلاوة القرآن ، وقيام الليل فكان يقرأ كل ليلة نصف القرآن .. الى أن توفى يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول من هذه السنة ، وله من العمر أربع وثمانون سنة ، وصلى عليه بجامع طولون ، ودفن بجوار المشهد المعروف بالسيدة سكينة رضى الله عنها ، بجانب الشيخ البرماوى رحمه الله وبارك فى ولده الشيخ مصطفى ، وأعانه على وقته

* * *

ومات العمدة الفاضل ، حاوى الكمالات والفضائل الشيخ محمد بن يوسف ابن بنت الشيخ محمد بن سالم الحفناوى الشافعى

ولد سنة ١١٦٣ ، وتربى فى حجر جده ، وتخلق بأخلاقه ، وحفظ القرآن والألفية والمتون ، وحضر دروس جده وأخى جده الشيخ يوسف الحفناوى ، وحضر أشياخ الوقت : كالشيخ على العدوى والشيخ أحمد الدردير والشيخ عطية الأجهورى والشيخ عيسى البراوى وغيرهم .

وتمهر وأنجب ، وأخذ طريق الخلوتية عن جده، ولقنه الأسماء ولما توفى جده ، ألقى الدروس فى محله بالأزهر ونشأ من صغره على أحسن طريقة وعفة نفس ، وتباعد عن سفاسف الأمور الدنيوية ، ولازم الاشتغال بالعلم ، وفتح بيت جده وعمل به ميعاد الذكر كعادته

وكان عظيم النفس مع تهذيب الأخلاق والتبسط مع الاخوان والممازحة مع تجنبه ما يخل بالمروءة .

وله بعض تعليقات وحواش وشعر مناسب ولم يزل على حالته الى أن توفى يوم السبت رابع شهر ربيع الأول من السنة وصلى عليه بالأزهر فى مشهد حافل ، ودفن مع جده فى تربة واحدة بمقبرة المجاورين ولم يخلف ذكوراً. رحمه الله

* * *

ومات الشيخ العلامة المفيد ، والنحرير المجيد : محمد الحصافى الشافعى ، الفقيه النحوى الفرضى تلقى العلوم ، وحضر أشياخ الطبقة الأولى ، ودرس العلوم بالأزهر ، وأفاد الطلبة ، وقرأ الكتب المفدة ، وعاش طول عمره منعكفا فى زوايا الخمول ، منعزلا عن الدنيا ، وهى متعزلة عنه ، راضياً بما قسم الله له ، قانعا بما يسره له مولاه لا يدعى فى وليمة ، ولا ينهمك على شىء من أمور الدنيا

ولم يزل على حالته ، حتى توفى يوم الاثنين ثالث عشر شوال من السنة

* * *

ومات العمدة المفضل : الشيخ محمد عبد الفتاح المالكى ، من أهالى « كفر حشاد » بالمنوفية .

قدم من بلده صغيرا ، فجاور بالأزهر ، وحضر على أشياخ الوقت ، ولازم دروس الشيخ الأمير وبه تخرج ، وتفقه عليه وعلى غيره من علماء المالكية ، وتمهر فى المعقولات وأنجب ، وصارت له ملكة واستحضار . ثم سافر الى بلده ، وأقام بها يفيد ويفتى ، ويرجعون اليه فى قضاياهم ودعاويهم فيقضى بينهم ، ولا يقبل من أحد جعالة ولا هدية . فاشتهر ذكره بالاقليم ، واعتقدوا فيه الصلاح والعفة ، وأنه لا يقضى الا بالحق ، ولا يأخذ رشوة ولا جعالة ، ولا يحابى فى الحق . فامتثلوا لقضاياه وأوامره . فكان اذا قضى قاض من قضاة البلدان بين خصمين ، رجعا الى المترجم وأعادا عليه دعواهما فان رأى القضاء صحيحا موافقا للشرع أمضاه ، وامتثل الخصم الآخر ولا يمانع بعد ذلك أبدا ، ويذعن لما قضاه الشيخ لعلمه أنه لالغرض دنيوى . والا أخبرهم بأن الحق خلافه . فيمتثل الخصم الآخر .

ولم يزل على حالته .. حتى كان المولد المعتاد بطندتا . فذهب ابن الشيخ الأمير الى هناك ، فأتى لزيارة ابن شيخه ، ونزل فى الدار التى هو نازل فيها ، فانهدمت الجهة التى هو بها ، وسقطت عليه ، فمات شهيدا مردوما ومعه ثلاثة أنفار من أهالى قرية « العكروت » ، وذلك فى أوائل شهر الحجة . ولم يخلف بعده مثله ، رحمه الله .

* * *

ومات الأمير سعيد ، أغا دار السعادة ، العثمانى الجبشى . قدم الى مصر بعد مجىء يوسف باشا الوزير فى أهبة ، ونزل بدرب الجماميز فى البيت الذى كان نزل به شريف أفندى الدفتردار ، بعد انتقاله منه . وفتح باب التفتيش على جهات أوقاف الحرمين وغيرها .

وأخاف الناس ، وحضر اليه كتبة الأوقاف ، وجلسوا لمقارفة الناس ، والتعنت عليهم بطلب السندات ، ويهولون عليهم بالأغا المذكور ، ويأخذون منهم المصالحات ، ثم ينهون اليه الأمر على حسب أغراضهم ، ويعطونه جزءا ، ويأخذون لأنفسهم الباقى . ثم تنبه لذلك ، فطرد غالبهم وشدد على الباقين ، وتساهل مع الناس .

وكان رئيسا عاقلا ، معدودا فى الرؤساء . تعمل عنده الدواوين والاجتماعات فى مهمات الأمور والوقائع — كما تقدم ذكر ذلك فى مواضعه — ثم انه تمرض بذات الرئة شهورا ، ومات فى يوم الاثنين رابع شهر صفر .

* * *

ومات الأمير سليمان بيك المرادى — وهو من الأمراء الذين تأمروا بعد موت مراد بيك — وكان ظالما غشوما ، ويعرف بريحه (بتشديد الياء) . وسبب تسميته بذلك : أنه كان اذا أراد قتل انسان ظلما يقول لأحد أعوانه : « خذه وريحه » . فيأخذه ويقتله !

ومات فى واقعة أسيوط الأخيرة ... أخذت جلة المدفع دماغه ، وقطع ذراعه . وعرفوا قتله بخاتمه الذى فى أصبعه فى ذراعه المقطوع .

* * *

ومات سليمان بيك الألفى الذى قتل فى واقعة ياسين بيك بالمنية عند الخندق ... وغير هؤلاء . والله أعلم .

سنة ١٢٢٣ هجرية

المحرم

الأحد غرته (٢٨ فبراير ١٨٠٨ م) :

برز القابجى ، المسمى بيانجى بيك ، الى السفر على طريق البر . وخرج الباشا لوداعه .

وهـذا القابجى كان حضر بالأوامر بخـروج العساكر للبلاد الحجازية ، وخلاص البلاد من أيدى الوهابية . وفى مراسيمه التى حضر بها : التأكيـد والحث على ذلك . فلم يزل الباشا يخادعه ، ويعده بانفاذ الأمر ، ويعرفه أن هذا الأمر لا يتم بالعجلة ، ويحتاج الى اسـتعداد كبير ، وانشاء مراكب فى القلزم ... وغير ذلك من الاستعدادات .

وعمل الباشا ديوانا جمع فيه الدفتردار والمعلم غالى والسيد عمر والمشـايخ . وقال لهم : « لا يخفاكم أن الحرمين اسـتولى عليهـا الوهابيون ، ومنعوا أحكامهم بها وقد وردت علينا الأوامر السـلطانية ، المرة بعد المرة ، للخـروج اليهم ومحاربتهم وجلائهم وطردهم عن الحرمين الشريفين . ولا تخفى عنكم الحوادث والوقائع التى كانت سببا فى التأخير عن المبادرة فى امتثال الأوامر . والآن حصل الهدو ، وحضر قابجى باشا بالتأكيد والحث على خروج العساكر وسـفرهم . وقد حسـبنا المصاريف اللازمة فى هـذا الوقت فبلغت أربعـة وعشرين الف كيس .. فأعملوا رأيكم فى تحصيلها» . فحصل ارتباك واضطراب ، وشاع ذلك فى الناس ، وزاد بهم الوسواس . ثم اتفقوا على كتابة عرضحال ليصحبه ذلك القابجى معه .. بصورة نمقوها .

الجمعة ٦ منه (٤ مارس ١٨٠٨ م) :

حضر مرزوق بيك ، وسليم بيـك المحرمجى ، وعلى كاشف الصابونجى المرسـل . فطلعوا الى القلعة ، وقابلوا الباشا . وخلع على مرزوق بيك والمحرمجى فروتين ، ونزلا الى دورهمـا . ثم ترددوا وطلعوا ونزلوا وبلغوا رسـائل الأمـراء القبليين ، وذكـروا مطالبهم وشروطهم وشروط الباشا عليهم ، والاتفاق فى تقرير الصلح والمصالحة عدة أيام .

وفيه : حضر عرب الهنادى والجهنة وصالحوا على أنفسهم ، وأن يرجعوا الى منازلهم بالبحيرة ، ويطردوا أولاد على — وكانوا تغلبوا على الاقليم ، وحصـل منهـم الفسـاد والافسـاد — وكانت مصالحتهم بيد شـاهين بيك الألفى ، وسافر معهم شاهين بيك وخشداشينه ، ولم يبق بالجيزة سوى نعمـان بيـك ، وذهبوا الى ناحيـة دمنهور ، وارتحل أولاد على الى حوش ابن عيسى . وذلك أواخر المحـرم .

ثم ان شاهين بيك ركب بمن معه وحاربوهم ، ووقع بينهم مقتلة عظيمة ، وقتل فيها شحصان من كبار الأجناد الألفية ، وهم : عثمان كاشف وآخر ، ونحو سـتة مماليـك ، وقتل جملة كثـيرة من العـرب ، وانكشف الحرب عن هزيمـة العرب ، وأسروا منهم نحو الأربعين ، وغنموا منهم غنـائم كثيرة من أغنام وجمـال . وتفرقوا وتشتتوا ، وذهبوا الى ناحيـة قبلى والفيوم ... وذلك فى شهر صفر .

ملحوظة : لم يرد شيء عن شهرى صفر وربيع الاول ، ولعل ذلك لعدم وجود حوادث بهما .

ربيع الآخر

الأحد ١٠ منه (٥ يونية ١٨٠٨ م) :

حضر شاهين بيك وباقى الألفية .

الأربعاء ٢٠ منه (١٥ يونية ١٨٠٨ م) :

ورد الخبر بموت شاهين بيك المرادى . فخلع الباشا على سليم بيك المخرمجى ، وجعله كبيرا ورئيسا على المرادية ، عوضا عن شاهين بيك ، وسافر الى قبلى

وفيه حضر أيضا أمين بيك الألفى من غيبته . وكان مسافرا مع الانكليز الذين كانوا حضروا الى الاسكندرية ورشيد ، وحصل لهم ما حصل... فلم يزل غائبا حتى بلغه صلح خشداشينه مع الباشا ، فرجع وطلع على ردته . فأرسلوا له الملاقاة والخيول واللوازم ، وحضر فى التاريخ المذكور .

وفيه : زوج الباشا شاهين بيك سرية ... انتقتها زوجة الباشا ونظمتها وفرش له سبعة مجالس بقصر الجيزة ، وجمعوا لذلك المنجدين ، وتقيد بتجهيز الشوار والأقمشة واللوازم الخواجا محمود حسن وكذلك زوج نعمان بيك سرية أخرى ، وسكن بيت المشهدى بدرب الدليل ... بعد أن عمرت له الدار ، وفرشت على طرف الباشا وكذلك تزوج عمر بيك بجارية من جوارى الست نفيسة المرادية ، وجهزتها جهازا نفيسا من مالها وتزوج أيضا على كاشف الكبير الألفى بزوجة أستاذه .

جمادى الأولى

(يونية - يولية ١٨٠٨ م) :

. سافر مرزوق بيك بعد تقرير أمر الصلح بينه وبين الأمراء المصريين القبالى وقلد الباشا مرزوق بيك ولاية جرجا وامارة الصعيد ، وألبسه الخلعة، وشرط عليه ارسال المال والغلال الميرية . فعند ذلك اطمأنت الناس ، وسافرت السفار والمتسببون ، ووصل الى السواحل مراكب الغلال ، والأشياء التى تجلب من الجهة القبلية .

جمادى الآخرة

قطع الباشا مرتب الدلاة الأغراب ، وأخرجهم ، وعزل كبيرهم الذى يسمى كردى بوالى ، الساكن ببولاق وقلد ذلك مصطفى بيك من أقاربه ، وجعله كبيرا على طائفة الدلاتية الباقين ، وضم اليهم طائفة من الأتراك .. ألبسهم طراطير وجعلهم دلاتية وسافر كردى بوالى لبلاده فى منتصف الشهر ، وخرج صحبته عدة كبيرة من الدلاة

اواخره (أواخر اغسطس ١٨٠٨ م) :

وردت الأخبار من اسلامبول وذلك أن طائفة من الينكجرية تعصبت ، وقامت على السلطان سليم ... وعزلوه ، وأجلسوا مكانه السلطان مصطفى . وأبطلوا النظام الجديد ، وقتلوا دفتردار النظام الحديد وكتخدا الدولة ودفتردار الدولة وغيرهم ، وقطعوهم فى « أت ميدان » ، بعد أن تغيبوا واختفوا فى أماكن ... حتى فى بيوت النصارى . واستدلوا عليهم واحدا بعد واحد ، فكانوا يسحبون الأمير منهم المترفه ، على صورة منكرة ، الى « أت ميدان » فيقتلونه ، وبعضهم قطعوه فى الطريق وسكن الحال على سُلطنة السلطان مصطفى بن عبد الحميد .

وكان السلطان سليم — عندما أحس بحركة الينكجرية — أرسل يستنجد ويستدعى مصطفى باشا البيرقدار ، وكان « برشق » بالرملى بمخيم العرضى المتعين على حرب الموسكوب ، ووصل خبر الواقعة الى من بالعرضى ، فأقام أيضا الينكجرية الفتنة بالعرضى ، وقتلوا أغاة العرضى وخلافه .

وهـرب الرئيس وخلافه عنـد مصطفى باشا المذكور — وقد وصله مراسلة السلطان سليم — فحركوا همتـه على القيـام بنصرة السلطان سليم على الينكجرية ، فركب من العرضى فى عدة وافرة ، وحضر الى اسلامبول ، وشق بجمعه وعسكره من وسطها فى كبكبة حتى وصـل الى باب السراية ، فوجده مغلوقا ، فأراد كسره أو حرقه ... الى أن فتحوه بالعنف . وعبر الى داخل السراية ، وطلب السلطان سليم فعند ذلك أرسل السلطان مصطفى المتولى جماعة من خاصـته فدخلوا على السلطان سليم فى المكان الذى هـو مختف به ، وقتـلوه بالخناجر والسكاكين حتى مات ، وأحضروه ميتا الى مصطفى باشا البيرقدار ، وقالوا له : « ها هو السـلطان سليم الذى تطلبـه » . فلما رآه ميتا بكى وتأسف .

ثم انه عزل السلطان مصطفى ، وأحضر محمودا أخاه ابن عبد الحميد ، وأجلسه على تخت الملك . ونودى باسمه — وكان ذلك يوم الخميس خامس جمادى الثانية من السنة — وعمره ثلاث وعشرون سـنة . ومات السلطان سليم وعمـره احـدى وخمسون سنة ، لأنه ولد سـنة ١١٧٢ . ومدة ولايته نحو العشرين سنة تنقص شهرا

فلما وردت هذه الأخبار ، وتواترت فى مكاتبات التجار والسفار ... خطب بعض الخطبـاء ، يـوم الجمعة سادس عشرينه ، باسم السلطان محمود ، وبعضهم أطلق فى الدعاء ولم يذكر الاسم .

وفيه : قوى عزم الباشا على السفر الى جهـة دمياط ورشيد والاسكندرية فطلب لوازم السفر ، ووعد بسفره بعد قطع الخليج . وطفق يستعجل بالوفاء ، ويطلب ابن الرداد المقياسى ويسأله عن الوفاء ، ويقول : « اقطعوا جسر الخليج فى غد أو بعد غد » فيقول : « تأمرونا بقطعه قبل الوفاء ؟ » فيقول : « لا » ويقول : « ليس الوفاء بأيدينا » .

السبت ٢٧ منه (٢٠ اغسطس ١٨٠٨ م ـ ١٥ مسرى ١٥٢٤ ق) :

نقص النيل نحو خمسة أصـابع . وانكشف الحجر الراقد الذى عند فم الخليج تحت الحجر القائم . فضج الناس ، ورفعوا الغلال من الرقـع والعرصات والسواحل . وانزعجت الخلائق بسبب شحة النيل فى العام الماضى ، وهيفان الزرع ، وتنوع المظالم ، وخراب الريف وجلاء أهله .

واجتمع فى ذلك اليوم المشايخ عند الباشا ، فقال لهـم : « اعملوا استسقاء ، وأمروا الفقـراء والضعفاء والأطفال بالخروج الى الصحراء وادعوا الله » . فقال له الشيخ الشرقاوى : « ينبغى أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم » . فقال : « آنا لست بظالم وحدى ، وأنتـم أظلم منى ... فانى رفعت عن حصتكم الفرض والمغارم اكراما لكم .. وأنتم تأخذونها من الفلاحين ! وعندى دفتر محرر فيـه ما تحت أيديكم من الحصص يبلغ ألفين كيس . ولا بد انى أفحص عن ذلك . وكل من وجـدته يأخذ الفرضة المدفوعة من فلاحينه ، أرفع الحصة عنه » . فقالوا له : « لك ذلك » .

ثم اتفقوا على الخروج والسـقيا فى صبحها بجامع عمرو بن العاص — لكونه محـل الصحابة والسلف الصالح — يصلون به صلاة الاستسقاء .

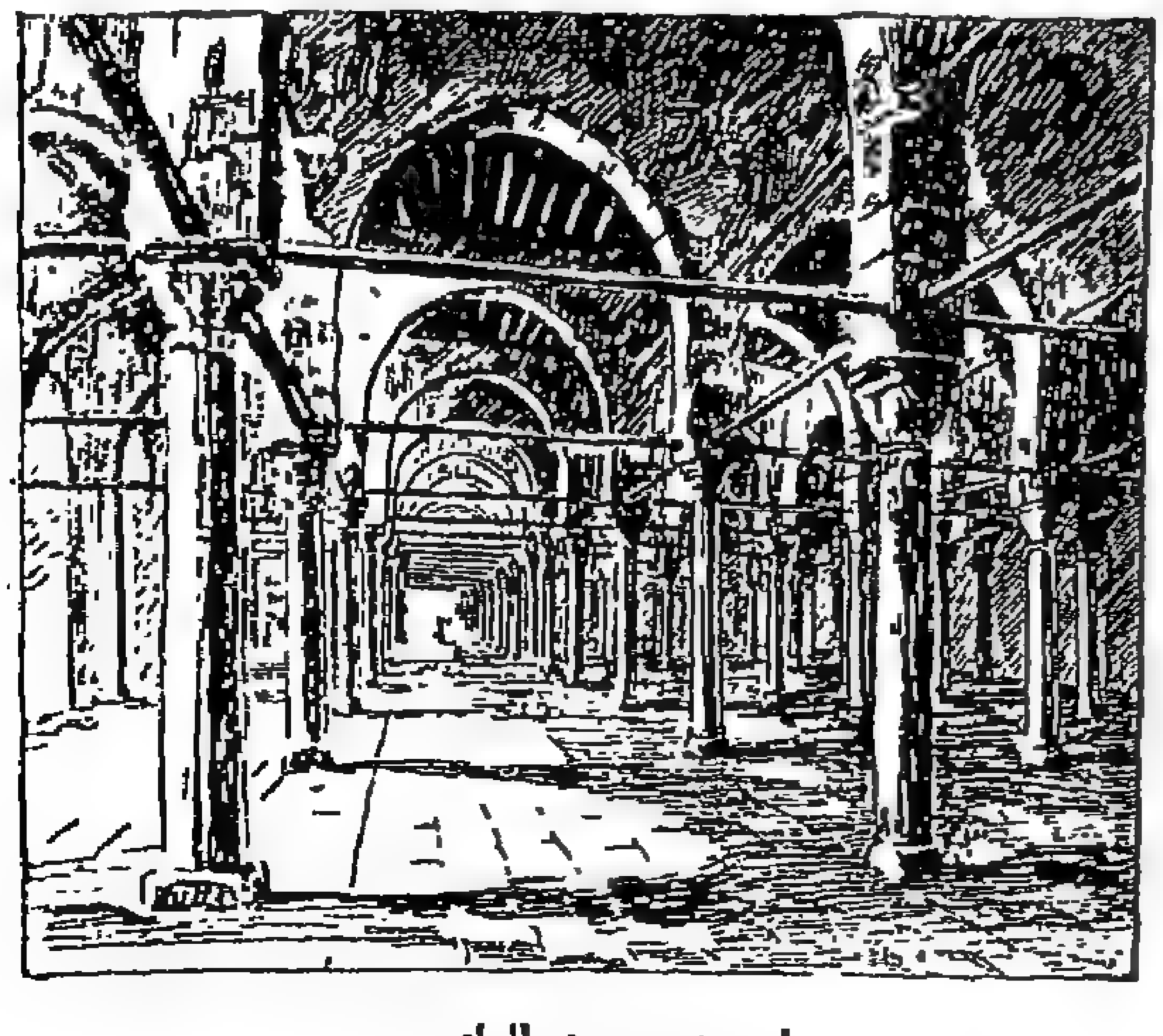

جامع عمرو بن العاص

ويدعون الله ويستغفرونه ، ويتضرعون اليـه فى زيادة النيل .. وبالجملة ركب السيد عمر والمشايخ وأهل الأزهر وغيرهم ، والأطفال . واجتمع عالم كثير ، وذهبوا الى الجامع المذكور بمصر القديمة . فلما كان صبحها ، وتكامل الجمع ، صعد الشيخ جاد المولى على المنبر ، وخطب بعد أن صلى صلاة الاستسقاء ، ودعا الله ، وأمن الناس على دعائه . وحول رداءه . ورجع الناس بعد صلاة الظهر . وبات السيد عمر هناك .

وفى تلك الليلة : رجع الماء الى محل الزيادة الأولى ، واستتر الحجر الراقد بالماء .

الاثنين ٢٩ منه (٢٢ اغسطس ١٨٠٨ م) :

خرجوا أيضا ، وأشار بعض الناس باحضـار النصارى أيضا ... فحضروا ، وحضر المعلم غالى ، ومن يصحبه من الكتبة الأقبـاط ، وجلسوا فى ناحية من المسجد يشربون الدخان ! وانفض الجمع أيضا .

وفى تلك الليلة ، التى هى ليلة الثـلاثاء ، زاد المـاء ، ونودى بالوفاء . وفرح النـاس ، وطفق النصارى يقـولون : ان الزيادة لم تحصـل الا بخروجنا ...

فلما كانت ليلة الأربعاء : طاف المنادون بالرايات الحمر ، ونادوا بالوفاء ، وعمل الشنك والوقدة ... تلك الليلة على العادة

وفى صبحها حضر الباشا والقاضى ، واجتمع الناس وكسروا السـد وجرى المـاء فى الخليج جريانا ضعيفا لعلو أرض الخليج وعدم تنظيفه من الأتربة المتراكمة فيه من مدة سنين . وكان ذلك يوم الأربعاء غرة شهر رجب وتاسع عشر مسرى القبطى .

رجب

٢ منه (٢٤ اغسطس ١٨٠٨ م) :

وصل الى بولاق راغب افندى ــ وهو أخو خليل افندى الرجائى ، الدفتردار المقتول ــ وعلى يده مرسـوم باجراء الخطبة باسـم السـلطان محمود بن عبد الحميد . وأنزلوه ببيت ابن السباعى بالغورية . وضربوا مدافع بالقلعة وشنكا ، ثلاثة أيام ، فى الأوقات الخمسة .. وخطب الخطبـاء فى صبحها باسـم السلطان محمـود والدعاء له فى جميع المساجد .

٥ منه (٢٧ اغسطس ١٨٠٨ م) :

سافر محمد على باشا الى بحرى ، ونزل فى المراكب . وأرسل قبل نزوله بأيام بتشهيل الاقامات والـكلف عـلى البـلاد ، من كـل صـنف خمسة عشر . وأخلوا له ولمن معه بيوت البنادر — مثـل المنصورة ، ودميـاط ، ورشيد ، والمحلة ، والاسكندرية — وفرض الفرض والمغـارم على البلاد ، على حكم القراريط التى كانوا ابتدعوها فى العام الماضى ... على كل قيراط سـبعة آلاف وسبعمائة نصف فضة ، وسماها كلفة الذخـيرة ، وأمر بكتابة دفتر لذلك .

فكتب اليه الروزنامجى « أن الخراب استولى على كثير من البلاد . فلا يمكن تحصيل هـذا الترتيب » فأرسل من المنصـورة يأمر بتحرير العمار بدفتر مستقل ، والخراب بدفتر آخر .

فلما فعل الروزنامجى ذلك ، أدخل فيهـا بلادا بها بعض الرمق لتخلص من الفرضة ، وفيها ماهو لنفسه . فلما وصلت اليه ، أمر بتوزيع ذلك الخراب على أولاده وأتبـاعه وأغراضه — وعـدتها مائة وستون بلدة — وأمر الروزنامجى بكتابة تقاسيطها بالأسماء التى عينها له . فلم يمكن الروزنامجى

أن يتلافى ذلك فتظهر خيانته . ووزعت وارتفعت عن أصحابها .

وكذلك حصل باقليم البحيرة ، لما عمها الخراب وتعطل خراجهـا ، وطلبوا المـيرى من الملتزمين . فتظلموا واعتذروا بعموم الخراب . فرفعوها عنهم، وفرقهـا الباشا على أتبـاعه . واستولوا عليهـا ، وطلبوا الفلاحين الشاردة ، والمتسحبة من البـلاد الأخر ، وأمروهم بسكناها .

وزادوا فى الطنبـــور نغمــات ، وهـو أنهم صـاروا يتتبعـون أولاد البـلد ، وأرباب الصنائع الذين لهم نسـبة قديمة بالقرى ، وذلك باغراء أتباعهم وأعوانهم .. فيكون الشخص منهم جالسا فى حانوته وصناعته ، فما يشعر الا والأعوان محيطون به يطلبونه الى مخدومهم . فان امتنع أو تلكأ ، سحبوه بالقهر ، وأدخلوه الى الحبس ، وهو لا يعرف له ذنبـا . فيقول : « وما ذنبى ؟ » . فيقال له : « عليك مال الطين » . فيقول : « وأى شىء يكون الطين ؟ » . فيقـولون له : « طـين فلاحتك ... من مدة سنين لم تدفعه ، وقدره كذا وكذا » . فيقول : « لا أعرف ذلك ، ولا أعرف البلد ، ولا رأيتها فى عمرى ... لا أنا ولا أبى ولا جدى ! » . فيقال له : « ألست فلانا ... الشبراوى أو المنياوى مثلا ؟ » فيقول لهم : « هذه نسبة قديمة سرت الى من عمى أو خالى أو جدى .. » . فلا يقبل منه ، ويحبس ويضرب حتى يدفع ما ألزموه به ، أو يجد شافعا يصالح عليه . وقد وقع ذلك لكثير من المتسببين والتجار وصناع الحرير وغيرهم .

ولم يزل الباشا فى سيره حتى وصل الى دمياط ، وفرض على أهلها أكياسا ، وأخـذ من حكامها هدايا وتقادم . ثم رجع الى سمنود ، وركب فى البر الى المحلة ، وقبض مافرضه عليهـا ، وهـو خمسون كيسا ، نقصت سبعة أكياس ... عجزوا عنها بعد الحبس والعقاب . وقدم له حاكمها ستين جملا وأربعين حصانا خلاف الأقمشة المحلاوية مثل الزردخانات والمقاطع الحرير ، وما يصنع بالمحلة من أنواع الثياب والأمتعة ، صناعة من بقى بهـا من الصناع .

ثم ارتحل عنها ورجع الى بحر منوف ، وذهب الى رشيد والاسكندرية . ولما استقر بها عبى هدية الى الدولة ، وأرسل الى مصر فطلب عدة قناطير من البن ، والأقمشـة الهندية ، وسبعمائة أردب أرز أبيض .. أخذت من بلاد الأرز . وأرسـل الهدية صحبة ابراهيم افندى المهردار . وحضر اليه ، وهو بالاسكندرية ، قابجى من طرف مصطفى باشـا البيرقدار الوزير برسالة ورجع بالجواب على أثره ، ولم يعلم ما دار بينهما .

شعبـــان

الخميس ١٥ منه (٦ اكتوبر ١٨٠٨ م) :

حضر محمد على باشا من غيبته ، وطلع على ساحل بولاق ليلة الخميس خامس عشره ، وذهب الى داره بالأزبكيـة . ثم طلع فى ثانى يوم الى القلعة ، وضربوا لقدومه مدافع .

رمضـــان

الجمعة غرته (٢١ اكتوبر ١٨٠٨ م) :

وردت الأخبار بحرق القمامة القدسية ، وظهر حريقها من كنيسة الأروام .

وفيه : سافر عدة من العسكر والدلاة وعمر بيك الألفى ، ومعه طائفة من المماليك ، الى البحيرة بسبب عربان أولاد على . فانهم كانوا بعد الحوادث المتقدمة نزلوا بالاقليم ، وشاركوا ، وزرعوا مثل ما كان عليه الهنادى والجهنة . فلما اصطلح الألفية مع الباشا ، توسط شاهين بيك فى صلح الهنـادى والجهنة على قدر ، وذلك لما كان بينهم وبين أستاذه

من النسابة . ونزل صحبتهم الى البحيرة ، وعمرهم بأرضها كما كانوا أولا ، وطرد أولاد على وحاربهم ، ومكن الهنادى والجهنة ، ورجع الى الجيزة .

فراسل أولاد على الباشا بوساطة بعض أهل الدولة ، وعملوا للباشا مائة ألف ريال على رجوعهم للبحيرة واخراج الهنادى . فأجابهم طمعا فى المال . فحنق أولئك وعصوا ، وحاربوا أولاد على ، ونهبوا ونالوا منهم بعد أن كانوا ضيقوا عليهم .

وحصلت اختلافات ، وامتنع أولاد على من دفع المال الذى قرروه على أنفسهم ، واجتمعوا بحوش ابن عيسى . فأرسل اليهم الباشا عمر بيك المذكور ومن معه ، فحاربوهم مع الهنادى . فظهر عليهم أولاد على وهزموهم ، وقتل من الدلاة أكثر من مائة ، وكذلك من العسكر ، ونحو الخمسة عشر من المماليك . فأمر الباشا بسفر عساكر أيضا ، وصحبتهم نعمان بيك وخلافه . وسافرت طائفة من العرب الى ناحية الفيوم ، فأرسلوا لهم عدة من العسكر .

آخره (١٩ نوفمبر ١٨٠٨ م) :

سافر أيضا شاهين بيك وباقى الألفية ، خلاف أحمد بيك ، فانه أقام بالجيزة .

وفيه : نودى على المعاملة بأن يكون صرف الريال الفرنسا بمائتين وعشرين ، وكان بلغ فى مصارفته الى مائتين وأربعين . والمحبوب بمائتين وخمسين ، فنودى على صرفه بمائتين وأربعين وذلك كله من عدم الفضة العددية بأيدى الناس والصيارف لتحكيرهم عليها ، ليأخذها تجار الشام بفرط فى مصارفتها تضم للميرى ... فيدور الشخص على صرف القرش الواحد ، فلا يجد صرفه الا بعد جهد شديد ، ويصرفه الصراف أو خلافه للمضطر بنقص نصفين أو ثلاثة .

وفيه : سافر أيضا حسن الشماشرجى ولحق بالمجردين .

وفيه : ورد الخبر بأن محو بيك ، كاشف البحيرة ، قبض على السيد حسين نقيب الأشراف بدمنهور ، وأهانه وضربه وصادره ، وأخذ منه ألفى ريال بعد أن حلف أنه ان لم يأت بها فى مدة أربع وعشرين ساعة ، والا قتله . فوقع فى عرض النصارى المباشرين ، فدفعوها عنه حتى تخلص بالحياة . وكذلك قبض على رجل من التجار ، وقرر عليه جملة كثيرة من المال . فدفع الذى حصلته يده . وبقى عليه باقى ما قرره عليه . فلم يزل فى حبسه حتى مات تحت العقوبة . فطلب أهله رمته . فحلف لا يعطيها لهم حتى يكون ابنه فى الحبس مكانه !

ومن الحوادث السماوية : أن فى سابع عشرين رمضان غيمت السماء بناحية الغربية والمحلة الكبرى ، وأمطرت بردا فى مقدار بيض الدجاج وأكبر وأصغر فهدمت دورا ، وأصابت أنعاما .. غير أنها قتلت الدودة من الزرع البدرى .

شوال

اواخره (حوالى منتصف ديسمبر ١٨٠٨ م) :

حضر شاهين بيك الألفى من ناحية البحيرة ، وذلك بعد ارتحال أولاد على من الاقليم .

وفيه أيضا : حضر سليمان كاشف البواب من ناحية قبلى ، وصحبته عدة من المماليك ، وأربعة من الكشاف فقابل الباشا وخلع عليه ، وأنزله ببيت طنان بسويقة العزى ، وسكن بها . وحضر مطرودا من اخوانه المرادية .

ذو القعدة

الاثنين غرته (١٩ ديسمبر ١٨٠٨ م) :

فيه : عزل الباشا السيد المحروقى عن نظارة الضربخانة ، ونصب بها شخصا من أقاربه .

السبت ١٣ منه (٣١ ديسمبر ١٨٠٨ م):

نزل والى الشرطة ، وأمامه المناداة على ما يستقرضه الناس من العسكر بالربا والزيادة .. على أن يكون على كل كيس ستة عشر قرشا فى كل شهر لاغير — والكيس عشرون ألف نصف فضة ، وهو الكيس الرومى — وذلك بسبب ما انكسر على المحتاجين والمضطرين من الناس من كثرة الربا لضيق المعاش ، وانقطاع المكاسب ، وغلو الاسعار، وزيادة المكوس . فيضطر الشخص الى الاستدانة فلا يجد من يداينه من أهل البلد ، فيستدين من أحد العسكر ، ويحسب عليه على كل كيس خمسين قرشا فى كل شهر . واذا قصرت يد المديون عن الوفاء ، أضافوا الزيادة على الأصل . وبطول الزمن تفحش الزيادة ، ويؤول الأمر لكشف حال المديون .

وجرى ذلك على كثير من مساتير الناس ، وباعوا أملاكهم ومتاعهم . والبعض لما ضاق به الحال ، ولم يجد شيئا ، خرج هاربا ، وترك أهله وعياله خوفا من العسكرى وما يلاقى منه ، وربما قتله . فأعرض بعض المديونين الى الباشا . فأمر بكتابة هذا البيورلدى ، ونزل به والى الشرطية ، ونادى به فى الأسواق . فعد ذلك من غرائب الحكام ... حيث ينادى على الربا جهارا فى الأسواق ، من غير احتشام ولا مبالاة ، لأنهم لا يرون ذلك عيبا فى عقيدتهم !

الاربعاء ٢٤ منه (١١ يناير ١٨٠٩ م):

غضب الباشا على محو بيك الكبير ، الذى كان كاشفا بالبحيرة ، ونفاه الى أبى قير وأخذ أمواله ، وأنعم ببيته — وهو بيت حسين أغا شنن بحارة عابدين — وما بها من الخيل والجمال والجوار والخيام والمتاع ، على محو بيك الصغير الأورفلى .

ذو الحجة

غرته (١٨ يناير ١٨٠٩ م):

وصلت الأخبار من اسلامبول بوقوع فتنة عظيمة . وأنه لما حصل ما حصل فى منتصف السنة من دخول مصطفى باشا البيرقدار على الصورة المذكورة ، وقتل السلطان سليم ، وتولية السلطان محمود ، وخذلان الينكجرية وقتلهم ونفيهم ، وتحكم مصطفى باشا فى أمور الدولة ... واستمر من بقى منهم تحت الحكم ، فأجمعوا أمرهم ، ومكروا مكرهم . وحذر بعضهم مصطفى باشا من المذكورين ، فلم يكترث بذلك ، واستهون أمرهم ، واحتقر جانبهم ، وقال : « أى شىء هؤلاء ؟ .. مناولرى » بمعنى أنهم بياعون الفاكهة . فكان حاله كما قيل :

فلا تحتقر كيد العدو فربما
تموت الأفاعى من سموم العقارب

ثم انهم تحزبوا وحضروا الى سرايته على حين غفلة ، بعد السحور ، ليلة السابع والعشرين من رمضان — وجماعته وطائفته متفرقون فى أماكنهم — فحرقوا باب السراية ، وكبسوا عليه . فقتل من قتل من أتباعه ، وهرب من هرب على حمية . واختفى مصطفى باشا فى سرداب فلم يجدوه ، وأوقعوا بالسراية الحرق والهدم والنهب . وخاف السلطان ، لأن سراية الوزير بجانب السراية السلطانية ، ففتح باب السراية التى بناحية البحر ، وأرسل يستعجل قاضى باشا بالحضور ، وكذلك قبطان باشا .. فحضرا الى السراية ، واشتد الحرب بين الفريقين ، وأكثر الينكجرية من الحريق فى البلدة ، حتى أحرقوا منها جانبا كبيرا .

فلما عاين السلطان ذلك ... هاله ، وخاف من عموم حريق البلدة — وهو ومن معه محصورون

بالسراية يوماً وليلة — فلم يسعه الا تلافى الأمر . فراسل كبار الينكجرية ، وصالحهم . وأبطلوا الحرب ، وشرعوا فى اطفاء الحريق . وخرج قاضى باشا هاربا ، وكذلك قبودان باشا — وهو عبد الله رامز أفندى الذى كان فى أيام الوزير بمصر — ثم انهم أخرجوا مصطفى باشا من المكان الذى اختفى فيه ميتا من تحت الردم ، وسحبوه من رجليه الى خارج ، وعلقوه فى شجرة ، ومثلوا به ، وأكثروا على رمته من السخرية !

وعند وقوع هذه الحادثة ، ومجىء قاضى باشا — وكان من أغراض السلطان مصطفى المنفصل — خاف السلطان أن قاضى باشا ، ان غلب على الينكجرية ، فيعزله ويولى أخاه ، ويرده الى السلطنة ... فقتل السلطان محمود أخاه مصطفى خنقا . ثم لما سكن الحال ، عينوا على قاضى باشا وقتلوه ، وكذلك عبد الله أفندى رامز قبودان باشا .

وكان مصطفى باشا البيرقدار هذا ، مشكور السيرة ، يحب اقامة العدل .. والوقت بخلاف ذلك .

وفيه : قوى الاهتمام بسد ترعة الفرعونية ، وتعين لذلك شخص يسمى عثمان السلانكلى الذى كان مباشرا على جسر الاسكندرية .

١٥ منه (اول فبراير ١٨٠٩ م) :

سافر الباشا ، وبصحبته حسن باشا ، لمباشرة لترعة التى يريدون سدها ، وأمر بوسق الأحجار . وأفردوا لذلك عدة كثيرة من المراكب تشحن بالأحجار والأخشاب الكثيرة ، وترجع فارغة ، وتعود موسوقة فى كل يوم مرة . وأمر بجمع الرجال من القرى للعمل .

وفيه أيضا : شرع الباشا فى انشاء أبنية بساحل شبرا — الشهيرة الآن بشبرا المكاسة — وأشيع أن قصده انشاء سواقى وعمائر وبساتين ومزارع . وأخذ فى الاستيلاء على ما يحاذى ذلك من القرى والأطيان والرزق والاقطاعات من ساحل شبرا الى جهة بركة الحاج ... عرضا .

١٧ منه (٣ فبراير ١٨٠٩ م) :

خرجت عساكر كثيرة الى البر الغربى بقصد الذهاب الى الفيوم ، صحبة شاهين بيك والألفية ، بسبب أولاد على الذين كانوا بالبحيرة .

٢٢ منه (٨ فبراير ١٨٠٩ م) :

وصل واحد قابجى وأشيع أنه طلع من بولاق ، وذهب الى بيت الباشا ، وعلى يده مرسومان : أحدهما تقرير للباشا على ولاية مصر . والثانى يذكر فيه أن يوسف باشا المعدلى ، الصدر السابق ، تعين بالسفر على جهة الشام لتنظيم بلاد العرب والحجاز ، وأن يقوم محمد على باشا بلوازمه وما يحتاج اليه من أدوات وذخيرة وغير ذلك . ولم يظهر لذلك الكلام أثر .

ولما أصبح النهار ، وحضر ذلك القابجى فى موكب الى بيت الباشا ، وحضر الأشياخ والأعيان — وكان الباشا غائبا فى الترعة كما تقدم — وعوضه كتخدا بيك ، وأكابر دولتهم ، وقرئت المراسيم ... تحقق الخبر .

وانقضت السنة بحوادثها التى لا يمكن ضبط جزئياتها لعدم الوقوف على حقيقتها .

فمن الحوادث العامة : توالى الفرض والمظالم المتوالية ، واحداث أنواع المظالم على كل شىء ، والتزايد فيها ، واستمرار الغلاء فى جميع أسعار المبيعات والمآكل والمشارب بسبب ذلك ، وفقر أهل القرى ، وبيعهم لمواشيهم فى المغارم ، فقل اللحم والسمن والجبن . وأخذ مواشيهم وأغنامهم من غير ثمن فى الكلف ، ثم رميها على الجزارين بأغلى

بثمن ، ولا يذبحونها الا فى المذبح ، ويؤخذ منهم أسقاطها وجلودها ورؤوسها ورواتب الباشا وأهل دولته ثم يذهبون بما يبقى لهم لحوانيتهم . فتباع على أهل البلد بأغلى ثمن حتى يخلص للجزار رأس ماله واذا عثر المحتسب على جزار ذبح شـاة اشتراها فى غير المذبح ، قبض عليه وأشهره ، وأخذ ما فى حانوته من اللحم من غير ثمن ثم يحبس ويضرب ويغرم مالا ، ولا يغفر ذنبه ، ويسمى خائنا وفلاتيا !

ومنها : انقطاع الحج الشامى والمصرى ، معتلين بمنع الوهابى النـاس عن الحج .. والحـال ليس كذلك فانه لم يمنع أحـدا يأتى الى الحج على الطريقة المشروعة ، وانما يمنع من يأتى بخلاف ذلك من البـدع التى لا يجيزها الشرع : مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة . وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة ، وحجوا ورجعوا فى هذا العام وما قبله ، ولم يتعرض لهم أحد بشىء .

ولمـا امتنعت قوافل الحج المصرى والشامى ، وانقطع عن أهل المدينة ومكة ما كان يصل اليهم من الصدقات والعلائف والصرر التى كانوا يتعيشون منها .. خرجوا من أوطانهم بأولادهم ونسـائهم ، ولم يمكث الا الذى ليس له ايراد من ذلك ، وأتوا الى مصر والشام . ومنهم من ذهب الى اسلامبول يتشـكون من الوهابى ، ويسـتغيثون بالدولة فى خلاص الحرمين لتعود لهم الحالة التى كانوا عليها : من اجراء الأرزاق ، واتصال الصـلات ، والنيابات والخـدم فى الوظائف التى بأسماء رجال الدولة ، كالفراشة والكناسـة ونحو ذلك ، ويذكرون أن الوهابى استولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر ، ونقلها وأخذها ... فيرون أن أخذه لذلك من الكبائر العظام .

وهذه الأشياء أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم : اما حرصاً على الدنيـا وكراهة أن يأخذها من يأتى بعـدهم ، أو لنـوائب الزمان . فتكون مدخـرة ومحفوظة لوقت الاحتيـاج اليهـا ، فيستعان بها على الجهـاد ودفع الأعداء . فلما تقـادمت عليها الأزمنة ، وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة — وهى فى الزيادة — ارتصـدت معنى لاحقيقة ، وارتسم فى الأذهان حرمة تناولها ، وأنها صارت مالا للنبى صلى الله عليه وسلم ، فلا يجوز لأحد أخذها ولا انفاقها . والنبى عليه الصلاة والسلام منزه عن ذلك ، ولم يدخر شيئا من عرض الدنيا فى حياته . وقد أعطاه الله الشرف الأعلى ، وهو الدعوة الى الله تعالى والنبوة والكتاب ، واختـار أن يكون نبيـا عبدا ، ولم يختر أن يكون نبيا ملكا . وثبت فى الصحيحين وغيرهما أنه قال : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » . وروى الترمذى بسنده عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا . قلت : لا يارب . ولكن أشبع يوما وأجوع يوما — أو قال : ثلاثا ، أو نحو ذلك — فاذا جعت تضرعت اليك وذكرتك ، واذا شبعت شـكرتك وحمدتك » .

ثم ان كانوا وضعوا هذه الذخائر والجواهر صدقة على الرسول ، ومحبة فيه ، فهو فاسـد .. لقول النبى صلى الله عليه وسـلم : « ان الصدقة لا تنبغى لآل محمد ... انما هى أوساخ الناس » . ومنع بنى هاشم من تناول الصدقة وحرمها عليهم .

والمراد الانتفاع فى حال الحياة لا بعدها فان المال أوجده المولى سبحانه وتعالى من أمور الدنيا ، لا من أمور الآخـرة قال تعالى : « انمـا الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » . وهو من جملة السبعة التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز فى قوله

تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » . فهذه السبعة بها تكون الخبائث والقبائح . وليست هي في نفسها أمورا مذمومة ، بل قد تكون معينة على الآخرة اذا صرفت في محلها

وعن مطرف ، عن أبيه قال : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يقرأ « ألهاكم التكاثر » . قال : يقول ابن آدم : مالي مالي .. فهل لك يا ابن آدم من مالك الا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » الى غير ذلك .

ومحبة الرسول بتصديقه واتباع شريعته وسنته ، لا بمخالفة أوامره ، وكنز المال بحجرته وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين ، وباقي الأصناف الثمانية .

وان قال المدخر : أكنزها لنوائب الزمان ، ليستعان بها على مجاهدة الكفار والمشركين عند الحاجة اليها . قلنا : قد رأينا شدة احتياج ملوك زماننا ، واضطرارهم في مصالحات المتغلبين عليهم من قرانات الافرنج ، وخلو خزائنهم من الأموال التي أفنوها بسوء تدبيرهم وتفاخرهم ورفاهيتهم . فيصالحون المتغلبين بالمقادير العظيمة ... بكفالة أحد الفرق من الافرنج المسالمين لهم . واحتالوا على تحصيل المال من رعاياهم بزيادة المكوس والمصادرات والطلبات ، والاستيلاء على الأموال بغير حق .. حتى أفقروا تجارهم ورعاياهم ، ولم يأخذوا من هذه المدخرات شيئا ... بل ربما كان عندهم أو عند خونداتهم جوهر نفيس من بقايا المدخرات ، فيرسلونه هدية الى الحجرة ، ولا ينتفعون به في مهماتهم ، فضلا عن اعطائه لمستحقه من المحتاجين . واذا صار في ذلك المكان لا ينتفع به أحد ... الا ما يختلسه العبيد الخصيون الذين يقال لهم أغاوات الحرم .

والفقراء من أولاد الرسول ، وأهل العلم ، والمحتاجون وأبناء السبيل ، يموتون جوعا ... وهذه الذخائر محجور عليها ، وممنوعون منها . الى أن حضر الوهابي ، واستولى على المدينة ، وأخذ تلك الذخائر . فيقال : انه عبى أربعة سحاحير من الجواهر المحلاة بالألماس والياقوت ، العظيمة القدر . ومن ذلك : أربع شمعدانات من الزمرد ، وبدل الشمعة قطعة ألماس مستطيلة يضيء نورها في الظلام ، ونحو مائة سيف : قراباتها ملبسة بالذهب الخالص ، ومنزل عليها الماس وياقوت ، ونصابها من الزمرد واليشم ونحو ذلك ، وسلاحها من الحديد الموصوف — كل سيف منها لاقيمة له — وعليها دمغات باسم الملوك والخلفاء السالفين وغير ذلك .

ومنها : أن الباشا عزم على عمارة المجراة التي تنقل الماء الى القلعة . وقد خربت وتلاشى أمرها ، وتهدمت قناطرها ، وبطل نقل الماء عليها من نحو عشرين سنة . فقيد بعمارتها محمد أفندي طبل ناظر المهمات ، فعمرها ، وأجرى الماء بها في أواخر الشهر الماضي .

ومنها : احداث عدة مكوس على أصناف كثيرة ، منها على بضاعة اللبان عن كل قطعة ثلثمائة نصف فضة . وكذلك على صنف الحناء ، عن كل مخلة عشرة أنصاف . وكذلك الموزونات ، كل مائة درهم أربعة دراهم : على البائع درهمان ، وعلى المشتري درهمان . وغير ذلك حوادث كثيرة لا نعلمها .

* * *

وأما من مات بها ممن له ذكر :

فمات الأجل المبجل ، والمحترم المفضل : السيد

خليل البكرى الصديقى — ووالدته من ذرية شمس الدين الحنفى — وهو أخو الشيخ أحمد البكرى الصديقى الذى كان متوليا على سجادتهم .

ولما مات أخوه لم يلها المترجم ، لما فيه من الرعونة ، وارتكابه أمورا غير لائقة ، بل تولاها ابن عمه السيد محمد أفندى — مضافة لنقابة الأشراف — فتنازع مع ابن عمه المذكور ، وقسموا البيت الذى هو مسكنهم بالأزبكية نصفين ، وعمر منابه عمارة متقنة ، وزخرفه ، وأنشأ فيه بستانا زرع فيه أصناف الأشجار والفواكه .

فلما توفى السيد محمد أفندى ، تولى المترجم مشيخة السجادة ، وتولى نقابة الأشراف السيد عمر مكرم الأسيوطى . فلما طرق البلاد الفرنساوية ، تداخل المترجم فيهم . وخرج السيد عمر مع من خرج هاربا من الفرنساوية الى بلاد الشام .

وعرف المترجم الفرنساوية أن النقابة كانت لبيتهم ، وأنهم غصبوها منه ... فقلدوه اياها . واستولى على وقفها وايرادها ، وانفرد بسكن البيت ، وصار له قبول عند الفرنساوية . وجعلوه من أعاظم رؤساء الديوان الذى كانوا نظموه لاجراء الأحكام بين المسلمين فكان وافر الحرمة ، مسموع الكلمة ، مقبول الشفاعة عندهم . فازدحم بيته بالدعاوى والشكاوى ، واجتمع عنده مماليك من مماليك الأمراء المصرية — الذين كانوا خائفين ومتغيبين — وعدة خدم وقواسة ، ومقدم كبير وسراجين وأجناد .

واستمر على ذلك الى أن حضر يوسف باشا الوزير فى المرة الأولى التى انتقض فيها الصلح ، ووقعت الحروب فى البلدة بين العثمانية والفرنساوية والأمراء المصرية وأهل البلدة . فهجم على داره المتهورون من العامة ونهبوه ، وهتكوا حريمه ، وعروه من ثيابه ، وسحبوه بينهم مكشوف الرأس من الأزبكية الى وكالة ذى الفقار بالجمالية — وبها عثمان كتخدا الدولة — فشفع فيه الحاضرون ، وأطلقوه بعد أن أشرف على الهلاك . وأخذه الخواجة أحمد بن محرم الى داره ، وأسكن روعه ، وألبسه ثيابا وأكرمه . وبقى بداره الى أن انقضت أيام الفتنة ، وظهرت الفرنساوية على المحاربين لهم ، وخرجوا من البلدة ، واستقر بها الفرنساوية .

فعند ذلك ذهب اليهم ، وشكا لهم ماحل به بسبب موالاته لهم ، فعوضوا عليه ما نهب له ، ورجع الى الحالة التى كان عليها معهم .

وكانت داره أخربها النهابون . فسكن ببيت البارودى بباب الخرق ، ثم انتقل منه الى بيت عبد الرحمن كتخدا القزدغلى بحارة عابدين ، وجدد بها عمارة .

وكان له ابنة خرجت عن طورها فى أيام الفرنسيس . فلما أشيع حضور الوزير والقبودان والانكليز ، وظهر على الفرنساوية الخروج من مصر ... فقتل ابنته المذكورة بيد حاكم الشرطة . فلما استقرت العثمانية بالديار المصرية ، عزل المترجم عن نقابة الأشراف ، وتولاها السيد عمر مكرم ... كما كان قبل الفرنساوية

ولما حضر محمد باشا خسرو ، أنهى اليه الكارهون له بأنه مرتكب للموبقات ، ويعاقر الشراب .. وغير ذلك . وأن ابنته كانت تذهب الى الفرنسيس بعلمه ، وأنه قتلها خوفا وتبرئة لنفسه من الشهرة التى لايمكنه سترها ، ولا يقبل عذره فيها ، ولا التنصل منها ، وأنه لايصلح لمشيخة سجادة السادة البكرية . وعرفوه أن هناك شخصا من سلسلتهم يقال له الشيخ محمد سعد ، وهو من جملة أتباع المترجم ، ولكنه فقير لايملك شيئا ، ولا دابة يركبها .

فقال الباشا : « أنا أواسيه وأعطيه » . فأحضروه له ، بعد أن ألبسوه تاجا كبيرا وثيابا — وهو رجل مبارك ، طاعن فى السن — فألبسه فروة سمور ، وقدم له حصانا معددا ، وقيد له ألف قرش . وسكن دارا بناحية باب الخرق ، وتريش حاله . وخمل أمر المترجم .

واشترى دارا بدرب الجماميز بعطفة الفرن ، وكان بظاهرها قطعة جنينة ، فاشتراها وغرس بها أشجارا ، وحسنها وأتقنها . وبنى له مجلسا مطلا عليها ، وبالأسفل مساطب ولواوين جلوس لطيفة ، واشترى دارين من دور الأمراء المتقدمين — بظاهر ذلك — وهدمهما ، وبنى بأنقاضهما وأخشابهما ، وباع ما كان تحت يده من حصص الالتزام ، وسد بأثمانها ديونه ، واقتصر على ايراده فيما يخصه من وقف جده لأمه الأستاذ الحنفى ، وتصدى لمناقمته وأذته أنفار من المتظاهرين مثل : السيد عمر مكرم النقيب ، والشيخ محمد وفا السادات ، وخلافهما ... حتى انه كان عقد لابنه سيدى أحمد ، على بنت المرحوم محمد أفندى البكرى . فتعصبوا عليه ، بعد عزله من المشيخة والنقابة ، وأبطلوا العقد ، وفسخوا النكاح ببيت القاضى !

وتسلط عليه من له دين أو دعوى أو مطالبة ، حتى يبيعوه حصصه . وكان قد اشترى مملوكا — فى أيام الفرنساوية — جميل الصورة . فلما حصل له ما حصل ، ادعى عليه البائع أنه أخذه بدون القيمة ، ولم يدفع له الثمن . فلم يثبت عليه ذلك .

وكان المملوك ذهب من عنده ، وتم الأمر والمصالحة على أن عثمان بيك المرادى أخذ ذلك المملوك لنفسه ... وقد تقدم ذكر قصته فى الحوادث السابقة .

ولم يزل المترجم على حالة خموله ، حتى تحرك عليه داء الفتق ، ومات على حين غفلة فى منتصف شهر ذى الحجة ، وصلى عليه بمسجد جده لأمه الشيخ شمس الدين أبى محمد الحنفى ، ودفن عند أسلافه بمشهد السادة البكرية بالقرافة . رحمه الله ، وعفا عنا وعنه .

* * *

ومات الأمير شاهين بيك المرادى — ويعرف بباب اللوق ، لأنه كان ساكنا هناك — وهو من مماليك مراد بيك ، وأصله جركسى الجنس . ولما أعتقه مراد بيك ، أنعم عليه بكشوفية اقليم الغربية ، ثم رجع الى مصر ، وأقام بطالا متطلعا للامارة ويرى أنه أحق بها من غيره .

ولما رجع المصريون الى مصر بعد قتل طاهر باشا — وكان الألفى غائبا ببلاد الانكليز — انضم اليه عثمان بيك البرديسى ووافقه على كراهة الألفى الباطنية . وكان هو أحد المباشرين والضاربين لحسين بيك الوشاش بالبر الغربى ليلة خروجهم وتعديتهم لملاقاة الألفى . ثم خرج من مصر مع عشيرته .

ولم يزل حتى مات فى منتصف شهر ربيع الأول من السنة المذكورة . والله أعلم .

المحـرم

الجمعة ٢ منه (١٧ فبراير ١٨٠٩ م) :

مرت سحابة سوداء مظلمة فى وقت العشـاء ، وحصـل فيها رعد مزعج وبرق مستتير شـديد اللمعان ، وأمطرت فى محـلات قليلا وفى أخرى كثيرا . ثم انجلت السماء سريعا ، فظهرت النجوم . وبعد أيام أخبر الواردون من ناحية بلاد السباحات بالغربية ، أنها أمطرت بتلك الناحية فى تلك الليلة بردا كبـيرا وصـغيرا ، والكبير فى مقدار حجر الطـاحون ! والصـغير فى مقدار بيض الدجاج . وتهدمت منهـا دور ، وقتلت مواشى وآدميـة ، وأهلكت زروعا كثيرة .

الأحد ٤ منه (١٩ فبراير ١٨٠٩ م) :

قتل الباشا حسـين بن الخبيرى ، وهو بترعة الفرعونية ، وأرسل رأسه الى مصر فعلقت بباب زويلة .

أواخره (حوالى منتصف مارس ١٨٠٩ م) :

حضر الباشا من ترعة الفرعونية ، وقد عجز عن سـدها بعـد أن بذل جهـده ، وفرض الفرض العظيمة على البلاد ، وأشـغلوا المراكب فى نقل الأحجار ليلا ونهارا ... والسيد محمد المحروقى متقيـد لذلك ، ومقيم بمسـجد الآثار لتشـهيل الحجارين ، ووسقها بالمراكب ، وقطعها من الجبل قطعا وصخورا . فكانوا يشـقون الجبل بألغـام البارود ، مثـل عمل الأفرنج ، وظهـر فى قطعهم كهوف ومغارات وتجاويف . وتحدث الناس بذلك بأنواع الأكاذيب والخرافات ، كقولهم : ظهر فى الجبل باب من حـديد ، وعليه أقفـال ، ففتحوه ونظروا من داخله أشخاصا على خيول ... الى غير ذلك !

وفيه : حضر قاصـد من قبودان باشا ، بطلب عوائده بالاسكندرية . فقال له حاكم الاسكندرية : « ينبغى أن تذهب الى الباشا بالترعة وتقابله » . فذهب اليه وقابله عند السد . فبات تلك الليلة ، وأصبح ميتا . فأخرجوه الى المقبرة .

ثم حضر قاصد آخر يخبر بوصول قابجى وعلى يده مرسومان : أحدهما : الاخبار عن صلح الدولة مع الانجليز والموسكوب ، وانفتاح البحر ، وأمن المسافرين . والثانى : الأمر بالسفر والخروج الى فتح الحرمين ، وطرد الوهابية عنهما . وأن يوسف باشا — الصدر السابق ، المعروف بالمعدن — تعين بالسفر للحرمين على طريق الشام . وكذلك سليمان باشا والى بغداد متعين أيضا بالسفر من ناحيتـه على الدرعية . وأحضر للباشا تقريرا بالولاية مجددا وخلعة وسيفا .

صـفر

السبت غرته (١٨ مارس ١٨٠٩ م) :

حضر الأغا الواصل الى بولاق . فركب لملاقاته أغـاة الينـكجرية والوالى وأرباب العـكاكيز فأركبوه فى موكب ، ودخلوا به من باب النصر وطلع الى القلعة . وقرأوا المراسيم بحضرة الجمع . وبعد الفراغ من قراءتها ضربوا مدافع وشنكا ،

وفيه : غيمت السماء بالسحاب ، وأمطرت كثيرا ، ونزل مطر ببركة الحاج .. وجدوا فيه سمكا صغيرا ، من جنس السمك الذى يعرف بالقاروص ، وصار يتنطط على الأرض .. وأحضروا منه الى مصر وشاهدناه ... وهو فى غاية البرودة !

وفيه : اهتم الباشا باخراج تجريدة الى الأمراء القبليين . وذلك أنه تقدم بالارسال اليهم يطالبهم بالغلال والأموال الميرية ، المرار العديدة ، ويعدون ولا يوفون . ووصل اليه من عندهم رضوان كتخدا البرديسى — وهو بالترعة — ومعه أجوبة وهدية ، وفيها خيول وجوار وعبيد وسكر وخصيان . فاغتاظ الباشا وقال : « أنا لست أطلب احسانهم وصدقاتهم ، حتى أنهم يضحكون على ذقنى بهذه الأمور . وحيث انهم لايزجعون عن الكامن فى رؤوسهم ، فلا بد من خروجى اليهم ومحاربتهم » . وأرسل الى من بمصر من الأكابر يأمرهم بالبراز والخروج . فخرج حسن باشا ، وصالح أغا قوج ، وطاهر باشا ، وأحمد بيك ، والكثير من أعيانهم بعساكرهم . وعدوا الى بر الجيزة ونصبوا وطاقهم وخيامهم .

ثم ان رضوان كتخدا لم يزل يلاطفه حتى توافق معه على وعد مقدار مسافة ذهاب الجواب ورجوعه أياما معدودة . فلما حضر من الترعة أخذ فى التشهيل والخروج . فانتقلت العساكر الى البر الغربى . وأخذ يستحث فى المطلوبات ، وخروج الخيام ، وجمع المراكب . وسافر قبودان بولاق الى جهة بحرى لجمع المراكب ، وفرضوا على القرى غلالا وجمالا . وذلك فى عقب مافرضه عليهم فى مهمات الترعة المتقدمة وخلافها : من بشارة القبطان والتقرير ، وما فى ضمن ذلك من حق طرق المباشرين والمعينين .. مع ما الناس فيه من القحط والغلاء فى الغلال وغيرها ، وعدم وجود الغلة . والذين لايقدرون على تحصيل الغلة ، يلزمونهم بدفع ثمنها ، بأقصى القيمة ، بعد مصانعة المباشرين لذلك ، واعطائهم الرشوات .

وحضر أيضا نعمان سراج باشا من عند ابراهيم بيك ، وقابل الباشا على الترعة . فلم ينفع حضوره أيضا ، ولم يسمع له قول ، ورجع مزيفا .

الأربعاء ٥ منه (٢٢ مارس ١٨٠٩ م) :

حضر على بيك أيوب ، وصحبته آخر — يقال له رضوان بيك البرديسى — فطلعا الى القلعة ، وتقابلا مع الباشا . وانخضع له على بيك أيوب وقبل رجله ، وترجى عنده فى عدم خروج التجريدة ، وكلمه فى أمر الغلال المنكسرة والجديدة ، وعلى أنهم يقومون بدفع الغلال القديمة بالثمن والجديدة بالكيل ، وليس عندهم مخالفة ... والقصد الامهال الى حصاد الغلال . فقال : « انهم اذا حصدوا الغلال أخذوها ، وفروا الى الجبال » . واستمر هذا القيل والقال نحو أربعة أيام ، ثم أشيع فى ثامنه الصلح . وفرح الناس ، واستبشروا بذلك لما يترتب وما يحصل من الفساد ، وأكل الزروعات ، وخراب البلدان ... فانهم أكلوا فى الأربعة أيام التى ترددوا فيها بالجيزة ، نيفا وخمسمائة فدان .

ولما أشيع بالجهة القبلية خروج العساكر للتجريدة ، انزعجوا وأيسوا من زروعاتهم ، وخرجوا من أوطانهم على وجوههم لايدرون أين يذهبون بأولادهم ونسائهم وقصاعهم ، وتفرقوا فى مصر والبلاد البحرية .

السبت ٨ منه (٢٥ مارس ١٨٠٩ م) :

أعيد أمر التجريدة . وأشيع خروج العساكر ثانيا . فانقبضت النفوس ثانيا ، وباتوا فى نكد ،

وطلبت السلف من المساتير والملتزمين ، وكتبت الدفاتر ، وحولت الأكياس ، وانبثت المعينون للطلب .

الاثنين ١٠ منه (٢٧ مارس ١٨٠٩ م) :

بطل أمر التجريدة .وانقضى أمر الصلح على شروط ، وهى : أنهم التزموا بثلث ماعليهم من غلال الميرى ، وقدره مائة ألف أردب وسبعة آلاف أردب ، بعد مناقشات ومحققات ، والذى تولى المناقشات معهم مساعدا للباشا شاهين بيك الألفى . والموعد أحد وثلاثون يوما .

وسافر على بيك أيوب ورضوان بيك البرديسى . وأكرمهما الباشا وخلع عليهما .

الثلاثاء ١١ منه (٢٨ مارس ١٨٠٩ م) :

قتل الباشا مصطفى أغا تابع حسن بيك فى قصبة رضوان ، ظلما وسبب ذلك : أنه لما نزل قبودان بولاق لجمع المراكب المطلوبة لسفر التجريدة ، فصادف شخصا من الارنؤود — الذين يتسببون فى بيع الغلال — فى مركب ومعه غلة ، وذلك عند قرية تسمى « سهرجت » ، فحجزه ليأخذ منه السفينة . فقال : « كيف تأخذها وفيها غلتى ؟ » . قال : « أخرج غلتك منها على البر واتركها ، فانها مطلوبة لمهمات الباشا » . فلم يرض ، وخاف على تبددها ، ولم يجد سفينة أخرى ، لأن جميع السفن مطلوبة مثلها ، وقال له : « عندما أصل بها الى مصر ، وأنقل منها الغلة ، أرسل معى من يأخذها » . فقال القبودان : « لا سبيل الى ذلك » وتشاجرا . فحنق القبودان على الأرنؤودى ، وسل عليه سيفه ليضربه ، فعاجله الأرنؤودى ، وضربه بالطبنجة فقتله . فأراد أتباع القبودان القبض عليه . ففر منهم الى البلدة — وبها جماعة من الدلاة معينون لقبض الفرضة — فالتجأ اليهم . فمانعوا عنه ... وتنازع الفريقان .

وكان مصطفى أغا المذكور ملتزم البلدة هناك ، وغائبا فى بعض شئونه ، فبلغه الخبر . فحضر اليهم ، وخاف من وقوع قتل أو شر يقع بالبلدة ، فيكون سببا لخراب الناحية . فقال : « يا جماعة ، اذهبوا بنا الى الباشا ليرى رأيه » . فرضوا بذلك . وحضر بصحبتهم — والقاتل معهم — وطلعوا الى ساحل بولاق . فعند ما وصلوا الى البر ، هرب القاتل ، وذهب عند عمر بيك الأرنؤودى الساكن ببولاق . فتبعه الأمير مصطفى المذكور . فقال له عمر بيك : « اذهب الى الباشا وأخبره أنه عندى ، وأنت لا بأس عليك » . ففعل . فقال له الباشا : « ولأى شىء لم تحتفظ عليه وتتركه حتى يهرب ؟ » فاعتذر بعدم قدرته على ذلك من الدلاتية الملتجىء اليهم — وكأنهم هم الذين أفلتوه — فأمر بحبسه . فأرسل الى عمر بيك ، فحضر الى الباشا وترجى فى اطلاقه . فوعده أنه فى غد يطلقه اذا حضر القاتل . فقال : « انه عند أزمير أغا ، وهو لايسلم فيه » ، وركب الى داره .

فلما كان فى الصباح ، أمر بقتل الأمير مصطفى المذكور . فأنزلوه الى الرميلة ، ورموا رقبته عند باب القلعة ظلما .

وفى صبحها : قتلوا شخصا من الدلاة بسبب هذه الحادثة .

الأربعاء ١٢ منه (٢٩ مارس ١٨٠٩ م) :

قتل الأرنؤود شخصين من الدلاة أيضا .

الخميس ١٣ منه (٣٠ مارس ١٨٠٩ م) :

أرسل الباشا وطلب الأرنؤودى القاتل للقبودان من عمر بيك ، وشدد فى الطلب ، وقال : « ان لم يرسله .. والا أحرقت عليه داره » . فامتنع من

ارساله ، وجمع اليه طائفة الأرنؤود ، وصالح أغا قوج جاره .

وركب الباشا ، وذهب الى ناحية الشيخ فرج . وحصل ببولاق قلقة وانزعاج . ثم ركب الباشا راجعا الى داره بالأزبكية وقت الغروب . وكثرت الأرجاف واللقلقة بين الأرنؤود والدلاتية .

السبت ١٥ منه (أول ابريل ١٨٠٩ م) :

قتل الأرنؤود شخصين من الدلاتية أيضا جهة قناطر السباع . ثم ان القاتل الذى قتل القبودان التجأ الى كبير من كبار الأرنؤود . فأرسل الباشا الى حسن باشا يطلب منه ذلك الكبير ، وأكد فى طلبه ، أو أنه يقطع رأس القاتل ويرسلها — فكأنه فعل — وأرسل اليه برأس ملفوفة فى ملاية تسكينا لحدته ! وبردت القضية ، وسكنت الحدة ، وراحت على من راحت عليه .

أواخره (حوالى منتصف ابريل ١٨٠٩ م) :

أمر الباشا بتحرير دفاتر فرضة الأطيان ، وزادوا فيها عن عام الشراقى الماضى الثلث ، وربطوها ورتبوها أربع مراتب : تزيد كل ضريبة عن الأخرى مائة نصف فضة ، أعلاها يبلغ ثمانمائة نصف فضة . على أن الفرضة الماضية بقي الكثير منها بالذمم ، لخراب القرى وعجزهم . وأختلى لتنظيم ذلك من الأفندية والأقباط بجهات متباعدة : الأفندية بربع أيوب ببولاق ، والأقباط بدير مصر العتيقة . حتى حرروا ذلك وتمموه ورتبوه فى عدة أيام . ووقع الطلب فى جانب معجلا ، سموه « الترويجة » .

وفيه : أمر الباشا عمر بيك الأرنؤودى بالسفر من مصر ، وقطع خرجه ورواتبه هو وعسكره . فلم تمنعه المخالفة ، وحاسب على المنكسر له ولعسكره من العلائف ، وكذلك حلوان البلاد التى فى تصرفه . فبلغ نحو ستمائة كيس وزعت على دائرة الباشا وخلافهم .

وكان الباشا ضبط جملة من حصص الناس ، واستولى عليها من بلاد القليوبية ، بحرى شبرا ، واختصها لنفسه . فلما اهتولى على حصص عمر بيك ، ودفع له حلوانها — وهى بالمنوفية والغربية والبحيرة — عوض بعض من يراعى جانبه من ذلك . وأخذ عمر بيك ومن يلوذ به فى تشهيل أنفسهم وقضاء حوائجهم .

ربيع الأول

(١٦ ابريل — ١٥ مايو ١٨٠٩ م)

فيه : شرع السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فى عمل مهم لختان ابن ابنته ، ودعا الباشا والأعيان ، وأرسلوا اليه الهدايا والتعابى . وعمل له زفة ، يوم الاثنين سادس عشره ، مشى فيها أرباب الحرف والعربات والملاعيب وجمعيات ، وعصب صعايدة وخلافهم ، من أهالى بولاق والكفور والحسينية وغيرها من جميع الأصناف ، وطبول وزمور وجموع كثيرة . فكان يوما مشهودا ، اكتريت فيه الأماكن للفرجة . وكان هذا الفرح هو آخر طنطنة السيد عمر بمصر . فانه حصل له عقيب ذلك ماسيتلى عليك قريبا من النفى والخروج من مصر .

وفيه : كمل سد ترعة الفرعونية ، واستمر العمل فيها وفى تأييد السد بالأحجار والمشمعات والأتربة نحو ستة أشهر ، وصرف عليها من الأموال ما لا يحصى . وجرى مجرى البحر الشرقى وغزر ماؤه ، وجرت فيه السفن من دمياط بعد أن كان مخاضة ، وملحت عذوبة النيل بما انعكس فيه وخالطه من ماء البحر الملح ... الى قبلى « فارس كور » .

وأقام بالسد عمر بيك تابع الأشقر لخفارته وتعهد الخلل ، وكتم الجسر من النشع والتنفيس ، وسكن

هنـاك ولم يفارقه . واسـتمر فى هـذه الوظيفة والخدمة ، ولم يقم بمصر .

وفيه : تشحطت الغلال وغلا سعرها . حتى بلغ الأردب القمح ألف وستمائة نصف فضـة ، وعز وجوده بالرقع والعرصات . وأما السـواحل فلا يكاد يوجد بها شيء من الغلة بطول السنة ، ولولا لطف الله بوجود الذرة لهلكت الخلائق . ومع ذلك استمرار المغارم والفرض ، حتى فرض الغلة عين ، وكذلك تبن وجمال ومـا ينضـاف الى ذلك مما سمعته غير مرة مما يطول شرحه .

وفيه : نودى على صرف الفرانسة والمحبـوب والمجر ، كما نودى فى العام المـاضى ، لأنه لمـا لودى بنقص صرفهـا ، ومضى نحـو الشـهر أو الشهرين ، رجع الصرف الى ما كان عليه وزيادة . فأعيد النداء كذلك ... وسـيعود الخلاف مادام الكرب والضيق بالنـاس . على أن هذه المنـاداة والأوامر بالنقص والزيادة ليست من باب الشفقة على الناس ، ولا الرحمة بهم ، وانمـا هى بحسب أغراضهم وزيادة طمعهم فانه اذا توجهت المطالبات بالفرض والمغارم ، نودى بالنقص ليزيد الفرط ، وتتوفر لهم الزيادة ، ويحصل التشديد والمعاقبـة على من يقبض بالزيادة من أهل الأسـواق واذا كان الدفع من خزائنهم فى عـلائف العسـكر أو لوازمهم الكبيرة ، قبضوها بأزيد من الزيادة التى نادوا عليها ، من غير مبالاة ولا احتشام ... تناقض ما لنا الا السكوت عنه !

فى اواخره (منتصف مايو ١٨٠٩ م) :

تواجدت الغـلال ، وانحل سـعرها . وحضر الفلاحون بيدارى الغلة ، وانحط السعر ... والحمد لله !

ربيع الآخر

الأحد ٦ منه (٢١ مايو ١٨٠٩ م) :

وردت مراسيم من الروم ، وبشـارة بمولودة ولدت للسلطان وسموها « فاطمة » . وفى المراسيم الأمر بالزينـة . فاقتضى الرأى أن يعملوا شـنكا ومدافع من القلعة ، تضرب فى الأوقات الخمسـة سبعة أيام .. وهذا شيء لم يسمع بمثله فيما سبق : أن يعملوا للأنثى شـنكا أو زينة ، أو يذكر ذلك مطلقا ، وانما يعمل ذلك للمولود الذكر .. من بدع الأعاجم !

الثلاثاء ٨ منه (٢٣ مايو ١٨٠٩ م) :

حضر من الأمراء المصريين القبالى مرزوق بيك ابن ابراهيم بيك ، وسليم أغا مستحفظان ، وقاسم بيك سلحدار مراد بيك ، وعلى بيك أيوب ، حسب الاتفاق المتقدم فى تقرير الصلح . ولكن لم يكن سليم أغا مذكورا فى الحضور ، بل كان منجمعا وممتنعا عن التداخل فى هده الأحوال . والسبب فى حضوره أن زوجته توفت من نحو نصف شهر ، فحضر لأجل تركتها ومتاعهـا ومتاعه الذى عندها وحصصها .

ولما حضر وجد الباشا استولى على ذلك ، وأخذ المتاع والمصاغ والجواهر والعقار ، وأخذ الحصص ، وأخذ حلوانها وذلك بيد محمود بيك الدويدار . فلما حضر سليم أغا لم يجـد شيئا . لا دار ولا عقـار ولا نافخ نار ! فنزل عنـد على بيك أيوب بمنزله بشمس الدولة فحضر اليه محمـود بيك الدويدار والترجمان ، وأخـذا بخاطره وطمناه ، وأخبراه أن الباشا سيعوض عليه ما ذهب منه ... وزيادة ! ووزعا له فوق السـطوح . فلم يسعه الا التسليم .

وفيه : سقط سقف القصر الذى أنشأه الباشا بشبرا . وشرعوا فى تعميره ثانيا .

وفيه : وصل الخبر بحضور زوجة الباشا أم أولاده ، وابنه الصغير — واسمه اسماعيل — وابن بونابارته الخازندار ، وكثير من أقاربهم وأهاليهم ... حضر الجميع من بلدهم « قولة » الى سكندرية . فانهم لما طابت لهم مصر ، واستوطنوها وسكنوها ، وتنعموا فيها ... أرسلوا الى أهاليهم وأولادهم وأقاربهم بالحضور . فكانوا فى كل وقت يأتون أفواجا أفواجا ، نساء ورجالا وأطفالا .

فلما وصل خبر وصولهم الى سكندرية ، سافر لملاقاتها ابنها ابراهيم بيك الدفتردار . وذلك حادى عشره .

الأحد ١٢ منه (٢٨ مايو ١٨٠٩ م) :

حضر المذكور قبل حضور الواصلين . ولما وصلوا نزل الباشا لملاقاتهم الى بولاق .

الاثنين ١٤ منه (٢٩ مايو ١٨٠٩ م) :

نبهوا على جميع النساء والخوندات ، وكل من كانت لها اسم فى الالتزام ، أن يركبن بأسرهن ويذهبن الى ملاقاة امرأة الباشا ببولاق ، وذلك صبح يوم الأربعاء ، واعتذرت الست نفيسة المرادية بأنها مريضة ، ولا تقدر على الحركة والخروج . فلم يقبلوا لها عذرا .

الأربعاء ١٦ منه (٣١ مايو ١٨٠٩ م) :

اجتمع السواد الأعظم من النساء بساحل بولاق على الحمارة المكارية — وهم أزيد من خمسمائة مكارى — حتى ركبت زوجة الباشا ، وساروا معها الى الأزبكية . وضربوا لوصولها وحلولها بمصر عدة مدافع كثيرة من القلعة والأزبكية . ثم وصلت الهدايا والتقادم ، وأقبلت من كل ناحية الهدايا المختصة بالأولاد ، والمختصة بالنساء .

جمادى الأولى

٣ منه (١٦ يونية ١٨٠٩ م) :

نزل عمر بيك الأرنؤودى الى المراكب من بيته من بولاق ، وسافر على طريق دمياط ليذهب الى بلاده ، وسافر معه نحو المائة — وهم الذين جمعوا الأموال — واجتمع لعمر بيك المذكور من المال والنوال أشياء كثيرة ، عبأها فى صناديق كثيرة وأخذها معه . وذلك خلاف ما أرسله الى بلاده فى دفعات قبل تاريخه .

١٥ منه (٢٨ يونية ١٨٠٩ م) :

سافر على بيك أيوب ، وسليم أغا مستحفظان الى ناحية قبلى . واستمر بمصر مرزوق بيك ، وقاسم بيك المرادي ؛

وفيه : طلب الباشا ألف كيس من المعلم غالى ، وألزمه بها . فوزعها على المباشرين والكتبة وجمعها فى أقرب زمن .

وفيه : حضر سلحدار الوزير يوسف باشا وعلى يده مرسوم مضمونه : طلب ما كان أحدثه حين كان بمصر على أوراق الاقطاعات والفراغات وتقاسيط الالتزام ، الذى سموه « قصر اليد » و « خرج القلم » ، وجعل ايراد ذلك لنفسه . فأرسل بطلب ذلك ، من تاريخ سنة سبعة عشر ومائتين وألف الى وقت تاريخه ، حسب قدر ذلك فبلغ ليفا وأربعة آلاف كيس .

وفيه : شرعوا فى تحرير دفتر بنصف فائظ الملتزمين ، ودفتر آخر بفرض مال على الرزق الأحباسية المرصدة على المساجد والأسبلة والخيرات وجهات البر والصدقات ، وكذلك أطيان الأوسية المختصة أيضا بالملتزمين . وكتبوا بذلك مراسيم الى القرى والبلاد ، وعينوا بها معينين وحق طرق

من طرف كشاف الأقاليم بالكشف على الرزق المرصدة على المساجد والخيرات .

وتقدموا الى كل متصرف فى شىء من هذه الأطيان ، وواضع عليها يده : بأن يأتى بسنده الى الديوان ، ويجدد سنده ، ويقوى بمرسوم جديد ، وان تأخر عن الحضور فى ظرف أربعين يوما ، يرفع عنه ذلك ، ويمكن منه غيره .

وذكروا فى مرسوم الأمر علة وحجة ، لم يطرق الأسماع نظيرها ، بأنه اذا مات السلطان أو عزل ، بطلت تواقيعه ومراسيمه ، وكذلك نوابه ، ويحتاج الى تجديد تواقيع من نواب المتولى الجديد .. ونحو ذلك

ثم ليعلم أن هذه الارصادات والأطيان موضوعة من أيام الملك الناصر يوسف صلاح الدين الأيوبى فى القرن الخامس ، وجعلها من مصاريف بيت المال ، ليصل الى المستحقين بعض استحقاقهم من بيت المال بسهولة ثم اقتدى به فى ذلك الملوك والسلاطين والأمراء الى وقتنا هذا فيبنون المساجد والتكايا والربط والخوانق والأسبلة ، ويرصدون عليها أطيانا يخرجونها من زمام أوسيتهم ، فيستغل خراجها أو غلالها لتلك الجهة .

وكذلك يربطون على بعض الأشخاص من طلبة العلم والفقراء ، على وجه البر والصدقة ، ليتعيشوا بذلك ويستعينوا به على طلب العلم واذا مات المرصد عليه ذلك ، قرر القاضى أو الناظر خلافه ممن يستحق ذلك ، وقيد اسمه فى سجل القاضى ودفتر الديوان السلطانى عند الأفندى المقيد بذلك ، الذى عرف بكاتب الرزق فيكتب له ذلك الأفندى سندا بموجب التقرير يقال له « الافراج » ، ثم يضع عليه علامته ثم علامة الباشا والدفتردار . ولكل اقليم من الأقاليم القبلية والبحرية دفتر مخصوص عليه طرة من خارج مكتوب فيها اسم ذلك الاقليم ، ليسهل الكشف والتحرير والمراجعة عند الاشتباه وتحرير مقادير حصص أرباب الاستحقاقات

ولم يزل ديوان الرزق الاحباسية محفوظا مضبوطا فى جميع الدول المصرية ، جيلا بعد جيل ، لايتطرقه خلل ، الا ما نزل عنه أربابه لشدة احتياجهم — بالفراغ لبعض الملتزمين — بقدر من الدراهم معجل ويقرر للمفرغ على نفسه قدرا مؤجلا — دون القيمة الأصلية — فى نظير المعجل الذى دفعه للمفرغ . ويسمونها حينئذ « داخل الزمام » . ولم تزل على ذلك بطول القرون الماضية .

وتملك الفرساوية الديار المصرية ، فلم يتعرضوا لشىء من ذلك ولما حضر شريف أفندى الدفتردار — بعد دخول يوسف باشا الوزير — ووجه الطلب على الملتزمين بأن يدفعوا للدولة حلوانا جديدا ، على النظام والنسق الذى ابتدعوه للتحيل على تحصيل المال بأى وجه ... زاعمين أن أرض مصر صارت دار حرب بتملك الفرنساوية ! وأنهم استنقذوها منهم ، واستولوا عليها استيلاء جديدا ، وصارت جميع أراضيها ملكا لهم فمن يريد الاستيلاء على شىء من أرض وغيرها ، فليشتره من نائب السلطان بمبلغ الحلوان الذى قدروه .

واطلعوا على التقاسيط ، وفى بعضها ما رفع عنه الميرى الذى قبض للخزنة باذن الولاة ، بعد المصالحات والتعويض من المصاريف والمصارف الميرية ، كالعلائف والغلال والبعض تمم ذلك بمراسيم سلطانية كما يقولون — شريفة ! بحيث يصير الالتزام مثل الرزق الاحباسية ، ويسمونه « خزينة بند » ومنهم من أبقى على التزامه شيئا قليلا ، سموه « مال الحماية » ... فلم يسهل بهم ابطال ذلك ، بل جعل عليها الدفتردار الميرى الذى كان مقيدا عليها أو أقل أو أزيد ، بحسب واضع

اليد واكرامه ، ان كان ممن يكرم ، وضمه الى مال الحماية الأصلى أو المستجد فقط .

وضيع على الناس سعيهم وما بذلوه من مرتباتهم وعلائفهم التى وضعوها وقيدوها فى نظير جعلهـا « خزينة بند » كما ذكر .

ثم تقيد لكتابة الاعلامات عبد الله أفندى رامز القبـودان وقاضى باشا ، وسمى فى ذلك الوقت بكاتب الميرى ، وتوجه نحوه النـاس لأجل كتابة الاعـلامات لثبـوت رزقهم الأحباسية وتجـديد سنداتها . فتعنت عليهم بضروب من التعنت : كأن يطلب من صاحب العرضحال اثبات استحقاقه ، فاذا ثبت له ، لا يخلو اما أن يكون ذلك بالفـراغ أو المحلول ... فيكلفه احضـار السـندات ، وأوراق الفراغات القديمة ، فربما عـدمت أو بليت لتقادم السنين ، أو تركها واضع اليد لاستغنائه عنها بالسند الجديد ، أو كان القديم مشتملا على غير المفروغ عنه ، فيخصم بهامشه بالمنزول عنه ، ويبقى القديم عند صاحب الأصل ... فان أحضره اليه ، تعلل بشىء آخر ، واحتج بشبهة أخرى . فاذا لم يبق له شبهة ، طالبه بحلوانها عن مقدار ايرادها ثلاث سنوات ... والا فخمس سنوات ، وذلك خلاف المصاريف .

فضج النـاس ، واستغاثوا بشريف أفنـدى الدفتردار . فعزل عبد الله أفندى رامز المذكور عن ذلك ، وقيد أحد كتابه بكتابة الاعلامات ، وقرر على كل فدان عشرة أنصاف فضة فما دونها ... برسمها فى السند الجديد ، وجعلها مال حماية ، وأوهم النـاس أن مال الحمـاية يكون زيادة فى تأكيد الأحباس ، وحماية له من تطـرق الخلل . استسهل الناس ذلك ، وشاع فى الاقليم المصرى ، أقبل الناس من البلاد القبلية والبحرية لتجـديد سنداتهم ، فطفقوا يكتبون السندات على نسـق قاسيط الالتزام ، لا على الوضع القديم ، ويعلم عليها الدفتردار فقط . وأما الصـورة القـديمة فـكانت تكتب فى كاغد كبـير ، بخط عـــربى مجود ، وعليهـا طرة بداخلهـا اسم والى مصر ، وممهورة بختمه الكبير ، وعليها علامة الدفتردار ، وبداخلها صورة أخرى تسمى « التذكرة » مستطيلة على صورة التقسيط الفرمة ، ممهورة أيضا وعليها العلامة والختم ، وهى متضمنة مافى الكبيرة . وعلى ذلك كان استمرار الحال الى هذا الأوان ... من قرون خلت ، ومدد مضت .

وفيه أيضـا : حرروا دفتـرا لاقليم البحيرة بمساحة الطين الرى والشراقى ، وأضافوا اليه طين الأوسية والرزق ، وكتبوا بذلك مناشير ، وأخرج المباشرون كشوفاتها بأسماء الملتزمين . فضج الناس واجتمعوا الى مشايخ الأزهر وتشكوا ، فوعدوهم بالتكلم فى شأن ذلك بعد التثبت .

وفيه : قبض أغاة التبديل على شخص من أهل العلم — من أقارب السيد حسن البقلى — وحبسه. فأرسل المشايخ يترجون فى اطلاقه . فلم يفعـل ، وأرسله الى القلعة .

وفيه : سعى محمد أفندى طبل — ناظر المهمات — لصديقه السيد سلامة النجارى عند الباشا فى انعام ووظيفة . وسبب ذلك أن المذكور أرسل جملة طاقات من الأقمشة الهندية الغريبة المقصبة وغيرها ، وحصانا من أعظم خيول المصريين — كان اشتراه منهم — هدية الى محمد أفندى المذكور . فاقتضت مروءته أنه أخذها وقدمها للباشا ، وقال له : « ان السيد سلامة أحضر هذه الهدية لأفندينا ، شـكرا لانعامه السابق عليه » . فقبلها الباشا ، وأنعم عليه بعشرة أكياس ، وأمر محمـد أفندى بأن يجعله فى وظيفة معه .

وفيه أيضا : شرعوا فى تحرير دفتر بنصف فائظ الملتزمين بأنواع الأقمشة وباعة النعالات — التى هى الصرم والبلغ — وجعلوا عليها ختمية . فلا يباع

منها شيء حتى يعلم بيد الملتزم ويختم ... وعلى وضع الختم والعلامة قدر مقدر بحسب تلك البضاعة وثمنها . فزاد الضجيج واللغط فى الناس .

١٧ منه (٣٠ يونية ١٨٠٩ م) :

حضر المشايخ بالأزهر على عادتهم لقراءة الدروس . فحضر الكثير من النساء والعامة ، وأهل المسجون — وهم يصرخون ويستغيثون — وأبطلوا الدروس . واجتمع المشايخ بالقبلة ، وأرسلوا الى السيد عمر النقيب . فحضر اليهم ، وجلس معهم . ثم قاموا وذهبوا الى بيوتهم . ثم اجتمعوا فى ثانى يوم ، وكتبوا عرضحالا الى الباشا ... يذكرون فيه المحدثات من المظالم والبدع ، وختم الأمتعة ، وطلب مال الأوسية والرزق ، والمقاسمة فى الفائظ ، وكذلك أخذ قريب البقلى وحبسه بلا ذنب . وذلك بعد أن جلسوا مجلسا خاصا ، وتعاهدوا وتعاقدوا على الاتحاد وترك المنافرة .

وعند ذلك حضر ديوان أفندى وقال : « الباشا يسلم عليكم ، ويسأل عن مطلوباتكم » . فعرفوه بما سطروه اجمالا ، وبينوه له تفصيلا . فقال : « ينبغى ذهابكم اليه ، وتخاطبوه مشافهة بما تريدون ، وهو لايخالف أوامركم ، ولا يرد شفاعتكم . وانما القصد أن تلاطفوه فى الخطاب لأنه شاب مغرور جاهل ، وظالم غشوم ، ولا تقبل نفسه التحكم ، وربما حمله غروره على حصول ضرر بكم ، وعدم انفاذ الغرض » .

فقالوا بلسان واحد : « لا نذهب اليه أبدا مادام يفعل هذه الفعال ، فان رجع عنها وامتنع عن احداث البدع والمظالم عن خلق الله ، رجعنا اليه ، وترددنا عليه كما كنا فى السابق ، فاننا بايعناه على العدل لا على الظلم والجور » . فقال لهم ديوان أفندى : « وأنا قصدى أن تخاطبوه مشافهة ويحصل انفاذ الغرض » . فقالوا : « لا نجتمع عليه أبدا ولا تثير فتنة ، بل نلزم بيوتنا وتقتصر على حالنا ، ونصبر على تقدير الله بنا وبغيرنا » .

وأخذ ديوان أفندى العرضحال ، وأوعدهم برد الجواب . ثم بعد رجوعه ، أطلقوا قريب السيد حسن البقلى الذى كان محبوسا ولم يعلم ذلك . ثم انتظروا عودة ديوان أفندى ، فأبطأ عليهم ، وتأخر عوده الى خامس يوم بعد الجمعية . فاجتمع الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى عند محمد أفندى طبل ناظر المهمات — وثلاثتهم فى نفسهم للسيد عمر ما فيها — وتناجوا مع بعضهم ، ثم انتقلوا فى عصريتها وتفرقوا .

وحضر المهدى والدواخلى الى السيد عمر وأخبراه أن محمد أفندى ذكر لهم أن الباشا لم يطلب مال الأوسية ولا الرزق ، وقد كذب من نقل ذلك ، وقال : « انه يقول انى لا أخالف أوامر المشايخ . وعند اجتماعهم عليه ومواجهته يحصل كل المراد » . فقال السيد عمر : « أما انكاره طلب مال الرزق والأوسية فها هى أوراق من أوراق المباشرين عندى لبعض الملتزمين ، مشتملة على الفرضة ونصف الفائظ ، ومال الأوسية والرزق . وأما الذهاب اليه فلا أذهب اليه أبدا ، وان كنتم تنقضون الأيمان والعهد الذى وقع بيننا ... فالرأى لكم » . ثم انفض المجلس .

وأخذ الباشا يدبر فى تفريق جمعهم ، وخذلان السيد عمر..لما فى نفسه منه من عدم انفاذ أغراضه، ومعارضته له فى غالب الأمور ..ويخشى صولته ، ويعلم أن الرعية والعامة تحت أمره : ان شاء جمعهم ، وان شاء فرقهم . وهو الذى قام بنصره ، وساعده وأعانه ، وجمع الخاصة والعامة حتى ملكه الاقليم . ويرى أنه ، ان شاء ، فعل بنقيض ذلك . فطفق يجمع اليه بعض أفراد من أصحاب المظاهر ، ويختلى معه ، ويضحك اليه ... فيغتر بذلك ، ويرى

أنه صار من المقربين ، وسيكون له شأن ان وافق ونصح . فيفرغ له جراب حقده ، ويرشده بقدر اجتهاده لما فيه من المعاونة .

ثم فى ليلتها حضر ديوان أفندى وعبد الله بكتاش الترجمان ، وحضر المهدى والدواخلى ... الجميع عند السيد عمر . وطال بينهم الكلام والمعالجة فى طلوعهم ومقابلتهم الباشا ، ورقرق لذلك كل من المهدى والدواخلى ... والسيد عمر مصمم على الامتناع . ثم قالوا : « لابد من كون الشيخ الأمير معنا ، ولا نذهب بدونه » . فاعتذر الشيخ الأمير بأنه متوعك . ثم قام المهدى والدواخلى وخرجا ، صحبة ديوان أفندى والترجمان ، وطلعوا الى القلعة ، وتقابلوا مع الباشا ، ودار بينهم الكلام . وقال فى كلامه : « أنا لا أرد شفاعتكم ، ولا أقطع رجاءكم ، والواجب عليكم اذا رأيتم منى انحرافا أن تنصحونى وترشدونى » ! ثم أخذ يلوم على السيد عمر فى تخلفه وتعنته ، ويثنى على البواقى « وفى كل وقت يعاندنى ويبطل أحكامى ، ويخوفنى بقيام الجمهور » .

فقال الشيخ المهدى : « هو ليس الا بنا ، واذا خلا عنا فلا يسوى بشىء . ان هو الا صاحب حرفة ، أو جابى وقف ... يجمع الايراد ويصرفه على المستحقين » !

فعند ذلك تبين قصد الباشا لهم ، ووافق ذلك ما فى نفوسهم من الحقد للسيد عمر ... والشيخ الدواخلى حضوره نيابة عن الشيخ الشرقاوى وعن نفسه ، ثم تناجوا معه حصة ، وقاموا منصرفين مذبذبين ومظهرين خلاف ماهو كامن فى نفوسهم من الحقد وحظوظ النفس ، غير مفكرين فى العواقب . وحضروا عند السيد عمر — وهو ممتلىء بالغيظ مما حصل من الشذوذ ونقض العهد — فأخبروه بأن الباشا لم يحصل منه خلاف . وقال : « أنا لا أرد شفاعتكم ، ولكن نفسى لا تقبل التحكم ، والواجب عليكم — اذا رأيتمونى فعلت شيئا مخالفا — أن تنصحونى وتشفعوا . فأنا لا أردكم ، ولا أمتنع من قبول نصحكم . وأما ما تفعلونه من التشنيع والاجتماع بالأزهر ، فهذا لايناسب منكم ، وكأنكم تخوفونى بهذا الاجتماع ، وتهييج الشرور ، وقيام الرعية ، كما كنتم تفعلون فى زمان المماليك ، فأنا لا أفزع من ذلك . وان حصل من الرعية أمر ما ، فليس لهم عندى الا السيف والانتقام » .

فقلنا له : « هذا لايكون ، ونحن لانحب ثوران الفتن ، وانما اجتماعنا لأجل قراءة البخارى .. وندعو الله برفع الكرب » . ثم قال : « أريد أن تخبرونى عمن انتبذ لهذا الأمر ، ومن ابتدأ بالخلف » فغالطناه ، وأنه وعدنا بابطال الدمغة ، وتضعيف الفائظ الى الربع بعد النصف ، وأنكر الطلب بالأوسية والرزق من اقليم البحيرة ثم قاموا منصرفين ، وانفتح بينهم باب النفاق ، واستمر القال والقيل ، وكل حريص على حظ نفسه ، وزيادة شهرته وسمعته ، ومظهر خلاف ما فى ضميره .

جمادى الآخرة

الجمعة غرته (١٤ يولية ١٨٠٩ م) :

حضر ديوان أفندى وعبد الله بكتاش الترجمان . واجتمع المشايخ ببيت السيد عمر ، وتكلموا فى شأن الطلوع الى الباشا ومقابلته . فحلف السيد عمر أنه لا يطلع اليه ، ولا يجتمع به ، ولا يرى له وجها ... الا اذا أبطل هذه الأحدوثات وقال : « ان جميع الناس يتهمونى معه ، ويزعمون أنه لايتجارأ على شىء يفعله الا باتفاقى معه ، ويكفى ما مضى ، ومهما تقادم يتزايد فى الظلم والجور » ، وتكلم كلاما كثيرا . فلما لم يجبهم الى الذهاب ، قالوا : « اذن يطلع المشايخ » . وأرسلوا الى الشيخ الأمير ، فاعتذر بأنه متوعك الجسم ، ولا يقدر على الحركة ولا الركوب .

ثم اتفقوا على طلوع الشيخ عبد الله الشرقاوى والمهدى والدواخلى والفيومى . وذلك على خلاف غرض السيد عمر ، وقد ظن أنهم يمتنعون لامتناعه ، للعهد السابق والأيمان . فلما طلعوا الى الباشا وتكلموا معه — وقد فهم كل منهم لغة الآخر الباطنية — ثم ذاكروه فى أمر المحدثات . فأخبرهم أنه يرفع بدعة الدمغة ، وكذلك يرفع الطلب عن الأطيان الأوسية ، وتقرير ربع الفائظ . وقاموا على ذلك ، ونزلوا الى بيت السيد عمر ، وأخبروه بما حصل . فقال : « وأعجبكم ذلك ؟ » قالوا ... (١) قال : « انه أرسل يخبرنى بتقرير ربع المال الفائظ ، فلم أرض وأبيت الا رفع ذلك بالكلية . فانه فى العام السابق لما طلب احداث الربع ، قلت له هذه تصير سنة متبعة . فحلف أنها لاتكون بعد هذا العام وذلك لضرورة النفقة ، وان طلبها فى المستقبل يكون ملعونا ومطرودا من رحمة الله ، وعاهدنى على ذلك . وهذا فى علمكم كما لايخفاكم . قالوا : نعم ... وأما قوله انه رفع الطلب الى الأوسية والرزق ، فلا أصل لذلك ، وهاهى أوراق البحيرة .. وجهوا بها الطلب » .

فقالوا : « اننا ذكرنا له ذلك فأنكر ، وكابرناه بأوراق الطلب ، فقال : ان السبب فى طلب ذلك من اقليم البحيرة خاصة ، أن الكشافين لما نزلوا للكشف على أراضى الرى والشراقى — ليقرروا عليها فرضة الأطيان — حصل منهم الخيانة والتدليس . فاذا كان فى أرض البلدة خمسمائة فدان رى ، قالوا عليها مائة ، وسموا الباقى رزقا وأوسية . فقررت ذلك عقوبة لهم فى نظير تدليسهم وخيانتهم » . فقال السيد عمر : « وهل ذلك أمر واجب فعله ؟ أليس هو مجرد جور وظلم أحدثه فى العام الماضى ... وهى فرضة الأطيان التى ادعى لزومها لاتمام العلوفة ، وحلف أنه لا يعود لمثلها ؟ فقد عاد وزاد ، وأنتم توافقونه وتسايرونه ، ولا تصدونه ولا تصدعونه بكلمة ، وأنا الذى صرت وحدى مخالفا وشاذا ! » . ووجه عليهم اللوم فى نقضهم العهد والأيمان .

وانفض المجلس ، وتفرقت الآراء ، وراج سوق النفاق ، وتحركت حفائظ الحقد والحسد ، وكثر سعيهم وتناجيهم بالليل والنهار ... والباشا يراسل السيد عمر ، ويطلبه للحضور اليه والاجتماع به ، ويعده بانجاز ما يشير عليه به . وأرسل اليه كتخداه ليترفق به ، وذكر له أن الباشا يرتب له كيسا فى كل يوم ، ويعطيه فى هذا الحين ثلثمائة كيس خلاف ذلك ... فلم يقبل .

ولم يزل الباشا متعلق الخاطر بسببه ، ويتجسس ويتفحص عن أحواله ، وعلى من يتردد عليه من كبار العسكر ... وربما أغرى به بعض الكبار فراسلوه سرا ، وأظهروا له كراهيتهم للباشا ، وأنه ان اتبذ لمناقمته ساعدوه ، وقاموا بنصرته عليه . فلم يخف على السيد عمر مكره ، ولم يزل مصمما وممتنعا عن الاجتماع به ، والامتثال اليه ، ويسخط عليه ... والمترددون أيضا ينقلون ويحرفون بحسب الأغراض والأهواء .

واتفق فى أثناء ذلك : أن الباشا أمر بكتابة عرضحال بسبب المطلوب لوزير الدولة — وهى الأربعة آلاف كيس — ويذكر فيه أنها صرفت فى المهمات : منها ماصرف فى سد ترعة الفرعونية — ومبلغه ثمانمائة كيس — وعلى تجاريد العساكر لمحاربة الأمراء المصرية ، حتى دخلوا فى الطاعة ، كذلك مبلغا عظيما ، وما صرف فى عمارة القلعة والمجراة التى تنقل المياه اليها مبلغا أيضا ، وكذلك فى حفر الخلجان والترع ، ونقص المال الميرى بسبب شراقى البلاد ونحو ذلك . وأرسله الى السيد

(١) كذا فى الأصل .

عمر ليضع خطه وختمه عليه فامتنع وقال : « أما ماصرفه على سد الترعة ، فان الذى جمعه وجباه من البلاد يزيد على ماصرفه أضعافا كثيرة ، وأما غير ذلك .. فكله كذب لا أصل له وان وجد من يحاسبه على ما أخذه من القطر المصرى من الفرض والمظالم ، لما وسعته الدفاتر » .

فلما ردوا عليه وأخبروه بذلك الكلام ، حنق واغتاظ فى نفسه ، وطلبه للاجتماع به ، فامتنع . فلما أكثر من التراسل ، قال : « ان كان ولا بد .. فأجتمع معه فى بيت السادات ، وأما طلوعى اليه فلا يكون » . فلما قيل له فى ذلك ، ازداد حنقه ، وقال : « انه بلغ به أن يزدرينى ويرذلنى ، ويأمرنى بالنزول من محل حكمى الى بيوت الناس » .

الاربعاء ٢٧ منه (٩ اغسطس ١٨٠٩ م) :

ركب الباشا وحضر الى بيت ولده ابراهيم بيك الدفتردار ، وطلب القاضى والمشايخ المذكورين ، وأرسل الى السيد عمر رسولا من طرفه ، ورسولا من طرف القاضى ، تطلبه للحضور ليتحاقق ويتشارع معه . فرجعا وأخبرا بأنه شرب دواء ولا يمكنه الحضور فى هذا اليوم .

وكان قد أحضر شيخ السادات الوفائية والشيخ الشرقاوى . فعند ذلك أحضر الباشا خلعة ، وألبسها لشيخ السادات على نقابة الأشراف ، وأمر بكتابة فرمان بخروج السيد عمر ونفيه من مصر — يوم تاريخه — فتشفع المشايخ فى امهاله ثلاثة أيام حتى يقضى أشغاله . فأجاب الى ذلك . ثم سألوه فى أن يذهب الى بلده أسيوط . فقال : « لايذهب الى أسيوط ، ويذهب اما الى سكندرية أو دمياط » .

فلما ورد الخبر على السيد عمر بذلك . قال : « أما منصب النقابة ، فانى راغب عنه وزاهد فيه ، وليس فيه الا التعب . وأما النفى فهو غاية مطلوبى ، وأرتاح من هذه الورطة . ولكن أريد أن يكون فى بلدة لم تكن تحت حكمه ، اذا لم يأذن لى فى الذهاب الى أسيوط ، فليأذن لى فى الذهاب الى الطور أو الى درنة » فعرفوا الباشا ، فلم يرض الا بذهابه الى دمياط . ثم ان السيد عمر أمر باشجاويش أن يأخذ الجاويشية ، ويذهب بهم الى بيت السادات . وأخذ فى أسباب السفر

الخميس ٢٨ منه (١٠ اغسطس ١٨٠٩ م — ٥ مسرى ١٥٢٥ ق) :

أوفى النيل المبارك ونودى بالوفاء تلك الليلة . وخرج الناس لأجل الفرجة والضيافات فى الدور المطلة على الخليج فلما كان آخر النهار ، برزت الأوامر بتأخير الموسم لليلة السبت بالروضة . فبرد طعام أهل الولائم والضيافات ، وتضاعفت كلفهم ومصاريفهم .

وحصلت الحمعية بلة السبت بالروضة وعند قنطرة السد . وعملوا الجراقات والشنك ، وحضر الباشا وأكابر دولته والقاضى ، وكسر السد بحضرتهم ، وجرى الماء فى الخليج ، وانفض الجمع .

وفيه : اعتنى السيد محمد المحروقى بأمر السيد عمر ، وذهب الى الباشا وكلمه وأخبره بأنه أقامه وكيلا على أولاده وبيته وتعلقاته فأجازه بذلك ، وقال : « هو آمن من كل شىء ، وأنا لم أزل أراعى خاطره ولا أفوته » . ثم أرسل السيد المحروقى فأحضر ابن ابنة السيد عمر ، فقابل به الباشا ، وطمن خاطره . ولكن قال : «لابد من سفره الى دمياط» . وعندما طلب السيد المحروقى الغلام الى الباشا أشيع فى الناس وقوع الرضا ، وتناقل الناس ذلك ، وفرح أهل منزله ، وزغرطوا وسروا ، واستمروا على ذلك حتى رجع الغلام ، وتبين أنه لا شىء .

فانقلب الفرح بالترح . وتعين بالسفر ، صحبة السيد عمر ، كتخدا الألفى الى دمياط .

رجب

غرته (١٢ اغسطس ١٨٠٩ م) :

اجتمع المودعون للسيد عمر . ثم حضر محمد كتخدا المذكور ، فعند وصوله ، قام السيد عمر وركب فى الحال ، وخرج صحبته . وشيعه الكثير من المتعممين وغيرهم ، وهم يتباكون حوله حزنا على فراقه . وكذلك اغتم الناس على سفره وخروجه من مصر ، لأنه كان ركنا وملجأ ومقصدا للناس ، ولتعصبه على نصرة الحق . فسار الى بولاق ، ونزل فى المركب وسافر من ليلته — بأتباعه وخدمه الذين يحتاج اليهم — الى دمياط .

وفيه : حضر الشيخ المهدى عند الباشا ، وطلب وظائف السيد عمر . فأنعم عليه الباشا بنظر أوقاف الامام الشافعى . ونظر وقف سنان باشا ببولاق ، وحاسب على المنكسر له من الغلال مدة أربع سنوات . فأمر بدفعها له من خزينته نقدا ، وقدرها خمسة وعشرون كيسا ، وذلك فى نظير اجتهاده فى خيانة السيد عمر ، حتى اوقعوا به ما ذكر .

وفيه : تقيد الخواجا محمود حسن بزوجان باشا بعمارة القصر والمسجد الذى يعرف بالآثار النبوية . فعمرها على وضعها القديم . وقد كان آل الى الخراب .

٣ منه (١٤ اغسطس ١٨٠٩ م) :

خلع الباشا على ثلاثة من الأجناد المصرية المنسوبين لسليمان بيك البواب ، وقلدهم صناجق وأمراء الوقت ، وضم اليهم عساكر أتراك وأرنؤود ، ليسافر الجميع الى الجهة القبلية ، بسبب عصيان الأمراء المرادية ، وتوقفهم عن دفع المال والغلال . وكذلك عين للسفر أيضا أحمد آغا لاظ ، وصالح قوج ، وبونابارته ، وحسن باشا ، وعابدين بيك ... فارتجت البلد .

وطلبوا المراكب ، فتعطل المسافرون الى الجهة القبلية والبحرية ، وكذلك امتنع مجىء الواصلين بالغلال والبضائع خوفا من التسخير . وقد كان حصل بعض الاطمئنان وسلوك الطريق القبلية ، ووصول المراكب بالغلال والمجلوبات .

١٠ منه (٢١ اغسطس ١٨٠٩ م) :

سافر أحمد آغا لاظ وصالح قوج . خرجوا بعساكرهم ونزلوا فى المراكب وذهبوا الى قبلى .

وفيه : حضر محمد كتخدا الألفى من دمياط راجعا من تشييع السيد عمر ، ووصوله الى دمياط واستقراره بها .

١٩ منه (٣٠ اغسطس ١٨٠٩ م) :

سافر من كان متأخرا الى الجهة القبلية ، ولم يبق منهم أحد .

٢٢ منه (٢ سبتمبر ١٨٠٩ م) :

نادى منادى المعمار على أرباب الأشغال فى العمائر من البنائين والحجارين والفعلة ، بالا يشتغلوا فى عمارة أحد من الناس كائنا من كان ، وأن يجتمع الجميع فى عمارة الباشا بناحية الجبل .

٢٩ منه (٩ سبتمبر ١٨٠٩ م) :

وردت أخبار عن التجريدة أزعجت الباشا . فاهتم اهتماما عظيما ، وقصد الذهاب بنفسه ، ونبه على جميع كبراء العساكر بالخروج ، وأن لا يتخلف منهم أحد ، حتى أولاده ابراهيم بيك الدفتردار وطوسون بيك ، وأنه هو المتقدم عنهم فى الخروج فى يوم الخميس . واستعجل التشهيل والطلب ، وأمر بتحرير دفتر فرضة « ترويجة » على اقليم المنوفية

والغربية والشرقيـة والقليوبية . وذكروا أنها من أصل حساب الشهرية المبتدعة .

وفيه : تقلد حسن أغا الشماشرجى كشـوفية المنوفية ، وأرخى لحيته على ذلك .

شعبـان

غرته (١١ سبتمبر ١٨٠٩ م) :

نمق مشايخ الوقت عرضحال فى حق السـيد عمر بأمر الباشا ليرسله صحبة السلحدار . وذكروا فيه سبب عزله ونفيه عن مصر ، وعدوا له مثالب ومعايب وجنحا وذنوبا منها : أنه أدخل فى دفتـر الأشراف أسماء أشـخاص ممن أسلم من القبط واليهود . ومنها : أنه أخذ من الألفى — فى السابق — مبلغـا من المـال ليملكه مصر فى أيام فتنـة أحمد باشا خورشيد . ومنهـا : أنه كاتب الأمـراء المصريين أيضـا فى وقت الفتنـة — حين كانوا بالقرب من مصر — ليحضروا على حين غفلة فى يوم قطع الخليج ، وحصل لهم ماحصل ، ونصر الله عليهم حضرة الباشا . ومنها : أنه أراد ايقاع الفتن فى العساكر لينقض دولة الباشا ، ويولى خلافه ، ويجمع عليه طوائف المغاربة والصعائدة وأخلاط العوام وغير ذلك . وذلك على حد من أعاز ظالمـا سلط عليه . وكتبوا عليه أسماء المشايخ ، وذهبـوا به اليهم ليضعوا ختومهم عليه . فامتنع البعض من ذلك وقال : « هذا كلام لا أصل له » . ووقـع بينهم محاججات ، ولام الأعاظم المتنعـين على الامتناع ، وقالوا لهم : « أنتم لستم بأروع منا ، وأثبت لنفسه ورعا » . وحصـل بينهم منافسـات ومخالفات ومقابحات .

ثم غيروا صـورة العرضحال بأقل من التحامل الأول ، وكتب عليـه بعض المتنعين . وكان من المتنعين أولا وآخرا : السيد أحمـد الطحطاوى الحنفى . فزادوا فى التحامل عليه ، وخصوصا شيخ السـادات والشيخ الأمير وخلافهما . واتفق أنه دعى فى وليمة عند الشيخ الشنوانى بحارة حوش قدم وتأخر حضوره عنهم . فصادفهم حال دخوله الى المجلس ، وهم خارجـون ، فسـلم عليهم ولم يصافحهم ... لمـا سبق منهم فى حقه من الايذاء . فتطاول عليه ابن الشيخ الأمير ورفع صوته بتوبيخه وشـتمه لكونه لم يقبل يد والده . ويقول له فى جملة كلامه : « أليس هو الا قليل الأدب والحياء . ثالث طبقة للشيخ الوالد » ! ونحو ذلك .

٣ منه (١٣ سبتمبر ١٨٠٩ م) :

سافر الباشا الى الجهة القبلية ، وتبعه العساكر .

١٣ منه (٢٣ سبتمبر ١٨٠٩ م) :

سافر حسن باشا وعساكر الأرنؤود ، وتتابعوا فى الخروج . وتحدث الناس بروايات عن الباشـا والأمراء المصريين وصلحه معهم ، وأن عثمان بيك حسن،ومحمد بيك المنفوخ ، ومحمد بيك الابراهيمى وصـلوا عند الباشـا وقابلوه . وأنه أرسل الى ابراهيم بيك الكبير ولده طوسون باشا ، فتلقـاه وأكرمه . وأرسل هو أيضا ولده الصغير الى الباشا فأكرمه . ووصـل الى مصر بعض نسـاء حريمـه وحريم الأمراء .

١٥ منه (٢٥ سبتمبر ١٨٠٩ م) :

خرجت الدلاة والأرنـؤود ، وباقى الأجنـاد والعسكر . وأقام الباشـا كتخدا بيك قائم مقامه ، وأقام بالقلعة

وفيـه : اتفق الأشياخ والمتصدرون على عزل السـيد أحمـد الطحطاوى من افتاء الحنفيـة وأحضروا الشيخ حسـين المنصورى ، وركبـوا صحبته ، وطلعوا به الى القلعة — بعد أن مهدوا

القضية — فألبس قائمقام الشيخ حسين ... فروة ، ثم نزلوا . ثم طاف للسلام عليهم ، وخلعوا هم عليه أيضا خلعهم .

فلما بلغ الخبر السيد أحمد الطحطاوى ، طوى الخلع التى كانوا ألبسوها له عندما تقلد الافتاء ، بعد موت الشيخ ابراهيم الحريرى ، فى جمادى الأولى ، بقرب عهد ، وأرسلها لهم . وكان الشيخ السادات ألبسه حين ذاك فروة ، فلما ردها عليه ، احتد واغتاظ ، وأخذ يسبه ، ويذكر لجلسائه جرمه ، ويقول : « انظروا الى هذا الخبيث .. كأنه يجعلنى مثل الكلب الذى يعود فى قيئه » .. ونحو ذلك .

وأما السيد أحمد فانه اعتكف فى داره ، لايخرج منها الا الى الشيخونية بجواره ، واعتزلهم وترك الخلطة بهم ، والتباعد عنهم . وهم يبالغون فى ذمه والحط عليه ، لكونه لم يوافقهم فى شهادة الزور . والحامل لهم على ذلك كله ، الحظوظ النفسانية والحسد . مع أن السيد عمر كان ظلا ظليلا عليهم وعلى أهل البلدة ، ويدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم . ولم تقم لهم بعد خروجه من مصر راية ، ولم يزالوا بعده فى انحطاط وانخفاض .

وأما السيد عمر ... فان الذى وقع له بعض ما يستحقه . ومن أعان ظالما سلط عليه . ولا يظلم ربك أحدا .

رمضان

اواخره (اوائل نوفمبر ١٨٠٩ م) :

وصل طائفة من الدلاتلية من ناحية الشام ، ودخلوا الى مصر ، وهم فى حالة رثة ، كما حضر غيرهم وصحبتهم من المخنثين المعروفين بـ . . . . الذين يتكلمون بالكلام المؤنث ، ومعهم دفوف وطنابير .

وفيه : حرروا دفتر الأطيان على ضريبة واحدة : عن كل فدان خمسة ريالات غير البرانى والخدم ، ولم يحصل فى ذلك مراجعة ولا كلام ولا مرافعة فى شيء ... كما وقع فى العام الماضى والذى قبله ، فى المراجعة بحسب الرى والشراقى . وأما فى هذه السنة فليس فيها شراقى ، فحسابها بالمساحة الكاملة لعموم الرى .

فان النيل فى هذه السنة زاد زيادة مفرطة ، وعلا على الأعالى ، وتلف بزيادته المفرطة الدراوى والأقصاب بقبلى ، وكذلك غرق مزارع الأرز والسمسم والقطن وجنائن كثيرة بالبحر الشرقى ، بسبب انسداد ترعة الفرعونية بتلك الناحية .

ولما تمموا تحرير الدفاتر على النسق المطلوب — والباشا بقبلى — وأرسل بطلبها ليطلع عليها . فسافر اليه بها المعلم غالى ، وأخذ صحبته أحمد أفندى اليتيم من طرف الروزنامة وعبد الله بكتاش الترجمان ، فذهبوا اليه بأسيوط وأطلعوه عليها ، فختم عليها . وانقضى شهر رمضان .

شوال

الثلاثاء ١٣ منه (٢١ نوفمبر ١٨٠٩ م) :

حضر المعلم غالى وأحمد أفندى وبكتاش وغيرهم من غيبتهم . وحضر أيضا فى أثرهم المعلم جرجس الجوهرى . وقد تقدم أنه خرج من مصر هاربا الى الجهة القبلية واختفى مدة ، ثم حضر بأمان الى الباشا ، وقابله وأكرمه . ولما حضر نزل فى بيته الذى بحارة الونديك ، وفرشه له المعلم غالى ، وقام له بجميع لوازمه . وذهب الناس ، مسلمهم ونصرانيهم ، وعالمهم وجاهلهم ، للسلام عليه .

الثلاثاء ٢٠ منه (٢٨ نوفمبر ١٨٠٩ م) :

وصل الباشا على حين غفلة الى مصر فى تطريدة ،

وقد وصل من أسيوط الى ناحية مصر القديمة فى ثلاثين ساعة ، وصحبته ابنه طوسون وبونابارته الخازندار وسليمان أغا ، الوكيل سابقا ، لا غير . فركبوا حميرا متنكرين حتى وصلوا الى القلعة من ناحية الجبل ، وطلع من باب الجبل . وعند طلوعه من السفينة ، أمر ملاحيها أن لا يذكروا لأحد وصوله ، حتى يسمعوا ضرب المدافع من القلعة . ثم طلع الى سرايته ودخل الى الحريم ، فلم يشعروا به الا وهو بالحريم . وعند ذلك أمر بضرب المدافع ، وأشيع حضوره . فركب كتخدا بيك وغيره مسرعين لملاقاته ، ثم بلغهم طلوعه الى القلعة ، فرجعوا على أثره .

وكان الخواجا محمود حسن البزرجان خرج لملاقاته — قبل وصوله بثلاثة أيام — الى ناحية الآثار ، وأخرج معه مطابخ وأغناما ، واستعد لقدومه استعدادا زائدا ... وذهب تعبه فى الفارغ البطال .

ثم بعد وصول الباشا بثلاثة أيام ، وصلت طوائف العسكر وعظمائهم ، ومعهم المنهوبات من الغلال والأغنام والفحم والحطب والقلل وأنواع التمر وغير ذلك ، حتى أخشاب الدوز وأبوابها .

الاثنين ٢٦ منه (٤ ديسمبر ١٨٠٩ م) :

وصل حسن باشا وطوائف الأرنؤود وصالح قوج والدلاة والترك ، ووصل أيضا شاهين بيك الألفى ، وصحبته محمد بيك المنفوخ المرادى ، ومحمد بيك الابراهيمى — وهم الذين حضروا فى هذه المرة من المخالفين — وقيل ان البواقى أخذوا مهلة لبعد التخضير وأما ابراهيم بيك تابع الأشقر ، ومحمد أغا تابع مراد بيك الصغير ، وصحبتهم عساكر ، فذهبا الى ناحية السويس بسبب وصول طائفة من العربان ، قالوا انها من التابعة للوهابيين ، حضروا وأقاموا عند بئر الماء ، ومنعوا السقيا منها .

ذو القعدة

غرته (٨ ديسمبر ١٨٠٩ م) :

حضر ابراهيم بيك ابن الباشا ، وباقى العسكر ، وسكنوا الدور ، وأزعجوا الناس ، وأخرجوهم من مساكنهم ومنازلهم ببولاق ومصر وغيرهما .

واتفق أن بعض ذوى المكر من العسكر — عندما أراد السفر الى جهة قبلى — أرسل لصاحب الدار ، التى هو غاصبها وساكن فيها ، فأحضره وسلمه المفتاح ، وهو يقول له : « تسلم يا أخي دارك واسكنها ، بارك الله لك فيها ، وسامحنى وأبرىء ذمتى ... فربما أنى أموت ولا أرجع ! » ؛ ولأن الكثير منهم تولى المناصب والأمريات بالجهة القبلية .

وعندما يتسلم صاحب الدار داره ، يفرح بخلاصها ، ويشرع فى عمارتها واعادة ما تهدم منها ، فيكلف نفسه — ولو بالدين — ويعمرها فما هو الا أن تتم العمارة والمرمة فى مدة غيبتهم . فما يشعر الا وصاحبه داخل عليه بحصانه وجمله وخدمه ... فما يسع الشخص الا الرحلة ، ويتركها لغريمه . وقد وقع ذلك لكثير من الناس المغفلين !

وفيه : وصلت أخبار بأن عمارة الفرنساوية نزلت الى البحر . وعدة مراكبهم مائتان وسبعة عشر مركبا محاربين ، لا يعلم قصدهم أى جهة من الجهات .. وحضر ثلاثة أشخاص من الططر المعدين لتوصيل الأخبار ، وبيدهم مرسوم ، مضمونه : الأمر بالتحفظ على الثغور . فعند ذلك أمر الباشا بالاستعداد وخروج العساكر الى الثغور .

٨ منه (١٥ ديسمبر ١٨٠٩ م) :

سافر جملة من العسكر الى ناحية بحرى فسافر كبير منهم ومعه جملة من العسكر الى

سكندرية ، وكذلك سافر خلافه الى رشيد ، والى دمياط وأبى قير والبرلس .

١٨ منه (٢٥ ديسمبر ١٨٠٩ م) :

ركب الباشا ليلا ، وخرج مسافرا الى السويس ليكشف على قلاع القلزم . وقام له بالاحتياجات — من أحمال الماء والعليق والزوادة واللوازم — السيد محمد المحروقى . وكان خروجه ومن معه على الهجن .

٢٤ منه (٣١ ديسمبر ١٨٠٩ م) :

حضر الباشا من السويس — وكان وصوله ليلا — وطلع الى القلعة .

ذو الحجة

الاحد غرته (٧ يناير ١٨١٠ م) :

شرع الباشا فى انشاء مراكب لبحر القلزم . فطلب الأخشاب الصالحة لذلك ، وأرسل المعينين لقطع أشجار التوت والنبق من القطر المصرى القبلى والبحرى ، وغيرها من الأخشاب المجلوبة من الروم ، وجعل بساحل بولاق ترسحانة وورشات ، وجمعوا الصناع والنجارين والنشارين ، فيهيئونها وتحمل أخشابا على الجمال ، ويركبها الصناع بالسويس سفينة ، ثم يقلفطونها ويبيضونها ويلقونها فى البحر . فعملوا أربع سفائن كبار ، احداها يسمى « الأبريق » ، وخلاف ذلك داوات لحمل السفار والبضائع .

ومن الحوادث فى آخره : أن امرأة ذهبت إلى عرصة الغلة بباب الشعرية واشترت حنطة ، ودفعت فى ثمنها قروشا . فلما ذهبت ، نظروها ونقدوها ، فاذا هى من عمل الزغلية . ثم عادت بعد أيام فاشترت الغلة ودفعت الثمن قروشا أيضا فذهب البائع معها الى الصيرفى ، فوجدها مزغولة مثل الأولى فعلموا أنها الغريمة فقال لها الصيرفى : « من أين لك هذا ؟ » فقالت : « من زوجى » . فقبضوا عليها وأتوا بها الى الأغا . فسألها الأغا عن زوجها فقالت : « هو عطار بسوق الأزهر » . فأخذها الأغا وحضر بها الى بيت الشيخ الشرقاوى — بعد العشاء — وأحضروا زوجها ، وسألوه فقال : « أنا أخذتها من فلان تابع الشيخ الشرقاوى ! » . فانفعل الشيخ وقال : « ان يكن هو ابنى .. فأنا برىء منه » . وطلبوه . فتغيب واختفى . وأخذ الأغا المرأة وزوجها وقررهما ، فأقر الرجل ، وعرف عن عدة أشخاص يفعلون ذلك ، وفيهم من مجاورى الأزهر ، فلم يزل يتجسس ويتفحص ويستدل على البعض بالبعض ، وقبض على أشخاص ومعهم العدد والآلات ، وحبسهم أيضا بالقلعة عند كتخدا بيك وفر ناس من مجاورى الأزهر من مصر ، لما قام بهم من الوهم .

وفى كل يوم يشاع بالتنكيل والتجريس للمقبوض عليهم ، وقتلهم ولم يزل الأغا يتجسس حتى جمعوا ستة عشر عدة ، وأرسلوها الى بيت محمد أفندى ناظر المهمات ، وسألوا الحدادين عمن اصطنع هذه العدد منكم ، فأنكروا وجحدوا ، وقالوا : « هذا من صناعة الشام » ثم كسروها وأبطلوها . وطال أمر المحبوسين ، والتفحص عن غيرهم فكان بعض المقبوض عليهم يعرف عن غيره أو شريكه .

فكانت هذه الحادثة من أشنع الحوادث ... خصوصا بنسبتها لخطة الأزهر . فكان كل من اشترى شيئا ، ودفع الثمن للبائع قروشا ، ذهب بها الى الصيرفى — لأن فى ذاك الوقت لم يكن موجودا بأيدى الناس خلافها — وكانوا يقولون فى ذهابهم الى الصيرفى . « ربما تكون أزهرية » ! ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

* * *

وانقضت السنة بحوادثها التى منها ما ذكر .
ومنها : احداث بدعة المكس على النشوق . وذلك أن بعض المتصدرين من نصارى الأروام ، أنهى الى كتخدا بيك أمر النشوق وكثرة المستعملين له والدقاقين والباعة ، وأنه اذا جمع دقاقوه وصناعه فى مكان واحد ، ويجعل عليهم مقادير ، ويلتزم به ويضبط رجاله وجمع ماله وايصاله الى الخزينة ... من يكون ناظرا وقيما عليه ، كغيره من أقلام المكوس التى يعبرون عنها بالجمارك ، فانه يتحصل من ذلك مال له صورة .

فلما سمع كتخدا بيك ذلك أنهاه الى مخدومه . فأمر فى الحال بكتابة فرمان بذلك . واختار الذى جعلوه ناظرا على ذلك خانا بخطة «بين الصورين» . ونادوا على جميع صناع النشوق وجمعوهم بذلك الخان ، ومنعوهم من جلوسهم بالأسواق والخطط المتفرقة ... والقيم على ذلك يشترى الدخان المعد لذلك من تجاره بثمن معلوم حدده : لا يزيد على ذلك ، ولا يشتريه سواه . وهو يبيعه على صناع النشوق بثمن حدده ولا ينقص عنه . ومن وجده باع شيئا من الدخان أو اشتراه ، أو سحق نشوقا خارجا عن ذلك الخان — ولو لخاصة نفسه — قبضوا عليه وعاقبوه وغرموه مالا .

وعينوا معينين لجميع القرى والبلدان القبلية والبحرية ، ومعهم من ذلك الدخان ، فيأتون الى القرية ويطلبون مشايخها ويعطونهم قدرا موزونا ، ويلزمونهم بالثمن المعين بالمرسوم الذى بيدهم . فيقول أهل القرية : « نحن لانستعمل النشوق ولا نعرفه ، ولا يوجد عندنا من يصنعه ، وليس لنا به حاجة ، ولا نشترى به ولا نأخذه » . فيقال لهم : « ان لم تأخذوه .. فهاتوا ثمنه » ! فان أخذوه أو لم يأخذوه ، فهم ملزومون بدفع القدر المعين المرسوم ، ثم كراء طريق المعينين وكلفتهم وعليق دوابهم !

ومنها أيضا : « النطرون » فرقوه وفرضوه على القرى ، محتجين أيضا باحتياج الحياكة والقزازين اليه ، لغسل غزل الكتان وبياض قماشه ونحو ذلك !

وأشنع من ذلك كله : أنهم أرادوا فعل مثل هذا فى الشراب المسكر المعروف « بالعرقى » . والزام أهل القرى بأخذه ودفع ثمنه — ان أخذوه أو لم يأخذوه — فقيل لهم فى ذلك فقالوا : « ان شربه يقوى أبدانهم على أعمال الزرع والزراعة والحرث والكد فى القطوة والنطالة والشادوف » . ثم بطل ذلك .

ومنها : أن الباشا شرع فى عمل زلاقة تجاه باب القلعة — المعروف بباب الجبل — موصلة الى أعلى الجبل المقطم . فجمعوا البنائين والحجارين والفعلة للعمل ، وحرقوا عدة قمينات للجير بجانب العمارة ، وطواحين للجبس . ونودى بالمدينة على البنائين والفعلة بأن لا يشتغلوا فى عمارة أحد من الناس ، كائنا من كان ، ويجتمع الجميع فى عمارة الباشا بالقلعة والجبل ، الى أن كمل عملها فى السنة التالية : طريقا واسعا ، منحدرا من الأعلى الى الأسفل ، ممتدا فى المسافة ، سهلا فى الطلوع الى الجبل أو الانحدار منه ، بحيث يجوز عليه الماشى والراكب من غير مشقة ولا تعب كثير .

* * *

وأما من مات فى هذه السنة ممن له ذكر :

مات العلامة المفيد ، والنحرير الفريد ، الفقيه النبيه : الشيخ ابراهيم ابن الشيخ محمد الحريرى الحنفى ، مفتى مذهب السادات الحنفية كوالده .

تفقه على والده ، وحضر فى المعقولات على أشياخ الوقت : كالبيلى والدردير والصبان وغيرهم .

وأنجب وتمهر ، وصارت فيه ملكة جيدة ، واستحضار للفروع الفقهية . ولما مات والده فى شهر رجب سنة عشرين ومائتين وألف ، تقلد منصب والده فى الافتاء . وكان لها أهلا مع التحرى

والمراجعة فى المسائل المشكلة ، والعفة والصيانة والديانة ، والتباعد عن الأمور المخلة بالمروءة . مواظبا لوظائفه ودروسه ، ملازما لداره الا مادعته الضرورة اليه من المواساة وحضور المجالس مع أرباب المظاهر .

وكان مبتلى بضعف البصر ، وبآخرته اعتراه داء الباسور ، وقاسى منه شدة ، وانقطع بسببه عن الخروج من داره . ووصف له حكيم بدمياط فسافر اليه لأجل ذلك ، وقصد تغيير الهواء — وذلك باشارة نسيبه الشيخ المهدى — وقاسى أهوالا فى معالجته ، وقطعه بالآلة ... فلم ينجح .

ورجع الى مصر متزايد الألم . ولم يزل ملازما للفراش حتى توفى الى رحمة الله سبحانه وتعالى فى يوم الاثنين ، تاسع عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، وصلى عليه بالأزهر ، ودفن بمدرسة الشعبانية بحارة الدويدارى ، ظاهر حارة كتامة المعروفة الآن بالعينية بالقرب من الجامع الأزهر ، وخلف ولده النجيب الأديب : سيدى محمد ، الملقب عبد المعطى . بارك الله فيه وأعانه على وقته .

* * *

ومات الامام العلامة ، والعمدة الفهامة ، شيخ الاسلام والمسلمين : الشيخ عبد المنعم ابن شيخ الاسلام الشيخ أحمد العماوى المالكى الأزهرى . وهو من آخر طبقة الأشياخ من أهل القرن الثانى .

تفقه على الشيخ الزهار وغيره من علماء مذهبه ، وحضر الأشياخ المتقدمين : كالدفرى ، والحفنى ، والصعيدى ، والشيخ سالم النفراوى ، والشيخ الصباغ السكندرى ، والشيخ فارس .

وقرأ الدروس ، وانتفع به الطلبة . ولم يزل ملازما على القاء الدروس بالأزهر — على طريقة المتقدمين — مع العفة والديانة ، والانجماع عن الناس ، راضيا بحاله ، قانعا بمعيشته ، ليس بيده من التعلقات الدنيوية سوى النظر على ضريح سيدى أبى السعود أبى العشائر .

ولم يتجرأ على الفتيا ، مع أهليته لذلك وزيادة ، ولم تطمح نفسه لزخارف الدنيا وسفاسف الأمور... مع التجمل فى الملبس والمركب واظهار الغنى ، وعدم التطلع لما فى أيدى الناس . ويصدع بالحق فى المجالس ، ولا يتردد الى بيوت الحكام والأكابر ... الا فى النادر ، بقدر الضرورة ، مع الأنفة والحشمة . ولا يشكو ضرورة ولا حاجة ولا زمانا .

ولم يزل على حالته ، حتى مرض أياما ، وتوفى ليلة الخميس حادى عشر ذى القعدة ، عن أربع وثمانين سنة . وخرجوا بجنازته من منزله الكائن بدرب الحلفاء بالقرب من باب البرقية . فمروا بالجنازة على خطة الجمالية ، على النحاسين ، على الأشرفية ، ودخلوا من حارة الخراطين الى الجامع الأزهر ، وصلى عليه فى مشهد حافل . ودفن على والده بتربة المجاورين .

وخلف من الأولاد الذكور أربعة رجال ذوى لحى صلحاء ، وخطهم الشيب ، خلاف البنات ، رحمه الله وعفا عنا وعنه .

* * *

ومات الفقيه النبيه ، الصالح الورع ، العالم المحقق : الشيخ أحمد ، الشهير ببرغوت ، المالكى . ومولده بالبلدة المعروفة « باليهودية » بالبحيرة .

تفقه على أشياخ العصر ، ومهر فى الفقه والمعقول . وأقرأ الدروس ، وانتفع به الطلبة ، واشتهر ذكره بينهم ، وشهدوا بفضله . وكان على حالة حسنة منجمعا عن الناس ، وراضيا بما قسمه له مولاه ، متكسر النفس ، متواضعا . ولم يتزى بعمامة الفقهاء ... يمشى فى حوائجه .

وتمرض « بالزمانة » مدة سنين يتعكز بعصاه ،

ولم يقطع درسه ولا أماليه حتى توفى الى رحمة الله سبحانه وتعالى يوم الأربعاء خامس شهر صفر من السنة ، ودفن بتربة المجاورين . رحمه الله .

* * *

ومات العمدة النحرير ، والنبيل الشهير : الشيخ سليمان الفيومى المالكى . ولد بالفيوم ، وحضر الى مصر ، وحفظ القرآن ، وجاور برواق الفيمة بالأزهر .

وكان فى أول عمره يمشى خلف حمار الشيخ الصعيدى ، وعليه دراعة صنوف وشملة صفراء . ثم حضر دروسه ودروس الشيخ الدردير وغيرهما . واختلط مع المنشدين — وكان له صوت شجى — فيذهب مع المتذكرين الى بيوت الأعيان فى الليالى ، فينشد الانشادات ، ويقرأ الأعشار . فيعجبون به ويكرمونه زيادة على غيره .

واختلط ببعض الأعيان الذين يقال لهم « البرقوقية » من ذرية السلطان « برقوق » — وهم نظار على أوقافه — فراج أمره ، وكثرت معارفه بالأغوات الطواشية ، وبهم توصل الى نساء الأمراء والسعى فى حوائجهن وقضاياهن ، وصار له قبول زائد عندهن وعند أزواجهن .

وتجمل بالملابس ، وركب البغال ، وأحدق به المحدقون . وتزوج بامرأة بناحية قنطرة الأمير حسين ، وسكن بدارها فماتت فورثها .

ولما مات الشيخ محمد العقاد ، تعين المترجم لمشيخة رواق « الفيمة » . وبنى له محمد بيك المعروف بالمبدول ، دارا عظيمة بحارة عابدين . واشتهر ذكره ، وعلا شأنه ، وطار صيته .

وسافر فى بعض مقتضيات الأمراء الى دار السلطنة ، وعاد الى مصر . وأقبلت عليه الهدايا من الأمراء والحريمات والأغوات والأقباط وغيرهم . واعتنوا بشأنه وزوجته الست « زليخا » زوجة ابراهيم بيك الكبير بينت عبد الله الرومى وتصرف فى أوقاف أبيها ، ومنها عزب البر تجاه رشيد وغيرها ، فاشتهر بالبلاد القبلية والبحرية .

وكان — مع قلة بضاعته فى العلم — مشاركا بسبب التداخل فى القضايا . وكان كريم النفس جدا : يجود ، وما لديه قليل ، مع حسن المعاشرة والبشاشة والتواضع ، والمواساة للكبير والصغير ، والجليل والحقير . وطعامه مبذول للواردين ، ومن أتى الى منزله فى حاجة أو زائرا ، لا يمكنه من الذهاب حتى يغديه أو يعشيه .

واذا أتاه مسترفد ، ولم يجد معه أشياء ... اقترض وأعطاه فوق مأموله ، ولا يبخل بجاهه وسعيه على أحد ، كائنا ما كان ، بعوض وبدونه .

ومما اتفق له مرارا ، أنه يركب من الصباح فى حوائج الناس فلا يعود الا بعد العشاء الأخيرة ، فيلاقيه آخر — ذو حاجة — فى نصف الطريق أو آخره ، فينهى اليه قصته : اما بشفاعة عند أمير ، أو خلاص مسجون أو غير ذلك . فيقف له ، ويستمع قصته ، وهو راكب ، فيقول له : « فى غد نذهب اليه فان الوقت صار ليلا » فيقول صاحب الحاجة : « هو فى داره فى هذا الوقت » فيعود من طريقه مع صاحب الحاجة الى ذلك الأمير — ولو بعدت داره — ويقضى حاجته ، ويعود بعد حصة من الليل . وهكذا كان شأنه ، ولا ينتظر ولا يؤمل جعالة ولا أجرة نظير سعيه ، فان أتوه بشىء أخذه ، أو هدية قبلها — قلت أو كثرت — وشكرهم على ذلك . فمالت اليه القلوب ، ووفدت اليه ذوو الحاجات من كل ناحية . فلا يرد أحدا ، ويستقبلهم بالبشاشة ، وينزلهم فى داره ، ويطعمهم ويكرمهم ، ويستمرون فى ضيافته حتى يقضى حوائجهم ويزودهم ، ويرجعون الى أوطانهم مسرورين ، ومجبورين ، وشاكرين . ثم يكافئونه بما أمكنهم من المكافآت . واذا وصلت

اليه هدية ، وصادف وصولها حضوره بالمنزل ، ففرق منها على من بمجلسه من الحاضرين .

فبذلك انجذبت اليه القلوب ، وساد على أقرانه ومعاصريه ، كما قيل :

ببذل وحلم ساد فى قومه الفتى
وكونك اياه عليك يسير

ولما حضر حسن باشا الجزايرلى الى مصر ، وارتحل الأمراء المصريون الى الصعيد ، وأحاط بدورهم ، وطلب الأموال من نسائهم ، وقبض على أولادهم وجواريهم وأمهات أولادهم ، وأنزلهم سوق المزاد ... التجأ الى المترجم الكثير من نساء الأمراء الكبار ، فأواهن ، وأجهد نفسه فى السعى فى حمايتهن ، والرفق بهن ومواساتهن ، مدة اقامة حسن باشا بمصر ، وبعدها فى امارة اسمعيل بيك .

فلما رجع أزواجهن — بعد الطاعون — الى امارتهم ، ازداد قدر المترجم عندهم وقبوله ومحبته ووجاهته ، واشتهر عندهم بعدم قبوله الرشوة ، ومكارم الأخلاق والديانة والتورع . فكان يدخل الى بيت الأمير ، ويعبر الى محل الحريم ، ويجلس معهن ، وينسرون بدخوله عندهم ، ويقولون : « زارنا أبونا الشيخ ... وشاورنا أبانا الشيخ ... فأشار علينا بكذا ... » ونحو ذلك .

ولم يزل مع الجميع على هذه الحالة ، الى أن طرقت الفرنساوية البلاد المصرية ، وأخرجوا منها الأمراء . وخرج النساء من بيوتهن ، وذهبن اليه أفواجا أفواجا حتى امتلأت داره وما حولها من الدور بالنساء . فتصدى لهن المترجم ، وتداخل فى الفرنساوية ، ودافع عنهن . وأقمن بداره شهورا . وأخذ أمانا لكثير من الأجناد المصرية وأحضرهم الى مصر ، وأقاموا بداره ليلا ونهارا .

وأحبه الفرنساوية أيضا ، وقبلوا شفاعاته ، ويحضرون الى داره ، ويعمل لهم الولائم . وساس أموره معهم ، وقرروه فى رؤساء الديوان الذى رتبوه لأجراء الأحكام بين المسلمين .

ولما نظموا أمور القرى والبلدان المصرية على النسق الذى جعلوه ، ورتبوا على مشايخ كل بلد شيخا ترجع أمور البلدة ومشايخها اليه ، وشيخ المشايخ المترجم ، مضافا ذلك لمشيخة الديوان ، وحاكمهم الكبير فرنساوى يسمى « ابريزون » . فازدحمت داره بمشايخ البلدان ، فيأتون اليه أفواجا ، ويذهبون أفواجا . وله مرتب خاص خلاف مرتب الديوان .

واستمر معهم فى وجاهته الى أن انقضت أيامهم ، وسافروا الى بلادهم . وحضرت العثمانية والوزير . والمترجم فى عداد العلماء والمتصدرين : وافر الحرمة ، شهير الذكر ، بعيد الصيت ، مرعى الجانب ، مقبول القول عند الأكابر والأصاغر .

ولما قتل خليل أفندى الرجائى الدفتردار وكتخدا بيك فى حادثة مقتل طاهر باشا ، التجأ اليه أخو الدفتردار وخازنداره وغيرهما ، وذهبوا الى داره ، وأقاموا عنده ... فحماهم وواساهم حتى سافروا الى بلادهم .

ولم يزل على حالته حتى نزل به خلط بارد ، فأبطل شقه ، وعقد لسانه ، واستمر أياما ، وتوفى ليلة الأحد ، خامس عشر ذى الحجة ، وخرجوا بجنازته من بيته بحارة عابدين ، وصلى عليه بالأزهر فى مشهد عظيم جدا مثل مشاهد العلماء الكبار المتقدمين ، وربما كان جمع النساء خلفه ، كجمع الرجال فى الكثرة ، ووجدوا عليه ديونا نحو العشرة آلاف ريال ، سامحه أصحابها ولم يخلف من الأولاد الا ابنتين . رحمه الله وسامحه ، وعفا عنا وعنه آمين .

سنة ١٢٢٥ هجرية

المحـــرم

غرته (٦ فبراير ١٨١٠ م) :

وردت الأخبـــار من الديار الروميـــة بغلبـــة الموسكوب ، واستيلائهم على ممالك كثيرة . وأنه واقع باسلامبول شـــدة حصر وغلاء فى الأســـعار وتخوف . وأنهم يذيعون فى الممالك بخلاف الواقع لأجل التطمين .

٥ منه (١٠ فبراير ١٨١٠ م) :

حضر ابراهيم أفندى القابجى ، الذى كان توجه الى الدولة من مدة سابقة ، وعلى يده مراسيم بطلب ذخيرة وغلال . وعملوا لقدومه شـــنكا ومدافع . وطلع فى موكب الى القلعة .

وفيه : رجع ديوان أفنـــدى من ناحيـــة قبلى ، وصحبته أحمد أغا شويكار ، فأقاما بمصر أياما ، ثم رجعا بجواب الى الأمراء القبليين .

١٣ منه (١٨ فبراير ١٨١٠ م) :

فى ليلته حصلت زلزلة عجيبة مزعجة ، وارتجت منها الجهات ثلاث رجات متواليات ، واستمرت نحو أربع دقائق . فانزعج الناس منها من منامهم ، وصار لهم جلبـــة وقلقة ، وخرج الكثير من دورهم هاربين الى الأزقة يريدون الخلاص الى الفضاء .. مع بعده عنهم . وكان ذلك فى أول الساعة السابعة من الليل . وأصبح الناس يتحدثون بها فيما بينهم . وســـقط بسببها بعض حيطان ودور قديمة ، وتشققت جدران ، وسقطت منارة بسوس ، ونصف منارة بأم اخنان بالمنوفية ، وغير ذلك لانعلمه .

وفى عصريته أيضا حصلت زلزلة — ولكن دون الأولى — فانزعج الناس منها أيضا ، وهاجوا ، ثم سكنوا ، ثم كثر لغط العالم بمعاودتها . فمنهم من يقول ليلة الأربعاء ، ومنهم من يقول خلافه ، وأنها تستمر طويلا . وأسندوا ذلك لبعض المنجمـــين . ومنهم من أسنده لبعض النصارى واليهود . وأن رجلا نصرانيا ذهب الى الباشا وأخبره بحصـــول ذلك ، وأكد فى قوله وقال له : « احبسنى .. وأن لم يظهر صدقى ، اقتلنى » . وأن الباشا حبســـه حتى يمضى الوقت الذى عينه ليظهر صـــدقه من كذبه . وكل ذلك من تخيـــلاتهم واختـــلاقاتهم وأكاذيبهم ، وما يعلم الغيب الا الله .

١٤ منه (١٩ فبراير ١٨١٠ م) :

أمر الباشا بالاحتياط على بيوت عظماء الأقباط : كالمعلم غالى ، والمعلم جرجس الطـــويل ، وأخيه ، وفلتيوس ، وفرانسيكو — وعدتهم ســـبعة — فأحضروهم فى صورة منكرة ، وســـمروا دورهم ، وأخذوا دفاترهم . فلما حضروا بين يديه ، قال لهم : « أريد حسابكم بموجب دفاتركم هـــذه » . وأمر بحبسهم . فطلبوا منـــه الأمان ، وأن يأذن لهم فى خطابه . فأذن لهم . فخاطبه المعلم غالى ، وخرجوا من بين يديه الى الحبس . ثم قرر عليهم بواســـطة حسين أفندى الروزنامجى سبعة آلاف كيس ، بعد أن كان طلب منهم ثلاثين ألف كيس .

١٨ منه (٢٣ فبراير ١٨١٠ م) :

شاع فى الناس حصول زلزلة تلك الليلة — وهى ليلة الجمعة — ويكون ذلك فى نصف الليل . فتأهب غالب الناس للطلوع بخارج البلد ، فخرجوا بنسائهم وأولادهم الى شاطىء النيل ببولاق ونواحى الشيخ قمر ، ووسط بركة الأزبكية ... وغيرها . وكذلك خرج الكثير من العسكر أيضا ، ونصبوا خياما فى وسط الرميلة وقراميدان والقرافتين . وقاسوا تلك الليلة من البرد ما لايكيف ولايوصف ، لأن الشمس كانت ببرج الدلو ، وهو وسط الشتاء ، ولم يحصل شىء مما أشاعوه وأذاعوه وتوهموه .

وتسلق العيارون والحرامية تلك الليلة على كثير من الدور والأماكن ، وفتشوها .

فلما أصبح يوم الجمعة كثر التشكى الى الحكام من ذلك . فنادوا فى الأسواق بأن لا أحد يذكر أمر الزلزلة ، وكل من خرج لذلك من داره ... عوقب . فانكفوا وتركوا هذا اللغط الفارغ .

وفيه : ظهر بالأزهر أنفار يقفون بالليل بصحن الجامع الأزهر . فاذا قام انسان لحاجته منفردا أخذوا ما معه ، وأشيع ذلك . فاجتهد الشيخ المهدى فى الفحص والقبض على فاعل ذلك ، الى أن عرفوا أشخاصهم ونسبهم . وفيهم من هو من أولاد أصحاب المظاهر المتعممين . فستروا أمرهم ، وأظهروا شخصا من رفقائهم ليس له شهرة ، وأخرجوه من البلدة منفيا ، ونسبوا اليه الفعال . وسينكشف ستر الفاعلين فيما بعد ، ويفتضحون بين العالم ... كما يأتى خبر ذلك فى سنة سبع وعشرين .

وكذلك أخرجوا طائفة من القوادين والنساء الفواحش ، سكنوا بحارة الأزهر ، واجتمعوا فى أهله . حتى ان أكابر الدولة وعساكرهم ، بل وأهل البلد والسوقة ، جعلوا سمرهم ، وديدنهم ذكر الأزهر وأهله ، ونسبوا له كل رذيلة وقبيحة . ويقولون : لرى كل موبقة تظهر منه ومن أهله . وبعد أن كان منبع الشريعة والعلم صار بعكس ذلك . وقد ظهر منه قبل الزغلية ، والآن الحرامية وأمور غير ذلك مخفية .

وفيه : طلب الباشا تمهيد الطريق الموصلة من القلعة الى الزلاقة ، التى أنشأها طريقا يصعد منها الى الجبل المقطم السابق ذكرها . وأراد أن يفرض على الأخطاط والحارات رجالا للعمل بعدد مخصوص ، ومن اعتذر عن الخروج والمساعدة ، يفرض عليه بدلا عنه ، أو قدرا من الدراهم يدفعها نظير البدل . وأشيع هذا الأمر ، واستحضر الأوباش على الطبول والزمور ... كما كانوا يفعلون فى قضية عمارة محمد باشا خسرو . ثم ان الشيخ المهدى اجتمع بكتخدا بيك ، وأدخل عليه وهما أن محمد باشا خسرو لما فعل ذلك لم يتم له أمر ، وعزل ولم تطل أيامه . ونحن نطلب دوام دولتكم ، والأولى ترك هذا الأمر . فتركوا ذلك ، ولم يذكروه بعد .

صفر

غرته (٨ مارس ١٨١٠ م) :

قلد الباشا خليل أفندى النظر على الروزنامجى وكتابه ، وسموه كاتب الذمة — أى ذمة الميرى من الايراد والمصرف — وكان ذلك عند فتح الطلب بالميرى عن السنة الجديدة ، فلا يكتب تحويل ولا تنبيه ولا تذكرة حتى يطلعوه عليها ، ويكتب عليها علامته . فتكدر من ذلك الروزنامجى وباقى الكتبة . وهذه أول دسيسة أدخلوها فى الروزنامة ، وابتداء فضيحتها ، وكشف سرها ... وذلك باغراء بعض الأفندية الخاملين . أنهى اليهم أن الروزنامجى ومن

معه من الكتاب يوفرون لأنفسهم الكثير من الأموال الميرية ، ويتوسعون فيها . وفى ذلك اجحاف بمال الخزينة . وخليل أفندى هذا كان كاتب الخـزينة عند محمد باشا خسرو ، ولا يفيق من الشرب !

وفيه : طلب الباشا ثلاثة أشخاص من كتبـة الأقباط ، الذين كانوا متقيدين بقيـاس الأراضى بالمنوفية ، وضربهم وحبسهم ... لكونه بلغه عنهم أنهم أخذوا البراطيل والرشوات على قيـاس طين أراضى بعض البلاد ، وأنقصوا من القيـاس فيما ارتوى من الطين ... وهى البدعة التى حدثت على الطين الرى ، وسموها القياسة — وقد تقدم ذكرها غير مرة — وحررت فى هذه السنة على الـكامل ، لكثرة النيل ، وعموم المـاء الأراضى . على أنه بقى الكثير من بلاد البحيرة وغيرها شراقى بسبب عدم حفر الترع ، وحبس الحبوس ، وتجسير الجسور ، واشتغال الفلاحين والملتزمين بالفـرض والمظـالم وعجزهم عن ذلك .

٥ منه (١٢ مارس ١٨١٠ م) :

طلب الباشا كشاف الأقاليم . وشرع فى تقـرير فرضة على البلاد ، بما يقتضيه نظره ونظر كشـاف الأقاليم والمعلمين القبط . فقرروا على أعلاها ثمانين كيسا ، والأدنى خمسـة عشر كيسا . ولم يتقيـد بتحرير ذلك أحد من الكتبة الذين يحـررون ذلك بدفاتر ويوزعونها على مقتضى الحال ، ولم يعطـوا بالمقـادير أوراقا لملتزمى الحصص ، كما كانوا يفعلون قبل ذلك .

فان الملتزم كان اذا بلغه تقرير فرضـة ، تدارك أمره ، وذهب الى ديوان الكتبة ، وأخذ علم القدر المقرر على حصته وتكفل بها ، وأخـذ منهم مهلة بأجل معلوم ، وكتب على نفسه وثيقـة وأبقـاها عندهم . ثم يجتهد فى تحصيل المبلغ من فلاحيه .

وان لم يسعفوه فى الدفع ، وحولوا عليه الطلب ، دفعه من عنده ان كان ذا مقدرة ، أو استدانه ولو بالربا ، ثم يستوفيه بعد ذلك من الفلاحين شـيئا فشيئا .. كل ذلك حرصا على راحة فلاحى حصته وتأمينهم واستقرارهم فى وطنهم ، ليحصـل منهم المطلوب من المال الميرى ، وبعض ما يقتاتون به هم وعيالهم . وان لم يفعل ذلك ، تحـول باستخلاص ذلك كاشف الناحية ، وعين على الناحية الأعـوان بالطلب الحثيث ، وما ينضاف الى ذلك من حـق طرق المعينين وكلفهم .

وان تأخر الدفع ، تكرر الارسـال والطلب على النسق المشروح . فيتضاعف الهم ... وربما ضاع فى ذلك قدر الأصل المطلوب وزيادة عنه مرة أومرتين . والذى يقبضـونه يحسبونه بالفرط — وهو فى كل ريال عشرة أنصاف فضة يسمونها ديوانى — فيقبض المباشر عن الريال تسعين نصـفا فضة ، ويجعل التسعين ثمانين ... وذلك خلاف ما يقرره فى أوراق الرسم من خدم المباشرين من كتبة القبط . فينكشف حال الفلاح ، ويبيع ما عنده من الغلة والبهيمة ، ثم يفر من بلدته الى غيرها ، فيطلبـه الملتزم ، ويبعث اليه المعينين من كاشف الناحية بحق طريق أيضاً : فربما أداه الحال — ان كان خفيف العيال والحركة — الى الفرار والخروج من الاقليم بالكلية !

وقد وقع ذلك حتى امتلأت البلاد الشـامية والرومية من فلاحى قرى مصر ... الذين جلوا عنها وخرجوا منها ، وتغربوا عن أوطانهم من عظيم هول الجـور .

واذا ضاق الحال بالملتزم ، وكتب له عرضحالا يشكو حاله أو حال بلده أو حصته وضعف حالها ويرجو التخفيف ، وتجاسر وقـدم عرضحاله الى الباشا ، يقال له : هات التقسيط ، وخذ ثمن حصتك أو بدلها . أو يعين له ترتيبا بقدر فائظها على بعض

الجهات المبرية من المكوس والجمارك التى أحدثوها. فان سلم سنده وكان ممن يراعى جانبه ، حول الى بعض الجهات المذكورة صورة ، والا أهمل أمره . وبعضهم باعها لهم بما انكسر عليه من مال القرض . وقد وقع ذلك لكثير من أصحاب الذمم المتعددة : انكسر عليه مقادير عظيمة ، فنزل عن بعضها ، وخصموا له ثمنها من المنكسر عليه من القرضة ، وبقى عليه الباقى يطالب به . فان حدثت قرضة أخرى قبل غلاق الباقى ، وقعد بها ، وضمت الى الباقى ، وقصرت يده لعجز فلاحيه ، واستدان بالربا من العسكر ... تضاعف الحال ، وتوجه عليه الطلب من الجهتين فيضطر الى خلاص نفسه ، وينزل عما بقى تحت يده كالأولى وقد يبقى عليه الكسر ويصبح فارغ اليد من الالتزام ومديونا . وقد وقع ذلك لكثير ... كانوا أغنياء ذوى ثروة ، وأصبحوا فقراء محتاجين من حيث لا يشعرون . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وفيه : تحركت همم الأمراء المصريين القبليين الى الحضور الى ناحية مصر ، بعد ترداد الرسل والمكاتبات ، وحضور ديوان أفندى ورجوعه ، وحضور محمد بيك المنفوخ أيضا . وكل من حضر منهم أنعم عليه الباشا ، وألبسه الخلع ، ويقدم له التقادم ، ويعطيه المقادير العظيمة من الأكياس — وقصده الباطنى صيدهم — حتى أنه كان أنعم على محمد بيك المنفوخ بالتزام جمرك ديوان بولاق ، ثم عوضه عنه ستمائة كيس وغير ذلك .

وفيه : قلد الباشا نظر المهمات لصالح بن مصطفى كتخدا الرزاز . ونقلوا ورشة الحدادين ومنافخهم وعددهم من بيت محمد أفندى طبل الودنلى — المعروف بناظر المهمات — الى بيت صالح المذكور بناحية التبانة . وكذلك العربجية وصناع الجلل والمدافع ، ونزعوا منه أيضا معمل البارود — وكان تحت نظره — وكذلك قاعة الفضة . وجمرك اللبان وغيره .

وفيه : وصلت الأخبار من البلاد الرومية والشامية وغيرها ، بوقوع الزلزلة فى الوقت الذى حصلت فيه بمصر ... الا أنها كانت أعظم وأشد وأطول مدة . وحصل فى بلاد كريت اتلافات كثيرة . وهدمت أماكن ودورا كثيرة . وهلك كثير من الناس تحت الردم ، وخسفت أماكن ، وتكسر على ساحل مالطة عدة مراكب . وحصل أيضا باللاذقية خسف .

وحكى الناقلون : أن الأرض انشقت فى جهة من اللاذقية . فظهر فى أسفلها أبنية انخسفت بها الأرض قبل ذلك ثم انطبقت ثانيا !

وفيه من الحوادث : ما وقع ببيت المقدس . وهو أنه لما احترقت القمامة الكبرى (كما تقدم ذكر حرقها فى العام الماضى) أعرضوا الى الدولة . فبرز الأمر السلطانى باعادة بنائها ، وعينوا لذلك أغا قابجى وعلى يده مرسوم شريف . فحضر الى القدس وحصل الاجتهاد فى تشهيل مهمات العمارة ، وشرعوا فى البناء على وضع أحسن من الأول ، وتوسعوا فى مساحة جرمها ، وأدخلوا فيها أماكن مجاورة لها ، وأتقنوا البناء اتقانا عجيبا ، وجعلوا أسوارها وحيطانها بالحجر النحيت ، ونقلوا اليها من رخام المسجد الأقصى . فقام بمنع ذلك جماعة من الأشراف الينكجرية ، وشنعوا على الأغا المعين وعلى كبار البلدة ، وتعصبوا حماية للدين ، قائلين : « ان الكنائس اذا خربت لا يجوز اعادتها الا بأنقاضها ، ولا يجوز الاستعلاء بها ولا تشييدها ، ولا أخذ رخام الحرم القدسى ليوضع فى الكنيسة » ، ومانعوا فى ذلك . فأرسل ذلك الأغا المعين الى يوسف باشا يعرفه عن المعارضين لأوامر الدولة . فأرسل يوسف باشا طائفة من عسكره فى عدة وافرة ، فوصلوا من طريق « الغور » — وهو مسلك

موصل الى القدس ، قريب المسافة خلاف الطريق المعتاد — فدهموا الجماعة المعارضين على حين غفلة ، وحاصروهم فى دير ، وقتلوهم عن آخرهم — وهم نيف وثلاثون نفرا — وشيدوا القمامة ، كما أرادوا ، أعظم وأضخم مما كانت عليه قبل حرقها . فنسأل المولى السلامة فى الدين .

ذو الحجة

غرته (٦ ابريل ١٨١٠ م) :

وصلت الأمراء المصريون القبالى الى ناحية بنى سويف ، وكثير من الأجناد الى مصر . وترددت الرسل ، وحضر ديوان أفندى ثم رجع ثانيا اليهم .

وفيه : أمر الباشا الكتاب بعمل حساب حسين أفندى الروزنامجى عن السنتين الماضيتين — وهما سنة ثلاث وعشرين وأربع وعشرين — وذلك باغراء البعض منهم فاستمروا فى عمل الحساب أياما . فزاد لحسين أفندى مائة وثمانون كيسا . فلم يعجب الباشا ذلك ، واستخونهم فى عمل الحساب ، ثم ألزمه بدفع أربعمائة كيس . وقال : « أنا كنت أريد منه ستمائة كيس ، وقد سامحته فى مائتين فى نظير الذى تأخر له ! » .

وطلع فى صبحها الى الباشا ، وخلع عليه فروة باستقراره فى منصبه ، ونزل الى داره . فلما كان بعد الغروب ، حضر اليه جماعة من العسكر فى هيئة مزعجة ، ومعهم مشاعل ، وطلبوا الدفاتر وهم يقولون : « معزول .. معزول » ! وأخذوا الدفاتر وذهبوا ، وحولوا عليه الحوالات بطلب الأربعمائة كيس فاجتهد فى تحصيلها ودفعها ثم ردوا له الدفاتر ثانيا .

وفيه : حصلت كائنة أحمد أفندى المعروف باليتيم من كتاب الروزنامة وذلك أن الباشا كان ببيت الأزبكية ، فوصل اليه مكتوب من كاشف اقليم الدقهلية ، يعرفه فيه أنه قاس قطعة أرض جارية فى اقطاع أحمد أفندى المذكور ، فوجد مساحتها خلاف المقيد بدفتر القاس الأول ، ومسقوط منها نحو الخمسمائة فدان ، وذلك من فعل المذكور ومخامرته مع النصارى الكتبة والمساحين ، لأنهم يراعونه ويدلسون معه لأن دفاتر الروزنامة بيده .

فلما قرأ المكتوب ، أمر فى الحال بالقبض على أحمد أفندى وسجنه — وكان السيد محمد المحروقى حاضرا ، وكذلك على كاشف الكبير الألفى — فترجيا عند الباشا ، وأخبراه بأن المذكور مريض بالسرطان فى رجله ولا يقدر على حركتها ، واستأذنه السيد المحروقى بأن يأخذه الى داره ، فان داره باب من أبوابه . فأجابه الى ذلك . وركب فى الحال ولحق بالمعينين ، وكانوا قد وصلوا اليه وأزعجوه ، فمنعهم عنه وأخذه الى داره ، وراجع الباشا فى أمره ، فقرر عليه ثمانين كيسا بعد أن قال : « انى كنت أريد أن أقول ثلثمائة كيس ، فسبق لسانى فقلت مائة كيس ! وقد تجاوزت لأجلك عن عشرين كيسا ، وهو يقدر على أكثر من ذلك لأنه يفعل كذا وكذا » . وعدد أشياء تدل على أنه ذو غنية كبيرة ، منها : أنه لما سافر الى الباشا بدفتر الفرضة الى ناحية أسيوط ، طلع الى البلدة فى هيئة وصحبته فرش وسحاحير وبشخانات وكرارات وفراشون وخدم وكيلارجية ومضاحبجية والحكيم والمزين . فلما شاهد الباشا هيئته ، سأل عنه وعن منصبه ، فقيل له : انه جاجرت من كتبة الروزنامة فقال : « اذا كان جاجرت (بمعنى تلميذ) ، فكيف يكون باش جاجرت أو قلفاوات الاقليم ، فضلا عن كبيرهم الروزنامجى ، وأى شىء ذلك ! » . وأسر ذلك فى نفسه ، وطفق يسأل ويتجسس عن أحوالهم . لأنه من طبعه الحقد والحسد ، والتطلع لما فى أيدى الناس .

ولما تقلد خليل أفندى كتابة الذمة فى الروزنامة ،

كما تقدم ، انضم اليه الكارهون للمذكور ، الذين كانوا خاملى الذكر بوجوده ، وتوصلوا الى باب الباشا وكتخدا بيك ، وأنهوا فيه أنه يتصرف فى الأموال الميرية كما يختار ، وأن حسين أفندى الروزنامجى لا يخرج عن مراده واشارته ، وبيته مفتوح للضيفان ، ويجتمع عنده فى كل ليلة عدة من الفقراء ، يثرد لهم الثريد فى القصاع ، ويواسى الكثير من أهل العلم وغيرهم ، ويتعهد بكثير من الملتزمين بالفرض التى تقرر على حصصهم ، ويضمها فى حسابه ، ويصبر عليهم حتى يوفوها له فى طول الزمن ونحو ذلك . وكل ما ذكر دليل على سعة الحال والمقدرة . وأما الذنب الذى أخذه به ، فان القدر المذكور من الطين كان من الموات . فاتفق المذكور مع شركائه ملتزمى الناحية ، وجرفوه وأحيوه وأصلحوه — بعد أن كان خرسا ومواتا لا ينتفع به — وجعلوه صالحا للزراعة . وظن أن ذلك لا يدخل فى المساحة فأسقطه منها فوقع له ما وقع ، وأسقطوا اسمه من كتاب الروزنامة ، ومنعوه منها ، وانقطع فى داره وزاد به ألم رجله .

وفيه : انحرف أيضا الباشا على الخواجا محمود حسن ، وعزله من الجمارك والبزرجانية ، وأكل عليه المطلوب له وهو مبلغ ألفان وخمسون كيسا .

ربيع الآخر

غرته (٦ مايو ١٨١٠ م) :

وصلت الأخبار من البلاد الحجازية بنزول سيل عظيم ، حصل منه ضرر كثير ، وهدم دورا كثيرة بمكة وجدة ، وأتلف كثيرا من البضائع للتجار ... حكوا أنه هدم بمكة خاصة ستمائة دار . وكان ذلك فى شهر صفر .

وفيه : وصل الأمراء المصريون الى ناحية الرقق ، وأوائلهم وصلوا الى دهشور . وخرج اليهم الأتباع بالملاقاة من بيوتهم ، وأحبابهم .

وذهب اليهم مصطفى أغا الوكيل ، وعلى كاشف الصابونجى ، وديوان أفندى ، ثم الباشا ، ثم فى أثرهم طوسون ابن الباشا . وقدم له ابراهيم بيك تقادم ، وأقام بوطاقه أياما ثم رجعوا . وكثر ترداد المراسلات والاختلافات فى أمر الشروط .

٥ منه (١٠ مايو ١٨١٠ م) :

حضر عثمان بيك يوسف ، وصحبته صنجق آخر ، فطلعا الى القلعة وقابلا الباشا . ثم رجعا وحضرا فى ثانى يوم كذلك . فخلع عليهما خلعا وأعطاهما أكياسا ، وأرسل الى ابراهيم بيك هدايا ، والى سليم بيك المحرمجى المرادى أيضا .

١١ منه (١٦ مايو ١٨١٠ م) :

وصل الجميع الى الجيزة ، ونصبوا وطاقهم خارج الجيزة ، وصحبتهم عربان وهوارة كثيرة ، وانتظروا أن الباشا يضرب لحضورهم مدافع . فلم يفعل . وقال ابراهيم بيك : « سبحان الله ! ما هذا الاحتقار ؟ ألم أكن أمير مصر نيفا وأربعين سنة ، وتقلدت قائمقامية ولايتها ووزارتها مرارا ، وبآخره صار من أتباعى ، وأعطيه خرجه من كلارى .. ثم أحضر أنا وباقى الأمراء على صورة الصلح ، فلا يضرب لنا مدافع ... كما يفعل لحضور بعض الافرنج » ! وتأثر من ذلك .

وأشيع فى الناس تعدية الباشا من الغد للسلام على ابراهيم بيك فلم يثبت . وظهر أنه لم يفعل ، وأصبح مبكرا الى شبرا وجلس فى قصره . وحضر اليه شاهين بيك الألفى فى سفينة ، ووقع بينهما مكالمات ، ورجع من عنده عائدا الى الجيزة منفعل الخاطر . ثم ان الباشا أعرض عساكره . فاجتمع اليه الجميع وبدأ اللغط وكثرت القلقلة .

وعندما وصل شاهين بيك الى الجيزة ، أزر حريمه ، وأركبهن وأرسلهن الى الفيوم ، ونقل

متاعه وفرشه من قصر الجيزة فى بقية اليوم ، وكسر المرايات وزجاج الشبابيك التى فى مجالسه الخاصة ... ثم ركب فى طوائفه وأتباعه ، وخشداشينه ومماليكه ، وذهب الى عرضى اخوانه وقبيلته ، ونصب خيامه ووطاقه بحذائهم ، واجتمع بهم وتصافى معهم . وقد كان حضر اليه عبد الرحمن بيك تابع عثمان بيك المرادى المعروف بالطنبرجى ، وحول دماغه ، واتفق معه على الانضمام اليهم والخروج عن الباشا . ففعل ما فعل ، وجعلوه رئيس الأمراء المرادية .

وفى ذلك اليوم : عدى حسن باشا ، وصالح أغا قوج الى بر الجيزة . وذهبا الى عرضى الأمراء ، وسلما عليهم ، وتغديا عند شاهين بيك ، وجرى بينهما وبين ابراهيم بيك كلام كثير . وقال له حسن باشا : « انكم وصلتم الى هنا لتمام الصلح على الشروط التى حصلت بينكم وبين الباشا ، والاتفاق الذى جرى بأسيوط ، ويكون تمامه عند وصولكم الى الجيزة واجتماعكم ... وقد حصل » . فقال له ابراهيم بيك : « وما هى الشروط ؟ » . قال : « هى أن تدخلوا تحت حكمه وطاعته ، وهو يوليكم المناصب التى تريدونها ، بشرط أن تقوموا بدفع الفرض التى يقررها على النواحى ، والغلال الميرية والخراج ، وتعيين من يريده منكم صحبة العساكر الموجهة الى البلاد الحجازية لفتح الحرمين ، وتكونوا معه أمراء مطيعين ، وهو يعطيكم الأمريات والانعامات الجزيلة ، ويعمر لكم ماتريدونه من الدور والقصور التى لكم ولأتباعكم على طرفه ... لايكلفكم بشىء من الأشياء . وقد رأيتم وسمعتم ما فعله من الاكرام والانعام على شاهين بيك ، وما أعطاه من المماليك والجوارى الحسان ، وشفاعاته عنده لا ترد ، وأطلق له التصرف فى البر الغربى من رشيد الى الفيوم الى بنى سويف والبهنسا ، مما هو تحت حكمه ، ويراعى جانبه الى الغاية » .

فقال له ابراهيم بيك : « نعم ... انه فعل مع شاهين بيك ما لا تفعله الملوك ، فضلا عن الوزراء . وليس ذلك لسابق معروف فعله شاهين بيك معه ليستحق به ذلك ، بل هو لغرض سوء يكمنه فى نفسه وشبكة يصطاد بها غيره . فاننا سبرنا أحواله وخياناته ، وشاهدنا ذلك فى كثير ممن خدموه ونصحوا معه ، حتى ملكوه هذه المملكة » .

قال : « ومن هم ؟ » . قال : « أولهم مخدومه محمد باشا خسرو ، ثم كتخداه وخازنداره عثمان أغا جنج ، الذى خامر معه وملك مع أخيه المرحوم طاهر باشا القلعة ، وأحرق سرايته ، ثم سلط الأتراك على طاهر باشا حتى قتلوه فى داره .

« وأظهر موالاتنا وصداقتنا ومساعدتنا ، وصنبر نفسه من عسكرنا ، واتحد بعثمان بيك البرديسى ، وأظهر له خلوص الصداقة والأخوة ، وعاهده بالايمان حتى أغراه على على باشا الطرابلسى ، وجرى ما جرى عليه من القتل ، ونسب ذلك الينا . ثم اشتغل معه على خيانته لأخيه الألفى وأتباعه . ثم سلط علينا العساكر بطلب العلوفة ، وأشار على عثمان بيك بطلب المال من الرعية حتى وقع لنا ماوقع ، وخرجنا من مصر على الصورة التى خرجنا عليها . ثم أحضر أحمد باشا خورشيد وولاه وزيرا ، وخرج هو لمحاربتنا . ثم اتضح أمره لأحمد باشا ، وأراد الايقاع به ، فعجل العود الى مصر ، وأوقع بينه وبين جنده حتى نفروا منه ونابذوه .

« وألقى الى السيد عمر والقاضى والمشايخ أن أحمد باشا يريد الفتك بهم . فهيجوا العامة والخاصة ، وجرى ما جرى من الحروب ، وحرق الدور . وبذل السيد عمر جهده فى النصح معه ، بما يظهره له من الحب والصداقة ، وراجت عليه أحواله ، حتى تمكن

أمره ، وبلغ مراده ، وأوقع به ما أوقع ، وأخرجه من مصر ، وغربه عن وطنه ، ونقض العهود والمواثيق التى كانت بينه وبينه .. كما فعل بعمر بيك وغيره . وكل ذلك معلوم ومشاهد لكم ولغيركم ... فمن يأمن لهذا ، ويعقد معه صلحا ؟ !

« واعلم ، ياولدى ، أننا كنا بمصر نحو العشرة آلاف أو أقل أو أكثر : ما بين مقدمى ألوف وأمراء وكشاف ، وأكابر وجاقات ، ومماليك وأجناد ، وطوائف وخدم وأتباع ... مرفهى المعاش بأنواع الملاذ ، كل أمير مختص ومعتكف باقطاعه ، مع كثرة مصارفنا وانعاماتنا على أتباعنا ومن ينتسب الينا . وأسمطة الجميع ممدودة فى الأوقات المعهودة ، ولا نعرف عسكرا ولا علوفة عسكر . والقرى والبلاد مطمئنة ، والفلاحون ومشايخ البلاد مرتاحون فى أوطانهم ، ومضايفهم مفتوحة للواردين والضيفان ... مع ما كان يلزم علينا من المصارف الميرية ومرتبات الفقراء وخزينة السلطان ، وصرة الحرمين والحجاج وعوائد العربان ، وكلف الوزراء المتونين والأغاوات ، والقباليجية المعينين وخدمهم ، والهدايا السلطانية وغير ذلك .

« وأفندينا ماكفاه ايراد الاقليم ، وما أحدثه من الجمارك والمكوس ، وما قرره على القرى والبلدان : من فرض المال والغلال والجمال والخيول ، والتعدى على الملتزمين ، ومقاسمتهم فى فائظهم ومعاشهم . وذلك خلاف مصادرات الناس والتجار فى مصر وقراها ، والدعاوى والشكاوى ، والتزايد فى الجمارك ، وما أحدثه فى الضربخانة من ضرب القروش النحاس ، واستغراقها أموال الناس ... بحيث صار ايراد كل قلم من أقلام المكوس ، بايراد اقليم من الأقاليم ، ويبخل علينا بما نتعيش به نحن وعيالنا ومن بقى معنا من أتباعنا ومماليكنا ، بل وقصده صيدنا وهلاكنا عن آخرنا » .

فقال حسن باشا : « حاشا لله .. لم يكن ذلك ، ودائما يقول والدنا ابراهيم بيك ، ولكن لا يخفاكم أن الله أعطاه ولاية هذا القطر — وهو يؤتى الملك من يشاء — ولا ترضى نفسه من يخالف عليه ، أو يشاركه بالقهر والاستيلاء . فاذا صار الصلح ، ووقع الصفا ، أعطاكم فوق مأمولكم » . فهز ابراهيم بيك رأسه وقال : « صحيح يكون خيرا » . وانفض المجلس ، ورجع حسن باشا وصالح قوج ، وعديا الى بر مصر .

وفى تلك الليلة : خرج جميع من كان بمصر من الأمراء والأجناد المصرية بخيلهم وهجنهم ومتاعهم ، وعدوا الى بر الجيزة ، ولم يبق منهم الا القليل ، واجتمعوا مع بعضهم ، وقسموا الأمر بينهم ثلاثة أقسام : قسم للمرادية وكبيرهم شاهين بيك ، وقسم للمحمدية وكبيرهم على بيك أيوب ، وقسم للابراهيمية وكبيرهم عثمان بيك حسن . وكتبوا مكاتبات وأرسلوها الى مشايخ العربان ... لم أقف على مضمونها .

١٤ منه (١٩ مايو ١٨١٠ م) :

أوقفوا عساكر على أبواب المدينة يمنعون الخارجين من البلد حتى الخدم ، ومنعوا التعدية الى البر الغربى ، وجمعوا المراكب والمعادى الى البر الشرقى ، ونقلوا البضائع التى فى مراكب التجار المعدة لسفر رشيد ودمياط ، المعروفة بالرواحل ، وأخذوها اليهم ، وشرعوا فى التعدية بطول يوم الجمعة والسبت .

وعدى الباشا آخر النهار ، ودخل الى قصر الجيزة الذى كان به شاهين بيك ، وكذا عدوا بالخيام والمدافع والعربات والأثقال . واجتمعت طوائف العسكر من الأتراك والأرنؤود والدلاة والسجمان بالجيزة ، وتحققت المفاقمة ... والأمراء المصرية خلف السور فى مقابلتهم ، واستمروا على

ذلك الى ثانى يوم ، والناس متوقعون حصول الحرب بين الفريقين . ولم يحصل .

وانتقل المصرية وترفعوا الى قبلى الجيزة بناحية دهشور وزنين .

١٧ ، ١٨ منه (٢٢ ، ٢٣ مايو ١٨١٠ م) :

أنفق الباشا على العسكر ، وكان له مدة شهور لم ينفق عليهم .

١٨ منه (٢٣ مايو ١٨١٠ م) :

وكب الباشا ليلا وسافر الى ناحية كرداسة على جرائد الخيل ، ورجع فى ثانى ليلة . وكان سبب ركوبه : أنه بلغه أن طائفة من العربان مارون يريدون المصرية ، فأراد أن يقطع عليهم الطريق ، فلم يجد أحدا ، وصادف نجعا مقيمين فى محطة ، فنهب مواشيهم ، ورجع متعوبا ، وانقطع عنه أفراد من العسكر ، ومات بعضهم من العطش .

٢١ منه (٢٦ مايو ١٨١٠ م) :

ارتحل المصرية ، وترفعوا الى ناحية جزر الهوا بالقرب من الرقق .

وفيه : حضر مشايخ عربان أولاد على للباشا . فكساهم وخلع عليهم ، وألبسهم شالات كشميرى

مشايخ العربان

عدتها ثمانية شالات ، وأنعم عليهم بمائة وخمسين كيسا . وحضر عند المصرية عربان الهنادى ومشايخهم وانضموا اليهم .

٢٣ منه (٢٨ مايو ١٨١٠ م) :

عدى الباشا الى بر مصر ، وذهب الى بيته بالأزبكية ، فبات به ليلتين ، ثم طلع فى يوم الثلاثاء الى القلعة ، وقد تكدر طبعه من هذه الحادثة بعد أن حصلوا بالجيزة ، وكاد يتم قصده فيهم ، وخصوصا ما فعله شاهين بيك الذى أنفق عليه ألوفا من الأموال ، ذهبت جميعها فى الفارغ البطال .

وفى هذه الأيام — أعنى منتصف شهر بشنس القبطى — زاد النيل زيادة ظاهرة ، أكثر من ذراع ونصف ، واستمر أياما . ثم رجع الى حاله الأول . وهذا من جملة عجائب الوقت !

جمادى الأولى

غرته (٤ يونية ١٨١٠ م) :

عمل الباشا ميدان رماحة بالجيزة ، فتقنطر به الحصان ووقع به الأرض ، فأقاموه . وأصيب غلام من مماليكه برصاصة فمات . ويقال ان الضارب لها كان قاصد الباشا ، فأخطأته ، وأصابت ذلك المملوك .. والأجل حصن .

وفيه : نبهوا على العسكر بالخروج . فسعوا بالجد والعجلة فى قضاء أشغالهم ولوازمهم ، وطفقوا يخطفون حمير الناس وجمالهم ، ومن يصادفونه ويقدرون عليه من أهل البلد وخلافهم ، ويقولون : « فى غد مسافرون وراحلون لمحاربة المصريين » . والمصريون أيضا مستمرون فى منزلتهم لم ينتقلوا عنها .

٥ منه (٨ يونية ١٨١٠ م) :

خرج حسن باشا ، وبرز خيامه بناحية الآثار .

وخرج أيضا محو بيك بعسكره وطوائفه ، ومعهم بيارق . وسافر جملة عساكر فى المراكب ليرابطوا فى البنادر ، فانها خالية ليس بها أحد من المصريين . وفى كل يوم يخرج عساكر ثم يرجعون الى المدينة وهم مستديمون على خطف الدواب ، وحمير البطيخ وجمال السقائين . والباشا يعدى الى بر مصر فى كل يومين أو ثلاثة ، ويطلع الى القلعة ثم يعود الى مخيمه فى الجيزة . وامتنع سفر المسافرين قبلى وبحرى .

١٧ منه (٢٠ يونية ١٨١٠ م) :

بلغ الباشا أن الأمراء المرادية والابراهيمية وغالب المصرية لهم مراسلات ومعاملات مع السيد سلامة النجارى وأخيه وابن أخيه ، وأنه يرسل لهم جميع ما يلزم ، من أسلحة وأمتعة وخلافها ، بواسطة بعض عملائهم من العربان خفية ، وأنه اشترى جملة أسلحة وخيول وثياب وغيرها ، وأخذ أشياء من بيوت بعضهم لأجل أن يرسل الجميع اليهم ، وأن جميع ذلك موجود عند المذكور الآن ... ومن جملة أيام حضر مرسول من عندهم بدراهم ومعه حصان نعمان بيك وهو عنده أيضا . فأمر بجلبه وحبسه ، وهجم منزله ، وضبط أوراقه وضبط ما يوجد بها . ففعلوا ذلك ، وحبسوا معه ابن أخيه وأزعجوهما ، وهجموا منزله فوجدوا فيه خمسة خيول وجملة أسلحة . فطعنوا وبغوا ، ونهبوا متاعه ، وبددوا شمل كتب أبيه ، ولم يجدوا مكاتبات من الأمراء القبالى ولا أثر لذلك ، بل انهم وجدوا جوابا من أخيه السيد أحمد . مضمونه : أننا عند وصولنا الى مكة المشرفة اشترينا أربعة خيول نجدية ، بها العلامات التى أفدتونا عنها ، وهى مرسولة لكم عسى أن تفوزوا بتقديمها لأفندينا .

ولما سئل عن الأسلحة والخيول التى عنده قال :

« أن السلاح عندنا من قديم وله مدد ، ورؤيته تدل على ذلك . وأما الخيول فمنها أربعة أحضرتها هدية لأفندينا ، وجاءت ضعيفة فأبقيتها عندى حتى تتقوى وأقدمها اليه ، والحصان الخامس اشتريته لنفسى من رجل عميلنا اسمه عطوان أحمد من أهالى كفر حكيم ، أخبرنى أنه اشتراه من ناحية صول ، ولما رأيت فيه علامات الجودة — وجاءت الأربعة خيول — تركت ركوبه وأبقيته معها حتى أقدم الجميع لأفندينا

فعند ذلك توجه محمد أفندى طبل للباشا وفهمه براءة ذمة المذكور ، وأخبره بما صار وما وجدوه ، وما قاله المذكور . وسعى فى ازالة هذه التهمة عنه ، وعرفه أن هذا الرجل مستقيم الأحوال ، وأنه من وقت توظيفه معه لم ينظر عليه ما يخالف وصدق عليه الحاضرون .

فلما ظهر للباشا كذب التهمة ، وتحقق براءته ، وأنه أحضر هذه الخيول هدية له ، أمر باطلاقه من السجن ، واسترجاع ما نهبته الأعوان من منزله ، وتخلق عليهم بسبب ذلك . ثم أمر باحضاره واحضار الخيول المهداة له ، فقبلها منه . ثم سأله عن علامات الجودة وما يحمد فى الخيل وما يذم فيها . فأجابه بأجوبة مفيدة استحسنها . فأنعم عليه ، وضاعف مرتبه ، وأحال عليه نظر مشترى الخيول .

وفيه : وصلت الأخبار بأن حسن باشا وصالح قوج وعابدين بيك وعساكر الأرنؤود وصلوا الى ناحية صول والبرنبل ، فوجدوا المصريين جعلوا متاريس ومدافع على البر ليمنعوا مرور المراكب . فحاربوهم حتى أجلوهم عنها ، وملكوا المتاريس ، وقتل رجل من الأجناد — وهو الذى كان محافظا على المتاريس — يقال له ابراهيم أغا ، سقط به الجرف الى البحر ، فأخذوه اليهم ومعه آخر ،

وقتلوهما ، وقطعوا رؤوسهما ، وأرسلوهما صحبة المبشرين الى الباشا . فعلقوا الرأسين بباب زويلة . ولما بلغ الأمراء المصريين أخذ المتاريس ، تأهبوا وساروا من أول الليل — وهى ليلة السبت رابع عشره — مكمنين وكاتمين أمرهم ، فدهموا الأرنؤود من كل ناحية . فوقع بينهم مقتلة عظيمة . وأخذوا منهم عدة بالحياة ، وأخذوا منهم أشياء .

وكان حسن باشا وأخوه عابدين بيك صعدا بمراكبهما الى قبلى المتاريس ، فاحترق من مراكب أخيه مركب ، وألقى من فيها بأنفسهم الى البحر : فمنهم من نجا ، ومنهم من غرق . وأما مراكب حسن باشا فانه ساعدها الريح أيضا فسارت الى ناحية بنى سويف . ثم ان المصريين عدى منهم طائفة الى شرق أطفيح ، وانتقل بواقيهم راجعين الى ناحية الجيزة ... قريبا من عرضى الباشا .

١٩ منه (٢٢ يونية ١٨١٠ م) :

عدى الباشا الى بر مصر ، وطلع الى القلعة . فلما كان الليل ، وصل طائفة من المصريين الى المرابطين لخفارة عرضى الباشا ، واحتاطوا بهم وساقوهم اليهم فانزعج العرضى وحصل فيهم غاغة .. فأرسل طوسون باشا الى أبيه . فركب ونزل من القلعة فى سادس ساعة من الليل ، وعدى الى البر الغربى . ومما سمعته : أن الباشا عندما نزل المعدية ، وسار بها فى البحر ، سمع واحدا يقول لآخر : « قدم حتى تقتل المصريين ونبدد شملهم » ويكرر ذلك . فأرسل الباشا مركبا ، وأرسل بعض اتباعه بها لينظروا هذين الشخصين ، ولأى شىء نزلا البحر فى هذا الوقت . فلما ذهبوا الى الجهة التى سمع منها الصوت ، لم يجدوا أحدا ، وتفحصوا عنهما فلم يجدوهما . فاعتقد من له اعتقاد منهم ، أنهما من الأولياء ، وأن الباشا مساعد بأهل الباطن !

٢٠ منه (٢٣ يونية ١٨١٠ م) :

ظهر التفاشل بين الأمراء المصريين ، وتبين أن الذين كانوا عدوا الى البر الشرقى ، هم ثلاثة أمراء من الألفية وهم : نعمان بيك ، وأمين بيك ، ويحيى بيك . وذلك أنهم لما تصالحوا مع الباشا ، وأميرهم شاهين بيك ، وهو الرئيس المنظور اليه ، ومطلق التصرف فى معظم البر الغربى والفيوم ... يتحكم فيهم ، وفى طوائف العربان ، وأهالى البلاد والفلاحين بما يريد ، وكذلك أموال المعادى ، بناحية الاخصاص وانبابة والجبيرى وغير ذلك — وهو شىء له قدر كبير — وزاد فيهم أيضا أضعاف المعتاد . فيأخذ جميع ذلك ويختص به ... وذلك خلاف انعامات الباشا عليه بالمئين من الأكياس ، ويشترى المماليك والجوارى الحسان ولا يدفع لهم ثمنا . فيشكون الى الباشا ، فيدفعه الى اليسرجية من خزينته وهو منشرح الخاطر ... واخوانه يتأثرون لذلك وتأخذهم الغيرة ، ويطمعون فى جانبه ، وهو يقصر فى حقهم ، ولا يعطيهم الا النزر ... مع المن والتضجر . وفيهم من هو أقدم منه هجرة ، ويرى فى نفسه أنه أحق بالتقدم منه . ولما دنت وفاة أستاذهم ، أحضر شاهين بيك وسلمه خزينته ، وأوصاه بأن يعطى لكل أمير من خشداشينه سبعة آلاف مشخص ، ولم يعطهم وطفق كلما أعطاهم شيئا ، حسبه عليهم من الوصية ... حتى اذا أعطى الپلك والبنش لنعمان بيك مثلا ، يعطيه له أنقص من بنش أمين بيك نصف ذراع ، ويقول : هو قصير القامة ! ونحو ذلك . فيحقدون عليه ، ويتشكون من خسته وتقصيره فى حقهم ، ويعلم الباشا ذلك .

فلما نقض شاهين بيك عهده ، وانضم الى المخالفين — وخشداشينه المذكورون معه بالتنافر القلبى — راسلهم الباشا سرا . ووعدهم ومناهم بأنهم اذا حضروا اليه ، وفارقوا شاهين بيك الخائن المقصر فى

حقهم ، أنزلهم منزلة شاهين بيك وزيادة ، واختص بهم اختصاصا كبيرا ... فمالت نفوسهم لذلك القول ، واعتقدوا — بخسافة عقولهم — صحته ، وأنهم اذا رجعوا اليه هذه المرة ، ونبذوا المخالفين ، اعتقد صداقتهم وخلوصهم ، وزاد قدرهم ومنزلتهم عنده .

وتذكروا عند ذلك ما كانوا فيه ، مدة اقامتهم بمصر ، من التنعم والراحة فى القصور التى عمروها بالجيزة ، والبيوت التى اتخذوها بداخل المدينة ، والرفاهية والفرش الوطيئة . وتحركت غلمتهم للنساء والسرارى ، التى أنعم عليهم الباشا بها . وقالوا ما لنا والغربة ، وتعب الجسم والخاطر ، والانزعاج والحروب ، والالقاء بنفوسنا فى المهالك ، وعدم الراحة فى النوم واليقظة .

فردوا الجواب بالاجابة ، وتمنوا عليه أيضا ما حاك فى نفوسهم ، بشرط طرح المؤاخذة ، والعفو الكامل ، بواسطة من يعتمد صدقه . فأجابهم لكل ما سألوه وتمنوه ، بواسطة مصطفى كاشف المورلى ... وهو معدود سابقا منهم ، وانفصل عنهم وانتمى الى كتخدا بيك ، وصار من أتباعه .

فعند ذلك شرعوا فى مناكدة أخيهم شاهين بيك ومفارقته ، وعقدوا معه مجلسا ، وقالوا له : « قاسمنا فى ربع المملكة التى خصونا به فى القسمة التى شرطوها ، فاننا شركاؤك ... فان ابراهيم بيك قسم مع جماعته ، وكذلك عثمان بيك ، وعلى بيك أيوب » . فقال لهم : « وما هو الذى ملكناه حتى أقاسمكم فيه ؟ » فقالوا : « أنت تجحف علينا وتختص بالشىء دوننا . فانك لما اصطلحنا معك مع الباشا ، وصرفك فى البر الغربى . اختصيت بايراده — وهو كذا وكذا — دوننا . ولم تشركنا معك فى شىء ، ولولا أن الباشا كان يراعينا ويواسينا من عنده ... لمتنا جوعا .. فنحن لا نرافقك ولا نصحبك ولا نحارب معك ، حتى تظهر لنا ما نقاتل معك عليه » . وتزايدوا معه فى المكالمة والمعاتبة والمفاقمة ، ثم انفصلوا عنه ونقلوا خيامهم الى ناحية البحر ، واعتزلوه وفارقوا عرضي الجميع .

فلما علم بذلك ابراهيم بيك الكبير ، تنكد خاطره ، وقال : « لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .. أى شىء هذا الفشل وخسافة العقل ، والتفرق بعد الالتئام والاجتماع » ! وذهب اليهم ليصالحهم ويضمن لهم كل ما طلبوه ، وطمعوا فيه عند تملكهم ، وقال لهم : « ان كنتم محتاجين فى هذا الوقت لمصرف ، أنا أعطيكم من عندى عشرين ألف ريال ، اقسموها بينكم ، وعودوا لمضربكم معنا » . فامتنعوا من صلحهم مع شاهين بيك ، فرجع ابراهيم بيك يريد أخذ شاهين بيك اليهم . فامتنع من ذهابه اليهم ، وقال : « أنا لست محتاجا اليهم ، وان ذهبوا قلدت أمراء خلافهم . وعندى من يصلح لذلك ، ويكون مطيعا لى دونهم ، فان هؤلاء يرون أنهم أحق منى بالرياسة » . والجماعة شرعوا فى التعدية ، وانتقلوا الى البر الشرقى ... وحال البحر بين الفريقين .

ووصل اليهم مصطفى كاشف المورلى بمرسوم الباشا ، واجتمعوا معه عند عبد الله أغا ، المقيم بناحية بنى سويف ، وضرب لهم شنكا ومدافع . ثم انهم عزموا على الحضور الى مصر . فوصلوا فى يوم الخميس خامس عشرينه ، وقابلوا الباشا وخلع عليهم ، وأعطاهم تقادم . ورجعوا الى مضربهم ناحية الآثار ، وصحبتهم ستة عشر من كشافهم ، والجميع يزيدون عن المائتين . وأنعم عليهم الباشا بمائتى كيس : لكل كبير من الأربعة عشرون كيسا ، ومائة وعشرون كيسا لبقيتهم . واشتروا دورا واسعة ، وشرعوا فى تعميرها وزخرفتها على طرف الباشا .. فاشترى أمين بيك دار عثمان كتخدا

المنفوخ بدرب سعادة من عتقائه ، ودفع له الباشا ثمنها وأمر لكل أمير منهم بسبعة آلاف ريال ، لبصرفها فيما يحتاج اليه فى العمارة واللوازم ، وحولهم بذلك على المعلم غالى .

ولما تحقق شاهين بيك انفصالهم ، قلد أربعة من أتباعه أمرياتهم ، وأعطاهم بيرقا وخيولا ، وضم اليهم مماليك وطوائف . وتمت حيلة الباشا التى أحكمها بمكره . وعند ذلك أشيع فى الاقليم القبلى والبحرى ، تفرقهم وتفاشلهم ، ورجع من كان عازما من القبائل والعربان عن الانضمام اليهم .. وطلبوا الأمان من الباشا ، وحضروا اليه ، ودخلوا فى طاعته ، وأنعم عليهم وكساهم ..

وكانت أهالى البلاد عندما حصلت هذه الحادثة عصت عن دفع الفرض والمغارم ، وطردوا المعينين وتعطل الحال ، وخصوصا عندما شاع غلبة المصريين على الأرنؤود وتفرقت عنهم العربان الذين كانوا انضموا اليهم ، وأطاع المخالف والعاصى والممانع . وكلها أسباب لبروز المقدور المستور فى غيبه سبحانه وتعالى .

فى أواخره (أواخر يونية ١٨١٠ م) :

حضر كثير من عسكر الدلاة ، من الجهة الشامية وكذلك حضر أتراك من على ظهر البحر كثيرون .

جمادى الآخرة

٣ منه (٦ يولية ١٨١٠ م) :

قلد الباشا ديوان افندى نظر مهمات الحرمين ، والتأهب لسفر الحجاز ، لمحاربة الوهابية ، وسكن ببيت قصبة رضوان . كل ذلك مع توجه الهمة ، والاستعداد لمحاربة الأمراء المصريين . والمذكورون بناحية قنطرة اللاهون .

وأما حسن باشا وصالح قوج وعابدين بيك ، ومن معهم ، فانهم صعدوا الى قبلى ، وملكوا البنادر .. الى حد جرجا واستقر دبوس أغلى بمنية ابن خصيب .

٥ منه (٨ يولية ١٨١٠ م) :

ارتحل الباشا بعساكره من الجيزة ، وانتقل الى جزيرة الذهب ونودى فى المدينة بخروج العساكر المقيمين بمصر ، ولا يتخلف منهم أحد . فزاد تعديهم وخطفهم الحمير والجمال والرجال الفلاحين وغيرهم لتسخيرهم فى خدمتهم وفى المراكب ، عوضا عن النوتية والملاحين ، الذين هربوا وتركوا سفائنهم . فكانوا يقبضون على كل من يصدفونه ، يحبسونهم فى الحواصل ببولاق . واتفق أنهم حبسوا نحو ستين نفرا فى حاصل مظلم ، وأغلقوه عليهم ، وتركوهم من غير أكل ولا شرب أياما ، حتى ماتوا عن آخرهم ! وانحدر قبطان بولاق وأعوانه فى طلب المراكب من بحر النيل ، فكانوا يقبضون على المراكب الواصلة الى مصر بالغلال والبضائع والسفار ، فيلقون شحنها التى لا حاجة لهم بها على شطوط الملق ، ويأتون بالمراكب الى بولاق والجيزة ... الا أن بعطوهم براطيل على تركهم الغلة بالمركب حتى يصلوا بها الى ساحل

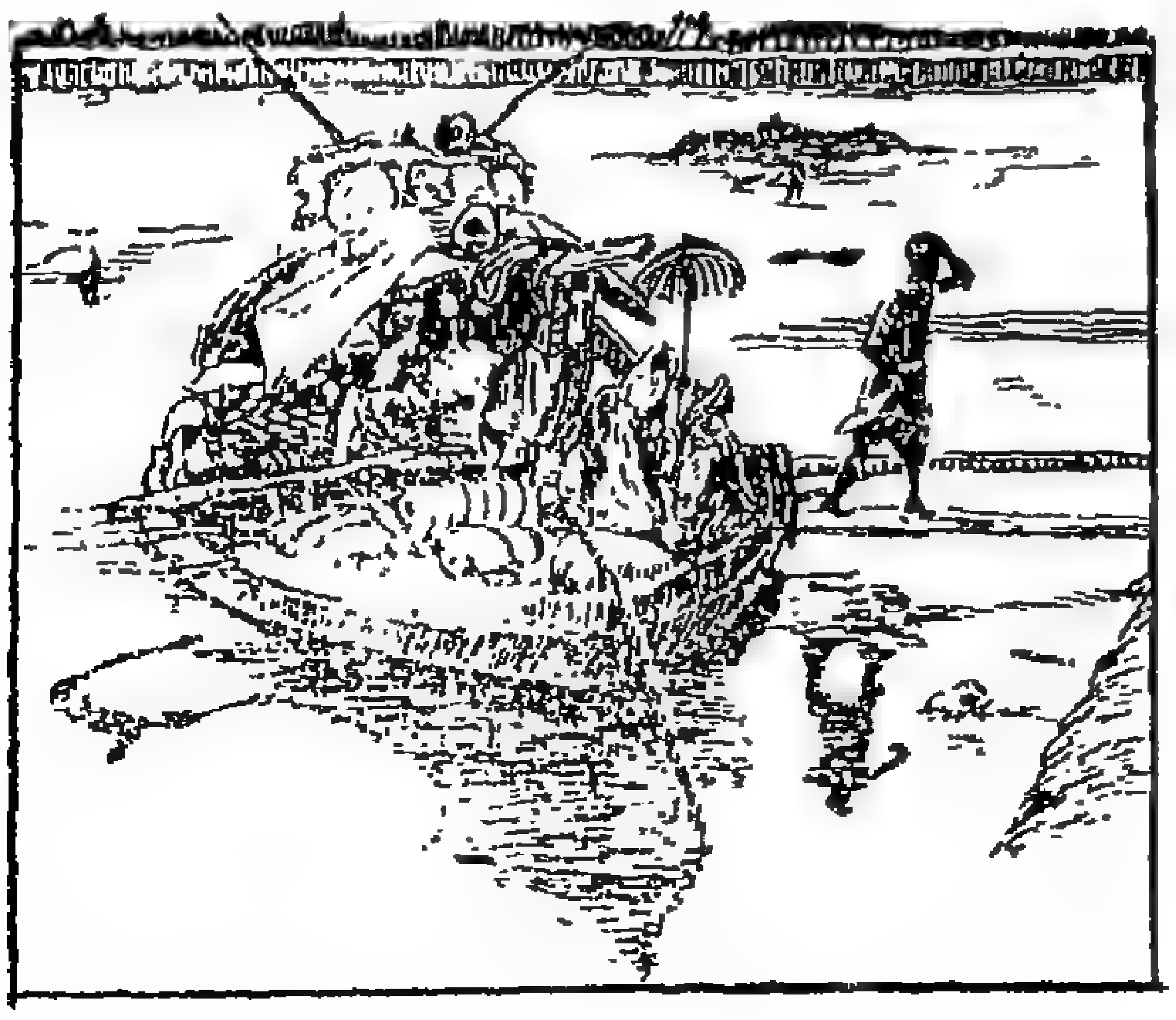

المركب .. محملة بالبضائع والسفار

بولاق، فيخرجونها منها ، ثم يأخـذون المركب . وهكذا كان دأبهم بطول هذه المدة .

١٠ منه (١٢ يولية ١٨١٠ م) :

ارتحل الباشا من جزيرة الذهب يريد محاربة المصريين .

١٥ منه (١٨ يولية ١٨١٠ م) :

ورد الخبر بأن حسنين بيك ، تابع حسنين بيك المعروف بالوشاش الألفى ، أراد الهروب والمجىء الى الباشا . فقبض عليه شاهين بيك ، وأهانه وسلب نعمته ، وكتفه وأركبه على جمل مغطى الرأس ، وأرسله الى الواحات . فاحتال وهرب ، وحضر الى عرضى الباشا ، فأكرمه وأنعم عليــه ، وأعطاه خمسين كيسا واستمر عنده .

٢٥ منه (٢٨ يولية ١٨١٠ م) :

وصلت الأخبار بأن الباشا ملك قناطر اللاهون، وأن المصريين ارتحلوا الى ناحية البهنسا ، ولم يقع بينهم كبير محــاربة . وأن الباشا استــولى على الفيوم . وأرســل الباشا هدايا لمن فى سرايتــه ولكتخدا بيك من طرائف الفيوم ، مثل ماء الورد والعنب والفاكهة وغير ذلك . واستولى على ما كان مودوعا للمصريين من الغلال بالفيوم .

فى اواخره (اواخر يولية ١٨١٠ م) :

وصلت أخبار من ناحية الشام بأن طائفــة من الوهابية جردوا جيشا الى تلك الجهة . فتوجــه يوسف باشا الى المزيريب وحصن قلعتها ، واستعد اليهم بجيش ، وحاربوهم وطردوهم . ثم اضطربت الأخبار واختلفت الأقوال .

رجب

الخميس غرته (٢ اغسطس ١٨١٠ م) :

وردت الأخبــار بورود قزلار أغا من طرف الدولة ... وعلى يده أوامر وخلعة وسيف وخنجر لمحمد على باشا ، وصحبته أيضــا مهمات وآلات مراكب ، ولوازم حروب لسفر البــلاد الحجازية ؛ ومحاربة الوهابية — وهو يسمى عيسى أغا — وأنه طلع الى ثغر سكندرية .

السبت ١٠ منه (١١ اغسطس ١٨١٠ م — ٦ مسرى ١٥٢٦ ق) :

أوفى النيل ، وحصلت الجمعية ، وحضر كتخدا بيك والقاضى وباقى الأعيان ، وكسر السد بحضرتهم فى صبحها يوم الأحد ، وجرى الماء فى الخليج .

وفيه : وصل الأغا شبرا . وعملوا له هنــاك شنكا وحراقات ، وتعليقــات قبــالة القصر الذى أنشأه الباشا بساحل شبرا .. وخرجوا لملاقاته فى صبحها بعد ثلاث ليال .

الثلاثاء ١٣ منه (١٤ اغسطس ١٨١٠ م) :

عملوا له موكبــا عظيما ، وطلع الى القلعــة ، وضربوا عند طلوعه الى القلعة مدافع . وهذا الأغا أسمر اللون ، حبشى مخصى ، لطيف الذات ، متعاظم فى نفسه ، قليل الكلام وفى حال مروره كان بجانبه شحصان ينثران الذهب والفضة الاسلامبولى على الناس المتفرجين .

وحضر صحبته ، وصحبة أتبــاعه ، الســكة الجـديدة التى ضربت باســــلامبول من الذهب والفضة وهى دراهم فضة خالصــة ســالمة من الغش ، زنة الدرهم منها درهم وزنى كامل ســتة عشر قيراطا ، بصرف بخمسة وعشرين نصفا من الأنصاف المعاملة العددية ، المستعملة فى معــاملة الناس الآن .. وكذلك قطعة مضروبة وزن درهمين بالدرهم الوزنى ، تصرف بخمسين . وكذلك قطعة مضروبة وزنها أربعة دراهم ، وتصرف بمائة نصف . وقطعــة وزنها ثمانيــة دراهم ، وتصرف بمائتين .

وكذلك ذهب فندقلى اسلامى ، يصرف بأربعمائة نصف ، وأربعين نصفا ، ونصفه وربعه .

الجمعة ١٦ منه (١٧ اغسطس ١٨١٠ م) :

حضر الأغا المذكور الى المسجد الحسينى ، وصلى به الجمعة ، وخرج وهو يفرق على الفقراء والمستجدين أرباع الفنادقة . وأعطى خدمة الضريح وخدمة المسجد ، قروشا اسلامبولى فى صرر ... أقل ما فى الصرة الواحدة عشرة قروش .

السبت ١٧ منه (١٨ اغسطس ١٨١٠ م) :

عملوا ديوانا بالقلعة ، وأحضروا خلعة وصلت صحبة الأغا المذكور . أرسلها صحبة خازنداره ، وألبسوها لابن الباشا ، وجعلوه باشا مير ميران . وابن الباشا المذكور ولد مراهق صغير يسمى اسماعيل ، وضربوا شنكا ومدافع . وأشيع أنه وصلت مبشرون من الجهة القبلية بنصرة الباشا على المصريين ، وأرسلوا بذلك أوراقا للأعيان ، أخبروا فيها بوقوع الحرب بين الفريقين ليلة السبت أو يوم السبت عاشر رجب .

الثلاثاء ٢٠ منه (٢١ اغسطس ١٨١٠ م) :

أرسلوا تنابيه الى المشايخ بالحضور من الغد لأنفار عدوها ، ويكون حضورهم بالمشهد الحسينى . فبات الناس فى ارتياب وظنون وتخامين . فلما أصبح اليوم ، حضر شيخ السادات — وهو الناظر على أوقاف المشهد — الى قبة المدفن ، وحضر الشيخ البكرى ، وأغلقوا باب القبة ، ومنعوا الناس من العبور بالمسجد متشوفين لثمرة هذا الاجتماع . وكل من حضر من الأشياخ المشاهير ، استأذنوا له وأدخلوه الى القبة ، وحضر الشيخ الأمير والشيخ المهدى ، وتأخر حضور الشيخ الشرقاوى ، لكونه كان ببيت فى بولاق . ثم حضر الأغا المذكور ودخل الى القبة ، وصحبته ظرف من خشب ، ففتحه ، وأخرج منه لوحا طوله أزيد من ذراعين ، فى عرض ذراع ونصف ، مكتوب فيه البسملة بخط الثلث مموه بالذهب ، وهى بخط يد السلطان محمود ، وتحتها طرة العلامة السلطانية . فعلقوه على مقصورة المقام ، وقرأوا الفاتحة ، ودعا السيد محمد المنزلاوى ، خطيب المسجد ، بدعوات للسلطان . ولما فرغ دعا أيضا السيد بدر الدين المقدسى ، ثم خلع على المشايخ خلعا ، وفرق ذهبا . ثم خرج الجميع ، وركبوا الى دورهم . فكان هذا الجمع جمع سخف لا غير !

الجمعة ٢٣ منه (٢٤ اغسطس ١٨١٠ م) :

ركب الأغا المذكور ، وذهب الى ضريح السادات الوفائية بالقرافة ، صحبة الشيخ المتولى خلافتهم ، فزار مقابرهم وعلق هناك لوحا أيضا ، وفرق دراهم ، وخلع على الشيخ المذكور خلعة .

ومن الحوادث البدعية من هذا القبيل : أن عثمان أغا المتولى أغات مستحفظان ، سولت له نفسه عمارة مشهد الرأس — وهو رأس زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم — ويعرف هذا المشهد عند العامة بزين العابدين ، وبذلك اشتهر ، ويقصدونه بالزيارة صبح يوم الأحد . فلما كانت الحوادث ، ومجىء الفرنسيس ، أهملوا ذلك وتخرب المشهد ، وأهيلت عليه الأتربة . فاجتهد عثمان أغا المذكور فى تعمير ذلك . فعمره وزخرفه وبيضه وعمل به سترا وتاجا ليوضعا على المقام . وأرسل فنادى على أهل الطرق الشيطانية ، المعروفين بالأشاير ، وهم السوقة وأرباب الحرف المرذولة ، الذين ينسبون أنفسهم لأرباب الضرائح المشهورين : كالأحمدية ، والرفاعية ، والقادرية ، والبرهامية ، ونحو ذلك . وأكد فى حضورهم قبل الجمع بأيام .

ثم انهم اجتمعوا فى يوم الأحد خامس عشريته

بأنواع من الطبول والزمامير والبيارق ، والأعلام والشراميط والخرق الملونة والمصبغة . ولهم أنواع من الصياح والنياح والجلبة والصراخ الهائل ... حتى ملأوا النواحى والأسواق ، وانتظموا وساروا وهم يصيحون ، ويترددون ويتجاوبون بالصلوات والآيات التى يحرفونها ، وأنواع التوسلات ومناداة أشياخهم أيضا المنتسبين اليهم بأسمائهم ، كقولهم برفع الصوت وضرب الطبلات ، وقولهم : ياهو ياهو ياجباوى ، ويابدوى ، ويادسوقى ، ويابيومى ويصحبهم الكثير من الفقهاء والمتعممين ... والأغا المذكور راكب معهم ، والستر المصنوع مركب على أعواد ، وعليه العمامة مرفوعة بوسط الستر على خشب ، ومتحلقين حوله بالصياح والمقارع يمنعون أيدى الناس الذين يمدون أيديهم للتمسح والتبرك ، من الرجال والنساء والصبيان المتفرجين ، ويرمون الخرق والطرح ، حتى أنهم يرخونها من الطيقان بالحبال لتصل الى ذلك التمثال ، لينالوا جزءا من بركته !

ولم يزالوا سائرين به على هذا النمط ، والخلائق تزداد كثرة ، حتى وصلوا الى ذلك المشهد ... خارج البلدة بالقرب من كوم الجارح ، حيث المجراة . وصنع فى ذلك اليوم والليلة أطعمة وأسمطة للمجتمعين ، وباتوا على ذلك الى ثانى يوم.

وفيه : بعث عيسى أغا الواصل نجيب أفندى الى الباشا ، يخبره بحضوره ، وبالغرض الذى حضر من أجله ويستدعيه للمجىء .

الجمعة غايته (٣١ اغسطس ١٨١٠ م) :

وردت أخبار بوقوع حرابة بين الباشا والمصريين. وقتل بين الفريقين مقتلة عظيمة ، عند « دلجه » ، و «البدرمان» . وكانت الغلبة الباشا على المصريين. وأخذوا منهم أسرى . وحضر الى الباشا جماعة من الأمراء الألفية بأمان ، وهرب الباقون وصعدوا الى قبلى . فعملوا لذلك اليوم شنكا ومدافع ، ثلاثة أيام ، كل يوم ثلاث مرات .

شعبان

السبت غرته (اول سبتمبر ١٨١٠ م) :

حضر الباشا وقت الغروب فى تطريدة ، وصحبته جماعة قليلون ، وطلع من البحر من بر طرا والمعيصرة . وركب من هناك خيولا من خيول العرب ، وطلع الى القلعة على حين غفلة . فضربوا فى ذلك الوقت مدافع ... اعلاما بحضوره .

وفى ثانى ليلة : صعد اليه عيسى أغا المذكور عند الغروب ، وقابله وسلم عليه .

الاثنين ٣ منه (٣ سبتمبر ١٨١٠ م) :

عمل الباشا ديوانا ، وركب ذلك الأغا من بيت عثمان أغا الوكيل الكائن بدرب الجماميز ... فى موكب ، وطلع الى القلعة وقرأ المرسوم الذى وصل صحبته بالمعنى السابق ، وهو الأمر بالخروج الى الحجاز . ولبس الباشا الخلعة والسيف بحضرة الجمع . وضربوا مدافع كثيرة عقيب ذلك .

وفيه : وردت الأخبار بمجىء يوسف باشا والى الشام الى ثغر دمياط . وكان من خبر وروده على هذه الصورة : أنه لما ظهر أمره وأتته ولاية الشام ، فأقام العدل ، وأبطل المظالم ، واستقامت أحواله ، وشاع أمر عدله النسبى فى البلدان فثقل أمره على غيره من الولاة وأهل الدولة . لمخالفته طرائقهم فقصدوا عزله وقتله ، فأرسلوا له ولوالى مصر أوامر بالخروج الى الحجاز ، فحصل التوانى .

وفى أثناء ذلك حضر فرقة من العربان الوهابيين، وخرج اليهم يوسف باشا المذكور وحصن المزيريب كما تقدم ، ورجع الى الشام وتفرقت الجموع . ثم

وصل عيسى أغا هذا ، وعلى يده مراسيم بولاية سليمان باشا على الشام ، وعزل يوسف باشا ، وأشاعوا ذلك . وخرج سليمان باشا تابع الجزار من عكا فى جمع ، وخرج يوسف باشا بجموعه أيضا ... فتحاربا ، فانهزم يوسف باشا ونزل بالمزة ، واستعجل الرجوع الى الشام ، فقامت عليه عساكره ونهبوا متاعه . وخرج سليمان باشا تابع الجزار من عكا وتفرقوا عنه ، فما وسعه الا الفرار ، وترك ثقله وأمواله ، ونزل فى مركب ، ومعه نحو الثلاثين نفرا ، وحضر الى مصر ملتجئا لواليها محمد على باشا ، لأن بينهما صداقة ومراسلات .

فلما وصلت الأخبار بوصوله ، أرسل الى ملاقاته طاهر باشا ، وحضر صحبته الى مصر ، وأنزله بمنزل مطل على بركة الأزبكية ، وعين له مايكفيه ، وأرسل اليه هدايا وخيولا وما يحتاج اليه .

وفى هذه الأيام : اختل سد ترعة الفرعونية ، وانفتح منه شرم ، واندفع فيه الماء ، فضج الناس ، وتعين لسدها ديوان أفندى ، وأخذ معه مراكب وأحجارا وأخشابا ، وغاب يومين ثم رجع ، واتسع الخرق ، واستمر عمر بيك تابع الأشقر مقيما عليها لخفارتها ، وليمنع مرور المراكب ، ويقوى ردمها ، لئلا تنحرها المياه فيزداد اتساع الخرق .

وفى هذه الأيام : توقفت زيادة النيل ، فكان يزيد من بعد الوفاء قليلا ، ثم ينقص قليلا ، ثم يرجع النقص وهكذا . فأشار البعض بالاجتماع للاستسقاء بالأزهر ، فتجمع القليل ، ثم تفرقوا . وذلك يوم الثلاثاء رابعه .

وخرج النصارى الأقباط يستسقون أيضا ، واجتمعوا بالروضة ، وصحبتهم القساقسة والرهبان وهم راكبون الخيول والرهوانات والبغال والحمير فى تجمل زائد . وصحبتهم طائفة من أتباع الباشا بالعصى المفضضة .

وعملوا فى ذلك اليوم سيانة وحانات وقهوات وأسمطة وسكردانات عند جميز العبد . ويقولون ان النيل لما توقفت زيادته فى العام الذى قبل العام الماضى ، وخرج الناس يستسقون بجامع عمرو ، وخرج النصارى فى ثانى يوم ، زاد النيل تلك الليلة ... وذلك لا أصل له . على أنه لا استغراب للزيادة فى أوانها . وهذه الأيام أيضا أواخر مسرى وأيام النسىء — وفيها قوة الزيادة — وأيام النوروز .

السبت ٨ منه (٨ سبتمبر ١٨١٠ م) :

خرج المشايخ والناس الى جامع عمرو بمصر القديمة ، وأرسلوا تلك الليلة فجمعوا الأطفال من مصر وبولاق ، فحضر الكثير ، وخطبوا وصلوا وأضر بالمجتمعين الجوع فى ذلك اليوم ولم يجدوا مايأكلونه .

الاحد ٩ منه (٩ سبتمبر ١٨١٠ م) :

نقص النيل واستمر ينقص فى كل يوم .

الخميس ١٣ منه (١٣ سبتمبر ١٨١٠ م) :

حضرت العساكر والتجريدة الى نواحى الآثار والبساتين . ودخلوا فى صبحية يوم الجمعة رابع عشره ، بطموشهم وحملاتهم ، حتى ضاقت بهم الأرض ، وحضر صحبتهم الكثير من الأجناد المصرية أسرى ومستأمنين .

وفيه : حضر يوسف باشا المنفصل عن الشام ، ونزل بقصر شبرا ، وضربوا لقدومه مدافع ، ثم انتقل الى الأزبكية ، وسكن هناك كما تقدم ذكره .

الثلاثاء ٢٥ منه (٢٥ سبتمبر ١٨١٠ م) :

زاد النيل ، ورجع ما كان انتقصه ، وزاد على ذلك نحو قيراطين ، وثبت الى أواخر توت ، واطمأن الناس .

السبت غايته (٢٩ سبتمبر ١٨١٠ م) :

سافر عيسى أغا بعدما قبض ما أهداه اليه الباشا له ولمخدومه ، من الهـدايا والأكياس ، والتحف والسكاكر والشرابات والأقمشة الهنـدية ، وغير ذلك . ونزل لتشييعه عثمان أغا الوكيل ، وسـافر صحبته نجيب أفندى .

وفيه : سافر سليمان بيك البواب ، لمصالحـة الأمراء المنهزمين على يد حسن باشا .

رمضـان

الثلاثاء ١٧ منه (١٦ أكتوبر ١٨١٠ م) :

قبض الباشا على المعلم غالى ، كبـير المباشرين الأقباط ، والمعلم فلتيوس ، والمعلم جرجس الطويل ، والمعلم فرنسيس أخى المعلم غالى ، وباقى أعيـان المباشرين . فأما غالى وفلتيوس فنزلوا بهما تلك الليلة الى بولاق ، وأنزلوهما فى مركب ليسـافرا الى دمياط . وحبسوا الباقين بالقلعة ، وختموا على دورهم ، ووجدوا عنـد المعلم غالى نيفـا وستين جارية بيضاء وسوداء وحبشية . ثم قلدوا المباشرة الى المعلم منصور ضريمون الذى كان معلم ديوان الجمرك ببولاق سابقا ، والمعلم بشارة ورزق الله الصباغ مشاركان معه . ثم أنزلوا النصـارى المعتقلين من القلعة الى بيت ابراهيم بيك الدفتردار بالأزبكية — وفيهم جرجس الطويل ، وأخوه حنا ، وجريس ، وفرنسيس أخو غالى ، ويعقوب كاتبه ، وغيرهم — وأشاعوا عمل حسابهم ، ثم دار الشغل ، وسعت الساعون فى المصالحة على غالى ورفقائه ... الى أن تم الأمر على أربعـة وعشرين ألف كيس ، ونزل له فرمان الرضا والخلع والبشائر ! وذلك فى آخر رمضان .

شـوال

الثلاثاء غرته (٣٠ أكتوبر ١٨١٠ م) :

نزلت طبلخانة الباشا الى بيت المعـلم غالى . واسـتمروا يضربون النوبة التركيـة ، ثلاثة أيام

اصحاب الطبل ...

العيد ، ببيته . وكذلك الطبل الشـامى ، وباقى الملاعيب ، وترمى لهم الخلع والبقاشيش .

الاثنين ٧ منه (٥ نوفمبر ١٨١٠ م) :

حضر المعلم غالى ، وطلع الى القلعـة ، وخلع عليه الباشا خلع الرضـا ، وألبسـه فروة سمور ، وأنعم عليه ، ونزل له عن أربعـة آلاف كيس من أصـل الأربعـة وعشرين ألف كيس المطلوبة فى المصالحة . ونزل الى داره وأمامه الجاويشـيـة والأتباع بالعصى المفضضة ، وجلس بدكة داره ، وأقبل عليه الأعيان من المسلمين والنصارى للسلام عليه ، والتهنئة له بالقـدوم المبـارك ! وأما المعلم منصور ضريمون ، فجبروا خاطره بأن قيدوه بخدمة

بيت ابراهيم بيك ابن الباشا الدفتردار ، وقيدوا رفيقيه فى خدم أخرى .

الخميس ١٠ منه (٨ نوفمبر ١٨١٠ م) :

حضر شاهين بيك الألفى ومن معه الى مصر ، ونصب وطاقه بناحية البساتين ... وذلك بعد أن تموا الصلح على يد حسن باشا بواسطة سليمان بيك البواب . فلما استقر بخيامه وعرضيه ببر مصر ، حضر مع رفقائه ، وقابل الباشا — وهو ببيت الأزبكية — فبش فى وجهه فقال شاهين بيك : « نرجو سماح أفندينا وعفوه عما أذنبناه » . فقال : « نعم من قبل مجيئكم بزمان ! » . وهو مصر لهم على كل كريهة . وأخلى له بيت محمد كتخدا الأشقر ، بجوار طاهر باشا بالأزبكية ، وفرشوه ونظموه ، ووعده برجوعه الى الجيزة فى مناصبه كما كان ، حتى يتحول منها محرم بيك صهر الباشا . لأنه عند انتقال شاهين بيك من الجيزة ، عدى اليها محرم بك بحريمه — وهى ابنة الباشا — وسكن القصر بعسكره ، وكذلك أسكن كبار أتباعه وخواصه القصور التى كان يسكنها الألفية ، وكذلك البيوت والدور . فوعده بالرجوع الى محله ، وظن — بخسافة عقله — صحة ذلك . وحضر صحبة شاهين بيك جملة من العسكر والدلاة وغيرهم ، واستمرت حملاتهم وأمتعتهم تدخل الى المدينة أرسالا فى عدة أيام .

الجمعة ١١ منه (٩ نوفمبر ١٨١٠ م) :

عمل الباشا ديوانا بالأزبكية فى بيت ابنه ابراهيم بيك الدفتردار . واجتمع عنده المشايخ والوجاقلية وغيرهم فتكلم الباشا وقال : « يا أحبابنا ... لايخفاكم احتياجى الى الأموال الكثيرة لنفقات العساكر والمصاريف والمهمات ... والايراد لايكفى ذلك ، فلزم الحال لتقرير الفرض على البلاد والأطيان . وقد أجحف ذلك بأهاليها ، حتى جلت وخربت القرى ، وتعطلت المزارع ، وبارت الأطيان ، ولا يمكننى رفع ذلك بالكلية . والقصد أن تدبروا لنا تدبيرا وطريقا لتحصيل المال من غير ضرر ولا اجحاف على أهل القرى ، وتعود مصلحة التدبير عليهم وعلينا »

فقال الجميع : « الرأى لك » فقال : « انى فوضت الرأى فى تدبير الأمور السابقة لجماعة الكتبة ، وهم الأفندية والأقباط ، فوجدت الجميع خائنين ، وانى دبرت رأيا لاتدخله التهمة ... وهو أن من المعلوم أن جميع الحصص لها سندات ، ومعين بها مقدار الميرى والفائظ ، فنقرر على كل حصة قدر ميريها وفائظها ، اما سنة أو سنتين ، فلا يضر ذلك بالملتزمين ولا بالفلاحين » .

فانتبذ أيوب كتخدا الفلاح — وهو كبير الاختيارية — وقال : « لكن ياأفندينا الى مساواة الناس ... فان حصص كثير من المشايخ مرفوع ماعليها من المغارم ، ويرجع تتميم الغرامة على حصص الشركاء » . فحنق من كلامه الشيخ الشرقاوى ، وقال له : « أنت رجل سوء » . وثار عليه باقى المشايخ الحاضرين ، وزاد فيهم الصياح .

فقام الباشا من المجلس وتركهم ، وذهب بعيدا عنهم ... وهم يترادون ويتشاجرون . فأرسل اليهم الباشا الترجمان ، وقال : « انكم شوشتم على الباشا ، وتكدر خاطره من صياحكم » ! فسكتوا وقاموا من المجلس ، وذهبوا الى دورهم وهم منفعلو المزاج .

ولعل كلام أيوب كتخدا وافق غرض الباشا ، أو هو باغرائه . ثم شرعوا فى تحرير الدفاتر وتبديل الكيفيات .

وكان فى العزم أولا أن يجعلها على ذمم الأطيان شارقا وغارقا ، بما فيها من الأوسية التى

للملتزمين ، والأرزاق ، ومسموح مشايخ البلاد . وذكر ذلك فى المجلس . فقيل له : « ان الأوسية معايش الملتزمين ، والرزق قسمان : قسم داخل فى زمام أطيان البلد ، ومحسوب فى مماحة فلاحتها ، وقسم خارج عن زمامها . والقسمان من الارصادات على الخيرات ، وعلى جهات البر والصدقة والمساجد والأسبلة والمكاتب والأحواض لسقى الدواب وغير ذلك ، فيلزم منه ابطال هذه الخيرات وتعطيلها » . فقال الباشا : «ان المساجد غالبها متخرب ومتهدم». فقالوا له : « عليك بالفحص والتفتيش والزام المتولى على المسجد بعمارته اذا كان ايراده رائجا » . الى آخر ما قيل .

الاثنين ٢١ منه (١٩ نوفمبر ١٨١٠ م) :

قتلوا شخصا من الأجناد الألفية ، وقطعوا رأسه بباب الخرق ، بسبب أنه قتل زوجته من غير جرم يوجب قتلها .

ذوالقعدة

الخميس ٢ منه (٢٩ نوفمبر ١٨١٠ م) :

سافر الباشا الى ثغر سكندرية ليكشف على عمارة الأبراج والأسوار ، وبيبيع الغلال التى جمعها من البلاد فى الفرض التى فرضت عليهم ، وكذلك ما أحضره من البلاد القبلية . فجمعوا المراكب وشحنوها بالغلال ، وأرسلها الى الاسكندرية ليبيعها على الافرنج . فباع عليهم أزيد من مائتى ألف أردب : كل أردب بمائة قرش ، وسعرها بمصر ثمانية عشر قرشا ، وهو لم يشترها ، ولم تكن عليه بمال ... بل أخذها من زراعات الفلاحين من أصل مافرضه علبهم من الظلم ، مع تطفيف الكيل عليهم ، والزامهم بكلفة شيله وأجرة نقله الى المحل الذى يلزمونهم بوضعه فيه ! وأخذ من الافرنج فى ثمنه أصناف النقود : من الذهب المشخص البندقى ، والمجر والفرانسة ، وعروض البضائع من الجوخ المتنوعة ، والدودة التى يقال لها القرمز ، والقزدير ، وأصناف البضائع الأفرنكية ، واحدث — وهو بالاسكندرية — أحداثا ومكوسا .

ذوالحجة

٢٢ منه (١٨ يناير ١٨١١ م) :

حضر الباشا من الاسكندرية الى مصر ، وذلك يوم الجمعة أواخر النهار ، وحضر فى العشية الى بيت الأزبكية وبات عند حريمه . وطلع فى صبح يوم السبت الى القلعة ، وضربوا مدافع كثيرة لحضوره .. وبذلك علم الناس حضوره .

* * *

وانقضت السنة بحوادثها التى قصصنا بعضها ، اذ لا يمكن استيفاؤها للتباعد عن مباشرة الأمور ، وعدم تحققها على الصحة ، وتحريف النقلة ، وزيادتهم ونقصهم فى الرواية . فلا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار ... وغالبها من الأمور الكلية التى لا تقبل الكثير من التحريف . وربما أخرت قيد حادثة حتى أثبتها ، ويحدث غيرها وأنساها ، فأكتبها فى طيارة حتى أقيدها فى محلها ان شاء الله تعالى عند تهذيب هذه الكتابة . وكل ذلك من تشويش البال ، وتكدر الحال ، وهم العيال ، وكثرة الاشتغال ، وضعف البدن ، وضيق العطن .

ومن حوادثها : احداث عدة مكوس زيادة على ما أحدث على الأرز والكتان والحرير والحطب والملح ، وغير ذلك مما لم يصل الينا خبره .. حتى غلت أسعارها الى الغاية وكان سعر الدرهم الحرير نصفين ، فصار بخمسة عشر نصفا وكنا نشترى القنطار من الحطب الرومى فى أوانه بثلاثين نصفا ، وفى غير أوانه بأربعين نصفا ، فصار بثلثمائة نصف. وكان الملح يأتى من أرضه بثمن القفاف التى يوضع

فيها لا غير ، ويبيعه الذين ينقلونه الى ساحل بولاق : الأردب بعشرين نصفا ، وأردبه ثلاثة أرادب ، ويشتريه المتسبب بمصر بذلك السعر ، لأن أردبه أردبان ، ويبيعه أيضا بذلك السعر ، ولكن أردبه واحد .. فالتفاوت فى الكيل لا فى السعر . فلما احتكر صار الكيل لا يتفاوت . وسعره الآن أربعمائة وخمسون نصفا ، والتزم به من التزم ، وأوقف رجاله فى موارده البحرية لمنع من يأخذ منه شيئا من المراكب المارة بالسعر الرخيص من أربابه ، ويذهب به الى قبلى أو نحو ذلك .

ومنها ، وهى من الحوادث الغريبة : أنه ظهر بالتل الكائن خارج رأس الصوة ، المعروفة الآن بالحطابة ، قبالة الباب المعروف بباب الوزير ، فى وهدة بين التلول .. نار كامنة بداخل الأتربة ، واشتهر أمرها ، وشاع ذكرها ، وزاد ظهورها فى أواخر هذه السنة . فيظهر من خلال التراب ثقب ، ويخرج منها الدخان بروائح مختلفة كرائحة الخرق البالية وغير ذلك . وكثر ترداد الناس للاطلاع عليها أفواجا أفواجا ، نساء ورجالا وأطفالا ، فيمشون عليها وحولها ، ويجدون حرارتها تحت أرجلهم ، فيحفرون قليلا ، فتظهر النار مثل نار الدمس ، فيقربون منها الخرق والحلفاء ونحو ذلك ، فتدق فيها النار وتورى ، ويصعد منها الدخان ... وان غوصوا فيها خشبة أو قصبة احترقت .

ولما شاع ذلك ، وأخبروا بها كتخدا بيك ، نزل اليها بجمع من أكابره وأتباعه وغيرهم ، وشاهد ذلك . فأمر والى الشرطة بصب الماء عليها ، واهالة الأتربة من أعالى التل فوقها ... ففعلوا ذلك ، وأحضروا السقائين ، وصبوا عليها بالقرب ماء كثيرا ، وأهالوا عليها الأتربة .

وبعد يومين صارت الناس المتجمعة والأطفال يحفرون تحت ذلك الماء المصبوب قليلا ، فتظهر النار ، ويظهر دخانها . فيقربون منها الخرق والحلفاء واليدكات فتورى وتدخن . واستمر الناس يغدون ويروحون للفرجة عليها نحو شهرين . وشاهدت ذلك فى جملتهم ، ثم بطل ذلك .

ومنها : أنه نودى فى أواخر السنة ، على صرف المحبوب بزيادة صرفه ثلاثين نصفا ، وكان يصرف بمائتين وخمسين ، من زيادات الناس فى معاملاتهم . فكانوا ينادون بالنقص ، ورجوعها الى ما كان قبل الزيادة ، ويعاقبون على التزايد . وفى هذه الأيام نودى بالزيادة .. وذلك بحسب الأغراض والمقاصد والمقتضيات ، ومراعاة مصالح أنفسهم لا المصلحة العامة ... هذا مع نقص عياره ووزنه عما كان عليه قبل المناداة .

وكذلك نقصوا وزن القروش ، وجعلوا القرش على النصف من القرش الأول ، ووزنه درهمان ، وكان أربعة دراهم ، وفى الدرهمين ربع درهم فضة . هذا مع عدم الفضة العددية ، ووجودها بأيدى الناس والصيارف . واذا أراد انسان صرف قرش واحد من غيره ، صرفه بنقص ربع العشر ، وأخذ بدله قطعا صغارا أفرنجية : يصرف منها الواحدة باثنى عشر ، وأخرى بعشرة ، وأخرى بخمسة ... ولكنها جيدة العيار . وهم الآن يجمعونها ويضربونها بما يزاد عليها من النحاس — وهو ثلاثة أرباعها — قروشا ، لأن القطعة الصغيرة التى تصرف بخمسة أنصاف ، وزنها درهم واحد وزنى ، فيصيرونها أربعة قروش ، فتضاعف الخمسة الى ثمانين . وكل ذلك نقص واختلاس أموال الناس من حيث لا يشعرون !

* * *

وأما من مات فى هذه السنة ممن له ذكر :

فمات الفقيه الفريد ، والعلامة المفيد : الشيخ على الحصاوى الشافعى . ولا أعلم له ترجمة ، وانما

رأيته يقرر الدروس ويفيد الطلبة فى الفقة والمعقول، ويشهد الفضلاء بفضله ورسوخه .

وكان على طريقة المتقدمين فى الانقطاع للافادة ، وعدم الرفاهية والرضا بما قسم له ، منعكفا فى حاله . وتمرض بالبرودة ولم ينقطع عن ملازمة الدروس حتى توفى فى منتصف جمادى الثانيــة من السنة ، وصلى عليه بالأزهــر ، ودفن فى تربة المجــاورين بالصحراء .

* * *

ومات المعلم جرجس الجوهرى القبطى ،كبـير المباشرين بالديار المصرية ، وهو أخو المعلم ابراهيم الجوهرى . ولما مات أخوه فى زمن رياسة الأمراء المصرية ، تعين مكانه فى الرياســة على المبــاشرين والكتبة وبيده حل الأمور وربطها فى جميع الأقاليم المصرية ، نافذالكلمة ، وافر الحرمة . وتقدم فى أيام الفرنسيس ، فكان رئيس الرؤساء . وكذلك عند مجىء الوزير والعثمانيين ، وقدموه وأجلسوه لمـا يســديه اليهم من الهدايا والرغائب ، حتى كانوا يسمونه جرجس أفندى .

ورأيته يجلس بجانب محمد باشا خسرو وبجانب شريف أفنــدى الدفتردار ، ويشرب بحضرتهـم الدخان وغيره ، ويراعون جانبه ، ويشــاورونه فى الأمور .

وكان عظيم النفس ، ويعطى العطايا ويفرق على جميع الأعيان ، عند قدوم شهر رمضان ، الشموع العسلية والسكر والأرز والكساوى والبن ، ويعطى ويهب . وبنى عدة بيوت بجارة الونديك والأزبكية، وأنشأ دارا كبيرة — وهى التى يسكنها الدفتردار الآن ، ويعمل فيها الباشا وابنه الدواوين — عند قنطــرة الدكة . وكان يقف على أبوابه الحجاب والخدم .

ولم يزل على حالته حتى ظهر المعلم غالى ، وتداخل فى هذا الباشا ، وفتح له الأبواب لأخــذ الأموال ... والمترجم يدافع فى ذلك.واذا طلب الباشا طلبا واسعا من المعلم جرجس ، يقول له : « هذا لا يتيسر تحصيله » ، فيأتى المعلم غالى فيسهل له الأمور ، ويفتح له أبواب التحصيل . فضاق خناق المترجم ، وخاف على نفسه ، فهرب الى قبلى ، ثم حضر بأمان — كما تقدم — وانحط قدره ، ولازمته الأمراض . حتى مات فى أواخر شــعبان ، وانقضى وخلا الجو للمعلم غالى ، وتعين بالتقدم . ووافق الباشا فى أغراضه الكلية والجزئية .. وكل شىء له بداية وله نهاية . والله أعلم .

سنه ١٢٢٦ هجرية

المحرم

السبت غرته (٢٦ يناير ١٨١١ م) :

أظهر الباشا الاهتمام بأمر الحجاز والتجهير للسفر ، وركب فى ليلة الجمعة سابعه الى السويس. وسافر صحبته السيد محمد المحروقى ، وقام باحتياجاته ولوازمه فلما وصل الى السويس حجز الداوات التي وصلت بالمحمل ، وسفر عدة من المراكب التى أنشأها ليقبضوا على الداوات والسفن التى بالأساكل وحوزها ، واستولى على البن الذى وجده ببندر السويس للتجار . فلما وصل خبر ذلك الى مصر ، غلا سعر البن ، وزاد حتى وصل الى خمسين ريالا فرانسة ، بعد أن كان بستة وثلاثين ، عنها اثنا عشر ألف فضة وخمسمائة نصف فضة

صفر

٢ منه (٢٦ فبراير ١٨١١ م) :

حضر الباشا من السويس الى مصر فى سادس ساعة من الليل . فضربوا فى صبحها عدة مدافع لحضوره . وقد حضر على هجين بمفرده ، ولم يصحبه الا رجل بدوى على هجين أيضا ليدله على الطريق ، وقطع المسافة فى احدى عشرة ساعة . وحضر من كان بصحبته فى ثانى يوم ، وهم مجدون السفر ، وحضر السيد محمد المحروقى بحموله فى اليوم الثالث .

واخبروا أن الباشا أنزل من ساحل السويس خمسة مراكب من المراكب التى أنشأها ، باحتياجاتها ولوازمها وعساكرها ، ووجههم الى ناحية اليمن ، ليقبضوا على ما يجدونه من المراكب ، وأن الصناع مجتهدون فى العمل فى مراكب كبار لحمل الخيول والعساكر واللوازم .

وفيه : حضر صالح أغا قوج حاكم أسيوط ، وتناقلت الأخبار عن الأمراء المصريين القبليين ، بأنهم حضروا الى الطينة ، ورجعوا الى ناحية قنا وقوص . وخرج اليهم أحمد أغا لاظ ، وتحارب معهم ، وقتل من عساكره عدة وافرة .

وفيه : قلد الباشا ابنه طوسون باشا صارى عسكر الركب الموجه الى الحجاز ، وأخرجوا جيشهم الى ناحية قبة العزب ، ونصبوا عرضيا وخياما . وأظهر الباشا الاجتهاد الزائد والعجلة وعدم التوانى ، ونوه بتسفير عساكر لناحية الشام ، لتمليك يوسف باشا لمحله .. وصارى عسكرهم شاهين بيك الألفى ، ونحو ذلك من الايهامات . وطلب من المنجمين أن يختاروا وقتا صالحا لالباس ابنه خلعة السفر . فاختاروا له الساعة الرابعة من يوم الجمعة .

٤ منه (٢٨ فبراير ١٨١١ م) :

طاف ألاى جاويش بالأسواق ، على صورة الهيئة القديمة فى المناداة على المواكب العظيمة ، وهو لابس الضلمة والطبق على رأسه ، وراكب حمار عال ، وأمامه مقدم بعكاز ، وحوله قابجية ينادون بقولهم : « يارن ألاى » . ويكررون ذلك فى أخطاط المدينة . وطافوا بأوراق التنابية على كبار

العسكر والينبات والأمراء المصرية الألفية وغيرهم، يطلبونهم للحضور فى باكر النهار الى القلعة ليركب الجميع بتجملاتهم وزينتهم أمام الموكب

٦ منه (٢ مارس ١٨١١ م) :

ركب الجميع ، وطلعوا الى القلعة . وطلع المصرية بمماليكهم وأتباعهم وأجنادهم . فدخل الأمراء عند الباشا ، وصبحوا عليه ، وجلسوا معه حصة ، وشربوا القهوة وتضاحك معهم !

ثم انجر الموكب على الوضع الذى رتبوه : فانجر طائفة الدلاة وأميرهم المسمى أزون على ، ومن خلفهم الوالى والمحتسب والأغا والوجاقلية والالداشات المصرية ومن تزيا بزيهم ، ومن خلفهم طوائف العسكر الرجالة والخيالة والبيكباشيات وأرباب المناصب منهم ، وابراهيم أغا أغات الباب .. وسليمان بيك البواب يذهب ويجىء ويرتب الموكب .

وكان الباشا قد بيت مع حسن باشا وصالح قوج والكتخدا فقط غدر المصرية وقتلهم ، وأسر بذلك فى صبحها ابراهيم أغا أغات الباب فلما انجر الموكب ، وفرغ طائفة الدلاة ومن خلفهم من الوجاقلية والالداشات المصرية ، وانفصلوا من باب العزب .. فعند ذلك أمر صالح قوج بغلق الباب ، وعرف طائفته بالمراد فالتفتوا ضاربين بالمصرية — وقد انحصروا بأجمعهم فى المضيق المنحدر الحجر ، المقطوع فى أعلى باب العزب ، مسافة ما بين الباب الأعلى الذى يتوصل منه الى رحبة سوق القلعة الى الباب الأسفل — وقد أعدوا عدة من العساكر أوقفوهم على علاوى النقر الحجر والحيطان التى به . فلما حصل الضرب من التحتانيين ، أراد الأمراء الرجوع القهقرى ، فلم يمكنهم ذلك ..لانتظام الخيول فى مضيق النقر ، وأخذهم ضرب البنادق والقرابين من خلفهم أيضا . وعلم العسكر الواقفون بالأعالى المراد ، فضربوا أيضا .

فلما نظروا ما حل بهم ، سقط فى أيديهم ، وارتبكوا فى أنفسهم ، وتحيروا فى أمرهم ، ووقع منهم أشخاص كثيرة .. فنزلوا عن الخيول ، واقتحم شاهين بيك وسليمان بيك البواب وآخرون فى عدة من مماليكهم راجعين الى فوق ، والرصاص نازل عليهم من كل ناحية ، ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى والثياب الثقيلة ، ولم يزالوا سائرين وشاهرين سيوفهم ، حتى وصلوا الى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الأعمدة .. وقد سقط أكثرهم ، وأصيب شاهين بيك وسقط الى الأرض فقطعوا رأسه ، وأسرعوا بها الى الباشا ليأخذوا عليها البقشيش .

وكان الباشا ، عندما ساروا بالموكب ، ركب من ديوان السراية ، وذهب الى البيت الذى به الحريم ، وهو بيت اسمعيل أفندى الضربخانة .

وأما سليمان بيك البواب ، فهرب من حلاوة الروح ، وصعد الى حائط البرج الكبير فتابعوه بالضرب حتى سقط ، وقطعوا رأسه أيضا . وهرب كثير الى بيت طوسون باشا ، يظن الالتجاء به ، والاحتماء فيه .. فقتلوهم !

وأسرف العسكر فى قتل المصريين ، وسلب ما عليهم من الثياب ، ولم يرحموا أحدا ، وأظهروا كامن حقدهم، وضبعو فيهم وفيمن رافقهم متجملا معهم من أولاد الناس وأهالى البلد الذين تزيوا بزيهم لزينة الموكب ، وهم يصرخون ويستغيثون ، ومنهم من يقول : « أنا لست جنديا ولا مملوكا » ، وآخر يقول : « أنا لست من قبيلتهم » ، فلم يرقوا لصارخ ولا شاك ولا مستغيث .

وتتبعوا المتشتتين والهربانين فى نواحى القلعة وزواياها ، والذين فروا ودخلوا فى البيوت والأماكن ، وقبضوا على من أمسك حيا ولم يمت من الرصاص ، أو متخلفا عن الموكب وجالسا مع

الكتخدا : كأحمد بيك الكيلارجى ، ويحيى بيك الألفى ، وعلى كاشف الكبير .. فسلبوا ثيابهم ، وجمعوهم الى السجن تحت مجلس كتخدا بيك ، ثم أحضروا أيضا المشاعلى لرمى أعناقهم فى حوش الديوان ، واحدا بعد واحد ، من ضحوة النهار الى أن مضى حصة من الليل فى المشاعل .. حتى امتلأ الحوش من القتلى !

ومن مات من المشاهير المعروفين ، وانصرع فى طريق القلعة ، قطعوا رأسه ، وسحبوا جثته الى باقى الجثث .. حتى أنهم ربطوا فى رجلى شاهين بيك ويديه حبالا ، وسحبوه على الأرض ، مثل الحمار الميت ، الى حوش الديوان !

هذا ما حصل بالقلعة . و أما أسفل المدينة : فانه عندما أغلق باب القلعة ، وسمع من بالرميلة صوت الرصاص ، وقعت الكرشة فى الناس ، وهرب من كان واقفا بالرميلة من الأجناد فى انتظار الموكب ، وكذلك المتفرجون . واتصلت الكرشة بأسواق المدينة .. فانزعجوا ، وهرب من كان بالحوانيت لانتظار الفرجة ، وأغلق الناس حوانيتهم . وليس لأحد علم بما حصل وظنوا ظنونا

وعندما تحقق العسكر حصول الواقعة ، وقتل الأمراء ، انبثوا كالجراد المنتشر الى بيوت الأمراء المصريين ومن جاورهم ، طالبين النهب والغنيمة ، فولجوها بغتة ونهبوها نهبا ذريعا ، وهتكوا الحرائر والحريم ، وسحبوا النساء والجوارى والخوندات والستات ، وسلبوا ما عليهن من الحلى والجواهر والثياب ، وأظهروا الكامن فى نفوسهم ، ولم يجدوا مانعا ولا رادعا . وبعضهم قبض على يد امرأة ليأخذ منها السوار فلم يتمكن من نزعها بسرعة ، فقطع يد المرأة !

وحل بالناس فى بقية ذلك اليوم من الفزع والخوف وتوقع المكروه ما لا يوصف. لأن المماليك والأجناد تداخلوا ، وسكنوا فى جميع الحارات والنواحى ، وكل أمير له دار كبيرة فيها عياله وأتباعه ومماليكه وخيوله وجماله ، وله دار وداران صغار فى داخل العطف ، ونواحى الأزهر والمشهد الحسينى .. يوزعون فيها ما يخافون عليه لظنهم بعدها وحمايتها بحرمة الخطة ، وصونها عند وقوع الحوادث .

وكثير من كبار العسكر مجاورون لهم فى جميع النواحى ، ويرمقون أحوالهم ، ويطلعون على أكثر حركاتهم وسكناتهم ، ويتداخلون فيهم ، ويعاشرونهم ويسامرونهم بالليل ، ويظهرون لهم الصداقة والمحبة .. وقلوبهم محشوة من الحقد عليهم والكراهة لهم ، بل ولجميع أبناء العرب

فلما حصلت هذه الحادثة ، بادروا لتحصيل مأمولهم ، وأظهروا ما كان مخفيا فى صدورهم .. وخصوصا من التشفى فى النساء . فان العظيم منهم كان اذا خطب أدنى امرأة ليتزوج بها ، فلا ترضى به ، وتعافه ، وتأنف قربه . وان الح عليها ، استجارت بمن يحميها منه ، والا هربت من بيتها ، واختفت شهورا ... وذلك بخلاف ما اذا خطبها أسفل شخص من جنس المماليك ، أجابته فى الحال

واتفق أنه لما اصطلح الباشا مع الألفية ، وطلبوا البيوت ، ظهر كثير من النساء المستترات المخفيات ، وتنافسوا فى زواجهم ، وعملوا لهم الكساوى : وقدموا لهم التقادم ، وصرفوا عليهم لوازم البيوت التى تلزم الأزواج لزوجاتهم .. كل ذلك بمرأى مر الأتراك يحقدونه فى قلوبهم .

وفيهم من حمى جاره ، وصان دياره ، ومانع أعلاهم أدناهم — وقليل ماهم — وذلك لغرض يبتغيه ، وأمر يرتجيه ! فانه بعد ارتفاع النهب ، كانوا يقبضون عليهم من البيوت ، فيستولى الذى حماه ودافع عنه على داره وما فيها . وانتهبت دور

مذبحة القلعة

كثيرة من المجاورين لهم أو لدور أتباعهم ... بأدنى شبهة وبغير شبهة . أو يدخلون بحجة التفتيش ، ويقولون : « عندكم مملوك ، أو سمعنا أن عندكم وديعة لمملوك » . وبات الناس وأصبحوا على ذلك .

ونهب فى هــذه الحادثة من الأموال والأمتعة مالا يقدر قدره ، ويحصيه الا الله سبحانه وتعالى . ونهبت دور كثيرة من دور الأعيان الذين ليسوا من الأمراء المقصودين ، ومن المتقيدين بخدمة الباشا ، مثل : ذى الفقــار كتخدا المتولى خوليــا على بساتين الباشا التى أنشأها بشبرا ، وبيت الأمير عثمان أغا الوردانى ، ومصطفى كاشف المورلى ، والأفندية الكتبة وغيرهم .

وأصبح يوم السبت .. والنهب والقتل والقبض على المتــوارين والمختفين مستمر ، ويدل البعض على البعض أو يغمز عليه .

وركب الباشا فى الضحوة ، ونزل من القلعة ، وحوله أمراؤه الكبار مشاة ، وأمامه الصفاشــية والجاويشية بزينتهم وملابسهم الفاخرة . والجميع مشاة ليس فيهم راكب سواه ، وهم محدقون به وأمامه وخلفه عدة وافرة . والفرح والسرور بقتل المصريين ونهبهم والظفر بهم ، طافح من وجوههم . فكان كلمـا مر على أرباب الدرك والقلقـــات والضابطين ، وقف عليهم ووبخهم على النهب وعدم منعهم لذلك .. والحــال أنهـم هم الذين كانوا ينهبون أولا ، ويتبعهم غيرهم !

فمر على العقادين الرومى والشوائين ، فخرج اليه شخص من تجار المغاربة ، يسمى العربى الحلو ، وصرخ فى وجهه وهو يقول : « ايش هذا الحال ! وايش لنا علاقة حتى ينهبنا العسكر . ونحن ناس فقراء مغاربة متسببون ، ولسنا مماليك ولا أجناد » .

فوقف اليه ، وأرسل معه نفرا الى داره ، فوجدوا بها شخصين : أحدهما تركى ، والآخر بلدى ، وهما يلتقطان آخر النهب وما سقط من النهابين .. فأمر بقتلهما . فأخـذوهما الى باب الخرق ، وقطعوا رؤوسهما .

ثم انه عطف على جهة الكعكيين ، فلاقاه من أخبره بأن المشـايخ مجتمعون ، ونيتهم الركوب لملاقاته والسلام عليه والتهنئة بالظفر ! فقال : « أنا أذهب اليهم » . ولم يزل فى سيره حتى دخل الى بيت الشيخ الشرقاوى ، وجلس عنده ساعة لطيفة . وكان قد التجأ الى الشيخ شخصان من الكشاف المصرية ، فكلمه فى شـأنهما ، وترجى عنـده فى اعتاقهما من القتل ، وأن يؤمنهما على أنفسهما . وقال له : « لاتفضح شـيبتى ياولدى ، واقبـل شفاعتى ، وأعطهما محرمة الأمان » . فأجابه الى ذلك ، وقال له : « شفاعتك مقبولة ، ولكن نحن لا نعطى محارم ، وأنا أمانى بالقول ، أو نكتب ورقة ونرسلها اليـك بالأمان » . فاطمأن الشيخ لذلك .

ثم قام الباشا وركب وطلع الى القلعة ، وأرسل ورقة الى الشيخ يطلبهما فقال لهما الشيخ : « ان الباشا أرسل هذه الورقة يؤمنكما ويطلبكما اليه » . فقالا : « وما يفعل بذهابنا اليه ؟ فلا شك فى أنه يقتلنا » فقال الشيخ : « لا يصح ذلك ولا يكون .. كيف أنه يأخـذكم من بيتى ويقتلكم بعـد أن قبل شفاعتى » . فذهبا مع الرسول . فعندما وصلا الى الجـوش -- وهو مملوء بالقتلى ، وضرب الرقاب واقع فى المحبوسين والمحضرين — قبضوا عليهما ، وأدرجا فى ضمنهم !

وفى ذلك اليوم : نزل طوسون ابن الباشا — وقت نزول أبيه — وشق المدينة ، وقتل شخصا من النهابين أيضا فارتفع النهب ، وانكف العسكر عن ذلك . ولولا نزول الباشا وابنه فى صبح ذلك اليوم لنهب العسكر بقية المدينة ، وحصل منهم غاية الضرر .

وأما القبض على الأجناد والمماليك فمستمر ، وكذلك كل من كان يشبههم فى الملبس والزى . وأكثر من كان يقبض عليهم عسـاكر حسن باشا الأرنؤودى ، فيكبسـون عليهم فى الدور ، أو فى الأماكن التى تواروا فيهـا واستدلوا عليهـم ، فيقبضون على من يقبضون عليه ، وينهبون من الأماكن ما يمكنهم حمله ، وثياب النساء وحليهن ، ويسـحبون الواحـد والاثنـين أو أكثر بينهم ، ويأخذون عمائمهم وثيابهم وما فى جيوبهم فى أثناء الطريق !

واذا كان كبيرا أو أميرا يستحى منه ، طلبوه بالرفق . فاذا ظهر لهم ، قالوا له : « سيدنا حسن باشا يستدعيك اليه فلا تخش من شىء » . ويطمئن قليـلا ، ويظن أنهم يجيـرونه ... وعلى أى حال لا يسعه الا الاجابة ، لأنه ان امتنع أخذوه قهرا . فاذا خرج من الدار استصحبه جماعة منهم ، وطلع البواقى الى الدار ، فأخذوا ما قدروا عليه ولحقوا بهم ... وجرى على المأخوذ ما يجرى على أمثاله من المـأخوذين .

والبعض توارى ، والتجأ الى طائفة الدلاة ، وتزيا بشكلهم ، ولبس له طرطورا وأجاروه .

وهرب كثير فى ذلك اليـوم ، وخرجوا الى قبلى . وبعضهم تزيا بزى نساء الفلاحين ، وخرج فى ضمن الفلاحات اللاتى يبعن الجـلة والجبنة . وذهبوا فى ضمنهم . وفر من نجا منهم الى الشام وغيرها .

وأما كتخدا بيك فانه ، لشدة بغضه فيهم ، صار لا يرحم منهم أحـدا . فكان كل من أحضروه — ولو فقيرا هرما من مماليك الأمراء الأقدمين —

يأمر بضرب عنقه . وأرسل أوراقا الى كشاف النواحى والأقاليم بقتل كل من وجدوه بالقرى والبلدان . فوردت الرؤوس فى ثانى يوم من النواحى ، فيضعونها بالرميلة وعلى مصطبة السبيل المواجه لباب زويلة .

وكان كثير من الأجناد بالأرياف لتحصيل الفرض التى تعهدوا بدفعها عن فلاحيهم . وانقضت أجلتهم ، وطولبوا بالدفع والفلاحون قصرت أيديهم ، ولم يقبلوا للملتزمين عذرا فى التأخير . فلم يسعهم الا الذهاب بأنفسهم لأجل خلاص المطلوب منهم للديوان . فعند ما وصلت الأوامر الى كشاف الأقاليم بقتل الكائنين بالبلاد ، بادروا بقتل من يمكنهم قتله . ومن بعد عنهم أرسلوا لهم العساكر فى محلاتهم ، فيدهمونهم على حين غفلة ، ويقتلونهم وينهبون متاعهم وما جمعوه من المال ، ويرسلون برؤوسهم ، أو يتحيلون على القبض عليهم وقتلهم . فصار يصل فى كل يوم العدد من الرؤوس من قبلى وبحرى ، ويضعونها على باب زويلة وباب القلعة ، ولم يقبلوا شفاعة فى أحد أبدا . ويعطون الأمان للبعض ، فاذا حضروا ... قبضوا عليهم وشلحوهم ثيابهم وقتلوهم .

والباشا يعلم من كتخداه شدة الكراهة لجنس المماليك ، ففوض له الأمر فيهم . حتى أنه كان بينه وبين محمد أغا ، كتخدا الجاويشية سابقا ، بعض منافرة من مدة سابقة ، أو لكونه صاهر بعض الألفية وزوجه ابنته . وكان غائبا ببلدة يقال لها الفرعونية جارية فى اقطاعه ، وتعهد بما عليها من الفرضة ، فذهب اليها بنفسه ليستخلص منها الفرضة والمال الميرى . فأرسل الكتخدا بيك الى كاشف المنوفية قبل الحادث بيوم يأمره فيه بأمره . فأرسل اليه طائفة من العسكر دخلوا عليه فى الفجرية — وهو يتوضأ لصلاة الصبح — فقتلوه وقطعوا رأسه وأحضروها الى مصر !

وكانوا يأتون بأشخاص من بقايا البيوت القديمة ، فيمثلونهم بين يدى الكتخدا . فيسألهم فيخبرون عن أنفسهم ونسبتهم ، فيكذبهم ويأمر بهم الى الحبس الأعلى حتى يتبين أمرهم ... فاما تدركهم الألطاف فينجون بعد معاينة الموت — وهذا فى النادر — فقتل فى هذه الحادثة أكثر من ألف انسان ، أمراء وأجناد وكشاف ومماليك . ثم صاروا يحملون رممهم على الأخشاب ويرمونهم عند المغسل بالرميلة ، ثم يرفعونهم ويلقونهم فى حفر من الأرض فوق بعضهم البعض ... لا يتميز الأمير عن غيره . وسلخوا عدة رؤوس من رؤوس العظماء ، وألقوا جماجمهم المسلوخة على الرمم فى تلك الحفر .

فكانت هذه الكائنة من أشنع الحوادث التى لم يتفق مثلها . ولم ينج من الألفية الا أحمد بيك زوج عديلة هانم بنت ابراهيم بيك الكبير ، فانه كان غائبا بناحية بوش ، وأمين بيك تسلق من القلعة وهرب الى ناحية الشام ، وعمر بيك أيضا الألفى كان مسافرا فى ذلك اليوم الى الفيوم ، فقتلوه هناك وبعثوا برأسه بعد خمسة أيام ، ومعها نحو الخمسة عشر رأسا وأرسل دبوس أوغلى حاكم المنية خمسة وثلاثين رأسا . وحضر من ناحية بحرى غير ذلك كثير .

وأما من قتل فى ذلك اليوم ، ممن له ذكر وبلغنى خبره ، فهم : شاهين بيك كبير الألفية ، ويحيى بيك ، ونعمان بيك ، وحسين بيك الصغير ، ومصطفى بيك الصغير ، ومراد بيك ، وعلى بيك .. هؤلاء من الألفية .

ومن غيرهم أحمد بيك الكيلارجى ، ويوسف بيك أبو دياب ، وحسن بيك صالح ، ومرزوق بيك ابن ابراهيم بيك الكبير ، وسليمان بيك البواب ،

وأحمد بيك تابعه ورشوان بيك ، وابراهيم بيك تابعاه ، وقاسم بيك تابع مراد بيك الكبير ، وسليم بيك الدمرجى ، ورستم بيك الشرقاوى ، ومصطفى بيك أيوب ، ومصطفى بيك تابع عثمان بيك حسن وعثمان بيك ابراهيم ، وذو الفقـار تابع جوجر ، وهو رجل كبير من الأقدمين البطالين ... هرب هو ومصطفى بيك الجداوى وآخر عند صالح بيـك السلحدار ، والتجأوا اليـه ، وطمنهم ، وأرسل بخبرهم ، فحضر الأمـر بقطع رؤوسهم ، فأحضر المشاعلى وقطع رؤوسهم فى مقعده ، وأرسلها .

ومن الأمراء الكشاف الألفية فهم : على كاشف الخـازندار ، وعثمـان كاشف الحبشى ، ويحيى كاشف ، ومرزوق كاشف ، وعبد العزيز كاشف ، ورشوان كاشف ، وسـليم كاشف طظر ، وقايد كاشف ، وجعفر كاشف ، وعثمان كاشف ، ومحمد كاشف أبو قطية ، وأحمد كاشف الفلاح ، وأحمد كاشف صهر محمـد أغا ، وخليل كاشف ، وعلى كاشف قيطاس ، وأحمد كاشف ، وموسى كاشف ، وغـير ذلك ممن لم يحضرنى أسماؤهم — وهم كثيرون .

وختم الله للجميع بالخير ! فانه بلغنى ممن عاينهم بالحبوس ، وفى حال القتل ، أنهـم كانوا يقرأون القـرآن ، وينطقـون بالشهادتين والاستغفار . وبعضهم طلب ماء وتوضأ وصلى ركعتين قبل أن يرمى عنقه . ومن لم يجد ماء تيمم .

ولاشتغال أهل المقتولين بأنفسهم ، وما حصل لهم من النهب والسلب والتشتيت عن أوطانهم ، لم يعوا ولم يسألوا عن موتاهم ... غير أم مرزوق بيك ابن ابراهيم بيك الكبير ، فانها وجدت عليه وجدا عظيما ، وطلبته فى القتلى ، فعرفوا جثتـه بعلامة فيه ، وجمجمته بكونه كان كريم العين ، فأخرجوه وكفنوه ودفنوه فى تربتهم ... وذلك بعد مضى يومين من الحادثة . واجتمع عندها الكثير من أهل المقتولين ونسائهم ، وأقاموا على ذلك شهورا .

وفى يوم الحادثة أرسل محرم بيك ، صهر الباشا حاكم الجيزة ، فجمع مال المصرية باقليم الجيزة فى الربيع ، من الخيول والجمال والهجن وغيرها ، فكان شيئا كثيرا .

٨ منه (٤ مارس ١٨١١ م) :

نودى على نساء المقتولين بالأمان ، وأن يحضرن الى بيوتهن ويسكن فيها — مع كونها صـارت بلاقع — فرجع البعض ، وهن اللاتى لم يحصل لهن كثير الضرر ، وبقى البعض فى اختفائه .

وأنعم الباشا على خواصه بالبيوت بما فيها ، فنزلوها وسكنوها ، وألبسوا النساء الخواتم ، وجددوا الفرش والأوانى ... وغالبها من المنهوبات.

وأنعم ببيت شاهين بيك على حسـين أغا من أقاربه ، ولم يحصل به ما حصـل بغيره لـكونه ملاصقا لبيت طاهر باشا ، وأرسل الباشا طائفة من العسكر جلسوا على بابه .

وأما أحمد بيك الألفى ، فانه وصله النذير ، فانتقل من بوش ، وذهب عند الأمراء القبالى . ولما وصلتهم أخبار هـذه الحادثة ، وبلغ ابراهيم بيك موت ولده على هذه الصورة ... أقاموا العزاء على اخوانهم ، ولبسوا السواد .

وفى ثانى يوم الواقعة حضر أحد الكشاف رسولا من عند الأمراء القبليين ، يطلبون العفو من الباشا ، وأن يعطيهم جهة يتعيشون منهـا . فوعده بـرد الجواب فى غير الوقت ، فأهمله وما أدرى ما تم له

وفيه : قلد الباشا مصطفى بيك ابن أختـه ، وجعله كبيرا على طائفة الدلاة . وكان أحضره من ناحية الشرقية ليـذهب الى قبلى ، وأقام بدله فى كشوفية الشرقية على كاشف بن أحمد كتخدا من المصرلية .

١٨ منه (١٤ مارس ١٨١١ م):

عـدى مصطفى بيك المـذكور الى بر الجيزة ليسافر الى قبلى ، ونصب وطاقه بحـرى القصر . وعدى أيضا الباشا وأقام بالقصر ، وشرع عسكره الدلاة فى التعدية ليلا ونهارا .

وفيه أيضا : خرج عدة من عسكر الدلاة ، نحو الخمسمائة نفر ، الى ناحية قبة العزب ليسـافروا الى بلادهم . فاستمروا فى قضـاء أشغالهم أياما ، ثم سافروا .

٢٣ منه (١٩ مارس ١٨١١ م):

ارتحـل مصطفى بيك ، وانتقل الى ناحيـة الشيخ عثمان ، مسافرا الى قبلى . وعدى الباشا راجعا الى مصر .

وفيه : حضر ططريان من الروم يبشران بالعفو عن يوسف باشا المنفصل عن الشام . وقبـل فيه ترجى باشة مصر وشفاعته .

٢٥ منه (٢١ مارس ١٨١١ م):

أحضروا من ناحية قبلى أربعة وستين شخصا ، وأكثرهم من الذين كانوا مستوطنين بالبلاد .. من بقايا البيوت القديمة ، السنين العديدة ، ومحترفين . فلما أحضروهم الى مصر القـديمة ، أبقـوهم الى الليل فى محبس . ثم أوقدوا المشـاعل بسـاحل البحـر ، وقطعـوا رؤوسهم ، ورموا بجثثهم الى البحـر ، وأتوا بالرؤوس ، فوضعوها تجاه باب زويلة ليراها الناس كما رأوا غيرها !

ربيع الأول

الاحد ٦ منه (٣١ مارس ١٨١١ م):

عمل الباشا لابنه طوسون باشا موكبا عظيما . ونبهوا فى ليلتها على اجتماع العسكر فى صبحها . ونزل هو الى جامع الغورية ليتفرج على الموكب ، وصحبته حسن باشـا . واسـتعد لذلك السـيد المحروقى ، وفرش له بالجامـع المذكور فروشـا ومراتب ووسائد . فمر الموكب ، وفى أوله طائفـة الدلاة . فلما فرغوا ... مروا بعشرة مدافع كبـار على عربيات ، وعربيتين تحملان هونين قنـابر ، وخلفهم طوائف العســكر الرجالة : أرنؤود ، وأتراك ، وسجمان — وهم كثيرون — مختلطون من غير ترتيب مدة طويلة ، ثم كبـارهم ركبـانا بطوائفهم ، ثم الوالى والمحتسب وأغاة مستحفظان، ثم طوائف صاحب الموكب وجنائبه ، وكذا هجنه ، ثم الجاويشية والسـعاة والملازمون ، ثم طوسون باشا وخلفه أتباعه وأغواته ، ثم الكتخدا — وهو محمد كتخدا ، المعروف بالبرديسى ، وهـو الذى كان كتخدا الألفى — وصحبته الخازندار ، وخلفهم النوبة التركية .

ولما انقضى أمر الموكب ، دعاه المحـروقى الى منزله . فنزل معـه من باب السر الذى بالجـامع المعروف بالغورى ، وصحبته حسن باشا ، وتوجهوا الى بيت المحروقى ، وتغدى عنـده هو وأتبـاعه وخواصـه ، وأحضر له آلات الطرب ، واسـتمر هناك الى آخر النهار فى حظ وكيف ، وقـدم له المحروقى تعابى هدية ... ثم ركب عائدا الى محله .

الاثنين ١٤ منه (٨ ابريل ١٨١١ م):

نزل الباشا الى ترعة الفرعونية للاهتمام بسدها ، ونقل الأحجار فى المراكب مستمر ، فأقام عند السد أربع ليال . وذهب الى الاسكندرية عندما أتتـه الأخبار بورود مراكب الانكليز لأجـل مشـترى الغلال ، فذهب ليبيع عليهم الغلال التى جمعهـا . فبـاع عليهم كل أردب بمـائة قرش رومى ، عنها أربعة آلاف فضة وأكثر . واجتهد ببنـاء أسوار الاسكندرية ، وجدد بها أبراجا وحصونا ، وأرسل بطلب البنائين والصناع ، فجمعوهم من كل ناحية وطالت غيبته هناك واقامته لتتميم أغراضه .

وأمن مشايخ عربان أولاد على المسـتولين على

البحيرة ، وتحيل عليهم . فلما حضروا اليه قبض عليهم ، وقرر عليهم أموالا عظيمة ، ثم خلع عليهم وعوقهم . وأرسل العساكر فنهبت نجوعهم ، وسبوا نساءهم وأولادهم ومواشيهم !

وأما كتخدا بيك ، فانه بمصر يقرر الفرض على البلاد هو والكتبة حسب أوامر مخدومه . ونظموا كيفية أخرى ، وهى أنهم جمعوا الميرى والمضاف والفائظ والرزق ... ايراد أربع سنوات ، وكتبوا بها مراسيم بنصف المقرر ليقبض فى دفعتين . وبعد أن تقرر النصف الأول ، وتحصل منه ما تحصل ، وبقى الباقى مع النصف الآخر ، ويطلب من أربابه ولا بد ... لا مسامحة فى شيء منه . ومن تكفل بما تقرر على حصته ، وألزم نفسه بدفعه ، وكتب على نفسه وثيقة لأجل ... طولب به ، حتى قبل حلول الأجل ، لاحتياج المهمات . فتتوجه عليه الحوالات بيد العساكر ، فينزلون بداره ويلازمونها ويضيقون أنفاسه ، ويكلفونه ما لا يطيق . فلا يجد ملجأ ولا خلاصا الا بأحد الشيئين : اما الدفع بأى وجه كان ، واما ينزل عن حصته بالفراغ للديوان . ولا يبقى بيده ما يتقوت به هو وعياله ، ويصبح فقيرا لا يملك شيئا ان لم يكن له ايراد من جهة أخرى .

ربيع الآخر

(٢٥ ابريل — ٢٣ مايو ١٨١١ م)

... الكتخدا يتنوع فى استجلاب الأموال ، ويتحيل فى استخراجها بأنواع من الحيل فمنها : أنه يرسل الى أهل حرفة من الحرف ، ويأمرهم ببيع بضاعتهم بنصف ثمنها ، ويظهر أنه يريد الشفقة والرأفة بالناس ، ويرخص لهم فى أسعار المبيعات ، وأن أرباب الحرف تعدوا الحدود فى غلاء الأسعار .

فيجتمع أهل الحرفة ، ويضجون ، ويأتون بدفاترهم وبيان رأس مالهم ، وما ينضاف اليه من غلو جزئيات تلك البضاعة ، وما استحدث عليها من الجمارك والمكوس ، وغلو الأجر فى البحر والبر ... فلا يستمع لقولهم ، ولا يقبل لهم عذرا ، ويأمر بهم الى الحبس . فعند ذلك يطلبون الخلاص ويصالحون على أنفسهم بقدر من المال يدفعونه ، ويوزعون ذلك على أفرادهم فيما بينهم . ثم يزيدون فى سعر تلك البضاعة ليعوضوا غرامتهم من الناس ... معتذرين بتلك الغرامة وما حل بهم من الخسارة ، ثم تستمر الزيادة على الدوام ... وأظن استمرار الغرامة أيضا ! فجمع بهذه الكيفية أموالا عظيمة . وهى فى الحقيقة سلب أموال الناس من الأغنياء والفقراء .

فى أواخره (النصف الثانى من مايو ١٨١١ م) :

حضر الباشا من الاسكندرية على حين غفلة ، فبات بقصر شبرا . ثم حضر الى بيت الأزبكية ، فأقام به يومين ، ثم طلع الى القلعة .

وفيه : وصلت عساكر كثيرة من الأرنؤود والأتراك حتى غصت بهم المدينة . فلا يكاد المار يقع بصره الا عليهم أمام وخلف وبداخل الأزقة والعطف . وذلك خلاف الذين أقرهم وأبقاهم فى الاسكندرية ومن هو بالجهات والأقاليم القبلية والبحرية ... وما يعلم جنود ربك الا هو !

وفيه : اهتم الباشا بتشهيل العرضى اهتماما زائدا وفرض على البلاد جمالا وأتبانا وغلالا .

جمادى الأولى

(٢٤ مايو — ٢٢ يونية ١٨١١ م)

فيه : ورد قاصد من الديار الرومية وعلى يده بشارة : بأنه ولد للسلطان مولودة أنثى . فعملوا لها شنكا ، وهى مدافع تضرب من أبراج القلعة فى الأوقات الخمسة ... ثلاثة أيام .

وفيه : فرضوا فرضة بغال على مياسير الناس واهل الحرف : بغلة وبغلتين وثلاثة . والذى لم يكن عنده بغلة ، يلزم بالشراء ، أو أنه يدفع ثمنها كيسا عشرون الف فضة .

وفيه : انقطع الوارد من الديار الحجازية ، وغلا سعر البن حتى وصل الى مائتين وسبعين نصف فضة كل رطل ، وقل وجوده من الأسواق والدكاكين ... فلا يوجد الا مع المشقة . وصنع الناس القهوة من أنواع الحبوب المخصصة : كالشعير والقمح والفول ، وبزر العاقول وغيره ... مخلوطا مع البن ، وبغير خلط !

جمادى الآخرة

الجمعة ٢٠ منه (١٢ يولية ١٨١١ م) :

خرج الباشا الى البركة ، وطلب الجمال وقوافل العرب ، وشهل طائفة من العسكر للسفر الى السويس فاهتموا بالدخول والخروج من المدينة ، وطفقوا يخطفون الحمير والبغال والجمال ، وكل ما صادفوه من الدواب . ومن وجدوه راكبا ، ولو من وجهاء الناس ، أنزلوه عن دابته وركبوها . فانقبض الناس ، وانكمش غالبهم عن الركوب لمصالحهم ، وأخفوا حميرهم وبغالهم . وأقام الباشا ثلاثة أيام جهة البركة ، ثم ركب الى السويس .

وفيه : وردت مراكب وداوات وفيها البن . وذلك باستدعاء الباشا لها من ناحية جدة واليمن لأجل حمل العساكر واللوازم ، وانحل سعر البن قليلا .

رجب

الاثنين ٢٢ منه (١٢ اغسطس ١٨١١ م ــ ٧ مسرى ١٥٢٧ ق) :

أوفى النيل أذرعه ، وكسر السد فى صبحها يوم الثلاثاء ، بحضرة كتخدا بيك . والباشا غائب بالسويس .

شعبان

٢ منه (٢٢ اغسطس ١٨١١ م) :

سافر ديوان أفندى بمن بقى من العساكر البحرية .

٨ منه (٢٨ اغسطس ١٨١١ م) :

حضر الباشا من السويس ، وشرع فى تشهيل العساكر البرية .

١٥ منه (٤ سبتمبر ١٨١١ م) :

خرج الباشا الى العادلية ، واجتهد فى تشهيل سفر العساكر البرية اجتهادا كبيرا ، وجمع من أهل كل حرفة طائفة ، وكذلك من أهل كل صنعة . والذى يعجز عن السفر ، يخرج عنه بدلا . وتعين من الفقهاء للسفر الشيخ محمد المهدى من الشافعية ، ومن الحنفية السيد أحمد الطحطاوى ، وشيخ حنبلى وصل من ناحية الشام . وكانوا رسموا باحضار السيد حسن كريت المالكى من رشيد ، والشيخ على خفاجى من دمياط ، فحضرا واعتذرا ، فأعفيا من السفر ورجعا الى بلديهما .

وفى هذا الشهر : ظهر نجم له ذنب فى جهة الشمال بين بنات نعش الصغرى ، وبين منار بنات نعش الكبرى : رأسه جهة المغرب ، وذنبه صاعدا الى جهة المشرق ، وله شعاع مستطيل فى مقدار الرمح . واستمر يظهر فى كل ليلة ... والناس ينظرون اليه ، ويتحدثون به ، ويسألون الفلكيين عنه ، ويبحثون عن دلائله وعن الملاحم المصنفة فى ذوات الأذناب . واستمر ظهوره قريبا من ثلاثة أشهر ، واضمحل بعض جرمه ، ومشى الى ناحية الجنوب ، وقرب من النسر الطائر .

٩ منه (٢٧ سبتمبر ١٨١١ م):

ارتحل العسكر من الحصوة ونزلوا ببركة الحج.

١٢ منه (٣٠ سبتمبر ١٨١١ م):

ارتحلوا من البركة. فكان مدة مكث العرضى، من يوم خروج الموكب الى يوم ارتحـــالهم من البركة، قريبا من ستة أشهر ونصف. والناس فى أمر مريج فى كل شىء.

وفيـه: خرج السيد محمد المحروقى ليسافر صحبة الركب، وخرج فى موكب جليل، لأنه هو المشار اليه فى رياسة الركب ولوازمه واحتياجاته، وأمور العربان ومشايخها. وأوصى الباشـا ولده طوسون باشا أمير العسكر بأن لايفعل شيئا من الأشياء الا بمشورته واطلاعه، ولا ينفذ أمرا من الأمور الا بعد مراجعته.

وفيه: وردت الأخبار بأن العساكر البحرية ملكوا ينبع البحر، ونهبوا ماكان فيه من ودائع التجار. وذلك أنه كان بمرساة الينبع عدة مراكب وداوات.

والشريف غالب، أمير مكة، يكاتب الباشـا ويراسله، ويظهر له النصـح والصداقة وخلوص المودة. والباشا أيضا يراسله ويكاتبه. وأرسل له السيد سلامة النجارى، والسـيد أحمد المنـلا الترجمان المحروقى بمراسـلات وجوابات مرارا عـديدة، فكانا همـا السفيرين بينهما. وأيضـا الشريف، فى كل كتابة مع كل مرسول، يعاهـد الباشـا ويعاقده، ويواعـده بنصر عساكره متى وصلت، وينافق للطرفين: الذى هو العثمانى، والوهابى، ويداهنهما.

أما الوهابى فلخوفه منه، وعدم قدرته عليـه، فيظهر له الموافقة والامتثال، وأنه معه على العهود التى عاهده عليها من ترك الظلم، واجتناب البدع ونحو ذلك. ويميل باطنا للعثمانيين، لكونه على طريقتهم ومذاهبهم.

وتعاقد مع الباشا أنه متى وصلت عساكره، قام بنصرتهم، وساعدهم بكليته وجميع همته. وأرسل الى المراكب الـكائنة بمرساة الينبع، بأن ينقلوا ما فيها من مال التجار وغيرهم، ويودعوه قلعـة الينبع تحت يد وزيره، وترك معـه نحو الخمسمائة من عسكره، وأخذ المراكب فأوسقها من بضـائعه وبهاره وبنه، وأرسلها الى السويس لتباع بمصر، ثم توسق بمهمات العسكر البحرية.

فلما وصلت مراكب العساكر البحرية، وألقت مراسيها قبالة الينبع ... احتاجوا الى المـاء، فلم يسعفوهم بالمـاء. فطلع طائفة من العسـكر الى البر فى طلب عين الماء، فمانعهم من عندها مرابط. فقاتلوهم وطردوهم ومنعوهم عن المـاء ... وفى حال رجوعهم، رموا عليهم من القلعـة المـدافع والرصاص. والحال أن الأمر مبهم على الفريقين!

فعند ذلك استعدت العساكر لمحاربة من بالقلعة، واحتاطوا بها، وضربوا عليها القنـابر والمدافع، وركبوا على سورها سلالم، وصعدوا عليهـا، وتسلقوا على سور القلعة من غير مبالاة بالرصاص النازل عليهـم من الكائنين بالقلعـة، فملـكوا القلعـة، وقتلوا من كان بهـا. ولم ينـج منهم الا الوزير ومعه سـتة أنفار، خرجوا هاربين على الخيول. ونهبوا كل ماكان بالينبـع من الودائع والأموال والأقمشة والبن، وسبوا النساء والبنات الكائنات بالبندر، وأخذوهن أسرى، ويبيعوهن على بعضهم البعض.

ووصل المبشرون بذلك فى عشرنـه. فضربوا لذلك مدافع من القلعة كثيرة، وعملوا شـنكا. وطافت المبشرون على بيوت الأعيان ليأخذوا منهم البقاشيش. وأرسلوا بتلك البشارة شخصا معينـا

كبيرا الى اسلامبول يبشرون أهل الدولة وسلطان الاسلام . وكان ذلك أول فتح حصل .

شوال

استهل بيوم الجمعة ، وكان حقه أن يكون بيوم السبت ، لأن الهلال لم يكن موجودا ليلة الجمعة ، ولم يره ليلة السبت الا النادر من الناس . وكان قوسه ليلة السبت عشر درجات .

١٦ منه (٣ نوفمبر ١٨١١ م) :

وصلت هجانة ومكاتبات من عساكر البر يخبرون بوصولهم الى بندر المويلح فى اليوم السابع من الشهر . وكان العيد عندهم بمغاير شعيب يوم السبت .

وفيه : خرجت تجريدة لتسافر الى قبلى لمحاربة من بقى من الأمراء المصريين بناحية أبريم .

ذو القعدة

الاحد غرته (١٧ نوفمبر ١٨١١ م) :

وصلت حجاج مغاربة فى عدة مراكب على ظهر البحر ، وتلف منهم نحو ثلاثة مراكب وحضر بعدهم بأيام الركب الطرابلسى ، ونزل بساحل بولاق .

الجمعة ٦ منه (٢٢ نوفمبر ١٨١١ م) :

حضر أيضا الركب الفاسى ، وفيهم ابن سلطان الغرب مولاى ابراهيم ابن مولاى سليمان . فاعتنى الباشا بشأنه ، وأرسل كتخدا بيك لملاقاته ، وقدم له تقادم ، وأعدوا له منزل على كاشف بالقرب من بيت المحروقى لينزل فيه ، وتقيد بخدمته الرئيس حسن المحروقى وحواشيهم لمطبخه وكلف طعامه .

فلما عدى ، طلع الى القلعة ، وقابل الباشا ، ونزل الى المنزل الذى أعده له ... وأمامه قواسة أتراك وطرادون وأشخاص أتراك يضربون على طبلات ، وأمامه جميع المغاربة مشاة ، ويأمرون الناس الجالسين بالحوانيت بالقيام له على أقدامهم . فأقام خمسة أيام ، حتى قضى أشغاله . وفى تلك المدة تغدو اليه وتروح رسل الباشا . وأرسل له هدية وذخيرة من كل صنف : سكر وعسل وسمن ودقيق وبقسماط ، وأشياء أخر ، وبارود . وأعطى له ألف بندقية لضرب الرصاص ، وبرز فى عاشره ، وسافروا فى ثانى عشره .

الخميس ١٩ منه (٥ ديسمبر ١٨١١ م) :

وصلت هجانة على أيديهم مكاتبات خطابا الى الباشا وغيره . وفيهم الخبر بأن العسكر البرى اجتمع مع العسكر البحرى ، وأخذوا ينبع البر من غير حرب ، وأن العربان أتت اليهم أفواجا ، وقابلوا طوسون باشا وكساهم ، وخلع عليهم ثم انقطعت الأخبار .

ذو الحجة

الثلاثاء ١٥ منه (٣١ ديسمبر ١٨١١ م) :

وصلت هجانة ومعهم رؤوس قتلى ومكاتبات مؤرخة فى منتصف شهر ذى القعدة .. مضمونها : أنهم وصلوا الى ينبع البر فى حادى عشرين شوال ، واجتمع هناك العسكران البرى والبحرى ، وأنهم ملكوا قرية ابن جبارة من الوهابية — ويسمى قرية السويق — وفر ابن جبارة هاربا . وحضرت عربان كثيرة ، وقابلوا ابن الباشا ، وأنهم مقيمون وقت تاريخه فى منزلة الينبع ، منتظرين وصول الذخيرة . وعاق المراكب ريح الشتاء المخالف .

وأنه ورد عليهم خبر ليلة أربع عشرة شهره : بأن جماعة من كبار الوهابية حضروا بنحو سبعة آلاف خيال — وفيهم عبد الله بن مسعود ، وعثمان المضايفى ، ومعهم مشاة — وقصدوا أن يدهموا العرضى على حين غفلة . فخرج اليهم شديد شيخ

الحويطات ، ومعه طوائفه ودلاة وعساكر ، فوافاهم قبل شروق الشمس ، ووقع بينهم القتال والوهابية يقولون : « هاه يامشركون ! » . وانجلت الحرب عن هزيمة الوهابية ، وغنموا منهم نحو سبعين هجينا من الهجن الجياد محملة أدوات . وكانت الحرب بينهم مقدار ساعتين ... هذا ملخص ما ذكروه فى الأجوبة التى حضرت .

الجمعة ٢٥ منه (١٠ يناير ١٨١٢ م) :

وصلت قافلة من السويس . وحضر فيها جاويش باشا وصحبته مكاتبات . وحضر أيضا السيد أحمد الطحطاوى ، والشيخ الحنبلى . وأخبروا أن العرضى ارتحل من ينبع البر فى سابع عشر ذى القعدة ، ووصلوا الى منزلة الصفراء والجديدة ، ونصبوا عرضيهم وخيامهم ووطاقاتهم بالقرب من الجبال . فوجدوا هناك متاريس وأحجارا ، فحاربوا على أول متراس حتى أخذوه ، ثم أخذوا متراسا آخر .

وصعدت العساكر الى قلل الجبال ، فهالهم كثرة الجيش ، وسارت الخيالة فى مضيق الجبال .

هذا ... والحرب قائم فى أعلى الجبال يوما وليلة الى بعد الظهيرة من يوم الأربعاء ثالث عشرى القعدة ... فما يشعر السفلانيون الا والعساكر الذين فى الأعالى هابطون منهزمون . فانهزموا جميعا ، وولوا الأدبار ، وطلبوا جميعا الفرار ، وتركوا خيامهم وأحمالهم وأثقالهم ، وطفقوا ينهبون ويخطفون ما خف عليهم من أمتعة رؤسائهم ... فكان القوى منهم يأخذ متاع رفيقه الضعيف ، ويأخذ دابته ويركبها ، وربما قتله وأخذ دابته !

وساروا طالبين الوصول الى السفائن بساحل البريك ، لأنهم كانوا أعدوا عدة مراكب بساحل البريك من باب الاحتياط . ووقع فى قلوبهم الرعب ، واعتقدوا أن القوم فى أثرهم ... والحال أنه لم يتبعهم أحد ، لأنهم لا يذهبون خلف المدبر .

ولو تبعوهم ما بقى منهم شخص واحد . فكانوا يصرخون على القطائر فتأتى اليهم القطيرة — وهى لاتسع الا القليل — فيتكاثرون ويتزاحمون على النزول فيها . فيصعد منهم الجماعة ، ويمنعون البواقى من اخوانهم . فان لم يمتنعوا مانعوهم بالبنادق والرصاص ! حتى كانوا ، من شدة حرصهم وخوفهم ، واستعجالهم على النزول فى القطائر ، يخوضون فى البحر الى رقابهم ... وكأنما العفاريت فى أثرهم تريد خطفهم .

وكثير من العسكر والخدم ، لما شاهدوا الازدحام على أسكلة البريك ، ذهبوا مشاة الى ينبع البحر .

ووقع التشتيت فى الدواب والأحمال والخلائق من الخدم وغيرهم . ورجع طوسون باشا الى ينبع البحر بعد أن تغيب يوما عن معسكره ، حتى أنهم ظنوا فقده . ورجع أيضا المحروقى وديوان أفندى ، واستقروا بالينبع .

وترك المحروقى خيامه بما فيها . فنزل بها طائفة من العسكر المنهزمين ، وهم على جهد من التعب والجوع ، فوجدوا بها المآكل والحلاوات وأنواع الملبسات ، والكعك المصنوع بالعجمية والسكر المكرر والغريبات والخشكنانات والمربيات وأنواع الشرابات ، فوقعوا عليها أكلا ونهبا . ولما تحققوا أن العرب لم تتبعهم ولم تأت فى آثرهم ، أقاموا على ذلك يومين حتى استوفوا أغراضهم ، وشبعت بطونهم ، وارتاحت أبدانهم . ثم لحقوا باخوانهم . فكانوا هم أثبت القوم وأعقلهم ... ولو كان على غير قصد منهم ! فكان مدة اقامة المعسكر والعرضى بينبع البر أربعة وعشرين يوما .

وأما الخيالة فانهم اجتمعوا وساروا راجعين الى المويلح ، وقد أجهدهم التعب ، وعدم الذخيرة والعليق ... حتى حكوا : أنهم كانوا قبل الواقعة يعلقون على الجمل بنصف قدح قمح مسوس !

وكانت علائفهم فى كل يوم أربعمائة وخمسين أردبا .

وأما المحروقى ، فان كبار العسكر قامت عليه ، وأسمعوه الكلام القبيح ، وكادوا يقتلونه فنزل فى سفينة وخلص منهم ، وحضر من ناحية القصير . وحضر الكثير من أتباعه وخدمه متفرقين الى مصر .

فأما الذين ذهبوا الى المويلح ، فهم : تامر كاشف وحسين بيك دالى باشا وآخرون فأقاموا هناك فى انتظار اذن الباشا فى رجوعهم الى مصر أو عدم رجوعهم .

وأما صالح أغا قوج فانه عند ما نزل السفينة ، كر راجعا الى القصير ، واستقل برأيه لأنه يرى فى نفسه العظمة ، وأنه الأحق بالرياسة ، ويسفه رأى المحروقى وطوسون باشا ، ويقول : « هؤلاء الصغار كيف يصلحون لتدبير الحروب ؟ ! » ويصرح بمثل هذا الكلام وأزيد منه ، وكان هو أول منهزم . وعلم كل ذلك الباشا بمكاتبات ولده طوسون ، فحقده فى نفسه وتمم ذلك بسرعة رجوعه الى القصير ، ولم ينتظر اذنا فى الرجوع أو المكث .

ولما حصل ذلك لم يتزلزل الباشا ، واستمر على همته فى تجهيزه عساكر أخرى . وبرزوا الى خارج البلدة ، وفرض على البلاد جمالا ، ذكر أنها من أصل الغرائم والفرض فى المستقبل . وكذلك فرض غلالا ، فكان المفروض على اقليم الشرقية خاصة اثنى عشر ألف أردب ، بعناية على كاشف ، قابله الله بما يستحق .

وانقضت السنة بحوادثها التى منها هذه الحادثة ، وأظنها طويلة الذيل .

ومنها : أن النيل هبط قبل الصليب بأيام قليلة بعد أن بلغ فى الزيادة مبلغا عظيما حتى غرق الزرع الصيفى والدراوى . ولما انحسر عن الأرض زرعوا البرسيم — والوقت صائف ، والحرارة مستجنة فى الأرض — فتولدت فيه الدودة ، وأكلت الذى زرع . فبذروه ثانيا ، فأكلته أيضا . وفحش أمر الدودة جدا فى الزرع البدرى ، وخصوصا باقليم الجيزة والقليوبية والمنوفية ، بل وباقى الأقاليم .

ومنها : أن الباشا أحدث ديوانا ، ورتبوه ببيت البكرى القديم بالأزبكية . وأظهر أن هذا الديوان لمحاسبة ما تتعلق به من البلاد ومحاسباتها — والقصد الباطنى غير ذلك — وقيد به ابراهيم كتخدا الرزاز ، والشيخ أحمد يوسف كاتب حسين أفندى الروزنامجى ، وما انضم اليهم من الكتبة المسلمين — دون الأقباط — ليحرروا به قوائم المصروف والمضاف والبرانى فكانوا يجلسون لذلك كل يوم ماعدا يوم الجمعة ثم تطرق الحال لسور بلاد الباشا . وهو أن الكثير من الفلاحين لما سمعوا فى ذلك ، أتوا من كل ناحية الى مصر ، وكتبوا عرضحالات الى كتخدا بيك وللباشا ، يتظلمون من أستاذيهم : وينهون أنهم يزيدون عليهم زيادات فى قوائم المصروف ، ويشددون عليهم فى طلب الفرض أو بواقيها فيدفعهم الباشا أو الكتخدا الى ذلك الديوان المحدث لينظر فى أمورهم ، ويصحبهم معين تركى مباشر يأتى بالملتزم أيضا والفلاحين والشاهد والصراف وقوائم المصروف لأجل المحاققة فعند ذلك تعنت ابراهيم كتخدا فى القوائم ، ويطلب قوائم السنين الماضية المختومة ... ونحو ذلك .

ولما فشا هذا الأمر ، وأشيع فى البلدان ، أتت طوائف الفلاحين أفواجا الى هذا الديوان يطلبون الملتزمين ، ويخاصمونهم ويكافحونهم . فيكون أمرا مهولا ، وغاية فى الزحام والعياط والشباط !

وكذلك رفعوا المعلم منصور ، ومن معه من

الكتبة ، من مباشرة ديوان ابنه ابراهيم بيك الدفتردار . وقيدوا بدلهم : السيد محمد غانم الرشيدى ، ومحمد أفندى سليم ، ومن انضم اليهم . وأظهر الباشا أنه يفعل ذلك لما علمه من خيانة الأقباط ... والقصد الخفى خلاف ذلك ، وهو : الاستيلاء والاستحواذ الكلى والجزئى ، وقطع منفعة الغير ... ولو قليلا ، فيضرب هذا بهذا — والناس أعداء بعضهم لبعض ، وقلوبهم متنافرة ! — فيغرى هذا بذاك وذاك بهذا . ومن الناس من سمى هذا الديوان « ديوان الفتنة » ! .

ومنها : الزيادة الفاحشة فى صرف المعاملة ، والنقص فى وزنها وعيارها . وذلك أن حضرة الباشا أبقى دار الضرب على ذمته، وجعل خاله ناظرا عليها ، وقرر لنفسه عليها فى كل شهر خمسمائة كيس ، بعد أن كان شهريتها ، أيام نظارة المحروقى ، خمسين كيسا فى كل شهر . ونقصوا وزن القرش نحو النصف عن القرش المعتاد ، وزادوا فى خلطه حتى لايكون فيه مقدار ربعه من الفضة الخالصة . ويصرف بأربعين نصفا . وكذلك المحبوب نقصوا من عياره ووزنه .

ولما كان الناس يتساهلون فى صرف المحبوب ، والريال الفرانسة ، ويقبضونها فى خلاص الحقوق من المماطلين والمفلسين ، وفى المبيعات الكاسدة بالزيادة لضيق المعايش ، حتى وصل صرف الريال الى مائتين وخمسين نصفا ، والمحبوب الى مائتين وثمانين .

ثم زاد الحال فى التساهل فى الناس بالزيادة أيضا عن ذلك . فينادى الحاكم بمنع الزيادة ، ويمشى الحال أياما قليلة ويعود لما كان أو أزيد . فتحصل المناداة أيضا ، ويعقبونها بالتشديد والتنكيل بمن يفعل ذلك ، ويقبض عليه أعوان الحاكم ، ويحبس ويضرب ، ويغرمونه غرامة ... وربما مثلوا به ، وخرموا أنفه ، وصلبوه على حانوته ، وعلقوا الريال فى أنفه ردعا لغيره ... وفى أثناء ذلك : اذا بالمناداة بأن يكون صرف الريال بمائتين وسبعين ، والمحبوب بثلثمائة وعشرة !

فاستمع وتعجب من هذه الأحكام الغريبة التى لم يطرق سمع سامع مثلها ! .

هذا مع عدم الفضة العددية فى أيدى الناس . فيدور الشخص بالقرش ، وهو ينادى على صرفه بنقص أربعة أنصاف ، نصف يوم ، حتى يصرفه بقطع أفرنجية : منها ما هو باثنى عشر ، أو خمسة وعشرين ، أو خمسة فقط ... أو يشترى من يريد الصرف شيئا من الزيات أو الخضرى أو الجزار ، ويبقى عنده الكسور الباقية يوعده بغلاقها . فيعود اليه مرارا حتى يتحصل عنده غلاقها ... وليس هو فقط بل أمثاله كثير !

وسبب شحة الفضة العددية أنه يضرب منها كل يوم بالضربخانة ألوف مؤلفة يأخذها التجار بزيادة مائة نصف فى كل ألف يرسلونها الى بلاد الشام والروم ، ويعوضون بدلها فى الضربخانة الفرانسة والذهب ، لأنها تصرف فى تلك البلاد بأقل مما تصرف به فى مصر . وزاد الحال بعد هذا التاريخ حتى استقر على صرف الألف مائتين ، وتقرر ذلك فى حساب الميرى . فيدفع الصارف ثلاثين قرشا ! عنها ألف ومائتان ، ويأخذ ألفا فقط . والفرانسة والمحبوب بحسابه المتعارف بذلك الحساب . والأمر لله وحده .

❊ ❊ ❊

وأما من مات فى هذه السنة ممن له ذكر :

فلم يمت من مشاهير الفقهاء من له شهرة ولا ذكر . وأما الأمراء ، فقد تقدم ذكرهم وما وقع لهم ، ومقتلهم اجمالا ، فأغنى عن التكرار ، فالله يرحمنا أجمعين .

المحـــرم

السبت ١٠ منه (٢٥ يناير ١٨١٢ م) :

وصـــل كثير من كبار العســـكر الذين تخلفوا بالمويلح . فحضر منهم حســـين بيك دالى باشـــا وغيره . فوصلوا الى قبة النصر جهة العادليـــة . ودخلت عساكرهم المدينة شيئا فشيئا ... وهم فى أسوأ حال من الجوع وتغير الألوان وكآبة المنظر والسـجن ، ودوابهم وجمـالهم فى غاية العى . ويدخلون الى المدينة فى كل يوم ، ثم دخل آكابرهم الى بيوتهم ... وقد سخط عليهم الباشا ، ومنع أن لايأتيه منهم أحد ولا يراه .وكأنهم كانوا قادرين على النصرة والغلبة وفرطوا فى ذلك ! ويلومهم على الانهزام والرجوع .

وطفقوا يتهم بعضـــهم البعض فى الانهزام ... فتقول الخيالة : سـبب هزيمتنا القرابة ، وتقول القرابة بالعكس

ولقد قال لى بعض أكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع « أين لنا بالنصر ... وأكثر عساكرنا على غير الملة ، وفيهم من لايتدين بدين ، ولا ينتحل مذهبا ؟ وصحبتنا صناديق المسكرات ، ولا يسمع فى عرضينا أذان ، ولا تقام به فريضة ، ولا يخطر فى بالهم ولا خاطرهم شـعائر الدين ! والقوم اذا دخل الوقت أذن المؤذنون ، وينتظمون صفوفا خلف امام واحد بخشوع وخضوع . واذا حان وقت الصـلاة ، والحرب قائم ، أذن المؤذن وصـلوا صلاة الخوف ! فتتقدم طائفة للحرب ، وتتأخر الأخرى للصلاة ... وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته . وينادون فى معسكرهم : هلموا الى حرب المشركين ، المحلقين الذقون ، المستبيحين الزنا واللواط ، الشـاربين الخمور ، التاركين للصلاة ، الآكلين الربا ، القاتلين الأنفس ، المستحلين المحرمات ! ... وكشفوا عن كثير من قتلى العســكر ، فوجدوهم غلفا غـير محتونين .

« ولمـا وصلوا بدرا ، واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف — وبها خيار الناس ، وبها أهل العلم والصلحاء — نهبوهم ، وأخذوا نسـاءهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم ... فكانوا يفعلون فيهم ، ويبيعونهم من بعضـهم لبعض ، ويقولون هؤلاء الكفار الخوارج ... حتى اتفق أن بعض أهل بدر الصلحاء طلب من بعض العسكر زوجته ، فقـال له : حتى تبيت معى هـذه الليـلة ، وأعطيها لك من الغد » !

وفيه : خرج العسكر المجرد الى السويس — وكبيرهم بونابارته الخازندار — ليذهب لمحافظة الينبع صحبة طوسون باشا .

وفيه : وصل جماعة من الانجليز ، وصحبتهم هدية الى الباشا ، وفيها طيور ببغـا هندية خضر الألوان وملونة ، وريالات فرانسة نقود معبأة فى براميل ، وحديد وآلات . ومجيئهم وحضورهم فى طلب أخذ الغـلال . وفى كل يوم تساق المراكب المشحونة بالغلال الى بحرى . وكلما وردت مراكب

مبيرت الى بحرى ، حتى شحت الغلال ، وغلا سعرها ، وارتفعت من السواحل والرقع ، ولا يكاد يباع الا ما دون الويبة . وكان سعر الأردب من أربعمائة نصف الى ألف ومائتين ... والفول كذلك ... وربما كان سعره أزيد من القمح لقلته ، فانه هاف زرعه فى هذه السنة ، ولم يتحصل من رميه الا نحو التقاوى .

وحصل للناس فى هذه الأيام شدة بسبب ذلك . ثم بعد قليل وردت غلال ، وانحلت الأسعار ، وتواجدت الغلال بالسواحل والرقع .

الخميس ١٥ منه (٣٠ يناير ١٨١٢ م) :

حضر رجل نصرانى من جبل الدروز ، وتوصل الى الباشا ، وعرفه أنه يحسن الصناعة بدار الضرب ، ويوفر عليه كثيرا من المصاريف ، وانها بها نحو الخمسمائة صانع ، وأن يقوم بالعمل بأربعين شخصا لاغير ، وأنه يصنع آلات وعددا لضرب القروش وغيرها ، ولا تحتاج الى وقود نيران ولا كثير من العمل . فصدق الباشا قوله ، وأمر بأن يفرد له مكان ، ويضم اليه مايحتاجه من الرجال والحدادين والصناع ، ليعمل لصناعته العدد والآلات التى يحتاجها ، وشرع فى أشغاله ، واستمر على ذلك شهورا .

وفيه التفت الباشا الى خدمة الضربخانة وأفنديتها . وطمعت نفسه فى مصادرتهم وأخذ الأموال ، لما يرى عليهم من التجمل فى الملابس والمراكب ، لأن من طبعه داء الحسد والشره والطمع والتطلع لما فى أيدى الناس وأرزاقهم ! فكان ينظر اليهم ويرمقهم ، وهم يغدون ويروحون الى الضربخانة هم وأولادهم ، راكبون البغال والرهوانات المجملة ، وحولهم الخدم والأتباع ... فيسأل عنهم ، ويستخبر عن أحوالهم ودورهم ومصارفهم .

وقد اتفق أنه رأى شخصا خرج آخر الصناع ، وهو راكب رهوانا ، وحوله ثلاثة من الخدم . فسأل عنه ، فقيل له : ان هذا البواب الذى يغلق باب الضربخانة بعد خروج الناس منها ، ويفتحه لهم فى الصباح . فسأل عن مرتبه فى كل يوم ، فعرفوه أن له فى كل يوم قرشين لاغير . فقال : « ان هذا المرتب له لايكفى خدمه الذين هم حوله ... فكيف بمصرف داره ، وعليق دوابه ، وجميع لوازمه مما ينفقه ويحتاجه فى تجملاته وملابسه وملابس أهله وعياله ! ان هؤلاء الناس كلهم سراق ، وكل ماهم فيه من السرقة والاختلاس ، ولا بد من اخراج الأموال التى اختلسوها وجمعوها » .

وتناجى فى ذلك مع المعلم غالى وقرنائه ثم طلب أولا اسماعيل أفندى ليلا — وهو الأفندى الكبير — وقال له : « عرفنى خيانة فلان النصرانى ، وفلان اليهودى المورد » ! فقال : « لاأعلم على أحد منهم خيانة ... وهذا شيء يدخل بالميزان ويخرج بالميزان » . ثم صرفه وأحضر النصرانى وقال له : «عرفنى بخيانة اسماعيل أفندى وأولاده ، والمداد ، وابراهيم أفندى الحضراوى الختام وغيره » فلم يزد على ماقاله اسماعيل أفندى . ثم أحضر الحاج سالم الجواهرجى وهدده فلم يزد على قول الجماعة شيئا فقال « الجميع شركاء لبعضهم البعض ، ومتفقون على خيانتى » . ثم أمر بحبس الحاج سالم وأحضر شخصا آخر من الجواهرجية يسمى صالح الدنف ، وألبسه فروة وجعله فى خدمة الحاج سالم .

ثم ركب الباشا الى بيت الأزبكية ، وطلب اسماعيل أفندى ليلا هو وأولاده فأحضروهم بجماعة من العسكر فى صورة هائلة ، وهددهم بالقتل ، وأمر باحضار المشاعلى فأحضروه ، وأوقدوا المشاعل وسعت المتكلمون فى العفو عنهم من القتل ، وقرروا عليهم مبلغا عظيما من الأكياس ،

التزموا بدفعها خوفا من القتل ! ففرضوا على الحاج سالم بمفرده سبعمائة وخمسين كيسا ، وعلى ابراهيم المداد مائتى كيس ، وعلى أحمد أفندى الوزان مائتى كيس ، وعلى أولاد الشيخ السحيمى مائتى كيس لأن لهم بها آلات ختم ووظائف يستغلون أجرتها . وأخذ الجماعة فى تحصيل مافرض عليهم . فشرعوا فى بيع أمتعتهم ، وجهات ايرادهم ، ورهنوا ، وتداينوا بالربا ، وحولت عليهم الحوالات ... لطف الله بنا وبهم !

صفر

٧ منه (٢١ فبراير ١٨١٢ م) :

حضر السيد محمد المحروقى الى مصر ، ووصل من طريق القصير ، ثم ركب بحر النيل . ولم يحضر الشيخ المهدى ، بل تخلف عنه بقنا وقوص لبعض أغراضه .

وفيه : ألبس الباشا صالح آغا السلحدار خلعة ، وجعله سر عسكر التجريدة المتوجهة على طريق البر الى الحجاز . وكذلك ألبس باقى الكشاف .

١٠ منه (٢٤ فبراير ١٨١٢ م) :

ورد قابجى وعلى يده مرسوم ببشارة مولود ولد للسلطان محمود ، وتسمى بمراد ، وصحبته أيضا مقرر للباشا على ولاية مصر . فضربوا مدافع لوروده ، وطلع الى القلعة فى موكب وقرئت المراسيم . وعملوا شنكا ومدافع تضرب فى الأوقات الخمسة ، سبعة أيام ، من القلعة والأزبكية وبولاق والجيزة .

ربيع الأول

الاحد غرته (١٥ مارس ١٨١٢ م) :

حضر ابراهيم بيك ابن الباشا من الجهة القبلية .

الاحد ١٥ منه (٢٩ مارس ١٨١٢ م) :

حضر أحمد آغا لاظ ، الذى كان أميرا بقنا وقوص ، وباقى الكشاف بعد أن راكوا جميع البلاد القبلية والأراضى ، وفرضوا عليها الأموال : على كل فدان سبعة ريالات — وهو شىء كثير جدا — وأحصوا جميع الرزق الاحباسية المرصدة على المساجد والبر والصدقة ، بالصعيد ومصر ، فبلغت ستمائة ألف فدان . وأشاعوا بأنهم يطلقون للمرصد على المساجد خاصة نصف المفروض ، وهو ثلاثة ريال ونصف .

فضجت أصحاب الرزق ، وحضر الكثير منهم يستغيثون بالمشايخ . فركبوا الى الباشا ، وتكلموا معه فى شأن ذلك . وقالوا له : « هذا يترتب عليه خراب المساجد » . فقال : « وأين المساجد العامرة ؟ الذى لم يرض بذلك ، يرفع يده ، وأنا أعمر المساجد المتخربة ، وأرتب لها مايكفيها » . ولم يفد كلامهم فائدة ، فنزلوا الى بيوتهم .

اواخره (حوالى منتصف ابريل ١٨١٢ م) :

انتقل السيد عمر مكرم النقيب من دمياط الى طندتا ، وسكن بها .

وسبب ذلك : أنه لما طالت اقامته بدمياط ، وهو ينتظر الفرج وقد أبطأ عليه ، وهو ينتقل من المكان الذى هو فيه ، الى مكان آخر على شاطىء البحر ، وتشاغل بعمارة خان أنشأه هناك ، والحرس ملازمون له . فلم يزل حتى ورد عليه صديق أفندى قاضى العسكر فكلمه بأن يتشفع له عند الباشا فى انتقاله الى طندتا ... ففعل . وأجاب الباشا الى ذلك .

ربيع الآخر

٤ منه (١٧ ابريل ١٨١٢ م) :

وصل الحجاج المغاربة . ووصل أيضا مولاى

ابراهيم ابن السلطان سليمان سلطان الغرب . وسبب تأخرهم الى هذا الوقت : أنهم أتوا من طريق الشام ، وهلك الكثير من فقرائهم المشاة وأخبروا أنهم قضوا مناسكهم ، وحجوا ، وزاروا المدينة ، وأكرمهم الوهابية اكراما زائدا ، وذهبوا ورجعوا من غير طريق العسكر .

١٠ منه (٢٣ ابريل ١٨١٢ م) :

حضر تامر كاشف ومحو بيك وعبد الله أغا — وهم الذين كانوا حضروا الى المويلح بعد الهزيمة — فأقاموا به مدة ، ثم ذهبوا الى ينبع البحر عند طوسون باشا ، ثم حضروا فى هذه الأيام باستدعاء الباشا . وكان محو بيك فى مركب من مراكب الباشا الكبار التى أنشأها ، فانكسر على شعب ، وهلك من عسكره أشخاص ، ونجا هو بمن بقى معه . وأخبروا عنه أنه كان أول من تقدم فى البحر هو وحسين بيك ، فقتل من عسكرهما الكثير من دون البقية الذين استعجلوا الفرار .

وفيه : خرجت أوراق الفرضة ، على نسق العام الأول ، عن أربع سنوات ، مال وفائظ ومضاف وبرانى ورزق وأوسية . واستقر طلبها فى دفعة واحدة ، ويؤخذ من أصل حسابها الغلال من الأجران : بحساب ثمانية ريال عن كل أردب . ويجمع غلال كل اقليم فى نواحى عينوها ، لتساق الى الاسكندرية ، وتباع على الافرنج .

- فشحت الغلال ، وغلا سعرها ... مع كون الفلاح لايقدر على رفع غلته المتحصلة له من زراعة أرضه التى غرم عليها المغارم بطول السنة ، بل تؤخذ منه قهرا مع الاجحاف فى الثمن والكيل ، بحيث يكال الأردب أردبا ونصفا ! ثم يلزمونه بأجرة حملها للمحل المعد لذلك . ويلزم أيضا بأجرة الكيال وعوائد المباشرين لذلك من الأعوان ، وخدمة الكشوفية ، وأجرة المعادى . وبعض البلاد يطلق له الاذن بدفع المطلوب بالثمن ، والبعض النصف غلال والنصف الآخر دراهم ، حسب رسم المعلم غالى وأوامره واذنه ، فانه هو المرخص فى الأمر والنهى . فيبيع المأذون له غلته بأقصى قيمة بمرأى من المسكين الآخر الذى لم تسعده الأقدار . وحضر الكثير من الفلاحين ، وازدحموا بباب المعلم غالى ، وتركوا بيادرهم ، وتعطلوا عن الدراس !

١٥ منه (٢٨ ابريل ١٨١٢ م) :

ذهب الباشا الى قصر شبرا ، وسافر تلك الليلة الى ثغر الاسكندرية . ورجع ابنه ابراهيم بيك الى الجهة القبلية . وكذلك أحمد أغا لاظ لتحرير وقبض الأموال .

وفيه : ورد الخبر بأن العسكر بقبلى ذهبوا خلف الأمراء القبليين الفارين الى خلف أبريم ، وضيقوا عليهم الطرق ، وماتت خيولهم وجمالهم ، وتفرق عنهم خدمهم ، واضمحل حالهم ، وحضر عدة من مماليكهم وأجنادهم الى ناحية أسوان بامان من الأتراك . فقبضوا عليهم ، وقتلوهم عن آخرهم ! وفعلوا قبل ذلك بغيرهم كذلك .

اواخره (حوالى منتصف مايو ١٨١٢ م) :

سافر عدة من عسكر المغاربة الى الينبع . ووصل جملة كبيرة من عسكر الأروام الى الاسكندرية . فصرف عليهم الباشا علائف ، وحضروا الى مصر ، وانتظموا فى سلك من بها ، ويعين منهم للسفر من يعين .

وفيه : وقعت حادثة بخط الجامع الأزهر . وهو أنه من مدة سابقة ، من قبل العام الماضى ، كان يقع بالخطة ونواحيها من الدور والحوانيت سرقات وضياع أمتعة . وتكرر ذلك حتى ضج الناس ، وكثر لغطهم ، وضاع تخمينهم . فمن قائل : أنه

مسترعيات يدخلون من نواحى السور ، ويتفرقون فى الخطة ، ويفعلون مايفعلون . ومنهم من يقول : ان ذلك فعل طائفة من العسكر الذين يقال لهم الحيطلة فى بلادهم ... الى غير ذلك .

ثم فى تاريخه سرق من بيت امرأة رومية صندوق ومتاع ، فاتهمت أشخاصا من العميان المجاورين بزاويتهم تجاه مدرسة الجوهرية الملاصقة للأزهر . فقبض عليهم الأغا ، وقررهم . فأنكروا وقالوا : « لسنا سارقين . وانما سمعنا فلانا — سموه ، وهو محمد بن أبى القاسم الدرقاوى المغربى ، المنفصل عن مشيخة رواق المغاربة — ومعه اخوته وآخرون ، ونعرفه بصوته ، وهم يتذاكرون فى ذلك ونحن نسمعهم » .

فلما تحققوا ذلك ، وشاع بين الناس والأشياخ ، ذهب بعضهم الى أبى القاسم ، وخاطبوه وكلموه سرا ، وخوفوه من العاقبة • وكان المذكور جعل نفسه مريضا ومنقطعا فى داره ... فغالطهم . فقالوا له : « نحن قصدنا بخطابك التستر على أهل الخرقة المنتسبين الى الأزهر ، فى العمل بالشريعة وأخذ العلم . أوما علمت ما قد جرى فى العام السابق من حادثة الزغل ؟» وغير ذلك . فلم يزالوا به حتى وغدهم أنه يتكلم مع أولاده ، ويفحصون على ذلك بنباهتهم ونجابتهم .

وفى اليوم الثالث — وقيل الثانى — أرسل أبو القاسم المذكور فأحضر السيد أحمد ، الذى يقال له جندى المطبخ ، وابن أخيه — وهما اللذان يتعاطيان الحسبة والأحكام بخط الأزهر ، ويتكلمان على الباعة والخضرية والجزارين الكائنين بالخطة — فلما حضرا عنده ، عاهدهما وحلفهما بأن يسترا عليه وعلى أولاده ، ولا يفضحاهم ، ويبعدا عنهم هذه القضية . وأخبرهما بأن ولده لم يزل يتفحص بفطانته حتى عرف السارق ، ووجد بعض الأمتعة .

ثم فتح خزانة بمجلسه ، وأخرج منها أمتعة . فسألوه عن الصندوق ، فقال : « هو باق عند من هو عنده ، ولا يمكن احضاره فى النهار . فاذا كان آخر الليل ، انتظروا ولدى محمدا هذا عند جامع الفكهانى بالعقادين الرومى ، وهو يأتيكم بالصندوق مع سارقه ، فاقبضوا عليه ، واتركوا أولادى ولا تذكروهم ولا تتعرضوا لهم » . فقالوا له « كذلك » .

وحضر الجندى وابن أخيه فى الوقت الذى وعدهم به ، وصحبتهما أشخاص من أتباع الشرطة ، ووقفوا فى انتظاره عند جامع الفكهانى . فحضر اليهم ، وصحبته شخص صرماتى ، فقالا لهم : « مكانكم حتى نأتيكم » . ثم طلعا الى ربع بعطفة الماطيين ، ورجعا فى الحال بالصندوق حامله الصرماتى على رأسه . فقبضوا على ذلك الصرماتى ، وأخذوه بالصندوق الى بيت الأغا ، فعاقبوه بالضرب .. وهو يقول : « أنا لست وحدى ، وشركائى ابن أبى القاسم وأخواه ، وآخر يسمى شلاطة ، وابن عبد الرحيم ... الجميع خمسة أشخاص » !

فذهب الأغا وأخبر كتخدا بيك . فأمره بطلب أولاد أبى القاسم . فأرسل اليه ورقة يطلبهم . فأجابه بأن أولاده حاضرون عنده بالأزهر ، من طلبة العلم ، وليسوا بسارقين . فبالاختصار أخذهم الأغا ، وأحضر ذلك الصرماتى معهم لأجل المحاققة. فلم يزل يذكر لابن أبى القاسم ماكانوا عليه فى سرحاتهم القديمة والجديدة ، ويقول له : « أما كنا كذا وكذا ، وفعلنا ماهو كذا فى ليلة كذا ، واقتسمنا ما هو كذا وكذا ؟ » ويقيم عليه أدلة وقرائن وأمارات ، ويقول له « أنت رئيسنا وكبيرنا فى ذلك كله ، ولا نمشى الى ناحية ولا سرحة ، الا باشارتك » .

فعند ذلك لم يسع ابن أبى القاسم الانكار .

وأقر واعترف هو واخوته ، وحبسوا سوية . وأما شلاطه ورفيقه فانهما تغيبا وهربا واختفيا .

وشاعت القضية فى المدينة ، وكثر القَال والقيل فى أهل الأزهر ونواحيه ، وتذكروا قضية الدراهم الزغل التى ظهرت قبل تاريخه ، وتذكروا أقوالا أخر . واجتمع كثير من الذين سرق لهم : فمنهم رجل يبيع السمن أخذ من مخزنه عدة مواعين سمن ،وصينية الفطاطرى التى يعمل عليها الكنافة ، وأمتعة وفرش وجدوا فى ثلاثة أماكن ، وخاتم ياقوت ذكروا أنه بيع بجملة دنانير ، وعقد لؤلؤ وغير ذلك .

واستمروا أياما ... والناس يذهبون الى الأغا ، ويذكرون ماسُرق لهم . ويسألهم فيقرون بأشياء دون أشياء ، ويذكرون ضياع أشياء تصرفوا فيها وباعوها وأكلوا بثمنها .

ثم اتفق الحال على المرافعة فى المحكمة الكبيرة ، فذهبوا بالجميع .واجتمع العالم الكثير من الناس ، وأصحاب السرقات وغيرهم ،نساء ورجالا ، وادعوا على هؤلاء الأشخاص المقبوض عليهم . فأحضروا بعض ما ادعوا به عليهم ، وقالوا : أخذنا ، ولم يقولوا سرقنا . وبرأ محمد بن أبى القاسم أخويه ، وقال : « انهما لم يكونا معنا فى شىء من هذا » .

وحصل الاختلاف فى ثبوت القطع بلفظ أخذنا ... وقد حضرت دعوى أخرى مثل هذه على رجل صباغ . ثم ان القاضى كتب اعلاما للكتخدا بيك بصورة الواقع ، وفوض الأمر اليه . فأمر بهم الى بولاق ، وأنزلوهم عند القبطان — وصحبتهم أبوهم أبو القاسم — فأقاموا أياما . ثم ان كتخدا بيك أمر بقطع أيدى الثلاثة ، وهم : محمد بن أبى القاسم الدرقاوى ، ورفيقه الصرماتى ، والصباغ الذى ثبتت عليه السرقة فى الحادثة الأخرى . فقطعوا أيدى الثلاثة فى بيت القبطان ، ثم أنزلوهم فى مركب ، وصحبتهم أبوهم أبو القاسم وولداه الآخران اللذان لم تقطع أيديهما ، وسفروهم الى الاسكندرية . وذلك فى منتصف شهر جمادى الأولى من السنة .

جمادى الآخرة

غرته (١٢ يونيه ١٨١٢ م) :

حضر الثلاثة أشخاص المقطوعين الأيدى . وذلك أنهم لما وصلوا الى الاسكندرية — وكان الباشا هناك — تشفع فيهم المتشفعون عنده قائلين : « انه جرى عليهم الحد بالقطع ، فلا حاجة الى نفيهم وتغريبهم » . فأمر بنفى أبى القاسم وولديه الصغار الى أبى قير . ورجع ولده الآخر مع رفيقه الصرماتى والصباغ الى مصر فحضروا اليها ، وذهبوا الى دورهم .

وأما ابن أبى القاسم فذهب الى داره ، وسلم على والدته ، ونزل الى السوق يطوف على أصحابه ويسلم عليهم ، وهو يتألم مما حصل فى نفسه ، ولا يظهر ذلك لشدة وقاحته وجمودة صدغه وغلاظة وجهه ... بل يظهر التجلد وعدم المبالاة بما وقع له من النكال وكسوف البال . ومر فى السوق والأطفال حوله وخلفه وأمامه ، يتفرجون عليه ، ويقولون : « انظروا الحرامى » ... وهو لايبالى بهم ، ولا يلتفت اليهم . حتى قيل انه ذهب الى مسجد خرب بالباطلية ، ودعا اليه غلاما يهواه بناحية الدرب الأحمر ، فجلس معه حصة من النهار ، ثم فارقه وذهب الى داره ! واشتد به الألم ، لأن الذى باشر قطع يده لم يحسن القطع ، فمات فى اليوم الثالث .

وفى هذا الشهر وما قبله : وردت عساكر كثيرة من الأتراك ، وعينوا للسفر ، وخرجوا الى مخيم العرضى ، خارج بابى النصر والفتوح ، فكانوا يخرجون مساء ، ويدخلون فى الصباح ، ويقع منهم

مايقع من أخذ الدواب ، وخطف بعض النساء والأولاد كعادتهم !

٢٢ منه (٣ يوليه ١٨١٢ م) :

حضر الباشا من الاسكندرية ليلا ، وصحبته حسن باشا ، الى القصر بشبرا وطلع فى صبحها الى القلعة . وضربوا لقدومه مدافع من الأبراج . فكان مدة غيبته فى هذه المدة شهرين وسبعة أيام . واجتهد فيها فى عمارة سور المدينة وأبراجها ، وحصنها تحصينا عظيما ، وجعل بها جبخانات وبارودا ومدافع وآلات حرب . ولم تزل العمارة مستمرة بعد خروجه منها على الرسم الذى رسمه لهم . وأخذ جميع ماورد عليه من مراكب التجار من البضائع على ذمته ، ثم باعه للمتسببين بما أحب من الثمن .

وورد من ناحية بلاد الافرنج كثير من البن الأفرنجى ، وحبه أخضر ، وجرمه أكبر من حب البن اليمنى الذى يأتى الى مصر فى مراكب الحجاز ... آخذه فى جملة ما أخذ فى معاوضة الغلال ،ورماه على باعة البن بمصر بثلاثة وعشرين فرانسة القنطار والتجار يبيعونه بالزيادة ، ويخلطونه مع البن اليمنى

وفى ابتداء وروده كان يباع رخيصا ، لأنه دون البن اليمنى فى الطعم واللذة فى شربه وتعاطيه ، وبينهما فرق ظاهر يدركه صاحب الكيف ألبته .

وفيه : وصل مرسوم صحبة قابجى من الديار الرومية . مضمونه : وكالة دار السعادة باسم كتخدا بيك ، وعزل عثمان أغا الوكيل تابع سعيد أغا .

فعمل الباشا ديوانا يوم الأحد ،وقرىء المرسوم، وخلع على كتخدا بيك خلعة الوكالة وخلعة أخرى باستمراره فى الكتخدائية على عادته ، وركب فى موكب الى داره .

فلما استقر فى ذلك ، أرسل فى ثانى يوم فأحضر الكتبة من بيت عثمان أغا ، وأمرهم بعمل حسابه من ابتداء سنة ١٢٢١ لغاية تاريخه . فشرعوا فى ذلك . وأصبح عثمان أغا المذكور مسلوب النعمة بالنسبة لما كان فيه ، ويطالب بما دخل فى طرفه ، وانتزعت منه بلاد الوكالة وتعلقات الحرمين وأوقافهما وغير ذلك .

غايته (١٠ يوليه ١٨١٢ م) :

وصل صالح قوج ومحو بيك وسليمان أغا وخليل أغا ، من ناحية الينبع على طريق القصير من الجهة القبلية ، وذهبوا الى دورهم .

رجب

٣ منه (١٢ يولية ١٨١٢ م) :

طلع الجماعة الواصلون الى القلعة ، وسلموا على الباشا ... وخاطره منحرف منهم ومتكدر عليهم ، لأنه طلبهم للحضور مجردين بدون عساكرهم ليتشاور معهم ، فحضروا بجملة عساكرهم . وقد كان ثبت عنده أنهم هم الذين كانوا سببا للهزيمة : لمخالفتهم على ابنه ، واضطراب رأيهم ، وتقصيرهم فى نفقات العساكر ، ومبادرتهم للهرب والهزيمة عند اللقاء ، ونزولهم بخاصتهم الى المراكب ، وما حصل بينهم وبين ابنه طوسون باشا من المكالمات . فلم يزالوا مقيمين فى بيوتهم ببولاق ومصر ... والأمر بينهم وبين الباشا على السكوت نحو العشرين يوما ، وأمرهم فى ارتجاج واضطراب ، وعساكرهم مجتمعة حولهم . ثم ان الباشا أمر بقطع خرجهم وعلائفهم فعند ذلك تحققوا منه المقاطعة .

٢٤ منه (٣ أغسطس ١٨١٢ م) :

أرسل اليهم علائفهم المنكسرة — وقدرها ألف

وثمانمائة كيس ، جميعها ريالات فرانسة — وأمر بحملها على الجمال ، ووجه اليهم بالسفر . فشرعوا في بيع بلادهم وتعلقاتهم ، وضاق ذرعهم ، وتكدر طبعهم الى الغـــاية ، وعسر عليهم مفـارقة أرض مصر ، وما صـــاروا فيـــه من التنعم والرفاهيـــة والســـيادة والامارة ، والتصرف في الأحـــكام والمساكن العظيمة ، والزوجات والسرارى والخدم ، والعبيد والجوارى ... فان الأقل منهم له البيتان والثلاثة من بيوت الأمراء ، ونسائهم اللاتي قتلت أزواجهن على أيديهم وظنوا أن البـــلاد صفت لهم ... حتى أن النساء المترفهات ، ذوات البيوت والايرادات والالتزامات ، صرن يعرضن أنفسهن عليهم ليحتمين فيهم ، بعد أن كن يعفنهم ، ويأنفن من ذكرهم ... فضلا عن قربهم

وفيه : ورد أغا قابجى من دار السلطنة وعلى يده مرسوم بالبشارة بمولود ولد للسطان . فعملوا ديوانا يوم الأحـــد رابع عشرينه ، وطلـــع الأغا المـــذكور في موكب الى القلعـــة ، وقرىء ذلك المرســـوم ، وصحبته الأمراء ، وضربوا شـــنكا ومدافع ، واستمروا على ذلك ثلاثة أيام في وقت كل أذان كأيام الأعياد .

٢٥ منه (٤ اغسطس ١٨١٢ م) :

مات أحمد بيك — وهو من عظمـــاء الأرنؤود وأركانهم — وكان عنـــدما بلغـــه قطـــع خرج المذكورين ، أرسل الى الباشا يقول له : « اقطع خرجى ، وأعطنى علوفة عســـاكرى وأسافر مـــع اخوانى . فمنعه الباشا ، وأظهر الرأفة به . فتغـــير طبعه ، وزاد قهره ، وتمرض جسمه . فأرسل اليه الباشا حكيمه ، فسقاه شربة ، وافتصده ... فمات من ليلته فخرجوا بجنـــازته من بولاق ودفنوه بالقرافة الصغرى ، وخرج أمامه صالح أغا وسليمان أغا وطـــاهر أغا ، وهم راكبون أمامه ، وطوائف الأرنؤود .. بعدد كبير مشاة حوله .

شعبـــان

٤ منه (١٣ اغسطس ١٨١٢ م — ٧ مسرى ١٥٢٨ ق):

اوفى النيل المبارك أذرعه ، ونزل الباشا في صبح يوم الخميس في جم غفير ، وعدة وافرة من العساكر . وكسر السد بحضرته وحضرة القاضى ، وجرى الماء في الخليج ، ومنع المراكب من دخولهم الخليج .

١٥ منه (٢٤ اغسطس ١٨١٢ م) :

سافر سليمان أغا ومحو بيك ، بعد أن قضوا أشغالهم ، وباعوا تعلقاتهم ، وقبضوا علائفهم .

١٩ منه (٢٨ اغسطس ١٨١٢ م) :

سافر صالح أغا قوج ، وصحبته نحـــو المائتين ممن اختارهم من عساكره الأرنؤودية ، وتفرق عنه الباقون ، وانضموا الى حسن باشا وأخيه عابدين بيك وغيرهما .

٢٠ منه (٢٩ اغسطس ١٨١٢ م) :

برزت خيام الباشا الى خارج باب النصر ، وعزم على الخروج والسفر بنفسه الى الحجاز . وقـــد اطمأن خاطره عندما سافر الجماعة المذكورون ... لأنه لما قطع خرجهم ورواتبهم ، وأمرهم بالسفر ، جمعوا عساكرهم اليهم وخيولهم ، وأخذوا الدور والبيوت ببولاق وسكنوها ، وصارت لهم صورة هائلة . وكثرت القالة ، وتخوف الباشا منهم وتحذر ، ونبه على خاصـــته وسفاشيته وغـــيرهم بالملازمة والمبيت بالقلعة ، وغير ذلك .

٢١ منه (٣٠ اغسطس ١٨١٢ م) :

اجتمعت العســـــاكر ، وانجر الموكب من باكر النهار : فكان أولهم طوائف الدلاة ، ثم العســـاكر وأكابرهم ، وحسن باشا وأخوه عابدين بيك ، وهو

ماش على أقدامه فى طوائفه أمام الباشا ، ثم الباشا ، وكتخدا بيك وأغواتهم الصقلية وطوائفهم ، وخلفهم الطبلخانات . وعند ركوبه من القلعة ، ضربوا عدة مدافع . فكان مدة مروهم نحو خمس ساعات . وجروا أمام الموكب ثمانية عشر مدفعا وثلاث قنابر .

رمضـــان

٢٤ منه (اول اكتوبر ١٨١٢ م) :

وردت هجانة مبشرون باستيلاء الأتراك على عقبة الصفراء والجديدة من غير حرب ... بل بالمخادعة والمصالحة مع العرب ، وتدبير شريف مكة ، ولم يجدوا بها أحدا من الوهابيين . فعندما وصلت هذه البشارة ، ضربوا مدافع كثيرة تلك الليلة من القلعة ، وظهر فيهم الفرح والسرور .

وفى تلك الليلة : حضر أحمد أغا لاظ ، حاكم قنا ونواحيها . وكان من خبره : أنه لما وصلت اليه الجماعة الذين سافروا فى الشهر الماضى ، وهم : صالح أغا ، وسليمان أغا ، ومحو بيك ، ومن معهم ، واجتمعوا على المذكور بثوا شكواهم ، وأسروا نجواهم ، وأضمروا فى نفوسهم أنهم اذا وصلوا الى مصر ووجدوا الباشا منحرفا منهم ، أو أمرهم بالخروج والعود الى الحجاز ... امتنعوا عليه وخالفوه . وان قطع خرجهم ، وأعطاهم علائفهم ، بارزوه ونابذوه وحاربوه .

واتفق أحمد أغا المذكور معهم على ذلك ، وأنه متى حصل هذا المذكور ، أرسلوا اليه فيأتيهم على الفور بعسكره وجنده ، وينضم اليه الكثير من المقيمين بمصر من طوائف الأرنؤود : كعابدين بيك ، وحسن باشا وغيرهم ، بعساكرهم لاتحاد الجنسية .

فلما حصل وصول المذكورين ، وقطع الباشا رواتبهم وخرجهم ، وأعطاهم علائفهم المنكسرة ، وأمرهم بالسفر ، أرسلوا لأحمد أغا لاظ المذكور بالحضور ... بحكم اتفاقهم معه . فتقاعس وأحب أن يبدى لنفسه عذرا فى شقاقه مع الباشا ، فأرسل اليه مكتوبا يقول له فيه : « ان كنت قطعت خرج اخوانى ، وعزمت على سفرهم من مصر واخراجهم منها فاقطع أيضا خرجى ودعنى أسافر معهم » . فأخفى الباشا تلك المكاتبة ، وأخر عود الرسول — ويقال له الخجا — لعلمه بما أضمروه فيما بينهم ، حتى أعطى للمذكورين علائفهم على الكامل ، ودفع لصالح أغا كل ما طلبه وادعاه ... حتى أنه كان أنشأ مسجدا بساحل بولاق بجوار داره ، وبنى له منارة ظريفة ، واشترى له عقارا وأمكنة وقفها على مصالح ذلك المسجد وشعائره . فدفع له الباشا جميع ما صرفه عليه وثمن العقار وغيره ، ولم يترك لهم مطالبة يحتجون بها فى التأخير . وأعطى الكثير من رواتبهم لحسن باشا وعابدين بيك أخيه ، فمالوا عنهم ، وفارقهم الكثير من عسكرهم ، وانضموا الى أجناسهم المقيمين عند حسن باشا وأخيه ، فرتبوا لهم العلائف معهم . وأكثرهم مستوطنون ومتزوجون ، بل ومتناسلون ، ويصعب عليهم مفارقة الوطن وما صاروا فيه من التنعم ، ولا يهون بمطلق الحيوان استبدال النعيم بالجحيم ! ويعلمون عاقبة ما هم صائرون اليه ... لأنه — فيما بلغنا — أن من سافر منهم الى بلاده ، قبض عليه حاكمها ، وأخذ منه ما معه من المال الذى جمعه من مصر وما معه من المتاع ، وأودعه السجن ... ويفرض عليه قدرا ، فلا يطلقه حتى يقوم بدفعه ، على ظن أن يكون أودع شيئا عند غيره ، فيشترى نفسه به ، أو يشتريه أقاربه ، أو يرسل الى مصر مراسلة لعشيرته وأقاربه ... فتأخذهم عليه الغيرة ، فيرسلون له ما فرض عليه ويفتدونه ، والا فيموت بالسجن ، أو يطلق مجردا ويرجع الى حالته التى كان عليها فى السابق ! من الخدم المتهنة ، والاحتطاب من الجبل ، والتكسب بالصنائع الدنيئة

ببيع الأسقاط والكروش والمؤاجرة فى حمل الأمتعة ونحو ذلك .

فلذلك يختارون الاقامة ، ويتركون مخادعهم ... خصوصا والخسة من طباعهم !

هذا والباشا يستحث صالح أغا ورفقاءه فى الرحيل حيث لم يبق له عذر فى التأخير .

فعندما نزلوا فى المراكب ، وانحدروا فى النيل ... أحضر الباشا الخجا المذكور — وهو عبارة عن الأفندى المخصوص بكتابة سره وايراده ومصرفه — وأعطاه جواب الرسالة ، مضمونها : تطمينه وتأمينه ، ويذكر له أنه صعب عليه ، وتأثر من طلبه المقاطعة وطلبه المفارقة . وعدد له أسباب انحرافه عن صالح أغا ورفقائه ، وما استوجبوا به ما حصل لهم من الاخراج والابعاد . وأما هو فلم يحصل منه ما يوجب ذلك ، وأنه باق على ما يعهده من المودة والمحبة . فان كان ولابد من قصده وسفره ، فهو لايمنعه من ذلك ، فيأتى بجميع أتباعه ويتوجه بالسلامة أينما شاء .. والا بأن صرف عن نفسه هذا الهاجس ، فليحضر فى القنجة فى قلة ، ويترك وطافه وأتباعه ليواجهه ويتحدث معه فى مشورته وانتظام أموره التى لا يتحملها هذا الكتاب ، ويعود الى محل ولايته وحكمه مكرما .

فراج عليه ذلك التمويه ، وركن الى زخرف القول ، وظن أن الباشا لا يصله بمكروه ، ولا يواجهه بقبيح من القول ، فضلا عن الفعل ، لأنه كان عظيما فيهم ، ومن الرؤساء المعدودين ، صاحب همة وشهامة واقدام ، جسورا فى الحروب والخطوب ... وهو الذى مهد البلاد القبلية ، وأخلاها من الأجناد المصرية . فلما خلت الديار منهم ، واستقر هو بقنا وقوص ، وهو مطلق التصرف ، وصالح أغا قوج بالأسيوطية .

ثم ان الباشا وجه صالح أغا الى الحجاز ، وقلد ابنه ابراهيم باشا ولاية الصعيد . فكان يناقض عليه أحمد أغا المذكور فى أفعاله ، ويمانعه التعدى على أطيان الناس وأرزاق الأوقاف والمساجد ، ويحل عقد ابراماته . فيرسل الى أبيه بالأخبار ، فيحقد ذلك فى نفسه ، ويظهر خلافه ويتغافل .

وأحمد أغا المذكور على جليته وخلوص نيته ، فلما وصلته الرسالة ، اعتقد صدقه ، وبادر بالحضور فى قلة من أتباعه حسب اشارته . وطلع الى القلعة ليلة السبت ، وهى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان ، فعبر عند الباشا وسلم عليه ، فحادثه وعاتبه ، ونقم عليه أشياء ، وهو يجاوبه ويرادده ، حتى ظهر عليه الغيظ .

فقام كتخدا بيك وابراهيم أغا فأخذاه وخرجا من عند الباشا ، ودخلا الى مجلس ابراهيم أغا ، وجلسوا يتحدثون ، وصار الكتخدا وابراهيم أغا يلطفان معه القول ، وأشارا عليه بأن يستمر معهما الى وقت السحور وسكون حدة الباشا ، فيدخلون اليه ، ويتسحرون معه . فأجابهم الى رأيهم ، وأمر من كان بصحبته من العسكر — وهم نحو الخمسين — بالنزول الى محلهم . فامتنع كبيرهم ، وقال : « لا نذهب ونتركك وحيدا » . فقال الكتخدا : « وما الذى يصيبه ، وهو همشرى ومن بلدى ، وان أصيب بشىء كنت أنا قبله !؟ » فعند ذلك نزلوا وفارقوه ، وبقى عنده من لا يستغنى عنه فى الخدمة .

فعند ذلك أتاه من يستدعيه الى الباشا .. فلما كان خارج المجلس ، قبضوا عليه ، وأخذوا سيفه وسلاحه ، ونزلوا به الى تحت سلم الركوب . وأشعل الضوى المشعل ، وأداروا كتافه ورموا رقبته ، ورفعوه فى الحال ، وغسلوه وكفنوه ودفنوه ... وذلك فى سادس ساعة من الليل .

وأصبح الخبر شائعا فى المدينة . وأحضر الباشا

الخجا ، وطولب بالتعريف عن أمواله وودائعه ، وعين فى الحال باشجاويش ليذهب الى قتسا ، ويختم علـى داره ، ويضبط ما له من الغلال والأموال . وطلبت الودائع ممن هى عنـده التى استدلوا عليها بالأوراق . فظهر له ودائع فى عدة أماكن ، وصناديق مال ، وغير ذلك . ولم يتعرض لمنزله ولا لحريمه .

شـوال

٤ منه (١١ اكتوبر ١٨١٢ م) :

قدم قابجى من اسلامبول ، وعلى يده مقـرر للباشا بولاية مصر على السنة الجديدة ، ومعه فروة لخصوص الباشا . فلما وصـل الى بولاق ، فنزل كتخـدا بيك لملاقاته . فركب فى موكب جليـل ، وخلفه النوبة التركية ، وشـق من وسـط البلد وصعد الى القلعة . وحضر الأشياخ وأكابر دولتهم ، وقرىء المرسـوم بحضرة الجميع . فلما انقضى الديوان ، ضربوا عدة مدافع من القلعة .

وفيه : ألبس شيخ السادات ابن أخيه سـيدى أحمد خلعة وتاجا ، وجعله وكيلا عنه فى نقـابة الأشراف ، وأركبه فرسا بعباءة ، ومشى أمامه أيضا الجاويشية المختصون بنقيب الأشراف . وأمره بأن يذهب الى الباشا ويقابله ليخلع عليه ، وأرسل صحبته محمد أفندى ، فقال : « مبارك » . وأشار اليه محمد أفندى بأن يخلع عليه فروة . فقـال الباشا : « ان عمه جعله نائبا عنه ووكيلا . فليس له عنـدى تلبيس لأنه لم يتقلدها بالأصـالة من عندى » . فقام ونزل من غير شيء الى داره بجوار المشهد الحسينى .

٢٣ منه (٣٠ اكتوبر ١٨١٢ م) :

سافر مصطفى بيك دالى باشـا بجميـع الدلاة وغيرهم من العسكر الى الحجاز .

وحصل للناس فى هـذا الشهر عدة كربات ، منها — وهو أعظمها — عدم وجود الماء العذب ، وذلك فى وقت النيل وجريان الخليج من وسـط المدينة ، حتى كاد الناس يموتون عطشا ... وذلك بسبب أخذهم الحمير للسخرة ، والرجال لخـدمة العسكر المسافرين ، وغلو ثمن القرب التى تشترى لنقل الماء .

فان الباشا أخذ جميع القرب الموجودة بالوكالة ، عند الخليلية ، وما كان بغيرها أيضا ... حتى أرسل الى القدس والخليل ، فأحضر جميع ما كان بهما وبلغت الغاية فى غلو الأثمان ، حتى بيعت القربة الواحدة ، التى كان ثمنها مائة وخمسين نصفا ، بألف وخمسمائة نصف . ويأخذون أيضا الجمال التى تنقل الماء بالروايا الى الأسبلة والصهاريج وغيرهما من الخليج ، فامتنع الجميع عن السراح والخروج .

واحتاج العسكر أيضا الى الماء ، فوقفوا بالطرق يرصدون مرور السقائين أو غيرهم من الفقراء الذين ينقلون الماء بالبلاليص والجرار عـلى رؤوسهم . فيوجد على كل موردة من الموارد عدة من العسكر ، وهم واقفون بالأسلحة ، ينتظـرون من ستقى من السقائين أو غيرهم . فكان الخدم والنسـاء والفقراء والبنـات والصبيان ينقلون بطول النهار والليل بالأوعية الكبيرة والصـغيرة على رؤوسهم بمقدار ما يكفيهم للشرب . وبيعت القربة الواحدة بخمسـة عشر نصف فضة وأكثر ، وشح وجود اللحم ، وغلا فى الثمن زيادة على غلو سـعره المستمر ، حتى بيع بثمانية عشر نصف فضـة كل رطل ... هذا ان وجد ، والجاموس الجفيط بأربعة عشر .

وطلبوا للسفر طائفة من القبانية ومن الخبازين ومن أرباب الصنائع والحرف ، وشددوا عليهم

الطلب فى أواخر الشهر ، فتغيبوا وهربوا ، فسمرت بيوتهم وحوانيتهم ... وكذلك الخبازون والفرانون بالطوابين والأفران ، حتى عدم الخبز من الأسواق ، ولم يجد أصحاب البيوت فرنا يخبزون فيه عجينهم . فمن الناس ، القادرين على الوقود ، من يخبز عجينه فى داره أو عند جاره الذى يكون عنده فرن ، أو عند بعض الفرانين التى تكون فرنه بداخل عطفة مستورة خفية ، أو ليلا من الخوف من العسس والمرصدين لهم . وكذلك عدم وجود التبن بسبب رصد العسكر فى الطرق لأخذ ما يأتى به الفلاحون من الأرياف ، فيخطفونه قبل وصوله الى المدينة . وحصل بسبب هذه الأحوال المذكورة شبكات ومشاجرات ، وضرب وقتل وتجريح أبدان ... ولولا خوف العسكر من الباشا ، وشدته عليهم ، حتى بالقتل اذا وصلت الشكوى اليه ، لحصل أكثر من ذلك .

ذو القعدة

الخميس ٧ منه (١٢ نوفمبر ١٨١٢ م) :

سافر الباشا هجانا الى السويس وصحبته حسن باشا .

الجمعة ١٥ منه (٢٠ نوفمبر ١٨١٢) :

وصل مبشرون من ناحية الحجاز ، وهم أتراك على الهجن ، والخبر عنهم أن عساكرهم وصلوا الى المدينة المنورة ونزلوا بفنائها .

الاحد ١٧ منه (٢٢ نوفمبر ١٨١٢ م) :

رجع الباشا من ناحية السويس الى مصر .

وفيه : وردت أخبار لطائفة الفرنساوية وقنصلهم المقيمين بمصر بأن « بونابارته » وعساكر الفرنساوية ، زحفوا فى جمع عظيم على بلاد المسكوب ، ووقع بينهم حروب عظيمة ، فكانت الهزيمة على المسكوب ، وانكسروا كسرة قوية وكتبوا بذلك أوراقا ، والصقوها بحيطان دوائرهم وحاراتهم . ولما حضر الباشا طلع اليه القنصل ، وأخبره بتلك الأخبار ، وأطلعه على الكتب الواردة من بلادهم .

الثلاثاء ١٩ منه (٢٤ نوفمبر ١٨١٢ م) :

عدى الباشا الى بر الجيزة ، وأمر بخروج العساكر الى البر الغربى . وعدى أيضا كتخدا بيك ... وذلك بسبب أن عربان أولاد على نزلوا بناحية الفيوم بجمع عظيم ، وأكلوا الزروعات فخرج اليهم حسن أغا الشماشرجى ، فوزن نفسه معهم ، فرأى أنه لا يقاومهم لكثرتهم ، فحضر الى مصر وأخبر الباشا .

وتحرك الباشا للخروج اليهم ، ثم بعقيبه أرسل لهم وخادعهم . فحضر اليه عظماؤهم ، فأخذ منهم رهائن ، وخلع عليهم وكساهم ، وأعطاهم راحتهم ، وعين لهم جهات ، وشرط عليهم ألا يتعدوها . ثم رجع وعدى الى بر مصر فى ليلة الخميس حادى عشرينه .

الثلاثاء ٢٦ منه (اول ديسمبر ١٨١٢ م) :

نهب العرب القافلة القادمة من السويس بحمل بضائع التجار وغيرهم ، وقتلوا العسكر الذين بصحبتهم وخفارتهم ، وأخذوا الجمال بأحمالها ، وذهبوا بها لناحية الوادى .

والجمال المذكورة على ملك الباشا وأتباعه ... لأنهم سيروا لهم جمالا وأعدوها لحمل البضائع ، ويأخذون أجرتها لأنفسهم بدلا عن جمال العرب ! وذلك من جملة الأمور التى احتكروها طمعا وحسدا فى كل شيء . ولم ينج من الجمال الا البعض الذين سبقوهم ، وهم لكتخدا بيك . فحنق لذلك الباشا ، وأرسل فى الحال مراسلات الى سليمان باشا محافظ عكا يعلمه بذلك ، ويلزمه باحضارها ، ويتوعده ان ضاع منها عقال بعير ... والذى ذهب بالمراسلة ابراهيم أفندى المهردار .

ذو الحجة

١٠ منه (١٥ ديسمبر ١٨١٢ م) :

وردت هجانة من ناحية الحجاز ، وعلى يدهم البشائر بالاستيلاء على قلعة المدينة المنورة ، ونزول المتولى بها على حكمهم ، وأن القاصد الذى أتت بشائره وصل الى السويس وصحبته مفاتيح المدينة . فحصل للباشا بذلك سرور عظيم . وضربوا مدافع وشنكا بعد مدافع العيد وانتشرت المبشرون على بيوت الأعيان لأجل أخذ البقاشيش !

١١ منه (١٦ ديسمبر ١٨١٢ م) :

وصل القادمون الى العادلية ، فعملوا لقدومهم شنكا عظيما ، وضربوا مدافع كثيرة من القلعة وبولاق والجيزة وخارج قبة العزب حيث العرضى المعد للسفر ، وأيضا ضربوا بنادق كثيرة متتابعة من جميع الجهات ، حتى من أسطحة البيوت الساكنين بها ، واستمر ذلك أكثر من ساعتين فلكيتين .. فكان شيئا مهولا مزعجا . وأشيع فى الناس دخول الواصلين فى موكب ، واختلفت رواياتهم .

وخرج الباشا الى ناحية العادلية ، فاصطف الناس على مساطب الدكاكين والسقائف للفرجة . فلما كان قريب الغروب ، دخل طائفة من العسكر ، وصحبتهم بعض أشخاص راكبين على الهجن ، وفى يد أحدهم كيس أخضر ، وبيد الآخر كيس أحمر ، بداخلهما المكاتبات والمفاتيح . وعاد الباشا من ليلته وصعد الى القلعة .

هذا والمدافع والشنك يعمل فى كل وقت من الأوقات الخمسة ، وفى الليل .

١٢ منه (١٧ ديسمبر ١٨١٢ م) :

شق الأغا والوالى وأغات التبديل ، وأمامهم المناداة على الناس بتزيين الأسواق وما فيها من الحوانيت والدور ، ووقود قناديل وتعاليق ، ويسهرون ثلاث ليال بأيامها : أولها يوم الخميس ، وآخرها يوم السبت الذى هو خامس عشره وأخرجوا وطاقات وخياما الى خارج بابى النصر والفتوح .

وخرج الباشا فى ثانى يوم الى ناحية العادلية — وهو ليلة يوم الزينة — وعملوا حراقات وتفوطا وسواريخ ومدافع من كل ناحية مدة أيام الزينة وكتبت البشائر الى جميع النواحى ، وأنعم الباشا بأمريات ومناصب على عشرين شخصا من خواصه ، وعين لطيف بيك ، أغات المفتاح ، للتوجه الى دار السلطنة بالبشائر والمفاتيح صحبته وسافر فى صبح يوم الزينة على طريق البر ، وتعين خلافه أيضا للسفر بالبشائر الى البلاد الرومية والشامية والأساكل الاسلامية : مثل بلاد الأنضول والروملى ورودس وسلانيك وآزمير وكريت وغيرها .

اواخره (اوائل يناير ١٨١٢ م) :

وردت الأخبار المترادفة بوقوع الطاعون الكثير باسلامبول . فأشار الحكماء على الباشا بعمل كورنتيلة بالاسكندرية على قاعدة اصطلاح الافرنج ببلادهم . فلا يدعون أحدا من المسافرين والواردين فى المراكب من الديار الرومية يصعد الى البر الا بعد مضى أربعين يوما من وروده . واذا مات بالمركب أحد فى أثناء المدة استأنفوا الأربعين

وفيه : أوشى بعض اليهود على الحاج سالم الجواهرجى — المباشر لايراد الذهب والفضة الى الضربخانة ، وانعزل عنها كما ذكر فى وسط السنة ، وذلك عند ورود الرجل النصرانى الدرزى الشامى — بأنه كان فى أيام مباشرته للايراد يضرب لنفسه دنانير خارجة عن حساب الميرى خاصة به ،

فأمر الباشا باثبات ذلك وتحقيقه . فحصل كلام كثير .. والحاج سالم يجحد ذلك وينكره . فقال له : « أيوب تابعك الذى كان ينزل آخر النهار بالخرج على حماره فى كل يوم بحجة الأنصاف العددية التى يفرقها على الصيارف بالمدينة .. وأكثر ما فى الخروج خاص بك » . فأحضروا أيوب المذكور ، وطلبوه للشهادة . فقال : « لا أشهد بما لا أعلم . ولم يحصل هذا مطلقا ، ولا يجوز لى ، ولا يخلصنى من الله أن أتهم الرجل بالباطل » . فقال اليهودى : « هذا رفيقه وصاحبه وخادمه ، ولا يمكنه أنه يخبر ويقر الا اذا خوف وعوقب . واذا ثبت قولى ، فانه يطلع عليه ستة آلاف كيس » .

فلما سمع الباشا قول اليهودى « ستة آلاف كيس » ، أمر بحبس الحاج سالم ، ثم أحضروا اخوته والحاج أيوب وسجنوهم وضربوهم ... والباشا يطلب ستة آلاف كيس كما قال اليهودى ! واستمروا على ذلك أياما . وذلك الحبس عند قرا على بجوار بيت الحريم بالأزبكية .

وسبب خصومة شمعون اليهودى مع الحاج سالم : أنهم احتجوا على اليهودى بأشياء ، وقرروا عليه غرامة أيضا . فطلب من الحاج سالم المساعدة ، وقال له : « ساعدنى كما ساعدتك فى غرامتك » . فقال الحاج سالم : « انك لم تساعدنى بمال من عندك ، بل هو من حسابى معك » . فقال اليهودى : « ألست كنت أدارى عليك فيما تفعله ؟ » .

واتسع الكلام بينهما ... وحضرة الباشا وأعوانه مترقبون لحادث يستخرجون به الأموال بأى وجه كان ، ويتقولون ويوقعون بين هذا وهذا . والناس أعداء لبعضهم البعض .. تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى !

ثم ان السيد محمد المحروقى خاطب الباشا فى شأن الحاج سالم ، وحلف له أن الغرامة الأولى تأخر عليه منها ثلاثمائة كيس ، استدانها من الأوروبيين ، ودفعها ، وهى باقية عليه الى الآن ومطلوبة منه ... وذلك بعد أن باع أملاكه وحصة التزامه . فاذا كان ولابد من تغريمه ثانيا فاننا نمهل أصحاب الديون ، ونقوم بدفع الثلثمائة كيس المطلوبة للمداينين وندفعها للخزينة . فأجابه لذلك ، وأمر بالافراج عن الحاج سالم واخوته ومن معه . فدفعوا لقرا على المتولى سجنهم وعقوبتهم واتباعه سبعة أكياس .

وفيه : اشتد الأمر على اسماعيل أفندى أمين عيار الضربخانة وأولاده ، بالطلب من أرباب الحوالات ، مثل دالى باشا وخلافه . وضيق العسكر المعينون عليهم منافسهم ، ولازموا دورهم ، ولم يجدوا شافعا ولا دافعا ولا رافعا ، فباعوا أملاكهم وعقاراتهم وفراشهم ومصاغ حريمهم وأوانيهم وملابسهم .

وكان الباشا أخذ من اسماعيل أفندى المذكور داره التى بالقلعة عندما انتقل الى القلعة ، فأمره باخلائها ففعل ، ونزل الى دار بحارة الروم بالقرب من دار ابنه محمد أفندى ، فاتخذ الباشا دار اسماعيل أفندى دارا لحريمه ، وأسكنهم بها لأنها دار عظيمة جليلة .. عمرها المذكور وصرف عليها فى الأيام الخالية أموالا جمة . فلما استولى عليها الباشا ، أسكن بها حريمه وجواريه وسراريه . ولما قرر عليه غرامته ، أسقط عنه منها عشرين كيسا لا غير وجعلها فى ثمن داره المذكورة ... وذلك لا يقوم بثمن رخامها فقط !

فلما اشتد الحال باسماعيل أفندى أشار عليه بعض المتشفعين بأن يكتب له عرضحالا ، ويطلع به الى الباشا صحبة المعلم غالى ، كبير الأقباط المباشرين ، ففعل ، ودخل معه المعلم غالى الى الباشا . فعندما رآه مقبلا صحبة المذكور ، أشار

اليه بالرجوع ، ولم يدعه يتكلم فرجع بقهره ، ونزل الى داره فمرض وتوفى بعد أيام الى رحمة الله تعالى .

ومات قبله ولده حسن أفندى ، وبقى جميع الطلب على ولده محمد أفندى . فحصل له مشقة زائدة ، وباع أثاث بيته وأوانيه وكتبه التى اقتناها وحصلها بالشراء والاستكتاب ، فباعها بأبخس الأثمان على الصحافين وغيرهم . وطال عليه الحال ، وانقضت مواعيد المداينين له ، فطالبوه وكربوه ، فتداين من غيرهم بالربا والزيادة ... وهكذا . والله يحسن لنا وله العاقبة .

وفيه : قدم الى الاسكندرية قليون من بلاد الانكليز فيه بضائع وأشياء للباشا ، ومنها خمسون ألف كيس نقودا ثمن غلال وخيول يأخذونها من مصر الى بلادهم . فطفقوا يطلبون لهم الخيول من أربابها ، فيقيسون طولها وعرضها وقوائمها بالأشبار .. فان وجدوا ما يوافق غرضهم ومطلوبهم فى القياس والقيافة ، أخذوه ... ولو بأغلى ثمن ، والا تركوه .

وفيه أيضا : أرسل الباشا لجميع كشاف الوجه القبلى بحجز جميع الغلال والحجر عليها لطرفه : فلا يدعون أحدا يبيع ولا يشترى شيئا منها ، ولا يسافر بشىء منها فى مركب مطلقا . ثم طلبوا ما عند أهل البلاد من الغلال ، حتى ما هو مدخر فى دورهم للقوت ، فأخذوه أيضا ! ثم زادوا فى الأمر حتى صاروا يكبسون الدور ويأخذون ما يجدون من الغلال ، قل أو كثر ، ولا يدفعون له ثمنا ، بل يقولون لهم : « نحسب لكم ثمنه من مال السنة القابلة » ! ويشحنون بذلك جميع مراكب الباشا التى استجدها وأعدها لنقل الغلال ، ثم يسيرون بها الى بحرى فتنقل الى مراكب الافرنج بحساب مائة قرش عن كل أردب .

وانقضت السنة ولم تنقض حوادثها ... بل استمر ماحدث بها كالتى قبلها وزيادة :

فمنها ما أحاط به علمنا وذكرنا بعضه ، ومنها ما لم يحط به علمنا أو أحاط ونسيناه بحدوث غيره قبل التثبت .

ومنها : أن الباشا عمل ترسخانة عظيمة بساحل بولاق ، واتخذ عدة مراكب بالاسكندرية لخصوص جلب الأخشاب المتنوعة ، وكذلك الحطب الرومى ، من أماكنها على ذمته ، ويبيعه على الحطابين بما حدده عليهم من الثمن ، ويحمل فى المراكب المختصة به بأجرة محددة أيضا ، ويأتى الى ديوان الكمرك ببولاق فيؤخذ كمركه — أى مكسه — وهو راجع اليه أيضا ... الى أن استقر سعر القنطار الواحد من الحطب بثلثمائة وخمسة عشر نصف فضة ، وأجرة حمله من بولاق الى مصر ثلاثة عشر نصف فضة ، وأجرة تكسيره مثل ذلك . فيكون مجموع ذلك ثلثمائة وأربعين نصف فضة القنطار ! وقد اشتريناه قبل استيلاء هذه الدولة بثلاثين نصفا ، وأجرة حمله فى المركب عشرة أنصاف ، وأجرته من بولاق الى مصر ثلاثة أنصاف ، وتكسيره كذلك ، فيكون مجموع ذلك ستة وأربعين نصفا .

وكذلك فعل فى أنواع الأخشاب الكرستة والحديد والرصاص والقصدير وجميع المجلوبات واستمر ينشىء فى المراكب الكبار والصغار التى تسرح فى النيل من قبلى الى بحرى ومن بحرى الى قبلى ، ولا يبطل الانشاء والأعمال والعمل على الدوام . وكل ذلك على ذمته ، ومرمتها وعمارتها ولوازمها وملاحيوها بأجرتهم على طرفه ... لا بالضمان كما كان فى السابق . ولهم قومة ومباشرون متقيدون بذلك الليل والنهار .

ومنها — وهى من الحوادث الغريبة التى لم يتفق فى هذه الأعصار مثلها — : أن فى أواخر

ربيع الآخر احترق بحر النيل ، وجف بحر بولاق ، وكثرت فيه الرمال وعلت فوق بعضها حتى صارت مثل التلول ، وانحسر الماء حتى كان الناس يمشون الى قريب امبابة بمداساتهم ... وكذلك بحر مصر القديمة بقى مخاضا . وفقدت أهل القاهرة المـاء الحلو ، واشـتد بالنـاس العطش بسبب ذلك ، وبسبب تسخير السقائين . ونادى الأغا والوالى على أن يكون حمل القربة للمكان البعيـد باثنى عشر نصف فضة .

واستهل شهر بشنس القبطى فزاد النيل فى أوله ، فى ليلة واحدة ، نحو ذراع . ثم كان يزيد فى كل يوم وليلة مثل دفعات أواخر أبيب ومسرى . وجرى بحر بولاق ومصر القديمة ، وغطى الرمال ، وسارت فيه المراكب الكبار منحـدرة ومقلعـة ، وغرقت المقاثىء مثـل : البطيخ والخيار والعبداللاوى ، وما كان مزروعا بالسواحل — وهو شىء كثـير جدا — واستمرت الزيادة نحو عشرين يوما ، حتى تغير وابيض وكاد يحمر .

وداخـل النـاس من ذلك وهـم عظيـم من هذه الزيادة التى فى غير وقتها ، حتى اعتقـدوا أنه يوفى أذرع الوفاء قبـل نزول النقطة ... ولم يعهد مثل ذلك !. وكان ذلك رحمة من الله بعبيده الفقراء العطاش .

ثم انى طالعت فى تاريخ الحـافظ المقريزى ، المسمى بالسلوك فى دول الملوك ، فذكر مثل هذه النادرة فى سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة .

ولما ترادفت هذه الزيادات ، خرج الوالى الى قنطرة السد ، وجمع الفعلة للعمل فى سد فم الخليج ، ونادى على نزح الخليج وتنظيفه وكسح أوساخه وقطع أرضه . ثم وقفت الزيادة ، بل نقص قليلا . وزاد فى أوان الزيادة عـلى العادة ، وأوفى أذرعه فى أيامه المعتادة ... فسبحان الفعال .

ومنها : شحة الغلال وخلو السواحل منها ... فلا يجد الناس الا ما بقى بأيدى فلاحى الجهات البحرية القريبـة ، فيحملونه عـلى الحمـير الى العرصات والرقع ، ويبيعونه على الناس كل أردب بأربعة وعشرين قرشا خـلاف المكس والكلف . واستقر مكس الأردب الواحد أربعة وثلاثين نصف فضة ، وأجرته اذا كان من طريق البحر من المنوفية أو نحوها مائة نصف وأقل وأكثر ، وأجرته من بولاق الى مصر خمسة وعشرون نصفا .

ومنها : أنه لما انتظم له ملك بلاد الصعيد ، ولم يبق له فيه منازع ، وقلد امارته لابنه ابراهيم باشا ، ورسم بأن يضبط جميع أطيان بلاد الصعيد ، حتى الرزق الاحباسية المرصدة على المساجد والخيرات الكائنة بمصر وغيرها ، وأوقاف سـلاطين مصر المتقدمين وخيراتهـم ومسـاجدهم ومكاتبهـم وصهاريجهم ، ووظائف المدرسـين والمقرئين وغير ذلك . ففعل ذلك وراك الأراضى بأسرها .

وشاع أنه جعل على كل فدان من أراضى الرزق والأوقاف ثلاثة ريالات لا غير ، وعلى باقى فدادين الأطيان ثمانيـة ريالات خلاف النبارى — وهو مزارع الذرة — فجعـل على كل عود من عيدان القطوة سـبعة ريالات . فرضى أصحاب الرزق والأطيان بهـذا التنظيم ، وظنوا استمراره . فان الكثير من المرتزقة ما كان يحصـل له من مزارعى رزقته مقدار ما يحصل له على هذا الحساب .

ومنها : أنه رسم له بالحجر على جميع حصص الالتزام ، فلم يبق لأربابها شيئا الا ما ندر — وهو شىء قليل جدا — واحتج فى ذلك باستيلاء الأمرا المصريين عليها عندما خرجوا من مصر ، وأقاموا بالبلاد القبلية ، فوضعوا أيديهم على ذلك . وأنه حاربهم وطردهم وقتلهم وورث ماكان بأيديهم بحق أو باطل ، وسموه المضبوط . وأمـا ما كان بأيدى

أربابه أيام استيلاء المصريين — وهم الملتزمون القاطنون بالبلاد القبلية أو بمصر ، ممن يراعى جانبه — فانه اذا عرض حاله ، وطلب اذنا فى التصرف ، وأخبر بأنه كان مفروجا عنه أيام استيلاء المصريين ، وأثبت ذلك بالكشف من الروزنامة وغيرها ... فاما أن يؤذن له فى التصرف ، أو يقال له : نعوضك بدلها من البلاد البحرية . ويسوف ، وتتمادى الأيام ، أو يحيل ذلك على ابنه ابراهيم باشا ، ويقول : « أنا لا علقة لى فى البلاد القبلية ، والأمر فيها لابراهيم باشا » ، واذا ذهب لابراهيم باشا يقول له : « أنا أعطيك الفائظ » ، فان رضى أعطاه شيئا نزرا ، ووعده بالاعطاء . وان لم يرض ، قال له : « هات لى اذنا من أفندينا » . وكل منهما : اما مرتحل أو مسافر ، أو أحدهما حاضر والآخر غائب فيصير صاحب الحاجة كالجبلة المعترضة بين الشارط والمشروط ... وأمثال ذلك كثير .

ومنها : الاستيلاء على جميع مزارع الأرز بالبحر الغربى والشرقى ، ورتب لهم مباشرين وكتابا يصرفون عليهم من الكلف والتقاوى والبهائم . ويؤخذ ذلك جميعه من حساب الفرض التى قررها على النواحى . وعند استغلال الأرز يرفعونها بأيديهم ويسعرونها بما يريدونه ، ويستوفون المصاريف ، ومعاليم القومة والمباشرين المعين لهم . وان فضل بعد ذلك شىء أعطوه للمزارع ، أو أخذوه منه وأعطوه ورقة يحاسب بها فى المستقبل . وفرض على كل دائرة من دوائر الأرز خمسة أكياس فى كل سنة خلاف المقرر القديم ، وعلى كل عود ثلاثة أكياس . فاذا كان وقت الحصاد وزنوه شعيرا على أصحاب الدوائر والمناشر ... حتى اذا صلح وابيض ، حسبوا كلفه من أصل المقرر عليهم فان زاد لهم شىء أعطوهم به ورقة ، وحاسبوا بها من قابل . وأبطل تعامل المزارعين مع التجار الذين كانوا معتادين بالصرف عليهم .واستقر الحال الى أن صار جميعه أصلا وفرعا لديوان الباشا . ويباع الموجود على ذمته لأهل الأقاليم المتسببين وغيرهم . وهو عن كل أردب مائة قرش بل وزيادة ، وللأفرنج وبلاد الروم والشام بما لا أدرى .

ومنها : أنه حصل بين عبد الله أغا بكتاش الترجمان وبين النصرانى الدرزى منافسة.وهو الذى حضر من جبل الدروز ، ويسمى الياس ، واجتمع بمصر على من أوصله الى الباشا — وهو بكتاش وخلافه — وعرفوه عن صناعته ، وأنه يعمل آلات بأسهل مما يصنعه صناع الضربخانة ، ويوفر على الباشا كذا وكذا من الأموال التى تذهب فى الدواليب والكلف ، وما يأخذه المباشرون من المكاسب لأنفسهم . وأفرد له بقعة خاصة به بجانب الضربخانة ، وأمر بحضور ما يطلبه اليه من الحديد والصناع واستمر على ذلك شهورا .

ولما تم الآلة ، صنع قروشا وضربها ناقصة فى الوزن والعيار ، وجعل كتابتها على نسق القروش الرومية ، ووزن القرش درهمان وربع ، وفيه من الفضة الخالصة الربع ، بل أقل ، والثلاثة أرباع نحاس . وكان المرتب فى الأموال من النحاس فى كل يوم قنطارين ، فضوعف الى ستة قناطير ... حتى غلا سعر النحاس والأوانى المتخذة منه ، فبلغ سعر الرطل النحاس المستعمل مائة وأربعين نصف فضة ، بعد أن كان سعره فى الأزمان السابقة أربعة عشر نصفا ، والقراضة سبعة أنصاف أو أقل . ثم زاد الطلب للضربخانة الى عشرة قناطير فى كل يوم ... والمباشر لذلك كله بكتاش افندى .

ثم ان بكتاش افندى المذكور انحرف على ذلك الدرزى ، وذلك باغراء المعاير ، وحصل بينهما مناقشة بين يدى الباشا ، والمعلم غالى بينهم — وانحط الأمر فى ذلك المجلس على منع الدرزى من

مباشرة العمل . ورتب له الباشا أربعة أكياس لمصرفه فى كل شهر ، ومنعوا أيضا من كان معه من نصارى الشوام من الطلوع الى الضربخانة . واستمر بكتاش افندى ناظرا عليها ، ودقق على أرباب الوظائف والخدم ليأخذ بذلك وجاهة عند مخدومه . ثم ان الباشا بعد أيام أمر بنفى الدرزى من مصر وجميع أهله وأولاده . وانقضى أمره بعد أن تعلموا تلك الصناعة منه .

وفى تلك المدة بلغ ايراد الضربخانة لخزينة الباشا فى كل شهر ألفا وخمسمائة كيس . وكان الذى يرد منها ، فى زمن المصريين ، ثلاثين كيسا فى كل شهر أو أقل من ذلك . فلما التزم بها السيد أحمد المحروقى أوصلها الى خمسين ، واستمرت على ابنه السيد محمد كذلك مدة . فانتبذ لها محمد افندى طبل المعروف بناظر المهمات ، وزاد عليها ثلاثين كيسا ، وبقيت تحت نظارة المحروقى بذلك القدر . ثم ان الباشا عزل السيد محمد المحروقى عنها ، وأبقاها على ذمته ، وقيد خاله فى نظارتها . ولم يزل الباشا يلعب هذه الملاعيب حتى بلغت هذا المبلغ المستمر ، وربما يزيد ... وذلك خلاف الغرامات والمصادرات لأربابها .

ثم وشى له على عبد الله أغا بكتاش بأنه يزيد فى وزن القروش وينقص منه عن القدر المحدود . فاذا حسب القدر المنقوص ، وعمل معدله فى مدة نظارته ، تحصل منه مقدار عظيم من الأكياس . فلما نوقش فى ذلك قال : « هذا الأمر يسأل فيه صاحب العيار » . فأحضروه ، وأحضروا محمد أفندى ابن اسماعيل أفندى بدفتره ، وتحاققوا فى الحساب ، فسقط منهم خمسة أكياس لم تدخل الحساب ... فقالوا : « أين ذهبت هذه الخمسة أكياس » فطفقوا ينظرون الى بعضهم . فقال المورد : « الحق أن هذه الخمسة أكياس من حساب محمد أفندى ، ومطلوبة له ، وتجاوز عنها لفلان اليهودى المورد من مدة سابقة » . فالتفت الباشا الى محمد أفندى ، وقال : « لأى شيء تجاوزت لليهودى عن هذا القدر ؟ » . فقال : « لعلمى أنه خلى ، ليس عنده شيء ... فأخذتنى الرأفة عليه ، وتركت مطالبته حتى يحصل له اليسار » . فقال : « كيف تنعم بمالى على اليهودى ؟ » . فقال : « انه من حسابى » . فقال : « ومن أين كان لك ذلك ؟ » . وأمر به فبطحوه وضربوه بالعصى ، ثم أقاموه ، وأضافوا الخمسة أكياس على باقى الغرامة المطلوبة منه التى هو متحير فى تحصيلها ، ولو بالاستدانة من الربويين ، كما قال القائل :

شكوت جلوس انسان ثقيل
فجاءونى بمن هو منه أثقل
فكنت كمن شكا الطاعون يوما
فزادوه على الطاعون دمل

ومحمد أفندى هذا من وجهاء الناس وخيارهم . يفعل به هذه الفعال ! ثم انحط الحال مع بكتاش أفندى على أن فرض عليه ستمائة كيس يقوم بدفعها . فقال : « ويعفونى أفندينا من نظارة الضربخانة » . فلم يجبه الى ذلك . واستمر فى تلك الخدمة مكرها خائفا من عواقبها .

ومنها : أن الريال الفرانسة بلغ فى مصارفته ، من الفضة العددية ، الى مائتين وثمانين نصفا ... بل وزيادة خمسة أنصاف . فنودى عليه بنقص عشرة ، وشددوا فى ذلك . وبعد أيام نودى بنقص عشرة أخرى . فخسر الناس حصة من أموالهم . ثم ان ذلك القرش الذى يضاف اليه من الفضة ربع درهم ، ووزن الريال تسعة دراهم فضة ، فيكون الريال الواحد ، بما يضاف اليه من النحاس على هذا الحساب ، ستة وثلاثين قرشا .. يخرج منها ثمن الريال ستة قروش ونصف ، وكلفة الشغل فى الجملة قرش أو قرشان ، يبقى بعد ذلك سبعة وعشرون

قرشا ونصف ، وهو المكسب فى الريال الواحد .

وهو من جملة سلب الأموال ، لأن صاحب الريال ، اذا أراد صرفا ، أخذ بدله ستة قروش ونصفا ، وفيها من الفضة درهم ونصف وثمن ، وهى بدل التسعة دراهم التى هى وزن الريال .

ثم زيد فى الطنبور نغمة ، وهى الحجر على الفضة العددية ، فلا يصرفون شيئا منها للصيارف ولا لغيرهم ... الا بالفرط ، وهو أربعة قروش على كل ألف ، فيعطى للضربخانة تسعة وعشرون قرشا زلائط ، ويأخذ ألف فضة عنها خمسة وعشرون قرشا . ثم زادوا بعد ذلك فى الفرط ، فجعلوه خمسة قروش . فيعطى ألفا ومائتين ، ويأخذ بدلها ألفا فانظر الى هذه الزيادة والرذالة ... وكذا السفالة !

ومنها . استمرار غلاء الأسعار فى كل شيء ، وخصوصا فى الأقوات التى لا تستغنى عنها الغنى والفقير فى كل وقت ، بسبب الاحداثات والمكوس التى ترتبت على كل شيء ، ومنها المأكولات كاللحم والسمن والعسل والسكر ، وغير ذلك مثل الخضارات

وابطال جميع المذابح خلاف مذبح الحسينية والتزم به المحتسب بمبلغ عظيم مع كفاية لحم الباشا وأكابر دولته بالثمن القليل ، ويوزع الباقى على الجزارين بالسعر الأعلى الذى يخرج منه ثمن لحوم الدولة من غير ثمن فينزل الجزار بما يكون معه من العنمه أو الاثنين الجعيط الى بيت أو عطفة مستورة ، فتزدحم عليه المتبعون له والمنتظرون اليه ، ويقع بينهم من المضاربة والمشاجرة ما لا يوصف وثمن الرطل اثنا عشر نصفا . وقد يزيد على ذلك ، ولا ينقص عن الاثنى عشر .

وكذلك الخضراوات التى كانت تباع جزافا ، تباع بأقصى القيمة ... حتى أن الخس مثلا ، الذى كان يباع كل عشرة أعداد بنصف واحد ، صارت الواحدة تباع بنصف . وقس على ذلك باقى الخضراوات .

وان الباشا لما وضع يده على الأراضى القريبة ، وأنشأ السواقى تجاه القصر والبستان بناحية شبرا ، وحرث الأراضى الخرس ، وزرع فيها أنواع الخضراوات ، وأجرى عليها المياه ، وقيد لخدمتها المرابعين أيضا ، والمزارعين بالمؤاجرة ... والمباشر على ذلك كله ذو الفقار كتخدا . وعند ما يبدو صلاح البقول والخضراوات ، يبيعها على المتسببين فيها بأغلى ثمن ، وهم يبيعونها على الناس بما أحبوا .

وشاع بين الناس اضافة ذلك الى الباشا ، فيقولون كرنب الباشا ، ولفت الباشا ، وملوخية الباشا ، وفجل الباشا ، وقرنبيط الباشا ! وزرع أيضا بستانه من أنواع الزهور العجيبة المنظر ، المتنوعة الأشكال . من الأحمر والأصفر والأزرق والملون وأتوا بنقائلها من بلاد الروم . فنتجت وأفلحت ، وليس لها الا حسن المنظر فقط ، ولا رائحة لها أصلا .

ومنها أن ديوان المكس ببولاق — الذى يعبرون عنه بالكمرك — لم يزل يتزايد فيه المتزايدون حتى أوصلوه الى ألف وخمسمائة كيس فى السنة وكان فى زمن المصريين يؤدى من يلتزمه ثلاثين كيسا ، مع محاباة الكثير من الناس ، والعفو عن كثير من البضائع لمن ينتسب الى الأمراء وأصحاب الوجاهة من أهل العلم وغيرهم فلا يتعرضون له ، ولو تحامى فى بعض أتباعهم ولو بالكذب ، ويعاملون غيرهم بالرفق مع التجاوز الكثير ، ولا يبشون المتاع ولا رباط الشيء المحزوم بل على الصندوق أو المحزوم قدر يسير معلوم فلما ارتفع أمره الى هذه المقادير ، صاروا لايعفون عن شيء مطلقا ، ولا يسامحون أحدا ... ولو كان عظيما من العلماء أو من غيرهم .

وكان من عادة التجار اذا بعثوا الى شركائهم محزوما من الأقمشة الرخيصة ، مثل العاتكى والنابلسى ، جعلوا بداخل طيها أشياء من الأقمشة الغالية فى الثمن ، مثل المقصبات الحلبى والكشميرى والهندى ونحو ذلك ، فتندرج معها فى قلة الكمرك . وفى هذا الأوان يحلون رباط المحزوم ، ويفتحون الصناديق ، وينبشون المتاع ، ويهتكون ستره ، ويحصون عدده ، ويأخذون عشره — أى من كل عشرة واحدا — أو ثمنه كما يبيعه التاجر ، غاليا أو رخيصا .. حتى البوابيج والأخفاف والمسوت التى تجلب من الروم ، يفتحون صناديقها ، ويعدونها بالواحد ، ويأخذون عشورها عينا أو ثمنا . ويفعل ذلك أيضا متولى كمرك الاسكندرية ودمياط واسلامبول والشام .

فبذلك غلت أسعار البضائع من كل شىء ، لفحش هذه الأمور .. وخصوصا فى الأقمشة الشامية والحلبية والرومية المنسوجة من القطن والحرير والصوف ، فان عليها بمفردها مكوسا فاحشة قبل نسجها .

وكان الدرهم الحرير فى السابق بنصف فضة ، فصار الآن بخمسة عشر نصفا ، وما يضاف اليه من الأصباغ ، وكلف الصناع ، والمكوس المذكورة ... فبذلك بلغ الغاية فى غلو الثمن ، فيباع الثوب الواحد من القماش الشامى المسمى بالألاجة ، الذى كانت قيمته فى السابق مائتى نصف فضة ، بألفين فضة ... مع ما يضاف اليه من ربح البائع وطمع التاجر . والنعل الرومى ، الذى كان يباع بستين نصفا ، صار يباع بأربعمائة نصف . والذراع الواحد من الجوخ ، الذى كان يباع بمائة نصف فضة ، بلغ فى الثمن الى ألف نصف فضة ... وهكذا مما يستقصى تتبعه ولا تستقصى مفرداته .

ويتولى هذه الكمارك كل من تزايد فيها من أى ملة كان : من نصارى القبط أو الشوام أو الأروام ، أو من يدعى الاسلام — وهم الأقل — فى الأشياء الدون . والمتولى الآن فى ديوان كمرك بولاق ، شخص نصرانى رومى يسمى كرابيت . من طرف طاهر باشا لأنه مختص بايراده ، وأعوان كرابيت من جنسه ، وعنده قواسة أتراك يحجزون متاع الناس ، ويقبضون على المسلمين ، ويسجنونهم ويضربونهم حتى يدفعوا ما عليهم . واذا عثروا بشخص أخفى عنهم شيئا ، حبسوه وضربوه وسبوه ونكلوا به ، وألزموه بغرامة مجازاة لفعله .

والعجب أن بضائع المسلمين يؤخذ عشرها (يعنى من العشرة واحد) ، وبضائع الافرنج والنصارى ومن ينتسب اليهم ، يؤخذ عليها من المائة اثنان ونصف !

وكذلك أحدث عدة أشياء واحتكارات فى كثير من البضائع ، مثل السكر الذى يأتى من ناحية الصعيد ، وزيادات فى المكوس القديمة خلاف المحدثات . وذلك أن من كان بطالا ، أو كاسد الصنعة ، أو قليل الكسب ، أو خامل الذكر ، فيعمل فكرته فى شىء مهمل مغفول عنه ، ويسعى الى الحضرة بواسطة المتقربين أو بعرضحال يقول فيه : « ان الداعى للحضرة يطلب الالتزام بالصنف الفلانى ، ويقوم للخزينة العامرة بكذا من الأكياس فى كل سنة » . فاذا فعل ذلك تنبه المشار اليه ، فيوعد بالانجاز ، ويؤخر أياما . فتتسامع المتكالبون على أمثال ذلك ، فيزيدون على الطالب حتى تستقر الزيادة على شخص ، اما هو أو خلافه ، ويقيد اسمه فى دفتر الروزنامة . ويفعل بعد ذلك الملتزم ما يريده وما يقرره على ذلك الصنف ، ويتخذ له أعوانا وخدمة وأتباعا يتولون استخلاص المقررات ، ويجعلون لأنفسهم أقدارا خارجة عن الذى يأخذه كبيرهم .

والذى تولى **كبر ذلك** ، وفتح **بابه** ، **نصارى**

الأروام والأرمن . فترأسوا بذلك ، وعلت أسافلهم ولبسوا الملابس الفاخرة ، وركبوا البغال والرهوانات ، وأخذوا بيوت الأعيان التي بمصر القديمة ، وعمروها وزخرفوها ، وعملوا فيها بساتين وجناين ... وذلك خلاف البيوت التي لهم بداخل المدينة . ويركب الكلب منهم ؛ وحوله وأمامه عدة من الخدم والقواسة ، يطردون الناس من أمامه وخلفه . ولم يدعوا شيئا خارجا عن المكس ... حتى الفحم الذى يجلب من الصعيد ، والحطب السنط والرتم ، وحطب الذرة الذى كان يباع منه كل مائة حزمة بمائة نصف ، فلما احتكروه صار يباع كل مائة حزمة بألف ومائتى نصف .

وبسبب ذلك تشحطت أشياء كثيرة ، وغلت أثمانها ، مثل الجبس والجير ، وكل ما كان يحتاج للوقود .. حتى الخبازين فى الأفران . فاننا أدركنا الأردب من الجبس بثمانية عشر نصف فضة ، والآن بمائتين وأربعين نصفا . وكذلك أدركنا القنطار من الجير بعشرة أنصاف ، والآن بمائة وعشرين ، والحال فى الزيادة !

ومنها : أن الباشا شرع فى عمارة قصر العينى ؛ وكان قد تلاشى، وخربته العسكر وأخذت أخشابه ، ولم يبق فيه ولا الجدران . فشرع فى انشائه وتعميره وتجديده على هذه الصورة التى هو عليها الآن .. على وضع الأبنية الرومية .

ومنها أنه هدم سراية القلعة ، وما اشتملت عليه من الأماكن . فهدم المجالس التى كانت بها والدواوين، وديوان قايتباى — وهو المقعد المواجه للداخل الى الحوش ، علو الكلار الذى به الأعمدة — وديوان الغورى الكبير ، وما اشتمل عليه من المجالس التى كانت تجلس بها الأفندية والقلفاوات ، أيام الدواوين ؛ وشرع فى بنائها على وضع آخر واصطلاح رومى . وأقاموا أكثر الأبنية من الأخشاب ، ويبنون الأعالى قبل بناء السفل

وأشيع أنهم وجدوا مخبآت بها ذخائر للملوك مصر الأقدمين .

ومنها : أن الباشا أرسل لقطع الأشجار المحتاج اليها فى عمل المراكب ، مثل التوت والنبق ، من جميع البلاد القبلية والبحرية . فانبث المعينون لذلك فى البلاد ؛ فلم يبقوا من ذلك الا القليل .. لمصانعة أصحابه بالرشا والبراطيل حتى يتركوا لهم ما يتركون . فيجتمع بترسخانة الأخشاب لصناعة المراكب ، مع ماينضم اليها من الأخشاب الرومية ، شيء عظيم جدا ، يتعجب منه الناظر من كثرته وكلما نقص منه شيء فى العمل ، اجتمع خلافه أكثر منه .

ومنها : أن أحمد أغا ، أخا كتخدا بيك ، لما تقلد وكالة دار السعادة ونظارة الحرمين ، انضم اليه أباليس الكتبة لتحرير الايراد والمصرف . وحصروا الأحكار المقررة على الأماكن والأطيان التى أجرها النظار السابقون ، المدد الطويلة ، وجعلوا عليها قدرا من المال يقبض فى كل سنة لجهة وقف أصله .. على عادة مصر السابقة واللاحقة فى استئجار الأوقاف من نظارها والأطيان والأماكن المستأجرة من أوقاف الحرمين وتوابعها : كالدشيشة والخاصكية ، والمحمدية ، والمرادية ، وغير ذلك كثيرة جدا ..

ففتحوا هذا الباب ، وتسلطوا على الناس فى طلب ما بأيديهم من السندات ، وحجج التآجرات . فاذا اطلعوا عليها ، فلا يخلو اما أن تكون المدة قد انقضت ومضت ، أو بقى منها بقية من السنين . فان كان بقى منها بقية ، زادوا فى الأجرة المؤجلة . التى هى الحكر ، مثلها أو مثليها بحسب حال المحل ورواجه . وان كانت المدة قد انقضت ومضت . استولوا على عين المحل وضبطوه ، أو جددوا له تآجرا وزادوا فى حكره ، ويكون ذلك بمصلحة جسيمة . وعلى كلتا الحالتين لا بد من التغريم

والمصالحات الجوانية والبرانية للكتاب والمباشرين والخدم والمعينين ، ثم المرافعة الى القاضى ، ودفع المحاصيل والرسوم والتسجيل وكتابة السندات التى يأخذها واضع اليد .

ومنها : التحجير على الأجراء والمعمرين المستعملين فى الأبنية والعمائر ، مثل البنائين والنجارين والنشارين والخراطين ، والزامهم فى عمائر الدولة بمصر وغيرها بالاجارة والتسخير . واختفى الكثير منهم ، وأبطل صناعته ، وأغلق من له حانوت حانوته . فيطلبه كبير حرفته الملزم باحضاره عند معمار باشا : فاما أنه يلازم الشغل ، أو يفتدى نفسه ، أو يقيم بدلا عنه ويدفع له الأجرة من عنده !

فترك الكثير صناعته وأغلق حانوته ، وتكسب بحرفة أخرى . فتعطل بذلك احتياجات الناس فى التعمير والبناء .. بحيث أن من أراد أن يبنى له كانونا أو مذودا لدابته ، تحير فى أمره ، وأقام أياما فى تحصيل البناء وما يحتاجه من الطين والجير والقصرمل .

وكان الباشا اشترى ألف حمار ، وعملوا لها مزابل ، وأعدوها لنقل أتربة عمائره وشيل القصرمل من مستوقدات الحمامات بالمدينة ببولاق ، ونودى فى المدينة بمنع الناس كافة عن أخذ شىء من القصرمل . فكان الذى تلزمه الضرورة لشىء منه ، ان كان قليلا ، أخذه كالسرقة فى الليل من المستوقد بأغلى ثمن ، وان كان كثيرا لا يأخذه الا بفرمان بالاذن من كتخدا بيك ، بعد أن كان شيئا مبتذلا ، وليس له قيمة ... ينقلونه اذا كثر بالمستوقدات الى الكيمان بالأجرة . وان احتاجه الناس فى أبنيتهم : اما نقلوه على حميرهم ، أو نقله خدمة المستوقد بأجرتهم : كل فردين بنصف وأقل وأزيد ... ونحو ذلك . كما اذا ضاع لانسان مفتاح خشب ، لايجد نجارا يصنع له مفتاحا آخر الا خفية ، ويطلب ثمنة خمسة عشر نصف فضة ! وكان من عادة المفتاح نصف فضة ان كان كبيرا ، أو نصف نصف ان كان صغيرا .

ومنها : أن الذى التزم بعمل البارود قرر على نفسه مائتى كيس ، واحتكر جميع لوازمه ، مثل الفحم وحطب الترمس والذرة والكبريت ، فقرر على كل صنف من ذلك قدرا من الأكياس ، وأبطل الذين كانوا يعملون فى السباخ بالكيمان ، ويستخرجون منه ملح البارود ، ثم يؤخذ منهم عبيطا الى المعمل ، فيكررونه حتى يخرج ملحا أبيض يصلح للعمل . وهى صناعة قذرة ممتهنة ، فأبطلهم منها ، وبنى أحواضا بدلا عن الصناديق ، وجعلها متسعة ، وطلاها بالخافقى ، وعمل ساقية ، وأجرى الماء منها الى تلك الأحواض ، وأوقف العمال لذلك بالأجرة يعملون فى السباخ المذكور .

ومنها : شحة الحطب الرومى فى هذه السنة ، واذا ورد منه شىء حجزه الباشا لاحتياجاته ، فلا يرى الناس منه شيئا . فكان الحطابة يبيعون بدله خشب الأشجار المقطوعة من القطر المصرى ، وأفضلها السنط ، فيباع منه الحملة بثلثمائة نصف فضة ، وأجرة حملها عشرة ، وتكسيرها عشرة . وعز وجود الفحم أيضا حتى بيعت الأقة بعشرين نصفا ، وذلك لانقطاع الجالب ... الا ما يأتى قليلا من ناحية الصعيد مع العسكر .. يتسببون فيه ويبيعونه بأغلى ثمن : كل حصيرة باثنى عشر قرشا وخمسة عشر قرشا — وهى دون القنطار — وكانت تباع فى السابق بستين نصفا ، وهى قرش ونصف وغير ذلك أمور واحداثات وابتداعات لا يمكن استقصاؤها ، ولم يصل الينا خبرها ... اذ لا يصل الينا الا ما تعلقت به اللوازم والاحتياجات الكلية . وقد يستدل بالبعض على الكل .

أما من مات فى هذه السنة ممن له ذكر :

فمات الشيخ الامام العلامة ، والنحرير الفهامة ، الفقيه الأصولى النحوى ، شيخ الاسلام والمسلمين : الشيخ عبد الله بن حجازى بن ابراهيم الشافعى الأزهرى الشهير بالشرقاوى ، شيخ الجامع الأزهر .

ولد ببلدة تسمى « الطويلة » بشرقية بلبيس بالقرب من القرين ، فى حدود الخمسين بعد المائة ، وتربى بالقرين فلما ترعرع ، وحفظ القرآن ، قدم الى الجامع الأزهر ، وسمع الكثير من الشهابين : الملوى ، والجوهرى ، والحفنى ، وأخيه يوسف ، والدمنهورى ، والبليدى ، وعطية الأجهورى ، ومحمد الفارسى ، وعلى المنسفيسى الشهير بالصعيدى ، وعمر الطحلاوى .. وسمع الموطأ فقط على على بن العربى الشهير بالسقاط وبأخرة تلقن بالسلوك والطريقة على شيخنا الشيخ محمود الكردى ، ولازمه ، وحضر معنا فى أذكاره وجمعياته ، ودرس الدروس بالجامع الأزهر ، وبمدرسة السنانية بالصنادقية ، وبرواق الجبرت والطيبرسية وأفتى فى مذهبه ، وتميز فى الالقاء والتحرير . وله مؤلفات دالة على سعة فضله ... من ذلك : حاشيته على التحرير ، وشرح نظم يحيى العمريطى ، وشرح العقائد المشرقية والمتن له أيضا ، وشرح مختصر فى العقائد والفقه والتصوف — مشهور فى بلاد داغستان — وشرح رسالة عبد الفتاح العادلى فى العقائد ، ومختصر الشمائل وشرحه له ، ورسالة فى لا اله الا الله ، ورسالة فى مسألة أصولية فى جمع الجوامع ، وشرح الحكم والوصايا الكردية فى التصوف ، وشرح ورد سحر للبكرى ، ومختصر المغنى فى النحو .. وغير ذلك .

ولما أراد السلوك فى طريق الخلوتية ، ولقنه الشيخ الحفنى الاسم الأول حصل له ولة واختلال فى عقله ، ومكث بالمارستان أياما ، ثم شفى ، ولازم الاقراء والافادة ، ثم تلقن من شيخنا الشيخ محمود الكردى ، وقطع الأسماء عليه ، وألبسه التاج ، وواظب على مجالسته

وكان فى قلة من خشونة العيش ، وضيق المعيشة ، فلا يطبخ فى داره الا نادرا ، وبعض معارفه يواسونه ، ويرسلون اليه الصحفة من الطعام ، أو يدعونه ليأكل معهم .

ولما عرفه الناس ، واشتهر ذكره ، واصله بعض تجار الشوام وغيرهم بالزكوات والهدايا والصلات ... فراج حاله ، وتجمل بالملابس ، وكبر تاجه . ولما توفى الشيخ الكردى ، كان المترجم من جملة خلفائه ، وضم اليه أشخاصا من الطلبة والمجاورين الذين يحضرون فى درسه : يأتون اليه فى كل ليلة عشاء يذكرون معه ، ويعمل لهم فى بعض الأحيان ثريدا ، ويذهب بهم الى بعض البيوت فى مياتم الموتى ، وليالى السبح والجمع المعتادة ، ومعهم منشدون ومولهون ، ومن يقرأ الأعشار عند ختم المجلس ، فيأكلون العشاء ، ويسهرون حصة من الليل فى الذكر والانشاد والتوله ، وينادون فى انشادهم بقولهم : « يابكرى مدد ، ياحفنى مدد ، ياشرقاوى مدد » . ثم يأتون اليهم بالطارى ، وهو الطعام ، بعد انقضاء المجلس ، ثم يعطونهم أيضا

دراهم . ثم اشترى له دارا بحارة كتامة ، المسماة بالعينية ، وساعده فى ثمنها بعض من يعاشره من المياسير ، وترك الذهاب الى البيوت ... الا فى النادر .

واستمر على حالته حتى مات الشيخ أحمد العروسى ، فتولى بعده مشيخة الجامع الأزهر ، فزاد فى تكبير عمامته وتعظيمها ، حتى كان يضرب بعظمها المثل . وكانت تعارضت فيه وفى الشيخ مصطفى الصاوى . ثم حصل الاتفاق على المترجم ، وأن الشيخ الصاوى يستمر فى وظيفة التدريس بالمدرسة الصلاحية ، المجاورة لضريح الامام الشافعى بعد صلاة العصر ، وهى من وظائف مشيخة الجامع . ولما تولاها الشيخ العروسى ، تعدى على الوظيفة المذكورة الشيخ محمد المصيلحى الضرير ، وكان يرى فى نفسه أنه أحق بالمشيخة من العروسى .. فلم ينازعه فيها حسما للشر .

فلما مات المصيلحى تنزه عنها العروسى ، وأجلس فيها الصاوى ، وحضر درسه فى أول ابتدائه لكونه من خواص تلامذته . فلما مات العروسى وتولى المترجم المشيخة ، اتفقوا على بقاء الصاوى فى الوظيفة ، ومضى على ذلك أشهر . ثم ان المجتمعين على الشرقاوى وسوسوا له ، وحرضوه على أخذ الوظيفة ، وأن مشيخته لا تتم الا بها — وكان مطواعا — فكلم فى ذلك الشيخ محمد بن الجوهرى ، وأيوب بيك الدفتردار ، ووافقاه على ذلك ، واغتر بهما ، وذهب بجماعته ومن انضم اليهم — وهم كثيرون — وقرأ بها درسا .

فلم يحتمل الصاوى ذلك ، وتشاور مع ذوى الرأى والمكايد من رفقائه — كالشيخ بدوى الهيتمى وأضرابه — فبيتوا أمرهم ، وذهب الشيخ مصطفى الى رضوان ، كتخدا ابراهيم بيك الكبير — وله به صداقة ومعاملة ومقارضة — فسامحه فى مبلغ كان عليه له . فعند ذلك اهتم رضوان كتخدا المذكور ، وحضر عند الشرقاوى ، وتكلم معه وأفحمه . ثم اجتمعوا فى ثانى يوم ببيت الشرقاوى ، وحضر الصاوى وعزوته ، وباقى الجماعة ، فقال الشرقاوى : « اشهدوا ياجماعة أن هذه الوظيفة استحقاقى ، وأنا نزلت عنها الى الشيخ مصطفى الصاوى » . فقال له الصاوى : « ارجع .. أما الآن فلا . ولا جميلة لك الآن فى ذلك » . وباكته بكلام كثير ، وبانفاذه لرأى من حوله ، وغير ذلك .

وانفض المجلس على منعه من الوظيفة ، واستمرار الصاوى فيها الى أن مات ، فعادت الى المترجم عند ذلك من غير منازع ، فواظب الاقراء فيها مدة ، وطالب سدنة الضريح بمعلومها ، فماطلوه ، فتشاجر معهم وسبهم ، فشكوه للمعاضدين لهم ، وهم أهل المكايد من الفقهاء وغيرهم ، وتعصبوا عليه ، وأنهوا الى الباشا ، وضموا الى ذلك أشياء ... حتى أوغروا عليه صدره ، واتفقوا على عزله من المشيخة . ثم انحط الأمر على أن يلزم داره ولا يخرج منها ، ولا يتداخل فى شىء من الأشياء . فكان ذلك أياما ، ثم عفا عنه الباشا بشفاعة القاضى ، فركب وقابله ، ولكن لم يعد الى القراءة فى الوظيفة .. بل استناب فيها بعض الفقهاء ، وهو الشيخ محمد الشبراوينى .

ولما حضرت الفرنساوية الى مصر فى سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف ، ورتبوا ديوانا لاجراء الأحكام بين المسلمين ، جعلوا المترجم رئيس الديوان . وانتفع فى أيامهم بما يتحصل اليه من المعلوم المرتب له عن ذلك ، وقضايا وشفاعات لبعض الأجناد المصرية ، وجعالات على ذلك ! واستيلاء على تركات وودائع خرجت أربابها فى حادثة الفرنساوية ، وهلكوا .

واتسعت عليه الدنيا ، وزاد طمعه فيها ، واشترى دار ابن بيره بظاهر الأزهر — وهى دار واسعة من مساكن الأمراء الأقدمين — وزوجته بنت الشيخ

على الزعفرانى هى التى تدبر أمره وتحرز كل مايأتيه ويجمعه ، ولا يروح ولا يغدو الا عن أمرها ومشورتها . وهى أم ولده سيدى على .. الموجود الآن .

وكانت قبل زواجه بها فى قلة من العيش ، فلما كثرت عليه الدنيا ، اشترت الأملاك والعقار ، والحمامات والحوانيت ، بما بلغ ايراده مبلغا فى كل شهر له صورة . وعمل مهمًّا لزواج ابنه المذكور فى أيام محمد باشا خسرو سنة سبع عشرة ومائتين وألف ، ودعا اليه الباشا وأعيان الوقت ، فاجتمع اليه شيء كثير من الهدايا . ولما حضر اليه الباشا أنعم على ابنه بأربعة أكياس عنها ثمانون ألف درهم ، وذلك خلاف البقاشيش .

واتفق للمترجم فى أيام الأمراء المصرية أن طائفة المجاورين بالأزهر ، من الشرقاويين ، يقطنون بمدرسة الطيبرسية بباب الأزهر ، وعمل لهم المترجم خزائن برواق معمر ، فوقع بينهم وبين بعض المجاورين بها مشاجرة ، فضربوا نقيب الرواق . فتعصب لهم الشيخ ابراهيم السجينى — شيخ الرواق — على الشرقاويين ، ومنعوهم من الطيبرسية وخزائنها ، وقهروا المترجم وطائفته . فتوسط بامرأة عمياء فقيهة — تحضر عنده فى درسه — الى عديلة هانم ابنة ابراهيم بيك .. فكلمت زوجها ابراهيم بيك — المعروف بالوالى — بأن يبنى له مكانا خاصا بطائفته . فأجابه الى ذلك ، وأخذ سكن امام الجامع المجاور لمدرسة الجوهرية ، من غير ثمن ، وأضاف اليه قطعة أخرى ، وأنشأ ذلك رواقا خاصا بهم ، ونقل اليه الأحجار والعمود الرخام الذى بوسطها من جامع الملك الظاهر بيبرس ، خارج الحسينية ، وهو تحت نظر الشيخ ابراهيم السجينى ، ليكون ذلك نكاية له نظير تعصبه عليه .

وعمل به قوائم وخزائن ، واشترى له غلالا من جرايات الشون وأضافها الى أخباز الجامع ، وأدخلها فى دفتره ، يستلمها خباز الجامع ويصرفها خبز قرصة لأهل ذلك الرواق فى كل يوم . ووزعها على الأنفار الذين اختارهم من أهل بلاده .

ومما اتفق للمترجم أن بخارج باب البرقية «خانكاه» أنشأتها خوند طغاى الناصرية بالصحراء ، على يمنة السالك الى وهدة الجبانة المعروفة الآن بالبستان ، وكان الناظر عليها شخص من شهود المحكمة يقال له « ابن الشاهينى » . فلما مات تقرر فى نظرها المترجم ، واستولى على جهات ايرادها . فلما ولج الفرنساوية أراضى مصر ، وأحدثوا القلاع فوق التلول والأماكن المستعلية حوالى المدينة . هدموا منارة هذه الخانكاه وبعض الحوائط الشمالية ، وتركوها على ذلك .

فلما ارتحلوا عن أرض مصر بقيت على وضعها فى التخرب ، وكانت ساقيتها تجاه بابها فى علوة يصعد اليها بمزلقان ، ويجرى الماء منها الى الخانكاه على حائط مبنى ، وبه قنطرة يمر من تحتها المارون ، وتحت الساقية حوض لسقى الدواب . وقد أدركنا ذلك ، وشاهدنا دوران الثور فى الساقية .

ثم ان المترجم أبطل تلك الساقية ، وبنى مكانها زاوية وعمل لنفسه بها مدفنا وعقد عليه قبة ، وجعل تحتها مقصورة بداخلها تابوت عالٍ مربع ، وعلى أركانه عساكر فضة ، وبنى بجانبها قصرا ملاصقا لها يحتوى على أروقة ومساكن ، ومطبخ وكلار .

وذهبت الساقية فى ضمن ذلك وجعلها بئرا وعليه خرزة يملأون منها بالدلو ، ونسيت تلك الساقية وانطمست معالمها ، وكأنها لم تكن .

وقد ذكر هذه الخانكاه العلامة المقريزى فى خططه عند ذكر الخوانك — لا بأس بايراد ما نصه للمناسبة — فقال :

« خانــكاه أم أنوك ... هــذه الخــانكاه خارج باب البرقية بالصحراء ، أنشــأتها الخاتون طغاى تجاه تربة الأمير طاشتمر الساقى . فجاءت من أجل المبانى ، وجعلت بها صوفية وقراء ، ووقفت عليها الأوقاف الكثيرة ، وقررت لكل جارية من جواريها مرتبا يقوم بها » .

ثم ترجمها بقوله : « طغاى الخوندة الكبرى ، زوج السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأم ابنــه الأمير « أنوك » كانت من جملة امائه فأعتقها وتزوجها ، ويقال انها أخت الأمير آقبغا عبد الواحد ، وكانت بديعة الحسن باهرة الجمال ، رأت من السعادة ما لم يره غيرها من نساء ملوك الترك بمصر ، وتنعمت فى ملاذ ما وصل سواها لمثلها ، ولم يدم السلطان على محبة امرأة سواها ، وصارت خونده بعد ابنة توكاى ... أكبر نسائه ، حتى من ابنة الأمير « تنكز » ، وحج بها القاضى كريم الدين الكبير ، واحتفل بأمرها ، وحمل لها البقول فى محاير طين على ظهور الجمال ، وأخذ لها الأبقار الحلابة ، فسارت معها طول الطريق ، لأجل اللبن الطرى والجبن ، وكان يقلى لهــا الجبن فى الغداء والعشاء .

« وناهيك بمن وصل الى مداومة البقل والجبن واللبن فى كل يوم بطريق الحج ! فما عساه يكون بعد ذلك !

« وكان القاضى كريم الدين ، وأمير مجلس ، وعدة من الأمراء يترجلون عند النزول ، ويسيرون بين يدى محفتها ويقبلون الأرض لها ، كما يفعلون بالسلطان .

« ثم حج بها الأمير بشتاك فى سنة تسع وثلاثين وسبعماية ، وكان الأمير تنكز اذا جهز من دمشــق تقدمة للسلطان لا بد أن يكون لخوند طغاى منها جزء وافر .

« فلما مات السلطان الملك الناصر ، استمرت عظمتها من بعده الى أن ماتت فى شهر شوال سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، أيام الوباء ، عن ألف جارية وثمانين خصيا ، وأموال كثيرة جدا وكانت عفيفة طاهرة ، كثيرة الخير والصدقات والمعروف ... جهزت سائر جواريها ، وجعلت على قبر ابنها — بقبة المدرسة الناصرية ، بين القصرين — قراء ، ووقفت على ذلك وقفا ، وجعلت من جملته خبزا يفرق على الفقراء ، ودفنت بهذه الخانكاه ، وهى من أعمر الأماكن الى يومنا هذا » .

يقول الحقير : انى دخلت هــذه الخانكاه فى أواخر القرن المــاضى ، فوجــدت بهــا روحانية لطيفة ، وبها مساكن وسكان قاطنون بهــا ، وفيهم أصحاب الوظائف مثل المؤذن والوقاد والــكناس والمــلاء ، ودخلت الى مدفن الواقفة وعلى قبرها تركيبة من الرخام الأبيض ، وعنــد رأســها ختمة شريفة كبيرة على كرسى بخط جليل وهى مذهبة ، وعليها اسم الواقفة رحمها الله تعالى ... فلو أن الشيخ المترجم عمر هذه الخانكاه بدل هــذا الذى ارتكبه من تخريبها لكان له بذلك منقبة وذكر حسن فى حياته ، وبعد مماته . وبالله التوفيق .

وللمترجم طبقات جمعها فى تراجم الفقهاء الشافعية المتقدمين والمتأخرين من أهل عصره ، ومن قبلهم من أهل القرن الثانى عشر ... نقل تراجم المتقدمين من طبقات السبكى والأسنوى ، وأما المتأخرون فنقلهم من تاريخنا هذا بالحرف الواحد .

وأظن أن ذلك آخر تأليفاته ، وعمل تاريخا قبله مختصرا فى نحو أربعة كراريس — عند قدوم الوزير يوسف باشا الى مصر ، وخروج الفرنساوية منها — وأهداه اليه ، عدد فيه ملوك مصر ، وذكر فى آخره خروج الفرنسيس ودخول العثمانيــة — فى نحو ورقتين —وهو فى غاية البرود ، وغلط فيه غلطات ، منها : أنه ذكر الأشرف شعبان بن الأمير حسين

ابن الناصر محمد بن قلاوون . فجعله ابن السلطان حسن .. ونحو ذلك .

ولم يزل المترجم حتى تعلل ومات ، فى يوم الخميس ثانى شهر شوال من السنة ، وصلى عليه بالأزهر فى جمع كثير ، ودفن بمدفنه الذى بناه لنفسه كما ذكر ، ووضعوا على تابوته المذكور عمامة كبيرة ، أكبر من طبيزيته التى كان يلبسها فى حياته بكثير ، وعمموها بشاش أخضر ، وعصبوها بشال كشميرى أحمر ، ووقف شخص عند باب مقصورته ، وبيده مقرعة يدعو الناس لزيارته ، ويأخذ منهم دراهم !

ثم ان زوجته وابنها ومن يلوذ بهم ابتدعوا له مولدا وعيدا فى أيام مولد العفيفى ، وكتبوا بذلك فرمانا من الباشا ، ونادى به تاج الشرطة بأسواق المدينة على الناس بالاجتماع والحضور لذلك المولد ، وكتبوا أوراقا ورسائل للأعيان ، وأصحاب المظاهر وغيرهم بالحضور ، وذبحوا ذبائح ، وأحضروا طباخين وفراشين ، ومدوا أسمطة بها أنواع الأطعمة والحلاوات والمحمرات والخشافات لمن حضر من الفقهاء والمشايخ والأعيان وأرباب الأشاير والبدع ، ونصبوا قبالة تلك القبة صوارى علقوا بها قناديل وبيارق وشراريب حمرا وصفرا يلوحها الريح . واجتمع حول ذلك من غوغاء الناس ، وعملوا قهاوى وبياعين الحلوى والمخللات والترمس المملح والفول المقلى ، ودهسوا ما بتلك البقعة من قبور الأموات ، وأوقدوا بها النيران ، وصبوا عليها القاذورات ... مع ما يلحقهم من البول والغائط . وأما ضجة الأوباش والأولاد وصراخهم وفرقعتهم بالبارود ، وصياحهم وضجيجهم ، فقد شاهدنا به ماكنا نسمعه من عفاريت التربى ، وضرب المثل بهم ، فهم أقبح منهم ، فان العفاريت الحقيقة لم نر لهم أفعالا مثل هذه !

ولما مات الشيخ المترجم ، ومضى على موته ثلاثة أيام ... اجتمع المشايخ فى يوم الأحد ، خامسه ، وطلعوا القلعة ، ودخلوا الى الباشا ، وذكروا له موت المترجم ، ويستأذنونه فيمن يجعلونه شيخا على الأزهر . فقال لهم الباشا : « أعملوا رأيكم ، واختاروا شخصا يكون خاليا عن الأغراض ، وأنا أقلده ذلك » . فقاموا من مجلسه ، ونزلوا الى بيوتهم ، واختلفت آراؤهم : فالبعض اختار الشيخ المهدى ، والبعض ذكر الشيخ محمد الشنوانى ، وأما الشيخ محمد الأمير فانه امتنع من ذلك ، وكذلك ابن الشيخ العروسى .

والشيخ الشنوانى المذكور منعزل عنهم ، وليس له درس بالأزهر ، ويقرأ دروسه بجامع الفاكهانى — الذى فى العقادين — وبيده وظائف خدم الجامع ، وعند فراغه من الدروس يغير ثيابه ويكنس المسجد ، ويغسل القناديل ، ويعمرها بالزيت والفتائل ... حتى يكنس المراحيض ! فلما بلغه أنهم ذكروه ... تغيب .

ثم ان الباشا أمر القاضى ، وهو بهجة أفندى ، بأن يجمع المشايخ عنده ، ويتفقوا على شخص يجتمع رأيهم عليه بالشرط المذكور . فأرسل اليهم القاضى وجمعهم .. وذلك فى يوم الثلاثاء سابعه . وحضر فقهاء الشافعية ، مثل القويسنى والفضالى ، وكثير من المجاورين والشوام والمغاربة ، فسأل القاضى : « هل بقى أحد ؟ » . فقالوا : « لم يكن أحد غائبا عن الحضور الا ابن العروسى ، والهيتمى ، والشنوانى » . فأرسلوا اليهم . فحضر العروسى والهيتمى . فقال : « وأين الشنوانى ؟ فلا بد من حضوره » . فأرسلوا رسولا فغاب ورجع وبيده ورقة ، ويقول الرسول : « انه له ثلاثة أيام غائبا عن داره ، وترك هذه الورقة عند أهله ، وقال ان طلبونى فأعطوهم هذه الورقة » . فأخذها القاضى

وقرأها جهارا ، يقول فيها : «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، لحضرة شيخ الاسلام ، اننا نزلنا عن المشيخة للشيخ بدوى الهيتمى » الى آخر ما قال .

فعندما سمع الحاضرون ذلك القول ، قاموا قومة ، وأكثرهم طائفة الشوام ، وقال بعضهم : «هو لم يثبت له مشيخة حتى أنه ينزل عنها لغيره » . وقال كبارهم من المدرسين : «لا يكون شيخا الا من يدرس العلوم ، ويفيد الطلبة » . وزادوا فى اللغط ، فقال القاضى : « ومن الذى ترضونه ؟ » ، فقالوا : « نرضى الشيخ المهدى » ، وكذلك قال البقية . وقاموا وصافحوه ، وقرأوا الفاتحة .

وكتب القاضى اعلاما الى الباشا بما حصل ، وانفض الجمع ، وركب الشيخ المهدى الى بيته فى كبكبة ، وحوله وخلفه المشايخ وطوائف المجاورين ، وشربوا الشربات ، وأقبلت عليه الناس للتهنئة .

وانتظر جواب الاعلان بقية ذلك اليوم ، فلم يأت الجواب . ومضى اليوم الثانى والمدبرون يدبرون شغلهم ، وأحضروا الشيخ الشنوانى من المكان الذى كان متغيبا فيه بمصر القديمة ، وتمموا شغلهم ، وأحضروا السيد منصور اليافاوى — المنفصل عن مشيخة الشوام — ليلا ، ليعيدوه الى مشيخة الشوام ، ويمنعوا الشيخ قاسما المتولى قمعا له ولطائفته ، الذين تطاولوا فى مجلس القاضى بالكلام ، وجمعوا بقية المشايخ آخر الليل ، وركبوا فى الصباح الى القلعة ، فقابلوا الباشا ، فخلع على الشيخ محمد الشنوانى فروة سمور ، وجعله شيخا على الأزهر ، وكذلك على السيد منصور اليافاوى ، ليكون شيخا على رواق الشوام كما كان فى السابق . ثم نزلوا وركبوا وصحبتهم أغات الينكجرية بهيئة الموكب ، وعلى رأسه المجوزة الكبيرة ، وأمامه الملازمون بالبراقع والريش على رؤوسهم . وما زالوا سائرين حتى دخلوا حارة خوشقدم ، فنزلوا بدار ابن الزليجى ، لأن دار ذات الشيخ الشنوانى صغيرة وضيقة لا تسع ذلك الجمع . والذى أنزله فى ذلك المنزل السيد محمد المحروقى ، وقام له بجميع الاحتياجات ، وأرسل من الليل الطباخين والفراشين والأغنام والأرز والحطب والسمن والعسل والسكر والقهوة ، وأوقف عبيده وخدمه لخدمة القادمين للسلام والتهنئة ، ومناولة القهوة والشربات ، والبخور وماء الورد . وازدحمت الناس عليه ، وأتوا أفواجا اليه ، وكان ذلك يوم الثلاثاء رابع عشره .

ووصل الخبر الى الشيخ المهدى ومن معه ، وحصل لهم كسوف ، وبطلت مشيخته .

ولما كان يوم الجمعة ، حضر الشيخ الجديد الى الأزهر ، وصلى الجمعة ، وحضر باقى المشايخ ، وعملوا الختم للشيخ الشرقاوى ، وحصل ازدحام عظيم ، وخصوصا للتفرج على الشيخ الجديد ، وكأنه لم يكن طول دهره بينهم ولا يلتفتون اليه ! وبعد فراغ الختم أنشد المنشد قصيدة يرثى بها المتوفى ، من نظم الشيخ عبد الله العدوى ، المعروف بالقاضى ، وانفض الجمع .

* * *

ومات الأستاذ المكرم ، بقية السلف الصالحين ، ونتيجة الخلف المعتقد : الشيخ محمد ، المكنى أبا السعود ، ابن الشيخ محمد جلال ابن الشيخ محمد أفندى ، المكنى بأبى المكارم ، ابن السيد عبد المنعم ابن السيد محمد ، المكنى بأبى السرور ، صاحب الترجمة ابن السيد ، القطب الملقب بأبى السرور البكرى ، الصديقى العمرى من جهة الأم ، تولى خلافة سجادتهم فى سنة سبع عشرة ومائتين وألف عندما عزل ابن عمه السيد خليل البكرى . ولم تكن الخلافة فى فرعهم ، بل كانت فى أولاد الشيخ احمد بن عبد المنعم ،

وآخرهم السيد خليل المذكور . فلما حضرت العثمانية الى مصر ، واستقر فى ولايتها محمد باشا خسرو ، سعى فى السيد خليل الكارهون له ، وأنهوا اليه فيه ، ورموه بالقبائح ، ومنها : تداخله فى الفرنسيس ، وامتزاجه بهم . وعزلوه من نقابة الأشراف ، وردت للسيد عمر مكرم . ولم يكتفوا بذلك ، وذكروا أنه لا يصلح لخلافة البكرية ، فقال الباشا : « وهل موجود فى أولادهم خلافه ؟ » . قالوا : « نعم » . وذكروا المترجم فيمن ذكروه ، وأنه قد طعن فى السن ، وفقير من المال ، فقال الباشا : « الفقر لا ينفى النسب ! » وأمر له بفرس وسرج وعباءة- -كعادة مركوبهم— فأحضروه وألبسوه التاج والفرجية ، وخلع عليه الباشا فروة سمور ، وأنعم عليه بخمسة أكياس ، وأن يأخذ له فائظا فى بعض الاقطاعات ، ويعفى من الحلوان . وسكن بدار جهة باب الخرق ، وراج أمره ، واشتهر ذكره من حينئذ ، وسار سيرا حسنا مقرونا بالكمال ، جاريا على نسق نظامهم بحسب الحال ، ويتحاكم لديه خلفاء الطرائق الصوفية ، وأصحاب الأشاير البدعية كالأحمدية والرفاعية والبرهامية والقادرية فيفصل قوانينهم العادية وينتقل فى أوائل شهر ربيع الأول الى دار بالأزبكية بدرب عبد الحق ، فيعمل هناك وليمة المولد النبوى على العادة ، وكذلك مولد المعراج فى شهر رجب بزاوية الدشطوطى ... خارج باب العدوى .

ولم يزل على حالته وطريقته — مع انكسار النفس — الى أن ضعفت قواه ، وتعلل ولازم الفراش . فعند ذلك طلب الشيخ الشنوانى ، وباقى المشايخ ، وعرفهم أن مرضه الذى هو به مرض الموت ، لأنه بلغ التسعين وزيادة ، وأنه عهد بالخلافة على سجادتهم لولده السيد محمد لأنه بالغ رشيد ، والتمس منهم بأن يركبوا معه من الغد ، ويطلعوا الى القلعة ، ويقابلوا به الباشا فأجابوه الى ذلك ، وركبوا من الغد ، صحبته ، الى القلعة ، فخلع عليه الباشا فروة سمور ، ونزل الى داره بالأزبكية بدرب عبد الحق .

وتوفى المترجم فى أواخر شهر شوال من السنة ، وحضروا بجنازته الى الأزهر ، فصلوا عليه ، وذهبوا به الى القرافة ، ودفن بمشهد أسلافهم . رحمه الله تعالى .

* * *

ومات الأجل المكرم ، المهذب فى نفسه ، النادرة فى أبناء جنسه : محمد افندى الودنلى ، الذى عرف بناظر المهمات ، ويعرف أيضا بـ « طبل » ، أى الأعرج ، لأنه كان به عرج .

قدم الى مصر فى أيام قدوم الوزير يوسف باشا ، وولاه محمد باشا خسرو كشوفية أسيوط ثم رجع الى مصر فى ولاية محمد على باشا ، فجعله ناظرا على مهمات الدولة ، وسكن ببيت سليمان أفندى ميسوا ، بعطفة أبى كلبه بناحية الدرب الأحمر ، فتقيد بعمل الخيام والسروج واليرقات ، ولوازم الحروب ، فضاقت عليه الدار ، فاشترى بيت ابن الدالى باللبودية ، بالقرب من قنطرة عمر شاه — وهى دار واسعة عظيمة متخربة — هى وما حولها من الدور والرباع والحوانيت فعمرها وسكن بها ، ورتب بها ورشات أرباب الأشغال والصنائع والمهمات المتعلقة بالدولة ، كسبك المدافع والجلل والقنابر والمكاحل والعربات وغير ذلك من الخيام والسروج ، ومصاريف طوائف العساكر الطبجية والعربجية والرماة ، وعمر ما حول تلك الدار من الرباع والحوانيت والمسجد الذى بجواره ، ومكتبا لاقراء الأطفال ، ورتب تدريسا فى المسجد المذكور بعد العصر ، وقرر فيه السيد أحمد الطحطاوى الحنفى ، ومعه عشرة من الطلبة ، ورتب لهم الف

عثمانى ، تصرف لهم من الروزنامة ، وللأطفال وكسوتهم خلاف ذلك ، ويشترى فى عيد الأضحى جواميس وكباشا ، يذبح منها ويفرق على الفقراء والموظفين ، ويرسل الى أصحابه عدة كباش فى عيد الأضحية الى بيوتهم — الكبش والكبشين — على قدر مقاديرهم ، ويرسل فى كل ليلة من ليالى زمضان عدة قصاع مملوءة بالثريد واللحم الى الفقراء بالجامع الأزهر .

واتفق أن الباشا قصد تعمير المجراة والسواقى التى تنقل الماء من النيل الى القلعة . وكانت قد تهدمت وتخربت وتلاشت ، وبطل عملها مدة سنين . فأحضروا المعمارجية ، فهولوا عليه أمرها ، وأخبروه أنها تحتاج خمسمائة كيس تنفق فى عمارتها ، فعرض ذلك على المترجم فقال له : « أنا أعمرها بمائة كيس » . قال : « كيف تقول ؟ » . قال : « بل بثمانين كيسا » .

والتزم بذلك ، ثم شرع فى عمارتها حتى أتمها على ماهى عليه الآن ، وأهدى اليه رجال دولتهم عدة أثوار معونة له ، فعمر أيضا سواقيها ، وأدارها ، وجرى فيها الماء الى القلعة ونواحيها ، وانتفع بها أهل تلك الجهات ، ورخص الماء ، وكثر فى تلك الأخطاط ، وكانوا قاسوا شدة من عدم الماء عدة سنين .

ومما عد من مناقبه أن القلقات المقيدين بالمراكز وأبواب المدينة ، كانوا يأخذون من الواردين والداخلين والخارجين والمسافرين ، من الفلاحين وغيرهم ، ومعهم أشياء أو أحمال — ولو حطبا أو برسيما أو تبنا أو سرجينا — دراهم على كل شىء ، ولو امرأة فقيرة معها ، أو على رأسها ، مقطف من رجيع البهائم تبيعه فى الشارع وتقتات بثمنه ... فيحجزونها ولا يدعونها تمر حتى تدفع لهم نصف فضة ، ثم يأخذون أيضا من ذلك الشىء ، ويأخذون على كل حمل حمار أو بغل أو جمل نصف فضة .

واذا اشترى شخص من ساحل بولاق أو مصر القديمة أردب غلة أو حملة حطب لعياله ، أخذ منه المتقيدون عند قنطرة الليمون . فاذا خلص منهم استقبله الكائنون بالباب الحديد ... وهكذا سائر الطرق التى يدخل منها المارة الى المدينة ويخرجون ، مثل باب النصر ، وباب الفتوح ، وباب الشعرية ، وباب العدوى ، وطرق الأزبكية وباب القرافة والبرقية وطرق مصرالقديمة . فسعى المترجم بابطال ذلك ، وتكلم مع الباشا ، وعرفه تضرر الناس ... وخصوصا الفقراء . وهؤلاء المتقيدون لهم علائف يقبضونها من الباشا كغيرهم — وهذا قدر زائد — فرخص له فى ابطال هذا الأمر ، وكتب له « بيورلدى » بمنع هؤلاء المركوزين عن أخذ شىء من الناس جملة كافية . وقيد بكل مركز شخصا من أتباعه لمراقبتهم ، وأشاع ذلك فى الناس . فانكفوا وامتنعوا عن أخذ شىء من عامة الناس .

وكانوا يجمعون من ذلك مقادير من الفضة العددية يتقاسمونها آخر النهار ، وذلك خلاف ما يأخذونه من الأشياء المحمولة ، كالجبن والزبد والخيار والقثاء ، وأنواع البطيخ والفاكهة والبرسيم والأحطاب والخضارات وغير ذلك .

ومن مناقبه أيضا : أن الجاويشية والقواسة الأتراك ، المختصين بخدمة الباشا والكتخدا ، كان من عوائدهم القبيحة أنهم فى كل يوم جمعة يلبسون أحسن ملابسهم ، وينتشرون بالمدينة ، ويطوفون على بيوت الأعيان ، وأرباب المظاهر ، وأصحاب المناصب ، ويأخذون منهم البقاشيش ، ويسمونها الجمعية — فما هو الا أن يصطبح أحد من ذكر ، ويجلس مجلسه ، الا واثنان أو ثلاثة عابرون عليه من غير استئذان ، فيقفون قباله وبأيديهم العصى

المفضضة ، فيعطيهم القرشين أو الثلاثة ... بحسب منصبه ومقامه . فاذا ذهبوا وانصرفوا حضر اليه خلافهم ... وهكذا . ولا يرون فى ذلك ثقلا ولا رذالة ، بل يرون أن ذلك من اللازمات الواجبة . فلا يكفى أحد المقصودين : الخمسون قرشا ، أو أقل ، أو أكثر — فى ذلك اليوم — تذهب سبهللا . فكان منهم من ينقطع فى حريمه ذلك اليوم ، أو يتوارى ويتغيب عن منزله . فاذا صادفوه مرة أخرى ذاكروه فيما فاتهم فى السابق : فاما سامحوه وامتننوا عليه بتركها ، أو طالبوه بها ان لم يكن ممن يخشوه ، فسعى أيضا المترجم مع الباشا فى منعهم من ذلك .

ومن مساويه : أنه أول من فتح باب الزيادة فى متحصل الضربخانة ، حتى تنبه الباشا من ذلك الوقت لأهل الضربخانة ، وأوقع بهم ماتقدم ذكره . ومنها احداث المكس على اللبان والحناء والصمغ على ما قيل :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وبالجملة « فمن رأس العين يأتى الكدر » كما قاله الليث بن سعد لما سأله الرشيد ، وقال له : « يا أبا الحرث . ما صلاح بلدكم ؟ » . فقال له : « أما صلاح أمر زراعتها وجدبها وخصبها ... فبالنيل . وأما صلاح أحكامها ... فمن رأس العين يأتى الكدر » . فقال له : « صدقت » . ذكر ذلك الحافظ بن حجر فى « المرحمة الغيثية فى الترجمة الليثية » .

وعلى كل ... فكان المترجم أحسن من رأينا فى هذه الدولة . وكان قريبا من الخير وفعله ، مواظبا على الصلوات الخمس فى أوقاتها ، ملازما على الاشتغال ومطالعة الكتب ، والممارسة فى دقائق الفنون . واقتنى كتبا كثيرة فى سائر الفنون واستنباط الصنائع ، حتى أنه صنع الجوخ الملون الذى يعمل ببلاد الافرنج ، ويجلب الى الآفاق ، ويلبسه الناس للتجمل ... وكان قل وجوده بمصر ، وغلا ثمنه . فعمل عدة أنوال ومناسج غريبة الوضع ، وأحضر أشخاصا من النساجين ، فنسجوا الصوف بعد غزله مدات حددها لهم فى الطول والعرض ، ثم يتسلمه رجال أعدهم لتخميره وتلبيده بالقلى والصابون ، منشورا ومطويا بكيفيات فى أوقات وأيام ، بمباشرته لهم فى العمل واشارته ، ثم يضعونه مطويا فى أحواض من خشب ثخين مزفت ، تمتلىء بالماء من ساقية ، صنعها لخصوص ذلك ، يصب منها الماء الى تلك الأحواض ، تديرها الأثوار . وعلى تلك الأحواض مدقات شبيهة بمدقات الأرز ؛ تتحرك فى صعودها وهبوطها من ترس خاص يدور بدوران الساقية ، وما يفيض من ماء الأحواض يجرى الى بستان زرعه حول ذلك ، فيسقى ما به من الأشجار والمزارع ، فلا يذهب الماء هدرا ، ثم يخرجونه بعد ذلك ويبردخونه ويصبغونه بأنواع الأصباغ ، ويضعونه فى مكبس كبير يقال له « التخت » صنعه لذلك ، وعند ذلك يتم عمله . فكان الناس يذهبون للتفرج على ذلك لغرابته عندهم .

ثم حضر اليه شخص فرنساوى ، وأشار عليه باشارات فى تغيير المدقات ، وأفسد العمل ، واشتغل هو بكثرة المهمات ، فتكاسل عن اعادتها ثانيا ، وبطل ذلك .

وكان ، مع كثرة أشغاله ومصاريفه ، ليس له كاتب ، بل يكتب ويحسب لنفسه ، وبين يديه عدة دفاتر : لكل شىء دفتر مخصوص ، ولا يشغله شىء عن شىء .

ولما اتسعت دائرته ، وكثرت حاشيته ، واجتمعت

فيه عدة مناصب ، مضافة لنظر المهمات — مثل : معمل البارود ، وقاعة الفضة ، ومدابغ الجلود ، وغير ذلك — فكان كتخدا بيك يحقد عليه فى الباطن لأمور بينهما ، حتى قيل ان نفسه طمحت فى الكتخدائية . فكان يتصدر فى الأمور والقضايا ، ويرافع ويدافع ويهزل مع الباشا ويضاحكه ويرادده ، ويدخل عليه من غير استئذان . فلم يزل الكتخدا يلقى فيه الدسائس ، ويعمل معدل الأشغال التى تحت نظره ، ويعرف الباشا بما يتوفر من ذلك ... حتى نزعه من نظارة جميع المهمات ، وقلدها صالح كتخدا الرزاز .

ومما نقمه عليه ، أن الكتخدا حضر لزيارة المشهد الحسينى فى عصرية يوم من رمضان ، ثم ركب متوجها الى داره قبيل الغروب فصادف فى طريقه عدة قصاع كبار مغطاة ، تحملها الرجال . فسأل عنها فعرفوه أن المترجم يرسلها فى كل ليلة من ليالى رمضان الى فقراء الجامع الأزهر — وبها الثريد واللحم — فامتعض من ذلك ، وعرف الباشا أنه يؤلف الناس ويتودد اليهم بأموالك ، ونحو ذلك !

واستمر المترجم بطالا نحو السنتين ، ولم يتضعضع ، ولم يظهر عليه تغير ، ونظامه ومطبخه على حاله ، وطعامه مبذول ، ورواتبه جار . وفى تلك المدة اشتغل بمطالعة الكتب والممارسة والمدارسة ، وعانى الحسابيات وصناعة التقويم ... حتى مهر فى ذلك ، وعمل الدستور السنوى ، وما يشتمل عليه من تقويم الكواكب السيارة ، وتداخل التواريخ والأهلة ، والاجتماعات والاستقبالات ، وطوالع التحاويل والنصبات . ويصنع بيده أيضا الصنائع الفائقة : مثل الظروف التى تأتى من بلاد الهند والافرنج والروم ، ويضع فيها الكتبة محابرهم وأقلامهم ، فيصنعها أولا من الخشب الرقيق والقرطاس المقوم المتلاصق ، ويصبغها وينقشها بأنواع الليق ، ويعيد على النقوشات بالسندروس المحلول ، ويضعها فى صندوق من الزجاج صنعه لخصوص تلك الأشياء والقبورات ، وجفاف دهانها بحرارة الشمس المحجوب بالزجاج عن الهواء والغبار . وعند تمامها تكون فى غاية الحسن والظرافة والبهجة ، بحيث لا يشك من يراها بأنها من صناعة الهند أو الافرنج المتقنين الصناعة .

وكان كلما سمع بشخص ذى معرفة لصناعة من الصنائع أو المعارف ، اجتهد فى تحصيلها وتلقيها عنه بأى وجه كان — ولو ببذل الرغائب وأعد بمنزله أماكن لأشخاص من أرباب المعارف : ينزلهم فيها ، ويجرى عليهم النفقات والكساوى حتى يجتنى ثمار معارفهم وصنائعهم . ويجتمع عنده فى كل ليلة جمعة جماعة من القراء التى مساكنهم قريبة من داره فيذكر الله معهم حصة من الليل ، ثم يفرق فيهم دراهم .

ولما طال به الاهمال ، وفتور الأحوال ... والباشا قليل الاقامة بمصر ، وأكثر أيامه غائب عنها ، فحسن بباله الرحلة من مصر الى الديار الرومية ، ويذهب الى بلاده فاستأذن الباشا عند وداعه ، وهو متوجه الى ناحية قبلى ، فأذن له . وأخذ فى أسباب السفر ، فأرسل الكتخدا الى الباشا ، ودس اليه كلاما ، فأرسل بمنعه ويرتب له خروجا لمطبخه ... فتعوق عن السفر على غير خاطره .

وفى أوائل السنة حضرت اليه والدته وابنته وزوجها ، فأنزلهم فى دار تجاه داره ، وأجرى عليهم ما يحتاجون اليه من النفقة . فاتفق أن صهره المذكور حلف يمينا بالطلاق الثلاث ، وحنث فيه ، ففرق بينه وبين ابنته ، وطرده ، فشكاه الى كتخدا بك ، فكلمه فى شأن ، فلم يقبل وقال . « لا يجوز

أن أحلّ المحرم لأجلك » . واستمر صهره يتردد على الكتخدا ويلقى ما يلقيه فى حقه من النميمة ، ويذكر له عنه فى حقــه ما يزيده غيظا وكراهة ، ويقول له : « انه يجمع أناسا فى كل ليـلة جمعة يقرءون ويدعون عليك وعلى مخدومك » ، وذكر له أنه يقول لكم ان قصده السفر الى بلده ، وانما قصده السفر الى اسلامبول، وليجتمع على مخدومه الأول لكونه تولى قبودان باشا ورياسة الدونانمة ، ويقول عندما أكون بدار السلطنة أفعل وأفعل ، وأخبرهم بحقيقة هؤلاء وأفاعيلهم ، وأنقض عليهم أمرهم . وذكر له أيضا أنه اسـتخرج من أحكام النجوم التى يعانيها ، أن الباشا يحصـل له نكبة بعد مدة قريبة ، ويحصل ما يحصل من الفتن ... فيريد الخروج من مصر قبل وقوع ذلك ، ونحو ذلك .

فلما رجع الباشــا من سفرته ، توسل المترجم بالكتخدا فى أن يأخذ له اذنا من الباشا بالســفر — وهو لايعلم سريرته — ففاوض الباشا فى ذلك ، وألقى اليه ما ألقاه ، حتى أوغر صدره منه ، ثم رد عليه بقوله : « انى استأذنت الباشا فلم يسهل به مفارقتك ، وقال : ان كان عن ضيق فى المعيشة ، فأطلق له فى كل شهر كيسين ، عنها أربعون ألف نصف فضة» . فلما قال له ذلك قال : « أنا لايكفينى هذا المقدار ، فان كان فيطلق لى خمسة أكياس » . فقال : « لم يرض بأزيد مما ذكرته لك » . وكل ذلك مخادعة من الكتخدا ليحقق ما حشــده فى صدر مخدومه . وما زال يتردد فى طلب الاذن ، حتى أذن له ، وأضمر له القتل بعـد خروجه من مصر !

فعند ذلك باع داره ، وما استجده حـولها ، والبستان خارج قنــاطر الســباع ، وما زاد عن حاجته من الأشــياء والأمتعـة ، واشترى عبيدا وجوارى ، وقضى لوازمه ، وسافر الى رشيد ... فعند ما مضى من نزوله يومان أو ثلاثة ، كتبوا الى خليل بيك ، حاكم الاسكندرية ، مرسوما بقتله . فبلغه خبر ذلك ، وهو بثغر رشيد ، فلم يصدقه ، وقال : « أى ذنب أسـتوجب به القتل ؟ ولو أراد قتلى ما الذى يمنعه منــه وأنا عنده بمصر . وأنا سافرت باذنه وودعتــه ، وقبلت يديه وطــرفه ، وأخذت خاطره ، وهو مبشوش معى كعادته ! » .

فلما حصل بالاسكندرية ، واستقر بالسفينة ، ومضى أيام وهم ينتظرون اعتدال الريح ، والاذن من الحاكم بالاقلاع ، ووصل المرسوم الى خليـل بيك ، أرسل اليه فى وقت يدعوه ليتغدّى معه فى رأس التين . ونظر الى خليل بيك ، وهو واقف فى انتظاره على بعد منه فوق علوة ، فأجاب ، وخرج من الســفينة ، فوصل اليه جمــاعة من العسكر ، وأحاطوا به ... فتحقق عند ذلك ما كان بلغه وهو برشيد ، ونظر الى خليل بيك فلم يره ، فقــال : « أمهلونى حتى أتوضأ وأصلى ركعتين » . وقام من حلاوة الروح وألقى بنفسه فى البحر ، فضربوا عليه بالرصاص ، وأخرجوه وتمموا قتله ، وأخرجوا صناديقه ، وأخذوا ما فيها من الكتب لأن الباشا أرسل بطلبها . وأخذ ما معه من المــال والدراهم خليل بيك ، فأعطى لولده جانبــا منه ، وأذن له بالسفر مع عياله . وانقضى أمره ، ووصلت الكتب الى سراية الباشا ، وأودعت عند ولى خوجا ، وتبدد الكثير منها ، وفرق منها عدة على غـير أهلها . وكانت قتلته فى أواخر شهر صفر من السنة . والله أعـلم .

المحرم

الاثنين غرته (٤ يناير ١٨١٣ م) :

فيه : وصل الخبر من الجهة القبلية بأن ابراهيم بيك — ابن الباشا — قبض على أحمد أفندى ابن حافظ أفندى ، الذى بيده دفاتر الرزق الأحباسية ، وشنقه ، وضرب قاسم أفندى ابن أمين الدين — كاتب الشهر — علقة قوية . وكان والده أصحبهما معه ليباشرا معه الأمور ، ويعرفاه الأحوال . وكان قاسم أفندى خصيصا به مثل الوزير ، والصاحب ، والنديم ، ورتب له الباشا فى كل سنة ثمانين كيسا خلاف الخروج والكساوى ، وشرط عليه المناصحة فى كشف المستورات ، وما يكون فيه تحصيل الأموال ... فكأنه قصر فى كشف بعض الأشياء ، وأرسل الى والده يعلمه بخيانته ، هو وكاتب الأرزاق ، وأنهما منهمكان فى ملاذهما ، فأذن له فى فعله بهما ما ذكر ، وأخذ ما كانا جمعاه لأنفسهما ، وأظهر أنه انما فعل بهما ذلك عقوبة على ارتكابهما المعصية .

السبت ٢٠ منه (٢٣ يناير ١٨١٣ م) :

حضر ابراهيم بيك المذكور الى مصر .

وفيه : حصلت منافسة بين حسين أفندى الروزنامجى وبين شخصين من كتابه ، وهما : مصطفى باش جاجرت ، وقيطاس أفندى ، ولعل ذلك باغراء باطنى على حسين أفندى ، فرفعا أمرهما الى الباشا وعرفاه عن مصارف وأمور يفعلها حسين أفندى ويخفيها عن الباشا ، وأنه اذا حوسب على السنين الماضية ، يطلع عليه ألوف من الأكياس .

فعندما سمع ذلك أمرهما بمباشرة حسابه عن أربع سنوات متقدمة . فخرجا من عنده ، وأخذا صحبتهما مباشرا تركيا ، ونزلوا على حين غفلة بعد العصر ، وتوجهوا الى منزل أخيه عثمان أفندى السرجى ، ففتحوا خزانة الدفاتر ، وأخذوها بتمامها ، الى بيت ابن الباشا ابراهيم بيك الدفتردار .

واجتمعوا فى صبحها للمحاققة والحساب مع أخيه عثمان أفندى المذكور ، واستمروا فى المناقشه والمحاققة عدة أيام ... مع المرافعة والمدافعة ، والميل الكلى على حسين أفندى ، ويذهبون فى كل ليلة يخبرون الباشا بما يفعلون ، وبالقدر الذى ظهر عليه . فيعجبه ذلك ، ويثنى عليهما ، ويحرضهما على التدقيق ، فتنتفخ أوداجهما ، ويزيدان فى الممانعة والمدافعه والمرافعة فى الحساب .

وحسين أفندى على جليته ، ويظن أنه على عادته فى كونه مطلق التصرف فى الأموال الميرية ، ويبلغها اذا سئل فيها للقائم بالدولة ، ايرادا ومصرفا ، ليكون اجمالا لا تفصيلا ، لكونه أمينا وعدلا .

وكان الايراد والمصرف محررا ومضبوطا فى الدفاتر التى بأيدى الأفندية الكتاب ، ومن انضم اليهم من كتاب اليهود فى دفاترهم أيضا بالعبرانى ، لتكون كل فرقة شاهدة وضابطة على الأخرى .

فلما استقل هذا الباشا بمملكة الديار المصرية ، واستغول فى تحصيل الأموال بأى

وجه ، واستحدث أقلام المكوس ، وجعلها فى دفاتر تحت أيدى الأفندية وكتبة الروزنامة ، فصارت من جملة الأموال الميرية : فى قبضها وصرفها ، وتحاويلها .. والباشا مرخى العنان للروزنامجى ، ومرخص له فى الاذن والتصرف ... والروزنامجى كذلك مرخى العنان لأحد خواص كتابه ، المعروف بأحمد اليتيم ، لفطانته ، ودرايته . فكان هو المشار اليه من دون الجميع ، ويتطاول عليهم ، ويمقت من فعل فعلا دون اطلاعه ، وربما سبه — ولو كان كبيرا أو أعلى منزلة منه فى فنه — فيتملىء غيظا ، وينقطع عن حضور الديوان ، فيهمله ولا يسأل عنه .. والأفندى الكبير لايخرج عن رأيه لكونه سادا مسد الجميع . فدبروا على أحمد أفندى المذكور ، وحفروا له ، وأغروا به حتى نكبه الباشا ، وصادره فى ثمانين كيسا ، ومخدومه حسين أفندى ، فى أربعمائة كيس .

وانقطع أحمد افندى عن حضور الديوان ، وتقدم المتأخر ، وضم الباشا الى ديوانهم من طرفه خليل أفندى ، وسموه « كاتب الذمة » بمعنى أنه لا يكتب تحويلا ، ولا ورقة ميرى ، ولا خلاف ذلك ، مما يسطر فى ديوانهم ، حتى يطلع عليه خليل أفندى المذكور ، ويرسم عليه علامته . فأحاط علمه بجميع أسرارهم ... وكل قليل يستخبر منه الباشا ، فيحيطه بمعلوماته . ولم يزل حتى تحول ديوانهم ، وانتقل الى بيت خليل أفندى تجاه منزل ابراهيم بيك ابن الباشا بالأزبكية ، وترأس بالديوان قاسم أفندى كاتب الشهر وقريبه قيطاس أفندى ومصطفى أفندى باش جاجرت .

وبعد عدة أشهر سافر ابراهيم بيك ، وأخذ صحبته قاسم أفندى على الصورة المتقدمة ... والروزنامجى وولده محمد أفندى يراعيان جانب رفيقيه ولا يتعرضان لهما فيما يتصدران له ، ويضسانه فى عهدتهما . فلما وصل الخبر بنكبة ابراهيم بيك لقاسم أفندى ، فعند ذلك قصرا معهما ، وأظهر ابن الروزنامجى مكمون غيظه فى حقهما ، ومانعهما أيضا ، وخشن القول لهما ، فاتفقا على انهاء الحال الى باب الباشا ففعلا ما ذكر .

وكان حسين أفندى عند ما استأذن الباشا فى صرف الجامكية السائرة ، للعامة والخاصة ، فأذن له فى صرف ما يتعلق بمشايخ العلم والأفندية الكتبة ، والسيد محمد المحروقى بالكامل ، وما عداهم ربع استحقاقهم ، وكتب له فرمانا بذلك ... فقال له الروزنامجى : « فى بعضهم من يستحق المراعاة كبعض أهل العلم الخاملين ، وأهل الحرمين المهاجرين ، ومستوطنين بمصر بعيالهم ، وليس لهم ايراد يتعيشون منه الا ما هو مرتب لهم من العلائف فى كل سنة ، وكذلك بعض الملتزمين الذين اعتادوا سداد ما عليهم من الميرى ، وبعضه بما لهم من الاتلافات ، والعلائف والغلال» . فقال له : « النظر فى ذلك فى ذلك لرأيك ... فان هذا شيء يعسرضبط جزئياته » . فاعتمد ذلك ، وطفق يفعل فى البعض بالنصف ، والبعض بالثلث ، أو الثلثين . وأما العامة والأرامل ، فيصرف لهم الربع لاغير ، حسب الأمر ، ويقاسون فى تحصيل ربع استحقاقهم الشدائد من السعى وتكرار الذهاب ، والتسويف ، والرجوع فى الأكثر من غير شيء ، مع بعد المسافة ، وفيهم الكثير من العواجز .

فلما ترافعوا فى الحساب ، مانع المتصدر فيما زاد على الربع ، وطلع الى الباشا فعرفه بذلك ، فقال الباشا : « لا تخصموا له الا ما كان باذنى وفرمانى ، وما كان بدون ذلك فلا » . وأنكر الحال السابق منه له ، وقال : « هو متبرع فيما فعله » . فتأخر عليه مبلغ كبير فى مدةأربع سنوات. وكذلك كان يحول عليه حوالات لكبار العسكر برسول من أتباعه ، فلا يسعه الممانعة ، ويدفع القدر المحول عليه بدون فرمان ، اتكالا على الحالة التى هو معه

عليها . فرجعوا عليه فى كثير من ذلك ، وتأخر عليه مبلغ كبير أيضا ، فتمموا حساب سنة واحدة على هذا النسق ، فبلغت نحو الألف كيس ومائتى كيس وكسور تبلغ فى الأربع سنوات خمسة آلاف كيس . فتقلق حسين أفنـدى ، وتحـير فى أمره ، وزاد وسواسه ، ولم يجد مغيثا ولا شافعا ولا دافعا .

أواخره (أواخر يناير ١٨١٣ م) :

عمل الباشا مهما لختان ابن بونابرته الخازندار الغائب ببلاد الحجاز ، وعملوا له زفة فى يوم الجمعة بعد الصلاة ، اجتمع الناس للفرجة عليها .

وفيه أيضا : زاد الارجاف بحصول الطاعون وواقع الموت منه بالأسكندرية ، فأمر الباشا بعمل كرنتيلة بثغر رشـيد ودمياط والبرلس وشبرا ، وأرسل الى الكاشف الذى بالبحيرة بمنع المسافرين المارين من البر . وأمر أيضا بقراءة صحيح البخارى بالأزهر ، وكذلك يقرأون بالمساجد والزوايا سورة الملك والأحقاف فى كل ليـلة بنيـة رفع الوباء فاجتمعوا الا قليلا بالأزهر نحو ثلاثة أيام ، ثم تركوا ذلك ، وتكاسلوا عن الحضور .

الاثنين ٢٩ منه (اول فبراير ١٨١٣ م) :

كسفت الشمس وقت الضحوة . وكان المنكسف نحو ثلاثة أرباع الجرم ، وكانت الشمس فى برج الدلو أيام الشتاء فأظلم الجو الا قليلا ، ولم يتنبه له كثير من الناس لظنهم أنها غيوم متراكمة لأنهم فى فصل الشتاء .

صـفـر

الاربعاء غرته (٣ فبراير ١٨١٣ م) :

فى أخريات النهار هبت ريح جنوبية غربية عاصفة باردة ، واستمرت لعصر يوم السبت ، وكانت قوتها يوم الجمعة . أثارت غبارا أصفر ، ورمالا ، مع غيم مطبق وقتام ، ورش مطر قليل فى بعض الأوقات

الثلاثاء ٧ منه (٩ فبراير ١٨١٣ م) :

وردت بشائر من البلاد الحجازية ، باسـتيلاء العساكر على جدة ومكة من غير حرب . وذلك أنه لما انهزمت الأتراك فى العام الماضى ، ورجعوا على الصورة التى رجعوا عليها ، مشتتين ومتفرقين ، وفيهم من حضر من طريق السويس ، ومنهم من أتى من البر ، ومنهم من حضر من ناحية القصير ؛ ونفى الباشا من استعجل بالهزيمة والرجوع من غير أمره ، ويخشى صولته ، ويرى فى نفسه أنه أحق بالرياسة منه — مثـل صالح قوج ، وسليمان وحجو — وأخرجهم من مصر ، واستراح منهم ، ثم قتل أحمد أغا لاظ ... جدد ترتيبا آخر .

وعرفه كبراء العرب الذين استمالهم واندرجوا معه ، وشيخ الحويطات ، أن الذى حصل لهم انما هو من العرب الموهبين — وهم عرب حرب — والصـفراء ، وأنهم مجهودون ... والوهابيـة لا يعطونهم شيئا ، ويقولون لهم : « قاتلوا عن دينكم وبلادكم » . فاذا بذلتم لهـم الأموال ، وأغدقتم عليهم بالانعام والعطاء ، ارتدوا ورجعوا وصاروا معكم ، وملكوكم البلاد .

فاجتهد الباشا فى جمع الأموال بأى وجه كان ، واستأنف الطلب ، ورتب الأمور ، وأشاع الخروج بنفسه ، ونصب العرضى خارج باب النصر ، وذلك فى شهر شعبان . وخرج بالموكب كما تقدم ، وجلس بالصـيوان ، وقرر للسـفر فى المقدمة بونابارته الخازندار ، وأعطاه صناديق الأموال والكساوى ، ورافق معه عابدين بيك ومن يصحبهما ، وواظب على الخـروج الى العرضى ، والرجوع تارة الى القلعة ، وتارة الى الأزبكية والجيزة وقصر شبرا ، ويعمل الرماحة والميدان فى يومى الخميس والاثنين ، والمصاف على طرائق حرب الافرنج .

وسافر بونابارته فى أواخر شعبان ، واسـتمر العـرضى منصـوبا ، والطلب كذلك مطلوبا ،

والعساكر واردة من بلادها على طريق الاسكندرية ودمياط ، ويخرج الكثير الى العرضى ، ويستمرون على الدخول الى المدينة فى الصباح لقضاء أشغالهم ، والرجوع أخريات النهار مع تعدى أذاهم للباعة والحمارة وغيرهم .

ولما غدر الباشا بأحمد أغا لاظ وقتله فى أواخر رمضان ، ولم يبق أحد ممن يخشى سطوته ، وسافر عابدين بيك فى شوال ، وارتحل بعده بنحو شهر مصطفى بيك دالى باشا ، وصحبته عدة وافرة من العسكر ، ثم سافر أيضا يحيى أغا ومعه نحو الخمسمائة ، وهكذا ... كل قليل ترحل طائفة بعد أخرى . والعرضى كما هو ، وميدان الرماحة كذلك .

ولما وصل بونابرته الى ينبع البر ، أخذوا فى تأليف العربان واستمالتهم ، وذهب اليهم ابن شديد الحويطى ومن معه ، وتقابلوا مع شيخ حرب ، ولم يزالوا به حتى وافقهم . وحضروا به الى بونابرته ، فأكرمه وخلع عليه الخلع ، وكذلك على من حضر من أكابر العربان ، فألبسهم الكساوى والفراوى السمور والشالات الكشميرى ... ففرق عليهم من الكشمير ملء أربع سحاحير وصب عليهم الأموال ، وأعطى لشيخ حرب مائة ألف فرانسة عين . وحضر باقى المشايخ فخلع عليهم وفرق فيهم ، فخص شيخ حرب بمفرده ثمانية عشر ألف فرانسة . ثم رتب لهم علائف تصرف لهم فى كل شهر : لكل شخص خمسة فرانسة ، وغرارة بقسماط ، وغرارة عدس . فعند ذلك ملكوهم الأرض ، والذى كان متأمرا بالمدينة من جنسهم استمالوه أيضا ، وسلم لهم المدينة . وكل ذلك بمخامرة الشريف غالب أمير مكة ، وتدبيره واشاراته . فلما تم ذلك أظهر الشريف غالب أمره ، وملكهم مكة والمدينة .

وكان ابن سعود الوهابى حضر فى الموسم وحج ، ثم ارتحل الى الطائف . وبعد رحيله فعل الشريف غالب فعله ، وسيلقى جزاءه !

ولما وصلت البشائر بذلك فى يوم الثلاثاء سابعه ، ضربوا مدافع كثيرة ، ونودى فى صبح ذلك بزينة المدينة ومصر وبولاق ، فزينوا خمسة أيام : أولها الأربعاء ، وآخرها الأحد . وقاسى الناس فى ليالى هذه الأيام العذاب الأليم من شدة البرد والصقيع وسهر الليل الطويل . وكان ذلك فى قوة فصل الشتاء ، وكل صاحب حانوت جالس فيها ، وبين يديه مجمرة نار يتدفأ ويصطلى بحرارتها ، وهو ملتف بالعباءة والأكسية الصوف أو اللحاف .

وخرج الباشا من ليلة الأربعاء المذكور ، ونصبت الخيام ، وخرجت الجمال المحملة باللوازم من الفرش والأوانى وأزيار الماء ، والبارود لعمل الشنانك والحرائق . وفى كل يوم يعمل مرماح وشنك عظيم مهول بالمدافع وبنادق الرصاص المتواصلة من غير فاصل ، مثل الرعود والطبول ، من طلوع الشمس الى قريب الظهر .

وفى أول يوم من أيام الرمى أصيب ابراهيم بيك ابن الباشا برصاصة فى كتفه .. أصابت شخصا من السواس ، ونفذت منه اليه وهى باردة ، فتعلل بسببها ، وخرج بعد يومين فى عربة الى العرضى ثم رجع .

ولما كان يوم الأحد وقت الزوال ، ركب الباشا وطلع الى القلعة ، وقلعوا خيام الشنك ، وحملوا الجمال ، ودخلت طوائف العسكر . وآذن للناس بقلع الزينة ونزول التعاليق ... وكان الناس قد عمروا القناديل ، وأشاعوا أنها سبعة أيام .

فلما حصل الاذن بالرفع فكأنما نشطوا من عقال ، وخلصوا من السجون لما قاسوه من البرد والسهر ، وتعطيل الأشغال وكساد الصنائع ، والتكليف بما لا طاقة لهم به . وفيهم من لا يملك قوت عياله ، أو تعمير سراجه ، فيكلف مع ذلك هذه التكاليف .

ابراهيم

وكتب الباشا بالبشائر الى دار السلطنة ، وأرسلها صحبة أمين جاويش . وكذلك الى جميع النواحى ، وأنعم بالمناصب على خواصه .

وفى هذا الشهر : وردت أخبار بوقوع أمطار وثلوج كثيرة بناحية بحرى وبالأسكندرية ورشيد بحدود الغربية والمنوفية والبحيرة ، وشدة برد . ومات من ذلك أناس وبهائم ، والزروع البدرية ، وطفى على وجه الماء أسماك موتى كثيرة ، فكان موج البحر يلقيه على الشطوط ، وغرق كثير من السفن من الرياح العواصف التى هبت فى أول الشهر .

وفيه : أحضر الباشا حسين أفندى الروزنامجى ، وخلع عليه خلعة الابقاء على منصبه فى الروزنامه ، وقرر عليه ألفين وخمسمائة كيس ! وذلك أنهم لما رافعوه فى الحساب على الطريقة المذكورة أرسل اليه الباشا بطلب خمسمائة كيس من أصل الحساب ، فضاق خناقه ، ولم يجد له شافعا ولا ذا مرحمة . فأرسل ولده الى محمود بيك الدويدار يستجير فيه ، وليكون واسطة بينه وبين الباشا — وهو رجل ظاهره خلاف باطنه — فذهب معه الى الباشا فبش فى وجهه ورحب به ، وأجلسه محمود بيك فى ناحية من المجلس ، وتناجى هو مع الباشا ، ورجع اليه يقول له : « انه يقول : ان الحساب لم يتم الى هذا الحين ، وأنه ظهر على أبيك تاريخ أمس ، خمسة آلاف كيس وزيادة ، وأنا تكلمت معه ، وتشفعت عنده فى ترك باقى الحساب والمسامحة فى نصف المبلغ والكسور ، فيكون الباقى ألفين وخمسمائة كيس تقومون بدفعها » !

فقال : « ومن أين لنا هذا القدر العظيم .. وقد عزلنا من المنصب أيضا حتى كنا تتداين ؟! ولا يأمننا الناس اذا كان القدر دون هذا أيضا » .

فرجع الى الباشا وعاد اليه يقول له : « لم يمكننى تضعيف القدر يسوى ما سامح فيه . وأما المنصب فهو عليكم ... وفى غد يطلع والدك ويتجدد عليه الابقاء ، وينكمد الخصم . وعلى الله السداد » .

ونهض وقبل يده ، وتوجه فنزل الى دارهم ، وأخبر والده بما حصل ... فزاد كربه ، ولم يسعه الا التسليم ، وركب فى صبحها وطلع الى الباشا ، فخلع عليه ، ونزل الى داره بقهره ، وشرع فى بيع تعلقاته وما يتحصل لديه !

الاثنين ١٣ منه (١٥ فبراير ١٨١٣ م) :

خلع الباشا على مصطفى أفندى ، ونزل إلى داره ، وأتاه الناس يهنئونه بالمنصب !

الاربعاء ٢٢ منه (٢٤ فبراير ١٨١٣ م) :

وردت بشائر بتملكهم الطائف ، وهروب المضايفى منها . فعملوا شنكا ، وضربوا مدافع

كثيرة من القلعة وغيرها ، ثلاثة أيام ، فى كل وقت أذان . وشرع الباشا فى تشهيل ولده اسماعيل باشا بالبشارة ليسافر الى اسلامبول . وتاريخ تملكها فى سادس عشرين المحرم (٢٩ يناير ١٨١٣) .

وفى هذه الأيام : ابتدعوا تحرير الموازين ، وعملوا لذلك ديوانا بالقلعة ، وأمروا بإبطال موازين الباعة واحضار ما عندهم من الصنج ... فيزنون الصنجة : فان كانت زائدة أو ناقصة ، أخذوها وأبقوها عندهم ، وان كانت محررة الوزن ، ختموها بختم . وأخذوا على كل ختم صنجة ثلاثة أنصاف فضة ، وهى النصف أوقية والأوقية ... الى الرطل الذى يكون وزنه غير محرر يعطوه رطلا من حديد ويدفع ثمنه مائة نصف فضة ، والنصف رطل خمسون ... وهكذا . وهو باب يتجمع منه أكياس كثيرة .

وفيه أيضا : طلب الباشا من عرب الفوائد غرامة سبعين ألف فرانسة فعصوا ورمحوا باقليم الجيزة ، وأخذوا المواشى ، وشلحوا من صادفوه . ورمح كاشف الجيزة عليهم ، فصادف منهم أباعر محملة أمتعة لهم ، وصحبتهم نساء وأولاد ، فأخذهم ورجع بهم .

وفيه : سافر ابراهيم بيك ابن الباشا الى ناحية قبلى ، ووصلت الأخبار بوقوع الطاعون بالاسكندرية . فاشتد خوف الباشا والعسكر مع قساوتهم وعسفهم وعدم مرحمتهم !

ربيع الأول

الخميس غرته (٤ مارس ١٨١٣ م) :

قلدوا شخصا يسمى حسين البرلى ، وهو الكتخدا عند كتخدا بيك ، وجعلوه فى منصب بيت المال ، وعزلوا رجب أغا ... وكان انسانا سهلا لا بأس به . فلما تولى هذا ، أرسل لجميع مشايخ الخطط والحارات ، وقيد عليهم بأنهم يخبرونه بكل من مات من ذكر أو أنثى ، ولو كان ذا أولاد أو ورثة أو غير ذلك ، وكذلك على حوانيت الأموات . وأرسل فرمانات الى بلاد الأرياف والبنادر بمعنى ذلك .

الأحد ٤ منه (٧ مارس ١٨١٣ م) :

طلب الباشا حسين أفندى الروزنامجى ، وطلب منه ما قرره عليه — وكان قد باع حصصه وأملاكه ودار مسكنه ، فلم يوف الا خمسمائة كيس — فقال له : « ما لك لم توف القدر المطلوب ؟ وما هذا التأخير وأنا محتاج الى المال ؟ » . فقال : « لم يبق عندى شىء ، وقد بعت التزامى وأملاكى وبيتى ، وتداينت من الربويين حتى وفيت خمسمائة كيس وها أنا بين يديك » ! فقال له : « هذا كلام لا يروج على ، ولا ينفعك ، بل أخرج المال المدفون » . فقال : « لم يكن عندى مال مدفون . وأما الذى أخبرك عنه فيذهب فيخرجه من محله » !

فحنق منه وسبه ، وقبض على لحيته ، ولطمه على وجهه ، وجرد السيف ليضربه فترجى فيه الكتخدا والحاضرون فأمر به فبطحوه ، وأمر القواسة الأتراك بضربه ، فضربوه بالعصى المفضضة التى بأيديهم ، بعد أن ضربه هو بيده عدة عصى ، وشج جبهته ... حتى أتوا عليه ثم أقاموه وألبسوه فروته ! وحملوه وهومغشى عليه ، وأركبوه حمارا ، وأحاط به خدمه وأتباعه حتى أوصلوه الى منزله ، وأرسل معه جماعة من العسكر يلازمونه ، ولا يدعونه يدخل الى حريمه ، ولا يصل إليهم منه أحد .

وركب فى أثره محمود بيك الدويدار بأمر الباشا ، وعبر داره ودار أخيه عثمان أفندى المذكور ، وأخذه صحبته الى القلعة ، وسجنوه ... وأما ولده وأخواه ، فانهم تغيبوا من وقت الطلب ، واختفوا .

ونزل اليه فى اليوم الثانى ابراهيم أغا أغات الباب ، يطالبه بحلاق ثمانمائة كيس وقتئذ ! فقال له : « وكيف أحصل شيئا وأنا رجل ضعيف ، وأخى عثمان عندكم فى الترسيم ؟ وهو الزعيم يعيننى ويقضى أشغالى ، وأخذتم دفاترى المختصة بأحوالى مع ما أخذتموه من الدفاتر » . فأقام عنده ابراهيم أغا برهة ، ثم ركب الى الباشا وكلمه فى ذلك فأطلقوا له أخاه ليسعى فى التحصيل .

الاحد ١١ منه (١٤ مارس ١٨١٣ م) :

عدى الباشا الى بر الجيزة بقصد السفر الى بلاد الفيوم ، وأخذ صحبته كتبة مباشرين ، مسلمين ونصارى ، وأشاع أن سفره الى الصعيد ليكشف على الأراضى وروكها . وارتحل فى ليلة الثلاثاء ثالث عشره بعد أن وجه ابنه اسماعيل الى الديار الرومية فى تلك الليلة بالبشارة .

الاحد ٢٥ منه (٢٨ مارس ١٨١٣ م) :

حضر لطيف أغا راجعا من اسلامبول ، وكان قد توجه ببشارة فتح الحرمين . وأخبروا أنه لما وصل الى قرب دار السلطنة ، خرج لملاقاته الأعيان . وعند دخوله الى البلدة ، عملوا له موكبا عظيما ... مشى فيه أعيان الدولة وأكابرها ، وصحبته عدة مفاتيح ، زعموا أنها مفاتيح مكة وجدة والمدينة ، وضعوها على صفائح الذهب والفضة ، وأمامها البخورات فى مجامر الذهب والفضة والعطر والطيب ، وخلفهم الطبول والزمور . وعملوا لذلك شنكا ومدافع ، وأنعم عليه السلطان ، وأعطاه خلعا وهدايا ... وكذلك أكابر الدولة . وأنعم عليه الخنكار بطوخين ، وصار يقال له لطيف باشا .

وفيه : وردت الأخبار بقدوم قهوجى باشا ، ومعه خلع وأطواق للباشا ، وعدة أطواخ بولايات لمن يختار تقليده . فاحتفل الباشا به عند ما وصلته أخباره ، وأرسل الى أمراء الثغور بالاسكندرية ودمياط بالاعتناء بملاقاته عند وروده على ثغر منها

وفيه : حضر خليل بيك حاكم الاسكندرية الى مصر فرارا من الطاعون لأنه قد فشا بها ، ومات أكثر عسكره وأتباعه

ربيع الآخر

٨ منه (١٠ ابريل ١٨١٣ م) :

حضر الباشا على حين غفلة من الفيوم الى الجيزة . وأخبروا أنه لما وصل الى ناحية بنى سويف ، ركب بغلة سريعة العدو ، ومعه بعض خواصه على الهجن والبغال ، فوصل الى الفيوم فى أربع ساعات ، وانقطع أكثر المرافقين له ، ومات منهم سبعة عشر هجينا .

١٠ منه (١٢ ابريل ١٨١٣ م) :

عملوا مولد المشهد الحسينى المعتاد ، وتقيد لتنظيمه السيد المحروقى الذى تولى النظارة عليه وجلس ببيت السادات المجاور للمشهد بعد أن أخلوه له .

وفى ذلك اليوم : أمر الباشا بعمل كورنتيلة بالجيزة ، ونوه باقامته بها ، وزاد به الخوف والوهم من الطاعون لحصول القليل منه بمصر . وهلك الحكيم الفرنساوى ، وبعض نصارى أروام ... وهم يعتقدون صحة الكورنتيلة ، وانها تمنع الطاعون وقاضى الشريعة ، الذى هو قاضى العسكر ، يحقق قولهم ، ويمشى على مذهبهم . ولرغبة الباشا فى الحياة الدنيا ، وكذلك أهل دائرته ، وخوفهم من الموت ... يصدقون قولهم حتى انه اتفق أنه مات بالمحكمة عند القاضى شخص من أتباعه ، فأمر بحرق ثيابه ، وغسل المحل الذى مات فيه ، وتبخيره بالبخورات .. وكذلك غسل الأوانى التى كان يمسها ، وبخروها . وأمروا أصحاب الشرطة أنهم

يأمرون الناس ، وأصحاب الأسواق ، بالكنس والرش والتنظيف فى كل وقت ونشر الثياب . واذا ورد عليهم مكاتبات خرقوها بالسكاكين ، ودخنوها بالبخور قبل ورودها .

ولما عزم الباشا على كورنتيلة الجيزة ، أرسل فى ذلك اليوم بأن ينادوا بها على سكانها : بأن من كان يملك قوته وقوت عياله ستين يوما ، وأحب الاقامة ... فليمكث بالبلدة . والا فليخرج منها ويذهب ، ويسكن حيث أراد فى غيرها . ولهم مهلة أربع ساعات . فانزعج سكان الجيزة ، وخرج من خرج ، وأقام من أقام .

وكان ذلك وقت الحصاد ، ولهم مزارع وأسباب مع مجاوريهم من أهل القرى . ولا يخفى احتياجات الشخص لنفسه وعياله وبهائمه ... فمنعوا جميع ذلك ، حتى سدوا خروق السور والأبواب ، ومنعوا المعادى مطلقا .

وأقام الباشا ببيت الأزبكية لايجتمع بأحد من الناس الى يوم الجمعة فعدى فى ذلك اليوم ، وقت الفجر ، وطلع الى قصر الجيزة ، وأوقف مركبين : الأولى ببر الجيزة ، والأخرى فى مقابلتها ببر مصر القديمة . فاذا أرسل الكتخدا أو المعلم غالى اليه مراسلة ، ناولها المرسل للمقيد بذلك فى طرف مزراق ، بعد تبخير الورقة بالشيح واللبان والكبريت ، ويتناولها منه الآخر بمزراق آخر ، على بعد منهما ، وعاد راجعا . فاذا قرب من البر ، تناولها المنتظر له أيضا بمزراق ، وغمسها فى الخل ، وبخرها بالبخور المذكور ، ثم يوصلها لحضرة المشار اليه بكيفية أخرى ! فأقام أياما وسافر الى الفيوم ، ورجع كما ذكر . وأرسل مماليكه ، ومن يعز عليه ويخاف عليه من الموت ، الى أسيوط .

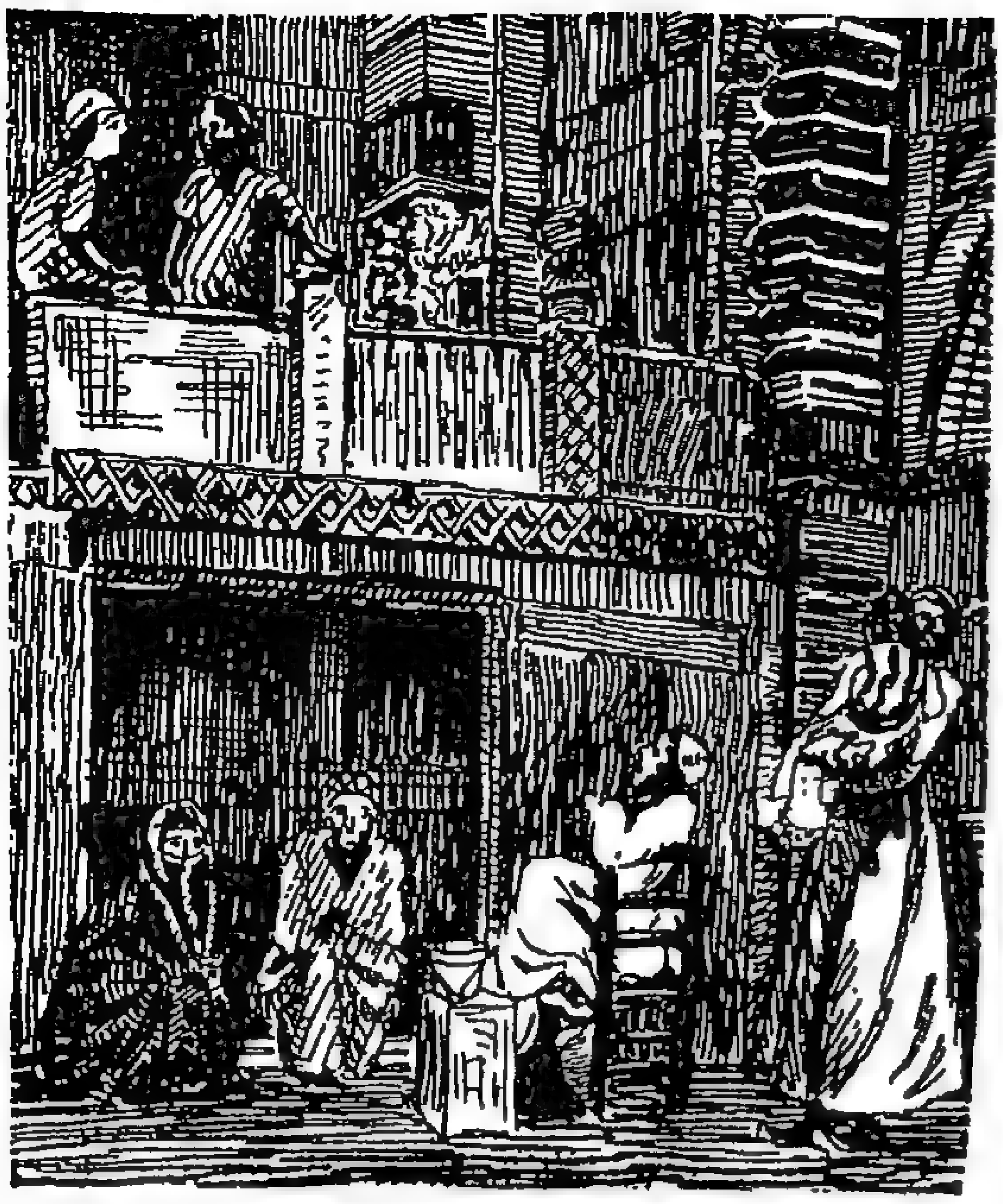

اسرة احتجبت بالبيت

جمادى الأولى

٧ منه (٨ مايو ١٨١٣ م) :

نودى بالأسواق : بأن السيد محمد المحروقى شاه بندر التجار بمصر ، وله الحكم على جميع التجار ، وأهل الحرف ، والمتسببين ... فى قضاياهم وقوانينهم ، وله الأمر والنهى فيهم .

وفيه وصل الى مصر عدة كبيرة من العساكر الرومية على طريق دمياط ، ونصبوا لهم وطاقا خارج باب النصر ، وحضر فيهم نحو الخمسمائة نفر ... أرباب صنائع : بنائين ونجارين وخراطين ، فأنزلوهم بوكالة بخط الخليفة .

٨ منه (٩ مايو ١٨١٣ م) :

تقلد الحسبة الخواجا محمود حسن ، ولبس الخلعة ، وركب وشق المدينة وأمامه الميزان ، فرسم برد الموازين الى الأرطال الزياتى ، التى عبرة الرطل منها أربع عشرة أوقية ، فى جميع الأدهان

والخضراوات على العـادة القديمة ، ونقص من أسعار اللحم وغيره . ففرح الناس بذلك ... ولكن لم يستمر ذلك .

١١ منه (١٢ مايو ١٨١٣ م) :

بين الظهر والعصر كانت السمـاء مصحيـة ، والشمس مضيئة صـافية ... فما هو الا والسماء والجو طلع به غيم وقتام ورياح نكبـاء غربيـة جنوبية ، وأظلم ضوء الشمس ، وأرعدت رعدتين : الثانية أعظم من الأولى ، وبرق ظهر ضـوؤه ، وأمطرت مطر متوسطا . ثم سكن الريح ، وانجلت السماء وقت العصر .. وكان ذلك سـابع بشنس القبطى ، وآخر يوم من نيسان الرومى . فسبحان الملك الفعال ، مغير الشئون والأحوال .

وحصل فى تاليه — يوم الجمعة — مثل ذلك الوقت أيضا ، غيوم ورعود كثيرة ، ومطر أزيد من اليوم الأول .

جمـادى الآخرة

السبت ١٢ منه (١٢ يونية ١٨١٣ م) :

وصل فى النيل على طريق دمياط ، أغا من طرف الدولة ، يقال له قهوجى باشا السلطان فاعتنى الباشا بشـأنه ، وحضر الى قصره بشبرا ، وأمر باحضار عدة من المدافع وآلات الشنك . وعملوا أمام القصر بساحل النيل تعاليق وقناديل وقدات . ونبه على الطوائف بالاجتماع بملابسهم وزينتهم .

ووصل الأغا المـذكور يوم الأحـد ، فخرج الأغوات ، والسفاشية ، والصقلية ، وهم لابسون القواويق ، وجميع العساكر الخيالة ليلا ... فما طلعت الشمس حتى اجتمعـوا بأسرهم جهـة شـبرا ، وانتظموا فى موكب ، ودخلوا من باب النصر ، ويقـدمهم طوائف الدلاة وأكابرهـم ، ويتلوهم أرباب المناصب ، مثل : الأغا ، والوالى ، والمحتسب ، وبواقى وجاقات المصرية ... ثم موكب كتخدا بيك ، وبعده موكب الأغا الواصـل ، وفى أثره ما وصل معه من الخلع ، وهى : أربع بقچ ، وخنجران مجوهران ، وسيف ، وثلاث شلنجات عليها ريش مجوهرة ... وخلف ذلك العســاكر الخيالة ، والتفكجية ، وخلفهم النوبة التركية .. فكان مدة مرورهم نحـو ساعتين وربع . وليس فيهم رجالة مشاة سوى الخدم ، وقليل عسـكر مشاة ، وأما بقية العسكر فهم متفرقون بالأسواق والأزقة ، كالجراد المنتشر ، خلاف من يرد منهم فى كل وقت من الأجناس المختلفة برا وبحرا . فمن الخلع الواردة ما هو مختص بالباشا ، وهو فروة ، وخنجر ، وريشة بشلنج ، وأطواخ ، ولابنه ابراهيم بيك مثل ذلك .

وأسـكنوا ذلك الأغـا ورفيقـه وأتباعهما ، بمنزل ابراهيـم بيك ابن البـاشا بالأزبكية ، بقنطرة الدكة وأرسـل باحضار ولده من ناحية قبلى ، فحضر على الهجن ، ولبس الخلعة بولايتـه على الصعيد . فنزل بالجيزة ، وعدى الى بر مصر عند أبيه بقصر شبرا ، ولبس الخلعة ، وأقام عند أبيه ثلاث ليال ، ثم عدى الى بر الجيزة وعندما وصل الى البر أمر بتغريق السفينة بما فيهـا من الفرش ، ثم أخرجوها ! وكذلك أمر من معه من الرجال بالغطوس فى الماء وغسل ثيابهم ... كل ذلك خوفا من رائحـة الطاعون ، وتطـيرا وهروبا من الموت !

الجمعة ٢٥ منه (٢٥ يونية ١٨١٣ م) :

سافر ابراهيم بيك راجعا الى الصعيد .

وفيه حضر عرضى الباشا الذى كان سافر فى ربيع الأول الى الجهـة القبلية ، ومعـه الكتبة أيضـا المسلمون ، لتحرير حساب الأقباط ، ومسـاحة الأراضى .

في أواخره (أواخر يونية ١٨١٣ م) :

نودى على أهل الجيزة : باستمرار الكورنتيلة شهرى رجب وشعبـان ، وأن يعطوا لهم فسحة للمتسـببين والبـاعة ، ثلاثة أيام . وكذلك لمن يخرج ، أو اذا دخل لا يخرج اذا كان عنـده ما يكفيه ويكفى عيـالا فى مدة الشهرين والثـلاثة أيام المفسح لهم فيها ليقضوا أشغالهم واحتياجاتهم . فخرج أهل البـلدة بأسرهم ... لم يبق منهم الا القليل النادر ، القادر . وأيضا تفرقوا فى البلاد ، وبقى الكثير منهم حول البلدة ، وفى الغيطان حول بيادرهم وأجرانهم ، وعملوا لهم أعشاشا تظلهـم من حر الشمس ووهج الهجير . وينادى المقيـم بالبلدة بحاجته من أعلى السور لرفيقه أو صاحبه الذى هو خارج البلدة ، فيجيبه ويرد جوابه من مكان بعيد ، ولا يمكنونهم من تناول الأشـياء .

١ وأما العسكر فانهم يدخلون ويخرجون ويقضون حوائجهم ، ويشترون الخضراوات والبطيخ وغيره ويبيعونه على المقيمين بالبلدة بأغلى الأثمان . واذا أراد أحد من أهل البلدة الخروج ، منعوه من أخذ شىء من متاعـه أو بهيمته أو شاته أو حمـاره ، ولا يخرج الا مجردا بطوله !

وفيه : وصل من الديار الرومية واصل ، وعلى يده مرسوم ، فقرىء بالمحـكمة فى يوم الأحد ، ثامن عشرينه ، بحضرة كتخـدا بيك ، والقـاضى والمشـايخ وأكابر الدولة ، والجم الغفـير مـن النـاس . ومضمونه : الأمـر للخطباء فى المساجد يوم الجمعة على المنابر ، بأن يقولوا عنـد الدعاء للسلطان ، فيقولوا : السلطان ابن السلطان (بتكرير لفظ السلطان ثلاث مرات) محمـود خان ، ابن السلطان عبد الحميد خان ، ابن السلطان أحمد خان المغـازى ، خادم الحرمين الشريفين ... لأنه استحق أن ينعت بهـذه النعوت لكون عساكره افتتحت بلاد الحرمين ، وغزت الخوارج ، وأخرجتهم منها . لأن المفتى أفتاهم بأنهم كفار ... لتكفيرهم المسلمين . ويجعلونهم مشركين ، ولخروجهم على السلطان ، وقتلهم الأنفس ، وأن من قاتلهم يكون مغازيا ، ومجاهدا ، وشهيدا اذا قتل .

ولما انقضى المجلس ضربوا مدافع كثيرة من القلعة وبولاق والجيزة ، وعملوا شنكا . واستمر ضربهم المدافع عند كل أذان ، عشرة أيام ، وذلك ونحوه من الخور .

رجب

١٥ منه (١٤ يولية ١٨١٣ م) :

حضر بونابارته الخازندار من الديار الحجازية على طريق القصير .

في أواخره (أواخر يولية ١٨١٣ م) :

سافر قهوجى باشا ، الذى تقدم ذكر حضوره ، بالخلع والشلنجات والخناجر ، بعد ما أعطى خدمته مبلغا من الأكياس ، وأصحب معه البـاشا هدية عظيمة لصـاحب الدولة وأكابرها ، وقدره من الذهب العين أربعون ألف دينار ، ومن النصفيات — يعنى نصف الدينار — ستون ألفا ، ومن فروق البن خمسمائة فرق ، ومن السكر المكرر مرتين مائة قنطار ، ومن المـكرر مرة واحـدة مائتى قنطار ، ومائتا قدر صينى ، الذى يقال له « أسكى معدن » ، مملوءة بالمربيـات وأنواع الشربات ، المسـك المطيب المختلف الأنواع ، ومن الخيول خمسون جه اذا مرختهبالجوهر والنمدكش واللؤلؤ والمرجان ، وخمسون حصانا من غير رخوت ، وأقمشة هندية كشميرى ، ومقصبات وشاهى ، ومهترخان فى عدة تعابى بقچ ، وبخور عود وعنبر ، وأشياء أخرى .

وفيه أيضا : حضر أغا يقال له « جانم افندى » وصحبته مرسوم قرىء بالديوان فى يوم الاثنين . مضمونه : البشارة بمولود ولد للسلطان وسموه

« عثمان » . واجتمع لسماع ذلك المشايخ والأعيان ، وضربوا بعد قراءته شنكا ومدافع ، واستمر ذلك سبعة أيام فى كل وقت من الأوقات الخمسة .

شعبان

٢٠ منه (١٩ اغسطس ١٨١٣م - ١٣ مسرى ١٥٢٩ق) :

أوفى النيل المبارك أذرعه ، ونودى بعد ذلك فى الأسواق على العادة ، وكثر اجتماع غوغاء الناس للخروج الى الروضة ، وناحية السد ... والولائم فى البيوت المطلة على الخليج ، وما يحصل من اجتماع الأخلاط أمام جرى الماء — كما هو المعتاد فى كل سنة — وأنه اذا نودى بالوفاء حصل ذلك الاجتماع فى تلك الليلة ، وكسروا السد فى صبحها... عادة لا تتخلف فيما نعلم .

فلما كان آخر النهار ، ورد الخبر بأن الباشا أمر بتأخير فتح الخليج الى يوم الخميس ثانيه ، فكان كذلك . وخرج الباشا فى صبح يوم الخميس ، وكسر السد ، وجرى الماء فى الخليج ، وتكلف أرباب الدور المطلة على الخليج كلفة ثانية لضيفانهم .

رمضان

٥ منه (أول سبتمبر ١٨١٣ م) :

حضر ابن الباشا — المسمى باسماعيل — من الديار الرومية ، ووصل الى ساحل النيل بشبرا ، وضربوا لوصوله مدافع من القلعة وبولاق وشبرا والجيزة وتقدم أنه توجه ببشارة الحرمين ، وأكرمته الدولة ، وأعطوه أطواخا .

١٠ منه (٦ سبتمبر ١٨١٣ م) :

حضر قاصد من الديار الرومية ، ووصل الى ساحل النيل ، وصحبته بشارة بمولودة ولدت لحضرة السلطان . فعملوا الديوان بالقلعة ، واجتمع به المشايخ والأعيان ، وأكابر الدولة . وقرىء الفرمان الواصل فى شأن ذلك . وفى مضمونه : الأمر للكافة بالفرح والسرور !!! وعمل الشنك !

وبعد الفراغ من ذلك ضربت المدافع من أبراج القلعة ، واستمر ضربها ، فى كل وقت أذان ، خمسة أيام . وهذا لم يعهد فى الدول الماضية الا للأولاد الذكور . وأما الاناث فليس لهم ذكر .

٢٧ منه (٢٣ سبتمبر ١٨١٣ م) :

عمل الباشا جمعية ببيت الأزبكية ، وأحضر الأعيان والمشايخ والقضاة الثلاثة ، وهم : بهجت أفندى المنفصل عن قضاء مصر ، وصديق أفندى المتوجه الى قضاء مكة ، المنفصل عن قضاء مصر العام الذى قبله ، والقاضى المتوجه الى المدينة .. فعقدوا عقد ابنه اسماعيل باشا ، على ابنة عارف بيك التى حضرت بصحبته من الديار الرومية ، وعقدوا عقد أخته ، ابنة الباشا ، على محمد افندى الذى تقلد الدفتردارية .

ولما تم ذلك قدموا لهم تعابى بقج ، فى كل واحدة أربع قطع من الأقمشة الهندية . وهى : شال كشميرى ، وطاقة مسجر ، وطاقة قطنى هندى ، وطاقة شاهى . وفرقوا على الدون من الناس الحاضرين محارم .

ثم ان الباشا شرع فى الاهتمام الى سفر الحجاز ، وتشهيل المطاليب واللوازم . فمن جملة ذلك : أربعون صندوقا من الصفيح المشمع داخلها بالشمع والمصطكى وبالخشب من خارج ، وفوق الخشب جلود البقر المدبوغ ، ليودع بها ماء النيل المغلى لشربه وشرب خاصته ، ومثلها فى كل شهر ... يتقيد بعمل ذلك وغيره السيد المحروقى ، ويرسله فى كل شهر !

شوال

٧ منه (٣ اكتوبر ١٨١٣ م) :

أداروا كسوة الكعبة ، وكانت مصنوعة من نحو خمس سنوات ، ومودوعة فى مكان بالمشهد الحسينى ، فأخرجوها فى مستهل الشهر ، وقد توسخت لطول المدة ، فحلوها ومسحوها . وكان عليها اسم السلطان مصطفى ، فغيروه ، وكتبوا اسم السلطان محمود . فاجتمع الناس للفرجة عليها ، وكان المباشر لها الريس حسن المحروقى ، فركب فى موكبها .

١٤ منه (١٠ اكتوبر ١٨١٣ م) :

خرج محمد على باشا مسافرا الى الحجاز ... وكان خروجه ، وقت طلوع الفجر من يوم السبت المذكور ، الى بركة الحاج . وخرج الأعيان والمشايخ لوداعه بعد طلوع النهار ، فأخذوا خاطره ورجعوا آخر النهار . وركب هو متوجها الى السويس بعد مضى ثمانى ساعات وربع من النهار ، وبرزت الخيالة والسفاشية الى خارج باب النصر ، ليذهبوا على طريق البر . وقبل خروج الباشا بيومين قدمت هجانة مبشرون بالقبض على عثمان المضايفى بناحية الطائف . وكان قد جرد على الطائف ، فبرز اليه الشريف غالب ، وصحبته عساكر الأتراك والعربان ، فحاربوه وحاربهم ، فأصيب جواده ، فنزل الى الأرض واختلط بالعسكر فلم يعرفوه ، فخرج من بينهم ومشى ، وتباعد عنهم نحو أربع ساعات ، فصادفه جماعة من جند الشريف ، فقبضوا عليه ، وأصابته جراحة ... وعندما سقط من بين قومه ، ارتفع الحرب فيما بين الفريقين آخريات النهار . ولما أحضروه الى الشريف غالب ، جعل فى رقبته الجنزير .

والمضايفى هذا زوج أخت الشريف . وخرج عنه ، وانضم الى الوهابيين ، فكان أعظم أعوانهم ... وهو الذى كان يحارب لهم ويقاتل ، ويجمع قبائل العربان ، ويدعوهم عدة سنين ، ويوجه السرايا على المخالفين . ونما أمره ، واشتهر لذلك ذكره فى الأقطار . وهو الذى كان افتتح الطائف ، وحاربها وحاصرها ، وقتل الرجال ، وسبى النساء ، وهدم قبة ابن عباس ، الغريبة الشكل والوصف . وكان هو المحارب للعسكر مع عربان حرب فى العام الماضى بناحية الصفراء والجديدة ، وهزمهم وشتت شملهم .

ولما قبضوا عليه أحضروه الى جدة ، واستمر فى الترسيم عند الشريف ليأخذ بذلك وجاهة عند الأتراك الذى هو على ملتهم ، ويتحقق لديهم نصحه لهم ، ومسالمته اياهم ... وسيلقى قريبا منهم جزاء فعله ، ووبال أمره ، كما سيتلى عليك بعضه بعد قليل .

ذو القعدة

أوائله (أواخر اكتوبر وأوائل نوفمبر ١٨١٣ م) :

وردت أخبار من الجهة الرومية ، بأن عساكر العثمانيين استولوا على بلاد بلغارد من أيدى طائفة الصرب . وكانوا استولوا عليها نيفا وأربعين سنة . والله أعلم بصحة ذلك !

وفيه : عزل محمود حسن من الحسبة ، وتقلدها عثمان أغا المعروف بالوردانى .

الثلاثاء ١٥ منه (٩ نوفمبر ١٨١٣ م) :

وصل عثمان المضايفى ، صحبة المتسفرين معه ، الى الريدانية آخر الليل ، وأشيع ذلك . فلما طلعت الشمس ، ضربوا مدافع من القلعة ... اعلاما وسرورا بوصوله أسيرا .

وركب صالح بيك السلحدار فى عدة كبيرة ، وخرجوا لملاقاته واحضاره . فلما واجهه صالح بيك ، نزع من عنقه الحديد ، وأركبه هجينا ، ودخل به الى المدينة ، وأمامه الجاويشية والقواسة الأتراك ، وبأيديهم العصى المفضضة ، وخلفه صالح بيك ، وطوائفه ، وطلعوا به الى القلعة ، وأدخله الى مجلس كتخدا بيك ، وصحبته حسن باشا وطاهر باشا وباقى أعيانهم ، ونجيب افندى قبى كتخدا الباشا ووكيله بباب الدولة وكان متأخرا عن السفر ينتظر قدوم المضايفى ليأخذه بصحبته الى دار السلطنة .

فلما دخل عليهم ، أجلسوه معهم ، فحدثوه ساعه... وهـو يجيبهم منَ جنس كلامهم بأحسن خطاب ، وأفصح جواب . وفيه سكون وتؤدة فى الخطاب ، وظاهر عليه آثار الامارة والحشمة والنجابة ، ومعرفة مواقع الكلام ، حتى قال الجماعة لبعضهم البعض : « يا أسفا على مثل هذا ! اذا ذهب الى اسلامبول يقتلونه » .

ولم يزل يتحدث معهم حصة ، ثم احضروا الطعام فواكلهم ، ثم أخـذه كتخدا بيك الى منزله فأقام عنده مكرما ثلاثا ، حتى تمم نجيب افندى أشغاله ، فأركبوه ، وتوجهوا به الى بولاق ، وأنزلوه فى السفينة مع نجيب أفنـدى ، ووضـعوا فى عنقه الجنزير ، وانحدروا طالبين الديار الرومية . وذلك يوم الاثنين حادى عشرينه .

اواخره (النصف الثانى من نوفمبر ١٨١٣ م) :

وصلت أخـبار بأن مسـعودا الوهابى أرسل قصـادا من طرفه الى ناحيـة جـدة ، فقـابلوا طوسـون باشـا ... والشريف غالب خلع عليهم ، وأخذهم الى أبيه ، فخاطبهم وسألهم عما جاءوا فيه ، فقالوا : « الأمير سعود الوهابى يطلب الافراج عن المضايفى ، ويفتديه بمائة ألف فرانسـة ، وكذلك يريد اجراء الصلح بينه وبينكم ، وكف القتال » .

فقال لهم : « انه سافر الى الدولة ، وأما الصلح فلا نأباه بشروط ، وهو أن يدفع لنا كل ماصرفناه على العساكر ، من أول ابتداء الحرب الى وقت تاريخه ، وأن يأتى بكل ما أخـذه واستلمه من الجواهر والذخائر التى كانت بالحجرة الشريفة ، وكذلك ثمن ما استهلك منها ، وأن يأتى بعد ذلك ويتلاقى معى وأتعاهد معه ويتم صلحنا بعد ذلك . وان أبى ذلك ولم يأت ... فنحن ذاهبون اليه » . فقالوا له : « اكتب له جوابا » . فقال : « لا أكتب جوابا ، لأنه لم يرسل معكم جوابا ، ولا كتابا ... وكما أرسلكم بمجرد الكلام فعودوا اليه كذلك » .

فلما أصبح الصـباح ، وقت انصرافهم ، أمـر باجتماع العسـاكر ... فاجتمعوا ، ونصبوا ميدان الحرب ، والرمى المتتابع من البنـادق والمدافع ، ليشاهد الرسـل ذلك ، ويروه ، ويخبروا عنـه مرسلهم .

ذوالحجـة

١٩ منه (١٣ ديسمبر ١٨١٣ م) :

وقعت كائنة لطيف باشـا . وذلك أن المذكور مملوك الباشـا ... أهداه له عارف بيك — وهو عارف أفندى ابن خليل باشا المنفصـل عن قضاء مصر نحو خمس سنوات — واختص به الباشـا ، وأحبه ، ورقاه فى الخـدم والمناصب ... الى أن جعله أنختار أغاسى ، أى صاحب المفتاح ، وصار له حرمة زائدة ، وكلمة فى باب الباشا ، وشهرة .

فلما حصلت النصرة للعسكر ، واستولوا على المدينة ، وأتوا بمفاتيح زعموا أنها مفاتيح المدينة ، كان هو المتعين بها للسفر للديار الرومية بالبشارة للدولة ، وأرسـلوا صحبتـه « مضيان » الذى كان متأمرا بالمدينة . ولما وصل الى دار السلطنة ، ووصلت أخباره ، احتفل أهل الدولة بشأنه احتفالا زائدا ، ونزلوا لملاقاته فى المركب فى مسافة بعيدة ،

ودخلوا الى اسلامبول فى موكب جليل وأبهة عظيمة الى الغاية ، وسعت أعيان الدولة وعظماؤها بين يديه مشاة وركبانا . وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وقتلوا « مضيان » المذكور فى ذلك اليوم وعلقوه على باب السراية ، وعملوا شنانك ومدافع ، وأفراحا وولائم . وأنعم السلطان على لطيف المذكور ، وأعطاه أطواخا ، وأرسل اليه أعيان الدولة الهدايا والتحف ، ورجع الى مصر فى أبهة زائدة .

وداخله الغرور ، وتعاظم فى نفسه ، ولم يحتفل الباشا بأمره ، وكذلك أهل دولته لكونه من جنس المماليك ، وأيضا قد تأسست عداوتهم فى نفوسهم ، وكراهتهم له أشد من كراهتهم لأبنائنا ، وخصوصا كتخدا بيك ، فانه أشد الناس عداوة وبغضا فى جنس المماليك ، وطفق يلقى لمخدومه ما يغير خاطره عليه ، ومنها : أنه يضم اليه أجناسه من المماليك البطالين ، ليكونوا عزوته ويغترون به ، بحيث أن الباشا فوض اليه الأمر ان ظهر منه شيء فى غيابه .

وسافر الباشا فى اثر ذلك ، واستمر لطيف باشا مع الجماعة فى صلف ، وهم يحدقون عليه ، ويرصدون حركاته ، ويتوقعون ما يوجب الايقاع به ... وهو فى غفلة عن نيته لا يظن بهم سوءا . فطلب من الكتخدا الزيادة فى رواتبه وعلائفه ، لسعة دائرته ، وكثرة حواشيه ، ومصاريفه . فقال له الكتخدا : « أما أنا لست صاحب الأمر ، وقد كان هنا ولم يزدك شيئا ... فراسله وكاتبه . فان أمر بشيء ، فأنا لا أخالف مأمورياته » . وتزايد هو والحاضرون فى الكلام والمفاقمة ... ففارقهم على غير حالة ، ونزل الى داره وأرسل فى العشية الى مماليك الباشا ليحضروا اليه فى الصباح ، ليعمل معهم ميدان رماحة على العادة ، وأمر اليهم أن يصحبوا ما خف من متاعهم وأسلحتهم . فلما أصبحوا استعدوا ، كما أشار اليهم ، وشدوا خيولهم ، فوصل خبرهم الى الكتخدا فطلب كبيرهم وسأله ، فأخبره أن لطيف باشا طلبهم ليعمل معهم رماحة ، فقال : « ان هذا اليوم ليس هو موعد الرماحة » ومنعهم من الركوب . وفى الحال أحضر حسن باشا ، وطاهر باشا ، وأحمد أغا — المسمى بونابارته الخازندار — وصالح بيك السلحدار ، وابراهيم أغا ، آغات الباب ، ومحو بيك وخلافهم ودبوس أوغلى ، واسماعيل باشا ، ابن الباشا ومحمود بيك الدويدار ... وتوافق الجميع على الايقاع به . وأصبحوا يوم السبت مجتمعين ، وقد بلغه الخبر ، وأخذ عليه الطرق ، وأرسلوا يطلبونه للحضور فى مجلسهم ... فامتنع ، وقال : « ما المراد من حضورى ؟ » ، فنزل اليه دبوس أوغلى وخدعه فلم يقبل ، فركب وعاد اليه ثانيا يأمره بالخروج من مصر ان لم يحضر مجلسهم ، فقال : « أما الحضور فلا يكون ، وأما الخروج فلا أخالف فيه بشرط أن يكون بكفالة حسن باشا أو طاهر باشا ، فإنى لا آمن أن يتبعونى ويقتلونى خصوصا وقد أوقفوا بجميع الطرق » . ففارقه دبوس أوغلى . فتحير فى أمره وأمر بشد الخيول ، وأراد الركوب ، فلم يتسع له ذلك . ولم يزل فى نقض وابرام الى الليل فشركوا الجهات ، وأبواب المدينة أيضا ، بالعساكر ، وكثر جمعهم بالقلعة وأبوابها .

وفى تاسع ساعة من الليل نزل حسن باشا ومحو بيك فى نحو الألفين من العسكر ، واحتاطوا بداره بسويقة العزى ، وقد أغلق داره ، فصاروا يضربون عليه بالبنادق والقرابين ... الى آخر الليل . فلما أغياهم ذلك ، هجموا على دور الناس التى حوله ، وتسلقوا عليه من الأسطحة ، ونزلوا الى سطح داره ، وقتلوا من صادفوه من عسكره وأتباعه ، واختفى هو فى مخبأة أسفل الدار مع ستة أشخاص

من الجوارى ، ومملوك واحـد ، وعلم بمكانهم أغات الحريم ... فداروا بالدار يفتشون عليه فلم يجدوه ، فنهبوا جميع ما فى الدار ، ولم يتركوا بها شـيئا ، وسبوا الحريم والجوارى ، والمماليك ، والعبيد ... وكذلك ما حوله وما جاوره من دور الناس ، ودور حواشيه ، وهم نيف وعشرون دارا ، حتى حوانيت الباعة وغيرهم التى بالخطة ، ودار على كتخدا صالح الفلاح !

هذا ما جرى بتلك الناحية ، وباقى نواحى المدينة لا يدرون بشىء من ذلك ... الا أنهم لما طلع نهار يوم الأحد ، وخرج الناس الى الأسواق والشوارع ، وجدوا العساكر مائجة ، وأبواب البـلد مغلوقة ، وحولها العساكر مجتمعة ، ومنهم من يعـدو ومعه شىء من المنهوبات ، فامتنع الناس من فتح الحوانيت والقهاوى التى من عادتهم التبكير بفتحها ، وظنوا ظنا .

واستمر لطيف باشا بالمخبأة الى الليل ، واشتد به الخوف ، وتيقن أن العبد الطواشى سينم عليه ، ويعرفهم بمكانه . فلما أظلم الليـل ، وفرغوا من النهب والتفتيش ، وخلا المكان ، خرج من المخبأة بمفرده ، ونط من الأسطحة حتى خلص الى دار خازنداره ، وصحبته كبير عسكره ، وآخر يسمى يوسف كاشف دياب من بقايا الأجناد المصرية ، وباتوا بقية تلك الليلة ويوم الاثنين ... والكتخدا وأهل دولته يدأبون فى الفحص والتفتيش عليه ، ويتهمون كثيرا من الناس بمعرفة مكانه . ومحمود بيك داره بالقرب من داره ، أوقف أشخاصا من عسكره على الأسطحة ليلا ونهارا لرصده !

وكان المذكور له اعتقاد فى شخص يسمى حسن أفنـدى الليلبى — وليلب لفظ تركى عـلم على الحمص المجوهر أى المقلى — ومن شأن حسن أفندى هذا أنه رجل درويش ، يدخل الى بيوت الأعيان والأكابر من الناس الأتراك وغيرهم ، وفى جيوبه من ذلك الحمص ، فيفرق على أهل المجلس منه ، ويلاطفهم ويضاحكهم ويمزح معهم ، ويعرف باللغة التركية ، ويجانس الفريقين ، فمن أعطاه شيئا أخذه ، ومن لم يعطه لم يطلب منه شيئا . وبعضهم يقول له : « انظر ضميرى أو فألى » فيعد على سبحته أزواجا وأفرادا ، ثم يقول: « ضميرك كذا وكذا » . فيضحكون منه .

فوشى بحسن أفنـدى هـذا الى كتخدا بيك وباقى الجماعة ، بأنه كان يقـول للطيف باشـا انه سـيلى سـيادة مصر وأحكامهـا ، ويقول له : « هذا وقت انتهاز الفرصة فى غيبة الباشا » . ونحو ذلك وجسموا الدعوى ، وأنه كان يعتقـد صحة كلامه ، ويزوره فى داره ، ورتب له ترتيبا .

وأشاعوا أنه أراد أن يضم اليه أجناس المماليك والخاملين من العساكر وغيرهم ، ويعطيهم نفقـات ويريد اثارة فتنة ، ويغتال الكتخدا بيك ، وحسن باشـا ، وأمثالهما على حين غفلة ، ويتملك القلعة والبلد ، وأن الليلبى يغريه على ذلك .. وكل وقت يقول له : «جاء وقتك» . ونحو ذلك من الكلام الذى المولى جل جلاله أعلم بصحته .

فأرسل كتخـدا بيك الى الليلبى ، فحضر بين يديه فى يوم الاثنين ، فسأله عنه ، فقال : لا أدرى» فقـال : « انظر فى حسابك هل نجده أم لا ؟ » . فمسك سـبحته وعدها كعادته وقال : « انكم تجدونه وتقتلونه » . ثم ان الكتخدا أشـار الى أعوانه ، فأخذوه ونزلوا به ، وأركبوه على حماره ، وذهبـوا به الى بولاق ، فأنزلوه فى مـركب ، وانحدروا به الى شلقان ، وشـلحوه من ثيابه ، وأغرقوه فى البحر !

وفيـه : عرفهـم أغات حـريم لطيف باشـا ، بعـد أن هـددوه وقرروه ، عن محل أسـتاذه ،

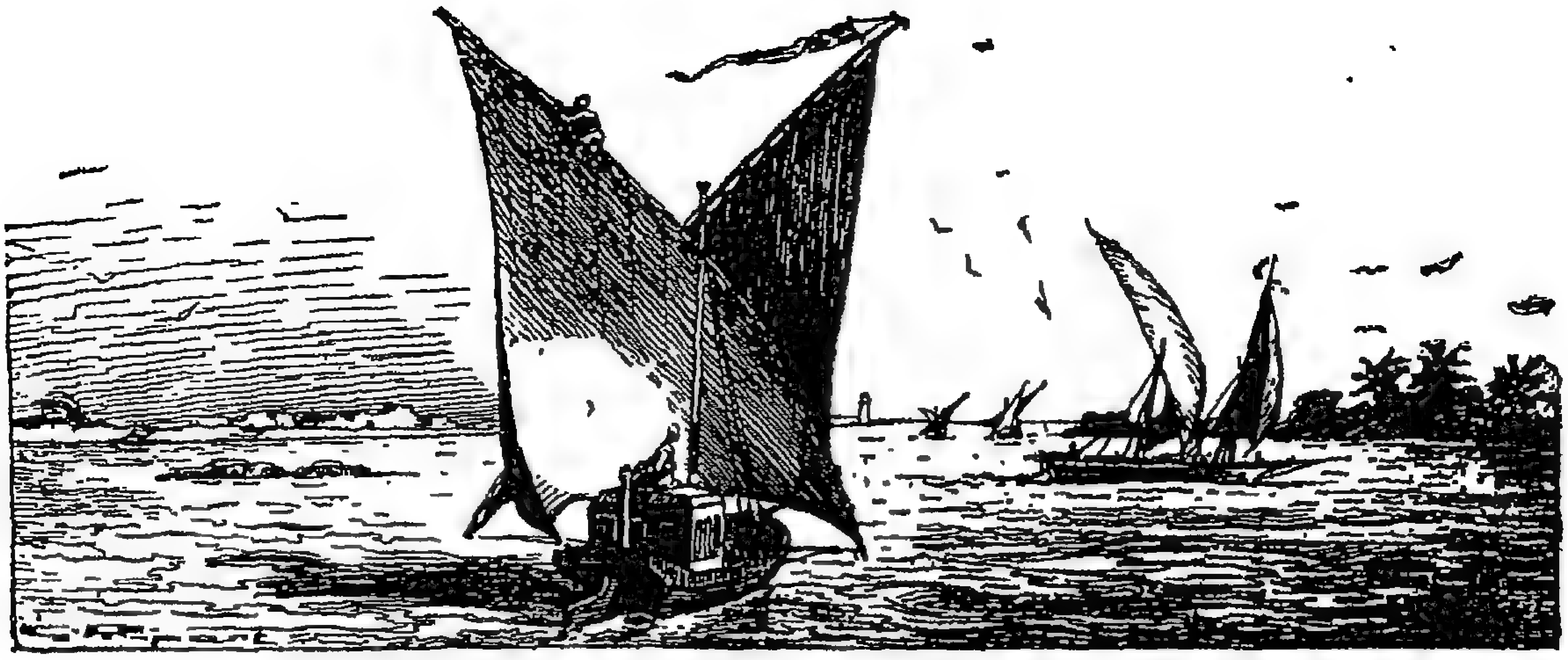

البلبي في قبضة اعوان الكتخدا منحدرين به الى شلقان

وأخبرهم أنه فى المخبأة ، وأراهم المكان ، ففتحوه فوجدوا به الجوارى الستة والمملوك ، ولم يجدوه معهم ، فسألوهم عنه ، فقالوا : « انه كان معنا ، وخرج فى ليلة أمس ، ولم نعلم أين ذهب » . فأخرجوهم ، وأخذوا ما وجدوه فى المخبأة من متاع وسروج ومصاغ ونقود ، وغير ذلك .

فلما كان بعد الغروب من ليلة الثلاثاء ، اشتد بلطيف باشا الخوف والقلق ، فأراد أن ينتقل من بيت الخازندار الى مكان آخر ، فطلع الى السطح ، وصعد على حائط يريد النزول منها هو ورفيقه البيوكباشى ، ليخلص الى حوش مجاور لتلك الدار ، فنظرهما شخص من العسكر المرصد بأعلى سطح دار محمود بيك الدوبدار ، فصاح على القريبين منه لينتبهوا له فعندما صاح ، ضربه لطيف باشا رصاصة ، فأصابته ، وتنبه المرصدون بالنواحى عند سماع الصيحة ، وبندقة الرصاصة ، وتسارعوا اليه من كل ناحية ، وقبضوا عليه وعلى رفيقه ، وأتوا بهما الى محمود بيك ... فبات عنده ، ورمح المبشرون الى بيوت الأعيان يبشرونهم بالقبض عليه ، ويأخذون على ذلك البقاشيش !

فلما طلع نهار يوم الثلاثاء طلع به محمود بيك الى القلعة ... وقد اجتمع أكابرهم بديوان الكتخدا ، واتفقوا على قتله ووافقهم على ذلك اسماعيل ابن الباشا بما نمقوه عليه ، لأنه فى الأصل مملوك صهره عارف بيك . فعندما وصل الى الدرج ، قبض عليه الأعوان ، وهو بجانب محمود بيك ، فقبض بيده على علاقة سيفه وهو يقول له بالتركى : « عرظنداايم » ، يعنى أنا فى عرضك ، وماتت يده على قيطان السيف ، فأخرج بعضهم سكينا وقطع القيطان ، وجذبوه الى أسفل سلم الركوبة وأخذوا عمامته ، وضربه المشاعلى بالسيف ضربات ، ووقع الى الأرض ولم ينقطع عنقه ، فكملوا ذبحه مثل الشاة ، وقطعوا رأسه ، وفعلوا برفيقه كذلك ، وعلقوا رؤوسهما تجاه باب زويلة طول النهار .

٢٢ منه (١٦ ديسمبر ١٨١٣ م) :

أحضروا أيضا يوسف كاشف دباب ، وقتلوه أيضا عند باب زويلة ، وانقضى أمرهم ... والله أعلم بحقيقة الحال .

وفتح أهل الأسواق حوانيتهم بعد ما تخيل الناس بأنها ستكون فتنة عظيمة ، وأن العسكر

ينهبون المدينة ، وخصوصا الكائنون بالعرضى — خارج باب النصر — فانهم جياع وبردانون ، وغالبهم مفلس . لأن معظمهم من الجدد الواردين الذين لم يحصل لهم كسب من نهب أو حادث واقع أدركوه ، ولولا أنهم أوقفوا عساكر عند الأبواب منعتهم من العبور لحصل منهم غاية الضرر .

* * *

وانقضت السنة وحوادثها التى ربما استمرت الى ماشاء الله بدوامها وانقضائها .

فمنها : أن الباشا لما فرغ من أمر الجهة القبلية بعد ما ولى ابنه ابراهيم باشا عليها ، وحرر أراضى الصعيد ، وقاس جملة أراضيه وفدنه ، وضبطه بأجمعه ، ولم يترك منه الا ما قل . وضبط لديوانه جميع الأراضى الميرية والاقطاعات التى كانت للملتزمين من الأمراء والهوارة وذوى البيوت القديمة ، والرزق الاحباسية ، والسراوى ، والمتأخرات والمرصد على الأهالى والخيرات وعلى البر والصدقة ، وغير ذلك مثل : مصارف الولاية التى رتبها أهالى الخير المتقدمون لأربابها رغبة منهم فى الخير ، وتوسعة على الفقراء المحتاجين ، وذوى البيوت والدواوير المفتوحة ، المعدة لاطعام الطعام للضيفان والواردين والقاصدين ، وأبناء السبيل والمسافرين .

فمن ذلك أن بناحية سهاج ، دار الشيخ عارف ، وهو رجل مشهور كأسلافه ، ومعتقد بتلك الناحية وغيرها ، ومنزله محط لرحال الوافدين والقاصدين من الأكابر والأصاغر والفقراء والمحتاجين .. فيقرى الكل بما يليق بهم ، ويرتب لهم التراتيب والاحتياجات ، وعند انصرافهم — بعد قضاء أشغالهم — يزودهم ويهاديهم بالغلال والسمن والعسل والتمر والأغنام ... وهذا دأبه ودأب أسلافه من قبله على الدوام والاستمرار . ورزقته المرصدة التى يزرعها وينفق منها ستمائة فدان ، فضبطوها ولم يسمحوا له منها الا بمائة فدان بعد التوسط ، والترجى ، والتشفع ، وأمثال ذلك بجرجا وأسيوط ومنفلوط وفرشوط وغيرهم .

واذا قال المتشفع والمترجى للمتأمر : « ينبغى مراعاة مثل هذا ومسامحته لأنه يطعم الطعام ، وتنزل بداره الضيفان » . فيقول : « ومن كلفه بذلك ؟ » . فيقال له : « وكيف يفعل اذا نزلت به الضيوف على حسب ما اعتادوه ؟ » . فيقول : « يشترون ما يأكلون بدراهمهم من أكياسهم ، أو يغلقون أبوابهم ، ويستقلون بأنفسهم وعيالهم ، ويقتصدون فى معايشهم ، فيعتادون ذلك ، وهذا الذى يفعلونه تبذير واسراف ! » . ونحو ذلك على حسب حالهم وشأنهم فى بلادهم . ويقول : « الديوان أحق بهذا ، فان عليه مصاريف ونفقات .ومهمات ومحاربات الأعداء ، وخصوصا افتتاح بلاد الحجاز » .

ولما حضر ابراهيم باشا الى مصر — وكان أبوه على أهبة السفر الى الحجاز — حضر الكثير من أهالى الصعيد يشكون ما نزل بهم ، ويستغيثون ويتشفعون بوجهاء المشايخ وغيرهم . فاذا خوطب الباشا فى شىء من ذلك يعتذر بأنه مشغول البال ، واهتمامه بالسفر ، وأنه أناط أمر الجهة القبلية وأحكامها وتعلقاتها لابنه ابراهيم باشا . وأن الدولة قلدته ولاية الصعيد فأنا لا علاقة لى بذلك ! واذا خوطب ابنه أجابهم بعد المحاججة بما تقدم ذكره ، ونحو ذلك . واذا قيل له هذا على مسجد . فيقول : « كشفت على المساجد فوجدتها خرابا ، والنظار عليها يأكلون الايراد ، والخزينة أولى منهم ، ويكفيهم أنى أسامحهم فيما أكلوه فى السنين الماضية ، والذى وجدته عامرا أطلقت له ما يكفيه وزيادة . وانى وجدت لبعض المساجد أطيانا واسعة ، وهى خراب ومعطلة ، والمسجد يكفيه مؤذن واحد ، وأجرته نصفان ، وامام مثل ذلك ،

وأما فرشه واسراجه فانى أرتب له راتبا من الديوان فى كل سنة » . فاذا تكرر عليه الرجاء أحال الأمر على أبيه ، ولا يمكن العود اليه لحركاته ، وتنقلاته وكثرة أشغاله وزوغانه .

ولما زاد الحال بكثرة المتشكين والواردين وبرز الباشا للسفر ، بل وسافر بالفعل ، فلم يمكث بعده ابنه الا أياما قليلة : يبيت بالجيزة ليلة ، وعند أخيه ببولاق ليلة أخرى ، ثم سافر راجعا الى الصعيد ، يتمم ما بقى عليه لأهله من العذاب الشديد ، فاله فعل بهم فعل التتار عندما جالوا بالأقطار . وأذل أعزة أهله ، وأساء أسوأ البسوء معهم فى فعله ، فيسلب نعمهم وأموالهم ، ويأخذ أبقارهم وأغنامهم ، ويحاسبهم على ما كان فى تصرفهم واستهلكوه ، أو يحتج عليهم بذنب لم يقترفوه ، ثم يفرض عليهم المغارم الهائلة ، والمقادير من الأموال التى ليست أيديهم اليها طائلة . ويلزمهم بتحصيلها وغلاقها وتعجيلها . فتعجز أيديهم عن الاتمام ، فعند ذلك يجرى عليهم أنواع الآلام من الضرب والتعليق ، والكى بالنار والتحريق . فانه بلغنى — والعهدة على الناقل — أنه ربط الرجل ممدودا على خشبة طويلة ، ومسك بطرفيها الرجال وجعلوا يقلبونه على النار المضرمة مثل الكباب ! وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل ، سنه دون العشرين عاما ، وحضر من بلده ولم ير غير ما هو فيه : لم يؤدبه مؤدب ، ولا يعرف شريعة ولا مأمورات ولا منهيات . وسمعت أن قائلا قال له : « وحق من أعطاك » . قال : « ومن هو الذى أعطانى ؟ » . قال له : « ربك » . قال له : « انه لم يعطنى شيئا ، والذى أعطانى أبى ... فلو كان الذى قلت ، فانه كان يعطينى وأنا ببلدى ! وقد جئت وعلى رأسى قبع مزفت مثل القلاة » . فلهذا لم تبلغه دعوى ولم يتخلق الا بالأخلاق التى دربه عليها والده ، وهى تحصيل المال بأى وجه كان .

فأنزل بأهل الصعيد الذل والهوان ، فلقد كان به من المقادم والهوارة ، كل شهم يستحى الرئيس من مكالمته ، والنظر اليه بالملابس الفاخرة ، والأكراك السمور ، والخيول المسومة والأنعام والأتباع والجند والعبيد ، والأكمام الواسعة والمضايف والانعامات والاغداقات والتصدقات ، وخصوصا أكابرهم المشهورون ... وهمام — وما أدراك ما همام ! — وقد تقدم فى ترجمته ما يغنى عن الاعادة . فخربت دور الجميع ، وتشتتوا وماتوا غرباء . ومن عسر عليه مفارقة وطنه ، جرى عليه ما جرى على غيره ، وصار فى عداد المزارعين .

وقد رأيت بعض بنى همام وقد حضروا الى مصر ليعرضوا حالهم على الباشا لعله يرفق بهم ويسامحهم فى بعض ما ضبطه ابنه من تعلقاتهم يتعيشون به ، وهم أولاد عبد الكريم وشاهين ولدى همام الكبير ومعهم حريمهم وجوارهم وزوجة عبد الكريم — ويقولون لها الست الكبيرة — وهى أم أولاده . فلما وصلوا الى ساحل مصر القديمة ، ورأى أرباب ديوان المكس الجوارى — وعدتهم ثلاثة — حجزوهم وطالبوهم بكمركهن ! فقالوا : « هؤلاء جوارنا للخدمة ، وليسوا مجلوبين للبيع » . فلم يعبأوا بذلك ، وقبضوا منهم ما قبضوه ، ثم انهم لم يتمكنوا من الباشا — وكان اذ ذاك قد توجه الى الفيوم ، وعاد الى العرضى مسافرا الى الحجاز — فاستمروا بمصر حتى نفدت نفقاتهم ، ورأيتهم مرة مارين بالشارع ، وهم مخلقنون ، وفيهم صغير مراهق . واتفق أنهم تفاقموا مع ابن عمهم ، وهو عمر ، وشكوه الى مصطفى بيك دالى باشا بأنه حاف عليهم فى أشياء من استحقاقهم ... دعوى مفلس على مفلس ! فأحضره وحبسه مدة وما أدرى ما حصل لهم بعد ذلك .

وهكذا .. تخفض العالى وتعلى من سفل ، اللهم انا نعوذ بك من زوال النعم ، ونزول النقم .

* * *

وأما من مات فى هذه السنة ، فمات الأستاذ الشهير ، والجهبذ النحرير ، الرئيس المفضل ، والفريد المبجل ، نادرة عصره ، ووحيد دهره : الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار بن عبد الرحمن ، المعروف بابن عارفين ، سبط بنى الوفاء ، وخليفة السادات الحنفاء ، وشيخ سجادتها ، ومحط رحال سيادتها ... وشهرته غنية عن مزيد الافصاح ، ومناقبه أظهر من البيان والايضاح وأمه السيدة صفية بنت الأستاذ جمال الدين يوسف أبى الارشاد ابن وفا ، تزوج بها الخواجا عبد الرحمن المعروف بعارفين ، فأولدها المترجم وأخاه الشيخ يوسف — وكان أسن منه — فتربى مع أخيه فى حجر السيادة والصيانة والحشمة ، وقرأ القرآن ، وتولع بطلب العلم .

وحضر دروس أشياخ الوقت ، وتلقى طريقة أسلافه وأورادهم وأحزابهم ، عن خاله الأستاذ شمس الدين محمد أبو الاشراق بن وفا ، عن عمه الشيخ عبد الخالق ، عن أبيه الشيخ يوسف أبى الارشاد ، عن والده أبى التخصيص عبد الوهاب ... الى آخر السند المنتهى الى الأستاذ أبى الحسن الشاذلى . ولازم العلامة القدوة : الشيخ موسى البجيرمى ، فحضر عليه — كما ذكره فى برنامج شيوخه — أم البراهين ، وشرح المصنف عليها ، والآجرومية وشرحها للشيخ خالد ، وشرح الستين مسألة للجلال المحلى — وهو أول أشياخه — ثم لازم الشيخ خليل المغربى ، فحضر عليه شرح ايساغوجى لشيخ الاسلام زكريا الأنصارى ، وشرح العصام على السمرقندية ، والفاكهى على القطر ، ومتن التوضيح والأشمونى على الخلاصة ، ورسالة الوضع والمغنى .

وحضر دروس شيخ الشيوخ الشيخ أحمد الميجرى الملوى فى صحيح البخارى ، والشيخ عبد السلام على الجوهرة ، وأجازه بمروياته ومؤلفاته الاجازة العامة ، وكذلك أجازه الشيخ أحمد الجوهرى الشافعى ، اجازة عامة واجازة خاصة ، بطريقة مولاى عبد الله الشريف ، ولازم وقرأ وشارك ولده الشيخ محمد الجوهرى الصغير .

وحضر أيضا دروس الأستاذ الحفنى فى شرح التلخيص للسعد التفتازانى ، وشرح التحرير لشيخ الاسلام ، وشرح الألفية لابن عقيل ، والأشمونى . وحضر دروس الشيخ عمر الطحلاوى المالكى فى شرح الآجرومية للشيخ خالد ، وشيئا من شرح الهمزية للحافظ بن حجر ، وشيئا من تفسير الجلالين والبيضاوى .

وحضر الشيخ مصطفى السندوبى الشافعى فى شرح بن قاسم العزى على أبى شجاع ، وعلى السيد البليدى فى شرح التهذيب للخبيصى ، وعلى الشيخ عطيه الأجهورى الشافعى فى شرح الخطيب على أبى شجاع ، وشرح التحرير لشيخ الاسلام ، وتفسير الجلالين ، وعلى الشيخ محمد النارى شرح السلم لمصنفه ، وشرح التحرير ، وعلى الشيخ أحمد القوصى شرح الورقات الكبير لابن قاسم العبادى .

وسمع المسلسل بالأولية من عالم أهل المغرب فى وقته الشيخ محمد بن سودة التاودى ، الفاسى المالكى ، عند وروده مصر فى سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف بقصد الحج ، وكتب له اجازة بخطه مع سنده ، وأجازه أيضا بدلائل الخيرات ، وأحزاب الشاذلى .

وكذلك تلقى الاجازة من الأستاذ المسلك عبد الوهاب بن عبد السلام العفيفى المرزوقى ، وتلقى

أيضا من امام الحرم المكى الشيخ ابراهيم ابن الرئيسى محمد الزمزمى الاجازة بالمسبعات ، واستجازه هو أيضا بما لأسلافه من الأحزاب ، وكناه بأبى الفوز وذلك فى سنة تسع وسبعين ومائة وألف بمكة ... سنة حجة المترجم .

ولما مات السيد محمد أبو هادى ، وانقرضت بموته سلسلة أولاد الظهور — وذلك فى سنة ست وسبعين ومائة وألف — تاقت نفس المترجم لخلافة بيتهم ، وتهيأ لذلك ، ولبس التاج أيضا ، والعصابة التى يجعلونها عليه ... فلم يتم له ذلك ، وعورض بسيدى أحمد بن اسماعيل بيك ، المعروف بالدالى — المكنى بأبى الامداد — لأنه فى طبقته فى النسب ، وأمه السيدة « أم المفاخر » ابنة الشيخ عبد الخالق ، باتفاق أرباب الحل والعقد ، لكونه من بيت الامارة . وقد صار منزلهم كمنازل الأمراء فى الاتساع والتأنق والمجالس المزخرفة ، والقيعان والقصور ، وفى ضمنه البستان بالنخيل والأشجار ، وما يجتنى منها من الفواكه والثمار ... لأن معظم الوجاهة والسيادة فى هذه الأزمان بالمساكن الأنيقة والملابس الفاخرة ، وكثرة الايراد والخدم والحشم ، خصوصا ان اقترن بذلك شيء من المزايا المتعدية : من بذل الاحسان ، واكرام الضيفان . فعند ذلك يصير ربه قطب الزمان ، وفريد العصر والأوان . فلو فرضنا أن شخصا اجتمعت فيه أوصاف الكمالات المعنوية ، والمعارف اللدنية ، وخلا عما ذكر — وكان صعلوكا قليل المال ، كثير العيال — فلا يعد فى الرجال ، ولا يلتفت اليه بحال ... حكم الهية ، وأحكام ربانية !

فلما تقلدها سيدى أحمد المذكور دون المترجم ، بقى متطلعا يسلى نفسه بالأمانى ، ثم قصد الحج فى سنة تسع وسبعين كما ذكر . فلما عاد من الحج ، تزوج بوالدة الشيخ محمد أبى هادى ، وأسكنها بمنزل ملاصق لدار الخليفة .. توصلا وتقربا لمأموله . ولم تطل مدة الشيخ أبى الامداد ، وتوفى سنة اثنتين وثمانين كما ذكرناه فى ترجمته . وعند ذلك لم يبق للمترجم معارض ... وقد مهد أحواله ، وتثبت أمره مع من يخشى صولته ومعارضته من الأشياخ وغيرهم .

ودفن السيد أحمد ، وركب المترجم فى صبحها مع أشياخ الوقت ، والشيخ أحمد البكرى ، وجماعة الحزب ونقبائهم الى الرباط بالخرنفش . ودخل الى خلوة جدهم ، فجلس بها ساعة ، وقرأ أرباب الحزب وظيفتهم ، ثم ركب مع المشايخ الى أمير البلدة — وكان اذ ذاك على بيك — فخلع عليه ، وركبوا الى دارهم ومحل سيادتهم المعهودة ... وأصبح متقلدا خلافة أسلافهم ، ومشيخة سجادتهم ... فكان لها أهلا ومحلا . وتقدم على أخيه الشيخ يوسف — مع كونه أسن منه — لما فيه من زيادة الفضيلة ، ولما ثبطه به من مخادعته ، وسلامة صدر أخيه وحسن ظنه فيه .

وانتظم أمره ، وأحسن سلوكه بشهامة وحشمة ورآسة وتؤدة وأدب مع الأشياخ والأقران ، وتحبب الى أرباب المظاهر والأكابر ، واستجلاب الخواطر ، وسلوك الطرائق الحميدة ، والتباعد عن الأمور المخلة بالمروءة ، والأخذ بالحزم والرفق ... مع الاشتغال فى بعض الأحيان بالمطالعة والمذاكرة فى المسائل الدينية والأدبية ، ومعاشرة الفضلاء ومجالستهم ، والمناقشة معهم فى النكات ، واقتناء الكتب من كل فن ... كل ذلك مع الجد والتحصيل للأسباب الدنيوية ، وما يتوصل به الى كثرة الايراد .. بحسن تداخل ، وجميل طريقة مبعدة عما يخل بالمقدار ... بحيث يقضى مرامه من العظيم ، وجميل الفضل له .

ويراسل ويكاتب ، ويشاحح على أدنى شىء ، ويحاسب ، ولا يدفع لأرباب الأقلام عوائدهم المقررة فى الدفاتر ... بل يرون أن أخذها منه من الكبائر ! وكذلك دواوين المكوس المبنى على الاجحاف ، فكل ما نسب له فيها فهو معاف . وكلما طال الأمل ، زاد المدد ، وخصوصا اذا تقلبت الدول ، وارتفعت السفل . كان الأسبق القديم فى أعينهم ، هو الجليل العظيم ... وهم لديه صغار ، لاينظر اليهم الا بعين الاحتقار .

ولما انقرضت بقايا الشيوخ الذين كان يهابهم ، ويخضع لهم ، ويتأدب معهم ... وكانوا على طرائق الأقدمين فى العفة والانجماع عما يخل بتعظيم العلم وأهله ، والتباعد عن بنى الدنيا الا بقدر الضرورة ، وخلف من بعدهم من هم على خلاف ذلك — وهم أعاظم مدرسى الوقت — فأحدقوا به ، وأكثروا من التردد عليه وعلى موائده ، وبالغوا فى تعظيمه وتقبيل يده ، ومدحوه بالقصائد البليغة طمعا فى صلاته وجوائزه القليلة ، وحصول الشهرة لهم ، وزوال الخمول ، والتعارف بمن يتردد الى داره من الأمراء والأكابر ... وزاد هو أيضا وجها ووجاهة بمجالستهم ، ولا يريهم فضلا بسعيهم اليه ، ويزداد كبرا وتيها ، وبلغ به انه لا يقوم لأكثرهم اذا دخل عليه ، ومنهم من يدخل بغاية الأدب فيضم ثيابه ويقول عند مشاهدته : « يامولاى يا واحد » ، فيجيبه هو بقوله : « يامولاى يادائم » ، يا على يا حكيم » . فاذا حصل بالقرب منه ، ينحو ذراعين ، حبا على ركبتيه ، ومد يمينه لتقبيل يده أو طرف ثوبه . وأما الأدون ، فلا يقبل الا طرف ثوبه . وكذلك أتباعه وخدمه الخواص .

واذا كان من أهل الذمة أو كبار المباشرين ، وقبلوا يده وخاطبهم فى أشغاله — وهم قيام — وانصرفوا ... طلب الطست والابريق ، وغسل يده بالصابون لازالة أثر أفواههم ! ولا يجيب فى رد التحية الا بقول : « خير . خير » . ولا يقطع غالب أوقاته مع مجالسيه وحاصته ومسامريه الا بانتقاد أهل مصره ، وغيبة غالب أهل عصره . وتنبسط نفسه لذلك ، واليه يصغى ... كلا ان الانسان ليطغى !

وفى سنة تسعين ومائة وألف ، ورد الى مصر عبد الرزاق أفندى رئيس الكتاب ، ومن أكابر أهل الدولة ، فتداخل معه ، واصطحب به ، وأهدى اليه هدايا ، واستدعاه وأضافه .

وحضر فى ذلك العام محمد باشا — المعروف بالعزتى — واليا على مصر ، فأنهى اليه بمعونة الرئيس المذكور احتياج زاوية أسلافه للعمارة ، ودعا الباشا لزيارة قبورهم فى يوم المولد المعتاد السنوى ، وذكر له المقصود ، وأظهر له بعض الخلل ، وزين له ذلك الفعل ، وأنه من تمام الشعائر الاسلامية ، والمشاهد التى يجب الاعتناء بشأنها ، والسعى والطواف بحرمها .

وكان المعين والسفير والمساعد فى ذلك أيضا ، شيخنا محدث العصر ، السيد محمد مرتضى ، وهو عند العثمانيين مقبول القول ، وكان عبد الرزاق الرئيس يتلقى عنه المسلسلات والاجازات ، وقرأ عليه مقامات الحريرى ، فأجاب الباشا ووعد باتمام ذلك وكاتب الدولة ، وورد الأمر باطلاق خمسين كيسا لمصرف العمارة من خزينة مصر . فشرع فى هدم حوائطها ووسعها عن وضعها الأصلى ، واندرس فى جدرانها قبور ومدافن ، وحوطها وزخرفها بالنقوش ، وأنواع الرخام الملون والمموه بالذهب ، والأعمدة الرخام .

ثم كاتب الدولة ، وأنهى أن ذلك القدر لم يكف ، وأن العمارة لم تكمل ، والاحسان بالاتمام... فأطلقوا له خمسين كيسا أخرى ، وأتمها على

هذا الوضع الذى هى عليه الآن ، وأنشأ حولها مساكن ومخادع ، ووسع القصر الملاصق لها ، المختص به لجلوسه ، ومواضع الحريم أيام الموالد .

ثم أرسل فى اثر ذلك كتخداه ووزيره الشيخ ابراهيم السندوبى ، الى دار السلطنة بمكاتبات ، وأعرض لرجال الدولة ، والتمس رفع ما على قرية زفتا وغيرها ، مما فى حوزه من الالتزام ، من المال الميرى الذى يدفع الى الدبوان فى كل سنة .

وكان ابراهيم المذكور غاية فى الدهاء والحيل الساسانية ، والتصنعات الشيطانية ، والتخليطات الوهمية وتقلبات الملامتية ، فتمم مرامه بما ابتدعه من المخرقة ، والايهامات الملفقة ... ولم يدفع ما جرت به العادة من العوائد ، بل اجتلب خلاف ذلك فوائد .

ولما حضر حسن باشا الجزايرلى الى مصر على رأس القرن ، وخرج الأمراء المصريون الى الجهة القبلية ، واستباح أموالهم ، وقبض على نسائهم وأولادهم ، وأمر بانزالهم سوق المزاد وبيعهم زاعما أنهم أرقاء لبيت المال ، وفعل ذلك . فاجتمع الأشياخ ، وذهبوا اليه ... فكان المخاطب له المترجم ، قائلا له : « أنت أتيت الى هذه البلدة ، وأرسلك السلطان الى اقامة العدل ، ورفع الظلم... كما تقول ، أو لبيع الأحرار ، وأمهات الأولاد ، وهتك الحريم ؟ » . فقال : « هؤلاء أرقاء لبيت المال » . فقال له : « هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد » . فاغتاظ غيظا شديدا ، وطلب كاتب ديوانه ، وقال له : « اكتب أسماء هؤلاء ، وأخبر السلطان بمعارضتهم لأوامره » فقال له السيد محمود البنوفرى : « اكتب ماتريد بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا » فأفحم ، وانكف عن اتمام قصده ، وأيضا تتبع أموالهم وودائعهم .

وكان ابراهيم بيك الكبير قد أودع عند المترجم وديعة ، وكذلك مراد بيك أودع عند محمد أفندى البكرى وديعته ، وعلم ذلك حسن باشا فأرسل عسكرا الى السيد البكرى ، فلم تسعه المخالفة ، وسلم ما عنده ، وأرسل كذلك يطلب من المترجم وديعة ابراهيم بيك ... فامتنع من دفعها قائلا : « ان صاحبها لم يمت ، وقد كتبت على نفسى وثيقة ، فلا أسلم ذلك مادام صاحبها فى قيد الحياة » . فاشتد غيظ الباشا منه ، وقصد البطش به ، فحماه الله منه ببركة الانتصار للحق . فكان يقول : « لم أر فى جميع الممالك التى ولجتها من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل ؟ فانه أحرق قلبى » .

ولما ارتحل من مصر ، ورجع المصريون الى دولتهم ، حصل من مراد بيك فى حق السيد البكرى ما حصل ، وغرمه مبلغا عظيما ، باع فيه أقطاعه فى نظير تفريطه فى وديعته ، واحتج عليه بامتناع نظيره ، وحصل له قهر تمرض بسببه وتسلسل به المرض حتى مات . ويقال ان مراد بيك أرسل اليه الحكيم ودس له السم فى العلاج ، ثم مات رحمه الله . وكانت منه هفوة . ولا بد للجواد من كبوة . ومن لم ينظر فى العواقب فليس له الدهر بصاحب ... حتى قيل انه هو الذى عرف حسن باشا عن ذلك لينال به زيادة فى الحظوة عنده ، ويترك منها حصة لنفسه بقرينة ما ظهر عليه فى عقب ذلك من التوسع . وقد غلب على ظنه ، بل وظن غالب الناس ، انقراض المصريين ، وغفلوا عن تقلبات الدهر فى كل حين .

وأما المترجم فانه لما أخذ بالحزم سلم ، وردالأمانة الى صاحبها حين قدم ، وحسنت فيهم سيرته ، وزادت عندهم محبته . وفى عقب ذلك نزل السيد محمد أفندى البكرى المذكور عن وظيفة نظر المشهد الحسينى للمترجم ، وأرسل اليه بصندوق دفاتر الوقف — وكان نظر المشهد ببيتهم مدة طويلة —

ووعده المترجم بأن يبدله عنه وظيفة النظر على وقف الشافعى . فلما حصل الفراغ واحتوى على الدفاتر ، نكث وطمع على الوظيفتين ، بل ومد يده الى غيرهما لعدم من يعارضه ، ولا يدافعه من الأمراء وغيرهم ، مثل نظر المشهد النفيسى والزينبى ، وباقى الأضرحة الكثيرة الايراد ... التى يصاد بها الدنيا من كل ناد ، وتأتيها الخلائق بالقربانات وأنواع النذورات . وأخذ يحاسب المباشرين وخدمة الأضرحة المذكورة على الايرادات والنذورات . ويحاققهم على الذرات ، ويسبهم ويهينهم ، ويضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم . وفعل ذلك بالسيد بدوى ، مباشر المشهد الحسينى ، وهو من وجهاء الناس الذين يخشى جانبهم ، ومشهور ومذكور فى المصر وغيره .

وكان معظم انقباض السيد البكرى ، وتزوله عن نظر المشهد ... ضيق صدره من المذكور ، ومناكدته له ، واستيلائه على المحل ، ومحصول الوقف ، والتقصير فى مصارفه اللازمة ... وينسب التقصير للناظر . وكان — رحمه الله عظيم الهمة ، يغلب عليه الحياء والمسامحة ، ويرى خلاف ذلك من سفاسف الأمور ... فتنصل من ذلك ، وترك فعله لغيره .

فلما أوقع المترجم بالسيد بدوى وباقى عظماء السدنة ما أوقع ، انقمع الباقون ، وذلوا ، وخافوه أشد الخوف ، ووشوا على بعضهم البعض . وطفق يطالبهم بالنذور والشموع والأغنام والعجول ، وما يتحصل بصندوق الضريح من المال — وكانوا يختصون بذلك كله ، وأقلهم فى رفاهية من العيش ، وجمع المال مع السفالة والشحاذة ... حتى من الفقير المعدم المفلس والكسرة الناشفة !

وكان اذا أراد الايقاع بشخص أو اهانته ، وخشى عاقبة ذلك ، أو لوماً يلحقه ممن ينتصر له ، مهد له الطريق سرا قبل الايقاع به . فانه لما أراد ضرب السيد بدوى ، طاف على الشيخ العروسى وأمثاله ، وأسرّهم ما فى نفسه .

وامتدت يده أيضا الى شهود بيت القاضى . فكان اذا بلغه أن أحدهم كتب حجة استبدال أو اجارة مكان ، مدة طويلة ، لناظر أو مستحق وكان ذلك المكان يؤول ، بعد انقراض مستحقيه ، لضريح من الأضرحة التى تحت نظره — أحضر ذلك الكاتب ووبخه ولعنه ، ولربما ضربه ، وأبطل تلك المكاتبة ، ومحاها من سجل القاضى ، أو يصالحونه على تنفيذ ذلك — مع أنها لا تؤول الى تلك الجهة الا بعد سنين وأعوام متطاولة .

وقد نص علماء الشرع على أن الوقف والنذر للقبور والأضرحة ... باطل . فان قيل بصحته على الفقراء ، قلنا : ان سدنة هذه الأضرحة ليسوا بفقراء ، بل هم الآن أغنى الناس . والفقراء حقيقة خلافهم من أولاد الناس الذين لا كسب لهم ، والكثير من أهل العلم الخاملين ، والذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .

ولما استولى المترجم على وظيفة نظر المشهد الحسينى ، قهر السيد بدوى المباشر المذكور ، وأخذ دار سكنه شرقى المسجد ، وأخرجه منها ، وهدمها وأنشأها دارا لنفسه ، ينزل بها أيام المولد المعتاد ، ويأتى اليها فى كل جمعة أو جمعتين . ولما تم بناؤها ونظامها ، وقرب وقت أيام المولد ، انتقل اليها بخدمه وحريمه ، وتقدم الى حكام الشرطة بأمر الناس والمناداة على أهل الأسواق والحوانيت : بالسهر بالليل ، ووقود السرج والقناديل ، خمس عشرة ليلة المولد ، وكان فى السابق ليلة واحدة . وأحدثوا فى تلك الليالى سيارات ، وجمعيات ، وطبولا ، وزمورا ، ومناور ومشاعل ، وجمع خلائق من أوباش العالم الذين ينتسبون الى الطرائق ،

كالأحمدية والسعدية والشعيبية ، ويتجاوبون فى وسط الطبول بألفاظ مستهجنة ، ينادون بها مشايخ طرقهم بكلمات وعبارات تشمئز منها الطباع ! وأمرهم بأن يمروا من تحت داره ، ودعا أمراء البلدة فى ظرف تلك الأيام متفرقين ، ودعا عابدين باشا يوم المولد .

ولما سكن بتلك الدار — وهى قبالة الميضأة والمراحيض — فكان يتضرر من الرائحة ، فقصد ابطالها من تلك الجهة ، فاشترى دارا قبلى المسجد — وهى بجانب حائط المسجد الجنوبية الفاصلة بينها وبين المسجد — وأدخل منها جانبا فى المسجد ، وزاد فيه مقدار باكية ، وجعلها مرتفعة عن أرض المسجد درجة لتمتاز عن البناء القديم ، وجعل به محرابا ، ومن خلفه خلوة يسلك اليها من باب بصدر الليوان المذكور الى فسحة لطيفة أمام الخلوة ... وبالخلوة شباك مطل على الليوان الصغير الذى بقبة الضريح . وأنشأ فيما بقى من الدار ميضأة ومراحيض ، وفتح لها بابا من داخل المسجد من آخره بجانب باب السبيل ، وأبطل الميضأة القديمة ، لانحراف مزاجه وتأذيه من رائحتها .

وتحول عبور الناس من داخل وخارج الى هذه الجديدة ، وأتت عليها عدة أيام ففاحت الروائح على المصلين ومن بالمسجد ، وما انضاف الى ذلك أيضا من البلل والتقذير من أرجل الأوباش لقربها من المسجد . فلغط الناس ومن يحضر فى أوقات الصلاة ، من أتراك خان الخليلى والتجار ، وشنعوا القالة ، وقاموا قومة واحدة ، وأغلقوا الباب ، وأبطلوا تلك الميضأة ، ومنعوا من دخولها . وساعدهم المتصوفون من أجناسهم ، فانكسف بال المترجم لذلك ، ولم يمكنه تنفيذ فعله ، وأعاد الميضأة القديمة كما كانت ، وجعل المستجدة مربطا للحمير يستغل أجرته ! بعد أن أزال تلك الميضأة ، ومحا أثر ذلك .

وكان بناء هذه الزيادة سنة ست بعد المائتين . ثم زاد فى منزل سكنهم زيادة من ناحية البركة المعروفة ببركة الفيل — خلف البستان — أخذ فى تلك الزيادة مقدارا كبيرا من أرض البركة ، وأنشأه مجلسا مربعا متسعا ، مطلا على البركة من جهتيه ، وبوسطه عمود من الرخام ، وبلط دور قاعته بالرخام ، وجعل به مخدعا ، وخارجه فسحة كبيرة ، وشبابيكها مطلةعلى البركة . وصارت القاعة القديمة ، المعروفة بالغزال الملتفت ، بابها فى ضمن الفسحة ، وبها باب القيطون . وسمى هذه المنشية « الأسعدية » ، وبتلك الفسحة باب يدخل منه الى منافع ومرافق . ثم عنّ له التغيير والتبديل لأوضاع البيت من ناحية أخرى ، فهدم الساتر على القاعة الكبيرة وفسحتها ، وهى التى يسمونها « بأم الأفراح » ، وهى من انشاء الشيخ أبى التخصيص ، وهى أعظم المجالس التى بدارهم .. مزخرفة بالنقوش الذهب والقيشانى الصينى بجميع حيطانها والرخام الملون ، وبها الفسقية والسلسبيل ، والقمريات الملونة . فكشف حائطها وأدخل فسحتها فى رحبة الحوش ، وهدم القاعة الأخرى التى كان يصعد اليها بسلم من الفسحة الأخرى ، وأبطل الحواصل التى أسفلها ، وساواها بالأرض ، وعمل بها فسقية بالرخام ، ومرافقها من داخلها ، وبها باب يتوصل منه الى الحريم ، وسماها « الأنوارية » نسبة لكنيته ، وأمامها فسحة عظيمة — ديوان بدكك وكراسى — بجانب البستان ، وبها الطرقة والدهليز الممتد بوسط البستان الموصل الى القاعة المسماة « بالغزال والأسعدية » ، وهدم المقعد القديم الذى به العمود وقناطره ، وما كان بظاهر الحاصل — المسمى بحاصل السجادة — من الحواصل السفلية ، وجعله مسجدا يصلى فيه الجمعة ، ونصب فيه منبرا للخطبة .. وذلك لبعد المساجد الجامعة عن داره ، وتعاظمه عن السعى الكثير ، والاختلاط بالعامة [-]

وأخذ قطعة وافرة من بيت كتخدا الجاويشية وسع بها البستان ، وغرس بها الأشجار والرياحين والثمار .

وأفنى غالب عمره فى تحصيل الدنيا ، وتنظيم المعاش والرفاهية ، واقتناء كل مرغوب للنفس ، وشراء الجوارى والمماليك والعبيد والحبوش والخصيان ، والتأنق فى المآكل والمشارب والملابس ، واستخراج الأدهان والعطريات والمركبات المفرحة ، والمنعشة للقوة .

وتعاظم فى نفسه ، وتعالى على أبناء جنسه ... حتى أنه ترفع على لبس التاج ، وحضور المحيا بالأزهر ليلة المعراج ، وكذا الحضور فى مجلس وردهم ، الذى هو محل عزهم وفخرهم ، وصار يلبس قاووقا بعمامة خضراء ، تشبها بأكابر الأمراء ، وبعدا عن التشبه بالمتعممين والفقهاء والمقرئين .

ولما طالت أيامه ، وماتت أقرانه ، والذين كان يستحى منهم ويهابهم ، وتقلبت عليه الدول ، واندرجت أكابر الأمراء ، وتأمر أتباعهم ومماليكهم الذين كانوا نقومون على أقدامهم بين يدى مخاديمهم وأسيادهم جلوس بالأدب مع المترجم ... لا جرم كانت هيبته فى قلوبهم أعظم من أسلافهم ، واستصغاره هو لهم كذلك . فكان يصدعهم بالكلام وينفذ أمره فيهم ، ويذكر الأمير الكبير بقوله : « ولدنا الأمير فلان » . وحوائجه عندهم مقضية ، وكلامه لديهم مسموع ، وشفاعته مقبولة ، وأوامره نافذة فيهم وفى حواشيهم وحريماتهم .

واتفق أن بعض أعاظم المباشرين من الأقباط توقف معه فى أمر ، فأحضره ولعنه وسبه ، وكشف رأسه وضربه على دماغه بزخمة من الجلد ، ولم يراع حرمة أميره ، وهو اذ ذاك أمير البلدة .

ولما شكا الى مخدومه ما فعل به ، قال له : «وما تريد أن أصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانيا» ! فرحم الله عظامهم .

واتفق أيضا أن جماعة من أولاد البلد ووجهائها اجتمعوا ليلة بمنزل بعض أصحابهم وتباسطوا ، فأخذ بعضهم يسخر ويقلد بعض أصحاب المظاهر . فوشى للمترجم مجلسهم ، وأنهم أدرجوه فى سخريتهم ، فتسماهم ، وأحضرهم واحدا بعد واحد ، وعزرهم بالضرب والاهانة ... فكان كل قليل يقع فى بيته الضرب والاهانة لأفراد من الناس ، وكذلك فلاحو الحصص التى حازها والتزم بها ... فانه زاد فى خراجهم عن شركائه ، ويفرض عليهم زيادات ، ويحبسهم عليها شهورا ، ويضربهم بالكرابيج .

وبالجملة فقد قلب الموضوع ، وغير الرسم المطبوع ، بعد أن كان منزلهم محل سلوكٍ ورشاد ، وولاية واعتقاد ، فصار كبيت حاكم الشرطة ، يخافه من غلط أدنى غلطة ، ويتحاماه الناس من جميع الأجناس ... وجلساؤه ومرافقوه لا يعارضونه فى شيء ، بل يوافقونه ، ولا يتكلمون معه الا بميزان ، وملاحظة الأركان ، ويتأدبون معه فى رد الجواب ، وحذف كاف الخطاب ، ونقل الضمائر عن وضعها فى غالب الألفاظ — بل كلها — حتى فى الآثار المروية ، والأحاديث النبوية ... وغير ذلك من المبالغات وتحسين العبارات ، والوصف بالمناقب الجليلة ، والأوصاف الجميلة ... حتى أن السيد حسين المنزلاوى الخطيب ، كان ينشيء خطبا يخطب بها يوم الجمعة التى يكون المترجم حاضرا فيها بالمشهد الحسينى ، وبزاويتهم — أيام المولد — ويدرج فيها الاطراء العظيم فى المترجم والتوسل به فى كشف المهمات ، وتفريج الكروب ، وغفران الذنوب ! حتى انى سمعت قائلا يقول بعد الصلاة : « لم يبق على الخطيب الا أن يقول : اركعوا واسجدوا واعبدوا شيخ السادات » !

ولما قدمت الفرنساوية الى الديار المصرية فى أوائل سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف لم يتعرضوا

له فى شىء ، وراعوا جانبه ، وأفرجوا عن تعلقاته ، وقبلوا شفاعاته ، وتردد اليه كبيرهم وأعاظمهم . وعمل لهم ولائم ، وكنت أصاحبه فى الذهاب الى مساكنهم ، والتفرج على صنائعهم ونقوشهم وتصاويرهم وغرائبهم ...

الى أن حضر ركب العثمانيين فى سنة خمس عشرة ، وحصلت بينهم المصالحة على انتقال الفرنساوية من أرض مصر ، ورجوعهم الى بلادهم على شروط اشترطوها بينهم وبين وزير الدولة العثمانية ، ومنها حسابات تدفع اليهم ، وأخرى تخصم عليهم . وظن المترجم وخلافه اتمام الأمر والارتحال لا محالة . فعند ذلك لحقه الطمع ، فذكر مصلحة دفعها لكاتب جيشهم فى نظير الافراج عن تعلقاته ، وأرسل يطلبها من «بوسليك» مدبر الجمهور ، وكذلك ما قبضه ترجمانه . فقال : « هذه عوائد لا بد منها ، ودخلت فى حساب الجمهور » . وتغير خاطرهم منه ، وكانت منه هفوة ، ترتب عليها بينهم وبينه الجفوة .

ولما انتقض الصلح ، وحصلت المناقمة ، ووقعت المحاربة فى داخل المدينة ، وترست العساكر الاسلامية ، وأهل البلد ، فى النواحى والجهات ، وانقطع الجالب عن أهل البلد مدة ستة وثلاثين يوما — التزم أغنياء الناس وأصحاب المظاهر ، الاطعام والانفاق على المحاربين والمقاتلين فى جهتهم ونواحيهم ، والتزم المترجم كغيره الانفاق على من حوله .

فلما انقضت أيام المحاربة ، وانتصر الفرنساوية ، ورجع الوزير ومن معه الى جهة الشام منهزمين ... فعند ذلك انتقم الفرنساوية من المبارزين لهم بأخذ المال بدلا عن الأرواح ، وقبضوا على المترجم وحبسوه وأهانوه أياما ، وفرضوا عليه قدرا عظيما من المال ... قام بدفعه ، كما ذكرنا ذلك مفصلا فى محله . وقيل ان الذى زاد الفرنساوية اغراء به ، مراد بيك ، حين اصطلح معهم ، وعمل لهم ضيافة ببر الجيزة .

وسببه : أنه لما دهمت الفرنساوية ، وطلعوا الاسكندرية ، ووصل الخبر الى مصر .. اجتمع الأمراء بالمساطب ، وطلبوا المشايخ ليشاوروا فى هذا الحادث ، فتكلم المترجم وخاطبهم بالتوبيخ ، وقال : « كل هذا سوء فعالكم وظلمكم . وآخر أمرنا معكم ملكتمونا للافرنج » . وشافه مراد بيك « ... وخصوصا بأفعالك وتعديك أنت وأمرائك على متاجرهم وأخذ بضائعهم واهانتهم» . فحقدها عليه ، وكتمها فى نفسه حتى اصطلح مع الفرنساوية ، وألقى اليهم ما ألقاه . ففعلوا به ما ذكر .. وذلك فى ثانى يوم الضيافة .

فلما رجع العثمانية فى السنة الثانية الى مصر بمعونة الانكليز ، وصاروا بالقرب من المدينة ، حبسوا المترجم مع من حبس بالقلعة من أرباب المظاهر ... خوفا من احداثهم فتنة بالبلدة .

ومات ولده ، الذى كان سماه : محمد نور الله ، وهو معوق وممنوع ، فأذنوا له فى حضوره جنازة ولده ، فنزل وصحبته شخص حرس منهم ، فلازمه حتى واراه ، وعاد به ذلك الحرسى الى القلعة وكان هذا الولد مراهقا له من العمر اثنتا عشرة سنة ... كان فى أمله أن يكون هو الخليفة فى بيتهم من بعده ، ويأبى الله الا ما يريد !

ولما انفصل الأمر ، وارتحل الفرنساوية من أرض مصر ، ودخل اليها يوسف باشا الوزير ومن معه ، تقدم المترجم يشكو اليه حاله وما أصابه ، وادعى الفقر والاملاق ... مع أن الفرنساوية لم يحجزوا عنه شيئا من تعلقاته وايراده ، وجعل شكواه وما حصل له سلما للافراج عن جميع تعلقاته وايراده من غير حلوان كغيره من

الناس ، وزاد على ذلك أشياء ومطالب ومسامحات ، ودعا الوزير الى داره ، وأفراد رجال الدولة الذين بيدهم مقاليد الأمور ، وعاد الى حالته فى التعاظم والكبرياء .

وارتحل الوزير بعد استقرار محمد باشا خسرو على ولاية مصر — وكان سموحا — وكذلك شريف أفندى الدفتردار ، فرمح فى غفلتهما ، واستكثر من التحصيل والايراد ... الى أن تقلبت الأحوال ، وعادت للمصريين فى سنة ثمان عشرة ، ثم خروجهم وما وقع من الحوادث التى تقدم ذكرها .

واستقر محمد على باشا ، وثبتت قدمه بمعونة العامة والسيد عمر مكرم بمملكة مصر ، وشرع فى تمهيد مقاصده ، فكان السيد عمر يمانعه . فدبر على اخراجه من مصر ، وجمع المشايخ ، وأحضر المترجم ، وخلع عليه وقلده النقابة ، وأخرج السيد عمر من مصر منفيا الى دمياط ... وذلك فى سنة أربع وعشرين كما تقدم . ووافق فعله ذلك غرض المترجم ، بل ربما كان بمعونته لحقده الباطنى على السيد عمر ، وتشوفه الى النقابة ، وادعائه أنها كانت ببيتهم ... لكون الشيخ أبى هادى تولاها أياما ، ثم تولاها بعده أبو الامداد ، ثم نزل عنها لمحمد أفندى البكرى الكبير — فلم يزل فى نفس المترجم التطلع لنقابة الاشراف ويصرح بقوله : « انها من وظائفنا القديمة » وأحضر بها مرسوما من دار السلطنة وأخفاه ولم يظهره مدة حياة محمد افندى البكرى الكبير . فلما مات وتقلدها ولده محمد افندى .. ادعاها وأظهر المرسوم ، وشاع خبر ذلك . فاجتمع الجم الغفير من الأشراف بالمشهد الحسينى ممانعين وقائلين : « لا نرضاه نقيبا ولا حاكما علينا » ، فلم يتم له مراده .. فلما توفى محمد أفندى الصغير ، ظن أنه لم يبق له فيها منازع ... فلا يشعر الا وقد تقلدها السيد عمر بمعونة مراد بيك وابراهيم بيك ، لصحبته معهما ، ومرافقته لهما فى الغربة حين كان المصريون بالصعيد . فسكت على ضغن وغيظ ، يخفيه تارة ويظهره أخرى ، وخصوصا وهو يرى أن السيد عمر فى ذلك ... دون ذلك بكثير .

فلما خرج الفرنساوية ، ودخل الوزير الى مصر ، وصحبته السيد عمر متقلدا للنقابة كما كان ، وانفصل عنها السيد خليل البكرى ، وارتفع شأن السيد عمر ، وزاد أمره بمباشرة الوقائع ، وولاية محمد على باشا ، وصار بيده الحل والعقد ، والأمر والنهى ، والمرجع فى الأمور الكلية والجزئية ... والمترجم يحقد عليه فى الباطن ويظهر له خلافه ، وهو الآخر كذلك ، كقول الشاعر :

أصادقه كرها ، ويظهر أنه
صديقى كرها .. والعداوة تشتد
ولست بمعتقد له بصداقة
كما أنه منى بها ليس يعتقد
وذلك لأنى عالم ، وهو عالم ،
فعلمى منه التى مثله ضد
ولكننى أخشاه وهو يخافنى
فيخفى ويبدو بيننا البغض والود

فلما أخرج الباشا السيد عمر ، وتقلد المترجم النقابة ، وبلغ مأموله ... عند ذلك أظهر الكامن فى نفسه ، وصرح بالمكروه فى حق السيد عمر ومن ينتمى اليه أو يواليه ، وسطر فيه عرضا محضرا الى الدولة ، نسب اليه فيه أنواعا من الموبقات التى منها أنه أدخل جماعة من الأقباط فى دفتر الأشراف ، وقطع أناسا من الشرفاء المستحقين ، وصرف راتبهم للأقباط المدخلين .. ومنها : أنه تسبب فى خراب الاقليم واثارة الفتن ، وموالاة البغاة المصريين ، وتطميعهم فى المملكة...حتى أنه وعدهم بالهجوم على

البلدة يوم قطع الخليج فى غفلة الباشا والناس والعساكر ، وأنه هو الذى أغرى المصريين على قتل على باشا برغل الطرابلسى حين قدم واليا على مصر ، وهو الذى كاتب الانجليز وطمعهم فى البلاد مع الألفى حين حضروا الى سكندرية وملكوها ونصر الله عليهم العساكر الاسلامية ... وغير ذلك من عبارات عكس القضية ، وتنميق الأغراض النفسانية . وكتب الأشياخ عليه خطوطهم ، وطبعوا تحتها ختومهم ، ما عدا الطحطاوى الحنفى ، فانه تنحى عن الشرور ، وامتنع من شهادة الزور ، فأوسعوه سخطا ومقتا ، وعزلوه من الافتاء .

وقد تقدم خبر ذلك فى حوادث سنة أربع وعشرين ، وانما المعنى باعادة ذلك هنا تتمة لترجمة المشار اليه ، وحذرا من نقصها مع النسيان لأكثر جملها ... فلو سلمت الفكرة من النسيان ، لفاقت سيرته كان وكان .

وفى سنة ست وعشرين أنشأ دارا عظيمة بجانب المنزل ، وصرف جملا من المال ، وأنشأ بها مجالس وقاعات ورواشن ومنافع ومرافق وفساقى ، وأنشأ فيها بستانا غرس فيه أنواع الأشجار المثمرة ، وأدخل به ما حازه من دور الأمراء المتخربة .

وكان السيد خليل البكرى اشترى دارا بدرب الفرن ، وذلك بعد خروج الفرنساوية ، وخمول أمره وعزله من مشيخة البكرية والنقابة ، وأنشأ بها بستانا أنيقا ، وأنشأ قصرا برسم ولده مطلا على البستان . فلما توفى السيد خليل ، تعدى على ولده سيدى أحمد وقهره ، وأخذ منه ذلك البستان بأبخس الأثمان ، وخلطه ببستان الدار الجديدة ، وبنى سوره وأحاطه ، وأقام حائطا بينه وبين دار المذكور ، وطمسها وأعماها ، وسدت الحائط شبابيك ذلك القصر وأظلمته . ولم يزل كلما طال عمره ، زاد كبره ، وقل بره ، وتعدى شره . ولما ضعفت قواه تقاعد عن القيام لأعاظم الناس اذا دخل عليه ، محتجا بالاعياء والضعف ، ولازم استعمال المنعشات والمركبات المفرحة ، ولا يصلح العطار ما أفسد الدهر !

وفى شهر شوال من السنة التى توفى فيها ، أحضر ابن أخيه سيدى أحمد الذى تولى المشيخة بعده ، وألبسه خلعة وتاجا ، وجعله وكيلا عنه فى نقابة الأشراف ، وأركبه فرسا بعباءة ، وأرسله الى الباشا صحبة سيدى محمد ، المعروف بأبى دفيه ، وأمامه جاويشية النقابة على العادة . فلما دخلا الى الباشا وعرفه المرسول بأن عمه أقامه وكيلا عنه ، فقال : «مبارك» . فأشار اليه أن يلبسه خلعة ، فقال : « ان موكله ألبسه ولم يتقلدها بالاصالة ، ولو كنت قلدته أنا ، كنت أخلع عليه وألبسه » ، فقام ونزل الى داره التى أسكنه بها عمه ، وهى الدار التى عند المشهد الحسينى ، وحضر اليه الناس للسلام والتهنئة .

وفى هذه السنة أيضا ، عن للمترجم أن يزيد فى المسجد الحسينى زيادة مضافة لزيادته الأولى التى كان زادها فى سنة ست ومائتين وألف ، فهدم الحائط التى كان بناها الجنوبية ، وأدخل القطعة التى كان عمل بها الميضأة ، وزاد باكية أخرى ، وصف عواميد ، وصارت مع القديمة ليوانا واحدا . وشرع فى بناء دار عظيمة لينزل فيها وقت مجيئه هناك فى أيام المولد وغيره — عوضا عن الدار التى نزل عنها لابن أخيه — فتكون هذه بعيدة عن روائح الميضأة القديمة ، وتكون بالشارع ، وتمر من تحتها مواكب الأشاير ، ولا يحتاجون الى تعديهم المسجد ودخولهم من طريق باب القبة . وجعل بالحائط الفاصل بين الزيادة والدار المستجدة ، شبابيك مطلة على المسجد ، لينظر منها المجالس والوقودات ، من يكون بالدار من الحريم وغيرهم .. فما هو الا وقد قرب اتمام

ذلك الا وقد زاد به الاعياء والمرض ، وانقطع عن النزول من الحريم ... وتمت الزيادة ، ولم يبق الا اتمام الدار ، فيستعجل ويشتم المشد والمهندس ، وينسب اليهم اهمال استحثاث العمال ويقول : « قد قرب المولد ، ولم تكمل الدار ، فأين نجلس أيام المولد ؟ » . هذا وكل يوم يزيد مرضه ، وتورمت قدماه ، وضعف عن الحركة ... وهو يقول ذلك ويؤمل الحياة !

فلما زاد به الحال ، وتحقق الرحيل الى مغفرة المولى الجليل ، أوصى لأتباعه بدراهم ، ولذى الفقار — الذى كان كتخدا الألفى ، والآن فى خوالة بستان الباشا الذى بشبرا — بخمسمائة ريال لكون زوجته خشداشة حريمه ، وهما من جوارى اسماعيل بيك الكبير ، وليكون مغنيا لها ومساعدا فى مهماتها ، ولسيدى محمد أبى دفية مثلها فى نظير خدمته وتقيده وملازمته له وأوصى الا يغسل الا على سريره الهندى الذى كان ينام عليه فى حياته ليكون مخالفا للعالم .. حتى فى حال الموت !

فلما كان يوم الاحد ثامن عشر ربيع الأول من السنة انقضى نحبه ، وتوفى الى رحمة الله تعالى ، وقت العصر ، وبات بالمنزل ميتا . فلما أصبح يوم الاثنين ، غسل وكفن — كما أوصى — على السرير ، وخرجوا بجنازته من المنزل ، ووصلوا بها الى الأزهر ، فصلى عليه ، بعد ما أنشد المنشد مرثية من انشاء العلامة الشيخ حسن العطار ، وجعل براعة استهلالها الاشارة الى ما كان عليه المترجم من التعاظم والتفاخر فقال : « سلام على الدنيا فقد ذهب الفخر » ، ثم حمل الى مشهد أسلافه بالقرافة ، ودفن فى التربة التى أعدها لنفسه بجانب مقام جدهم .

وتقلد مشيخة سجادتهم فى ذلك اليوم السيد أحمد بن الشيخ يوسف — وهو ابن عمه وعصبته ، وكنيته : أبو الاقبال — باجماع من الخاص والعام ، وجلس هو وأخوه سيدى يحيى لتلقى العزاء .

وفى الصباح : حضر الى الرباط بالخرنفش وكان بزاوية الرباط المذكور ، خلوة جدهم ... أقام بها حين حضر من الغرب الى مصر . وعادتهم اذا تولى شخص منهم المشيخة لابد أن يأتى فى الصباح ، ويدخل الخلوة فيجلس بها حصة لطيفة ، فيتروحن وتلبسه الولاية .

فلما كان المترجم هدم حائط تلك الخلوة ، زاعما أنه خاتمة أوليائه ، وأنه لم يأت من يصلح للمشيخة سواه ... وكأنه أخذ بذلك عهدا وميثاقا ، ولم يعلم أن ربه لم يزل خلاقا ، وأن الولاية ليست بفعل العبد ، ولا بالسعى والقصد . قال تعالى فى محكم آياته : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، وقال سبحانه : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون » ، « ان أولياؤه الا المتقون » . نسأله التوفيق والهداية ، والحفظ عن أسباب الغواية .

ولما كان ذلك ، وأحبوا اجراء العادة القديمة ، حضر المتولى وصحبته أشياخ الوقت ، والسيد محمد المحروقى ، وجماعة الحزب وغيرهم من المتفرجين ، وقد جعلوا على محل الخلوة ساترا — بدل الحائط المهدوم — ودخل المتولى خلفها ، وقرأ جماعة الحزب شيئا من القرآن ، ثم قام النقيب مع الشيخ البكرى ، فتلقوا الشيخ ، فخرج على الحاضرين متطيلسا ، وصافحهم ، وركب بصحبتهم الى القلعة ، فخلع عليه كتخدا بيك خلعة سمور ، وقاموا ونزلوا الى زاويتهم بالقرافة ، وأمامهم جماعة الحزب ، وجاويشية النقابة ، فجلسوا حصة ، وقرأوا أحزابهم ، ثم ركب ورجع الى المنزل ، وجلس مع أخيه لعمل المأتم والقراءة الجمعية على العادة .

وأرسل كتخدا بيك ساعيا بخبر موته الى الباشا بالفيوم ... لأنه لما سافر الى جهة قبلى، ووصل الى ناحية بنى سويف ، ركب بغلة سريعة العدو ، وركب خلفه خواصه بالهجن والبغال ، فوصلها فى أربع ساعات ، وانقطع أكثر المتوجهين معه ، ومات منهم سبعة عشر هجينا . ورجع الساعى بعد ثلاثة أيام بجواب الرسالة ومضمونها : عدم التعرض لورثة المتوفى ، حتى يقدم الباشا من غيبته . فبقى الأمر على السكوت أربعة عشر يوما .

وحضر الباشا ليلة الأحد ، ثامن ربيع الآخر ، فبمجرد وصوله الى الجيزة . أرسل بالختم على منزلهم ، فما يشعرون الا وحسين ، كتخدا الكتخدا بيك وبيت المال ، واصل اليهم ومعه آخرون ، فختموا على المجالس التى بالحريم ، ومجلس الجلوس الرجالى ... ختموا على خزائنه ، وقبضوا على الكاتب القبطى ، المسمى « عبد القدوس » والفراش ... وحبسوهما .

وتعدى الباشا من ليلته الى بر مصر ، وطلع الى القلعة . فركب اليه فى صبحها المشايخ ، وصحبتهم ابن أخى المتوفى — وهو الذى تولى المشيخة — فخاطبوه ، وقالوا له كلاما معناه أن بيوت الأشياخ مكرمة ، ولم تجر العادة بالختم على أماكنهم ، وخصوصا أنهذا المتوفى كانعظيما فى بابه ، وأنتم أخبر به ، وكان لكم به مزيد عناية ومراعاة ، فقال : « نعم .. انى لا أريد اهانة بيتهم ، ولا أطمع فى شىء مما يتعلق بمشيختهم ، ولا وظائفهم القديمة . ولا يخفاكم أن المتوفى كان طماعا وجماعا للمال ، وطالت مدته ، وحاز التزامات واقطاعات ، وكان لايحب قرابته ، ولا يخصهم بشىء ، بل كتب ماحازه لزوجته ، وهى جاريه نهاية ثمنها ألفا قرش أو أقل أو أكثر ، ولم يكتب لأولاد أخيه شيئا ... فلا يصح أن أمة تختص بذلك كله ، والخزينة أولى به لاحتياجات مصاريف العساكر ، ومحاربة الخوارج ، واستخلاص الحرمين ، وخزينة السلطان ... وأنا أرفع الختم رعاية لخواطركم » !

فدعوا له ، وقاموا الى مجلس الكتخدا ، وخلع على الشيخ المتولى فروة سمور أخرى ، وقلد السيد محمد الدواخلى نقابة الأشراف ، وخلع عليه فروة سمور عوضا عن سيدى احمد أبى الاقبال ، المتولى على خلافة السادات ، فانفصل من النقابة ، ونزلت الجاويشية ولوازم النقابة — مثل باش جاويش والكاتب — أمام الدواخلى وخلفه . وقلد السيد المحروقى نظارة المشهد الحسينى عوضا عن المتوفى . وكان فرغ بها لابن أخيه ، فلم ينفذ الباشا ذلك .

وفى ثانى يوم حضر الأعوان الى بيت السادات ، وفكوا الختوم ، وطلبوا سقاء الحريم ، فأخذوه معهم ، وأوجعوه بالضرب ، وأحضروا البناء ، وسألوهما عن محل الخبايا ثم رجعوا الى المنزل ، ففتحوا مخبأة مسدودة بالبناء ، فوجدوا بها قوالب مساند قطيفة غير محشوة ، ووجدوا نحاسا وقطنا وأوانى صينى ، فتركوا ذلك وذهبوا ، وأبقوا بالدار عدة من العسكر ، فباتوا بها .

ثم رجعوا فى ثالث يوم ، وفتحوا مخبأة أخرى فوجدوا بها أكياسا مربوطة ، فظنوا بداخلها المال ففتحوها ، فوجدوا بها بن قهوة ، وبغيرها صابون وشموع عسل ، ولم يجدوا شيئا من المال ، فتركوا تلك الأشياء ، ونزلوا الى قاعة جلوسه ، وفتحوا خزانة فوجدوا بها نقودا ، فعدوها وحصروها فبلغت مائة وسبعة وعشرين كيسا ، فأخذوها .

ثم سعى السيد محمد المحروقى فى مصالحة الباشا حتى قرر عليهم ألف كيس وخمسين كيسا وخمسة أكياس برانى لبيت المال، وخصموا منها الذى وجدوه بالخزانة ، وطولبوا بالباقى ... وذلك بعد التشديد والتهديد على الزوجة ، وتوعدوها بالتغريق فى البحر ان لم تظهر المال .

وأمر الكاتب بحساب ايراده ومصرفه فى كل سنة ، وما صرفه فى الأبنية ، وينظر ما يتبقى بعد ذلك فى مدة سنين ماضية ... فلم يزل السيد محمد المحروقى يدافع ويسعى حتى تقرر القدر المذكور، والتزم هو بدفعه ، وحولت عليه الحوالات . وضبط الباشا حصص الالتزام التى كتبت باسم الزوجة ، ومنها قلقشندة بالقليوبية ، وسوادة ودفرينة بالجهة القبلية ، وغير ذلك .

وبعد انقضاء عدة الزوجة ، استأذن السيد المحروقى الباشا فى عقد نكاحها على ابن أخى المتوفى ... الذى هو السيد احمد أبو الاقبال ، الذى تولى خلافة بيتهم ، فادن بذلك . فحضر فى الحال وأجرى العقد بعد أن حكمت عليه بطلاق التى فى عصمته ، وهى جاريتها ، زوجته بها فى حياة عمه ، ورزق منها أولادا .

واستقر المشار اليه فى المنزل ، خليفة وشيخا على سجادتهم ومحل سيادتهم ، وسكن معه أخوه سيدى يحيى ، زادهما الله توفيقا وخيرا واتفاقا ، وأشرق نجم المتصدر على أفق السعادة اشراقا ، فهو أبو الاقبال المتحلى بالجمال والكمال .

فى المهد ينطق عن سعادة جده
أثر النجابة واضح البرهان
ان الهلال اذا رأيت نموه
أيقنت أن سيزيد فى اللمعان

* * *

ومات الشيخ الناسك : محمد بن عبد الرحمن البومى المغربى . ورد الى مصر وحج ورجع ، ونزل بدار الحاج مصطفى الهجين العطار ، منجمعا عن خلطة الناس ، والسعى على طريقة حميدة ، ومذاكرة حسنة . ويأتى اليه الناس يزورونه ، ويتبركون به ويسألونه الدعاء ، ويستفهمون منه مسائل ... فيجيب كل انسان بما ينسر منه ، بتواضع وانكسار وتزهيد فى الدنيا . وتمرض سنينا ، وتوفى يوم الثلاثاء ثامن عشرين المحرم ، وصلى عليه بالأزهر فى مشهد حافل ، ودفن بجانب الخطيب الشربينى ، بتربة المجاورين ، وهى القرافة الكبرى .

سنة ١٢٢٩ هجرية

المحرم

الجمعة ٨ منه (٣١ ديسمبر ١٨١٣ م) :

وردت مكاتبات من الديار الحجازية ، وفيها الاخبار بأن الباشا قبض على الشريف غالب ، أمير مكة ، وقبض على أولاده الثلاثة ، وأربعة عبيد طواشية من عبيده ، وأرسلهم الى جدة ، وأنزلهم فى مركب من مراكبه ، وهى واصلة بهم . والذى وصل بالخبر وصل فى مركب صغيرة تسمى « السبحان » سبقتهم فى الحضور الى السويس .

وأخبروا أيضا فى المكاتبة : أنه لما قبض عليهم ، أحضر يحيى ابن الشريف سرور وقلده الامارة عوضا عن عمه غالب ، وقبضوا أيضا على وزيره الذى بجدة ، وأصحبوه معهم ، وقلد مكانه فى الكمارك شخصا من الأتراك ، يسمى على الوجاقلى .

فلما وصل الهجان بهذه المكاتبة الى السيد محمد المحروقى ليلا ، ركب من وقته الى كتخدا بيك فى بيته ، وأطلعه على المكاتبات . فلما طلع النهار — نهار يوم الجمعة — ضربوا عدة مدافع من القلعة اعلاما وسرورا بذلك .

وفيه : احتفل كتخدا بيك بعمل مهم أيضا لزواج اسماعيل باشا ، ابن محمد على باشا ، ومحمد بيك الدفتردار على ابنة الباشا ، واسماعيل باشا ، على ابنة عارف بيك ابن خليل باشا ، التى أحضرها صحبته من اسلامبول . وقد تقدم ذكر العقد عليهما فى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان من السنة الماضية ، قبل توجه الباشا الى الحجاز .

فألزم كتخدا بيك ، السيد محمد المحروقى ، بتنظيم الفرح والاحتياجات واللوازم واتفقوا على أن يكون نصبة الفرح ببركة الأزبكية — تجاه بيت حريم الباشا وطاهر باشا — وتعمل الولائم ، واجتماع المدعوين ببيت طاهر باشا ، والمطبخ بخرائب بيت الصابونجى .

وأرسلوا أوراق التنابيه للمدعوين على طبقات الناس بالترتيب ، ونصبوا بوسط البركة عدة صوارى لأجل الوقدات والقناديل التى تعمل عليها التصاوير من القناديل ... فترى من البعد صورة مركب ، أو سبعين متقابلين ، أو شجرة ، أو محمل على جمل ، أو كتابة مثل «ماشاء الله» ونحوذلك

وصفوا بوسط البركة عدة مدافع ، صفين متقابلين ، ونصب بهلوان الحبل حبله : أوله من تجاه بيت الباشا ، وآخره برأس المنارة التى جهة حارة الفوالة خلف رصيف الخشاب ، حيث الأبنية المتخربة فى الحوادث الماضية ، بالقرب من القشلة ، وعمارات محمد باشا خسرو التى لم تكمل ... وبهلوان آخر شامى بالناحية الأخرى . وانتقل السيد محمد المحروقى من داره الى بيت الشرايبى — تجاه جامع أزبك — لأجل مباشرة المهمات .

فلما أصبح يوم السبت — وهو يوم الابتداء ودعوة الأشياخ — رتبوهم فرقتين : فرقة تأتى ضحوة النهار ، وأخرى بعد العصر . واجتمع بالأزبكية أصناف أرباب الملاعب والمغزلكين

والجنباذية والحبيظية والحواة والقرداتية والرقاصين والبرامكة ، وغير ذلك أصناف وأشكال ... فاحتفلت . وأقبل من كل ناحية أصناف الناس . رجال ونساء ، وأقارب وأباعد ، وأكابر وأصاغر ، وعساكر وفلاحون ، ويهود ونصارى وأروام ... لأجل التفرج ، حتى ازدحمت الطرق الموصلة الى الأزبكية من جميع النواحى بأصناف الناس الذاهبين والراجعين والمترددين . واستمر ضرب المدافع من ليلة السبت المذكور الى ليلة الجمعة التالية الأخرى ، ليلا ونهارا ، والحرائق والنفوط والسواريخ فى الليل . ولعبت أرباب الملاعيب والبهلوانات على الحبال . وكذلك احتفل النصارى ، وعملوا وقدات وحراقات تجاه حاراتهم ومساكنهم ، وصادف ذلك عيد الميلاد ، وعملوا لهم مراجيح وملاعيب .

وفى أثناء ذلك : وقع التنبيه على أصحاب الحرف والصنائع بعمل عربات مشكلة وممثلة بحرفتهم وصنائعهم ليمشوا بهم فى زفة العروس . فاعتنى أهل كل حرفة وصناعة بتنميق وتزيين شكله ، وتباهوا وتناظروا ، وتفاخروا على بعضهم البعض .

فكان كل من سولت له نفسه ، وحدثه الشيطان باحداث شيء ... فعله ، وذهب الى المتعين لذلك ، فيعطيه ورقة ... لأن ذلك لم يكن لأناس مخصوصة أو عدد مقدر ، بل بتحكماتهم ، والزام بعضهم البعض . فيفرض رئيس الحرفة على أشخاص أهلها فرائض ودراهم يجمعها منهم ، وينفقها على العربة ، وما يلزمها من أخشاب وحبال وحمير أو خيل أو رجال يسحبونها ، وما يكتريه أو يستعيره لزينتها من المزركشات والمقصبات والطلعيات ، وأدوات الصنعة التى تتميز بها عن غيرها ، فتصير فى الشكل كأنها حانوت والبائع جالس فيها : كالحلوانى وأمامه الأوانى فيها أنواع

الحلوى والسكرى ، وحوله أوانى الملبس
السكر معلقة حوله ، والشربات والشربتلي
والحريرى والعقاد البلدى والرومى والزيات
والنجار والخياط والقزاز والحاك ، و
وهو ينشر الخشب بمنشار ، المعلق ،
والفران ، ومعه الفرن ، وهو يخبز
والفطاطرى والجزار ، وحوله لحم الغنم .
جزار الجاموس والكبابجى والنيفاوى
الجبن والسمك ، والجبارين والجباسين
والثور يدور به وهو ماش بالعربة ، والبنا
والمبيض للنحاس وللبناء ، والسمكرى
احدى وتسعون عربة ، وفيهم حتى المز
قنجة كبيرة كاملة العدة والقلوع ، ت
الأرض على العجل ، خلاف أربع عربات الم
بالعروس !

فلما كان يوم الأربعاء ، سحبوا تلك ال
وانجروا بمواكبهم وطبولهم وزمورهم ، و
عربه أهل حرفتها وصناعها ، مشاة خلف
والزمور ، وهم مزينون بالملابس ، وملابسهم
— وأكثرها مستعارة — فكانوا ينزلون الى
من ناحية باب الهواء ، ويمرون من تحت بيـ

كبير الحرفة

الى ناحية ر
الخشاب . ويأ
الحرفة بورقت
المتعين . لملاقاتهم
عليه بخلعة ود
فيعطى البعض ش
كشميرى والفين
والبعض طاقة تف
قطنى أو أربعة
جوخ — على قد
الصنعة وأهله

واستمر مرورهم من أول النهار الى بعد الغروب ، واصطفوا بأسرهم عند رصيف الخشاب .

ولما أصبح يوم الخميس ، رتبوا مرور الزفة ، وعين لترتيبها أشخاصا ، ومنهم السيد محمد ضرب الشمس — وهو كبير المنظمين — وكان خروجها من بيت الحريم ، وهو الذى كان سكن الشيخ خليل البكرى ، وذهبوا وانجروا على طريق الموسكى ، على تحت الربع ، الى باب زويلة ، الى الغورية ، الى بين القصرين ، الى سوق مرجوش ، الى باب الحديد ، الى بولاق ، الى سراية اسماعيل باشا التى جددوها قبلى بولاق قريبا من الشون ... فلم تصل الى منزلها الا عند الغروب .

وكان فى أول الزفة طائفة من العسكر الدلاة ، ثم والى الشرطة ، ثم المحتسب ، ثم موكب أغاات الينكجرية ، وبعدهم المباخر والنقاقير — وعدتها عشرة نقاقير — وعلى كل نقارة تفصيلة ، ثم العربات المذكورة ، وفيها أيضا تجار الغورية ، وطائفة تجار خان الخليلى — فى موكب حفل — وتجار الحمزاوى من نصارى الشوام وغيرهم .

وكان يوماً مشهودا ، اجتمعت فيه الخلائق للفرجة فى طرقها ، حتى طريق بولاق ، واكترى الناس الأماكن المطلة على الشارع والحوانيت بأغلى الأثمان

ولما وصلت العروس الى قصرها ، ضربوا عدة مدافع من بولاق والأزبكية والجيزة وكان العزم على عمل المهم الثانى ، والابتداء فيه من يوم السبت الذى بعد الجمعة ، فرسموا بتأخيره الى الجمعة الأخرى لتأخر أم العروس ومن بصحبتها من النساء ، وأقمن ببولاق تلك الجمعة ، واستمرت نصبة الصوارى والحبال والآلات ، على حالها ، بالأزبكية .

الأحد ١٧ منه (٩ يناير ١٨١٤ م) :

وصل السيد غالب — شريف مكة — الى مصر القديمة . وقد أتت به السفينة من القلزم الى مرساة ثغر القصير ، فتلقاه ابراهيم باشا ، وحضر صحبته الى قنا وقوص ، ثم ركب النيل بمن معه من أولاده وعبيده ، والعسكر الواصلون صحبته ، وحضر الى مصر القديمة . فلما وصل الخبر الى كتخدا بيك ، ضربوا عدة مدافع من القلعة اعلاما بوصوله واكراما ... على حد قوله تعالى : « ذق انك أنت العزيز الكريم » .

وركب صالح بيك السلحدار ، وأحمد أغا — أخو كتخدا بيك — فى طائفة لملاقاته واحضاره ، وهيأوا له مكانا بمنزل أحمد أغا — أخى كتخدا بيك — بعطفة ابن عبد الله بيك بخط السروجية ، لينزل فيه ، وانتظره الكتخدا هناك ، وصحبته بونابارته الخازندار ، ومحمود بيك ، ومحو بيك ، وابراهيم أغا أغات الباب ، والسيد محمد المحروقى .

فلما وصل الى الدار ، نزل الكتخدا والجماعة ولاقوه عند سلم الركوبة ، وقبلوا يده . ولزم الكتخدا بيده تحت ابطه ، حتى صعد الى محل الجلوس الذى أعدوه له . واستمر الكتخدا قائما على قدميه ، حتى أذن له فى الجلوس هو وباقى الجماعة . وعرفه الكتخدا عن السيد محمد المحروقى ، فتقدم وقبل يده ... فقام له ، وسلم عليه ، وجلس بحذاء الكتخدا ليترجم عنه فى الكلام ويؤانسوه ، ويطمنوا خاطره . ثم ان الكتخدا اعتذر له باشتغاله بأحوال الدولة ، واستأذنه فى الذهاب الى ديوانه ، وعرفه أن أخاه ينوب عنه فى الخدمة ولوازمه ... فقبل عذره . وقام منصرفا هو وباقى الجماعة ، ما عدا السيد محمد المحروقى ، ومحمود بيك ، فان الكتخدا أمرهما بالتخلف عنده ساعة ، فجلسا معه ، وتغديا صحبته ، ومعه أولاده الثلاثة وعبيده ، ثم انصرفا الى منزلهما . ولم يأذن

الكتخدا لأحد من الأشياخ أو غيرهم من التجار بالسلام عليه ، والاجتماع به .

والذى بلغنا فى كيفية القبض عليه : أنه لما ذهب الباشا الى مكة ، واستمر هو وابنه طوسون باشا مع الشريف غالب على المصادقة والمسالمة والمصافاة ، وجدد معه العهود والأيمان فى جوف الكعبة : بأن لا يخون أحد صاحبه . وكان الباشا يذهب اليه فى قلة ، وهو الآخر يأتى اليه والى ابنه كذلك ، واستمروا على ذلك خمسة عشر يوما من ذى القعدة ... دعاه طوسون باشا اليه ، فأتى اليه كعادته فى قلة ، فوجد بالدار عساكر كثيرة ، فعند ما استقر به المجلس ، وصل عابدين بيك فى عدة وافرة ، وطلع الى المجلس ، فدنا منه ، وأخذ الجنبية من حزامه ، وقال له : « أنت مطلوب للدولة » . فقال : « سمعا وطاعة ، ولكن حتى أقضى أشغالى فى ظرف ثلاثة أيام وأتوجه » . فقال : « لا سبيل الى ذلك ، والسفينة حاضرة فى انتظارك » !

فحصل فى جماعة الشريف وعبيده رجة ، وصعدوا على أبراج سرايته ، وأرادوا الحرب . فأرسل اليهم الباشا يقول لهم : « ان وقع منكم حرب ، أحرقت البلدة ، وقتلت أستاذكم » . وأرسل لهم أيضا الشريف يكفهم عن ذلك ، وكان بها أولاده الثلاثة ، فحضر اليهم الشيخ أحمد تركى ، وهو من خواص الشريف وخدمهم ، وقال لهم : « لم يكن هناك بأس ، وانما والدكم مطلوب فى مشاورة مع الدولة ويعود بالسلامة ... وحضرة الباشا يريد أن يقلد كبيركم — نيابة عن أبيه — الى حين رجوعه » .

ولم يزل حتى انخدع كبيرهم لكلامه ، وقاموا معه ، فذهب بهم الى محل خلاف الذى به والدهم ... محتفظا بهم . وفى الوقت أحضر الباشا الشريف يحيى بن سرور — وهو ابن أخى الشريف غالب — وخلع عليه ، وقلده امارة مكة ، ونودى فى البلدة باسمه . وعزل الشريف غالب حسب الأوامر السلطانية ، واستمر الشريف غالب أربعة أيام عند طوسون باشا ، ثم أركبوه وأصحبوا معه عدة من العسكر ، وذهبوا به وبأولاده الى بندر جدة ، وأنزلوهم السفينة ، وساروا بها من ناحية القصير من صعيد مصر ، وحضر كما ذكر .

الأربعاء ٢٠ منه (١٢ يناير ١٨١٤ م) :

وصل قاصد من الديار الرومية ، وعلى يده مثالان ، فعمل كتخدا بيك ديوانا فى صبيحة يوم الخميس حادى عشرينه ، وقرىء ذلك . وهما مثالان يتضمن أحدهما : التقرير لمحمد على باشا على ولاية مصر على السنة الجديدة ، والثانى : الاخبار والبشارة باستيلاء العثمانيين على بلاد الصرب . ولما فرغوا من قراءتهما ضربوا عدة مدافع من القلعة .

وفى عصرية ذلك اليوم : حضر حريم الباشا من بولاق الى الأزبكية فى عربات ، فضربوا لحضورهن مدافع من الأزبكية ، وشرعوا فى عمل المهم الثانى لابنة الباشا على الدفتردار ، وافتتحوا ذلك من ليلة السبت — على النسق المتقدم — وعملوا العزائم والولائم ، واحتفلوا أزيد من المهم الأول . وأحضروا الشريف غالب ، وأعدوا له مكانا ببيت الشرايبى — على حدته — هو وأولاده ، ليتفرجوا على الملاعيب والبهلوانات نهارا ، والشنك والحراقات ليلا . وعلى الشريف وأولاده الحرس ، ولا يجتمع بهم أحد ، على الوجه والصورة التى كانوا عليها بالمنزل الذى أنزلوا فيه .

وفيه : اجتمع أرباب العربات وأصحابها ، وقد زادوا عن الأولى خمس عشرة عربة — وفيهم معمل الزجاج — وباتوا بنواحى البركة ، على النسق المتقدم ، ونصبوا لهم خياما تقيهم من البرد والمطر ، لأن الوقت شات .

الخميس ٢١ منه (١٣ يناير ١٨١٤ م):

ولما أصبح يوم الخميس انجرت العربات، وموكب الزفة من ناحية باب الهواء، على قنطرة الموسكى، على باب الخرق، على درب الجماميز. وعطفوا من الصليبة على المظفر، على السروجية، على قصبة رضوان بيك، على باب زويلة، على شارع الغورية، على الجمالية، على سوق مرجوش، على بين السورين، على الأزبكية، على باب الهواء ... الى المنزل الذى أعدوه لها، وهو بيت ابنة اسماعيل بيك، وهى بنت ابراهيم بيك، وكانت متزوجة باسماعيل بيك، ولما مات تزوج بها مملوكه محمد أغا — ويعرف بالألفى — وقد تولى أغاوية مستحفظان فى هذه الدولة، واعتنى بهذه الدار، وعمر بها مكانين بداخل الحريم، وزخرفها ونقشها نقشا بديعا — صناعة صناع العجم — واستمروا فى نقشها سنتين.

ولما ماتت المذكورة فى أوائل هذه السنة، واستمر هو ساكنا فيها، وأنزل الباشا عنده القاضى المنفصل عن قضاء مصر، المعروف ببهجة أفندى، وقاضى مكة «صادق أفندى» حين حضر من اسلامبول ثم أمره الباشا بالخروج منها واخلائها، لأجل أن يسكن بها ابنته هذه المزفوفة، فخرج منها فى أوائل شوال، وكذلك سافر القاضيان الى الحجاز، بصحبة الباشا، وعند ذلك بيضوها، وزادوا فى زخرفتها، وفرشوها بأنواع الفرش الفاخرة، ونقلوا اليها جهاز العروس والصناديق، وما قدم اليها من الهدايا والأمتعة والجواهر والتحف، من الأعيان وحريماتهم ... حتى من نساء الأمراء المصريين المنكوبين! وقد تكلفوا فوق طاقتهم، وباعوا واستدانوا وغرموا فى النقوط والتقادم والهدايا فى هذين المهمين، ما أصبحوا به مجردين ومديونين.

وكان اذا قدمت احدى المشهورات منهن هديتها عرضوها على أم العروسين، التى هى زوجة الباشا، فقلبت ما فيها من المصاغ المجوهر، والمقصبات وغيرها ... فان أعجبتها تركتها، والا أمرت بردها، قائلة: «هذا مقام فلانة التى كانت بنت أمير مصر، أو زوجته!؟»، فتتكلف المسكينة للزيادة ونحو ذلك، مع ما يلحقها من كسر الخاطر، وانكساف البال .. ثم أدخلوا العروس الى تلك الدار عندما وصلت بالزفة.

ومما حصل: أنه قبل مرور موكب الزفة بيومين، طاف أصحاب الشرطة، ومعهم رجال، وبأيديهم مقياس ... فكلما مروا بناحية أو طريق يضيق عن القياس، هدموا ما عارضهم من مساطب الدكاكين أو غيرها، من الجهتين، لاتساع الطريق لمرور العربات والملاعيب وغيرها، فأتلفوا كثيرا من الأبنية. ونودى فى يوم الأربعاء بزينة الحوانيت والطرق التى تمر عليها الزفة بالعروس.

ومما حصل من الحوادث السماوية: أن فى يوم الخميس المذكور، عندما توسطت الزفة فى مرورها بوسط المدينة، أطبق الجو بالغيام، وأمطرت السماء مطرا غزيرا، حتى تبحرت الطرق، وتوحلت الأرض، وابتلت الخلائق من النساء والرجال المتجمعين للفرجة ... وخصوصا الكائنين بالسقائف وفوق الحوانيت والمساطب. وأما المتعينون بالمشى فى الموكب ولا بد ... الذين لا مفر لهم من ذلك ولا مهرب، فاختل نظامهم، وابتلت ثيابهم، وتكدرت طباعهم، وانتقضت أوضاعهم، وزادت وساوسهم، وتلفت ملابسهم. وهطل الغيث على الابريسم والحرير، والشالات الكرخانة، والسليمى والكشمير، وما زينت به العربات من أنواع المزركش والمقصبات، ونفذت على من بداخلها من القيان والأغانى الحسان .. وكثير من الناس وقع بعد ما تزحلق، وصار ثوبه

بالوحل أبلق ومنهم من ترك الزفة ، وولى هاربا فى عطفة ، يمسح يديه فى الحيط ، بما تلطخ بهـا من الرطريط . وتعارجت الحمير ، وتعثرت البياجير ، وانهدم تنور الزجاج ، ولم ينفع به العلاج ، وتلف للنـاس شىء كثير ، ولا يدفع قضـاء الله حيلـة ولا تدبير !

ولم تصل العروس الى دارها ، الا قبيـل دنو الشمس من غروبها . وعند ذلك انجلى الجـو ، وانكشفت بيوت النو وواقق ذلك اليـوم ثالث عشر طوبة ، من شهور القبط المحسوبة ، وحصل بذلك الغيث العميم ، النفع لمزارع الغلة والبرسيم .

وفيه : وردت مكاتبات من العقبة فيهـا الأخبار بوصول قافلة الحج ، صحبة المحمـل ، وأمـيرها مصطفى بيك دالى باشا .

الجمعة ٢٩ منه (٢١ يناير ١٨١٤ م) :

وصل كثير من الحجاج الأتراك وغيرهم ، وردوا فى البحر الى بندر السويس . ووصل تابع قهوجى باشا ، وأخبر عنه أنه فارق مخدومه من العقبـة ، ونزل فى مركب مع أم عابدين بيك ، وحضر الى السويس .

صفر

الأحد غرته (٢٣ يناير ١٨١٤ م) :

مما وقع فى ذلك اليـوم من الحـوادث : أن صـناع البـارود ، الكائنين بباب اللوق ، حملوا نحو عشرة أحمال من الجمال ، أوعية ملآنة بارود — وهى الظروف المصـنوعة من الجلود التي تسمى البطط — يريدون بها القلعة ، فمروا من باب الخرق الى ناحية تحت الربع . فلما وصـلوا تجاه معمل الشمع ... وبصحبة الجمال شخص عسـكرى ، فتشاجر مع الجمـال ، ورد عليه القول ، فحنق منه ، فضربه بفرد الطبنجة فأصابت احدى البطط ، فالتهبت بالنار ، وسرت الى باقى الأحمال ، فالتهب الجميع ، وصعد الى عنـان السماء ... فاحترقت المقيفة المظلة على الشـارع ، وما بناحيتهـا من البيوت ، والذى أسفلها من الحوانيت ، وكذلك من صـادف مروره فى ذلك الوقت ، واحتـرق ذلك العسـكرى والجمال فيمن احترق . واتفق مرور امرأة من النساء المحتشمات مع رفيقتها ، فاحترقت ثيابها مع رفيقتها ، وذهبت تجرى والنار ترعى فيها ، وكانت دارها بالقرب من تلك الناحية ، فما وصلت الى الدار حتى احترق ما عليها من الثياب ، واحترق أكثر جسدها ، ووصلت الأخرى بعدها وهى محترقة وعريانة ... فماتت من ليلتها ، ولحقتها الأخرى فى ضحوة اليوم الثانى .

ومات فى هذه الحادثة أكثر من المائة نفس ، من رجال ونسـاء وأطفال وصـبيان . وأما الجمـال فأخذوها الى بيت أبى الشوارب — وهى سـود محترقة الجلود ، وفيها من خـرجت عينه — فاما يعالجوها أو ينحروها ... وكل هذا الذى حصل من الحرق والموت والهدم فى طرفة عين .

الاثنين ٢ منه (٢٤ يناير ١٨١٤ م) :

وصل مصطفى بيك ، أمير ركب الحجاج ، الى مصر ، وترك الحجاج بالدار الحمـراء ، فبات فى داره ، وأصبح عائدا الى البركة ، فدخل مع المحمل يوم الأربعاء ، ودخل الحجاج ، وأتعبهم بحيث أنه أخذ المسافة فى أحد وعشرين يوما .

وسبب حضور المذكور ، أنه ذهب بعسـاكره وعساكر الشريف من الطائف الى ناحيـة تربة ، والمتأمر عليها امرأة ، فحاربتهم ، وانهزم منهـا شر هزيمة ! فحنق عليه الباشـا ، وأمره بالذهاب الى مصر مع المحمل .

وفيه : أرسـل الباشـا يستدعى ثنتين أو ثلاثا — عينهن — من محاظيه ، وصحبتهن خمس من

الجوارى السود ، الاسطاوات فى الطبخ وعمل أنواع الفطور ، فأرسلوهن فى ذلك اليوم الى السويس ، وصحبتهن نفيسة القهرمانة — وهى من جواريه أيضا — وكانت زوجا لقاضى أوغلى المحتسب الذى مات بالحجاز فى العام الماضى .

وفيه أيضا : وصل حريم الشريف غالب ، فعينوا له دارا يسكنها مع حريمه جهة سويقة العزى ، فسكنها ومعه أولاده ، وعليهم المحافظون . واستولى الباشا على موجودات الشريف غالب ، من نقود وأمتعة ، وودائع ومخبآت ، وشرك وتجارات ، وبن وبهار ، ونقود بمكة وجدة والهند واليمن ... شىء لا يعلم قدره الا الله . وأخرجوا حريمه وجواريه من سرايته بما عليهن من الثياب ، بعدما فتشوهن تفتيشا فاحشا ، وهتك حرمته !

قل اللهم مالك الملك ... هذا الشريف غالب انتزع من مملكته ، وخرج من دولته وسيادته وأمواله وذخائره ، وانسل من ذلك كله كالشعرة من العجين ... حتى انه لما ركب وخرج مع العسكر ، وهم متوجهون به الى جدة ، أخذوا ما فى جيوبه ... فليعتبر من يعتبر !

وكل الذى وقع له ، وما سيقع له بعد — من التغريب وغيره — فيما جناه من الظلم ، ومخالفة الشريعة ، والطمع فى الدنيا ، وتحصيلها بأى طريق . نسأل الله السلامة وحسن العاقبة .

الخميس ٥ منه (٢٧ يناير ١٨١٤ م) :

طاف الأغا أيضا بأسواق المدينة ، وأمامه المناداة على أبواب الخانات والوكائل من التجار : بأنهم لا يتعاملون فى بيع البن والبهار الا بحساب الريال المتعارف فى معاملة الناس — وهو الذى يصرف تسعين نصفا — لأن باعة البن لايسمون فى بيعه الا الفرانسة ، ولا يقبضون فى ثمنه الا اياها بأعيانها ، ولا يقبلون خلافها من جنس المعاملات . فيحصل بذلك تعب للمتسببين الفقراء ، والقطاعين ، ومن يشترى بالقنطار أو دونه . فبهذه المناداة يدفع المشترى ما يشاء من جنس المعاملات : قروشا أو ذهبا أو فرانسة ، أو أى صنف من المعاملات ، ويحسبه المعاملة والريال المعروف بين الناس — الذى صرفه تسعون نصفا فضة — واذا سمى سعر القنطار فلا يسمى الا بهذا الريال . وهذه المناداة بإشارة السيد محمد المحروقى ، بسبب ما كان يقع من تعطيل الأسباب .

وفيه : سافر محمود بيك ، وصحبته المعلم غالى ، للكشف عن قياس الأراضى البحرية ، التى نزل اليها القياسون بصحبة مباشريهم من النصارى والمسلمين — من وقت انحسار الماء عن الأراضى — وانتشروا بالأقاليم البحرية ، وهم يقيسون بقصبة تنقص عن القصبة القديمة .

الاثنين ٩ منه (٣١ يناير ١٨١٤ م) :

وصل حريم الشريف غالب من السويس ، فأنزلوهن ببيت السيد محمد المحروقى ... وعدتهن خمس : احداهن جارية بيضاء ، والأربع حبشيات ، ومعهن جوارى سود وطواشية ، وحضر اليهم سيدهم وصحبته أحمد آغا أخو كتخدا بيك وصحبتهم نحو العشرين نفرا من العسكر . واستمر الجميع مقيمين بمنزل المذكور ، وهو يجرى عليهم النفقات اللائقة بهم والمصاريف ، وفصل لهم كساوى من مقصبات وكشميرى وتفاصيل هندية .

السبت ١٤ منه (٥ فبراير ١٨١٤ م) :

خرج محو بيك الى ناحية الآثار بعساكره ، ليسافر من ساحل القصير الى الحجاز ، باستدعاء الباشا . فاستمر مقيما هناك عدة أيام — لمخالفة الريح — وارتحل فى أواخره .

وفى أوائل هذا الشهر ، بل والذى قبله ، عملوا كورنتيلة فى سكندرية ودمياط .

ربيع الأول

الاثنين غرته (٢١ فبراير ١٨١٤ م) :

فيه : رجع محمود بيك والمعلم غالى من سرحتهما .

وفيه : انتقل الشريف غالب بعياله من بيت السيد محمد المحروقى الى المنزل الذى أعدوه له — وهو بيت لطيف باشا بسويقة العزى — بعدما أصلحوه وبيضوه ، وأسكنوه به ، وعليه اليسق والعسكر الملازمون لبابه .

وفيه : أبرز كتخدا بيك فرمانا وصل اليه من الباشا يتضمن ضبط جميع الالتزام لطرف الباشا ، ورفع أيدى الملتزمين عن التصرف ، بل الملتزم يأخذ فائظه من الخزينة .

فلما أشيع ذلك ، ضج الناس ، وكثر فيهم اللغط ، واجتمعوا على المشايخ ، فطلعوا الى كتخدا بيك ، وسألوه . فقال : « نعم . ورد من أفندينا أمر بذلك ، ولا يمكنني مخالفته » . فقالوا له : « كيف تقطعون معايش الناس وأرزاقهم ، وفيهم أرامل وعواجز ، وللواحدة قيراط أو نصف قيراط يتعيشن من ايراده ، فينقطع عنهن ؟ ! » . فقال : « يأخذن الفائظ من الخزينة العامرة » .

فرادده وناقشوه ، وهو يهون ويقرب ويبعد ، الى أن قالوا له : « نكتب للباشا عرضحالا ، وننتظر الجواب » . فأجابهم الى ذلك من باب المسايرة وفك المجلس ! وشرع الشيخ المهدى فى ترصيف العرضحال ... فكتبوه ، وختموا عليه بعد امتناع البعض ، الذى ليس له التزام ، وكثر اللغط فيهم بسبب ذلك .

الجمعة ٥ منه (٢٥ فبراير ١٨١٤ م) :

حضر جمع كثير من النساء الملتزمات الى الجامع الأزهر ، وصرخوا فى وجوه الف
وأبطلوا الدروس ، وبددوا محافظهم وأور
فتفرقوا وذهبوا الى دورهم .

وكان قد اجتمع معهم الكثير من ال
واستمروا فى هرج الى بعد العصر ، ثم جا
يقول لهم كلاما كذبا سكن به حدتهم .
الجمع ، وذهب النساء وهن يقلن : « نأتى
يوم على هذا المنوال ، حتى يفرجوا لنا عن
ومعايشنا وأرزاقنا » .

وفى ظن الناس وغفلتهم أن فى الاناء بقية ،
يدفعون الرزية . وما علموا أن البساط قد
وكل قد ضل وأضل وغوى ، ومال عن
واتبع الهوى ، وكلب الجور قد كشر أنيابه
ولم يجد له طاردا ، ولا معارضا ولا معان

ولما وصل الخبر الى كتخدا بيك ، طل
المشايخ ، وقال له : « ما خبر هذه ال
بالأزهر ؟ » فقال له : « بسبب مابلغهم
معاشهم » . قال : « ومن قطع معاشهم ؟ و
الذين تسلطونهم على هذه الفعال ، لأغرا
ولا بد أنى أستخبر على من أغراهم وآخ
حقه » .

وطلب علي أغا الوالي وقال له : « أخ
هؤلاء النساء من أى البيوت ؟ » . فقال
علمى ؟ ومن يميزهن ... وغالبهن وأكثره
العساكر ، ولا قدرة لى على منعهن ؟ » .
المجلس ، وبردت همتهم ، وانكمشوا ، وش
تنفيذ ما أمروا به ، وترتيبه وتنظيمه !

وفيه : حضر محمود بيك والمعلم غالى
أياما ، وسافروا فى ثالث عشره .

وفيه : أحضروا حسن أغا محرم — ا
بنجاتى — من اقليم المنوفية وهو مريض
فى ثالى يوم ودفن .

الاثنين ١٥ منه (٧ مارس ١٨١٤ م) :

مر الأغا والوالى وأغات التبديل ، وهم يأمرون الناس بكنس الأسواق ورشها حالا فى ذلك الوقت من غير تأخير . فابتدر الناس ، ونزلوا من حوانيتهم ، وبأيديهم المكانس يكنسون بها تحت حوانيتهم ثم يرشونها .

الجمعة ١٩ منه (١١ مارس ١٨١٤ م) :

حضر الشريف عبد الله ابن الشريف سرور ... أرسله الباشا الى مصر من ناحية القصير منفيا من أرض الحجاز . فأنزلوه بمنزل أحمد أغا ، أخى كتخدا بيك ، محجورا عليه . ولم يجتمع بعمه ، ولم يره .

وفيه : كثر الطلب للريال الفرانسة ، بسبب احتياج دارالضرب وما يرسل الى الباشا من ذلك . وألزموا التجار باحضار جملة من ذلك ، ويأخذون بدلها قروشا ، فوزعوا مقادير على أفرادهم بما يحتمله ، وجمعوا ما قدروا عليه منها .

وفيه : شنق شخص ، يسمى صالح ، عند باب زويلة ، واستمر معلقا يومين . وسبب ذلك أنه يدعى الجذب والولاية ، وتزوج امرأة وأخذ متاعها ومالها ، وحصل لها خلل فى عقلها . فأنهوا أمره الى كتخدا بيك ، فأمر بحبسه ، واستخلصوا منه جانبا مما أخذه من متاع المرأة ، وكثر كلام الناس فى حقه ، فأمر الكتخدا بشنقه .

فى اواخره (النصف الاخير من مارس ١٨١٤ م) :

حضر ابراهيم بيك ابن الباشا من الجهة القبلية ، ونزل بالبيت الذى اشتراه بناحية الجمالية ، بدرب المسمط ، وهو بيت أحمد بن محرم .

ربيع الآخر

الاثنين ٦ منه (٢٨ مارس ١٨١٤ م) :

حضر ميمش أغا من ناحية الحجاز ، مرسلا من عند الباشا باستعجال حسن باشا للحضور الى الحجاز . وكان قبل ذلك بأيام أرسل يطلب سبعة آلاف عسكرى ، وسبعة آلاف كيس . فشرع كتخدا بيك فى استكتاب أشخاص من أخلاط العالم ما بين مغاربة وصعايدة ، وفلاحى القرى . فكان كل من ضاق به الحال فى معاشه يذهب ويعرض نفسه ، فيكتبونه . وان كان وجيها جعله أميرا على مائة أو مائتين ، ويعطيه أكياسا يفرقها فى أنفاره ، ويشترى فرسا وسلاحا ، ويتقلد بسيف وطبنجات ... وكذلك أنفاره ، ويلبسون قناطيش ولباسا مثل لبس العسكر . ويعلق له وزنة بارود تحت ابطه ، ويأخذ على كتفه بندقية ، ويمشون أمام كبيرهم مثل الموكب ، وفيهم أشخاص من الفعلة الذين يستعملون فى شيل التراب والطين فى العمائر ... وبرابرة .

وأرسل الكتخدا الى الفيوم وغيرها بطلب رجال من أمثال ذلك ، وجمعوا الكثير من أرباب الصنائع ، مثل : الخبازين والفرانين والنجارين والحدادين والبياطرة وغيرهم من أرباب الصنائع ، ويسحبونهم قهرا . فأغلق الفرانون مخابزهم ، وتعطل خبيز خبز الناس أياما .

وفيه : ورد الطلب لحسن باشا ، فشرع فى تشهيل أحواله ، ولوازم سفره . ثم حضر ميمش أغا باستعجاله واستعجال المطلوبات من الأموال وغيرها .

وفيه : قبضوا على اليهود الموردين الذين يوردون الذهب والفضة لدار الضرب ... بسبب احضار الفرانسة ، وقد قلت بأيدى الناس جدا

لـكثرة أخذها والطلب لها وانقطاع مجيئهـا من بلادها ، فحبسوهم وضربوهم ، ونزلوا فى أسـوأ حال متحيرين وذلك أن راتب الضربخانة سبعة آلاف فى كل يوم : عنها ثلاثة وستون ألف درهم ، وقدرها ثلاث مرات من النحاس ... يضربون ذلك قروشا ، حتى بلغ سـعر النحاس القراضـة مائة وعشرين نصفا فضة .

الخميس ٩ منه (٣١ مارس ١٨١٤ م) :

حضر محمود بيك الدويدار والمعلم غالى من سرحتهما الى مصر . وهما المتأمران على مباشرة قياس الأراضى ، وتشهيل المال المفروض . وسبب حضـورهما : أن ابراهيم باشـا ، أرسل يطلبهما الحضور ، ليتشاور معهما فى أمر ، فأقاما أربعـة أيام ، وعادا راجعين الى شغلهما .

الاربعاء ١٥ منه (٦ ابريل ١٨١٤ م) :

سافر ابراهيم باشا عائدا الى أسيوط ، وذهب صحبته أخوه اسماعيل باشا والبيكات الصغار ... خوفا وهروبا من الطاعون .

وفيه : كمل تعمير الجامع الذى عمره دبوس أوغلى ، الذى بقرب داره التى بغيط العـدة — وهو جامع جوهر العينى — وكان قد تخرب فهدمه جميعه ، وأنشأه وزخرفه ، ونقل لعمـارته أنقاضا كثيرة ، وأخشابا ورخاما من بيت أبى الشوارب ، وعمل به منبرا بديع الصنعة ، واستخلص جهـة أوقافه أطيانا وأماكن من واضعى اليد .

وفيه : أرسلوا جملة أخشـاب الى الحجاز مطلوبة الى الباشا .

وفيه أيضا : نادوا على سكان الجيزة بالخروج منها بعد عصر يوم السبت . ومن لا يريد الخروج ، فلا يخرج بعـد ذلك . ومن خرج ، فلا يدخل ، وأمهلوهم الى الغروب . فخرجوا بأمتعتهم وأطفالهم وأولادهم وأوانيهم الى خارج البلدة . وبات الأكثر منهم تحت السماء لضيق الوقت على الرحيل الى بلدة أخرى . وخرج أيضا الكثير من عساكرهم وأتباعهم ممن لا يريد المقام والحبس . فكانوا كلما وجدوا من حمل متاعه من أهل البلدة على حمار ، ليذهب الى جهة يستقر بها ، رموا به الى الأرض وأخذوا الحمار .

وحصل لأهل الجيزة فى تلك الليلة ما لا مزيد عليه من الكرب ، والجلاء عن أوطانهم . وكل ذلك مجرد وهم ، مع قلة وجـود الطعن ... الا النزر اليسير .

الخميس ٢٣ منه (١٤ ابريل ١٨١٤ م) :

سافرت خزينة المال المطلوبة الى الباشا الى جهة السويس . وأصحبوا معها عدة كبـيرة من عسكر الدلاة لخفارتها ، وقدرها ألفان وخمسمائة كيس ... جميعها قروش .

جمـادى الأولى

٣ منه (٢٣ ابريل ١٨١٤ م) :

خرج حسن باشا بعسـاكره ، ونزل بوطاقه وخيـامه التى نصبت له بالعادلية قبـل خروجه بيومين .

٤ منه (٢٤ ابريل ١٨١٤ م) :

وصلت هجانة من ناحية الحجاز بطلب حسين بيك دالى باشا ، وأخشاب واحتياجات وجمال . والذى أخبر به المخبرون عن الباشا وعساكره : أن طوسون باشا وعابدين بيك ، ركبوا بعساكرهم على ناحية تربة التى بهـا المرأة ... التى يقال لهـا غاليـة ، فوقعت بينهـم حروب ثمانية أيـام ، ثم رجعوا منهزمين ، ولم يظفروا بطائل ، ولأن العربان نفرت طباعهم من الباشا لمـا حصل منـه فى حق الشريف ، من القبض عليـه . وهاجر الكثير من

الأشراف ، وانضموا الى الأخصام ، وتفرقوا فى النواحى ، ومنهم شخص يقال له : الشريف راجح ، فأتى من خلف العسكر — وقت قيام الحرب — وحاربهم ، ونهب الذخيرة والأحمال ، وقطع عنهم المدد

وأخبروا أن الجمال قل وجودها عند الباشا ، ويشتريها من العربان المسالمين له بأغلى ثمن . وأخبروا أيضا أنه واقع بالحرمين غلاء شديد لقلة الجالب ، واحتكار الباشا للغلال الواصلة اليه من مصر ، فيبيعه حتى على عسكره بأغلى ثمن ، مع التحجير على المسافرين والحجاج فى استصحابهم شيئا من الحب والدقيق ، فيفتشون متاعهم فى السويس ، ويأخذون ما يجدونه معهم مما يتزودون به فى سفرهم ، من القمح أو الدقيق ، وما يكون معهم من الفرانسة لنفقتهم ، وأعطوهم بدلها من القروش .

وفيه : بلغ صرف الريال الفرانسة من الفضة العددية ، ثمانمائة وعشرين نصفا ، عنها ثمانية قروش ، والمشخص عشرون قرشا . وقل وجود الفرانسة والمشخص ، بل والمحبوب المصرى ، بأيدى الناس جدا . ثم نودى على أن يصرف الريال بسبعة قروش ، والمشخص بستة عشر قرشا . وشددوا فى ذلك ، ونكلوا بمن يخالف ذلك ، وعاقبوا من زاد على ذلك فى قبض أثمان المبيعات ، وأطلقوا فى الناس جواسيس وعيونا ... فمن عثروا عليه فى مبيع أو غيره ، أنه قبض بالزيادة ، أحاطوا به وأخذوه وعاقبوه بالحبس والضرب والتغريم ... وربما أرسلوا من طرفهم أشخاصا متنكرين ، يأتى أحدهم للبائع ، فيساومه السلعة كأنه مشتر ، ويدفع له فى ضمن الثمن ريالا ، أو مشخصا ، ويحسبه بحسابه الأول ، ويناكره فى ذلك . فربما تجاوز البائع ... خوفا من بوار سلعته ، وخصوصا اذا كانت البيعة رابحة ، أو بيعة استفتاح ، على زعم الباعة وقلة الزبون ، بسبب وقف حال الناس أو افلاسهم ... فما هو الا أن يتباعد عنه يسيرا ، فما يشعر الا وهو بين يدى الأعوان ، ويلاقى وعده .

١٥ منه (٥ مايو ١٨١٤ م) :

وصلت قافلة من السويس ، وفيها جملة من العسكر المتمرضين ، ونحو العشرة من كبارهم نفاهم الباشا الى مصر وفيهم حجو أوغلى ، ودالى حسن ، وعلى أغا درمنلى ، وترجوا ، وحسن أغا أزرجنلى ، ومصطفى ميسوا ، وأحمد أغا قنبور .

وفيه أيضا : خرج عسكر المغاربة ، ومن معهم من الأجناس المختلفة ، الى مصر العتيقة ليذهبوا من ناحية القصير الى الحجاز . وأما محو بيك ، فانه لم يزل بقنا لقلة المراكب بالقصير التى تحملهم الى الحجاز .

١٦ منه (٦ مايو ١٨١٤ م) :

وصلت قافلة وفيها أنفار من أهل مكة والمدينة ، وسفار وبضائع تجارة بن وأقمشة وبياض ... شىء كثير . وقد أتت الى جدة من تجارات الشريف غالب ، ولم يبلغهم خبر الشريف غالب ، وما حصل له .

فلما حضروا ، وضع الباشا يده عليه جميعه ، وأرسله الى مصر . فتولى ذلك السيد محمد المحروقى ، وفرقها على التجار بالثمن الذى قدره عليهم ، وألزمهم ألا يدفعوه الا فرانسة .

وفى هذا الشهر : وصل الخبر بموت الشيخ مسعود ، كبير الوهابية ، وتولى مكانه ابنه عبد الله .

وفيه : خرج طائفة الكتبة والأقباط والروزنامجى والجاجرتية ، وذهب الجميع الى جزيرة شلقان ، ليحرروا دفاتر على الروك الذى راكوه من قياس

الأراضى ، وزيادة الأطيان وجفل الكثير من الفلاحين وأهالى الأرياف ، وتركوا أوطانهم وزروعهم . وهالهم هذا الواقع لكونهم لم يعتادوه ويألفوه ، وباعوا مواشيهم ، ودفعوا أثمانها فى الذى طلع عليهم فى الزيادات الهائلة ، وسيعودون مثل الكلاب ، ويعتادون سلخ الاهاب !

وأما الملتزمون ، فبقوا حيارى باهتين ، وارتفع أيدى تصرفهم فى حصصهم ، ولا يدرون عاقبة أمرهم ... منتظرين رحمة ربهم . وآن وقت الحصاد وهم ممنوعون عن ضم زرع وساياهم ، الى أن أذن لهم الكتخدا بذلك ، وكتب لهم أوراقا ، وتوجهوا بأنفسهم أو بمن ينوب عن مخدومه ، وأراد ضم زرعه ، ولم يجد من يطيعه بهم . وتطاولوا عليهم بالألسنة ، فيقول الحرفوش منهم اذا دعى للشغل بأجرته : « روح انظر غيرى أنا مشغول فى شغلى ، أنتم ايش بقالكم فى البلاد ؟ قد انقضت أيامكم ... احنا صرنا فلاحين الباشا » .

وقد كانوا مع الملتزمين أذل من العبيد المشترى . فربما أن العبد يهرب من سيده اذا كلفه فوق طاقته ، أو أهانه بالضرب . وأما الفلاح فلا يمكنه ولا يسهل به أن يترك وطنه وأولاده وعياله ويهرب . واذا هرب الى بلدة أخرى ، واستعلم أستاذه مكانه ، أحضره قهرا ، وازداد ذلا ومقتا واهانة !

وكان من طرائقهم : أنه اذا آن وقت الحصاد والتخضير ، طلب الملتزم ، أو قائم مقامه ، الفلاحين فينادى عليهم الغفير أمس اليوم المطلوبين فى صبحه بالتبكير الى شغل الملتزم . فمن تخلف لعذر ، أحضره الغفير أو المشد ، وسحبه من شنبه ، وأشبعه سبا وشتما وضربا — وهو المسمى عندهم بالعونة والسخرة — واعتادوا ذلك ... بل يرونه من اللازم والواجب . وهذا خلاف ما يلقونه من الاذلال والتحكم من مشايخهم ، والشاهد والنصرانى الصراف — وهو العمدة والعهدة — خصوصا عند قبض المال ، فيغالطهم ويناكرهم ... وهم له أطوع من أستاذهم ، وأمره نافذ فيهم ، فيأمر قائمقام بحبس من شاء أو ضربه ، محتجا عليه ببواقى لا يدفعها .

واذا غلق أحدهم ما عليه من المال الذى وجب عليه فى قائمة المصروف ، وطلب من المعلم ورده — وهى ورقة الغلاق — وعده لوقت آخر حتى يحرر حسابه ، فلا يقدر الفلاح على مراددته خوفا منه . فاذا سأله من بعد ذلك قال له : « بقى عليك حبتان من فدان ، أو خروبتان » أو نحو ذلك ! ولا يعطيه ورقة الغلاق حتى يستوفى منه قدر المال ، أو يصانعه بالهدية والرشوة وغير ذلك ... أمور وأحكام خارجة عن ادراك البهيمية ... فضلا عن البشرية ، كالشكاوى ونحوها .

وذلك كما اذا تشاجر أحدهم مع آخر على أمر جزئى ، بادر أحدهم بالحضور الى الملتزم ، وتمثل بين يديه قائلا : « أشكو اليك فلانا بمائة ريال مثلا » . فبمجرد قوله ذلك ، يأمر بكتابه ورقة خطابا الى قائمقام أو المشايخ : باحضار ذلك الرجل المشتكى ، واستخلاص القدر الذى ذكره الشاكى — قليلا أو كثيرا — أو حبسه وضربه حتى يدفع ذلك القدر ، ويرسل الورقة مع بعض أتباعه ، ويكتب بهامشها كراء طريقه ، قليلا أو كثيرا ، فيسمونه حق الطريق . فعند وصوله : أول شيء يطالب به الرجل حق الطريق المعين ، ثم الشكوى .. فان بادر ودفعها ، والا حبس أو حضر به المعين الى بيت أستاذه ، فيوعده الحبس ، ويعاقبه بالضرب حتى يوفى القدر الذى تلفظ به الشاكى . وان تأخر عن حضوره ، أو حضور المعين ، أردفه بآخر وحق طريق الآخر كذلك ، ويسمونها الاستعجالة ، وغير ذلك ... أحكام وأمور غير معقولة المعنى ، قد ربوا عليها واعتادوها ، لا يرون فيها بأسا ولا عيبا !

وقد سلط الله على هؤلاء الفلاحين : بسوء أفعالهم ، وعدم دياناتهم ، وخياناتهم ، واضرارهم لبعضهم البعض .. من لا يرحمهم ، ولا يعفو عنهم . كما قال فيهم البدر الحجازى :

وسبعة بالفلح قد أنزلت
لما حووه من قبيح الفعال :
شيوخهم ، أستاذهم ، والمشد
والقتل ، فيما بينهم ، والقتال
مع النصارى كاشف الناحية
وزد عليها كدهم فى اشتغال
وفقرهم ما بين عينيهم
مع اسوداد الوجه ... هذا النكال

واذا التزم بهم ذو رحمة ، ازدروه فى أعينهم : واستهانوا به وبخدمه ، وماطلوه فى الخراج ، وسموه بأسماء النساء ، وتمنوا زوال التزامه بهم ، وولاية غيره من الجبارين الذين لايخافون ربهم ، ولا يرحمهم ... لينالوا بذلك أغراضهم بوصول الأذى لبعضهم .

وكذلك أشياخهم : اذا لم يكن الملتزم ظالما يتمكنون هم أيضا من ظلم فلاحيهم ... لأنهم لم يحصل لهم رواج الا بطلب الملتزم الزيادة والمغارم ، فيأخذون لأنفسهم فى ضمنها ما أحبوا ، وربما وزعوا خراج أطيانهم وزراعاتهم على الفلاحين .

وقد انخرم هذا الترتيب بما حدث فى هذه الدولة من قياس الأراضى والفدن ، وما سيحدث بعد ذلك من الاحداثات التى تبدو قرائنها شيئا بعد شىء .

٢٢ منه (١٢ مايو ١٨١٤ م) :

برز حسن بيك دالى باشا خيامه الى خارج باب النصر ، وخرج هو فى ثانى يوم فى موكب ، ونزل بوطاقه ليتوجه الى الحجاز على طريق البر .

٢٧ منه (١٧ مايو ١٨١٤ م) :

قبل الغروب بنحو نصف ساعة ، وصل جراد كثير مثل الغمام ، وصار يتساقط على الدور والأسطحة والأزقة مثل الغمام ، وأفسد كثيرا من الأشجار ، وانقطع أثره فى ثانى يوم .

جمادى الآخرة

١٠ منه (٣٠ مايو ١٨١٤ م) :

ارتحل حسن باشا من ناحية الشيخ قمر الى بركة الحج .

١٥ منه (٤ يونيه ١٨١٤ م) :

حضر الروزنامجى والأفندية بعد أن استملى منهم القبط الدفاتر وأسماء الملتزمين ، ومقادير حصصهم ، ثم حضر محمود بيك والمعلم غالى ، ومن معهم من الكتبة الأقباط . وظهر للناس عند حضورهم نتيجة ما صنعوه ونظموه ورتبوه من قياس الأراضى ، وروك البلاد . وهو أن الأراضى زادت فى القياس بالقصبة التى قاسوا بها ، وحددوها مقدار الثلث ، أو الربع ، حتى قاسوا الرزق الأحباسية بأسماء أصحابها ومزارعيها ، وأطيان الوسايا على حدتها ... حتى الأجران وما لا يصلح للزراعة ، وما يصلح من البور ... الصالح وغير الصالح .

فلما تم ذلك حسبوها بزياداتها بالأفدنة ثم جعلوها ضرائب ، منها : ضريبة خمسة عشر ريالا ، وأربعة عشر ، واثنى عشر ، وأحد عشر ، وعشرة ... مال الفدان بحسب جودة الاقليم والأرض . فبلغ ذلك مبلغا عظيما ... بحيث ان البلدة التى كانت يفرض عليها فى مغارم الفرض التى كانوا فرضوها قبل ذلك فى سنيهم الماضية ، ويتشكى منها الفلاحون والملتزمون ويستغيثون ، ويبقى منها بواقى ويعجزون عنها ... ألف ريال — طلع عليها فى هذه

اللفة عشرة آلاف ريال ، الى مائة الف ، وأقل وأكثر .

وأحضر الكتخدا ابراهيم آغا الرزاز ، والشيخ أحمد يوسف ، وخلع عليهما خلعتين ، وجعلوا لهما ديوانا خاصا لمن يلتزم بالقدر الذى تحرر على حصته التى فى تصرفه ... فيعطونه ورقة تصرف ، ويكتب على نفسه وثيقة بأجل معلوم : بقوم بدفع ذلك ، ويتصرف فى حصته بشرط ألا يكون له الا أطيان الأوسية : ان شاء زرعها وأخذ غلتها ، وان شاء آجرها لمن شاء . وليس له من مال الخراج الا المال الحر ، المعين بسند الديوان — المعروف بالتقسيط . وما زاد فى قياس الأرض من طين الفلاحة والأوسية ، فهو للميرى ... قل أو كثر .

وأما الرزق الأحباسية ، المرصدة على البر والصدقة ، ولأهل المساجد والأسبلة ، والمكاتب والخيرات .. فانهم مسحوها بقياسهم .فما وجدوه زائدا عن الحد الأصلى جعلوه للديوان ، وما بقى قيدوه وحرروه باسم واضع اليد عليها ، واسم واقفها وزارعها ، أو ما يمليه المزارع الحاضر وقت القياس ، وسؤال المباشرين . وقرروا عليها المال ، مثل ضريبة البلد . فان أثبتها صاحبها ، وكان بيده سند جديد من أيام الوزير وشريف أفندى ، وما بعده ... على سبقه لوقت تاريخه ، قيدوا له نصف مال تآجرها ، والنصف الثانى الباقى للديوان .

ورسموا لكاتب الرزق أن يعمل ديوانا لذلك ، ومعه عدة من الكتبة ، ويأتى اليه الناس بأوراق سنداتهم : فمن وجد بيده سندا جديدا ، كتب له صورة — قيد الكشف بموجب ما هو بدفتره — فى ورقة ، فيذهب بها الى الديوان ، فيقيدون ذلك بعد البحث والتعنت من الطرفين .

ويقع الاشتباه الكثير فى أسماء اربابها وأسماء حيضانها وغيطانها ، فيكلفون صاحب الحاجة باثبات ما ادعاه ، ويكتب له أوراقا لمشايخ الناحية وقاضيها باثبات ما يدعيه ، ويعود مسافرا ، ويقاسى ما يقاسيه من مشقة السفر والمصرف ، ومعاكسة المشايخ وقاضى الناحية ، ثم يعود الى الديوان بالجواب ، ثم يمكن الاحتجاج عليه بحجة أخرى ... وربما كان سعيه وتعبه على فدان واحد ، أو أقل أو أكثر !

وازدحم الناس على بيت كاتب الرزق ، وانفتح له بذلك باب ، لأنه لا يكتب كشفا حتى يأخذ عليه دراهم ... تعينت على قدر الأفدنة .

وأضاع الكثير من الناس ما تلقوه عن أسلافهم ، وما كانوا يرتزقون منه ، وأهملوا تجديد السندات ، واتكلوا على ما بأيديهم من السندات القديمة لجهلهم ، أو ظنهم انقضاء الأمر ، وعدم دوام الحال ، وتغير الدولة ، وعود النسق الأول ، أو لفقرهم وعدم قدرتهم على ما ابتدعوه من كثرة المصاريف التى تصرف على تجديد السند ، واشتغال مال الحماية ... التى قدرها شريف أفندى على أراضى الرزق عن كل فدان عشرة أنصاف أو خمسة فكثير من الناس استعظم ذلك ، واعتمد على أوراقه القديمة ، فضاعت عليه رزقته ، وانحلت ، وأخذها الغير . والذى لم يرض بالتوت ، بل ولا حصل حطبه ، رضى بالولاش !

وكان الشأن فى أمر الرزق : أن أراضيها تزيد عن موقوع أراضى البلاد زيادة كثيرة ، وخراجها أقل من خراج أراضى البلاد ... الذى يقال له المال الحر الأصلى . وليس عليها مصاريف ولا مغارم ولا تكاليف ... فالمزارع من الفلاحين اذا كان تحت يده تآجر رزقة أو رزقتين ، فانه يكون مغبوطا ومحسودا فى أهل بلده ، ويدفع لصاحب الأصل القدر النزر . والمزارع يتلقى ذلك سلفا عن خلف ، ولا يقدر صاحب الأصل أن يزيد

عليه زيادة ... وخصوصا اذا كانت تحت يد بعض مشايخ البلاد ، فلا يقدر أحد أن يتعدى عليه من الفلاحين ، ويستأجرها من صاحبها . وان فعل لا يقدر على حمايتها .

والكثير من الرزق واسعة القياس جدا ، ومالها قليل جدا ، وخصوصا فى الأراضى القبلية ، فان غالبها رزق وشراوى ومتأخرات لم تمسح ، ولم يعلم لها فدادين ولا مقادير . وقد تزيد أيضا بانحسار البحر عن سواحلها ، وكذلك فى البلاد البحرية ... ولكن دون ذلك .

ومعظم أراضى الرزق القبلية مرصدة على جهات الأوقاف بمصر وغيرها . والواضعون أيديهم عليها لا يدفعون لجهاتها ولا لمستحقيها ، الا ما هو مرتب ومقرر من الزمن الأول السابق — وهو شىء قليل — وليتهم لو دفعوه ! فان فى أوقاف السلاطين المتقدمة القطعة من الأراضى التى عبرتها أكثر من ألف فدان ، وخراجها خمسون زكيبة ، والزكيبة خمس ويبات ، أو من الدراهم ألفان فضة ، وأقل وأكثر ، وهى تحت يد بعض كبراء البلاد ، يزرعها ويأخذ منها الألوف من الأرادب من أجناس الغلال ، ويضن ويبخل بدفع ذلك القدر اليسير لجهة وقفه ، ويكسر السنة على السنة . فان كانت يد صاحب الأصل قوية ، أو كان واضع اليد فيه خيرية — وقليل ما هم ! — دفع لأربابها ثمنها ، بعد أن يرد الخمسين الى الأربعين بالتكسير والخلط ، ثم يبخس الثمن جدا . فان كان ثمن الأردب أربعمائة حسبه بأربعين نصفا ، أو أقل ، فيعود ثمن الخمسين زكيبة الى ثمن زكيبتين ... وقس على ذلك !

والذى يكون تحت يده شىء من أطيان هذه الأوقاف ، وورثها من بعده ذريته فزرعوها وتقاسموها ، معتقدين ملكيتها ، تلقوها بالارث من مورثهم ، ولا يرون أن لأحد سواهم فيها حقا ، ولا يهون بهم دفع شىء لأربابه — ولو قل — الا قهرا !

وبالجملة ما أصاب الناس الا ما كسبت أيديهم ، ولا جنوا الا ثمرات أعمالهم .

وكان معظم ادارات دوائر عظماء النواحى ، وتوسعاتهم ومضايفهم من هذه الأرزاق التى كانت تحت أيديهم ... بغير استحقاق . الى أن سلط الله عليهم من استحوذ على جميع ذلك ، وسلب عنهم ما كانوا فيه من النعمة ، وتشتتوا فى النواحى ، وتغربوا عن أوطانهم ، وخربت دورهم ومضايفهم ، وذهبت سيادتهم . « وكم أهلكنا قبلهم من قرن ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا »

وفى بعض الأرزاق من مات أربابه ، وخربت جهاته ، ونسى أمره ، وبقى تحت يد من هو تحت يده من غير شىء أصلا . وقد أخبرنى بنحو ذلك ، شمس الدين بن حمودة من مشايخ برما بالمنوفية ، عندما أحضر الى مصر فى وقت هذا النظام ، أنه كان فى حوزهم ألف فدان لا علم للملتزم ولا غيره بها ، وذلك خلاف ما بأيديهم من الرزق التى يزرعونها بالمال اليسير ، وخلاف المرصد على مساجد بلادهم التى لم يبق لها أثر . وكذلك الأسبلة وغيرها ... وأطيانهم تحت أيديهم من غير شىء وخلاف فلاحتهم الظاهرة بالمال القليل لمصارف الحج ، لأنها كانت من جملة البلاد الموقوفة على مهمات أمير الحاج ... وقد انتسخ ذلك كله !

وفيه : أخبر المخبرون : أن مراكب الموسم وصلت فى هذا العام الى جدة ... وكان لها مدة سنين ممتنعة عن الوصول خوفا من جور الشريف وزواله ، وتملك الدولة البلاد ، وظنهم فيهم العدل فاطمأنوا وعبوا متاجرهم ، وحضروا الى جدة . فجمع الباشا مكوسهم فبلغت أربعة وعشرين « لكا » واللك الواحد مائة ألف فرانسا ، فيكون أربعة

وعشرين مائة ألف فرانسا . فقبضها منهم بضائع ونقودا ، وحسب البضائع بأبخس الأثمان . ثم التفت الى التجار الذين اشتروا البضائع ، وقال لهم : « انى طلبت منكم مرارا أن تقرضونى المال ، فادعيتم الافلاس . ولما حضر الموسم ، بادرتم بأخذه ، وظهرت أموالكم التى كنتم تبخلون بها . فلا بد أن تقرضونى ثلثمائة ألف فرانسة » ! فصالحوه على مائتى ألف دفعوها له نقودا وبضائع مشترواتهم ... حسبها لهم العشرة ستة ، ثم فرض على أهل المدينة ثلاثين ألف فرانسة .

رجب

الخميس ٥ منه (٢٣ يونية ١٨١٤ م) :

ضربوا عدة مدافع ، وأخبروا بوصول بشارة ، وأن عساكرهم حاربوا « قنفذة » واستولوا عليها ، ولم يجدوا بها غير أهلها .

الجمعة ٦ منه (٢٤ يونية ١٨١٤ م) :

سار حسين بيك دالى باشا بعساكره الخيالة برا .

وفيه : عزم على السفر والد محرم بيك ، زوج ابنة الباشا الى بلاده ، وذلك بعد عوده من الحجاز . فأرسلوا الى الأعيان تنابيه بالأمر لهم بمهاداته ! ففعلوا وعبوا له بقجا وبنا وأرزا وأقمشة هندية ومحلاوية ... كل أمير على قدر مقامه .

الاثنين ٩ منه (٢٧ يونية ١٨١٤ م) :

حصلت فى وقت أذان العشاء زلزلة نحو دقيقتين ، وكان المؤذنون طلعوا على المنارات ، وشرعوا فى الأذان . فلما اهتزت بهم ظن كل من كان على منارة سقوطها ، فأسرعوا بالنزول . فلما علموا أنها زلزلة ، طلعوا وأعادوا الأذان ، وسقط من شرائف الجامع الأزهر شرافة ، وتحركت الارض أيضا فى خامس ساعة من الليل ، ولكن دون الأولى ، وكذلك وقت الشروق هزة لطيفة .

الأربعاء ١١ منه (٢٩ يونية ١٨١٤) :

هرب الشريف عبد الله ابن الشريف سرور فى وقت الفجرية ، ولم يشعروا بهروبه الا بعد الظهر . فلما بلغ كتخدا بيك الخبر ، فتكدر لذلك ، وأرسل مشايخ الحارات وغيرهم ، وبث العربان فى الجهات ؛ فلما كان ليلة السبت ، حضروا به فى وقت الغروب وقد حجزوه بحلوان ، وأتوا به الى بيت السيد محمد المحروقى ، فأخذه الى كتخدا بيك ، فأرسله الى بيت أخيه أحمد أغا .. ومن ذلك الوقت ضيقوا عليه ، ومنعوه من الخروج والدخول ، بعد أن كان مطلق السراح : يخرج من بيت أحمد آغا ؛ ويذهب الى بيت عمه الشريف غالب ويعود وحده . فعند ذلك ضيقوا عليه وعلى عمه أيضا .

الخميس ١٩ منه (٧ يولية ١٨١٤ م) :

حضر المشايخ عند كتخدا بيك ، وعاودوه فى الخطاب فيما أحدثوه على الرزق ، وعرفوه أنه يلزم من هذا الاحداث ابطال المساجد والشعائر . فتنصل من ذلك ، وقال : « هذا شىء لا علاقة لى فيه ، وهذا شىء أمر به أفندينا ومحمود بيك والمعلم غالى » . ثم كلموه أيضا فى صرف الجامكية ، المعروفة بالسائرة والدعاجوى ، للفقراء والعامة . فوعدهم بصرفها وقت ما يتحصل المال ، فان الخزينة فارغة من المال !

السبت ٢١ منه (٩ يولية ١٨١٤ م) :

حضر محمود بيك والمعلم غالى من سرحتهما . فذهب اليهما المشايخ فى ثانى يوم ، ثم خاطبوهما بالكلام فى شأن الرزق . فأجابهم المعلم غالى بقوله : « يا أسيادنا .. هذا أمر مفروغ منه بأمر أفندينا من عام أول — من قبل سفره — فلا تتعبوا خاطركم . وواجب عليكم مساعدته خصوصا فى خلاص كعبتكم ونبيكم من أيدى الخوارج » ... فلم يردوا عليه جوابا ، وانصرفوا .

الأحد ٢٩ منه (١٧ يولية ١٨١٤ م) :

حصل كسوف شمس ، وكان ابتداؤه بعد الشروق ، ومقداره قريبا من ثلثي الجرم ، وتم انجلاؤه في ثاني ساعة من النهار . وكانت الشمس ببرج السرطان أربعا وعشرين درجة في حادي عشر أبيب القبطي .

وفيه : وصلت القافلة من ناحية السويس . وأخبر الواصلون عن واقعة «قنفدة» وما حصل بها بعد دخول العسكر اليها . وذلك أنهم لما ركبوا عليها — برا وبحرا — وكبيرهم محمود بيك ، وزعيم أوغلي ، وشريف أغا ... فوجدوها خالية ، فطلعوا اليها وملكوها من غير ممانع ولا مدافع ، وليس بها غير أهلها ، وهم أناس ضعاف ، فقتلوهم وقطعوا آذانهم ، وأرسلوها الى مصر ، ليرسلوها الى اسلامبول .

وعندما علم العربان بمجيء الأتراك خلوا منها — ويقال لهم عرب العسير — وترافعوا عنها ... وكبيرهم يسمى « طامى » . فلما استقر بها الأتراك ، ومضى عليهم بها نحو ثمانية أيام ، رجعوا عليهم وأحاطوا بهم ، ومنعوهم الماء . فعند ذلك ركبوا عليهم وحاربوهم ... فانهزموا ، وقتل الكثير منهم ، ونجا محو بيك بنفسه في نحو سبعة أنفار ، وكذلك زعيم أوغلى ، وشريف أغا ، فنزلوا في سفينة وهربوا . فغضب الباشا — وقد كان أرسل لهم نجدة من الشفاسية الخيالة — فحاربهم العرب ، ورجعوا منهزمين من ناحية البر ، وتواتر هذا الخبر .

شعبان

الاربعاء ٢ منه (٢٠ يولية ١٨١٤ م) :

حضر ميمش أغا من الديار الحجازية ، وعلى يده فرامانات ... خطابا لدبوس أوغلى وآخرين ، يستدعيهم الى الحضور بعساكرهم . وكان دبوس أوغلى في بلدة البرلس ، فتوجه اليه الطلب . وكذلك شرع كتخدا بيك في استكتاب عساكر أتراك ومغاربة وعربان وغير ذلك .

الجمعة ٤ منه (٢٢ يولية ١٨١٤ م) :

سافر طائفة من العسكر ، وأرسل كتخدا بيك بمنع الحجاج الواردين من بلاد الروم وغيرهم من النزول الى السفائن الكائنة بساحل السويس والقصير ، وبأن يخلوها لأجل نزول العساكر المسافرين ، وبتأخير الحجاج .

وذلك أنه لما وصلت البشائر الى الديار الرومية بفتح الحرمين ، وخلاص مكة وجدة والطائف والمدينة ، ووصول ابن مضيان والمضايفى وغيرهم ، الى دار السلطنة ، وهروب الوهابيين الى بلادهم — فعملوا ولائم وأفراحا وتهانى ، وكتبت مراسيم سلطانية الى بلاد الرومنلي والأنضول : بالبشائر بالفتح ، والاذن والترخيص والاطلاق لمن يريد الحج الى الحرمين ... بالأمن والأمان والرفاهية والراحة . فتحركت همم مريدي الحج ، لأن لهم سنين وهم ممتنعون ومتخوفون عن ورود الحج . فعند ذلك أقبلوا أفواجا بحريمهم وأولادهم ومتاعهم ، حتى أن كثيرا من المتصوفين منهم باع داره وتعلقاته ، وعزم على الحج والمجاورة بالحرمين بأهله وعياله . ولم يبلغهم استمرار الحروب ، وما بالحرمين من الغلاء والقحط الا عند وصولهم الى ثغر سكندرية ، ولم يتحققوها الا بمصر . فوقعوا في حيرة ، ما بين مصدق ومكذب : فمنهم من قصد السفر ولم يرجع عن عزمه ، وسلم الأمر لله ، ومنهم من تأخر بمصر الى أن ينكشف له الحال .

وقرروا على كل شخص من المسافرين في مراكب السويس عشرين فرانسة ، وذلك خلاف أجرة متاعه وما يتزود به في سفره ... فانهم يزنونه بالميزان ، وعلى كل أقة قدر معلوم من الدراهم . وأما من يسافر في بحر النيل

ـــ على جهة القصير ـــ فى مراكب الباشا ، فيؤخذ على رأس كل شخص من مصر القديمة الى ساحل قنا ثلاثون قرشا ، ثم عليه أجرة حمله من قنا الى القصير ، ثم أجرة بحر القلزم ـــ ان وجد سفينة حاضرة ـــ والا تأخر اما بالقصير أو السويس حتى يتيسر له النزول ، ويقاسى ما يقاسيه فى مدة انتظاره ـــ وخصوصا فى الماء وغلو ثمنه ورداءته ـــ ولا يسافر شخص ويتحرك من مصر الا باذن كتخدا بيك ، ويعطيه مرسوما بالاذن .

وبلغنى أن الذين خرجوا من اسلامبول خاصة بقصد الحج نحو العشرة آلاف ، خلاف من وصل من بلاد الرومنلى والأنضول وغيرهما وحضر الكثير من أعيانهم ، مثل امام السلطان وغيره ، فنزل البعض بمنزل عثمان أغا ـــ وكيل دار السعادة سابقا ـــ والبعض بمنزل السيد محمد المحروقى ، وبيت شيخ السادات ، ومنهم من استأجر دورا فى الخانات والوكائل .

وفيه : حضر قاصد من باب الدولة ، وعلى يده مرسوم ، مضمونه : الأمر باسترجاع ما أخذ من الشريف غالب ، من المال والذخائر ، اليه .

وكان الباشا أرسل الى الدولة بسبحتى لؤلؤ عظام من موجودات الشريف ، فحضر بهما ذلك القبجى ، وردهما الى الشريف غالب ، ثم سافر ذلك القبجى بالأوامر الى الباشا بالحجاز .

الاثنين ٧ منه (٢٥ يولية ١٨١٤ م) :

وصلت هجانة باستعجال العساكر ، وتوالى حضور الهجانة لخصوص الاستعجال .

السبت ١٩ منه (٦ اغسطس ١٨١٤ م) :

أنزلوا الشريف غالب الى بولاق بحريمه وأولاده وعبيده . وكان قد وصل الى مصر أغا معين بقصد سفر المذكور الى سلانيك ، فنزل صحبته الى بولاق ، وصالحوه عما أخذ منه من المال وغيره بخمسمائة كيس . فأرادوا دفعها له قروشا ، فامتنع قائلا : « انهم أخذوا مالى ذهبا مشخصا وفرانسة ، فكيف آخذ بدل ذلك نحاسا لا نفع بها فى غير مصر ؟ » . فأعطوه مائتى كيس ذهبا وفرانسة ، وتحول بالباقى وكيله مكى الخولانى ، ثم زودوه وأعطوه سكرا وبنا وأرزا وشربات وغير ذلك ، ونزل مسافرا الى المراكب صحبة المعين الى الحجاز من ناحية القصير . وبرز ابن باشت طرابلس وصحبته عساكر أيضا الى ناحية العادلية ، وآخر يقال له قنجة بيك ، ومعهم نحو الألف خيال من العرب والمغاربة ، على طريق البر الى الحجاز .

الخميس ٢٤ منه (١١ اغسطس ١٨١٤ ـ ٦ مسرى ١٥٣٠) :

أوفى النيل المبارك أذرعه ، فداروا بالرايات ، ونودى بالوفاء ، وكسروا السد ـــ فى صبح يوم الجمعة ـــ بحضرة كتخدا بيك والقاضى ، والجم الغفير من العساكر .

فى اواخره (حوالى منتصف اغسطس ١٨١٤ م) :

وصلت الأخبار بأن الباشا توجه الى الطائف وأبقى حسن باشا بمكة .

رمضان

السبت ٤ منه (٢٠ اغسطس ١٨١٤ م) :

حضر موسى أغا تفكجى باشا من الديار الحجازية . وكان فيمن باشر حرابة قنفدة ، ومن جملة من انهزم بها . وهلكت جميع عساكره وخدمه ، ورجع الى مصر وصحبته أربعة أنفار من الخدم .

الجمعة ١٠ منه (٢٦ اغسطس ١٨١٤ م) :

خرجت العساكر المجردة لسفر الحجاز الى

بركة الحج — وهم مغاربة وعربان — وارتحلوا يوم الأحد ثاني عشره .

الاربعاء ١٥ منه (٣١ اغسطس ١٨١٤ م) :

برز ديوس أوغلى خارج باب الفتوح ليسافر بعساكره الى الحجاز ، وكذلك حسن أغا سرششمة . ونصبوا خيامهم .

واستمروا يخرجون من المدينة ويدخلون غدوا وعشيا ، وهم يأكلون ويشربون جهارا في نهار رمضان ، ويقولون : « نحن مسافرون ومجاهدون » ! ويمرون بالأسواق ، ويجلسون على المساطب ... وبأيديهم الأقصاب ، والشبكات التى يشربون فيها الدخان ، من غير احتشام ولا حياء ، ويجوزون بحارات الحسينية على القهاوى في الضحوة ، فيجدونها مغلوقة ، فيسألون عن القهوجي ويطلبونه ليفتح لهم القهوة ، ويوقد لهم النار ، ويغلى لهم القهوة ، ويسقيهم ... فربما هرب القهوجي واختفى منهم ، فيكسرون الباب ، ويعبثون بآلاته وأوانيه ، فما يسعه الا المجيء وايقاد النار .

وأشنع من ذلك ، أنه اجتمع بناحية عرضيهم وخيامهم الجم الكثير من النساء الخواطى والبغايا ، ونصبوا لهم خياما وأخصاصا ، وانضم اليهم بياع البوظة والعرقى والحشاشون والغوازى والرقاصون ، وأمثال ذلك ، وانحشر معهم الكثير من الفساق وأهل الأهواء والعياق من أولاد البلد ... فكانوا جمعا عظيما : يأكلون الحشيش ، ويشربون المسكرات ، ويزنون ويلوطون ، ويشربون الجوزة ، ويلعبون القمار جهارا في نهار رمضان ولياليه ، مختلطين مع العساكر ، كأنما سقط عن الجميع التكاليف ، وخلصوا من الحساب !

وسمعت ممن شاهد بعينه محمود بيك المهردار ... الذى هو أعظم أعيانهم ، وهو المتولى على قياس الأراضى مع المعلم غالى ، وهو جالس في ديوانهم المخصوص — بالقرب من صريقة اللالا — وهو يشرب في النارجيلة التنباك ، ويأتونه بالغداء جهارا ، ويقول : « أنا مسافر الشرقية لعمل نظام الأراضى » !

الخميس ثانيه (١٥ سبتمبر ١٨١٤ م) :

وصلت هجانة باستعجال العساكر .

شوال

في غرته (١٦ سبتمبر ١٨١٤ م) :

في ليلته : قلدوا عبد الله كاشف الدرندلى أميرا على ركب الحجاج .

٣ منه (١٨ سبتمبر ١٨١٤ م) :

خرج ديوس أوغلى في موكب الى مخيمه ، وكذلك حسن أغا سرششمة ليسافر الى الحجاز .

١١ منه (٢٦ سبتمبر ١٨١٤ م) :

نزلوا بكسوة الكعبة ، بالطبول والزمور ، الى المشهد الحسيني . واجتمع الناس على عادتهم للفرجة .

وفيه : انتقل محمود بيك والمعلم غالى الى بيت حسن أغا نجاتى ، وعملوا ديوانهم فيه ، وأتلفوا الجنينة التى به ، وجلسوا تحت أشجارها ، وربط الأقباط حميرهم فيها ! وشرع محمود بيك في عمارة الجهة القبلية منه ، وانزوت صاحبة المنزل في ناحية منه

١٧ منه (٢ اكتوبر ١٨١٤ م) :

ارتحل ديوس أوغلى وحسن أغا سرششمة . ومن معهم من العساكر ، من منزلتهم متوجهين الى الديار الحجازية .

٢٢ منه (٧ اكتوبر ١٨١٤ م) :

رسم كتخدا بيك بنفى طائفة من الفقهاء من ناحية طندتا إلى أبى قير بسبب فتيا أفتوها فى حادثة ببلدهم ، وقضى بها قاضيهم . وأنهيت الدعوى ، الى ديوان مصر ، فطلبوا الى اعادة الدعوى ، فحضروا وترافعوا الى قاضى العسكر ، وأثبتوا عليهم الخطأ .. فرسم بنفى الشاكى والمفتين والقاضى رابعهم .

٢٤ منه (٩ اكتوبر ١٨١٤ م) :

عملوا موكبا لخروج المحمل ، واستعد الناس للفرجة على عادتهم . فكان عبارة عن نحو مائة جمل تحمل روايا الماء والقرب ، وعدة من طائفة الدلاة ، على رءوسهم طراطير سود قلابق ... وأمير الحج على شكلهم ، وخلفه أرباب الأشاير ببيارقهم وشراميطهم وطبولهم وزمورهم وجوقاتهم ، وخلفهم المحمل ... فكان مدة مرورهم — مع تقطيعهم وعدم نظامهم — نحو ساعتين . فأين ما كان يعمل من المواكب بمصر ... التى يضرب بحسنها وترتيبها ونظامها المثل فى الدنيا ؟ فسبحان مغير الشئون والأحوال !

وفيه : خرجت زوجة الباشا الكبيرة — وهى أم أولاده — تريد الحج ... الى خارج باب النصر فى ثلاثة تخوت ، والمتسفر بها بونابارته الخازندار . وقد حضر لوداعها ولدها ابراهيم باشا من الصعيد ، وخرج لتشييعها هو وأخوه اسماعيل باشا وصحبتهما محرم بيك — زوج ابنتها — حاكم الجيزة ، ومصطفى بيك دالى باشا ، ويقال انه أخوها . وكذلك محمد بيك الدفتردار — زوج ابنتها أيضا — وطاهر باشا ، وصالح بيك السلحدار . وارتحلت ومن معها فى سادس عشرينه الى بندر السويس . وفى ذلك اليوم برزت عساكر المغاربة ، وغيرهم ممن تعسكر . وارتحل أمير الحج من الحصوة الى البركة .

٢٧ منه (١٢ اكتوبر ١٨١٤ م) :

خرجت عساكر كثيرة مجردين للسفر .

٢٩ منه (١٤ اكتوبر ١٨١٤ م) :

ارتحل أمير الحج ومن معه من البركة فى تاسع ساعة من النهار . وفى ذلك اليوم هبت رياح غربية شمالية باردة ، واشتد هبوبها أواخر النهار ، وأطبقت السماء بالغيوم والقتام ، وأبرق البرق برقا متتابعا ، وأرعدت رعدا له دوى متصل . ولما قرب من سمت رءوسنا ، كان له صوت عظيم مزعج ، ثم نزل مطر غزير استمر نحو نصف ساعة ، ثم سكن بعد أن تبحرت منه الأزقة والطرق . وكان ذلك اليوم رابع شهر بابة القبطى .

وفيه : ورد الخبر من السويس : أن امرأة الباشا لما وصلت الى هناك ، وجدت عالما كبيرا من الحجاج المختلفة الأجناس ممنوعين من نزول المراكب .. فصرخوا فى وجهها ، وشكوا اليها تخلفهم ، وأن أمير البندر مانعهم من النزول فى المراكب ، وبذلك المنع يفوتهم الحج الذى تجشموا الأسفار ، وصرفوا أيضا الأموال من أجله . وهم فى مشقة عظيمة من عدم الماء ، ولا يمكنهم الرجوع لعدم من يحملهم ، وأن أمير البندر يشتط عليهم فى الأجرة ، ويأخذ على كل رأس خمسة عشر فرانسا . فحلفت أنها لاتنزل الى المركب حتى ينزل جميع من بالسويس من الحجاج ... المراكب ، ولا يؤخذ منهم الا القدر الذى جعلته على كل فرد منهم . فكان ما حكمت به هذه الحرمة صار لها به منقبة حميدة ، وذكرا حسنا ، وفرجا لهؤلاء الخلائق بعد الشدة !

الاثنين ٣ منه (١٧ اكتوبر ١٨١٤ م) :

نادى المنادى بوقود قناديل سهارى على البيوت والوكائل . وكل أربع دكاكين قنديل .

السبت ٨ منه (٢٢ اكتوبر ١٨١٤ م) :

جرسوا شخصا ، وأركبوه على حمار بالمقلوب ، وهو قابض بيده على ذنب الحمار ، وعمموه بمصارين ذبيحة ، وعلى كتفه كرش ، بعد أن حلقوا نصف لحيته وشواربه !

قيل : ان سبب ذلك أنه زور حجة تقرير على أماكن تتعلق بامرأة أجنبية ، وباع بعض الأماكن . وكانت تلك المرأة غائبة من مصر ، فلما حضرت ، وجدت مكانها مسكونا بالذى اشتراه ... فرفعت قصتها الى كتخدا بيك ، ففعل به ذلك بعد وضوح القضية .

الاربعاء ١٢ منه (٢٦ اكتوبر ١٨١٤ م) :

سافر عبد الله ابن الشريف سرور الى الحجاز ، باستدعاء من الباشا ، فأعطوه أكياسا ، وقضى أشغاله وخرج مسافرا .

وفيه : وقعت حادثة بحارة الكعكيين بين شخصين من الدلاتية رمحا خلف غلام بدوى عمل نفسه عسكريا مع طائفة المغاربة ، يدعى أحدهما أن له عنده دراهم ؛ فهرب منهما الى الخطة المذكورة ، فرمحا خلفه ، وبيد كل منهما سيفه مسلولا ، فدخل الغلام الى عطفة الحمام . وفزعت عليهما المغاربة المتعسكرون القاطنون بتلك الناحية . وضربوا عليهما بنادق ، فسقط حصان أحد الدلاة ، وأصيب راكبه ، وهرب رفيقه الى كتخدا بيك ، فأخبره ، فأمر باحضار كبراء المغاربة ، وطالبهم بالضارب فلم يتبين أمره ، وقبضوا على الغلام الهارب فحبسوه .

الغلام ..

وفى ذلك الوقت حصل فى الناس فزعة ، وأغلقت أهل سوق الغورية ، والشوائين والفحامين ... حوانيتهم . وبقى ذلك الغلام محبوسا ، ومات الدلاتى المضروب ، فى ليلة السبت خامس عشرة ، فأحضروا ذلك الغلام الى باب زويلة وقطعوا رأسه ظلما ... ولم يكن هو الضارب !

الخميس ٢٠ منه (٣ نوفمبر ١٨١٤ م)

سافر ابن باشت طرابلس ، وسافر معه عسكر المغاربة الخيالة .

ذو الحجة

الاثنين غرته (١٤ نوفمبر ١٨١٤ م) :

ورد نجاب من الحجاز ، وأخبر بموت طاهر

أفندى — وهو أفندى ديوان الباشا — وكان موته فى شهر شوال بالمدينة ... حتف أنفه .

وورد الخبر أيضا بصلح الشريف راجح مع الباشا ، وأنه قابله ، وأكرمه ، وأنعم عليه بمائتى كيس . وأخبر أيضا بأنه تركه الباشا بناحية الكلخة . وهى ما بين الطائف وتربة .

وانقضت السنة بحوادثها .

* * *

وأما من مات فى هذه السنة : فمات العمدة الفاضل ، الفقيه النبيه ، الشيخ حسين ، المعروف بابن الكاشف الدمياطى ، ويعرف بالرشيدى .

تعلق بالعلم ، وانخلع من الأمرية والجندية ، وحضر أشياخ العصر ، ولازم حضور الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وانتقل من مذهب الحنفية الى الشافعية ، لملازمته لهم فى المعقول والمنقول ، وتلقى عن السيد مرتضى أسانيد الحديث والمسلسلات ، وحفظ القرآن فى مبدأ أمره برشيد ، وجوده على السيد صديق ، وحفظ شيئا من المتون قبل مجيئه الى مصر ، وأكب على الاشتغال بالأزهر ، وتزيا بزى الفقهاء .. يلبس العمامة والفرجية ، وتصدر ودرس فى الفقه والمعقول وغيرهما .

ولما وصل محمد باشا خسرو الى ولاية مصر ، اجتمع عليه عند قلعة أبى قير ، فجعله اماما يصلى خلفه الأوقات ، وحضر معه الى مصر ولم يزل مواظبا على وظيفته ، وانتفع بنسبته اليه ، واقتنى حصصا واقطاعات ، وتقلد قضايا مناصب البلاد البنادر ، ويأخذ ممن يتولاها الجعالات والهدايا . وأخذ أيضا نظر وقف أزبك وغيره ، ولم يزل تحت نظره بعد انفصال محمد باشا خسرو . واستمر المذكور على القراءة والاقراء حتى توفى أواخر السنة .

* * *

ومات الفاضل الشيخ عبد الرحمن الجمل — وهو أخو الشيخ سليمان الجمل — تفقه على أخيه ، ولازم دروسه ، وحضر غيره من أشياخ العصر ، ومشى على طريقة أخيه فى التقشف والانجماع عن خلطة الناس . ولما مات أخوه — وكان يملى الدروس بجامع المشهد الحسينى ، بين المغرب والعشاء على جمع من مجاورى الأزهر والعامة — تصدر للاقراء فى محله فى ذلك الوقت . فقرأ الشمايل والمواهب والجلالين ، ولم يزل على حالته حتى توفى ثانى عشر ذى الحجة .

* * *

ومات الشيخ المفيد محمد الاسناوى ، الشهير بجاد المولى ... ممن جاور بالأزهر ، وحضر دروس أشياخ الوقت من أهل عصره ، ولازم الشيخ عبد الله الشرقاوى فى دروسه وبه تخرج ، وواظب عليه فى مجالس الذكر ، وتلقى عنه طريقة الخلوتية وألبسه التاج ، وتقدم فى خطابة الجمعة والأعياد بالجامع الأزهر ، بدلا عن الشيخ عبد الرحمن البكرى عندما رفعوها عنه . وخطب بجامع عمرو بمصر العتيقة يوم الاستسقاء عندما قصرت زيادة النيل فى سنة ثلاث وعشرين ، وتأخر فى الزيادة عن أوانه .

ولما حضر محمد باشا خسرو الى مصر ، وصلى صلاة الجمعة بالأزهر ، فى سنة سبع عشرة ، خلع عليه بعد الصلاة فروة سمور ، فكان يخرجها من الخزنة ، ويلبسها وقت خطبة الجمعة والأعياد .

وواظب على قراءة الكتب للمبتدئين : كالشيخ خالد والأزهرية ، ثم قرأ شرح الأشمونى على الخلاصة . واشتهر ذكره ، ونما أمره فى أقبل زمن . وكان فصيحا مفوها فى التقرير والالقاء لتفهيم الطلبة . ولم يزل على حالة حميدة فى حسن السلوك والطريقة حتى توفى فى شهر ذى الحجة ، وقد ناهز الأربعين .

المحـرم

٥ منه (١٨ ديسمبر ١٨١٤ م) :

وصل نجاب من الحجاز ، وعلى يده مكاتبات ، بالاخبار عن الباشا والحجاج ، بأنهم حجوا ووقفوا بعرفة ، وقضوا المناسك ..

٩ منه (٢٢ ديسمبر ١٨١٤ م) :

حضر ابراهيم باشا من الجهة القبلية الى داره بالجمالية .

١٠ منه (٢٣ ديسمبر ١٨١٤ م) :

وصل فى ليلته قابجى وعلى يده تقرير للباشا من الحجاز الى ساحل القصير ، فضربوا لذلك مدافع من القلعة .

وفى صبحها : خرج ابن الباشا وأخوه ، وكذلك أكابر دولتهم الى ناحية البساتين ، ومنهم من عدى النيل الى البر العربى لملاقاته على مقتضى عادته فى عجلته فى الحضور ، وعلى حساب مضى الأيام ، من يوم وصوله الى القصير ... فغابوا فى انتظاره حتى انقضى النهار ، ثم رجعوا .

١١ منه (٢٤ ديسمبر ١٨١٤ م) :

فى صبحه : خرجوا ثم عادوا الى دورهم آخر النهار ، واستمروا على الخروج والرجوع ، ثلاثة أيام ، ولم يحضر .

وكثر لغط الناس عند ذلك ، واختلفت رواياتهم وأقاويلهم مدة أيام ، ليـلا ونهارا ، ثم ظهر كذب هذا الخبر ، وأن الباشا لم يزل بأرض الحجاز .

وقيل ان سبب اشاعة خبر مجيئه أنه وصل الى ساحل القصير سفينة بها سبعة عشر شخصاً من العسكر ، فسألهم الوكيل الـكائن بالقصـير عن مجيئهم ، فأجابوه انهم مقدمة الباشا ، وأنه واصل فى أثرهم فعندما سمع جوابهم ، أرسل خطابا الى كاتب من الأقباط بقنـا يعرفه بقدوم الباشـا . فكتب ذلك القبطى خطابا الى وكيل شخص من أعيـان كتبـة الأقبـاط بأسيوط ، يسـمى المعـلم بشـارة ، فعندما وصله الجواب أرسـل جوابا الى موكله بشـارة المذكور بمصر ... بذلك الخبـر . وفى الحال طلع به الى القلعة ، وأعطاه لابراهيم باشا ، فانتقل به ابراهيم باشـا الى مجلس كتخدا بيك . فخلع كتخدا بيك على بشارة خلعة ، وأمر بضرب المدافع ، ونـزل المبشرون ، وانتشروا بالبشـائر الى بيوت الأعيان ، وأخذ البقاشيش .

ولما حصل التراخى والتباطؤ والتأخر فى الحضور بعد الاشاعة ، أخـذ النـاس فى اختلاق الروايات والأقاويل ، كعادتهم ... فمنهـم من يقول : « انه حضر مهزوما » ، ومنهم من يقول : « مجروحا » ، ومنهم من يثبت موته ... والشيء الذى أوجب فى الناس هذه التخليطات ، ما شاهدوه من حركات أهل الدولة ، وانتقال نسائهم من المدينة ، وطلوعهم الى القلعة بمتاعهم ، واخلاء الكثير منهم البيوت ، وانتقـال طائفة الأرنؤود من الدور المتبـاعدة ، واجتماعهم ، وسـكناهم بناحية خطة عابدين ... وكذلك انتقل ابراهيم باشا الى القلعة ، ونقل اليها الكثير من متاعه .

وأغرب من هذا كله ، اشـاعة اتفاق عظماء الدولة على ولاية ابراهيم باشا على الأحكام — عوضا عن أبيه — فى يوم الخميس . ويرتبوا له موكبا يركب فيه ذلك اليوم ، ويشق من وسـط المدينة . واجتمع الناس للفرجة عليه ، واصطفوا على المصاطب والدكاكين ... فلم يحصل . وظهر كذب ذلك كله وبطلانه .

واتفق فى أثناء ذلك من زيادة الأوهام والتخيلات ، أن رضوان كاشف — المعروف بالشعراوى — سد باب داره التى بالشارع ، بخط باب الشعرية ، وفتح له بابا صغيرا من داخـل العطفة التى بظاهره ... فأوشى بعض مبغضيه الى كتخدا بيك فعلته فى هذا الوقت — والناس يزداد بهم الوهم ، ويعتقدون صحة ما دار بينهم من الأكاذيب ، وخصوصا كونه من الأعيان المعروفين — فطلبه كتخدا بيك وقال له : « لأى شىء سـددت باب دارك ؟ وما الذى قاله المنجم لك ؟ » . فقال : « ان طائفـة من العسـكر تشاجروا بالخطة ، ودخلوا الى الدار وأزعجونا ، فسددتها من ناحية الشارع بعدا من الشر ، وخوفا مما جرى على دارى سابقا من النهب » . فلم يلتفت لكلامه ، وأمر بقتله . فشـفع فيـه صـالح بيك السلحدار ، وحسن أغا مستحفظان . فعفا عنـه من القتل ، وأمر بضربه ! فبطحوه وضربوه بالعصى . ثم نزل بصحبته الأغا الى داره وفتح الباب كما كان .

٢٤ منه (٦ يناير ١٨١٥ م) :

وصلت مكاتبـات من الديار الحجازية — من عنـد الباشـا وخـلافه — مؤرخـة فى ثالث عشر ذى الحجة ، يذكرون فيها أن الباشا بمـكة ، وطوسون باشا ابنه بالمدينة ، وحسن باشا وأخـاه عابدين بيك وخـلافهم بالكلخـة ، مابين الطائف وتربة .

صـفـر

الاثنين ٢٥ منه (٦ فبراير ١٨١٥ م) :

نودى بنقص مصارفة أصناف المعاملة ... وقد وصل صرف الريال الفرانسة من الفضة العددية الى ثلثمائة وأربعين نصفا ، عنها ثمانية قروش ونصف ، فندوى عليه بنقص نصف قرش . والمحبوب وصل الى عشرة قروش ، فنودى عليـه بتسعة قروش . وشددوا فى هذه المناداة تشديدا زائدا ، وقتل كل من زاد على ذلك من غير معارضة . وكتبوا مراسيم الى جميع البنادر وفيها التشديد والتهديد ، والانتقام ممن يزيد .

اواخره (اوائل فبراير ١٨١٥ م) :

التـزم المعـلم غالى بمـال الجزية التى تطلب من النصـارى ، على خمسـة وثمانين كيسـا . وسبب ذلك أن بعض أتباع المقيد لقبض الجوالى قبض على شـخص من النصـارى ، وكان من قسوسهم ، وشدد عليه فى الطلب وأهـانه فأنهوا الأمر الى المعلم غالى ، ففعل ذلك ، قصـدا لمنع الايذاء عن أبنـاء جنسـه ، ويكون الطلب منـه عليهم ، ومنع المتظاهرين بالاسلام عنهم .

ربيع الأول

الأحد ٩ منه (١٩ فبراير ١٨١٥ م) :

وصلت قافلة طيارى من الحجاز . قدم صحبتها السـيد عبد الله الأقماعى ، ومعهـا هجـانة من الحجاز ، وعلى يدهم مكاتبات ، وفيها : الاخبار والبشرى بنصرة الباشـا عـلى العـرب ، وأنـه استولى على « تربة » وغنم منها جمالا وغنائم ، وأخذ منهم أسرى . فلما وصلت الأخبـار بذلك ، انطلق المبشرون الى بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش ! وضربوا فى صبحها مدافع كثيرة من القلعة .

الثلاثاء ١١ منه (٢١ فبراير ١٨١٥ م) :

كان المولد النبوى ، فنودى فى صبحه بزينة المدينة وبولاق ، ومصر القديمة ، ووقود القناديل ، والسهر ثلاثة أيام بلياليها . فلما أصبح يوم الأربعاء — والزينة بحالها الى بعد أذان العصر — نودى برفعها . ففرح أهل الأسواق بازالتها ورفعها ... لما يحصل لهم من التكاليف والسهر فى البرد والهواء ، خصوصا وقد حصل فى آخر ليلة رياح شديدة باردة .

وفى هذه الأيام : سافر محمود بيك والمعلم غالى ، ومن يصحبهم من النصارى الأقباط ، وأخذوا معهم طائفة من الكتبة الافندية المختصين بالروزنامة ، ومنهم محمد أفندى ابن حسين أفندى — المنفصل عن الروزنامة — ونزلوا لاعادة قياس الأراضى ، وتحرير الرى والشراقى . وسبقهم القياسون بالأقصاب ... نزلوا وسرحوا قبلهم بنحو عشرة أيام وشرع كشاف النواحى فى قبض التروبجة من المزارعين ، وفرضوا على كل فدان : الأدنى تسع ريالات الى خمسة عشر ... بحسب جودة الأراضى ورداءتها . وهذا الطلب فى غير وقته ، لأنه لم يحصل حصاد للزرع ، وليس عند الفلاحين ما يقتاتون منه .

ومن العجب أنه لم يقع مطر فى هذه السنة أبدا ، ومضت أيام الشتاء ودخل فصل الربيع ، ولم يقع غيث أبدا ... سوى ما كان يحصل فى بعض الأيام من غيوم وأهوية غربية ، ينزل مع هبوبها بعض رشاش قليل : لا تبتل الأرض منه ، ويجف بالهواء بمجرد نزوله .

أواخره (أوائل مارس ١٨١٥ م) :

ورد لحضرة الباشا هدية من بلاد الانكليز ، وفيها طيور مختلفة الأجناس والأشكال ، كبار وصغار ، وفيها من يتكلم ويحاكى ، وآلة مصنوعة لنقل الماء ، يقال لها « الطلمبة » ، وهى تنقل الماء الى المسافة البعيدة ، ومن الأسفل الى العلو ، ومرآة زجاج نجف كبيرة — قطعة واحدة — وساعة تضرب مقامات موسيقى فى كل ربع يمضى من الساعة ... بأنغام مطربة ، وشمعدان به حركة غريبة ، كلما طالت فتيلة الشمعة غمز بحركة لطيفة ، فيخرج منه شخص لطيف من جانبه ، فيقط رأس الفتيلة بمقص لطيف بيده ، ويعود راجعا الى داخل الشمعدان ... هذا ما بلغنى ممن ادعى أنه شاهد ذلك .

وفيه : عملوا تسعيرة على المبيعات والمأكولات ، مثل : اللحم والسمن والجبن والشمع ، ونادوا بنقص أسعارها نقصا فاحشا ، وشددوا فى ذلك بالتنكيل والشنق والتعليق ، وخرم الآناف . فارتفع السمن والزبد والزيت من الحوانيت ، وأخفوه ، وطفقوا يبيعونه فى العشيات بالسعر الذى يختارونه على الزبون . وأما السمن فلكثرة طلبه لأهل الدولة شح وجوده ، واذا ورد منه شىء خطفوه وأخذوه من الطريق بالسعر الذى سعره الحاكم ، وانعدم وجوده عند القبانية ، واذا بيع منه شىء ... بيع سرا بأقصى الثمن . وأما السكر والصابون فبلغا الغاية فى غلو الثمن ، وقلة الوجود ، لأن ابراهيم باشا احتكر السكر بأجمعه الذى يأتى من الصعيد — وليس بغير الجهة القبلية شىء منه — فيبيعه على ذمته .. وهو فى الحقيقة لأبيه . ثم صار نفس الباشا يعطى لأهل المطابخ بالثمن الذى يعينه عليهم ، ويشاركهم فى ربحه . فزاد غلوثمنه على الناس ، وبيع الرطل من السكر الصعيدى ، الذى كان يباع بخمسة أنصاف فضة ، بثمانين نصفا . وأما الصابون ففرضوا على تجاره غرامة ، فامتنع وجوده ، وبيع الرطل الواحد منه — خفية — بستين نصفا وأكثر .

وفى هذه الأيام غلا سعر الحنطة والفول وبيع

الأردب بألف ومائتى نصف فضة — خلاف الكلف والأجرة — مع أن الأهراء والشون ببولاق ملآنة بالغلال ، ويأكلها السوس ، ولا يخرجون منها للبيع شيئا ... حتى قيل لكتخدا بيك فى اخراج شيء منها يباع فى الناس ، فلم يأذن ... وكأنه لم يكن مأذونا من مخدومه .

ربيع الآخر

الاثنين ٨ منه (٢٠ مارس ١٨١٥ م) :

عمل محرم بيك الكورنتيلة بالجيزة على نسق السنة الماضية ، من اخراج الناس وازعاجهم ، تطيرا وخوفا من الطاعون .

وفيه : خوزقوا شيخ عرب بلى — فيما بين قبة العزب والهمايل — بعد حبسه أربعة أشهر .

٢٨ منه (٩ ابريل ١٨١٥ م) :

ضربت مدافع ، وأشيع الخبر بوصول شخص عسكرى بمكاتبات من الباشا وخلافه ، والخبر بقدوم الباشا .

وانتشرت المبشرون الى بيوت الأعيان وأصحاب المظاهر — على عاداتهم — لأخذ البقاشيش . فمن قائل انه وصل الى القصير ، ومن قائل انه نزل الى السفينة بالبحر ، ومنهم من يقول انه حضر الى السويس . ثم اختلفت الروايات وقالوا : ان الذى وصل الى السويس حريم الباشا فقط . ثم تبين كذب هذه الأقاويل ، وأنها مكاتبات فقط مؤرخة أواخر شهر صفر ، يذكرون فيها أن الباشا حصل له نصر ، واستولى على ناحية يقال لها بيشة ورنية ، وقتل الكثير من الوهابيين ، وأنه عازم على الذهاب الى ناحية قنفدة ، ثم ينزل بعد ذلك الى البحر ، ويأتى الى مصر .

ووصل الخبر بوفاة الشيخ ابراهيم كاتب الصرة .

جمادى الأولى

الأحد ٦ منه (١٦ ابريل ١٨١٥ م) :

ضربت مدافع بعد الظهيرة لورود مكاتبة بأن الباشا استولى على ناحية من النواحى ، جهة قنفدة .

الجمعة ١٨ منه (٢٨ ابريل ١٨١٥ م) :

وصل المحمل الى بركة الحج ، وصحبته من بقى من رجال الركب ، مثل خطيب الجبل ، والصيرفى ، والمحملجية . ووردت مكاتبات بالقبض على طامى ، الذى جرى منه ما جرى فى وقائع « قنفدة » السابقة ، وقتله العساكر ... فلم يزل راجح الذى اصطلح مع الباشا ينصب له الحبائل حتى صاده

وذلك أنه عمل لابن أخيه مبلغا من المال ان هو أوقعه فى شركه . فعمل له وليمة ، ودعاه الى محله ، فأتاه آمنا ، فقبض عليه واغتاله طمعا فى المال !

وأتوا به الى عرضى الباشا فوجهه الى بندر جدة فى الحال ، وأنزلوه السفينة ، وحضروا به الى السويس ، وعجلوا بحضوره . فلما وصل الى البركة — والمحمل اذ ذاك بها — خرجت جميع العساكر فى ليلة الاثنين ، حادى عشرينه ، وانجروا فى صبحها طوائف وخلفهم المحمل . وبعد مرورهم دخلوا بطامى المذكور ، وهو راكب على هجين ، وفى رقبته الحديد ، والجنزير مربوط فى عنق الهجين ... وصورته : رجل شهم عظيم اللحية ، وهو لابس عباءة عبدانى ، ويقرأ وهو راكب

وعملوا فى ذلك اليوم شنكا ومدافع ، وحضر أيضا عابدين بيك ، وتوجه الى داره فى ليلة الاثنين .

جمادى الآخرة

الاثنين ٥ منه (١٥ مايو ١٨١٥ م) :

وصلت عساكر فى داوات الى السويس ، وحضروا

الى مصر ، وعلى رءوسهم شلنجات فضة ... اعلاما واشارة بأنهم مجاهدون ، وعائدون من غزو الكفار ، وأنهم افتتحوا بلاد الحرمين ، وطردوا المخالفين لدياناتهم . حتى أن طوسون باشا وحسن باشا كتبا فى امضائهما على المراسلات — بعد اسمهما — لفظة « المغازى » ! والله أعلم بخلقه .

الجمعة ٩ منه (١٩ مايو ١٨١٥ م) :

أخرجوا عساكر كثيرة ... وجهوهم الى الثغور ومحافظة الأساكل خوفا من طارق يطرق الثغور لأنه أشيع أن بونابرته كبير الفرنساوية خرج من الجزيرة التى كان بها ، ورجع الى فرانسا وملكها ، وأغار على بلاد الجورنة ، وخرج بعمارة كبيرة لا يعلم قصده الى أى جهة يريد ... فربما طرق ثغر الاسكندرية أو دمياط على حين غفلة وقيل غير ذلك .

وسئل كتخدا بيك عن سبب خروجهم ، فقال : « خوفا عليهم من الطاعون ، ولئلا يوخموا المدينة » لأنه وقع فى هذه السنة موتان بالطاعون ، وهلك الكثير من العسكر وأهل البلدة والأطفال والجوارى والعبيد — خصوصا السودان — فانه لم يبق منهم الا القليل النادر ، وخلت منهم الدور.

الخميس ١٥ منه (٢٥ مايو ١٨١٥ م) :

أخرج كتخدا بيك صدقة تفرق على الأولاد الأيتام الذين يقرأون بالكتاتيب ، ويدعون برفع الطاعون ! فكانوا يجمعونهم ، ويأتى بهم فقهاؤهم الى بيت حسين ، كتخدا الكتخدا ، عند حيضان مصلى ، ويدفعون لكل صغير ورقة بها ستون نصفا فضة : يأخذ منها جزءا الذى يجمع الطائفة منهم ويدعى أنه معلمهم ، زيادة عن حصته . لأن معظم المكاتب مغلوقة ، وليس بها أحد بسبب تعطيل الأوقاف وقطع ايرادهم . وصار لهذه الأطفال جلبة وغوغاء فى ذهابهم ورجوعهم فى الأسواق ، وعلى بيت الذى يقسم عليهم .

رجب

الاربعاء ٦ منه (١٤ يونيه ١٨١٥ م) :

وصلت هجانة من ناحية قبلى ، وأخبروا بوصول الباشا الى القصير . فخلع عليهم كتخدا بيك كساوى ، ولم يأمر بعمل شنك ولا مدافع حتى يتحقق صحة الخبر .

الجمعة ٨ منه (١٦ يونية ١٨١٥ م) :

احترق بيت طاهر باشا بالأزبكية ، والبيت الذى بجواره أيضا .

وفيه — قبل العصر — ضربت مدافع كثيرة من القلعة والجيزة ، وذلك عندما ثبت وتحقق ورود الباشا الى قنا وقوص . ووصل أيضا حريم الباشا ، وطلعوا الى قصر شبرا ، وركب للسلام عليها جميع نساء الأكابر والأعيان ... بهداياهم وتقادمهم . ومنعوا المارين من المسافرين والفلاحين الواصلين من الأرياف ... المرور من تحت القصر ، الذى هو الطريق المعتادة للمسافرين فكانوا يذهبون ويمرون من طريق استحدثوها ، منعطفة خلف تلك الطريق ، ومستبعدة بمسافة طويلة .

الخميس ١٤ منه (٢٢ يونية ١٨١٥ م) :

انخسف جرم القمر جميعه بعد الساعة الثالثة ، وكان فى آخر برج القوس .

الجمعة ١٥ منه (٢٣ يونية ١٨١٥ م) :

وصل الباشا الى الجيزة ليلا ، فأقام بها الى آخر الليل ، ثم حضر الى داره بالأزبكية فأقام بها يومين . وحضر كتخدا بيك وأكابر دولته للسلام عليه ، فلم يأذن لأحد ... وكذلك مشايخ الوقت ذهبوا ورجعوا . ولم يجتمع به أحد سوى ثانى

يوم . وترادفت عليه التقادم والهدايا من كل نوع : من أكابر الدولة ، والنصارى بأجناسهم ، خصوصا الأرمن وخلافهم .. بكل صنف من التحف ، حتى السرارى البيض بالحلى والجواهر وغير ذلك !

وأشيع فى الناس ، فى المصر وفى القرى ، بأنه تاب عن الظلم ، وعزم على اقامة العدل . وأنه نذر على نفسه : أنه اذا رجع منصورا ، واستولى على أرض الحجاز ، أفرج للناس عن حصصهم ، ورد الأرزاق الاحباسية الى أهلها . وزادوا على هذه الاشاعة أنه فعل ذلك فى البلاد القبلية ، ورد كل شىء الى أصله . وتناقلوا ذلك فى جميع النواحى ، وباتوا يتخيلونه فى أحلامهم !

ولما مضى من وقت حضوره ثلاثة أيام ، كتبوا أوراقا لمشاهير الملتزمين . مضمونها : أنه بلغ حضرة أفندينا ما فعله الأقباط من ظلم الملتزمين والجور عليهم فى فائظهم ، فلم يرض بذلك ... والحال أنكم تحضرون بعد أربعة أيام ، وتحاسبوا على فائظكم وتقبضونه ، فان أفندينا لايرضى بالظلم ... وعلى الأوراق امضاء الدفتردار .

ففرح أكثر المغفلين بهذا الكلام ، واعتقدوا صحته . وأشاعوا أيضا أنه نصب تجاه قصر شبرا خوازيق للمعلم غالى وأكابر القبط .

الأحد ٢٤ منه (٢ يوليه ١٨١٥ م) :

حضر الكثير من أصحاب الأرزاق الكائنين بالقرى والبلاد ، مشايخ وأشرافا وفلاحين ، ومعهم بيارق وأعلام ... مستبشرين وفرحين بما سمعوه وأشاعوه ، وذهبوا الى الباشا — وهو يعمل رماحة بناحية القبة ، برمى بنادق كثيرة وميدان تعليم — فلما رآهم وأخبروه عن سبب مجيئهم ، فأمر بضربهم وطردهم ! ففعلوا بهم ذلك ، ورجعوا خائبين ..

وفيه : حضر محمود بيك والمعلم غالى من سرحتهما ، وقابلا الباشا ، وخلع عليهما وكساهما ، وألبسهما فراوى سمور . فركب المعلم غالى ، وعليه الخلعة ، وشق من وسط المدينة ، وخلفه عدة كثيرة من الأقباط ليراه الناس ، ويكمد الأعداء ، ويبطل ماقيل من التقولات . ثم قام هو ومحمود بيك أياما قليلة ، ورجعا لأشغالهما وتتميم أفعالهما من تحرير القياس وجبى الأموال . وكانا أرسلا قبل حضورهما عدة كثيرة من الجمال الحاملة للأموال : فى كل يوم قطارات بعضها اثر بعض ، من الشرقية والغربية والمنوفية وباقى الأقاليم .

وفيه : حضر شيخ طرهونة بجهة قبلى ، ويسمى كريم — بضم الكاف وفتح الراء وتشديد الياء وسكون الميم — وكان عاصيا على الباشا ، ولم يقابله أبدا . فلم يزل يحتال عليه ابراهيم باشا ، ويصالحه ويمنيه ، حتى أتى اليه وقابله وأمنه . فلما حضر الباشا — أبوه — من الحجاز ، أتاه على أمان ابنه ، وقدم معه هدية وأربعين من الابل .. فقبل هديته ، ثم أمر برمى عنقه بالرميلة !

شعبان

الأحد غرته (٩ يولية ١٨١٥ م) :

استهل .. والناس فى أمر مريج من قطع أرزاقهم . وأرباب الالتزامات والحصص التى ضبطها الباشا ، ورفع أيديهم عن التصرف فى شىء منها — خلا طين الأوسية — فانه سامحهم فيه ... سوى ما زاد عن الروك الذى قاسوه ، فانه لديوانه . ووعدهم بصرف المال الحر المعين بالسند الديوانى فقط ... بعد التحرير والمحاققة ، ومناقضة الكتبة الأقباط فى القوائم . وأقاموا منتظرين انجاز وعده ، أياما ، يغدون ويروحون ، ويسألون الكتبة ومن له وصلة بهم .. وقد ضاق خناقهم من التفليس ، وقطع الايراد ، ورضوا بالأقل ، وتشوفوا لحصوله . وكل

قليل يوعدون : بعد أربعة أيام أو ثلاثة أيام ، حتى تحرر الدفاتر . فاذا تحررت قيل ان الباشا أمر بتغييرها وتحريرها على نسق آخر . ويكرر ذلك ثانيا وثالثا على حسب تفاوت المتحصل فى السنين ، وما يتوفر فى الخزينة قليلا أو كثيرا .

وفيه : وصل رجل تركى على طريق دمياط ، يزعم أنه عاش من العمر زمنا طويلا ، وأنه أدرك أوائل القرن العاشر ، ويذكر أنه حضر الى مصر مع السلطان سليم ، وأدرك وقته وواقعته مع السلطان الغورى ، وكان فى ذلك الوقت تابعا لبعض البيرقدارية ! وشاع ذكره ، وحكى من رآه أن ذاته تخالف دعواه ، وامتحنه البعض فى مذاكرة الأخبار والوقائع ، فحصل منه تخليط . ثم أمر الباشا بنفيه وابعاده ، فأنزلوه فى مركب ، وغاب خبره ، فيقال أنهم أغرقوه . والله أعلم .

الأربعاء ٢٥ منه (٢ اغسطس ١٨١٥ م) :

عملوا الديوان ببيت الدفتردار ، وفتحوا باب صرف الفائظ على أرباب حصص الالتزام . فجعلوا يعطون منه جانبا ... وأكثر ما يعطونه نصف القدر الذى قرروه ، وأقل وأزيد قليلا .

وفيه : أمر الباشا لجميع العساكر بالخروج الى الميدان لعمل التعليم والرماحة ، خارج باب النصر ، حيث قبة العزب . فخرجوا من ثلث الليل الأخير ، وأخذوا فى الرماحة والبندقة المتواصلة المتتابعة مثل الرعود — على طريقة الافرنج — وذلك من قبيل الفجر الى الضحوة . ولما انقضى ذلك رجعوا داخلين الى المدينة فى كبكبة عظيمة ، حتى زحموا الطرق بخيولهم من كل ناحية ، وداسوا أشخاصا من الناس بخيولهم ... بل وحميرا أيضا .

وأشيع أن الباشا قصده احصاء العسكر وترتيبهم على النظام الجديد ، وأوضاع الافرنج ، ويلبسهم الملابس المقمطة ، ويغير شكلهم .

وركب فى ثانى يوم الى بولاق ، وجمع عساكر ابنه اسماعيل باشا ، وصنفهم على الطريقة المعروفة بالنظام الجديد ، وعرفهم قصده ... فعل ذلك بجميع العساكر ، ومن أبى ذلك ، قابله بالضرب والطرد والنفى ، بعد سلبه حتى من ثيابه ، ثم ركب من بولاق وذهب الى شبرا . وحصل فى العسكر قلقلة ولغط ، وتناجوا فيما بينهم ، وتفرق الكثير منهم عن مخاديمهم وأكابرهم ، ووافقهم على النفور بعض أعيانهم ، واتفقوا على غدر الباشا .

ثم أن الباشا ركب من قصر شبرا ، وحضر الى بيت الأزبكية — ليلة الجمعة ثامن عشرينه — وقد اجتمع عند عابدين بيك ، بداره ، جماعة من أكابرهم فى وليمة ، وفيهم حجو بيك ، وعبد الله أغا صارى جله ، وحسن أغا الازرنجلى ... فتفاوضوا بينهم أمر الباشا وما هو شارع فيه ، واتفقوا على الهجوم عليه فى داره بالأزبكية فى الفجرية . ثم ان عابدين بيك غافلهم ، وتركهم فى أنسهم ، وخرج متنكرا مسرعا الى الباشا وأخبره ورجع الى أصحابه . فأسرع الباشا فى الحال الركوب فى سادس ساعة من الليل ، وطلب عساكر طاهر باشا فركبوا معه ، وحوط المنزل بالعساكر . ثم أخلف الطريق ، وذهب على ناحية الناصرية ومرمى النشاب ، وصعد الى القلعة ، وتبعه من يثق به من العساكر .

وانخرم أمر المتوافقين ، ولم يسعهم الرجوع عن عزيمتهم ، فساروا الى بيت الباشا يريدون نهبه فمانعهم المرابطون ، وتضاربوا بالرصاص والبنادق ، وقتل بينهم أشخاص ، ولم ينالوا غرضا . فساروا على ناحية القلعة ، واجتمعوا بالرميلة وقراميدان ، وتحيروا فى أمرهم ، واشتد غيظهم ، وعلموا أن وقوفهم بالرميلة لا يجدى شيئا ... وقد أظهروا المخاصمة ، ولا ثمرة تعود عليهم فى رجوعهم وسكونهم ، بل ينكسف بالهم ،

وتنذل أنفسهم ، ويلحقهم اللوم من أقرانهم الذين لم ينضموا اليهم .

فأجمع رأيهم — لسوء طباعهم وخبث عقيدتهم وطرائقهم — أنهم يتفرقون فى شوارع المدينة ، وينهبون متاع الرعية وأموالهم ! فاذا فعلوا ذلك فيكثر جمعهم ، وتقوى شوكتهم ، ويشاركهم المتخلفون عنهم لرغبة الجميع فى القبائح الذممة ، ويعودون بالغنيمة ، ويحوصلون من الحواصل ، ولا يضيع سعيهم فى الباطل ، كما يقال فى المثل : « ما قدر على ضرب الحمار ، فضرب البرذعة » ! ونزلوا على وسط قصبة المدينة ، على الصليبية ، على السروجية... وهم يكسرون ويهشمون أبواب الحوانيت المغلوقة ، وينهبون ما فيها ، لأن الناس لما تسامعوا بالحركة ، أغلقوا حوانيتهم وأبوابهم ، وتركوا أسبابهم ... طلبا للسلامة .

وعند ما شاهد باقيهم ذلك أسرعوا اللحوق ؛ وبادروا معهم للنهب والخطف ... بل وشاركهم الكثير من الشطار والزعر والعامة المقلين والجياع ، ومن لا دين له . وعند ذلك كثر جمعهم ، ومضوا على طريقهم الى قصبة رضوان ، الى داخل باب زويلة ، وكسروا حوانيت السكرية ، وأخذوا ما وجدوه من الدراهم ، وما أحبوه من أصناف السكر . فجعلوا يأكلون ويحملون ، ويبددون الذى لم يأخذوه ويلقونه تحت الأرجل فى الطريق. وكسروا أوانى الحلوى ، وقمدور المربيات ... وفيها ما هو من الصينى والبياغورى والأفرنجى ، ومجامع الأشربة وأقراص الحلوى الملونة والرشال والملبس والفانيد والحماض والبنفسج .

وبعد أن يأكلوا ، ويحملوا هم وأتباعهم ، ومن انضاف لهم من الأوباش البلدية والحرافيش والجعيدية ، يلقون ما فضل عنهم على قارعة الطريق .. بحيث صار السوق — من حد باب زويلة الى المناخلية ، مع اتساعه وطوله — مرسوما ومنقوشا بألوان السكاكر ، وأقراص الأشربة الملونة ، وأعسال المربيات سائلة على الأرض .

وكان أهل ذلك السوق ، المتسببون ، جددوا وطبخوا أنواع المربيات والأشربة عند وفور الفواكه وكثرتها فى هوانها — وهو هذا الشهر المبارك — مثل الخوخ والتفاح والبرقوق والتوت والقرع المسير ، والحصرم والسفرجل . وملأوا الأوعية ، وصففوها فى حوانيتهم للمبيع ... وخصوصا على موسم شهر رمضان .

ومضوا فى سيرهم الى العقادين الرومى ، والغورية ، والأشرفية ، وسوق الصاغة . ووصلت طائفة الى سوق مرجوش ، فكسروا أبواب الحوانيت والوكائل ، والخانات ، ونهبوا ما فى حواصل التجار من الأقمشة المحلاوى والبز والحرير والزردخان .

ولما وصلت طائفة الى رأس خان الخليلى ، وأرادوا العبور والنهب ... فزعت فيهم الأتراك والأرنؤود ، الذين يتعاطون التجارة ، الساكنون بخان اللبن والنحاس وغيرهما ، وضربوا عليهم بالرصاص . وكذلك من سوق الصرماتية ، والأتراك الخردجية — الساكنون بالرباع بباب الزهومة — جعلوا يرمون عليهم من الطيقان بالرصاص حتى ردوهم ومنعوهم .

وكذلك تعصبت طائفة المغاربة ، الكائنون بالفحامين وحارة الكعكيين ... رموا عليهم بالرصاص ، وطردوهم عن تلك الناحية ، وأغلقوا البوابات التى على رءوس العطف . وجلس عند كل درب أناس ، ومن فوقهم أناس من أهل الخطة بالرصاص ، تمنع الواصل اليهم .

ووصلت طائفة الى خان الحمزاوى ، فعالجوا فى بابه حتى كسروا الخوخة التى فى الباب ، وعبروا الخان ، وكسروا حواصل التجار

من نصارى الشوام وغيرهم ، ونهبوا ما وجدوه من النقود ، وأنواع الأقمشة الهندية والشامية ، والمقصبات ، وبالات الجوخ والقطيفة ، والأصطوفة وأنواع الأطلس ، والألاجات والسلاوى ، والجنفس والصندل والحبر ، وأنواع الشيت والحرير الخام والأبريسم ... وغير ذلك .

وتبعهم الخدم والعامة فى النهب ، وأخرجوا مافى الدكاكين والحواصل من أنواع الأقمشة ، وأخذوا ما أعجبهم واختاروه وانتقوه ، وتركوا ما تركوه ، ولم يقدروا على حمله ... مطروحا على الأرض ودهليز الخان وخارج السوق ، يطأون عليه بالأرجل والنعالات .

ويعدو القوى على الضعيف فيأخذ ما معه من الأشياء الثمينة ، وقتل بعضهم البعض ، وكسروا أبواب الدكاكين التى خارج الخان بالخطة ، وأخرجوا مافيها من التحف والأوانى الصينى ، والزجاج المذهب ، والكاسات البلور ، والصحون والأطباق والفناجين البيشة ، وأنواع الخردة وأخذوا ما أعجبهم وما وجدوه من نقود ودراهم، وهشموا البواقى وكسروه ، وألقوه على الأرض تحت الأرجل ... شقافا متنوعة .

وكذلك فعلوا بسوق البندقانيين وما به من حوانيت العطارين ، وطرحوا أنواع الأشياء العطرية بوسط الشارع تداس بالأرجل أيضا !

وفعلوا ما لا خير فيه ، من نهب أموال الناس والاتلاف . ولولا الذين تصدوا لدفعهم ومنعهم بالبنادق والكرانك وغلق البوابات ، لكان الواقع أفظع من ذلك ، ولنهبوا أيضا البيوت وفجروا بالنساء ، والعياذ بالله ، ولكن الله سلم .

وشاركهم فى فعلهم الكثير من الأوباش ، والمغاربة المدافعين أيضا ... فانهم أخذوا أشياء كثيرة ، وكانوا يقبضون على من يمر بهم — ممن يقدرون عليه من النهابين — ويأخذون ما معهم لأنفسهم . واذا هشمت العساكر حانوتا ، وخطفوا منها شيئا ، ولحقهم من يطردهم عنها ... استأصل اللاحقون ما فيها ، واستباح الناس أموال بعضهم البعض !

وكان هذا الحادث ، الذى لم نسمع بنظيره فى دولة من الدول ، فى ظرف خمس ساعات ، وذلك من قبيل صلاة الجمعة الى قبيل العصر .. حصل للناس فى هذه المدة اليسيرة من الانزعاج والخوف الشديد ، ونهب الأموال ، واتلاف الأسباب والبضائع ... ما لا يوصف . ولم تصل الجمعة فى ذلك اليوم ، وأغلقت المساجد الكائنة بداخل المدينة ، وأخذ الناس حذرهم ، ولبسوا أسلحتهم ، وأغلقوا البوابات ، وقعدوا على الكرانك والمرابط والمتاريس ، وسهروا الليالى ، وأقاموا على التحذر والتحفظ والتخوف .... أياما وليالى .

السبت ٢٨ منه (٥ اغسطس ١٨١٥ م — ٣٠ أبيب ١٥٣١ ق) :

أوفى النيل المبارك أذرعه ، وكان ذلك اليوم أيضا ليلة رؤية هلال رمضان ، فصادف حصول الموسمين فى آن واحد ، فلم يعمل فيها موسم ولا شنك — على العادة — ولم يركب المحتسب ولا أرباب الحرف بموكبهم وطبولهم وزمورهم . وكذلك شنك قطع الخليج ، وما كان يعمل فى ليلته من المهرجان فى النيل وسواحله ، وعند السد ، وكذلك فى صبحه ، وفى البيوت المطلة على الخليج .... فبطل ذلك جميعه ، ولم يشعر بهما أحد ، وصام الناس باجتهادهم .

وكان وفاء النيل فى هذه السنة من النوادر . فان النيل لم تحصل فيه الزيادة بطول الأيام التى مضت من شهر أبيب ، الا شيئا يسيرا ، حتى حصل فى الناس وهم زائد ، وغلا سعر الغلة ، ورفعوها من السواحل والعرصات . فأفاض المولى فى النيل واندفعت فيه الزيادة العظيمة . وفى ليلتين أوفى

أذرعه قبل مظنته .. فان الوفاء لا يقع فى الغالب الا فى شهر مسرى ، ولم يحصل فى أواخر أبيب الا فى النادر . وانى لم أدركه فى سنين عمرى أوفى فى أبيب الا مرة واحدة ... وذلك فى سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف ، فتكون المدة بين تلك وهذه المدة سبعا وأربعين سنة .

وفيه : أرسل الباشا بطلب السيد محمد المحروقى . فطلع اليه ، وصحبته عدة كبيرة من عسكر المغاربة لخفارته . فلما واجهه قال له : « هذا الذى حصل للناس من نهب أموالهم .. فى صحائفى ، والقصد أنكم تتقدمون لأرباب المنهوبات ، وتجمعونهم بديوان خاص — طائفة بعد أخرى — وتكتبون قوائم لكل طائفة بما ضاع لها ، على وجه التحرير والصحة ، وأنا أقوم لهم بدفعه بالغا ما بلغ » . فشكر له ودعا له ، ونزل الى داره .

وعرف الناس بذلك ، وشاع بينهم فحصل لأربابه بعض الاطمئنان .

وطلع الى الباشا كبار العسكر ، مثل : عابدين بيك ، ودبوس أوغلى ، وحجو بيك ، ومحو بيك ... واعتذروا ، وتنصلوا ، وذكروا وأقروا أن هذا الواقع اشتركت فيه طوائف العسكر ، وفيهم من طوائفهم وعساكرهم ، ولا يخفاه خبث طباعهم . فتقدم اليهم بأن يتفقدوا بالفحص ، واحصاء ما حازه وأخذه كل من طوائفهم وعساكرهم . وشدد عليهم فى الأمر بذلك .. فأجابوه بالسمع والطاعة ، وامتثلوا لأمره ، وأخذوا فى جمع ما يمكنهم وارساله الى القلعة ، وركبوا وشقوا بشوارع المدينة ، وأمامهم المناداة بالأمان !

وأحضر الباشا المعمار ، وأمره بجمع النجارين والمعمرين واشغالهم فى تعمير ما تكسر من أخشاب الدكاكين والأسواق ، ويدفع لهم أجرتهم ، وكذلك الأخشاب على طرف الميرى .

رمضان

الاثنين غرته (٧ اغسطس ١٨١٥ م) :

استهل ... والناس فى أمر مريج ، وتخوف شديد ، وملازمون للسهر على السكرانك ، ويتحاشون المشى والذهاب والمجىء . وكل أهل خطة ملازم لخطته وحارته . وكل وقت يذكرون وينقلون بينهم روايات وحكايات ووقائع مزعجات . وتطاولت أيدى العساكر بالتعدى والأذية والفتك والقتل لمن يتفردون به من الرعية .

الثلاثاء ٢ منه (٨ اغسطس ١٨١٥ م) :

فى ليلته : طلع السيد محمد المحروقى ، وطلع صحبته : الشيخ محمد الدواخلى نقيب الاشراف ، وابن الشيخ العروسى ، وابن الصاوى ، المتعينون فى مشيخة الوقت ، وصحبتهم شيخ الغورية وطائفته . وقد ابتدأوا بهم فى املاء ما نهب لهم من حوانيتهم بعدما حرروها عند السيد محمد المحروقى، وتحليفهم — بعد الاملاء — على صدق دعواهم . وبعد التحليف والمحاققة ، يتجاوز عن بعضه لحضرة الباشا ، ثم يثبتون له الباقى ... فاستقر لأهل الغورية خاصة مائة وثمانون كيسا . فدفع لهم ثلثيها ، وأخر لهم الثلث ، وهو ستون كيسا ، يستوفونها فيما بعد : اما من عروضهم ان ظهر لهم منها شىء ، أو من الخزينة . ولازم الجماعة الطلوع والنزول ، فى كل ليلة ، لتحرير بواقى المنهوبات . وأيضا استقر لأهل خان الحمزاوى نحو من ثلاثة آلاف كيس كذلك ، ولطائفة السكرية نحو من سبعين كيسا خصمت لهم من ثمن السكر الذى يبتاعونه من الباشا .

واستمر الباشا بالقلعة يدبر أموره ، ويجذب قلوب الناس من الرعية ، وأكابر دولته ... بما

يفعله من بذل المال ، ورد المنهوبات ، حتى ترك الناس يسخطون على العسكر ، ويترضون عنه . ولو لم يفعل ذلك ، وثارت العساكر هذه الثورة ، ولم يقع منهم نهب ولا تعد .. لساعدتهم الرعية ، واجتمعت عليهم أهالى القرى ، وأرباب الاقطاعات .. لشدة نكايتهم من الباشا ، بضبط الرزق والالتزامات ، وقياس الاراضى ، وقطع المعايش . وذلك من سوء تدبير العسكر ، وسعادة الباشا ، وحسن سياسته : باستجلابه الخواطر ، وتملقه بالكلام اللين ، والتصنع ، ويلوم على فعل العسكر ، ويقول بمسمع الحاضرين : « ما ذنب الناس معهم ؟ خصوصا خصامهم : معى أو مع الرعية ؟ .. ها أنا لى منزل بالأزبكية فيه أموال وجواهر وأمتعة ، وأشياء كثيرة ، وسراية ابنى اسماعيل باشا ببولاق ، ومنزل الدفتردار» ! ونحو ذلك .

ويتحسيل ويتحوقل ، ويعمل فكرته ، ويدبر أمره فى أمر العسكر وعظمائهم ، وينعم عليهم ، ويعطيهم الأموال الكثيرة ، والأكياس العديدة ... لأنفسهم وعساكرهم . وتنتبذ طائفة منهم ويقولون : « نحن لم ننهب ولم يحصل لنا كسب » ، فيعطيهم ويفرق فيهم المقادير العظيمة . فأنعم على عابدين بيك بألف كيس ، ولغيره دون ذلك .

وفى أثناء ذلك أخرج جردة من عسكر الدلاة ليسافروا الى الديار الحجازية ، فبرزوا الى خارج باب الفتوح — حيث المكان المسمى بالشيخ قمر — ونصبوا هناك وطاقهم ، وخرجت أحمالهم وأثقالهم .

الخميس ٤ منه (١٠ اغسطس ١٨١٥ م) :

ثارت طائفة الطوبجية ، وخاضوا ، وضجوا — وهم نحو الأربعمائة — وطلبوا نفقة ... فأمر لهم بخمسة وعشرين كيسا ، ففرقت فيهم ... فسكتوا !

وفيه : نزل كتخدا بيك ، وشق من وسط المدينة، ونزل عند جامع الغورية ، وجلس فيه ، ورسم لأهل السوق بفتح حوانيتهم ، وأن يجلسوا فيها ... فامتثلوا ، وفتحوا الحوانيت ، وجلسوا على تخوف .. كل ذلك مع عدم الراحة والهدوء ، وتوقع المكروه ، والتطير من العسكر ، وتعدى السفهاء منهم فى بعض الأحايين ، والتحرز والاحتراس .

وأما النصارى فانهم حصنوا مساكنهم ونواحيهم وحاراتهم ، وسدوا المنافذ ، وبنوا كرانك ، واستعدوا بالأسلحة والبنادق ، وأمدهم الباشا بالبارود وآلات الحرب — دون المسلمين — حتى أنهم استأذنوا كتخدا بيك فى سد بعض الحارات النافذة التى يخشون وقوع الضرر منها ، فمنع من ذلك . وأما النصارى فلم يمنعهم . وقد تقدم ذكر فعله مع رضوان كاشف ... عندما سد باب داره ، وفتحه من جهة أخرى ، وعزره وضربه وبهدله بوسط الديوان .

وفيه : وصل نجيب أفندى — وهو قبى كتخدا الباشا عند الدولة — الى بولاق . فركب اليه كتخدا بيك وأكابر الدولة والأغا والوالى ، وقابلوه ونظموا له موكبا من بولاق الى القلعة ، ودخل من باب النصر . وحضر صحبته خلع برسم الباشا وولده طوسون باشا ، وسيفان ، وشلنجان وهدايا ، وأحقاق نشوق مجوهرة . وعملوا لوصوله شنكا ومدافع من القلعة وبولاق .

وفيه : ارتحل الدلاة المسافرون الى الحجاز ، ودخل حجو بيك الى المدينة بطائفته .

وفى ضحوة ذلك اليوم — بعد انفضاض أمر الموكب — حصل فى الناس زعجة وكرشات ،

وأغلقوا البوابات والدروب . واتصل هذا الانزعاج بجميع النواحي ... حتى الى بولاق ومصر القديمة ، ولم يظهر لذلك أصل ولا سبب من الأسباب مطلقا .

وفى تلك الليلة : ألبس الباشا حجو بيك خلعه ، وتوجه بطرطور طويل ، وجعله أميرا على طائفة من الدلاة ، وانخلع هو وأتباعه من طريقتهم التركية التى كانوا عليها .

وهؤلاء الطائفة — التى يقال لهم دلاة — ينسبون أنفسهم الى طريقة سيدنا عمر بن الحطاب رضى الله عنه ، وأكثرهم من نواحى الشام وجبال الدروز والمتأولة .. وتلك النواحى يركبون الأكاديش ، وعلى رءوسهم الطراطير السود ، مصنوعة من جلود الغنم الصغار ... طول الطرطور نحو ذراع وإذا دخل الكنيف نزعه من على رأسه ووضعه على عتبة الكنيف ! وما أدرى : أذلك تعظيم له عن مصاحبته معه فى الكنيف ، أو لخوف وحذر من سقوطه ان انصدم بأسكفّة الباب فى صحن المرحاض أو الملاقى ؟

وهؤلاء الطائفة مشهورة فى دولة العثمانيين بالشجاعة والاقدام فى الحروب ، ويوجد فيهم من هو على طريقة حميدة ، ومنهم دون ذلك — وقليل ماهم . ولكونهم من تمام النظام ، رتبهم الباشا من أجناسه وأتراكه خلاف الأجناس الغريبة ومن بقى من أولئك يكون تبعا لا متبوعا .

الثلاثاء ١٦ منه (٢٢ اغسطس ١٨١٥ م) :

حصل مثل ذلك المتقدم من الانزعاج والكرشات ... بل أكثر من المرة الأولى . ورمح الرامحون ، وأغلقت الحوانيت ، وطلبت الناس السقائين ، الذين ينقلون الماء من الخليج ، وبيعت القربة بعشرة أنصاف فضة ، والراوية بأربعين . فنزل الأغا ، وأغات التبديل ، وأمامهم المناداة بالأمان ، وينادون على العساكر أيضا ، ومنعهم من حمل البنادق ، ويأمرون الناس بالتحفظ .

واستمر هذا الأمر والارتجاج الى قبيل العصر ، وسكن الحال ، وكثر مرور السقائين ، وبيعت القربة بخمسة أنصاف ، والراوية بخمسة عشر ... ولم يظهر لهذه الحركة سبب أيضا . وتقول الناس بطول نهار ذلك اليوم أصنافا وأنواعا من الروايات والأقاويل التى لا أصل لها

الأربعاء ١٧ منه (٢٣ اغسطس ١٨١٥ م) :

حضر الشريف راجح من الحجاز ، ودخل المدينة وهو راكب على هجين ، وصحبته خمسة أنفار على هجن أيضا ، ومعهم أشخاص من الأرنؤود من أتباع حسن باشا الذى بالحجاز ... فطلعوا به الى القلعة ، ثم أنزلوه الى منزل أحمد أغا ، أخى كتخدا بيك .

الخميس ١٨ منه (٢٤ اغسطس ١٨١٥ م) :

قلد الباشا عبد الله أغا — المعروف بصارى جله — وجعله كبيرا على طائفة من الينكجرية أيضا ، وجعل على رأسه الطربوش الطويل المرخى على ظهره — كما هى عادتهم هو وأتباعه — وكان من جملة المتهومين بالمخامرة على الباشا .

وفيه : برز أمر الباشا لكبار العسكر بركوب جميع عساكرهم الخيول ، ومنعهم من حمل البنادق ، ولايكون منهم راجل أو حامل للبندقية ، الا من كان من أتباع الشرطة والأحكام ، مثل : الوالى ، والأغا ، وأغات التبديل .

ولازم كتخدا بيك ، وأيوب أغا — تابع ابراهيم أغا أغات التبديل — والوالى ... المرور بالشوارع والجلوس فى مراكز الأسواق ، مثل : الغورية ، والجمالية ، وباب الحمزاوى ، وباب زويلة ، وباب الخرق ... وأكثر أتباعهم مفطرون فى نهار رمضان ، ومتجاهرون بذلك .. من غير احتشام ولا مبالاة

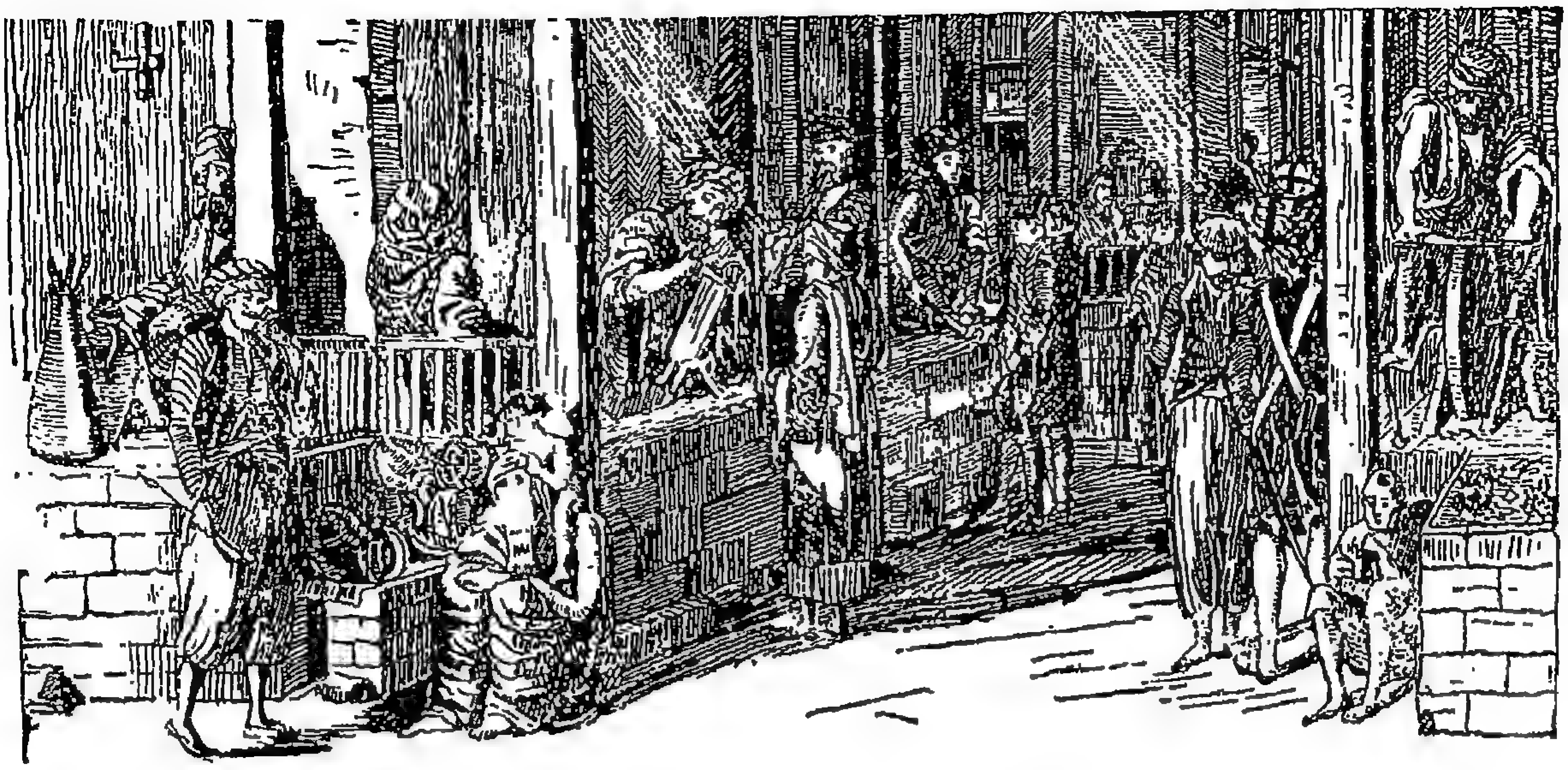

ويجلسون على الحوانيت والمساطب ..

بانتهاك حرمة شهر الصوم ، ويجلسون على الحوانيت والمساطب يأكلون ويشربون الدخان . ويأتى أحدهم وبيده شبك الدخان فيدنى مجمرته لأنف ابن البلد على غفلة منه ، وينفخ فيه على سبيل السخرية والهزيان بالصائم . وزادوا فى الغى والتعدى ، وخطف النساء نهارا وجهارا ... حتى اتفق أن شخصا منهم أدخل امرأة الى جامع الأشرفية ، و ... بها فى المسجد بعد صلاة الظهر فى نهار رمضان !

أواخره (اواخر اغسطس ١٨١٥ م) :

عملوا حساب أهل سوق مرجوش ، فبلغ ذلك أربعمائة وخمسين كيسا ... قبضوا ثلثيها ، وتأخر لهم الثلث . كل ذلك خلاف النقود لهم ولغيرهم مثل تجار الحمزاوى — وهو شىء كثير ومبالغ عظيمة — فان الباشا منع من ذكرها . وقال « لأى شىء يؤخرون فى حواليتهم وحواصلهم النقود ولا يتجرون فيها » !

واتفق لتاجر من أهل سوق أمير الجيوش أنه ذهب من حاصله — من حواصل الخان — ثمانية آلاف فرانسة ، فلم يذكرها ، ومات قهرا . وكذلك ضاع لأهل خان الحمزاوى من صرر الأموال والنقود والودائع والرهونات والمصاغ والجوهر — مما يرهنه النساء على ثمن ما يشترونه من التجار ، والتفاصيل والمقصبات ، أو على ما يتأخر عليهم من الأثمان — ما لايدخل تحت الحصر ، ويستحيا من ذكره . وضاع لرجل يبيع الفسيخ والبطارخ تجاه الحمزاوى — من حانوته — أربعة آلاف فرانسة فلم يذكرها ... وأمثال ذلك كثير .

وانقضى شهر رمضان ، والناس فى أمر مريج ، وخوف وانزعاج ، وتوقع المكروه . ولم ينزل الباشا من القلعة بطول الشهر . وذلك على خلاف عادته ، فانه لايقدر على الاستقرار بمكان أياما . وطبيعته الحركة ... حتى فى الكلام .

وكبار العساكر ، والسيد محمد المحروقى ، ومن يصحبه من المشايخ ، ونقيب الأشراف ، مستمرون على الطلوع والنزول فى كل يوم وليلة . وللمتقيدين بالمنهوبين ديوان خاص . وفرق الباشا كساوى العيد على أربابها .

ولم يظهر فى هذه القضية شخص معين ، والكثير

من العساكر الذين يمشون مع الناس فى الأسواق ، يظهرون الخلاف والسخط ، ويظهر منهم التعدى ، ويخطفون عمائم الناس والنساء جهارا ، ويتوعدون الناس بعودهم فى النهب ... وكأنما بينهم وبين أهل البلدة عداوة قديمة ، أو ثارات يخلصونها منهم ! وفيهم من يظهر التأسف والتندم واللوم على المعتدين ، ويسفه رأيهم ... وهو المحروم الذى غاب عن ذلك !

وبالجملة : فكل ذلك تقادير الهية ، وقضايا سماوية ، ونقمة حلت بأهل الأقليم وأهله من كل ناحية .

نسأل الله العفو السلامة ، وحسن العاقبة .

ومما اتفق أن بعض الناس زاد بهم الوهم ، فنقل ماله من حانوته أو حاصله — الكائن ببعض الوكائل أو الخانات — الى منزله ، أو حرز آخر ... فسرقها السراق ، وحانوته أو حاصله لم يصبه ما أصاب غيره . وتعدد نظير ذلك لأشخاص كثيرة . وذلك من فعل أهل البلدة : يراقبون بعضهم بعضا ، ويداورونهم فى أوقات الغفلات فى مثل هذه الحركات !

ومنهم من اتهم خدمه وأتباعه ، وتهددهم ، وشكاهم الى حكام الشرطة ، ويغرم مالا على ذلك أيضا ... وهم بريئون ، ولا يفيده الا ارتكاب الاثم والفضيحة ، وعداوة الأهل والخدم ، وزيادة الغرم .

وغالب ما بأيدى التجار ، أموال الشركاء والودائع والرهونات ، ويطالبه أربابها . ومنهم قليل الديانة ، وذهب من حانوته أشياء ، وبقى أشياء ، فادعى ضياع الكل ... لقوة الشبهة !

شوال

غرته (٦ سبتمبر ١٨١٥ م) :

وهو يوم عيد الفطر ، وكان فى غاية البرودة والخمول ... عديم البهجة من كل شىء : لم يظهر فيه من علامات الأعياد الا فطر الصائمين ، ولم يغير أحد ملبوسه ، بل ولا فصل ثيابا مطلقا ، ولا شيئا جديدا . ومن تقدم له ثوب ، وقطعه وفصله فى شعبان ، تأخر عند الخياط — مرهونا على مصاريفه ولوازمه — لتعطل جميع الأسباب من بطانة وعقادة وغيرها ... حتى أنه اذا مات ميت ، لم يدرك أهله كفنه الا بمشقة عظيمة !

وكسد فى هذا العيد سوق الخياطين وما أشبههم ، من لوازم الأعياد ، ولم يعمل فيه كعك ولا شريك ولا سمك مملح ، ولا نقل . ولم يخرجوا الى الجبانات والمدافن أيضا كعادتهم ، ولا نصبوا خياما على المقابر . ولم يحسن فى هذه الحادثة الا امتناع هذه الأمور ... وخصوصا خروج النساء الى المقابر ، فانه لم يخرج منهن الا بعض حرافيشهن ، على تخوف ، ووقع لبعضهن من العسكر ما وقع عند باب النصر والجامع الأحمر .

٣ منه (٨ سبتمبر ١٨١٥ م) :

نزل الباشا من القلعة من باب الجبل وهو فى عدة من عسكر الدلاة والأتراك الخيالة والمشاة ، وصحبته عابدين بيك ، وذهب الى ناحية الآثار ، فعيد على يوسف باشا — المنفصل عن الشام — لأنه مقيم هناك لتغيير الهواء بسبب مرضه . ثم عدى الى الجيزة وبات بها عند صهره محرم بيك . ولما أصبح ، ركب السفائن وانحدر الى شبرا ، وبات بقصره ، ورجع الى منزله بالأزبكية ، ثم طلع الى القلعة .

٨ منه (١٣ سبتمبر ١٨١٥ م) :

عمل ديوانا ، وجمع المشايخ المتصدرين ، وخاطبهم بقوله : « انه يريد أن يفرج عن حصص الملتزمين ، ويترك لهم وساياهم يؤجرونها ويزرعونها لأنفسهم ، ويرتب نظاماً لأجل راحة الناس . وقد

أمر الأفندية — كتاب الروزنامة — بتحرير دفاتر ، وأمهلهم اثنى عشر يوما يحررون فى ظرفها الدفاتر علـى الوجه المرضى » . فأثنـوا عليه خـيرا ، ودعوا له .

فقال الشيخ الشنوانى : « ونرجو من أفندينا أيضا الافراج عن الرزق الأحباسية كذلك » . فقال : « كذلك ننظر فى محاسـبات الملتزمين ، ونحررها على الوجه المرضى أيضـا ... ومن أراد منهم أن يتصرف فى حصته ، ويلتزم بخلاص ما تحرر عليها من المال الميرى لجهة الديوان من الفلاحين بموجب المساحة والقياس ، صرفناه فيها ... والا أبقاها على طرفنا ويقبض فائظه الذى يقع عليـه التحرير من الخزينة نقدا وعدا » . فدعوا له أيضا ، وسكتوا .

فقال لهم : « تكلموا ... فانى ما طلبتـكم الا للمشـاورة معكم » . فلم يفتح الله عليهم بكلمة يقولها أحدهم غير الدعاء له .

على أن الكلام ضائع ، لأنها حيل ومخادعة تروج على أهل الغفلات ، ويتوصل بها الى ابراز ما يرومه من المرادات .

وعند ذلك انفض المجلس ، وانطلقت المبشرون على الملتزمين بالبشائر ، وعود الالتزام لتصرفهم ، ويأخـذون منهم البقاشيش ... مـع أن الصورة معلولة ، والكيفيـة مجهولة . ومعظم السبب فى ذكره ذلك أن معظم حصـص الالتزام كان بأيدى العسـاكر وعظمـائهم وزوجاتهم ، وقد انحرفت طباعهم ، وتكدرت أمزجتهم بمنعهم عنه ، وحجزهم عن التصرف ، ولم يسـهل بهم ذلك : فمنهم من كظم غيظه وفى نفسه ما فيها ، ومنهم من لم يطق الكتمان وبارز بالمخالفة والتسلط على من لا جناية عليه ... فلذلك الباشا أعلن فى ديوانه بهذا الكلام بمسمع منهم ، لتسكن حدتهم ، وتبرد حرارتهم الى أن يتم أمر تدبيره معهم .

وفيه : وصلت هجـانة وأخبار ومكاتبات من الديار الحجازية بوقوع الصلح بين طوسون باشا وعبد الله بن مسعود الذى تولى بعـد موت أبيه كبيرا على الوهابية ، وأن عبـد الله المذكور ترك الحروب والقتـال ، وأذعن للطاعة وحقن الدماء . وحضر من جماعة الوهابية نحو العشرين نفرا من الأنفار الى طوسون باشا ، ووصل منهم اثنان الى مصر ... فكأن الباشا لم يعجبه هـذا الصلح ، ولم يظهر عليه علامات الرضا بذلك ، ولم يحسن نزل الواصلين .

ولمـا اجتمعـا به ، وخاطبهما ... عاتبهما على المخالفة ، فاعتذرا ، وذكرا أن الأمير مسعود المتوفى كان فيه عناد وحدة مزاج ، وكان يريد الملك واقامة الدين وأما ابنه الأمير عبد الله ، فانه لين الجانب والعريكة ، ويكره سفك الدماء ، على طريقة سلفه الأمير عبد العزيز المرحوم ، فانه كان مسالما للدولة ، حتى أن المرحوم الوزير يوسف باشا حين كان بالمدينة كان بينه وبينه غاية الصداقة، ولم يقع بينهما منازعة ولا مخالفة فى شيء . ولم يحصل التفاقم والخلاف الا فى أيام الأمير مسعود ، ومعظم الأمـر للشريف غالب ... بخـلاف الأمـير عبد الله ، فانه أحسن السير ، وترك الخـلاف ، وأمن الطرق والسـبل للحجاج والمسافرين ... ونحـو ذلك من الكلمات والعبارات المستحسنات .

وانقضى المجلس ، وانصرفا الى المحل الذى أمرا بالنزول فيـه ، ومعهمـا بعض أتـراك ملازمون لصحبتهمـا مع أتبـاعهما فى الركوب والذهاب والاياب . فانه أطلق لهما الاذن الى أى محل أراداه ... فكانا يركبان ويمران بالشوارع بأتباعهما ومن يصحبهما ، ويتفرجان على البلدة وأهلها ، ودخـلا الى الجامع الأزهر فى وقت لم يكن به أحـد من المتصدرين للاقراء والتدريس ، وسألوا عن أهل مذهب الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، وعن

الكتب الفقهية المصنفة فى مذهبه ، فقيل انقرضوا من أرض مصر بالكلية . واشتريا نسخا من كتب التفسير والحديث ، مثل : الخازن ، والكشاف ، والبغوى ، والكتب الستة المجمع على صحتها ، وغير ذلك .

وقد اجتمعت بهما مرتين ، فوجدت منهما أنساً وطلاقة لسان ، واطلاعا وتضلعا ومعرفة بالأخبار والنوادر . ولهما من التواضع وتهذيب الأخلاق ، وحسن الأدب فى الخطاب ، والتفقه فى الدين ، واستحضار الفروع الفقهية ، واختلاف المذاهب فيها ... ما يفوق الوصف . واسم أحدهما عبد الله والآخر عبد العزيز ، وهو الأكبر حسا ومعنى .

١٩ منه (٢٤ سبتمبر ١٨١٥ م) :

خرجوا بالمحمل الى الحصوة — خارج باب النصر — وشقوا به من وسط المدينة ، وأمير الركب شخص من الدلاة ، يسمى أوزون أوغلى ، وفوق رأسه طرطور الدالاتية . ومعظم الموكب من عساكر الدلاة ، وعلى رءوسهم الطراطير السود ... بذاتهم المستبشعة . وقد عم الأقاليم المسخ فى كل شىء : فقد تغص الطبيعة ، وتتكدر النفس اذا شاهدت ذلك أو سمعت به . وقد كانت لنضارة المواكب السالفة فى أيام المصريين ، ونظامها وحسنها وترتيبها وفخامتها وجمالها وزينتها ، التى لم يكن لها نظير فى الربع المعمور ... يضرب بها المثل فى الدنيا كما قال قائلهم فيها :

مصر السعيدة مالها من مثيل
فيها ثلاثة من الهنا والسرور
مواكب السلطان ، وبحر الوفا ،
ومحمل الهادى نهار يدور

فقد فقدت هذه الثلاثة فى جملة المفقودات .

٢٣ منه (٢٨ سبتمبر ١٨١٥ م) :

وصل قابجى ، وعلى يده تقرير ولاية مصر لمحمد على باشا على السنة الجديدة . فعملوا لذلك الواصل موكبا من بولاق الى القلعة ، وضربوا مدافع وشنكا وبنادق .

ذو القعدة

١٦ منه (٢٠ اكتوبر ١٨١٥ م) :

سافر الباشا الى الاسكندرية ، وأخذ صحبته عابدين بيك ، واسماعيل باشا ولده ، وغيرهما من كبرائهم وعظمائهم . وسافر أيضا نجيب أفندى وسليمان أغا ، وكيل دار السعادة سابقا — تابع صالح بيك المصرى المحمدى — الى دار السلطنة . وأصحب الباشا الى الدولة وأكابرها ، الهدايا من الخيول والمهارى والسروج المكللة بالذهب واللؤلؤ والمخيش ، وتعابى الأقمشة الهندية المتنوعة ، من الكشمير والمقصبات والتحف ، ومن الذهب المضروب السكة : أربعة قناطير ، ومن الفضة الثقيلة فى الوزن والعيار عدة قناطير ، ومن السكر المكرر مرارا ، وأنواع الشراب ... خافاه فى القدور الصينى ، وغير ذلك .

وفيه : وردت الأخبار بوصول طوسون باشا الى الطور ، فهرعت أكابرهم وأعيانهم الى ملاقاته ، وأخذوا فى الاهتمام واحضار الهدايا والتقادم ، وركبت الخوندات والنساء والستات ، أفواجا أفواجا ، يطلعن الى القلعة ليهنين والدته بقدومه .

غايته (٣ نوفمبر ١٨١٥ م) :

وصل طوسون باشا الى السويس ، فضربوا مدافع اعلاماً بقدومه . وحضر نجيب أفندى راجعا من الاسكندرية لأجل ملاقاته لأنه قبى كتخداه اليوم أيضا عند الدولة ، كما هو لوالده .

ذو الحجة

٤ منه (٧ نوفمبر ١٨١٥ م) :

نودى بزينة الشارع الأعظم لدخول طوسون باشا ... سرورا بقدومه .

٥ منه (٨ نوفمبر ١٨١٥ م) :

احتفل الناس بزينة الحوانيت بالشارع ، وعملوا له موكبا حافلا . ودخل من باب النصر ، وعلى رأسه الطلخان وشعار الوزارة ، وطلع الى القلعة ، وضربوا فى ذلك اليوم مدافع كثيرة وشنكا وحراقات .

١٥ منه (١٨ نوفمبر ١٨١٥ م) :

سافر طوسون باشا المذكور الى الاسكندرية ليراه أبوه ، ويسلم هو عليه ، وليرى هو ولدا له ولد فى غيبته يسمى عباس بيك ، أصحبه معه جده مع حاضنته وسنه دون السنتين ... يقال ان جده قصد ارساله الى دار السلطنة ، فلم يسهل بأبيه ذلك ، وشق عليه مفارقته ، وخصوصا كونه لم يره . وسافر صحبة طوسون باشا نجيب أفندى عائدا الى الاسكندرية .

٢٠ منه (٢٣ نوفمبر ١٨١٥ م) :

حضر طوسون باشا الى مصر راجعا من الاسكندرية فى تطريدة ، ومعه ولده ... فكانت مدة غيبته ، ذهابا وايابا ، ثمانية أيام . فطلع الى القلعة ، وصار ينزل الى بستان بطريق بولاق ظاهر التبانة — عمره كتخدا بيك ، وبنى به قصرا — فيقيم به غالب الأيام التى أقامها بمصر .

وانقضت السنة وما تجدد فيها من استمرار المبتدعات والمكوس والتحكير ، واهمال السوقة والمتسببين ... حتى عم غلو الأسعار فى كل شىء ، حتى بلغ سعر كل صنف عشرة أمثال سعره فى الأيام الخالية ... مع الحجر على الايراد وأسباب المعاش فلا يهنأ بعيش فى الجملة الا من كان مكاسا أو فى خدمة من خدم الدولة ، مع كونه على خطر . فانه وقع لكثير ممن تقدم فى منصب أو خدمة : أنه حوسب وأهين ، وألزم بما رافعوه فيه — وقد استهلكه فى نفقات نفسه وحواشيه — فباع ما يملكه واستدان ، وأصبح ميئوسا مديونا .

وصارت المعايش ضنكا ، وخصوصا الواقع فى اختلاف المعاملات والنقود والزيادة فى صرفها وأسعارها ، واحتجاج الباعة والتجار والمتسببين بذلك ، وبما حدث عليها من مال المكس ... مع طمعهم أيضا وخصوصا سفلة الأسواق ، وبياعى الخضارات ، والجزارين ، والزياتين ... فانهم يدفعون ما هو مرتب عليهم للمحتسب مياومة ومشاهرة ، ويخلصون أضعافه من الناس ، ولا رادع لهم ، بل يسعرون لأنفسهم .

حتى أن البطيخ فى أوان كثرته تباع الواحدة التى كانت تساوى نصفين ، بعشرين وثلاثين . والرطل من العنب الشرقاوى ، الذى كان يباع فى السابق بنصف واحد ، يبيعونه يوما بعشرة ويوما باثنى عشر ، ويوما بثمانية .. وقس على ذلك الخوخ والبرقوق والمشمش . وأما الزبيب والتين واللوز والبندق والجوز والأشياء التى يقال لها اليميش ، التى تجلب من بلاد الروم ، فبلغت الغاية فى الثمن ... بل قد لا توجد فى أكثر الأوقات . وكذلك ما يجلب من الشام ، مثل : الملبن ، والقمر الدين ، والمشمش الحموى ، والعناب ، وكذلك الفستق والصنوبر ، وغير ذلك مايطول شرحه ، ويزداد بطول الزمان قبحه .

* * *

ومات فى هذه السنة العلامة الأوحد ، والفهامة الأمجد ، محقق عصره ، ووحيد دهره ... الجامع لأشتات العلوم ، والمنفرد بتحقق المنطوق

والمفهوم ، بقية الفصحاء والفضلاء المتقدمين ، والمتميز عن المتأخرين : الشيخ محمد بن أحمد ابن عرفة ، الدسوقى المالكى .

ولد ببلدة دسوق ، من قرى مصر ، وحضر الى مصر ، وحفظ القرآن ، وجوده على الشيخ محمد المنير . ولازم حضور دروس الشيخ على الصعيدى ، والشيخ الدردير ، وتلقى الكثير من المعقولات عن الشيخ محمد الجناجى الشهير الشافعى — وهو مالكى — ولازم الوالد حسن الجبرتى مدة طويلة ، وتلقى عنه ، وبواسطة الشيخ محمد بن اسماعيل النفراوى ، علم الحكمة والهيئة والهندسة وفن التوقيت ، وحضر عليه أيضا فى فقه الحنفية ، وفى المطول وغيره ... برواق الجبرت بالأزهر ، وتصدر للاقراء والتدريس ، وافادة الطلبة .

وكان فريدا فى تسهيل المعانى ، وتبيين المبانى ... يفك كل مشكل بواضح تقريره ، ويفتح كل مغلق برائق تحريره ، ودرسه مجمع أذكياء الطلاب ، والمهرة من ذوى الأفهام والألباب .. مع لين جانب وديانة ، وحسن خلق ، وتواضع ، وعدم تصنع واطراح تكلفه ... جاريا على سجيته : لا يرتكب ما يتكلفه غيره من التعاظم وفخامة الألفاظ . ولهذا كثر الآخذون عليه ، والمترددون اليه .

وله تأليفات واضحة العبارات ، سهلة المأخذ ، ملتزمة بتوضيح المشكل . فمن تآليفه : حاشية على مختصر السعد على التلخيص ، وحاشية على شرح الشيخ الدردير على سيدى خليل فى فقه المالكية ، وحاشية على شرح الجلال المحلى على البردة ، وحاشية على الكبرى للامام السنوسى ، وحاشية على شرحه للصغرى ، وحاشية على شرح الرسالة الوضعية ... هذا ماعنى بجمعه وكتابته ، وبقى مسودات لم يتيسر له جمعها .

ولم يزل على حالته فى الافادة والالقاء والافتاء ، وخطه حسن ، وخلقه أحسن ... الى أن تعلل وتوفى يوم الأربعاء الحادى والعشرين من شهر ربيع الثانى .

وخرجوا بجنازته من درب الدليل ، وصلى عليه بالأزهر فى مشهد حافل ، ودفن بتربة المجاورين بالمدفن الذى بداخل المحل الذى يسمى بالطاولية .

وقام بكلفة تجهيزه وتكفينه ، ومصاريف جنازته ومدفنه ... الجناب المكرم ، السيد محمد المحروقى ، وكذلك مصاريف المأتم بمنزله وأرسل من قيده لذلك من أتباعه ... بادارة المطبخ ولوازمه من الأغنام والسمن والأرز والعسل والحطب والفحم والقهوة ، وجميع الاحتياجات للمقرئين ، ومن يأتى لتعزية أولاده ... جزاه الله خيرا . واستمر اجراؤه لذلك فى الثلاث جمع المعتادة بالمنزل ، وما يعمل فى صبح يوم الجمعة بالمدفن من الكعك والشريك الذى يفرق على الفقراء والحاضرين والتربية والخدمة .

وقد رثاه أمثل من عنه أخذ ، وأكمل من له تتلمذ : صاحبنا العلامة ، وصديقنا الفهامة ، المنفرد الآن بالعلوم الحكمية ، والمشار اليه فى العلوم الأدبية ... صاحب الانشاء البديع ، والنظم الذى هو كزهر الربيع : الشيخ حسن العطار ، حفظه الله من الأغيار ... بقوله شعرا :

أحاديث دهر قد ألم فأوجعا ... وحل بنادى جمعنا فتصدعا
لقد صال فينا البين أعظم صولة ... فلم يخل من وقع المصيبة موضعا
وجاءت خطوب الدهر تترى فكلما ... مضى حادث يعقبه آخر مسرعا
وحل بنا ما لم تكن فى حسابه ... من الدهر ما أبكى العيون وأفزعا
خطوب زمان لو تمادى أقلها ... بشامخ رضوى أو ثبير تضعضعا

وأصبح شأن الناس مابين عائد
مريضا وثان للحبيب مشيعا
لقد كان روض العيش بالأمن يانعا
فأضحى هشيما ظله متقشعا
أيحسن ألا يبذل الشخص مهجة
ويبكى دما .. ان أفنت العين أدمعا
وقد سار بالأحباب فى حين غفلة
سرير المنايا عاجلا متسرعا
وفى كل يوم روعة بعد روعة
فلله ما قاسى الفؤاد وروعا !
عزاء بنى الدنيا بفقد أئمة
لكأس مرير الموت كل تجرعا
يمينا ... لقد جل المصابَ بشيخنا الـ
دسوقى وعاد القلب بالهم مترعا
وشابت قلوب ، لا مفارق ، عند ما
تنكرت الأسماع صوت الذى نعى
فللناس عذر فى البكاء وللأسى
عليه وأما فى السواء فتجزعا
وكيف وقد ماتت علوم بفقده
لقد كان فيها جهبذيا سميذعا
فمن بعده يجلو دجنّة شبهة
ويكشف عن ستر الدقائق مقنعا
وان ذو اجتهاد قد تعثر فهمه
فياليت شعرى من يقول له : لعا ؟
يقرر فى فن البيان بمنطق
بديع معانيه .. يتوج مسمعا
وسار مسير الشمس غر علومه
ففى كل أفق أشرقت فيه مطلعا
وأبقى بتأليفاته بيننا هدى
بها يسلك الطلاب للحق مهيعا
وحل بتحريراته كل مشكل
فلم يبق للاشكال فى ذاك مطمعا
فأى كتاب لم يفكّ ختامه
اذا ما سواه من تعاصيه ضيعا ؟
ومن يبتغِ تعداد حسن خصاله
فليس ملوما ان أطال وأشبعا
فللصدق عون للمقال فمن يقل
أصاب مكان القول فيه موسعا
تواضع للطلاب فانتفعوا به
على أنه بالحلم زاد ترفعا
وكان حليما واسع الصدر ماجدا
تقيا تقيا زاهدا متورعا
سعى فى اكتساب الحمد طول حياته
ولم نره فى غير ذلك قد سعى
ولم تلهه الدنيا بزخرف صورة
عن العلم كيما أن تغر وتخدعا
لقد صرف الأوقات فى العلم والتقى
فما ان لها يا صاح أمس مضيعا
فقدناه لكن نفعه الدهر دائم
وما مات من أبقى علوما لمن وعى
فجوزى بالحسنى وتوج بالرضى
وقوبل بالاكرام ممن له دعا

* * *

ومات الأستاذ الفريد ، واللوذعى المجيد ، الامام العلامة ، والنحرير الفهامة ، الفقيه النحوى ، الأصولى الجدلى المنطقى : الشيخ محمد المهدى الحفنى . ووالده من الأقباط ، وأسلم هو صغيرا دون البلوغ على يد الشيخ الحفنى ، وحلت عليه أنظاره ، وأشرقت عليه أنواره ، وفارق أهله وتبرأ منهم ، وحضنه الشيخ ، ورباه وأحبه ، واستمر بمنزله مع أولاده ، واعتنى بشأنه ، وقرأ القرآن .

ولما ترعرع ، اشتغل بطلب العلم ، وحفظ أبا شجاع ، وألفية النحو ، والمتون . ولازم دروس الشيخ ، وأخيه الشيخ يوسف ، وغيرهما من

أشياخ الوقت مثل : الشيخ العدوى ، والشيخ عطية الأجهورى ، والشيخ الدردير ، والبيلى ، والجمل ، والخرشى ، وعبد الرحمن المقرىء ، والشرقاوى ، وغيرهم .

واجتهد فى التحصيل ليلا ونهارا ، ومهر وأنجب ، ولازم فى غالب مجالس الذكر عن الشيخ الدردير — بعد وفاة الشيخ الحفنى — وتصدر للتدريس فى سنة تسعين ومائة وألف .

ولما مات الشيخ محمد الهلباوى سنة اثنتين وتسعين ، جلس مكانه بالأزهر ، وقرأ شرح الألفية لابن عقيل ، ولازم الالقاء ، وتقرير الدروس ... مع الفصاحة وحسن البيان والتفهيم ، وسلاسة التعبير ، وايضاح العبارات ، وتحقيق المشكلات . ونما أمره ، واشتهر ذكره ، وبعد صيته . ولم يزل أمره ينمو ، واسمه يسمو ، مع حسن السمت ، ووجاهة الطلعة ، وجمال الهيئة ، وبشاشة الوجه ، وطلاقة اللسان ، وسرعة الجواب ، واستحضار الصواب فى ترداد الخطاب ، ومسايرة الأصحاب .

وصاهر الشيخ محمدا الحرير الحنفى ، على ابنته ، وأقبلت عليه الدنيا ، وتداخل فى الأكابر ، ونال منهم حظا وافرا بحسن معاشرته ، وحلاوة ألفاظه ، وتنميق كلماته . ويقضى أشغاله وقضاياه منهم ، ومن حواشيهم وحريماتهم ، ويخاطب كلا بما يليق به ويناسبه . واتحد باسماعيل بيك كتخدا حسن باشا الجزايرلى ، وعاشره وأكثر من التردد عليه . فلما أتته ولاية مصر ، واستقر بالقلعة ، واظب على الطلوع والنزول الى القلعة ، ويبيت عنده غالب الليالى ، وأنعم عليه بالخلع والعطايا والكساوى ، ورتب له وظائف فى الضربخانة والسلخانة والجوالى .

ووقع فى ولايته الطاعون الذى أفنى غالب أمراء مصر وأهلها ، وذلك سنة خمس ومائتين وألف ... فاختص بما أحبه مما انحل عن الموتى من اقطاعات ورزق وغيرها ، وزادت ثروته ورغبته وسعيه فى أسباب تحصيل الدنيا ، وعانى الشركات والمتاجر فى كثير من الأشياء مثل : الكتان والقطن والأرز ، وغير ذلك من الأصناف . والتزم بعدة حصص بالبحيرة مثل شابور ، وخلافها بالمنوفية والجيزة والغربية ، وابتنى دارا عظيمة بالأزبكية ، بناحية الرويعى ، بما يقابلها من الجهة الأخرى عند الساباط .

ولما حضرت الفرنساوية الى الديار المصرية ، وخافهم الناس ، وخرج الكثير من الأعيان وغيرهم — هاربا من مصر — تأخر المترجم عن الخروج ، ولم ينقبض كغيره عن المداخلة فيهم ... بل اجتمع بهم ، وواصلهم ، وانضم اليهم وسايرهم ، ولاطفهم فى أغراضهم ، وأحبوه وأكرموه وقبلوا شفاعاته ، ووثقوا بقوله ... فكان هو المشار اليه فى دولتهم ، مدة اقامتهم بمصر ، والواسطة العظمى بينهم وبين الناس ، فى قضاياهم وحوائجهم ، وأوراقه وأوامره نافذة عند ولاة أعمالهم ، حتى لقب عندهم وعند الناس ، بكاتم السر . ولما رتبوا الديوان الذى رتبوه لاجراء الأحكام بين المسلمين فى قضاياهم ودعاويهم ، كان هو المشار اليه فيه ، وخدمة الديوان الموظفون فيه تحت أوامره . واذا ركب أو مشى يمشون حوله وأمامه ، وبأيديهم العصى يوسعون له الطريق .

وراج أمره فى أيامهم جدا ، وزاد ايراده وجمعه ، واحتوى بلادا وجهات وأرزاقا ، وأقاموه وكيلا عنهم فى أشياء كثيرة ، وبلاد وقرى : يجبى اليه خراجها ، ويصرف عنها ما يصرفه ، ويأتيه الفلاحون منها ومن غيرها بالهدايا والأغنام والسمن والعسل ... وما جرت به العادة ، ويتقدمون اليه بدعاويهم وشكاويهم ، ويفعل بهم ما كان يفعله أرباب الالتزامات من الحبس والضرب وأخذ المصالح . وصار له أعوان وأتباع وخدم من وجهاء الناس ومن دونهم : يرسل منهم لجبى

الأموال من القرى، وفى مراسلاته فى القضايا العامة ، ويبعث الأمان للفارين والهاربين والمتحوفين من الفرسيس ... الراحلين الى بلاد الشام ، والمختفين بالقرى من الأجناد وغيرهم ، فيرسل اليهم أوراقا بالعود الى أوطانهم . اما باستدعائهم وطلبهم ذلك ، واما من باب الشفقة والمعروف منه عليهم ، ويحمى دورهم وحريمهم ، ويمانع عنهم فى غيابهم ، ويكون له المنة العظيمة التى يستحق بها الجوائز الجزيلة .

وبالجملة فكان بوجوده وتصدره فى تلك الأيام النفع العام سد بعقله ثقوبا واسعة وخروقا ، وداوى برأيه جروحا وفتوقا ... لا سيما أيام الهيازع والخصومات والتنازع ، وما يكدر طباع الفرنساوية من مخارق الرعية ، فيتلافاه بمراهم كلماته ، ويسكن حدتهم بملاطفاته .

ولما مضت أيامهم ، وتنكست أعلامهم ، وارتحلوا عن الأقطار المصرية ، ووردت الدولة العثمانية ... كان المترجم أعظم المتصدرين فى مقابلتهم ، وأوجه الوجهاء فى مخاطبتهم ومكالمتهم . ولم يتأخر عن حالته فى ظهوره ، ولازمهم فى عشياته وبكوره ، وبهرهم بتحيله واحتياله ، واسترهبهم بسحره وحباله . واتحد بشريف أفندى الدفتردار ، وواظبه الليل والنهار ، وتمم معه أغراضه فى جميع تعلقاته ، وتقرير وظائفه والتزاماته ومسموحاته ، واستجد غير ذلك مما ينتقيه من الديوان ، وكل ذلك من غير مقابلة ولا حلوان .

وتزوج بعدة زوجات ، ورزق أولادا ذكورا واناثا ... فمنهم الشيخ محمد أمين ، وهو من ابنة الشيخ الحريرى وتمذهب حنفيا على مذهب جده . وآخر يسمى محمد تقى الدين ... توفى فى حياة والده — من نحو خمس عشرة سنة أو أكثر — عن نحو عشرين سنة ، وكان مالكيا باشارة أبيه والشيخ عبد الهادى ، وتوفى بعد أبيه ، وكان شافعى المذهب ، وعقدوا له درسا بعد موت أبيه فلم تطل أيامه .

وزوج أولاده وبناته ، وعمل لهم مهمات وأفراحا ... استجلب بها هدايا من أعيان المسلمين والنصارى والنساء الأكابر والتجار وغيرهم ! ثم احترقت داره التى أنشأها بالأزبكية فى حرابة الفرنساوية مع العثمانية والمصريين — عند مجى الوزير المرة الأولى — فشرع فى بناء دار عند باب الشعرية ، ولم يتممها ... بل تركها وأهملها وهى منهدمة ، ولم يحدث بها شيئا من الأبنية ثم انه تزوج بابنة الشيخ أحمد البشارى ، وكانت تحت بعض الأجناد فى دار جهة التبانة — بالقرب من سوق السلاح وسويقة العزى — يذهب اليها فى بعض الأحيان .

واشترى دارا عظيمة بناحية الموسكى — وكانت لبعض عتقى بقايا الأمراء الأقدمين — وهى دار واسعة الأرجاء ، ذات رحبتين متسعتين والرحبة الخارجة ، التى يسلك اليها من باب الزقاق الكبير ، على ظهر قنطرة الخليج التى تعرف الآن بقنطرة الحفناوى لقربها من داره ... وبهذه الدار مجالس وقيعان متسعة ، ومن جملتها قاعة عظيمة ذات ثلاث لواوين ، مفروشة أرضها وحيطانها بأنواع الرخام الملون والقيشانى ، مطلة على بستان عظيم ، مغروس بأنواع الأشجار ... وهو أيضا من حقوق الدار . وتنتهى حدود هذه الدار الى حارة المناصرة ، والى كوم الشيخ سلامة وحارة الافرنج من الناحية الأخرى .

ولما عمل بزارها ، وعقد عقد شرائها من أصحابها ، ودفع لهم بعض دراهم — يقال لها العربون — وكتب حجة المشترى وسكنها ...

أخذ يوعدهم بدفع الثمن ، ويماطلهم كعادته فى دفع الحقوق ! ثم تركهم وسافر الى دمياط ، وجعل يطوف البلاد التى تحت التزامه وغيرها ، مثل المحلة الكبيرة وطندتا والأسكندرية ، وغاب نحو الخمس سنوات ، ومات فى غيبته بعض أصحاب الدار التى اشتراها منه ، وبقى من مستحقيها امرأة ... فكانت تتظلم وتشتكى ، وتراسله ، فأعرضت أمرها لكتخدا بيك والباشا ... الى أن حضر الى مصر ، وقبضت منه — وهى مطلة — ما أمكنها من ثمن استحقاقها .

وبنى ابنه المسمى بأمين ، بقطعة من أرضها ، دارا جهة حارة المناصرة على البستان ، ومختلطة به ونافذة اليه ، وجعل لها بابا من المناصرة ينفذ منه الى الأزبكية وقنطرة الأمير حسين ، أنفق عليها جملة كبيرة من المال ... بحيث أن المرخمين أقاموا فى شغلهم نحو أربع سنوات ، خلاف من عداهم من أرباب الأشغال وتجهيز الأدوات ، من الأخشاب وغيرها من أنواع الاحتياجات . ويتعاطى ابنه المذكور التجارة أيضا والشركة فى كثير من الأصناف ... خلاف الايراد الواسع الخاص به .

ولما رجع المترجم من سرحته الى مصر ، أقام مصاحبا ليسير الخمول ، وتقيد لالقاء الدروس بالأزهر أشهرا ، ويعانى مع ذلك الاشتغال والتولع بعلم الصنعة ، ومطالعة ما صنف فيها ، ويدبر مع بعض أصحابه ، فى دورهم ، باغرائه من مالهم ... الى أن بدت الوحشة بين الباشا والسيد عمر مكرم ، فتولى كبر السعى عليه سرا ، هو وباقى الجماعة — حسدا وطمعا — ليخلص لهم الأمر دونه ، حتى أوقعوا به كما تقدم ذكر ذلك فى حوادث سنة أربع وعشرين .

وفى أثناء هذه الحادثة ، طلب من الباشا اذنا فى قبض استحقاقه من ثمن غلال الأنبار فى مدة غيابه ، فأمر بدفعها له من الخزينة نقدا بالثمن الذى قدره لنفسه ، وهو خمسة وعشرون كيسا .

وفى اليوم الذى خرج فيه السيد عمر ، أنعم عليه الباشا أيضا بنظر وقف سنان باشا ، ونظر ضريح الشافعى — بعرضه له بطلب النظرين — وكانا تحت يد السيد عمر يتحصل منهما مال كثير . وعند ذلك رجع الى حالته الأولى التى كان قد انقبض عن بعضها : من كثرة السعى والترداد على الباشا وأكابر دولته ... فى القضايا والشفاعات ، وأمور الالتزام والفائض والرزق والأطيان ، وما يتعلق به فى بلاد الصعيد والفيوم ، ومحاسبة الشركاء .

وازدحمت عليه الناس ، وشرع يقرأ بالأزهر . فاذا حضر ، اجتمع حول درسه طابق من الناس ، فاذا فرغ تكبكب عليه أرباب الدعاوى والفتاوى ، فيكتب لهذا ، ويوعد ذاك ، ويسوف آخر .

يذهب من يريد أن يذهب معه لحاجته ، فيقطع نهاره وليله طوافا وسعيا ، وذهابا وايابا ، لا يستقر بمكان ، ولا يعثر به صاحب حاجة الا نادرا ولا يبيت فى بيت من بيوته الا فى الجمعة مرة أو مرتين ، ويتفق مجيئه الى داره بعد العشاء الأخير — وغالب لياليه فى غيرها — واذا غاب لا يعلم طريقه الا بعض أتباعه . فيذهب الى بولاق مثلا ، فيقيم بها عدة أيام وليال ، ينتقل فى الأماكن عند شركائه ، ومن يعاملهم من الأمناء والخصاصين ، والابزار وغيرهم ، أو يذهب الى بلده نهية بالجيزة أو غيرها ، فيقيم أياما أيضا ، وهكذا دأبه قديما . واذا قيل له فى ذلك قال : « أنا بيتى ظهر بغلتى » !

وعلى ما كان فيه من الغنى ، وكثرة الايراد والمصرف ... تراه مفقود اللذة ، عديم الراحة البدنية والنفسية . وانما ذلك لأولاده والمقيمين أيضا بداره . ويتفق أنه يذبح بداره الثلاثة أغنام

لضيوف من النساء — عند الحريم — ولا يأكل منها شيئا ، بل يتركها ويذهب الى بعض أغراضه ببولاق مثلا ، ويتغدى بالجبن الحلوم ، أو الفسيخ أو البطارخ ، ويبيت بأى مكان ... ولو على نخ أو حصير فى أى محل كان !

ولما مات الشيخ سليمان الفيومى عن زوجته ، المعروفة بالسحراوية ، وكانت من نساء القدماء : مشهورة بالغنى وكثرة الايراد ، وتزوجت بالشيخ الفيومى حماية لمالها . وكانت طاعنة فى السن فاشترت له جارية بيضاء وأعتقتها ، وزوجتها له ، ولم يدخل بها ، ومات عنهما وعن زوجته الأخرى .

ثم ماتت السحراوية المذكورة لا عن وارث ، فى غضون طنطنة المترجم ، فوضع يده على دارها ومالها وجواريها وتعلقاتها ... من عقار والتزام وغيره ، وزوج الجارية لابنه عبد الهادى ... وكأنها سقطت بمالها ونوالها فى بئر عميق !

ولما جرد الباشا ، وعين العساكر الى الحجاز ، مع ابنه طوسون باشا ... اختار أن يصحب معه من أهل العلم . فكان المتعين لذلك المترجم مع السيد أحمد الطحطاوى ، وأنعم عليه بأكياس وترحيلة للنفقة . فلما وقعت الهزيمة بالصفراء ، رجع مع الراجعين .

ولما توفى الشيخ الشرقاوى ، تعين المترجم لمشيخة الجامع . ثم انتقضت عليه وقلدوها الشيخ الشنوانى ، كما تقدم ذكر ذلك ، فلم يظهر الا الانشراح وعدم التأثر من الانكساف . وحضر اليه الشيخ الشنوانى ، فخلع عليه فروة سمور خاص ، وزاد فى اكرامه .

وبآخرة ... تملك دارا بالكعكيين — على شريطته فى مشترواته — وهى التى كانت سكن الشيخ الحفنى قبل سكناه بالموسكى ، ثم تملكها الشيخ المرحوم عبد الرحمن العريشى ، ثم ابن الحنفى ، ثم لا أدرى لمن آلت بعد ذلك — فلما أخذها شرع فى تجديدها وتعميرها ، وفتح بها مرمة واسعة ، وأحضر أخشابا كثيرة وأحجارا وبلاطا ورخاما ... وبجانبها زاوية قديمة بها مدافن ، فهدمها وأدخلها فى الدار ، وأخرج عظام الموتى من قبورهم ، ودفنهم بتربة المجاورين — كما أخبرنى عن ذلك من لفظه — وعمل مكان الزاوية قاعة لطيفة ، بخارجها فسحة يتوصل اليها من حوش الدار . وجعل مكان القبور مخابى ، وعليها طوابق ، وأسكن فى تلك الدار احدى زوجاته — وهى التى كانت تحت الشيخ الدنجيهى الدمياطى — تزوج بها بدمياط ، وأحضرها الى مصر ، وأسكنها بهذه الدار ومعها ضرتها التى كانت من شابور ، وأكثر من المبيت فيها مع استمرار العمارة .

فلما كان فى آخر المحرم ، توعك أياما ثم عوفى ، وذهب الى الحمام ، وهنأه الناس بالعافية . ومشى الى جيرانه يتحدث عندهم كعادته ، مثل الخواجا سيدى محمد ابن الحاج طاهر ، والسيد صالح الفيومى . فخرج ليلة الجمعة ، الثانى من شهر صفر ، وذهب عند عثمان بن سلامة السنارى ، فتحدث عندهم حصة من الليل وتفكهوا ، ثم قام ذاهبا الى داره ماشيا على أقدامه وصحبته صاحبنا الشيخ خليل الصفتى يحادثه حتى وصل الى داره المذكورة ، وانصرف الشيخ خليل الى داره أيضا ، ومضى نحو ساعة ... واذا بتابع الشيخ المهدى يناديه ، ويطلبه اليه . فقام فى الحين ودخل اليه فوجده راقدا فى المكان الذى نبش من القبور ، فجس يده ، فقال له النساء : « انه ميت » ، وأخبرت زوجته أنه جامعها ثم استلقى ... وفارق الدنيا عن نحو خمس وسبعين سنة !

وأرسلوا الى أولاده فحضروا ، وحملوه فى تابوت الى الدار الكبيرة بالموسكى ليلا . وشاع موته ، وجهز ، وصلى عليه بالأزهر فى مشهد حافل

جدا ، ودفن عند الشيخ الحفنى بجانب القبر . فسبحان الحى الذى لا يموت .

فرحم الله عبدا زهد فى الفانى ، وعمل لما بعده ، ونظر الى هذه الدار بعين الاعتبار ... نسأله التوفيق والقناعة وحسن الخاتمة .

وحاصل أمر المرحوم المترجم : أنه كان من فحول العلماء ، يدرس الكتب الصعاب فى المعقول والمنقول ، بالتحقيق والتدقيق ، ويقررها بالحاصل . وانتفع عليه الكثير من الطلبة ، ومنهم الآن مدرسون مشتهرون ومميزون بين نظرائهم من أهل العصر . ولو استمر على طريقة أهل العلم السابقين وبعض اللاحقين ، ولم يشتغل بالانهماك على الدنيا ، لكان نادرة عصره . وأداه ذلك الى قطع الاشتغال ، واذا شرع فى الاقراء فلا يتم الكتاب فى الغالب ، ويحضر الدرس فى الجمعة يوما أو يومين ، ويهمل كذلك . ولم يصنف تأليفا ، ولا رسالة فى فن من الفنون مع تأهله لذلك ، ولم يعان الشعر ولا النظم ، ونثره فى المراسلات ونحوها ، متوسط فى بعض القوافى السهلة ، وتقيد بقراءة الحكم لابن عطاء الله بعد العصر فى رمضان ... الثلاث سنين الأخيرة .

* * *

ومات الأستاذ العلامة ، والنحرير الفهامة ، الفقيه النبيه ، المهذب المتواضع : الشيخ مصطفى ابن محمد بن يوسف بن عبد الرحمن — الشهير بالصفوى القلعاوى — الشافعى .

ولد فى شهر ربيع الأول من سنة ثمان وخمسين ومائة وألف ، وتفقه على الشيخ الملوى والسحيمى والبراوى والحفنى ، ولازم شيخنا ، الشيخ أحمد العروسى ، وانتفع عليه ، وأذن له فى الفتيا عن لسانه ، وجمع من تقريراته ، واقتطف من تحقيقاته ، وألف وصنف ، وكتب حاشية على ابن قاسم الغزى على أبى شجاع فى الفقه ، وحاشية على شرح المطول للسعد التفتازانى على التلخيص ، وشرح شرح السمرقندى على الرسالة العضدية فى علم الوضع . وله منظومة فى آداب البحث ، وشرحها ، ومنظومة لمتن التهذيب فى المنطق وشرحها ، وديوان شعر سماه « اتحاف الناظرين فى مدح سيد المرسلين » وعدة من الرسائل فى معضلات المسائل ، وغير ذلك .

وكان سكنه بقلعة الجبل ، ويأتى فى كل يوم الى الأزهر للاقراء والافادة . فلما أمر الباشا سكان القلعة باخلائها والنزول منها الى المدينة ، فنزلوا الى المدينة ، وتركوا دورهم وأوطانهم ، نزل المترجم مع من نزل ، وسكن بحارة أمير الجيوش — جهة باب الشعرية — ولم يزل هناك حتى تمرض أياما ، وتوفى ليلة السبت ، سابع عشرى شهر رمضان ، وصلى عليه بالأزهر ، ودفن بزاوية الشيخ سراج الدين البلقينى بحارة بين السيارج ... رحمه الله تعالى . فانه كان من أحسن من رأينا سمتا وعلما ، وصلاحا وتواضعا وانكسارا ، وانجماعا عن خلطة الكثير من الناس ... مقبلا على شأنه ، راضيا مرضيا ، طاهرا نقيا ، لطيف المزاج جدا ، محبوبا للناس . عفا الله عنه ، وغفر لنا وله .

* * *

ومات الشيخ الفاضل ، الأجلّ الأمثل ، والوجيه المفضل : الشيخ حسين بن حسن كنانى ابن على المنصورى الحنفى . تفقه على خاله الشيخ مصطفى بن سليمان المنصورى ، والشيخ محمد الدلجى ، والشيخ أحمد الفارسى ، والشيخ عمر الديركى ، والشيخ محمد المصيلحى . وأقرأ فى فقه المذهب دروسا فى محل جده لأمه بالأزهر ، وسكن داره بحارة الحبانية على بركة الفيل ، مع أخيه الشيخ عبد الرحمن ، ثم انتقلا فى حوادث الفرنساوية الى حارة الأزهر .

ولما كانت حادثة (نفى) السيد عمر مكرم ، النقيب من مصر الى دمياط ، وكتبوا فيه عرضا

للدولة ، وامتنع السيد أحمد الطحطاوى من الشهادة عليه — كما تقدم — وتعصبوا عليه ، وعزلوه من مشيخة الحنفية ... قلدوها المترجم ، فلم يزل فيها حتى تمرض وتوفى يوم الثلاثاء ، تاسع عشرى المحرم ، وصلى عليه بالأزهر ودفن بتربة المجاورين. رحمه الله وايانا .

❊ ❊ ❊

ومات البليغ النجيب ، والنبيه الأريب ، نادرة الزمان ، وفريد الأوان ... أخونا ، ومحبنا فى الله تعالى ، ومن أجله : السيد اسماعيل بن سعد الشهير بالخشاب .

كان أبوه نجارا ، ثم فتح له مخزنا لبيع الخشب — تجاه تكية الكلشنى ، بالقرب من باب زويلة — وولد له المترجم ، وأخواه : ابراهيم ومحمد — وهو أصغرهما — فتولع السيد اسماعيل ، المترجم ، بحفظ القرآن ، ثم بطلب العلم . ولازم حضور السيد على المقدسى ، وغيره من أفاضل الوقت ، وأنجب فى فقه الشافعية والمعقول ، بقدر الحاجة ، وتثقيف اللسان والفروع الفقهية الواجبة والفرائض . وتنزل فى حرفة الشهادة بالمحكمة الكبيرة لضرورة التكسب فى المعاش ، ومصارف العيال . وتمسك بمطالعة الكتب الأدبية ، والتصوف والتاريخ ، وأولع بذلك ، وحفظ أشياء كثيرة من الأشعار والمراسلات ، وحكايات الصوفية ، وما تكلموا فيه من الحقائق ... حتى صار نادرة عصره فى المحاضرات والمحاورات ، واستحضار المناسبات ، والماجريات . وقال الشعر الرائق ، ونثر النثر الفائق ، وصحب — بسبب ما احتوى عليه من دماثة الأخلاق ، ولطف السجايا ، وكرم الشمائل ، وخفة الروح — كثيرا من أرباب المظاهر والرؤساء من الكتاب والأمراء ، والتجار . وتنافسوا فى صحبته ، وتفاخروا بمجالسته ، ومنهم : مصطفى بيك المحمدى ، أمير الحاج ، وحسن أفندى العربية ، وشيخ السادات ، وغيرهم من الأماثل ... فيرتاحون لمنادمته ، ويتنقلون على طيب مفاكهته ، وحسن مخاطبته ، ولطف عباراته .

وكان الوقت اذ ذاك غاصا بالأكابر والرؤساء ، وأرباب الفضائل . والناس فى بلهنية من العيش ، وأمن من المخاوف والطيش . وللمترجم ، رحمه الله ، قوة استحضار فى ابداء المناسبات بحسب ما يقتضيه حال المجلس ... فكان يجانس ويشاكل كل جليس بما يدخل عليه السرور فى الخطاب ، ويجلب عقله بلطف محادثته ، كما يفعل بالعقول الشراب .

ولما رتب الفرنساوية ديوانا لقضايا المسلمين ، تعين المترجم فى كتابة التاريخ لحوادث الديوان ، وما يقع فيه من ذلك اليوم ... لأن القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية فى جميع دواوينهم وأماكن أحكامهم ، ثم يجمعون المتفرق فى ملخص ، يرفع فى سجلهم ، بعد أن يطبعوا منه نسخا عديدة يوزعونها فى جميع الجيش ... حتى لمن يكون منهم فى غير المصر من قرى الأرياف ، فتجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير منهم .

فلما رتبوا ذلك الديوان ، كما ذكر ، كان هو المتقيد برقم كل ما يصدر فى المجلس : من أمر أو نهى ، أو خطاب أو جواب ، أو خطأ أو صواب . وقرروا له فى كل شهر سبعة آلاف نصف فضة . فلم يزل متقيدا فى تلك الوظيفة مدة ولاية عبد الله جاك منو ، حتى ارتحلوا من الاقليم ... مضافة لما هو فيه من حرفة الشهادة بالمحكمة وديوانهم هذا ، ضحوة يومين فى الجمعة . فجمع من ذلك عدة كراريس . ولا أدرى ما فعل بها .

وبعد أن رجع صاحبنا العلامة الشيخ حسن العطار من سياحته ، مازج المذكور وخالطه ، ورافقه ووافقه ولازمه ... فكان كثيرا ما يبيتان معا ،

ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر ، وألطف من اتساق نظم الدرر . وكثيرا ما كانا يتنادمان بدارى ، لما بينى وبينهما من الصحبة الأكيدة ، والمودة العتيدة ، فكانا يرتاحان عندى ويطرحان التكلفات التى هى على النفس شديدة ، ويتمثلان بقول من قال :

فى انقباض وحشمة فاذا
رأيت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسى على سجيتها
وقلت ما قلت غير محتشم

ثم يتجاذبان أطراف الكلام ، فيجولان فى كل فن من الفنون الأدبية ، والتواريخ والمحاضرات : فتارة يتشاكيان تغير الزمان ، وتكدر الاخوان ، وأخرى يترنمان بمحاسن الغزلان ، وما وقع لهما من صد وهجران ، ووصل واحسان . فكانت تجرى بينهما منادمات أرق من زهر الرياض ، وأفتك بالعقول من الحدق المراض . وهما حينئذ فريدا وقتهما ، ووحيدا مصرهما ... لم يعززا فى ذلك الوقت بثالث ، اذ ليس ثم من يدانيهما ، فضلا عن مساواتهما فى تلك الشئون التى أربت على المثانى والمثالث .

واستمرت صحبتهما ، وتزايدت على طول الأيام مودتهما ... حتى توفى المترجم ، وبقى بعده الشيخ حسن : فريدا عمن يشاكله ويناشده ، ويتجارى معه ويحاوره . فسكت بعد حسن البيان ، وترك نظم الشعر والنثر الا بقدر الضرورة ، وتفاق أهل العصر ... وذلك لتفاقم الخطوب ، وتزايد الكروب ، وفقد الاخوان ، وعدم الخلان . واشتغل بما هو خير من ذلك ، وأبقى ثوابا فيما هنالك ... من تقرير العلوم وتحقيقها ، والتأليفات المتنوعة فى الفنون المختلفة ، وتنميقها . وهو الآن على ما هو عليه من السعى فى خدمة العلم ، واقراء الكتب الصعبة . وله بذلك شهرة بين الطلاب .

وقد جمع المذكور للمترجم ديوان شعره ، وهو صغير الحجم ، له شهرة بين المتأدبين بمصر ، ولهم به عناية ؛ ووفور رغبة . وقد كان له فيه غلو زائد ، وتأدب فى الجلوس والحديث ، انتقد فيه وليم عليه هذه الأمور ، حتى كان لا يخاطبه الا بضمير الغيبة(١) ، حتى ربما وقع ذلك فى بعض آيات وأحاديث — كما قدمنا الاشارة بذلك فى ترجمته — وكان ذلك يوافق غرضه ، لما جبل عليه من التعاظم . وقد كان جلساؤه لما رأوا محبته لذلك ، يتشبهون بالمترجم فى سلوك هذه الشئون ، مع أنه لا داعى ولا باعث لارتكاب هذه المعاصى ... طلبا لمرضاة من هو كثير التلون على جلسائه . وانما الناس شأنهم التقليد ، وفى طباعهم الميل الى أرباب الدنيا ، ولو لم ينلهم منها شىء . ولم يكن للمترجم شىء يعاب به الا هذه الارتكابات .

ولما وردت الفرنساوية لمصر ، اتفق أن علق شابا من رؤساء كتابهم ، كان جميل الصورة ، لطيف الطبع ، عالما ببعض العلوم العربية ، مائلا الى اكتساب النكات الأدبية ، فصيح اللسان بالعربى ، يحفظ كثيرا من الشعر ... فلتلك المجانسة مال كل منهما للآخر ، ووقع بينهما توادد وتصاف ، حتى كان لا يقدر أحدهما على مفارقة الآخر . فكان المترجم تارة يذهب لداره ، وتارة يزوره هو ، ويقع بينهما من لطف المحاورة ما يتعجب منه . وعند ذلك قال المترجم الشعر الرائق ، ونظم الغزل الفائق ، فمما قاله فيه :

علقته لؤلؤى الثغر باسمه
فيه خلعت عذارى ، بل حلا نسكى !

---

(١) لعل هنا سقطا فى الأصل . وقد يكون المقصود بأن الخشاب (المترجم) لايخاطبه الا بضمير الغيبة هو ابو الانوار ، شيخ السادات ، كما ورد فى ترجمته .

ملكته الروح طوعا ، ثم قلت له :
متى ازديارك لى أفديك من ملك

فقال لى ، وحميا الراح قد عقلت
لسانه ، وهو يثنى الجيد من ضحك :

اذا غزا الفجر جيش الليل وانهزمت
منه عساكر ذاك الأسود الحلك

نجاءنى وجبين الصبح مشرقة
عليه من شغف آثار معترك

فى حلة من أديم الليل رصعها
بمثل أنجمه فى قبة الفلك

فخلت بدرا به حفت نجوم دجا
فى أسود من ظلام الليل محتبك

وافى وولى بعقل غير مختبل
من الشراب وستر غير منهتك

وله فى آخر يسمى « ريج » :

أدرها على زهر الكواكب والزهر
واشراق ضوء البدر فى صفحة النهر

وهات على نغم المثانى فعاطنى
على خدك المحمر حمراء كالجمر

وموه لجين الكأس من ذهب الطلا
وخضب بنانى من سنا الراح بالتبر !

وهاك عقودا من لآلى حبابها
فم الكاس عنها قد تبسم بالبشر

ومزق رداء الليل وامح بنورها
دجاه ، وطف بالشمس فينا الى الفجر

وأصل بنار الخد قلبى وأطفه
ببرد ثناياك الشهية والثغر

أريج ! زكى المسك أنفاسك التى
أريج شذاها قد تبسم عن عطر

معنبرة يسرى النسيم بطيبها
فتغدو رياض الزهر طيبة النشر

وبى ذابل الأجفان كالبيض طرفه
مكحلة أجفانه السود بالسحر

رشافاتك الألحاظ عيناه غادرت
فؤادى فى دمعى دما سائلا يجرى

طويل نجاد السيف ، ألمى ، محجب
شقيق المها ، زاهى البها ، ناحل الخصر

رقيق حواشى الطبع يغنى حديثه
عن اللؤلؤ المنظوم والنظم والنثر

يعير الرماح اللين عادل قده
ويزرى الدرارى ضوء مبسمه الدر

ويحكيه أغصان الربا فى شمائل
فيرفل فى أثواب أوراقها الخضر

وفوق سنى ذاك الجبين غياهب
من الشعر تبدو دونها طلعة البدر

ولما وقفنا للوداع عشية
وأمسى بروحى يوم جد النوى سيرى

تباكى لتوديع ، فأبدى شقائقا
مكللة من لؤلؤ الطل بالقطر (١)

ولم يزل المترجم على حالته ، ورقته ولطافته ، مع ما كان عليه من كرم النفس والعفة والنزاهة ، والتولع بمعالى الأمور ، والتكسب وكثرة الانفاق ، وسكنى الدور الواسعة والحزم .

(١) فليسجل التاريخ ما آل اليه أمر القراة البواسل !

سنة ١٢٣١ هجرية

المحـرم

غرته : (٣ ديسمبر ١٨١٥ م) :

استهل .. وحاكم مصر وصاحبها واقطاعها وثغورها ، وكذلك بندر جدة ومكة والمدينة المنورة وبلاد الحجاز ... محمد على باشا ! وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ولاظ محمد — الذى هو كتخدا بيك — قائمقامه هو المتصدر لاجراء الأحكام بين الناس عن أمر مخدومه . وابراهيم أغا .. آغات الباب . والدفتردار : محمد أفندى ... صهر الباشا : والروزنامجى : مصطفى أفندى — تابع محمد أفندى باش جاكرت سابقا — وغيطاس أفندى سرجي ، وسليمان افندى الكماخى ... باشمحاسب ، ورفيقه أحمد أفندى ... باش قلفة ، وصالح بيك السلحدار ، وحسن آغا ... آغات الينكجرية ، وعلى أغا الشعراوى ، وزعيم مصر — وهو الوالى — وأغات التبديل أحمد أغا ، وهو أخو حسن أغا المذكور ، وكاتب الخزينة ولى خوجه ، ورئيس كتبة الأقباط المعلم غالى ... وأولاد الباشا . ابراهيم باشا حاكم الصعيد ، وطوسون باشا فاتح بلاد الحجاز ، واسماعيل باشا ببولاق ، ومحرم بيك — صهر الباشا أيضا على ابنته — بالجيزة ، وأحمد أغا ... المعروف ببونابارته الخازندار . وباقى كشاف الأقاليم ، وأكابر أعيانهم ، مثل : دبوس أوغلى ، وحسن أغا سرششمة ، وحجو بيك ، ومحو بيك وخلافهم .

وفى ذلك اليوم : قبض كتخدا بيك على المعلم غالى وأمر بحبسه ، وكذلك أخوه المسمى فرنسيس وخازنداره المعلم سمعان ... وذلك عن أمر مخدومه من الاسكندرية ، لأنه حول عليه الطلب بستة آلاف كيس ، تأخر أداؤها اياه من حسابه القديم ، فاعتذر بعدم القدرة على أدائها فى الحين ، لأنها بواقى على أربابها ... وهو ساع فى تحصيلها ، ويطلب المهلة الى رجوع الباشا من غيبته فأرسل الكتخدا بمقالته واعتذاره الى الباشا .

وانتبذ طائفة من الأقباط فى الحط على غالى مع الكتخدا ، وعرفوه أنه اذا حوسب يظهر عليه ثلاثون ألف كيس ، فقال لهم : « وان لم يتأخر عليه هذا القدر تكونوا ملزومين به الى الخزينة » فأجابوه الى ذلك . فأرسل يعرف الباشا بذلك ، فورد الأمر بالقبض عليه وعلى أخيه وخازنداره وحبسهم ، وعزله ومطالبته بستة آلاف كيس القديمة أولا ، ثم حسابه بعد ذلك .

فأحضر المرافعين عليه ، وهم . المعلم جرجس الطويل ، ومنقريوس البتنونى ، وحنا الطويل ، وألبسهم خلعا على رياسة الكتاب ... عوضا عن غالى ومن يليه .

واستمر غالى فى الحبس . ثم أحضره مع أخيه وخازنداره ، فضربوا أخاه أمامه ، ثم أمر بضربه . فقال : « وأنا أضرب أيضا ؟ » . قال : « نعم » . ثم ضربوه على رجليه بالكرابيج ! ورفع ، وكرر عليه الضرب ، وضرب سمعان ألف كرباج ، حتى أشرف على الهلاك ووجدوا فى جيبه ألف شخص بندقى ، ومائتى محبوب ، عنها اثنان وعشرون ألف قرش .

ثم بعد أيام أفرجوا عن أخيه وسمعان ليسعيا فى التحصيل، وهلك سمعان، واستمر غالى فى السجن، وقد رفعوا عنه وعن أخيه العقاب لئلا يموتا.

١٠ منه (١٢ ديسمبر ١٨١٥ م):

رجع الباشا من غيبته من الاسكندرية. وأول ما بدأ به اخراج العساكر مع كبرائهم الى ناحية بحرى، وجهة البحيرة والثغور. فنصبوا خيامهم بالبر الغربى والشرقى تجاه الرحمانية، وأخذوا صحبتهم مدافع وبارودا، وآلات الحرب. واستمر خروجهم فى كل يوم، وذلك من مكايده معهم، وابعادهم عن مصر جزاء فعلتهم المتقدمة ... فخرجوا أرسالا.

صفر
(يناير ١٨١٦ م)

فيه: تشفع جونى الحكيم فى المعلم غالى وأخذه من الحبس الى داره. والعساكر مستمرون فى التشهيل والخروج، وهم لايعلمون المراد بهم. وكثرت الروايات والأخبار والايهامات والظنون ... ومعنى الشعر فى بطن الشاعر!

ربيع الأول

الأربعاء غرته (٣١ يناير ١٨١٦ م):

فيه: سافر طوسون باشا وأخوه اسماعيل باشا، الى ناحية رشيد، ونصبوا عرضيهما عند الحماد وناحية أبى منضور. وحسين بيك دالى باشا وخلافه، مثل حسن أغا أرزجنلى، ومحو بيك، وصارى جلة، وحجو بيك ... جهة البحيرة. وكل ذلك توطين وتلبيس للعساكر بكونه أخرج حتى أولاده العزاز للمحافظة، وكذلك الكثير من كبرائهم الى جهة البحر الشرقى ودمياط.

الأحد ١٢ منه (١١ فبراير ١٨١٦ م):

طلب الباشا المشايخ. فلما جلسوا مجلسهم، وفيهم الشيخ البكرى، أحضروا خلعة وألبسوها له على منصب نقابة الأشراف ... عوضا عن السيد محمد المحروقى. وفاوضه فى ذلك ورأى أن يقلده اياه، فاعتذر السيد محمد المحروقى، واستعفى، وقال: «أنا متقيد بخدمة أفندينا ومهمات المتاجر والعرب والحجاز». فقال: «قد قلدتك اياها فأعطها لمن شئت». فذكر أنها كانت مضافة للشيخ البكرى .. وهو أولى من غيره. فلما حضروا، وتكاملوا، ألبسوه الخلعة، واستصوب الجماعة ذلك، وانصرفوا.

وفى الحال .. كتب فرمان باخراج الدواخلى منفيا الى قرية دسوق، فنزل اليه السيد أحمد الملا، الترجمان، وصحبته قواس تركى، وبيده الفرمان. فدخلوا اليه على حين غفلة — وكان بداخل حريمه، لم يشعر بشىء مما جرى — فخرج اليهم، فأعطوه الفرمان. فلما قرأه، غاب عن حواسه، وأجاب بالطاعة، وأمروه بالركوب، فركب بغلته، وسارا به الى بولاق الى المنزل الذى كان شراه بعد موت ولده، والشيخ سالم الشرقاوى. وانسل مما كان فيه كانسلال الشعرة من العجين، وتفرق الجمع الذى كان حوله.

وشرع الأشياخ فى تنميق عرضحال على لسانهم، بأمر الباشا، بتعداد جنايات الدواخلى، وذنوبه، وموجبات عزله ... وأن ذلك بترجيهم والتماسهم عزله ونفيه، ويرسل ذلك العرضحال لنقيب الأشراف، بدار السلطنة، لأن الذى يكون نقيبا بمصر نيابة عنه، ويرسل اليه الهدية فى كل سنة

فالذى نقموه عليه من الذنوب: أنه تطاول على حسين أفندى شيخ رواق الترك، وسبه وحبسه من غير جرم. وذلك أنه اشترى منه جارية حبشية بقدر من الفرانسة. فلما أقبضه الثمن، أعطاه

بدلها قروشا بدون الفرط الذى بين المعاملتين . فتوقف السيد حسين وقال : « اما تعطينى العين التى وقع عليها الانفصال ، أو تكمل فرط النقص » . وتشاحّا ، وأدى ذلك الى سبه وحبسه ... وهو رجل كبير متضلع ، ومدرس ، وشيخ رواق الأتراك بالأزهر . وهذه القضية سابقة على حادثة نفيه بنحو سنتين .

ومنها أيضا : أنه تطاول على السيد منصور اليافى بسبب فتيا رفعت اليه . وهى أن امرأة وقفت وقفا فى مرض موتها ، وأفتى بصحة الوقف ، على قول ضعيف . فسبه فى ملأ من الجمع ، وأراد ضربه ، ونزع عمامته من على رأسه .

ومنها أيضا : أنه يعارض القاضى فى أحكامه ، وينقص محاصيله ، ويكتب فى بيته وثائق قضايا صلحا ، ويسب أتباع القاضى ، ورسل المحكمة ، ويعارض شيخ الجامع الأزهر فى أموره ... ونحو ذلك .

وعندما سطروه ، وتمموه ... وضعوا عليه ختومهم ، وأرسلوه الى اسلامبول .

على أن جناياته عند الباشا ليست هذه النكات الفارغة ... بل ولا علم له بها ولا التفات . وانما هى أشياء وراء ذلك كله : ظهر بعضها ، وخفى عنا باقيها . وذلك أن الباشا يحب الشوكة ونفوذ أوامره فى كل مرام ، ولا يصطفى ويحب الا من لايعارضه ... ولو فى جزئية ، أو يفتح له بابا يهب منه ريح الدراهم والدنانير ، أو يدله على ما فيه كسب ، أو ربح من أى طريق أو سبب ... من أى ملة كان .

ولما حصلت واقعة قيام العسكر فى أواخر السنة الماضية ، وأقام الباشا بالقلعة يدبر أمره فيهم ، وألزم أعيان المتظاهرين الطلوع اليه فى كل ليلة ... وأجل المتعممين الدواخلى لكونه معدودا فى العلماء ، ونقيبا على الأشراف — وهى رتبة الوالى عند العثمانيين — فداخله الغرور ، وظن أن الباشا قد حصل فى ورطة يطلب النجاة منها بفعل القربات والنذور ، ولكونه رآه يسترضى خواطر الرعية المنهوبين ، ويدفع لهم أثمانها ، ويستميل كبار العساكر ، وينعم عليهم بالمقادير الكثيرة من أكياس المال ، ويسترسل معه فى المسامرة والمسايرة ، ولين الخطاب والمذاكرة والمضاحكة . فلما رأى اقبال الباشا عليه ، زاد طمعه فى الاسترسال معه ، فقال له : « الله يحفظ حضرة أفندينا ، وينصره على أعدائه والمخالفين له ، ونرجو من احسانه — بعد هدو سره ، وسكون هذه الفتنة — أن ينعم علينا ويجرينا على عوائدنا فى الجمايات والمسامحات فى خصوص مايتعلق بنا من حصص الالتزام والرزق » .

فأجابه بقوله : « نعم يكون ذلك ، ولا بد من الراحة لكم ولكافة الناس » . فدعا له ، وأنس فؤاده ، وقال : « الله تعالى يحفظ أفندينا ، وينصره على أعدائه ... كذلك يكون تمام ما أشرتم به من الراحة لكافة الناس ، الافراج عن الرزق الأحباسية على المساجد والفقراء » . فقال : « نعم » ووعده مواعيده العرقوبية . فكان الدواخلى اذا نزل من القلعة الى داره ، يحكى فى مجلسه مايكون بينه وبين الباشا من أمثال هذا الكلام ، ويذيعه فى الناس .

ولما أمر الباشا الكتاب بتحرير حساب الملتزمين على الوجه المرضى : بديوان خاص لرجال دائرة الباشا وأكابر العسكر — وذلك بالقلعة — تطييبا لخواطرهم ، وديوان آخر فى المدينة لعامة الملتزمين ، فيحررون للخاصة بالقلعة ما فى قوائم مصروفهم ، وما كانوا يأخذونه من المضاف والبرانى والهدايا ، وغير ذلك ... والديوان العام التحتانى بخلاف ذلك .

فلما رأى الدواخلى ذلك الترتيب ، قال للباشا :

« وأنا الفقير محسوبكم من رجال الدائرة » . فقال : « نعم » . وحرروا قوائمه مع الأكابر ، وأكابر الدولة ، وأنعم عليه الباشا بأكياس أيضا كثيرة زيادة على ذلك .

فلما راق الحال ، ورتب الباشا أموره مع العسكر ، أخذ يذكر الباشا بانجاز الوعد ويكرر القول عليه ، وعلى كتخدا بيك بقوله : « أنتم تكذبون علينا ، ونحن نكذب على الناس » .

وأخذ يتطاول على كتبة الأقباط بسبب أمور يلزمهم ويكلفهم باتمامها وعذرهم يخفى عنه فى تأخيرها . فيكلمهم بحضرة الكتخدا ، ويشتمهم ويقول لبعضهم : « أما اعتبرتم بما حصل للعين غالى ؟ » فيحقدون عليه ، ويشكون منه للباشا والكتخدا ... وغير ذلك أمورا ، مثل تعرضه للقاضى فى قضاياه ، وتشكيه منه .

واتفق أنه لما حضر ابراهيم باشا من الجهة القبلية ، وكان بصحبته أحمد جلبى ابن ذى الفقار كتخدا الفلاح — وكأنه كان كتخداه بالصعيد — وتشكت الناس من أفاعيله واغوائه ابراهيم باشا ... فاجتمع به الدواخلى عند السيد محمد المحروقى ، وحضر قبل ذلك اليه للسلام عليه . وفى كل مرة يوبخه بالكلام ، ويلومه على أفاعيله بالقول الخشن ، فى ملأ من الناس . فذهب الى الباشا ، وبالغ فى الشكوى ، ويقول فيها : « أنا نصحت فى خدمة أفندينا جهدى ، وأظهرت من المخبآت ما عجز عنه غيرى ، فأجازى عليه من هذا الشيخ ما أسمعنيه من قبيح القول ، وتجبيهى بين الملأ . واذا كان محبا لأفندينا فلا يكره نفعه ، ولا النصح فى خدمته » وأمثال ذلك مما يخفى عنا خبره . فمثل هذه الأمور هى التى أوغرت صدر الباشا على الدواخلى ، مع أنها فى الحقيقة ليست خلافا عند من فيه قابلية للخير !

وأنا أقول : ان الذى وقع لهذا الدواخلى ، انما هو قصاص ، وجزاء فعله فى السيد عمر مكرم ... فانه كان من أكبر الساعين عليه الى أن عزلوه ، وأخرجوه من مصر ... والجزاء من جنس العمل ، كما قيل :

فقل للشامتين بنا أفيقوا
سيلقى الشامتون كما لقينا

ولما جرى على الدواخلى ماجرى من العزل والنفى ، أظهر الكثير من نظرائه المتفقهين الشماتة والفرح ، وعملوا ولائم وعزائم ومضاحكات كما يقال :

أمور تضحك السفهاء منها
ويبكى من عواقبها اللبيب

وقد زالت هيبتهم ووقارهم من النفوس ، وانهمكوا فى الأمور الدنيوية ، والحظوظ النفسانية ، والوساوس الشيطانية ، ومشاركة الجهال فى المآثم ، والمسارعة الى الولائم فى الأفراح والمآتم ... يتكالبون على الأسمطة كالبهائم . فتراهم فى كل دعوة ذاهبين ، وعلى الخوانات راكمين ، وللكباب والمحمرات خاطفين ، وعلى ما وجب عليهم من النصح تاركين .

فى أواخره (أواخر فبراير ١٨١٦ م) :

شرعوا فى عمل مهم عظيم بمنزل ولى أفندى — ويقال له : ولى خجا — وهو كاتب الخزينة العامرة ، وهو من طائفة الأرنؤود ... واختص به الباشا ، واستأمنه على الأمور ، وضم اليه دفاتر الايراد ، من جميع وجوه جبايات الأموال ، من خراج البلاد والمحدثات ، وحسابات المباشرين .

وأنشأ دارا عظيمة بخطة باب اللوق ، على البركة المعروفة بأبى الشوارب ، وأدخل فيها عدة بيوت — بجانبيها وتجاهها — على نسق واصطلاح الأبنية الأفرنجية والرومية ، وتأنق فى زخرفتها واتساعها ، واستمرت العمارة بها نحو السنتين .

ولما كملت وتمت ، أحضروا القاضى والمشايخ ، وعقدوا لولديه على ابنتين من أقارب الباشا ، بحضرة الأعيان ومن ذكر . واحتفلوا بعمل المهم احتفالا زائدا ، وتقيد السيد محمد المحروقى بالمصاريف ، والتنظيم واللوازم ... كما كان فى أفراح أولاد الباشا . واجتمعت الملاعيب والبهلوانات بالبركة ، وما حولها وبالشارع ، وعلقوا تعاليق قناديل ونجفات وأحمال بلور وزينات ، واجتمع الناس للفرجة ... وبالليل حراقات ونفوط ، ومدافع ، وسواريخ ، سبع ليال متوالية ، وعملت الزفة يوم الخميس ، واجتمعت العربات لأرباب الحرف ، كما تقدم فى العام الماضى ... بل أزيد . وذلك لأن الباشا لم يشاهد أفراح أولاده ، لكونه كان غائبا بالديار الحجازية . وحضر الباشا للفرجة ، وجلس بمدرسة الغورية ، بقصد الفرجة ، وعمل له السيد محمد المحروقى الغداء ، وخرجوا بالزفة ، أوائل النهار ، وداروا بها دورة طويلة ، فلم يمروا بسوق الغورية الا قريب الغروب أواخر النهار .

ربيع الآخر

غرته (أول مارس ١٨١٦ م) :

فيه : خروج العساكر الى ناحية بحرى مستمر . وأفصح الباشا ، وذكر فى كلامه — فى مجالسه — وبيّن السر فى اخراجهم من المدينة : بأن العساكر قد كثروا ، وفى اقامتهم بالبلدة ، مع كثرتهم ، ضرر وافساد ، وضيق على الرعية ، مع عدم الحاجة اليهم داخل البلدة . والأولى والأحوط أن يكونوا خارجها ، وحولها مرابطين ، لحفظ الثغور من طارق على حين غفلة أو حادث خارجى . وليس لهم الا رواتبهم وعلائفهم تأتيهم فى أماكنهم ومراكزهم

والسر الخفى اخراج الذين قصدوا غدره وخيانته ، ووقع بسبب حركتهم ما وقع من النهب والازعاج فى أواخر شعبان من السنة الماضية .

وكان قد بدأ باخراج أولاده ، وخواصه — من تحيله — واحدا بعد واحد . وأسر الى أولاده بما فى ضميره ، وأصحب مع ولده طوسون باشا شخصا من خواصه ، يسمى أحمد أغا البحورجى المدللى . وأخذ طوسون باشا فى تدبير الايقاع مع من يريد به ، فبدأ بمحو بيك — وهو أعظمهم وأكثرهم جندا — فأخذ فى تأليف عساكره حتى لم يبق معه الا القليل . ثم أرسل فى وقت بطلب محو بيك عنده فى مشورة . فذهب اليه أحمد أغا المدللى المذكور ، وأسر اليه ما يراد به ، وأشار اليه بعدم الذهاب . فركب محو بيك فى الحال ، وذهب عند الدلاة ، فأرسلوا الى مصطفى بيك — وهو كبير على طائفة الدلاة ، وأخو زوجة الباشا وقريبه — والى اسماعيل باشا ابن الباشا ، ليتوسطا فى صلح محو بيك مع الباشا ، وليعفوه ويذهب الى بلاده . فأرسلا الى الباشا بالخبر ، وبما نقله أحمد أغا المدللى الى محو بيك ، فسفه رأيه فى تصديق المقالة ، وفى هروبه عند الدلاة ... ثم يقول : « لولا أن فى نفسه خيانة لما فعل ما فعل من التصديق والهروب » !

وكان طوسون باشا ، لما جرى من أحمد أغا ما جرى من نقل الخبر لمحو بيك ، عوقه ، وأرسل الى أبيه يعلمه بذلك ، فطلبه للحضور اليه بمصر . فلما مثل بين يديه ، وبخه وعزره بالكلام ، وقال له : « ترمى الفتن بين أولادى وكبار العسكر » ، ثم أمر بقتله . فنزلوا به الى باب زويلة ، وقطعوا

رأسه هناك ، وتركوه مرميا طول النهار ، ثم رفعوه الى داره ، وعملوا له فى صبحها مشهدا ودفنوه .

وفيه : حضر اسماعيل باشا ، ومصطفى بيك الى مصر .

فى اواخره (اواخر مارس ١٨١٦ م) :

حضر شخص يسمى سليم كاشف من الأجناد المصرية ، مرسلا من عند بقاياهم من الأمراء وأتباعهم ... الذين رماهم الزمان بكلكله ، وأقصاهم وأبعدهم عن أوطانهم ، واستوطنهم « دنقلة » من بلاد السودان ، يتقوتون مما يزرعونه بأيديهم من الدخن ، وبينهم وبين أقصى الصعيد مسافة طويلة ، نحو من أربعين يوما .

وقد طال عليهم الأمد ، ومات أكثرهم ، ومعظم رؤسائهم مثل : عثمان بيك حسن ، وسليم أغا ، وأحمد أغا شويكار ، وغيرهم ممن لاعلم لنا بخبرة أخبارهم ، لبعد المسافة حتى على أهل منازلهم . وبقى ممن لم يمت منهم : ابراهيم بيك الكبير ، وعبد الرحمن بيك — تابع عثمان بيك المرادى — وعثمان بيك يوسف وأحمد بيك الألفى — زوج عديلة ابنة ابراهيم بيك الكبير — وعلى بيك أيوب ، وبواقى صغار الأمراء والمماليك ... على ظن خياتهم وقد كبر سن ابراهيم بيك الكبير ، وعجزت قواه ، ووهن جسمه .

فلما طالت عليهم الغربة ، أرسلوا هذا المرسل بمكاتبة الى الباشا ... يستعطفونه ، ويسألون فضله ، ويرجون مراحمه ، بأن ينعم عليهم بالأمان على نفوسهم ، ويأذن لهم بالانتقال من دنقلة الى جهة من أراضى مصر : يقيمون بها أيضا ، ويتعيشون فيها بأقل العيش تحت أمانه ، ويدفعون مايجب عليهم من الخراج الذى يقرره عليهم ، ولا يتعدون مراسمه وأوامره .

فلما حضر ، وقابل الباشا وتكلم معه ، وسأله عن حالهم وشأنهم ، ومن مات ومن لم يمت منهم — وهو يخبره خبره — أمره بالانصراف الى محله الذى نزل فيه الى أن يرد عليه الجواب ، وأنعم عليه بخمسة أكياس ... فأقام أياما حتى كتب له جواب رسالته . مضمونها : أنه أعطاهم الأمان على أنفسهم ، بشروط شرطها عليهم ، ان خالفوا منها شرطا واحدا ... كان أمانهم منقوضا ، وعهدهم منكوثا ، ويحل بهم ما حل بمن تقدم منهم .

فأول الشروط — أنهم اذا عزموا على الانتقال من المحل الذى هم فيه ، يرسلون أمامهم نجابا يخبره بخبرهم وحركتهم وانتقالهم ، ليأتيهم من أعينه لملاقاتهم .

الثانى — اذا حلوا بأرض الصعيد ، لا يأخذون من أهل النواحى كلفة ، ولا دجاجة ، ولا رغيفا واحدا ... وانما الذى يتعين لملاقاتهم يقوم لهم بما يحتاجون اليه من مؤنة وعليق ومصرف .

الثالث — أنى لا أقطعهم شيئا من الأراضى والنواحى ، ولا اقامة فى جهة من جهات أراضى مصر ... بل يأتون عندى ، وينزلون على حكمى ، ولهم مايليق بكل واحد منهم من المسكن والتعيين والمصرف . ومن كان ذا قوة ، قلدته منصبا أو خدمة تليق به ، أو ضممته الى بعض الأكابر من رؤساء العسكر . وان كان ضعيفا أو هرما ، أجريت عليه نفقة لنفسه وعياله .

الرابع — أنهم اذا حصلوا بمصر على هذه الشروط ، وطلبوا شيئا من اقطاع أو رزقة أو قنطرة ، أو أقل مما كان فى تصرفهم فى الزمن الماضى ، أو نحو ذلك — انتقض معى عهدهم ، وبطل أمانى لهم ... بمخالفة شرط واحد من هذه الشروط . وهى سبعة غاب عن ذهنى باقيها . فسبحان المعز المذل ، مقلب الأحوال ، ومغير الشئون !

فمن العبر : أنه لما حضر المصريون ، ودخلوا الى مصر بعد مقتل طاهر باشا ، وتأمروا وتحكموا ... فكانت عساكر الأتراك فى خدمتهم ، ومن أرذل طوائفهم ، وعلائفهم تصرف عليهم من أيدى كتابهم وأتباعهم . وابراهيم بيك هو الأمير الكبير ، وراتب محمد على باشا ... هذا — من الخبز واللحم والأرز والسمن الذى عينه له — من كيلاره ! نعوذ بالله من سوء المنقلب .

ورجع سليم كاشف ، المرسل اليهم بالجواب المشتمل على ما فيه من الشروط .

وفيه : أمر الباشا بحبس أحمد أفندى المعايرجى بدار الضرب . وحبس أيضا عبد الله بكتاش ، ناظر الضربخانة ، واحتج عليهما باختلاسات يختلسانها ، واستمرا أياما حتى قدر عليهما نحو السبعمائة كيس ، وعلى الحاج سالم الجواهرجى — وهو الذى يتعاطى ايراد الذهب والفضة الى شغل الضربخانة — مثلها . ثم أطلق المذكوران ليحصلا ما تقرر عليهما ، وكذلك أطلق الحاج سالم . وشرعوا فى التحصيل بالبيع والاستدانة ، واشتد القهر بالحاج سالم ، ومات على حين غفلة . وقيل انه ابتلع فص الماس ، وكان عليه ديون باقية من التى استدانها فى المرة الأولى ، والغرامة السابقة .

ومن النوادر الغريبة ، والاتفاقات العجيبة : أنه لما مات ابراهيم بيك المداد بالضربخانة — قبل تاريخه — تزوج بزوجته أحمد أفندى المعايرجى المذكور . فلما عوق أحمد أفندى ، خافت زوجته المذكورة أن يدهمها أمر : مثل الختم على الدار ، أو نحو ذلك ... فجمعت مصاغها ، وما تخاف عليه — مما خف حمله وثقل ثمنه — وربطته فى صرة ، وأودعتها عند امرأة من معارفها . فسطا على بيت تلك المرأة شخص حرامى ، وأخذ تلك الصرة ، وذهب بها الى دار امرأة من أقاربه ، بالقرب من جامع مسكة ، وقال لها : « احفظى عندك هذه الصرة حتى أرجع » . ونزل الى أسفل الدار ، فنادته المرأة : « اصبر حتى آتيك بشىء تأكله » ، فقال : « نعم . فانى جيعان » . وجلس أسفل الدار ينتظر اتيانها له بما يأكله .

وصادف مجىء زوج المرأة تلك الساعة ، فوجده فرحب به — وهو يعلم بحاله ، ويكره مجيئه الى داره — وطلع الى زوجته فوجد بين يديها تلك الصرة ، فسألها عنها ، فأخبرته أن قريبها المذكور أتى بها اليها حتى يعود لأخذها ... فجسها فوجدها ثقيلة ، فنزل فى الحال ، ودخل على محمد أفندى سليم — من أعيان جيران الخطة — فأخبره ، فأحضر محمد أفندى أنفارا من الجيران أيضا — وفيهم الخجا المنسوب الى أحمد أغا لاظ المقتول — ودخل الجميع الى الدار — وذلك الحرامى جالس ومشتغل بالأكل — فوكلوا به الخدم ، وأحضروا تلك الصرة وفتحوها ، فوجدوا بها مصاغا وكيسا بداخله أنصاف فضة عديدة — ذكروا أن عدتها أربعون ألفا — ولكنها من غير ختم ، وبدون نقش السكة ... فأخذوا ذلك ، وتوجهوا لكتخدا بيك ، وصحبتهم الحرامى ، فسألوه وهددوه ، فأقر وأخبر عن المكان الذى اختلسها منه . فأحضروا صاحبة المكان ، فقالت : « هو وديعة عندى لزوجة أحمد أفندى المعايرجى » . فثبت لديهم خيانته واختلاسه .

وسئل أحمد أفندى ، فحلف أنه لا يعلم بشىء من ذلك ، وأن زوجته كانت زوجا لابراهيم المداد ... فلعل ذلك عندها من أيامه . وسئلت هى أيضا عن تحقيق ذلك ، فقالت : « الصحيح أن ابراهيم المداد كان اشترى هذه الدراهم من شخص مغربى ، عند ما نهب عسكر المغاربة الضربخانة فى وقت حادثة الأمراء المصريين ، وخروجهم من مصر ... عند ما قامت عليهم عسكر

الأتراك » . فلم يزيلوا الشبهة عن أحمد أفندى ، بل زادت .

وكانت هـذه النادرة من عجـائب الاتفاق ، فقدروا أثمانها ، وخصموها من المطلوب منه .

٢٠ منه (٢٠ مارس ١٨١٦ م) :

حصلت جمعية ببيت البكرى ، وحضر المشايخ وخلافهم — وذلك بأمرباطنى من صاحب الدولة — وتذاكروا ما يفعله قاضى العسكر من الجور والطمع فى أخذ أموال الناس والمحاصيل .

وذلك أن القضـــاة الذين يأتون من باب السلطنة ، كانت لهم عوائـد وقوانين قديمـة — لايتعدونها — فى أيـام الأمراء المصريين . فلمـا استولت هـؤلاء الأروام عـلى الممـالك — والقاضى منهـم — فحش أمرهم ، وزاد طمعهم ، وابتدعوا بدعا ، وابتكروا حيـلا لسلب أمـوال النـاس والأيتـام والأرامل . وكلما ورد قاض ، ورأى ما ابتـكره الذى كان قبله ، أحدث هـو الآخر أشياء يمتاز بها عن سلفه . حتى فحش الأمر ، وتعدى ذلك لقضايا أكابر الدولة وكتخدا بيك ... بل والباشـا ، وصارت ذريعة وأمـرا محتمـا : لا يحتشمون منه ، ولا يراعون خليلا ولا كبيرا ولا جليلا .

وكان المعتـاد القديم : أنه اذا ورد القـاضى فى أول السنة التوتية ، التزم بالقسمة بعض المميزين من رجال المحكمة بقـدر معلوم يقـوم بدفعـه للقاضى ... وكذلك تقرير الوظائف ، كانت بالفراغ أو المحلول . وله شـهريات عـلى باقى المحاكم الخارجة : كالصالحية ، وباب سعادة ، والخرق ، وباب الشـعرية ، وباب زويلة ، وباب الفتوح ، وطيلون ، وقناطر السـبـاع ، وبولاق ، ومصر القديمة ونحو ذلك . وله عوائد واطلاقات وغلال من الميرى ، وليس له غير ذلك الا معلوم الامضاء — وهو خمسة أنصاف فضة — فاذا احتاج الناس فى قضـاياهم ومواريثهم ، أحضروا شـاهدا من المحكمة القريبة منهم ، فيقضى فيهـا ما يقضيه ، ويعطونه أجرته ... وهو يكتب التوثيق ، أو حجة المبايعة أو التوريث ، ويجمع العدة من الأوراق فى كل جمعة أو شهر ثم يمضيها من القاضى ، ويدفع له معلوم الامضاء لا غـير . وأما القضـايا لمثل العلماء والأمراء ، فبالمسامحة والاكرام .

وكان القضاة يخشون صولة الفقهاء وقت كونهم يصدعون بالحق ، ولا يداهنون فيه . فلما تغيرت الأحوال ، وتحكمت الأتراك وقضاتها ... ابتدعوا بدعا شتى . منها : ابطال نواب المحاكم ، وابطـال القضاة الثلاثة خلاف مذهب الحنفى ، وأن تكون جميـع الدعاوى بين يديه ويدى نائبه ... وبعـد الانفصـال بأمرهم بالذهاب الى كتخـداه ليدفع المحصـول ، فيطلب منهم المقـادير الخارجة عن المعقول ... وذلك خـلاف الرشـوات الخفية ، والمصالحات السرية . وأضـاف التقرير والقسمة لنفسه ، ولا يلتزم بها أحد من الشهود كما كان فى السابق . واذا دعى بعض الشهود لكتابة توثيق أو مبايعة أو تركة ، فلا يذهب الا بعد أن يأذن له القاضى ، ويصحبه بكجوقه دار ليباشر القضية ... وله نصيب أيضا !

وزاد طمـع هؤلاء الجخدارية حتى لا يرضون بالقليـل ، كمـا كانوا فى أول الأمر ، وتخلف منهم أشخاص بمصر عن مخاديمهم ، وصاروا عنـد المتـولى لما انفتح لهم هـذا الباب . واذا ضبط تركة من التركات ، وبلغت مقـدارا ، أخرجـوا للقـاضى العشر من ذلك ، ومعـلوم الـكاتب والجـوخدار والرسـول ، ثم التجهيز والتكفين والمصرف والديون ... وما بقى بعد ذلك يقسم بين الورثة . فيتفـق أن الوارث واليتيم لا يبـقى له شيء ! ويأخـذ من أرباب الديون عشر ديونهـم !

أيضا ، ويأخذ من محاليل وظائف التقارير معلوم سنتين أو ثلاث ، وقد كان يصالح عليها بأدنى شيء ... والا اكراما .

وابتدع بعضهم الفحص عن وظائف القبانية والموازين ، وطلب تقاريرهم القديمة ، ومن أين تلقوها . وتعلل عليهم بعدم صلاحية المقرر ، وفيها من هو باسم النساء ، وليسوا أهلا لذلك ، وجمع من هذا النوع مقدارا عظيما من المال . ثم محاسبات نظار الأوقاف ، والعزل والتولية فيهم ، والمصالحات على ذلك . وقرر على نصارى الأقباط والأروام قدرا عظيما فى كل سنة ... بحجة المحاسبة على الديور والكنائس !

وما هو زائد الشناعة أيضا : أنه اذا ادعى مبطل على انسان دعوى لا أصل لها ... بأن قال : أدعى عليه بكذا وكذا ... من المال وغيره ، كتب المقيد ذلك القول — حقا كان أو باطلا ، معقولا أو غير معقول — ثم يظهر بطلان الدعوى ، أو صحة بعضها ... فيطالب الخصم بمحصول القدر الذى ادعاه المدعى ، وسطره الكاتب ... يدفعه المدعى عليه للقاضى : على دور النصف الواحد ، أو يحبس عليه حتى يوفيه . وذلك خلاف ما يؤخذ من الخصم الآخر !

وحصل نظيرها لبعض من هو ملتجىء لكتخدا بيك ، فحبس على المحصول ، فأرسل الكتخدا يترجى فى اطلاقه ، والمصالحه عن بعضه ... فأبى . فعند ذلك حنق الكتخدا ، وأرسل من أعوانه من استخرجه من الحبس .

ومن الزيادات فى نغمة الطنبور ... كتابة الاعلامات . وهو أنه اذا حضر عند القاضى دعوى بقاصد من عند الكتخدا أو الباشا ليقضى فيها ، وقضى فيها لأحد الخصمين .. طلب المقضى له اعلاما بذلك الى الكتخدا أو الباشا يرجع به مع القاصد ... تقييدا واثباتا . فعند ذلك لا يكتب له ذلك الاعلام الا بما عسى لا يرضيه الا أن يسلخ من جلده طاقا أو طاقين ! وقد حكمت عليه الصورة ... وتابع الباشا أو الكتخدا ملازم له ، ويستعجله ، ويساعد كتخدا القاضى عليه ، ويسليه على ذلك الظفر والنصرة على الخصم ... مع أن الفرنساوية ، الذين كانوا لا يتدينون بدين ، لما قلدوا الشيخ أحمد العريشى القضاء بين المسلمين بالمحكمة ... حددوا له حدا فى أخذ المحاصيل لا يتعداه ، بأن يأخذ على المائة اثنين فقط : له منها جزء ، والكتاب جزء .

فلما زاد الحال ، وتعدى الى أهل الدولة ... رتبوا هذه الجمعية . فلما تكاملوا بمجلس بيت البكرى ، كتبوا عرضا محضرا ذكروا فيه بعض هذه الاحداثات ، والتمسوا من ولى الأمر رفعها ... ويرجون من المراحم أن يجرى القاضى ويسلك فى الناس طريقا من احدى الطرق الثلاث : اما الطريقة التى كان عليها القضاة فى زمن الأمراء المصريين ، واما الطريقة التى كانت فى زمن الفرنساوية ، أو الطريقة التى كانت أيام مجىء الوزير — وهى الأقرب والأوفق — وقد اخترناها ورضيناها بالنسبة لما هم عليه الآن من الجور . وتمموا العرض محضرا ، وأطلعوا عليه الباشا ، فأرسله الى القاضى فامتثل الأمر ، وسجل بالسجل — على مضض منه — ولم تسعه المخالفة .

جمادى الآخرة

الاثنين ١٥ منه (١٣ مايو ١٨١٦ م) :

ورد الخبر بموت مصطفى بيك دالى باشا بناحية الاسكندرية ، وهو قريب الباشا ، وأخو زوجته

رجب

الخميس ٣ منه (٣٠ مايو ١٨١٦ م) :

قبل الغروب حصل فى الناس انزعاج ولغط ،

ونقل أصحاب الحوانيت بضائعهم منها ، مثل سوق الغورية ، ومرجوش ، وخان الحمزاوى ، وخان الخليلى ... وغيرهم . ولم يظهر لذلك سبب من الأسباب ، وأصبح الناس مبهوتين ، ولغطوا بموت الباشا ، وحضر أغات الينكجرية ، وأغات التبديل الى الغورية ، وأقاما بطول النهار ، وهما يأمران الناس بالسكون وفتح الدكاكين ، وكذلك على أغا الوالى بباب زويلة .

السبت ٥ منه (اول يونية ١٨١٦ م) :

ركب الباشا ، وخرج الى قبة العزب ، وعمل رماحة وملعبا ، ورجع الى شبرا . وحضر كتخدا بيك الى سوق الغورية ، وجلس بالمدفن ، وأمر بضرب شيخ الغورية .. فبطحوه على الأرض فى وسط السوق ، وهو مرشوش بالماء ، وضربه الأتراك بعصيهم ، ثم رفعوه الى داره . ثم أمر الكتخدا بكتابة أصحاب الدكاكين الذين نقلوا متاعهم ، فشرعوا فى ذلك ، وهرب الكثير منهم ، وحبسهم فى داره .

ثم ركب الكتخدا ، ومر فى طريقه على خان الحمزاوى ، وطلب البواب . فلما مثل بين يديه ، أمر بضربه كذلك ، وضرب أيضا شيخ مرجوش . وأما طائفة خان الخليلى ، ونصارى الحمزاوى ... فلم يتعرض لهم !

شعبان

الخميس غرته (٢٧ يونيه ١٨١٦ م) :

فيه : من الحوادث أن بعض العيارين — من السراق — تعدوا على قهوة الباشا بشبرا ، وسرقوا جميع ما بالنصبة من الأوانى والبكارج والفناجين والظروف ... فأحضر الباشا بعض أرباب الدرك بتلك الناحية ، وألزمه باحضار السراق والمسروق ، ولا يقبل له عذرا فى التأخير ... ولو يصالح على نفسه بخزينة أو أكثر من المال ، ولا يكون غير ذلك أبدا ، والا نكل به نكالا عظيما ... وهو المأخوذ بذلك . فترجى فى طلب المهلة ، فأمهله أياما ، وحضر بخمسة أشخاص ، وأحضروا المسروق بتمامه ... لم ينقص منه شىء . وأمر بالسراق ، فخوزقوهم فى نواحى ... متفرقين ، بعد أن قرروهم على أمثالهم ، وعرفوا عن أماكنهم ، وجمع منهم زيادة على الخمسين ، وشنق الجميع فى نواحى متفرقة بالأقاليم ، مثل : القليوبية ، والغربية ، والمنوفية .

الخميس ١٥ منه (١١ يولية ١٨١٦ — ٤ مسرى ١٥٣٢ م) :

أوفى النيل أذرعه ، وفتح سد الخليج يوم السبت .

وفيه : وقع من النوادر أن امرأة ولدت مولودا برأسين وأربع أيد ، وله وجهان متقابلان ، والوجهان بكتفيهما مفروقان من حد الرأس ، وقيل لحد الصدر ، والبطن واحدة ، وثلاث أرجل ، واحدى الأرجل لها عشرة أصابع . فيقال انه أقام يوما وليلة حيا ... ومات . وشاهده خلق كثير ، وطلعوا به الى القلعة ، ورآه كتخدا بيك ، وكل من كان حاضرا بديوانه . فسبحان الخلاق العظيم !

رمضان

الثلاثاء ١٩ منه (١٣ اغسطس ١٨١٦ م) :

حصل فيه فى النوادر ، أن فى تاسع عشره علق شخص عسكرى غلاما من أولاد البلد ، وصار يتبعه فى الطرقات الى أن صادفه ليلة بالقرب من جامع الماس بالشارع . فقبض عليه ، وأراد الفعل به فى الطريق . فخدعه الغلام ، وقال له : « ان كان

ولا بد ، فادخل بنا فى مكان لا يرانا فيه أحد من الناس » فدخل معه درب حلب — المعروف الآن بدرب الحمام ، خير بك حديد — وهناك دور الأمراء ، التى صارت خرائب ، فحل العسكرى سراويله ، فقال له الغلام : « أرنى بتاعك . فلعله يكون عظيما لا أتحمله جميعه » ! وقبض عليه — وكان بيده موسى مخفية فى يده الأخرى — فقطع ذكره بتلك الموسى سريعا ، وسقط العسكرى مغشيا عليه سارخا ، وتركه الغلام وذهب فى طريقه وحضر رفقاء ذلك العسكرى وحملوه ، وأحضروا له سليم الجرائحى ، فقطع ما بقى من مذاكيره ، وأخذ فى معالجته ، ومداواته . ولم يمت العسكرى !

شـــــوال

السبت غرته (٢٥ اغسطس ١٨١٦ م) :

وكان حقه يوم الأحد ... وذلك أن فى أواخر رمضان حضر جماعة من دمنهور البحيرة ، وأخبروا عن أهل دمنهور : أنهم صاموا يوم الخميس . فطلب الباشا حضور من رأى الهلال تلك الليلة ، فحضر اثنان من العسكر ، وشهدا برؤيته ليلة الخميس . فأثبتوا بذلك هلال رمضان ، ويكون تمامه يوم الجمعة . وأخبر جماعة أيضا أنهم رأوا هلال شوال ليلة السبت ، وكان قوسه فى حساب قواعد الأهلة ، تلك الليلة ، قليلا جدا . ولم ير فى ثانى ليلة منه الا بعسر . وانما اشتبه على الرائين لأن المريخ كان مقارنا للزهرة فى برج الشمس من خلفها ، وبينهما وبين الشمس رؤيا بعدها فى شعاع الشمس ، شبه الهلال . فظن الراءون أنه الهلال ... فليتنبه لذلك ، فان ذلك من الدقائق التى تخفى على أهل الفطانة ... فضلا عن غيرهم من العوام ، الذين يسارعون الى افساد العبادات — حسبة بالظنون الكاذبة — لأجل أن يقال : شهد فلان ... ونحو ذلك .

اواخره (النصف الثانى من سبتمبر ١٨١٦ م) :

قلد الباشا شخصا من أقاربه — يسمى شريف أغا — على دواوين المبتدعات ، وضم اليه جماعة من الكتبة أيضا ، المسلمين والأقباط ، وجعلوا ديوانهم ببيت أبى الشوارب ، وعمروه عمارة عظيمة ، وواظبوا الجلوس فيه كل يوم لتحرير المبتدعات ودفاتر المكوس .

ذوالقعـــدة

الاثنين غرته (٢٣ سبتمبر ١٨١٦ م) :

فيه : انهدم جانب من السواقى التى أنشأها الباشا بشبرا على حين غفلة . وقد قوى عليها النيل فتهدمت وتكسرت أخشابها ، وسقط معها أشخاص كانوا حولها ... فنجا منهم من نجا ، وغرق منهم من غرق وكان الباشا بقصر شبرا مقيما به وهو يرى ذلك

وانقضت السنة وأخبار بعض حوادثها ، واستمرار ماتجدد فيها من المبتدعات التى لا حصر لها

منها : الحجر على المزارع التى يزرعها الفلاحون فى الأراضى التى يدفعون خراجها ... من الكتان والسمسم والعصفر والنيلة والقطن والقرطم واذا بدا صلاحه لا يبيعون منه شيئا كعادتهم ، وانما يشتريه الباشا بالثمن الذى يفرضه ويقدره على يد أمناء النواحى والكشاف ، ويحملونه الى المحل الذى يؤمرون بحمله اليه ، ويعطى لهم الثمن أو يحسب لهم من أصل المال . فان احتاجوا لشىء من ذلك ، اشتروه بالثمن الزائد المفروض ! وكذلك القمح والفول والشعير ، لا يبيعون منه شيئا لغير طرف الباشا ... بالثمن المفروض والكيل الوافى !

ومنها : الأمر لكشاف الأقاليم بالمناداة العامة : بالمنع لمن يأخذ أو يأكل من الفول الأخضر والحمص والحلبة ، وأن المعينين فى الخدم والمباشرين وكشاف النواحى ، لا يأخذون شيئا من الفلاحين ، كعادتهم ،

من غير ثمن ... فمن عثر عليه بأخذ شيء — ولو رغيفا أو تبنا أو من رجيع البهائم — حصل له مزيد الضرر ... ولو كان من الأعاظم . وكذلك الأمر بتكميم أفواه المواشى التى تسرح للمرعى حوالى الجسور والغيطان .

ومنها : أن نصرانيا من الأرمن التزم بقلم الأبزار التى تأتى من بلاد الصعيد ، مثل : الحبة السوداء ، والشمر ، والأنيسون ، والكمون ، والكراوية ، ونحو ذلك ... بقدر كبير من الأكياس . ويتولى هو شراءها دون غيره ، ويبيعها بالثمن الذى يفرضه ، ومقدار ما التزم بدفعه من الأكياس للخزينة — على مابلغنا — خمسمائة كيس . وكانت فى أيام الأمراء المصريين عشرة أكياس لا غير . فلما تولى على وكالة دار السعادة : صالح بيك المحمدى ، زادها عشرة أكياس .

وكانت وكالة الأبزار والقطن وقفا لمصطفى — أغا دار السعادة سابقا — على خيرات الحرمين وخلافهما . فلما كانت هذه الدولة ، تولاها شخص على مائتى كيس . وعند ذلك سعر الأبزار أضعاف الثمن الأصلى . ومن داخل الأبزار : التمر الأبريمى والسلطانى ، والخوص والمقاطف ، والسلب والليف . وبلغ سعر المقطف الذى يسع الكيلة من البر : خمسة وعشرين نصفا ، وكان يباع بنصف أو نصفين ، ان كان جيدا . وفى الجملة بأقل من ذلك .

ومنها : أن « كرابيت » معلم ديوان الكمرك ببولاق التزم بمشيخة الحمامية ، وأحدث عليها وعلى توابعها حوادث . وعلى النساء البلانات فى كل جمعة قدرا من الدراهم ، وجعل لنفسه يوما فى كل جمعة ، يأخذ ايراده من كل حمام .

ومنها : ما حصل فى هذه السنة من شحة الصابون ، وعدم وجوده بالأسواق ومع السراحين ، وهو شيء لا يستغنى عنه الغنى ولا الفقير . وذلك أن تجاره بوكالة الصابون ، زادوا فى ثمنه ، محتجين بما عليهم من المغارم والرواتب لأهل الدولة ... فيأمر الكتخدا فيه بأسر ، ويسعره بثمن ، فيدعون الخسران وعدم الربح . وتكرر الحال فيه المرة بعد المرة ، ويتشكون من قلة المجلوب ... الى أن سعر رطله بستة وثلاثين نصفا . فلم يرتضوا ذلك ، وبالغوا فى التشكى . فطلب قوائمهم ، وعمل حسابهم ، وزادهم خمسة أنصاف فى كل رطل ، وحلف ألا يزيد على ذلك ... وهم مصممون على دعوى الخسران . فأرسل من أتباعه شخصا تركيا لمباشرة البيع ، وعدم الزيادة . فيأتى الى الخان فى كل يوم يباشر البيع على من يشترى بذلك الثمن لأربابه ، ويمكث مقدار ساعتين من النهار ، ويغلق الحواصل ، ويرفع البيع لثانى يوم . وفى ظرف هاتين الساعتين تزدحم العسكر على الشراء ، ولا يتمكن خلافهم من أهل البلد من أخذ شيء . وتخرج العسكر فيبيعون من الذى اشتروه على الناس بزيادة فاحشة ... فيأخذ الرطل بقرش ، ويبيعه على غيره بقرشين .

ورفع التشكى الى كتخدا ، فأمر ببيعه عند باب زويلة فى السبيلين — المواجه أحدهما للباب ، والسبيل الذى أنشأته الست نفيسة المرادية عند الخان تجاه الجامع المؤيدى — ليسهل على العامة تحصيله وشراؤه ، فلم يزدد الحال الا عسرا .

وذلك أن البائع يجلس داخل السبيل ، ويغلق عليه بابه ، ويتناول من خروق الشبابيك من المشترى الثمن ، ويناوله الصابون . فازدحمت طوائف العساكر على الشراء ، ويتعلقون بأيديهم وأرجلهم على شبابيك السبيلين ، والعامة أسفلهم لايتمكنون من أخذ شيء ، ويمنعون من يزاحمهم ... فيكون على السبيلين ضجة وصياح من الفريقين ، فلا يسع ابن البلد ، الفقير المضطر ، الا أن يشترى من

العسكرى بما أحب ... والا رجع الى منزله من غير شىء . واستمر الحال على هذا المنوال أياما .

وفى بعض الأحايين يكثر وجـود الصابون بين يدى الباعة بوسط السوق ، ولا تجد عليه مزاحمة وأمام البائع كوم عظيم ، وهو ينتظر من يشترى ، وذلك فى غالب الأسواق مثل : الغورية والأشرفية وباب زويلة ، والبندقانيين ، والجهات الخارجة ، ثم يصبحون فلا يوجد منه شىء ، ويرجع الازدحام على السبيلين كالأول .

ومنها : أن الباشا أطلق المناداة فى البلدة ، وندب جماعة من المهندسين والمباشرين للكشف على الدور والمساكن . فان وجدوا به أو ببعضه خللا ، أمروا صاحبه بهدمه وتعميره . فان كان يعجز عن ذلك ، فيؤمر بالخروج منهـا واخلائها ، ويعاد بنـاؤها على طرف الميرى ، وتصير من حقوق الدولة !

وسبب هذه النكتة : أنه بلغ الباشا سقوط دار ببعض الجهات ، ومات تحت ردمها ثلاثة أشخاص من سكانها . فأمر بالمناداة ، وأرسـل المهندسين والأمر بما ذكر . فنزل بأهالى البلد من الكرب أمر عظيم ، مع ما هم فيه من الإفلاس ، وقطع الايراد ، وغلو الأسعار .

على أن من كان له نوع مقـدرة عـلى الهدم والبنـاء ، لايجـد من أدواته شـيئا ... بحسب التحجير الواقع على أرباب الأشـغال واسـتعمال الجميع فى عمائر الباشا وأكابر الدولة ... حتى ان الانسان اذا احتاج لبناء كانون لايجد من يبنيه ! ولا يقدر على تحصيل صانع ، أو فاعل ، أو أخذ شىء من رماد الحمام ... الا بفرمان . ومن حصل شيئا من ذلك — على طريق السرقة — فى غفلة ، وعثر عليه ... نكلوا به ، وبرئيس الحمام . وحمير الباشا — وهى أزيد من ألفى حمار — تنقل بالمزابل والسرقانيات ، طول النهار ، ما يوجد بالحمامات من الرماد ، وتنقل أيضا الطوب والدبش والأتربة وأنقاض البيوت المتهدمة لمحل العمائر بالقلعـة ، وغيرها . فترى الأسواق والعطف مزدحمة بقطارات الحمير الذاهبة والراجعة .

واذا هدم انسان داره ، التى أمروه بهدمهـا ، وصل اليه فى الحال قطار من الحمير لأخذ الطوب الذى يتساقط ... الا أن يكون من أهل القدرة على منعهم . وربما كانت هـذه الأوامر حيلة على أخذ الأنقاض . وأما الأتربة فتبقى بحالهـا — حتى فى طرق المارة — للعجـز عن نقلهـا . فترى غالب الطرق والنواحى مردومة بالأتربة .

وأما الهـدم ، ونقل الأنقـاض من البيـوت الكبار ، والدور الواسعة ، التى كانت مسـاكن الأمراء المصريين بكل ناحية — وخصـوصا بركة الفيل ، وجهة الحبانية — فهو مستمر ، حتى بقيت خرائب خربة ، ودعائم قائمـة ، وكيمـانا هائلة ، واختلطت بهـا الطرق ، وأصبحت موحشـة ... ولا مأوى بها حتى للبوم ! بعـد أن كانت مراتع غزلان . فكنت كلما رأيتها أتذكر قول القائل :

هـذى منـازل أقوام عهـدتهم
فى خفض عيش نعيم ما له خطر
صاحت بهم نوب الأيام فارتحلوا
الى القبـور فلا عين ولا أثر

وكذلك بولاق ، التى كانت منتزه الأحبـاب والرفاق ، فانه تسلط عليهـا كل من سليمان أغا السلحدار واسماعيل باشا ... فى الهدم ، وأخـذ أنقـاض الأبنيـة لأبنيتهـم بين انبابة ، والجزيرة الوسـطى بين انبـابة وبولاق . فان سليمان أغا أنشأ بستانا كبيرا ببر انبابة ، وسوره وبنى به قصرا وسواقى ، وأخذ يهدم أبنية بولاق ، من الوكائل والدور ، وينقل أحجارها وأنقاضها فى المراكب ، ليلا ونهارا ، الى البر الآخر . واسماعيل باشا كذلك

أنشأ بستانا وقصرا بالجزيرة ، وشرع أيضـا فى اتساع سرايته ومحل سكنه ببولاق ، وأخذ الدور والمساكن ، والوكائل ... من حد الشون القديم الى آخر وكالة الأبزار العظيمة طولا فيهـدمون الدور وغيرها من غير مانع ولا شـافع ، وينقلون الأنقاض الى محل البناء .

وكذلك ولى خوجة شرع فى بناء قصر بالروضة ببستان . فهو الآخر يهـدم ما يهـدمه من مصر القديمة ، وينقل أنقاضه لبنائه ، وهلك قبل اتمامه !

وأما نصارى الأرمن — وما أدراك ما الأرمن ! — الذين هم أخصاء الدولة الآن ، فانهم أنشأوا دورا وقصورا وبساتين بمصر القديمة لسكنهم فهم يهدمون أيضا وينقلون لأبنيتهم ماشاءوا ، ولا حرج عليهم ، وانما الحرج والمنع والحجر والهدم عـلى المسلمين ، من أهل البلدة فقط !

ومنها : أن الباشا أمر ببناء مساكن للعسكر الذين أخرجهم من مصر ... بالأقاليم ، يسموتها القشلات ، بكل جهة من أقاليم الأرياف ، لسـكن العسـاكر المقيمين بالنواحى ، لتضررهم من الاقامة الطويلة بالخيام ، فى الحر والبرد ، واحتياج الخيام فى كل حين الى تجـديد وترقيع ، وكثير خـدمة . وهى جمع قشلة — بكسر القاف وسكون الشـين — وهى فى اللغة التركية المكان الشتوى ، لأن الشتاء فى لغتهم يسمى «قش» — بكسر القاف وسكون الشين — فكتب مراسيم الى النواحى بسـائر القرى بالأمر لهم بعمل الطوب اللبن ، ثم حرقه وحمله الى محل البناء . وفرضوا على كل بلد وقرية فرضا ، وعددا معينا . فيفرض على القرية مثـلا : خمسمائة ألف لبنة وأكثر ... بحسب كبر القرية وصـغرها فيجمع كاشف الناحية مشايخ القرى ، ثم يفرض على كل شيخ قدرا وعددا من اللبن : عشرين ألفا ، أو ثلاثين ألفـا ، أو أكثر ، أو أقل . ويلزم بضربها وحرقها ورفعها ، وأجلهم مدة ثلاثين يوما . وفرضوا على كل قرية أيضـا مقادير من أفـلاق النخل ، ومقادير من الجريد ... ثم فرضـوا عليهم أيضـا أشـخاصا من الرجال لمحل الأشـغال والعمائر ، يسـتعملونهم فى فعـالة نقل أدوات العمارة فى النواحى ، حتى الاسكندرية وخلافها ولهم أجرة أعمالهم ، فى كل يوم ، لكل شخص سبعة أنصاف فضة لاغير ، ولمن يعمل اللبن أجرة أيضا ، ولثمن الأفلاق والجريد قدر معلوم ، لكنه قليل

ومنها : أنه توجه الأمر لكشاف النواحى ، عند انكشـاف المـاء عن الأراضى ، بأن يتقدموا الى الفلاحـين : بأن من كان زارعا فى العـام الماضى فدانى كتان ، أو حمص ، أو سمسم ، أو قطن ... فليزرع فى هذه السنة أربعة أفدنة ضعف ما تقدم لأن المزارعين عزموا على عدم زراعة هذه الأشـياء لمـا حصل لهم من أخذ ثمرات متاعهم وزراعاتهم ، التى دفعوا خراجهـا الزائد ، بدون القيمة التى كانوا يبيعون بها ... مـع قلة الخراج الذى كانوا يماطلون فيه الملتزمين السـابقين ، مـع التظلم ، والتشكى . فيزرع الزارع ما يزرعه من هذه الأشياء من التقاوى المتروكة فى مخزنه ، ثم يبيع الفـدان من الكتان الأخضر فى غيطه ، ان كان مستعجلا ، بالثمن الكثير ... والا أبقـاه الى تمام صـلاحه ، فيجمعه ويدقه ويبيع ما يبيعه من البزر ، خاصـة ، بأغلى ثمن ، ثم يتمم خدمته ، من التعطين والنشر والتحمير ... الى أن يصفى ، وينظـف من أدرانه وخشـوناته ، وينصلح للغزل والنسـج ، فيباع حينئـذ بالأوقيـة والرطل . وكذا القطن والنيـلة والعصفر .

فلمـا وقـع عليهـم التحجـير ، وحرموا من المكاسب ، التى كانوا يتوسعون بها فى معايشهم ، باقتناء المواشى والحلى للنسـاء ، قالوا : ما عـدنا نزرع هذه الأشياء . وظنوا أن يتركوا على هواهم ،

ونسوا مكر أوليائهم ، فنزل عليهم الأمر والالزام ، بزرع الضعف ... فضجوا ، وترجوا واستشفعوا ، ورضوا بمقدار العام الماضي ، فمنهم من سومح ، ومنهم من لم يسامح ... وهو ذو المقدرة .

وبعد اتمامه وكمال صلاحه ، يؤخذ بالثمن المفروض على طرف الميرى ، ويباع لمن يشترى ، من أربابه أو خلافهم ، بالثمن المقدر . وربح زيادته لطرف حضرة الباشا ... مع التضييق والحجر البليغ والفحص عن الاختلاس . فمن عثروا عليه باختلاس شيء ، ولو قليلا ، عوقب عقابا شديدا ليرتدع خلافه . والكتبة والموظفون لتحرير كل صنف ووزنه وضبطه في تنقلات أطواره ، وعند تسليم الصناع .

ونتج من ذلك وأثمر عزة الأشياء ، وغلو الأسعار على الناس ، منها : أن المقطع القماش ، الذي كان ثمنه ثلاثين نصفا ، بلغ سعره عشرة قروش ... مع عزة وجدانه بالأسواق المعدة لبيعه ، مثل : سوق مرجوش وخلافه ... خلا الطوافين به . والثوب البطانة ، الذي كان ثمنه قرشين ، بلغ ثمنه سبعة قروش ، وأدركناه في الأزمان السابقة يباع بعشرين نصفا . وبلغ ثمن الثوب من البفتة المحلاوي أربعة عشر قرشا ، وكان يباع — فيما أدركنا — بدكان التاجر بستين نصفا ... وقس على ذلك !

وبسبب التحجير على النيلة ، غلا صبغ ثياب الفقراء ، حتى بلغ صبغ الذراع الواحد ، نصف قرش ... والله يلطف بحال خلقه . وما دام «توزون» له امرأة مطاعة فالميل في الجمر !

ومنها : استمر التحجير على الأرز ومزارعه ، على مثل هذا النسق ، بحيث أن الزراعين له التعبانين فيه ، لا يمكنون من أخذ حبة منه ، فيؤخذ بأجمعه لطرف الباشا ، بما قدره من الثمن ، ثم يخدم ويضرب ويبيض في المداوير والمدقات ، والمناشر ، بأجرة العمال على طرفه ، ثم يباع بالثمن المفروض .

واتفق أن شخصا من أبناء البلد ، يسمى حسين چلبي عجوة ، ابتكر بفكره صورة دائرة ، وهي التي يدقون بها الأرز ، وعمل لها مثالا من الصفيح تدور بأسهل طريقة ... بحيث أن الآلة المعتادة اذا كانت تدور بأربعة أثوار ، فيدير هذه ثوران . وقدم ذلك المثال الى الباشا ، فأعجبه ، وأنعم عليه بدراهم ، وأمره بالمسير الى دمياط ، ويبنى بها دائرة ويهندسها برأيه ، ومعرفته . وأعطاه مرسوما بما يحتاجه من الأخشاب والحديد والمصرف ... ففعل ، وصح قوله ... ثم فعل أخرى برشيد ، وراج أمره ، بسبب ذلك .

ومنها : أن الباشا لما رأى هذه النكتة من حسين شلبي هذا ، قال : « ان في أولاد مصر نجابة ، وقابلية للمعارف » . فأمر ببناء مكتب بحوش السراية ، ويرتب فيه جملة من أولاد البلد ، ومماليك الباشا ، وجعل معلمهم حسن أفندي — المعروف بالدرويش الموصلي — يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة ، وعلم المقادير والقياسات والارتفاعات ، واستخراج المجهولات ... مع مشاركة شخص رومي ، يقال له : روح الدين أفندي ... بل وأشخاصا من الافرنج . وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة من أشغال الانكليز ، يأخذون بها الأبعاد ، والارتفاعات ، والمساحة . ورتب لهم شهريات . وكساوي في السنة .

واستمروا على الاجتماع بهذا المكتب ، وسموه مهندس خانة ، في كل يوم من الصباح الى بعد الظهيرة ، ثم ينزلون الى بيوتهم ، ويخرجون في بعض الأيام الى الخلاء ، لتعليم مساحات الأراضي وقياساتها بالأقصاب ... وهو الغرض المقصود للباشا !

ومنها : استمرار الانشاء فى السفن الكبار والصغار ، لنقل الغلال من قبلى وبحرى لناحية الأسكندرية ، لتباع على الافرنج ... من سائر أصناف الحبوب . فيشحنون السفن من سواحل البلاد القبلية ، وتأتى الى ساحل بولاق ، ومصر القديمة ، فيصبونها كيمانا هائلة ، عظيمة ، صاعدة فى الهواء . فتصل المراكب البحرية لنقلها ، فتصبح ولا يبقى شىء منها . ويأتى غيرها ، وتعود كما كانت بالأمس ... ومثل ذلك بساحل رشيد . وأما الحبوب البحرية فانها لا تأتى الى هذه السواحل ، بل تذهب من سواحلها الى حيث هى برشيد ، ثم الى الاسكندرية .

ولما بطل البغاز ، جمعوا الحمير الكثيرة والجمال ، ينقلون عليها على طريق البر بالأجرة القليلة ، فكانت تموت ، من قلة العلف ، ومشقة الطريق ، وتوسق بها السفن الواصلة بالطلب الى بلاد الافرنج بالثمن ، عن كل أردب من البر ستة آلاف فضة .

وأما الفول والشعير ، والحلبة والذرة ، وغيرها من الحبوب والأدهان فأسعارها مختلفة ، ويعوض بالبضائع والنقود من الفرانسة ، معبأة فى صناديق صغيرة تحمل الثلاثة منها على بعير الى الخزينة — وهى مصفحة بالحديد — يمرون بها قطارات الى القلعة .

وعند قلة الغلال ، ومضى وقت الحصاد ، يتقدم الى كشاف النواحى القبلية والبحرية ، بفرض مقادير من الغلال على البلدان والقرى ، فيلزمون مشايخ البلدان بما تقرر على كل بلد ، من القمح والفول والذرة ، ليجمعوه ويحصلوه من الفلاحين ، وهم أيضا يعملون بفلاحى بلادهم ما يعملون بجورهم وأغراضهم ، ويأخذون الأقوات المدخرة للعيال ، وذلك بالثمن : عن كل أردب من البر ثمانية ريال ، يعطى له نصفها ، ويبقى له النصف الثانى ليحسب له من أصل المال الذى سيطالب به فى العام القابل .

ومنها : أن الباشا سنح له أن ينشىء بالمحل المعروف برأس الوادى ، بشرقية بلبيس ، سواقى وعمارات ومزارع وأشجارتوت وزيتون . فذهب هناك ، وكشف عن أراضيه ، فوجدها متسعة ، وخالية من المزارع ... وهى أراضى رمال وأودية — فوكل أناسا لاصلاحها وتمهيدها ، وأن يحفروا بها جملة من السواقى ، تزيد عن الألف ساقية ، ويبنوا أبنية ومساكن ، ويزرعوا أشجار التوت لتربية دود القز ، وأشجارا كثيرة من الزيتون لعمل الصابون .

وشرعوا فى العمل والحفر والبناء ، وفى انشاء توابيت خشب للسواقى ، تصنع ببيت الجبجى بالتبانة ، وتحمل على الجمال الى رأس الوادى ، شيئا بعد شىء ، وأمر أيضا ببناء جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية ، وأن يعمل مصبنة لصناعة الصابون وطبخه ، مثل الذى يصنع ببلاد الشام ، وتوكل بذلك السيد أحمد بن يوسف فخر الدين ، وعمل به أحواضا كبيرة للزيت والقلى .

ومن المتجددات أيضا : محل بخطة تحت الربع ، يعمل به وتسبك أوانى ودسوت من النحاس ، فى غاية الكبر والعظم .

ومنها : شغل البارود ، وصناعته بالمكان والصناع المعدة لذلك بجزيرة الروضة ، بالقرب من المقياس ، بعد أن يستخرجوه من كيمان السباخ ، فى أحواض مبنية ومخفقة ، ثم يكررونه بالطبخ ، حتى يكون ملحه غاية فى البياض والحدة ، كالذى يجلب من بلاد الانكليز والتقيد كبيرا على صناعه شخص أفرنكى ، ولهم معاليم تصرف فى كل شهر ، ومكان أيضا بالقلعة عند باب الينكجرية ، لسبك المدافع ، وعملها ، وقياساتها ، وهندستها ... والبنبات ، وارتفاعها

ومقاديرها ، وسمى ذلك المكان « الطبخانة » وعليه رئيس وكتبة ، وصناع ، ولهم شهريات .

ومنها : شدة رغبة الباشا فى تحصيل الأموال والزيادة من ذلك من أى طريق بعد استيلائه على البلاد ، والاقطاعات ، والرزق الأحباسية ، وابطال الفراغ ، والبيع ، والشراء ، والحلول عن الموتى من ذلك ، والعلوفات ، وغلال الأنبار ، ونحوذلك . فكل من مات عن حصته أو رزقته أو مرتب ، انحل بموته ما كان على اسمه ، وضبط ، وأضيف الى ديوانه ... ولو له أولاد ، أو كان هو كتبه باسم أولاده ، وماتت أولاده قبله ، انحل عنه ، وأصبح هو وأولاده من غير شيء . فان أعرض حاله على الباشا ، أمر بالكشف عن ايراده ، فان وجدوا بالدفاتر جهة أو وظيفة أخرى ، قيل له : هذه تكفيك . وان لم يوجد فى حوزه خلافها ، أمر له بشيء يستغله من أقلام المكوس : اما قرش ، أو نصف قرش فى كل يوم ، أو نحو ذلك .

هذا مع التفاته ورغبته فى أنواع التجارات والشركات ، وانشاء السفن ببحر الروم والقلزم . وأقام له وكلاء بسائر الأساكل ، حتى ببلاد فرانسة والانكليز ، ومالطة ، وأزمير ، وتونس ، والنابلطان والونديك والبنادقة ، واليمن والهند ، وأعطى أناسا جملا عظيمة من أموال يسافرون بها ، ويجلبون البضائع ، وجعل لهم الثلث فى الربح ، فى نظير سفرهم ، وخدمتهم . فمن ذلك أنه أعطى للرئيس حسن المحروقى خمسمائة ألف فرانسة يسافر بها الى الهند ويشترى البضائع الهندية ، ويأتى بها الى مصر ، ولشخص نصرانى أيضا ستمائة ألف فرانسة . وكذلك لمن يذهب الى بيروت ، وبلاد الشام لمشترى القز والحرير ، وغير ذلك .

وعمل بمصر أماكن ومصانع لنسج القطانى ، التى يتخذها الناس فى ملابسهم من القطن والحرير ، وكذلك الجنفس والصندل . واحتكر ذلك بأجمعه ، وأبطل دواليب الصناع لذلك ومعلميهم ، وأقامهم يشتغلون ، وينسجون فى المناسج التى أحدثها بالأجرة ، وأبطل مكاسبهم أيضا وطرائقهم التى كانوا عليها . فيأخذ من ذلك مايحتاجه فى اليلكات والكساوى ، وما زاد يرميه على التجار ، وهم يبيعونه على الناس بأغلى ثمن ، وبلغ ثمن الدرهم من الحرير خمسة وعشرين نصفا ، بعد أن كان يباع بنصفين .

ومنها : أنه أبطل ديوان المنجرة ، وهى عبارة عما يؤخذ من المعاشات ، وهى المراكب التى تغدو وتروح لموارد الأرياف مثل : شبيين الكوم ، وسمنود والبلاد البحرية ، وعليها ضرائب وفرائض للملتزم بذلك ، وهو شخص يسمى : على الجزار .

وسبب ذلك أن معظم المراكب التى تصعد ببحر النيل وتنحدر من انشاء الباشا ، ولم يبق لغيره الا القليل جدا . والعمل والانشاء بالترسخانة مستمر على الدوام ، والرؤساء والملاحون يخدمون فيها بالأجرة ، وعمارة خللها وأحبالها ، وجميع احتياجاتها على طرف الترسخانة ، ولذلك مباشرون وكتاب وأمناء يكتبون ، ويقيدون الصادر والوارد . وهذه الترسخانة بساحل بولاق بها الأخشاب الكثيرة والمتنوعة ، وما يصلح للعمائر والمراكب ، ويأتى اليها المجلوب من البلاد الرومية ، والشامية . فاذا ورد شيء من أنواع الأخشاب سمحوا للخشابة بشيء يسير منها ، بالثمن الزائد ، ورفع الباقى الى الترسخانة . وجميع الأخشاب الواردة والأحطاب جميعها فى متاجر الباشا ، وليس لتجارها الا ماكان من داخل متاجره ، وهو القليل .

ومن النوادر : أنه وصل من بلاد الانكليز سواقى بآلات الحديد تدور بالماء ، فلم يستقم لها دوران على بحر النيل .

ومنها : أنه أنشأ جسرا ممتدا من ناحية قنطرة الليمون — على يمنة السالك الى طريق بولاق —

متصلا الى شبرا على خط مستقيم . وزرعوا حافتيه أشجار التوت ، وعلى هذا النسق جسور بطرق الأرياف والأقاليم .

ومنها : أن اللحم قل وجوده من أول شهر رجب الى غاية السنة ، وغلا سعره مع رداءته وهزاله ... حتى بيع الرطل بعشرين نصفا ، وأزيد وأقل ، مع ما فيه من العظام وأجزاء السقط والشغت . وسبب ذلك رواتب الدولة ، وأخذها بالثمن القليل ، فيستعوض الجزارون خسارتهم من الناس . وكان البعض من العسكر يشترى الأغنام ويذبحها ، ويبيعها بالثمن الغالى ، وينقص الوزن ، ولا يقدر ابن البلد على مراجعته .

ومنها : أن ابراهيم آغا — الذى كان كتخدا ابراهيم باشا — قلده الباشا كشوفية المنوفية ، فمن أفاعيله : أنه يطلب مشايخ البلدة أو القرية ، فيسأل الشخص منهم على من شيخه فيقول : « أستاذ البلدة » . فيقول له : « فى أى وقت ؟ » ، فيقول : « سنة كذا » . فيقول : « وما الذى قدمته له فى شياختك ؟ » . ويهدده أو يحبسه على الانكار ، أو يخبر من بادىء الأمر ، ويقول : « أعطيته كذا وكذا » . اما دراهم ، أو أغناما ، فيأمر الكاتب بتقييده وتحريره وضبطه على الملتزم ، وسطر بذلك دفترا وأرسله الى الديوان ليخصم على الملتزمين من فائظهم المحرر لهم بالديوان . فيتفق أن المحرر عليه يزيد على القدر المطلوب له فيطالب بالباقى أو يخصم عليه من السنة القابلة !

ومنها : التحجير على القصب الفارسى ، فلا يتمكن أحد من شراء شىء منه — ولو قصبة واحدة — الا بمرسوم من كتخدا بيك . فمن احتاج منه فى عمارة أو شباك ، أو لدوارات الحرير ، أو أقصاب الدخان ، أخذ فرمانا بقدر احتياجه ، واحتاج الى وسايط ومعالجات واحتجاجات حتى يظفر بمطلوبه .

ومنها : — وهى من محاسن الأفعال — أن الباشا أعمل همته فى اعادة السد الأعظم الممتد الموصل الى الاسكندرية ، وقد كان اتسع أمره وتخرب من مدة سنين ، وزحف منه ماء البحر المالح ، وأتلف أراضى كثيرة ، وخربت منه قرى ومزارع ، وتعطلت بسببه الطرق والمسالك ، وعجزت الدول فى أمره ، ولم يزل يتزايد فى التهور وزحف المياه المالحة على الأراضى حتى وصلت الى خليج الأشرفية — التى يمتلىء منها صهاريج الثغر — فكانوا يجسرون عليه بالأتربة والطين ، فلما اعتنى الباشا بتعمير الاسكندرية ، وتشييد أركانها وأبراجها وتحصينها ولم تزل بها العمارات ، اعتنى أيضا بأمر الجسر ، وأرسل اليه المباشرين والقومة والرجال والفعلة والنجارين والبنائين والمسامير وآلات الحديد والأحجار والمؤن والأخشاب العظيمة ، والبهوم والبراطيم حتى تممه وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله بشىء من العدالة — على مافيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة — لكان أعجوبة زمانه ، وفريد أوانه

وأما أمر العاملة ، فلم يزل حالها فى التزايد حتى وصل صرف الريال الفرانسة الى تسعة قروش ، وهو أربعة أمثال الريال المتعارف ولما بطل ضرب القروش من العام الماضى ، ضربوا بدلها أنصاف قروش وأرباعها وأثمانها ، وتصرف بالفرط والأنصاف العادية لا وجود لها بأيدى الناس ... الا ما قل جدا . فاذا أراد انسان منها ، دفع فى ابدالها عشرة قروش : عنها أربعمائة نصف فضة زيادة على المبدل ان كان ذهبا أو فرانسة أو قروشا ووصل صرف البندقى الى ثمانمائة نصف ، والمحر ثمانية عشر قرشا ، والمحبوب المصرى الى أربعمائة ، والاسلامبولى الى أربعمائة وثمانين ... كل ذلك أسماء لا مسميات لانعدام الانصاف ، مع أنه يضرب منها القادير والقناطير ، يأخذها التجار الشاميون

والرومينون بالفرط ، ثم يرسلونها متاجر بدلا عن البضائع ، لأن الريال فى تلك البلاد صرفه ثلثمائة نصف فقط . فيكون فيه من الربح ستون نصفا فى كل ريال .

ولما علم الباشا ذلك . جعل يرسل لوكلائه بالشام فى كل شهر ألف كيس من الفضة العددية ويأتيه بدلها فرانسة ، فيضيف عليها ثلاثة أمثالها نحاسا ، ويضربها فضة عددية فيربح فيها ربحا — بدون جاء (أى بدون ربا) — عظيما ، وهكذا من هذا الباب فقط .

ومن حوادث السنة الآفاقية : واقعة الانكليز مع أهل الجزائر ، وهو أن لأهل الجزائر صولة واستعدادا وغزوات فى البحر ، ويغزون مراكب الافرنج ، ويغتنمون منها غنائم ، ويأخذون منهم أسرى ، وتحت أيديهم من أسارى الانكليز وغيرهم شىء كثير ، وميناتهم حصينة يدور بها سور خارج فى البحر كنصف الدائرة فى غاية الضخامة والمتانة ، ذو أبراج مشحونة بالمدافع والقنابر والمرابطين والمحاربين ، ومراكبهم من داخله ، فوصل اليهم بعض مراكب الانكليز ، ومعهم مرسوم من السلطان العثمانى . ليفتدوا أساراهم بمال ، فأعطوهم ما يزيد عن الألف أسير ، ودفعوا عن كل رأس أسير مائة وخمسين فرانسا ، ورجعوا من حيث أتوا .

وبعد مدة وصل منهم بعض سفائن الى خارج المينا ، رافعين أعلام السلم والصلح . فعبروا داخل المينا من غير ممانع ، ونزل منهم أنفار فى فلوكة ، وبيدهم مرسوم بطلب باقى الأسرى ، فامتنع حاكمهم من ذلك ، وترددوا فى المخاطبات ، وفى أثناء ذلك وصلت عدة مراكب من مراكبهم ، وشلنبات — وهى المراكب الصغار المعدة للحرب — وعبروا مع مساعدة الريح الى المينا ، وأثاروا الحرب والضراب بطرائقهم المستحدثة ، فأحرقوا مراكب أهل الجزائر مع المضاربة أيضا من أهل المدينة ، مع تأخر استعدادهم ، وسرعة استعداد الخصم ، ومدافع الأبراج الداخلة لا تصيب الشلنبات الصغيرة المتسفلة — وهم لا يخطئون . ثم هم فى شدة الغارة والحرب ، اذ قيل للحاكم بأن عساكره الأتراك تركوا المحاربة ، واشتغلوا بنهب البلدة ، واحراق الدور ، فسقط فى يده ، واحتار فى أمره .. ما بين قتال العدو الواصل ، أو قتال عسكره ومنعهم وكفهم عن النهب والاحراق والفساد — وهذا شأنهم — فلم يسعه الا خفض الأعلام ، وطلب الأمان من الانكليز ، فعند ذلك أبطلوا الحرب ، وكفوا عن الضراب .

وترددوا فى الصلح على شرائطهم .. التى منها : تسليم بواقى الأسرى ، واسترداد المال الذى سلموه فى الفداء السابق حالا من غير مهلة . فكان ذلك ، وتسلموا الأسرى .

وفيهم من كان صغيرا وأسلم وقرأ القرآن واتفقوا على المتاركة والمهلة زمنا مقداره ستة أشهر ، ورجعوا الى بلادهم بالظفر والأسرى .

والأمر لله وحده !

ثم ان الجزائرلية اجتهدوا فى تعمير ماتهدم وتخرب من السور والأبراج والجامع فى الحرب ، وكذلك ما أخربه عساكرهم ، الذين هم أعدى من الأعداء — وأضر ما يكون على الاسلام وأهله . وسارت الأخبار بذلك فى الآفاق ، وأمدهم سلطان المغرب مولاى سليمان ، وبعث اليهم مراكب عوضا عن الذى تلف من مراكبهم ، فأرسل اليهم معمرين وأدوات ولوازم عمارات ، وكذلك حاكم تونس وغيرها ، ومن السلطان العثمانى أيضا .

ولم يتفق فيما نعلم لأهل الجزائر مثل هذه الحادثة الهائلة ، ولا أشنع منها . وكانت هذه الواقعة غرة شهر شوال من السنة ، وهو يوم عيد الفطر ، وكان عيدا عليهم فى غاية الشناعة ...

ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ...

وأما من مات فى هذه السنة ممن له ذكر :

مات الشيخ الفهامة ، والنحرير العلامة ، الفقيه النحوى الأصولى .. ابراهيم البسيونى البجيرمى الشافعى . وهو ابن أخت الشيخ موسى البجيرمى.. الشيخ الصالح المقتصد الورع الزاهد .

حضر جل الأشياخ المتقدمين ، وهو فى عداد الطبقة الأولى ، ودرس وأفاد ، وانتفع به الطلبة ... بل غالب الناس .

كان طارحا للتكلف ، متقشفا مع التواضع والانكسار ، ملازما على العبادة ، مستحضرا للفروع الفقهية والمعقولية ، والمناسبات الشعرية ، والشواهد النحوية والأدبية .. جيد الحافظة ، لا تمل مجالسته ومؤانسته . ولم يزل على حالته وافادته ، وانجماعه وعفته ، حتى تمرض وتوفى يوم السبت ، منتصف المحرم من السنة ، عن نحو الخمسة وسبعين ، وصلى عليه بالأزهر فى مشهد حافل . رحمه الله تعالى وايانا .

* * *

ومات الشيخ العلامة ، الأصولى ، الفقيه النحوى : على الحصاوى الشافعى ... نسبة الى بلدة بالقليوبية تسمى الحصة .

حضر الى الجامع الأزهر صغيرا ، وحفظ القرآن والمتون ، وحضر دروس الأشياخ : كالشيخ على العدوى المنسفيسى الشهير بالصعيدى ، والشيخ عبد الرحمن النحريرى الشهير بالمقرى . ولازم الشيخ سليمان الجمل ، وبه تخرج . وحضر على الشيخ عبد الله الشرقاوى مصطلح الحديث . وكان يحفظ جمع الجوامع ، مع شرحه للجلال المحلى فى الأصول ، ومختصر السعد ، ويقرأ الدروس ، ويفيد الطلبة .

وكان انسانا حسنا مهذبا متواضعا ، ولا يرى لنفسه مقاما ... عاش معانقا للخمول فى جهد وقلة من العيش ، مع العفة وعدم التطلع لغيره ، صابرا على مناكدة زوجته . وبآخرة أصيب فى شقه بداء الفالج انقطع بسببه أشهرا ، ثم انجلى عنه يسيرا مع سلامة حواسه ، وعاد الى الاقراء والافادة .

ولم يزل على حسن حاله ، ورضاه وانشراح صدره ، وعدم تضجره وشكواه للمخلوقين الى أن توفى فى شهر جمادى الثانية سنة احدى وثلاثين ومائتين وألف . رحمه الله وايانا .

* * *

ومات الشيخ العلامة ، والنحرير الفهامة : السيد أحمد بن محمد بن إسماعيل ، من ذرية السيد محمد الدوقاطى الطهطاوى الحنفى .

والده رومى حضر الى أرض مصر متقلدا القضاء بطهطا — بلدة بالقرب من أسيوط بالصعيد الأدنى — فتزوج بامرأة شريفة فولد له منها المترجم ، وأخوه السيد اسماعيل . ولم يزل مستوطنا بها الى أن مات وترك ولديه المذكورين وأختا لهما .

. حضر المترجم الى مصر فى سنة احدى وثمانين ومائة وألف — وكان قد بدا نبات لحيته — بعدما حفظ القرآن ببلده ، وقرأ شيئا من النحو ، فدخل الأزهر ولازم الحضور فى الفقه على الشيخ أحمد

الحماقى ، والمقدسى ، والحريرى ، والشيخ مصطفى الطائى ، والشيخ عبد الرحمن العريشى ... حضر عليه من أول كتاب الدر المختار الى كتاب البيوع ، وتمم حضوره على المرحوم الوالد مع الجماعة ، لتوجه الشيخ عبد الرحمن لدار السلطنة لبعض المقتضيات عن آمر على بيك فى سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف . فالتمس الجماعة تكملة الكتاب على الوالد ، فأجابهم لذلك . فكانوا يأتون للتلقى عنه فى المنزل ، والمترجم معهم .

وفى أثناء ذلك قرأت مع المترجم على الوالد متن نور الايضاح بعد انصراف الجماعة عن الدرس وتخلف المترجم ... وذلك لعلو السند ، فان الوالد تلقاه عن ابن المؤلف ، وهو عن جد الوالد ، عن المؤلف . وجد الوالد والمؤلف يسميان « بحسن »، فهو من عجيب الاتفاق .

وكان المترجم يلائم طبع الفقير فى الصحبة ، فكنت معه فى غالب الأوقات ، اما فى الجامع أو فى المنزل ، للطافة طبعه، وقرب سنى من سنه . وكان الوالد يرى ذلك ، ويسألنى عنه اذا تخلف فى بعض الأحيان ، ويقول : « أين رفيقك الصعيدى ؟ » . فكان يعيد معى ويفهمنى ما يصعب على فهمه . ولم يزل يدأب فى الاشتغال والطلب ، مع جودة ذهنه ، وخلو باله وتفرغه ... والفقير بخلاف ذلك (١) .

وتلقى المترجم الحديث سماعا واجازة عن كل من الشيخ حسن الجداوى ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ عبد العليم الفيومى ... ثلاثتهم عن الشيخ على العدوى المنسفيسى ، عن الشيخ محمد عقيلة بسنده المشهور .

ولما ترشح للافادة والتدريس — وكان مسكنه بناحية الصليبة — جلس للاقراء بالمدرسة الشيخونية والصرغتمشية ، واحتف به سكان تلك الناحية وأكابرهم ، واعتنوا بشأنه ، وأسكنوه فى دار تليق به ، وهادوه ، وواسوه ، وأكرموه .

وكانت تلك الناحية عامرة بأكابرها . وانفرد المترجم عندهم لكونه على مذهبهم ، وأصله من جنس الأتراك ، وخلو تلك النواحى من أهل العلم — وخصوصا الأحناف — وملازمة المترجم للحالة المحمودة من الافادة ... مع شرف النفس ، والتباعد عما يخل بالمروءة — الا ما يأتيه عفوا — فازدادت محبتهم له ، ووثقوا فيما يقضيه .

ثم تصدى لوقف الشيخونيتين وايرادهما ، واستخلاص أماكنهما ، وشرع فى تعميرهما . وساعده على ذلك كل من كان يحب الاصلاح ، فجدد عمارة المسجد والتكية ، وأنشأ بها صهريجا . وفى أثناء ذلك انتقل بأهله الى دار مليحة بجوار المسجد — بالدرب المعروف بدرب الميضأة — وقفها بانيها على المسجد .

كل ذلك والمترجم لم ينقطع عن الحضور الى الأزهر فى كل يوم ، ويقرأ درسه أيضا بالجامع . ولما كثرت جماعته ، انتقل الى المدرسة العينية بالقرب من الأزهر .

ولما عمر محمد أفندى الودنلى الجامع المجاور لمنزله ، تجاه القنطرة المعروفة بعمارشاه ، والمكتب ... قرر المترجم فى درس الحديث بها فى كل يوم بعد العصر ، وقرر له عشرة من الطلبة ، ورتب للشيخ والطلبة معلوما وافرا يقبض من الديوان .

ولما مات الشيخ ابراهيم الحريرى ، تعين المترجم لمشيخة الحنفية ، فتقلدها على امتناع منه ، فاستمر الى أن أخرج السيد عمر مكرم من مصر منفيا ، وكتبوا فى شأنه عرضحالا الى الدولة ، نسبوا اليه فيه أشياء لم تحصل منه ، وطلبوا الشهادة فيها ... فامتنع . فشنعوا عليه ، وبالغوا فى

---

(١) يعنى نفسه .

الحط عليه ، وعزلوه من المشيخة وقلدوها الشيخ حسين المنصورى . فلما مات المذكور ، أعيد المترجم الى مشيخة الحنفية — وذلك فى غرة شهر صفر سنة ألف ومائتين وثلاثين — ولبس الخلع من الشيخ الشنوانى ، شيخ الجامع ، ثم من الباشا ، وباقى المشايخ أرباب المظاهر ، ولم يختلف عليه اثنان .

وفى هذه السنة استأذن الفقير فى بناء مقبرة يدفن فيها اذا مات ، بجوار الشيخ أبى جعفر الطحاوى بالقرافة ، لكونى ناظرا عليها . فأذنت له فى ذلك ، فبنى له قبرا بجانب مقام الأستاذ . ولما توفى دفن فيه .

وكانت وفاته ليلة الجمعة بعد الغروب ، خامس عشر رجب سنة احدى وثلاثين ومائتين وألف . وله من المآثر حاشية على الدر المختار : شرح تنوير الأبصار فى أربعة مجلدات ، جمع فيها المواد التى على الكتاب ، وضم اليها غيرها .

* * *

ومات النجيب الأريب ، والنادرة العجيب ... أعجوبة الزمان ، وبهجة الخلان : حسن افندى — المعروف بالدرويش الموصلى ، كما أخبر عن نفسه — الذكى الألمعى ، والسميذع اللوذعى .

كان انسانا عجيبا فى نفسه ، مميزا شهيرا فى مصره . طاف البلاد والنواحى ، وجال فى الممالك والضواحى ، واطلع على عجائب المخلوقات ، وعرف الكثير من الألسن واللغات ، ويعتزى لكل قبيل ، ويخالط كل جيل : فمرة ينتسب الى فارس ، وأخرى الى بنى مكانس ، فكأنه المعنى بما قيل :

طورا يمان اذا لاقيت ذا يمن
وان رأيت معديا فعدنانى

هذا مع فصاحة لسان ، وقوة جنان ، والمشاركة فى كل فن من الرياضيات والأدبيات ... حتى يظن سامعه أنه مجيد فى ذلك الفن ، منفرد به . وليس الأمر كذلك ، وانما ذلك بقوة الفهم والحفظ ، وما فيه من القابلية ، فيستغنى بذلك عن التلقى من الأشياخ .

وأيضا فقد انقرض أهل الفنون ، فيحفظ اصطلاحات الفن وأوضاع أهله ، ويبرزه فى ألفاظ ينمقها ويحسنها ، ويذكر أسماء كتب مؤلفة ، وأشياخا وحكما يقل الاطلاع عليها والوصول اليها . ولمعرفته باللغات خالط كل ملة حتى يظن أهل كل ملة أنه واحد منهم ، ويحفظ كثيرا من الشبه والمدركات العقلية والبراهين الفلسفية .

وأهمل الواجبات الشرعية والفرائض القطعية ... وربما قلد كلام الملحدين وشكوك المارقين ، ويزلق لسانه فى بعض المجالس بغلطات من ذلك ووساوس . فلذلك طعن الناس عليه فى الدين ، وأخرجوه عن اعتقاد المسلمين ، وساءت فيه الظنون ، وكثر عليه الطاعنون ، وصرحوا بعد موته بما كانوا يخفونه فى حياته لاتقاء شره وسطواته .

وكان له تداخل عجيب فى الأعيان ، ومع كل أهل دولة وزمان ، ورؤساء الكتبة والمباشرين من الأقباط والمسلمين ... بالمعزة الزائدة ، واستجلاب الفائدة . لا تمل مجالسته ولا معاشرته .

وبأخرة لما رغب الباشا فى انشاء محل لمعرفة علم الحساب والهندسة والمساحة ، تعين المترجم رئيسا ومعلما لمن يكون متعلما بذلك المكتب . وذلك أنه تداخل بتحيلاته لتعليم مماليك الباشا الكتابة والحساب ونحو ذلك ، ورتب له خروجا وشهرية ، ونجب تحت يده بعض المماليك فى معرفة الحسابيات ونحوها .

وأعجب الباشا ذلك ، فذاكره وحسن له بأن يفرد مكانا للتعليم ، ويضم الى مماليكه من يريد

التعليم من أولاد الناس . فأمر بانشاء ذلك المكتب، وحضر اليه أشياء من آلات الهندسة والمساحة والهيئة الفلكية من بلاد الانجليز وغيرهم .

واستجلب من أولاد البلد ما ينيف على الثمانين شخصا من الشبان الذين فيهم قابلية للتعليم . ورتبوا لكل شخص شهرية وكسوة فى آخر السنة . فكان يسعى فى تعجيل كسوة الفقير منهم ليتجمل بها بين أقرانه ، ويواسى من يستحق المواساة ، ويشترى لهم الحمير مساعدة لطلوعهم ونزولهم الى القلعة ... فيجتمعون للتعليم فى كل يوم من الصباح الى بعد الظهر .

وأضيف اليه آخر حضر من اسلامبول له معرفة بالحسابيات والهندسيات لتعليم من يكون أعجميا لا يعرف العربية ، مساعدا للمترجم فى التعليم ؛ يسمى روح الدين افندى . فاستمر نحوا من تسعة أشهر .

ومات المترجم ... وذلك أنه افتصد وطلع الى القلعة ، فحنق على بعض المتعلمين وضربه ، فانحلت الرفادة ، فسال منه دم كثير فحم حمى مختلطة ، واستمر أياما وتوفى ، ودفن بجامع السراج البلقينى بين السيارج .

وعند ذلك زاد قول الشامتين ، وصرحوا بما كانوا يخفونه فى حياته . فيقول البعض : « مات رئيس الملحدين » ! وآخر يقول : « انهدم ركن الزندقة » . ونسبوا اليه أن عنده الكتاب الذى ألفه ابن الراوندى لبعض اليهود وسماه « دافع القرآن » ، وأنه كان يقرأه ويعتقد به . وأخبروا بذلك كتخدا بيك ، فطلب كتبه ، وتصفحوها فلم يجدوا بها ذلك الكتاب . وما كفى مبغضه وحاسده من الشناعات حتى رأوا له منامات شنيعة تدل على أنه من أهل النار ! والله أعلم بخلقه .

وبالجملة فكان غريبا فى بابه . وكانت وفاته يوم الخميس سابع عشرى جمادى الثانية من السنة ، وانفرد برياسة المكتب روح الدين أفندى المذكور .

***

ومات الأجل المكرم « الشريف غالب » بسلانيك وهو المنفصل عن عمارة مكة وجدة والمدينة وما انضاف الى ذلك من بلاد الحجاز ... فكانت امارته نحوا من سبع وعشرين سنة ، فانه تولى بعد موت الشريف سرور فى سنة ثلاث ومائتين وألف .

وكان من دهاة العالم ، وأخباره ومناقبه تحتاج الى مجلدين . ولم يزل حتى سلط الله عليه بأفاعيله هذا الباشا ، فلم يزل يخادعه ، حتى تمكن منه وقبض عليه ، وأرسله الى بلدة سلانيك . وخرج من سلطنته وسيادته الى بلاد الغربة ، ونهبت أمواله ، وماتت أولاده وجواريه ، ثم مات هو فى هذه السنة .

***

ومات الأمير مصطفى بيك دالى باشا ، وهو قريب الباشا ونسيبه أيضا ، وكان من أعاظم أركان دولته ... شهير الذكر ، موصوفا بالاقدام والشجاعة . ومات بالاسكندرية . ولما وصل خبره الى الباشا اغتم غما شديدا ، وتأسف عليه .

وكان الباشا ولاه كشوفية الشرقية ، وقرن به على كاشف ... فأقام بها نحو السنتين ، ومهد البلاد ، وأخاف العربان وأذلهم ، وقتل منهم الكثير وجمع لمخدومه أموالا جمة .

وكان جسيما بطينا ... يأكل التيس المخصى وحده ، ويشرب عليه الزق من الشراب ، ثم يتبعه بشالية أو اثنتين من اللبن ، ويستلقى نائما مثل العجل العظيم ذى الخوار ! الا أنه كان يقضى حاجة من التجأ اليه ، ويحب أولاد الناس ويواسيهم ، ويتجاوز عن الكثير ، ويعطى ما يلزمه من الحقوق لأربابها .

ولما تحققت أخته ، التى هى زوج الباشا ، وكذلك والدته ... أمرتا باحضار رمته الى مصر ، وبدفن بمدفنهم . وتعين لذلك سليمان أغا الدلحدار ، فسافر الى الاسكندرية ، ووضعه فى صندوق مزفت على عربية ، ووصل به بعد اثنى عشر يوما من موته . وكان وصوله فى ثانى ساعة من ليلة الجمعة سادس عشرى جمادى الثانية . وذهبوا به الى المدفن فى المشاعل من خلف المجراة .

فلما وصلوا الى المدفن ، أرادوا ازالته الى القبر بالصندوق ، فلم يمكنهم . فكسروا الصندوق ، فعبقت رائحته ، وقد تهرّى ، فهرب كل من كان حاضرا ، فكبوه على حصير ولفوه فيه ، وأنزلوه الى الحفرة . وغشى على الفحارين ، وجزعت النفوس من رائحة أخشاب الصندوق . فحثوا عليه الأتربة ... وليس من يفتكر أو يعتبر !

* * *

ومات أيضا حسن أغا ، حاكم بندر السويس ، مطعونا . فولى الباشا عوضه السيد أحمد الملا الترجمان .

* * *

ومات أيضا سليمان أغا حاكم رشيد .

* * *

ومات الأمير الكبير الشهير بابراهيم بيك المحمدى ... عين أعيان أمراء الألوف المصريين . ومات بدنقلة متغربا عن مصر وضواحيها ، وهو من مماليك محمد بيك أبى الذهب .

تقلد الامرة والامارة فى سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف ، فى أيام على بيك الكبير ، وتقلد مشيخة البلد ورياسة مصر ، بعد موت أستاذه ، فى سنة تسع وثمانين ومائة وألف ، مع مشاركة خشداشه مراد بيك وباقى أمرائهم ... والجميع راضون برياسته وامارته : لا يخالفهم ولا يخالفونه ، ويراعى جانب الصغير منهم قبل الكبير ، ويحرص على جمعية أمرهم وألفة قلوبهم ... فطالت أيامه ، وتولى قائم مقامية مصر على الوزراء نحو العشرة مرارا .

وطلع أميرا على الحج فى سنة ست وثمانين ، وتولى الدفتردارية فى سنة سبع وثمانين ... وكلاهما فى حياة أستاذه ، واشترى المماليك الكثيرة ورباهم وأعتقهم ، وأمر وقلد منهم صناجق وكشافا ، وأسكنهم الدور الواسعة ، وأعطاهم الاقطاعات . ومات الكثير منهم فى حياته ، وأقام خلافهم من مماليكه ، ورأى أولاد أولاده ... بل وأولادهم ، وما زال يولد له ، وأقام فى الامارة نحو ثمان وأربعين سنة ، وتنعم فيها ، وقاسى فى أواخر أمره شدائد واغترابا عن الأهل والأوطان .

وكان موصوفا بالشجاعة والفروسية ، وباشر عدة حروب . وكان ساكن الجأش ، صبورا ذا تؤدة وحلم ، قريبا للانقياد للحق ، متجنبا للهزل .. الا نادرا ، مع الكمال والحشمة . لا يحب سفك الدماء ، مرخصا لخشداشينه فى أفاعيلهم ، كثير التغافل عن مساويهم مع معارضتهم له فى كثير من الأمور ... وخصوصا مراد بيك وأتباعه . فيغضى ويتجاوز ، ولا يظهر غما ولا خلافا ولا تأثرا ... حرصا على دوام الألفة وعدم المشاغبة . وان حدث فيما بينهم ما يوجب وحشة ، تلافاه وأصلحه .

وكان هذا الاهمال والترخص والتغافل سببا لمبادى الشرور ، فانهم تمادوا فى التعدى ، وداخلهم الغرور ، وغمرتهم الغفلة عن عواقب الأمور ، واستصغروا من عداهم ، وامتدت أيديهم لأخذ أموال التجار وبضائع الافرنج الفرنساوية وغيرهم ، بدون الثمن ... مع الحقارة لهم ولغيرهم ، وعدم المبالاة والاكتراث بسلطانهم الذى يدعون أنهم فى طاعته ، مع مخالفة أوامره ، ومنع خزينته ، واحتقار الولاة ، ومنعهم من التصرف ، والحجر

عليهم ، فلا يصل للمولى عليهم الا بعض صدقاتهم ... الى أن تحرك عليهم حسن باشا الجزايرلى فى سنة مائتين وألف ، وحضر على الصورة التى حضر فيها ، وساعدته الرعية . وخرجوا من المدينة الى الصعيد ، وانتهكت حرمتهم ... ثم رجعوا — بعد الفصل — فى سنة ست ومائتين الى امارتهم ودولتهم ، وعادوا الى حالتهم الأولى ... بل وأزيد منها فى التعدى ، فأوجب ذلك ركوب الفرنساوية عليهم .

ولم يزل الحال يتزايد ، والأهوال يتلو بعضها بعضا حتى انقلبت أوضاع الديار المصرية ، وزالت حرمتها بالكلية . وأدى الحال بالمترجم الى الخروج والتشتيت والتشريد ، هو ومن بقى من عشيرته ، الى بلاد العبيد : يزرعون الدخن ، ويتقوتون منه ، وملابسهم القمصان التى يلبسها الجلابة فى بلادهم ... الى أن وردت الأخبار بموته فى شهر ربيع الأول من السنة .

وأما جملة أخباره فقد تقدمت فى ضمن السوابق والماجريات واللواحق .

* * *

ومات الأمير الأجل : أحمد أغا الخازندار ، المعروف « ببونابارته » . وهو أيضا شهير الذكر من أعاظم الدولة ، وقد تقدم كثير من أخباره وسفره الى الحجاز . وكان عمر دارا عظيمة على بركة الأزبكية — جهة الرويعى — ثم عمل مهما كبيرا لزواج ابنه ، وهو اذ ذاك مريض فى حياض الموت ، حتى أشيع فى الناس يوم زفة العروس ، ثم مات بعد أيام قليلة مضت من الفرح . وذلك يوم الأربعاء ثالث شهر جمادى الثانية .

* * *

وماتت الست الجليلة « خاتون » ، وهى سرية على بيك بلوط قبان الكبير . وكانت محظيته ، وبنى لها الدار العظيمة على بركة الأزبكية بدرب عبد الحق ، والساقية والطاحون بجانبها . ولما مات على بيك ، وتأمر مراد بيك ، تزوج بها . وعمرت طويلا مع العز والسيادة والكلمة النافذة . وأكثر نساء الأمراء من جواريها ، ولم يأت ، بعد الست شويكار ، من اشتهر ذكره وخبره ... سواها .

ولما كان أيام الفرنساوية ، واصطلح معهم مراد بيك ، حصل لها منهم غاية الكرامة ، ورتبوا لها من ديوانهم فى كل شهر مائة ألف نصف فضة ، وشفاعتها عندهم مقبولة لا ترد .

وبالجملة فانها كانت من الخيرات . ولها على الفقراء بر واحسان ، ولها من المآثر الخان الجديد والصهريج داخل باب زويلة .

توفيت يوم الخميس لعشرين من شهر جمادى الأولى بمنزلها المذكور بدرب عبد الحق ، ودفنت بحوشهم فى القرافة الصغرى بجوار الامام الشافعى ، وأضيفت الدار الى الدولة ، وسكنها بعض أكابرها ... وسبحان الحى الذى لا يموت .

* * *

ومات المقر الكريم المخدوم : أحمد باشا ، الشهير بطوسون ، ابن حضرة الوزير محمد على باشا مالك الأقاليم المصرية والحجازية والثغور وما أضيف اليها .

وقد تقدم ذكر رجوعه من البلاد الحجازية ، وتوجهه الى الاسكندرية ، ورجوعه الى مصر ، ثم عوده الى ناحية رشيد ... وعرضى خيامه جهة الحماد بالعسكر على الصورة المذكورة . وهو ينتقل من العرضى الى رشيد ، ثم الى برنبال وأبى منضور والعزب .

ولما رجع من هذه المرة ، أخذ صحبته من مصر المغنين ، وأرباب الآلات المطربة بالعود والقانون والناى والكمنجات ، وهم : ابراهيم الوراق ،

والجبابى ، وقشوه ، ومن يصحبهم من باقى رفقائهم ... فذهب ببعض خواصه الى رشيد — ومعه الجماعة المذكورون — فأقام أياما ، وحضر اليه من جهة الروم جوار وغلمان أيضا رقاصون ، فانتقل بهم الى قصر برنبال ... ففى ليلة حلوله بها نزل به ما نزل به من المقدور ، فتمرض بالطاعون ، وتململ نحو عشر ساعات ، وانقضى نحبه . وذلك ليلة الأحد ، سابع شهر القعدة ، وحضره خليل افندى قوللى حاكم رشيد .

وعندما خرجت روحه ، انتفخ جسمه ، وتغير لونه الى الزرقة ، فغسلوه وكفنوه ، ووضعوه فى صندوق من الخشب ، ووصلوا به فى السفينة منتصف ليلة الأربعاء عاشره .

وكان والده بالجيزة ، فلم يتجاسروا على اخباره ، فذهب اليه أحمد أغا أخو كتخدا بيك . فلما علم بوصوله ليلا ، استنكر حضوره فى ذلك الوقت ، فأخبره عنه أنه ورد الى شبرا متوعكا ، فركب فى الحين القنجة ، وانحدر الى شبرا ، وطلع الى القصر ، وصار يمر بالمخادع ويقول : « أين هو » ؟ فلم يتجاسر أحد أن يصرح بموته .

وكانوا ذهبوا به ، وهو فى السفينة ، الى بولاق ، ورسوا به عند الترسخانة . وأقبل كتخدا بيك على الباشا فرآه يبكى فانزعج انزعاجا شديدا ، وكاد أن يقع على الأرض ، ونزل السفينة ... فأتى بولاق آخر الليل .

وانطلقت الرسل لاخبار الأعيان ، فركبوا بأجمعهم الى بولاق ، وحضر القاضى والأشياخ ، والسيد المحروقى . ثم نصبوا تظلك ساترا على السفينة ، وأخرجوا الناووس والدم والصديد يقطر منه ، وطلبوا القلافطة لسد خروقه ومنافسه ، ونصبوا عودا عند رأسه ، ووضعوا عليه تاج الوزارة ... المسمى بالطلخان ! وانجروا بالجنازة من غير ترتيب ، والجميع مشاة أمامه وخلفه ، وليس فيها من جوقات الجنائز المعتادة — كالفقهاء وأولاد الكتاتيب والأحزاب — شىء ، من ساحل بولاق على طريق المدابغ ، وباب الخرق على الدرب الأحمر ، على التبانة الى الرميلة ... فصلوا عليه بمصلى المؤمنين ، وذهبوا به الى المدفن الذى أعده الباشا لنفسه ولموتاه .

كل هذه المسافة ووالده خلف نعشه ينظر اليه ويبكى ، ومع الجنازة أربعة من الحمير تحمل القروش وربعيات الذهب ودراهم أنصاف عددية ، ينثرون منها على الأرض وعلى الكيمان ! وعن يمين الكتخدا ويساره شحصان يتناول منهما قراطيس الفضة يفرق على من يتعرض له من الفقراء والصبيان فاذا تكاثروا عليه ، نثر ما بقى فى يده عليهم ، فيشتغلون عنه بالتقاطها من الأرض. فكان جملة ما فرق وبدر من الأنصاف العددية فقط ، خمسة وعشرين كيسا : عنها خمسماية ألف فضة ... وذلك خلاف القروش أيضا والربعيات الذهب !

وساقوا أمام الجنازة ستة رءوس من الجواميس الكبار ، أخذ منها خدمة التربة ومن حولهم ، وخدمة ضريح الامام الشافعى . ولم ينل الفقراء الا ما فضل عنهم وأخرجوا لاسقاط صلاة المتوفى خمسة وأربعين كيسا ! تناولها فقراء الأزهر ، وفرقت بجامع الفاكهانى بحسب الأغراض · للغنى منهم أضعاف قسم الفقير وأكثر الفقراء من الفقهاء لم ينالوا ولا القليل .

ولما وصلوا الى المدفن هدموا التربة ، وأنزلوه فيها بتابوته الخشب لتعسر اخراجه منه بسبب انتفاخه وتهريه ... حتى أنهم كانوا يطلقون حول تابوته البخورات فى المجامر الذهب ، والرائحة غالبة على ذلك . وليس ثم من يتمظ أو يعتبر !

ولما مات لم نخبروا والدته بموته الا بعد

دفنه ، فجزعت عليه جزعا شديدا ، ولبست السواد . وكذلك جميع نسائهم وأتباعهم ، وصبغوا براقعهم بالسواد والزرقة ، وكذلك من ينافقهم من الناس ... حتى لطخوا أبواب البيوت ببولاق وغيرها بالوحل .

وامتنع الناس ، بالأمر عليهم ، من عمل الأفراح ودق الطبول مطلقا ، ونوبة الباشا واسماعيل باشا وطاهر باشا ... حتى ما يفعله دراويش المولوية فى تكاياهم عند المقابلة ، من الناى والطبل ... أربعين يوما . وأقاموا عليه العزاء عند القبر ، وعدة من الفقهاء والمقرئين يتناوبون قراءة القرآن مدة الأربعين يوما . ورتبوا لهم ذبائح ومآكل وكل ما يحتاجونه . ثم ترادفت عليهم العطايا من والدته وأخواته والواردين من أقارب وغيرهم على حد قول القائل : « مصائب قوم عند قوم فوائد » !

ومات وهو مقتبل الشبيبة لم يبلغ العشرين ، وكان أبيض جسيما ، كما قد دارت لحيته ... بطلا شجاعا جوادا : له ميل لأولاد العرب ، منقادا لملة الاسلام ، ويعترض على أبيه فى أفعاله ، تخافه العسكر وتهابه . ومن اقترف ذنبا صغيرا قتله ... مع احسانه وعطاياه للمنقاد منهم ، ولأمرائه . ولغالب الناس اليه ميل ، وكانوا يرجون تأمره بعد أبيه ، ويأبى الله الا ما يريد .

* * *

ومات الوزير المعظم يوسف باشا ، المنفصل عن إمارة الشام ، وحضر الى مصر من نحو ثلاث سنوات هاربا وملتجئا الى حاكم مصر ، وذلك فى أواخر سنة سبع وعشرين ومائتين وألف . وأصله من الأكراد الدكرلية ، وينسب الى الأكراد الملية .

وابتداء أمره باخبار من يعرفه : أنه هرب من أهله — وعمره اذ ذاك خمس عشرة سنة — فوصل الى حماة ، وتعاطى بيع الحشيش والسرجين والروث . ثم خدم عند رجل يسمى ملا حسين مدة سنين الى أن ألبسه قلبق ، ثم خدم بعده ملا اسماعيل بلكتاش ، وتعلم الفروسية والرماحة ، فلعب يوما فى القمار وخسر فيه ، وخاف على نفسه فخرج هاربا الى عمر أغا باسيلى — من اشراقات ابراهيم باشا المعروف بالأزدن — فتوجه معه الى غزة .

وكان مع المترجم جواد أشقر من جياد الخيل ، فقلد على أغا — متسلم غزة — عمر أغا المذكور وجعله دالى باشا . ففى بعض الأيام طلب المتسلم من المترجم الجواد ، فقال له : « ان قلدتنى دالى باشا قدمته لك » . فأجابه الى ذلك ، وعزل عمر أغا ، وقلد المترجم المنصب عوضا عنه . وامتنع من اعطائه ذلك الجواد ، وأقام فى خدمته مدة ، فوصل مرسوم من أحمد باشا الجزار ، خطابا للمترجم ، بالقبض على المتسلم واحضاره الى طرفه ، وان فعل ذلك ينعم عليه بمبلغ خمسين كيسا ومائة بيرق ... ففعل ذلك ، وأوقع القبض على على أغا المتسلم ، وتوجه الى عكة بلدة الجزار .

فقال المتسلم للمترجم فى أثناء الطريق : « تعلم أن الجزار رجل سفاك دماء ، فلا توصلنى اليه ، وان كان وعدك بمال أنا أعطيك أضعافه ، وأطلقنى أذهب حيث شاء الله ، ولا تشاركه فى دمى » . فلم يجبه الى ذلك وأوصله الى الجزار فحبسه ، ثم قتله ورماه فى البحر !

وأقام المترجم بباب الجزار أياما ، ثم أرسل اليه يأمره بالذهاب الى حيث يريد ، فانه لا خير فيه لخيانته لمخدومه . فذهب الى حماة ، وأقام عند أغاته اسماعيل أغا — وهو متولى من طرف عبد الله باشا المعروف بابن العظم — فأقام فى خدمته كلارجى زمنا نحو الثلاث سنوات .

وكان بين عبد الله باشا وأحمد باشا الجزار عداوة ، فتوجه عبد الله باشا الى الدورة . فأرسل الجزار عساكره ليقطع عليه الطريق ، فسلك طريقا أخرى . فلما وصل الى جنينى — وهى مدينة قريبة

من بلاد الجزار — وجه الجزار عساكره عليه . فلما تقارب العسكران ، وتسامعت أهل النواحي ... امتنعوا من دفع الأموال . فما وسع عبد الله باشا الا الرحيل ، وتوجه الى ناحية نابلس ، مسافة يومين ، وحاصر بلدة تسمى صوفين ، وأخذ مدافع من يافا ، وأقام محاصرا لها ستة أيام ... ثم طلبوا الأمان فأمنهم ، ورحل عنهم الى طرف الجبل ، مسيرة نصف ساعة ، وفرق عساكره لقبض أموال الميرى من البلاد ، وأقام هو فى قلة من العسكر .

فوصل اليه خيال ، وقت العصر فى يوم من الأيام يخبره بوصول عساكر الجزار ، وأنه لم يكن بينه وبينهم الا نصف ساعة ، وهم خمسة آلاف مقاتل . فارتبك فى أمره ، وأرسل الى النواحى ، فحضر اليه من حضر — وهم نحو الثلثمائة خيال ، وهو بدائرته نحو الثمانين — فأمر بالركوب . فلما تقاربا هاله كثرة عساكر العدو ، وأيقنوا بالهلاك . فتقدم المترجم الى العسكر ، وأشار عليهم بالثبات ، وقال لهم : « لم يكن غير ذلك ، فاننا ان فررنا هلكنا عن آخرنا » .

وتقدم المترجم مع أغاته ملا اسماعيل ، وتبعهم العسكر ، وولجوا وسط خيل العدو ، وصدقوا الحملة بجملة واحدة ، فحصلت فى العدو الهزيمة ، وركبوا أقفيتهم ، وتبعهم المترجم حتى حال الليل بينهم ، فرجعوا برءوس القتلى والقلائع . فلما أصبح النهار عرضوها على الوزير — وهى نحو الألف رأس وألف قليعة — فخلع عليهم ، وشكرهم ، وارتحلوا الى دمشق .

وذهب المترجم مع أغاته الى مدينة حماة ، واستمر هناك الى أن حضر الوزير الأعظم يوسف باشا ، المعروف بالمعدن ، الى دمشق بسبب الفرنساوية . ففارق المترجم مخدومه فى نحو السبعين خيالا ، وجعل يدور بأراضى حماة بطالا ، ويقال له قيس ، فيراسل الجزار لينضم اليه .

وكان الجزار ، عند حضور الوزير ، انفصل حكمه عن دمشق ، ووجه ولايتها الى عبد الله باشا العظم . فلما بلغ المترجم ذلك توجه الى لقاء عبد الله باشا بالمعرة ، فأكرمه عبد الله باشا ، وقلده دالى باشا كبيرا على جميع الخيالة .. حتى على أغاته ملا اسماعيل أغا . وأقام بدمشق مدة الى أن حاصر عبد الله باشا مدينة طرابلس . فوصل اليه الخبر بأن عساكر الجزار استولوا على دمشق وبلادها . فركب عبد الله باشا وذهب الى دمشق ، ودخلها بالسيف ، ونصب عرضيه خارجها .

فوصل خبر ذلك الى الجزار ، فكاتب عساكر عبد الله باشا يستميلهم لأن معظمهم غرباء ، فاتفقوا على خيانته ، والقبض عليه وتسليمه الى الجزار . وعلم ذلك وتثبته ، فركب فى بعض مماليكه وخاصته الى وطاق المترجم — وهو اذ ذاك دالى باشا — وأعلمه الخبر ، وأنه يريد النجاة بنفسه . فركب بمن معه ، وأخرجه من بين العسكر قهرا عنهم ، وأوصله الى شول بغداد .

ثم ذهب على الهجن الى بغداد ، ورجع المترجم الى حماة . فقبل وصوله اليها ورد عليه مرسوم الجزار يستدعيه ، فذهب اليه ، فجعله مقدم ألف ، وقلده باش الجردة ، فسافر الى الحجاز بالملاقاة . وكان أمير الحاج الشامى اذ ذاك سليمان باشا عوضا عن مخدومه أحمد باشا الجزار . فلما حصلوا فى نصف الطريق ، وصلهم خبر موت الجزار ، فرجع يوسف المترجم الى الشام ، واستولى اسماعيل باشا على عكا ، وتوجه منصب ولاية الشام الى ابراهيم باشا المعروف بقطر اغاسى (أى أغات البغال) . وفى فرمان ولايته الأمر بقطع رأس اسماعيل باشا ، وضبط مال الجزار .

فذهب المترجم بخيله وأتباعه الى ابراهيم باشا ، وخدم عنده ، وركب الى عكا وحصروها ، وحطوا فى أرض الكردانى — مسيرة ساعة من عكا —

وكانت الحرب بينهم سجالا ، وعساكر اسماعيل باشا نحو العشرة آلاف ، والمترجم يباشر الوقائع ، وكل واقعة يظهر فيها على الخصم .

ففى يوم من الأيام لم يشعر الا وعسكر اسماعيل باشا نافذ اليهم من طريق أخرى . فركب المترجم ، وأخذ صحبته ثلاثة مدافع ، وتلاقى معهم ، وقاتلهم وهزمهم الى أن حصرهم بقرية تسمى دعوق ، ثم أخرجهم بالأمان الى وطاقه وأكرمهم ، وعمل لهم ضيافة ثلاثة أيام ، ثم أرسلهم الى عكا بغير أمر الوزير . .

ثم توجه ابراهيم باشا الى الدورة ، وصحبته المترجم ، وتركوا سليمان باشا مكانهم ، وخرج اسماعيل باشا من عكا ، وأغلقت أبوابها فاتفقت عساكره ، وقبضوا عليه ، وسلموه الى ابراهيم باشا فعند ذلك برز أمر ابراهيم باشا بتسليم عكا الى سليمان باشا ، وذهب بالمرسوم المترجم ، فأدخله اليها ورجع الى مخدومه ، وذهب معه الى الدورة ثم عاد معه الى الشام .

وورد الأمر بعزل ابراهيم باشا عن الشام ، وولاية عبد الله باشا المعروف بالعظم على يد باشت بغداد . فخرج المترجم لملاقاته من على حلب ، فقلده دالى باشا على جميع العسكر فلما وصل الى الشام ، ولاه على حوران وأربد والقنطرة ليقبض أموالها ، فأقام نحو السنة ، ثم توجه صحبة الباشا مع الحج . وتلاقوا مع الوهابية فى الجديدة ، فحاربهم المترجم وهزمهم ، وحجوا واعتمروا ورجعوا . ومكثو الى السنة الثانية ، فحرج عبد الله باشا بالحج ، وأبقى المترجم نائبا عنه بالشام فلما وصل الى المدينة المنورة منعه الوهابيون ، ورجع من غير حج .

ووصل خبر ذلك الى الدولة ، فورد الأمر بعزل عبد الله باشا عن ولاية الشام وولاية المترجم على الشام وضواحيها ، فارتاعت النواحى والعربان ، وأقام السنة ، ولم يخرج بنفسه الى الحج ... بل أرسل ملا حسن عوضا عنه ، فمنع أيضا عن الحج . فلما كانت القابلة ، انفتح عليه أمر الدورة ، وعصى عليه بعض البلاد ، فخرج اليها ، وحاصر بلدة تسمى كردانية ، ووقع له فيها مشقة كبيرة الى أن ملكها بالسيف وقتل أهلها ثم توجه الى جبل نابلس وقهرهم ، وجبى منهم أموالا عظيمة .

ثم رجع الى الشام ، واستقام أمره ، وحسنت سيرته ، وسلك طريق العدل فى الأحكام ، وأقام الشريعة والسنة ، وأبطل البدع والمنكرات ، واستتاب الخواطىء ، وزوجهن ، وطفق يفرق الصدقات على الفقراء وأهل العلم والغرباء وابن السبيل ، وأمربترك الاسراف فى المآكل والملابس . وشاع خبر عدله فى النواحى ، ولكن ثقل ذلك على أهل البلاد بترك مألوفهم !

ثم انه ركب الى بلاد النصيرية ، وقاتلهم وانتصر عليهم ، وسبى نساءهم وأولادهم ... وكان خيرهم بين الدخول فى الاسلام أو الخروج من بلادهم ، فامتنعوا وحاربوا ، وانخذلوا ، وبيعت نساؤهم وأولادهم فلما شاهدوا ذلك أظهروا الاسلام تقية فعفا عنهم ، وعمل بظاهر الحديث ، وتركهم فى البلاد ، ورحل عنهم الى طرابلس ، وحاصرها بسبب عصيان أميرها بربر باشا على الوزير ، وأقام محاصرا لها عشرة أشهر حتى ملكها واستولى على قلعتها . ونهبت منها أموال للتجار وغيرهم .

ثم ارتحل الى دمشق ، وأقام بها مدة ، فطرقه خبر الوهابية أنهم حضروا الى المزيريب ، فبادر مسرعا ، وخرج الى لقائهم فلما وصل الى المزيريب وجدهم قد ارتحلوا من غير قتال ، فأقام هناك أياما ، فوصل اليه الخبر بأن سليمان باشا وصل الى الشام وملكها ، فعاد مسرعا الى الشام ، وتلاقى

مع عسكر سليمان باشا ، وتحارب العسكران الى المساء ، وبات كل منهم فى محله . ففى نصف الليل — فى غفلتهم ... والمترجم نائم وعساكره أيضا هامدة — فلم يشعروا الا وعساكر سليمان باشا كبستهم ، فحضر اليه كتخداه وأيقظه من منامه ، وقال له : « ان لم تسرع ، والا قبضوا عليك » . فقام فى الحين ، وخرج هاربا ، وصحبته ثلاثة أشخاص من مماليكه فقط ، ونهبت أمواله ويرقه ، وزالت عنه سيادته فى ساعة واحدة .

ولم يزل حتى وصل الى حماة فلم يتمكن من الدخول اليها ، ومنعه أهلها عنها وطردوه . فذهب الى سيجر ، وارتحل منها الى بلدة يعمل بها البارود ، ومنها الى بلدة تسمى ريمة ، ونزل عند سعيد أغا فأقام عنده ثلاثة أيام . ثم توجه الى نواحى انطاكية ، بصحبته جماعة من عند سعيد أغا المذكور ، ثم الى السويدة ، ولم يبق معه سوى فرس واحد !

ثم انه أرسل الى محمد على باشا — صاحب مصر — واستأذنه فى حضوره الى مصر ، فكاتبه بالحضور اليه والترحيب به ، فوصل الى مصر فى التاريخ المذكور ، فلاقاه صاحب مصر وأكرمه ، وقدم اليه خيولا وقماشا ومالا ، وأنزله بدار واسعة بالأزبكية ، ورتب له خروجا زائدة من لحم وخبز وسمن وأرز وحطب ، وجميع اللوازم المحتاج اليها ، وأنعم عليه بجوارى وغير ذلك .

وأقام بمصر هذه المدة ، وأرسل فى شأنه الى الدولة ، وقبلت شفاعة محمد على باشا فيه ، ووصله العفو والرضا — ماعدا ولاية الشام — وحصلت فيه علة ذات الصدر ؟ فكان يظهر به شبه السعلة مع الفواق بصوت يسمعه من يكون بعيدا عنه ، ويذهب اليه جماعة الحكماء من الافرنج وغيرهم ، ويطالع فى كتب الطب مع بعض الطلبة من المجاورين ... فلم ينجع فيه علاج ، وانتقل الى قصر الآثار بقصد تبديل الهواء . ولم يزل مقيما هناك حتى اشتد به المرض ، ومات فى ليلة السبت العشرين من شهر ذى القعدة ، وحملت جنازته من الآثار الى القرافة من ناحية الخلاء ، ودفن بالحوش الذى أنشأه الباشا وأعده لموتاه . وكانت مدة اقامته بمصر نحو الست سنوات ... فسبحان الحى الذى لا يموت ، الدائم الملك السلطان .

المحرم

الخميس غرته (٢١ نوفمبر ١٨١٦ م) :

استهل المحرم وحاكم مصر والمتولى عليها ، وعلى ضواحيها وثغورها من حد رشيد ودمياط الى أسوان وأقصى الصعيد ، وأسكلة القصير والسويس ، وساحل القلزم وجدة ومكة والمدينة والأقطار الحجازية بأسرها ... محمد على باشا القوللى . ووزيره وكتخداه : محمد أغا لاظ . والدفتردار : محمد بيك — صهر الباشا وزوج ابنته — وآغات الباب : ابراهيم أغا . ومدبر أمور البلاد والأطيان والرزق والمساحات ، وقبض الأموال الميرية وحساباتها ومصارفها : محمود بيك الخازندار . والسلحدار سليمان أغا . وحاكم الوجه القبلى : محمد بيك الدفتردار — صهر الباشا — عوض ابراهيم باشا ولد الباشا ، لانفصاله عن امارة الوجه القبلى ، وسفره الى الحجاز آنفا لمحاربة الوهابيين . وباقى أمراء الدولة : مثل عابدين بيك ، واسماعيل باشا ابن الباشا ، وخليل باشا — وهو الذى كان حاكم الاسكندرية سابقا — وشريف أغا ، وحسين بيك دالى باشا ، وحسين بيك الشماشرجى ، وحسن بيك الشماشرجى الذى كان حاكما بالفيوم ... وغير هؤلاء ، وحسن أغا آغات الينكجرية ، وأحمد أغا آغات التبديل ، وعلى أغا الوالى ، وكاتب الروزنامة مصطفى أفندى ، وحسن باشا بالديار الحجازية . وشاه بندر التجار : السيد محمد المحروقى ، وهو المتعين لمهمات الأسفار وقوافل العربان ومخاطباتهم ، وملاقاة الأخبار الواصلة من الديار الحجازية ، والمتوجه اليها ، وأجر المحمول ، وشحنة السفن ، ولوازم الصادرين والواردين والمنتجعين والمقيمين والراحلين ، والمتعهد بجميع فرق القبائل والعشير وغوائلهم ومحاكماتهم وارغابهم وارهابهم وسياستهم على اختلاف أخلاقهم وطباعهم ... وهو المتعين أيضا لفصل قضايا التجار والباعة وأرباب الحرف البلدية وفصل خصوماتهم ومشاجراتهم ، وتأديب المنحرفين منهم والنصابين ، وبعوثات الباشا ومراسلاته ، ومكاتباته ، وتجاراته ، وشركاته وابتداعاته ، واجتهاده فى تحصيل الأموال من كل وجه وأى طريق ، ومتابعة توجيه السرايا والعساكر والذخائر الى نواحى الحجاز للاغارة على بلاد الوهابية .

وأخذ الدرعية مستمر لا ينقطع ، والعرضى منصوب خارج باب النصر وباب الفتوح ... واذا ارتحلت طائفة خرجت أخرى مكانها !

وفيه : سومحت أرباب الحرف والباعة والزياتون والجزارون والخضرية والجبازون ونحوهم من المسانهات والمشاهرات واليوميات الموظفة عليهم للمحتسب ، ونودى برفعها أمام المحتسب فى الأسواق ، وعوض المحتسب عنها خمسة أكياس فى كل شهر يستوفيها من الخزينة العامرة .

وعملوا تسعيرا بترخيص أسعار المبيعات ، بدلا عما كانوا يغرمونه للمحتسب ، ولكن من غير مراعاة النسبة والمعادلة فى غالب الأصناف . فان

السادة عند اقبال وجود الفاكهة أو الخضراوات تباع بأغلى ثمن لعزتها وقلتها حينئذ ، وشهوة الطباع ، واشتياق النفوس لجديد الأشياء ، وزهدها فى القديم الذى تكرر استعماله وتعاطيه ... كما يقال « لكل جديد لذة » . فلم يراعوا ذلك ، ولم ينظروا فى أصول الأشياء أيضا . فان غالب الأصناف داخل فى المحتكرات ، وزيادة المكوس الحادثة فى هذه السنين ، وما يضاف الى ذلك من طمع الباعة والسوقة وغشهم وقبحهم وعدم ديانتهم وخبث طباعهم .

فلما نودى بذلك ، وسمع الناس رخص المبيعات ، ظنوا بغفلتهم حصول الرخاء ، ونزلوا على المبيعات مثل الكلاب السعرانة ، وخطفوا ما كان بالأسواق — بموجب التسعيرة — من اللحم وأنواع الخضراوات والفاكهة والأدهان !

فلما أصبح اليوم الثانى لم يوجد بالأسواق شىء من ذلك ، وأغلقت الفكهانية حوانيتهم ، وأخفوا ماعندهم ، وطفقوا يبيعونه خفية ؛ وفى الليل ، بالثمن الذى يرتضونه ... والمحتسب يكثر الطواف بالأسواق ، ويتجسس عليهم ، ويقبض على من أغلق حانوته أو وجدها خالية ، أو عثر عليه أنه باع بالزيادة ، وينكل بهم ، ويسحبهم مكشوفين الرءوس مشنوقين وموثقين بالحبال ، ويضربهم ضربا مؤلما ، ويصلبهم بمفارق الطرق مخزومين الأنوف ، ومعلق فيها النوع المزاد فى ثمنه ... فلم يرتجعوا عن عادتهم .

ثم ان هذه المناداة والتسعيرة ظاهرها الرفق بالرعية ورخص الأسعار ، وباطنها المكر والتحيل والتوصل لما سيظهر بعد عن قريب . وذلك أن ولى الأمر لم يكن له من الشغل الا صرف همته وعقله وفكرته فى تحصيل المال والمكاسب ، وقطع أرزاق المسترزقين ، والحجر والاحتكار لجميع الأسباب . ولا يتقرب اليه من يريد قربه الا بمساعدته على مراداته ومقاصده . ومن كان بخلاف ذلك فلا حظ له معه مطلقا ، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب — ولو على سبيل التشفع — حقد عليه ، وربما أقصاه وأبعده وعاداه معاداة من لا يصفو أبدا .

وعرفت طباعه وأخلاقه فى دائرته وبطانته ، فلم يمكنهم الا الموافقة والمساعدة فى مشروعاته : اما رهبة أو خوفا على سيادتهم ورياستهم ومناصبهم ، واما رغبة وطمعا وتوصلا للرياسة والسيادة — وهم الأكثر — وخصوصا أعداء الملة من نصارى الأرمن وأمثالهم الذين هم الآن أخصاء لحضرته ومجالسته ، وهم شركاؤه فى أنواع المتاجر ، وهم أصحاب الرأى والمشورة ؛ وليس لهم شغل ودرس الا فيما يزيد حظوتهم ووجاهتهم عند مخدومهم ، وموافقة أغراضه ، وتحسين مخترعاته . وربما ذكروه ونبهوه على أشياء تركها أو غفل عنها من المبتدعات ، وما يتحصل منها من المال والمكاسب التى يسترزقها أرباب تلك الحرفة لمعاشهم ومصاريف عيالهم . ثم يقع الفحص على أصل الشىء ، وما يتفرع منه ، وما يؤول اذا أحكم أمره وانتظم ترتيبه ، وما يتحصل منه بعد التسعير الذى يجعلونه مصاريف الكتبة والمباشرين ... أبرزت مباديه فى قالب العدل والرفق بالرعية !

ولما وقع الالتفات الى أمر المذابح والسلخانة ، وما يتحصل منها ، وما يكتسبه الموظفون فيها ... فأول مابدأوا به : ابطال جميع المذابح التى بجهات مصر والقاهرة وبولاق ، خلاف السلخانة السلطانية التى خارج الحسينية . وتولى رياستها شخص من الأتراك ، ثم سعرت هذه التسعيرة : فجعل الرطل الذى يبيعه القصاب بسبعة أنصاف فضة ، وثمنه على القصاب من المذبح ثمانية

أنصاف ونصف ! وكان يباع قبل هذه التسعيرة بالزيادة الفاحشة ، فشح وجود اللحم ، وأغلقت حوانيت الجزارين ، وخسروا فى شراء الأغنام وذبحها وبيعها بهذا السعر .

وأنهى أمر شحة اللحم الى ولى الأمر ، وأن ذلك من قلة المواشى ، وغلو أثمان مشترواتها على الجزارين ، وكثرة رواتب الدولة والعساكر . أشيع أنه أمر بمراسيم الى كشاف الأقاليم — قبلى وبحرى — لشراء الأغنام من الأرياف لخصوص رواتبه ورواتب العسكر والخاصة وأهل الدولة ، ويترك ما يذبحه جزارو المذبح لأهل البلدة . وعند ذلك ترخص الأسعار ... ثم تبين خلاف ذلك ، وأن هذه الاشاعة توطئة وتقدمة لما سيتلى عن قريب .

الخميس ١٥ منه (٥ ديسمبر ١٨١٦ م) :

وصلت أغنام وعجول وجواميس من الأرياف ... هزيلة ، وازدادت باقامتها هزالا من الجوع وعدم مراعاتها . فذبحوا منها بالمذابح أقل من المعتاد ، ووزعت على الجزارين ، فيخص الشخص منهم الاثنان أو الثلاثة . فعندما يصل الى حانوته — وهو مثل الحرامى — فيتخاطفها العساكر التى بتلك الخطة ، وتزدحم الناس فلا ينوبهم شىء ، وتذهب فى لمح البصر ، ثم امتنع وجودها ، واستمر الحال ... والناس لا يجدون مايطبخونه لعيالهم .

وكذلك امتنع وجود الخضراوات ، فكان الناس لايحصلون القوت الا بغاية المشقة ، واقتاتوا بالفول المصلوق والعدس والبيصار ، ونحو ذلك .

وانعدم وجود السمن والزيت والشيرج ، وزيت البزر وزيت القرطم ... لاحتكارها لجهة الميرى وأغلقت المعاصر والسيارج ، وامتنع وجود الشمع العسل والشمع المصنوع من الشحم ، لاحتكار الشحم ، والحجز على عمال الشمع فلا يصنعه الشماعون ولا غيرهم . ونودى على بيع الموجود منه بأربعة وعشرين نصفا ، وكان يباع بثلاثين وأربعين ، فأخفوه ، وطفقوا يبيعونه خفية بما أحبوا . وانعدم وجود بيض الدجاج لجعلهم العشرة منه بأربعة أنصاف ، وكان قبل المناداة اثنان بنصف .

وكل ذلك والمحتسب يطوف بالأسواق والشوارع ، ويشدد على الباعة ويؤلمهم بالضرب والتجريس . وفقد وجود الدجاج فلا يكاد يوجد بالأسواق دجاجة ، لأنه نودى على الدجاجة باثنى عشر نصفا ، وكان الثمن عنها قبل ذلك خمسة وعشرين فأكثر .

صفر

(٢١ ديسمبر ١٨١٦ — ١٨ يناير ١٨١٧ م)

فيه : حضر المعلم غالى من الجهة القبلية ، ومعه مكاتبات من محمد بيك الدفتردار — الذى تولى امارة الصعيد عوضا عن ابراهيم باشا ابن الباشا الذى توجه الى البلاد الحجازية لمحاربة الوهابية — يذكر فيها نصح المعلم غالى ، وسعيه فى فتح أبواب تحصيل الأموال للخزينة ، وأنه ابتكر أشياء وحسابات يتحصل منها مقادير كثيرة من المال ... فقوبل بالرضا والاكرام ، وخلع عليه الباشا ، واختص به ، وجعله كاتب سره ، ولازم خدمته . وأخذ فيما ندب اليه وحضر لأجله .. التى منها حسابات جميع الدفاتر ، وأقلام المبتدعات ومباشريها وحكام الأقاليم .

وفيه : تجردت عدة عساكر أتراك ومغاربة الى الحجاز ، وصحبتهم أرباب صنائع وحرف .

وفيه : أرسل الباشا الى بندر السويس أخشابا

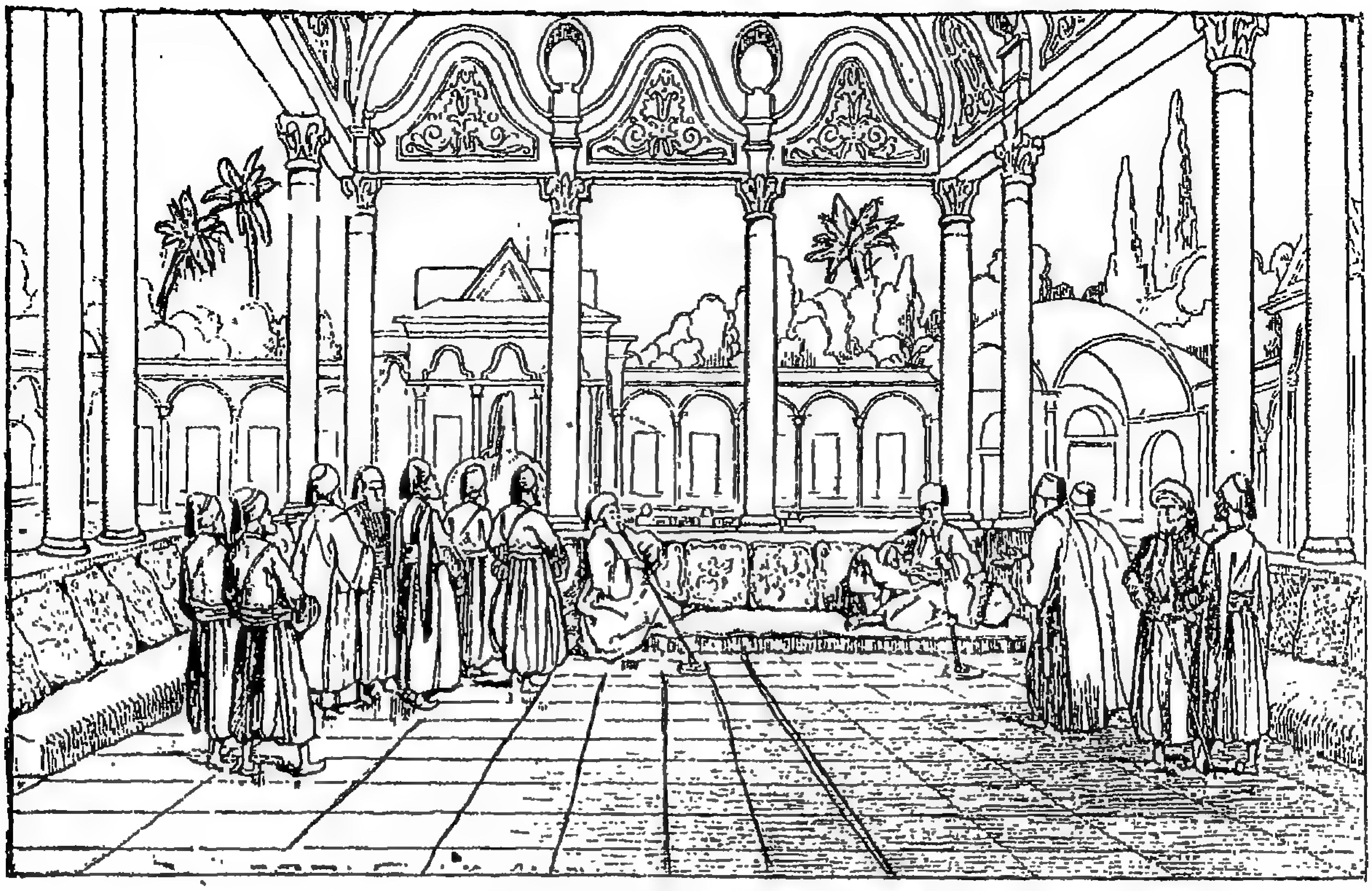

حكام الأقاليم بعد أن عزلهم محمد على وطلبهم للحضور

وأدوات عمارة ، وبلاط كذان وحديدا ، وصناعا بقصد عمارة قصر لخصوصه اذا نزل هناك .

ربيع الأول

(١٩ يناير — ١٧ فبراير ١٨١٧ م)

فيه : شحت المبيعات والغلال والأدهان ، وغلا سعر الحبوب ، وقل وجودها فى الرقع والسواحل ... فكان الناس لايحصلون شيئا منها الا بغاية المشقة !

وفيه : عزل الباشا حكام الأقاليم والكشاف ونوابهم ، وطلبهم للحضور ، وأمر بحسابهم وما أخذوه من الفلاحين زيادة على مافرضه لهم . وأرسل من قبله أشخاصا مفتشين للفحص والتجسس على ماعسى يكون أخذوه منهم من غير ثمن . فأخذوا يقررون المشايخ والفلاحين ، ويحررون أثمان مفرق الأشياء ، من غنم أو دجاج أو تبن أو عليق أو بيض أو غير ذلك ، فى المدة التى أقامها أحدهم بالناحية . فحصل للكثير من قائم مقاماتهم الضرر ، وكذلك من انتمى اليهم ، فمنهم من اضطر وباع فرسه واستدان .

وفيه : حضر على كاشف من شرقية بلبيس معزولا عن كشوفيتها ، وقلدها خلافه ، وكان كاشفا بالاقليم عدة سنوات . وكذلك جرى لكاشف المنوفية والغربية ، وحضر أيضا حسن بيك الشماشرجى من الفيوم معزولا ، ووجهه الباشا الى ناحية درنة لمحاربة أولاد على .

ربيع الآخر

(١٨ فبراير — ١٨ مارس ١٨١٧ م)

فيه : حصل الحجز والمنع على من يذبح شيئا من

المواشى فى داره أو غيرها ، ولا يأخذ الناس لحوم أطعمتهم الا من المذبح ، وأوقفت عساكر بالطرق رصدا لمن يدخل المدينة بشىء من الأغنام .

وذلك أنه لما نزلت المراسيم الى الكشاف بمشترى المواشى من الفلاحين وارسالها الى المكان الذى أعده الباشا لذلك ، ويؤخذ منها مقدار ما يذبح بالسلخانة فى كل يوم لرواتب الدولة والبيع . وطلب كشاف النواحى شراء الأغنام والعجول والجواميس بالثمن القليل من أربابها ... فهرب الكثير من الفلاحين بأغنامهم ، فيخرجون من القرية ليلا ، ويدخلون المدينة ، ويمرون بها فى الأسواق ، ويبيعونها بما أحبوا من الثمن على الناس . فانكب الناس على شرائها منهم لجودتها ، ويشترك الجماعة فى الشاة فيذبحونها ويقسمونها بينهم ... وذلك لقلة وجدان اللحم كما سبقت الاشارة اليه ، وان تيسر وجوده فيكون هزيلا رديئا : فان فى كل يوم ترد الجملة الكثيرة من بحرى وقبلى الى المكان المعد لها ، ولم يكن ثم من يراعيها بالعلف والسقى ، فتهزل وتضعف .

فلما كثر ورود الفلاحين بالأغنام ، وشراء الناس لها ، ووصل خبر ذلك الى الباشا ، فأمر بوقوف عساكر على مفارق الطرق خارج المدينة من كل ناحية ، فيأخذون الشاة من الفلاحين اما بالثمن أو يذهب صاحبها معها الى المذبح فتذبح فى يومها أو من الغد ، ويوزن اللحم خالصا ويعطى صاحبها ثمنه : عن كل رطل ثمانية فضة ونصف ، ويوزن على الجزارين بذلك الثمن بما فيه من القلب والكبد والمنحر والمذاكير ، والمخرج بما فيه من الزبل أيضا ... والجزارون يبيعونها على من يشترى — لشدة الطلب — بزيادة النصف والنصفين ، بل والثلاثة والأربعة ، ان كان به نوع جودة . وأما الأسقاط من الرءوس والجلود والكروش ، فهو للميرى . وكذلك يفعل فيما يرد لخاصية الناس من الأغنام ... يفعل بها كذلك ، ولا يأخذ الا قدر راتبه فى كل يوم من المذبح .

وفيه : شح وجود الغلال فى الرقع والسواحل حتى امتنع وجود الخبز فى الأسواق ، فأخرج الباشا جانب غلة ، ففرقت على الرقع ، وبيعت على الناس ، وهى ألف أردب انقضت فى يومين ، ولا يبيعون أزيد من كيلة أو كيلتين . وبيع الأردب بألف ومائتين وخمسين نصفا .

وفيه : أفرد محل لعمل الشمع الذى يعمل من الشحوم ، بعطفة ابن عبد الله بيك جهة السروجية . واحتكروا لأجل عمله جميع الشحوم التى من المذبح وغيره . وامتنع وجود الشحم من حوانيت الدهانين . ومنعوا من يعمل شيئا من الشمع فى داره أو فى القوالب الزجاج ، وتتبعوا من يكون عنده شىء منها فأخذوها منه ، وحذروا من عمله ، خارج المعمل ، كل التحذير ، وسعروا رطله بأربعة وعشرين نصفا .

جمادى الأولى

(١٩ مارس — ١٧ ابريل ١٨١٧ م)

فيه : حول معمل الشمع الى جهة الحسينية ، عند الدرب الذى يعرف بالسبع والضبع

وفيه : ارتحلت عساكر مجردة الى الحجاز .

وفيه : برزت أوامر الى كشاف النواحى باحصاء عدد أغنام البلاد والقرى ، ويفرض عليها كل عشرة شياه ، واحدة من أعظمها : اما كبش أو نعجة بأولادها ... يجمعون ذلك ويرسلون به الى مجمع أغنام الباشا . وفرض أيضا على كل فدان رطلا من السمن ، يجمع الأرطال مشايخ البلاد من الفلاحين عند كشاف النواحى ، ويرسلونها الى مصر .

وسبب هذه المحدثة : أنه لما عملت التسعيرة ،

وتسعر رطل السمن بستة وعشرين نصفا ، ويبيعه السمان والزيات بزيادة نصفين ... امتنع وجوده وظهوره : فيأتى به الفلاح ليلا فى الخفية ، ويبيعه للزبون أو للمتسبب بما أحب ، ويبيعه المتسبب أيضا بالزيادة لمن يريده سرا ، فيبيعون الرطل بأربعين وخمسين . ويزيد على ذلك غش المتسبب وخلطه بالدقيق والقرع والشحم وعكر اللبن ، فيصفو على النصف ، ولا يقدر مشتريه على رد غشه للبائع لأنه ما حصله الا بناية المشقة والعزة والانكار والمنع ... وان فعل ، لا يجد من يعطيه ثانيا !

وتقف الطائفة من العسكر بالطرق ليلا وفى وقت الغفلات ، يرصدون الواردين من الفلاحين ، ويأخذونه منهم بالقهر ، ويعطونهم ثمنه بالسعر المرسوم ، ويحتكرونه هم أيضا ، ويبيعونه لمن يشتريه منهم بالزيادة الفاحشة . وامتنع وروده الا فى النادر خفية مع الغرر أو الخفارة ، والتحامى فى بعض العساكر من أمثالهم .

واشتد الحال فى انعدام السمن ، حتى على أكابر الدولة ، فعند ذلك ابتدع الباشا هذه البدعة ، وفرض على كل فدان من طين الزراعات رطلا من السمن ، ويعطى فى ثمن الرطل عشرين نصفا . فاشتغلوا بتحصيل ما دهمهم من هذه النازلة ، وطولب المزارع بمقدار ما يزرعه من الأفدنة أرطالا من السمن ، ومن لم يكن متأخرا عنده شىء من سمن بهيمته ، أو لم يكن له بهيمة ، أو احتاج الى تكملة موجود عنده ... فيشتريه ممن يوجد عنده بأغلى ثمن ليسد ما عليه اضطرارا جزاء وفاقا !

وفيه : حصل الاذن بدخول مادون العشرة من الأغنام الى المدينة ، وكذلك الاذن لمن يشترى شيئا منها من الأسواق وسبب اطلاق الاذن بذلك مجىء بعض أغنام الى أكابر الدولة — ولا غنى عن ذلك لأدنى منهم أيضا — وحجزوا عن وصولها الى دورهم ، فشكوا الى الباشا فأطلق الاذن فيما دون العشرة .

وفيه أيضا : امتنع وجود الغلال بالعرصات والسواحل بسبب احتكارها ، واستمرار انجرارها ونقلها فى المراكب ، قبلى وبحرى ، الى جهة الاسكندرية للبيع على الافرنج بالثمن الكثير كما تقدم .

ووجهت المراسيم الى كشاف النواحى بمنع بيع الفلاحين غلالهم لمن يشترى منهم من المتسببين والتراسين وغيرهم ، وبأن كل ما احتاجوا لبيعه مما خرج لهم من زراعتهم ، يؤخذ لطرف الميرى بالثمن المفروض بالكيل الواقى .

واشتد الحال فى هذا الشهر وما قبله حتى قل وجود الخبز من الأسواق ، بل امتنع وجوده فى بعض الأيام . وأقبلت الفقراء نساء ورجالا الى الرقع بمقاطفهم ، ورجعوا بها فوارغ من غير شىء . وزاد الهول والتشكى ، وبلغ الخبر الباشا ، فأطلق أيضا ألف أردب توزع على الرقع ويباع على الناس ، اما ربع واحد أو كيلة فقط ، وكل ربع ثمنه قرش ، فيكون الأردب بأربعة وعشرين قرشا .

وفيه : حضر حسن بيك الشماشرجى من ناحية درنة وبلد أخرى يقال لها « سيوة » ، وصحبته فرقة من أولاد على . وذلك أن أولاد على افترقوا فرقتين : احداهما طائعة ، والأخرى عاصية عن الطاعة ومنحازون الى هذه الناحية . نجرد الباشا عليهم حسن بيك المذكور ، فحاربهم فهزمهم ، وهزموه ثانيا . فرجع الى مصر ، فضم اليه الباشا جملة من العساكر ، وأصحب معه الفرقة الأخرى الطائعة ، فسار الجمع ودهموهم على حين غفلة ، وتقدم لحربهم اخوانهم الطائعة ، وقتلوا منهم ، وأغاروا على مواشيهم وأباعرهم وأغنامهم ،

فأرسلوا المنهوبات الى جهة الفيوم ، وفى ظن العرب أن الغنائم تطيب لهم !

وحضر حسن بيك وصحبته كبار العرب من أولاد على الطائعين ، وفى ظنهم الفوز بالغنيمة ، وأن الباشا لا يطمع فيها لكون النصرة كانت بأيديهم ، وأنه يشكر لهم ويزيدهم انعاما .. وكانوا نزلوا ببر الجيزة . وحضر حسن بيك الى الباشا ، فطلب كبار العرب ليخلع عليهم ويكسوهم . فلما حضروا اليه أمر بحبسهم واحضار الغنيمة من ناحية الفيوم بتمامها ، فأحضروها بعد أيام وأطلقهم . فيقال ان الأغنام ستة عشر ألف رأس ، أو أكثر ، ومن الجمال ثمانية آلاف جمل وناقة . وقيل أكثر من ذلك .

وفيه : نجزت عمارة السواقى التى أنشأها الباشا بالأرض المعروفة برأس الوادى ، بناحية شرقية بلبيس ... قيل انها تزيد على ألف ساقية ، وهى سواقى دواليب خشب تعمل فى الأرض التى يكون منبع الماء فيها قريبا . واستمر الصناع مدة مستطيلة فى عمل آلاتها عند بيت الجبجبى — وهو بيت الرزاز الذى جهة التبانة بقرب المحجر — وتحمل على الجمال الى الوادى ، وهناك المباشرون للعمل المقيدون بذلك . وغرسوا بها أشجار التوت الكثيرة لتربية دود القز واستخراج الحرير ، كما يكون بنواحى الشام وجبل الدروز .

ثم برزت الأوامر الى جميع بلاد الشرقية بأشخاص أنفار من الفلاحين البطالين الذين لم يكن لهم أطيان فلاحة يستوطنون بالوادى المذكور ، وتبنى لهم كفور يسكنون فيها ، ويتعاطون خدمة السواقى والمزارع ، ويتعلمون صناعة تربية القز والحرير . واستجلب أناسا من نواحى الشام والجبل — من أصحاب المعرفة بذلك — ويرتب للجميع نفقات الى حين ظهور النتيجة ، ثم يكونون شركاء فى ربع المتحصل .

ولما برزت المراسيم بطلب الأشخاص من بلاد الشرق ، أشيع فى جميع قرى الأقاليم المصرية اشاعات ، وتقولوا أقاويل ، منها : أن الباشا يطلب من كل بلدة عشرة من الصبيان البالغين وعشر من البنات ، يزوجهم بهن ، ويمهرهن من ماله ، ويرتب لهم نفقات الى بدو صلاح المزارع !

ثم أشاعوا الطلب للصبيان الغير مختونين ليرسلهم الى بلاد الافرنج ليتعلموا الصنائع التى لم تكن بأرض مصر . وشاع ذلك فى أهل القرى ، وثبت ذلك عندهم ! فختن الجميع صبيانهم . ومنهم من أرسل ابنه أو بنته وغيبها عند معارفه بالمدينة ... الى غير ذلك من الأقاويل التى لم يثبت منها الا ما ذكر أولا من أن المطلوب جلب الفلاحين البطالين من بلد الشرقية لا غير . وقد تعمر هذا الوادى بالسواقى والأشجار والسكان من جميع الأجناس ، وانتشأ دنيا جديدة متسعة لم يكن لها وجود قبل ذلك ... بل كانت برية خرابا وفضاء واسعا .

وفيه : سافر جملة من عساكر الأتراك والمغاربة ، وكبيرهم ابراهيم أغا — الذى كان كتخدا ابراهيم باشا ، ثم تولى كشوفية المنوفية — وصحبته خزينة وجبخانة ومطلوبات لمخدومه .

جمادى الآخرة

فى أوائله (النصف الثانى من ابريل ١٨١٧ م) :

حضر الى مصر ابن يوسف باشا — حاكم طرابلس — ومعه أخوه أصغر منه ، يستأذنان الباشا فى حضور والدهما الى مصر فارا من والده . وكان ولاه على ناحية درنة وبنى غازى ، فحصل منه ما غير خاطر والده عليه ، وعزم على

أن يحرد عليه ! فأرسل أولاده الى صاحب مصر بهدية ، ويستأذن فى الحضور الى مصر والالتجاء اليه . فأذن له فى الحضور . وهو ابن أخى الذى بمصر أولا ، وسافر مع الباشا الى الحجاز ، ورجع الى مصر ، واستمر ساكنا بالسبع قاعات .

وفيه : وصل الخبر بأن ابراهيم أغا ، الذى سافر مع الجردة ، لما وصل الى العمبة أمر من بصحبته من المغاربة والعسكر بالرحيل . فلما ارتحلوا ركب هو فى خاصته وذهب على طريق الشام .

١٦ منه (٣ مايو ١٨١٧ م) :

وصل جراد كثير ليلا ، ونزل ببستان الباشا بشبرا ، وتعلق بالأشجار والزهور ، وصاحت الخولة والبستانجية : وأرسل الباشا الى الحسينية وغيرها ، فجمعوا مشاعل كثيرة وأوقدوها ، وضربوا بالطبول والصنوج النحاس لطرده . وأمر الباشا لكل من جمع منه رطلا فله قرشان ، فجمع الصبيان والفلاحون منه كثيرا !

١٩ منه (٦ مايو ١٨١٧ م) :

وصل قبل الغروب جراد كثير من ناحية المشرق ، مارا بين السماء والأرض مثل السحاب ، وكان الريح ساكنا فسقط منه الكثير على الجنائن والمزارع والمقاثىء . فلما كان فى نصف الليل هبت رياح جنوبية ، واستمرت ، واشتد هبوبها عند انتصاف النهار ، وأثارت غبارا أصفر وعبوقا بالجو ، ودامت الى بعد العصر يوم السبت ، فطردت ذلك الجراد وأذهبته ... فسبحان الحكيم المدبر اللطيف !

٢٠ منه (٧ مايو ١٨١٧ م) :

طاف مناد أعمى يقوده آخر بالأسواق ، ويقول فى ندائه : « من كان مريضا أو به رمد أو جراحة أو ادرة ، فليذهب الى خان بالموسكى به أربعة من حكماء الافرنج أطباء يداوونه من غير مقابلة شىء » . فتعجب الناس من هذا وتحاكوه ، وسعوا الى جهتهم لطلب التداوى .

وفيه : حضر ابن باشت طرابلس ، ودخل الى المدينة — وصحبته نحو المائتى نفر من أتباعه — فانزله الباشا فى منزل أم مرزوق بيك بحارة عابدين ، وأجرى عليه النفقات والرواتب له ولأتباعه .

٢١ منه (٨ مايو ١٨١٧ م) :

وصل خبر الأطباء ومناداتهم الى كتخدا بيك ، فأحضر حكيم باشا وسأله فأنكر معرفتهم ، وأنه لا علم عنده بذلك ، فأمر باحضارهم وسألهم ، فخلطوا فى الكلام ، فأمر باخراجهم من البلدة ، ونفوهم فى الحال ، وذهبوا الى حيث شاء الله ... ولو فعل مثل هذه الفعلة بعض المسلمين ، لجوزى بالقتل أو الخازوق !

وكان صورة جلوسهم أن يجلس أحدهم خارج المكان والآخر من داخل ، وبينهما ترجمان . ويأتى مريد العلاج الى الأول — وهو كأنه الرئيس — فيجس نبضه أو بيضه ، وكأنه عرف علته ، ويكتب له ورقة فيدخل مع الترجمان بها لآخر بداخل المكان ، فيعطيه شيئا من الدهن أو السفوف أو الحب المركب ، ويطلب منه اما قرشا أو قرشين أو خمسة بحسب الحال ... وذلك ثمن الدواء لاغير !

وشاع ذلك ، وتسامع الناس — وأكثرهم معلول ! ومن طبيعتهم التقليد والرغبة فى الوارد الغريب — فتكاثروا وتزاحموا عليهم ، فجمعوا فى الأيام القليلة جملة من الدراهم .

واستلطف الناس طريقتهم هذه بخلاف ما يفعله الذين يدعون التطبيب من الافرنج . واصطلاحهم :

اذا دعى الواحد منهم لمعالجة المريض ، فأول مايبدأ به نقل قدمه بدراهم يأخذها اما ريال فرانسة أو أكثر ، بحسب الحال والمقام ، ثم يذهب الى المريض فيجسه ويزعم أنه عرف علته ومرضه ... وربما هول على المريض داءه وعلاجه . ثم يقاول على سعيه فى معالجته بمقدار من الفرانسة ، اما خمسين أو مائة ، أو أكثر بحسب مقام العليل ، ويطلب نصف الجعالة ابتداء ، ويجعل على كل مرة من الترددات عليه جعالة أيضا ، ثم يزاوله بالعلاجات التى تجددت عندهم ، وهى مياه مستقطرة من الأعشاب أو أدهان ... كذلك يأتون بها للمرضى فى قوارير الزجاج اللطيفة فى المنظر يسمونها بأسماء بلغاتهم ، ويعربونها بدهن البادزهر ، وأكسير الخاصة ونحو ذلك فان شفى الله العليل ، أخذ منه بقية ماقاوله عليه...أو أماته ، طالب الورثة بباقى الجعالة وثمن الأدوية طبق مايدعيه . واذا قيل له : انه قد مات . قال فى جوابه : « انى لم أضمن أجله ، وليس على الطبيب منع الموت ولا تطويل العمر » وفيهم من جعل له فى كل يوم عشرة من الفرانسة .

وفيه : رأى رأيه حضرة الباشا حفر بحر عميق يجرى الى بركة عميقة ، تحفر أيضا بالاسكندرية ، تسير فيها السفن بالغلال وغيرها .... ومبدؤها من مبدأ خليج الأشرفية عند الرحمانية . فطلب لذلك خمسين ألف فأس ومسحة يصنعها صناع الحديد ، وأمر بجمع الرجال من القرى — وهم مائة ألف فلاح — توزع على القرى والبلدان للعمل والحفر بالأجرة . وبرزت الأوامر بذلك ، فارتبك أمر الفلاحين ومشايخ البلاد ، لأن الأمر برز بحضور المشايخ وفلاحيهم . فشرعوا فى التشهيل وما يتزودون به فى البرية ، ولا يدرون مدة الاقامة : فمنهم من يقدرها بالسنة ، ومنهم بأقل أو أكثر .

رجب

٢ منه (١٩ مايو ١٨١٧ م — ١٢ بشنس ١٥٣٣ ق) :

قبل الغروب بنحو ساعة ، تغير الجو بسحاب وقتام ، وحصل رعد متتابع ، وأعقبه مطر بعد الغروب . ثم انجلى ذلك .

والسبب فى ذكر مثل هذه الجزئية شيئان : الأول وقوعها فى غير زمانها لما فيه من الاعتبار بخرق العوائد . الثانى : الاحتياج اليها فى بعض الأحيان فى العلامات السماوية ، وبالأكثر فى الوقائع العامية . فان العامة لايؤرخون غالبا بالأعوام والشهور ، بل بحادثة أرضية أو سماوية ، خصوصا اذا حصلت فى غير وقتها ، أو ملحمة أو معركة أو فصل أو مرض عام أو موت كبير أو أمير ا فاذا سئل الشخص عن وقت مولده أو مولد ابنه أو ابنته أو موت أبيه أو سنة بلوغه سن الرشد ، يقول : كان بعد الحادثة الفلانية بكذا من الأيام . ثم لا يدرى فى أى شهر أو عام ... وخصوصا اذا طال الزمان بعدها .

وقد تكرر الاحتياج الى تحرير الوقت فى مسائل شرعية فى مجلس الشرع — فى مثل الحضانة ، والعدة ، والنفقة ، وسن اليأس ، ومدة غيبة المفقود — بأن يتفق قولهم على أن الصبى ولد يوم السيل الذى هدم القبور ، أو يوم موت الأمير فلان ، أو الواقعة الفلانية .... ويختلفون فى تحقيق وقتها . وعند ذلك يحتاجون الى السؤال ممن عساه يكون أرخ وقتها . وفى غير وقت الاحتياج يسخرون بمن يشغل بعض أوقاته بشىء من ذلك ، لاعتيادهم اهمال العلوم التى كان يعتنى بتدوينها الأوائل... الا بقدر اقامة الناموس الذى يحصلون به الدنيا . ولولا تدوين العلوم — وخصوصا علم الأخبار — ماوصل الينا شىء منها ، ولا الشرائع الواجبة . ولا

ابراهيم .. فى حروبه مع الوهابية

يشك شاك فى فوائد التدوين وخصائصه بنص التنزيل قال تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » .

١٠ منه (٢٧ مايو ١٨١٧ م) :

وصلت هجانة وأخبار عن ابراهيم باشا من الحجاز : بأنه وصل الى محل يسمى الموتان ، فوقع بينه وبين الوهابية ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأخذ منهم أسرى وخياما ومدفعين . فضربوا لتلك الأخبار مدافع سرورا بذلك الخبر .

١٨ منه (٤ يونية ١٨١٧ م) :

سافر الباشا الى أسكلة السويس — وصحبته السيد محمد المحروقى — ليتلقى سفائنه الواصلة بالبضائع الهندية .

شعبان

فيه : رجع الباشا من السويس ، وأخلوا للبضائع الواصلة ثلاث خانات توضع فى حواصلها ، ثم توزع على الباعة بالثمن الذى يفرضه .

وفيه : وصل الخبر أيضا بوصول سفائن الى بندر جدة ، وفيها ثلاثة من الفيلة .

وفيه : قوى اهتمام الباشا لحفر الترعة الموصلة الى الاسكندرية كما تقدم ، وأن يكون عرضها عشرة أقصاب ، والعمق أربعة أقصاب بحسب علو الأراضى وانخفاضها .

وتعينت كشاف الأقاليم لجمع الرجال ، وفرضوا أعدادهم بحسب كثرة أهل القرية وقلتها ، وعلى كل عشرة أشخاص شخص كبير . وجمعت الغلقان ، ولكل غلق فأس وثلاثة رجال لخدمته ، وأعطوا كل شخص خمسة عشر قرشا ترحيلة ، ولكل شخص ثلاثون نصفا فى أجرته كل يوم وقت العمل . وحصل الاهتمام لذلك فى وقت اشتغال الفلاحين بالحصيدة والدراس ، وزراعة الذرة التى هى معظم قوتهم . وشرعوا فى تشهيل احتياجاتهم وشراء القرب للماء ... فان بتلك البرية لا يوجد الماء الا ببعض الحفائر التى يحفرها طالب الماء ، وقد تخرج مالحة لأنها أراض مسبخة .

وتعين جماعة من مهندسخانة ، ونزلوا مع كبيرهم لمساحتها وقياسها ، فقاسوا من فم ترعة الأشرفية حيث الرحمانية ، الى حد الحفر المراد بقرب عمود السوارى الذى بالاسكندرية ، فبلغ ذلك ستة وعشرين ألف قصبة ، ثم قاسوا من أول الترعة القديمة المعروفة بالناصرية — وابتداؤها من المكان المعروف بالعطف عند مدينة فوة — فكان أقل من ذلك ، ينقص عنه خمسة آلاف قصبة وكسر . فوقع الاختيار على أن يكون ابتداؤها هناك .

وفى أثناء ذلك : زاد النيل قبل المناداة عليه بالزيادة — وذلك فى منتصف بؤونة القبطى — وغرق المقاثىء من البطيخ والخيار والعبدلاوى ، وأهمل أمر الحفر فى الترعة المذكورة الى ما بعد النيل ، واستردت الدراهم التى أعطيت للفلاحين لأجل الترحيلة ! وفرحوا بذلك الاهمال . وقد كان أطلق الباشا لمصارفها أربعة آلاف كيس من تحت الحساب ، ورجع المهندسون الى مصر وقد صوروا صورتها فى كواغد ليطلع عليها الباشا عيانا ، وكان رجوعهم فى ثامن عشر شعبان .

وفيه : تقلد ابراهيم أغا — المعروف بأغات الباب — أمر تنظيم الأصناف والمحدثات وعمل معدلاتها ، لبيان سرقات ومخفيات المتقلدين أمر كل صنف من الأصناف ، بعد البحث والتفتيش والتفحص على دقائق الأشياء .

وفيه : وصل نحو المائتى شخص من بلاد الروم ... أرباب صنائع : معمرين ، ونجارين ، وحدادين ، وبنائين . وهم مابين أرمنى ونجريجى ، ونحو ذلك .

وفيه أيضا : اهتم الباشا ببناء حائطين بحرى رشيد — عند الطينة على يمين البغاز وشماله — لينحصر فيما بينهما الماء ، ولا تطمى الرمال وقت ضعف النيل ، ويقع بسبب ذلك العطب للمراكب وتلف أموال المسافرين ، وقد كمل ذلك فى هذا الشهر . وهذه الفعلة من أعظم الهمم الملوكية التى لم يسبق بمثلها .

السبت ٢٠ منه (٥ يولية ١٨١٧ م) :

شنق شخص بباب زويلة بسبب الزيادة فى المعاملة ، وعلقوا بأنفه ريال فرانسة .. مع أن الزيادة سارية فى المبيعات والمشتروات من غير انكار !

وفيه أيضا : خزم المحتسب آناف أشخاص من الجزارين فى نواحى وجهات متفرقة وعلق فى آنافهم قطعا من اللحم . وذلك بسبب الزيادة فى ثمن اللحم ، وبيعهم له بما أحبوه من الثمن فى بعض

الأماكن خفية ... لأن الجزارين اذا نزلوا باللحم من المذبح — وأكثره هزيل ونعاج ومعز ، والقليل من المناسب الجيد — فيعلقون الردىء بالحوانيت ويبيعونه جهارا بالثمن المسعر ، ويخفون الجيد ويبيعونه فى بعض الأماكن بما يحبون .

الخميس ٢٥ منه (١٠ يولية ١٨١٧ م) :

وصلت الأفيال الثلاثة من السويس — أحدها كبير عن الاثنين ، ولكن متوسط فى الكبر — فعبروا بها من باب النصر ، وشقوا من وسط المدينة ، وخرجوا بها من باب زويلة على الدرب الأحمر ، وذهبوا بها الى قراميدان . وهرولت الناس والصبيان للفرجة عليها ، وذهبوا خلفها ، وازدحموا فى الأسواق لرؤيتها ... وكذلك العسكر والدلاة ، ركبانا ومشاة ، وعلى ظهر الفيل الكبير مقعد من الخشب .

رمضان

الثلاثاء غرته (١٥ يولية ١٨١٧ م) :

عملت الرؤية تلك الليلة ، وركب المحتسب ، وكذا مشايخ الحرف كعادتهم . وأثبتوا رؤية الهلال تلك الليلة ، وكان عسر الرؤية جدا .

وفى صبح ذلك اليوم : عزل عثمان آغا الوردانى من الحسبة ، وتقلدها مصطفى كاشف كرد ... وذلك لما تكرر على سمع الباشا أفعال السوقة وانحرافهم ، وقلة طاعتهم ، وعدم مبالاتهم بالضرب والايذاء وخزم الأنوف والتجريس ... قال فى مجلس خاصته : « لقد سرى حكمى فى الأقاليم البعيدة فضلا عن القريبة ، وخافنى العربان وقطاع الطريق وغيرهم ... خلاف سوقة مصر ، فانهم لايرتدعون بما يفعله فيهم ولاة الحسبة من الاهانة والايذاء ، فلا بد لهم من شخص يقهرهم ولا يرحمهم ، ولا يهملهم » ! فوقع اختياره على مصطفى كاشف كرد هذا ، فقلده ذلك ، وأطلق له الأذن .

فعند ذلك ركب فى كبكبة ، وخلفه عدة من الخيالة ، وترك شعار المنصب من المقدمين والخدم الذين يتقدمونه ، وكذلك الذى أمامه بالميزان ، ومن بأيديهم الكرابيج لضرب المستحق والمنقص فى الوزن . وبات يطوف على الساعة ، ويضرب بالدبوس هشما بأدنى سبب ، ويعاقب بقطع شحمة الأذن . فأغلقوا الحوانيت ، ومنعوا وجود الأشياء — حتى ماجرت به العادة فى رمضان ، من عمل الكعك والرقاق المعروف بالسحير وغيره — فلم يلتفت لامتناعهم وغلقهم الحوانيت ، وزاد فى العسف ، ولم يرجع عن سعيه واجتهاده . ولازم على السعى والطواف ليلا ونهارا ، لاينام الليل ... بل ينام لحظة وقت ما يدركه النوم فى أى مكان ، ولو على مصطبة حانوت !

وأخذ يتفحص على السمن والجبن ونحوه ، المخزون فى الحواصل ، ويخرجه ، ويدفع ثمنه لأربابه بالسعر المفروض ، ويوزعه لأرباب الحوانيت ليبيعوه على الناس بزيادة نصف أو نصفين فى كل رطل .

وذهب الى بولاق ومصر القديمة ، فاستخرج منهما سمنا كثيرا ... ومعظم ذلك فى مخازن للعسكر . فان العسكر كانوا يرصدون لفلاحين وغيرهم ، فيأخذونه منهم بالسعر المفروض — وهو مائتان وأربعون فى العشرة منه — ثم يبيعونه على المحتاجين اليه بما أحبوا من الزيادة الفاحشة ... فلم يراع جانبهم ، واستخرج مخبآتهم قهرا عنهم . ومن خالف عليه منهم ، ضربه وأخذ سلاحه ، ونكل به .

وذهب فى بعض الأوقات الى بولاق فأخرج من حاصل ببعض الوكائل ثلثمائة وخمسين ماعونا

لكبير من العسكر . فحضر اليه بطائفته ، فلم يلتفت اليه ووبخه ، وقال له : « أنتم عساكر ... لكم الرواتب والعلائف واللحوم والأسمان وخلافها ، ثم تحتكرون أيضا أقوات الناس وتبيعونها عليهم بالثمن الزائد » ! وأعطاه الثمن المفروض ، وحمل المواعين على الجمال الى الأمكنة التى أعدها لها عند باب الفتوح .

وعندما رأى أرباب الحوانيت الجد وعدم الاهمال ، والتشديد عليهم — فتح المغلق منهم حانوته ، وأظهروا مخبآتهم أمامهم ، وملأوا السدريات والطسوت من السمن وأنواع الجبن ... خوفا من بطش المحتسب ، وعدم رحمته بهم . ويقف بنفسه على باعة البطيخ والقاوون !

الثلاثاء ١٥ منه (٢٩ يولية ١٨١٧ م) :

وصلوا برمة ابراهيم بيك الكبير من دنقلة . وذلك أنه لما وصل خبر موته استأذنت زوجته أم ولده الباشا فى ارسالها امرأة تدعى نفيسة لاحضار رمته . فأذن بذلك ، وأعطى المتسفرة ، فيما بلغنا ، عشرة أكياس ، وكتب لها مكاتبات لكشاف الوجه القبلى بالمساعدة . وسافرت وحضرت به فى تابوت — وقد جف جلده على عظمه لنحافته — وذلك بعد موته بنحو ستة شهور . وعملوا له مشهدا وأمامه كفارة ، ودفنوه بالقرافة الصغرى عند ابنه مرزوق بيك .

الخميس ١٧ منه (٣١ يولية ١٨١٧ م) :

طلب المحتسب حجاج الخضرى ، الشهير بنواحى الرميلة ، فأخذه الى الجمالية ، وشنقه على السبيل المجاور لحارة المبيضة ، وذلك فى سادس ساعة من الليل وقت السحور ، وتركوه معلقا لمثلها من الليلة القابلة ! ثم أذن برفعه ، فأخذه أهله ودفنوه .

وحجاج هو الذى تقدم ذكره غير مرة فى واقعة خورشيد باشا وغيرها . وكان مشهورا بالاقدام والشجاعة ، طويل القامة ، عظيم الهمة . وكان شيخا على طوائف الخضرية ، صاحب صولة وكلمة بتلك النواحى ، ومكارم أخلاق . وهو الذى بنى البوابة بآخر الرميلة عند عرصة الغلة أيام الفتنة ، واختفى مرارا ، بعد تلك الحوادث ، وانضم الى الألفى ، ثم حضر الى مصر بأمان . ولم يزل على حالته فى هدو وسكون ، ولم يؤخذ فى هذه بجرم فعله يوجب شنقه ... بل قتل مظلوما لحقد سابق ، وزجرا لغيره !

الاثنين ٢٨ منه (١١ اغسطس ١٨١٧ م — ٦ مسرى ١٥٣٣ ق) :

أوفى النيل أذرعه بالوفاء ، وكسر السد — صبح يوم الثلاثاء — بحضرة كتخدا بيك والقاضى وغيره ، وجرى الماء فى الخليج ، ولم يقع فيه مهرجان مثل العادة .

هذا والمحتسب مواظب على السروح ليلا ونهارا ، ويعاقب بجرح الآذان والضرب بالدبوس ، وأقعد بعض صناع الكنافة على صوانيهم التى على النار ! وأمر بكنس الأسواق ومواظبة رشها بالماء ، ووقود القناديل على أبواب الدور ، وعلى كل ثلاثة من الحوانيت قنديل .

ويركب آخر الليل ، ثم يذهب الى بولاق ، ليتلقى الواردين بالبطيخ الأخضر والأصفر ، ويعرفه عدة الشروات ، ويأمرهم بدفع مكوسها المفروض ، ثم يأمرهم بالذهاب الى مراكز بيعهم ... ولا يبيعون شيئا حتى يأتيهم بنفسه ، أو بحضرة من يرسله من طرفه . ثم يعود طائفا عليهم فيحصى ما فى فرش أحدهم عددا ، ويميز الكبير بثمن والصغير بثمن ، ويترك عند البائع من يباشره ، أو يقف هو بنفسه ، ويبيع على الناس بما فرضه ، ويعطى لصاحبه

الثمن والربح ، فيراه قد ربح العشرة قروش وأكثر بعد مكسه ومصارفه ، فيقول له : « أما يكفى مثلك ربح هذا القدر حتى تطمع أيضا فى الزيادة عليه ؟ » وهو مع ذلك يكر ويطوف على غيره .

ويحلق على ما يرد من السمن الوارد الذى تقرر على المزارعين ، فيزنه منهم بالسعر المفروض — وهو أربعة وعشرون نصفا الرطل — ويرد عليهم الفوارغ ، ويعطيه للبائع بالثمن المقرر — وهو ستة وعشرون — وهم يبيعونه بزيادة نصفين فى كل رطل — وهو ثمانية وعشرون — ويناله الناس بأسهل وجدان ، سالما من الخلط والغش ، ويأمرهم باعادة ما عسى يوجد فيه من المرتة والعكار الى مواعينه ليوزن مع فوارغه .

ورصد أيضا ما يرد للناس — ولو لأكابر الدولة — من السمن ، فيطلق البعض ، ويأخذ الباقى بالثمن . وكذلك ما يأتيهم من البطيخ والدجاج ولو كان لصاحب الدولة ، حسب اذنه له بذلك — كل ذلك للحرص على كثرة وجدان الأشياء .

وتعدت أحكامه الى بضائع التجار والأقمشة الهندية وأهل مرجوش والمحلاوية وخلافهم ، وطلب قوائم مشترواتهم ، والنظر فى مكاييلهم . فضاق خناق أكثر الناس من ذلك ، لكونهم لم يعتادوه من محتسب قبله . وكأنه وصله خبر ولاة الحسبة وأحكامهم فى الدول المصرية القديمة : فان وظيفة أمين الاحتساب وظيفة قضاء ، وله التحكم والعدالة ، والتكلم على جميع الأشياء .

وكان لا يتولاها الا المتضلع من جميع المعارف والعلوم والقوانين ونظام العدالة ، حتى على من يتصدر لتقرير العلوم . فيحضر مجلسه ويباحثه ، فان وجد فيه أهلية للالقاء أذن له بالتصدر ، أو منعه حتى يستكمل . وكذلك الأطباء والجراحية ... حتى البيطارية والبزدرية ، ومعلمو الأطفال فى المكاتب ، ومعلمو السباحة فى الماء ، والنظر فى وسق المراكب فى الأسفار ، وأحمال الدواب فى نقل الأشياء ومقادير روايا الماء ، مما يطول شرحه . وفى ذلك مؤلف للشيخ ابن الرفعة . وقد يسهل بعض ذلك مع العدالة ، وعدم الاحتكار ، وطمع المتولى وتطلعه لما فى أيدى الناس وأرزاقهم .

ومما يحكى : أن الرشيد سأل الليث بن سعد فقال له : « يا أبا الحرث ... ما صلاح بلدكم ؟ » يعنى مصر . فقال له : « أما صلاح أمرها ومزارعها فبالنيل . وأما أحكامها ... فمن رأس العين يأتى الكدر » !

فى أواخره (حوالى منتصف اغسطس ١٨١٧ م) :

زاد المحتسب فى نغمات الطنبور ، وهو أنه أرسل مناديه فى مصر القديمة ينادى على نصارى الأرمن والأروام والشوام : باخلاء البيوت التى عمروها وزخرفوها ، وسكنوا بها بالانشاء والملك والمؤاجرة ... المطلة على النيل ، وأن يعودوا الى زيهم الأول من لبس العمائم الزرق ، وعدم ركوبهم الخيول والبغال والرهوانات الفارهة ، واستخدامهم المسلمين . فتقدم أعاظمهم الى الباشا بالشكوى ، وهو يراعي جانبهم لأنهم صاروا أخصاء الدولة وجلساء الحضرة ، وندماء الصحبة !

وأيضا : نادى مناديه على المردان ، ومحلقى اللحى : بأنهم يتركونها ولا يحلقونها وجميع العسكر ، وغالب الأتراك ، سنتهم حلق اللحى — ولو طعن فى السن — فأشيع فيهم أن يأمرهم بترك لحاهم ، وذلك خرم لقواعدهم ... بل يرونه من الكبائر . وكذلك السيد محمد المحروقي بسبب تعرضه الى بضائع التجار وأهل الغورية ، فان ذلك منوط به .

وفى أثناء ذلك ، ورد الى عابدين بيك مواعين

سمن ، فأرسل الجمال الى حملها من ساحل بولاق ، فبلغ خبرها المحتسب ، فأخذها وأدخلها مخزنه ، وعادت الجمال فارغة . وأخبروا مخدومهم بحجز المحتسب لها ، فأرسل عدة من العسكر فأخرجوها من المخزن وأخذوها ولم يكن المحتسب حاضرا . واتفق أنه ضرب شخصا من عسكر المذكور أرنؤودى بالدبوس حتى كاد يموت ، فاشتد بعابدين بيك الحنق ، وركب الى كتخدا بيك وشنع على المحتسب . وتعددت الشكاوى ، وصادفت فى زمن واحد ... فأنهى الأمر الى الباشا ، فتقدم اليه بكف المحتسب عن هذه الأفعال ، فأحضره الكتخدا وزجره ، وأمره ألا يتعدى حكمه الباعة ، ومن كان يسرى عليهم أحكام من كان فى منصبه قبله ، وأن يكون أمامه الميزان ، ويؤدب المستحق بالكرابيج دون الدبوس .

شوال

الخميس غرته (١٤ اغسطس ١٨١٧ م) .

ترك المحتسب السروح فى أيام العيد . وأشيع بين السوقة عزله ، فأظهروا الفرح ، ورفعوا ما كان ظاهرا بين أيديهم من السمن والجبن وأخفوه عن الأعين ، ورجعوا الى حالتهم الأولى فى الغش والخيانة وغلاء السعر ، وأغلق بعضهم الحانوت ، وخرجوا الى المنتزهات وعملوا ولائم .

الأحد ٤ منه (١٧ اغسطس ١٨١٧ م) :

شنقوا عدة أشخاص فى أماكن متفرقة قيل انهم سراق وزغلية ، وكانوا مسجونين فى أيام رمضان . ولم يركب المحتسب حسب الأمر ، بل أركب خازنداره ، وشق بالميزان عوضا عنه ، ثم ركب هو أيضا ، وبيده الدبوس ، لكن دون الحالة الأولى فى الجبروت ، ولم يسر حكمه على النصارى فضلا عن غيرهم .

السبت ١٠ منه (٢٣ اغسطس ١٨١٧ م) :

نزلوا بكسوة الكعبة من القلعة ، وشقوا بها من وسط الشارع الى المشهد الحسينى .

السبت ١٧ منه (٣٠ اغسطس ١٨١٧ م) :

أداروا المحمل ، وخرج أمير الركب الى خارج باب النصر ، ووصلت حجاج كثيرة من ناحية المغرب الى بر انبابة وبولاق ، وطفقوا يشترون الأغنام من الفلاحين ويذبحونها ويبيعونها ببولاق وطرقها على الناس جزافا من غير وزن . ويذهب الكثير من الناس الى الشراء منهم فيقعون فى الغبن الفاحش والزيادة على السعر بالضعف وأكثر . وضرورتهم فى الشراء منهم ، رداءة ما يحمله القصابون من المذبح من أغنام الباشا المحضرة من البلاد والقرى ، وقد هزلت من السفر والاقامة بالجوع والعطش ، ويموت الكثير منها فيسلخونه ويزنونه على الجزارين بالبيع للناس . وفيه المتغير الرائحة ، وما تعافه النفوس . فبسبب ذلك اضطر الناس الى الشراء من هؤلاء الأجناس بالغبن ، وتحمل سوء أخلاقهم . وحصل بينهم وبين بعض العسكر شرور ، وقتل بينهم قتلى ومجاريح ... والباشا وحكام الوقت يتغافلون عنهم خوفا من وقوع الفتن . ثم ارتحلوا لأنهم كثروا وملأوا الأزقة والنواحى .

وحضر أيضا الركب الفاسى ، وفيه ولدا السلطان سليمان ومن يصحبهما ، فأحسن الباشا نزلهم ، وتقيد السيد محمد المحروقى بملاقاتهم ولوازمهم . وأنزلوهم فى منزل بجوار المشهد الحسينى ، وأجريت عليهم نفقات تليق بهم ، وأهديا للباشا هدية وفيها عدة بغال وبرانس حرير ، وغير ذلك .

الأربعاء ٢٨ منه (١٠ سبتمبر ١٨١٧ م) :

ارتحل الحج المصرى من البركة ، وكانت الحجوج فى هذه السنة كثيرة من سائر الأجناس :

أتراك ، وططر ، وبشناق ، وجركس ، وفلاحين ، ومن سائر الأجناس . ورجع الكثير من المسافرين على بحر القلزم الى الحجاز من السويس لقلة المراكب التى تحملهم ، وغصت المدينة من كثرة الزحام ... زيادة على مابها من ازدحام العساكر وأخلاط العالم : من فلاحى القرى المشيعين والمسافرين ، ومن يرد من الآفاق والبلاد الشامية ، ونصارى الروم والأرمن ، والدلاة ، والواردين ، والذين استدعاهم الباشا من الدروز ، والمتاولة والنصيرية وغيرهم ، لعمل الصنائع والمزارع وشغل الحرير ، وما استجده بوادى الشرق ... حتى ان الانسان يقاسى الشدة والهول اذا مر بالشارع من كثرة الازدحام ، ومرور الحيالة وحمير الأوسية والجمال التى تحمل الأتربة والأنقاض والأحجار لعمائر الدولة ، سوى من عداها من حمول الأحطاب والبضائع والتراسين ... حتى الزحمة فى داخل العطف الضيقة !

وزيادة على ذلك كثرة الكلاب ! بحيث يكون فى القطعة من الطريق نحو الخمسين ثم صياحها ونباحها المستمر — وخصوصا فى الليل — على المارين ، وتشاجرها مع بعضها ، مما يزعج النفوس ، ويمنع الهجوع !

وقد أحسن الفرنساوية بقتلهم الكلاب : فانهم لما استقروا ، وتكرر مرورهم ، ونظروا الى كثرة الكلاب من غير حاجة ولا منفعة سوى الهبهبة والعواء — وخصوصا عليهم لغرابة أشكالهم — فطاف عليها طائف منهم باللحم المسموم ، فما أصبح النهار الا وجميعها موتى مطروحة بجميع الشوارع فكان الناس والصغار يسحبونها كذا بالحبال الى الخلاء ، واستراحت الأرض ومن فيها منها فالله يكشف عنا مطلق الكرب فى الدنيا والآخرة بمنه وكرمه .

ذو القعدة

٥ منه (١٦ سبتمبر ١٨١٧ م) :

ارتحل ركب الحجاج المغاربة من الحصوة .

أواخره (أوائل اكتوبر ١٨١٧ م) :

حصل الأمر للفقهاء بالأزهر بقراءة صحيح البخارى . فاجتمع الكثير من الفقهاء والمجاورين ، وفرقوا بينهم أجزاء وكراريس من البخارى يقرأون فيها فى مقدار ساعتين من النهار بعد الشروق . فاستمروا على ذلك خمسة أيام ... وذلك بقصد حصول النصر لابراهيم باشا على الوهابية ! وقد طالت مدة انقطاع الأخبار عنه ، وحصل لأبيه قلق زائد ولما انقضت أيام قراءة البخارى ، نزل للفقهاء عشرون كيسا فرقت عليهم ، وكذلك على أطفال المكاتب .

ذو الحجة

الأربعاء ٤ منه (١٥ اكتوبر ١٨١٧ م) :

شنقوا أشخاصا قيل انهم خمسة ، ويقال انهم حرامية .

وفيه : أرسلت الأفيال الثلاثة الى دار السلطنة صحبة الهدايا المرسلة . ثلاثة سروج دهب ، وفيها سرج مجوهر ، وخيول ، وكباش ، ونقود ، وأقمشة هندية ، وسكاكر وأرز .

وفيه وصل فيل آخر كبير ، مروا به من وسط المدينة ، وذهبوا به الى رحبة بيت السيد محمد المحروقى .. وقفوا به فى أواخر النهار ، والناس تجتمع للفرجة عليه الى أواخر النهار ثم طلعوا به الى القلعة وأوقفوه بالطبخانة ، وهى محل عمل المدافع

وحضر بصحبته شخص يدعى العلم والمعرفة بالطب والحكمة ، ومعه مجلد كبير فى حجم الوسادة

يحتوى على الكتب الستة الحديثية ، وخطه دقيق ، قال انه نسخه بيده . ونزل ببيت السيد محمد المحروقى ، وركب له معجون الجواهر أنفق فيه جملة من المال ، وكحلا . وركب أيضا تراكيب لغيره ، وشرط عليهم فى الاستعمال بعد مضى ستة أشهر ، وشىء منها بعد شهرين وثلاثة . وأقام أياما ، ثم سافر راجعا الى صنعاء .

الثلاثاء ١٠ منه (٢١ اكتوبر ١٨١٧ م) :

كان عيد النحر ، ولم يرد فيه مواشى كثيرة ، كالأعياد السابقة ، من الأغنام والجواميس التى تأتى من الأرياف ، فكانت تزدحم منها الأسواق لكثرتها ، والوكائل والرميلة ... فلم يرد الا النزر القليل قبل النحر بيومين ، ويباع بالثمن الغالى . ولم يذبح الجزارون فى أيام النحر للبيع كعادتهم... الا القليل منهم ، مع التحجير على الجلود وعلى من يشتريها ، وتباع لطرف الدولة بالثمن الرخيص جدا ...

وانقضت السنة ... مع استمرار ماتجدد فيها من الحوادث التى منها ماحدث فى آخر السنة : من الحجر وضبط أنوال الحياكة ، وكل مايصنع بالمكوك ، وما ينسج على نول أو نحوه من جميع الأصناف من ابريسم ، أو حرير ، أو كتان — الا الخيش والفل والحصير — فى سائر الاقليم المصرى ، طولا وعرضا ، قبلى وبحرى : من الاسكندرية ودمياط الى أقصى بلاد الصعيد والفيوم ، وكل ناحية تحت حكم هذا المتولى .

وانتظمت لهذا الباب دواوين ببيت محمود بيك الخازندار ، وأياما ببيت السيد محمد المحروقى ، وبحضرة من ذكر والمعلم غالى . ومتولى كبرذلك ، والمفتتح لأبوابه : المعلم يوسف كنعان الشامى ، والمعلم منصور أبو سريمون القبطى . ورتبوا لضبط ذلك كتابا ومباشرين يتقررون بالنواحى والبلدان والقرى ، وما يلزم لهم من المصاريف والمعاليم والمشاهرات ما يكفيهم فى نظير تقيدهم وخدمتهم . فيمضى المتعينون لذلك فيحصون مايكون موجودا على الأنوال بالناحية ، من القماش والبز والأكسية الصوف المعروفة بالزعابيط والدفافى ، ويكتبون عدده على ذمة الصانع ، ويكون ملزوما به ... حتى اذا تم نسجه ، دفعوا لصاحبه ثمنه بالفرض الذى يفرضونه . وان أرادها صاحبها ، أخذها من الموكلين بالثمن الذى يقدرونه ، بعد الختم عليها من طرفيها بعلامة الميرى . فان ظهر عند شخص شىء من غير علامة الميرى ، أخذت منه ... بل وعوقب ، وغرم تأديبا على اختلاسه ، وتحذيرا لغيره !

هذا شأن الموجود الحاصل عند النساجين ، واستئناف العمل المجدد : فان الموكل بالناحية ومباشريها يستدعون من كل قرية شخصا معروفا من مشايخها ، فيقيمونه وكيلا ، ويعطونه مبلغا من الدراهم ، ويأمرونه باحصاء الأنوال والشغالين والبطالين منهم فى دفتر ، فيأمرون البطالين بالنسج على الأنوال التى ليس لها صناع بأجرتهم كغيرهم على طرف الميرى . ويدفع المتوكل لشخصين أو ثلاثة دراهم يطوفون بها على النساء اللاتى يغزلن الكتان بالنواحى ، ويجعلنه أذرعا ، فيشترون ذلك منهن بالثمن المفروض ، ويأتون به الى النساجين ، ثم تجمع أصناف الأقمشة فى أماكن للبيع بالثمن الزائد . وجعلوا لمبيعها أمكنة مثل : خان أبو طقية ، وخان الجلاد . وبه يجلس المعلم كنعان ومن معه ، وغير ذلك .

وبلغ ثمن الثوب القطن ، الذى يقال له البطانة ، الى ثلثمائة نصف فضة ، بعدما كان يشترى بمائة نصف ، وأقل وأكثر ، بحسب الرداءة والجودة ... وأدركناه يباع فى الزمن السابق بعشرين نصفا . وبلغ ثمن المقطع القماش الغليظ الى ستمائة نصف

فضة ، وكان يبــاع بأقل من ثلث ذلك ... وقس على ذلك باقى الأصناف . وهــذه البدعة أشــنع البــدع المحدثة ، فان ضررها عم الغنى والفقير ، والجليل والحقير . والحكم لله العلى الكبير .

ومنها : أن المشار اليه هدم القصر الذى بالآثار ، وأنشــأه على الهيئة الرومية التى ابتــدعوها فى عمائرهم بمصر ، وهدموه وعمروه وبيضوه فى أيام قليلة . وذلك أنه بات هناك ليلتين فأعجبه هواؤه ، فاختار بنــاءه على هواه . وعنــد تمامه وتنظيمه بالفرش والزخارف ، جعــل يتردد الى المبيت به بعض الأحيان مع السرارى والغلمان ، كما يتنقل من قصر الجيزة وشبرا والأزبكية والقلعة وغيرها من سرايات أولاده وأصــهاره . والملك لله الواحد القهار .

ومنها : أن طائفة من الافرنج الانكليز قصــدوا الاطلاع على الأهرام المشهورة الكائنة ببر الجيزة غربى الفسطاط ، لأن طبيعتهم ورغبتهم الاطلاع على الأشياء المستغربات ، والفحص عن الجزئيات ... وخصــوصا الآثار القديمــة ، وعجائب البلدان والتصــاوير والتماثيل التى فى المغارات والبرابى بالناحية القبلية وغيرها . ويطوف منهم أشخاص فى مطلق الأقاليم بقصد هذا الغرض ، ويصرفون لذلك جملا من المــال فى نفقاتهم ولوازمهم ومؤاجريهم .

حتى انهم ذهبوا الى أقصى الصعيد ، وأحضروا قطــع أحجار عليهــا نقوش وأقلام وتصــاوير ، ونواويس من رخام أبيض ، كان بداخلهــا موتى بأكفانها وأجسامها باقية بسبب الأطليــة والأدهان الحافظة لها من البلى ، ووجه المقبور مصور على تمثال صورته التى كان عليها فى حال حياته ، وتماثيل آدمية من الحجر السماقى الأســود المنقط الذى لا يعمل فيه الحديد جالسين على كراسى ، واضعين أيديهم على الركب ، وبيد كل واحد شبه مفتــاح بين أصابعه اليسرى ، والشخص مع كرسيه قطعة واحدة مفرغ معه أطول من قامة الرجل الطويل ، وعلو رأسه نصف دائرة منه فى علو الشبر ... وهم شبه العبيد المشوهين الصورة ، وهم ســتة على مثال واحــد كأنما أفرغوا فى قالب واحد ، يحمل الواحد منهم الجملة من العتالين ، وفيهم السابع من رخام أبيض جميل الصورة . وأحضروا أيضا رأس صنم كبــير ، دفعــوا فى أجرة السفينة التى أحضرته فيهــا ستة عشر كيســا : عنهــا ثلثمائة وعشرون ألف نصف فضة ، وأرسلوها الى بلادهم لتباع هنــاك بأضعاف ما صرفوه عليها ... وذلك عندهم من جملة المتاجر فى الأشياء الغريبة !

ولما سمعت بالصــور المذكورة ، ذهبت بصحبة ولدنا الشيخ مصطفى باكير ، المعروف بالساعاتى ، وســيدى ابراهيم المهــدى الانكليزى ، الى بيت قنصــل بدرب البرابرة بالقرب من كوم الشــيخ سلامة جهة الأزبكية ، وشاهدت ذلك كما ذكرته ، وتعجبنا من صناعتهم وتشابههم ، وصقالة أبدانهــم الباقية على ممر الســنين ، والقرون التى لا يعلم قدرها الا علام الغيوب .

وأرادوا الاطلاع على أمر الأهرام ، وأذن لهم صاحب المملكة ، فذهبــوا اليها ونصبوا خيمة ، وأحضروا الفعلة والمساحى والغلقان ، وعبروا الى داخلهــا ، وأخرجوا منهــا أتربة كثــيرة من زبل الوطواط وغيره ، ونزلوا الى الزلاقة ، ونقلوا منها ترابا كثيرا وزبلا ، فانتهوا الى بيت مربع من الحجر المنحوت غير مسلوك — هــذا ما بلغنا عنهم — وحفروا حوالى الرأس العظيمة التى بالقــرب من الاهرام ، التى تسميها النــاس رأس أبى الهول ، فظهر أنه جسم كامل عظيم من حجر واحد ، ممتد كأنه راقد على بطنه ، رافع رأســه — وهى التى يراها الناس — وباقى جسمه مغيب بما انهال عليه من الرمال ، وساعداه من مرفقيه ممتدان أمامه ،

وبينهما شبه صندوق مربع الى استطالة ، من سماق أحمر عليه نقوش شبه قلم الطير : فى داخله صورة سبع مجسم من حجر مدهون بدهان أحمر رابض ، باسط ذراعيه فى مقدار الكلب ، رفعوه أيضا الى بيت القنصل ، ورأيته يوم ذاك . وقيس المرتفع من جسم أبى الهول من عند صدره الى أعلى رأسه ، فكان اثنين وثلاثين ذراعا ، وهى نحو الربع من باقى جسمه ، وأقاموا فى هذا العمل نحوا من أربعة أشهر .

* * *

وأما من مات فى هذه السنة من المشاهير : فمات العالم العلامة ، الفاضل الفهامة ، صاحب التحقيقات الرائقة ، والتأليفات الفائقة ... شيخ شيوخ أهل العلم ، وصدر صدور أهل الفهم ، المتفنن فى العلوم كلها ، نقليها وعقليها وأدبيها . اليه انتهت الرياسة فى العلوم بالديار المصرية ، وباهت مصر ما سواها بتحقيقاته البهية . استنبط الفروع من الأصول ، واستخرج نفائس الدرر من بحور المعقول والمنقول ، وأودع الطروس فوائد ، وقلدها عوائد فرائد : الأستاذ الشيخ محمد بن محمد بن أحمد ابن عبد القادر بن عبد العزيز بن محمد السنباوى ، المالكى الأزهرى ، الشهير بالأمير ، وهو لقب جده الأدنى أحمد . وسببه أن أحمد وأباه عبد القادر كان لهما امرة بالصعيد .

وأخبرنى المترجم من لفظه أن أصلهم من المغرب ، نزلوا بمصر عند سيدى عبد الوهاب أبى التخصيص ، كما أخبر عن ذلك وثائق لهم ، ثم التزموا بحصة بناحية سنبو ، وارتحلوا اليها وقطنوا بها ، وبها ولد المترجم .

وكان مولده فى شهر ذى الحجة سنة أربع وخمسين ومائة وألف باخبار والديه ، وارتحل معهما الى مصر وهو ابن تسع سنين .

وكان قد ختم القرآن ، فجوده على الشيخ المنير ، على طريقة الشاطبية والدرة ، وحبب اليه طلب العلم . فأول ما حفظ : متن الأجرومية ، وسمع سائر الصحيح والشفاء على سيدى على بن العربى السقاط ، وحضر دروس أعيان عصره ، واجتهد فى التحصيل . ولازم دروس الشيخ الصعيدى فى الفقه وغيره من كتب المعقول ، وحضر على السيد البليدى شرح السعد على عقائد النسفى والأربعين النووية ، وسمع الموطأ على هلال المغرب وعالمه : الشيخ محمد التاودى ابن سودة ، بالجامع الأزهر سنة وروده بقصد الحج ، ولازم المرحوم الوالد حسن الجبرتى سنين ، وتلقى عنه الفقه الحنفى ، وغير ذلك من الفنون : كالهيئة ، والهندسة ، والفلكيات ، والأوفاق ، والحكمة عنه ، وبواسطة تلميذه الشيخ محمد بن اسماعيل النفراوى المالكى . وكتب له اجازة مثبتة فى برنامج شيوخه .

وحضر الشيخ يوسف الحفنى فى آداب البحث وبانت سعاد ، وعلى الشيخ محمد الحفنى أخيه ، مجالس من الجامع الصغير والشمايل والنجم الغيطى فى المولد ، وعلى الشيخ أحمد الجوهرى فى شرح الجوهرة للشيخ عبد السلام ، وسمع منه المسلسل بالأولية ، وتلقى عنه طريق الشاذلية من سلسلة مولاى عبد الله الشريف . وشملته اجازة الشيخ الملوى ، وتلقى عنه مسائل فى أواخر أيام انقطاعه بالمنزل .

ومهر وأنجب ، وتصدر لالقاء الدروس فى حياة شيوخه ، ونما أمره ، واشتهر فضله — خصوصا بعد موت أشياخه — وشاع ذكره فى الآفاق ، وخصوصا بلاد المغرب ، وتأتيه الصلات من سلطان المغرب وتلك النواحى فى كل عام . ووفد عليه الطالبون للأخذ عنه والتلقى منه ، وتوجه فى بعض لمقتضيات الى دار السلطنة ، والقى هناك دروسا حضره فيها علماؤهم ، وشهدوا بفضله ،

واستجازوه وأجازهم بما هو مجاز به من أشياخه .

وصنف عدة مؤلفات اشتهرت بأيدى الطلبة ، وهى فى غاية التحرير ، منها مصنف فى فقه مذهبه سماه « المجموع » حاذى به مختصر خليل : جمع فيه الراجح فى المذهب ، وشرحه شرحا نفيسا . وقد صار كل منهما مقبولا فى أيام شيخه العدوى ... حتى كان اذا توقف شيخه فى موضع يقول : « هاتوا مختصر الأمير » ، وهى منقبة شريفة وشرح مختصر خليل ، وحاشية على المغنى لابن هشام ، وحاشية على الشيخ عبد الباقى على المختصر ، وحاشية على الشيخ عبد السلام على الجوهرة ، وحاشية على شرح الشذور لابن هشام ، وحاشية على الأزهرية ، وحاشية على الشنشورى على الرحبية فى الفرائض ، وحواشى على المعراج ، وحاشية على شرح الملوى على السمرقندية ، ومؤلف سماه : مطلع النيرين فيمايتعلق بالقدرتين ، واتحاف الأنس فى الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس ، ورفع التلبيس عما يسأل به ابن خميس ، وثمر التمام فى شرح آداب الفهم والافهام ، وحاشية على المجموع ، وتفسير سورة القدر .

ومن نظمه قوله متغزلا :

أيها السيد المدلل ضاعت
فى الهوى ضيعتى وأنسيت نسكى
يالك الله لا تمل لسوائى
وتحكم ولو بما فيه فتكى
وانظر الحق فى علو غناه
كل شىء يمحوه غير الشرك

وله فى التشبيه :

ياحسن لون الشمس عند غروبها
فى روض أنس نزهة للأنفس
فكأنه وكأنه فى ناظرى
ذهب يجول على بساط سندس

وله أيضا :

تخيلت أن الشمس والبحر تحتها
وقد بسطت منها عليه بوارق
مليح أتى المرآة ننظر وجهه
ففى وجهها من وجهه الضوء دافق

وله أيضا :

يامالك القلب من بين الملاح وان
توهم الغير أن القلب مشترك
انى أغار على حظى لديك فغر
أيضا على قلب صب فيك مرتبك
وقل لهم ينتهوا عما تسوله
نفوس سومهم طرق الردى سلكوا
توهموا أنهم حلوا وقد ملكوا
ويعلم الله ما حلوا وما ملكوا
ياسيد الكل ياقطب الجمال ومن
فى دولة الحسن يروى أنه الملك
ما كان قلبى يهوى الغير ياأملى
فابعث رميمى اذ أهل الهوى هلكوا
وأسقط البين وارفع حجب شأنك لى
ليشتفى خاطر بالفكر يعترك
بلطف ذاتك لا تقطع رجاء فتى
على عيوب له بالعهد يمتسك

وله أيضا :

دع الدنيا فليس بها سرور
يتم ولا من الأحزان تسلم
ونفرض أنه قد تم فرضا
فغم زواله أمر محتم
فكن فيها غريبا ثم عبى
الى دار البقا ما فيه تغنم
وان لا بد من لهو فلهو
بشىء نافع والله أعلم

وله غيرَ ذلك من النظم المليح ، والذوق الصحيح ، واللسان الفصيح .

وكان رحمه الله رقيق القلب ، لطيف المزاج ، ينزعج طبعه من غير انزعاج ... يكاد الوهم يؤلمه ، وسماع المنافر يوهنه ويسقمه . وبأخـرة ضعفت قواه ، وتراخت أعضاه ، وزاد شكواه . ولم يزل يتعلل ، ويزداد أنينـه ويتململ ، والأمـراض به تسلسل ، وداعى المنون عنه لا يتحول ... الى أن توفى يوم الاثنين عاشر ذى القعدة الحرام . وكان له مشهد حافل جدا ، ودفن بالصحراء بجوار مدفن الشيخ عبد الوهاب العفيفى ، بالقرب من عمـارة السلطان قايتباى . وكثر عليـه الأسف والحزن . وخلف ولده العلامة النحرير الشيخ محمد الأمير ، وهو الآن أحد الصدور كوالده : يقرأ الدروس ، ويفيد الطلبة ، ويحضر الدواوين والمجالس العالية ... بارك الله فيه .

* * *

ومات الشيخ الفقيـه العلامة : الشيخ خليـل المدابغى ... لكونه يسكن بحارة المدابغ .

حضر دروس الأشـياخ من الطبقـة الأولى ، وحصل الفقه والمعقول ، واشتهر فضله ، مع فقره ، وانجماعه عن النـاس ... متقشفا متواضـعا ، ويكتسب من الكتـابة بالأجرة . ولـم يتجمـل بالملابس ، ولا بزى الفقهاء . يظن الجاهل به أنه من جملة العوام . توفى يوم الاثنين ثامن عشر ذى القعدة من السنة .

* * *

ومات الشيخ الفقيه الورع : الشـيخ على ، المعروف بأبى زكرى البولاقى ... لسكنه ببولاق . وكان ملازما لاقراء الدروس ببولاق ، ويأتى الى الجامع الأزهر فى كل يوم : يقرأ الدروس ، ويفيد الطلبة ، ويرجع الى بولاق بعد الظهر .

ومات حماره الذى كان يأتى عليه الى الجامع الأزهر ، فلم يتخلف عن عادته ، ويأتى ماشيا ثم يعود مدة ... حتى أشفق عليه بعض المشفقين من أهالى بولاق ، واشتروا له حمارا . ولم يزل على حالته وانكسـاره حتى توفى يوم الخميس ثامن شهر ذى القعدة من السنة ، رحمـه الله وايانا ، وجمعنا فى مستقر رحمته ... آمين .

* * *

ومات من أكابر الدولة ، المسمى ولى افندى ، ويقال له : ولى خوجا . وهو كاتب خزينة الباشا ، وأنشأ الدار العظيمـة التى بناحيـة باب اللوق ، وأدخل فيهـا عدة بيوت ، ودورا جليـلة تجاهها وملاصـقة لها من الجهتين ، وبعضـها مطل على البركة المعروفة ببركة أبى الشوارب .

وتقدم فى أخبار العام الماضى أن الباشا صاهره ، وزوج ابنته لبعض أقارب البـاشا الخصيصين به — مثل الذى يقال له شريف أغا ، وآخر — وعمل له مهما عظيما احتفل فيه الى الغاية ، وزفة وشنكا ... كل ذلك وهو متمرض ، الى أن مات فى ثانى عشرين ربيع الثانى ، وضبطت تركته فوجـد له كثير من النقود والجواهر والأمتعـة وغير ذلك . فسبحان الحى الذى لايموت .

المحرم

في غرته (١١ نوفمبر ١٨١٧ م) :

استهل ... ووالى مصر وحاكمها : الوزير محمد على باشا ، وهو المتصرف فيها : قبليها وبحريها ، بل والأقطار الحجازية وضواحيها . وبيده أزمة الثغور الاسلامية .

ووزيره : محمدبيك لاظ — المعروف بكتخدا بيك — وهو قائم مقامه فى حال غيابه وحضوره ، والمتصدر فى ديوان الأحكام الكلية والجزئية ، وفصل الخصومات ، ومباشرة الأحوال ... نافذ الكلمة ، وافر الحرمة .

وأغات الباب : ابراهيم أغا ، ومتولى أيضا أمر تعديل الأصناف ليوفر على الخزينة ما يأكله المتولى على كل صنف ، ويخفى أمره . فيشدد الفحص فى المكيل والموزون والمذروع ... حتى يستخرج المخبأ ، ولو قليلا ، فيجتمع من القليل الكثير من الأموال ، فيحاسب المتولى مدة ولايته ، فيجتمع له ما لا قدرة له على وفاء بعضه ... لأن ذلك شىء قد استهلك فى عدة أيدى أشخاص وأتباع . ويلزم الكبير بأدائه ، ويقاسى ما يقاسيه من الحبس والضرب ، وسلب النعمة ، ومكابدة الأهوال .

وسلحدار الباشا : سليمان أغا — عوضا عن صالح بيك السلحدار لاستعفائه عنها فى العام السابق — وهو المسلط على أخذ الأماكن وهدمها ، وبنائها خانات وزباعا وحوانيت . فيأتى الى الجهة التى يختار البناء فيها ، ويشرع فى هدمها . ويأتيه أربابها فيعطيهم أثمانها ، كما هى فى حججهم القديمة . وهو شىء نادر بالنسبة لغلو أثمان العقارات فى هذا الوقت ... لعموم التخرب ، وكثرة العالم ، وغلاء المؤن ، وضيق المساكن بأهلها . حتى ان المكان الذى كان يؤجر بالقليل ، صار يؤجر بعشرة أمثال الأجرة القديمة ... ونحو ذلك .

ومحمود بيك الخازندار ، وخدمته : قبض أموال البلاد والأطيان والرزق ، وما يتعلق بذلك من الدعاوى والشكاوى . وديوانه بخط سويقة اللالا .

والمعلم غالى ، كاتب سر الباشا ، ورئيس الأقباط . وكذلك الدفتردار : محمد بيك ، صهر الباشا وحاكم الجهة القبلية . والروزنامجى : مصطفى أفندى . وأغا مستحفظان حسن أغا البهلوان ، والزعيم على أغا الشعراوى .

ومصطفى أغا كرد : المحتسب ، وقد بردت همته عما كان عليه ، ورجع الحال فى قلة الأدهان كالأول ، وازدحم الناس على معمل الشمع ... فلا يحصل الطالب منه شيئا الا بشق الأنفس . وكذلك انعدم وجود بيض الدجاج لعدم المجلوب ، ووقوف العسكر ورصدهم من يكون معه شىء منه من الفلاحين الداخلين الى المدينة من القرى ، فيأخذونه منهم بدون القيمة ... حتى بيعت البيضة الواحدة بنصفين . وأما المعاملة فلم يزل أمرها فى اضطراب بالزيادة والنقص ، وتكرار المناداة كل قليل ،

وصرف الريال الفرانسة الى أربعمائة نصف فضة ، والمحبوب الى أربعمائة وثمانين ، والبندقى الى تسعمائة نصف ، والمجر الى ثمانمائة نصف . وأما هذه الأصناف العددية التى تذكر فهى أسماء لا وجود لمسمياتها فى الأيدى !

١٢ منه (٢٢ نوفمبر ١٨١٧ م) :

سافر الباشا الى جهة الاسكندرية لمحاسبة الشركاء ، والنظر فى بيع الغلال والمتاجر والمراسلات .

١٩ منه (٢٩ نوفمبر ١٨١٧ م) :

ارتحلت عساكر أتراك ومغاربة مجردة الى الحجاز .

صفر

١٣ منه (٢٣ ديسمبر ١٨١٧ م) :

وصل الكثير من حجاج المغاربة .

١٧ منه (٢٧ ديسمبر ١٨١٧ م) :

وصل جاويش الحاج . وفى ذلك اليوم — وقت العصر — ضربوا عدة مدافع من القلعة لبشارة وصلت من ابراهيم باشا بأنه حصلت له نصرة ، وملك بلدة من بلاد الوهابية ، وقبض على أميرها ، ويسمى عتيبة ، وهو طاعن فى السن .

٢١ منه (٣١ ديسمبر ١٨١٧ م) .

وصل ركب الحاج المصرى والمحمل . وأمير الحاج من الدلاة .

ربيع الأول

الجمعة غرته (٩ يناير ١٨١٨ م) :

وصل قابجى من دار السلطنة . فعملوا له موكبا ، وطلع الى القلعة ، وضربوا له شنكا سبعة أيام . وهى مدافع تضرب فى كل وقت من الأوقات الخمسة .

وفى هذا الشهر : انعدم وجود القناديل الزجاج ، وبيع القنديل الواحد الذى كان ثمنه خمسة أنصاف بستين نصفا ... اذا وجد !

ربيع الآخر

١٤ منه (٢٢ فبراير ١٨١٨ م) :

سافر أولاد سلطان المغرب والكثير من حجاج المغاربة . وكانوا فى غاية الكثرة بحيث ازدحمت منهم أسواق المدينة وبولاق وما بينهما من جميع الطرق : فكانوا يشترون الأغنام من الفلاحين ويذبحونها ويبيعونها على الناس جزافا من غير وزن بعد أن يتركوا لأنفسهم مقدار حاجتهم . فذهب الكثير للشراء منهم بسبب رداءة اللحم الموجود بحوانيت الجزارين ... ولو وقف عليهم بالثمن الزائد .

فى أواخره (أوائل مارس ١٨١٨ م) :

حضر مبشر من ناحية الديار الحجازية يخبر بنصرة حصلت لابراهيم باشا ، وأنه استولى على بلدة تسمى الشقراء ، وأن عبد الله بن مسعود كان بها فخرج منها هاربا الى الدرعية ليلا ، وأن بين عسكر الأتراك والدرعيين مسافة يومين . فلما وصل هذا المبشر ، ضربوا لقدومه مدافع من أبراج القلعة . وذلك وقت الغروب من يوم الأربعاء سادس عشرينه .

جمادى الأولى

فى غرته (٩ مارس ١٨١٨ م) :

نودى على طائفة المخالفين للملة — من الأقباط والأروام — بأن يلزموا زيهم من الأزرق والأسود ، ولا يلبسون العمائم البيض ... لأنهم

خرجوا عن الحد فى كل شيء ، ويتعممون بالشيلان الكشميرى الملونة والغالية فى الثمن ، ويركبون الرهوانات والبغال والخيول ، وأمامهم وخلفهم الخدم بأيديهم العصى يطردون الناس عن طريقهم ، ولا يظن الرائى لهم الا أنهم من أعيان الدولة ، ويلبسون الأسلحة ، وتخرج الطائفة منهم الى الخلاء ، ويعملون لهم نشانا يضربون عليه بالبنادق الرصاص وغير ذلك .

فما أحسن هذا النهى .. لو دام !

٢١ منه (٢٩ مارس ١٨١٨ م) :

حضر الباشا من غيبته بالاسكندرية أواخر النهار ، فضربوا لقدومه مدافع ، فبات بقصر شبرا . وطلع فى صبحها الى القلعة ، فضربوا بها مدافع أيضا . فكان مدة غيبته بالاسكندرية أربعة أشهر وتسعة أيام .

فى اواخره (اوائل ابريل ١٨١٨ م) :

وصل هجان من شرق الحجاز ببشارة بأن ابراهيم باشا استولى على بلد كبير من بلاد الوهابية ، ولم يبق بينه وبين الدرعية الا ثمانى عشرة ساعة . فضربوا شنكا ومدافع .

وفيه : وصل هجان من حسن باشا ، الذى بجدة ، بمراسلة يخبر فيها بعصيان الشريف حمود بناحية يمن الحجاز ، وأنه حاصر من بتلك النواحى من العساكر وقتلهم ، ولم ينج منهم الا القليل ، وهو من فر على جوائد الخيل .

ووقع فيه أيضا : الاهتمام فى تجريد عساكر للسفر . وأرسل الباشا بطلب خليل باشا للحضور من ناحية بحرى هو وخلافه . وحصل الأمر بقراءة صحيح البخارى بالأزهر ، نفرىء يومين ، وفرق على مجاورى الأزهر عشرة أكياس ، وكذلك فرقت دراهم على أولاد المكاتب !

جمادى الآخرة

١٥ منه (٢٢ ابريل ١٨١٨ م) :

حصل خسوف للقمر فى سادس ساعة من الليل . وكان المنخسف منه مقدار النصف ، وحصل الأمر أيضا بقراءة صحيح البخارى بالأزهر .

وفيه : ورد الخبر بموت الشريف حمود ، وأنه أصيب بجراحة ومات بها .

٢٩ منه (٦ مايو ١٨١٨ م) :

حصل كسوف للشمس فى ثالث ساعة من النهار . وكان المنكسف منها مقدار الثلث .

وفيه : ضربت مدافع لوصول بشارة من ابراهيم باشا بأنه ملك جانبا من الدرعية ، وأن الوهابية محصورون ، وهو ومن معه من العربان محيطون بهم .

شعبان

(٦ يونية ــ ٤ يولية ١٨١٨ م)

فيه : حضر خليل باشا وحسين بيك دالى باشا من الجهة البحرية ، ونزلوا بدورهم .

رمضان

الأحد ١٥ منه (١٩ يولية ١٨١٨ م) :

وصل نجاب ، وأخبر بأن ابراهيم باشا ركب الى جهة من نواحى الدرعية لأمر يبتغيه ، وترك عرضيه فاغتنم الوهابية غيابه ، وكبسوا على العرضى على حين غفلة ، وقتلوا من العساكر عدة وافرة ، وأحرقوا الجبخانة .

فعند ذلك قوى الاهتمام ، وارتحل جملة من العساكر فى دفعات ثلاث ، برا وبحرا ، يتلو بعضهم بعضا ... فى شعبان ورمضان . وبرز عرضى خليل باشا الى خارج باب النصر ، وترددوا فى الخروج

والدخول ، واستباحوا الفطر فى رمضـــان بحجه السفر ! فيجلس الكثير منهم بالأســـواق يأكلون ويشربون ، ويمرون بالشوارع وبأيديهم أقصاب للدخان والتتن ، من غير احتشام ولا احترام لشهر الصوم ... وفى اعتقادهم الخروج بقصـــد الجهاد وغزو الكفار المخالفين لدين الاسلام !

وانقضى شهر الصوم ... والباشا متكدر الخاطر ومتقلق ، ومنتظر ورود خبر ينسر بسماعه .

شـــوال

غرته (٣ اغسطس ١٨١٨ م — ٢٨ أبيب ١٥٣٤ ق) :

كان هلاله عسر الرؤية جدا . فحضر جماعة من الأتراك الى المحكمة وشهدوا برؤيته .

وفيه : أوفى النيل أذرعه ، فأخروا فتح سد الخليج ثلاثة أيام العيد ، ونودى بالوفاء يوم الأربعـــاء ، وحصل الجمع يوم الخميس رابعه . وحضر فتح الخليج كتخـــدا بيك والقــــاضى ، ومن له عادة بالحضـــور ... فكان جمعا وازدحاما عظيمـــا من أخلاط العالم فى جهة الســـد والروضـــة ... تلك الليلة . واشتعلت النار فى الحديقة واحترق فيها أشخاص ، ومات بعضهم .

٦ منه (٨ اغسطس ١٨١٨ م) :

خرج خليل باشا المعين الى الســـفر فى موكب ، وشق من وسط المدينة ، وخرج من باب النصر ، وعطف عـــلى باب الفتوح ، ورجـــع الى داره فى قلة من أتباعه فى طريقه التى خرج منها !

وفيه : انتدب مصطفى أغا المحتسب ، ونادى فى المدينة ، ويأمر النـــاس بقطـــع أراضى الطـــرقات والأزقة ... حتى العطف والحارات الغير النافذة . فأخذ أرباب الحوانيت والبيوت يعملون بأنفسهم فى قطع الأرض والحفر ، ونقل الأتربة وحملها ... من خوفهم من أذيته ، ولعـــدم الفعلة والأجراء واشتغال حمير الترابين باستعمالهم فى عمائر أهل الدولة . فلو كان هـــــذا الاهتمام فى قطع أرض الخليج الذى يجرى به الماء ! فانه لم تقطع أرضه . وينقطع جريانه فى أيام قليلة لعلو أرضه من الطمى ، وبما يتهدم عليه من الدور القـــديمة ، وما يلقيه السكان فيه من الأتربة ... وزاد على ذلك — بهذه الفعلة — القـــاء ما يحفرونه وينقلونه من أتـــربة الأزقة والبيوت القديمة القريبة منه ... فيه ، ليـــلا ونهـــارا .

٨ منه (١٠ اغسطس ١٨١٨ م) :

ارتحل خليل باشا مســـــافرا الى الحجاز من القلزم ، وعساكره الخيالة على طريق البر .

١٣ منه (١٥ اغسطس ١٨١٨ م) :

نزلوا بكسوة الكعبة الى المشهد الحسينى على العادة .

٢٢ منه (٢٤ اغسطس ١٨١٨ م) :

عمل الموكب لأمير الحاج — وهو حسين بيك دالى باشـــا — وخرج بالمحمل خارج باب النصر تجاه الهمايل ، ثم انتقل فى يوم الأربعاء الى البركة ، وارتحل منها يوم الاثنين تاسع عشرينه .

وسافر الكثير من الحجاج ، وأكثر فلاحى القرى والصعايدة ، ومن باقى الأجناس — مثل المغاربة والقرمان والأتراك — أنفار قليلة .

وفيه : وصل قابجى وعلى يده تقرير لحضرة الباشا على السنة الجديدة ، وطلع الى القلعة فى موكب ، وقرىء التقرير بحضرة الجمـــع ، وضربت مدافع كثيرة . وكذلك وصل قبله قابجى صحبته فرمان بشارة بمولود ولد لحضرة السلطان ، فعمل له شنك ومدافع ، ثلاثة أيام فى الأوقات الخمسة ، وذلك فى منتصفه .

ذوالقعدة

(٢ سبتمبر ـ أول اكتوبر ١٨١٨ م)

انقضى ... والباشا منفعل الخاطر ، لتأخر الأخبار ، وطول الانتظار . وكل قليل يأمر بقراءة صحيح البخارى بالأزهر ، ويفرق على صغار المكاتب والفقراء دراهم . ولضيق صدره ، واشتغال فكره ، لا يستقر بمكان : فيقيم بالقلعة قليلا ، ثم ينتقل الى قصر شبرا ، ثم الى قصر الآثار ، ثم الأزبكية ، ثم الجيزة ... وهكذا .

ذوالحجة

الخميس ٧ منه (٨ اكتوبر ١٨١٨ م) :

وردت بشائر من شرق الحجاز بمراسلة من عثمان أغا الوردانى ، أمير الينبع ، بأن ابراهيم باشا استولى على الدرعية والوهابية . فانسر الباشا لهذا الخبر سرورا عظيما ، وانجلى عنه الضجر والقلق ، وأنعم على المبشر . وعند ذلك ضربوا مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وبولاق والأزبكية ، وانتشر المبشرون على بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش

الثلاثاء ١٢ منه (١٣ اكتوبر ١٨١٨ م) :

وصل المرسوم بمكاتبات من السويس والينبع ، وذلك قبيل العصر ، فأكثروا من ضرب المدافع من كل جهة ، واستمر الضرب من العصر الى المغرب بحيث ضرب بالقلعة خاصة ألف مدفع .

وصادف ذلك شنك أيام العيد . وعند ذلك أمر بعمل مهرجان وزينة داخل المدينة وخارجها ، وبولاق ومصر القديمة والجيزة ، وشنك على بحر النيل تجاه الترسخانة ببولاق ، من النجارين والخراطين والحدادين . وتقيد لذلك أمين أفندى المعمار ، وشرعوا فى العمل . وحضر كشاف النواحى والأقاليم بعساكرهم ، وأخرجوا الخيام والصواوين

قصر شبرا

والوطاقات ، خارج باب النصر وباب الفتوح .
وذلك يوم الثلاثاء سادس عشرينه .

ونودى بالزينة — وأولها الأربعاء — فشرع الناس فى زينة الحوانيت والخانات وأبواب الدور ، ووقود القناديل والسهر ، وأظهروا الفرح والملاعيب .

كل ذلك ... مع ما الناس فيه من ضيق الحال ، والكد فى تحصيل أسباب المعاش ، وعدم ما يسرجون به من الزيت والشيرج والزيت الحار . وكذا السمن فانه شح وجوده ، ولا يوجد منه الا القليل عند بعض الزياتين ، ولا يبيع الزيات زيادة عن الأوقية . وكذلك اللحم : لايوجد منه الا ماكان فى غاية الرداءة من لحم النعاج الهزيل ، وامتنع أيضا وجود القمح بالساحل وعرصات الغلة ... حتى الخبز امتنع وجوده بالأسواق !

ولما أنهى الأمر الى من لهم ولاية الأمر ، فأخرجوا من شون الباشا مقدارا ليباع فى الرقع ، وقد أكلها السوس ، ولا يباع منها أزيد من الكيلة ... أكثرها مسوس ! وكذلك لما شكا الناس من عدم مايسرج به فى القناديل ، أطلقوا للزياتين مقدارا من الشيرج فى كل يوم ، يباع فى الناس لوقود الزينة . وفى كل يوم يطوف المنادى ، ويكرر المناداة بالشوارع على الناس : بالسهر والوقود والزينة ، وعدم غلق الحوانيت ليلا ونهارا ! .

وانقضى العام بحوادثه ، ومعظمها مستمر .

فمنها — وهو أعظمها — شدة الأذية والضيق — وخصوصا بذوى البيوت والمساتير من الناس — بسبب قطع ايرادهم وأرزاقهم : من الفائظ والجامكية السائرة ، والرزق الأحباسية ، وضبط الأنوال التى تقدم ذكرها ، وكان يتعيش منها ألوف من العالم .

ولما اشتد الضنك بالملتزمين ، وتكرر عرضحالهم ، فأمر لهم بصرف الثلث . وتحول المصرفجى على بعض الجهات ، فكان كلما اجتمع لديه قدر يلحقه الطلب بحوالة من لوازم عساكر السفر المجردين .

وانقضى العام ... وأكثر الناس لم يحصل على شىء ، وذلك لكثرة المصاريف والارساليات : من الذخائر والغلال والمؤن ، وخزائن المال من أصناف خصوص الريال الفرانسة والذهب البندقى والمحبوب الاسلامى ... بالأحمال ، وهى الأصناف الرائجة بتلك النواحى . وأما القروش فلا رواج لها الا بمصر وضواحيها فقط .

أخبرنى أحد أعيان كتاب الخزينة عن أجرة حمل الذخيرة على جمال العرب خاصة فى مرة من المرات : خمسة وأربعين ألف فرانسة ، وذلك من الينبع الى المدينة ، حسابا عن أجرة كل بعير ستة فرانسة : يدفع نصفها أمير الينبع ، والنصف الأخير يدفعه أمير المدينة عند وصول ذلك . ثم من المدينة الى الدرعية مايبلغ المائة والأربعين ألف فرانسة . وهو شىء مستمر التكرار والبعوث ، ويحتاج الى كنوز قارون وهامان ، واكسير جابر بن حيان !

ومنها : العمارة التى أمر بانشائها الباشا المشار اليه بين السورين ، وحارة النصارى ، المعروفة بخميس العدس ، المتوصل منها الى جهة الخرنفش . وذلك باشارة أكابر نصارى الافرنج ليجتمع بها أرباب الصنائع الواصلون من بلاد الافرنج وغيرهم ، وهى عمارة عظيمة ابتدأوا فيها من العام الماضى ، واستمروا مدة فى صناعة الآلات الأصولية التى يصطنع بها اللوازم ، مثل السندالات والمخارط

للحديد والقواديم والمناشير والتزجات ونحو ذلك . وأفردوا لكل حرفة وصناعة مكانا وصناعا ، يحتوى المكان على الأنوال والدواليب والآلات الغريبة الوضع ، والتركيب لصناعة القطن ، وأنواع الحرير والأقمشة والمقصبات .

وفى أواخر هذا العام : جمعوا مشايخ الحارات وألزموهم بجمع أربعة آلاف غلام من أولاد البلد ليشتغلوا تحت أيدى الصناع ، ويتعلموا ويأخذوا أجرة يومية ، ويرجعوا لأهاليهم أواخر النهار : فمنهم من يكون له القرش والقرشان والثلاثة ، بحسب الصناعة وما يناسبها ... وربما احتيج الى نحو العشرة آلاف غلام بعد اتمامها . والمحتاج اليه فى هذا الوقت القدر المذكور ، وهى كرخانة عظيمة صرف عليها مقادير عظيمة من الأموال .

ومنها : أنه ظهر بأراضى الأرز — بالبحر الشرقى بناحية دمياط — حيوان يخرج من البحر الشرقى فى قدر الجاموس العظيم ولونه ، فيرعى الفدان من الزرع ثم يتقايأ أكثره ! وكان ظهوره من العام الماضى ، فيجتمع عليه الكثير من أهل الناحية ، ويرجمونه بالحجارة ، ويضربون عليه بنادق الرصاص ، فلا تؤثر فى جلده ، ويهرب الى البحر ، واتفق أنه ابتلع رجلا ... الى أن أصيب فى عينه وسقط ، وتكاثروا عليه وقتلوه وسلخوا جلده وحشوه تبنا ، وأتوا به الى بولاق ، وتفرج عليه الباشا والناس .

وأخبرنى غير واحد ممن رآه أنه أعظم من الجاموس الكبير : طوله ثلاث عشرة قدما ، ولونه لونه ، وجلده أملس ، ورأسه عظيم يشبه رأس ابن عرس ، وعيناه فى أعلى دماغه ، واسع الفم ، وذنبه مثل ذنب السمك ، وأرجله غلاظ مثل أرجل الفيل فى أواخرها أربع ظلوف طوال ، وأسفلها كخف الجمل . وأدخلوه الى بيت الافرنج ، وأنعم به الباشا على يغوص الترجمان الأرمنى ، وهو يبيعه على الافرنج بثمن كبير .

ومنها : أن امرأة ، يقال لها الشيخة رقية ، تتزر بمئزر أبيض ، وبيدها خيزرانة وسبحة ، تطوف على بيوت الأعيان ، وتقرأ وتصلى ، وتذكر على السبحة ... ونساء الأكابر يعتقدن فيها الصلاح ، ويسألن منها الدعاء ، وكذلك الرجال حتى بعض الفقهاء . وتجتمع على الشيخ العالم المعتقد الشيخ تعيلب الضرير ، ويكثر من مدحها للناس فيزدادون فيها اعتقادا ، ولها بمنزل خليل بيك طوقان النابلسى مكان مفرد تأوى اليه على حدتها ، واذا دخلت بيتا من البيوت قام اليها الخدم ، واستقبلوها بقولهم : « نهارنا سعيد ومبارك » ونحو ذلك . واذا دخلت على الستات قمن اليها ، وفرحن بقدومها ، وقبلن يدها ، وتبيت معهن ومع الجوارى .

فذهبت يوما الى دار الشيخ عبد العليم الفيومى —وذلك فى شهر شوال— فتمرضت أياما وماتت . فضجوا وتأسفوا عليها ، وأحبوا تغيير ما عليها من الثياب ، فرأوا شيئا معجرما بين أفخاذها فظنوه صرة دراهم ... واذا هو آلة الرجال : الخصيتان والذى فوقهما ! فبهت النساء وتعجبن ، وأخبروا الشيخ تعيلب بذلك فقال : « استروا هذا الأمر » . وغسلوه وكفنوه ، وواروه فى التراب ، ووجدوا فى جيبه مرآة وموسا وملقاطا . وشاع أمره ، واشتهر وتناقله الناس بالتحدث والتعجب !

ومنها : زيادة النيل فى هذا العام الزيادة المفرطة التى لم نسمع ولم نر مثلها ، حتى غرق الزروع الصيفية ، مثل الذرة والنيلة والسمسم والقصب والأرز وأكثر الجنائن ، بحيث صار البحر وسواحله والملق لجة ماء . وانهدم بسببه قرى كثيرة ، وغرق

الكثير من الناس والحيوان ... حتى كان الماء ينبع بين الناس من وسط الدور .

واختلط بحر الجيزة ببحر مصر العتيقة ، حتى كانت المراكب تمشى فوق جزيرة الروضة . وكثر عويل الفلاحين وصراخهم على ما غرق لهم من المزارع ، وخصوصا الذرة الذى هو معظم قوتهم . وكثير من أهل البلاد ندبوا بالدفوف .

ومنها : أن الباشا زاد فى هذه السنة الخراج ، وجعل على كل فدان ستة قروش وسبعة وثمانية ، وذكر أنها مساعدة على حروب الحجاز والخوارج ... فدهى الفلاحون بهاتين الداهيتين : وهى زيادة النيل ، وزيادة الخراج فى غير وقت وأوان .

فان من عادة الفلاحين وأهل القرى اذا انقضت أيام الحصاد والدراوى ، وشطبوا ما عليهم من مال الخراج لملتزميهم — ويكون ذلك فى مبادى زيادة النيل — وارتفع عنهم الطلب ، وارتحلت كشاف النواحى ، وقائمقام الملتزمين والصيارف والمعينون ، وخلت النواحى منهم ... فعند ذلك ترتاح نفوسهم ، وتجتمع حواسهم ، ويعملون أعراسهم ، ويجددون ملبوسهم ، ويزوجون بناتهم ، ويختنون صبيانهم ، ويشيدون بنيانهم ، ويصلحون جسورهم وحبوسهم . فاذا أخذ النيل فى الزيادة ، شرعوا فى زراعة الصيفى الذى هو معظم قوتهم وكسبهم ... حتى اذا انحسر الماء ، وانكشفت الأراضى ، وآن أوان التخضير وزراعة الشتوى ، من البرسيم والغلة ، وجدوا ما يسدون به مال التجهية ، وما يرقعون به أحوالهم من بهائم الحرث ومحاريث وتقاوى وأجر عمال ونحو ذلك ، فدهموا هذه السنة بهاتين الآفتين : الأرضية والسماوية ، ورحل الكثير عن أهله ووطنه . وكان ابتداء طلب هذه الزيادة قبل زيادة النيل ، ومجىء خبر النصرة ، فلما ورد خبر النصرة لم يرتفع ذلك .

ومنها : الاضطراب فى المعاملة بالزيادة والنقص والمناداة عليها كل قليل ، والتنكيل والترك .

وبلغ صرف البندقى ثمانمائة وثمانين نصفا فضة ، والفرانسة أربعمائة نصف وعشرة ، والمحبوب أربعمائة وأربعين — وهو المصرى — وأما الاسلامبولى فيزيد أربعين ، والمجر ثمانمائة نصف . وأما هذه الأنصاف — وهى الفضة العددية — فهى أسماء من غير مسميات لمنعها واحتكارها : فلا يوجد منها فى المعاملة بأيدى الناس الا النادر جدا ، ولا يوجد بالأيدى فى محقرات الأشياء وغيرها الا المجزأ بالخمسة والعشرة والعشرين ، وتصرف من اليهود والصيارف بالفرط والنقص . ومن حصل بيده شىء من الأنصاف عض عليه بالنواجذ ، ولا يسمح باخراج شىء منها الا عند شدة الاضطرار اللازم .

ومنها : أن السيد محمد المحروقى أنشأ ببركة الرطلى دارا وبستانا فى محل الأماكن التى تخربت فى الحوادث .

وذلك أنه لما طرقت الفرنساوية الديار المصرية ، واختل النظام ، وجلا أكثر الناس عن أوطانهم — وخصوصا سكان الأطراف — بقيت دور البركة خالية من السكان . وكان بها عدة من الديار الجليلة ، منها : دار حسن كتخدا الشعراوى وتابعه عمر جاويش ، وداره على سمته أيضا ، ودار على كتخدا الخربطلى ، ودار قاضى البهار ، ودار سليمان أغا ، ودار الحموى ، وخلاف ذلك دور كانت جارية فى وقف عثمان كتخدا القازدغلى وغيره . وهذه الدور هى التى أدركناها ، بل وسكنا بها عدة سنين ، وكانت فى الزمن الأول عدة دور

مختصرة يسكنها أهل الرفاهية من أهالى البلد . وكان بها بيت البكرية القديم بالناحية الجنوبية تجاه زاوية جدهم الشيخ جلال الدين البكرى . وكان الناس يرغبون فى سكناها لطيب هواها وانكشاف الريح البحرى بها ، وليس فى تجاهها من البر الآخر سوى الأشجار والمزارع ، ويعبرها المراكب والسفائن والقنج فى أيام النيل بالمتفرجين والمتنزهين وأهل الخلاعة بمزامرهم ومغانيهم ، ولصدى أصواتهم المطربة طرب آخر .

فلما انقشع عنها السكان ، تداعت الدور الى الخراب ، وبقيت مسكنا البوم والغراب مدة اقامة الفرنساوية .

فلما حضر يوسف باشا الوزير فى المرة الأولى — وذلك سنة أربع عشرة ومائتين وألف — وانتقض الصلح بينه وبين الفرنساوية ، وحصلت المفاقمة ، ووقعت الحروب داخل البلدة ، واحتاطت الفرنساوية بجهات البلد ... وجرى ما تقدم ذكره فى الحوادث السابقة ، وكان طائفة من الفرنساوية أتوا الى ناحية هذه البركة ، وملكوا التل المعروف بتل أبو الريش ، وأخذوا يرمون بالمدافع والقنابر على أهل باب الشعرية وتلك النواحى . فما انجلت الحروب حتى خربت بيوت البركة ، وما كان بتلك النواحى من الدور التى بظاهرها ، وبقيت كيمانا .

فحسن ببال السيد المذكور أن يجعل له سكنا هناك ، فاحتكر أراضى تلك المساكن من أربابها من مدة سابقة ، ثم تكاسل عن ذلك ، واشتغل بتوسعة دار سكنه التى بخطة الفحامين ، محل دكة الحسبة القديمة ، حتى أتمها على الوضع الذى قصده . ثم شرع فى السنة الماضية فى انشاء سكن لخصوص نزاهته ، فشرع فى تنظيف الأتربة واصلاح الأرض ، وأنشأ دارا متسعة وقيعانا وفسحات ، وهى مفروشة بالرخام ، وحولها بستان ، وغرس به أنواع الأشجار ودوالى الكروم ، وهى بمكان حسن كتخدا وما كان على سمته من الدور نحو الثلاثين .

وأنشأ كاتبه السيد عمر الحسينى دارا عظيمة لخصوصه ، أخذ فيها باقى أراضى الأماكن ، وزخرفها ، وانتقل اليها بأهله وعياله ، وجعلها دارا لسكناه صيفا وشتاء . وبنيا خارج ظاهرها حائطا يكون لدورهما سورا ، وعملا بها بوابة تفتح وتقفل . وكان بجوار ذلك جامع متخرب ، يسمى جامع الحريشى ، فعمره أيضا السيد محمد المحروقى ، وأقام حوائطه وأعمدته وسقفه وبيضه ، وأقام الخطبة آخر جمعة فى شهر المحرم .

* * *

وأما من مات فى هذه السنة ممن له ذكر :

فمات شيخ الاسلام ، وعمدة الأنام ... الفقيه العلامة ، والنحرير الفهامة : الشيخ محمد الشنوانى — نسبة الى شنوان الغرف — الشافعى الأزهرى ، شيخ الجامع الأزهر ... من أهل الطبقة الثانية ، الفقيه النحوى المعقولى .

حضر الأشياخ : أجلهم الشيخ فارس ، وكالصعيدى والدردير والفرماوى ، وتفقه على الشيخ عيسى البراوى ، ولازم دروسه وبه تخرج ، وأقرأ الدروس ، وأفاد الطلبة بالجامع المعروف بالفاكهانى بالقرب من دار سكناه بخشقدم ، مهذب النفس مع التواضع والانكسار والبشاشة لكل أحد من الناس ، ويشمر ثيابه ويخدم بنفسه ، ويكنس الجامع ، ويسرج القناديل .

ولما توفى الشيخ عبد الله الشرقاوى ، اختاروه للمشيخة . فامتنع وهرب الى مصر العتيقة — بعد ما جرى ما تقدم ذكره من تصدر الشيخ محمد المهدى — فأحضروه قهرا عنه ، وتلبس بالمشيخة مع ملازمته لجامع الفاكهانى كعادته . وأقبلت عليه

الدنيا فلم يتهنأ بها ، واعترته الأمراض ، وتعلل بالزحير أشهرا ، ثم عوفى ... ثم بأخرة بالبرودة ، وانقطع بالدار كذلك أشهرا . ولم يزل منقطعا حتى توفى يوم الأربعاء رابع عشرى المحرم ، وصلى عليه بالأزهر فى مشهد عظيم . ودفن بتربة المجاورين ، وله تآليف منها : حاشية جليلة على شرح الشيخ عبد السلام على الجوهرة ، مشهورة بأيدى الطلبة . وكان يجيد حفظ القرآن ، ويقرأ مع فقهاء الجوقة فى الليالى .

وتقلد المشيخة بعده الشيخ العلامة السيد محمد ابن شيخنا الشيخ أحمد العروسى من غير منازع ، وباجماع أهل الوقت . ولبس الخلع من بيوت الأعيان مثل البكرى والسادات وباقى أصحاب المظاهر ، ومن يحب التظاهر .

* * *

ومات العمدة الشيخ محمد بن أحمد بن محمد — المعروف هو بالدواخلى — الشافعى . ويقال له السيد محمد ، لأن أباه تزوج بفاطمة بنت السيد عبد الوهاب البردينى فولد له المترجم منها ، ومنها جاءه الشرف ، وهم من محلة الداخل بالغربية .

وولد المترجم بمصر ، وتربى فى حجر أبيه ، وحفظ القرآن ، واجتهد فى طلب العلم ، وحضر الأشياخ من أهل وقته : كالشيخ محمد عرفة الدسوقى ، والشيخ مصطفى الصاوى وخلافه من أشياخ هذا العصر . ولازم الشيخ عبدالله الشرقاوى فى فقه مذهبه وغيره من المعقولات ملازمة كلية ، وانتسب له ، وصار من أخص تلامذته .

ولما مات السيد مصطفى الدمنهورى — الذى كان بمنزلة كتخداه — قام مقامه ، واشتهر به ، وأقرأ الدروس الفقهية والمعقولية ، وحف به الطلبة ، وتداخل فى قضايا الدعاوى والمصالح بين الناس .

واشتهر ذكره — وخصوصا أيام الفرنساوية حين تقلد شيخه رآسة ديوانهم — وانتفع فى أيامهم انتفاعا عظيما من تصديه لقضايا نساء الأمراء المصرية وغيرهم .

ومات والده فأحرز ميراثه ، وكذلك لما قتل عديله الحاج مصطفى البشتيلى فى الحرابة ببولاق لا عن وارث ، فاستولى على تعلقاته وأطيانه وبستانه التى ببشتيل . واتسع حاله ، واشترى العبيد والجوارى والخدم .

ولما ارتحل الفرنساوية ، ودخلها العثمانيون ، انطوى الى السيد أحمد المحروقى ، لأنه كان يراسله سرا بالأخبار حين خرج مع العثمانيين فى الكسرة الى الشام ... فلما رجع ، راعاه وراشاه ، ونوه بذكره عند أهل الدولة ، وفى أيام الأمراء المصريين — حين رجعوا الى مصر بعد قتل طاهر باشا فى سنة ثمان عشرة — واحتوى على رزق وأطيان وحصص التزام ، ولبس الفراوى بالأقبية ، وركب البغال ، وأحدق به الأشياخ والأتباع . وعنده ميل عظيم للتقدم والرياسة ، ولا يقنع بالكثير .

ولما وقع ماوقع فى ولاية محمد على باشا ، وانفرد السيد عمر أفندى فى الرياسة ، وصار بيده مقاليد الأمور ... ازداد به الحسد ، فكان هو من أكبر الساعين عليه سرا مع المهدى وباقى الأشياخ ، حتى أوقعوا به ، وأخرجه الباشا من مصر كما تقدم . فعند ذلك صفا لهم الوقت ، وتقلد المترجم النقابة بعد موت الشيخ محمد بن وفا ، وركب الخيول ، ولبس التاج الكبير ، ومشت أمامه الجاويشية والمقدمون وأرباب الخدم ، وازدحم بيته بأرباب الدعاوى والشكاوى . وعمر دار سكنهم القديمة بكفر الطماعين ، وأدخل فيها دورا ، وأنشأ تجاهها مسجدا لطيفا ، وجعل فيه منبرا وخطبة ، وعمر دارا ببركة جناق ، وأسكنها احدى

زوجاته . وداخله الغرور ، وظن أن الوقت قد صفا له .. فأول ما ابتدأه به الدهر من نكباته ، أن مات ولده أحمد — وكان قد ناهز البلوغ — ولم يكن له من الأولاد الذكور غيره ، فوجد عليه وجدا شديدا ... حتى كان يتكلم بكلام تقمه الناس عليه ، وعمل له ميتما ودفنه بمسجده تجاه بيته ، وعمل عليه مقاما ومقصورة مثل المقامات التى تقصد للزيارة ، وكان موته فى منتصف سنة تسع وعشرين .

ووقعت حادثة قومة العسكر على الباشا فى أواخر شهر شعبان من السنة المذكورة ، والمترجم اذ ذاك من أعيان الرءوس : يطلع وينزل فى كل ليلة الى القلعة ، ويشار اليه ، ويحل ويعقد فى قضايا الناس ، ويسترسل معه الباشا ، كما تقدم ذكر ذلك ، وداخله الغرور الزائد . ولقد تطاول على كبار الكتبة الأقباط وغيرهم ، ويراجع الباشا فى مطالبه ، بعد انقضاء الفتنة ، الى أن ضاق صدر الباشا منه ، وأمر باخراجه ونفيه الى دسوق ... وذلك فى سنة احدى وثلاثين . فأقام بها أشهرا ، ثم توجه بشفاعة السيد المحروقى الى المحلة الكبرى ، فلم يزل بها متعلق الحواس ، منحرف المزاج ، متكدر الطبع . وكل قليل يراسل السيد المحروقى فى أن يشفع فيه عند الباشا ، وليأذن له فى الحج ، ومرة يحتج بالمرض — ليموت فى داره — فلم يؤذن له فى شىء من ذلك . ولم يزل بالمحلة حتى توفى فى منتصف شهر ربيع الأول من السنة ، ودفن هناك . وكان — رحمه الله — يميل الى الرياسة طبعا ، وفيه حدة مزاج ، وهى التى كانت سببا لموته بأجله ... رحمه الله تعالى وايانا .

❋ ❋ ❋

ومات الصدر المعظم ، والدستور المكرم : الوزير طاهر باشا . ويقال انه ابن أخت محمد على باشا .

وكان ناظرا على ديوان الكمرك ببولاق وعلى الخمامير ... ومصارفه من ذلك . وشرع فى عمارة داره التى بالأزبكية ، بجوار بيت الشرايبى — تجاه جامع أزبك — على طرف الميرى . وهى فى الأصل بيت المدنى ومحمود حسن ، واحترق منه جانب ... ثم هدم أكثرهما ، وخرج بالجدار الى الرحبة وأخذ منها جانبا ، وأدخل فيه بيت رضوان كتخدا — الذى يقال له « ثلاثة ولية » ، تسمية له باسم العامودين الرخام الملتفين على مكسلتى الباب الخارج — وشيد البناء بخرجات فى العلو متعددة ، وجعل بابه مثل باب القلعة ، ووضع فى جهتيه العمودين المذكورين . وصارت الدار كأنها قلعة مشيدة فى غاية من الفخامة . فما هو الا أن قارب الاتمام ، وقد اعتراه المرض ، فسافر الى الاسكندرية بقصد تبديل الهواء ، فأقام هناك أياما ، وتوفى فى شهر جمادى الآخرة . وأحضروا رمته فى أواخر الشهر ، ودفنوه بمدفنه الذى بناه محل بيت الزعفرانى بجوار السيدة بقناطر السباع ، وترك ابنا مراهقا فأبقاه الباشا على منصب أبيه ونظامه وداره .

❋ ❋ ❋

ومات الأمير أيوب كتخدا الفلاح ، وهو مملوك الأمير مصطفى جاويش تابع صالح الفلاح . وكان آخر الأعيان المبجلين من جماعة الفلاح المشهورين ، وله عزوة وأتباع ، وبيته مفتوح للواردين ، ويحب العلماء والصلحاء ، ويتأدب معهم . وكان الباشا يجله ويقبل شفاعته ، وكذلك أكابر الدولة فى كل عصر . وعلى كل حال كان لابأس به ... توفى يوم الأربعاء لعشرين من شهر شعبان ، وقد جاوز السبعين ، رحمه الله تعالى .

المحـــرم

السبت غرته (٣١ أكتوبر ١٨١٨ م) :

استهل ... وسـلطان الاسـلام : السـلطان محمـود شـاه ابن عبـد الحميد بداز سـلطنته اسلامبول . ووالى مصر وحاكمهـا : محمد على باشا القوللى . وكتخداه وباقى أرباب المناصب على حالهم وما هم عليه فى العام المـاضى .

ووردت الأخبار من شرق الحجاز والبشـائر بنصرة حضرة ابراهيم باشا على الوهابيـة قبـل اسـتهلال السنة بأربعة أيام . فعنـد ذلك نودى بزينة المدينة سبعة أيام ، أولها الأربعـاء سـابع عشرى الحجة ، ونصبت الصواوين خارج باب النصر عنـد الهمايل ، وكذلك صيوان الباشـا . وباقى الأمراء والأعيان خرجوا بأسرهم لعمـل الشـنك والحرائق ، وأخرجوا من المدافع مائة مدفع وعشرة ، وتماثيل وقلاعا وسواقى وسواريخ ، وصورا من بارود .

وبدأوا فى عمل الشـنك من يوم الأربعـاء : فيضربون بالمدافع ، مع رماحة الخيـالة ، من أول النهار — مقدار ساعة زمانية وربع — قريبا من عشرين درجة ضربا متتابعا لايتخلله سكون — على طريقة الافرنج فى الحروب — بحيث انهم يضربون المدفع الواحد اثنتى عشرة مرة ، وقيل أربع عشرة مرة فى دقيقة واحدة . فعلى هـذا الحساب يزيد ضرب المدافع فى تلك المدة على ثمانين ألف مدفع بحيث يتخيل الانسان أصواتها ، مع أصوات بنادق الخيالة المترامحين ، رعودا هائلة . ورتبوا المدافع أربع صفوف .

ورسـم الباشـا أن الخيالة ينقسمون كذلك طوابير ، ويكمنون فى الأعالى ، ثم ينزلون مترامحين وهم يضربون بالبنادق ، ويهجمون على المدافع فى حال اندفاعها بالرمى . فمن خطف شيئا من أدوات الطبجية الرماة ، يأتى به الى الباشا ويعطيه البقشيش والانعام . فمات بسبب ذلك أشخاص وسواس ، ويكون مبادىء نهاية وقوف الخيالة نهاية محط جلة المدفع . فانهم عنـد طلوع الفجر يضربون مدافع معنورة بالجلل بعدد الطوابير ، فتستعد الخيالة ، ويقف كل طابور عند مرمى جلته ، ويأخذون أهبتهم من ذلك الوقت الى بعد شروق الشمس ، ويبتدئون فى الرمى والرماحة الحصة المذكورة .

وبعد العشاء الأخيرة يعمل كذلك الشنك برمى المدافع المتتالية المختلطة أصواتها بدون الرماحة ، ومـع المدافع الحراقة والنفوط والسـواريخ التى تصـعد فى الهـواء وفيهـا من خشب الزان بدل القصب ، وكرنجة بارودها أعظم من تلك ... بحيث أنها تصعد من الأسفل الى العلو مثل عمود النار ... وأشـياء أخر لم يسبق نظائرها ، تفنن فى عملهـا الافرنج وغيرهم . وحول محل الحراقة حلقة دائرة متسعة حولها ألوف من المشاعل الموقدة .

وطلبوا لعمل أكيـاس بارود المدافع مائتى ألف ذراع من القماش البز . وكان راتب الأرز الذى يطبخ فى القزانات ، ويفرق فى عراضى العساكر فى كل يوم أربعمائة أردب وما يتبعهـا من السمن ...

القيان والراقصات ...

وهذا خلاف مطابخ الأعيان ، وما يأتيهم من بيوتهم ، من تعابى الأطعمة وغيرها .

واستمر هذا الضرب والشنك الى يوم الثلاثاء رابع المحرم ... وأهل البلد ملازمون للسهر والزينة على الحوانيت والدور ، ليلا ونهارا ، وتكرار المناداة عليهم فى كل يوم .

وركب حضرة الباشا وتوجه الى داره بالأزبكية ، وهدمت الصواوين والخيام ، وبطل الرمى ، ودخلت العساكر والبينبات بمتاعهم وعازقهم أفواجا الى المدينة ، وذهبوا الى دورهم . ورفع الناس الزينة — وكان معظمها حيث مساكن الافرنج والأرمن — فانهم تفننوا فى عمل التصاوير والتماثيل ، وأشكال السرج والفنيارات الزجاج والبلور وأشكال النجف ، ومعظمها فى جهات المسلمين بخان الخليلى والغورية والجمالية ، وببعض الأماكن والخانات ملاهى وأغانى وسماعات وقيان وجنك رقاصات .

هذا ... والتهيؤ والأشغال والاستعداد لعمل الدونانمة على بحر النيل ببولاق ، فصنعوا صورة قلعة بأبراج وقباب وزوايا وأنصاف دوائر وخورنقات وطيقان للمدافع ، وطلوها وبيضوها ونقشوها بالألوان والأصباغ ، وصورة باب مالطة ، وكذلك صورة بستان على سفائن : وفيه الطين ، ومغروس به الأشجار ، ومحيط به درابزين مصبغ ، وبه دوالى العنب وأشجار الموز والفاكهة والنخيل ، والرياحين فى قصارى لطيفة على حافاته ، وصورة عربة يجرها أفراس ، وبها تماثيل وصور جالسين وقائمين ، وتمثال مجلس وبه جنك رقاصات من تماثيل مصورة تتحرك بآلات ... ابتكار بعض المبتكرين . لأن كل من تخيل بفكره شيئا ملعوبا أو تصويرا ، ذهب الى الترسخانة ، حيث الأخشاب والصناع ، فيعمله على طرف الميرى حتى يبرزه فى الخارج ، ويأخذ على ابتكاره البقشيش . وأكثرها

لخصوص الحراقات والنفوط والبارود والسواريخ وغير ذلك .

وبعد انقضاء السبعة أيام المذكورة ، حصل السكون — من يوم الثلاثاء المذكور الى يوم الأحد التالى له من الجمعة الأخرى — مدة خمسة أيام . فى أثنائها اجتهد الناس من الأعيان ، وكل من له اسم من أكابر الناس ، وأهل الدائرة والأفندية الكتبة ... حتى الفقهاء أرباب المناصب والمظاهر ، ومشايخ الافتاء والنواب والمتفرجين ، فى نصب الخيام بحافتى النيل ، واستأجروا الأماكن المطلة على البحر ، ولو من البعد ، وتنافسوا واشتط أربابها فى الأجرة حتى بلغ أجرة أحقر طبقة — بمثل وكالة الفسيخ — الى خمسمائة قرش وزيادة .

وكان الباشا أمر بانشاء قصر لخصوص جلوسه بالجزيرة تجاه بولاق ، قبلى قصر ابنه اسماعيل باشا ، وتمموا بياضه ونظامه فى هذه المدة القليلة . فلما كان ليلة الاثنين — وهو يوم عاشوراء — خرج الباشا فى ليلته ، وعدى الى القصر المذكور وخرج أهل الدائرة والأعيان الى الأماكن التى استأجروها وكذلك العامة أفواجا . وأصبح يوم الاثنين المذكور ، فضربت المدافع الكثيرة التى صففوها بالبرين ، وزين أهالى بولاق أسواقهم وحوانيتهم وأبواب دورهم ، ودقت الطبول والمزامير والنقرزانات فى السفائن وغيرها . وطبلخانة الباشا تضرب فى كل وقت ، والمدافع الكثيرة فى ضحوة كل يوم وعصره ... وبعد العشاء كذلك ، وتوقد المشاعل ، وتعمل أصناف الحراقات والسواريخ والنفوط والشعل ، وتتقابل القلاع المصنوعة على وجه الماء ، ويرمون منها المدافع على هيئة المتحاربين ، وفيها فوانيس وقناديل ، وهيئة باب مالطة ... بوابة مجسمة مقوصرة لها بدنات ، ويرى بداخلها سرج وشعل ، ويخرج منها حراقات وسواريخ ... وغالب هذه الأعمال من صناعة الافرنج .

وأحضروا سفائن رومية صغيرة — تسمى الشلنبات — يرمى منها مدافع وشنابر وشيطيات وغلايين مما يسير فى البحر المالح . وفى جميعها وقدات وسرج وقناديل ، وكلها مزينة بالبيارق الحرير والأشكال المختلفة الألوان .

ودبوس أوغلى ببولاق التكرور ، وعنده أيضا الحراقات الكثيرة والشعل والمدافع والسواريخ . وبالجيزة عباس بيك ابن طوسون باشا . والنصارى الأرمن بمصر القديمة وبولاق والافرنج ، وأبرز الجميع زينتهم وتماثيلهم وحرائقهم . وعند الأعيان ، حتى المشايخ ، فى القنج والسفائن المعدة للسروح والتفرج والنزاهة ، والخروج عن الأوضاع الشرعية والأدبية ، واستمروا على ما ذكر الى يوم الاثنين سابع عشره .

الاثنين ١٧ منه (١٦ نوفمبر ١٨١٨ م) :

فى ذلك اليوم : وصل عبد الله بن سعود الوهابى ، ودخل من باب النصر — وصحبته عبد الله بكتاش قبطان السويس — وهو راكب على هجين ، وبجانبه المذكور ، وأمامه طائفة من الدلاة . فضربوا عند دخوله مدافع كثيرة من القلعة وبولاق وخلافهما .

وانقضى أمر الشنك وخلافه من ساحل النيل وبولاق ، ورفعوا الزينة . وركب الباشا الى قصر شبرا فى تلك السفينة ، وانفض الجمع ، وذهبوا الى دورهم .

وكان ذلك من أغرب الأعمال التى لم يقع نظيرها بأرض مصر ... ولا مايقرب من ذلك ! ومطبخ الميرى يطبخ به الأرز على النسق المتقدم والأطعمة ، ويؤتى لأرباب المظاهر منها فى وجبتى الغداء والعشاء ، خلاف المطابخ الخاصة بهم ،

وما يأتيهم من بيوتهم . وأما العامة والمتفرجون من الرجال والنساء ، فخرجوا أفواجا ، وكثر زحامهم فى جميع الطرق الموصلة الى بولاق ليلا ونهارا ، بأولادهم وأطفالهم ركبانا ومشاة .

وقد ذهب فى هاتين الملعبتين من الأموال ما لا يدخل تحت الحصر ، وأهل الاستحقاق يتلظون من القشل والتفليس ! مع ماهم فيه من غلاء الأسعار فى كل شىء ، وانعدام الأدهان — وخصوصا السمن والشيرج والشحم — فلا يوجد من ذلك الشىء اليسير الا بغاية المشقة ، ويكون على حانوت الدهان الذى يحصل عنده بعض السمن شدة الزحام والصياح ، ولا يبيع بأزيد من خمسة أنصاف ، وهى أوقية اثنا عشر درهما ، بما فيها من الخلط . وأعوان المحتسب مرصدون لمن يرد من الفلاحين والمسافرين بالسمن ، فيحجزونه لمطالب الدولة ومطابخهم ودورهم فى هذه الولائم والجمعيات ، ويدفع لهم ثمنه على موجب التسعيرة ، ثم يوزع ما يوزعه — وهو الشىء القليل — على المتسببين ، وهم يبيعونه على هذه الحالة ، ومثل ذلك الشيرج وخلافه حتى الجبن القريش .

وفيه : وصل عبد الله الوهابى ، فذهبوا به الى بيت اسماعيل باشا ابن الباشا فأقام يومه ، وذهبوا به فى صبحها عند الباشا بشبرا ، فلما دخل عليه قام له ، وقابله بالبشاشة ، وأجلسه بجانبه ، وحادثه وقال له : « ما هذه المطاولة ؟ » فقال : « الحرب سجال » . قال : « وكيف رأيت ابراهيم باشا ؟ » . قال : « ماقصر ، وبذل همتــه ، ونحن كذلك ... حتى كان ماكان قدره المولى » . فقال : « أنا ان شاء الله تعالى أترجى فيك عند مولانا السلطان » . فقال : « المقدر يكون » . ثم ألبسه خلعة وانصرف عنه الى بيت اسماعيل باشا ببولاق .

ونزل الباشا فى ذلك اليوم السفينة ، وسافر الى جهة دمياط . وكان بصحبة الوهابى صندوق صغير من صفيح ، فقال له الباشا : « ماهذا ؟ » ، فقال : « هذا ما أخذه أبى من الحجرة أصحبه معى الى السلطان » . وفتحه فوجد به ثلاثة مصاحف قرآنا مكلفة ، ونحو ثلثمائة حبة لؤلؤ كبار وحبة زمرد كبيرة ، وبها شريط ذهب . فقال له الباشا : « الذى أخذه من الحجرة أشياء كثيرة غير هذا » ، فقال : « هذا الذى وجدته عند أبى فانه لم يستأصل كل ما كان فى الحجرة لنفسه بل أخذ كذلك كبار العرب وأهل المدينة وأغوات الحرم وشريف مكة » . فقال الباشا : « صحيح وجدنا عند الشريف أشياء من ذلك » .

الأربعاء ١٩ منه (١٨ نوفمبر ١٨١٨ م) :

سافر عبد الله بن سعود الى جهة الأسكندرية ، وصحبته جماعة من الططر الى دار السلطنة ، ومعه خدم لزومه .

صفر

الأربعاء ٣ منه (٢ ديسمبر ١٨١٨ م) :

وصلت طائفة من الحجاج المغاربة يوم الأربعاء وصحبتهم حجاج كثيرة من الصعائدة وأهل القرى ، فدخلوا على حين غفلة . وكان الرئيس فيهم شخص من كبار عرب أولاد على يسمى الجبالى ، وهذا لم يتفق نظيره فيما وعيناه ، وسببه أمن الطريق ، وانكماش العربان وقطاع الطريق .

وفيه : أخبر المخبرون بأن الباشا أقام بدمياط أياما قليلة ، ثم توجه الى البرلس ، ونزل فى تقيرة ، وذهب الى الاسكندرية على ظهر البحر المالح . وقد استعد أهلها لقدومه ، وزينوا البلد . والذى تولى الاعتناء بذلك طائفة الافرنج : فانهم نصبوا طريقا من باب البلد الى القصر الذى هو سكن الباشا ، وجعلوا بناحيتيه — يمنى ويسرى —

أنواع الزينة والتماثيل والتصاوير والبلور والزجاج والمرايات ، وغير ذلك من البدع البديعة الغريبة .

الاثنين غايته (٢٨ ديسمبر ١٨١٨ م) :

وصل الحاج المصرى ، ودخلوا أرسالا شيئا فشيئا ، ومنهم من دخل ليلا ، وخصوصا ليلة الاثنين ، وفى صبحه دخل حسن باشا أرنؤود الذى كان مقيما بجدة . وفى ذلك اليوم دخل بواقى الحجاج الى منازلهم .

ربيع الأول

الثلاثاء غرته (٢٩ ديسمبر ١٨١٨ م) :

فى صبحه : دخلوا بالمحمل المدينة ، وأكثر الناس لم يشعر بدخوله ، وهذا لم يتفق فيما نعلم تأخر الحاج الى شهر ربيع الأول .

الثلاثاء ٨ منه (٥ يناير ١٨١٩ م) :

احترق سوق الشرم والجملون ، الكائن أسفل جامع الغورية ، بما فيه من الحوانيت وبضائع التجار والأقمشة الهندية وخلافها ، فظهرت به النار من بعد العشاء الأخيرة . فحضر الوالى وآغات التبديل ، فوجدوا الباب الذى من جهة الغورية مغلوقا من داخل ، وكذلك الباب الذى من الجهة الأخرى — وهما فى غاية المتانة — فلم يزالوا يعالجون فتح الباب بالعتالات والكسر الى بعد نصف الليل ، والنار عمالة من داخل . وهرب الخفير ، واحترق ليوان الجامع البرانى والدهليز ، وأخذوا فى الهدم وصب المياه بآلات القصارين ، مع صعوبة العمل ، بسبب علو الحيطان الشاهقة والأخشاب العظيمة والأحجار الهائلة والعقود ، فلم يخمد لهب النار الا بعد حصة من النهار . وسرحت النار فى أخشاب الجامع التى بداخل البناء ، ولم يزل الدخان صاعدا منها ، وسقطت الشبابيك النحاس العظام ، وبقيت مفتتة ومكلسة ، واستمر العلاج فى اطفاء الدخان ثلاثة أيام .

ولولا لطف المولى ، وتأخير فتح الباب لكونه مصفحا بالحديد فلم تعمل فيه النار ... فلو لم يكن كذلك لاحترق ، وسرحت النار الى الحوانيت الملاصقة به ... وهى كلها أخشاب ، ويعلوها سقائف أخشاب كذلك ، ومن فوق الجميع السقيفة العظيمة الممتدة على السوق من أوله الى آخره ، وهى فى غاية العلو والارتفاع وكلها أخشاب وحجنة وسهوم وبراطيم من أعلى ومن أسفل لحملها من الجهتين ، ومن ناحيتها الرباع والوكايل والدور ، وحيطان الجميع من الحجنة والأخشاب العتيقة التى تشتعل بأدنى حرارة . فلو وصلت النار — والعياذ بالله تعالى — الى هذه السقيفة لما أمكن اطفاؤها بوجه ، وكان حريقا دوميا ، ولكن الله سلم .

السبت ١٢ منه (٩ يناير ١٨١٩ م) :

حضر السيد عمر أفندى نقيب الأشراف سابقا . وذلك أنه لما حصلت النصرة والمسرة للباشا ، كتب اليه مكتوبا بالتهنئة ، وأرسله مع حفيده السيد صالح الى الاسكندرية . فتلقاه بالبشاشة ، وطفق يسأله عن جده ، فيقول له : « بخير ، ويدعو لكم » . فقال له : « هل فى نفسه شىء أو حاجة نقضيها له ؟ » . فقال : « لا يطلب غير طول البقاء لحضرتكم » . ثم انصرف الى المكان الذى نزل به .

فأرسل اليه فى ثانى يوم عثمان السلانكلى ليسأله ويستفسره عما عسى أن يستحى من مشافهة الباشا بذكره ، فلم يزل يلاطفه حتى قال : « لم يكن فى نفسه الا الحج الى بيت الله ان أذن له أفندينا بذلك » . فلما عاد بالجواب أنعم عليه بذلك ، وأذن له بالذهاب الى مصر ، وأن يقيم

بداره الى أوان الحج ... ان شاء برا ، وان شاء بحرا ، وقال : « أنا لا أتركه فى الغربة هذه المدة الا خوفا من الفتنة ، والآن لم يبق شىء من ذلك ، فانه أبى ، وبينى وبينه ما لا أنساه من المحبة والمعروف » . وكتب له جوابا بالاجابة . وصورته بحروفه :

« مظهر الشمائل سنيها ، حميد الشئون وسميها ، سلالة بيت المجد الأكرم : والدنا السيد عمر مكرم ، دام شأنه .

« أما بعد : فقد ورد الكتاب اللطيف من الجناب الشريف ، تهنئة بما أنعم الله علينا ، وفرحا بمواهب تأييده لدينا ... فكان ذلك مزيدا فى السرور ، ومستديما لحمد الشكور ، ومجلبة لثناكم ، واعلانا بنيل مناكم . جزيتم حسن الثناء مع كمال الوقار ونيل المنى .

« هذا وقد بلغنا نجلكم عن طلبكم الاذن فى الحج الى البيت الحرام ، وزيارة روضته عليه الصلاة والسلام ... للرغبة فى ذلك ، والترجى لما هنالك . وقد أذناكم فى هذا المرام تقربا لذى الجلال والاكرام ، ورجاء لدعواتكم بتلك المشاعر العظام ، فلا تدعوا الابتهال ولا الدعاء لنا بالقال والحال ، كما هو الظن فى الطاهرين ، والمأمول من الأصفياء المقبولين .

« والواصل لكم جواب منا خطابا الى كتخدائنا . ولكم الاجلال والاحترام ، مع جزيل الثناء والسلام » .

وأرسل اليه المكتوبين صحبة حفيده السيد صالح ، وأرسل الى كتخدا بيك كتابا وصل اليه قبل قدومه . فأرسل الكتخدا ترجمانه الى منزله ليبشرهم بذلك . وأشيع خبر مقدمه ، فكان الناس بين مصدق ومكذب ، حتى وصل فى اليوم المذكور الى بولاق . فركب من هناك ، وتوجه الى زيارة الامام الشافعى ، وطلع الى القلعة ، وقابل الكتخدا وسلم عليه . وهنته الشعراء بقصائدهم ، وأعطاهم الجوائز ، واستمر ازدحام الناس أياما . ثم امتنع عن الجلوس فى المجلس العام نهارا ، واعتكف بحجرته الخاصة فلا يجتمع به الا بعض من يريده من الأفراد ، فانكف الكثير عن الترداد ... وذلك من حسن الرأى !

ربيع الآخر

فيه : حصل الاهتمام بحفر الترعة المعروفة بالأشرفية الموصلة الى الاسكندرية . وقد تقدم فى العام الماضى ، بل والذى قبله ، اهتمام الباشا . ونزل اليها المهندسون ، ووزنوا أرضها ، وقاسوا طولها وعرضها وعمقها المطلوب . ثم أهمل أمرها لقرب مجىء النيل ، وتركوا الشغل فى مبدئها ، ولم يترك الشغل فى منتهاها عند الاسكندرية بالقرب من عمود السوارى . فحفروا هناك منبتها — وهى بركة متسعة — وحوطوها بالبناء المحكم المتين ، وهى مرسى المراكب التى تعبر منها الى الاسكندرية بدلا عن البغاز ، وهو ملتقى البحرين ، وما يقع فيه من تلف المراكب ... فتكون هذه أسلم وأقرب وأقل كلفة — ان صحت — بل وأقرب مسافة .

ونزل الأمر لكشاف الأقاليم بجمع الفلاحين والرجال على حساب مزارع الفدادين ، فيحصون رجال القرية المزارعين ، ويدفعون للشخص الواحد عشرة ريال ، ويخصم له مثلها من المال . واذا كان له شريك ، وأحب المقام لأجل الزرع الصيفى ، أعطاه حصته وزاده عليها حتى يرضى خاطره ، وزوده بما يحتاج اليه أيضا ، وعند العمل يدفع لكل شخص قرش فى كل يوم .

ويخرج أهل القرية أفواجا ، ومعهم أنفار من مشايخ البلاد ، ويجتمعون فى المكان المأمورين

باجتماعهم فيه ، ثم يسيرون مع الكاشف الذى بالناحية ، ومعهم طبول وزمور وبيارق ونجارون وبناءون وحدادون ، وفرضوا على البلاد التى فيها النخيل غلقانا ومقاطف وعراجين وسلبا ، وعلى البنادر فوسا ومساحى ... شيء كثير بالثمن .
وطلبوا أيضا طائفة الغواصين لأنهم كانوا اذا تسفلوا فى قطع الأرض — فى بعض المواضع منها — ينبع الماء قبل الوصول الى الحد المطلوب .

٢٠ منه (١٦ فبراير ١٨١٩ م) :

ورد مرسوم من الباشا بعزل كتخدا بيك عن منصب الكتخدائية ، وتولية محمود بيك فيها عوضا عنه . وحضر محمود بيك فى ذلك اليوم قادما من الأسكندرية ، وطلع الى القلعة ، وحضر أيضا حسن باشا . وكان قد ذهب الى الاسكندرية ليسلم على الباشا لكونه كان بالديار الحجازية المدة المديدة ، وحضر الى مصر والباشا بالاسكندرية ، فتوجه اليه ، وأقام معه أياما ، وعاد الى مصر صحبة محمود بيك . وحضر أيضا ابراهيم افندى من اسلامبول — وهو ديوان افندى الباشا — فتقلد فى نظر الأطيان والرزق والالتزام عوضا عن محمود بيك .

جمادى الأولى

الخميس ٧ منه (٤ مارس ١٨١٩ م) :

ضربت مدافع كثيرة وقت الشروق بسبب ورود نجابة من الديار الحجازية باستيلاء خليل باشا على يمن الحجاز صلحا .

وفيه : وصلت الأخبار أيضا عن عبد الله بن سعود ، أنه لما وصل الى اسلامبول طافوا به البلدة ، وقتلوه عند باب همايون ، وقتلوا أتباعه أيضا فى نواح متفرقة ... فذهبوا مع الشهداء !

وفيه : أشيع وصول قابجى كبير من طرف الدولة ، يقال له قهوجى باشا ، الى الأسكندرية ، وورد الأمر بالاستعداد لحضوره مع الباشا . فطلعوا بالمطابخ الى ناحية شبرا ، وطلبت الخيول من الربيع ، واستمر خروج العساكر ودخولهم ، وكذلك طبخ الأطعمة ، وفى كل يوم يشيعون الورود ، فلم يأت أحد ، ثم ذكروا أن ذلك القابجى ، حين قرب من الأسكندرية ، رده الريح الى رودس ، واستمر هذا الريح الى آخر الشهر !

وفيه : قوى الاهتمام بأمر حفر الترعة المتقدم ذكرها ، وسيقت الرجال والفلاحون من الأقاليم البحرية ، وجدوا فى العمل بعدما حددوا لكل أهل اقليم أقصابا توزع على أهل كل بلد من ذلك الاقليم . فمن أتم عمله المحدود ، انتقل الى مساعدة الآخرين . وظهر فى حفر بعض الأماكن منها صورة أماكن ومساكن وقيعان ، وحمام بعقوده وأحواضه ومغاطسه ، ووجد ظروف بداخلها فلوس نحاس كفرية قديمة ، وأخرى لم تفتح — لا يعلم ما فيها — رفعوها للباشا مع تلك .

الأربعاء ٢٧ منه (٢٤ مارس ١٨١٩ م) :

حضر الباشا الى شبرا ، ووصل فى اثره قهوجى باشا . وعملوا له موكبا فى صبيحة يوم الخميس ، وطلعوا الى القلعة ، ومع الأغا المذكور ما أحضره برسم الباشا وولده ابراهيم باشا الذى بالحجاز ، وهو خلعتا سمور لكل واحد خلعة ، وخنجر مجوهر لكل واحد ، وشلنجان مجوهران ، وساعة جوهر وغير ذلك . وقرىء الفرمان بحضرة الجمع ، وفيه الثناء الكثير على الباشا والعفو عمن بقى من الوهابية . وبعد القراءة ضربت مدافع كثيرة ، وكذلك عند ورودهم . واستمر ضرب المدافع ثلاثة أيام فى جميع الأوقات الخمس .

ونزل القابجى المذكور ببيت طاهر باشا

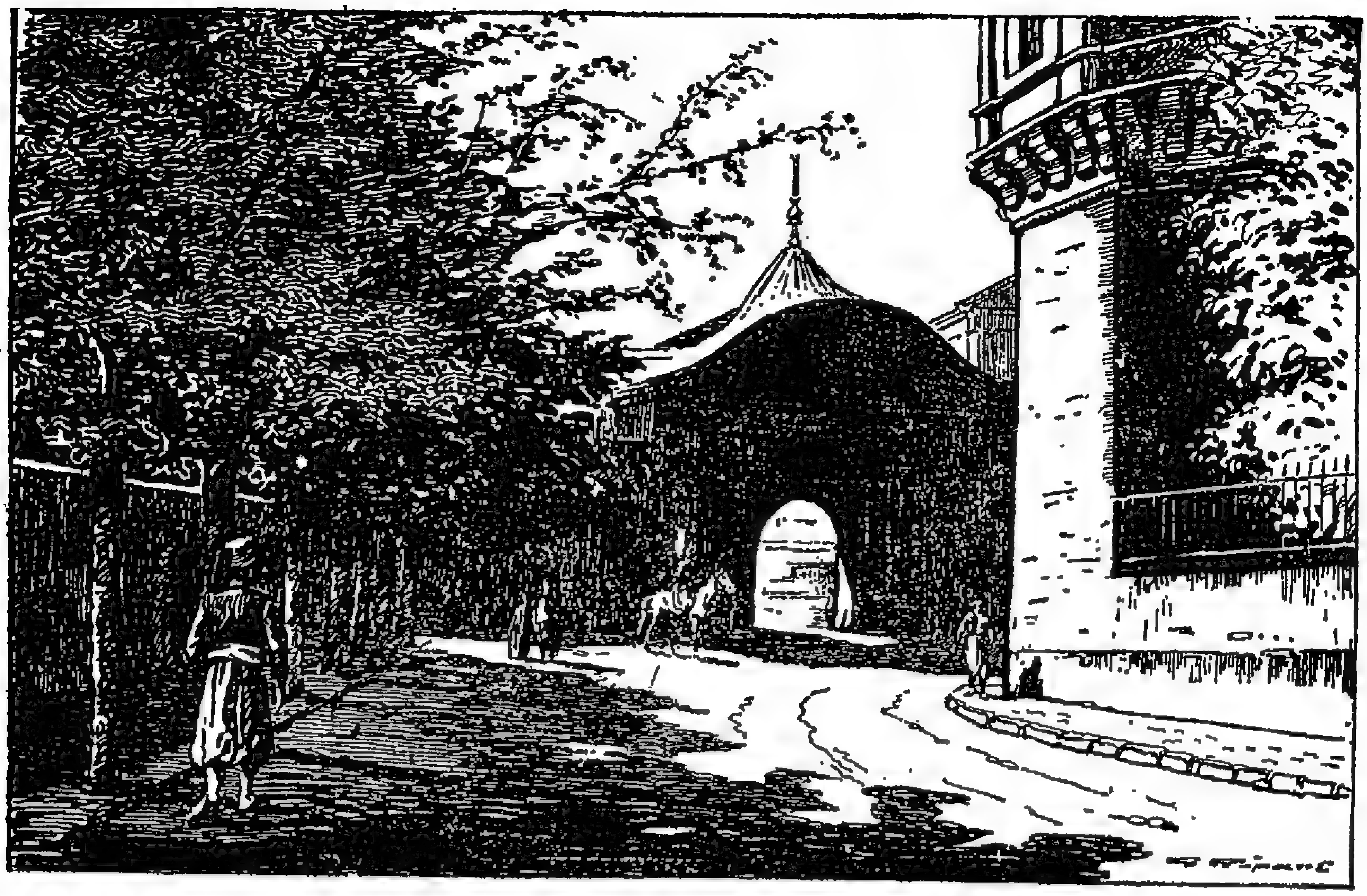

باب همايون ... حيث قتل عبد الله بن سعود

بالأزبكية ، وحضر أيضا عقبه أطواخ لكل من عباس بيك ابن طوسون باشا ابن الباشا ، ولأحمد بيك ابن طاهر باشا . وفى ضمن الفرمان الاذن للباشا بتولية أمريات وقبجيات لمن يختار .

الجمعة ٢٩ منه (٢٦ مارس ١٨١٩ م) :

خلع الباشا على أربعة أو خمسة من أمرائه بقبجيات باشا ، وهم : على بيك السلانكلى قابجى باشا ، وحسن أغا أزرجانلى كذلك ، وخليل أفندى حاكم رشيد ، وشريف بيك .

جمادى الآخرة

الأحد غرته (٢٨ مارس ١٨١٩ م) :

فيه : حضر محمد بيك الدفتردار من الجهة القبلية ، فأقام أياما وعاد الى قبلى .

فى أواخره (أواخر ابريل ١٨١٩ م) :

رجع الكثير من فلاحى الأقاليم الى بلادهم من الاشرفية ، وهم الذين أتموا مالزمهم من العمل والحفر . ومات الكثير من الفلاحين من البرد ومقاساة التعب !

وفيه : حصل بعض موت بالطاعون . فداخل الناس وهم بسبب ما حدث فى أكابر الدولة والنصارى من التحجب وعمل الكورنتيلات ، وهى التباعد من الملامسة ، وتبخير الأوراق والمجالس ونحو ذلك .

رجب

الجمعة ٥ منه (٣٠ ابريل ١٨١٩ م) :

مات عبود النصرانى كاتب الخزينة . وكان مشكور السيرة فى صناعته ، وعنده مشاركة

ودعوى عريضة ودعوى علم ، ويتكلم بالمناسبات والآيات القرآنية ، ويضمن انشاءاته ومراسلاته آيات وأمثالا وسجعات ، وأخذ دار القيسرلى بدرب الجنينة وما حولها ، وأنشأها دارا عظيمة وزخرفها ، وجعل بها بستانا ومجالس مفروشة بالرخام الملون ، وفساقى وشازروانات وزجاج بلور ... وكل ذلك على طرف الميرى ، وله مرتب واسع . وكان الباشا يحبه ويثق به ، ويقول « لولا الملامة لقلدته الدفتردارية » .

الأحد ٧ منه (٢ مايو ١٨١٩ م) :

حضر الى مصر حاكم يافا المعروف بمحمد بيك أبو نبوت معزولا عن ولايته فأرسل الى الباشا يستأذنه فى الحضور الى مصر فأطلق له الاذن فحضر ، فأنزله بقصر العينى وصحبته نحو الخمسمائة مملوك وأجناد وأتباع ، واجتمع بالباشا وأجله وسلم عليه ، وأقام معه حصة من الليل ، ورتب له مرتبا عظيما ، وعين له ما يقوم بكفايته وكفاية أتباعه .

فمن جملة ما رتب له : ثلاثة آلاف تذكرة كل تذكرة بألفين وستمائة نصف فضة فى كل شهر ، وذلك خلاف المعين واللوازم من السمن والخبز والسكر والعسل والحطب والأرز والفحم والشمع والصابون ، فمن الأرز خاصة فى كل يوم أردبان ، وللعليق خمسة وعشرون أردبا فى كل يوم .

السبت ١٣ منه (٨ مايو ١٨١٩ م) :

سافر قهوجى باشا عائدا الى اسلامبول ، واحتفل به الباشا احتفالا زائدا ، وقدم له ولمخدومه وأرباب الدولة من الأموال والهدايا والخيول والبن والأرز والسكر والشربات وتعابى الأقمشة الهندية وغيرها شيئا كثيرا ، وكذلك قدم له أكابر الدولة هدايا كثيرة ، ولأنه لما حضر الى مصر قدم لهم هدايا فقابلوه بأضعافها ، وعند ما سافر احتجب الباشا ، وأمر كل من كان يلازم ديوانه بالانصراف والتحجب ، فتكرتن منهم من تكرتن فى داره ومنهم فى القصور ، وسافر مع قهوجى باشا سليمان أغا السلحدار وشربتشى باشا وآخرون لتشييعه الى الأسكندرية .

الخميس ١٨ منه (١٣ مايو ١٨١٩ م) :

حضر بواقى الوهابية بحريمهم وأولادهم — وهم نحو الأربعمائة نسمة — وأسكنوا بالقشلة التى بالأزبكية ، وابن عبد الله بن سعود بدار عند جامع مسبكة هو وخواصه من غير حرج عليهم ، وطفقوا يذهبون ويجيئون ويترددون على المشايخ وغيرهم ، ويمشون فى الأسواق ، ويشترون البضائع والاحتياجات .

شعبان

(٢٦ مايو — ٢٣ يونية ١٨١٩ م) :

فيه : وصل جماعة هجانة من جهة الحجاز ، وصحبتهم ابن حمود أمير يمن الحجاز . وذلك أنه لما مات أبوه تأمر عوضه ، وأظهر الطاعة وعدم المخالفة للدولة . فلما توجه خليل باشا الى اليمن ، أخلى له البلاد ، واعتزل فى حصن له ، ولم يخرج لدفعه ومحاربته كما فعل أبوه . وترددت بينهما المراسلات والمخادعات حتى نزل من حصنه ، وحضر عند خليل باشا . فقبض عليه وأرسله مع الهجانة الى مصر .

وفيه : صرفوا الفلاحين عن العمل فى الترعة لأجل حصاد الزرع ، ووجهوا عليهم طلب المال !

رمضان

الخميس غرته (٢٤ يونية ١٨١٩ م) :

استهل والباشا مكرتن بشبرا ، ولم يطلع الى القلعة كعادته فى شهر رمضان .

الأربعاء ٢٨ منه (٢١ يولية ١٨١٩ م) :

طلع الى القلعة ، وعيد بها

شـــوال

١٤ منه (٥ اغسطس ١٨١٩ م ـــ آخر ابيب ١٥٣٥ ق):

نودى بوفاء النيل ، وكان الباشا سافر الى جهة لأسكندرية بسبب ترعة الأشرفية ، وأمر حـكام الجهات بالأرياف بجمع الفلاحين للعمل . فأخذوا فى جمعهم ، فكانوا يربطونهم قطارات بالحبـال ، ويزلون بهم المراكب . وتعطلوا عن زرع الدراوى الذى هو قوتهم ، وقاسوا شدة بعد رجوعهم من المرة الأولى بعد ما قاسوا ما قاسوه ومات الكثير منهم من البرد والتعب ، وكل من سقط أهالوا عليه من تراب الحفر ... ولو فيه الروح !

ولما رجعوا الى بلادهم للحصـــيدة ، طولبوا بالمـال ، وزيد عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن وكيلة قمح وكيلة فول ، وأخذ ما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون والكيل الوافر ... فما هم الا والطلب للعود الى الشغل فى الترعة ، ونزح المياه التى لا ينقطـع نبعهـا من الأرض ، وهى فى غاية الملوحة . والمرة الأولى كانت فى شدة البرد ، وهذه المرة فى شدة الحر ، وقلة المياه العذبة ، فينقلوها بالروايا على الجمال مع بعد المســافة وتأخر رى الاسكندرية !

٢٧ منه (١٨ اغسطس ١٨١٩ م) :

ارتحل ركب الحجاج من البركة . وأمير الحاج عابدين بيك أخو حسن باشا .

ذوالقعـــدة

الأحد غرته (٢٢ اغسطس ١٨١٩ م) :

استهل والعمل فى الترعة مستمر .

ذوالحجـــة

الثلاثاء ١٥ منه (٥ أكتوبر ١٨١٩ م) :

سافر الباشــا الى الصــعيد ، وسافر صحبته حسن باشا طاهر ، ومحمد آغا لاظ المنفصـل عن الكتخدائية ، وحسن آغا آزرجانلى ، وغـيرهم من أعيان الدولة .

وفيه : وصل الخبر بموت سليمان باشا حاكم عكا ، وهو من مماليك أحمد باشا الجزار .

فى أواخره (النصف الثانى من أكتوبر ١٨١٩ م) :

وفى أواخره : وصل ابن ابراهيم باشا ، وصحبته حريم أبيه . فضربوا لوصولهم مـدافع ، وعملوا للصغير موكبا ، ودخل من باب النصر ، وشق من وسط المدينة .

وانقضت السنة وما تجدد بهــا من الحوادث التى منها : زيادة النيل الزيادة المفـرطة أكثر من العام الماضى . وهذا من النوادر — وهو الغرق — فى عامين متتابعين ، واستمر أيضا فى هذه السنة الى منتصف هاتور ، حتى فات أوان الزراعة ، وربما نقص قليلا ثم يرجع فى ثانى يوم أكثر ما نقص .

المحرم

الخميس غرته (٢١ اكتوبر ١٨١٩ م) :

كان أول المحرم بالهلال يوم الخميس ، وفيه ، وما قبله بأيام : حصل بالأرياف ، بل وبداخل المدينة ، انزعاجات بسبب تواتر سرقات ، وإشاعة سروح مناسر وحرامية ، وعمر الناس أبواب الدور والدروب ، وحصل منع الناس من المسير والمشى بالأزقة من بعد الغروب . وصار كتخدا بيك وأغات التبديل والوالى يطوفون ليلا بالمدينة ، وكل من صادفوه قبضوا عليه وحبسوه ... ولو كان مما لا شبهة فيه ، واستمر هذا الحال الى آخر الشهر .

الثلاثاء ٢٧ منه (١٦ نوفمبر ١٨١٩ م) :

حضر الباشا من الصعيد بعد أن وصل فى سرحته الى الشلال . وكان الناس تقولوا على ذهابه الى قبلى أقاويل ، منها : أنه يريد التجريد على بواقى المصريين المنقطعين بدنقلة : فإنهم استفحل أمرهم ، واستكثروا من شراء العبيد ، وصنعوا البارود والمدافع وغير ذلك .

ومنها : أنه يريد التجريد أيضا ، وأخذ بلاد دارفور والنوبة ، ويمهد طريق الوصول اليها .

ومنها : أنهم قالوا انه ظهر بتلك البلاد معدن الذهب والفضة والرصاص والزمرد ، وان ذهابه للكشف على ذلك وامتحانه ، وعمل معدله ومقدار مايصرف عليه حتى يستخرج صافيه .

وبطل كل ما توهموه وخمنوه برجوعه . وأما قولهم عن هذه المعادن : فالذى تلخص من ذلك أنه ظهر بأرض أحجار خضر تشبه الزمرد ، وليست اياه ، وبمكان آخر شىء أسود مخرفش مثل خرء الحديد يخرج منه بعد العلاج والتصفية رصاص قليل . فقد أخبرنى أخونا الشيخ عمر الناوى ، المعروف بالمخلصى ، أنه أخذ منه قطعة وذهب بها الى الصائغ ودقها ووضعها فى بوط كبير ، وساق عليها بنار السبك ، وانكسر البوط فنقلها الى بوط آخر . ولم يزل يعالجها بطول النهار ، وأحرق عليها زيادة عن القنطار من الفحم .

وفيه : حضر أيضا جماعة من الوهابية ، وأنزلوا بدار بحارة عابدين .

صفر

الجمعة غرته (١٩ نوفمبر ١٨١٩ م) :

سافر محمد أغا ، المعروف بأبو نبوت ، الشامى الى دار السلطنة باستدعاء من الدولة ، وذلك أنه لما حضر الى مصر ، ونزل برحاب الباشا كما تقدم ، وكاتب الباشا فى شأنه الى الدولة ، فحضر الأمر بطلبه وأوكد بالاكرام . فعند ذلك هيأ له الباشا ما يحتاج اليه من هدية وغيرها ، وتعين للسفر صحبته خمسة وثلاثون شخصا أرسل اليهم الباشا كساوى وفراوى ، وترك باقى أتباعه بمصر أنزلوهم فى دار بسويقة اللالا — وهم يزيدون عن المائتين — ويصرف لهم الرواتب فى كل يوم والشهرية .

وفيه : وصل جماعة من عسكر المغاربة والعرب الذين كانوا ببلاد الحجاز ، وصحبتهم أسرى من الوهابية نساء وبنات وغلمانا ، نزلوا عند الهمايل ،

وطفقوا يبيعونهم على من يشتريهم ... مع أنهم مسلمون وأحرار !

الجمعة ١٥ منه (٣ ديسمبر ١٨١٩ م) :

مات مصطفى أغا وكيل دار السعادة سابقا ، ومات أيضا الشيخ عبد الرحمن القرشى الحنفى .

الأحد ١٧ منه (٥ ديسمبر ١٨١٩ م) :

وصل الحاج المصرى ، ومات الكثير من الناس فيه بالحمى ، وكذلك كثرت الحمى بأرض مصر ، وكأنها تناقلت من أرض الحجاز .

الخميس ٢١ منه (٩ ديسمبر ١٨١٩ م) :

وصل ابراهيم باشا ابن الباشا من ناحية القصير. وكان قبل وروده بأيام وصل خبر وصوله الى القصير . وضربوا لذلك الخبر مدافع من القلعة وغيرها ، ورمحت المبشرون لأخذ البقاشيش من الأعيان ، واجتمعت نساء أكابرهم عند والدته ونسائهم للتهنئة ، ونظفوا له القصر الذى كان أنشأه ولى خوجة وتممه شريف بيك الذى تولى فى منصبه ، وهو بالروضة بشاطىء النيل تجاه الجيزة وعند وصول المذكور عملوا جسرا من الروضة الى ساحل مصر القديمة على مراكب من البر الى البر ، وردموه بالأتربة من فوق الأخشاب .

وفى ذلك اليوم : وصل قابجى من دار السلطنة بالبشارة بمولود ولد لحضرة السلطان ، وطلع الى القلعة فى موكب .

وفيه : عند وصول ابراهيم باشا نودى بزينة المدينة سبعة أيام بلياليها . فشرع الناس فى تزيين الحوانيت والدور والخانات بما أمكنهم ، وقدروا عليه من الملونات والمقصبات . وأما جهات النصارى وحاراتهم وخاناتهم فانهم أبدعوا فى عمل تصاوير مجسمات وتماثيل وأشكال غريبة . وشكا الناس من عدم وجود الزيت والشيرج ، فرسموا بجملة قناطير شيرج تعطى للزياتين لتباع على الناس بقصد ذلك ، فيأخذونها ويبيعونها بأغلى ثمن بعد الانكار والكتمان .

ولما أصبح يوم الجمعة — وقد عدى ابراهيم باشا الى بر مصر — رتبوا له موكبا ، ودخل من باب النصر ، وشق المدينة ، وعلى رأسه الطلخان السليمى — من شعار الوزارة — وقد أرخى لحيته بالحجاز . وحضر والده الى جامع الغورية بقصد الفرجة على موكب ابنه ، وطلع بالموكب الى القلعة ، ثم رجع سائرا بالهيئة الكاملة الى جهة مصر القديمة ، ومر على الجسر ، وذهب الى قصره المذكور بالروضة .

واستمرت الزينة والوقود ، والسهر بالليل ، وعمل الحراقات ، وضرب المدافع فى كل وقت من القلعة ، ومغانى وملاعب فى مجامع الناس ، سبعة أيام بلياليها ، فى مصر الجديدة والقديمة وبولاق وجميع الأخطاط .

ورجع ابراهيم باشا من هذه الغيبة متعاظما فى نفسه جدا ، وداخله من الغرور ما لا مزيد عليه . حتى ان المشايخ لما ذهبوا للسلام عليه والتهنئة بالقدوم ، فلما أقبلوا عليه — وهو جالس فى ديوانه — لم يقم لهم ، ولم يرد عليهم السلام . فجلسوا وجعلوا يهنئونه بالسلامة ، فلم يجبهم ... ولا بالاشارة ! بل جعل يحادث شخصا سخرية عنده . وقاموا على مثل ذلك منصرفين ومنكسفين ومنكسرى الخاطر .

ربيع الأول

٨ منه (٢٥ ديسمبر ١٨١٩ م) :

مات ابن ابراهيم باشا — وهو الذى تقدمه فى المجىء الى مصر — وعملوا له الموكب ، وعمره نحو ست سنوات . وكان موته فى أول الليل من ليلة الأحد . فأرسلوا التنابيه لأعيان الدولة والمشايخ ، فخرج البعض منهم فى ثلث الليل الأخير الى مصر القديمة حيث المعادى ، لأنه مات بقصر

الجيزة . فما طلع النهار حتى ازدحموا بمصر القديمة ، وما حضروا به الا قرب الزوال . وانجروا بالمشهد الى مدفنهم بالقرب من الامام الشافعى ، وعملوا له مأتما ، وفرقوا دراهم على الناس والفقهاء وغير ذلك .

ثم حكى المخبرون عن كيفية موته : أنه كان نائما فى حجر دادته — جارية سوداء — فشاجرتها جارية بيضاء ، ورفصتها برجلها فأصابت الغلام ، فاضطرب . ووصل الخبر الى أبيه ، فدخل اليهم ، وقبض على الجوارى الحاضرات وحبسهن فى مكان بالقصر ، وقال : « ان مات ولدى قتلتكن عن آخركن » ، فمات من ليلته . فخنق الجميع وألقاهن فى البحر بما فيهن الدادة . قيل انهن خمس ، وقيل ست ... والله أعلم .

فى اواخره (حوالى منتصف يناير ١٨٢٠ م) :

انقضى أمر الفحر بترعة الاسكندرية ، ولم يبق من الشغل الا القليل . ثم فتحوا لها شرما ، خلاف فمها المعمول ، خوفا من غلبة البحر . فجرى فيها الماء ، واختلط بالمياه المالحة التى نبعت من أرضها ، وعلا الماء منها على بعض المواطن المسبخة ، — وبها روبة عظيمة — وساح على الأرض ، وليس هناك جسور تمنع ، وصادف أيضا وقوع نوة وأهوية علا فيها البحر المالح على الجسر الكبير ، ووصل الى الترعة . فأشيع فى الناس أن الترعة فسد أمرها ولم تصح ، وأن المياه المالحة ، التى منها ومن البحر ، غرقت الأسكندرية ، وخرج أهلها منها ... الى أن تحقق الخبر بالواقع — وهو دون ذلك — ورجع المهندسون والفلاحون الى بلادهم بعدما هلك معظمهم !

ربيع الآخر

الاثنين غرته (١٧ يناير ١٨٢٠ م) :

فى أوله : عزل الباشا محمد بيك الدفتردار عن امارة الصعيد ، وقلد عوضه أحمد باشا ابن طاهر باشا ، وسافر فى خامسه .

الأحد ٧ منه (٢٣ يناير ١٨٢٠ م) :

سافر الباشا الى الاسكندرية للكشف على الترعة ، وسافر صحبته ابنه ابراهيم باشا ومحمد بيك الدفتردار والكتخدا القديم ودبوس أوغلى .

السبت ١٣ منه (٢٩ يناير ١٨٢٠ م) :

حضر الباشا ومن معه من غيبتهم ، وقد انشرح خاطره لتمام الترعة وسلوك المراكب وسفرها فيها : وكذلك سافرت فيها مراكب رشيد والنقاير بالبضائع . واستراحوا من وعر البوغاز ، والسفر فى المالح الى الاسكندرية ، والنقل والتجريم ، وانتظار الريح المناسب لاقتحام البوغاز والبحر الكبير . ولم يبق فى شغل الترعة الا الأمر اليسير ، واصلاح بعض جسورها .

واتفق وقوع حادثة فى هذا الشهر : وهو أن شخصا من الافرنج الانكليز ورد من الاسكندرية ، وطلع الى بلدة تسمى كفر حشاد ، فمشى بالغيط ليصطاد الطير ، فضرب طيرا ببندقته فأصابت بعض الفلاحين فى رجله . وصادف هناك شخصا من الارنؤود بيده هراوة أو مسوقة ، فجاء الى ذلك الافرنجى ، وقال له : « أما تخشى أن يأتى اليك بعض الفلاحين ويضربك على رأسك هكذا » ، وأشار بما فى يده على رأس الافرنجى لكونه لا يفهم لغته . فاغتاظ من ذلك الافرنجى ، وضربه ببندقته فسقط ميتا .

فاجتمع عليه الفلاحون، وقبضوا على الأفرنجى ، ورفعوا الارنؤودى المقتول ، وحضروا الى مصر ، وطلعوا بمجلس كتخدا بيك . واجتمع الكثير من الأرنؤود وقالوا : « لابد من قتل الافرنجى » . فاستعظم الكتخدا ذلك ، لأنهم يراعون جانب الافرنج الى الغاية ، فقال : « حتى نرسل الى القناصل ونحضرهم ليروا حكمهم فى ذلك » .

وأرسل باحضارهم ... وقد تكاثر الأرنؤود وأخذتهم الحمية ، وقالوا : « لأى شيء تؤخر قتله الى مشورة القناصل ؟ وان لم يقتل هذا فى الوقت ، نزلنا الى حارة الافرنج ونهبناها وقتلنا كل من بها من الافرنج » . فلم يسع الكتخدا الا أن أمر بقتله . فنزلوا به الى الرميلة ، وقطعوا رأسه . وطلع أيضا القناصل فى كبكبتهم ... وقد نفذ الأمر . وكان ذلك فى غيبة الباشا .

جمادى الأولى

(١٥ فبراير ــ ١٥ مارس ١٨٢٠ م)

فيه : جرد الباشا حسن بيك الشماشرجى ، حاكم البحيرة ، على سيوة من الجهة القبلية ، فتوجه اليها من البحيرة بجنده ومعه طائفة من العرب .

وفيه : قوى عزم الباشا على الاغارة على نواحى السودان . فمن قائل انه متوجه الى سنار ، ومن قائل الى دارفور . وصارى العسكر ابنه اسماعيل باشا وخلافه . ووجه الكثير من اللوازم الى الجهة القبلية ، وعمل البقسماط والذخيرة ببلاد قبلى والشرقية . واهتم اهتماما عظيما ، وأرسل أيضا باحضار مشايخ العربان والقبايل .

وفيه : خرج الباشا الى ناحية القليوبية ، حيث الخيول بالربيع ، وخرج محو بيك لضيافته بقلقشندة ، وأخرج خياما وجمالا كثيرة محملة بالفرش والنحاس وآلات المطبخ والأرز والسمن والعسل والزيت والحطب والسكر وغير ذلك ، وأضافه ثلاثة أيام ، وكذلك تامر كاشف الناحية وغيره ، وكذلك أحضر له ضيافة ابن شديد شيخ الحويطات ، وابن الشواربى كبير قليوب ، وابن عسر . وكان صحبة الباشا ولداه ابراهيم باشا واسماعيل باشا ، وحسن باشا .

وفى أثناء ذلك : ورد الخبر بموت عابدين بيك ، أخو حسن باشا ، بالديار الحجازية ، وكذلك الكثير من أتباعه بالحمى . فتكدر حظهم ، وبطلت الضيافات وحضر الباشا ومن معه ــ فى أواخره ــ لعمل العزاء والميتم . وأخبر الواردون بكثرة الحمى بالديار الحجازية ، حتى قالوا انه لم يبق من طائفة عابدين بيك الا القليل جدا .

ربيع الآخر

الثلاثاء ٢٠ منه (٤ ابريل ١٨٢٠ م) :

وردت هدية من والى الشام ، فيها من الخيول الخاص عشرة : بعضها ملبس ، والباقى من غير سروج ، وأشياء أخر لا نعلمها .

أواخره (النصف الأول من ابريل ١٨٢٠ م) :

ورد الخبر بأن حسن بيك الشماشرجى استولى على سيوة .

وفيه : ورد الخبر بأنه وقع باسلامبول حريق كبير .

وفيه : ورد الخبر أيضا عن حلب بأن أحمد باشا ــ المعروف بخورشيد ، الذى كان سابقا والى مصر ــ استولى على حلب ، وقتل من أهلها وأعيانها أناسا كثيرة . وذلك أنه كان متوليا عليها ، فحصل منه ما أوجب قيام أهل البلدة عليه ، وعزلوه وأخرجوه ... وذلك من مدة سابقة . فلما أخرجوه أقام خارجها ، وكاتب الدولة فى شأنهم ، وقال ما قال فى حقهم . فبعثوا أوامر ومراسيم لولاة تلك النواحى بأن يتوجهوا لمعونته على أهل حلب . فاحتاطوا بالبلدة ، وحاربوها أشهرا حتى ملكوها ، وفتكوا فى أهلها ، وضربوا عليهم ضرائب عظيمة ... وهم على ذلك .

وفيه أيضا : تقلد أغوية مستحفظان مصطفى أغا كرد ــ مضافة للحسبة ــ عوضا عن حسن أغا الذى توفى فى الحج . فأخذ يعسف كعادته فى مبادى توليته للحسبة ، وجعل يطوف ليلا ونهارا ، ويحتج على المارين بالليل بأدنى سبب ، فيضرب

من يصادفه راجعا من سهر ونحوه ، أو يقطع من أذنه أو أنفه !

رجب

الأحد ٣ منه (١٦ ابريل ١٨٢٠ م) :

تقلد نظر الحسبة شخص يسمى حسين أغا المورلى ، وهو بخشونجى بساتين الباشا .

وفيه : رجع حسن بيك الشماشرجى من ناحية سيوة ، بعد أن استولى عليها ، وقبض من أهاليها مبلغا من المال والتمر ، وقرر عليها قدرا يقومون به فى كل عام الى الخزينة .

الأربعاء ٢٠ منه (٣ مايو ١٨٢٠ م) :

سافر محمد أغا لاظ — وهو المنفصل عن الكتخدائية — الى قبلى بمعنى أنه فى مقدمة الجردة يتقدمها الى الشلال .

فى أواخره (النصف الأول من مايو ١٨٢٠) :

وصل الخبر بموت خليل باشا بالديار الحجازية فخلع الباشا على أخيه أحمد بيك — وهو ثالث اخوته — وهو أوسطهم ، وقلده فى منصب أخيه عوضا عنه ، وأعطى البيرق واللوازم .

وفيه أيضا : توجه الباشا الى ناحية الوادى لينظر ما تجدد به من العمائر والمزارع والسواقى . وقد صار هذا الوادى اقليما على حدته ، وعمر به قرى ومساكن ومزارع .

شعبان

الأحد غرته (١٤ مايو ١٨٢٠ م) :

فيه : سافر ابراهيم باشا الى القليوبية ، ثم الى المنوفية والغربية ، لقبض الخراج عن سنة تاريخه ، والطلب بالبواقى التى انكسرت على الفقراء — وكان الباشا سامح فى ذلك ، وتلك بواقى سبع سنين — فكان يطلب مجموع ما على القرية من المال والبواقى فى ظرف ثلاثة أيام . ففزعت الفلاحون ومشايخ البلاد ، وتركوا غلالهم فى الأجران ، وطفشوا فى النواحى بنسائهم وأولادهم . وكان يحبس من يجده من النساء ويضربهن . فكان مجموع المال المطلوب تحصيله ، على ما أخبرنى به بعض الكتاب ، مائة ألف كيس (١) .

الاحد ١٥ منه (٢٨ مايو ١٨٢٠ م) :

حضر الباشا من ناحية الوادى .

فى أواخره (النصف الأول من يونية ١٨٢٠ م) :

وقع حريق ببولاق فى مغالق الخشب التى خلف جامع مرزة وأقام الحريق نحو يومين حتى طفىء ، واحترق فيه الكثير من الخشب المعد للعمائر المعروف بالكرسنة ، والزفت ، وحطب الأشراق وغيره .

رمضان

الاثنين غرته (١٢ يونية ١٨٢٠ م) :

واستهل والاهتمام حاصل وكل قليل يخرج عساكر ومغاربة مسافرين الى بلاد السودان ومن جملة الطلب ثلاثة أنفار من طلبة العلم يذهبون بصحبة التجريدة . فوقع الاختيار على محمد أفندى الأسيوطى ، قاضى أسيوط . والسيد أحمد البقلى الشافعيين ، والشيخ أحمد السلاوى المغربى المالكى. وأقبضوا محمد أفندى المذكور عشرين كيسا وكسوة ، ولكل واحد من الاثنين خمسة عشر كيسا وكسوة . ورتبوا لهم ذلك فى كل سنة .

الاحد ٧ منه (١٨ يونية ١٨٢٠ م) :

وقع حريق فى سراية القلعة . فطلع الأغا والوالى وآغات التبديل ، واهتموا بطفء النار ، وطلبوا السقائين من كل ناحية ، حتى شح الماء ولا يكاد يوجد — وكان ذلك فى شدة الحر ، وتوافق شهر بؤونة ورمضان — وأقاموا فى طفء النار يومين ، واحترق ناحية ديوان كتخدا بيك ومجلس شريف بيك ، وتلفت أشياء وأمتعة ودفاتر .. حرقا ونهبا .

(١) فى بعض النسخ « مائة وسبعين الف كيس » .

وذلك أن أبنية القلعة كانت من بناء الملوك المصرية بالأحجار والصخور والعقود ، وليس بها الا القليل من الأخشاب ... فهدموا ذلك جميعه ، وبنوا مكانه الأبنية الرقيقة — وأكثرها من الحجنة والأخشاب ، على طريق بناء اسلامبول والافرنج — وزخرفوها ، وطلوها بالبياض الرقيق والأدهان والنقوش ، وكله سريع الاشتعال ... حتى أن الباشا لما بلغه هذا الحريق — وكان مقيما بشبرا — تذكر بناء القلعة القديم وما كان فيه من المتانة ، ويلوم على تغيير الوضع السابق ، ويقول : أنا كنت غائبا بالحجاز ، والمهندسون وضعوا هذا البناء . وقد تلف فى هذا الحريق ما ينيف عن خمسة وعشرين ألف كيس .. حرقا ونهبا . ولما حصل هذا الحريق ، انتقلت الدواوين الى بيت طاهر باشا بالأزبكية . وانقضى شهر رمضان .

شوال

الثلاثاء غرته (١١ يولية ١٨٢٠ م) :

وقع فى تلك الليلة اضطراب فى ثبوت الهلال لكونه كان عسر الرؤية جدا ، وشهد اثنان برؤيته . ورد الواحد ، ثم حضر آخر . ولم يزالوا كذلك الى آخر الليل ، ثم حكم به عند الفجر ... بعد أن صليت التراويح ، وأوقدت المنارات ، وطاف المسحرون بطبلاتهم ، وتسحرت الناس ، وأصبح العيد باردا .

السبت ٥ منه (١٥ يولية ١٨٢٠ م) :

سافر الباشا الى ثغر سكندرية كعادته ، وأقام ولده ابراهيم باشا للنظر فى الأحكام والشكاوى والدعاوى . وكانت اقامته بقصره الذى أنشأه بشاطىء النيل ... تجاه مضرب النشاب ، وتعاظم فى نفسه جدا .

ولما رجع ابراهيم باشا من سرحته ، شرعوا فى عمل مهم لختان عباس باشا ابن أخيه طوسون باشا — وهو غلام فى السادسة — فشرعوا فى ذلك فى تاسع عشره ، ونصبوا خياما كثيرة تحت القصر . وحضرت أرباب الملاعيب والحواة ، والمغزلكون والبهلوانيون ، وطبخت الأطعمة والحلواء والأسمطة ، وأوقدت الوقدات بالليل من المشاعل والقناديل ، والشموع بداخل القصر ، وتعاليق النجفات البلور وغير ذلك .

ورسموا باحضار غلمان أولاد الفقراء ، فحضر الكثير منهم وأحضروا المزينين . فختنوا فى أثناء أيام الفرح نحو الأربعمائة غلام ، ويفرشون لكل غلام طراحة ولحافا يرقد عليها حتى يبرأ جرحه ، ثم يعطى لكل غلام كسوة وألف نصف فضة . وفى كل ليلة يعمل شنك وحراقات ونفوط ومدافع بطول الليل ودعوا فى أثناء ذلك كبار الأشياخ والقاضى والشيخ السادات والبكرى — وهو نقيب الأشراف أيضا — والمفاتى . وصار كل من دخل منهم يجلسونه من سكوت ، ولم يقم لواحد منهم ، ولم يرد على من يسلم — ولا بالاشارة — السلام . ولم يكلمهم بكلمة يؤانسهم بها . وحضرت المائدة فتعاطوا الذى تعاطوه . حتى انقضى المجلس ، وقاموا وانصرفوا من سكوت .

الأربعاء ٢٣ منه (٢ اغسطس ١٨٢٠ م) :

خرجوا بالمحمل الى الحصوة ، وأمير الحاج شخص من الدلاة لم نعرف اسمه .

الخميس ٢٤ منه (٣ اغسطس ١٨٢٠ م) :

عملوا الزفة لعباس باشا ، ونزلوا به من القلعة على الدرب الأحمر ، على باب الخرق الى القصر ... وختنوه فى ذلك اليوم . وامتلأ طشت المزين الذى ختنه بالدنانير من نقوط الأكابر والأعيان ، وخلعوا عليه فروة وشال كشميرى ، وأنعموا على باقى المزينين بثلاثين كيسا وانقضى ذلك .

الثلاثاء ٢٩ منه (٨ اغسطس ١٨٢٠ م — ٣ مسرى ١٥٣٦ ق) :

أوفى النيل أذرعه ، وكسر السد فى صبحها يوم الأربعاء ، وجرى الماء فى الخليج .. وذلك بحضرة كتخدا بيك والقاضى .

وفى هذا الشهر : حضر طائفة من بواقى الأمراء المصرية من دنقلة الى بر الجيزة . وهم نحو الخمسة وعشرين شخصا ، وملابسهم قمصان بيض لاغير . فأقاموا فى خيمة ينتظرون الاذن ، وقد تقدم منهم الارسال بطلب الأمان عندما بلغهم خروج التجاريد ، وحضر ابن على بيك أيوب وطلب أمانا لأبيه — فأجيبوا الى ذلك ، وأرسل لهم أمانا لأجمعهم ... ماعدا عبد الرحمن بيك ، والذى يقال له المنفوخ ، فليس يعطيهم أمانا ، ولما حضرت مراسلة الأمان لعلى بيك أيوب ، وتأهب للرحيل .. حقدوا عليه وقتلوه . ووصل خبر موته ، فعملوا نعيه فى بيته — سكن زوجته الكائن بشمس الدولة — وأكثروا من الندب والصراخ عدة أيام .

وفى هذا الشهر أيضا : حضر أشخاص من بلاد العجم ، وصحبتهم هدية الى الباشا ، وفيها خيول ، فأنزلوهم ببيت حسين بيك الشماشرجى بناحية سويقة العزى .

ذوالقعدة

الأحد ٤ منه (١٣ اغسطس ١٨٢٠ م) :

وصل قابجى وعلى يده مرسوم تقرير للباشا بولاية مصر على السنة الجديدة ، وتقرير آخر لولده ابراهيم باشا بولاية جدة .. وركب القابجى المذكور فى موكب من بولاق الى القلعة ، وقرئت المراسيم بحضرة كتخدا بيك وابراهيم باشا وأعيانهم ، وضربوا مدافع .

وفيه : سافر اسماعيل باشا الى جهة قبلى ، وهو أمير العسكر المعينة لبلاد النوبة .. كل ذلك والباشا الكبير على حاله بالأسكندرية .

ذوالحجة

(٩ سبتمبر — ٨ اكتوبر ١٨٢٠ م)

فيه : توجه ابراهيم باشا الى أبيه بالأسكندرية فأقام هناك أياما وعاد فى آخر الشهر فأقام بمصر أياما قليلة ، وسافر الى ناحية قبلى ليجمع ما يجده عند الناس من القمح والفول والعدس الثلاثة أصناف . وأخذوا كل سفينة غصبا ، وساقوا الجميع الى قبلى لحمل الغلال ، وجمعها فى الشون البحرية لتباع على الافرنج والروم بالأثمان الغالية .

وانقضت السنة . ومن حوادثها : زيادة النيل الزيادة المفرطة وخصوصا بعد الصليب . وقد كان حصل الاعتناء الزائد بأمر الجسور بسبب ما حصل فى العامين السابقين من التلف ، فلما حصلت هذه الزيادة بعد الصليب ، وطف الماء على أعلى الجسور ، وغرق مزارع الذرة والنيلة والقصب والأرز والقطن وأشجار البساتين ، وغالب أشجار الليمون والبرتقان بما عليها من الثمار ، وصار الماء ينبع من الأرض المنوعة نبعا . ولا عاصم من أمر الله !

وطال مكث الماء على الأرض حتى فات أوان الزراعة ، ولم نسمع ولم نر فى خوالى السنين تتابع الغرقات ، بل كان الغرق نادر الحصول . وعلا ماء الخليج حتى سد غالب فرجات القناطر ، ونبع الماء من الأراضى الواطية القريبة من الخليج مثل غيط العدة ، وجامع الأمير حسين ونحو ذلك .

ومنها : أن ترعة الأسكندرية المحدثة — لما تم حفرها ، وسموها بالمحمودية على اسم السلطان محمود — فتحوا لها شرما دون فمها المعد لذلك ، وامتلأت بالماء . فلما بدأت الزيادة زادت ، وطفه الماء فى المواضع الواطية ، وغرقت الأراضى ، فسدوا ذلك الشرم ، وأبقوا من داخله فيها عدة مراكب للمسافرين ، فكانوا ينقلون منها الى

مراكب البحر ، ومن البحر الى مراكبها وبقى ماؤها مالحا متغيرا ، واستمر أهل الثغر فى جهد من قلة الماء العذب ، وبلغ ثمن الراوية قرشين .

ومنها : أنه لما وقع القياس فى أراضى القرى ، قرروا مسموحا لمشايخ البلاد — فى نظير مضايفهم — خمسة أفدنة من كل مائة فدان . وفى هذا العام يدفع مال المسموح سنتين ... وذلك عقب مطالبتهم بالخراج قبل أوانه ، وما صدقوا أنهم غلقوه ببيع غلالهم بالنسيئة والاستدانة ، وبيع المواشى والأمتعة ومصاغ النساء . وكانوا أيضا طولبوا بالبواقى فى السنين الخوالى التى كانوا عجزوا عنها . ولم يزل رمى الغلال فى هذه السنة ، وكذلك الفول وثمر النخيل والفواكه . ولما طولب مشايخ البلاد بمال المسموح ، ازداد كربهم : فانه ربما يجىء على الواحد ألف ريال وأقل وأكثر ، وقد قاسوا الشدائد فى غلاق الخراج الخارج عن الحد ، وعدم زكاء الزرع ، وغرق مزارع النيلة والأرز والقطن والقصب والكتان وغير ذلك .

وفى أثر ذلك : فرضوا على الجواميس كل رأس عشرون قرشا ، وعلى الجمل ستون قرشا ، وعلى الشاة قرش ، والرأس من المعز سبعة وعشرون نصفا وثلث ، والبقرة خمسة عشر ، والفرس كذلك .

ومنها : احتكار الصابون ، ويحجز جميع الوارد على ذمة الباشا . ثم سومح تجاره بشرط أن يكون جميع صابون الباشا ومرتباته ودائرته من غير ثمن — وهو شىء كثير — ويستقر ثمنه على ستين نصفا بعد أن كان بخمسين جردا من غير نقو .

ومنها : ما أحدث على البلح بأنواعه ، وما يجلب من الصعيد والأبريمى وأنواع العجوة ، حتى جريد النخل والليف والخوص ، يؤخذ جميع ذلك بالثمن القليل ، ويباع ذلك للمتسببين بالثمن الزائد ، وعلى الناس بأزيد من ذلك .

وفى هذه السنة لم تثمر النخيل الا القليل جدا ، ولم يظهر البلح الأحمر فى أيام وفرته ، ولم يوجد بالأسواق الا أياما قليلة ، وهو شىء ردىء ، وبسر ليس بجيد . ورطله بخمسة أنصاف ، وهى ثمن العشرة أرطال فى السابق ، وكذلك العنب لم يظهر منه الا القليل ، وهو الفيومى والشرقاوى . وقد التزم به من يعصره شرابا بأكياس كثيرة مثل غيره من الأصناف ... وغير ذلك جزئيات ، لم يصل الينا علمها ، ومنها ما وصل الينا علمها وأهملنا ذكرها .

ومنها : أن حسن باشا سافر الى الجهة القبلية ، وصحبته بعض الافرنج الذين كان رخص لهم الباشا السياحة والغوص بأراضى الصعيد والفحص وفحر الأراضى والكهوف والبرابى ، واستخراج الآثار القديمة والأمم السالفة — من التماثيل والتصاوير ونواويس الموتى — وقطع الصخور بالبارود .

وأشاعوا أنه ظهر لهم شىء مخرفش يشبه خرء الرصاص أو الحديد ، وبه بعض بريق ، ذكروا أنه معدن اذا تصفى خرج منه فضة وذهب ، وأخبرنى بعض من أثق بخبره أنه أخذ منه قطعة تزيد فى الوزن على رطلين ، وذهب بها عند رجل صائغ ، فأوقد عليها نحو قنطار من الفحم بطول النهار ، فخرج منها فى آخر الأمر — وهو ينقلها من بوط الى آخر بعد كسره — قطعة من الرصاص قدر الأوقية .

وذكروا أيضا أن بالجبل أحجارا سودا توقد فى النار مثل الفحم . وذلك لأنهم أتوا بمثل ذلك من بلاد الافرنج ، وأوقدوها بالضربخانة : كريهة الرائحة مثل الكبريت ، ولا تصير رمادا ، بل تبقى على حجريتها مع تغير اللون ، ويحتاج الى نقلها الى الكيمان . وقالوا ان بداخل جبال الصعيد كذلك .

فسافر حسن باشا بقصد استخراج هذه الأشياء وأمثالها ، فأقام نحو ثلاثة أشهر — وذلك بأمر الباشا الكبير — وهم يكسرون الجبل بالبارود ، فظهر بالجبل بجس ينسيل منه دهن أسود بزرقة ورائحته زنخة كبريتية يشبه النفط ... وليس هو . وأتوا بشيء منه الى مصر ، وأوقدوا منه فى السرج ، فملأوا منه سبعة مصاقى ... وانقطع ، وأشيع فى الناس قبل تحقق صورته ، بل وصلت مكاتبات بأنه خرج من الجبل عين تسيل بالزيت الطيب ، ولا ينقطع جريانها ، يكفى مصر واقطاعها ... بل والدنيا أيضا ! وأخبرنى بعض أتباعهم أن الذى صرف فى هذه المرة نحو الألفى كيس .

ومن حوادث هذه السنة الخارجة عن أرض مصر : أن السلطان محمود تغير خاطره على على باشا — المعروف بتيه رنلى حاكم بلاد الأرنؤود . وجرد عليه العساكر ، ووقع لهم معه حروب ووقائع ، واستولوا على أكثر البلاد التى تحت حكمه ، وتحصن هو فى قلعة منيعة .

وعلى باشا هذا فى مملكة واسعة وجنود كثيرة ، وله عدة أولاد متأمرين كذلك ، وبلادهم بين بلاد الرومنلى والنيمسا . ويقال ان بعض أولاده دخل تحت الطاعة ، وكذلك الكثير من عساكره . وبقى الأمر على ذلك ، ودخل الشتاء ، وانقضت السنة ولم يتحقق عنه خبر .

ومنها : أمر المعاملة وما يقع فيها من التخليط والزيادة ، حتى بلغ صرف الريال الفرانسة اثنى عشر قرشا ، عنها أربعمائة وثمانون نصفا . والبندقى ألف فضة ، وكذلك المجر والفندقلى الاسلامى سبعة عشر قرشا . والقرش الاسلامبولى — بمعنى المضروب هناك المنقول الى مصر — يصرف بقرشين وربع ، يزيد عن المصرى ستين نصفا . وكذلك الفندقلى الاسلامبولى يصرف فى بلدته بأحد عشر قرشا ، وبمصر بسبعة عشر كما تقدم . فتكون زيادته ستة قروش . وكذلك الفرانسا فى بلادها تصرف بأربعة قروش ، وباسلامبول بسبعة ، وبمصر باثنى عشر . وأما الأنصاف العددية ، التى تذكر فى المصارفات ، فلا وجود لها أصلا .. الا فى النادر جدا . واستغنى الناس عنها لغلو الأثمان فى جميع المبيعات والمشتروات . وصار البشلك ، الذى يقال له الخمساوية — أى صرفه خمسة أنصاف — هى بدل النصف ، لأنه لما بطل ضرب القروش بضربخانة مصر ، وعوض عنها نصف القرش وربعه وثمنه الذى هو البشلك ، ولم يبق بالقطر الا ما كان موجودا قبل — وهو كثير ... يتناقل بأيدى الناس وأهل القرى ، ويعود الى الخزينة ، ويصرف فى المصارف والمشاهرات وعلائف العساكر ... وهم كذلك يشترون لوازمهم فتذهب وتعود ، وهكذا تدور مع الفلك كلما دار ، ويصرف القرش عند الاحتياج الى صرفه بسبعة من البشلك بنقص الثمن ، فباعتبار كونها فى مقام النصف ، يكون القرش بسبعة أنصاف لا غير ، وباعتبار ذلك يكون الألف فضة بمائة وخمسة وسبعين فضة ، لأن الخمسة وعشرين قرشا — التى هى بدل الألف — اذا نقصت فى المصارفة الثمن ، تكون احدى وعشرين . واذا ضربنا السبعة فى الخمسة وعشرين كانت مائة وخمسة وسبعين ، وفيها من الفضة الخالصة ستة دراهم لا غير . وأوزان هذه القطع مختلفة ، لا تجد قطعة وزن نظيرتها . وفى ذلك فرط آخر . والقليل فى الكثير كثير !

والذى أدركناه فى الزمن السابق أن هذه القروش لم يكن لها وجود بالقطر المصرى البتة . وأول من أحدثها بمصر على بيك القازدغلى — بعد الثمانين ومائة وألف — عندما استفحل

أمره ، وأكثر من العساكر والنفقات ، وأظهر العصيان على الدولة . ولما استولى محمد بيك المعروف بأبى الذهب ، أبطلها رأسا من الاقليم . وخسر الناس بسبب ابطالها حصة من أموالهم مع فرحهم بابطالها ، ولم يتأثروا بتلك الخسارة لكثرة الخير والمكاسب . ولم يبق من أصناف المعاملة الا أنواع الذهب الاسلامى والافرنجي والفرانسة ونصفه وربعه ، والفضة الصغيرة التى يقال لها نصف فضة ... مع رخاء الأسعار وكثرة المكاسب . ويصرف هذا النصف بعدد من الأفلس النحاس التى نقال لها الجدد : أما عشرة أو اثنا عشر ، اذا كانت مضروبة ومختومة ، أو عشرين اذا كانت صغيرة وبخلاف ذلك ، ويقال لها السحاتة . فكان غالب المحقرات يقضى بهذه الجدد ، بل وخلاف المحقرات ، وفى البيع والشراء .

وكان يجلب منها الكثير مع الحجاج المغاربة فى المخالى ، ويبيعونها على أهل الأسواق بوزن الأرطال ، ويربحون فيها . فكان الفقير أو الأجير اذا اكتسب نصفا وصرفه بهذه الجدد ، كفاه نفقة يومه مع رخاء الأسعار ، ويشترى منها خبزا وأدما . واذا احتاج الطابخ لوازم الطبخة فى التقلية ، أخذ من البقال البصل والثوم والسلق والكسبرة والبقدونس والفجل والكراث والليمون : الصنف أو الصنفين أو الثلاثة بالجديد الواحد .

وقد انعدمت هذه الجدد بالكلية ، واذا وجدت فلا ينتفع بها أصلا ، وصار النصف الفضة بمنزلة الجديد النحاس ولا وجود له أيضا ، وصارت الخمساوية بمنزلة النصف بل وأحقر ... لأنه كان يصرف بعدد كثير من الجدد ، وهذه بخمسة فقط . فاذا أخذ الشخص شيئا من المحقرات بنصف أو نصفين أو ثلاثة — ما كان يؤخذ بجديد أو جديدين — لم يجد عند البائع بقية الخمساوية : فاما يترك الباقى لوقت احتياج آخر ان كان يعرفه ، والا تعطلا . واذا كان الانسان بالسوق ولحقه العطش فيشرب من السقاء الطواف ويعطيه جديدا ، أو يملأ صاحب الحانوت ابريقه بجديد ، وفى هذه الأيام : اذا كان الشخص لم يكن معه بشلك يشرب به ، والا بقى عطشانا حتى يشرب من داره ، ولا يهون عليه أن يدفع ثمن قربة فى شربة ماء ... وذلك لعدم وجود النصف ، وكذلك الصدقة على الفقراء وأمثالهم .

وقد كان الناس من أرباب البيوت اذا زاد بعد ثمن اللحم والخضار نصف ، يسألون الخادم فى اليوم الثانى عنه لكونه نصف المصروف ، ويحاسبونه عليه . وكان صاحب العيال وذوو البيوت المحتوية على عدة أشخاص ، من عيال وجوار وخدم ، اذا ادخر الغلة والسمن والعسل والحطب ونحو ذلك ، يكفيه فى مصروف يومه العشرة أنصاف فى ثمن اللحم والخضار وخلافه . وأما اليوم فلا يقوم مقامها العشرة قروش وأزيد ... لغلو الأسعار فى كل شىء بسبب الحوادث والاحتكارات السابقة والمتجددة كل وقت فى جميع الأصناف . ولا يخفى أن أسباب الخراب التى نص عليها المتقدمون اجتمعت وتضاعفت فى هذه السنين ، وهى زيادة الخراج ، واختلال المعاملة أيضا والمكوس .

وزاد على ذلك احتكار جميع الأصناف ، والاستيلاء على أرزاق الناس ... فلا تجد مرزوقا الا من كان فى خدمة الدولة متوليا على نوع من أنواع المكوس ، أو مباشرا أو كاتبا أو صانعا فى الصنائع المحدثة . ولا يخلو من هفوة ينم بها عليه فيحاسب مدة استيلائه ، فيجتمع عليه جملة من الأكياس ، فيلزم بدفعها ... وربما باع داره ومتاعه فلا يفى بما تأخر عليه : فاما يهرب ان أمكنه الهرب ، واما يبقى فى الحبس ... هذا ان كان من أبناء

العرب وأهالى البلدة . واما ان كان بخلاف ذلك ، فربما سومح ، أو تصدى له من يخفف عنه ، أو يدخله فى منصب أو شركة ... فيترفع حاله ويرجع أحسن ما كان !

ومما حدث أيضا فى هذه السنة : الاستيلاء على صناعة المخيش والقصب والتلى الذى يصنع من الفضة للطرازات والمقصبات والمناديل والمحارم وخلافها من الملابس ، وذلك باغراء بعض صناعهم وتحاسدهم ، وأن مكسبها يزيد على ألف كيس فى السنة — لأن غالب الحوادث باغراء الناس على بعضهم البعض — وكذلك الاستيلاء على وكالة الجلابة التى يباع فيها الرقيق من العبيد والجوارى السود ، وغيرهم من البضائع التى تجلب من بلاد السودان : كسن الفيل ، والتمر هندى ، والششم وروايا الماء ، وريش النعام وغير ذلك .

ومنها : الحجر على عسل النحل وشمعه ، فيضبط جميعه للدولة ، ويباع رطل الشمع بستة قروش ، ولا يوجد الا ما كان مختلسا ويباع خفية ، وكان رطله قبل الحجر بثلاثة قروش . فاذا وردت مراكب الى الساحل نزل اليها المفتشون على الأشياء — ومن جملتها الشمع — فيأخذون ما يجدونه ، ويحسب لهم بأبخس ثمن ، فان أخفى شيئا ، وعثروا عليه ، أخذوه بلا ثمن ، ونكلوا بالشخص الذى يجدون معه ذلك ، وسموه حراميا .... ليرتدع غيره .

والمتولى على ذلك نصارى ، وأعوانهم لا دين لهم .

وقد هاف النحل فى هذه السنة ، وامتنع وجود العسل ، وكذلك ثمر النخيل ... بل والغلال . فلم تزل فى هذه السنين مع كثرة الأسيال التى غرقت منها الأراضى ، بل وتعطل بسببها الزرع ، وزادت أثمانها ، خصوصا الفول . وأما العدس فلا يوجد أيضا الا نادراً .

وكذلك التزم بالملاحة وتوابعها من زاد فى مالها ، وبلغ ثمن الكيلة قرشا ، وكانت قبل ذلك بثلاثين نصفا . وفيما أدركنا بثلاثة أنصاف . وأما أجر الأجراء والفعلة والمعمرين فأبدل النصف بالقرش ، وكذلك ثمن الجير البلدى والجبس ... لأن عمائر أهل الدولة مستديمة لا تنقضى أبدا . ونقل الأتربة الى الكيمان على قطارات الجمال والحمير من شروق الشمس الى غروبها ... حتى ستر علوها الأفق من كل ناحية ، واذا بنى أحدهم دارا فلا يكفيه فى ساحتها الكثير ، ويأخذ ماحولها من دور الناس ، بدون القيمة ، ليوسع بها داره ، ويأخذ ما بقى فى تلك الخطة لخاصته وأهل دائرته ، ثم يبنى أخرى كذلك لديوانه وجمعيته وأخرى لعسكره وهكذا .

وأما سليمان أغا السلحدار فهو الداهية العظمى والمصيبة الكبرى ، فانه تسلط على بقايا المساجد والمدارس والتكايا التى بالصحراء ، ونقل أحجارها الى داخل باب البرقية المعروف بالغريب ، وكذلك ما كان جهة باب النصر ، وجمعوا أحجارها خارج باب النصر ، وأنشأ جهة خان الخليلى وكالة ، وجعل بها حواصل وطباقا ، وأسكنها نصارى الأروام والأرمن بأجرة زائدة ، أضعاف الأجرة المعتادة ، وكذلك غيرهم ممن رغب فى السكنى ، وفتح لها بابا يخرج منه الى وكالة الجلابة الشهيرة التى بالخراطين لأنها بظاهرها ، وأجر الحوانيت كذلك بأجرة زائدة : فأجر الحانوت بثلاثين قرشا فى الشهر ، وكانت الحانوت تؤجر بثلاثين نصفا فى الشهر .

والعجب فى اقدام الناس على ذلك ، واسراعهم فى تآجرهم قبل فراغ بنائها ، مع ادعائهم قلة المكاسب ووقف الحال . ولكنهم أيضا يستخرجونها من لحم الزبون وعظمه !

ثم أخذ بناحية داخل باب النصر مكانا متسعا

يسمى حوش عطى (بضم العين ، وفتح الطاء وسكون الياء) كان محطا لعربان الطور ونحوهم — اذا وردوا بقوافلهم بالفحم والقلى وغيره — وكذلك أهالى شرقية بلبيس . فأنشأ فى ذلك المكان أبنية عظيمة تحتوى على خانات متداخلة ، وحوانيت وقهاوى ومساكن وطباق .

وسكن غالبها أيضا الأرمن وخلافهم بالأجر الزائدة ، ثم انتقل الى جهة خان الخليلى ، فأخذ الخان المعروف بخان القهوة وما حوله من البيوت والأماكن والحوانيت ، والجامع المجاور لذلك تصلى فيه الجمعة بالخطبة . فهدم ذلك جميعه ، وأنشأه خانا كبيرا يحتوى على حواصل وطباق وحوانيت عدتها أربعون حانوتا ، أجرة كل حانوت ثلاثون قرشا فى كل شهر .

وأنشأ فوق السبيل وبعض الحوانيت زاوية لطيفة ، يصعد اليها بدرج عوضا عن الجامع ، ثم انتقل الى جهة الخرنفش بخط الامشاطية فأخذ أماكن ودورا وهدمها ... وهو الآن مجتهد فى تعميرها كذلك ، فكان يطلب رب المكان ليعطيه الثمن فلا يجد بدا من الاجابة ، فيدفع له ماسمحت به نفسه ، ان شاء عشر الثمن أو أقل أو أزيد بقليل ، وذلك لشفاعة أو واسطة خير . واذا قيل له انه وقف ولا مسوغ لاستبداله لعدم تخربه ، أمر بتخريبه ليلا ثم يأتى بكشاف القاضى فيراه خرابا فيقضى له .

وكان يثقل عليه لفظة « وقف » ويقول : « ايش يعنى وقف ؟ » . واذا كان على المكان حكر لجهة وقف أصله ... لا يدفعه ، ولا يلتفت لتلك اللفظة أيضا ، ويتمم عمائره فى أسرع وقت ، لعسفه وقوة مراسه على أرباب الأشغال والموانة ، ولا يطلق للفعلة الرواح ، بل يحبسهم على الدوام الى باكر النهار ، ويوقظونهم من آخر الليل بالضرب ، ويبتدئون فى العمل من وقت صلاة الشافعى الى قبيل الغروب ... حتى فى شدة الحر فى رمضان ، واذا ضجوا من الحر والعطش أمرهم مشد العمارة بالشرب ، وأحضر لهم السقاء ليسقيهم !

وظن أكثر الناس أن هذه العمائر انما هى لمخدومه ، لأنه لايسمع لشكوى أحد فيه .

واشتد فى هذا التاريخ أمر المساكن بالمدينة ، وضاقت بأهلها لشمول الخراب وكثرة الأغراب وخصوصا المخالفين للملة ، فهم الآن أعيان الناس : يتقلدون المناصب ويلبسون ثياب الأكابر، ويركبون البغال والخيول المسومة والرهوانات ، وأمامهم وخلفهم العبيد والخدم ، وبأيديهم العصى يطردون الناس ويفرجون لهم الطرق ، ويتسرون بالجوارى بيضا وحبوشا ، ويسكنون المساكن العالية الجليلة يشترونها بأغلى الأثمان ، ومنهم من له دار بالمدينة ، ودار مطلة على البحر للنزاهة ، ومنهم من عمر له دارا وصرف عليها ألوفا من الأكياس . وكذلك أكابر الدولة لاستيلاء كل من كان فى خطة على جميع دورها ، وأخذها من أربابها بأى وجه .

وتوصلوا بتقليدهم مناصب البدع الى اذلال المسلمين لأنهم يحتاجون الى كتبة وخدم وأعوان ، والتحكم فى أهل الحرفة بالضرب والشتم والحبس من غير انكار ، ويقف الشريف والعامى بين يدى الكافر ذليلا . فضاقت بالناس المساكن ، وزادت قيمتها أضعاف الأضعاف ، وأبدل لفظ الريال ، الذى كان يذكر فى قيم الأشياء ، بالكيس وكذلك الأجر . والأمر فى كل شىء فى الازدياد ، والله لطيف بالعباد .

ولو أردنا استيفاء بعض الكليات فضلا عن الجزئيات لطال المقال وامتد الحال .

وعشنا ومتنا ما نرى غير مانرى
تشابهت العجما وزاد انعجامها

نسأل الله حسن اليقين وسلامة الدين .

المحرم

في أوائله (النصف الأول من أكتوبر ١٨٢٠ م) :

حضر الباشا من الاسكندرية .

وفيه من الحوادث : أن الشيخ ابراهيم — الشهير بباشا — المالكي بالاسكندرية ، قرر في درس الفقه أن ذبيحة أهل الكتاب في حكم الميتة لا يجوز أكلها ، وما ورد من اطلاق الآية فانه قبل أن يغيروا ويبدلوا في كتبهم . فلما سمع فقهاء الثغر ذلك أنكروه واستغربوه ، ثم تكلموا مع الشيخ ابراهيم المذكور وعارضوه . فقال : « أنا لم أذكر ذلك بفهمي وعلمي ، وانما تلقيت ذلك عن الشيخ علي الميلي المغربي ، وهو رجل عالم متورع موثوق بعلمه » .

ثم انه أرسل الى شيخه المذكور بمصر يعلمه بالواقع . فألف رسالة في خصوص ذلك ، وأطنب فيها : فذكر أقوال المشايخ والخلافات في المذاهب ، واعتمد قول الامام الطرطوشي في المنع وعدم الحل ، وحشا الرسالة بالحط على علماء الوقت وحكامه — وهي نحو الثلاث عشرة كراسة — وأرسلها الى الشيخ ابراهيم . فقرأها على أهل الثغر ، فكثر اللغط والانكار ... خصوصا وأهل الوقت أكثرهم مخالفون للملة ، وانتهى الأمر الى الباشا ، فكتب مرسوما الى كتخدا بيك بمصر ، وتقدم اليه بأن يجمع مشايخ الوقت لتحقيق المسألة ، وأرسل اليه بالرسالة أيضا المصنفة . فأحضر كتخدا بيك المشايخ وعرض عليهم الأمر ، فلطف الشيخ محمد العروسي العبارة ، وقال : « الشيخ علي الميلي رجل من العلماء تلقى عن مشايخنا ومشايخهم ، لا ينكر علمه وفضله ، وهو منعزل عن خلطة الناس ... الا أنه حاد المزاج ، وبعقله بعض خلل ، والأولى أن نجتمع به ونتذاكر في غير مجلسكم وننهي بعد ذلك الأمر اليكم » .

فاجتمعوا في ثاني يوم ، وأرسلوا الى الشيخ علي يدعونه للمناظرة ، فأبى عن الحضور ، وأرسل الجواب مع شخصين من مجاوري المغاربة يقولان : « انه لا يحضر مع الغوغاء ، بل يكون في مجلس خاص يتناظر فيه مع الشيخ محمد بن الأمير ، بحضرة الشيخ حسن القويسني والشيخ حسن العطار فقط ، لأن ابن الامير يناقشه ويشن عليه الغارة » .

فلما قال ذلك القول ، تغير ابن الأمير وأرعد وأبرق ، وتشاتم بعض من بالمجلس مع الرسل . وعند ذلك أمروا بحبسهما في بيت الأغا ، وأمروا الأغا بالذهاب الى بيت الشيخ علي واحضاره بالمجلس ... ولو قهرا عنه . فركب الأغا وذهب الى بيت المذكور فوجده قد تغيب ، فأخرج زوجته ومن معها من البيت ، وسمر البيت ! فذهبت الى بيت بعض الجيران . ثم كتبوا عرضا محضرا وذكروا فيه بأن الشيخ عليّ على خلاف الحق ، وأبى عن حضور مجلس العلماء والمناظرة معهم في تحقيق المسألة ، وهرب واختفى لكونه على خلاف الحق ، ولو كان على الحق ما اختفى ولا هرب ... والرأى لحضرة الباشا فيه اذا ظهر ،

وكذلك فى الشيخ ابراهيم باشا السكندرى . وتمموا العرض ، وأمضوه بالختوم الكثيرة ، وأرسلوه الى الباشا .

وبعد أيام أطلقوا الشخصين من حبس الأغا ، ورفعوا الختم عن بيت الشيخ على ، ورجع أهله اليه : وحضر الباشا الى مصر فى أوائل الشهر ورسم بنفى الشيخ ابراهيم باشا الى بنى غازى . ولم يظهر الشيخ على من اختفائه .

صفر

فى أوائله (النصف الأول من نوفمبر ١٨٢٠ م) :

حضر ابراهيم باشا من الجهة القبلية بعد ماطاف الفيوم أيضا ، وأحضر معه جملة أشخاص قبض عليهم من المفسدين من العربان ، وهم فى الجنازير الحديد ، وشقوا بهم البلد ثم حبسوهم .

ربيع الأول

فى أوائله (النصف الأول من ديسمبر ١٨٢٠ م) :

حضر نحو العشرة أشخاص من الأمراء المصرية البواقى فى حالة رثة وضعف وضيم واحتياج واجتياح . وكانوا أرسلوا وطلبوا الأمان وأجيبوا الى ذلك .

وفيه : أشهروا العربان الذين أحضرهم ابراهيم باشا معه وقتلوهم وهم أربعة : اثنان بالرميلة ، واثنان بباب زويلة .

ربيع الآخر

السبت غرته (٦ يناير ١٨٢١ م) :

أخرج الباشا عبد الله بيك الدرندلى منفيا . وكان عبد الله بيك هذا يسكن بخطة الخرنفش ، وهو رجل فيه سكون ، قليل الأذى ، وملك بتلك الناحية دورا وأماكن ، وله عزوة وعساكر وأتباع ، وكان يجلس بحضرة الباشا وينادمه ويتوسع معه فى الكلام والمسامرة .

وسبب تغير خاطر الباشا عليه ، أنه جرى ذكر على باشا تبدلان الأرنؤودى وحروبه ومخالفة العساكر عليه ، فقال عبد الله المذكور : « ان العساكر يرون محاربة السلطان معصية » أوكلاما هذا معناه . فتغير وجه الباشا من ذلك القول ، ويقال انه أمر بقتله ، فشفع فيه حسن باشا طاهر من القتل وأن يخرج منفيا . هكذا أشيع واستفيض ، وانضم الى ذلك أنه قال لشريف بيك أمين الخزنة عند تأخر علوفته : « خدمة نصرانى أحسن من خدمتكم » مع المشاجرة . فبلغها شريف بيك للباشا أيضا ، وأوغر صدره عليه . ودفع له الباشا علوفته وثمن ما حازه من الأماكن والأملاك ، ووصله ذلك على عدة جمال محملة بالدراهم .

وسافر فى ثامنه على طريق البر ، وأبقى حريمه وأثقاله ليأتوه على سفن البحر .

الاحد ١٦ منه (٢١ يناير ١٨٢١ م) :

أمر الباشا بقراءة صحيح البخارى بالجامع الأزهر . فاجتمعوا فى يوم الاثنين سابع عشره ، وقرأوا فى الأجزاء على العادة ضحوة النهار أربعة أيام ، آخرها الخميس ، وفرقوا على أولاد المكاتب دراهم ، وكذلك على مجاورى الأزهر ، فى نظير قراءة البخارى .

جمادى الأولى

(٤ فبراير — ٥ مارس ١٨٢١ م)

فيه : حضر ابراهيم باشا ، ونزل بقصره الجديد ... بل قصوره ، لأنه أنشأ عدة قصور متصلة وبساتين ومصانع متصلة متسعة مزخرفة : منها قصر لديوانه ، وقصر لحريمه ، وقصر لخصوص عباس باشا ابن أخيه ، وغير ذلك .

جمادى الآخرة

الثلاثاء غرته (٦ مارس ١٨٢١ م) :

عزم ابراهيم باشا على اعادة قياس أراضى قرى مصر ، وأحضر من بلاد الصعيد عدة كبيرة من القياسين نحو الستين شخصا .

السبت ٥ منه (١٠ مارس ١٨٢١ م) :

عدى الى الجيزة تجاه القصور ، وجمع القياسين والمهندسين وكذلك مهندسى الأفرنج ، وقاس كل قياسته وكيفية عمله . فعاند المعلم غالى وأحب تأييد أهل حرفته من قياسى القبط ، وقال كل منهم على الصحيح . وعلم ابراهيم باشا أن قياس المهندسين وأرباب المساحة أصح ولكن فيها بطء ، فقال : « أريد الصحيح ولكن مع السرعة » بعد أن عمل امتحانا ومثالا فى قطعة من الأرض يظهر بها برهان الصحة والتفاوت .

وأمسى الوقت فأمرهم بالذهاب والرجوع يوم الخميس الآتى ، فحضروا كذلك واشتغلوا يومهم بالعمل الى آخر النهار ، ثم اختار من مهندسى الأقباط طائفة وطرد الآخرين .

الاثنين ١٤ منه (١٩ مارس ١٨٢١ م) :

سافر الى ناحية شرق اطفيح ، وأخذ من المهندسخانة كبيرها وصحبته سبعة عشر شخصا ، وكذلك أشخاصا من الافرنج المهندسين . وانتقصوا من القصبة فى هذه المرة مقدار قبضة .

رجب

فى غرته (٤ ابريل ١٨٢١ م) :

سافر مماليك الباشا الى جهة أسيوط مثل العام الماضى ليكرتنوا هناك حذرا وخوفا عليهم من حدوث الطاعون بمصر .

١٧ منه (٢٠ ابريل ١٨٢١ م) :

ارتحل محمد بيك الدفتردار مسافرا الى دارفور ببلاد السودان ، بعد أن تقدمه طوائف كثيرة ، عساكر أتراك ومغاربة .

٢٥ منه (٢٨ ابريل ١٨٢١ م) :

أمر الباشا بنفى محمد ، المعروف بالدرويش ، كتخدا محمود بيك ، الذى هو الآن كتخدا بيك ، والسيد أحمد الرشيدى كاتب الرزق ، وسليمان أفندى ناظر المدابغ والجلود ... ثلاثتهم الى قلعة أبى قير لمقتضيات واهية فى خدم مناصبهم . ومحمد كتخدا كان ناظرا على الجلود فى العام الماضى قبل سليمان افندى المذكور .

اواخره (أوائل مايو ١٨٢١ م) :

حضر جماعة من المماليك المصرية الذين كانوا بدنقلة ، فيهم ثلاثة صناجق : أحدهم أحمد بيك الألفى ، وهو زوج عديلة هانم بنت ابراهيم بيك الكبير .

شعبان

الجمعة ٨ منه (١١ مايو ١٨٢١ م) :

عمل سليمان أغا السلحدار الجمعية بالجامع المعروف بالأحمر ، وكان قد تخرب ولم يبق به الا الجدران ، فتصدى لعمارته سليمان أغا المذكور وسقفه أيضا بأفلاق النخيل والجريد والبوص ، وأقام له عمدا من الحجارة ، وجدد منبره وبلاطه وميضأته ومراحيضه ، وفرشه بالحصر وعمل به الجمعية فى ذلك اليوم . واجتمع به عالم كثيرون من الناس ، وخطب على منبره الشيخ محمد الأمير .

وبعد انقضاء الصلاة قرأ درسا ، وأملى فيه حديث « من بنى لله مسجدا ... » . وبعد انقضاء ذلك خلع عليه فروة وكذلك على الشيخ العروسى ، وعمل لهم شربات سكر .

السبت ٢٣ منه (٢٦ مايو ١٨٢١ م) :

حضر ابراهيم باشا من ناحية شرق اطفيح .

الثلاثاء ٢٦ منه (٢٩ مايو ١٨٢١ م) :

سافر بمن معه الى ناحية شرقية بلبيس .

رمضان

فى غرته (٢ يونية ١٨٢١ م) :

عملت الرؤية فى تلك الليلة كالعادة ، وركب فيها مشايخ الحرف والمحتسب . وأثبتوا رؤية الهلال تلك الليلة بعد مضى أربع ساعات من الليل ، ولم يحصل فيه من الحوادث غير تغالى الأثمان وتعاليها بسوء فعل السوقة ، واظهار ردىء المأكولات واخفاء جيدها . وقد انقضى بخير .

شوال

٣ منه (٤ يولية ١٨٢١ م) :

حضرت هجانة من أراضى نجد ، وبصحبتهم أشخاص من كبار الوهابية مقيدون على الجمال وهم: عمر بن عبدالعزيز وأولاده وأبناء عمه . وذلك أنهم لما رجعوا الى الدرعية بعد رحيل ابراهيم باشا وعساكره ، وكان معهم مشارى ابن سعود ، وقد كانوا هربوا فى الدرعية بعد ما رحل عنها ابراهيم باشا ، وتركى بن عبد الله ابن أخى عبدالعزيز وولد عم سعود الأمشارى ، فانه هرب من العسكر الذين كانوا مع أولاد سعود وجماعتهم حين أرسلهم ابراهيم باشا الى مصر — فى الحمراء — وهى قرية بين الجديدة وينبع البحر — وذهب الى الدرعية ، واجتمع عليه من فر حين قدمت العساكر ، وأخذوا فى تعميرها ، ورجع أكثر أهلها ، وقدموا عليهم مشارى ، ودعا الناس الى طاعته فأجابه الكثير منهم ، فكادت تتسع دولته وتعظم شوكته .

فلما بلغ الباشا ذلك ، جهز له عساكر ، رئيسها حسين بيك ، فأوثقوا مشارى وأرسلوه الى مصر ، فمات فى الطريق . وأما عمر وأولاده وبنو عمه فتحصنوا فى قلعة الرياض ، المعروفة عند المتقدمين بحجر اليمامة ، وبينها وبين الدرعية أربع ساعات للقافلة . فنزل عليهم حسين بيك وحاربهم ثلاثة أيام أو أربعة ، وطلبوا الأمان لما علموا أنهم لا طاقة لهم به ، فأعطاهم الأمان على أنفسهم ، فخرجوا له ... الا تركى فانه خرج من القلعة ليلا وهرب . وأما حسين بيك فانه قيد الجماعة وأرسلهم الى مصر فى الشهر المذكور . وهم الآن مقيمون بمصر بخطة الحنفى قريبا من بيت جماعتهم الذين أتوا قبل هذا الوقت .

ذو القعدة

فى غرته (٣١ يولية ١٨٢١ م) :

حضر ابراهيم باشا من سرحته بالشرقية بسبب قياس الأراضى والمساحة .

١٥ منه (١٤ اغسطس ١٨٢١ م) :

سافر الباشا الى الاسكندرية لداعى حركة الأروام وعصيانهم وخروجهم عن الذمة ، ووقوفهم بمراكب كثيرة العدد بالبحر ، وقطعهم الطريق على المسافرين، واستئصالهم بالذبح والقتل ... حتى انهم أخذوا المراكب الخارجة من اسلامبول وفيها قاضى العسكر المتولى قضاء مصر ومن بها أيضا من السفار والحجاج ، فقتلوهم ذبحا عن آخرهم ، ومعهم القاضى وحريمه وبناته وجواريه .. وغير ذلك .

وشاع ذلك بالنواحى ، وانقطعت السبل . فنزل الباشا الى الاسكندرية ، وشرع فى تشهيل مراكب مساعدة للدونانمة السلطانية — وسيأتى تتمة هذه الحادثة — وبعد سفر الباشا ، سافر أيضا ابراهيم باشا الى ناحية قبلى قاصدا بلاد النوبة .

ذو الحجة

في غرته (٣٠ أغسطس ١٨٢١ م) :

خرجت عساكر كثيرة ومعهم رؤساؤهم ، وفيهم محو بيك ومغاربة وآلات الحرب كالمدافع وجبخانات البارود واللغمجيه وجميع اللوازم ، قاصدين بلاد النوبة وما جاورها من بلاد السودان .

وفيه : سافر أيضا محمد كتخدا لاظ المنفصل عن الكتخدائية الى اسنا ، ليتلقى القادمين ويشيع الذاهبين .

وفيه : وصلت بشائر من جهة قبلي باستيلاء اسماعيل باشا على سنار بغير حرب ، ودخول أهلها تحت الطاعة . فضربت لتلك الأخبار مدافع من القلعة .

* * *

وانقضت هذه السنة وما تجدد بها من الحوادث ، انقضى بعضها والبعض باق الى الآن .

فمنها : توقف زيادة النيل . وذلك أنه لم يستتم أذرع الوفاء الى ثامن عشر مسرى القبطى ، حتى ضجر الناس ، وضج الفلاحون .

ومنها : أمر المعاملة التى زادت زيادة فاحشة ، حتى بلغ البندقى ألفا ومائتى نصف ، والمجر والفندقلى عشرين قرشا عنها ثمانمائة نصف ، وبلغ صرف الريال الفرانسة أربعة عشر قرشا عنها خمسمائة نصف وستون نصفا ... وقس على ذلك باقى الأصناف .

ومنها : غلو الأثمان فى جميع المبيعات من ملبوسات ومأكولات والغلال حتى وصل الأردب الى ألف وخمسمائة نصف ، والرطل السمن الى خمسين نصفا والى ستين نصفا ، وقس على ذلك

وأما حادثة الأروام التى هى باقية الى الآن وما وقع منهم من الافساد وقطع الطريق على المسافرين ، واستيلاؤهم على كل من صادفوه من مراكب المسلمين ، وخروجهم عن الذمة وعصيانهم وما وقع معهم من الوقائع وما سينتهى حالهم اليه فسيتلى عليك ان شاء الله تعالى بكماله فى الجزء الآتى بعد ذلك .

والله الموفق للصواب ، واليه المرجع والمآب .

الى هنا انتهى مانقل من خط العلامة الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ حسن الجبرتى مؤرخ هذه المدة وما قبلها ، لغاية هذا التاريخ سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ — ١٨٢١ م) .
وبعده توفى الشيخ ، ولم يكتب شيئا . رحمه الله .

خاتمة

تاريخ حياة الجبرتي

بقلم الأستاذ محمود الشرقاوي

ينتسب الجبرتى وأسرته الى « جبرت » ، وهى اقليم الزيلع الاسلامى فى شمال بلاد الحبشة . وقد كتب الجبرتى ، عند الكلام على وفاة والده ، فصلا عن وطنه وصفات أهله ، وما فيهم من الحذق والفطانة ، ولطافة الطباع ، وصفاء القلوب ، وما عند نسائهم من الصباحة والملاحة ، والفصاحة والسماحة ، وذكر فى نساء وطنه شعرا لطيفا .

نزح الجد السابع للجبرتى ، واسمه عبد الرحمن ، من جبرت الى جدة فى أوائل القرن العاشر ، ثم الى مكة فجاور بها ، وحج مرارا ، ثم جاور بالمدينة سنتين ، ولقى من بالحرمين من كبار الشيوخ . ثم ارتحل الى مصر ، واستقر بها ، وتزوج وولد له وكبر شأنه ، واتصل بالعلماء حتى اختير شيخا لرواق الجبرت . وقد ظلت مشيخة الرواق ثلاثة قرون يتولاها أولاد الشيخ عبد الرحمن هذا حتى انتقلت عنهم بوفاة الجبرتى . وتزوج الجد الخامس للجبرتى ، الشيخ على ، زينب بنت الامام القاضى عبد الرحمن الجوينى ، فلما ماتت تركت لولدى الشيخ « أماكن جارية » وقفتها عليهما .

ومات أبو حسن ، والد الجبرتى ، وعمره ست عشرة سنة ، وعمر ولده شهر واحد ، فكفلته جدته أم أبيه ، وتولت أمه تربيته وجعل وصيا عليه الشيخ محمد النشرتى الذى اختاره شيخا للرواق كأسلافه .

وكانت ولادة الشيخ حسن فى سنة ١١١٠ هـ (١٦٩٨ م) . وللشيخ محمد النشرتى ، وكان شيخا للأزهر ، كثير من الفضل فى تربية حسن الجبرتى ، وكذلك لجدته لأبيه أكبر الفضل فى تهيئة سبيله الى تلك المكانة الممتازة التى بلغها ، فقد كانت سيدة ذات ثراء ، لها بيت يشرف على النيل بربع الخرنوب . أقام معها فيه حسن فترة من الزمن يغدو منه ويروح الى الجامع الأزهر ومعه خادم . ثم احترق هذا المنزل واحترقت معه « أشياء كثيرة من المتاع والصينى القديم » .

وانتقلت الجدة الى مصر ، وكان يذهب معها الى مكان لها بمصر العتيقة فى أيام النيل « بقصد النزهة » وهى التى أعانته على طلب العلم ، وأنفقت عليه بسخاء . وكانت لها أملاك وعقارات ، وقفت عليه منها وكالة بالصنادقية وما حولها من الحوانيت ، وأخرى بالغورية ومرجوش ، ومنزلا بجوار المدرسة الآقبغاوية . ووقفت أيضا على وجوه البر .

وتزوجت جدته هذه ، بعد وفاة زوجها ، بالأمير على آغا الطورى ، وكان حاكما على قلاع الطور والسويس والمويلح ، وكذلك تزوج الشيخ حسن ابنة الأمير على آغا هذا .

ولما مات على آغا نصب الشيخ حسن مكانه فى حكم هذه القلاع . وكان هذا العمل غريبا عليه — وهو من العلماء — ولذلك لم يطل شغله له . فقد أرسل خادما له يسمى سليمانا الحصافى مشرفا علي قلعة مويلح فقتل هناك ، فتكدر الشيخ وترك هذا العمل ، وأقبل على الاشتغال بالعلم والتفرغ له . وماتت زوجه ، بنت على آغا ، فتزوج بنت

رمضـــان جلبى بن يوسف المعروف بالخشـــاب ، « وهم بيت مجـد وثروة ببولاق ، ولهم أمـلاك وعقارات وأوقاف » . وكان رمضان جلبى هـــذا مع ثروته ، « انسانا حسنا رقيق الحاشية » ، يقول الشعر ويقتنى الكتب .

ومات رمضان جلبى فى ســنة ١١٣٩ ، وبقيت ابنته فى عصمة الشيخ حسن حتى ماتت سنة ١١٨٢ عن ستين سنة . وكانت بنت رمضان جلبى هـــذه زوجا بارة بوالد الجبرتى مطيعـــة له ، تشترى له الجوارى الحسان ، من مالهـــا ، وتزينهن بالحلى والملابس ، وتقدمهن اليه ، وتعتقـد أن فى ذلك مثوبة لها . وكان يتزوج عليها كثيرا من الحرائر ، ويشترى الجوارى ، فلا تتأثر بذلك ، ولا تتحرك عندها الغيرة .

وقد روى الجبرتى عن زوج أبيه هـــذه قصـة غريبة ، خلاصتها أن زوجها عندما حج فى ســنة ١١٥٦ ، اجتمع به فى مكة شيخ إسمه عمر الحلبى ، وأوصاه بشراء جارية بيضاء دون البلوغ ، وذكر له أوصافا يرغبها . فلما جاء الشيخ حسن من الحج ظل يبحث عن طلب صـديقه حتى لقيـــه ، فلمـــا اشترى الجارية وأدخلها عند زوجه وحان موعـــد رحيلها للشيخ عمر الحلبى ، قالت زوج الشـيخ له : انى أحببت هذه الجارية ولا أقدر على فراقها ، وليس لى أولاد ، وقد جعلتها مثل ابنتى ، وبكت الجارية أيضـــا . ثم دفعت الزوج ثمن الجـــارية ليشترى به أخرى للشيخ الحلبى ثم أعتقت الجارية وعقدت لزوجها عليها ، وجهزتها وفرشت لها مكانا مستقلا ... وكانت لا تقدر على فراقها ســاعة . وولدت الجارية لزوجها أولادا فزاد حب سيدتها لها . وبقيت هذه الجارية زوجا للشـيخ حسن من سنة ١١٦٥ الى أن مرضت فى سنة ١١٨٢ . فمرضت ســيدتها لمرضها ، وثقل عليهما المرض ، وقامت الجارية تنظر الى مولاتها وهى فى غيبوبة ودعت الله أن تموت قبلها . واستيقظت السيدة فى آخر الليل ووضعت يدها على جسد جاريتها وضرتها النائمـة بجوارها وأخذت تناديها باسمها : زليخا ! زليخا ! فقالوا لها انها نائمة . فقالت : ان قلبى يحـدثنى أنها ماتت .

فلما تحقق لها ذلك جلست تبكى أحر بكاء . ثم استلقت على فراشها ، وماتت بعد جاريتها بيــوم واحـد ! ويقول الجبـرتى : « وهـــذا من أعجب ماشـــاهدته ورأيته ووعيته ، وكان سنى اذ ذاك أربع عشرة سنة » .

والد الجبرتى

وكان الشيخ حسن الجبرتى عالما من أكبر علماء عصره فى العلوم الشرعية والرياضة . تعلم الخط فأجاده ، والنقش على فصوص الخاتم فأحكمه ، وتعلم اللغـــة التركية — وهى لغة أهل الســـيادة والحكم — واللغة الفارسية فأجادهما ، « حتى ان كثيرا من الأعاجم والأتراك يعتقدون أن أصـله من بلادهم ، لفصاحته فى التكلم بلسانهم ولغتهم » ثم اشتغل بالعلوم الرياضية فأتقن منهـــا الفلك ، والهندسة ، والحساب ، والجغرافيا ، والمساحة ، والأوفاق ، وحـــل الرموز ، وفتح الكنـــوز ، و « انتهت اليه الرياسة فى الصناعة ، وأذعنت له أهل المعرفة بالطاعة » .

ونزل القاهرة عالم متضلع فى الرياضة والحكمة والفلسفة — اسمه الشيخ حسام الدين الهندى — واستقر فى مسجد بمصر القديمة ، فقصده الشيخ ، وأعجب كلاهما بصاحبه وأحبه . فلم يزل بالشيخ الهندى حتى نقله الى داره ، وأفـــرد له مكانا ، وأكرم نزله ، وأنفق عليه . وظل مقيماً عنده حتى رحل الى بلاده .

وأخذ معارف الصوفية على الشيخ العارف عبد

الخالق بن وفاء ، وكانت له فيها قدم ، وسلك طريق السادة النقشبندية ، وحفظ القرآن فى العاشرة .

وقد تلقى الشيخ حسن عن كبار الشيوخ فى عصره ، فى مصر وغيرها . فمن شيوخه : الشيخ على الصعيدى ، وعلى افندى الداغستانى ، والشيخ عبد ربه سليمان بن أحمد القشتالى الفاسى ، والشيخ عبد اللطيف الشامى ، والشيخ عمر الحلبى ، والشيخ حسين عبد الشكور المكى ، وحسن أفندى قطة مسكين ، والشيخ مصطفى العيدروسى ، والشيخ محمد البنوفرى ، وغيرهم كثير . وكان أول شيوخه — وهو فى الثالثة عشرة — الشيخ حسن الشرنبلالى الصغير . وكذلك تلقى عن الشيخ كبار العلماء طبقة بعد طبقة . فمنهم الشيخ أحمد الراشدى ، والشيخ ابراهيم الحلبى ، والشيخ أحمد العروسى ، والشيخ محمد الصبان ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد النفراوى . وتلقى عنه عدد كبير من أهل الروم والشام والمغرب والحجاز والداغستان . وتلقى عنه بعض أمراء المماليك أيضا علوم الأدب والفقه ، فقد ذكر الجبرتى فى ترجمة عثمان بك ذى الفقار أنه « قرأ على الشيخ الوالد تحفة الملوك فى المذهب ، والمقامات الحريرية ، وكتبها له بخطه الحسن فى خمسين جزءا » .

وكان والد الجبرتى يدرس فى الأزهر علوم الحكمة والهيئة والهندسة والتوقيت ، وهو آخر من درسها فيه .. وكانت له ثلاثة بيوت يتنقل بينها : بيت فى الأبزارية على شاطىء النيل ، وبيت فى بولاق ، وآخر بالصنادقية بجوار الأزهر . فكان طلابه وتلامذته يقصدون اليه فى بيته لتلقى الدرس . وكان يفضل أن يكون ذلك ببيت الصنادقية كى لا يشق عليهم . وكان بعض تلامذته هؤلاء يقيم فى بيته طاعما كاسيا ليتعلم ويراجع ما يشاء فى مكتبة الشيخ العامرة ، التى جعلها مباحة ميسرة لمن يشاء القراءة والمراجعة والاستفادة . وكان ألصق هؤلاء به الشيخ محمد النفراوى ، والشيخ محمد الصبان ... فقد كانا بمنزلة أولاده لا يفارقانه الا وقت القاء دروسهما . وكان اذا آتاه طالب فرح به ، وأقبل عليه ، ورغبه فى طلب العلم ، وأكرمه ، وخصوصا اذا كان غريبا ، وربما دعاه للاقامة عنده ، كما فعل مع الشيخ حسام الدين الهندى ، وكما فعل مع الشيخ محمد الغلانى الكشناوى الذى قدم الى مصر ثم الى الحجاز ، فلما عاد منه أنزله عنده هو وزوجه وعبيده وجواريه ، وبقى مقيما عنده حتى أتم غالب مؤلفاته ، ومات وهو ضيف عليه . ومن التلاميذ من أقام فى بيت الشيخ الجبرتى عشرين عاما « لا يتكلف الى شىء من أمر معاشه ، حتى غسل ثيابه ، من غير ملل ولا ضجر » ، وصار من جملة عيال الشيخ .

وكان الشيخ كذلك كبير القدر ، جليل المكانة ، واسع الثراء ، طيب العيش . له فى كل بيت من بيوته الثلاثة : المماليك ، والعبيد ، والجوارى البيض والسود ، وهو يتنقل بين هذه البيوت ، ومعه تلامذته وأصحابه ... ليباسط أخصاءه منهم ويمازحهم . فلم يكن ، كبعض العلماء ، متعنتا متزمتا . كان يروح عن جلسائه من هؤلاء الخاصة بالمناسبات والنوادر والأدبيات والشعر والمواليا والمجونيات والخطابات اللطيفة والنكات الظريفة ، ويذهب معهم الى مواطن النزهة ... يشتغلون بالعلم ومطارحة المسائل ، وأحيانا بالمباسطة والمفاكهة . وكان ، مع ذلك ، وقورا محتشما ، مهيبا محبوبا ، لا يعادى ولا يخاصم ، ولا يشتغل بأمور الدنيا ، متواضعا قنوعا ، مقبلا على الكبير والصغير على سجيته ، ولا يدعى علما ولا مشيخة ، ولا يرضى أن تقبل يده ، حتى من تلاميذه ، له منزلة كبيرة عند الأمراء والولاة والأعيان ، يزورهم ويزورونه ، ويتشفع به اليهم الناس فتقضى حاجاتهم . وكان

من أصدقائه من ولاة مصر : على باشا الحكيم ، وراغب باشا ، وأحمد باشا كور — أى الأعور — ومن أمراء المماليك عثمان بك ذو الفقار ، حج معه ثلاث مرات من ماله الخاص ، ولم يقبل من عثمان بيك — وكان أميرا على الحج — سوى الهدايا .

وأراد الأمير ابراهيم كتخدا أن يشترى له دارا واسعة أو يبنيها ، بدلا من داره التى بالصنادقية ، فلم يقبل ، وكذلك عبد الرحمن كتخدا . ولم يستطع أحدهما أن يجبره على ذلك لمكانته وفضله . وراسله سلطان تركيا ، السلطان مصطفى (١) وأرسل اليه الهدايا والصلات والكتب ... وكانت لهذا السلطان معرفة وعناية بعلوم الرياضة والنجوم . وكذلك أهديت للشيخ الهدايا من ولاة تونس ، والجزائر ، وأكابر الدولة فى تركيا . يذكر الجبرتى ، فى حوادث شهر شوال من سنة ١١٨٢ ، أن على بيك الكبير أرسل هدية حافلة وخيولا مصرية ، الى السلطان ورجال الدولة ، وكتب مع هدنته رسائل ، « والتمس من الشيخ الوالد أن يكتب له أيضا مكاتبات ، لما يعتقده من قبول كلامه واشارته عندهم » . وقد طلب على بيك فى رسائله تلك عزل عثمان بيك العظم من ولاية الشام . وكان على بيك الكبير صديقا للشيخ ، كبير الثقة فيه ، كثير المحبة له .

وفى ترجمة الأمير أحمد البارودى — وفيات سنة ١١٨٨ — أنه كان يزور الشيخ حسن الجبرتى فى بيته كل يوم جمعة ، وأنه التقى به مرة فى الطريق ، وهو راكب فى أبهته ، والشيخ راكب على بغلته ، فعندما رآه نزل عن جواده ، وقبل يده ، فأكبر الشيخ ذلك ، واستحى منه واستعظمه . والتمس من الأمير أن يقيد به بعض الطلبة ليقرئه شيئا من الفقه والدين ، فقيد به الشيخ عبد الرحمن العريشى ، الذى تولى مشيخة الأزهر فيما بعد .

وكان الشيخ حسن محبا للكتب جماعا لها ، يبذل فى اقتنائها المال الكثير ، فكانت داره عامرة بالكتب النادرة وبعضها باللغة التركية والفارسية ، مثل الشاهنامة وتواريخ العجم (٢) ، وفيها آلات فلكية وهندسية . وأفرد فى بيته مكانا خاصا جمع فيه الكتب المتداولة بين علماء عصره فى الفقه والحديث والتفسير والتوحيد والمنطق واللغة وغيرها ، فكان العلماء والطلاب يجيئون هذا المكان ويأخذون ما يشاءون من الكتب بغير استئذان ، وكان منهم من يأخذ الكتاب ولا يرده ، ومنهم من يأخذ كتابا ويرد غيره ... والشيخ سمح لا يمنع . وكانت عنده أيضا « التشاويه والتصاوير البديعة الصنعة ، الغريبة الشكل . وكذلك الآلات الفلكية من الكرات النحاس ، وآلات الارتفاع والمينالات والأرصاد والأسطرلابات والأرباع والعدد الهندسية ، وأدوات غالب الصناع ، مثل النجارين والخراطين والحدادين والسنكرية والمجلدين والنقاشين والصاغة والرسامين » ، وكان يجمع الحاذقين من أهل هذه الصناعات عنده ليتعلم منهم ويعلمهم ، حتى تعلم خدمه بعض هذه الصناعات فصاروا « يقطعون البلاط بالمناشير ويسحونه بالماسح الحديد والمبارد ، ويهندسون اعتداله بالمساطر والقياسات بالبياكير ، ويرسمونه أيضا » .

ولما كثر عنده الراغبون فى تعلم هذه الصناعات جعل لهم معلمين يعلمونهم . كان الطالب من أبناء العرب يتقيد بالشيخ محمد النفراوى ، وان كان من الأعاجم تقيد بمحمود أفندى النيش . وانصرف هو بعد ذلك الى دراسة الفقه والفتوى ، وكان

(١) تولى السلطنة سنة ١١٧١ ومات فى سنة ١١٨٧ (١٧٥٧ - ١٧٧٣ م) .

(٢) كان فى خزانة كتبه كتاب زيج الراصد السمرقندى باللغة الفارسية ، وكان يقول انه ليس فى الدنيا من هذا الزيج سوى ثلاث نسخ ، ونسخته مكتوب عليها بخط رستم شاه أنها جربت لدار سلطنة هراة بألفى عشر الف دينار .

اماما فى مذهب أبى حنيفة ، وقد رسم بنفسه كثيرا من المنحرفات والمزاول على الرخام والبلاط ونصبها فى مساجد كثيرة ... كالأزهر ، والامام الشافعى ، وقوصون ، والأشرفية ، والسادات .

وتجاوزت شهرة الجبرتى حدود مصر والبلاد الاسلامية ، فحضر اليه طلاب من الافرنج — فى سنة ١١٥٩ — ليتعلموا عنده علم الهندسة ، وأهدوا اليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة ، ثم « ذهبوا الى بلادهم ، ونشروا بها ذلك العلم ، وأخرجوه من القوة الى الفعل » . وصنعوا به طواحين الهواء ، وآلات جر الأثقال واستنباط المياه .

واشتغل الشيخ حسن الجبرتى أيضا بعلوم الطب ، وكان يضع خبرته فى ذلك لخير الناس ونفعهم . كان الشيخ ابراهيم الصيحانى الغزى ، مفتى الحنفية فى غزة ، من تلاميذه فى الأزهر . فلما عاد الى بلده كان يرسل الى شيخه فى كل سنة « جانبا من اللوز المر فى غلق ، مقدار عشرين رطلا ، فنخرج منه دهنه ونرفعه فى الزجاج لنفع الناس فى الدهن معالجات بعض الأمراض والجروحات » .

وفى سنة ١١٧٢ كان فساد الموازين قد أصبح مشكلة كبرى للناس وللحكام فى مصر ، فاشتغل الشيخ باصلاحها ، وأحضر الصناع لذلك من الحدادين والسباكين ، وحرر المثاقيل الصنج ، ورسمها على أصولها وهندستها .

وأنفق فى ذلك أموالا من عنده ، ثم أحضر كبار البانية والوزانين وعرفهم طريق الصواب ، وأصلحوا آلتهم ، واستمر العمل فى ذلك أشهرا ، ثم ألف لهم فى ذلك كتابا سماه « الدر الثمين فى علم الموازين » .

وكان الشيخ أيضا يقول الشعر . وقد أورد الجبرتى من شعر أبيه شيئا قليلا : بعضه فى النحو ، وبعضه فى ذكر من يدخل الجنة من الحيوان ، كناقة صالح ، وعجل ابراهيم ، والحوت والبقرة وغيرها . ومنه شعر فى نظم ساعات النهار ، وبعض نصائح طبية . وكله شعر تافه ثقيل ، كشعر الفقهاء .

أما مؤلفاته — التى دونها ابنه عبد الرحمن — فهى تدل على ثقافته المتنوعة المختلفة . فمن ذلك كتبه : نزهة العين فى زكاة المعدنين ، والأقوال المعربة عن أحوال الأشربة ، وكشف اللثام عن وجوه مخدرات النصف الأول من ذوى الأرحام ، وبلوغ الآمال فى كيفية الاستقبال ، ومؤلفات أخرى فى العروض ، وشرح الدر المختار ، ومناسك الحج ، وتقييدات على العصام والحفيد والمطول والمواقف والهداية ، وحاشية على شرح قاضى زاده على الجغمينى ، وبراهين هندسية شتى ، وغير ذلك .

ومع هذه المكانة المرموقة ، التى بلغها حسن الجبرتى ، وما كان له من جاه ومجد وعلم ، فقد كان متواضعا ، « يجلس فى آخر المجلس على أى هيئة كان ، بعمامة أو بدونها ، ويلبس أى لباس ، ويتحزم ولو بكنار الجوخ ، أو خرقة أو شال كشميرى ، ولا ينام على فراش منهد ، بل كيفما اتفق . وكان أكثر نومه وهو جالس » . وكان شجاعا لا يحب الرياء ، يصوم رجب وشعبان ورمضان ولا يقول انه صائم .

أراد الأمير يوسف الكبير أن يدخل مسجدا فى عمارة بيته ، وسأل الشيخ أن يفتيه بهدمه وبنائه فى مكان آخر ، فمنعه من ذلك .. فامتنع !

وكانت له فى العلم والفتيا مكانة كبيرة . فانكب عليه الناس يستفتونه ، وتقرر فى أذهانهم تحريه الحق ، حتى أن القضاة لا يثقون الا بفتواه . وكان كريما سمح النفس ، يكرم الضيف ، ويتلقف الوافد ، ويراعى الأقارب والأجانب ، بشوشا يخدم جلاسه بنفسه .

قدم مصر الشيخ ابراهيم بن أبى البركات

العباسى المشهور بالسويدى ، فى سنة ١١٧٥ ، فأنزله الشيخ فى بيته ، وصار ينتقل معه ومع تلاميذه الى بولاق وغيرها من المتنزهات ، ثم حل بالسويدى مرض فأنزله ببيته فى بولاق على النيل ، وقيد لخدمته جماعة من عبيده ، فكان كلما اختلى بنفسه ، وهبت عليه نسمات النيل المنعشة ، أخذ القلم ونقش على جدران البيت وأخشابه قصائد المدح فى مضيفه العالم الكريم ، وفى وصف النيل ورياضه وزهوره ، فكتب من ذلك عشرين قصيدة ، ظلت منقوشة فى أماكنها زمنا ثم اندرست .

وكان الشيخ محمد النفراوى قد بلغ النهاية فى العلوم الشرعية ، وأراد أن يتعلم الحكمة والرياضة ، فأحضره والده للشيخ حسن فى سنة ١١٧١ ، فرحب به ، واغتبط بما رأى من حسن استعداده ، وأعطاه مفتاح خزانة منزله ليضع فيها كتبه ومتاعه ، واشترى له حمارا ، ورتب له مصروفا وكسوة . وأرسل الشيخ أحمد الدمنهورى خمسة أسئلة الى على بيك الكبير وقال له : سل فيها العلماء الذين يترددون عليك ان كانوا يزعمون أنهم علماء ، فأعطاها على بيك للشيخ حسن . فكان لبقا حكيما مترفعا حيث قال انها وان كانت من عويصات المسائل يجيب عنها ولدنا الشيخ محمد النفراوى . فمكن — مع لباقته وحكمته وترفعه — لتلميذه أن ينال شهرة ومكانة بين العلماء ، وعند على بيك .

وكانت تقال فى الشيخ المدائح ، فكان ، تواضعا منه ، يقبلها ويجيز قائلها ، ثم يمزقها . وكان ، مع ثرائه العريض ، وما بلغ من مكانة فى العلم ، وفى الحياة ، يشتغل بالتجارة .

وهكذا عاش والد الجبرتى الى أن جاءت سنة ١١٧٩ فتوفى ابنه ، أبو الفلاح على ، أخو الجبرتى لأبيه ، وكان عمره اثنتى عشرة سنة ، وكان الشيخ قد أنجب من زوجاته وسراريه أكثر من أربعين مولودا لم يعش منهم سوى على هذا ، وعبد الرحمن . فلما مات ابنه على ثقل عليه الحزن ، وتوالت عليه الآلام والأمراض ، وترك بيوته على النيل ، ولزم بيت الصنادقية ، وقلت حركته ، ولكنه لم ينقطع عن الاملاء والافادة والتحقيق ، ولم يزل كذلك حتى تعلل بالهيضة الصفراوية اثنى عشر يوما ، ثم مات عن سبع وسبعين سنة فى يوم الثلاثاء غرة صفر من سنة ١١٨٨ (أبريل سنة ١٧٧٤) ، وصلى عليه فى الأزهر بمشهد حافل جدا ، ودفن عند أسلافه بتربة الصحراء ، بجوار الشمس البابلى ، والخطيب الشربينى ، وقيلت فيه المراثى الكثيرة من كبار شعراء العصر .

ذلك هو ، أبو التدانى ، نور الدين حسن الجبرتى ، أبو عبد الرحمن .

عبد الرحمن الجبرتى

أما ابنه ، أبو العزم عبد الرحمن ، صاحب عجائب الآثار ، فقد ولدته احدى السرارى فى سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٤ م) بالقاهرة . ولم أعرف أن التاريخ ذكر لنا عن هذه الجارية شيئا : هل كانت بيضاء أو سوداء ؟ ومن أى جنس أو بلد هى ؟ ولكنى أعتقد أنها كانت بيضاء .

أرسله أبوه ، وهو طفل ، الى مدرسة السنانية ، القريبة من منزلهم بالصنادقية ، ليحفظ فيها القرآن ، فاذا عاد تلقى على أبيه وعلى بعض الشيوخ الذين يترددون على بيته ، بعض العلوم . وأتم حفظ القرآن الكريم فى سن الحادية عشرة ، ثم رغب الشيخ عبد الرحمن العريشى الى أبيه فى أن يلحقه برواق الشوام ، ليلقنه مذهب الحنفية ، فسلمه اليه .

وبادر أبوه فزوجه وهو فى الرابعة عشرة ، فى سنة ١١٨٢ . ولم يذكر لنا التاريخ أيضا عن هذه الزوج شيئا .

وقد سجل شاعر العصر الشيخ عبد الله الادكاوى

هذه الزيجة بقصيدة قدمها الى والد الجبرتى قال فى ختامها وبيت تاريخها :

هـذا هنـاء محبك الـ ـداعى لكم بسمو قدرك
والحـال قـد أرختـه شمس البها زفت لبدرك

وظل عبد الرحمن يتردد على حلقات الشيوخ فى الأزهر بعد ذلك ، ثم يمضى الى بيته فيتلقاه أبوه متحدثا اليه فى التاريخ وأحداث عصره ، فقد كان أبوه محبا للقصص ، والأغانى ، ودارسا معـه ما يشـتغل به الشيخ من علوم الفلك والرياضـة والحكمة . وكذلك كان زوار الشـيخ من كبـار العلماء والشعراء والأمراء يلقاهم الجبرتى الصغير فيتحدثون اليه ويحدثهم ، ويفيد من علمهم وأدبهم وحسن توجيههم ، وتتمكن العـلائق بينـه وبين الأمراء منهم خاصة .

وبقى حاله كذلك حتى مات أبوه ، وهو فى سن الثانية والعشرين ، وترك له ثروة ضـخمة ، مادية وأدبية . ترك له من الثروة المادية بيوته فى بولاق والصنادقية ومصر القديمة ، وأرضا له بالقرب من كفر الزيات فى بلدة « ابيار » ، وأوقافا كبيرة على مسجد بين رشيد والاسكندرية ، على بحيرة ادكو ، تنظر عليها بعد أبيه ، كان أوقفها جده علىّ فى أيام الملك الأشرف قايتبـاى ... وكان الملك الأشرف يعتقد فى هـذا الجد اعتقادا كبيرا . وكذلك كان الجبرتى شيخا على مقبرة الطحاوى بالقرافة .

وكان هـذا الوقف « عـدة أماكن وقيعـان ، وأنوال حياكة ، وبساتين ، ونخيل كثيرة » . وكان بيته على النيل يرتفع عن مسـتوى المـاء عشرين درجة ، وذكر الجبرتى أنه أجـرى عمارة فى بيت الصنادقية ، بدأها فى سنة ١١٩١ ، وأتمها فى السنة الثانية . وأنشأ الشيخ مصطفى الصاوى فى ذلك قصيدة نقشها الجبرتى فى مجلسه من البيت .

وقد جعل الجبرتى من بيته ذاك ، بهذه العمارة ، قصرا أنيقا ، فيه حديقة صغيرة ، وبئر ، ومسـاكن للخدم والعبيد ، وأخرى للضيوف ، وحجرة متسعة للمذاكرة مع الطلبة ، والتدريس . وأقام فيه أعمدة من الرخام المختلف الألوان ، ونقش جدرانه بالخشب المحفور ، والقيشانى الملون ، ونثر فى حجراته الآنية الفاخـرة ، والأرائك الثمينـة ، وفرش أرضهـا بالسـجاجيد الغالية والطراريح الحريرية ، ولبس أبوابه بالصدف والنحاس البراق ، وعلق الثريات من البلور ، وجعل فيه حجرة رحبة للكتب ، وأنفق فى هذه العمارة مالا كثيرا .

وسكن الجبرتى ، فترة من الزمن ، فى بيت يطل على بركة الرطلى . وكانت ، كما يقول ، « يسكنها أهـل الرفاهيـة من أهل البلد ، لطيب هوائهـا وانكشاف الريـح البحرى ، وليس فى برها الآخر سـوى الأشـجار والمزارع ، وتعبرها المـراكب والسفائن » .

أما الثروة الأدبية التي خلفها له أبوه ، فهى تلك المكانة المرموقة ، والمحبة التي ربطت بينـه وبين علماء عصره وأهل الحكم والثراء فيه ، وذلك المجد الأدبى والعلمى الذى صار اليـه اسم الجبرتى ، واسـم آبائه وأجـداده من قبل ، وتلك الكنوز العظيمة النادرة من الكتب ، التى أفنى أبـوه فى جمعها مالا كثيرا وجهدا عظيما .

بقى الجبرتى ، بعد وفاة أبيه ، متصلا بالأزهر وشيوخه ، يحضر دروسهم فيه ، ويزورونه فى بيته كما كانوا يزورون أباه من قبل ، باحثين مدارسين . فلما كبر الجبرتى وأجازته شيوخه أخذ يلقى دروسا فى الأزهر وفى بعض المساجد ، وفى بيته .

وقدم مصر ، فى السنة التى ولد فيها الجبرتى ، عالم كبير من اليمن ، هو السيد مرتضى الزبيدى ، صاحب تاج العروس ، فلما تعرف اليه الجبرتى فيما بعد ، أعجب به ولازمه وصـادقه ، وأصـبح من المواظبين على دروسه مع طائفة كبيرة من اخوانه ،

الذين تبوأوا ، فيما بعد ، مكان الصدارة العلمية والأدبية في مصر ، فدرس لهم الزبيدي فصيح ثعلب ، وفقه اللغة للثعالبي ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وسمعوا كثيرا من شرحه للقاموس ، كما سمعوا في الأمالي والشمائل . ودرس الجبرتي علوم الفقه ، ثم مال ميل أبيه لدراسة الفلك والحساب والهندسة . ومال الى التصوف ، وكان من مريدي الشيخ محمود الكردي .. يرافقه في ذلك الشيخ عبد الله الشرقاوي . ودرس الطب وألف فيه .

وفي أواخر سنة ١١٩٥ تزوج الجبرتي مرة أخرى ، ولم يقل لنا أين ذهبت زوجه الأولى . تزوج ربيبة صديقه على عبد الله درويش الرومي ، برغبة منه . وكان الرومي هذا رجلا يعمل عند المماليك ، « حسن السمت ، نظيف الثياب ، وجيه الطلعة ، مهيب الشكل ، سليم الطوية ، مقبول الروحانية ، نيف على التسعين ولم يسقط له سن ، ويكسر اللوزة بأسنانه » . وكان مثقفا غزير الاطلاع . وربيبة على الرومي هذه هي التي أنجبت للجبرتي ولده خليلا ، ومات صهره هذا في سنة ١١٩٩ هـ .

وظل الجبرتي يفيد ويستفيد ، ويباشر شئونه الخاصة ، ويراجع في مكتبة أبيه الحافلة ، حتى جاءت الحملة الفرنسية الى مصر ، في صفر من سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) ، فترك القاهرة الى مزرعته في « ابيار » ، ثم عاد اليها بعد قليل ، عندما أرسل العلماء ، باشارة نابليون ، اليه والى غيره ممن هاجروا ، ليعودوا .

ولما ألف الجنرال منو ، قائد الجيش الفرنسي بعد نابليون ، الديوان الثالث ، اختير الجبرتي عضوا فيه ، وكان أعضاؤه تسعة .

ولما دخل العثمانيون القاهرة بقيادة يوسف باشا ، لاخلائها من الفرنسيين ، وأخذ هؤلاء بعض كبار الشيوخ من أعضاء الديوان رهائن ، بقي الجبرتي ، والبكري ، والسرسي ، والأمير .. أحرارا . وأمرهم الفرنسيون بأن « يكون نظرهم على البلد » ، أي يكون لهم الاشراف على شئون القاهرة .

وبعد انتهاء الحملة الفرنسية على مصر ، ودخولها مرة أخرى في حكم الدولة العثمانية ، دوّن حوادث هذه الفترة في كتاب سماه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » . وكان له من مكانته اذ ذاك ، وعضويته في الديوان ، ومن علاقاته الخاصة ، وصداقته الوطيدة للشيخ اسماعيل الخشاب ، كاتم أسرار الديوان ، ما يمكنه من معرفة دقائق الأسرار . وقد أهدى كتابه مظهر التقديس هذا الى الوزير يوسف باشا ، فلما عاد الى اسطنبول عرضه على السلطان سليم الثالث ، فأمر كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله الى اللغة التركية ، ففرغ من ذلك سنة ١٢٢٢ (١٨٠٧ م) ، وترجمه بعد ذلك الى هذه اللغة أحمد أفندي عاصم سنة ١٨١٠ .

ويبدو مما كتبه الجبرتي في الفصول الأخيرة من كتابه ، أنه كان يشكو الأسقام والمرض . يشير الى ذلك في آخر حديثه عن سنة ١٢٢٥ حيث يذكر « تشويش البال ، وهم العيال ، وتكدر الحال ، وكثرة الاشتغال ، وضعف البدن ، وضيق العطن » .

ويذكر كثير من المؤرخين أن الجبرتي اشتغل في أواخر حياته مؤقتا للصلاة وهلالي رمضان وشوال في بلاط محمد على ، ولم يذكر هو شيئا من ذلك في تاريخه . وبعض المؤرخين يقول ان الذي تولى هذا العمل هو ابنه خليل .

وقد أصيب الجبرتي في آخر حياته بمحنة قاسية ، ففي صباح الثامن والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٧ (١٩ يونيو ١٨٢٢ م) كان خليل عائدا من قصر محمد على في شبرا ، بعد صلاة الفجر ، فخرج عليه جماعة أخذوا يضربونه حتى قضوا عليه ، وخنقوه ، ثم ربطوه برجل حماره . فلما أصبح الصبح عرفه

الناس ، ووجدوا على صدره دفاتر مكتوبة ، وأسطرلابا لرصد النجوم والكواكب .

وتناقل الناس ، والمؤرخون من بعدهم ، شائعات عن اشتراك سليمان أغا السلحدار ، ومحمد بيك الدفتردار ، صهر محمد على ، فى هذه المؤامرة ، وعن استئذان الدفتردار لمحمد على فى تدبيرها . وهى شائعات يذكرها المؤرخون ليفندوها . وقد وردت فى دائرة المعارف الاسلامية على أنها صحيحة ، وأن الذى قتل هو الجبرتى نفسه (١) .

وقد أصيب الجبرتى بموت ابنه على هذه الصورة ، وهو بين المرض والكبر والضيق ، بنازلة شديدة حطمت حياته ، فترك الكتابة والتأليف ، وانقطع عن القراءة ، وألح عليه الحزن ، وأكثر من البكاء ، حتى ذهب بصره . وبقى فى داره مريضا ، حزينا ، أعمى ، حتى مات فى سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ م) (٢) . وأعقب بنتا ، عاشت مغمورة من بعده ، وولدا ، أو ولدين ، على خلاف بين المؤرخين .

وبعد وفاته احترق منزله بالصنادقية ، واحترقت المكتبة العظيمة الحافلة التى تركها له أبوه ، والتى زاد عليها هو زيادة كبيرة . ويذكر بعض المؤرخين أن جزءا من تاريخ الجبرتى ، احترق أيضا . وكان يتضمن حوادث ما بعد سنة ١٢٣٦ ، ودفن الجبرتى مع أبيه ، ببستان العلماء .

صفاته وأخلاقه

كان الجبرتى ، كما رأينا ، قد ورث عن أبيه وعن أسرته مالا ومجدا ، وهو مع ذلك متواضع . يذكر — فيما سجله من مناقشات أعضاء الديوان أيام نابليون — أشياء يقول ان «بعض الأعضاء» رد بها على الوكيل فوريبه ، ولكنه لا ينسب ذلك لنفسه ، ويكتب عن وطنه بروح الاعتزاز والفخر ، وعن أسرته ، ولكنه يخشى أن ينساق الى التفاخر فيستدرك قائلا ، انه يذكر ذلك «بقصد التعريف بالنسبة» . وعندما ذكر أعضاء الديوان عمى فى اسمه فقال « وكاتبه » . ولعله فعل ذلك عامدا ليحتاط لنفسه من غضب المصريين أو العثمانيين بعد عودتهم للقاهرة . وهو الى ذلك رجل خير ، رقيق العاطفة ، نبيل الخلق ... ضاقت الحياة بصهره على درويش ، وتعطلت أسبابه ، فنقله وأسرته الى بيته ، وعاش معه حتى مات ، وتولى دفنه ، وأثنى عليه ثناء كبيرا ، وقال انه أفاد منه فى التراجم التى ضمنها كتابه .

وكان عبد الرحمن رجلا سمحا ، يقدر الجمال ، متأنقا فى حياته . وكان أصدقاؤه الخلص — كالشيخ حسن العطار والشيخ اسماعيل الخشاب — يدعونه الى مجالس الغناء حيث يقول ثانيهما :

يا سيدى وسندى ويا عريق المحتد
يا راحتى ، وراحتى وساعدى ، وعضدى
أدعوك تأتى مسرعا ويا لذاك من يد
تؤم قصرا جامعا كل المعانى الشرد
نصغى الى مزهر من أضحى فريد البلد

وكان هو يدعوهما أيضا الى منزله حيث يقطعان الليل فى الحديث والسمر والمنادمة ، فيجولان فى كل فن من الفنون ، « تارة يتشاكيان تغير الزمان ، وتكدر الاخوان ، وأخرى يترنمان بمحاسن الغزلان ، وما وقع لهما من صد وهجران ، ووصل واحسان » . ويلاحظ هنا أن الجبرتى يقول :

(١) مادة « الجبرتى » ص ٢٧٩ من العدد الثامن ، المجلد السادس من الترجمة العربية . وفى مقدمة الترجمة الفرنسية لعجائب الآثار أيضا ان الذى قتل هو الجبرتى نفسه .

(٢) اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ وفاته . وأكثرهم على انها كانت يوم ٢٨ رمضان سنة ١٢٣٧ ، ولكن المرحوم جورجى زيدان اثبت — فى الجزء الرابع من تاريخ ادب اللغة العربية — انه عاش الى نصف ربيع الاول من سنة ١٢٤٠ ، كما حقق الاستاذ خليل شيبوب من طريق آخر — فى كتابه « عبد الرحمن الجبرتى » — انه مات فى هذا التاريخ الذى ذكرته . وذكر تلميذاه : البنانى والخضراوى ، فى نزهة الفكر ، انه عاش الى سنة ١٨٢٦ م .

« تارة يتشـاكيان » ، « ويترنمان » ولا يقول : تشاكى ، وترنم ... وكان هذان الصديقان كثيرا مايبيتان عنده .

وعرف الخشاب فتى فرنسيا جميل الطلعة اسمه ريج ، روى الجبرتى شيئا من غزله فيه .

ويذكر الجبرتى أنه لقى فى طنطـا شيخا اسمه أحمد السماليجى الشافعى ، كانت له امرأة بارعة الجمال ، وله منها ولد اسمه أحمد « كأنما أفرغ فى ... الجمال ، وأودع بعينيه السحر الحلال » ، ثم يذكره باعجاب فيقول انه « حضر الى ، وسلم على ، وآنسنى بحسن ألفاظه ، وجذبنى بسـحر ألحـاظه » . ويقـول الجبرتى فى ترجمـة بعض أصدقائه انه « كان يحب الجمال » ، ثم يتبع ذلك — وكأنه خشى التهمة — بأنه كان لا يترك الصلاة ، أينما كان .

وممـا يدل على رقة العاطفة أن الجبرتى يمدح صديقه هذا بأنه كان يمر فى الطريق يفرق الطعام على الفقراء ، والأطفال ، و « الكلاب » .

وكانت فيه صفات العالم : كان يسهر الليـل يراعى مطالع النجوم ... ولمـا قامت ثورة القاهرة على الفرنسيين ، أتلف العـامة فيما أتلفوا أجهزة علمية وفلكية ، فأبدى شديد أسـفه على ذلك ، وندد بجهل العامة وسفههم ، وحزن على فقد هذه الأدوات التى لاتقدر بقيمـة « عنـد من يعرف صنعتها » . وعرض عليه رجل جزائرى أن يشترى كتاب زيج الراصد السمرقندى ، فأبى أن يبيعـه بأى ثمن . ولما علم أن الفرنسيين لديهم كتب ذات قيمة ، زار الدار التى خصصوها لذلك ، وأبدى اعجابه بها ، وذكر النظام الذى وضعوه للمطالعة فيهـا ، وبعض الـكتب التى رآها ، وأثنى على نشـاطهم العلمى ، ورغبتهم فى البحث والمعرفة ، واخلاصهم .

وكانت فيه شجاعة العالم أيضا ، فكبار المماليك أصدقاؤه وأصدقاء أبيه ، وكذلك كثير من الولاة والسادة الحاكمين ، وكبار الشيوخ اما أسـاتذته واما أصدقاؤه ، ومع ذلك لم يعف أحدا منهم من النقد والمؤاخذة ، اذا وجد فى صـفاته أو سلوكه مايوجب النقد . وقد ذكر فى مقدمة كتابه أنه لم « يقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم يداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مبـاين للأخـلاق ، لميـل نفسانى ، أو غرض جسمانى » . وقد لازمته هذه الشجاعة فعلا فى جميع مادون من حوادث التاريخ التى سمعها أو شـاهدها . كما التزم أيضا أدق شروط الأمانة العلمية ... شأن العلماء . فهو يدون وثائق الحملة الفرنسـية ، والشروط التى وضعت بين رجالهـا ورجال الدولة العلية للانسـحاب من مصر ، ثم يقول انه نقل ذلك بحروفه « وما فيه من خطأ أو تحريف ، فهو طبـق الأصـل المطبـوع بالمطبعة الفرنساوية باللغة العربية » .

وكذلك حديثه عن جمـاعة من علمـاء الآثار الانجليز زاروا الهرم الأكبر وأبا الهول ، وآثار الفراعنة فى الصعيد ، ويسر لهم محمـد على أن يأخذوا من آثار مصر أشياء ذات قيمة شروها بثمن بخس ، وأخرجوها من مصر .

وللجبرتى ملاحظات تدل على سلامة الفطرة . من ذلك اعجابه بنابليون لأنه سافر من القاهرة الى السويس « فلم يكن معه طباخ ، ولا فراش ، ولا فرش ، ولا خيمة » ، وكان كل ما أخـذه معـه « ثلاثة طيور دجاج محمرة ، ملفوفة فى ورقة » .

وهى ملاحظة تدل على حبه للبسـاطة ، وهو غنى مقتدر ، وبعده عن المظاهر ، ومعرفته لأقدار الرجال من تصرفاتهم العادية التى قد يمر بها غيره فلا يستنبط منها شيئا ، ولا تدله على فضيلة أو خصيصة أو محمدة .

وكذلك ثناؤه على الفرنسيين ، لأنهم لم يكونوا يتجاوزون الرسوم التى فرضوها على الأقضية ، أو رسوم التسجيل ، ولأنهم لم يبادروا بقتل سليمان الحلبى عندما اغتال الجنرال كليبر ، بل حاكموه وسألوه وناقشوه وناقشوا الشهود . وأثنى عليهم لأشياء أخرى كثيرة . وهذا كله دليل على رجحان عقله وسداد تفكيره ، وبعده عن التعصب الضيق . كذلك أثنى على الأنجليز ، عندما وصف صديقه الألفى بأنه عندما سافر الى بلادهم « تهذبت أخلاقه ، بما اطلع عليه من عمارة بلادهم ، وحسن سياسة حكامهم ، وكثرة أموالهم ورفاهيتهم وصنائعهم ، وعدلهم فى رعيتهم — مع كفرهم — بحيث لا يوجد فيهم فقير ، ولا مستجد ، ولا ذو فاقة ، ولا محتاج » .

وهو رقيق العاطفة . ذكر أن محمدا عليا زوج بعض أولاده ، فقدمت لأمهم الهدايا من نساء المماليك والسادة ، وكان بعضهن فى ضيق من العيش ، فاستدنّ ليقدمن الهدية ، ولكن السيدة زوج محمد على لم يرق فى عينها بعض الهدايا ، وعابت على صاحباتها ذلك فى المجلس ، وردتها ليقدمن خيرا منها . وقد أفاض الجبرتى فى ذكر ألمه لما أصاب هؤلاء النسوة من الكرب والخجل ، وكسر الخاطر ، وانكساف البال بعدما أصابهن وأصاب أزواجهن من قسوة محمد على وظلمه .

ويبدو مما كتبه الجبرتى فى مواضع كثيرة متفرقة من كتابه ، أنه كان حر الفكر ، سلفى العقيدة . فهو كثير النقد للبدع ، وما يصاحب موالد الأولياء ، ومدعى الولاية من الفسق والفجور ، والمغالاة فى مدحهم والتوسل بهم ، ويقول ان فى ذلك خروجا على الدين ، واتباعا للشهوات ، وأن الفرنسيين لم يبيحوا اقامتها ويحرضوا عليها الا لهذا السبب . ويسجل منشورا أرسله الوهابيون الى مصر ، بعد دخولهم مكة ، وفيه خلاصة دعوتهم ، ثم يعقب على ذلك بقوله : « ان كان كذلك فهذا ماندين الله به نحن أيضا ، وهو خلاصة لباب التوحيد » ، ثم يذكر بعض أمهات الكتب فى مذهب السلف . وفى موضع آخر يقول : ان الوهابيين شرطوا على الركب الشامى ألا يجىء الى الحج بالمحمل والطبول ، فعاد الشاميون ولم يحجوا « ولم يتركوا مناكيرهم » . فالمحمل وطبوله ، فى نظره ، منكر . وهو يلقى زعماء الوهابيين الذين حلوا بمصر أسرى أو مهاجرين ، ويتعرف اليهم ، ويصادقهم ، ويثنى على كبيرهم عبد العزيز ، ثناء خاصا . وتبدو فيما كتبه عن ذلك سلامة العقيدة والاخلاص . وقد يكون لموقفه العنيد من محمد على دخل فى هذا الثناء .

وللجبرتى ، فى احدى صفحات الكتاب ، نفحة صادقة من الفهم السديد لروح الدين ومن الاشتراكية العاقلة معا . فهو يذكر ما أخذه الوهابيون من الحجرة النبوية الكريمة عند فرارهم ، من التحف الكريمة ، والجواهر النادرة القيمة الغالية الثمن ، وأن بعض الناس عد ذلك من الكبائر . ثم يقول : ان هذه التحف والجواهر « وضعها خساف العقول من الأغنياء ، والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم ، اما حرصا على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتى بعدهم ، أو لنوائب الزمان ، فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج اليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء » . ثم يقول : ان أخذ هذه الذخائر ليس خروجا على الدين ، بل الخروج عليه هو كنز الأموال بحجرته — أى حجرة النبى — وحرمان الفقراء والمساكين وأهل العلم وأبناء السبيل الذين يموتون جوعا .

وفى هذه الصفحة ينتقد الجبرتى ، انتقادا مرا ، بعض الحكام الذين يسرفون فى أموال المسلمين

التى اؤتمنوا عليها . وينفقون النفقات الباهظة فى التفاخر والرفاهية ، ثم يتحايلون على تحصيل المال من رعاياهم بزيادة المكوس والمصادرات والاستيلاء على الأموال بغير حق ، حتى افتقر الرعايا .

وهذه النفحة الاشتراكية ، الانسانية ، هى التى جعلت الجبرتى ، فى موضع آخر ، يثنى على الفرنسيين لأنهم لم يسخروا العمال الذين كانوا يستخدمونهم لتمهيد الطرق فى القاهرة ، واقامة المنشآت العامة ، بل كانوا يزيدونهم عن أجرهم المعتاد ويريحونهم بعد الظهر ، ويستعينون بالآلات القريبة المأخذ ، السهلة التناول ، التى تريح العامل وتعينه ، وتقلل من مجهوده ... كعربات نقل الأتربة . وكانت السخرة فى أشق الأعمال شيئا مألوفا فى ذلك الوقت . وكان موت الفلاحين والعمال من الجهد والإرهاق شيئا مألوفا أيضا . وقد مر فى موضع من هذا الكتاب أنهم كانوا يدفنون وفيهم رمق الحياة ، لأنهم عجزوا عن مواصلة العمل وسقطوا من الاعياء .

ويبدو الجبرتى ، فى مواضع أخرى متفرقة من كتابه ، رجلا ساذجا ، مؤمنا بالكرامات والخرافات . فهو يذكر رجلا كانت الجن تخدمه وتطيعه فيما يأمر ، ثم يقول : ان ذلك « لايستبعد » . ويترجم لرجل أبله كان يزعم أنه يكشف ما فى ضمائر الناس ، ولا يستبعد ذلك أيضا . وعندما أمر محمد على ، ووافقه فى ذلك القاضى التركى ، باجراء الحجر الصحى ، واقامة « الكرنتيلة » احتياطا من الطاعون ، لامهما الجبرتى على ذلك ، وقال : ان ذلك « من حبهم للدنيا ! » . ويذكر من كرامات سيدى على البيومى أن الجالس اليه كان « يرى وجهه تارة كالوحش ، وتارة كالعجل ، وتارة كالغزال » . ولا غرابة فى ذلك التناقض الظاهرى .

فان الجبرتى ألف كتابه على فترات متباعدة من الزمن . وكان فى بعض ماسجل من هذه الروايات ، متأثرا بالبيئة ، والصحبة ، واعتقاد الجماهير .

وللجبرتى فى كتابه تعبيرات تدل على لباقة وحسن أدب وتلطف ، من ذلك تعبيره الطريف عن قاض جديد قدم مصر من اسلامبول سنة ١٢١٦ بأنه « كان له مسيس من العلم » .

أما ذوقه الأدبى فنستطيع أن نعرفه من اختياره للشعر ، وثنائه على مايختار . فهو يختار مثلا لشاعر معاصر ، هو ابن الصلاحى هذه الأبيات ، ويثنى عليها :

جزى الله أنفاس النسيم فانها
لتعلم سرا فى النفوس لطيفا
أسرت الى الأغصان ، عند قدومنا ،
حديثا ، فمدت للسلام كفوفا
وهزت ، سرورا بالتدانى ، معاطفا
وأهدت لنا منها شذا وقطوفا

وهو يختار لهذا الشاعر نفسه قصيدة جيدة طويلة ، أولها :

بثا على النائى الغريب ... جملا من الخبر العجيب
واستوقف الركبان ما ... بين الأراكة والكثيب
واستنشد القلب الذى ... قد ضاع من بين القلوب
سلبته ، يوم الدوحتيـ ... ـن ، طليعة الرشأ الربيب

والأبيات والقصيدة كلتاهما شعر جيد ، اذا قارناهما بشعر ذلك العصر خاصة . وليس كل ما اختاره الجبرتى ، وخاصة من النثر ، جيدا ، يدل على تذوق للشعر والنثر ، بل فيه شىء غير قليل من التافه والثقيل ، الذى كان ذوق العصر يسيغه ويألفه ويقبل عليه .

ومع احاطة الجبرتى بكثير من علوم عصره ، واشتغاله بغير ما كان الناس يشتغلون به ، من علوم الحكمة والرياضة ، وسعة مداركه ، فانه يسمى البحر الأبيض المتوسط « البحر المحيط » .

واشتغل الجبرتى ، مثل أبيه ، بالأمور العامة ... فأفاد الناس من علمه . فالموازين التى حررها أبوه ، عندما فشا فسادها ، وألف فيها كتابا . اشتغل ابنه باصلاحها مرة أخرى وتحريرها . ومعرفته بعلم الفلك ، جعلته يستخرج الطالع وحساب النجوم .

وقد ذكر فى بدء حديثه عن سنة ١٢٢١ — وهى السنة الأولى من حكم محمد على — حسابا للنجوم ، والتقالات الشمس ، وأبراجها ، ومقارناتها ، وحساب الأهلة . ثم قال « وفى ذلك دليل على ثبات دولة القائم ، وتعب الرعية » . وقد ثبتت فعلا دولة محمد على ، وتعبت الرعية ... وصدق حساب الجبرتى وطالعه فى الأمرين معا

ونستطيع ، بعد ذلك ، أن نعرف شيئا عن صفات الجبرتى وأخلاقه ، من معرفتنا لخاصة أصدقائه ، وهم الشيخ اسماعيل الخشاب ، والشيخ حسن العطار ، والشيخ أحمد الطحطاوى ، أما الأولان فقد ذكرنا طرفا من أخبارهما ، وظرفهما ، ومجالسهما فى بيت الجبرتى ... تلك المجالس التى تمثل فيها بقول الشاعر :

فىّ انقباض ، وحشمة ، فاذا
رأيت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسى على سجيتها
وقلت ما قلت ، غير محتشم

وقد توفى الخشاب فى سنة ١٢٣٠ ، أى قبل وفاة الجبرتى بأكثر من عشر سنين ، وعاش العطار بعده ، ولكنه لم يشاركه فى خصومة محمد على ، بل صادقه ، وتقرب اليه ، وألف من أجله كتابا فى الرسائل أهداه اليه (١) . وتولى مشيخة الأزهر ، وكان شاعرا ، رحالة ، خبيرا بالحياة .

أما ثالثهم : الطحطاوى ، فقد كان تركى الأصل ، شجاعا فى الحق ، عندما تألب الأشياخ على السيد عمر مكرم ، وكتبوا فيه ما كتبوا ، امتنع عن مسايرتهم والشهادة معهم ، وانفرد بذلك دونهم ، فغضبوا منه ، وأكثروا من ذمه والكيد له حتى فصل من مشيخة الحنفية ... ولكنه لم يتراجع ، وأعاده محمد على مرة أخرى لمشيختها . وقد قبلها فى المرة الأولى على كره . وكان الطحاوى هذا من أحب صحبة الجبرتى له وأقربهم لقلبه .

عجائب الآثار

يقول الجبرتى فى مقدمة كتابه : « انى قد سودت أوراقا فى حوادث آخر القرن الثانى عشر وما يليه ، وأوائل الثالث عشر الذى نحن فيه ، جمعت فيها بعض الوقائع اجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها محن أدركناها ، وأمور شاهدناها ، واستطردت فى ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشيخة تلقيتها ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين ، من العلماء والأمراء المعتبرين ، وذكر لمع من أخبارهم وأحوالهم ، وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم ... فأحببت جمع شملها وتقييد شواردها فى أوراق منسقة النظام ، مرتبة على السنين والأعوام » .

ويقول فى موضع آخر انه كان يدون الحوادث فى « طيارات » ، ثم يعود اليها بالتفصيل والشرح والافاضة . فهو يسجل فى مذكراته الحوادث اليومية ، ثم يتوسع فيها . وقد سجل حوادث السنين الأولى رواية عن أبيه وعن شيوخه وأصدقائه الذين شهدوها ، أو سمعوها ، ورجع فى ذلك أيضا الى سجلات الدولة من دفاتر الكتبة وغيرها ، وما نقش على حجارة القبور ، وذلك من أول القرن الى سبعين سنة منه ، ثم يقول ان « ما بعد السبعين الى التسعين أمور شاهدناها ثم نسيناها وتذكرناها ، ومنها الى وقتنا أمور تعقلناها وقيدناها وسطرناها » .

(١) رسائل العطار المطبوع فى المطبعة العثمانية بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ (ص ٣)

وظاهر هذا الكلام أنه شاهد بنفسه ، وسجل ما شاهد ، ابتداء مما بعد السبعين من حوادث القرن الثانى عشر ، وذلك ما اعتقده وأقره أكثر مؤرخيه ، مع أن سنه اذ ذاك كانت أربع سنين . وأعتقد من الاضطراب الظاهر فى العبارة أنه لا يقصد ذلك ، وربما أراد ما بعد التسعين ، لا السبعين .

وقد ذكر أن الذى دعاه لوضع هذا التاريخ هو السيد مرتضى الزبيدى ، صاحب تاج العروس ، حيث طلب مفتى دمشق ، السيد محمد خليل الراوى ، من الزبيدى وضع هذا التاريخ . فكلف به الجبرتى ، وكان يكتب ما يكتب ويقدمه للزبيدى . فلما مات هذا بالطاعون فى سنة ١٢٠٥ استولت زوجه على جميع ما خلفه بما فى ذلك كتبه ، وفيها ما قدمه له الجبرتى من تاريخه ، ثم تزوجت أرملته ، واستطاع الجبرتى أن يشترى منها ما خلفه السيد فوجد ضمنه أوراقه . وأرسل له مفتى دمشق بعد ذلك يستحثه على أن يتم كتابه فكان ذلك مشجعا جديدا له . .

أما الطريقة التى اتبعها فى تدوين الكتاب ، فانها مع استيعابها ووفائها ، أبعدت بينه وبين أن يكون تاريخا منسقا متتابعا ، بل جعلته أشبه شىء بجريدة يومية أو أسبوعية ، تسجل الحوادث الواقعة ، بلا ترابط ولا توحيد أو تأليف ، فترى الرجل أو الحادثة تذكر فى مواضع متفرقة متباعدة من الكتاب حسبما تجىء به ، أو بها ، المناسبة ... لأمر وقع ، أو حادث جرى ، وذلك نتيجة طبيعية لسرد الجزئيات على الأيام . وهو يخلط بين الجليل والحقير من الحوادث خلطا ، قد يكون عجيبا ولكنه احدى نتائج الأمانة والحرص على الاستيعاب .

فهو ، مثلا ، فى حوادث شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٢٢ يذكر حادثة شيخ من بنها يدعو الناس لمقاومة سلطة القاهرة ، ويفصل ما جرى له حتى قتل ، ثم يذكر خبر واقعة بين محمد على وشيخ دسوق ، ثم يجمع الى ذلك حادثة رجل من الدلاتية (١) كان يرمى دجاجة بحجر لتقع من سطح دار الى أخرى ، ليستحوذ عليها ... !

أما ترتيب الكتاب فقد أشار فى مقدمته الى صفات الحاكم العادل . وذكر الحديث الذى رواه أبو هريرة « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة ، قيام ليلها وصيام نهارها » . وقال ان سبب هلاك الحاكم هو « اطراح ذوى الفضائل ، واصطناع ذوى الرذائل ، والاستخفاف بعظة الناصح ، والاغترار بتزكية المادح » . ثم ذكر تاريخا مختصرا للملوك والدول التى حكمت مصر ، بعد ضعف الخلافة العباسية ، حتى الفتح العثمانى . ولخص فى صفحتين حوادث السنين الخمس الأولى من القرن الثانى عشر . ثم أفرد حوادث كل سنة بعد ذلك ، مرتبة بترتيب وقوعها ، على الشهور والأيام . وفى الكتاب اشارة الى أنه كان يكتبه فى سنة ١٢٢١ .

وقد جعل الجبرتى من كتابه « عجائب الآثار » سجلا حافلا ، جامعا ، دقيقا ، لحوادث السنين التى أرخ لها : لم يترك أمرا جليلا أو صغيرا رآه أو سمع به ، الا ذكره . يترجم للمماليك ، أمراء مصر ، ولشيوخ الأزهر والولاة والأشراف ، والعلماء ، والتجار ، وخفير باب زويلة ، والخطاطين ، والصناجق ، والأولياء ، وخادم النعال بالمشهد الحسينى ، والشعراء ، والمجذوب الصاحى — وكان حمالا فى دمياط — ومدعى النبوة ، والمجانين . ويذكر أسعار الغلال واللحم والسمن واللبن والذهب والتمر والبن والحطب والفحم . ووقوع الطواعين والأوبئة ، وعمارات المساجد والبيوت

(١) احدى طوائف الجند من اكراد الشام .

والقنوات والترع والسدود . ويسجل فى حوادث سنة ١١٩٠ ، دخول فيل صغير القاهرة ، من الهند ، ويفصل حادث الشيخ ضادومة ، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة . وقال فى كل ذلك : « انى لم أخترع شيئا من تلقاء نفسى ، والله المطلع على أمرى وحدسى » ، و « لا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار » .

وتبدو فى النصف الأول من الكتاب العناية بتراجم الرجال وسير المماليك والعلماء وغيرهم ، وفى نصفه الأخير تبدو العناية أكثر بتسجيل الأحداث والوقائع .

وقد ذكر أنه سيعيد مراجعة كتابه . والظاهر أنه لم يتيسر له أن يفعل . لذلك جاء فيه ذكر بعض الحوادث مكررا ، وجاء فيه ما يدل على عدم التحرى . فهو يقول ، مثلا ، فى ترجمة الشيخ سليمان البجيرمى انه ولد فى سنة ١١٣١ ، ثم يقول انه تجاوز المائة ، وهو فى الوقت نفسه ، يحدد تاريخ وفاته بليلة الاثنين ١٣ رمضان من سنة ١٢٢١ فهو بذلك لم يتجاوز المائة ، وانما عمر الى التسعين . وفى الكتاب أشياء غير قليلة من ذلك . ولو أنه راجع ماكتب ومحصه ، لما وقع فى ذلك ومثله . وليس ذلك تنقيصا لقيمة الكتاب ، فقد أجمع المؤرخون على أنه مصدر من أوثق وأوفى وأهم المصادر التاريخية عن تلك الفترة . وخاصة فيما سجله عن حوادث عصره التى شاهدها بنفسه .

ومن أجود ما كتبه الجبرتى ، وأكثره أهمية ، اما سجل فيه حوادث الطبقة الأخيرة من المماليك ، وفترة احتلال الفرنسيين لمصر . وطبيعى أن يكون ذلك : فكبار المماليك أصدقاء والده ، وكبار الشيوخ الذين كانوا أعضاء فى ديوان نابليون ، وكذلك كاتم سر الديوان اسماعيل الخشاب ... أصدقاء له ، وهو نفسه كان من أعيان العلماء اذ ذاك ، وكان عضوا فى الديوان الثالث .

ولكن أجود ما كتبه الجبرتى ، وأعظمه قيمة ، تلك الصفحات التى صور فيها حياة المجتمع المصرى أصدق صورة وأبرعها وأقواها ، وتراجم العلماء والأمراء وكبار الرجال فى عصره ، وفى هذا وذاك لا نجد للجبرتى نظيرا ولا ضريبا بين المؤرخين فى جميع العصور .

أما الفترة التى سجلها من عهد محمد على ، فتتسم بالاختصار وعدم الاستيعاب ، لأنه لم يكن من رجال محمدعلى ، ولا من المتصلين به أو برجاله . وهو نفسه يعتذر عن تقصيره فى تسجيل حوادث القسم الأخير من كتابه « اذ لا يمكن استيفاؤها ، للتباعد عن مباشرة الأمور » . وهو فى تسجيل عهد محمد على يترك بعض الشهور دون أن يذكر حادثا ما ، وبعضها يدون فيه سطورا قليلة ، أو حادثا فردا . ويحتاط فى الرواية بأن يقول : « على ما بلغنا » ، أو « على ما قيل » ، وأشباه ذلك .

اسلوب الكتاب

أما أسلوب الجبرتى فى كتابه فليس على نسق واحد ، وهذا طبيعى ، ولكنه فى عمومه يكاد أن يكون مصريا عاميا ، كثير الأغلاط . والتعبيرات المصرية الشعبية التى لا يزال كثير منها متداولا الى الآن ، يجدها القارىء فى كثير منه . فهو يصف حريقا فى « خطتنا بالصنادقية » فيقول : ان النار « رعت ووجت » ، ويقول : ان النيل « انهبط » يعنى انخفض ماؤه ، وأن سعر القمح « شطح » ، أى ارتفع ، و « ثارت كرشة » أى زحام وتدافع ، و « تحنجل فى مشيه » ويذكر كلمة « قشل » ، و « قشلان » بمعنى مفلس ، و « كثر العياط » ، و « زاد تنطيطهم » ، و « زرع له فوق السطوح » اذا مناه الأمانى الكاذبة ، و « رقرق » لذلك فلان أى مال اليه وتأثر به ، و « النفخة » بمعنى الغرور .

ونجد من التعابير المصرية ما لا نزال نسمعه الى اليوم مثل : « كل الوقايع زلابية » ، ومثل « قارب شيحة » ، فقد ذكر أنه نزل — فى سنة ١١٧١ — مطر كثير ، سالت منه السيول ، وأعقبه الطاعون المسمى «بقارب شيحة الذى يأخذالمليح والمليحة» . ونجده يذكر « الكبة » وهو يريد الطاعون ، كما يفعل العامة الى الآن ، وأمثال ذلك . وهو لا يلتزم السجع ، ولكنهأحيانا يتفصحبه فى غير موضعه ... فيبدو ظريفا مضحكا ، كذلك السجع الذى التزمه فى وصف قوم فجأهم المطر وهم يسيرون مكرهين فى زفة عروس « فاختل نظامهم ، وابتلت ثيابهم ، وتكدرت طباعهم ، وانتقضت أوضاعهم ، وزادت وساوسهم ، وتلفت ملابسهم ، وهطل الغيث على الابريسم والحرير ، والشالات الكرخانة والسليمى والكشمير ، وكثير من الناس من وقع بعد ماتزحلق، وسار ثوبه من الوحل أبلق ، ومنهم من ترك الزفة ، وولى هاربا فى عطفة ، يمسح يديه فى الحيط ، مما تلطخ بها من الرطريط » .

وهى صورة كما ترى ، مع طرافتها ، صادقة حية .

وقد اعتذر هو عن ضعف أسلوبه ، وتقصيره ، وأخطائه بقوله : « هذا مع اعترافى بقصور الباع ، وفتور الطباع ، فى قوانين المعانى العربية ، ودواوين المثانى الأدبية » . وغير بعيد أن يتعمد الجبرتى شيئا من الالتواء والغموض ، مراعاة لبعض الاعتبارات والظروف .

وهذا لا يمنع أن يجد القارىء صفحات جيدة الأسلوب بين ثنايا الكتاب .

التاريخ بلا عاطفة

والجبرتى يكتب تاريخه ، ويسجل فيه أحداث مصر العظيمة التى شهدها أو سمعها ، ولكنه لا يظهر أية عاطفة فيما يكتب ، فهو يلم الشوارد ، ويدون ويقيد ، ولكنه لا يلون بشعور ، ولا يضفى باحساس .

يسجل ، بأمانة وافاضة ، حوادث الحملة الفرنسية ، ومقاومة المصريين لجنود نابليون فى صفحات طويلة . ولكن القارىء لا يستبين فيها أى لون من ألوان العاطفة . فهو لايكتب تاريخ هذه الفترة العصيبة الحافلة من تاريخ مصر بروح الوطنى المصرى واحساسه ، ولا بروح الرجل المسلم ، حيث كانت العاطفة الغالبة المسيطرة . بل هو فى مواضع كثيرة لايخفى اللوم والضجر من عنف القاهريين وشططهم فى مقاومة الفرنسيين ، ويجعل ذلك من سخف العقل . وهو كذلك ، فى ترجمة الألفى ، يطنب فى مدحه ، ويشيد بفضائله ، ويذكر أنه سافر الى بلاد الانجليز مع خمسة عشر من رجاله ، وبقى ضيفا عليهم زمنا ، يطلب حمايتهم ويمكن لهم من احتلال مصر ، وغاب فى هذه الرحلة سنة وشهرا وبعض أيام ، وعاد من بلادهم يحمل الهدايا الكثيرة الغالية . ثم يقول ان الألفى أيضا أرسل الى الانجليز يستنجدهم أن يعينوه على حرب محمد على واخراجه من مصر . ومع هذا وذاك لايجد الجبرتى ، فيما أقدم عليه الألفى ، أى مبرر للومه ، ولا يشعر القارىء أنه أحس أى عاطفة من العواطف فيما أقدم عليه .

ويستطيع القارىء ، وهو يعجب ، أن يجد شيئا غير قليل من شذوذ العاطفة فى تدوين الجبرتى لحوادث سنة ١٢٢٢ ودخول الانجليز الاسكندرية فيها (١) . فهو يكاد يتمنى لو أنهم استطاعوا أن يملكوا القطر كله ، ليساعدوا صديقهم وحليفهم ، الألفى ، ضد محمد على . وهو يذكر أميرا من المماليك اسمه عثمان بيك حسن ، سعى اليه الانجليز ليعينهم على بسط سلطانهم على مصر ليمكنوا له واخوانه ، فى زعمهم ، من حكمها دون

(١) فى ليلة ٢١ مارس من سنة ١٨٠٧ م

محمد على . ولكن عثمان بيك هذا أجاب الانجليز بأنه هاجر وجاهدالفرنسيين ، وأنه لا يقبل أن يختم حياته بمساعدة الافرنج على اخوانه المسلمين .

ولعل القارىء يعتقد أن الجبرتى أعجب باخلاص عثمان بيك لدينه ، أو لوطنه ، وشكر موقفه هذا ، أو على الأقل ، سجل الحوادث بلا عاطفة ، كما هو غالب شأنه ... ولكن العجيب أن الجبرتى يصف عثمان بيك فى موقفه المشرف هذا بأنه « يدعى الورع » ، ثم يقول بعد ذلك بقليل انه « كان ما أراده المولى جل جلاله ، من تعسة الانجليز ، والقطر وأهله » .

فهو بذلك يشى بسريرته ، ويظهر حزنه المكظوم لحبوط الحملة الانجليزية على مصر .

ولا نستطيع ، على وجه القطع واليقين ، أن نتهم الجبرتى — لهذا أو لغيره — فى عاطفته الوطنية أو الدينية ، وهى العاطفة الغالبة التى كان يحسها الناس اذ ذاك ويعرفونها .

ولكنا نلاحظ ، الى جانب حديثه عن عثمان بيك حسن ، أن الجنرال منو اختاره عضوا فى الديوان الأخير الذى ألفه . وكان منو أشد القادة الفرنسيين قسوة ، وأبعدهم فى العنف والجبروت على أهل مصر ، ونلاحظ أيضا أن الفرنسيين قبضوا على أربعة من أعضاء هذا الديوان ، عندما قدمت الحملة الانجليزية التركية ، ولم يقبضوا على الباقين من هؤلاء الأعضاء ، بل تركوهم ليحكموا بهم أهل مصر . وكان الجبرتى من هؤلاء الذين تركوهم ، وخصصوا لكل واحد منهم خادما يقوم على خدمته ، كما نلاحظ أيضا أن الجبرتى ، وهو يتحدث عن الثورات التى قام بها أهل القاهرة ضد الفرنسيين ، كان كأنه يلوم زعماءها على عنادهم وصلابتهم ، ويتهم بعضهم بأنه من الأغرار الأفاقين . أما سواد الناس من القائمين بالثورة ، فكان يسميهم أحيانا « بالزعر » وأحيانا « بالحرافيش » ، ويصفهم بأنهم « حشرات الحسينية ، وزعر الحارات البرانية » أى الذين يسكنون خارج أسوار القاهرة وأبوابها .

وقد يكون لطبيعته من الاعتدال ، والبعد عن العنف ، مدخل فى شعوره هذا وفى حديثه عن الثورة والثائرين ، كما كان لها أثر فى رأيه وسلوكه مع الفرنسيين . وقد يكون حبه للعلم ، وتقديره لما شاهد عند علماء الحملة الفرنسية من الكتب والآلات الهندسية والفلكية ، وما رآه المصريون ، لأول مرة ، من مظاهر الحضارة العلمية ... قد يكون ذلك مما أوجد فى نفسه آصرة من التقدير والقربى — ولا أقول المحبة — بينه وبين الفرنسيين .

وقد ذكر الجبرتى أنه كان يكتب تاريخه فى سنة ١٢٢٠ ، ذكر ذلك مرة فى تدوينه لحوادث سنة ١١٨٦ ومرة أخرى فى حوادث سنة ١١٩٠ . وهو لم يكتبه كله فى ذلك الوقت طبعا ، بل كتبه على فترات طويلة متباعدة .

تداول الكتاب وطبعه وترجمته

كان تاريخ الجبرتى ، أو جزء منه على الأقل ، متداولا ، أو معروفا لبعض الخاصة . فانه يذكر فى ترجمة الشيخ عبد الله الشرقاوى أنه ألف كتابا فى تراجم فقهاء الشافعية ، فنقل تراجم المتأخرين منهم « من تاريخنا هذا بالحرف الواحد » .

وقد بقى الكتاب محجوبا ، أو ممنوعا ، حتى أذن الخديو توفيق بطبعه ، فطبع أول مرة فى سنة ١٢٩٧ هـ ، بالمطبعة الأميرية . وطبع الجزءان الثالث والرابع ، وفيه بعض من تاريخ محمد على ، أولا ، ثم الأول والثانى .

وقد ذكر الجبرتى ، فى ختام كتابه ، أنه سيفصل بعض المسائل فيما « سيتلى عليك ان شاء الله تعالى بكماله فى الجزء الآتى بعد ذلك » . ولعل هذه الاشارة هى التى جعلت بعض المؤرخين يعتقد أنه

كتب جزءا خامسا ، أحرق أو أعدم ، لاشتماله على أشياء ضد محمد على وحكمه (١) . ولكن الأرجح أن الجبرتى لم يكتب بعد ذلك شيئا . ووجدت بعض النسخ بخطه وفيها « أن هذا هو آخر الجزء الرابع وبعده توفى الشيخ . ولم يكتب شيئا » .

وتكرر طبع الكتاب بعد ذلك ، منفردا ، وعلى هامش التاريخ الكامل ، لابن الأثير . ونشر القسم الذى كتبه الجبرتى عن الحملة الفرنسية مستقلا بعنوان « تاريخ الفرنسيين فى مصر » ، نشرته جريدة « مصر » بالاسكندرية فى سنة ١٨٧٨ . وقام بنشره الأديب اللبنانى أديب أسحق .

وترجم هذا القسم الى اللغة الفرنسية ، ترجمه مترجم القنصلية الفرنسية بمصر ، المسيو كاردان ، وطبع فى سنة وفاته ١٨٣٨ م ، أى بعد موت الجبرتى بثلاث عشرة سنة . وقد رأينا من قبل أن هذا الجزء نفسه ترجم الى اللغة التركية ، بأمر السلطان سليم الثالث ، وجعل عنوانه « انقاذ مصر من الفرنساوية » .

ومما لاشك فيه أن محمدا عليا عرف ما سجله الجبرتى عن سيئاته ومساوىء حكمه ، وأنه جزع لذلك واستاء منه أكبر استياء . وقد أراد أن يرد على الجبرتى ، من طريق غير مباشر ، فطلب الى شيخ الأزهر ، الشيخ محمد العروسى (١) ، أن يكلف أحد العلماء بتأليف كتاب عن تاريخه يعارض فيه الجبرتى . فكلف الشيخ خليل بن أحمد الرجبى الشافعى الذى وضع كتابا ملأه بمدح محمد على

(١) ذكر جورجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية ــ الجزء الرابع ــ انه « يقال ان عجائب الآثار ، بعد طبعه ، صادرته حكومة الخديوى وحذفت منه ماكتبه ضد محمد على » . ولكنى لم أجد مايؤيدهذه الرواية ، او يساعد عليها.
ونحن نرى ان الجبرتى قد كتب عن محمد على فى حرية واسعة ، وتناول شخصه ، واخلاقه ، وتصرفاته باشياء كثيرة . وان هذا الذى كتبه موجود فى الطبعات المتداولة .
لذلك ، ولأسباب أخرى ، أستبعد هذا الذى رواه جورجى زيدان بصيغة التضعيف .
وتقول دائرة المعارف الاسلامية ايضا ان نسخة سابقة على طبعة المطبعة الاميرية « سنة ١٢٩٧ هـ » صودرت واعدمت .

(١) تولى المشيخة سنة ١٢٣٣ بعد الشيخ الشنوانى .

والاشادة بذكره . وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٥٨٥ تاريخ .

وترجم « عجائب الآثار » الى اللغة الفرنسية ، ونشر فى تسعة أجزاء ، تضمنتها ثلاثة مجلدات ، وطبع بالمطبعة الأميرية بين سنتى ١٨٨٨ و١٨٩٦ م وفهم بعض المؤرخين أن هذا التراخى كان سببه ما كتبه الجبرتى عن محمد على . وقام بهذه الترجمة أربعة ، هم : شفيق بيك منصور يكن ، وعبدالعزيز كحيل بيك ، وجبرائيل نقولا كحيل بيك ، واسكندر عمون أفندى .

وذكر هؤلاء فى مقدمتهم لهذه الترجمة الفرنسية أن نوبار باشا هو الذى أوحى اليهم بفكرتها ، وأن يعقوب أرتين باشا كان معينا لهم فى القيام بالمشروع.

وترجم « عجائب الآثار » أيضا الى اللغة الروسية منذ سنين قريبة .

وللجبرتى كتب أخرى ، هى ، « مختصر تذكرة داود الأنطاكى » (١) ، فى الطب ، وكتاب عن ألف ليلة وليلة يرجح أنه فقد . وذكر بعض المؤرخين أنه ، عندما قتل ابنه خليل ، كان يشتغل بوضع كتاب عن الثورة اليونانية ، ولم يتمه .

وقد ذكر « بروكلمان » أن الجبرتى ترجم كتاب « سلك الدرر ، فى أعيان القرن الثانى عشر » للسيد محمد خليل المرادى . وأعتقد أن هذا خطأ ، منشأه أن مصحح المطبعة الأميرية التى طبع فيها سلك الدرر (٢) قال فى ختام الجزء الثانى أنه قد تم بحمد الله تعالى طبع كتاب سلك الدرر لمحمد خليل المرادى ، « الذى ترجمه الجبرتى » . والواقع أنه قصد أن الجبرتى ترجم للسيد خليل المرادى ، لا أنه ترجم كتابه . وقد سبقنى الى تحقيق ذلك الأستاذ خليل شيبوب (٣)

(١) توجد منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية ، تحت رقم ٤٤٠٤ طب .

(٢) طبع سلك الدرر فى مطبعة بولاق الاميرية سنة ١٢٩١ هـ .

(٣) هامش ص ٦٠ من كتابه « عبد الرحمن الجبرتى » .

مخطوطات « عجائب الآثار »

يوجد فى دار الكتب المصرية من عجائب الآثار ثلاث عشرة نسخة مخطوطة ، منهـا أربع كاملة ، وباقيها أجزاء وكراسات ناقصة .

وأحدث هذه المخطوطات الكاملة كتب فى سنة ١٢٨٩ بخط أحمد بن محمد بن أحمـد بن موسى الشاهد . وفى الصفحة الأخيرة من الجزء الرابع أنه نقل من خط المؤلف ، وأنه لم يكتب بعد ذلك شيئا . وينتهى بنهاية سـنة ١٢٣٦ كمـا تنتهى النسخ المطبوعة .

وتلى هذه النسخة فى القدم نسخة أخرى ، كتب الجزءان الأولان منها بخط محمد أحمد الشافعى ، والثالث بخط أحمد يونس ، أبو التيسير ، فى سنة ١٢٨٧ ، والجزء الرابـع كتب فى نهايته أنه تم فى ربيع الثانى سنة ١٢٨٩ ولم يذكر اسم الكاتب .

ثم تلى هذه نسخة أخرى كتبت فى سـنة ١٢٧٢ بخط الحاج محمد حسين أحمـد مصباح الشافعى الأزهرى . وفى آخر الجزء الرابـع منهـا فهرس بأسماء المتوفين من الأعلام . ولكنه لاينتهى بنهاية ما سجله الجبرتى فى تاريخه (سنة ١٢٣٦) بل يمتد بهذه الأسماء وتواريخ وفاة أصحابها الى سنة١٢٧٢، تاريخ كتابة المخطوط ، ويبدو أن الذى أكمل هذه التواريخ هو الشيخ مصباح ناسخ المخطوط .

وأقدم هذه النسخ المخطوطة تمت كتابتها فى سنة ١٢٦٢ (١) — أى بعد وفاة الجبرتى باحدى وعشرين سنة — ولم يذكر اسم كاتبها . وكان هذا المخطوط ملكا للمرحوم محمود سـامى البارودى باشـا . مكتوب فى الصفحة الأولى لكل جزء منه مايلى : « من كتب الفقير اليه تعالى محمود سامى الشهير بالبارودى » ، وتاريخ سنة ١٢٨٥ ، ثم ختم باسم « محمود سامى » .

(١) مخطوط رقم ٢٢٨٧ تاريخ .

والسطور الأخيرة من هذا المخطوط تتفق تمام الاتفاق مع النسـخ المطبوعـة ، ثم تنتهى بهـذه الكلمات : « تم لسنة ست وثلاثين . ونقل هذا من نسـخة بخط الجبرتى فى ٢٥ ذى الحجة سـنة ١٢٦٢ » .

وهنالك جزء ثان فقط ، لم يذكر اسم كاتبه ، وفى نهايته أنه تمت كتابته فى ٢٥ ربيع الأول سنة ١٢٦٢ أيضا . وعلى صفحته الأولى أن المرحوم على فهمى نجل رفاعة بيك رافع الطهطاوى طالعه كله سـنة ١٢٧٨ .

وقد راجعت صفحات هذه المخطوطات الأربعة الكاملة ، وهذا الجزء الثانى الأخير ، وقابلت كثيرا من صفحاتها مع صفحات المطبعة الأميرية ، فلم أجد سوى قليل جدا من الخلافات اللفظيـة ، أو من تقديم أو تأخير لبعض كلمات مما لايزيد معنى أو ينقصه أو يبدله . وعنيت ، بصفة خاصـة ، بالجزء الأخير من كل من المخطوطات الكاملة ، والصفحات الأخيرة منها بصفة أخص ، لعلى أجد مايفيد وجود زيادة ليست فى النسخ المطبوعة ، فلم أجد .

وفى المكتبـة الأزهـرية من « عجائب الآثار » مخطوطان : الأول بخط خليـل ابراهيم المجوز ، انتهى من نسـخه سـنة ١٣٨٩ ، وهـو فى ثلاثة مجلدات . والثانى بخط محمد بن أحمد بن موسى الشاهد الحنفى الأزهرى ، ولم يذكر تاريخ الانتهاء من نسـخه ، وهو فى أربعـة مجلدات . وكلا المخطـوطين منقول عن نسـخة بخط الجبرتى . وكلاهما أيضا ينتهى بنهاية واحـدة هذا نصها : « وهذا آخر الجزء الثالث ، أو الرابع . وبعـده توفى الشيخ ، ولم يكتب شيئا » . وهـو ماختمت به طبعة المطبعة الأميرية ، وطبعة المطبعة الشرفية .

وتنتهى الحوادث التى أرخها الجبرتى فى هذين المخطوطين بنهاية سـنة ١٢٣٦ ، كمـا فى النسخ

المطبوعة ، وكما هو الحال فى جميع النسخ الخطية التى ذكرتها .

وقد راجعت وقابلت هذين المخطوطين ، كما فعلت بالمخطوطات الخمسة فى دار الكتب ، فكانت النتيجة هنا مثلها هناك .

وهذا كله يؤيد ما ذهبت اليه من عدم وجود قسم ، أو جزء ، لم ينشر ، أو نشر ثم صودر ، كما روى جورجى زيدان ، بصيغة التضعيف .

وفى دار الكتب المصرية فهرس مخطوط لعجائب الآثار من عمل المرحوم أحمد تيمور باشا . يشمل الحوادث ، وأسماء الأعلام ، والنقود . وفهرس آخر من عمل المرحوم توفيق اسكاروس يشمل أسماء العلماء المذكورين فى الكتاب ، مرتبة على الحروف .

وفى المكتبة التيمورية مخطوط لعجائب الآثار كتب فى سنة ١٢٨١ . ويوجد مخطوط آخر من هذا الكتاب فى مكتبة السيد الكتانى بفاس ، لم أستطع أن أعرف عنه شيئا . ولعل بعض الباحثين ، ممن يعنون بمثل هذا ، يعرفنا به .

مخطوطات « مظهر التقديس »

اما مظهر التقديس ففى دار الكتب المصرية منه مخطوطان : المخطوط الأول منهما كتب فى سنة ١٢٢٤ (١) قبل وفاة الجبرتى بسبع عشرة سنة ، وبعد أن أتم تأليفه بسبع سنين وخمسة أشهر ، حيث ذكر أنه أتم تأليفه فى شعبان سنة ١٢١٦ .

وفى الصفحة الأولى من هذا المخطوط أسماء خليل رفعت باشا . وخسرو باشا ، وكان أحد ولاة مصر فى فترة من هذا التاريخ (من ١٣ جمادى الأولى سنة ١٢١٦ الى ١٤ المحرم سنة ١٢١٨) . المخطوط فى ١٤٥ ورقة ، أى ٢٩٠ صفحة كبيرة

والمخطوط الثانى من مظهر التقديس كتب فى سنة ١٢٩٣ .

(١) مخطوط رقم ١٠١ م تاريخ .

وقد طالعت ، بامعان ، المخطوط الأول ، الأقدم ، من مظهر التقديس ، وقابلته بما كتب الجبرتى فى تاريخه عن دخول الفرنسيين مصر ، واقامتهم فيها ، وخروجهم منها ، وتأريخه للسنوات الثلاث التى أقاموها بها ، فخرجت من هذه المقابلة بالملاحظات التى ألخصها فيما يلي :

يذكر الجبرتى اسم الشيخ حسن العطار على أنه شريك فى تأليف الكتاب ، فهو يقول فى أوله ، انه ألف كتابه وضم اليه ماكتبه الشيخ حسن العطار من النثر والشعر . ثم يقول عند اختياره اسم الكتاب « وسميناه » مظهر التقديس . وهو عندما ذكر ذلك عن تاريخه قال « سميته » عجائب الآثار . وعندما يورد بعض الشعر يقول انه « لصاحبنا الآتى ذكره » أو لصاحبنا السابق ذكره ، بعد أن ذكر اسم الشيخ العطار .

ولحن نعرف أن الجبرتى لم يقل الشعر .

بدأ الكتاب ، بعد حمد الله ، بمدح الدولة العثمانية الخاقانية ، ثم ربط بين الظواهر السماوية ، كخسوف الشمس وحركات النجوم ، وبين الحوادث الأرضية ، وذكر بعد ذلك قدوم الفرنسيين مصر ودخولهم فيها . مع أن مصر لم يغلبها غالب ، حتى التتار الذين هزموا جند الأرض كله ، كثيرا ما قهرهم جند مصر القاهرة ، حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة

ثم يلوم المماليك على تهاونهم فى تحصين الثغور ، والعناية بعدة الحرب ورجالها . ويورد شعرا ، أعتقد أنه للشيخ العطار هو :

انما هذه البلاد لأقوا
م حموها بالصارم المسلول
وأرى دولة المماليك ما
لت لضروب اللذات ، بالتحصيل
واغتنوا عن تجريد سيف ورمح
بقوام لدن ، وطرف كحيل

ويلومهم كذلك على سلوكهم مع أهل مصر ، ومصادرة أموالهم ، والقسوة عليهم . ثم يذكر السلطان سليماً الثالث وتداركه مصر بتخليصها من الفرنسيين . ويذكر صدره الأعظم يوسف باشا بأوصاف لا تكاد تنتهى من المدح والتفخيم والاشادة والتعظيم .

وتجىء بعد ذلك مقدمة موجزة فى التاريخ ، منذ بدء الخليقة ، ونزول أبى الأنبياء آدم ، وتوارد الرسل لهداية الناس ، والرسالة المحمدية الخالدة ، وملخص فى غاية الايجاز للخلفاء الراشدين ، والدول الاسلامية المختلفة التى أعقبتهم ، وفتوحاتها ، وما جرى بعد ذلك من وقائع حتى دخل العثمانيون مصر .

ثم يبدأ بسرد حوادث الحملة الفرنسية من اليوم العاشر من المحرم سنة ١٢١٣ ، ومن هنا يبدأ فى الاتفاق مع ماكتبه فى عجائب الآثار ، ماعدا خلافات يسيرة ، وتكرار لبعض الفقرات والجمل .

وبعد أن أورد الكتاب منشور نابليون الذى وجهه الى المصريين بعد دخوله الاسكندرية ، أخذ يناقش هذا المنشور ويعلق عليه ، ويفسره . وهذه أشياء لا توجد فى عجائب الآثار .

وفى هذه المناقشة وهذا التفسير ، يحمل مظهر التقديس حملات قاسية على نابليون والفرنسيين .

ولا تقتصر خصومة الجبرتى للفرنسيين فى مظهر التقديس ، وعنفه عليهم ، على هذه المناقشة ، بل نجد الروح التى تسيطر عليه هنا مختلفة عن تلك التى كتب بها فى عجائب الآثار . ونجد الطابع الذى يتميز به مظهر التقديس ، من هذه الناحية ، مغايرا الى حد بعيد لذلك الطابع الذى نجده فى العجائب فهو ، فى مظهر التقديس ، ينعتهم بأوصاف الجهل ، والنفاق ، والخداع ، والظلم ، والخروج على جميع الأديان . ويتمنى زوال دولتهم ، ويظهر التشفى والسرور عند ذكر هزيمتهم أمام مراد بيك فى بعض المواقع ، ويسميهم الملاعين .

ثم هو لا يذكر فى مظهر التقديس ، ما ذكره فى عجائب الآثار ، من أنهم كانوا يأجرون العمال على ما يقومون به من اصلاح أو انشاء فى طرقات القاهرة ومرافقها ، وأنهم كانوا يعطونهم أكثر من الأجر المعتاد .

وكذلك يطوى زيارته مقر علماء الحملة الفرنسية ، واطلاعه على ماكان فيه من الكتب والصور والرسوم ، ومشاهدته عندهم التجارب الطبيعية والكيمائية . واباحتهم لأهل مصر أن يزوروا مقر هؤلاء العلماء ، وأن يفيدوا منه . وهى قطعة كبيرة نجدها فى عجائب الآثار وتفتقدها فى مظهر التقديس .

ويسقط أيضا من مظهر التقديس — فى ختام شهر شوال من سنة ١٢١٣ — قطعة ضمنها فى العجائب ، بعض الأعمال والانشاءات التى قام بها الفرنسيون فى القاهرة .

وحذف منه كذلك قطعة من رسالة نابليون التى وجهها الى أهل مصر يعلل فيها عدم استيلائه على عكا ، وأثبت قطعة كبيرة من قصيدة السيد على الصيرفى ، نزيل عكا فى ذلك الوقت ، لم تذكر فى العجائب .

وقد تضمنت هذه القطعة من القصيدة مطاعن كثيرة فى الفرنسيين ، وفى نابليون .

ونجد فى مظهر التقديس تعليقا على هذه القصيدة ، ونقدا لها ، لعله من وضع الشيخ العطار ، تحدث فيه عن العروض ، والترصيع ، والوتد ، والزحاف . الى غير ذلك من مصطلحات هذا الفن . ونجد ، بعد ذلك ، استدراكا على الشاعر لأنه مدح أحمد باشا الجزار ، حاكم عكا ، على بلائه فى صد نابليون عنها ، ولم يمدح الوزير يوسف باشا على جهاده .

ثم يدافع عن العثمانيين عندما يذكر نابليون فى منشور له ، أن دولتهم فى مصر قد دالت . ويقسو عليه فى ذلك أشد القسوة .

وتحارب العثمانيون والفرنسيون فى الاسكندرية ، فهزم الأولون ، وأسر قائدهم مصطفى باشا ، وكبير منهم هو عثمان خوجا ... فيذكر ذلك فى العجائب ، ولكنه ، فى مظهر التقديس ، يزيد عليه عزاءه للعثمانيين ، وتهوين الأمر عليهم .

ثم يسقط من مظهر التقديس مايدل على ضعف العثمانيين ، أو فساد تدبيرهم ، بعد عقد الصلح مع الفرنسيين .

ومن الملاحظات الخاصة بالصياغة ، ولكنها ذات دلالة ، أنه عندما يذكر نابليون فى عجائب الآثار ، يصفه بأنه « سارى عسكر » الفرنسيين ، أى قائدهم العام . وعندما يذكره فى مظهر التقديس ، يقول « كبير الفرنسيس » . وكذلك يقول فى عجائب الآثار ، عن معسكر العثمانيين « عرضى الوزير » ، وفى مظهر التقديس « عرضى هميون » أى المعسكر السلطانى .

وفى نص واحد نجده يذكر نابليون فى عجائب الآثار باسم « بونابرته » وفى مظهر التقديس بقوله « اللعين » .

ومن لطائف هذه الفروق ، بين « عجائب الآثار » و « مظهر التقديس » ، أنه يذكر خروج الجيش العثمانى الى الصالحية ، بعد فشل الصلح ، وابتداء الحرب بينهم وبين الفرنسيين .... يذكر ذلك فى العجائب ، فيقول ان سببه ضعف هذا الجيش ، واشتغال جنده بجمع المال من البلاد ، وظلم الناس ومصادرتهم .

ويذكر ذلك ، فى مظهر التقديس ، فيقول إن سببه الحرص على شروط الصلح وأنه كان حكمة حربية وبراعة ، وعملا بقول من قال : الحرب خدعة !

ومن الزيادات التى تلفت النظر ، ما ذكر فى مظهر التقديس (1) من أن نابليون عندما دخل عليه الشيخ السادات باستدعاء منه « صار — أى نابليون — يقبل يده تارة ، وركبته أخرى » .

وقد أسقط الجبرتى من مظهر التقديس ، ما سجله فى العجائب ، من عدوان الجند العثمانى على أهل القاهرة ، بعد عودتهم اليها . مع أنه يقول فى العجائب وهو يصف عدوانهم على الناس ، وهم فى ثورتهم على الفرنسيين ، ان أهل البلاد « تمنوا زوالهم ورجوع الفرنسيين على حالتهم التى كانوا عليها » .

كما يسقط رسالة عنيفة وجهها الشيخ السادات الى كتخدا الدولة ، يزجره فيها على عدوان جنده .

كذلك نجد فى العجائب كثيرا من الآيات القرآنية الكريمة التى تخوف من عاقبة الظلم ، ثم لا نجدها فى مظهر التقديس ... كأنما خشى أن يفهم ذكرها على أنه تعريض بالعثمانيين . وكذلك لم يذكر الضرائب والمغارم التى فرضها الفرنسيون على علماء القاهرة وأعيانها ، جزاء اشتراكهم أو تحريضهم على الثورة ، ومناقشة كليبر لهم فى ذلك

وعند ذكره لمقتل الجنرال كليبر ، أسقط السجل الذى أثبته فى العجائب عن مناقشة قاتله ، سليمان الحلبى ، ومحاكمته ، وأقوال الشهود ، والأحكام التى صدرت باعدامه واعدام شركائه الثلاثة ، وأمر القائد العام الجديد ، الجنرال منو ، بتنفيذ هذه الأحكام ، ووصف هذا التنفيذ .

ومن الملاحظات الجديرة بالعناية ، أنه عندما ذكر انشاء الديوان الثالث ، الذى أمر منو بتشكيله من العلماء وحدهم ، أسقط أسماء أعضائه

(1) ورقة ٢٣ .

التسعة . وقد ذكرهم فى العجائب وأشار الى نفسه فيهم بقوله « وكاتبه » .

وكذلك أسقط من مظهر التقديس الوصف الذى أثبته فى العجائب لجلسة هذا الديوان الأولى .

وكان ديجنت كبير الأطباء الفرنسيين ، ألف رسالة فى علاج الجدرى ، لعله أهداها الى الجبرتى . فوصفها فى العجائب بأنها « لا بأس بها فى بابها » . ولكنه فى مظهر التقديس يسقط وصفه لها . وهو لايذكر أيضا تخفيف الفرنسيين لبعض الاتاوات التى كان الوالى والمحتسب يفرضانها على أهل القاهرة . ولا يذكر خبر قدوم الانجليز الى أبى قير ، وحربهم الفرنسيين .

ونجد عند ذكره أنباء عودة العثمانيين للقاهرة شيئا غير قليل من الاختلاف والتغيير ، واسقاطا لحوادث اعتدى فيها جندهم على بعض البائعين من أهل القاهرة ... غصبوهم بضاعتهم ، فلما طولبوا بثمنها ، قتلوهم وقتلوا غيرهم ، حتى رجال الأمن والشرطة .

ثم نجد — بعد وصفه موكب الصدر الأعظم حين دخل القاهرة — قطعة أعتقد أنها من انشاء الشيخ العطار ، فيها ذكر لكبار العثمانيين الذين قدموا معه ، وفيها قصيدة للشيخ أيضا أولها :

انما العز فى متون الجياد

مع بيض الظبا ، وسمر الصعاد

وهى ثلاثة وثلاثون بيتا . وفى هذه القطعة من النثر ، نجد كل اسم من أسماء هؤلاء القادمين ، مسبوقا بطوفان من ألقاب التعظيم والمدح والتفخيم .

وعندما استقر الأمر للعثمانيين ، فرضوا على تجار القاهرة مغارم ، ذكرها فى العجائب ، وطواها فى مظهر التقديس . كما طوى أخبارا أخرى عن بعض المماليك ، وعزل القاضى التركى ، وقتل بنت السيد خليل البكرى ، ومشاجرات وقعت من الجند العثمانى على أهل القاهرة . كما أسقط اشتغال هؤلاء الجند بالبيع والشراء وتستر قادتهم عليهم ، بل دفاعهم عنهم ، لأنهم أنقذوا مصر من الفرنسيين ... !

وفى الشهور الثلاثة الأخيرة من الكتاب ، نجد كثيرا من الأخبار قد حذف ، ونجد بدلا منها أنباء قدوم السادة من كبار العثمانيين ، مثل محمد أفندى شريف ، دفتردار الدولة . ويذكر فى قدومه شعرا ، وقدوم كتخداه — نائبه — عثمان أفندى ، وشمس الدين بيك ، أمير أخور (١) ، ومرجان أغا ، والقاضى مصطفى أفندى دباغ زاده . ولا يذكر ، بعد ذلك ، فى حوادث شهر ربيع الآخر سنة ١٢١٦ ، سوى عودة المحمل . ويسقط القرارات والأوامر التى أصدرتها الدولة بشأن الأموال والضرائب .

ونجد بعض حوادث هذه الشهور الثلاثة فى غير موضعها . ويذكر فى هذه الشهور بعض اعتداءات الجند العثمانى ، وكف الصدر الأعظم لهم عندما علم ذلك .

ثم يسجل كتابا ، نجده فى العجائب ، موجها من السلطان الى عرب البحيرة ، بأن يكفوا عن قطع الطريق ، والعدوان على الناس . وجوابا كتبه الشيخ اسماعيل الخشاب ، على لسان هؤلاء العرب ، بأنهم سيلزمون الطاعة . وهو موجه الى « الصدر الأعظم يوسف باشا ، بلغه الله من المرادات ما شا » . وتاريخ هذا الجواب اليوم الثانى والعشرون من شعبان سنة ١٢١٦ ، وبه تنتهى حوادث مظهر التقديس .

ونجد فى « مظهر التقديس » شيئا قليلا من التغيير والاختلاف عن « عجائب الآثار » ، ولكنه تغيير واختلاف قليل القدر والأهمية . كما نجد بعض الزيادات القليلة أيضا ، غير ما سجلنا من

(١) أمير المذاود ، الموكل بعلف الدواب .

قبل ، كزيادته مدح قائد الجيش التركى ، مصطفى باشا ، الذى أسره الفرنسيون ، لمناسبة اخراجه من الأسر ، ثم سفره بعد ذلك الى دمياط وموته فيها . وزيادته تقبيح الفرنسيين ، وسبهم فى بعض المناسبات ، ووصفه بعض كبارهم بأنه « كلب » وزيادته قطعة من النثر والشعر للشيخ حسن العطار ، وصف فيها بركة الفيل ، وذكر ما أصابها من التخريب على يد الفرنسيين ، عند الثورة عليهم

ومع أنه أسقط من سنتى ١٢١٣ و ١٢١٤ التراجم التى سجلها فى ختام كل سنة من العجائب ، لمن ماتوا فيها . فقد ذكر ، فى حوادث الشهور ، بعض الوفيات ، كوفاة ولدى الشيخ أحمد الجوهرى — محمد ، وعبد الفتاح — والأمير مراد بيك ، والشيخ عبد القادر المغربى . وفى ختام سنة ١٢١٥ بترجم لمن ماتوا فيها ، ولكنه يسقط تراجم العلماء ، ويسجل تراجم المماليك والأمراء .

ونجد كذلك قصيدة للشيخ حسن العطار فى مدح الشيخ عبد القادر المغربى .

وما عدا هذه الفروق ، نجد مظهر التقديس متفقا مع عجائب الآثار : فى الحوادث ، والصياغة ، والترتيب .

وفى نهاية مظهر التقديس خاتمة تتلخص فى أنه من الأوفق أن يجعل ختامه شهر رمضان ... تيمنا به ، واشارة الى أن وجود الصدر الأعظم ، الذى ألف برسمه الكتاب ، فى الأيام ، كوجود شهر الصيام فى الأعوام ، يزيل الفساد ، ويكثر العبادة ، وتنجبر به القلوب ، وتخلص النيات فى كل مرغوب . ولأن فيه ليلة القدر ، والصدر الأعظم شبيه بها فى أن الأمة المحمدية تترقب ظهوره من مدد متطاولة ، ولأن قدومه مصر كقدوم العيد فى نهاية شهر رمضان .

وبعد ذلك شعر فى مدحه ، لا بأس به ، وفى تهنئته بشهر الصوم لا بأس به أيضا ، ويجىء ، بعد الدعاء الكثير ، بيتا التأريخ :

سعد تاريخنا باقبال صدر
بمعالى ثنائه مسطور
فلهذا يقول بشرى ، أرخ
باجتناء السرور جاء الوزير

وقد تم تأليفه فى نهاية شهر شعبان من سنة ١٢١٦ .

وكان الفراغ من تحرير هذه النسخة فى غرة المحرم من سنة ١٢٢٤ .

ونستطيع بعد ذلك أن نسجل أن الفروق التى نجدها فى مظهر التقديس ، عن العجائب ، مردها الى المناسبة التى ألف فيها الكتاب .

فهو عندما دون ما كتب عن الفرنسيين فى عجائب الآثار ، كانوا ما يزالون يقيمون فى مصر ، وهم أصحاب الحول فيها والسلطان . فهو ، فى هذه الحالة ، تتخذ سبيل السلامة ، ويأخذ بالمداراة والتقية ، فلا يتعرض لهم بذم أو ملامة .

وهو ، فى الوقت نفسه ، يترجم عما فى ضميره من تقدير لهم ، وعطف عليهم ، نلمسه فى غير موضع من العجائب ، وندركه من صلاته بهم ، ولو أنه حرص على سترها شيئا ما .

وهو عندما كتب — مع صديقه العطار — « مظهر التقديس » ، كان الفرنسيون قد تركوا مصر ، ولم يبق لهم فيها حول ولا سلطان ، بل عاد السلطان فيها لخصومهم العثمانيين . ومظهر التقديس يؤلف لصدر من صدور الدولة . عند ذلك كتب الجبرتى والعطار ما كتبا فى مذمة الفرنسيين ونابليون ، ووصفاهم بما وصفا .

وما أسقطه من الكتاب أمور لا تهم الصدر الأعظم ولا تهم الدولة .

العصر الذى أرخه الجبرتى

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله رب العالمين ، وبعد فها هو ذا الكتاب الأخير من طبعة كتاب الشعب « المختار من تاريخ الجبرتى » الذى أسماه مؤلفه الشيخ عبد الرحمن الجبرتى « عجائب الآثار ، فى التراجم والأخبار » ، وعرض فيه تاريخ مصر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للهجرة (معظم السابع عشر ، والثامن عشر جميعه ، وأوائل التاسع عشر للميلاد) ، مع المامه الماما عاجلا بالفترة السابقة .

ومع أننا — للأمانة العلمية — قد أطلقنا على طبعة كتاب الشعب «المختار من تاريخ الجبرتى» ، فان هذا لاينطبق انطباقا كاملا الا على الكتابين الأول والثانى ، أما فى الكتب السبعة التالية ، فان اغفالنا سطرا أو بعض سطر ، أو لفظا واحدا فى بعض الأحايين ، لم يكن الا لضرورة فرضها الاختلاف بين روح عصرنا وروح العصر الذى وضع فيه الكتاب . وما أغفل نشره منذ بدء الحملة الفرنسية حتى آخر الكتاب لايبلغ فى مجموعه سطورا قليلة لم يكن من اغفالها مناص لما سبقت الاشارة اليه من دواع وضرورات .

لمحة تاريخية

حكم المماليك مصر منذ منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، الى أن عدا عليها بونابرت فى نهاية القرن الثامن عشر للميلاد . وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم عهد المماليك فى مصر الى ثلاثة عصور :

١ — عصر المماليك البحرية ، أو التركية .
٢ — عصر المماليك البرجية ، أو الشراكسة .
٣ — عصر المماليك العثمانيين ، أو البكوات .

المماليك البحرية (التركية)

سمى المماليك البحرية بهذا الاسم لأنهم ، فى مدة حكم الملك الصالح أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ ﻫ ١٢٤٠ — ١٢٤٩ م) ، ابتنى لهم دورا كبيرة ، ومعاقل متينة ، عند الروضة ، حيث يتفرع « بحر النيل فرعين » ، وحيث يسمى « البحر الكبير » .

وليس الصالح أيوب أول من أوجد هذه الطائفة من المماليك ، ولا هو الذى أطلق عليها هذا الاسم — مع ما أجمع عليه المؤرخون من نسبة ذلك اليه . ذلك أنه كان لدى السلطان الكامل — وهو أبو الصالح أيوب وسلفه فى الحكم بمصر — طائفة من الأجناد اسمها « البحرية العادلية » ، نسبة الى أبيه السلطان العادل ، كما أن الفرقة التى أنشأها الصالح أيوب نفسه كانت تعرف باسم « البحرية الصالحية » [١] .

وجعل الصالح أيوب تلك الطائفة من المماليك حرسه الخاص ، وأسكنها قلعة الروضة من دون طوائف المماليك الأخرى . واستعملهم فى دفع الحملة الصليبية التى قدمت مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا [٢] .

(١) الدكتور محمد مصطفى زيادة ، « بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر » ــ مجلة كلية الاداب ، المجلد الرابع ، الجزء الاول .
(٢) المصدر السابق .

ولما مات الملك الصالح (٦٤٧ هـ — ١٢٩٤م) ، أخفت زوجه شجرة الدر موته ، ودبرت الأمور حتى حضر ابنه توران شاه وولى السلطنة ، ثم دبت الوحشة بينه وبين مماليك أبيه ، فتعصبوا عليه وقتلوه بفارسكور ، وقلدوا فى السلطنة شجرة الدر ثلاثة أشهر ثم خلعت . وشجرة الدر هى آخر الدولة الأيوبية .

وتولى السلطنة بعدها عزالدين أيبك التركمانى ، وهو أول السلاطين من دولة المماليك البحرية أو التركية .

وسلاطين هذه الدولة هم :

عز الدين ايبك التركمانى	٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م)
المنصور	٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م)
المظفر قطز	٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م)
الظاهر بيبرس	٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م)
السعيد ناصر الدين	٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م)
العادل سلامش	٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م)
المنصور قلاوون	٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م)
الأشرف خليل	٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م)
الناصر محمد	٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م)
كتبغا العادل	٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م)
المنصور لاجين	٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م)
الناصر محمد (ثانية)	٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م)
المظفر ركن الدين الجاشنكير	٧٠٨ هـ (١٣٠٩ م)
الناصر محمد (ثالثة)	٧٠٩ هـ (١٣١٠ م)
المنصور الرابع	٧٤١ هـ (١٣٤١ م)
الأشرف كوجك	٧٤٢ هـ (١٣٤١ م)
الناصر شهاب الدين	٧٤٢ هـ (١٣٤٢ م)
الصالح عماد الدين	٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م)
الكامل شعبان	٧٤٦ هـ (١٣٤٥ م)
المظفر حاجى	٧٤٧ هـ (١٣٤٦ م)
السلطان حسن	٧٤٨ هـ (١٣٤٦ م)
الصالح صلاح الدين	٧٥٢ هـ (١٣٥١ م)
السلطان حسن (ثانية)	٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م)
المنصور بن المظفر حاجى	٧٦٢ هـ (١٣٦١ م)
الأشرف شعبان	٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م)
المنصور علاء الدين	٧٧٨ هـ (١٣٧٧ م)
زين الدين حاجى	٧٨٣ هـ (١٣٨١ م)

المماليك البرجية (الشراكسة)

بدأ قيام طائفة المماليك البرجية فى أيام السلطان قلاوون ، ثامن سلاطين دولة المماليك البحرية (٦٧٨ — ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م) .

وبدأت دولة المماليك البرجية — أو الشراكسة — بتولى السلطان الظاهر برقوق الشركسى (٧٨٤ — ٨٠١ هـ / ١٣٨٢ — ١٣٩٨ م) .

وانفردت هذه الطائفة من المماليك بالانتساب الى أمة من الأمم . أما من عداها — منذ نشأة طائفة المماليك فى أواخر الدولة العباسية ، الى أن دالت دولتهم بعد مذبحة القلعة فى عهد محمد على — فلم ينتسبوا الى جنس بعينه ، ولا انتموا الى أمة بذاتها ، بل كانوا خليطا من بنى الأمم المختلفة يباعون ويشترون ، ويجلبهم النخاسون والقراصنة من حيث يقعون عليهم : تارة من التتر والمغول والشراكسة ومن اليهم من الشعوب التى تسكن شواطىء بحر قزوين ، وتارة من جزر بحر ايجة وسائر جزر البحر الأبيض المتوسط ، وتارة أخرى من اليونان وغيرها من البلاد الأوربية التى تشرف على البحر المذكور .

ويتجوز المؤرخون كثيرا حين يطلقون اسم « المماليك » على سلاطين الشراكسة . فكل من تولوا السلطنة بعد برقوق لم يكونوا « مماليك » فى يوم من الأيام ، بل انهم شبوا — فى العز والامارة — أولياء عهد للسلطنة ، يتولاها الخلف منهم عن السلف .

وسلاطين المماليك الشراكسة هم :

الظاهر برقوق	٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م)
الناصر فرج	٨٠١ هـ (١٣٩٩ م)
المنصور عبد العزيز	٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م)
الناصر فرج (ثانية)	٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م)
المستعين بالله	٨١٥ هـ (١٤١٢ م)
الشيخ المحمودى (المؤيد)	٨١٥ هـ (١٤١٢ م)
المظفر أحمد بن المحمودى	٨٢٤ هـ (١٤٢١ م)
الأشرف برسباى	٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م)
العزيز يوسف	٨٤١ هـ (١٤٣٨ م)
الظاهر جقمق	٨٤٢ هـ (١٤٣٨ م)
المنصور عثمان	٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م)
الأشرف اينال	٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م)
المؤيد أحمد	٨٦٥ هـ (١٤٦١ م)
الظاهر خوشقدم	٨٦٥ هـ (١٤٦١ م)
الظاهر يلباى	٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م)
تيمور بغا الظاهرى	٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م)
الأشرف قايتباى	٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م)
الناصر محمد بن قايتباى	٩٠١ هـ (١٤٩٦ م)
الظاهر قانصوه الأشرفى	٩٠٤ هـ (١٤٩٨ م)
الأشرف جنبلاط	٩٠٥ هـ (١٥٠٠ م)
العادل طومان باى	٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م)
قانصوه الغورى	٩٠٦ هـ (١٥٠١ م)
طوماى باى الثانى	٩٢٢ هـ (١٥١٦ م)

وكانت مصر طـوال أيام هاتين الدولتين — المماليك البحرية والشراكسة — دولة مستقلة ، لا تدفع جزية ولا خـراجا لدولة أجنبية . وكان بمصر ، أحيانا ، خليفة عباسى ، يعيش فى كنف السلطان المملوكى ، فيضـفى على حكمه صبغة شرعية ، غير أن هذا كان أمرا شكليا لا وزن له من الناحية العملية .

وفى عهد السلطان قانصوه الغورى عدا السلطان سليم على الشرق ، فخرج الغورى للقائه عند مرج دابق قرب حلب . ولم يستطع العادى التركى انزال الهزيمة بالجيش المصرى الا بالغدر والخيانة ، ذلك أنه اتصـل باثنين من أمراء الغورى الخونة — هما خير بك والغزالى — فخـذلا مولاهما ، وخانا بـلادا أحسنت اليهما ، ومكنا سـليما من أرض الشام ومصر .

وتولى بعد الغورى ، طومان باى ، فوقف لسليم يصد زحفه ، ولكنه تمكن منه بسلاح الغدر مرة أخرى ، وسـلم الخونة طومان باى الى سليم ، فسجنه ، ثم أعدمه على باب زويلة .

العصر العثمانى ، والولاة الأتراك

وبموت طومان باى (٩٢٣ هـ — ١٥١٧ م) ، انتهت دولة المماليك الشراكسـة . وباستسـلام جيوشـه ، أصبحت مصر ولاية عثمانية ، تؤدى الخـراج لعـاصمة امبراطورية آل عثمان — أو « الديار الرومية » كما يسميها الجبرتى !

وكافأ السلطان سليم ، الخائن « خير بك » ، فأقامه نائبا عنه فى مصر ، أو « واليا » عليها ، أو « مندوبا ساميا » لتركيا . فكان أول « الولاة » أو « الباشوات » الذين تولى منهم فى ٢٨٨ عاما (بين ١٥١٧ و ١٨٠٥ م) مائة وأربعة وعشرون واليا ، متوسط بقاء الواحد منهم فى الولاية نحو العامين ، وكثيرا ما تولى منهم فى العام الواحد واليان !

وهؤلاء الولاة العثمانيون هم [١] :

خير بك (ولقب بالباشا)	١٥١٧ م
مصطفى باشا	١٥٢٢ م
أحمد باشا	١٥٢٣ م
قاسم باشا	١٥٢٤ م

١ — وجدنا فى أسماء هؤلاء الولاة الى مصـدرين عربيين ، أحدهما قديم ، والآخر حديث ، ومصدر افرنجى ... فلم نجدها متفقة تمام الاتفاق ، فأثبتنا أرجحها .

ابراهيم باشا	١٥٢٥ م
سليمان باشا الخادم	١٥٢٧ م
داود باشا	١٥٣٨ م
على باشا	١٥٤٩ م
محمد باشا زاده	١٥٥٤ م
اسكندر باشا	١٥٥٦ م
على باشا الخادم	١٥٦١ م
مصطفى باشا الثانى	١٥٦١ م
على باشا الصوفى	١٥٦٣ م
محمود باشا	١٥٦٦ م
سنان باشا	١٥٦٧ م
حسين باشا	١٥٧٣ م
حسين باشا مسيح	١٥٧٥ م
حسن باشا الخادم	١٥٨٠ م
ابراهيم باشا	١٥٨٣ م
سنان باشا الثانى	١٥٨٤ م
عويس باشا	١٥٨٥ م
أحمد باشا الخادم	١٥٩١ م
قورط باشا (أوكرد)	١٥٩٥ م
محمد باشا الشريف	١٥٩٦ م
خضر باشا	١٥٩٨ م
على باشا السلحدار	١٦٠١ م
ابراهيم باشا	١٦٠٤ م
محمد باشا الكورجى (الخادم)	١٦٠٥ م
حسن باشا	١٦٠٥ م
محمد باشا	١٦٠٧ م
محمد باشا الصوفى	١٦١٢ م
أحمد باشا الدفتردار	١٦١٣ م
مصطفى باشا لفقلى	١٦١٧ م
جعفر باشا	١٦١٨ م
مصطفى باشا	١٦١٩ م
محمد باشا	١٦٢٢ م

ابراهيم باشا	١٦٢٢ م
مصطفى باشا (ثانية)	١٦٢٣ م
بيرام باشا	١٦٢٧ م
محمد باشا	١٦٢٩ م
موسى باشا	١٦٣٠ م
حسن بيك (مؤقتا)	١٦٣١ م
خليل باشا البستانجى	١٦٣١ م
أحمد باشا الكورجى	١٦٣٣ م
حسين باشا	١٦٣٦ م
محمد باشا أحمد	١٦٣٨ م
مصطفى باشا البستانجى	١٦٣٩ م
مقصود باشا	١٦٤٠ م
سفيان بيك (مؤقتا)	١٦٤٥ م
أيوب باشا	١٦٤٥ م
محمد باشا حيدر	١٦٤٧ م
أحمد باشا	١٦٤٨ م
عبد الرحمن باشا	١٦٥١ م
محمد باشا السلحدار	١٦٥٢ م
عمر باشا	١٦٥٦ م
أحمد باشا	١٦٦٦ م
ابراهيم باشا	١٦٦٧ م
حسين باشا	١٦٧٤ م
عثمان باشا	١٦٨٠ م
حسين باشا السلحدار	١٦٨٨ م
أحمد باشا	١٦٩٠ م
على باشا قلج	١٦٩١ م
اسماعيل باشا	١٦٩٦ م
حسين باشا	١٦٩٨ م
أحمد قره محمد باشا	١٦٩٩ م
محمد رآمى باشا	١٧٠٤ م
على مسلم باشا	١٧٠٦ م
حسين باشا كتخدا	١٧٠٧ م
ابراهيم باشا القبودان	١٧٠٩ م

خليل باشا	١٧١٠ م
ولى باشا	١٧١١ م
عابدين باشا	١٧١٥ م
على باشا الأزميرلى	١٧١٧ م
رجب باشا	١٧١٨ م
محمد باشا الباشيمى	١٧٢٠ م
على باشا (لمدة شهرين خلال مدة حكم محمد باشا)	١٧٢٥ م
باكير باشا	١٧٢٩ م
عبد الله باشا الكبورلى	١٧٢٩ م
محمد باشا السلحدار	١٧٣٢ م
عثمان باشا الحلبى	١٧٣٣ م
باكير باشا (ثانية)	١٧٣٥ م
مصطفى باشا	١٧٣٦ م
سليمان باشا ابن العظم	١٧٣٩ م
على باشا حكيم اوغلى	١٧٤٠ م
يحيى باشا	١٧٤١ م
محمد باشا اليدكشى	١٧٤٣ م
محمد راغب باشا	١٧٤٥ م
احمد باشا كور وزير	١٧٤٨ م
شريف عبد الله باشا	١٧٥٠ م
محمد أمين باشا	١٧٥٣ م
مصطفى باشا	١٧٥٣ م
على باشا حكيم أوغلى (ثانيا)	١٧٥٦ م
محمد سعيد باشا	١٧٥٨ م
مصطفى باشا	١٧٥٩ م
أحمد كامل باشا	١٧٦١ م
باكير باشا	١٧٦٢ م
حسن باشا	١٧٦٢ م
حمزة باشا	١٧٦٥ م
محمد راقم باشا	١٧٦٧ م
محمد باشا الأورفلى	١٧٦٨ م
أحمد باشا	١٧٧٠ م
قره خليل باشا	١٧٧٠ م
مصطفى باشا النابلسى	١٧٧٤ م
ابراهيم باشا عرب كيرلى	١٧٧٥ م
محمد باشا عزت	١٧٧٦ م
اسماعيل باشا	١٧٧٨ م
ابراهيم باشا (مات قبل أن يتولى ، فظل اسماعيل باشا فى الولاية)	١٧٧٩ م
محمد باشا مالك	١٧٨١ م
على باشا القصاب	١٧٨٢ م
محمد باشا السلحدار	١٧٨٣ م
محمد باشا يكن	١٧٨٥ م
عابدين باشا الشريف	١٧٨٧ م
اسماعيل باشا التونسى	١٧٨٩ م
محمد باشا عزت	١٧٩١ م
صالح باشا القيصرلى	١٧٩٤ م
أبو بكر باشا الطرابلسى	١٧٩٦ م
خسرو باشا	١٨٠١ م
طاهر باشا	١٨٠٢ م
أحمد باشا	١٨٠٢ م
على باشا الجزايرلى	١٨٠٣ م
خورشيد باشا	١٨٠٤ م
محمد على باشا	١٨٠٥ م

وكانت تركيا تحرص على بقاء نفوذ المماليك ، الى جانب نفوذ الولاة : خوفا من استقلال أحد ولاتها بمصر .

وحين جاشت المطامع فى صدر محمد على وأراد الاستبداد بالأمر فى مصر ، والاستقلال عن تركيا ، لم يجد مناصا من التخلص من المماليك ، فدبر لهم مذبحة القلعة التى أفنى فيها منهم من أفنى ، وشرد الباقين فى البلاد ، فلم تقم لهم من بعد ذلك اليوم قائمة .

شرح لبعض المصطلحات*
الواردة فى تاريخ الجبرتى

ابعاديات

هى الأراضى البور أو غير المزروعة .

اتك

ذيل الثوب . ويقبّل أتكه : أى ذيل ثوبه .

اراضى الاثر

الأرض التى يتوارثها الأبناء عن الآباء ولصاحبها حق التصرف فيها بالبيع والشراء .

ارباب الدرك

رجال البوليس .

أرباب العكاكيز

أصحاب الطرق الصوفية .

أرض الشراقى

الأرض التى ينحسر عنها الماء وتبقى بلا زراعة

أروام

يقصد بهم الأتراك .

اسباهية

الخيـالة . أطلقت عـلى الأوجاقات الثـلاثة : جمليـان ، وتفكشـيان ، وجراكسـة . ومهمتها فى القـاهرة : الاشراف التـام على الباشا ورجاله بواسطة كبراء الأوجاقات المقيمين فيها ، وفى الأقاليم بواسـطة من يقيم فى الأقاليـم من رجال هـذه الأوجاقات وبخاصة الجوربجية .

استادار

اليه أمر البيوت السـلطانية كلهـا من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان وهو الذى كان يمشى بطلب السـلطان فى السرحات والأسـفار ، وله الحكم فى غلمان السلطان وباب داره واليـه أمور الجاشنكيرية .

اشاير

الأعلام التى يحملها أصحاب الطرق الصوفية .

اغا بيت المال

صاحب بيت المال .

اغاسى

رتبة عسكرية تعادل « صاغ » .

اغا الطواشين

رئيس البوليس .

اغات تفكجية

له رياسة الجند المسلحين .

اغات جمليان

جمليان : طائفة من الفرسان ، وأغات جمليان ، رئيس الفرسان .

اغات مستحفظان

مدير السجلات .

اغات الانكشارية

أى قائد الجند الانكشارية ، وهم الطائفـة من الجند التى يطلق عليها أحيانا « الينكجرية » .

افندية

جمع أفندى فى التركية بمعنى صـاحب ومالك ومولى وسيد ، والرجل الرقيق الحاشية ، الدمث الطباع ، والقارىء والكاتب بصفة عامة ، والعالم ورب القلم ، وهو عنوان تعظيم فيقال : فلان باشا أفندى أو فلان بيك أفندى وكانت تطلق على كتّاب ديوان الروزنامة . وكبير الأفندية هو الروزنامجى والحاكم عليهم ، وخدمته تحصيل الأموال الأميرية وصرفها فى مرتباتهـا المرتبة بموجب دفتر . وكان الباشا يعينه بموافقة شيخ البلد والصناجق ورؤساء الأوجاقات .

---

* استعنا فى كثير مما ورد فى هذا الجزء بمقال نشر فى عدد مايو ١٩٣٦ من مجلة كلية الاداب للمؤرخ الكبير الاستاذ شفيق غربال ، باذن كريم منه .

أكاديش

الخيول غير العربية .

الجى

مأخوذة من الفارسية « ايلجى » ومعناها سفير .

الضاشات

أتباع .

امراء شين اغلى

وأحدهم : رئيس بضعة من الأمراء المماليك

امير اخور

أمير المذاود الموكل بعلف الدواب .

امير الحج

وظيفته مرافقة الحجاج وتوزيع الصدقات والهدايا التى ترسل سنويا الى الحرمين الشريفين .

امين الاحتساب

المسئول الأول عن التموين والأسعار .

امين البحرين

المشرف على الرسوم المفروضة على الغلال الواردة على ساحلى بولاق ومصر العتيقة وله الاشراف على السفن التى تسير فى النيل والبحيرات .

امين الخردة

هو المشرف على جميع الرسوم المفروضة على الملاهى وما اليها .

امين الشون

وينتسب الى أوجاق الجاوشان . ويطلق عليه أيضا « اسم أمين الأنبار » . يشرف على شون الغلال الأميرية ، وقد كان الجزء الأكبر من أراضى الصعيد يجبى ماله غلالا . وكانت له عوائد من نقد وغلال على كل ملتزم يؤدى المال غلالا ، هذا الى أنه كان مسموحا له بأن يستعمل عند صرف الغلال من الشون لمستحقيها كيلا أصغر من الكيل الذى استعمله عند الاستلام من دافعى الضرائب ، والفرق بين الكيلين له !

امين الصرة

هو مندوب الباب العالى لتسلم الأموال السنوية المفروضة على البلد .

انختار اغاسى

صاحب المفتاح .

انكشارية

هم الينكجرية أى الجند الجديد . وأغاة الينكجرية ، أو رئيس وجاق الانكشارية ، هو رئيس الجند فى مصر ، وهو بمثابة محافظ القاهرة الآن .

اواسى

الأوسية ، أو « الوسية » ، هى ذلك الجزء من حصة الالتزام الذى لا يوزع على الفلاحين ، بل يزرعه الملتزم لحسابه . وكانت لا تدفع عنها ضريبة بل يخصص ريعها للانفاق منه على المسافرين والجند وموظفى الحكومة الذين ينزلون ضيوفا على الملتزم .

اودة باشى

من ضباط الوجاقات ، وكانت تسميه العامة (فى ذلك الوقت) « أبو طبق » لأنه كان يلبس فوق رأسه لبادة سوداء كالقبعة ولها حافة تشبه الطبق .

اوراق جامكية

مرتبات الجند وكانت تمنح لغيرهم كمرتبات خيرية .

أوقاف الدشيشة

الدشيشة : طعام يتخذ من قمح مرضوض . والدشيشةالكبرى ترجع الى عهدالسلطان قايتباى. والدشايش الأخرى ترجع الى العهد العثمانى .

باش

باش و « باشى » — التى ترد كثيرا فى بداية بعض الألقاب المركبة أو نهايتها — لا علاقة لها بلقب « باشا » . فهى لفظ تركى معناه رأس . واذا وردت فى الاستعمال العربى فى أول الكلمة ، كتبت « باش » . واذا وردت فى نهايتها ، كتبت « باشى » وأحيانا تنطق « باشه » .

باشا

الباشا هو وكيل السلطان العثمانى فى مصر .

وكان مقره بالقلعة . وكان يعين لسنة واحـدة قابلة للتجديد . ولكن بقاء بعض الباشوات مددا طويلة لتجديد مددهم ، وعزل بعضهم أو نقله قبل انقضاء العام ، جعل متوسط بقاء الواحد منهم فى باشوية مصر نحو سنتين .

ويجب ألا يخلط بين لقب « باشا مصر » ولقب « الوالى » ، فان الوالى فى ذلك العهد كان يطلق عادة على رجل وظيفته صـيانة الأمن فى المدينة ، وما يتعلق بذلك ، فهو شبيه بحكمـدار البوليس فى أيامنا .

باشا جاجرت

رئيس محررى دفاتر الأراضى .

باشجاويش

رتبة عسكرية ، قائد فرقة حربية . مع ملاحظة أن فى عهد محمد على أصبحت تطلق على كل رئيس مدنى أو عسـكرى حتى كانت تطلق على أوائل الطلبة فى المدارس .

برانى

زيادة خارجة عن المال الميرى المطلوب للسلطان عن الأراضى الزراعية .

بشلى

ساعى ، رسول .

بصاصون

الحرس (الغفر) .

بطط

أوعية مصنوعة من الجلود لتملأ بالبارود .

بلانات

النساء اللاتى يقمن بخدمة النساء فى الحمامات العامة .

بلكات

الحاميات العثمانية وعددها ستة فى مصر .

بندقى جنزرلى

كانت قيمته أكثر قليلا من مائة بارة والبارة ثلاثة مليمات .

تطريدة

تجريدة أو حملة من العساكر .

تفكجى

الجندى من حملة الأسلحة النارية .

تمكينات

من أهم اصـطلاحات ذلك العصر ، فلا بد من « تمكين » قديم أو جـديد ، واقعى أو وهمى ، لاكتساب حق أو الانتفاع بحق .

جاووجان

حامية مهمتها جمع الضرائب .

جراكسة

حامية من حاميات البكوات المماليك الجراكسة .

جزية

الجزية هى ضريبة كانت مفروضة على الذكور البالغين من أهل الذمة من نصارى ويهود .

جفالك

جمع جفلك ، اسم يطلق على مقدار جسيم من الأطيان التى كانت تعطى للعائلة الخديوية .

جماكى

جماكى جمع جمكية أو جامكية . وهى كلمـة فارسية تعنى أصلا المرتب يصرف لشراء الملبس . ثم أصبحت فى الاصطلاح العثمانى المملوكى تعنى مرتب الجنود .

جمرك البهار

جمرك للبضائع الواردة الى السويس، وهو فى الطريق بين القاهرة والسويس .

جوربجى

كان يطلق فى الاستعمال العثمـانى على ضباط الانكشارية وعلى مختارى القرى المتقدمين فيها أو بعبارة أخـرى على أعيان الجهـات . وهى رتبة عسكرية تعادل اليوزباشى .

حرفوش

أحد أبناء البلد ، جمعها : حرافيش .

حق طريق

رسوم المرور .

حلوان

الحلوان هو الرسم الذى تتقاضاه الحـكومة لنقل حق أو منفعة من شخص الى شخص آخر .

فحلوان بلاد الأموات مثلا ، معناه أن حصص الالتزام التى يموت ملتزموها — فتصبح بذلك بلاد أموات — يستطيع ورثة هؤلاء الملتزمين نقلها الى أنفسهم بشرط تأدية الحلوان — فهو ، فى هذه الحالة ، بمثابة « رسم التسجيل » .

حمامجى أوغلى

الأغا المختص بالحمام .

خازندار

أمين الخزانة وظيفته حمل الخراج سنويا الى الآستانة .

خاصكية

حرس الباشا .

خردة

رسوم مفروضة على الملاهى والنساء « العوالم » والحواه ومن يماثلهم .

خزنة او خزينة

الخزانة أو الخزينة ، فى اصطلاحهم ، هى مقدار ما يبقى مما يجبى من مصر من ضرائب بعد انفاق كل ما قرر السلطان انفاقه ، ويرسل هذا الباقى لعاصمة الدولة .

ولم يكن ما تحويه « الخزنة » مبلغا ثابتا ، فان الحكومة العثمانية كانت تأمر أحيانا بأن تخصم منه نفقة اضافية . وأحيانا كان الباشا يخصم من الخزنة لتسديد عجز فى بعض الأبواب المقررة ، أو لمواجهة طلب استثنائى .

وكانت ترسل الى استانبول فى احتفال كبير .

وفى الأيام السابقة للفتح الفرنسى كانت أيدى المماليك قد بدأت تمتد الى مال الخزنة . ثم أصبحوا يرسلونها مرة ، ولا يرسلونها مرة أخرى ، على حسب أهوائهم ، معتذرين بمختلف الأعذار.

وقال الجبرتى عن الخزنة التى أرسلت فى سنة ١١٨٠ هـ : « ... وهى آخر خزينة رأيناها سافرت الى اسلامبول على الوضع القديم » .

وقد تطلق « الخزانة » أيضا — أو « الصرة » — على المال الذى كان يرسل مع أمير الحج الى الحرمين . ولم تسلم هذه الخزنة أيضا من أيدى أمراء المماليك !

خشداش

أو خوشداش أو خجداش أو خوجداش ، معرب اللفظ الفارسى خواجاتاش ومعناه الزميل فى الخدمة أو الزميل فى الرق . وخوش أى السرور والخشداشية فى اصطلاح عصر المماليك بمصر ، هم المماليك الذين نشأوا عند أستاذ واحد .

دفتردار

كبير الشئون المالية . وكان عادة من الصناجق من أمراء المماليك المصريين وعليه ضبط الحسابات وحفظ الدفاتر والسجلات ولا ينفذ أمر بيع عقار الا بعد توقيعه عليه اشارة الى تسجيله فى دفاتره . وعليه الحضور فى كل ديوان لتحصيل الأموال الميرية بموجب دفتر الروزنامجى . وله عوائد على طرف الميرى وعلى طرف الباشا وعلى حلوان بلاد الأموات عن كل كيس حلوان ألف فضة ، وله فراوى على الباشا فى أربعة أوقات : حين قدومه وحين عزله ، وفى وقت تحصيل مال الصرة الشريفة ، وفى وقت تشهيل الخزنة ، وفروة على أمير الحج وقت التسليم (أى وقت تسليم أمير الحج الصرة)

ويساعده جماعة من الموظفين ، ويشد أزره حرسه الخاص وأوجاق الانكشارية من الحامية العثمانية فى مصر .

دلاة

أو دولاتية : جمع ديلى ، وهى كلمة تركية معناها المجنون وأطلقت كلمة دلاة أو دلاتية (جند من أكراد سوريا) على هذا الجيش لشهرة رجاله بالتهور فى البسالة .

دونانمة همايون

الأسطول العثمانى .

ديوان

مجلس شورى الباشا . يتألف الديوان من ضباط الفرق (الوجاقلية) ، والدفتردار ، والخازندار والروزنامجى .

ولهذا الديوان سلطة كبيرة فى ادارة الحكومة لأن الباشا (الوالى) لا يستطيع أن يبرم أمرا الا بموافقة أعضائه ، واذا وقع خلاف بينه وبينهم يؤجل البت فيه الى أن يرفع الى الآستانة . ولهم أن يطلبوا عزله . فكانت سلطة ديوان الفرق بمثابة رقابة واشراف على سلطة الوالى .

ديوان افندى

وصحتها ديوان أفنديسى وهو سكرتير الديوان أو رئيس كتابه .

ديوان صغير

أو الديوان فقط ، ويتألف من كتخدا (نائب الباشا) والدفتردار والروزنامجى ومندوب عن كل وجاق والأغا (الرئيس) وكبار الضباط من وجاق المتفرقة ووجاق الشاويشية وينعقد كل يوم فى قصر الوالى وينظر فيما تحتاج إليه البلاد . وكان الباشا يبلغ أمره للديوان الكبير بوساطة كتخدائه (نائبه) وعليه تنفيذ قرارات الديوانين وكان يحضر جلساتها دون أن يشترك فى مداولاتها .

رزق

جمع رزقة . وهى الأرض التى كان ينعم بها السلاطين على بعض الناس يتصرفون فيها كيف شاءوا ، وهذه الأراضى معفاة من الضرائب ولذلك تسمى « أرض رزقة بلا مال » . وكانت ادارة الروزنامة تعطى المنعم عليه بمثل هذه الأراضى « تقسيطا » أو سندا للتمليك يخوله ملكها ملكا مطلقا ، مع حقه فى التصرف فيها .

رفع المظالم

استبعاد سبب الشكاوى .

رميلة

ميدان صلاح الدين بالقلعة ، والمعروف بالمنشية .

روزنامجى

وظيفته ادارة الخراج (ضرائب الأطيان أو أموال الميرى) وضبط حساباته .

روزنامة

فارسية الأصل معناها « الجرنال » أو التقويم . ويطلق اسم الروزنامة على مكتب الحسابات العامة لقيد الدخل والمنصرف ويعرف باسم « باش قلم » أى المكتب الرئيسى و « ميزان » أو « ميزانية » . ويجرى به رسم الحالة المالية مرة فى كل عام أو ستة شهور فى « خلاصة اجمالية » مقدرة بالكيس .

روك

(أو التأريع) أى مساحة الأراضى ومراجعة مكلفاتها القديمة وفحص حاصلات الأراضى وتوزيعها وربط زمامها .

سارى عسكر

قائد القوات .

سدادرة

الرؤساء .

سرجشم

بكباشى .

سزدار

نائب السلطنة : الذى فى يده سر الدار ، الذى يحل محل الباشا أثناء غيابه .

سفاشية

جنود الخيالة .

سلحدار

حافظ السلاح .

سماط

الوليمة : (العزومة) .

شنك

صواريخ ، أو مدافع تطلق للابتهاج أو للتحية .

صرة

المال المرسل للحرمين أو الى الآستانة .

صناجق

الصنجق أو السنجق او السنجاق كلمة تركية معناها العلم أو اللواء . وقد أصبحت تطلق على القسم من الولاية الكبيرة . ولا يزال مرادفها فى

العربية — وهو « اللواء » — يطلق على المعنى نفسه فى بعض الأقطار العربية .

والصنجق أيضا هو الحاكم على هــذا الجزء من الولاية .

وقد تكون « الصنجقية » أيضا مجرد رتبة ، دون أن يكون حاملها حاكما لصنجقية . فرتبــة « صنجق طبلخانة » مثلا ، كانت تكسب صاحبها الحق فى أن يدق له الطبــل وغــيره من الآلات الموسيقية عند قدومه ...

وكان عدد صناجق البلاد ، أول الأمر ، أربعة وعشرين . ثم احتفظت الدولة العثمانية لنفســها بالحق فى اعطاء هذه الرتبة ، كما احتفظت بالحق فى تعيين صناجق الثغور الثلاثة المهمة : الاسكندرية ودمياط والسويس .

أما التعيين للصنجقيات الباقية فكان يحدث فى مصر نفسها تبعا لقوة المتنافسين عليهــا . فــكان صاحب النفوذ يسعى لجعل الصناجق من تابعيه أو مماليكه .

وكان على الصــناجق « مال ميرى » يؤدونه للحكومة نظير وظائفهم .

صنجقية

اقليم : مديرية .

ضربخانة

دار الضرب التى تسك فيها النقود .

ططرى

ساع : « حضر ططرى من الدولة وعلى يده مثال » بمعنى حضر رسول أو ساع وبيده رسالة .

عرضى

مأخوذة من التركية « أوردو » ومعناها الجيش أو الفيلق وتؤدى معنى المعسكر .

عزبان

طائفة كانوا فى الأصل من جند البحر من حملة البنادق .

عوائد

لم يكن من الضرورى أن تدفع الحــكومة فى ذلك العهد للموظف مرتبا ثابتا شاملا كماهو الحال الآن ، بل ترتب له « عوائد » على أبواب مختلفة من دخل وظيفتــه ، أو تعطيه حق فرض رسوم يجبيها لنفسه على أصحاب المصالح الذين ينجز لهم عملا ، وهكذا . أو قد تدفع له مرتبا ، وتبيح له أن يضيف اليه « عوائد » تقررها له .

وكانت الحــكومة اذ ذاك تفرض على بعض أصحاب المناصب أن يؤدوا لها مالا سنويا نظير تمتعهم بعوائد منــاصبهم ، وهو ما كان يسمى « ميرى الوظائف » .

ولم تكن هذه « العوائد » مقصورة على صغار الموظفين ، بل ان « الباشا » نفسه كانت له عوائد ، منها مثلا : « أربعمائة فضــة على كل فرق بن مستورد » . والفضة كانت مسكوكات دقيقة من الفضة أو النحــاس يطلق على الواحــدة منها « نصف » أو « نصف فضة » . و « الفرق » هو الزنبيل الذى يسع نحو ثلاثة قناطير ونصف قنطار من البن .

غز

يقصد بهم المماليك .

فائض الالتزام

هو الفرق بين ما يدفعه الفــلاح للملتزم وبين ما يورده الملتزم لخزينة الروزنامة .

فردة

ضريبة استثنائية .

فرضة

ضريبة الرؤوس .

فرمان

الأمر العالى يصدر من السلطان .

قاضى

كان القاضى هو النائب عن السلطان فى الأحكام الشرعية ، وكان يحضر كل عام من استانبول الى مصر . وكانت وظيفته أن يحكم بين الناس بالوجه الشرعى ، وله الختم والعلامة على جميع التمكينات

— مثل الحجج والتقارير وما اليها . وله عوائد معلومة على جميع وقاف بمصر ، وعلى جميع التمكينات التى يقع فيها البيع والشراء .

وكان من تحت يده محاكم فى مختلف الجهات ، بها قضاة ، وكل محكمة فيها سجل للقيد ، ويعرض على القاضى التركى ما يقيد بالسجلات شهرا شهرا ، ويعلم عليه بالعلامة والختم . وكان لهؤلاء القضاة عوائد على الناس بحسب الوقائع والبيع والشراء ، والقاضى التركى له عوائد على القضاة المذكورين فى كل شهر .

وبقى الأمر كذلك الى وقت الاحتلال الفرنسى حين عهد الفرنسيون الى عالم مصرى — هو الشيخ العريشى — رياسة القضاء . وبعد جلاء الفرنسيين عاد الأمر الى ما كان عليه ، واستمر كذلك الى أن انقطعت علاقة مصر بتركيا فى سنة ١٩١٤ عند قيام الحرب العالمية الأولى .

قابجية

سعاة .

قائمقام

لقب شيخ البلد . وهو الاستعمال الاصطلاحى . وتستعمل قائمقام أيضا فى معناها الأصلى لكل من يقوم مقام أحد ما ، كقائمقام الباشا مثلا لمن يقوم مقام الباشا عندما تكون الباشوية خالية .

قبودان

قائد البحرية .

قربانة

البندقية .

قشلة

المستشفى أو المصحة .

قلبق

غطاء للرأس من الفرو أو القطيفة كان يلبسه أهل القوقاز .

قلق

مركز العسكر أو ما نسميه الآن « نقطة البوليس » ويطلق على المخفر ، أو ضابطه ، أو أحد رجاله .

قليونجية

البحرية .

قناطيش

نوع من الملابس .

قنجة

مركب .

قواسة

الحرس .

قولانة

غطاء للرأس .

كاشف

هو بمثابة المدير اليوم اذا كان يحكم المديرية كلها وبمثابة وكيل المديرية او مأمور المركز اذا كان يحكم جزءا منها .

وكلمة كاشف مأخوذة من فعل كشف ، لأن الأصل فى وظيفة الكشاف أن يكشفوا أحوال المديريات . ولما اتسعت سلطتهم وصار اليهم الحكم وأخذوا المديريات التزاما بقى الاسم القديم ملازما لهم وصار الكاشف يحكم المديرية أو جزءا منها باسم البيك .

كبكبة

جلبة الخيل فى المسير .

كتخدا

هو الوكيل عن الباشا ، ويعينه السلطان برتبة صنجق ويتغير بتغير الباشوات . وقد حرفه الاستعمال الى « كخيا » .

كتخدا مستحفظان

وكيل محافظة .

كخيا

محرفة من كلمة كتخدا (انظر كلمة كتخدا)

كرنكة

الاختفاء خلف المتاريس .

كورنتيلة

حجر صحى .

يساوى ٥٠٠ قرش من عملة ذلك العصر ، أو ٢٥ ألف نصف فضة .

لك

مائة ألف فرنسا .

مال الحلوان

رسم تسجيل .

مال الكشوفية

هى نفقات الادارة المحلية .

مال حر

وهو مجموع ضريبة الخراج وضريبة الكشوفية والفائض ، وهو المقرر أصلا على الأطيان أو الضرائب القانونية ، يدفعها الفلاحون للملتزمين وهؤلاء يدفعون الميرى والكشوفية ، وما بقى فهو لهم

مال ميرى

أو « الميرى» فقط : ضريبة الخراج وهى المخصصة أصلا للسلطان . وضريبة الكشوفية وهى مخصصة للبيك أو الكاشف حاكم المديرية .

متفرقة

فى الأصل التركى القديم كانوا أصحاب نوع من الاقطاعات وحدمتهم حفظ القلاع الخارجة عن مصر من جهة الشرق مثل العريش وغيره . ومن جهة الشمال مثل الاسكندرية ودمياط وأبو قير ومن الوجه القبلى مثل أسوان وأبريم ..

محتسب

أو أمين الاحتساب : وظيفته مراقبة الأسواق والتفتيش على الباعة والتجار لمنع وقوع الغش فى المعاملات .

وكان المحتسب من الجاوشية — أى لم يكن من المتفقهين فى الدين كما هو الأصل فى الحسبة كما عرفها الصدر الأول من المسلمين .

محلول

من الاصطلاحات الهامة فى ذلك العهد ، تطلق على حصة الالتزام وعلى الوظيفة اذا مات صاحبها فيعاد منحهما من جديد نظير الحلوان .

الادارة الحكومية المختصة بالمحمل (الآن دار الكسوة) .

مرابط

كثيرة الذيوع عند المغاربة ، وتطلق على الأولياء الصالحين والشيوخ المجاهدين وقد قامت لهم دولة بالغرب « دولة المرابطين » .

مزاريق

الرماح .

مشايخ البلد

العمد : وشيخ البلد لقب كان يعطى لكبير المماليك فى ذلك العصر فى ابان سطوتهم وهو بمثابة أمير قصر .

مشد

خدام (خفير) تحت يد قائمقام وهو الذى يحضر الفلاحين الى الديوان فى وقت طلب المال وعليه القيام فى سائر خدمة قائمقام .

مصالحات

دفع الناس بدل الشىء أموالا .

مضاف

زيادة ثانية على المال الميرى . وكان تحصيله على موسمين : صيفى وشتوى .

مضرب النشاب

مكان الرماية . وفى حى « جاردن سيتى » بالقاهرة شارع لايزال يحمل هذا الاسم .

مكتوبجى

الذى يحمل الرسالة .

مكوس

ضريبة الجمارك .

ملتزمون

هم الملاك الذين يأخذون القرى « التزاما » ويتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه على أن يتكلفوا للحكومة بدفع نصيبها من الضرائب .

مملوك

اسم مفعول من ملك ، ومعناه المقتنى ملكا ، أى الرقيق . على أنه يجب التمييز بين هذا النوع من

المماليك الذين يتخذهم « أساتذتهم » جنداً وبين خدمة المنازل الذين يسمون عبيداً .

مهاترة

المهاترة جمع مهتر . و « المهتر » فى اللغة التركية هو رجل الموسيقى . ويضرب المهاترة النوبة — أى يعزفون على آلاتهم الموسيقية — فى أوقات معينة : كضرب النوبة عند شروق الشمس أو غروبها مثلا .

مهردار

حامل خاتم الباشا .

مهم

حفلة .

موسقو

أى الروس (موسكو) .

ميرى مال الكشوفية

هو ما يدفعه الكشاف للحكومة .

نجاب

حامل الخبر .

نقاير

طبل .

نوبة

يقال يضربون النوبة : أى يعزفون على الآلات الموسيقية فى وقت معين .

والى

كان « الوالى » أو « الباشا » هو نائب السلطان فى حكم البلاد ، فكان يمثله ويبلغ أوامره لرجال الحكومة ويراقب تنفيذها وله الرياسة على عمالها ، على أن سلطته محدودة مقيدة ... ذلك أن السلطان سليم خشى لبعد مصر عن مركز السلطنة أن يطمح ولاتها الى الاستقلال بها والخروج على حكومة الآستانة ، فجعل مدة الوالى سنة واحدة ، تنتهى ولايته بنهايتها ما لم يصدر فرمان بتجديدها .

أما اذا أطلق لفظ « الوالى » على حاكم أى جهة من الجهات ، فكان يقصد به وظيفة قريبة من وظيفة « الحكمدار » فى أيامنا . وقد كان بعاصمة الديار حين دخول الفرنسيين ثلاثة « ولاة » : واحد للقاهرة ، وآخر لبولاق ، وثالث لمصر العتيقة . وكان الولاة الثلاثة تحت رياسة أغا الانكشارية . ثم اصبحت لوالى القاهرة رياسة على زميليه ، وكان له — دونهما — مرتب ثابت فى الميزانية ، وكان يقوم أيضا بوظيفة حاجب الديوان ، وكان عليه الاشراف على جرف الخليج الناصرى .

وجاقات

« الوجاق » فى الاستعمال العربى الدارج هو الموقد . وقد كان يطلق « الوجاق » أو « الأوجاق » على الطائفة من الجند . وكان يقال للجندى « وجاقلى » ويجمع على « وجاقلية » .

وكانت طوائف الجند لذلك العهد سبعة « وجاقات » ، هى : المتفرقة ، وجاوشان ، وجمليان ، وتفكشيان ، وجراكسة ، ومستحفظان ، وعزبان (انظر كل لفظ فى موضعه من هذا البيان) .

وكانت هذه الطوائف من الجند هى العنصر الفعال فى حكومة مصر .

وقف

يشمل الأملاك المحبوسة أصلا على المساجد وأعمال البر والخير ، وقد انتشر الوقف فى العصر العثمانى لأنه كان الوسيلة التى يأمن بها الملاك على أملاكهم من عسف المماليك ، فعمدوا الى الوقف يحبسونه على جهة من جهات البر والاحسان ، ويجعلون لأبنائهم أو من يوصون اليهم من ذوى نسب أو صلة أو خدمة ، حق الانتفاع بالأرض بعد وفاتهم فيجد الموقوف عليهم من ريعها غلة ثابتة لا تمتد اليها مطامع المماليك بالسلب والاغتصاب .

يسق

مكان الاعتقال .

ينكجرية

هم طائفة من الجند تسمى أحيانا بالانكشارية (انظر انكشارية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

■ يشرف قطاع النشر والتسويق بمؤسسة « دار الشعب » للصحافة والطباعة والنشر - أعرق دور الطباعة والنشر فى مصر والوطن العربى - أن تقدم للقراء الكرام نخبة مختارة من إصداراتها فى مختلف مجالات الثقافة الاسلامية الرفيعة والمتميزة والابداع الأدبى والثقافى والعلمى والتاريخ المصرى القديم والمعاصر وأمهات الكتب والتفاسير والأدب التربوى المصور للطفل وكل ما يهم القراء والأسرة المصرية والعربية والدارسين والمحققين والباحثين عن مصادر موثوقة تخدم الحياة والتقدم بزاد ثقافى تربوى وحضارى لا ينفذ .

مع تحيات قطاع النشر والتسويق

- المصحف المفسر بالمقدمة ..
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ..
- تفسير القرطبى .. [الجامع لأحكام القرآن]
- الموطأ ....
- فتح المبدى .. [شرح مختصر الزبيدى]
- تفسير الجلالين .
- تفسير الألوسى .
- التيسير [خلاصة تفسيرابن كثير] .
- صحيح البخارى .
- صحيح مسلم . [بشرح النووى] .

■ رياض الصالحين ..

[من كلام سيد المرسلين] .

■ المعجم المفهرس لألفاظ

القرآن الكريم .

■ من أنباء الرسل .

■ دائرة المعارف الإسلامية

■ أدب الدنيا والدين .

■ الزواجر عن اقتراف الكبائر .

■ مكاشفة القلوب .

■ يوميات العقاد .

■ دلائل النبوة .

[ومعجزات الرسول ﷺ] .

■ مقدمة ابن خلدون .

■ صفة الجنة وأهلها .

[فى الكتاب والسنة] .

■ التراث العربى الإسلامى .

■ الإسلام ورعايتة للطفولة

■ تبويب آى القرآن الكريم .

[من الناحية الموضوعية

■ فضائل وآداب وأحكام

القرآن الكريم .

■ عبقريات العقاد

■ الموسوعة الثقافية

■ إحياء علوم الدين .

■ العبادة .

[أحكام .. وأسرار

■ الأغانى .

[لأبى فرج الأصيهانى] .

■ ألف ليلة وليلة .

- مع أسماء المصطفى
- شروق الإسلام .
- نسمات إيمانية .
- الحب والشعر فى حياة ابن أبى ربيعة
- العقاد ومعاركه فى السياسة والأدب
- الإنتصارات العربية العظمى فى صدر الإسلام .
- تخطيط الموارد السياحية .
- جرائم تهريب النقد .
- فن التفصيل والحياكة .
- لك يا سيدتى ..
- أركان الإسلام .
  [فى خمسة كتب للإطفال] .
- عمرو فى مصر .
- روضة الأولاد والبنات .
- إرسم..ولون .
- الإسلام ورسوله فى فكر هؤلاء ..
- العربية فى الإعلام وأخطاؤها الشائعة .
- من آخر كلمات العقاد .
- التحديات التى تواجه العالم الإسلامى
- مكافحة الإرهاب .
- أبطال الكفاح الإسلامى المعاصر .
- القصص الدينى فى مسرح الحكيم .
- عودة الإبن الضال .
- فن تربية الطفل .
- الأساس فى تفصيل ملابس السيدات .
- راية الإسلام .
  تعلو عمان .
- حكايات الأصدقاء .
- ضحك .. ولعب .. وجد

عزيزي القارئ

نرحب بك قارئاً ومتابعاً لإصداراتنا المتعددة بكبرى مكتبات التوزيع بعواصم محافظات جمهورية مصر العربية .. والوطن العربي وزائراً لمكتبتنا بالمركز الرئيسي لمؤسسة دار الشعب .

٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة

مع تحيات

رئيس قطاع النشر والتوزيع

سعد قنديل